

سِفْر التاريخ اليهودي

اليهود .. تاريخهم . عقائدهم
فرقهم . نشاطاتهم . سلوكياتهم
الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية

العبرانيون والإسرائيليون . الموسويون واليهود . يعقوب والرحيل . الهكسوس . موسى . أخناتون والتوحيد

إبراهيم . القرآن والعبرية . النظرية السامية . آدم وجنته

تشتت اليهود . الخزر . اليمن . الجزيرة العربية . الحبشة . الأشكناز . السفارد . التلمود . القراءون . السنهدرين

اليهود والرومان . الفرس الإخمينيون . البابلي

بناي بريت

بروتوكولات حكماء صهيون

الماسونية

رجا عبد الحميد عرابي

تنويهٌ هامٌّ

من أجل تواصُل أكثر مع السَّادة القُرَّاء ، فقد خَصَّصْنَا آخر (24) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدَّار ؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات الدَّار ، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتْهُ الدَّار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عامَّاً عمَّا تنشُرُهُ الدَّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامَّةً إلى الخطِّ الذي تنتهجُه الدَّار ، وهذا - بلا شَكٍّ - سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنٍّ وتدبُّر ، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحَظَاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها دارُ الأوائل .

التَّاريخ اليهُودي

اليهُود

تاريخهم - عقائدهم - فِرَقهم - نشاطاتهم - سُلُوكيَّاتهم

الحَرَكَة الصَهيُونيَّة - القضيَّة الفلسطينيَّة

دراسة نَقْديَّة موضُوعيَّة

الكتاب:سِفْر التَّاريخ اليهُودي
اليهود تاريخهم عقائدهم
فرقهم نشاطاتهم سلوكياتهم
الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية
تأليف : رجا عبد الحميد عرابي

الناشر : الأوائل للنَّشر والتَّوزيع
سُوريَّة . دمشق الإدارة : ص . ب 3397
هـاتـف : 00963 11 2233013
فـاكس : 00963 11 2460063
البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

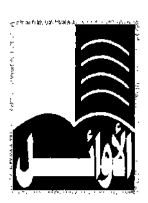
التَّوزيع : دمشق ص . ب 10181
البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com
جـوَّال : 00963 93 411550
00963 93 418181

موقع الدَّار على الإنترنت :
www.daralawael.com

قرؤوا فوصلوا
لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأُولى
تشرين الثاني 2004 م
الطَّبعة الثانية
شباط 2006 م

عدد النسخ المطبوعة في كل طبعة 1000 نسخة



تصميم الغلاف : هلا خلوصي
الإشراف الفنِّي : يزن يعقوب
التَّدقيق اللُّغوي : إسماعيل الكردي

الفهرس

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السّابع :

الفصل الثّامن :

الفصل التّاسع :

الفصل الثّالث:

الفصل الثّاني:

الفصل الثّالث:

الفصل الرّابع:

الفصل الخامس:

الفصل السّادس:

الإهداء

إلى شُهداء فلسطين من أبناء فلسطين وأبناء الأُمَّة العَرَبيَّة والإسلاميَّة.

إلى الذين رَوَوا أرض فلسطين بدمائهم الزّكيَّة الطّاهرة.

إلى الذين حَمَلوا شُعلة النُّور ؛ ليُبدِّدوا ظُلُمات ومظالم هذه الأيَّام.

إلى هؤلاء الذين جادوا بأرواحهم ، لتبقى فلسطين خالصة للعَرَب والمُسلمين.

أُهدي كتابي هذا عن "اليهُود".

راجياً من الله أنْ أكون في عداد هؤلاء الشُّهداء الأبرار ، وأنْ يضمَّني تُراب فلسطين الزّكيّ الطّاهر.

والله سميع قريب مُجيب.

رجا عبد الحميد عُرابي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

صدق الله العظيم

(الإسراء 007)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيِّدنا مُحَمَّد، الذي عانى الكثير من عَنَت اليهُود ومُؤامراتهم، والتَّنكُّر لكُلِّ عهد، ونقض كُلِّ ميثاق، ومُحاولاتهم العديدة للقضاء عليه، وعلى رسالته السَّمْحَة وهي في مَهْدها، ولكنَّ الله نَصَرَهُ عليهم، فانتصر الحقُّ، وزهق الباطل.

ونحنُ الآن - في الوطن العَرَبيِّ عامَّة، وعَرَب فلسطين خاصَّة - نُعاني - مُنذُ بداية القرن العشرين، وحتَّى يومنا هذا - من مُؤامرات اليهُود المُتلاحقة، واعتداءاتهم المُستمرَّة. وقد سخَّروا دُول العالم الغربيّ لخدمتهم، وخدمة أهدافهم، والوُقُوف مع باطلهم في اغتصاب أرض فلسطين، وتشريد شعبها، والتّنكيل به، وسَلْب حُقُوقه في أرضه ووطنه، ومُلاحقته في كُلِّ مكان خارج فلسطين، والبطش به، والتّحريض عليه إذا حاول المُطالبة بحُقُوقه المُغْتَصَبَة، أو الدّفاع عنها، وإظهاره بمظهر الإرهابيّ الخارج على القانون، والمُخرِّب الذي ينشر الخوف والفزع في العالم.

ليس هذا فقط، بل إنَّ اليهُود - بقيادة الصّهيُونيَّة وقوى الغرب بزعامة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، التي سخَّرتها الصّهيُونيَّة لخدمة أهدافها وتحقيق أغراضها - تعمل كُلُّها - بكُلِّ ما في وُسعها من قُوَّة ونُفُوذ وسيطرة - للوُقُوف ضدَّ أماني الأُمَّة العَرَبيَّة في الوحدة والحُرِّيَّة، وإثارة النّعرات الدِّينيَّة والطّائفيَّة والإقليميَّة في الوطن العَرَبيّ، ليبقى مُمزَّقاً مُشَتَّتاً ضعيفاً، يُعادي بعضه بعضاً، ويقتل فيه الأخ أخاه.

إنَّ هذه المآسي التي عانى منها شعبنا في فلسطين والأقطار العَرَبيَّة المُجاورة لفلسطين والأُمَّة العَرَبيَّة جمعاء دفعني للقيام بتأليف هذا الكتاب عن اليهُود عبر التّاريخ، ومُعتقداتهم،

وكُتُبُهم، وأقسامهم، وسُلُوكيَّتهم الخاصَّة بهم، والنَّابعة من مُعتقداتهم الدِّينيَّة، ليكون بين أيدي القُرَّاء العَرَب، ليعرفوا ـ من خلال هذا التَّاريخ الأسود ـ اليهُودَ على حقيقتهم، ويُدركوا الحقد اليهُوديّ الأسود على كُلِّ مَنْ ليس يهُوديّاً، ويفضح أساليبهم الشّائنة غير الأخلاقيَّة في الوُصُول إلى أهدافهم؛ إذْ إنَّ الغاية عندهم تُبرِّر الوسيلة، مهما كانت قذرة في كُلِّ تصرُّفاتهم.

وسنرى ـ من خلال هذا التَّاريخ البغيض ـ أنَّنا لسنا وحدنا الذين اكتووا بنار الحقد اليهُوديّ، ومُؤامراته البشعة، بل إنَّ مُعظم الشُّعُوب التي عاش اليهُود بين ظهرانيها ذاقت منهم الأمَرَّيْن، واكتوت بنار حقدهم، وخياناتهم، ومُؤامراتهم. ولكنَّ عبقريَّة اليهُود الشّيطانيَّة كانت ـ دائماً ـ تعمل ـ بمُختلف الوسائل والأساليب ـ على محو آثار الطّعنات التي تُسدِّدها من ذاكرة ضحاياها، فتارةً تشتري الضّمائر الرّخيصة؛ لتبرير جرائمها، وأُخرى تبتاع الأقلام المأجورة؛ لتنبري للدّفاع عنها، وإسدال السّتار على مخازيها، أو تعمل على إخفاء عواقب آثامها، وذلك بتشويه الحقائق، وتزوير التّاريخ، وطَمْس معالم جرائمها. وبفضل هذه الأساليب الجُهنَّميَّة؛ عاش اليهُود ـ عبر القُرُون ـ بأمان، يعملون بسريَّة تامَّة؛ ليصلوا إلى أهدافهم البعيدة، وفي مُقدِّمتها السّيطرة على العالم أجمع، وتسخير شُعُوبه لخدمة مآربهم وأطماعهم، إلاَّ إذا افتُضح أمرهم، وكُشفت أهدافهم، فعندها يتعرَّضون لأشدِّ أنواع الانتقام، وأبشع المذابح، كما حَدَثَ لهم في رُوسيا القَيْصَريَّة، وبُولُونيا، وعلى أيدي ألمانيا النّازيَّة، وقديماً؛ على أيدي الآشوريِّين والبابليِّين، ثُمَّ السّلوقيِّين (اليُونان)، والرُّومان، كما سنرى عند التَّحدُّث عن تاريخ اليهُود.

وفي كُلِّ مراحل حياتهم وتاريخهم ـ وأينما وُجدوا ـ كانوا يتقرَّبون من الحُكّام والطّبقة الحاكمة؛ لتسخيرها لخدمة مصالحهم، وتحقيق أهدافهم بشتَّى الوسائل والإغراءات؛ تارةً بالمال، أو النّساء، أو بتزويج بناتهم منها (كما حَدَثَ في بريطانيا)، أو بإدخال الحُكّام في دينهم (كما فعلوا بمُلُوك الخَزَر)، وتارةً بالتّهديد والوعيد، إذا لم تُفلح وسائل الإغراء، لذلك كان لهم دورٌ كبيرٌ في تاريخ الأُمم والشُّعُوب رغم قلَّتهم، فعددهم القليل لا يتناسب مع هذا الدّور الفعّال في تاريخ العالم، وقد ساعدهم على ذلك تكتُّلهم، وتضامنهم الشّديد، وتعصُّبهم المقيت، وانغلاقهم على أنفسهم، واعتقادهم بأنَّهم شعب الله المُختار، وأنَّ كلَّ ما عداهم من البشر هُو دُونهم، ومُسخَّر لهم، ولخدمتهم.

ومُنذُ أوائل القرن التّاسع عشر؛ أخذت تتكرَّس شيئاً فشيئاً السّيطرة الماليَّة اليهُوديَّة على أُورُوبا، وخاصَّة الدُّول الاستعماريَّة منها، وذلك عن طريق مُؤسَّساتهم المصرفيَّة والماليَّة الضّخمة (مثل عائلة رُوتشيلد)(*). ثُمَّ أخذوا بالسّيطرة التّدريجيَّة على الرّأي العام الأُورُوبيّ، ثُمَّ العالميّ، وذلك عن طريق سيطرتهم على دُور النَّشْر، والصَّحافة، وبالتّالي؛ أخذوا يُوجِّهون سياسات الدُّول الأُورُوبيَّة لخدمة مآربهم وأهدافهم، وساعدهم على ذلك انتشار أفكار الثّورة الفرنسيَّة في الحُرِّيَّة والمُساواة والعدالة والدّيمُقراطيَّة في أُورُوبا، وخاصَّة الغربيَّة، وأمريكا الشّماليَّة، وأصبح بمقدورهم أنْ يُوصلوا إلى مراكز القيادة والحُكْم مَنْ يُريدون من المُتعاونين معهم، والمُتعاطفين مع أهدافهم، والذين يصلون إلى الحُكْم دُون مُساعدتهم لا يستطيعون الخُرُوج عن إرادتهم؛ لسيطرتهم الماليَّة والصّحافيَّة ونُفُوذهم القويّ في مُؤسَّسات الدّولة؛ إذْ يجدون أنفسهم مُحاصرين بالمُتعاطفين مع اليهُود، ولا يستطيعون إلاَّ أنْ يسيروا في ركاب اليهُود، ويُنفِّذوا ما يُريدون. [وهذا ما نراه في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، فالذين وصلوا إلى سدَّة الرّئاسة بدَعْم من اليهُود، أو بدُون دَعْمهم، كانوا يقفون على مُستوى واحد في مُساعدة (إسرائيل) ودعمها].

وفي أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وبعد أنْ اكتملت سيطرة اليهُود الماليَّة والاقتصاديَّة والسَّيطرة على الرّأي العام الغربيّ، وأصبحوا المُحرِّك الحقيقي الخفيّ لأحداث العالم، بدأت الحَركَة الصّهيُونيَّة بالظُّهُور، وغايتها أنْ يكون لليهُود وطن ودولة يستطيعون بواسطتها أنْ يكون لهم القُوَّة العسكريَّة التي كانت تنقصهم، ليُحكموا سيطرتهم على العالم. وقد تحقَّق هذا لليهُود الآن، بوُجُود (إسرائيل) التي لا تخفى على أحد قُوَّتها العسكريَّة الضّخمة، وقُدرتها الفائقة في الصّناعات الحربيَّة، وامتلاكها أسلحة الدّمار الشّامل، وخاصَّة الرُّؤُوس النّوويَّة، والصّواريخ اللاَّزمة لإيصالها إلى أيِّ مكان يُريدون تدميره.

وبالفعل؛ اقترب اليهُود الآن من السّيطرة على العالم، فهُم يُسيطرون على الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة نتيجة لنُفُوذهم المالي، وسيطرتهم على الرّأي العامِّ، وتكتُّلهم الفريد من

(*) للتَّوسُّع في موضُوع العائلات العالميَّة التي سيطرت على اقتصاد العالم؛ يُراجَع الكتاب الهامُّ (الحُكم بالسِّرِّ التَّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سرّاً؟!) للمؤلِّف الأمريكي الشّهير جيم مارس، ترجمة مُحمَّد مُنير إدلبي، دار الأوائل، دمشق، ط1، وط2، 2003، وط3، 2004.

نوعه فيها؛ حيثُ تكوَّنت مجموعة الضَّغط الصَّهيُونيّ، أو ما يُسمَّى باللُّوبي الصَّهيُونيّ، الذي يُسخِّر طاقات أمريكا السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة لمصلحة اليهُود ودولتهم إسرائيل، ويمنع الحُكُومة الأمريكيَّة من مُمارسة أيِّ نوع من الضُّغُوط على (إسرائيل)، ويجعل هدف السِّياسة الأمريكيَّة في الشّرق الأوسط هُو حماية (إسرائيل)، وأمنها، ورعايتها، وجعلها أقوى دولة فيه، بل أقوى من دُوله مُجتمعة.

والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الآن هي زعيمة المُعسكر الغربيّ، بل زعيمة العالم، والقُطب الأوحد فيه، بعد تفتُّت الاتِّحاد السُّوفياتي. ولا يخفى على كُلِّ ذي بصيرة دور اليهُود والصّهيُونيَّة العالميَّة في إنهاء دور الاتِّحاد السُّوفياتي كقُوَّة عالميَّة جبَّارة؛ لأنَّه كان يقف إلى جانب الحقِّ العَرَبيّ، وكان المُورِّد الأكبر للسّلاح للدُّول العَرَبيَّة، بالإضافة إلى وُقُوفه ضدَّ هجرة اليهُود السُّوفييت إلى (إسرائيل). (زدْ على ذلك كُلِّه نُفُوذ اليهُود الواضح في أُورُوبا الغربيَّة، وخاصَّة بريطانيا وفرنسا).

وسأضرب فيما يلي مثالاً واضحاً على سيطرة اليهُوديَّة العالميَّة، حتَّى لا يشعر القارئ الكريم أنَّني أُبالغ في قولي: إنَّ اليهُود يقتربون من السّيطرة على العالم، وإحكام قبضتهم عليه، فالكُلُّ يعرف أنَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة - ومن ورائها حلف الأطلسيّ - تقف في وجه أيِّ دولة تُحاول امتلاك الأسلحة الذَّرِّيَّة، وتقف ضدَّ انتشار هذه الأسلحة الفتَّاكة. ومن ذلك وُقُوف الولايات المُتَّحدة ضدَّ مُحاولات باكستان امتلاك هذا السِّلاح، والضَّغط عليها بشتَّى الوسائل، لمنعها من ذلك، رغم أنَّها حليفة أمريكا، وأنَّها بامتلاكها هذا السّلاح تُحاول أنْ تخلق توازناً ذرِّيّاً مع جارتها الهند، التي تملك هذا السّلاح. هذا؛ وإنَّ من أسباب تحطيم القُوَّة العسكريَّة العراقيَّة هُو اقتراب العراق من امتلاك هذا السّلاح (والآن؛ احتلَّت أمريكا العراق، وأمن إسرائيل هُو الهدف الأوَّل من وراء ذلك). والآن؛ الكُلُّ يسمع ما تقوم به الولايات المُتَّحدة من إثارة ضجَّة عالميَّة ضدَّ كُوريا الشّماليَّة لمُحاولتها امتلاك هذا السّلاح، وهي تُحاول بكُلِّ الوسائل المُتاحة لها أنْ تُجبر كُوريا الشّماليَّة على التَّخلِّي عن برنامجها النّووي، وتقبل بإخضاع مُنشآتها النّوويَّة لإشراف دولي، لمنعها من صُنْع وإنتاج السّلاح النّووي، وكذلك - الآن - بما تُمارسه أمريكا من الضّغط على إيران، لإخضاع مُنشآتها النّوويَّة للمُراقبة؛ لمنعها من صُنع الأسلحة الذَّرِّيَّة.

هذا؛ بالإضافة إلى العمل بشتَّى الوسائل لإقناع دُول: أُوكرانيا، ورُوسيا البيضاء، وكازاخستان - التي ورثت عن الاتِّحاد السُّوفياتي بعد تفتُّته ترسانة هامَّة من الأسلحة النّوويَّة - بالتَّخلِّي عن هذه التّرسانة، مُقابل تعويضها مليارات الدُّولارات، خوفاً من انتشار هذه الأسلحة الرّهيبة، ووُقُوعها بأيدي دُول لا تسير بركاب الولايات المُتَّحدة.

أمّا (إسرائيل)؛ فالكُلُّ يعرف أنَّها تملك ترسانة هائلة من أسلحة الدّمار الشّامل، وعلى رأسها السّلاح النّووي، وبحوزتها الآن مئات الرُّؤُوس النّوويّة، وهي بإمكانها - بفضل تقدُّمها التّكنُولُوجي - أنْ تصنع حتَّى القنابل الهيدرُوجينيَّة، وأكثر من ذلك، فهي تملك الصّواريخ بعيدة المدى، القادرة على إيصال أسلحة الدّمار الشّامل إلى أيَّة مدينة في الوطن العَرَبيّ، بل إلى مُعظم أقطار العالم القديم بقارَّاته الثّلاث: آسيا، وأفريقيا، وأُورُوبا، وأنَّها تملك التّقنية اللاَّزمة لكُلِّ ذلك. ومع ذلك؛ لا تجرؤ أمريكا ولا الغرب على فرض الرّقابة والتّفتيش على مُنشآت (إسرائيل) الذَّرِّيَّة، ولا أحد لا من الغرب ولا من الشّرق يُطالب أو يُحاول وَضْع مُنشآت (إسرائيل) الذَّرِّيَّة تحت المُراقبة والتّفتيش، وكأنَّها فوق القانون الدّولي. وكم من القرارات والإدانات التي صَدَرَت من مجلس الأمن وهيئة الأُمم المُتَّحدة ضدَّ (إسرائيل) لم يُنَفَّذ منها شيء، وبقيت حبراً على ورق. كُلُّ ذلك بسبب نُفُوذ (إسرائيل) الدّولي، وسيطرتها على أصحاب القرار والقُدرة على التّنفيذ في العالم.

والآن؛ فإنَّ هذا الإصرار الشّديد من الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة وحليفتها بريطانيا على احتلال العراق والسَّيطرة على ثرواته، رغم المُعارضة الشّديدة من مُختلف شُعُوب العالم وحُكُوماته، إنَّ وراء هذا الإصرار العجيب هُو الصّهيُونيَّة العالميَّة، ومصالح (إسرائيل) التي تدفع أمريكا بقُوَّة للقضاء على العراق، واحتلاله، وتجزئته؛ لينفتح الباب أمام (إسرائيل) للسّيطرة على الشّرق الأوسط بكامله، واستغلال خيراته وشُعُوبه.

هذه حال اليهُود و(إسرائيل). أمَّا حالنا نحنُ العَرَب؛ فلا يخفى على أحد، وغنيٌّ عن البيان والشّرح، فقد أصبح كيدنا بيننا، وانفرط عقدنا حتَّى المظهر الأخير من التّضامن العَرَبيّ في مُواجهة (إسرائيل)، وهُو مُقاطعتها، فقد أخذ بالانفراط بسبب تهافت بعض الدُّول

العَرَبِيَّة على إنهاء هذه المُقاطعة قبل وُصُول العَرَب إلى حُقُوقهم المُغتَصَبَة، والتي تُؤيِّدها الشّرعيَّة الدّوليَّة، وقرارات مجلس الأمن الدّولي، وهيئة الأُمم المُتَّحدة المُتلاحقة.

وقد أردتُ ـ بهذا الكتاب ـ أنْ يعرف أبناء الأُمّة العَرَبِيَّة حقيقة اليهُود، وأهدافهم، وأطماع (إسرائيل) في الأقطار العَرَبِيَّة، وسُلُوكيَّتهم عبر التّاريخ في الماضي والحاضر، والنّابعة من تعاليم دينهم، وتوجيهات حُكَمَائهم. وذلك مُساهمة منِّي في توعية أبناء أُمَّتي العَرَبِيَّة للأخطار المُحدقة بهم، وأنَّ طريق العَرَب الوحيد للوُقُوف أمام المدِّ اليهُوديّ الصّهيُونيّ هُو التّفاهم العَرَبيّ، ونبذ الخلاف والفرقة والخصام، وإحلال الوئام والتّضامن والتّكاتف بينهم، للوُقُوف أمام أطماع اليهُود والصّهيُونيَّة في بلادهم، إذا لم يكن للوحدة من سبيل بين أقطارهم؛ لأنَّ كُلَّ الأقطار العَرَبِيَّة مُستهدَفَة، فالبعيدة والقريبة من (إسرائيل) سواء في التَّعرُّض لأطماع وأخطار الكيان الصّهيُونيّ في فلسطين.

ويتألَّف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام هي:

القسم الأوّل: ويتحدَّث عن تاريخ اليهُود، وتشتُّتهم، وانتشارهم في العالم.

القسم الثّاني: ويتحدَّث عن كُتُبهم الدِّينيَّة، وعقائدهم، وفرَقهم، وطوائفهم، قديماً وحديثاً، وتعاليم حُكَمَائهم، ونشاطاتهم السِّياسيَّة، وسُلُوكيَّتهم، وأخلاقهم.

القسم الثّالث: ويتحدَّث عن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة.

وسأكون في كُلِّ ذلك مُخلصاً للحقيقة التّاريخيَّة، مُتجرِّداً عن كُلِّ هوى، رغم أنِّي من الملايين الذين اكتووا بنار الصّهيُونيَّة، وذاقوا ما ذاقوا من صنُوف الهوان، والطّرد، والتّشريد من وطنهم على يد الصّهيُونيَّة، ومَنْ وقف على باطلها، وحقَّق لها أهدافها، ولا يزال.

وأخيراً؛ لابُدَّ لي من تقديم الشُّكر الجزيل والامتنان الكبير لكُلِّ مَنْ قدَّم لي يد المُساعدة والعون في تأليف هذا الكتاب، وإخراجه لجماهير القُرَّاء العَرَب الكرام.

وفي الختام؛ أرجو الله تعالى أنْ أكون بهذا العمل قد وُفِّقتُ إلى ما فيه خير أُمَّتي العَرَبِيَّة ووطني الكبير. والله وليُّ التّوفيق.

القسم الأوَّل:

تاريخ اليهُود
وانتشارهم في العالم

الفصل الأوَّل:

التّمهيد

قبل التَّحدُّث عن التّاريخ القديم لليهُود، لابُدَّ من إعطاء صُورة واضحة عن الخريطة الجَغرافيَّة والسُّكَّانيَّة والسِّياسيَّة للشّرق الأدنى (أو الشّرق الأوسط كما يُدعى الآن)، وخاصَّة بلاد الشّام والرّافدَيْن (العراق)، والجزيرة العَرَبيَّة، عند ظُهُور سيِّدنا إبراهيم - عليه السّلام - في أور جنوب العراق حوالي القرن التّاسع عشر قبل الميلاد، الذي يزعم اليهُود أنّه جدّهم الأعلى.

إنَّ أحدث التّقديرات حول عُمر الإنسان على الأرض تزعم أنَّ الإنسان ظهر على سطح الأرض قبل حوالي مليون سنة تقريباً؛ أيْ مُنذُ أواخر الزّمن الجيُولُوجيّ الثّالث، وامتدَّت حياته على طُول الزّمن الجيُولُوجيّ الرّابع[1].

وأهمُّ ما يُميِّز الزّمن الجيُولُوجيّ الرّابع هُو انتشار الجمُوديّات الكُبرى على سطح الأرض، حتَّى يُطلق عليه عصر "الجمُوديَّات". فمُنذُ أواخر القرن الثّالث الجيُولُوجيّ (دور البليوسين) اكتسحت الجمُوديَّات شمال قارَّة آسيا وأُورُوبا وأمريكا الشّماليَّة، مُتقدِّمة من القُطب الشّمالي، زاحفة نحو الجنوب حتَّى درجة عرض 50 شمالاً تقريباً، مُكوِّنة قُبَّعة جليديَّة هائلة.

ولم يكن هذا الغطاء الجليدي الهائل مُستمراً بانتظام، بل اعترته وقفات وتراجعات، ثُمَّ هجمات مُتقطِّعة أهمّها ثلاث هجمات جليديَّة رئيسيَّة. وخلال الهجمات الجليديَّة تتبرَّد الأرض، وتنخفض درجات الحرارة، وبالتّالي؛ يختلف توزُّع الحرارة والبُرُودة على سطحها. فالبلاد المداريَّة والصّحراويَّة التي تلفحها الشّمس، وتُسجَّل فيها أعلى درجات الحرارة في العالم الآن، والتي تمتدُّ على طُول مدار السّرطان 5. 23 درجة شمالاً، من صحراء تارفي غرب الهند إلى صحاري بلوخستان وإيران وصحارى الجزيرة العَرَبيَّة، إلى

---

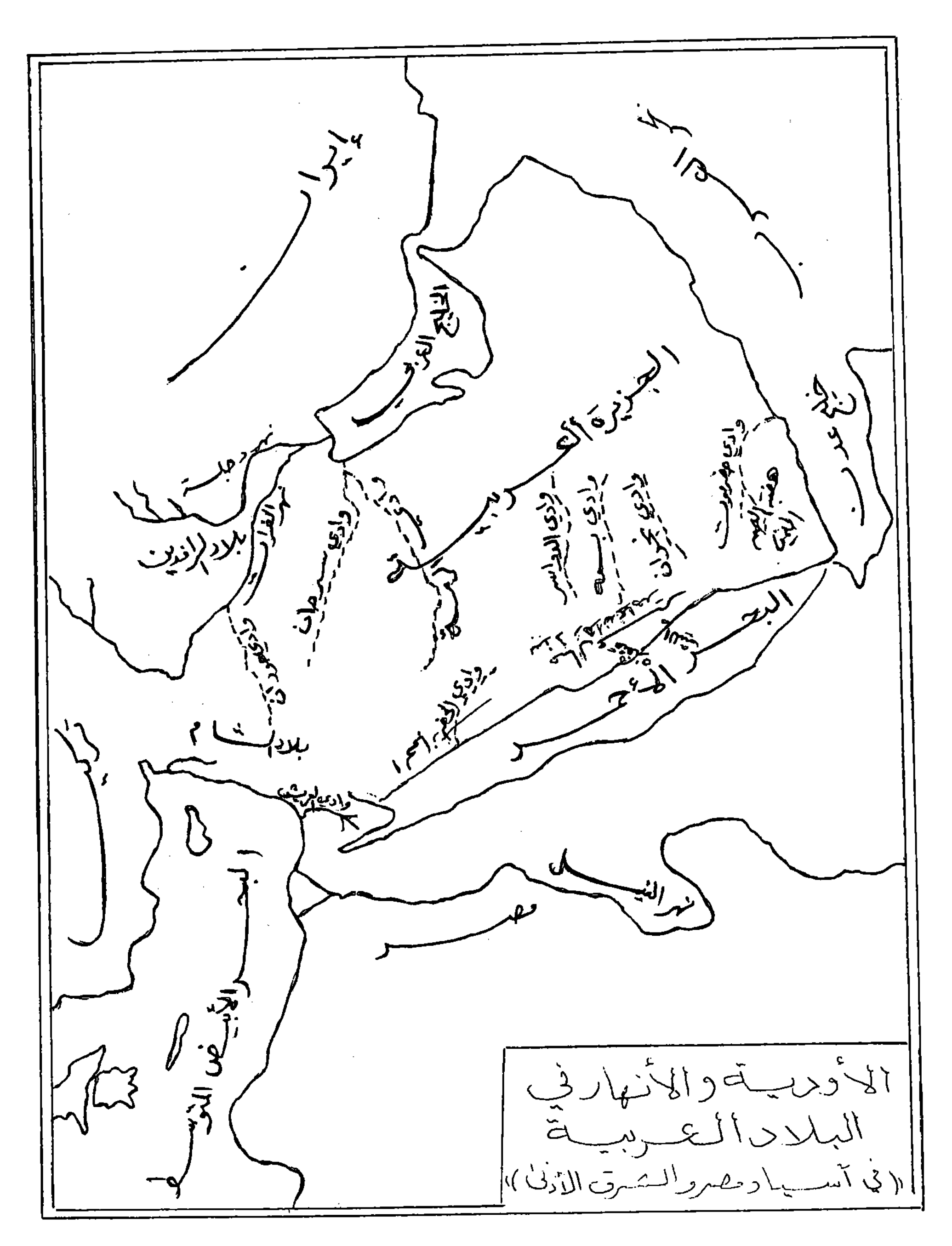
(1) ارتقاء الإنسان، 14 - 15، الجَغرافية الطّبيعيَّة، عُمر الحكيم، ص 65.

الصّحراء الكُبرى الأفريقيَّة حتَّى المُحيط الأطلسيّ. كانت هذه الصّحارى القاحلة والشّديدة الحرارة والجفاف ذات مناخ مُعتدل رطب غزير الأمطار، وكانت كثيفة النّبات، كثيرة الحيوان، ؛ أيْ أنَّ هذه الأقاليم الصّحراويَّة لم يكن مناخها كما هُو عليه الآن.

فالجزيرة العَرَبيَّة في تلك الأزمنة - على سبيل المثال - سادها مناخ مُعتدل لطيف غزير الأمطار، وكان يكسوها غطاء نباتيّ كثيف من الأعشاب، وتُغطّي مُرتفعاتها الغابات المُلتفَّة، وكذلك كان حال بوادي الشّام والعراق وصحاري مصر الغربيَّة والشّرقيَّة، وكانت أودية بوادي الشّام والعراق وصحاري الجزيرة العَرَبيَّة وشبه جزيرة سيناء ومصر أنهاراً ضخمة غزيرة المياه، حفرت وعمَّقت أوديتها أثناء هذه العُصُور، فوادي الرّمَّة في الجزيرة العَرَبيَّة كان نهراً عظيماً، يبدأ قُرب المدينة المُنوَّرة، ويصبُّ في جنوب العراق، وكذلك كان وادي حضرموت نهراً غزيراً يخرج من هضبة اليمن مُتَّجهاً شرقاً، مُخترقاً بلاد حضرموت، قبل أنْ ينحرف جنوباً؛ ليصبَّ في بحر العَرَب. وكذلك كانت أودية نجران والدّواسر وبيشه، والتي كانت تصبُّ في بُحيرة عذبة عظيمة تشغل قسماً من صحراء الرّبع الخالي في جنوب الجزيرة العَرَبيَّة. وكانت أودية بوادي الشّام والعراق أنهاراً ترفد الفُرات من الغرب. أمَّا في شبه جزيرة سيناء؛ فكان وادي العريش (انظر المُصوَّر رَقْم (1) المُرفق) نهراً يخرج من مُرتفعات سيناء في الجنوب، ويتَّجه شمالاً؛ ليصبَّ في البحر المُتوسِّط جنوب غزَّة عند العريش الآن.

أمَّا الأنهار الكُبرى الحاليَّة كنهر النّيل والفُرات والدّجلة والعاصي .. إلخ؛ فكانت أكثر اتّساعاً وأغزر مياهاً عمَّا هي عليه الآن[1]. فنهر النّيل مثلاً كان أغزر من الآن بعشرات المرَّات، وكانت تحفُّ به - وخاصَّة في مصر السُّفلى والوُسْطَى - المُستنقعات التي كانت تنمو فيها نباتات المُستنقعات الكثيفة من القصب والبردي. وكذلك الحال بالنّسبة لأنهار الفُرات والدّجلة. لذلك كان الإنسان القديم يعيش بعيداً عن الأنهار والمُستنقعات وحشراتها وبعوضها، فهُو في غنى عنها لما في المناطق المُجاورة من خيرات كثيرة، ومناخ عذب، وطرائد كثيرة ومُتنوِّعة، لا سيما وأنَّه كان يعيش صيَّاداً، حتَّى بعد أنْ دجَّن الحيوانات، وأصبح راعياً، فكان في المُرُوج البعيدة عن الأنهار في مكان البوادي والصّحاري الحاليَّة مرتعاً خصباً وفيراً لحيواناته.

(1) يُؤكِّد ذلك المساطب النّهريَّة التي خلَّفتها هذه الأنهار، وخاصَّة نهر الفُرات، بعد تقلُّصها التّدريجي بعد العصر الجمُودي المطير.



مُصَوّر رَقْم (1)

مُصَوَّر الجزيرة العَرَبِيَّة

إنَّ هذه الصُّورة التي أوضحناها لبلادنا في العصر الجليدي الثّالث أخذت بالتّراجع والانحسار التّدريجي مع بداية عصر الهولوسين ؛ أيْ مُنذُ حوالي 13 ألف سنة ، وأخذت الأقاليم الصّحراويَّة المُمتدَّة حول مدار السّرطان من الهند شرقاً إلى المُحيط الأطلسيّ غرباً بالجفاف التّدريجي ، وبدأت صحاري أفريقيا الكُبرى وصحاري الجزيرة العَرَبيَّة وإيران بالظُّهُور ، وأخذت المُستنقعات التي تحفُّ بأنهار المنطقة الكُبرى كالنّيل والفُرات والدّجلة بالجفاف التّدريجي ، وبدأت أوديتها ـ أو مجاريها ـ بالتَّقلُّص ، وأخذت أدغالها بالتّراجع .

هُنا ؛ واجه الإنسان البدائي ـ الذي كان ينعم في هذه الأقاليم بأجمل وأعذب مناخ وأغزره نباتاً وأكثره حيواناً ـ أكبر تحدٍّ له على مُستوى العالم القديم كُلّه .

كان عدد البشر قليلاً جداً ، يعيش في جنَّات واسعة ، فيها كُلُّ ما يشتهي من الطّرائد والفاكهة ، وكان في سُفُوح جبال وتلال المنطقة الكثير من المغاور التي تُؤويه ، ويجد فيها الملجأ الآمن من حرِّ الصّيف ، وقرِّ الشّتاء ، والأمطار الغزيرة ، والوُحُوش المُفترسة ، وخاصَّة بعد معرفته النّار وإيقادها .

وكان الإنسان ـ قبل عصر الجفاف الرّابع ـ قد قطع مراحل كبيرة في تطوُّره وتقدُّمه ، استغرقت آلاف السّنين ، فكان قد مرَّ بمرحلة العصر الحجري القديم ، ثُمَّ العصر الحجري المُتوسِّط ، ثُمَّ الحديث ، وكان قد عرف النّار وإيقادها ، والاستفادة منها في التّدفئة ، والطّهي ، وإخافة أعدائه من الوُحُوش الكاسرة ، وعرف سَكَن الكُهُوف ، وكان قد بدأ بتدجين الحيوان والزّراعة . كُلُّ ذلك مع بداية عصر الجفاف الرّابع .

في هذه الظُّرُوف المناخيَّة الطّارئة واجه إنسان الشّرق الأدنى تحدِّي الجفاف بصبر وشجاعة ، مُستخدماً إمكانيَّاته العقليَّة التي وهبها الله له ، وميَّزه بها عن سائر المخلوقات ، وبنى ـ نتيجة هذا التَّحدِّي ـ حضارات العالم القديم على ضفاف النّيل في مصر وضفاف دجلة والفرات في جنوب العراق ، وضفاف أنهار الشّام كالعاصي والأُردُن وبردى والخابور في الجزيرة ؛ حيثُ استعاض الإنسان بمياه هذه الأنهار عن النّقص الحاصل بالأمطار ، فأزال أدغالها ، وجفَّف مُستنقعاتها ، وحَفَرَ القنوات ، وبنى السُّدُود للرّي ، وهجر ـ شيئاً فشيئاً ـ

حياة الصّيد والجمع والالتقاط، وانتقل إلى الزّراعة والاستقرار، فبنى المنازل من اللّبْن والخشب، وكوّن القُرى، والمُدُن، وأنشأ الحُكُومات؛ لتنظيم الرّي، والسّهر على الأمن الدّاخلي والخارجي، وكانت حُكُومات مُدُن في البداية، ثُمَّ توحَّدتْ، وأوّل وحدة إقليميَّة حصلت في العالم هي وحدة مصر العُليا والسُّفلى على يد الملك "مينا"؛ حيثُ نشأت أوّل دولة كبيرة مُتحضِّرة في العالم، والتي دامت أكثر من أربعة آلاف سنة، حتَّى قضى عليها الإسكندر المقدوني في عام 332 قبل الميلاد.

أمَّا في العراق؛ فأقام السُّومريُّون - أوَّلاً - حُكُومات مُدُن، كان من أشهرها مُدُن: أور، أوروك، سيبار، كيش، لاراك.. إلخ، ولكنَّها توحَّدت - فيما بعد - على يد موجات الهجرة المُتتابعة من الجزيرة العَرَبيَّة، بدءاً بالأكاديِّين، ثُمَّ العموريِّين، "بابل الأُولى"، ومن أعظم مُلُوكهم حمورابي أوَّل مشرع في العالم، وفي زمنهم ظهر إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام، ثُمَّ تلاهم الآشوريُّون، الذين توسَّعوا في إمبراطُوريَّتهم حتَّى مصر، وسبوا يهُود السّامرة (نابلس) سنة 720 قبل الميلاد، بزعامة ملكهم سرجُون الثّاني، ثُمَّ جاء الكلدانيُّون، "بابل الثّانية"، ومنهم نبوخذ نصر "بختنصر"، الذي سبى يهُود "يهُودا" في القُدس إلى بابل سنة 586 قبل الميلاد.

أمَّا في بلاد الشّام؛ فقد تجمَّع النّاس حول أودية الأنهار كغور الأُردُن؛ حيثُ نشأت أوَّل مُستوطنة زراعيَّة في العالم؛ وهي مدينة "أريحا" أقدم مدينة في العالم، مُنذُ حوالي عشرة آلاف سنة.

وقد هاجر إلى بلاد الشّام موجات من العَرَب السّاميِّين من الجزيرة العَرَبيَّة بسبب الجفاف التّدريجي، فكوَّنوا حُكُومات المُدُن المُستقلَّة مثل الكنعانيِّين في فلسطين وغور الأُردُن، والفينيقيِّين في السّاحل السُّوري، والذين تحدَّاهم البحر، فركبوه، وكوَّنوا أوَّل أُمَّة بَحْريَّة في العالم، وأتحفوا البشريَّة بأوَّل أبجديَّة اخترعها الإنسان، والأمُوريِّين الذين أقاموا ممالك ماري (قرب البُوكمال السُّوريَّة) على الفُرات، وإيبلا في سهُول سُوريَّة الشّماليَّة، ثُمَّ جاء الآراميُّون الذين استقرّوا في سُوريَّة الوُسْطَى على ضفاف العاصي، واللّيطاني، وغُوطة دمشق، وشمال سُوريَّة على ضفاف نهر الفُرات، والبليخ، والخابور، وكوَّنوا أعظم أُمَّة تجاريَّة في العالم؛ ممَّا جَعَلَ لُغتهم الآراميَّة "السّريانيَّة" تنتشر في جميع أقطار الشّرق الأدنى.

وهكذا نرى أنَّ الجزيرة العَرَبيَّة ـ مُنذُ بداية عصر الجفاف ـ كانت كمرجل ضخم تفيض منه الشُّعُوب العَرَبيَّة السّاميَّة إلى الأقطار المُجاورة : إلى العراق والشّام ومصر (عبر سيناء)، وعبر البحر الأحمر إلى الصُّومال والحبشة والسُّودان، حتَّى سواحل أفريقيَّة الشّرقيَّة.

أمَّا في اليمن؛ فبسبب المناخ المُلائم والأمطار الكافية، أقام العَرَب فيها حضارات معين وسبأ وحمير، وبنوا السُّدُود (مثل سدِّ مأرب)، وأقاموا المُدرَّجات على سُفُوح الجبال؛ لحفظ التّربة والمياه.

وفيما يلي جدول يُبيِّن الهجرات العَرَبيَّة، وأماكن استقرارها :

أ ـ العراق (بلاد ما بين النّهرَيْن):

الأكاديُّون	2800 ق . م	
العموريُّون	2500 ق . م	
الآشوريُّون	1750 ق . م	
الكلدانيُّون	1500 ق . م	(عاصرهم الآراميُّون في سُوريَّة، ويُطلق عليهم آراميُّو العراق)

ب ـ سُوريَّة (بلاد الشّام):

العموريُّون	حوالي 500 ق . م	سكنوا شمال الفُرات (مملكة ماري وإيبلا)
الكنعانيُّون		سكنوا فلسطين (يبوس، بيت شان، أريحا)
الفينيقيُّون		سكنوا ساحل سُوريَّة الأوسط (صيدا، صُور، جُبَيْل، أُوغاريت)
الآراميُّون	حوالي 1500 ق . م	سكنوا سُوريَّة الوُسْطَى والشّماليَّة (أرم النّهرَيْن، دمشق، صويا . . إلخ)
الأنباط	حوالي 350 ق . م	سكنوا شرق الأُردُن وشمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة
التّدمريُّون	حوالي 273 م	

جـ ـ مصر:

هاجرت إليها قبائل عَرَبيَّة عبر شبه جزيرة سيناء، وأهمُّ هجرة هي هجرة الهكسوس، الذين حكموا مصر وجنوب بلاد الشّام من 1786 ـ 1580 ق. م، وهُم من العَرَب العماليق، وسمَّاهم سُكَّان مصر بالرُّعاة.

مُلاحَظَة: التّواريخ المذكورة هي تواريخ بداية الهجرات، أمَّا تكوين الدُّول؛ فحصل بعد فترة كبيرة من الزّمن.

ونُؤكِّد أنَّ جميع هذه الشُّعُوب هي شُعُوب عَرَبيَّة أصلاً ولُغة.

جنَّة عَدَن في الجزيرة العَرَبيَّة:

تحدَّثنا في التّمهيد السّابق عن الأحوال المناخيَّة في الوطن العَرَبيّ عامَّة والجزيرة العَرَبيَّة خاصَّة، في تلك الأزمنة المُوغلة في القدم، وقُلنا إنَّها كانت جنَّات وارفة الظّلال، كثيرة الخيرات، عذبة المناخ، غزيرة الأمطار، وهذا يقودنا إلى التّفكير أنْ تكون جنَّة عَدَن التي خلق الله بها آدم هي في مكان ما من الجزيرة العَرَبيَّة.

وحول هذا التّساؤل يُجيب الدُّكتُور أحمد داود في بحث جميل حول الأوضاع المناخيَّة والجَغرافيَّة في الجزيرة العَرَبيَّة في تلك الأزمنة السّحيقة في القدم؛ أيْ عند بداية عصر الجفاف الرّابع، وبعد تراجع الجمُوديَّة الثّالثة، وذلك في كتابه (العَرَب والسّاميُّون والعبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهُود) (من صفحة 20 ـ 53 باختصار). فهُو يثبت أنَّ جنَّة عَدَن كانت في الجزيرة العَرَبيَّة، وبالتّحديد؛ في مكان الخليج العَرَبيّ الحالي (قبل أنْ يُغرقها ارتفاع مُستوى المياه في البحار)، وأنَّ أصل البشر من الجزيرة العَرَبيَّة، منها خرجوا، وفي العالم انتشروا، فيقول: «يُجمع عُلماء التّاريخ والجَغرافية والمناخ في العالم اليوم على أنَّ نهاية آخر عصر جليدي مرَّت به الكُرة الأرضيَّة كانت حوالي القرن الرّابع عشر قبل الميلاد، والتي كانت بداية عصرنا الدّفيء الحالي، والذي سيستمرُّ عشرات الآلاف من السّنين.

في تلك الحقبة تحديداً كانت كُتل الجليد بسماكة مئات الأمتار تُغطّي مساحة شاسعة من شمال الكُرة الأرضيَّة، وحتَّى خطٍّ عرض 45 درجة شمالاً، الذي يمرُّ من وسط فرنسا، وكان الحزام الحي المُفعم بالحياة، وبشرُوط تطوُّر الإنسان والحضارة، هُو المُمتدُّ جنوب هذا الخطِّ من

جزيرة العَرَب، وعبر ضفَّتَيْ البحر المُتوسِّط الشّماليَّة والجنوبيَّة، وُصُولاً إلى الشّواطئ الأمريكيَّة الوُسْطَى والجنوبيَّة.

لقد كانت طبقات الجليد السّميكة تُغطِّي مُعظم أُورُوبا الشّماليَّة والغربيَّة وأمريكا الشّماليَّة وشمال قارة آسيا (حتَّى خطّ عرض 45 شمالاً).

ثُمَّ يُتابع قوله: «أمَّا شبه الجزيرة العَرَبيَّة؛ فقد كانت أخصب بقعة على سطح هذا الكوكب، وأكثرها مُلاءمة لوُجُود الإنسان، ونُمُوِّ الحيوان والنّبات، وكثرة تنوُّعهما، ولنُشُوء الحضارة. ففي شرق الجزيرة العَرَبيَّة كانت جنَّة العَرَب الأُولى قبل أنْ تغمرها مياه البحر وتُشَكِّل ما يُعرَف اليوم بالخليج العَرَبيّ، تجري فيها أنهار الدّجلة والفُرات وبيشه والرّمَّة والدّواسر وحضرموت؛ لتصبَّ جميعاً في بحر العَرَب، بعد أنْ تُغذِّي المنطقة عبر آلاف السّنين بالمياه، وبطبقات لحقيَّة سميكة وفَّرت لها درجة عالية من الخُصُوبة. وكان يُغطِّي منطقة صحراء الرّبع الخالي بحر من المياه العذبة، ماتزال بقاياه قائمة حتَّى اليوم في أربع بُحيرات جوفيَّة عُمق إحداها 400 متر، وكان وادي بيشه والرّمَّة والثّرات والدّواسر وسرحان تخترق الصّحاري العَرَبيَّة من الغرب إلى الشّرق وتلتقي مع الفُرات والدّجلة في الجنَّة (مكان الخليج العَرَبيّ الآن)، ثُمَّ تصب جميعاً في بحر العَرَب (جنوب الجزيرة العَرَبيَّة) (انظر المُصوَّر رَقْم 1 ص 27).

ويقول العالم (تشايلد): كانت الصّحاري العَرَبيَّة التي يلفحها الحرُّ والجفاف الشّديدان الآن تتمتَّع بأمطار مُنتظمة على مدار السّنة، بدلاً من أنْ تكون مقصُورة على فصل الشّتاء. وكان يعيش في الجزيرة العَرَبيَّة وشمال أفريقيا (الصّحراء الكُبرى) حيوانات من نوع ما يُوجد الآن في زمبابوي وزامبيا (في أفريقيا الاستوائيَّة والمداريَّة).

وتُؤكِّد نتائج أبحاث سفينة الأبحاث الألمانيَّة "ميتيور" في قاع الخليج العَرَبيّ أنَّه نتيجة لانخفاض مُستوى مياه البحر خلال العصر الجليدي الأخير إلى حوالي 110 أمتار عمَّا هُو عليه الآن[1]، كان الخليج أرضاً يابسة، تتكوَّن من مُنخفض يبلغ طُوله حوالي 1100 كم،

(1) انخفاض مُستوى البحار ناتج عن تراكم الجليد في القُبَّعات الجليديَّة التي كَسَتْ شمال الكُرة الأرضيَّة، حتَّى درجة عرض 45 شمالاً وجنوباً بسماكة تصل إلى مئات الأمتار، بالإضافة إلى القُبَّعات الجليديَّة التي غطَّت الجبال في العُرُوض الوُسْطَى مثل جبال الألب، وهملايا، وجبال الرُّوكي في أمريكا الشّماليَّة، والأنديز في أمريكا الجنوبيَّة.

وعرضه الوَسَطي 180 كم، ولا يتجاوز عُمق غوره عن 30 ـ 100 م. وتشقُّ قاع الخليج قناة حفرتها مياه النّهرَيْن (الدّجلة والفُرات وروافدهما) مجاري لها، تبدأ قُرب الفاو (جنوب العراق)؛ لتصبَّ في خليج عمان، ومن الجدير بالمُلاحَظَة أنَّ تضاريس قاع منطقة الخليج تُشبه ـ إلى حدٍّ كبير ـ طبيعة الأرض التي تُجاورها».

وأُضيف أنَّ الينابيع العذبة التي يعرفها الغوّاصون في الخليج لاستخدام اللُّؤلُؤ، هي بقايا الينابيع العذبة والغزيرة التي كانت تنبثق في الخليج؛ لتروي جنَّة عَدَن فيه مع مياه الدّجلة والفُرات وروافدهما.

هذا؛ وقد كانت أراضي الخليج ـ نظراً لانخفاضها ـ أكثر دفئاً من المناطق المُجاورة لها، لا سيما إذا عرفنا أنَّ المناخ في ذلك الوقت كان أبرد بكثير ممَّا هُو عليه الآن، ونظراً لهذا الدّفء كان النّبات ـ على اختلاف أنواعه ـ يجد في أراضي الخليج كُلَّ ما يحتاجه من الماء والدّفء والأرض الخصبة، وبالتّالي؛ كانت هذه الجنان تضمُّ مُختلف أنواع الحيوان المعروفة؛ سواء كانت من آكلات العشب، أو المُفترسة آكلات اللُّحُوم.

واعتباراً من أواخر العصر الجليدي الرّابع[1]؛ أيْ مُنذُ حوالي أربعة عشر ألف عام، أخذت مياه البحر بالارتفاع التّدريجي؛ بسبب ذوبان الجليد، الذي كان يُغطِّي مساحات واسعة من الأرض، وبسماكة تبلغ مئات الأمتار (كما أسلفنا)، وذلك بفعل مناخ دافئ أخذ يسود الأرض خلال عصر (الهولوسين) الدّافئ. وقد تابع ماء البحر ارتفاعه، واستمرَّ يغمر منطقة الخليج، حتَّى استقر مُستواه اعتباراً من حوالي أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، فأخذ وَضْعه الرّاهن بعد أنْ ارتفع مُستوى الماء فيه إلى 120 م[2]، وتحوَّلت أرض الجزيرة العَرَبيَّة إلى شبه جزيرة كما هي عليه الآن.

بعد هذا الرّسم التّوضيحي المُوجز للخارطة الجَغرافيَّة والمناخيَّة للبلاد التي نشأ بها، وعاش، وتحرَّك، وتطوَّر، وأبدع أوَّل حضارة في العالم الشّعبُ الذي نعرفه اليوم بالشّعب العَرَبيّ.

---

(1) البعض يُسمِّيه الثّالث.

(2) كان الارتفاع 120 م في جميع مُستويات البحار والمُحيطات.

وهكذا يُصبح من اليسير على أيٍّ منّا أنْ يحلّ كلّ الإشكالات المفروضة، وأنْ يُفسّر ـ بسُهُولة ـ كلّ تلك الحَرَكَات السُّكَّانيَّة العَرَبيَّة؛ سواء على مسرح الوطن العَرَبيّ، أو في خارجه. ولم تعد ـ بعد هذا ـ مسألة خُرُوج العَرَب السُّومريِّيْن من منطقة الجنَّة في أرض الخليج، بعد أنْ أخذ البحر يغمرها، واتِّجاههم شمالاً إلى جنوب العراق، لُغزاً يُسهم المُستشرقون في جعله مُحيِّراً، رغم كُلِّ الدّلائل والمُكتشفات التي تُؤكِّد خُرُوجهم من أرض الجنَّة العَرَبيَّة في أرض الخليج.

لقد صار ثابتاً ـ اليوم ـ أنَّ هذه الظّاهرة هي التي أجبرت سُكَّان الجنَّة العَرَبيَّة القديمة في أرض الخليج إلى أنْ ينتشروا إلى الجوار الشّمالي (العراق والشّام)، وإلى الجوار الشّرقي إلى إيران وشواطئ الهند الغربيَّة؛ حيثُ أنشؤوا ما دُعي بحضارة ما قبل الهنديَّة، والتي تعود إلى الألف السّادس والألف الخامس قبل الميلاد. وقد دُعيت اللُّغة المُكتشَفَة هُناك بـ "الدّرويديَّة" وهي شقيقة للعَرَبيَّة السّائدة حينذاك في شرق جزيرة العَرَب.

يقول كُوندراتوف: «ويجد اللُّغويُّون من معالم التّشابه بين لُغة الدّرويديِّيْن ولُغة العبيديِّيْن الذين عاشوا في وادي الدّجلة والفُرات قبل السُّومريِّيْن ما يُؤكِّد الأصل الواحد لهم جميعاً. هذا؛ وكثيراً ما كان العبيديُّون يتحدَّثون عن الوطن الجَدِّ الغريق، وعن مملكتهم التي ابتلعها البحر»؛ (أي الخليج العَرَبي).

كما أنَّ الظّاهرة نفسها (غَرَق الخليج) هي التي أجبرت العَرَب الآخرين الذين رحلوا شمالاً من أرض الخليج، واستقرّوا في جنوب العراق، ودُعوا بالسُّومريِّيْن، ناقلين معهم تُراثهم، وقَصَصهم، وذكرياتهم عن "الوطن الغريق"، والجنَّة المفقودة تحت الماء.

ويقول البرُوفيسُور "جاك لابيري" أكبر عُلماء المناخ في أُورُوبا اليوم في لقاء مع مجلَّة الصّفر عدد أغسطس/ آب **1987**، صفحة **41**، بهذا الصّدد ما يلي: «إنَّ حضارات القُدامى بزغتْ، وتلاشتْ بفعل حَرَكَة ارتفاع أو انخفاض منسوب مياه البحار والمُحيطات (بفعل تناوب الفترات الجليديَّة). ولنأخذ مثالاً على ذلك السُّومريِّيْن الذين ظهروا فجأة مُنذُ ستَّة آلاف سنة عند نهرَيْ الدّجلة والفُرات (جنوب العراق)، وكانوا يعيشون حضارة ناشطة، فمن أين جاؤوا؟ إنَّ علم الأرصاد والمناخ يدلُّ على أنَّه حين كان سطح المُحيط مُنخفضاً ـ أيْ

أقلّ ارتفاعاً ممَّا هُو عليه الآن بمائة متر - كان السُّومريُّون موجُودين في مكان ما، ومن المُؤكَّد أنَّ هذا المكان كان في منطقة الخليج العَرَبيّ الحالي، وكان يخترقه نهر عظيم، وهُو المُتشَكِّل من نهرَيْ الدّجلة والفُرات بعد اتّحادهما، وكان هذا النّهر مع روافده يُؤمِّن للسُّومريِّيْن ازدهار الحياة آنذاك، وكان هذا النّهر يصبُّ في المُحيط الهندي.

إذن؛ كان بحر الخليج أرضاً يابسة يجتازها النّهر المذكور، وكان سهلاً واسعاً خصباً، وفي هذا السّهل - ومُنذُ آلاف السّنين - حَدَثَتْ - حتماً - عمليَّة انتقال الإنسان من حالة العصر الحجري القديم إلى المُتوسِّط والحديث، وظهر المُزارعون الثّابتون. لقد تمَّ ذلك مُنذُ حوالي 8 - 9 آلاف سنة. وقد ظلَّ سطح البحر يرتفع مُنذُ سبعة آلاف سنة دافعاً بالسُّومريِّيْن الأوائل إلى منطقة الشّمال والشّمال الغربيّ، حتَّى بلغت مياه الخليج مُستواها الحالي مُنذُ خمسة آلاف سنة.

وقد أكَّد هذا عالم الآثار الأمريكي "جوريس زارنيس" الذي ظلَّ يعمل في الآثار في المنطقة الشّرقيَّة من الأراضي السُّعُوديَّة (أيْ منطقة الأحساء) زُهاء عشرة أعوام، توصَّل من خلال المُكتشفات إلى النّتائج نفسها. وقد أجرت معه مجلَّة سميث سونين **nainoS htimS** الأمريكيَّة (عدد أيَّار/ مايو 1987، ص 127 - 128) ريبُورتاجاً حول نتائج أعماله في العَرَبيَّة السُّعُوديَّة ضمن بحث عُنوانه "هل تحدَّد - أخيراً - موقع جنَّة عَدَن؟" "وهل تمَّ العثُور - أخيراً - على موقع جنَّة عَدَن؟" أكَّد فيه أنَّ الموطن الأصلي للعبيديِّيْن هُو الطّرف الشّرقي لشبه جزيرة العَرَب، وأنَّهم أسلاف السُّومريِّيْن الذين خرجوا من أرض الخليج؛ حيثُ كانت "جنَّة عَدَن العَرَبيَّة"، وكانوا هُم لا السُّومريِّيْن بُناة المُدُن والحضارة في جنوب العراق.

ثُمَّ يُؤكِّد الدُّكتُور داود أنَّ الإنسان العَرَبيّ هُو الأصل في سُلّم البشريَّة، وأنَّ الأرض العَرَبيَّة هي المهد بقوله: «لقد ثبت علمياً وتاريخياً ووثائقياً أنَّ الأرض العَرَبيَّة هي مهد الإنسان العاقل الأوَّل على هذا الكوكب، وأنَّ وُجُوده عليها بقي مُستمراً - دُونما انقطاع - خلال عشرات الآلاف من السّنين. هذا ما أكَّده مُؤخَّراً جميع عُلماء إنسان ما قبل التّاريخ»[1].

وقد أغنى البروفيسُور "كون" - الأُستاذ في جامعة بنسلفانيا - هذه الحقيقة بالنّتائج التي توصَّل إليها من خلال حفريَّاته في بادية سُوريَّة، وخاصَّة في جرف "العجلا" و "غاري" القريبة

(1) كتاب "العَرَب والسّاميُّون والعبرانيُّون . ." ص 50.

من تدمر، مُؤكِّداً أنَّ سُورِيَّة وجزيرة العَرَب التي كانت جنَّة من الخصب على الأرض قبل أنْ يُصيبها التَّصحُّر في العصر الدّفيء الأخير، إنَّما هي مهد إنسان (الهُومُوسابينس) أو (الإنسان العاقل) جَدّ الإنسان الحالي، والمكان الذي انطلقت منه كُلُّ الأقوام التي سكنت كُلَّ القارَّات. ويقول الأُستاذ "كون": إنَّ الإنسان أقام في تلك البُقعة 30 ألف سنة مُتعاقبة، وقد وَجَدَ الإنسان العاقل في غابات المنطقة المُلتفَّة والمُندثرة حالياً، ومراعيها الخصبة والجافَّة الآن خير مكان يقطنه، ويتطوَّر فيه خلال الأزمنة التي كانت فيها الحياة مُتعذِّرة في أماكن أُخرى، بسبب الجمُوديَّات والثُّلُوج (قبل العصر الدّفيء).

وأخيراً؛ فإنَّ الدُّكتُور داود يُؤكِّد - في بُحُوثه واستنتاجاته - ما يلي:

أنَّ جزيرة العَرَب - وخاصَّة منطقة الخليج العَرَبيّ، قبل أنْ يغمرها الماء - كانت الوطن الأوَّل للإنسان العاقل، ومنها انطلق إلى جميع بقاع الأرض.

أنَّ السُّومريِّيْن - الذين اختلف العُلماء في أصلهم - هُم عَرَب من منطقة الخليج، هاجروا شمالاً وغرباً إلى جنوب العراق عندما أخذ البحر يطغى على منطقة الخليج.

أنَّ العَرَب سُكَّان الجزيرة العَرَبيَّة يرجع عهدهم إلى عشرات الآلاف من السِّنين ق. م في جزيرة العَرَب. وهذا يُؤدِّي إلى القول إنَّ العَرَب سبقوا سام بن نُوح في سَكَن الجزيرة العَرَبيَّة، فالطُّوفان حَدَثَ قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة[1]، وهذا تاريخ مُتأخِّر جداً عن وُجُود العَرَب في الجزيرة العَرَبيَّة. وهكذا؛ فإنَّ السّاميِّيْن فرع من العَرَب، وليس العَرَب فرعاً من السّاميِّيْن، كما هُو مُتعارف عليه الآن.

ويُؤكِّد الدُّكتُور داود أنَّ هجرة العَرَب من الجزيرة العَرَبيَّة إلى العراق والشّام ومصر لم يبدأ بالجفاف التّدريجي الذي حصل في الجزيرة العَرَبيَّة، بل بدأ مُنذُ أخذ البحر يطغى على أرض الخليج، ممَّا أدَّى إلى هجرة سُكَّان أرض الخليج إلى المناطق المُجاورة، وهذا يعني أنَّ الهجرة بدأت قبل الطُّوفان وبعده (طُوفان نُوح عليه السّلام).

---

(1) هكذا حدَّده الدُّكتُور داود في كتابه "العَرَب والسّاميُّون.." ص 63، أمَّا الدُّكتُور مُحَمَّد أبو المحاسن عُصفور؛ فيُحدِّده بخمسة آلاف سنة قبل الميلاد في كتابه "تاريخ الشّرق الأدنى"، ص 348 - 311.

وهذا ـ بدوره ـ يُؤيِّد أنَّ المنطقة الأوفر حظّاً لتكون مهبط آدم وحوَّاء إلى الأرض هُو الجزيرة العَرَبيَّة، هذا إذا كانت الجنَّة التي خُلق فيها آدم هي جنَّة الخُلد أو جنَّة المأوى، وأمَّا إذا كانت الجنَّة في الأرض ومن جنَّات الأرض فتكون منطقة الخليج هي المكان الأنسب، وهي "جنَّة عَدَن" المفقودة.

وهكذا؛ فإنَّ هجرة العَرَب من جزيرتهم كانت لسببَيْن مُتتاليَيْن:

الأوَّل عندما طغى البحر على أرض الخليج، وأغرق "جنَّة عَدَن". **والثّاني**: عندما أخذ الجفاف التّدريجي يلفُّ الجزيرة العَرَبيَّة، ويُسيطر عليها مُنذُ بداية العصر الدّفيء.

وقبل الانتهاء من الحديث عن "جنَّة عَدَن" لابُدَّ لنا من بيان رأي التّوراة والمُكتشفات الأثريَّة وما جاء في القُرآن الكريم حول الجنَّة، وهل هي في الأرض، أو في السّماء.

جنَّة عَدَن في التّوراة:

جاء في التّوراة (سفْر التّكوين، الإصحاح الثّاني، آيَّة **8**) ما يلي: «وغرس الرَّبُّ الإله جنَّة في عَدَن شرقاً، وَوَضَعَ هُناك آدم الذي جَبَلَهُ، وأنبت الرَّبُّ الإله من الأرض كُلَّ شجرة شهيَّة للنّظر وجيِّدة للأكل، وشجرة الحياة وسط الجنَّة، وشجرة معرفة الخير والشَّرِّ، وكان نهرٌ يجري من عَدَن؛ ليسقي الجنَّة، ومن هُناك ينقسم / فيصير أربعة رُؤُوس».

ثُمَّ تذكر التّوراة في الإصحاح نفسه آية **15** حياة آدم في الجنَّة، فتقول:

«وأخذ الرَّبُّ الإلهُ آدمَ، وَوَضَعَهُ في جنَّة عَدَن، ليعملها، ويحفظها».

وهذا يعني أنَّ التّوراة تُؤكِّد أنَّ الجنَّة التي وُجد فيها آدم هي جنَّة من جنَّات الأرض، وتُحدِّدها بجنَّة عَدَن، وأنَّ اللهَ وَضَعَهُ فيها، وطلب منه أنْ يعمل بها (ليعمرها)، ويحفظها.

فكْرة الفردوس عند السُّومريِّيْن:

أمَّا موضوع جنَّة عَدَن التي أوردتْها التّوراة؛ فقد خلص الخُبراء ـ على ضوء الاكتشافات الأثريَّة الأخيرة ـ إلى أنَّ فكْرة الفردوس (الفردوس الإلهي) ترجع إلى عُهُود قديمة أيضاً؛ إذْ عُثر على لوح نُقشت عليه قصيدة سُومريَّة فيها تشابُه بين المُدوَّنات التّوراتيَّة والقصَّة السُّومريَّة

حول جنَّة عَدَن أو الفردوس الإلهي، وكان موضع الفردوس - بمُوجب القصَّة السُّومريَّة - في أرض "دلمون"، والتي رجَّح بعض الباحثين أنَّها غرب بلاد فارس، بينما يُرجِّح البعض الآخر أنَّها كانت في الجهة الغربيَّة من ساحل الخليج العَرَبيّ، وقد عيَّن هؤلاء الباحثون المُحقِّقون مكانها في البحرَيْن[1].

والأرجح في رأينا أنَّ هذا الفردوس الإلهي كان في مكان الخليج، وليس في أطرافه الشّرقيَّة ولا الغربيَّة، كما قُلنا سابقاً، وقد غرق الفردوس المفقود - أو جنَّة عَدَن - بعد طُغيان البحر عليه في بداية العصر الدّفيء الرّابع.

جنّة آدم عليه السّلام:

لا يُوجد في القُرآن الكريم آية تدلُّ بشكل واضح لا لبس فيه أنَّ آدم عليه السّلام خُلق في جنَّة السّماء، بل إنَّ الآيات الواردة في القُرآن الكريم تُبيِّن أنَّ خَلْقَهُ - عليه السّلام - كان من طين، ومن صلصال كالفخار، ومن حمأ مسنون (أيْ مُتعفِّن) كقوله تعالى في الآيتَيْن التّاليتَيْن:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ سُورة ص: 71.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ سُورة الحجر: 26.

ولكنْ؛ هل في الجنَّة طين وصلصال وحمأ مسنون؟؟!

وبعد خَلْقه قال له اللهُ: اسكنْ أنتَ وزوجكَ الجنَّة، كما وَرَدَ في الآيات التّالية:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: 35.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأعراف: 19.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ طه: 117.

---

(1) د. أحمد سُوسة (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 467.

إنَّ الآيات الكريمة السّابقة لا تُعيِّن مكان الجنَّة: هل هي في الأرض؟ أم في السَّماء؟ هل هي جنَّة المأوى؟ أم جنَّة الخُلد؟ أم جنَّة من جنَّات الأرض؟

والجمهُور من عُلماء المُسلمين يقولون: إنَّها جنَّة المأوى، أخذاً بظاهر الآيات والأحاديث، ولكنَّ هُناك فريقاً آخر من العُلماء يقول: إنَّ الجنَّة التي سكنها آدم وحوّاء كانت من جنَّات الأرض، وأوردوا الأسباب التّالية:

لقد كُلِّف فيها آدم وزوجه ألاَّ يأكلا من الشّجرة، والتّكاليف لا تكون في الجنَّة، بل في الحياة الدُّنيا، في الأرض.

لقد أُخرج آدم وزوجه منها، ومَنْ يدخل الجنَّة لا يخرج منها.

دَخَلَ عليه إبليس فيها مُوسوساً له، وإبليس لا يدخل الجنَّة.

لقد عصى آدمُ ربَّه في الجنَّة، وفي الجنَّة لا عصيان؛ لأنَّه لا تكليف فيها.

لقد نام آدم في الجنَّة، ولا نوم فيها؛ لأنَّه لا تَعَبَ فيها، ولا نَصَبَ، والنّوم لاستعادة النّشاط بعد يوم من التّعب.

وأخيراً؛ قوله تعالى للملائكة - عندما أراد خَلْق آدم - : إنِّي جاعل في الأرض خليفة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ البقرة: 30.

الآية تُفيد - بوُضُوح - أنَّ خَلْق آدم كان في الأرض، ومن تُراب الأرض.

ومن الذين قالوا إنَّ الجنَّة هي من جنَّات الأرض: أُبي بن كعب، عبد الله بن عبَّاس، وهب بن منبه، سُفيان بن عُيينه، واختار هذا الرّأي - أيضاً - القاضي "مُنذر بن سعيد البُوطي" قاضي الجماعة في تفسيره.

وكلمة "اهبطوا" التي وَرَدَتْ في سُورة البقرة ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ الآية 38، وفي سُورة الأعراف ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الآية 24، وفي سُورة طه ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ سُورة طه 123.

إنَّ هـذه الكَلمـة "اهبطـوا" لا تعنـي النُّزُول مـن الجنَّة إلـى الأرض (أو مـن السّـماء إلـى الأرض)، بل تعني التَّحوُّل أو الانتقال، أو الذّهاب من مكـان إلى آخـر أيضـاً. وفـي القُرآن الكريم شاهد على ذلك في قوله تعالى لبنـي إسـرائيل: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة: 61.

فقوله تعالى: اهبطوا مصـر؛ أيْ اذهبـوا إلـى مصـر، أو انتقلـوا إلـى مصـر، وقـد كـانوا يعيشون على أطراف سيناء الشّماليَّة على البحر، ويـأكلون ممَّا أنعـم الله بـه عليـهم مـن المنِّ والسّلوى، كما وَرَدَ في قوله تعالى في سُورة البقرة الآية 57 وفي سُورة الأعراف الآية 160.

وهكذا؛ فكلمة اهبطوا المُوجَّهة لآدم وزوجه وإبليس قـد تعنـي إخراجـهم مـن جنَّـة فـي الأرض إلى أرض أقلّ خصباً ورخاءً وخيرات منها.

وأخيراً؛ إنِّي أميل إلى القول: إنَّ جنَّة آدم هـي جنَّـة مـن جنَّـات الأرض، وليسـت جنَّـة المأوى، والله تعالى أعلم[1].

مصادر التّاريخ القديم لليهُود:

كانت التّوراة "العهد القديـم" هـي المصـدر الرّئيسـي لتـاريخ اليـهُود القديـم حتَّـى السّـبي البابليّ؛ حيثُ جرى تدوين التّوراة، وقد أخذ عنها المُؤرِّخون العَرَب القُدماء كـالطّبري وابـن كثير وابن خلدون وغيرهم، وكذلك المُؤرِّخون الغربيُّون قبـل القـرن التّاسـع عشـر. ولكـنْ؛ مُنذُ أوائل القرن التّاسع عشر الميلادي أخذت الاكتشافات الأثريَّة ـ مع ما خلَّفه الأقدمـون مـن كتابات على الحجارة وورق البردي (في مصر) وألواح الآجر (الرُّقم) في بلاد الشّـام والعراق ـ تدحض هذه النَّظريَّات.

---

(1) للاستزادة حول أمر جنَّة آدم عليه السّلام راجع:
قَصَص الأنبياء، الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار، ص 5ـ9.
الكون والأرض والإنسان، رجا عُرابي (مُؤلِّف الكتاب) ص 282 ـ 284.

ذلك كُلُّه قدَّم مصادر هامَّـة وجيِّـدة لتـاريخ المنطقـة القديـم ، وأصبحـت هـذه الكتابـات ـ وما صاحبها من اكتشافات أثريَّة رائعة ـ هي المصدر الأساسي لتاريخ المنطقة القديم .

هُنا ظهر التّباين الواضح بين ما جاء في التّوراة وهذه المُكتشفات ، وظهر الزّيف الكبير في معلومات التّوراة التّاريخيَّة ، وهكذا أخذت الشُّكُوك تدور حول معلومـات التّوراة التّاريخيَّة ، وأخذت الثّقة بما جاء فيها تهتزُّ ، بعد أنْ كان مُسلَّماً بكلِّ ما جاء بها ، وخاصَّة أنَّـها مع الإنجيل تُشَكِّل "الكتاب المُقَدَّس" لدى المسيحيِّيْن ، وكان أيُّ نَقْد لها هُو هَدْم للدِّين والعقيدة ، وجريمة كُبرى أمام الكَنيسة . ولكن ؛ مُنذُ بداية القرن التّاسع عشر الميلادي أخـذت سيطرة الكَنيسة بالضّعف ، وأخذت قبضتها الحديديَّة على حُرِّيَّة الفكْر تتراخى في أُورُوبا . وزاد من جُرأة المُؤرِّخين على ما جاء في التّوراة التّناقضات الكثيرة والكبيرة بين المُكتشفات الأثريَّة ومعلومات التّوراة التّاريخيَّة .

وهكذا أخذ المُؤرِّخون ـ وخُصُوصاً الغربيِّيْن ـ يعترضون على ما جاء في التّوراة ، ويُفنِّدون ما جاء بها من أخبار غير صحيحة ، وأخذوا يُبيِّنون عدم التّوافق الزّمني في أخبارها . هذا بجانب التّناقضات بين ما تُقدِّمه من معلومات وأخبار والمُكتشفات الأثريَّة الحديثة ، والمُبالغات التي لا يقبلها العقل والمنطق(1) .

هذا ؛ بالإضافة إلى التّجديف على الأنبياء واتِّهامهم بالزّنا والرُّجُوع عن الدِّين إلى الوَثَنيَّة هُم وأولادهم(2) ، ذلك كُلُّه سنراه في أثناء حديثنا عن تاريخ اليهُود .

ولكنَّ المصدر الهامَّ الموثوق في تاريخ اليهُود هُو القُرآن الكريم ، فقد تحدَّث القُرآن عن سيِّدنا إبراهيم وإسحاق ويعقُوب وأولاده وخاصَّة يُوسُف (وهُم الآباء الأوَّلون لبني إسرائيل) ، وكذلك عن إسماعيل ومُوسى ، عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام .

---

(1) راجع سفْر المُلُوك الأوَّل حول النّبي سُلَيْمَان والمُبالغات الغريبة الواردة فيه .

(2) راجع قصَّة النّبي لُوط عليه السلام وابنتَيْه في سفْر التّكوين ، الإصحاح 19 .

وراجع سفْر المُلُوك الأوَّل الإصحاح الحادي عشر حول وَثَنيَّة سُلَيْمَان عليه السلام ، والرُّجُوع إلى دين زوجاته .

وراجع داود عليه السلام وتآمره على أُوريا ؛ ليقتله ، ويتزوَّج امرأته ، أو خطيئته في سفْر صموئيل الثّاني ، الإصحاح الحادي عشر .

والقُرآن الكريم كلام الله جلَّ وعلا الذي لم يدخله التّزييف، ولم يُخالطه التّحريف، فقد تكفَّل الله بحفْظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ سُورة الحجر آية 9. وكان كُتَّاب الوحي يكتبون آياته فور نُزُولها، ويحفظه المُسلمون عن ظهر قلب في الصُّدُور،[1] لذلك؛ فهُو مصدر تاريخيٌّ هامٌّ لا يأتيه الباطل، ولا تُخالطه الشُّكُوك، فهُو كلام ربِّ العالمين: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ سُورة النّساء آية 122.

هذا؛ وإذا تعارضت أخبار التّوراة حول اليهُود عمَّا جاء في القُرآن الكريم فسيكون القول الفَصْل هُو ما جاء في القُرآن دُون شكٍّ.

وقد لاحظتُ أنَّ المصادر التّاريخيَّة الموجُودة بين أيدي المُؤلِّفين عَرَب ومُسلمين لا يتطرَّقون إلى ما وَرَدَ في القُرآن الكريم عن تاريخ اليهُود وتاريخ المنطقة بشكل عامٍّ، وأظنُّ أنَّ السّبب هُو أنَّ مُعظمهم دَرَسَ في الغرب، وأخذ عن مُؤرِّخين غربيِّين مسيحيِّين لا يعترفون بالقُرآن الكريم، وبالتّالي؛ لا يعترفون بكُلِّ ما جاء به من معلومات تاريخيَّة قيِّمة.

لذلك؛ فإنِّي بعون الله وتوفيقه سيكون ما جاء في القُرآن الكريم حول اليهُود وتاريخهم هُو المصدر الأساسي لديّ في كتابي هذا، وحتَّى البعثة النّبويَّة الشّريفة، مع مُحاولة كشف الزّيف والخطأ والتّحريف في التّوراة، حتَّى لا يُعَدُّ موقفي هذا تعصُّباً أعمى دُون مُسوِّغ.

وممَّا يَسَّرَ معرفة التّاريخ القديم لمنطقة الشّرق الأدنى توصُّل العالم الفرنسي شامبليُّون إلى فكِّ رُمُوز الخطَّيْن "الهيرُوغليفي والدّيمُوطيقي" المصريَّيْن القديمَيْن بعد جُهُود جبَّارة، وعمل مُضنٍ[2]، ثُمَّ توالت جُهُود العُلماء، إلى أنْ أصبح في الإمكان قراءة اللُّغة المصريَّة القديمة (البائدة)، ووَضْع المعاجم والقواعد لها، وبذلك تمَّ معرفة تاريخ مصر القديمة بشكل دقيق ومُفصَّل.

---

(1) للاستزادة في موضوع حفْظ المُسلمين للقُرآن الكريم يُراجَع كتاب (ظاهرة النَّصِّ القُرآني تاريخ ومُعاصرة) لمُؤلِّفه سامر إسلامبولي، دار الأوائل، ط1، 2002.

(2) للتّوسُّع في موضُوع تاريخ الخُطُوط والكتابة يُراجَع كتاب (تاريخ الخطِّ العَرَبي وغيره من الخُطُوط العالميَّة) للفرنسيَّيْن آن زالي وآني بيرثييه، ترجمة سالم سُليمان العيسى، دار الأوائل، ط1، 2004.

وكذلك تمكَّن العالم الإنكليزيّ رُولنسون من فكِّ رُمُوز الكتابة المسماريَّة في العراق، عن طريق نَقْش "بهستون" الطّويل والمكتوب باللُّغة الفارسيَّة القديمة والعيلاميَّة والبابليَّة، ثُمَّ توالت جُهُود العُلماء، حتَّى أصبح بالإمكان قراءة اللُّغات السُّومريَّة، والآكاديَّة، والبابليَّة، والآشوريَّة، والكلدانيَّة، والفارسيَّة القديمة (وكُلُّها في العراق).

وكذلك الحال بالنّسبة للآثار السُّوريَّة؛ حيثُ قُرئت كتاباتها، وعُرف تاريخها القديم بشكل دقيق (مثل مملكة ماري وإيبلا، والممالك الكنعانيَّة في فلسطين، والآراميَّة، والفينيقيَّة، في سُوريا ولُبنان).

وجميعها - سواء في بلاد الشّام أو العراق - كانت تتحدَّث اللُّغة العَرَبيَّة القديمة، وما تفرَّع عنها من لهجات عديدة فيما بعد.

النّظريَّة السّاميَّة:

قبل التَّحدُّث والبحث في تاريخ اليهُود القديم، لابُدَّ من الحديث عن "النّظريَّة السّاميَّة"، كيف بدأت؟ وما هي مدلولاتها؟ وبيان أنَّها بدْعَة يهُوديَّة؛ لإثبات علاقة اليهُود بالمنطقة العَربيَّة، وأنَّهم من الشُّعُوب السّاميَّة، وبالتّالي؛ إثبات حقِّهم بالعودة إليها، وإلى فلسطين: "أرض الميعاد، أو المعاد".

قُلنا سابقاً: إنَّه مُنذُ بداية عصر الجفاف بعد الجليديَّة الثّالثة قبل حوالي ثلاثة عشر ألف سنة، أصبحت الجزيرة العَرَبيَّة كمرجل هائل تفيض منه الشُّعُوب العَرَبيَّة على الأقطار المُجاورة، وقبل ذلك أيضاً عندما أخذت المياة تغمر أرض الخليج العَرَبي "جنَّة عَدَن العَرَبيَّة" بسبب ارتفاع مُستوى البحار بعد أنْ أخذت القُبَّعات الجليديَّة بالذّوبان نتيجة دُخُول العصر الدّفيء الرّابع.

وهكذا؛ فمُنذُ ما قبل طُوفان نُوح - عليه السّلام - وبعده، حتَّى أوائل القرن العشرين، وهذه الموجات تتلاحق، وكان أعظمها تأثيراً وأبلغها أثراً الموجة العَرَبيَّة الإسلاميَّة؛ حيثُ نَشَرَت الإسلام واللُّغة العَرَبيَّة لُغة القُرآن الكريم كما نعرفها الآن، وقد تمَّ اندماج العَرَب المُسلمين بيُسر وسُهُولة مع سُكَّان الأقطار العَرَبيَّة المفتوحة في العراق والشّام ومصر

والمغرب . . إلخ ، وذلك للتّقارب الكبير في الأُصُول اللُّغويَّة والعرْقيَّة ، وسادت اللُّغـة العَرَبيَّـة بلهجة قُريش التي نزل بها القُرآن الكريم ، والذي كان له الدّور الأوّل في حفْظ اللُّغـة العَرَبيَّـة من الانقسام إلى لهجات ، ثُمَّ إلى لُغات مُستقلَّة ، بسبب تباعد الأقطار العَرَبيَّة عن بعضها ، وامتدادها على مساحات واسعة .

ولم تقف الموجات العَرَبيَّة من جزيرة العَرَب ، فقد تلا الموجة العَرَبيَّة الإسلاميَّة موجات كثيرة ؛ من أهمِّها هجرة قبائل بني هلال ، وبني سليم ، إلى أقطار المغرب العَرَبيّ ، التي صبغت المغرب العَرَبيّ بالصّبغة العَرَبيَّة ، وكان آخرها في أوائل القرن العشرين ؛ حيثُ هاجرت عشائر شُمَّر ، وطي ، وعنيزة إلى سُهُول الجزيرة وبوادي الشّام والعراق .

وهكذا نرى أنَّ شُعُوب هذه المنطقة (الشّرق الأدنى) هي شُعُوب عَرَبيَّة مُنذُ فجر التّاريخ ، ولها أُصُول واحدة في العرْق واللُّغة . أمَّا اصطلاح "الشُّعُوب السّاميَّة واللُّغات السّاميَّة" ؛ فقد ظهر مُنذُ مُنتصف القرن الثّامن عشر على أيدي كُتَّاب ومُؤرِّخين مُستشرقين يهُود أرادوا تأكيد وتثبيت علاقة اليهُود بالمنطقة العَرَبيَّة ، وأنَّهم يرجعون في أُصُولهم إليها ، مع أنَّ اليهُود الحاليِّين هُم من شُعُوب وجنسيَّات مُتعدِّدة اعتنقت الدّيانة اليهُوديَّة في ظرف من الظُّرُوف (كما سنرى في القسم الثّاني من هذا الكتاب) .

ويُحَدِّثنا الدُّكتُور أحمد داود عن هذه البدْعَة الجديدة فيقول : «لقد وُلدت هذه التَّسمية "السّاميَّة" لأوَّل مرَّة على يد اللاَّهوتي النّمساوي "شلوتزر" في النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر في مُحاولة صريحة لإضفاء نوع من القُدسيَّة على ما دعاه آنذاك بلُغة الكتاب المُقدَّس ، مُفترضاً أنَّ ثمَّة ما يُدعى باللُّغة "العبريَّة" نزل بها كتاب "التّوراة" ، بعد أنْ لمس حماسة كثير من العُلماء والباحثين اللُّغويِّيْن إلى دراسة اللُّغات الشّرقيَّة القديمة ، ثُمَّ ما لبث أنْ عبَّر عن نظريَّته بالفكْرة التّالية : «من المُتوسِّط إلى الفُرات من أرض الرّافدَيْن ، إلى بلاد العَرَب جنوباً ، سادت لُغة واحدة ، ولهذا كان السُّوريُّون والبابليُّون والعبريُّون شعباً واحداً ، وكانوا يتكلَّمون لُغة واحدة هي اللُّغة التي أودُّ أنْ أُسمِّيها اللُّغة السّاميَّة . . » [1] .

---

(1) من كتاب د . داود "السّاميُّون والعبرانيُّون . ." ص 65 ـ 68 .

ثُمَّ ما لبث أنْ جاء القرن التّاسع عشر؛ حيثُ تلقَّف هذه البدْعَة لاهوتيُّون يهُود آخرون، وَضَعُوا نصبَ أعينهم تبنِّي هذه (الفريَّة)، ونَشْرها، وأخذوا على عواتقهم كتابة تاريخ الشّرق العَرَبيّ القديم، ثُمَّ الإسلامي، بصُورة يُبرزون فيها ما دعوه بالعبريَّة والعبرانيُّون واليهُود، ويُسفِّهون العَرَب وتاريخهم، ويتهجَّمون على مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم والقُرآن العظيم، وكان من أبرزهم جميعاً المُستشرق الألماني اليهُوديّ "أبراهام جيجر"، وكذلك المُستشرق الألماني اليهُوديّ "جُوزيف ديرنبورغ"، و"لويس سبرنجر"، والمُستشرق الرُّوسيّ اليهُوديّ "دانيال شولسون"، وغيرهم.

وبعد الحرب العالميَّة الأُولى أقامت الدُّول الاستعماريَّة مُنظَّمات ومُؤسَّسات استشراقيَّة كان ديدنها تشويه تاريخ العَرَب القديم، وتقزيم حضارته؛ لأنَّ التّاريخ هُو بمثابة ذاكرة الشُّعُوب، فتلقَّفتْ هذه المُنظَّمات والمُؤسَّسات (الاستعماريَّة) ذلك الاختراعَ اليهُوديّ، وتعاونت مع الحَرَكَة الصّهيُونيَّة التي وَضَعَتْ نفسها في خدمة تلك الدُّول، مُقابل تحقيق أهدافها في استعمار فلسطين، وقيام (إسرائيل) فيها.

وهكذا أخذت تلك المُنظَّمات والمُؤسَّسات ذلك التّزوير الفادح في تفسير أحداث التّوراة وفي جَغرافيَّتها، وتحوَّل ـ فجأة ـ التّاريخ العَرَبيّ ـ الذي هُو تاريخ الحضارة الإنسانيَّة على هذا الكوكب ـ إلى تاريخ دولة عبريَّة مزعومة في جنوب سُوريَّة (فلسطين)، وإلى عشائر عَرَبيَّة آراميَّة تتصارع من أجل بئر ماء ومجموعة من الماشية تملأ السّاحة من شمال سُوريَّة إلى جنوبها.

واختُرعت في المنطقة الشّرقيَّة تسمية جَغرافيَّة توراتيَّة هي بلاد "ما بين النّهرَيْن"، أو بلاد الرّافدَيْن"، ثُمَّ جُمعت هذه الأجزاء في تسمية واحدة هي "السّاميَّة"، وجُعلت الدّولة العبريَّة المزعومة أهمَّ دولة في المنطقة ما بين النّيل والفُرات، ثُمَّ جرى تعميم هذا التّاريخ الكاذب على جميع المعاهد والجامعات في الدُّول الاستعماريَّة، ونشطت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة من أجل ترسيخه وتثبيته، ومن أجل ذلك كلَّفت المدعو "أليعازر بن يَهْوَه" باختراع ذلك الشّيء، الذي دَعَتْهُ باللُّغة "العبريَّة"، وهي من اللُّغات العَرَبيَّة القديمة، ليكون لُغة رسميَّة لليهُود الذين سوف يتمُّ تهجيرهم إلى الأرض الموعودة.

إنَّ هذه اللّوحة عن تاريخ المنطقة هُو ما تُدرِّسه الجامعات الغربيَّة ومعاهدها، وهي - بكلِّ أسف - ما ينقله أبناء الأُمَّة العَرَبيَّة ليُدرِّسوه في الجامعات والمدارس العَرَبيَّة في الوطن العَرَبيّ.

ثُمَّ يُتابع الدُّكتُور أحمد داود قوله: «تلكم هي "السّاميَّة" من حيثُ منشؤها وأغراضها. أمَّا فيما يخصُّ بدَحْضها وإثبات بُطلانها؛ فالحديث يطُول، ويُمكننا أنْ نُوجزه بما يلي:

1 - إنَّ سامَ بن نُوح لم يبتدع لُغة، ولم يتكلَّم غير لُغة أبيه وأُمِّه، وهي لُغته العَرَبيَّة القديمة، ولم يخرج خارج قومه العَرَب الذين يملؤون السّاحة العَرَبيَّة مُنذُ آلاف السّنين قبله، وما ينطبق عليه ينطبق على أبنائه من بعده.

2 - وآرام بن سام لم يبتدع لُغة جديدة، ولم يتكلَّم لُغة غير لُغته العَرَبيَّة لُغة آبائه وأجداده. وإنَّ جميع مصادر التّاريخ العَرَبيّ تُؤكِّد أنْ أبناء آرام جميعاً كانوا من العَرَب العاربة الشّديدي العُرُوبة وأنقيائها. وكانت عشيرة إبراهيم الخليل - عليه السّلام، وذُرِّيَّته من بعده - هُم جميعاً عَرَباً لساناً ووطناً.

3 - إنَّ كلَّ ما يُكتشَف في الأرض العَرَبيَّة من آثار هي آثار عَرَبيَّة لا ذكر فيها لسام وللسّاميِّين، وتعود - في مُعظمها - إلى آلاف السّنين قبل أنْ يُولد "سام"، فكيف يستقيم الأمر من مُزوِّري التّاريخ في الشّرق والغرب بإلصاق هذه التّسمية البدْعَة وهي "السّاميَّة" بتلك الأقوام وبلُغتها العَرَبيَّة القديمة الواحدة؟!.

وأخيراً؛ نُؤكِّد أنَّ سام بن نُوح وكُلَّ بنيه وأحفاده إنَّما هُم فرع من العُرُوبة، وكان مسكنهم الغالب في شبه الجزيرة العَرَبيَّة. إنَّهم جُزء من كُلٍّ، كما أنَّ قُريشاً هي فرع من العُرُوبة، وليست كُلَّها. وهكذا؛ فإنَّ السّاميِّين أحد فُرُوع العُرُوبة الضّاربة جُذُورها في الأرض العَرَبيَّة والتّاريخ العَرَبيّ، وليسوا كُلَّها».

وحول النّظريَّة السّاميَّة يقول الدُّكتُور توفيق سُلَيْمَان ما يلي[1]: «لقد كان عالم اللاّهوت اليهُوديّ "تشولتزر" أوّل مَنْ استخدم تعبير "السّاميَّة"، ثُمَّ حذا مُستشرقون آخرون

---

(1) الدُّكتُور توفيق سُلَيْمَان في كتابه "نَقْد النّظريَّة السّاميَّة"، ص 7 - 11.

حَذْوَهُ، فتبنّوا هذا التّعبير الذي صار شائعاً؛ حيثُ يستحيل على الباحث الآن إلاَّ أنْ يأخذ به، سواء من قبيل القناعة أو من قبيل الاصطلاح. ومُنذُ مُنتصف القرن التّاسع عشر نُشرت في عُلُوم آثار وتاريخ شعُوب غرب آسيا وشمال أفريقيا وفي حضارتها ولُغاتها القديمة كُتُبٌ وبُحُوث يصعب حصرها، استند فيها أصحابها (ومُعظمهم من اليهُود) إلى مفهوم السّاميَّة».

ثُمَّ يتابع د. سُلَيْمَان القول: «ولا شَكَّ في أنَّ البحث في "النّظريَّة السّاميَّة" مهمَّة شاقَّة بسبب هذه الكثرة من البُحُوث والمُؤلَّفات التي وُضعت حول لُغة وحضارة المنطقة. وممَّا يزيد البحث تعقيداً والباحث حَرَجاً أنَّها يهُوديَّة الأُصُول، اصطبغت بلون سياسي خاصٍّ بها.. ثُمَّ إنَّ مُعظم المُستشرقين قد استغلّوا الثّغرات الكثيرة في مُؤلَّفات رُوَّاد المُؤرِّخين العَرَب المُسلمين الذين أخذوا بمفهوم نظريَّة الأصل والنَّسَب التّوراتيَّة، فزادوا في تشويه تاريخ العَرَب والإسلام في إطار تاريخ الإنسانيَّة».

ويقصد الدُّكتُور سُلَيْمَان أنَّ المُؤرِّخين المُسلمين أخذوا بظاهر التّوراة دُون تمحيص أو تدقيق المعلومات الواردة فيها، لا سيّما وأنَّهم يعلمون مدى التّحريف والتّزوير الذي أحدثه اليهُود في التّوراة كما جاء في القُرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ سُورة النّساء 46. وقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ سُورة المائدة الآية 13.

وهكذا توطَّدت أركان هذه البدْعَة اليهُوديَّة الكاذبة المُزيَّفة، فأصبح العَرَب واليهُود أولاد عَمٍّ. فالعَرَب ينتسبون إلى إسماعيل، واليهُود إلى إسحاق ابنَيْ إبراهيم الخليل عليهم الصّلاة والسّلام. ولكن؛ هل اليهُود الحاليُّون هُم أبناء أحفاد يعقُوب بن إسحاق؟ وهل ينتهي نسبهم إليه؟؟! الجواب: لا. فاليهُوديَّة دين اعتنقه الكثيرون من غير نَسْل يعقُوب من أُمم شتَّى في مُعظم بقاع الأرض، حتَّى إنَّ عشرة من أسباط اليهُود الاثنَيْ عشر قد سَبَاهُم ملك الآشوريِّيْن سرجُون الثّاني إلى كُردستان، وهُناك اعتنقوا النّصرانيَّة فيما بعد، ولم يعد لهم صلة باليهُود واليهُوديَّة. وسنرى ذلك كُلَّه في البُحُوث القادمة إنْ شاء الله.

الفصل الثّاني:

العبريَّة والعبرانيُّون

كما نجح اليهُود في ربط أُصُولهم بأُصُول شُعُوب المنطقة العَرَبيَّة عن طريق بدْعَة "السّاميَّة"، كذلك أرادوا ببدْعَة العبريَّة وتسمية أنفسهم "عبرانيِّين" أنْ يربطوا تاريخهم بتاريخ شُعُوب المنطقة، وأنَّ عودتهم إلى فلسطين إنَّما هي العودة إلى أُصُولهم ووطنهم الذي نشؤوا، وترعرعوا فيه، وكوَّنوا دولتهم فيه، وهُو فلسطين: أرض المعاد كما يزعمون.

والآن؛ مَنْ هُم العبرانيُّون؟

يقول الدُكتُور أحمد سُوسة مُفنِّداً هذا الاصطلاح[1]: لقد اعتاد أكثر الذين كتبوا في تاريخ بني إسرائيل من الإفرنج أنْ يستعملوا "عبريّ" أو "عبراني" بغير معناها الذي جاءت به في المصادر القديمة؛ إذْ كانت هذه الكَلمة تُطلق حوالي الألف الثّانية قبل الميلاد - وفيما قبل ذلك - على طائفة كبيرة من القبائل العَرَبيَّة في شمال جزيرة العَرَب وبادية الشّام. وكانت العبريَّة (لُغة هؤلاء القوم) آنذاك لُغة أهل فلسطين الكنعانيَّة، ولُغة القبائل العَرَبيَّة في سيناء وشرق الأُردُن، ومنهم العمالقة والمديانيُّون وغيرهم من الأقوام العَرَبيَّة في المنطقة، حتَّى صارت كلمة "عبريّ" مُرادفة لابن الصّحراء، أو ابن البادية بوجه عامٍّ.

وبهذا المعنى وَرَدَتْ كلمة "الابريّ" و"العبيرو" و"الهبيري" في المصادر الفرعُونيَّة والمسماريَّة، ولم يكن لليهُود وُجُود في ذلك الوقت. ولمَّا وُجد اليهُود انتسبوا إلى مُوسى عليه السّلام، وفي عهده؛ كانوا - هُم أنفسهم - يقولون عن "العبريَّة": إنَّها لُغة كنعان "شفة كنعان"؛ أيْ لسان كنعان.

---

(1) الدُكتُور سُوسة: العَرَب واليهُود في التّاريخ، ص 540 - 554، باختصار.

والتّوراة تتحدّث عن العبرانيّيْن بصفتهم غُرباء عن اليهُود، وليسوا منهم، فقد وَرَدَ في الأحكام التي وَضَعَهَا مُوسى - عليه السّلام - لأتباعه ما يُشير إلى أنَّ الإسرائيلي (بمعنى اليهُوديّ): إذا اشترى عبداً عبرانياً، فستّ سنوات يخدم، وفي السّابعة يخرج حُرّاً مجّاناً[1].

واضح من هذا الكلام أنَّ العبرانيّ هُو غير اليهُوديّ في عُرف التّوراة[2]، لا سيّما وأنَّ تعاليم التّوراة لا تُبيح لليهُودي أنْ يستعبد أخاه اليهُوديّ[3].

وإذا استعرضنا الدّور الخطير الذي لعبه أهل البادية في تطوير حياة منطقة الشّرق الأوسط بأسرها نتيجة توغُّلهم في جميع أنحاء الهلال الخصيب في هجراتهم المُتتالية، تجلّت لنا ظاهرة اهتمام الأقوام القديمة بالعبيرو (أهل البادية)، فقد وَرَدَ ذكْرهم في جميع الكتابات القديمة، وذلك قبل ظُهُور مُوسى - عليه السّلام - بعشرات القُرُون عند السُّومريّيْن في أواخر الألف الثّالثة قبل الميلاد، وَوَرَدَ ذكْرهم - أيضاً - في نُصُوص "بابل"، و"ماري"، و"أُوغاريت". . إلخ، كما وَرَدَ ذكْر العبيرو في رسائل "تلّ العمارنة" المصريَّة. وقد دلَّت التّحريّات على أنَّ "العبيرو" تمكّنوا من احتلال مدينة أريحا قبل عصر مُوسى عليه السلام بحوالي قرنَيْن من الزّمان.

ولكنَّ كَتَبَةَ التّوراة والكُتّاب اليهُود بعدهم صاروا يستعملون مُصطلح "عبيرو" و"عبريّ" للدّلالة على اليهُود، بقصد إرجاع تاريخهم وأصلهم إلى العبرانيّيْن (عهد العبيرو القديم) الذي لا يمُتُّون إليه بأيَّة صلة.

وبعد اكتشاف لُغة (إيبلا) الكنعانيَّة القديمة؛ صرَّح خبير اللُّغات الإيطالي كلوفاني بيتيناتو Glovar pettinato (وهُو أحد المُكتشفين لهذه اللُّغة) بأنَّها هي الكنعانيَّة القديمة، مُؤيِّداً - بذلك - خبير اللُّغات (دايرنجر)، ولم يعد هُناك مجال لترويج الادّعاءات الصّهيُونيَّة القائلة بوُجُود العبريَّة بمعنى اليهُوديَّة مُنذُ أقدم الأزمنة، وأنَّها أقدم اللُّغات. وعلى الرّغم من ذلك كُلّه لا يزال الصّهاينة يُحاولون استغلال الكشف الجديد بدعوى أنَّ لُغة "إيبلا" تنحدر من لُغة التّوراة.

---

(1) سفر الخُرُوج، الإصحاح 21 الآية 2.

(2) هُناك نظريَّة حديثة تُحاول أنْ تشرح معنى اليهُود واليهُوديَّة، وهي نظريَّة مُثيرة للجدَل، للاطّلاع عليها؛ يُراجع كتاب (نهاية التّاريخ في الفكْر الإسلامي الحديث) للباحث علي سكيف، دار الأوائل، ط1، 2004.

(3) د. سُوسة، ص 543.

ولكنَّ الدُّكتُور عفيف بهنسي مُدير الآثار السُّوريَّة فَنَّدَ هذا الزّعم بقوله : « إنَّ لُغة "إيبلا" المُكتشَفَة تسبق أيَّ لُغة أو لهجة وَرَدَ فيها ذكْر التّوراة بما يزيد على ألفَيْ سنة ، فاللاَّحق هُو الذي يأخذ عن السّابق ، وبين التّاريخَيْن - تاريخ لُغة إيبلا وتاريخ ظُهُور التّوراة - قُرُون عديدة » .

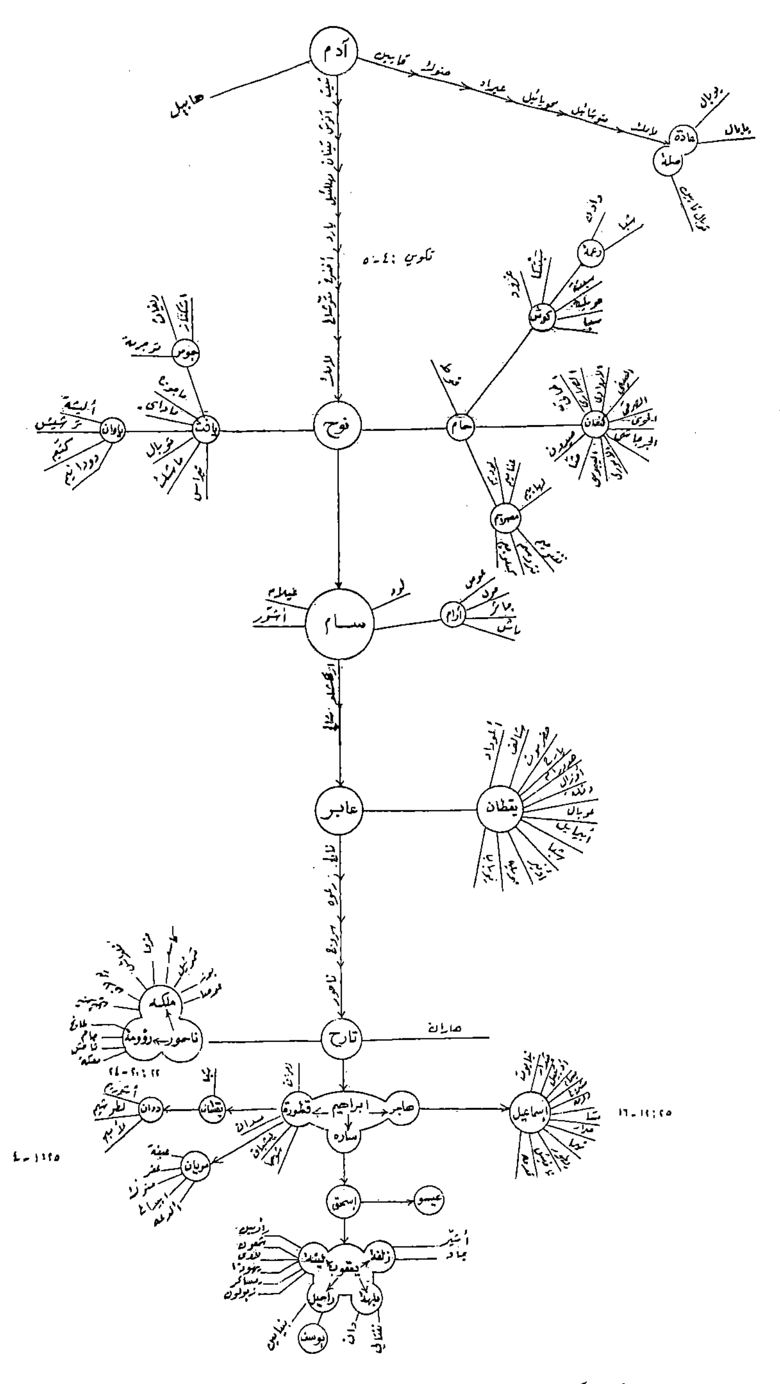
القُرآن والعبرانيَّة:

وأثْبَتُ دليل على صحَّة ما تقدَّم أنَّ كلمة "عبريّ" أو "عبراني" لم ترد في القُرآن الكريم مُطلقاً ، فقد وَرَدَ ذكْر الإسرائيليِّيْن بصيغة "بني إسرائيل" ، و"قوم مُوسى" ، و"يهُود" (الذين هادوا) ، وذلك يدلُّ على أنَّ العَرَب في زمن النّبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - لم يعرفوا اليهُود بغير التّسميات المذكورة ، فلو كانوا يُعرفون بالعبرانيِّيْن أو العبريِّيْن لَوَرَدَ ذكْرهم في القُرآن الكريم بهذه التّسمية ، وكذلك نجد أنَّ أشهر المُؤرِّخين العَرَب كانوا يُسمُّون اليهُود "بني إسرائيل" في كُتُبهم ؛ تمشِّياً مع نهج القُرآن الكريم .

والآشوريُّون قبل الإسلام بأكثر من ألف ومائتَيْ سنة سمّوهم "يهُود" ، فعندما دوَّن سنحاريب 781 - 705 ق . م تفاصيل حَمْلَته على مملكة "يهُودا" سمَّى "حزقيال" ملك "يهُوذا" (حزقيال اليهُوديّ) ، ولم يستعمل كلمة عبريّ ، أو عبراني ، وهذا دليل آخر على أنَّ كلمة "عبريّ" لم يسبق أنْ استُعملت للدّلالة على اليهُود في تلك العُصُور التّاريخيَّة القديمة .

إبراهيم الخليل عليه السلام واليهُود:

أورد بعضُ الباحثين أنَّ كلمة "عبريّ" مُشتقَّة من "عابر" ، وهُو أحد أسلاف إبراهيم الخليل عليه السّلام (انظر شجرة النَّسَب المُرفقة رَقْم 2) أو من اسم إبراهيم عليه السّلام ؛ حيثُ كان اسمه (إبرام" ، أو "برام") ، ومنه اشتُقَّ اسم "ابراني" أو "عبراني" وعبرانيُّون . وذلك حتَّى يصلَ اليهُودُ نَسَبَهُم بإبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام ، وأنَّه جَدُّهم الأعلى ، وأنَّهم عبرانيُّون ، ينتسبون إليه ، ويُسمَّون باسمه "عبراميُّون" ، ثُمَّ تحولت إلى "عبرانيُّون" .



مُخطَّط رَقْم (2) شجرة النّسب من آدم إلى يعقوب

(نقلاً عن كتاب أسطورة النّظرية السّاميَّة للدّكتور توفيق سُليمان)

ولكنَّ هذا كُلَّه غير صحيح، ولا سند لـه، وقـد نبَّـه القُرآن الكريـم إلى هـذه النّاحيـة؛ حيثُ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ سُورة آل عُمران من **64 - 67**.

ولهذه الآيات معنيان: الأوّل أنَّ اليهُوديَّة والنّصرانيَّة جاءت بعد إبراهيم عليه السّلام بزمن طويل، والمعنى الثّاني أنَّ إبراهيم - عليه السّلام - لم يكن يهُوديّاً ولا نصرانيّاً، بل كان حنيفاً مُسلماً، ودوره لا يتَّصل بدور اليهُود والنّصارى.

والحقيقة أنَّ استعمال كلمة عبريّ بمعنى يهُودي يربط اليهُود بأدوار تاريخيَّة قديمة لم يكن لهم وُجُود فيها.

ومن الجدير بالذِّكْر هُنا أنَّ البعض يُرجع تسمية اليهُود بـ "العبرانيِّين" لعُبُورهم البحر الأحمر عند خُرُوجهم من مصر مع مُوسى عليه السّلام، أو لعُبُورهم نهر الأُرْدُن عند دُخُولهم فلسطين من الشّرق (من جهة أريحا). (هذا ما تعلَّمناه في المرحلة الابتدائيَّة والإعداديَّة عند دراسة تاريخ بلادنا في العُصُور القديمة، ولكنَّه غير صحيح تاريخيّاً).

وأخيراً؛ هل هُناك علاقة بين: عَرَبيّ وعبريّ؟

نُلاحظ أنَّ هُناك تقارباً باللّفظ بين الكلمتَيْن، والدُّكتُور أحمد سُوسة يقول: إنَّ الكلمتَيْن من أصل واحد، وهُو يُرجِّح أنَّ كلمة "عَرَبي" مُشتقَّة من "عبري"، ويستدلُّ على ذلك بالتّسلسل الزّمني، فَلَفْظُ "عبري" سَبَقَ لفظ "عَرَبي"، فقد وَرَدَتْ كلمة "هبري"، و"عبيرو"، و"خبيرو"، في رسائل تلّ العمارنة في مصر، ويُقصَد بها البدو الرُّحَّل وسُكَّان البادية.

والدُّكتُور "لفنسون" يُؤيِّد ذلك بقوله: يُلاحظ أنَّ كلمة عبريّ ترتبط بكلمة عَرَبيّ ارتباطاً لُغويّاً متيناً؛ لأنَّهما مُشتقّتان من أصل واحد، وتدلاَّن على معنى واحد؛ وهُو أنَّ العبريِّين أو العَرَب هُم قبائل رُحَّل تنتقل بخيامها ومواشيها من مكان إلى آخر، أو تعبر البلاد في ترحالها طَلَبَاً للعشب والماء[1].

إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام:

هُو ابرام بن تارح بن ناحور بن سرُوُج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نُوح عليه السّلام (انظر شجرة الأنساب رَقْم 2 ص 51) هذا نَسَبُهُ في التّوراة.

وجاء في القُرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ سُورة الأنعام آية 74. وقد فَسَّرَ بعض المُفسِّرين أنَّ "تارح" هُو الاسم العلم لأبي إبراهيم، و"آزر" هُو اسمه الوصفي، كما يقول البيضاوي. أمَّا الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار؛ فيُعلِّق على ذلك بقوله[2]: «إذا صحَّ أنَّه كان لوالد إبراهيم - عليه السّلام - اسم علم، واسم وصفي، فيكون معنى الاسم الوصفي "آزر" المُعين، أو النّاصر؛ لأنَّ لفظ آزر؛ أيْ أعان، ساعد، نصر، ومنها الوزير؛ أيْ المُعين».

ولفظ آزر"، أو "عازر" موجُود في اللُّغات العَرَبيَّة القديمة، والتي منها لُغة إبراهيم عليه السّلام، وتسمية عازر، أو آزر، مُنتشرة عند اليهُود، ومنهم "أليعازر وايزمن" رئيس (إسرائيل) السّابق، ومعنى "أليعازر" الله يُعين، أو الله ينصر، لأنَّ إيلي تعني الله، وعازر أعان أو نصر، كما قُلنا قبل قليل، وقد تعني آزر، أو عازر، القويّ أيضاً.

وجاء في التّوراة أنَّ إبراهيم - عليه السّلام - كان فتى من أهل "فدان آرام" في العراق[3]. وكان قومه أهل أوثان، وكان أبوه نجَّاراً ينحت الأصنام، ويبيعها لِمَنْ يعبدها (ونصَّ على ذلك إنجيل برنابا)، وأنَّ إبراهيم كان قد أنار الله بصيرته، وهداه إلى الرُّشْد، فعرف أنَّ

---

(1) د. سُوسة: العَرَب واليهُود في التّاريخ، ص 551.

(2) النَّجّار: قَصَص الأنبياء، ص 70 (عبد الوهاب النَّجَّار).

(3) تقع في شمال شرق سُوريَّة بين الفُرات والخابور.

الأصنام لا تسمع، ولا تُبصر، ولا تضرُّ، ولا تنفع، وهي لا تزيد عن كونها قطعة من الخشب صنعها أبوه بيده.

ثُمَّ إنَّ إبراهيم - عليه السّلام - فكَّر، وتأمَّل فيمَنْ يكون مُبدع هذا الكون، وما حوى من مخلوقات، فهداه تأمُّله الواعي وفكْره السّديد إلى أنَّ "الله" تعالى هُو فاطر السّموات والأرض، وما فيهما من مخلوقات، وأيّده الله بالنُّبوَّة والرّسالة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ سُورة الأنعام من 74- 79.

من هذه الآيات الكريمة نرى أنَّ إبراهيم - عليه السّلام - أنكر على أبيه وقومه اتِّخاذهم الأصنام آلهة، ولم ترقه هذه الأصنام وعبادتها، فَظَنَّ أنَّ النّجم هُو الله، فلمَّا أفل، لم يُعجبه ذلك، فانتقل إلى القمر، فلمَّا أفل، انتقل إلى الشّمس، فلمَّا أفلتْ، علم أنَّ "الإله" سوى هذه كُلّها، فهداه الله إليه، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وعندما حاجَّه قومه، وخوَّفوه من سطوة آلهتهم وغضبها، أجاب إجابة المُؤمن الذي عرف أنَّ القادر على كُلِّ شيء هُو "الله" وحده بيده مقاليد السّماوات والأرض، فقال لهم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سُورة الأنعام 80 - 83.

وتُشعرنا قصَّة إبراهيم ـ عليه السّلام ـ في القُرآن الكريم أنَّ قومه كانوا يعبـدُون مُلُوكـهم مع آلهتهم الأُخرى، ويدلُّ على ذلك المحاجَّة التي جرت بين إبراهيم وبين الملك الـذي أراد أنْ يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المُخالفة لنحلة قومه، وقد قصَّ الله ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة آية 258.

وقد كانت مواقف إبراهيم ـ عليه السّلام ـ بالدّعوة إلى الإيمان بالله، ونَبْذ عبادة الأصنام والمُلُوك مُتعدِّدة: فتارةً؛ يحاجّ والده، وتارةً يحاجّ الجُمهُور، وتارةً يحاجّ الملك، وعندما آيس من إيمانهم بدعوته، فعل ما يستفزُّهم به، ويُقنعهم بأنَّ أصنامهم لا تضرُّ، ولا تنفع، فقام بتكسيرها؛ ليُكلِّموه بشأنها، ويُفهمهم ـ عمليّاً ـ بأنَّ أصنامهم لا تستطيع الدّفاع عن نفسها، كما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ الصَّافَّات 85 ـ 99.

ولكنَّ هذا كُلَّه لم يُجْد أمام كبرياء قومه، وإنكارهم العنيد، فقرَّروا حَرْقَهُ عليه السّلام كما جاء في سُورة الأنبياء: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [1] سُورة الأنبياء 68 ـ 72.

إنَّ في إقدام إبراهيم ـ عليه السّلام ـ على تكسير أصنام قومه جُرأة عظيمة لا يستطيع الإقدام عليها إلاَّ كُلُّ مَنْ كان الإيمان العميق يغمر قلبه، فلا يخاف إلاَّ اللهَ، ولا يحسب

---

(1) قَصص الأنبياء، عبد الوهاب النَّجَّار، من 80 ـ 83، باختصار.

حساباً إلاَّ لله، ولا يهمُّه إلاَّ مرضاة الله. وبسبب هذا الإيمان العميق استقبل إبراهيم عليه السلام الحَرْق بالنّار بنفس مُطمئنَّة هادئة، مُستسلماً لقضاء الله. وروى البُخاري في صحيحه عن ابن عبَّاس أنَّ إبراهيم عليه السلام عندما أُلقيَ في النّار قال: حسبي الله، ونعْمَ الوكيل.

لذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم في حقِّ إبراهيم الخليل: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ سُورة النّحل 120.

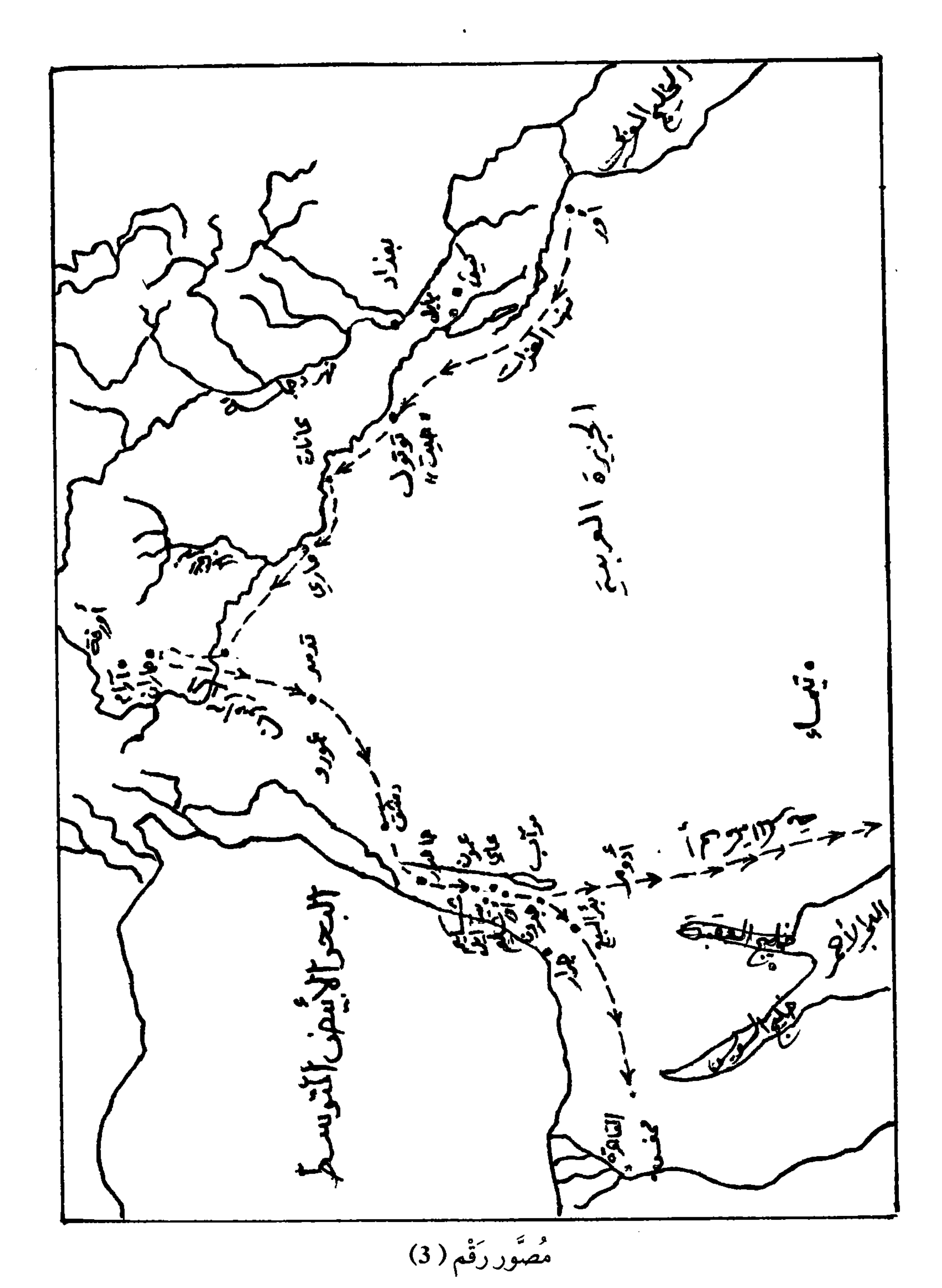
وبعد نجاته - عليه السّلام - من النّار رحل إلى فلسطين ﴿ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾، ولكنْ؛ كيف انتقل إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، وما الطّريق التي سلكها في رحلته؟ لا يذكر القُرآن شيئاً عن ذلك، لذلك سنرجع إلى التّوراة، وإلى المُكتشفات الأثريّة حول ذلك.

يُحَدِّثنا الدُّكتُور أحمد سُوسة في هذا الصَّدَد فيقول[1]: «إنَّ أحدث التّحقيقات الآثاريّة التي وَصَلَ إليها العُلماء تُشير إلى أنَّ إبراهيم الخليل ظهر في القرن التّاسع عشر قبل الميلاد (أيْ قبل حوالي أربعة آلاف سنة من الآن). وهذا يتَّفق مع ما ذَكَرَهُ بعض المُؤرِّخين العَرَب في تعيين تاريخ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد حدَّد المسعودي الفترة المُمتدَّة بين عهد إبراهيم الخليل وبين خُرُوج مُوسى (عليهما السّلام) من مصر بـ 587 سنة. ولمَّا كان العُلماء قد توصَّلوا إلى تعيين زمن الخُرُوج بالقرن الثّالث عشر قبل الميلاد، فيكون هذا التّحديد مُطابقاً تماماً لما وَصَلَ إليه العُلماء بتعيين زمن إبراهيم الخليل في القرن التّاسع عشر قبل الميلاد.

ويتَّفق المُؤرِّخون على أنَّ مولد إبراهيم الخليل كان في العراق، إلاَّ أنَّ الرّوايات قد اختلفت في تعيين مكان ولادته في العراق، فبعضهم ذكر أنَّ مولده كان في "أور" جنوب العراق، وبعضهم الآخر عيَّنه في بلدة "أوروك" (الورقاء)، ومصادر أُخرى تقول إنَّ مدينة "كوثا" كانت مسقط رأسه، وفيها طُرح في النّار، وأطلال مدينة كوثا (أو كيث) مازالت قائمة حتَّى يومنا هذا، وتُسمَّى "تلّ إبراهيم"، وتقع في أرض السّواد قُرب بابل، وإلى جانب التَّلِّ مزار يُعرَف بمقام إبراهيم، وإنَّ أكثر المراجع الإسلاميَّة تُؤكِّد ولادته في "كوثا" (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 3).

---

(1) د. أحمد سُوسة: العَرَب واليهُود في التّاريخ، ص 554 - 579، باختصار.



مُصَوَّر رَقْم (3)

الاتّجاه الذي سلكه إبراهيم الخليل في طريقه من أور إلى حران وإلى كنعان فمصر فالحجاز 1900 – 1850 ق.م

عن كتاب (العرب واليهُود في التاريخ ، ص 563)

هذا؛ وقد أبدى بعض المُؤرِّخين شكّاً في كون مولد إبراهيم الخليل في العراق، ويميل هؤلاء إلى الرّأي القائل بأنَّ هُناك مدينة أُخرى باسم "أور" غير أور العراقيَّة تقع بالقُرب من حرَّان أو حاران عُرفت باسم "حور" أو مدينة أورفه في المنطقة نفسها، وهذه المدينة تشتمل على عدَّة مواقع مقرونة باسم إبراهيم الخليل أيضاً (انظر المُصوَّر السّابق نفسه رَقْم 3 ص 57).

وإنِّي أميل إلى هذا الرّأي، وذلك أنَّ مولده - عليه السّلام - كان في شمال شرق سُوريَّة في منطقة آرم فدان في أورفه (أي حور) للأسباب التّالية:

1 - إنَّ أهله وأقاربه كانوا يعيشون في تلك المنطقة، وإنَّ ارتباطه بهم كان وثيقاً، بدليل أنَّه رَفَضَ أنْ يُزوِّج ابنه إسحاق من بنات الكنعانيِّيْن الذين كان يعيش بين ظهرانيهم في جنوب فلسطين (في الخليل)، وأرسل خادمه إلى حاران؛ ليأتي له بابنة بتوئيل بن ناحور أخي إبراهيم عليه السّلام واسمها "رفقة"؛ ليُزوِّجها لابنه إسحاق عليه السلام.

وكذلك فعل إسحاق عليه السّلام، فقد أوصى ابنه يعقُوب عليه السلام بأنْ يذهب إلى حاران، وأنْ يتزوَّج من بنات خاله لابان، وفعلاً؛ ذَهَبَ يعقُوب إلى حاران، وتزوَّج من ابنَتَيْ خاله "ليئة" و"راحيل" (وسنتكلَّم عن ذلك كُلِّه بالتّفصيل فيما بعد).

2 - إنَّ كُلَّ نبيٍّ يأتي لهداية قومه فلماذا لا يكون إبراهيم عليه السلام هادياً لقومه في منطقة حاران؟

3 - إنَّ رحيل إبراهيم - عليه السّلام - من بلاد آرام فدان (حاران) إلى فلسطين أيسر وأسهل وأقرب من رحيله الطّويل من أور أو كوثا (انظر المُصوَّر السّابق رَقْم 3 ص 57)، وتُبيِّن رحلة إبراهيم من أور إلى حاران إلى فلسطين فيه، ولاحظْ أنَّ الرّحلة من أورفه إلى فلسطين أَيْسَر.

لقد أحببتُ أنْ أُورد هذا الرّأي الجديد حول مكان ولادة إبراهيم عليه السلام لقناعتي أنَّه الأقرب إلى العقل والمنطق، ولكنِّي سأتكلَّم - فيما يلي - عن إبراهيم عليه السلام مُعتبراً أنَّ مولده في "كوثا" في سواد العراق (جنوبه)؛ لأنَّ أغلب المُؤرِّخين تقول به، أو بمدينة أور قُربها (انظر المُصوَّر رَقْم 3 ص 57).

وعلى كُلِّ حال؛ يبقى إبراهيم من الآراميِّيْن ومركزهم الأوّل في حاران، ومنها تحدَّرت أُسرة إبراهيم إلى كوثا أو أور في جنوب العراق.

وهكذا؛ فإبراهيم الخليل عليه السلام ينتمي إلى القبائل الآراميَّة حسب رواية التّوراة، وهي قبائل عَرَبيَّة نزحت من موطنها الأصلي في جزيرة العَرَب، واستقرَّت على ضفاف الفُرات والخابور في شمال وشمال شرق سُوريَّة، ثُمَّ تحدَّرت بعض عشائرها إلى العراق، ومن جُملتهم أُسرة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وإذا أخذنا بما توصَّل إليه المُؤرِّخون حول تعيين تاريخ هجرة الآراميِّين فتكون أُسرة إبراهيم الخليل عليه السلام قد جاءت إلى منطقة بابل حوالي أوائل الألف الثّاني قبل الميلاد. وهكذا يُمكن القول إنَّ إبراهيم الخليل كان عراقيّاً بالولادة، عَرَبيّاً في قوميَّته التي ترجع إلى وطنه الأصلي في الجزيرة العَرَبيَّة وحياته في بلاد الشّام؛ حيثُ دُفن في الخليل.

مُلاحَظَة:

والآراميُّون هؤلاء كانوا خاضعين للعموريِّيْن في أوَّل عهدهم، ثُمَّ ابتداءً من حوالي 1500 ق. م أخذوا بتشكيل ممالك خاصَّة بهم في شمال ووسط بلاد الشّام منها ممالك: آرم النّهرَيْن، دمشق، صوبا. إلخ، وهُم يُعاصرون الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة وعاصمتها نينوى، قُرب الموصل الآن، والدّولة الكلدانيَّة (بابل الثّانية) على الفُرات الأدنى، وأشهر مُلُوكها نبوخذ نصر أو بختنصر الذي سبى يهُود مملكة "يهُوذا" إلى بابل، كما سيمرُّ معنا فيما بعد.

وقد وُجد ذكْر إبراهيم الخليل عليه السلام مقروناً بعهد الملك نمرود بن كنعان[1]. وممَّا وَرَدَ في ذلك: أنَّ الملك نمرود دَفَعَتْهُ أحلامه المُزعجة إلى مُراقبة الحوامل، وقَتْل الذُّكُور من مواليدهنَّ، وزار عمٌّ لإبراهيم أُمَّه للكَشْف عليها قبل أنْ يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين في الجانب الأيسر، وجسّوا الجانب الأيسر، فاختفى الجنين بالجانب الأيمن، فانصرفوا دُون أنْ يظفروا بطائل، الأمر الذي اضطُرَّ "عوشاء" أُمّ إبراهيم إلى أنْ تلجأ إلى كهف بالقُرب من "كوثا"، وهُناك رأى إبراهيم الخليل نُور الحياة للمرَّة الأُولى[2].

---

(1) هُو نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن حام بن نُوح. وبين مولد إبراهيم عليه السلام وطُوفان نُوح عليه السلام 1263 عاماً (وَرَدَ ذلك في قَصَص الأنبياء للثّعالبي، ص 43).

(2) أورد ذلك: الكسائي، والثّعالبي، والطّبري، والزّمخشري، والبيضاوي، وابن الأثير.

ولمّا نادى إبراهيم الخليل عليه السلام بعقيدة التّوحيد بين قومه الوثنيّين، لاقى كثيراً من أنواع العَنَت والاضطهاد، ثُمَّ أُجبر على مُغادرة مدينة "أور" أو "كوثا" بعد فشل مُحاولة حَرْقه بالنّار.

خرج إبراهيم عليه السلام ومعه زوجته سارة وابن أخيه لُوط وما يملك من خَدَم ومواش، واتَّجه إلى حاران (حرَّان حاليّاً في شمال سُوريَّة) إلى عشيرته هُناك، ومنها انحدر جنوباً، مُتَّجهاً إلى أرض كنعان (فلسطين)، حتَّى وَصَلَ إلى "شكيم" (نابلس الآن)، ولم يطلْ به المقام بها، فانحدر جنوباً إلى الخليل، ثُمَّ بئر السّبع، ثُمَّ اضطُرَّه جَدْبٌ حَدَثَ هُناك إلى الذّهاب إلى مصر.

وقد وَرَدَ في التّوراة[1]: أنَّه حَدَثَ جَدْبٌ في فلسطين، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى مصر، وأظهر أمام ملكها أنَّ التي معه (وهي زوجته سارة) هي أُخته، وأراد الملك أَخْذَهَا زوجة له، فرأى في منامه أنَّها ذات بَعْل، فعاتب إبراهيم على ادّعائه أنَّها أُخته، وأعطاه أموالاً وماشية وجواري وعبيداً، ومنهم "هاجر أُمّ إسماعيل"[2]. ثُمَّ عاد إبراهيم إلى فلسطين، وكان معه لُوط الذي تبع عمَّه في رحلاته، وقد أغدق عليه ملك مصر كما أغدق على إبراهيم، فتكاثرت أموالهما ومواشيهما، ممَّا اضطُرَّ لُوط إلى الافتراق عن عمِّه عن تراضٍ؛ لأنَّ الأرض لم تعد تتَّسع لمواشيهما، فنزل لُوط أرض سدُوم في دائرة الأُردُن.

ولابُدَّ من التّنويه بأنَّ وُصُول إبراهيم عليه السلام إلى مصر واتِّصاله بفرعُونها حسب ما جاء في التّوراة يلقى مُعارضة قويَّة من كثير من المُؤرِّخين الأجانب والعَرَب، وأنَّه ـ عليه السّلام ـ وَصَلَ إلى مصرايم، أو مسرائيم، أو مسترائيم، على وادي العريش في سيناء، وكان اسمه

---

(1) راجع سفْر التّكوين، الإصحاحات 12 و13.

(2) الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار يُنكر ويستنكر قصَّة ملك مصر مع زوجة إبراهيم الخليل، فيقول تعليقاً على ذلك: «وأنا أستبعد ما جاء في التّوراة حول ذلك، وأُحذِّر كُلَّ مُؤمن أنْ يُصدِّق ما جاء بها، فإنَّها تُوهم أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يستغلُّ وضاءة وجه سارة زوجته وجمالها استغلالاً شائناً ومُعيباً، فهي تذكر أنَّه اتَّفق معها على أنْ تقول إنَّه أخي، وهُو يقول أُختي لئلاَّ يقتلوه، ويأخذوها. وأنا أُعيذ إبراهيم من هذا التَّصرُّف الشّائن، حتَّى إنَّ سارة لمَّا كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر، والمرأة في مثل هذا السِّنِّ لا تكون مرغوبة، وخاصَّة من ملك يستطيع الزّواج من أجمل البنات وأصغرهنَّ سنّاً»، (قَصَص الأنبياء للأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار).

هذا؛ ولم يرد في القُرآن الكريم أيَّة إشارة إلى هذه الحادثة، أو إلى سَفَر إبراهيم إلى مصر، وعودته منها.

وادي مصر ، ولم يدخل مصر وادي النّيل ، ومن هؤلاء (هوكو فنكلير) في كتابه "دراسة في العهد القديم" ، وكذلك العالم الفرنسي الشّهير (لودس) ، ومن المُؤرِّخين العَرَب الدُكتُور جواد علي ، أمَّا الدُكتُور أحمد داود والأُستاذ كمال الصّليبي ؛ فيجعلون مصرايم في الجزيرة العَرَبيَّة ، وفي عسير بالتّحديد ، وليس في سيناء .

وكانت "مصرايم" الواقعة على وادي العريش في سيناء (أو وادي مصر) محطَّة تجاريَّة هامَّة على طريق القوافل التّجاريَّة إلى مصر وادي النّيل والقادمة من الجزيرة العَرَبيَّة ، أو من بلاد الشّام ، فهي بوَّابة مصر الشّرقيَّة على الشّرق العَرَبيّ (وهي تُشبه تدمر في بادية الشّام ، التي كانت تمرُّ بها القوافل التّجاريَّة إلى حمص وطرابلس) .

وكان سُكَّان مصرايم من العَرَب العماليق ، ويتبعون مُلُوك مصر وادي النّيل ، وهُم الذين كان يُطلق على حُكَّامهم لقب "فرعُون" ، وليس مُلُوك مصر وادي النّيل ، حتَّى إنَّ اسم فرعُون يُوحي بمعنى الفرع ؛ أيْ أنَّ مصرايم فرع تابع لمصر وادي النّيل ، وحاكمها فرعُون ؛ أيْ حاكماً لهذا الفرع .

حتَّى إنَّ الطّبري أورد أنَّ فرعُون مصر (مصرايم) عند وُصُول إبراهيم إليها هُو سنان بن عُلوان بن عُبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح . والاسم ـ كما ترون ـ والنَّسَب عَرَبيّ صميم ، ولا علاقة له بأسماء مُلُوك مصر وادي النّيل ، حتَّى إنَّ الجارية التي أهداها الفرعُون لإبراهيم خادمة لسارة هي "هاجر" ، واسمها ـ أيضاً ـ عَرَبيّ .

وسنُناقش هذا الخطأ الجَغرافي بين مصر ومصرايم الذي وقع فيه المُؤرِّخون الذين أخذوا بحرفيَّة التّوراة دُون مُناقشة ، وذلك عند الحديث عن يعقُوب عليه السلام وذُرِّيَّته ، وهجرته إلى مصر ، وخُرُوج مُوسى عليه السلام من مصر ، والتي هي ـ بالتّأكيد ـ مصر وادي العريش في سيناء ، وليست مصر وادي النّيل .

وبالمُناسبة ؛ فإنَّ المُؤرِّخين اختلفوا في تحديد زمن إبراهيم وإسحاق وإسماعيل عليهم السّلام ، فالمُستشرقون يُحدِّدُونه بحوالي 1900 ـ 1800 ق . م ، ويأخذ برأيهم الدُكتُور أحمد

سُوسة ، أمَّا الدُّكتُور أحمد داود فيُحدِّده بـ 1500 ق . م . وإنِّي أميل إلى الأخذ بالرّأي والتّحديد الأوّل ؛ لأنَّ الشّواهد التّاريخيَّة اللاَّحقة تُؤيِّد هذا التّحديد .

الطّريق التي سَلَكَهَا إبراهيم ﷺ في هجرته إلى أرض كنعان:

راجع المُصوَّر رَقْم 3 ص 57

يتَّفق الخُبراء على أنَّ إبراهيم الخليل ﷺ سَلَكَ طريق الفُرات الأيمن في رحلته من أور إلى حرَّان ، وهي الطّريق نفسها التي تسلكها القوافل التّجاريَّة وغيره . وكانت مع إبراهيم جماعته المُؤلَّفة : من زوجته سارة ، وابن أخيه لُوط ، وخَدَمه ، ومُمتلكاته من قطعان الغنم والماعز والحمير ، فيكون قد قطع في هذه الرّحلة بين أور وحرَّان حوالي 900 كم ، ومرَّ بمدينة "ماري" العَرَبيَّة عاصمة العموريِّيْن قُرب مدينة البُوكمال السُّوريَّة الحاليَّة ، وكانت هذه المدينة - آنذاك - تتمتَّع بأوج ازدهارها ، ثُمَّ ذَهَبَ إلى حاران (حرَّان الحاليَّة) ، وبعد ذلك غادر حرَّان ، مُتوجِّهاً إلى دمشق عن طريق تدمر ، ثُمَّ إلى بلاد كنعان (فلسطين) ، قاطعاً - أيضاً - حوالي 960 كم أُخرى بين حرَّان وبلاد كنعان .

أمَّا إذا أخذنا بالرّأي الثّاني بأنَّ مولد إبراهيم ﷺ وظُهُوره كان في (حور) أو "أورفه" في منطقة حاران أو حرَّان ، وليس في أور أو كوثا في جنوب العراق ، فعندها لا يحتاج إبراهيم إلاَّ إلى قطع نصف المسافة السّابقة من حاران إلى كنعان فقط (انظر المُصوَّر رَقْم 3 ص 57) .

هذا ؛ وقد ذَهَبَ المُؤرِّخ الأُستاذ (لُورد) إلى أنَّ الطّريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمُحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفُرات (أيْ الجانب الشّرقي) ، ولكنَّها فرضيَّة غير مقبولة ؛ لكثرة العوارض في هذا الجانب ، فضلاً عن أنَّ جميع المُدوَّنات القديمة تُشير إلى أنَّ الطّريق العامَّ (طريق القوافل التّجاريَّة) كان يسير بمُحاذاة الجانب الأيمن من الفُرات ، ماراً بمدينة هيت وعانة (في العراق) ، ثُمَّ ماري القديمة ، ثُمَّ الميادين ودير الزّور الحاليَّتيْن ، وعند الرَّقَّة يعبر النّهر ، ثُمَّ يصعد شمالاً مع نهر البليخ ، حتَّى يصل إلى حرَّان أو حاران (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 3 ص 57) .

مَكَثَ إبراهيم ﷺ قليلاً في شكيم (نابلس حاليّاً) بعد وُصُوله إلى بلاد كنعان ، ثُمَّ تابع سيره إلى بادية بئر السّبع ؛ حيثُ استقرَّ ، ولكنَّ الجَدْبَ هُناك اضطُرَّه إلى السَّفَر إلى مصر وادي النّيل ، أو إلى مصرايم على وادي العريش (أو وادي مصر) في سيناء .

إنَّ هذه الرّحلة الطّويلة - سواء كانت من أور أو كوثا إلى حاران، ثُمَّ إلى فلسطين ومصر، أو التي اقتصرت على الرّحلة من حاران إلى فلسطين ومصر (حسب الرّأي الثّاني الذي يجعل أور أو حور في حاران) - رحلة طويلة قطع فيها إبراهيم عليه السلام مئات الكيلُومترات، وقد يظنُّ القارئ أنَّها رحلة طويلة مُضنية شاقَّة، ولكن؛ علينا أنْ نتصوَّر أنَّها كانت رحلة انتجاع، رحلة رُعاة ينتقلون بمواشيهم تنقُّلاً بطيئاً من مرعى إلى مرعى، ومن ماء إلى ماء، سواء كان نبعاً أو بئراً أو نهراً، وكان أثاثهم بسيطاً، وأدواتهم قليلة، تفي بحاجات الحياة الرّعويَّة، تُحمل هي وخيامهم عند الرّحيل على ظُهُور جمالهم وحميرهم، وما أسهل نصب الخيام، وفكّها، أو هدمها عند الرُّعاة، ويقوم بذلك الخَدَم والعبيد عادةً.

والدُّكتُور أحمد سُوسة يعتقد أنَّ رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر وادي النّيل، وليس إلى مصرايم وادي العريش، ويذكر أنَّ مصر وادي النّيل كانت تتمتَّع - في تلك الفترة - بالاستقرار والرّخاء في ظلِّ الأُسرة الثّانية عشرة، وخاصَّة في عهد سنوسرت الثّاني **1890 - 1877** ق. م، وسنوسرت الثّالث **1872 - 1843**، الذي تمكَّن من بسط نُفُوذ مصر على بلاد كنعان (فلسطين الآن).

ثُمَّ يذكر الدُّكتُور سُوسة العلاقات التّجاريَّة بين مصر وادي النّيل والأقطار المُجاورة فيقول: «لقد توطَّدت علاقات تجاريَّة قويَّة مُزدهرة بين مصر والأقطار المُجاورة، فكانت مصر تجلب التّوابل والبهارات وما إلى ذلك من الموادِّ العطريَّة والصّمغيَّة التي كانوا يستعملونها في معابدهم وفي التّحنيط من جنوب الجزيرة العَرَبيَّة، كما كانت تجلب الماسَ وحجر الزّبرجد والفيروز من مناجم طُور سيناء، والفضَّة من جبال طورُوس شمال سُوريَّة، والأخشاب من لُبنان، وكانت بلاد كنعان - إذْ ذاك - حلقة وَصْل بين مصر والبلاد العَرَبيَّة الأُخرى (الجزيرة العَرَبيَّة والعراق وسُوريَّة)، لذلك؛ فذهاب إبراهيم إلى مصر كان أمراً طبيعيّاً؛ نظراً للرّوابط المتينة والصّلات الوثيقة التي كانت تربط الكنعانيِّين بمصر»[1].

---

(1) المرجع الأساسي في الموضوع السّابق هُو "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، د. أحمد سُوسة، من 562 - 572، باختصار، وقَصَص الأنبياء، الأُستاذ عبد الوهاب النَّجّار، القسم الخاصّ بإبراهيم عليه السلام.

مكانة إبراهيم عليه السلام في البلاد العَرَبيَّة التي تجوَّل فيها:

لقد قطع إبراهيم الخليل ـ عليه السّلام ـ مسافات طويلة، وتجوَّل في مساحات شاسعة في بلاد المشرق العَرَبيّ، مُتنقِّلاً بين القبائل والأقاليم العَرَبيَّة، من العراق، إلى الشّام، إلى مصر، حتَّى الجزيرة العَرَبيَّة؛ حيثُ أَسْكَنَ ابنه إسماعيل وأُمَّه هاجر في مكان مَكَّة المُكرَّمة الآن، مُحتكَّاً بعشائرها، مُطَّلعاً على مُدُنها وقُراها، ففي سيرته هذه تتجلَّى لنا الرّسالة الرُّوحيَّة الإنسانيَّة التي كان يحملها معه أينما حلَّ، وفي سيرته هذه تتجلَّى ـ أيضاً ـ الرّابطة القوميَّة التي تربط العالم العَرَبيّ بعضه ببعض بوشائج اللُّغة، والثّقافة، وأُسلُوب الحياة، والتُّراث الصّحراوي الباعث على النُّبُوغ والتّسامي الرُّوحي في سماء الرُّوحانيَّات التي انبثقت منها النُّبُوَّة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، التي تربط الخالق بالمخلوق، فكان إبراهيم الخليل عليه السلام ـ والحالة هذه ـ رسولاً حاملاً رسالة التّوحيد بين وادي الفُرات ووادي النّيل وقلب الجزيرة العَرَبيَّة قبل الرّسالة المُوسويَّة بسبعمائة سنة.

وقد استُقبل إبراهيم الخليل أينما حلَّ بكُلِّ ترحاب؛ لما كان يتمتَّع به من سُمعة طيِّبة، وشُهرة عظيمة، ولما يحمله من مبادئ سامية وتعاليم رُوحانيَّة سَمْحَة؛ وخاصَّة بعد إخفاق القضاء عليه بالحَرْق.

ففي حرَّان؛ كان بين عشيرته وأقربائه من الآراميِّيْن الذين كانوا قد استقرّوا في منطقة حرَّان قبل فترة وجيزة. وفي بلاد كنعان استقبله الكنعانيُّون بالتّحيَّة والتّعظيم، وقد سَبَقَ لهم أنْ استقرّوا في فلسطين ـ أرض كنعان ـ مُنذُ أوائل الألف الثّالثة قبل الميلاد، وهُم ـ كما قُلنا، كالعموريِّيْن في العراق وشمال سُوريَّة ـ عَرَب ساميُّون هاجروا من الجزيرة العَرَبيَّة، وفي مصرايم على وادي العريش في شبه جزيرة سيناء التقى فرعُون مصرايم من العَرَب العماليق[1]، وفي الحجاز مرَّ بالقبائل العَرَبيَّة التي كانت تجوب غرب الجزيرة العَرَبيَّة.

وكان هؤلاء كُلُّهم يتكلَّمون لُغة واحدة هي لُغة الجزيرة العَرَبيَّة الأُمّ قبل أنْ تتفرَّع إلى لهجات ولُغات عديدة، وكُلُّهم يجمعهم أصل واحد، ولا وُجُود لغير العَرَب بينهم.

---

(1) هذا؛ على اعتبار أنَّ إبراهيم الخليل لم يدخل مصر وادي النّيل، وإنَّما دَخَلَ مصرايم في شمال سيناء، وهي الأقرب للصّواب كما سنرى.

أمَّا ذكْر التّوراة أنَّ بعض الحثّيّن قد حلّوا في أرض كنعان كـأفراد أو جماعـات، فقد جـاء في التّوراة أنَّ إبراهيم الخليل ﷺ اشترى من عفرون بن صوحر الحثّي مغارة المكفيلة؛ ليتّخذها مقبرة له ولسارة امرأته[1]، ولكنَّ الحثّيَّ هذا ليس من الحثّيّـن الذين استقرّوا في أقصى شمال سُوريَّة والأناضول في تُركيا، وإنَّما هُو عَرَبيٌّ كنعاني وحثّي هُو اسم عادي أو لقب.

وقد وَرَدَ في التّوراة ذكْر قبائل وعشائر كثيرة وهي كُلُّها كنعانيَّة أو عموريَّة؛ مثل: القبنيّيْن، والقدريّيْن، والقدُوميّيْن، والغريزيّيْن، والرّفائيّيْن، والحرشانيّيْن، واليبوسيّيْن.

وممَّا يُذكر - بهذه المُناسبة - أنَّ القبائل العَرَبيَّة المُنقرضة (البائدة) التي أشار إليها الإخباريُّون العَرَب، والتي وَرَدَ ذكْرها في القُرآن الكريم مثل عـاد وثمود والعمالقة، كانت موُجُودة في عصر إبراهيم عليه السّلام، وقد مرَّ معنا اتِّصاله بالعمالقة (أو العماليق) في مصرايم في سيناء، واتِّصاله بثمود التي كانت تسكن بلاد مدين في شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة أثناء ذهابه وإيابه إلى مكان مكَّة المُكرَّمة، بعد أنْ أسكن زوجته هاجر وابنه إسماعيل ﷺ في تلك المنطقة.

ومن المُرجَّح جداً أنَّ إبراهيم الخليل كان على اتِّصال وثيق برُؤساء هذه الإمارات والعشائر العَرَبيَّة المُنتشرة في أنحاء الجزيرة العَرَبيَّة، والتي كان لها دور هامٌّ في تنشيط الحَركَة التّجاريَّة في الشّرق الأوسط؛ بسيطرتها على طُرُق القوافل بين العراق والشّام ومصر والجزيرة العَرَبيَّة (وخاصَّة اليمن).

وقد عدَّ العَرَبُ القبائل العَرَبيَّة البائدة هذه من نسل آرم بن سام؛ أيْ أنَّ هذه القبائل والعشائر الآراميَّة التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل ﷺ كانت ترجع إلى أصل واحد.

وهكذا؛ فقد كان إبراهيم الخليل ﷺ مُرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالجزيرة العَرَبيَّة وبعشائرها وقبائلها، وقد وَرَدَ في القُرآن الكريم ما يُؤيِّد ذلك؛ حيثُ جاء اسما إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل - عليهما السّلام - مقرونَيْن بالجزيرة العَرَبيَّة، وبالبيت العتيق في مكَّة المُكرَّمة؛ كما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى

(1) سفْر التّكوين، الإصحاح 23، 9 - 10.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا
وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ﴾ سُورة البقرة 125 ـ 128.

إبراهيم الخليل عليه السلام والمُدوَّنات التّاريخيَّة:

في ما سَبَقَ كُلِّه؛ تحدَّثنا عن إبراهيم الخليل عليه السلام كما وَرَدَ في التّوراة والقُرآن الكريم، ولكنْ؛ بعد الاكتشافات الأثريَّة الهائلة في منطقة الشّرق الأدنى وقراءة مُدوَّناتها، فهل لإبراهيم عليه السلام ذكْر في هذه المُدوَّنات[1]؟

نعم؛ لقد ظهر في المُدوَّنات التّاريخيَّة القديمة التي اكتشفها الآثاريُّون أنَّ هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام هي حقيقة واقعيَّة لا مجال للشَّكِّ فيها. فقد وَرَدَ في هذه المُدوَّنات ما يُشير إلى وُقُوع نزاعات دينيَّة أساسيَّة في العراق في حوالي نفس الفترة التي هاجر فيها إبراهيم الخليل، وانبثقت من هذه المُنازعات والحوارات عقيدة التّوحيد التي بشَّر بها إبراهيم الخليل عليه السلام، وأصبح هُو المُؤسِّس لها، وحامل لوائها، وتُشير النُّصُوص القديمة التي عُثر عليها أنَّ سُلالة من السُّلالات البابليَّة حكم فيها أُمراء كانوا يتقبَّلون عقيدة التّوحيد، وأخذوا بها، إلاّ أنَّ الوثَنِيِّين انتزعوا منهم الزّعامة، وأخرجوهم من البلاد، وهذا نصُّ ما أورده المستر (فيلبي) في هذا الصّدد: «إنَّ العَرَب الجنوبيِّين (ويقصد أهل جنوب جزيرة العَرَب) نقلوا معهم إلى بابل إله القمر الذي كانوا يعبدُونه، وقد احتلَّ هذا الإله مكانة رفيعة بين مجموعة الآلهة، ثُمَّ انبثقت بذرة الخالق الأوحد العظيم الذي يُسيِّر جميع هذا الكون، وهي تُعدُّ أعظم ما قدَّمته الإنسانيَّة في تاريخ العالم. وتُنسب الأقوال المُتواترة في هذه المرحلة من التّفكير الإنساني إلى الأب "أبراهام" (أيْ إبراهيم) الذي كان حامل لواء الفكْرة الجديدة. ويظهر أنَّ هذه الفكْرة

(1) د. أحمد سُوسة: العَرَب واليهُود في التّاريخ، من 566 ـ 570، باختصار.

الجديدة قد حازت إقبالاً وقبولاً من الوَثَنِيِّين، ففي بعض الألواح التي عثر عليها المُنقِّبون في منطقة بابل ما يُوَضِّح جليّاً ثلاثة مُلُوك يُؤلِّفون سُلالة بابليَّة قد حكموا بعقيدة التّوحيد، إلاَّ أنَّ الوَثَنِيِّين أسقطوا الملك الثّالث، ونفوه من البلاد، ولو فحصنا - بدقّة - ما وَرَدَ في المُدوّنات البابليَّة وفي كتاب التّوراة لوجدنا الأدلَّة الكافية على أنَّ هذا الملك إنْ هُو إلاَّ "أبراهام" الذي غادر بابل مُتوجِّهاً إلى فلسطين، وذلك بعد سُقُوط السُّلالة المُوحِّدة المذكورة».

ويُضيف المستر فيلبي: «إنَّ أسماء هؤلاء المُلُوك الثّلاثة هي أسماء عَرَبِيَّة سامِيَّة مُقترنة باسم الإله الواحد:

فاسم الأوَّل "إيلوما إيلوم" **mIluma Ilu**، ومعناه "الله هُو الإله الواحد".

واسم الملك الثّاني "إيتي - ايل - نيبي" **Itti – Ili - nibi**، ومعناه "الله هُو حسبي"، أو كما نقول "حسبي الله".

وأهمُّ هذه الأسماء هُو اسم الملك الثّالث: "ياتي إيل" **Yati Ite**، ومعناها كما ترجمه العالم "دوتي" (**Doughty**): "الله الواحد صديق له"، وصديق الله؛ أيْ "خليل الله"، وهُو اسم النّبي (إبراهيم الخليل) عليه السّلام كما وَرَدَ في التُّراث الإسلامي.

ويختم فيلبي حديثه عن صلة إبراهيم الخليل بعقيدة التّوحيد قائلاً: «وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ إبراهيم الخليل لعب دوراً رئيسيّاً في تاريخ العالم العَرَبيّ بتأسيسه ديانة التّوحيد، وقد انتصر أخيراً في كفاحه ضدَّ الوَثَنِيَّة، ولا ترانا بحاجة إلى التّأكيد بأنَّ إبراهيم الخليل كان شخصيَّة ذات مكانة مرموقة».

ويُشير السّير "وولي" إلى أنَّه النّبي الوحيد من الأنبياء الذي سُمِّي بـ (خليل الله).

وقد عُثر فيما عُثر عليه من كتابات عموريَّة بين أطلال مدينة (ماري) العَرَبِيَّة على دلائل تُؤيِّد ما جاء في القُرآن الكريم والتّوراة حول شخصيَّة إبراهيم الخليل، وقد تمكَّن الآثاريُّون من تعيين زمن هجرة إبراهيم الخليل بحوالي **1900** ق. م، وقد انتهى البحّاثة الفرنسي "دي فو" في أحدث دراسة له في هذا الموضوع إلى تحديد عصر إبراهيم عليه السّلام بالقرن التّاسع عشر قبل الميلاد.

وخُلاصة القول: إنَّ إبراهيم الخليل كان أباً للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقُدوة للمُرسلين. كان شخصيَّة عظيمة، وزعيماً سياسياً رُوحياً لعب أكبر دور في تاريخ الإنسانيَّة، وهُو عَرَبيّ صميم، وجدُّ عدَّة قبائل عَرَبيَّة كما سنرى: منها المديانيُّون (نسبة إلى مديان بن إبراهيم)، والأدوميُّون (نسبة إلى أدوم بن إسحاق بن إبراهيم)، والسّبئيُّون (نسبة إلى سبأ بن يقشان بن إبراهيم).

والأهمُّ من ذلك كُلِّه أنَّه جدُّ العَرَب العَدَنانيَّة التي يرجع نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم، وبهم يتَّصل نسب الرّسول الأعظم مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وبقيت ديانة التّوحيد سائدة في الجزيرة العَرَبيَّة بين العَرَبيَّة العدنانيَّة والقحطانيَّة بالرّغم ممَّا شابها من الإشراك بالله بعبادة الأصنام التي كانوا يتَّخذونها زُلفى؛ لتُقرِّبهم من الله حسب زعمهم، كما وَرَدَ في قوله تعالى:

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ الزّمر الآية 3.

والله يُخاطب العَرَب بقوله تعالى: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ سُورة الحج آية 78.

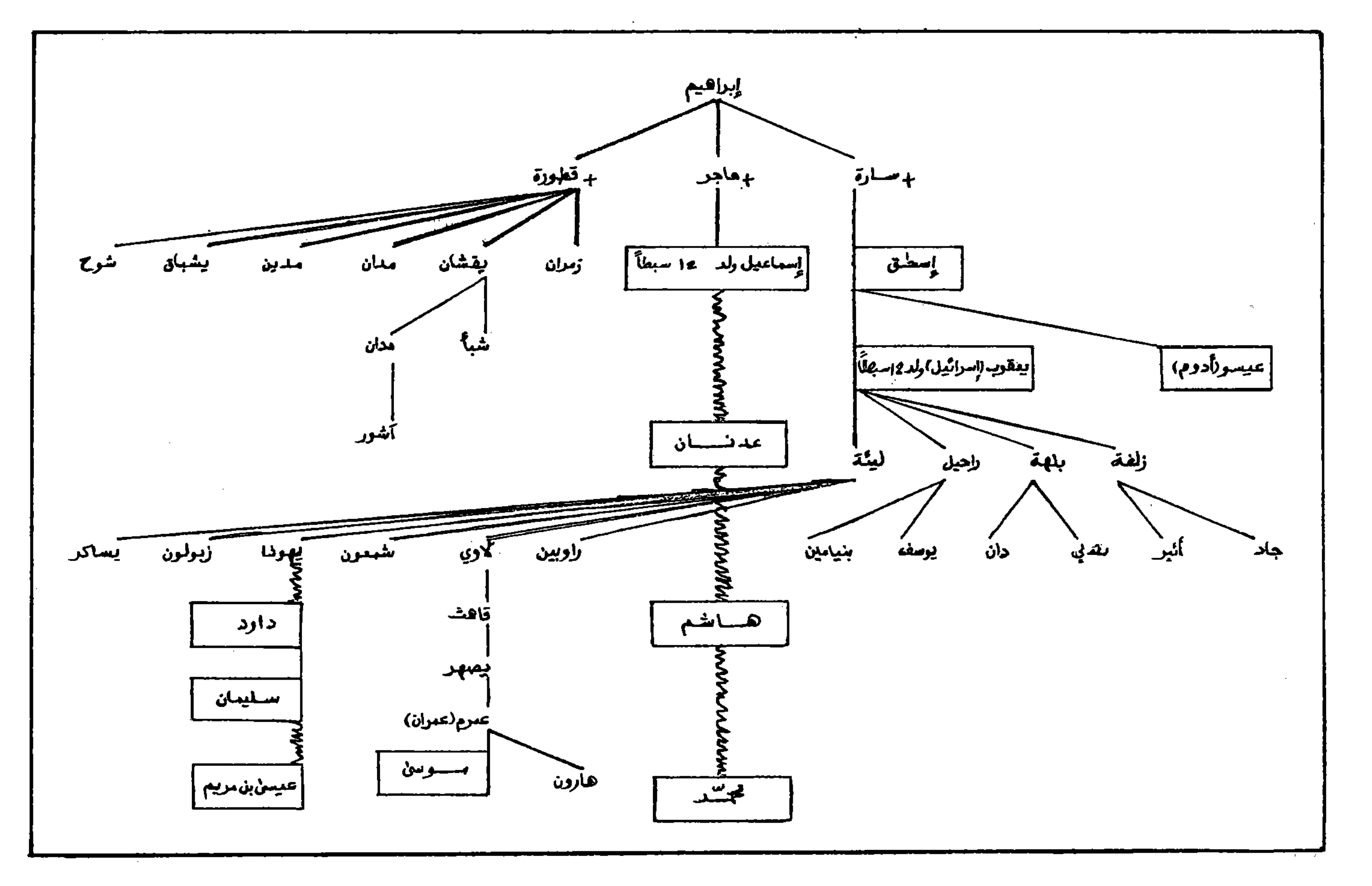
ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الختان كان مُنتشراً بين العَرَب في جاهليَّتهم قبل الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم على سُنَّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام.

ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السّلام(1):

(انظر شجرة ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السلام المُرفق رَقْم 4)

---

(1) المرجع الأساسي د. أحمد سُوسة (السّاميُّون والعبرانيُّون..) 115 - 116. بالإضافة إلى قَصَص الأنبياء للنَّجَّار والثّعالبي.



مُخطط رَقْم (4)

شجرة ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السَّلام

تقول مُدوَّنات التّوراة والمصادر العَرَبيّة الأُخرى: إنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام اتَّخذ سارة بنت هاران زوجة له (وهاران عَرَبيّ آرامي من عشيرة إبراهيم عليه السلام، وهُو في العراق) وهاجرت معه جميع هجراته، إلى أنْ استقرَّ به المقام في "حبرون" (الخليل الآن)، وتزوَّج جاريتَيْن؛ إحداهما جارية سارية؛ وهي "هاجر" التي عاد بها من أرض عشيرة المصريِّين، والثّانية "قطورة" بنت يقطان من العشائر العَرَبيَّة المُجاورة، وكانت لحلب المواشي والاهتمام بصناعة منتوجاتها من صوف، ولبن، وجُبن، وسَمْن.

أُولئك هُنَّ زوجات إبراهيم عليه السلام، فَمَنْ هُم أولاده؟

تقول التّوراة: إنَّ سارة لم تلد لإبراهيم، فجاءت إليه بأَمَتها "هاجر"، وطلبت منه الدُّخُول عليها، واتِّخاذها زوجة، لعلَّه يُرزق منها بولد، فسمع منها إبراهيم، ورُزق من هاجر بإسماعيل عليه السلام، ثُمَّ افتقد الرَّبُّ سارة (كما تقول التّوراة) بعد عشر سنوات من إقامتهم في أرض كنعان، ورُزق منها بولد؛ سَمَّتهُ "إسحاق" عليه السلام كما وَرَدَ في القُرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ هُود 71ـ 73.

وبعد موت سارة رُزق إبراهيم عليه السلام من قطورة بـ: زمران، يقشان، مدان، مدين، يشباق، شوح، ووُلد من يقشان شبأ ودان[1].

أمَّا أولاد إسماعيل؛ فهم اثنا عشر كما تُعدِّدهم التّوراة وهُم: بنايوت (بكْر إسماعيل) قيدار، أدبئيل، مبسام، مشماع، دومة، مشنا، دوار، تيما، يطور، نافيش، قدمه. وكانت مساكنهم في غرب الجزيرة العَرَبيَّة (قبالة مصر كما تقول التّوراة).

أمَّا إسحاق؛ فقد وُلد له عيصو (أو عيسو) (ويُسمَّى أدوم أيضاً)، ويعقُوب (توأمان)، وتزوَّج يعقُوب ـ الذي هُو إسرائيل ـ ابنَتَيْ خاله لابان (ليئة وراحيل)، فوُلد له من ليئة: راوبين، شمعون، لاوي، يهُوذا، يساكر، زبولون، ومن راحيل: يُوسُف، وبنيامين. كما

(1) راجع سفْر التّكوين، الإصحاح 25؛ 21، والإصحاح 25؛ 13ـ 18.

رُزق من بلهة جارية ليئـة : دان ، نفتـالي ، ومـن زلفـة جاريـة راحيـل : جـاد ، أستير . فيكـون مجموع أولاد يعقُوب (إسرائيل) اثنا عشر ولداً ، وهُم أسباط بني إسرائيل ، ومن سـبط لاوي كان عُمـران الـذي وُلـد لـه هـارُون ومُوسـى (عليـهما السّلام) . ومـن سـبط يـهُوذا كـان داود وسُلَيْمَان (عليهما السّلام) ، (انظر شجرة ذريَّة إبراهيم عليه السلام المُرفق رَقْم 4 ص 69) .

وإلى يـهُوذا ينتهي نَسَب يُوسُف النَّجَّار (رجـل مريـم عليـهما السّلام) ، التـي وَلـدتْ يسوع ، وهُو المسيح أو عيسى عليه السّلام (من رُوح الله) .

وهكذا يتَّضح لنا أنَّ إبراهيم الخليل عليه السّلام أبا الأنبياء ، وإليه ينتهي نَسَبهم ، عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام .

أمَّا مساكن أبناء إبراهيم الخليل عليـه السّلام ؛ فتُحدِّثنـا التّوراة أنَّ إسحاق بقـي يرعـى أغنامه مُقيماً في الخيام في أرض الكنعانيِّيْن ، أمَّا "بنو السّـراري" (ابـن هـاجر وأبنـاء قطـورة) ؛ فقد صَرَفَهُم إبراهيـم عليه السلام فـي حياتـه إلـى البريَّـة ، وكـانت مسـاكن الإسـماعيليِّيْن فـي غـرب الجزيرة العَرَبيَّة تجاه مصر ، وأولاد قطورة في جنـوب الأُرْدُن ووادي عَرَبـة وشـرق النَّقَـب[1] . (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 5) .

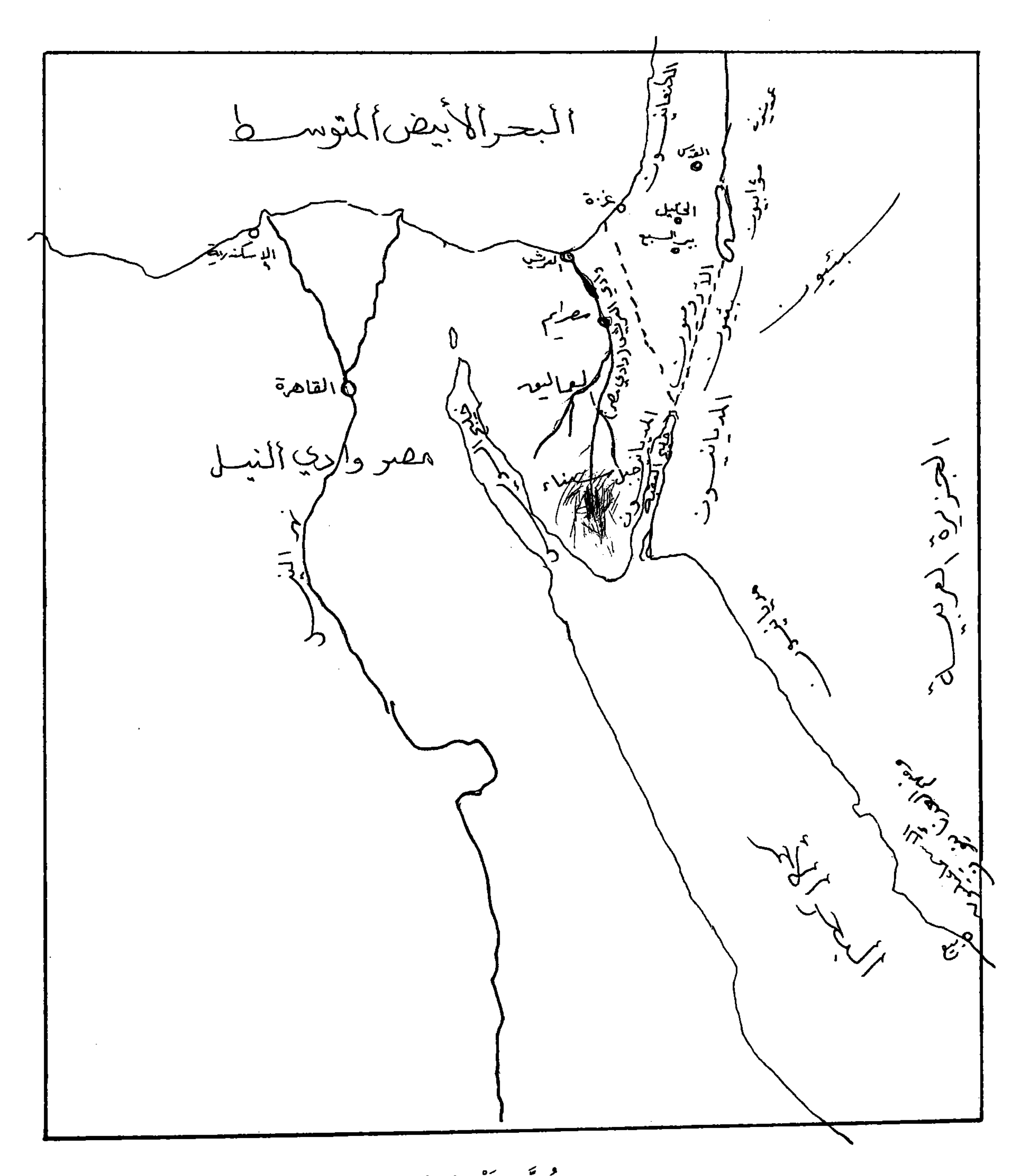
مُلاحَظَات هامَّة : حول مفاهيم: العبرانيُّون ـ الإسرائيليُّون ـ المُوسويُّون ـ اليهُود:

بعد الانتهاء من الحديث عن سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام ؛ لابُدَّ لنا ـ قبـل الانتقـال إلى الحديث عن يعقُـوب أو إسـرائيل عليه السلام وعـن بنـي إسـرائيل ـ مـن تحديـد أربعـة مفـاهيم أو اصطلاحات يخلط في معانيها ومدلولاتها الكثيـر مـن المُؤرِّخين الأجانب والعَـرَب ؛ وهـي : العبرانيُّون ـ الإسرائيليُّون ـ المُوسويُّون ـ اليهُود .

يُظهر الكثيرون أنَّها ذات مدلول واحد ، فهي كُلُّها تعني اليـهُود ، ولكـنْ ؛ فـي الحقيقـة ، لكُلٍّ منها مدلول ومعنى خاصٌّ بـها ، تُحـدّد بـه قومـاً وعقيـدة خاصَّـة ، وزمنـاً مُحـدَّداً ، وإلـى القارئ الكريم بيان ذلك .

---

(1) راجع سفْر التّكوين ، إصحاح 25 من 6 ـ 11 ومن 18 ـ 27 .



مُصَوَّر رَقْم (5)

يُبيِّن توزُّع أحفاد وأبناء إبراهيم عليه السَّلام

العبرانيُّون:

هُم عشيرة إبراهيم عليه السلام من الآراميِّين الذين استقرّوا في شمال سُوريَّة في مناطق حاران أو حرَّان، ومنها انحدروا إلى أواسط سُوريَّة، وعلى طُول نهر الفُرات في العراق.

ولفظ عبراني جاء من عابر وعابيرو أو عبيرو، نظراً لعُبُورهم البوادي إلى الهلال الخصيب، أو لعُبُور الفُرات شمالاً.

وبعضهم يُحدِّدهم بذُرِّيَّة إبراهيم أو أُسرته فقط، ويقولون: إنَّ عبراني مُشتقٌّ من اسم إبراهيم؛ وهُو إبرام أو عبرام، فهُو - إذن - اصطلاح يشمل جماعة إبراهيم، ويُميِّزهم عن عشيرة إبراهيم من الآراميِّين بأنَّهم مُوحِّدون، ويدعون إلى التّوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له.

الإسرائيليُّون (أو بني إسرائيل):

أُطلق هذا الاصطلاح على أولاد يعقُوب عليه السلام وذُرِّيَّته، دُون أبناء عُمُومتهم أولاد إسماعيل، الذين أُطلق عليهم "الإسماعيليُّون"، وأبناء عيسو "آدوم"، الذين أُطلق عليهم "الأدوميُّون"، وأبناء مديان، الذين أُطلق عليهم "المديانيُّون"، وأبناء شبأ بن يقشان، الذين أُطلق عليهم "الشّبئيُّون، أو السّبئيُّون"، إلخ.

وهكذا تميَّز بنو إسرائيل من باقي ذُرِّيَّة إبراهيم، ولكنَّ الجميع كانوا على ديانة وشريعة أبيهم أو جدِّهم إبراهيم عليه السلام التّوحيديَّة.

المُوسويُّون (أو أتباع مُوسى عليه السّلام):

استمرَّ الاصطلاح السّابق (الإسرائيليُّون) حتَّى ظُهُور مُوسى عليه السّلام، والخُرُوج بني إسرائيل من مصر (أو مصرايم في سيناء كما سنرى).

هُنا بدأت ديانة جديدة، أو شريعة جديدة، فهي - من ناحية التّوحيد - لا تختلف عن تعاليم إبراهيم عليه السّلام، وإنَّما نحنُ - هُنا - أمام شريعة جديدة في العبادات والمُعاملات تُسمَّى شريعة مُوسى عليه السّلام.

والمُوسويُّون - هُنا - يتألّفون - بشكل رئيسي - من بني إسرائيل الذين أصبحوا يُسمّون "الأسباط"؛ حيثُ أصبح كُلُّ ابن من أبناء يعقُوب الاثنَيْ عشر يُشكِّل سبْطاً أو عشيرة كبيرة خلال مئات السّنين التي قضاها بنو إسرائيل في مصر (أو مصرايم). بالإضافة إلى مَنْ تبع ديانة مُوسى عليه السّلام من المصريِّيْن؛ أيْ أنَّ المُوسويِّيْن يَتَشكَّلُون من ذُرِّيَّة يعقُوب عليه السلام وممَّنْ اعتنق ديانة مُوسى عليه السلام من المصريِّيْن، وليسوا من ذُرِّيَّة يعقُوب فقط.

اليهُود:

بدأت اليهُوديَّة بالظُّهُور والتَّرسُّخ أثناء السّبي البابليّ؛ حيثُ قضى ملك الكلدانيِّيْن (أو البابليِّيْن بابل الثّانية) بختنصر (أو نبوخذ نصر) على دولة يهُوذا في القُدس، وسبى اليهُود إلى عاصمته بابل سنة 586 ق.م، وهُناك أطلق عليهم اسم "يهُود" نسبة إلى دولتهم "يهُودا".

وفي بابل؛ بدأ اليهُود بتدوين "التّوراة"، ووَضْع تعاليم "التّلمود"، وشُرُوح أحبارهم على التّوراة، وتفاسيرهم لها، وبدأ الانحراف عن تعاليم التّوراة والتّحريف في شريعة مُوسى عليه السّلام. وبدأت ثلاث عقائد بالتَّرسُّخ عند اليهُود، وما نتج عنها من سُلُوكيَّة خاصَّة باليهُود تُميِّزهم من غيرهم، وهذه العقائد الثّلاث هي:

أ - **عقيدة "شعب الله المُختار"**: وأنّهم مُتميِّزون من غيرهم من البشر بالرّعاية الإلهيَّة، وأنَّ الله اختارهم من بين شُعُوب الأرض ليكونوا شعبه الخاصَّ، فانبثقت عندهم فكْرة أنَّهم شعب الله المُختار.

ب - **عقيدة الإله "يَهْوَه"**: الذي هُو إلههم وحدهم، لا يُشاركهم به أحد، وهُو الذي يرعاهم، ويُسخِّر كُلَّ شيء لسعادتهم وخدمتهم، وهُو الذي اختارهم ليكونوا "شعبه المُختار". وهكذا؛ ابتعد اليهُود عن عقيدة أنَّ الله إله الجميع، وأنَّه ربُّ العالمين، وليس ربَّهم وحدهم.

ونتج عن العقيدتَيْن السّابقتَيْن اعتقادهم أنَّ جميع البشر دُونهم، وأنَّهم (أيْ بقيَّة البشر سواهم) خُلقوا لخدمتهم، وأنَّهم (هُم، وليس بقيَّة البشر) يجبُ أنْ يكونوا سادة العالم دُون مُنازع، وأنَّ هؤلاء الأغيار (أيْ كُلُّ مَنْ ليس يهُوديّاً) هُم كالحيوانات، ولا يتميَّزون منها.

جـ - **أمَّا العقيدة الثّالثة فهي**: أنَّ شريعة مُوسى عليه السّلام لا تُطبَّق إلاَّ بين اليهُود فقط، وأنَّ وصايا مُوسى عليه السّلام العشر مثل: لا تسرقْ، لا تزنْ، لا تقتلْ، لا تكذبْ، لا تغشّ.. إلخ، قد أصبحت: لا تسرق اليهُوديّ، ولا تغشّه، ولا تقتله، ولا تكذب عليه، ولا تزن بيهُوديَّة.. إلخ. أمَّا الأغيار؛ فلا تنطبق عليهم هذه الوصايا، ونتج عن ذلك أنَّ سرقة وغشّ غير اليهُوديّ لا إثم فيها، والزّنى بغير اليهُوديَّة لا تثريب عليه، وقتل الأغيار كقتل أيّ حيوان لا إثم فيه، ولا عقاب عليه.

كُلُّ هذه الانحرافات والعقائد الرّاسخة عند اليهُود جَعَلَت لهم ميزة وسُلُوكيَّة خاصَّة، وسنتكلَّم عن هذا كُلِّه بتوسُّع - إنْ شاء الله - عندما نتحدَّث عن عقائد اليهُود، وما ينتج عنها من سُلُوكيَّة وتصرُّف خاصٍّ باليهُود.

أسباب هذه الانحرافات ونتائجها:

بدأت هذه الانحرافات الثّلاثة تظهر وتترسَّخ في أذهان اليهُود بعد انقسام دولتهم إلى دولة "يهُوذا" وعاصمتها القُدس، ودولة "السّامرة" وعاصمتها السّامرة أو نابلس الآن، بعد وفاة سُلَيْمَان عليه السلام؛ حيثُ بدؤوا يتصوَّرون أنَّهم مُتميِّزون من غيرهم، وذلك بعبادتهم إلهاً واحداً، بينما كان مَنْ حولهم الكنعانيُّون عَبَدَة أوثان، وأنَّهم الشّعب الوحيد الذي هداه الله لمعرفته وعبادته، ثُمَّ ترسَّخت هذه الفكْرة لديهم بعد السّبي البابليّ؛ حيثُ عاشوا في بابل في ظلِّ دولة وَثَنِيَّة وقوم وَثَنِيِّين، فبزغت لديهم فكْرة أنَّهم شعب الله الْمُختار؛ لأنَّهم الْمُوحِّدون الوحيدون أينما ذهبوا، سواء في فلسطين أو في بابل (في العراق)، وأنَّهم الشّعب الوحيد الذي يعرف الله، ويعبده، ويُوحِّده، فهُم شعبه الْمُختار.

أمَّا تطبيق شريعة مُوسى، والتي هي شريعة الله، على اليهود فقط، فترجع - في اعتقادي - إلى ما لاقاه اليهُود من سبي، واضطهاد، وقَتْل، وتشريد، على يد الأُمم الْمُجاورة؛ مثل الآشوريِّيْن، والبابليِّيْن، ثُمَّ اليُونان والرُّومان الذين طردوهم من فلسطين، وحرَّموها عليهم في زمن "طيطس" الرُّوماني.

وكان من نتائج هذه العقائد الثّلاث تقوقعهم على أنفسهم، وانعزالهم في أحياء أو ضواحي خاصَّة بهم، وعدم تزوُّجهم من غيرهم، أو تزويج بناتهم للأغيار؛ إلاَّ إذا كان

شخصيَّة هامَّة؛ ملكاً، أو أميراً، أو صاحب نُفُوذ، ليستغلّوا نُفُوذه ومركزه لمصالحهم وأهدافهم الخاصَّة.

وهذا أدَّى - أيضاً - إلى صُعُوبة امتزاجهم بغيرهم واستحالة انصهارهم في المُجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها مهما كانوا قلَّة.

اليهُوديَّة دين، وليست قوميَّة:

وأُحبُّ أنْ أُقرِّر هُنا أنَّ العبرانيِّين وبني إسرائيل وقوم مُوسى (المُوسويُّون) كانوا عَرَباً أصلاً ولُغة، فقد كانت لُغتهم الآراميَّة أوَّلاً، ثُمَّ الكنعانيَّة، وهُما لهجتان عَرَبيَّتان. أمَّا اليهُود وخاصَّة بعد أنْ شتَّتهم الرُّومان، وتفرَّقوا في أرجاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة غرباً والإمبراطُوريَّة الفارسيَّة شرقاً، وتوزَّعوا في أقطار الإمبراطُوريَّتَيْن؛ أصبحوا لا يمُتُّون إلى العُرُوبة بأيَّة صلة للأسباب التَّالية:

ففي هذا الشّتات دَخَلَ الكثيرون في الدّيانة اليهُوديَّة، وخاصَّة قبل ظُهُور المسيحيَّة من شُعُوب الإمبراطُوريَّتَيْن الرُّومانيَّة والفارسيَّة، وكان أكبر اعتناق للدّيانة اليهُوديَّة في بلاد الخَزَر الواقعة جنوب شرق رُوسيا على نهر الفُولغا وشمال بحر قزوين (أو بحر الخَزَر)، فقد اعتنق اليهُوديَّة أُمراء الخَزَر، ثُمَّ انتشرت بين شُعُوب الخَزَر، وكوَّن اليهُود هُناك دولة لهم هي إمبراطُوريَّة الخَزَر التي سنتكلَّم عنها بالتّفصيل - فيما بعد - إنْ شاء الله.

هذا؛ وبعد انهيار دولة الخَزَر على يد المغول والتّتار انساح اليهُود الخَزَريُّون في رُوسيا وشرق أُورُوبا، ثُمَّ وسطها وغربها، وبعد اكتشاف العالم الجديد هاجر الكثيرون إلى الأمريكيَّتَيْن وأُستراليا، وأكبر تمركز لهم في الوقت الحاضر هُو في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة؛ حيثُ أصبح لهم نُفُوذ كبير كما سنرى عند التَّحدُّث عن الصّهيُونيَّة. وعلى كُلِّ حال؛ يُشكِّل اليهُود من أُصُول خَزَريَّة حوالي 80٪ من يهُود العالم الآن.

واليهُوديَّة الآن هي دين انتسب إليه أقوام من شُعُوب وأجناس مُتعدِّدة لا يربطها إلاَّ رابط الدِّين، ولا صلة لها - لا من قريب ولا من بعيد - بإبراهيم عليه السلام، ولا ببني إسرائيل،

ولا بقوم مُوسى عليه السلام[1] ، حتَّى إنَّ الأسباط الاثنَيْ عشر الذين ينتمي إليهم اليهُود قد تنصَّر عشرة منهم ؛ وهُم أسباط دولة السّامرة اليهُوديَّة ، فقد سباهم سرجُون الثّاني ملك الآشوريِّيْن عام 720 ق . م ، ونفاهم إلى كُردستان ؛ حيثُ تنصَّروا هُناك عند ظُهُور النّصرانيَّة ، وبقاياهم - اليوم - يتوزَّعون في شمال العراق ، وعلى الخابور في سُوريَّة ، ويُدعون بالأشوريِّيْن ؛ وهُم - في الحقيقة (كما سنرى فيما بعد) - ليسوا آشوريِّيْن ، بل هُم الأسباط العشرة ، وهُم - الآن - مسيحيُّون نساطرة .

أمَّا السّبطان الباقيان واللّذان كانا يُشكّلان دولة يهُودا في القُدس ؛ فقد سباهم بختنصر ملك بابل إلى بابل سنة 586 ق . م ، وبعد أنْ سمح لهم كُورش الثّاني ملك الفُرْس بالعودة إلى فلسطين بقي قسم منهم في بابل ، وتوزَّعوا في الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة ، والقسم الثّاني الذي عاد شتَّته الرُّومان بقيادة طيطس ، ومنع اليهُود من العيش في فلسطين .

وهكذا نرى أنَّ اليهُود - الآن - لا يمُتُّون للسّاميِّيْن ولا للعَرَب بأيَّة صلة ، وإنَّما هُم من شُعُوب عديدة يجمعهم الرّابط الدِّيني ، ولكنَّ الصّهيُونيَّة العالميَّة أرادت أنْ تجعل منهم أُمَّة واحدة وعرْقاً واحداً ، وتصل نسبهم إلى إبراهيم وإسحاق ويعقُوب عليهم السّلام ، وتعتبرهم الآباء الأوّلين ، وتربط أصلهم بالمشرق العَرَبيّ عامَّة ، وبفلسطين خاصَّة ، لذلك قامت الصّهيُونيَّة بما يلي :

أوّلاً : تلفيق الأكاذيب ، مُدَّعية أنَّ يهُود اليوم هُم أحفاد بني إسرائيل ، وأنَّهم يرجعون - في أُصُولهم - إلى جدِّهم الأعلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنَّهم - بعودتهم إلى فلسطين (أرض المعاد) - إنَّما يعودون إلى وطنهم الأصلي . وانبرى المُؤرِّخون اليهُود - وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة - في تثبيت هذه الأباطيل ، والدّعوة لها ، وسُخِّرت الأقلام المأجورة من غير اليهُود في تأييدها ، والتّرويج للدّعوى الصّهيُونيَّة .

---

(1) هذا ؛ والكثير من العَرَب والقبائل العَرَبيَّة اعتنقت اليهُوديَّة ، وتهوَّدت قبل الإسلام ؛ كما هُو الحال في اليمن ، وفي المدينة المُنوَّرة وحولها (خَيْبر ، وتيماء ، وفدك) ، كما سيمرُّ معنا عند التَّحدُّث عن انتشار اليهُوديَّة .

ثانياً: إحياء اللُّغة العبريَّة القديمة، وجعلها اللُّغة الرّسميَّة في (إسرائيل)، حتَّى في الجامعات[1]، وتعليمها للمُهاجرين اليهُود إلى فلسطين؛ لأنَّ مُعظمهم كانوا لا يعرفون العبريَّة، ويتكلَّمون لُغة البلاد القادمين منها فقط.

وقد أصابت الصّهيُونيَّة نجاحاً كبيراً في هذه النّاحية، فاللُّغة هي رُوح الأُمَّة وأوثق الرّوابط القوميَّة بين أفرادها، وهكذا أصبح لدى اليهُود في فلسطين مُقومان رئيسيَّان لتكوين الأُمَّة؛ وهما: اللُّغة والدِّين.

الخَلْط بين اليهُود وبني إسرائيل:

يتحدَّث الدُّكتُور أحمد سُوسة عن هذا الخَلْط بين يهُود اليوم وبني إسرائيل، وربطهم بإبراهيم الخليل عليه السلام فيقول[2]: «دَرَجَ أكثر الكُتَّاب المُتأثِّرين بالتّوراة على ربط تاريخ اليهُود بإبراهيم الخليل عليه السلام، وقد أخذ عنهم العَرَب (مع الأسف الشّديد) هذه الادِّعاءات المُخالفة للواقع التّاريخي دُون تمحيص. ومن الأقوال التي شاع ترديدها، وتناقلها الكُتَّاب والمُؤرِّخون الإفرنج والعَرَب، أنَّ جماعة من اليهُود هاجروا مع إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين، بل راحوا إلى أبعد من ذلك، فاعتبروا إبراهيم الخليل عبريّاً بمعنى يهُوديّاً؛ نتيجة الخَلْط بين كلمة عبريّ القديمة ويهُودي (ذلك الخَلْط الذي أوضحناه فيما تقدَّم). ومن أغرب ما قيل في ذلك هُو تعيين عدد اليهُود الذين رافقوا إبراهيم الخليل عليه السلام في رحلته من العراق، ومن هؤلاء الأُستاذ أحمد زكي البدري الذي يقول ما نصُّه بالحرف الواحد: «رحل إبراهيم الخليل مُتزعِّماً الإسرائيليِّيْن (اليهُود) إلى فلسطين» في كتابه (تاريخ التّطوُّر الدِّيني صفحة 33) في وقت كان إسرائيل (يعقُوب) لم يُولد بعد، وليس للإسرائيليِّيْن وُجُود.

وقد نَقَلَتْ نشرة أصدرتها وزارة الثّقافة والإعلام العراقيَّة عن فلسطين من أرشيفها ما يُشير إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام وأهله هاجروا من مدينة أور في العراق سنة **1806** ق.م وكان عدد اليهُود الذين رافقوه في هذه الهجرة قليلاً.. انظر إلى هذا الخَلْط المُؤسف!! ففي زمن إبراهيم لم يكن لليهُود وُجُود، "ويهُوذا" الذي ينتسبون إليه لم يُخلَق بعد.

---

(1) سُمِّيت أوَّل جامعة لليهُود في فلسطين بالجامعة العبريَّة في القُدس، وجَعَلوا الدّراسة في جميع كُلِّيَّاتها بالعبريَّة فقط.

(2) الدُّكتُور سُوسة: العَرَب واليهُود في التّاريخ، ص 72 ـ 78، باختصار، وص 578 ـ 579.

وكذلك الدُّكتُور مُحَمَّد رشيد الفيل صاحب الدّراسات الجَغرافيَّة والتّاريخيَّة القيِّمة قال بأن: «تاريخ اليهُود يبدأ بسَفَر إبراهيم الخليل عليه السلام من أرض الكلدانيِّين[1] غرباً إلى أرض كنعان».

والدُّكتُور رياض بارودي يقع في الخطأ نفسه، ويتَّخذ عُنواناً لكتابه "اليهُوديَّة العالميَّة مُنذُ زمن إبراهيم إلى وقتنا الحاضر".

والواقع أنَّ الكُتَّاب العَرَب قد استندوا ـ في نقل هذه الادِّعاءات ـ إلى المصادر الأجنبيَّة (وهي مصادر يهُوديَّة في مُعظمها) دُون أنْ ينتبهوا إلى التّسلسل الزّمني للحوادث التّاريخيَّة. مثل الكاتب الألماني الدُّكتُور "غروبا" الذي يُطلق على إبراهيم عليه السلام فيما كَتَبَهُ عنه أنَّه ملك اليهُود، ومن الواضح ـ هُنا ـ أنَّ الدُّكتُور "غروبا" تأثَّر بالتّوراة كبقيَّة المُؤرِّخين المسيحيِّين، وذلك بربط عصر إبراهيم الخليل بزمن اليهُود، من غير مُلاحَظَة التّسلسل الزّمني.

والآن؛ من حقِّنا، ومن حقِّ كُلِّ باحث أنْ يسأل: كيف يُمكن أنْ يكون إبراهيم الخليل يهُوديّاً، وقد عاش قبل أنْ يعرف التّاريخ جماعة يُسمُّون أنفسهم يهُوداً بحوالي ألف وثلاثمائة عام (1300 سنة)؟! ولنا أنْ نسأل أيضاً: كيف جاء اليهُود إلى العراق، وكيف اتَّصلوا بإبراهيم، في حين أنَّه لم يكن لهم أيُّ وُجُود بعد؟! وكيف يتزعَّم إبراهيم الخليل اليهُود في رحيله إلى فلسطين قبل أنْ يكون قد خُلق يهُوذا الذي جاءت تسمية "اليهُود" منه، أو يكون خُلق يعقُوب (إسرائيل) الذي ينتسب إليه الإسرائيليُّون؟

نعم؛ إنَّ العراق حوى اليهُود، ولكنْ؛ حواهم أَسْرَى، بعد أنْ سباهم بختنصر (نبوخذ نصر)، ونقلهم إلى بابل في العراق، وكان ذلك بعد إبراهيم بأكثر من **1300** عام، ولم يكن لهم وُجُود في العراق ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ في عهد إبراهيم الخليل؛ لأنَّهم لم يكونوا قد ظهروا للوُجُود بعد.

وأفضل الكُتَّاب العَرَب الذين كتبوا في هذا الموضوع وأدقّهم من حيثُ الدِّقَّة والصّواب الأُستاذ الكبير المرحوم عبَّاس محمود العقَّاد، وهُو الكاتب العَرَبيّ المعروف في كتابه (أبو

---

(1) يقصد أرض العموريِّين في جنوب العراق، أو بابل الأُولى؛ لأنَّ الكلدانيِّين هاجروا إلى العراق حوالي 1500 ق.م، وبعد ظُهُور إبراهيم عليه السلام بعدَّة قُرُون.

الأنبياء)، وممَّا قاله في هذا الصّدد: «إنَّ الدّعوات النّبويَّة التي بدأتها سُلالة إبراهيم عليه السلام هي دعوات لم يظهر لها نظير في غير الأُمم العَرَبيَّة والسّاميَّة، وقد خُتمت بدعوة مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وجاءت دعوته مُتمِّمة لها، فلا تُفهم واحدة منها عن سائرها إلاَّ بترتيب كُلٍّ منها في زمانها، وعلاقة كُلٍّ منها بمكانها، فلا لبس فيها من جانب العصر، ولا من جانب البيئة.. ومن قرائن الثُّبُوت أنَّ هذه الدّعوات النّبويَّة نُسبت إلى أصل واحد هُو السُّلالة العَرَبيَّة السّاميَّة، قبل أنْ يعرف النّاس علم المُقارنة بين اللُّغات.. وقد كان إبراهيم عليه السلام زعيم قبيلة (أو عشيرة) بادية[1] مُضطلعاً في شُؤُون الجزيرة العَرَبيَّة وأحوال العَرَب وزُعمائهم وعاداتهم، فلا يُمكن أنْ يُقال عنه: إنَّه إسرائيلي؛ لأنَّ كلمة إسرائيل أوَّل ما استُعملت أُطلقت على يعقُوب (إسرائيل) حفيد إبراهيم الخليل عليهما السّلام، ولا يُمكن أنْ يُقال: إنَّه يهُودي؛ لأنَّ اليهُوديَّة نُسبت إلى يهُوذا رابع أبناء يعقُوب، ولا يُقال: إنَّه عبريّ إذا كان مقصوداً بالعبريَّة لُغة مُميَّزة بين اللُّغات السّاميَّة تتفاهم بها طائفة من العَرَب دُون سائر الطّوائف. فالعبريَّة كانت كلمة عامَّة تُطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرُّحَّل في بوادي الشّام، وكان من أبناء هذه القبائل مَنْ يعمل كالجُنُود المُرتزقة، وبهذا المعنى وَرَدَتْ كلمة العبريّ، والإبري، والهيبري، وما قاربها لفظاً في المُدوَّنات التي عُثر عليها في تلٍّ العمارنة وفلسطين وآسية الصُّغرى (تُركيا اليوم) والعراق، وجاءت بهذا المعنى في الكتابات المسماريَّة والفرعُونيَّة، ولم يكن لليهُود وُجُود في ذلك الحين. فإبراهيم الخليل عليه السلام كان يتكلَّم لُغة يفهمها جميع السُّكَّان في بقاع النّهرَيْن (العراق) وكنعان، ولم تكن العبريَّة قد انفصلت عن سائر اللُّغات السّاميَّة في تلك الأيَّام. وقد يُقال: إنَّه عَرَبيّ ينتمي إلى سام بن نُوح، ولكنَّها نسبة إلى جَدّ، وليست نسبة إلى قوم، وقد تكلَّم السّاميَّة أُناس كالأحباش، وهُم ليسوا سرياناً، ولا من الآراميِّيْن، ولا من الحيريِّيْن (أهل حاران أو حرَّان). فإذا فتَّشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النّسبة العَرَبيَّة، كما كانت اللُّغة العَرَبيَّة ـ يومئذ ـ مُنتشرة بين جزيرة العَرَب وبقاع الهلال الخصيب».

---

(1) أيْ تسكن البوادي.

ويميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد أنَّ اليهُود تعمَّدوا نشر قَصَص التّوراة والتّلمود بين العَرَب لأسباب سياسيَّة ودينيَّة، وأنَّها - في الحقيقة - دسيسة لفَّقها اليهُودُ للعَرَب تزلُّفاً إليهم، واحتيالاً على كَسْب عطفهم، وتوثيق عُرا المودَّة والأُلفة بينهم، وخاصَّة في أوج عظمة العَرَب، وقيام دولتهم القويَّة الواسعة الأرجاء، والتي امتدَّت من الصّين شرقاً إلى إسبانيا غرباً، ليستغلّوا نُفُوذها وقُوَّتها في تحقيق مآربهم وأهدافهم، وليعيشوا في ظلالها في أمان واطمئنان. وفي ذلك يقول المُؤرِّخ "ولغنسون" في كتابه (تاريخ اليهُود في بلاد العَرَب صفحة 75): «إنَّ هذه الطّريقة من سُنن اليهُود المألوفة؛ إذْ لُوحظ عليهم كثيراً أنَّهم متى رأوا المصلحة في التَّودُّد إلى قوم قالوا لهم: أنتم إخواننا، وأنتم ونحنُ صنوان.. وظلّوا - مُنذُ ذلك العهد إلى ظُهُور الإسلام وبعده - وهُم يبذلون جهدهم في إشراب العَرَب عقيدة كونهم وإيَّاهم من ذُرِّيَّة أب واحد، حتَّى نجحت هذه الأكذوبة التي كان العَرَب أجهل من أنْ ينتبهوا لأهدافها البعيدة، ويتبيَّنوا ما فيها من كذب وتلفيق».

القُرآن يُميِّز بين إبراهيم عليه السلام وبني إسرائيل واليهُود:

إنَّ القول الفصل في شأن إبراهيم الخليل عليه السلام هُو قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ سُورة آل عُمران الآية 67.

والقول الفصل - أيضاً - في أهمّيَّة إبراهيم وعظمة هذا الرّسول الكريم هُو ما وصفه به الله تعالى في القُرآن الكريم بقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ سُورة يُونُس 105.

والقُرآن الكريم يُميِّز بين بني إسرائيل وقوم مُوسى واليهُود. أمَّا بنو إسرائيل؛ فيُخاطبهم الله باسمهم، فيقول تعالى في آيات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ سُورة البقرة 40.

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ سُورة البقرة 47.

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ سُورة البقرة 83.

وبعد نُزُول شريعة مُوسى عليه السّلام، ونَسْخ شريعة إبراهيم الخليل عليه السّلام السّابقة عليها بنُزُول التّوراة، فقد أصبح اسمهم قوم مُوسى أو المُوسويُّون، فيقول تعالى مُخاطباً قوم مُوسى عليه السلام على لسانه في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ سُورة البقرة 54.

﴿ يَـٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ ﴾ سُورة المائدة 20.

﴿ وَقَالَ يَـٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَـٰفِرِينَ ﴾ سُورة الأعراف 93.

وبعد انحراف قوم مُوسى عن التّوراة، وما ألحقوا بها من تحريف وتبديل لم يعودوا قوم مُوسى، وأصبح اسمهم اليهُود كما يقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ هَادُواْ (أيْ اليهُود) يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ سُورة النّساء 46.

وهكذا يُخاطبهم الله بالذين هادوا بعد هذا التّحريف بآيات أُخرى كثيرة منها: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴾ سُورة الجُمعة 6.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ سُورة المائدة 41.

الفصل الثّالث:

بنو إسرائيل

تُوفِّي إبراهيم الخليل عليه السّلام بعد أنْ عاش مائة وخمساً وسبعين سنة، ودفنه إسماعيل وإسحاق في مغارة "المكفيله" (في الخليل)، وفيها دُفنت ـ من قبلُ ـ سارة، وهُو الموضع الذي عليه مقام إبراهيم الخليل في حبرون، وتُسمَّى الآن مدينة "الخليل" نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه السّلام، وكان اسمها في الأصل "قرية أربع"[1].

أمَّا أولاده فهُم: إسماعيل عليه السلام، واستقرَّ في الحجاز، وكان منه العَرَب العدنانيَّة (الذين انتشروا في شمال الجزيرة العَرَبيَّة). وأمَّا إسحاق عليه السلام؛ فاستقرَّ في أرض كنعان جنوب فلسطين، وقد زوَّجه أبوه من "رفقة" ابنة "بتوئيل بن ناحور"، وناحور هُو أخو إبراهيم، وكان يعيش في حاران (شمال شرق سُوريَّة).

وتدَّعي التّوراة[2] أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام رَفَضَ تزويج ابنه إسحاق من بنات الكنعانيِّيْن. وإنِّي أرى أنَّ هذا دسّاً وتحريفاً من كَتَبَة التّوراة؛ لإضفاء الصّفاء العرْقي على أُصُول اليهُود، لأنَّه لا يُعقل أنْ يتصرَّف أبو الأنبياء خليل الله إبراهيم هذا التَّصرُّف العُنصُري، وقد تزوَّج هُو من "قطورة" وهي خادمة (كنعانيَّة) من بنات العَرَب المُجاورين، ورُزق منها بستَّة أولاد (راجع شجرة نَسَب إبراهيم عليه السلام المُرفقة رَقْم 4 ص 69)، وتزوَّج من هاجر المصريَّة (من العَرَب العماليق) جارية سارة. وكُلُّ ما في الأمر أنَّ إبراهيم عليه السلام أراد أنْ يُزوِّج ابنه إسحاق من ابنة ابن أخيه "رفقة" كما جرت العادة مُنذُ القديم أنْ يتزوَّج الشّابُّ ابنة عمِّه في أغلب الأحيان.

---

(1) قَصَص الأنبياء: عبد الوهاب النَّجّار، ص 110.

(2) التّوراة، الإصحاح 24 من سفْر التّكوين.

وقد وَلدتْ رفقةُ لإسحاق عليه السلام توأمَيْن هُما "عيسو أو أدوم" و "يعقُوب" (وكان خرُوجهما من بطن أُمِّهما بهذا التّرتيب). أمَّا يعقُوب عليه السلام؛ فقد بقي في أرض الكنعانيِّيْن مكان والده إسحاق. وأمَّا عيسو أو آدوم؛ فقد استقرَّ في وادي عَرَبَة بين البحر الميِّت وخليج العقبة، وخرج منه الآدوميُّون.

أمَّا قطورة؛ فقد رُزق منها إبراهيم عليه السلام بستَّة أولاد هُم: زمران، يقشان، سدان، مديان، يشباق، شوح. (راجع شجرة نَسَب إبراهيم عليه السلام المُرفقة رَقْم 4 ص 69). ومن مديان جاء المديانيُّون الذين انتشروا في شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة ومنهم شُعيب عليه السلام وهُم الذين التجأ مُوسى إليهم بعد هُرُوبه من مصر، وتزوَّج ابنة شيخ من شيُوخهم (أو ابنة شُعيب عليه السلام نفسه). ومن يقشان جائ شبأ وددان. ومن شبأ جاء الشّبئيُّون أو السّبئيُّون، وموقعهم شرق البحر الميِّت، وليس المقصود بهم دولة سبأ في اليمن[1].

(انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم (5) ص 72 لمعرفة توزُّع ومواقع كُلٍّ من المديانيِّيْن، والأدوميِّيْن، والسّبئيِّيْن، والإسماعيليِّيْن، والعماليق، وكذلك العمونيِّيْن والمُؤابيِّيْن).

وهكذا نرى أنَّ أحفاد إبراهيم عليه السّلام انتشروا في الحجاز وشمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة حتَّى شرق الأُردُن وسيناء والنَّقَب جنوب فلسطين، وهُم عَرَب أصلاً ولُغة ومكاناً ومُوحِّدون على ملَّة إبراهيم الخليل جدّهم.

وبذلك يكون إبراهيم الخليل - عليه السّلام - ليس جدَّ العَرَب الإسماعيليِّيْن أو بني إسرائيل فقط، بل هُو جدُّ العَرَب المديانيِّيْن (أحفاد مديان بن إبراهيم، وسُكَّان منطقة مدين شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة)، والسّبئيِّيْن (أحفاد شبأ بن يقشان بن إبراهيم وسُكَّان منطقة شرق البحر الميِّت)، وكذلك الآدوميِّيْن (أحفاد آدوم بن إسحاق بن إبراهيم، والذين استقرّوا في جنوب فلسطين ووادي عَرَبه).

---

(1) بالمُناسبة؛ فإنَّ "بلقيس" هي زعيمة أو ملكة عشيرة شبأ أو سبأ زمن سُلَيْمَان عليه السلام، وليست ملكة سبأ اليمنيَّة. إنَّ هُنَاك التباساً وقع فيه المُؤرِّخون بين سبأ اليمن وسبأ شرق البحر الميِّت، فليس في تاريخ اليمن كُلِّه ولا في سجلِّ مُلُوكها ملكة تُدعى بهذا الاسم (بلقيس). وقد انتبه إلى هذه الحقيقة كُلٌّ من المُؤرِّخين: وينكر، وموسيل، والدُكتُور جواد علي، وغيرهم (وسنتكلَّم عن ذلك بالتّفصيل عند الحديث عن سُلَيْمَان عليه السّلام).

وللدّلالة على عُرُوبتهم أنَّ أسماءهم عَرَبيَّة صحيحة مثل:

سارة: (زوجة إبراهيم)، وتعني السَّيِّدة، ومنها سراة القوم؛ أيْ ساداتهم.

هاجر: وتعني الخادمة (وهي عَرَبيَّة من العماليق)، وقد تكون تسميتها "هاجر"؛ لأنَّها هجرت قومها مع إبراهيم عليه السلام بعد أنْ وهبها له ملك مصر.

قطورة: وهي الخادمة خارج البيت، وعملها العناية بالمواشي، وحلبها، وتقطير حليبها؛ لاستخراج الجُبْن والسَّمْن منه (وهي كنعانيَّة).

إسحاق: اسمه الأصلي يضحك، وتطوَّر الاسم إلى إسحق أو إسحاق.

إسماعيل: أيْ اسم الله (إيل الله)، أو سمع الله له.

إسرائيل: أيْ أسير الله، أيْ عبد الله، وسُمِّي أيضاً يعقُوب؛ أيْ جاء عقب أخيه عيسو أو أدوم، ويُقال أيضاً: إنَّه يعقُوب؛ لأنَّه خرج من بطن أُمِّه، مُمسكاً بعقب أخيه عيسو.

بقي إسحاق في موطن أبيه إبراهيم (عليهما السّلام) بين حبرون (الخليل) وبئر السّبع. والذي يهمُّنا في دراستنا لتاريخ اليهُود هُو يعقُوب أو إسرائيل. فاليهُود يدَّعون أنَّه جدُّهم الأعلى ومن أولاده الاثنَيْ عشر (الأسباط) جاء اليهُود، ولذلك يُطلقون على أنفسهم بني إسرائيل، ويُسمُّون كيانهم ـ الآن ـ في فلسطين بـ "إسرائيل".

أمَّا عيسو (أو أدوم) توأم أخيه يعقُوب؛ فقد استقرَّ في جنوب البحر الميِّت، وتزوَّج "يهُوديت" ابنة بيري الحثِّي (الكنعاني) و"بسمة" ابنة إيلون الحثِّي أيضاً، فكانتا مرارة في نفس إسحاق[1].

ويعقُوب في القُرآن الكريم نبيٌّ كوالده إسحاق، وعمّه إسماعيل، وجدّه إبراهيم الخليل، عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام.

---

(1) الحثِّي هُنا لا صلة له بالحثيِّين، بل هُو من الكنعانيِّين؛ أيْ أنَّ أدوم تزوَّج بزوجتَيْن من الكنعانيِّين هُما ابنتا بيري وإيلون، من هُنا؛ كانت هاتان الزّوجتان مرارة في نَفْس إسحاق (والد أدوم)؛ لأنَّه لم يتزوَّج من أهله في حاران مثل إسحاق والده ويعقُوب أخوه. لذلك فالأدوميُّون (نسبة إلى أدوم بن إسحاق) لا يعترف اليهُود أنَّهم منهم (راجع سفْر التّكوين، نهاية الإصحاح 26).

ويعقُوب أو إسرائيل عليه السلام رجل صالح ورع، وليس كما جاء في توراة اليهُود والتي تجعله رجلاً مُخادعاً مُتآمراً، تآمر مع أُمِّه "رفقة" على أخيه عيسو (آدوم) ليأخذ منه عهد أبيه إسحاق، كما تآمرت ـ من قبل ـ سارة مع ابنها إسحاق، وأخذت عهد إبراهيم لابنها إسحاق، دُون ابنه البكر إسماعيل ابن هاجر.

والآن؛ لننظر ماذا يتحدَّث كاتب التّوراة (أو كَتَبَتُهَا) عن يعقُوب في سفْر التّكوين، نرى أنَّ كاتب التّوراة شخص مُتعصِّب لليهُود، قاده تعصُّبه أوّلاً إلى إبعاد إسماعيل بكر إبراهيم ـ عليهما السّلام ـ إلى أرض المشرق (في جزيرة العَرَب)، وجعل "يَهْوَه" (إله اليهُود) يُقيم عهده مع إسحاق، ولم يجد مُبرِّراً غير الادِّعاء بأنَّ إسماعيل هُو ابن جارية، فلا يرث مع إسحاق ابن السَّيِّدة. فقد قالت السَّيِّدة سارة لزوجها إبراهيم «إنَّ ابن هذه الجارية "هاجر" لا يرث مع ابني إسحاق»، وإنَّ "يَهْوَه" أيَّد كلام سارة، فقال لإبراهيم: «لا يَقْبُح في عينَيْكَ من أجل الغُلام (إسماعيل)، ومن أجل جاريتكَ هاجر في كُلِّ ما تقوله سارة اسمع لقولها» سفْر التّكوين، إصحاح **21**، آية **12**.

ثُمَّ تعصُّبه ثانياً ليعقُوب بقَصْر الوعد عليه، وفي ذلك لم يجد المُبرِّرات غير الدّهاء والحيلة والخداع فقال: «تزاحم الولدان في بطن رفقة زوجة إسحاق، فمضت لتسأل يَهْوَه، فقال لها: إنَّ في بطنك أُمَّتان، ومن أحشائك يفترق شعبان، شعب يقوى على شعب، وكبير يُستعبَد لصغير» (سفْر التّكوين، إصحاح **25**: **12**) ومن الطّبيعي أنْ يكون البكر هُو عيصو (عيسو) الذي حكم عليه "يَهْوَه" وهُو في بطن أُمِّه أنْ يكون عبداً لأخيه يعقُوب الذي أتى بعده.

وقد اتَّخذ كاتب التّوراة (أو كَتَبَتُهَا) من حُكْم يَهْوَه هذا ومن محبَّة رفقة الأُمّ ليعقُوب أكثر من عيسو مُبرّراً للُجوء يعقُوب وأُمِّه إلى الحيلة والدّهاء، ومن الطّبيعي أنْ يُؤيِّد يَهْوَه تصرُّفهما؛ لأنَّ فيه تحقيقاً لحُكْمه السّابق، فيقول الكاتب: «إنَّ عيسو أتى من الحقل يوماً وقد أعياه التّعب (وكان يعقُوب في البيت، وقد طبخ عدساً) فقال عيسو ليعقُوب: أطعمني من هذا الأحمر، فقال يعقُوب: بعني اليوم بكُورتكَ، فقال عيسو: ها أنا ماض إلى الموت، فلماذا لي البُكُوريَّة؟ وباع بكُوريّته ليعقُوب»، تكوين، إصحاح **25**، آية **30**.

وهكذا باع عيسو حقَّه بالبُكُوريَّة بصحن من طبيخ العدس!!

أمَّا الحيلة التي لجأت إليها الأمُّ؛ فكانت أشدَّ وأدهى، فيقول كاتب التّوراة: «حَدَثَ لَمَّا شاخ إسحاق، وكلَّت عيناه، أنَّه دعا عيسو ابنه البكر، وقال له: اخرجْ إلى البريَّة، وتصيَّدْ، واصنعْ لي أطعمة، حتَّى تُباركك نفسي قبل أنْ أموت. وكانت "رفقة" سامعة.. فكلَّمتْ يعقُوب، وكانت تُحبُّه قائلة: خُذْ جديَيْن من المعزى، فاصنعْ أطعمة لأبيكَ، حتَّى يُباركك قبل وفاته، فقال يعقُوب لأُمِّه رفقة: هُو ذا عيسو رجل أشعر، وأنا رجل أملس، رُبَّما يجسُّني أبي، فأجلب على نفسي لعنة لا بركة. فقالت له أُمُّه: لعنتكَ عليَّ يا ابني.. فَدَخَلَ يعقُوب إلى أبيه، فقال إسحاق: أسرعتَ يا بُني، فأجاب يعقُوب: إنَّ "يَهْوَه" إلهكَ قد يسَّر لي. فقال إسحاق ليعقُوب: تقدَّم لأجسَّك يا بُنيَّ، أ أنتَ هُو ابني عيسو أم لا؟ فتقدَّم يعقُوب إلى إسحاق أبيه، فجسَّه، وقال: الصَّوت صوت يعقُوب، ولكنَّ اليدَيْن يدا عيسو، ولم يعرفه، فباركه».

وكانت البركة هي ما اعتاد "يَهْوَه" أنْ يُبارك بها رجاله الخُلَّص، أو شعبه المُختار. قال: ليُستعبد لكَ الشُّعُوب، وتسجد لكَ قبائل، كُنْ سيِّداً لإخوتكَ. (راجعْ سفْر التّكوين، الإصحاح 27، آية 5).

ثُمَّ جاء عيسو بالصَّيد، فقال له أبوه: «قد جاء أخوكَ مُبكِّراً، وأخذ بركتكَ.. فقال عيسو لأبيه: أ لكَ بركة واحدة يا أبي؟ باركني أنا أيضاً. ففتح إسحاق فاهه، وكانت بركته لعنة؛ حيثُ قال: بلا دسم الأرض يكون مسكنكَ، وبلا ندى السّماء من فوق، وبسيفكَ تعيش، ولأخيك تُستَعْبَد» سفْر التّكوين، إصحاح 27، آية 39.

ثُمَّ دعا إسحاق ابنه يعقُوب، وقال له: «يُعطيك اللهُ بركةَ إبراهيم، ترثُ أرض غُربته (أرض كنعان) التي أعطاها اللهُ إبراهيم» سفْر التّكوين، إصحاح 28: آية 4.

انظرْ، أ هذه أخلاق أنبياء وتصرُّف أتقياء؟؟! أستغفر الله العظيم أنْ يقع مثل هذا من نبيّ وابن نبيّ ووالد نبيّ. إنَّها المكر والخديعة والتَّحيُّز والظُّلم بعينه، حاشا أنْ يكون ذلك من شيَم الأنبياء، لأنَّ كاتب التّوراة (أو كَتَبَتَهَا) يُريد - بأيَّة وسيلة كانت - أنْ يجعل ميراث وبركة

إبراهيم لإسحاق، ثُمَّ ليعقُوب فقط، ويطرد الآخرين من هذا الميراث والبركة، لتبقى أرض المعاد وراثة ليعقُوب وأولاده دُون الآخرين من ذُرِّيَّة إبراهيم.

لقد وَجَدَ كَتَبَةُ التّوراة ذريعة في نَقْل ميراث إبراهيم إلى إسحاق دُون إسماعيل؛ لأنَّ إسحاق ابن السَّيِّدة وإسماعيل ابن الجارية، ولكن؛ هُنا في قصَّة عيسو ويعقُوب (التّوأمان) كلاهما أولاد رفقة، وعيسو هُو البكر (خرج من بطن أُمِّه أوَّلاً)، فاتَّخذوا محبَّة رفقة ليعقُوب مُبرّراً لذلك، ولكنْ؛ متى كانت الأُمُّ تُفرِّق بين أولادها هكذا، ثُمَّ تخدع زوجها، وتتآمر مع أحدهما ضدَّ الآخر؟!! مع أنَّ مَنْ يقرأ التّوراة يجد أنَّ عيسو لم يكن عاقّاً لوالدَيْه، بل كان بارّاً بهما، حتَّى وبأخيه يعقُوب أيضاً، رغم أنَّه خدعه، ونال بركة أبيه بالخديعة. كُلُّ ذلك من أجل ميراث فلسطين (أرض المعاد) و(أرض غُربة إبراهيم)، وحصره بيعقُوب الذي ينتسب إليه اليهُود.

أمَّا بالنّسبة إلى زواج يعقُوب؛ فتقول التّوراة: «ثُمَّ دعا إسحاقُ يعقُوبَ، وأوصاه قائلاً: لا تأخذ زوجة من بنات كنعان، اذهب إلى فدان آرام (حاران)، وخُذْ لنفسكَ زوجة من بنات "لابان" أخي أُمِّكَ، واللهُ يُعطيكَ بركة إبراهيم؛ لترث أرض غُربتكَ التي أعطاها الله لإبراهيم.» سفْر التّكوين، إصحاح **28: 1**.

نعود هُنا مرَّة أُخرى إلى دسٍّ وتحريف كَتَبَة التّوراة، وذلك لإضفاء الصّفاء العرْقي على أُصُول اليهُود، وذلك بطَلَب إسحاق من يعقُوب أنْ لا يتزوَّج من بنات كنعان، وأنْ يأخذ زوجة من بنات "لابان" خال يعقُوب، لينالَ بركة إبراهيم الذي اتُّهم أيضاً برَفْض تزويج إسحاق من بنات الكنعانيِّيْن، وزوَّجه "رفقة" ابنه بتوئيل بن ناحور أخي إبراهيم (كما أسلفنا سابقاً).

هذا؛ بالإضافة إلى ما مرَّ معنا من أنَّ عيسو (آدوم) أحدث مرارة في نَفْس إسحاق لزواجه من بنات بني حثّ (أو الحثِّيِّيْن)، وهُم من الكنعانيِّيْن، ولذلك لم يُعترَف به، وبنَسْله من الأدوميِّيْن أنَّهم من اليهُود[1].

(1) رغم أنَّ يعقُوب نفسه تزوَّج من "زلفا" و"بلها" جاريَتَيْ زوجتَيْه "ليئة وراحيل" ابنتَيْ خاله، وكانت ذُرِّيَّة أولادهما جاد وأثير من زلفا ونفتالي ودان من بلهة من الأسباط الاثنَيْ عشر التي ينتسب إليها اليهُود (راجعْ شجرة نَسَب إبراهيم، وفيها أبناء يعقُوب وزوجاته).

زواج يعقُوب عليه السلام:

ذَهَبَ يعقُوب إلى فدان آرام (حاران)، وأقام عند خاله "لابان"، نظير تزويجه ابنته راحيل (كما طلب والده إسحاق). ولكنّ خاله أدخله على ابنته "ليئه" التي لا يُريدها يعقُوب، فكلّم خاله في ذلك، فقال له: «اخدمني عشر سنين أُخرى، أُزوِّجكَ راحيل، ففعل، وتزوَّج أيضاً من جاريَتَيْهما زلفى وبلها، ومنهنّ كان أولاده جميعاً، والذين وُلدوا كُلُّهم في فدان آرام؛ إلاّ "بنيامين".

ثُمَّ جاء إلى فلسطين بمال كثير ونعَم جليلة، وأهدى إلى أخيه عيسو بعضها وهُو خائف أنْ يبطش به (بسبب خداعه في أَخْذ بركة أبيه منه)، ولكنّ عيسو قابله مُقابلة حسنة (راجع الفقرتَيْن السّابقتَيْن في سفْر التّكوين، إصحاح 31: 17).

« سَكَنَ يعقُوب في أرض غُربة أبيه وجدِّه في أرض كنعان. » سفْر التّكوين، إصحاح 33: 1. الأرض التي كانوا لا يزالون يعملون للاستيلاء عليها واستملاكها بوثيقة يَهْوَه؛ وهي "الوعد".

عاد يعقُوب من فدان آرام، ونصب خيامه أمام مدينة "شكيم" وهي نابلس الحاليَّة، في أرض كنعان (تكوين 33: 18).

ثُمَّ راح يعمل على تنفيذ الخُطَّة التي انتهجها بنو إسرائيل في استيلائهم على الأرض؛ وهي: المجازر الوحشيَّة، وحرب الإبادة، والكذب، والخداع، يُساعدهم - في ذلك - ربُّهم يَهْوَه؛ إله الحقد، والرُّعب، والدّم.

وتروي التّوراة في الإصحاح 34 من سفْر التّكوين كيف غدر يعقُوب وأولاده بحمور[1] وابنه شكيم اللّذَيْن رحَّبا بهم، وسمحا لهم بالنُّزُول في منطقتهم، والرّعي في أراضيهم، ومُلخَّص القصَّة هُو: أنَّ "دينة" ابنة يعقُوب من زوجته "ليئه" أحبَّت شكيم بن حمور رئيس المنطقة، وشردتْ معه، وكيف اتَّخذ يعقُوب وأولاده من ذلك ذريعة للفتك بأهالي شكيم وإبادتهم. وقد حاول حمور والد شكيم إصلاح الأمر بأنْ يتزوَّج ابنه شكيم "دينة" ابنة

---

(1) حمور ملك شكليم؛ أيْ نابلس الآن.

يعقُوب، وأنْ يُقدِّم حمور المهر الذي يُريده يعقُوب وأولاده، ويُنفِّذ الشُّرُوط التي يفرضونها. هُنا؛ أظهر يعقُوب وأولاده المُوافقة، واشترطوا أنْ يختتن شكيم ووالده حمور وجميع رجال المدينة (شكيم: نابلس)، ووافق حمور على ذلك، واختتن الجميع[1].

وفي اليوم الثّالث من الاختتان غَدَرَ يعقُوب وأولاده بهم، وهُم لا يستطيعون القتال بسبب الختان، وبطشوا بهم، وقتلوهم، ونهبوا شكيم، وساقوا مواشيهم، وسبوا نساءهم، واسترقّوا أولادهم، ثُمَّ رحلوا إلى بيت إيل "بيت الله" بأمر "يَهْوَه" إلههم الذي خوَّف المُدُن التي حولهم، فلم يسعوا وراءهم للانتقام منهم بسبب غدرهم بشكيم».

إنَّ كاتب العهد القديم (التّوراة) يعتبر شكيم بن حمور صَنَعَ قباحة في إسرائيل بمُضاجعة ابنة يعقُوب "دينة"، ونجّسها، ولكنَّه لا يعتبر أعمالاً أسوأ منها قباحة في بني إسرائيل مثل:

مُضاجعة راؤبين بن يعقُوب زوجة أبيه "بلهة"، وسمع بذلك يعقُوب، ولم يغضب، وكذلك ربّ إسرائيل يَهْوَه. سفْر التّكوين، إصحاح 35: 21.

اضطجاع لُوط مع ابنتَيْه، بعد أنْ أسكرتاه. سفْر التّكوين، إصحاح 19: 32.

مُضاجعة يهُوذا ابن يعقُوب زوجة أبيه، وحبلتْ منه. سفْر التّكوين، إصحاح 38: 18.

مُضاجعة بني عالي الكاهن النّساء المُجتمعات في باب خيمة الاجتماع أو "بيت يَهْوَه". سفْر صموئيل الأوَّل، إصحاح 2: 22.

مُضاجعة أمنون بن داوود أُخته "ثامار". سفْر صموئيل الثّاني، إصحاح 13.

إلى آخر ذلك ممَّا ألصقه اليهُود بأنبيائهم وأولاد أنبيائهم من فُحش وتُهم شائنة، كُلّها كذب وافتراء تدلُّ على نَفْسيَّتهم القبيحة المُخادعة، وأنانيَّتهم المُفرطة.

هذا غيض من فيض من تاريخهم الأسود الماكر، لا عهد فيه ولا ذمَّة، حتَّى كانوا لا يتورَّعون عن قَتْل أنبيائهم بغير حقٍّ كما يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ

---

(1) كانت حُجَّة يعقُوب وأولاده أنَّهم لا يُزوِّجُون بناتهم من رجل أغرل غير مختون.

ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ سُورة آل عُمران: 181 ـ 183.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ آل عُمران 112.

رحيل يعقُوب إلى مصر:

مكث يعقُوب ـ عليه السّلام ـ في أرض كنعان بعد عودته من فدان آرام (حاران) بدويّاً راعياً هُو وأولاده الاثنا عشر؛ وهُم:

راؤبين (بكر يعقُوب)، شمعون، يهُوذا، لاوي، يساكر، زبلون، وهُم من "ليئة" ابنة خاله لابان.

يُوسُف، بنيامين، من ابنة خاله "راحيل".

دان، نفتالي، من "بلها" جارية "راحيل".

جاد، أشير من "زلفا" جارية "ليئة" (راجع ذُرِّيَّة إبراهيم) رَقْم 4 ص 69.

ثُمَّ حلَّ في فلسطين قَحْطٌ وجُوعٌ، فرحل يعقُوب وأبناؤه إلى مصر، وقصَّة انتقاله إلى مصر وأسبابها، وقصَّة يُوسُف عليه السلام مرويَّة في التّوراة في سفْر التّكوين (من الإصحاح 37 إلى الإصحاح 50). وفي القُرآن الكريم في سُورة يُوسُف بتوافُق كبير.

ويروي البَيْهَقي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبَّاس: أنَّ طائفة من اليهُود حين سمعوا رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ يتلو هذه السُّورة أسلموا لمُوافقتها ما عندهم. أمَّا عن سبب نُزُول سُورة يُوسُف؛ فيُروى عن ابن عبَّاس أنَّ الصّحابة قالوا: يا رسول الله؛ لو قَصَصت علينا، فنزلت سُورة يُوسُف وفيها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [1].

(1) تفسير سُورة يُوسُف في "تفسير القُرآن العظيم" لابن كثير، ص 483 ـ 484.

ومُلخَّص قصَّة يُوسُف ـ عليه السّلام ـ أنَّ أُخوته تآمروا عليه لشعُورهم أنَّه وأخاه بنيامين أَحَبُّ إلى أبيهم منهم، فحاولوا التَّخلُّص منه، وألقوه في غيابة الجُبِّ؛ حيثُ التقطه بعض السَّيَّارة (التُّجَّار) الذّاهبين إلى مصر من الجزيرة العَرَبيَّة، وبيع في مصر لرجل من رجال الحاشية المَلَكيَّة (عزيز مصر)، وقد تبنّاه لما رأى فيه من الخصال الحميدة. وعندما كبر، وشبَّ، فكان جميل الطّلعة، حاولت زوجة سيِّده إغواءه، ولمَّا لم يستجب يُوسُف لما تدعوه إليه، اختار السّجن؛ هَرَباً من الوُقُوع في حبائل سيِّدته، ونسوة أُخريات من نساء السّادة.

ثُمَّ خرج من السّجن، بعد أنْ استخلصه الملك لنفسه، ليكون على خزائن مصر، بعد أنْ فسَّر له رُؤياه؛ وهي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ سُورة يُوسُف 43؛ أيْ أنَّه سيكون هُناك سبع سنوات خصبة مُمطرة، يعمُّ فيها الخير، ويفيض، يعقبها سبع سنوات عجاف، تنحبس فيها الأمطار، فيعمَّ فيها القحطُ، فلا ينمو زرع، ويهلك الضّرع (المواشي).

وكان رأي يُوسُف ـ عليه السّلام ـ ونصيحته للملك أنْ يحتفظ بالفائض في سنوات الخير؛ ليُستفاد منه في سنوات القَحْط والجُوع، وهذا ما جَعَلَ الملك يستخلص يُوسُف لنفسه، ويجعله على خزائن مصر، والمسؤول عن الأُمُور التّموينيَّة، والتّخزين، وبذلك أصبح يُوسُف من رجال البلاط المَلَكي(1).

وعندما انتهت سنوات الخير، وأقبلت سنوات القَحْط، جاء أُخوة يُوسُف إلى مصر، ليمتاروا، بعد أنْ عضَّهم الجُوع بنابه، فَعَرَفَهُم يُوسُف، وهُم له مُنكرون. وفي النّهاية أحضرهم إلى مصر، وكان أبوهم يعقُوب عليه السلام قد أصبح شيخاً كبيراً، ثُمَّ استقرّوا في مصر؛ حيثُ تكاثروا خلال أكثر من قرنَيْن من الزّمان.

والآن؛ متى كان دُخُول يعقُوب وأُسرته إلى مصر؟ ومتى خرجوا منها بقيادة مُوسى عليه السّلام؟

---

(1) أمَّا كيف عرف ملك مصر يُوسُف؟ ومَنْ دلَّه عليه؟ فهُو أحد رفاقه في السّجن الذي أصبح ساقياً للملك. راجع الآيات القُرآنيَّة من 37 ـ 56 من سُورة يُوسُف.

هُناك اختلاف كبير في تقدير تاريخ الدُّخُول إلى مصر والخُرُوج منها، وبالتّالي؛ المُدَّة التي قضاها بنو إسرائيل فيها. والرّأي الذي ارتحتُ إليه هُو أنَّ هجرة يعقُوب إلى مصر كانت حوالي 1600 ق. م، وأنَّ الخُرُوج منها مع مُوسى - عليه السّلام - هُو حوالي 1400 ق. م. والدُّكتُور أحمد داود يُؤكّد أنَّ هجرة يعقُوب كانت 1400 ق. م، والخُرُوج مع مُوسى كان سنة 1300 ق. م؛ أيْ أنَّ عشيرة يعقُوب مكثتْ في مصر حوالي قرن من الزّمان فقط. أمَّا الدُّكتُور أحمد سُوسة؛ فيُقرِّر أنَّ الهجرة كانت حوالي 1600 ق. م، والخُرُوج كان حوالي 1350 ق. م؛ أيْ أنَّ بني إسرائيل مكثوا في مصر حوالي 250 سنة. أمَّا التّوراة؛ فتُقرِّر أنَّ إقامة بني إسرائيل في مصر كانت 430 سنة (سفْر الخُرُوج، الإصحاح 12، آية 40).

مصر التي هاجر إليها يعقُوب:

ولكنْ؛ أيُّ مصر التي هاجر إليها يعقُوب وذُرِّيَّته؟ أ هي مصر وادي النّيل؟ أم مكان آخر يُسمَّى مصر؟

لقد وجدتُ جواباً عن هذا التّساؤل في ثلاثة اتِّجاهات:

الاتِّجاه الأوَّل:

ويأخذ به الدُّكتُور أحمد سُوسة في كتابه (العَرَب واليهُود في التّاريخ)؛ حيثُ يُقرِّر أنَّ الهجرة والخُرُوج كان من مصر وادي النّيل، وهُو - بذلك - يأخذ بظاهر التّوراة، وبما أخذ به مُعظم المُؤرِّخين، وخاصَّة اليهُود، الذين يُؤيِّدون هذا الاتِّجاه؛ ليربطهم بالمنطقة، والعودة إليها، فهُم يقولون: إنَّ تاريخهم يمتدُّ على المنطقة الواقعة بين النّيل والفُرات.

الاتِّجاه الثّاني:

ويقول به الدُّكتُور أحمد داود في كتابه (العَرَب والسّاميُّون والعبرانيُّون وبنو إسرائيل..) والأُستاذ كمال الصّليبي في كتابه (خفايا التّوراة)، فهُما يُقرِّران أنَّ مصر المقصودة هي بلدة "المصرمة"، أو "مصرايم" في غرب الجزيرة العَرَبيَّة، وفي منطقة عسير بالتّحديد، وأنَّ أحداث التّوراة مُنذُ عهد إبراهيم عليه السّلام وهجرة يعقُوب وذُرِّيَّته وخُرُوج

مُوسى عليه السّلام حتَّى السّبي البـابليّ كـانت أحداثـها كُلُّـها فـي منطقـة عسير مـن السّـاحل (تهامة اللّيث والقنفذة الآن) وشرقاً عبر مُرتفعات عسير حتَّى بلاد غامد.

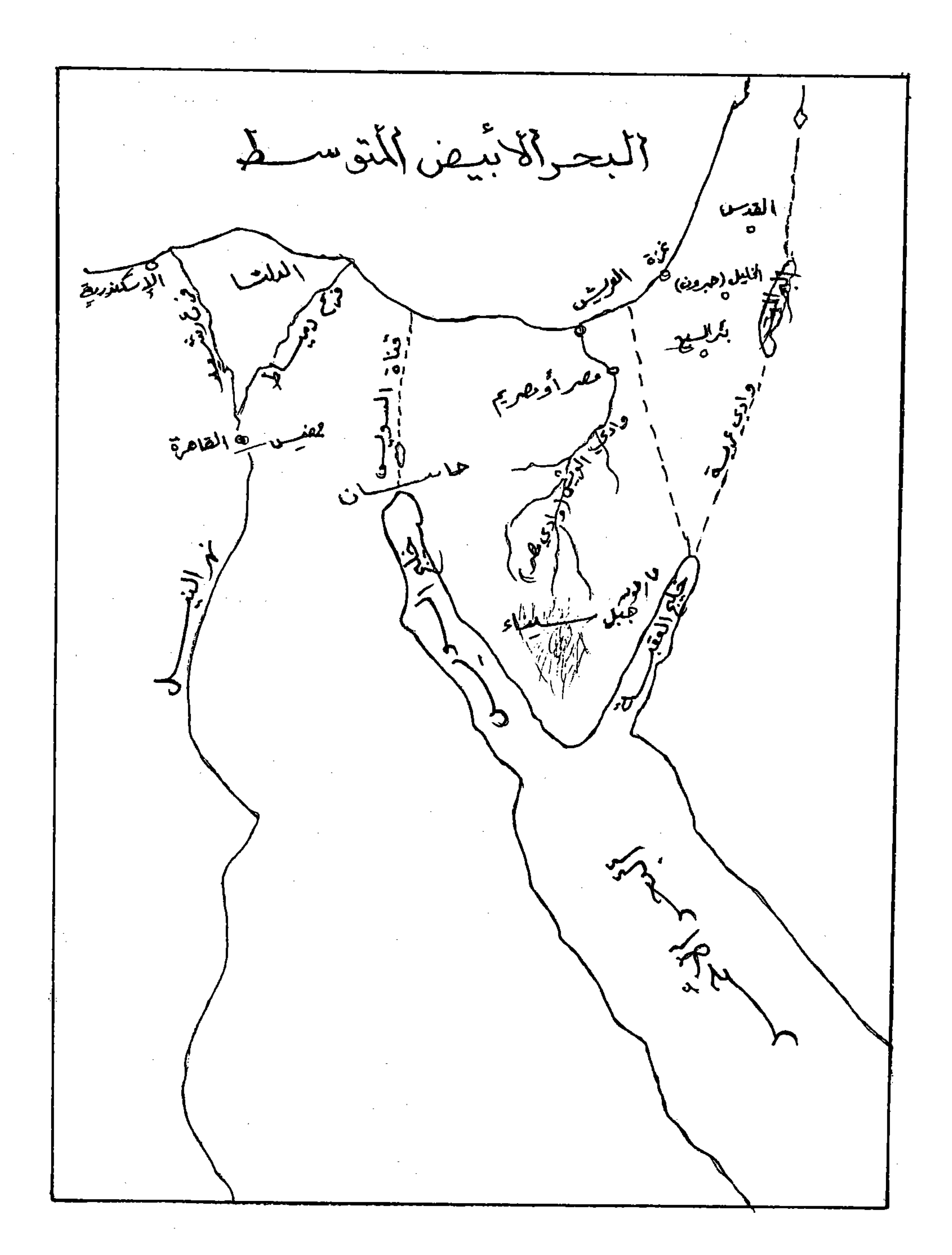
ولكنِّي لم أطمئنّ لهذا الرّأي؛ لصُعُوبة تفسير قيام دولـة اليـهُود فـي فلسـطين زمـن داود وسُلَيْمَان (عليـهما السّـلام)، ثُـمَّ انقسـامها إلـى السّـامرة فـي نـابلس، ويـهُوذا فـي القُـدس، ويصعـب تفسـير السّـبي الآشـوري، والقضـاء علـى دولـة السّـامرة، وكذلـك السّـبي البـابليّ والقضاء على يهُوذا، وعودة اليهُود إلى فلسـطين علـى يـد كُـورش إمـبراطُور الفُـرْس. كُلُّـها أُمُور يصعب البرهنة على أنَّ أحداثها كُلَّها جرت في منطقة عسير، وما جاورها، وخاصّـة أنَّ الأحداث الأخيرة معروفة ومُدونَّة من قبَل المُؤرِّخين القُدامى، ومُؤيَّدة بالآثار والكتابات التـي قُرئت، وعُرف مُحتواها.

ثُمَّ يُصبح تفسـير الأُمُور أصعـب عنـد الحديـث عـن ثـورة اليـهُود ضدَّ الحُكْم اليُونـاني السّلوقي في بلاد الشّام، وهـي الثّـورة المعروفـة "بـالثّورة المكابيَّـة"، وكذلـك ثـورة اليـهُود في منطقة القُدس ضدَّ الحُكْم الرُّوماني، زمن الإمبراطُور "هدريان"، والذي كلَّـف ابنـه "طيطـس" على ثورتهم، وتمَّ له ذلك، وهدم هيكلهم، وحـرَّم عليـهم العيـش فـي فلسـطين، وشـرَّدهم منها. كيف نُفسِّر حُدُوث كُلِّ هذا في جبال عسير في الجزيرة العَرَبيَّـة؟؟ وإذا حَدَثَ هـذا فـي فلسطين، فمتى، وكيف هاجر اليهُود من عسير إلى فلسطين؟!!

الاتِّجاه الثّالث والأخير:

وهُو يقول بأنَّ مصر المقصـودة فـي التّـوراة هـي "مصرايـم"، أو "مشرائيم" الواقعـة علـى وادي العريش (جنوب غزَّة)، والذي كان يُسمَّى وادي أو نهر مصر، وأنَّ مصر المقصودة فـي التّوراة هي شبه جزيرة سيناء (راجع المُصوَّر رَقْـم 6 ص 95)، وليسـت مصـر وادي النّيـل، أو منطقة عسير في الجزيرة العَرَبيَّة.

وسبب هذا الاتِّجاه هُو أنَّ مصر وادي النّيل لم يرد أيُّ ذكْر في تاريخـها الطّويـل لإقامـة اليهُود وبني إسرائيل فيها، أو خُرُوجهم منها، رغم معرفتنا الدّقيقة بتاريخ مصر فـي العُصُـور القديمة (بعد قراءة كتاباتها القديمة).



مُصور رَقْم (6)

يُبيِّن وادي العريش أو وادي مصر وموقع مصر أو مصرايم عليه

وهذا الاتِّجاه الثّالث يقوده العالم الألماني : "هوكو فنكلير" "Winkler Hogo" في كتابه (دراسة في العهد القديم)، فهُو يقول : « إنَّ ادِّعاء الأسفار التّوراتيَّة بإقامة اليهُود في مصر ما هُو إلاَّ نتيجة خطأ جَغرافي ». ويظنُّ هوكو فنكلير أنَّ كُتَّاب الأسفار استعملوا كلُّمة "مصـر"، أو مصرايم، أو مسرائيم، للتّدليل على صحراء سيناء، وما جاورها، وتُخُوم البلاد الواقعة شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة، وليس مصر وادي النّيل[1]. وذلك أُسوة بالبابليِّيْن الذين كانوا يُسمُّون الوادي الكائن في غرب غزَّة بوادي مسرائيم "Mesraim Torrant" رغم قُربه من مدينة غزَّة، وهُو وادي العريش الآن.

وانطلاقاً من هذا الرّأي يقول هوكو : « رُبَّما أقامت بعض القبائل اليهُوديَّة في هذه المنطقة (سيناء)، وتكاثر أفرادها، فزحفتْ إلى فلسطين في أواخر القرن الثّالث عشر قبل الميلاد (يقصد الخُرُوج مع مُوسى) »، ويُعلِّل هوكو سكُوت المصادر المصريَّة عن هذه الإقامة بعدم علاقتها بهذا القطاع من البلاد المُتاخمة لبلادها، وإنْ كانت تحمل نفس الاسم، فلو كان لها بعض العلاقة به أو الإقامة المزعومة في مصر فلا يُعقل سكُوتها (أيْ المصادر المصريَّة) عن ذلك مهما كان التّعليل.

ويُؤيِّد هوكو في آرائه هذه المُؤرِّخ الفرنسي الشّهير أدولف لودس في كتابه "تطوُّر البشريَّة" قسم (إسرائيل من البداية حتَّى مُنتصف القرن الثّامن قبل الميلاد) ويقول الأُستاذ ناجي في كتابه "المُفسدون في الأرض" : إنَّ سُكُوت المصادر المصريَّة المُطبق عن إقامة عشيرة يعقُوب في مصر صراحةً أنَّ قصَّتها مُلفَّقة تلفيقاً يهُوديّاً محضاً، دُون أنْ يكون لها مُستند تاريخي.

ولكنَّ القُرآن الكريم يذكر مصر وبَيْعَ يُوسُف فيها، ورحيل يعقُوب وذُرِّيَّته إليها، وإقامتهم فيها، وفي زمن مُوسى يأتي ذكْر مصر عدَّة مرَّات أيضاً، وهذه هي الآيات التي وَرَدَ فيها ذكْر مصر : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ (ليُوسُف) مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وكذلك ﴿وَقَالَ (أيْ يُوسُف) ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ يُوسُف 99.

---

(1) المُفسدون في الأرض، س. ناجي، ص 28.

وبالنّسبة لُموسى عليه السّلام ذكرت مصر كما يلي :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ يُونُس 87 .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ الزُّخرف 51 .

﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة 61 .

في الآيات الكريمة السّابقة يرد اسم "مصر" بشكل صريح ، ولكنْ ؛ يبقى التّساؤل : أيّ مصر هذه ؟ !

وسبب هذا التّساؤل الُملحّ هُو ـ كما أسلفنا ـ عدم وُرُود أيُّ ذكْر ليعقُوب وبنيه وهجرته إلى مصر ، رغم أنَّ ابنه يُوسُف تبوأً في مصر منصباً رفيعاً ، ومكاناً مرموقاً ، فقد أصبح على خزائن مصر ، كما هُو وارد في القُرآن الكريم والتّوراة . ولكنَّ المصادر المصريَّة تُغفل ذلك . حتَّى إنَّ ظُهُور مُوسى ـ عليه السّلام ـ بعد عدَّة قُرُون من إقامة بني إسرائيل في مصر ، وخُرُوجه بهم منها بعد أنْ أصبح عددهم عشرات الأُلُوف أو مئات الأُلُوف (كما تذكر التّوراة أنَّهم كانوا عند الخُرُوج من مصر 600 ألف) .

إنَّ خُرُوج هذا الجمع الغفير من مصر ـ رغم إرادة ملكها أو فرعُونها ـ لابُدَّ أنْ يكون له ذكْر في ما وصلنا من أخبار مصر القديمة ، حتَّى لو كان عدد اليهُود عند الخُرُوج بضعة آلاف ، فلابُدَّ أنْ يكون لذلك ضجَّة كبيرة في البلاد ، وذكْر في تاريخ مصر ، لا سيّما أنَّ عدد البشر في ذلك الوقت كان قليلاً جداً بالنّسبة للكثافات البشريَّة الهائلة في هذه الأيَّام .

هذا ؛ بالإضافة إلى موت فرعُونها أثناء مُلاحقة مُوسى وأتباعه ، فلا يُمكن أنْ يمرَّ كُلُّ ذلك ولا يكون له ذكْر في تاريخ مصر وأخبارها ! لا سيّما ونحنُ الآن نعرف تاريخ مصر القديم بدقَّة كبيرة بعد قراءة الخطِّ المصري القديم (الهيرُوغليفي والدّيمُوطيقي) ومعرفة تاريخ مصر مُنذُ وحدتها على يد "مينا" حوالي 3500 قبل الميلاد ، إلى زوالها على يد الإسكندر المقدوني سنة 332 قبل الميلاد .

إذنْ؛ كيف نحلُّ هذه المُشكلة؟ إنَّ الحلَّ الذي يُقدِّمه الدُّكتُور هوكو فنكلير، ويُؤيِّده في ذلك المُؤرِّخ الفرنسي أدولف لودس، وكذلك المُؤرِّخ العَرَبيّ الدُّكتُور جواد علي في كتابه (تاريخ العَرَب قبل الإسلام) هُو الأقرب إلى الصِّحَّة، وهُو أنَّ كُتَّاب الأسفار استعملوا كلمة مصر، أو ميشر، أو مسرائيم، للتّدليل على شبه جزيرة سيناء، وما جاورها، وليس مصر وادي النّيل.

في هذا الرّأي حلٌّ للمُشكلة، وهُو لا يتنافى مع آيات القُرآن الكريم الواردة في هذا الصّدد، لا سيّما وأنَّ سيناء جُزء من مصر، وفي شمالها يُوجد وادي العريش الذي كان يُسمَّى وادي مصر، أو (وادي مصرايم)، وتقع عليه بلدة مصرايم التي كانت محطَّة هامَّة للقوافل التّجاريَّة الذّاهبة إلى مصر، والقادمة من اليمن عبر الجزيرة العَرَبيَّة، والتي كانت تحمل البُخُور والمرّ واللّبان . . إلخ، وهي موادٌّ كان المصريُّون في وادي النّيل بحاجة إليها في معابدهم، وفي عمليَّات التّحنيط التي اشتهروا بها.

مصرايم، أو مصر، كانت بوّابة مصر (وادي النّيل) الشّرقيَّة على طريق القوافل، ليس للجزيرة العَرَبيَّة فقط، بل لبلاد الشّام أيضاً، ويحكمها وكيل من العَرَب العماليق لَقَبُهُ "فرعُون"، وكلمة فرعُون كلمة عَرَبيَّة، وهي تصغير "فرعُو" في العَرَبيَّة القديمة لـ "فارع" في العَرَبيَّة الحديثة، وتعني كلمة وكيل الملك، أو وكيل السُّلطان، وليست لقباً لملك مصر وادي النّيل[1] (كما هُو المُتعارف عليه)، (انظر المُصوَّر المُرفق لترى وادي العريش وموقعه في سيناء وموقع مصرايم عليه، مُصوَّر رَقْم 6 ص 95).

إنَّ اسم مصر وادي النّيل أتى - في الأصل - من مصرايم، أو مصر وادي العريش، أو وادي مصر. فسُكَّان المناطق الواقعة شرق سيناء وشمالها من الجزيرة العَرَبيَّة وبلاد الشّام والبابليُّون في العراق كانوا يُطلقون على سيناء بلاد مصر، وانتقل الاسم ليشمل البلاد الواقعة غرب سيناء، وهي بلاد وادي النّيل التي أصبح اسمها الآن مصر.

---

(1) د. أحمد داود، "العَرَب والسّاميُّون . ." ص 86.

ثُمَّ جاء كاتب التّوراة (أو كَتَبَتُهَا) فأخذوا بالتّسمية (أيْ أنَّ مصر هي سيناء وما حولها) ولكنَّ قُرَّاء التّوراة والمُؤرِّخين الذين اعتمدوا عليها وقعوا ـ كما أسلفنا ـ بالتباس أنَّ مصر أو مصرايم في سيناء على وادي العريش هي مصر وادي النّيل، وأطلقوا اسم وكيل مصرايم (أو مصر) أو حاكمها "فرعُون" على مُلُوك وحُكَّام وادي النّيل. والحقيقة أنَّ حُكَّام وادي النّيل كانوا مُلُوكاً، وليسوا فراعنة. وهكذا أصبح الخطأ والالتباس في تسمية بلاد وادي النّيل بمصر، وكذلك الخطأ والالتباس بتسمية حُكَّامها بالفراعنة. ولم يرد في آثار مصر ومُدوَّناتها اسم فرعُون أو لقب فرعُون لحُكَّامها. ووادي المُلُوك؛ حيثُ مقابر حُكَّام مصر يُسمَّى وادي المُلُوك، وليس بوادي الفراعنة، حتَّى إنَّ اسم مصر في اللُّغة الإنكليزيَّة واللُّغات الأُورُوبيَّة هُو: **Egypt** أيْ بلاد القبْط، والرّسول الكريم مُحَمَّد ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ عندما وصَّي بأهل مصر قال: «استوصوا بالقبْط خيراً». وعندما أرسل إلى المُقوقس ملك مصر يدعوه إلى الإسلام قال: «من مُحَمَّد بن عبد الله رسول الله إلى عظيم القبْط» ولم يقلْ ملك مصر، ولا عظيم مصر.

ولكنَّ هذا الاصطلاح عمَّ، وأصبح حقيقة واقعة لا يُمكن تغييره. كما أنَّ السّاميَّة ـ وهي اصطلاح يُطلق على الشُّعُوب العَرَبيَّة ـ أصبحت حقيقة مُسلَّماً بها.

وفرعُون مصر أو مصرايم في سيناء كان يخضع لمُلُوك مصر (وادي النّيل)، وكان وكيلاً لهم على بوَّابة مصر الشّرقيَّة، إلاَّ في فترة خُضُوعه للآشوريِّيْن، بعد أنْ امتدَّت إمبراطُوريَّتهم إلى جنوب بلاد الشّام، وخضعت لهم سيناء، ومصر وادي النّيل بأكملها.

ففيما تركه لنا سرجُون الثّاني[1] ملك الآشوريِّيْن من كتابة يقول فيها: إنَّه تلقَّى الجزية من "سمسي" ملكة عريبي[2] ومن "فرعُو" ملك مصري[3] (المقصود ملك مصرايم على وادي العريش)، وليس ملك مصر وادي النّيل؛ لأنَّ مصر وادي النّيل لم يصلها سرجُون الثّاني، ولم تخضع له، وإنَّما الذي فتح مصر السُّفلى (الدّلتا)، ودَخَلَ عاصمتها "ممفيس" فيما بعد

(1) سرجُون الثّاني هُو الذي أخضع مملكة السّامرة اليهُوديَّة، وسبى أهلها 729 ق.م.

(2) سمسي أوْ "شمسي" الأغلب أنَّها ملكة عشيرة شبأ أو سبأ من ذُرِّيَّة إبراهيم.

(3) د. أحمد داود، "العَرَب والسّاميُّون.."، ص 80.

فهُو "أسرحدون"، ثُمَّ تمكَّن "آشور بانيبال" من إعادة فتح "ممفيس" ومصر العُليا (الصّعيد)، وَدَخَلَ عاصمتها "طيبة"، وبذلك خضعت مصر وادي النّيل للآشوريِّيْن بأكملها[1].

هذا؛ وقد استطاع فراعنة مصرايم على وادي العريش أنْ يستغلُّوا ضعف مُلُوك مصر (في الفترة الوُسْطَى)، ويُسيطروا على الدّلتا ومصر السُّفلى، ويحكموا شمال مصر وادي النّيل مع سيناء وجُزء من بلاد الشّام، وهُم الهكسوس، أو مُلُوك الرُّعاة، واستمرَّ حُكْمهم لمصر وادي النّيل حوالي 200 سنة من 1785 ـ 1580 قبل الميلاد، وفي عهدهم رحل يعقُوب إلى مصر (مصرايم)، ثُمَّ طردهم من مصر "أحمس"، وعادت مصرايم محطَّة للقوافل وتابعة لمصر وادي النّيل وحاكمها الفرعُون نائب الملك في مصر وادي النّيل ووكيله.

وسنُفرد للهكسوس (مُلُوك الرُّعاة كما سمَّاهم المصريُّون) بحثاً خاصّاً فيما بعد إنْ شاء الله.

البراهين على أنَّ هجرة يعقُوب كانت إلى مصر وادي العريش في سيناء، وليس مصر وادي النّيل:

ذكرنا أنَّ الذي جَعَلَ كبار المُؤرِّخين الذين كتبوا عن تاريخ اليهُود أو تاريخ المنطقة بشكل عام من أجانب وعَرَب يُشكّكُون في أنْ تكون هجرة يعقُوب وذُرِّيَّته ومن قبله إبراهيم عليهما السّلام إلى مصر وادي النّيل، وإنَّها كانت إلى مصرايم في شبه جزيرة سيناء على وادي العريش أو وادي مصر (انظر المُصوَّر رَقْم 6 ص 95).

والذي أدَّى إلى هذا التَّشكُّك هُو خُلُوُّ المصادر التّاريخيَّة المصريَّة من أيِّ ذكْر لهجرة يعقُوب وأولاده إلى مصر وادي النّيل.

وقد حاولتُ ـ بدوري ـ أنْ أستشفَّ الحقيقة، وأكتشف الصّواب في هذه النّاحية، فتوصَّلتُ إلى عدَّة براهين تُؤكِّد أنَّ الهجرة كانت إلى مصرايم في سيناء، وليس إلى مصر وادي النّيل.

ولكنْ؛ قبل أنْ أتحدَّث عن هذه البراهين لابُدَّ لي أنْ أعود بالقارئ الكريم إلى الظُّرُوف المناخيَّة التي كانت سائدة في شبه جزيرة سيناء والمناطق المُجاورة لها عند هجرة يعقُوب وأولاده إلى "مصرايم"، والتي تعود إلى ما قبل أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة (3500 سنة).

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 210 ـ 212.

قُلنا في التّمهيد - في أوّل الكتاب عندما تحدّثنا عن الظُّرُوف المناخيَّة والجَغرافيَّة التي كانت سائدة في منطقة الشّرق الأدنى أثناء الجمُوديَّة الثّالثة - : إنَّ هذه البلاد (وجميع الصّحاري الواقعة حول مدار السّرطان) كانت تنعم بمناخ مُعتدل ومطر شبه دائم، وإنَّ هذه البلاد كانت ذات غابات ومُرُوج خضراء، وكانت أوديتها الجافَّة أنهاراً عظيمة، وإنَّ الخليج العَرَبيّ كانت تشغله جنَّة عَدَن جنَّة العَرَب المفقودة.

ولكنْ؛ مُنذُ أربعة عشر ألف سنة أخذت الجمُوديَّة الثّالثة بالانحسار والتّراجع، وأخذ المناخ يتغيُّر بارتفاع الحرارة وبالجفاف التّدريجي البطيء، وأخذت الجمُوديّات بالذّوبان، وارتفعت مُستويات البحار، وأخيراً؛ غرقت جنَّة عَدَن تحت مياه الخليج العَرَبيّ. إلاَّ أنَّ الظُّرُوف المناخيَّة قبل حوالي أربعة آلاف سنة كانت لا تزال أفضل ممَّا هي عليه الآن بكثير، فكانت الأمطار أغزر، والجو ألطف، والنّبات أكثف، فكانت صحارى سيناء والنَّقَب جنوب فلسطين ووادي عَرَبه حتَّى خليج العقبة مراعي خصبة ترتع فيها مواشي البدو الرُّحَّل، وكان وادي العريش أو وادي مصر في سيناء نهراً دائم الجريان، وليس وادياً جافّاً، وكان ينبع من جبال سيناء (جَبَل الطُّور)، وترفده عدَّة روافد قبل أنْ يصبَّ في البحر المُتوسِّط جنوب غزَّة (انظر المُصوَّر رَقْم 6 ص 95).

ورُبَّ مُعترض يقول: ما هي البراهين على ذلك؟ وأُجيب أنَّ هُناك عدَّة براهين على أنَّ المنطقة لم تكن صحراء قاحلة كما هي الآن هي:

1- الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأٓكِلِينَ﴾ المُؤمنون 20.

الشّجرة هي: شجرة الزّيتون، وتدلُّنا الآية الكريمة أنَّ أصل هذه الشّجرة من جبال سيناء، ثُمَّ انتشرت في حوض البحر المُتوسِّط، وهذا يعني أنَّ المناخ في شبه جزيرة سيناء كان يصلح لنُمُوِّ هذه الشّجرة وازدهارها من أمطار كافية وجوٍّ مُعتدل مُلائم، وهذا يُؤيِّد القول إنَّ شبه جزيرة سيناء كانت أغزر أمطاراً، وأكثر نباتاً، وألطف مناخاً.

2- الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المائدة 26.

وَرَدَتْ هذه الآية بحقِّ بني إسرائيل بعد رَفْضهم دُخُول فلسطين عندما دعاهم مُوسى عليه السّلام لدُخُولها، بحُجَّة أنَّ فيها قوماً جبَّارين، وطَلَبوا منه أنْ يذهب هُو وربُّه لقتال سُكَّانها من الكنعانيِّيْن: كما وَرَدَ في الآيات الكريمة التّالية:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ سُورة المائدة 22، 23، 24.

عندها؛ حرَّمها الله - تعالى - عليهم أربعين سنة، تاهوا فيها في صحراء سيناء فيما يُعرف - الآن - بهضبة التّيه في شمال شرق سيناء. فلو كانت سيناء كما هي الآن صحراء قاحلة مُقفرة لما استطاع بنو إسرائيل الحياة فيها هذه المُدَّة الطّويلة (40 سنة)، وكانوا يبلغون عشرات الأُلُوف، وصحراء التّيه - الآن - لا يستطيع أنْ يعيش فيها أيُّ كائن حيٍّ.

ولكنَّ بني إسرائيل عاشوا فيها أربعين سنة رُعاة، ممَّا يدلُّ - بشكل قاطع - أنَّها كانت - على الأقلِّ - بادية، تنزل فيها الأمطار، وتنبت فيها المراعي، ولم تكن صحراء مُقفرة.

وخلال الأربعين سنة التي عاشها بنو إسرائيل في صحراء سيناء هلك منهم الجيل الأوَّل كثير اللّجاجة الخنوع، ونما جيل جديد أصلب عوداً وأشدُّ مراساً من الأوَّل، والذي سار مع مُوسى عليه السّلام، ثُمَّ مع يُوشع بعد موت مُوسى لدُخُول فلسطين.

وجاء في التّوراة ما يُؤيِّد ذلك في (سفْر العدد، الإصحاح 32، آية 13) «حمى غضب الرَّبِّ على إسرائيل (أيْ بني إسرائيل)، وأتاههم في البريَّة أربعين سنة، حتَّى فني الجيل الذي فعل الشَّرَّ في عينيِّ الرَّبِّ».

3 - الشّعر الجاهلي الذي وصلنا عن العَرَب قبل الإسلام فيه ما يدلُّ على انتشار حيوانات لا وُجُود لها الآن في الجزيرة العَرَبيَّة مثل: حمير الوحش، والمها، والأُسُود، والنُّمُور.. إلخ. وهذا يدلُّ على أنَّ الجزيرة العَرَبيَّة كانت أكثر أمطاراً، وأكثر نباتاً من الآن، وكذلك وَرَدَ في الشّعر الجاهلي وَصْفٌ للغُدران (تجمُّعات المياه) التي لا وُجُود لها الآن.

وعَمرو بن كلثوم ملك الحَيْرة عاصمة المناذرة في العراق يقول في مطلع مُعلَّقته المشهورة:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبغي خُمُور الأندرينا

والأندرين هي - الآن - عبارة عن أطلال مدينة خربة في بادية الشّام، لا زرع فيها، ولا شجر، بل هي مرتع لأغنام البدو في فصل الرّبيع، بعد فصل أمطار جيِّد. ولكنْ؛ يُستَدَلُّ من هذا البيت أنَّها كانت عامرة ذات زُرُوع وحدائق وكُرُوم، وإلاَّ كيف تشتهر بصناعة الخُمُور (خُمُور الأندرين) وهي بادية جرداء؟!

وكما كانت تنتشر في بوادي الشّام المُدُن والقُرى والزُّرُوع كانت كذلك صحاري سيناء والشّام - أو على أقلِّ تقدير - كانت مراعي خصبة، تنتشر فيها القبائل البدويَّة؛ لأنَّ سيناء والشّام منطقة واحدة تسود فيها ظُرُوف مناخيَّة مُتقاربة (مع مُلاحَظَة أنَّ الأمطار في بلاد الشّام من جبال طُورُوس في الشّمال، إلى سيناء في الجنوب، تقلُّ فيها الأمطار، من الشّمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشّرق).

4 - كانت تخترق شبه جزيرة سيناء من العقبة إلى مصر وادي النّيل مارَّة بمصرايم على وادي العريش القوافل التّجاريَّة القادمة من الجزيرة العَرَبيَّة واليمن، ولو كانت صحاري كما هي عليه الآن لما استطاعت أيُّ قافلة عُبُور هذه القفار الجافَّة عديمة المياه.

وهكذا أصبح من المُؤكَّد لدينا أنَّ شبه جزيرة سيناء لم تكن صحراء قاحلة كما هي الآن، بل كانت ألطف مناخاً، وأغزر أمطاراً، وأكثر مياهاً، وكان يخترقها نهر العريش (أو نهر مصر) الذي كان دائم الجريان، ينبع هُو وروافده من جبال الطُّور، ويتَّجه شمالاً؛ ليصبَّ في البحر المُتوسِّط جنوب غزَّة، ومُوازياً لنهر النّيل. وكانت جبال سيناء تكسوها الغابات والأشجار المُثمرة، وخاصَّة الزّيتون، وكانت هضابها وسُهُولها تنتشر فيها الزّراعات والمراعي الخصبة.

وهذا الوَضْع المناخي لشبه جزيرة سيناء سيُفسِّر لنا أُمُوراً كثيرة غامضة، ويُقدِّم لنا براهين دامغة أنَّ هجرة يعقُوب كانت إلى شبه جزيرة سيناء، وإلى مصرايم "مصر" بالذّات،

وكذلك خُرُوج مُوسى مع بني إسرائيل كان منها، وليس من مصر وادي النّيل كما سنرى فيما بعد إنْ شاء الله.

وفيما يلي سأذكر البراهين التي توصَّلتُ إليها في أنَّ مصر المقصودة هي مصر سيناء، وليس مصر وادي النّيل والتي هاجر إليها يعقُوب وذُرِّيَّته وهي:

أوَّلاً:

كان حُكَّام مصرايم "مصر" على وادي العريش من العَرَب العماليق، وقد أورد أنسابهم الطّبري والثّعالبي (في قَصَص الأنبياء)، وكذلك الدُكتُور أحمد داود في كتابه "العَرَب والسّاميُّون.." [(1)]؛ وهي:

فرعُون إبراهيم عليه السّلام: هُو سنان بن عُلوان بن عُبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح عليه السّلام.

أمَّا فرعُون يُوسُف (أو ملك مصر في زمنه) فهُو الرَّيَّان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عَمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح. وقد آمن على يد يُوسُف عليه السّلام.

وفرعُون مُوسى هُو: قابوس بن مُصعب بن مُعاوية بن نُمير بن السّلواس بن فاران بن عَمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح عليه السّلام، وزوجته "آسيا" بنت مُزاحم بن عُبيد بن الرَّيَّان بن الوليد.. حتَّى نُوح عليه السّلام.

والثّعالبي في قَصَص الأنبياء يقول إنَّه: أبو العبَّاس بن الوليد بن مُصعب بن الرَّيَّان بن أراشه بن شروان بن عَمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح عليه السّلام. وقد خلف أخوه قابوس بن مُصعب بن الرَّيَّان.. إلخ.

يظهر من أنساب فراعنة مصر المذكورة أنَّها أسماء عَرَبيَّة صرفة، فهُم من العَرَب العماليق البائدة. فأين هذه الأسماء من أسماء مُلُوك مصر وادي النّيل مثل: خوفو، خفرع،

---

(1) قَصَص الأنبياء، للثعالبي، ص 96 - 97.

"العَرَب والسّاميُّون.." د. أحمد داود، الصّفحات 80 - 99 و 146 - 152.

منقرع، وأحمس، ورعمسيس، وتحتمس، أو أخناتون، وتوت عنخ آمون . . إلخ. وهذا يُؤكِّد القول إنَّ مصر المقصودة هي مصرايم في سيناء، وليست مصر وادي النّيل.

والتّوراة نفسها تذكر أنَّ فراعنة مصر كانوا من العماليق، وهذا لا يكون إلاَّ في مصر سيناء.

ثانياً:

تقول التّوراة: إنَّه عندما عمَّ القَحْط في أرض كنعان، ذَهَبَ أخوة يُوسُف ليكتالوا من مصر لأهلهم على ظُهُور الحمير، "فحملوا قمحهم على حميرهم، ومضوا من هُناك (أيْ من مصر) فلمَّا فتح أحدهم عدْله ليُعطي عليقاً لحماره في النّزل رأى فضّته، وإذا هي في فم عدْله"، سفْر التّكوين، الإصحاح 42، آية 26 ـ 27.

والمسافة بين الخليل مقرِّ يعقُوب وأولاده ومصر وادي النّيل وعاصمتها "ممفيس" على نهر النّيل قُرب موقع القاهرة الآن، هي حوالي 500 كم، فكيف يتسنَّى لحمير أولاد يعقُوب أنَّ تذهب إلى ""مفيس" لتحمل القمح إلى الخليل؟!! هذا مُستحيل، ويحتاج إلى أكثر من شهر، وتكون حُمُولة الحمير من القمح لا تكفيها غذاء في طريقها من ممفيس إلى الخليل. ولكنْ؛ إذا اعتبرنا أنَّ مصر المقصودة هي مصرايم على وادي العريش، فالمسافة تُصبح أقلّ من 100 كم، وهي مسافة يُمكن قَطْعها في بضعة أيَّام، أو في أُسبُوع ذهاباً وإياباً (انظر المُصوَّر رَقْم 6 ص 95)، وهذا أقرب للعقل والواقع.

والقُرآن الكريم يُؤيِّد هذا الواقع، ففي سُورة يُوسُف يقول أولاد يعقُوب لأبيهم عندما عادوا إليه من مصر دُون أخيهم "بنيامين" الذي احتجزه يُوسُف عنده، قالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ سُورة يُوسُف آية 82. فهُم يطلبون من أبيهم عندما رَفَضَ تصديقهم أنْ يسأل العير التي عادوا معها، أو يذهب إلى القرية التي كانوا فيها، واكتالوا منها، ويسأل عن ابنه بنيامين فيها، ليكتشف صدق بنيه.

ولكنْ؛ كيف يطلبون من أبيهم الطّاعن في السِّنِّ، والذي هَدَّتْهُ الشّيخوخة، وكُفَّ بصره أنْ يذهب إلى مصر ليسأل عن ابنه إذا كانت مصر المقصودة هي مصر وادي النّيل؟ كيف يتسنَّى لشيخ كفيف البصر ـ مثل أبيهم ـ أنْ يقطع هذه المسافة الطّويلة (حوالي 500 كم) إلى مصر وادي النّيل، لولا أنَّ المقصود كان مصر سيناء؟! فالمسافة بينهم وبينها يُمكن قَطْعها

من قبَل أبيهم (أقلّ من 100 كم) ليطمئنَّ على ابنه، وتهدأ نفسه. وهذا يزيد من القناعة أنَّ مصر المقصودة في التّوراة وفي القُرآن الكريم هي مصرايم على وادي مصر في سيناء.

ثالثاً:

أوصى يعقُوب - عليه السّلام - قبل وفاته ابنه يُوسُف عليه السّلام أنْ يدفنه في الخليل في مغارة "المكفيله"؛ حيثُ دُفن جدُّه إبراهيم، وجدّته سارة، ووالده إسحاق، ووالدته رفقة (عليهم السّلام).

وعندما تُوفِّي يعقُوب نَقَلَهُ يُوسُف إلى الخليل، ودُفن هُناك في مغارة "المكفيله"، كما أوصى، وَذَهَبَ معه جمع غفير من رجال الدّولة والوُجهاء والفُرْسان والعبيد لتشييع جُثمان والده.

والآن؛ إذا كانت مصر التي نُقل منها جُثمان يعقُوب هي مصر وادي النّيل، فكيف يتسنَّى لهذا الجيش اللّجب من رجال الدّولة، والوُجهاء، والعساكر، والعبيد، ومعهم جُثمان يعقُوب قَطْع مسافة 500 كم إلى الخليل؟! إنَّ ذلك يحتاج إلى أكثر من شهر في الذّهاب والإياب. أمَّا لو كانت مصر المقصودة هي مصر وادي العريش؛ فإنَّ الأمر لا يستغرق الأُسبُوع ذهاباً وإياباً، فالمسافة - كما قُلنا - هي أقلُّ من 100 كم إلى الخليل.

وهذا - بدوره - يُؤيِّد القول: إنَّ مصر التّوراتيَّة هي مصر سيناء، وليس مصر وادي النّيل.

أمَّا النّصُّ التّوراتي حول وصيَّة يعقُوب ليُوسُف؛ فهُو: «كلَّم يُوسُف بيت فرعُون قائلاً: إنْ كُنتُ قد وَجَدْتُ نعمة في عيُونكم، فتكلَّموا في مسامع فرعُون قائلين: أبي استحلفني قائلاً: ها أنا أموتُ في قبري الذي حفرتُ لنفسي في أرض كنعان، هُناك تدفنني. فالآن أصعد لأدفن أبي، وأرجع. قال فرعُون: اصعدْ، وادفنْ أباكَ كما استحلفكَ. فصعد يُوسُف ليدفنَ أباه، وَصَعَدَ معه جميعُ عبيد فرعُون، وشُيُوخ بيته، وجميع شُيُوخ أرض مصر، وكُلُّ بيت يُوسُف، وإخوته، وبيت أبيه.. وَصَعَدَ معه مركبات، وفُرْسان. فكان الجيش كثيراً جداً»، سفْر التّكوين، الإصحاح 50، آيات 4 - 10.

انظر إلى وصف التّوراة لهذا الحشد الهائل من المُشيِّعين بقولها: «فكان الجيش كثيراً جداً». إنَّه من الصّعب تصوُّر انتقال هذا الجَمْع الغفير لتشييع جُثمان يعقُوب تلك المسافة الكبيرة، مع ترك بلادهم وشُؤُون دولتهم أكثر من شهر!!

أمَّا في حالة كون مصر هي مصرايم على وادي العريش، فالأمر يُصبح سهلاً ومُمكناً، لا سيّما أنَّ المُتوفَّى والد رجل من رجال الدّولة وأركانها.

رابعاً:

ومن النّاحية المناخيَّة، فإنَّ مصر وادي النّيل لا تمحل، وحُلم الملك الذي فسَّره له يُوسُف (وتفسيره: يأتي سبع سنوات، يعمُّ فيها الخير، ويفيض، يتلوها سبع سنوات عجاف، يعمُّ فيها القَحْط والجدب) لا ينطبق على مصر وادي النّيل؛ لأنَّ مصر تعتمد على مياه نهر النّيل في الرّيّ، وليس على الأمطار، ومصدر مياه النّيل من هضبة البُحيرات في أواسط أفريقيا، وعلى بُعْد آلاف الكيلومترات من مصبِّه في البحر المُتوسِّط؛ حيثُ الأمطار الاستوائيَّة الدّائمة. أمَّا فيضان النّيل؛ فيعتمد على الأمطار الموسميَّة الصّيفيَّة على هضبة الحبشة. ومهما كان الفيضان مُنخفضاً فإنَّ مصر لا تمحل، ولا يحدث فيها مجاعات؛ حيثُ تبقى إمكانيَّة ريِّ الأراضي القريبة من النّيل مُمكنة بعدَّة وسائل. وقد يحدث نقص في الإنتاج، ولكنَّ ذلك لا يصل إلى حدِّ المجاعة.

أمَّا البلاد التي ينطبق عليها حُلم فرعُون مصر؛ فهي بلاد الشّام وشبه جزيرة سيناء، فهي تعتمد على الأمطار، والأمطار فيها مُتقلِّبة (كما هي الحال الآن). فقد تأتي سنوات تكثر فيها الأمطار، ويعمُّ الخير، ويفيض الإنتاج، وقد تأتي سنوات عجاف تقلُّ فيها الأمطار، فيموت فيها الزّرع، ويهلك الضّرع، ويجوع الإنسان. وقد تأتي سنوات الخير مُتلاحقة، وقد تأتي سنوات القَحْط مُتلاحقة أيضاً. وهكذا؛ فحلم فرعُون مصر يُمكن أنْ يحدث ويتحقَّق في بلاد الشّام وشبه جزيرة سيناء، أمَّا في مصر؛ فلا يُمكن حُدُوثه كما أسلفنا.

وحتَّى لو تحقَّق في مصر وادي النّيل، فلا يُمكن أنْ يتزامن المَحْلُ وانخفاض مُستوى الفيضان في النّيل (في مصر) وبلاد الشّام في وقت واحد؛ لأنَّ نظام الأمطار في بلاد الشّام شتوي مُتوسِّطي (نسبة إلى البحر المُتوسِّط) يختلف عن نظام الأمطار في منابع النّيل؛ حيثُ الأمطار هُناك إمَّا دائمة استوائيَّة كما هُو الحال في هضبة البُحيرات، أو صيفيَّة موسميَّة، كما هُو الحال في هضبة الحبشة.

وهذا يُؤيِّد القول: إنَّ مصر المقصودة هي مصرايم على نهر العريش، أو نهر مصر، وليس مصر وادي النّيل.

وهكذا؛ يُصبح من المُؤكَّد لدينا ـ بعد البراهين السّابقة ـ أنَّ مصر المقصودة في التّوراة وفي القُرآن الكريم أيضاً هي مصر وادي العريش، أو وادي مصر في شبه جزيرة سيناء، وسُمِّيت مصر نسبة إلى مدينة مصرايم أو مشرائيم على وادي العريش التي كانت مدينة تجاريَّة مُزدهرة، وكانت بوَّابة مصر الشّرقيَّة وحاكمها "الفرعُون" هُو وكيل أو نائب ملك مصر وادي النّيل، وأنَّ سُكَّانها وسُكَّان شبه جزيرة سيناء كانوا من العَرَب العماليق (وهُم من العَرَب البائدة).

(وهُناك براهين أُخرى سنذكرها عندما نتحدَّث في الفصل الرّابع عن سيِّدنا مُوسى عليه السّلام، وعن خُرُوجه من مصر مع بني إسرائيل؛ حيثُ ستظهر لنا براهين جديدة نذكرها في وقتها تُؤيِّد أنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ ظهر في مصرايم، وليس في مصر وادي النّيل، ومنها خرج مع بني إسرائيل).

الهكسوس وهجرة يعقُوب إلى مصر:

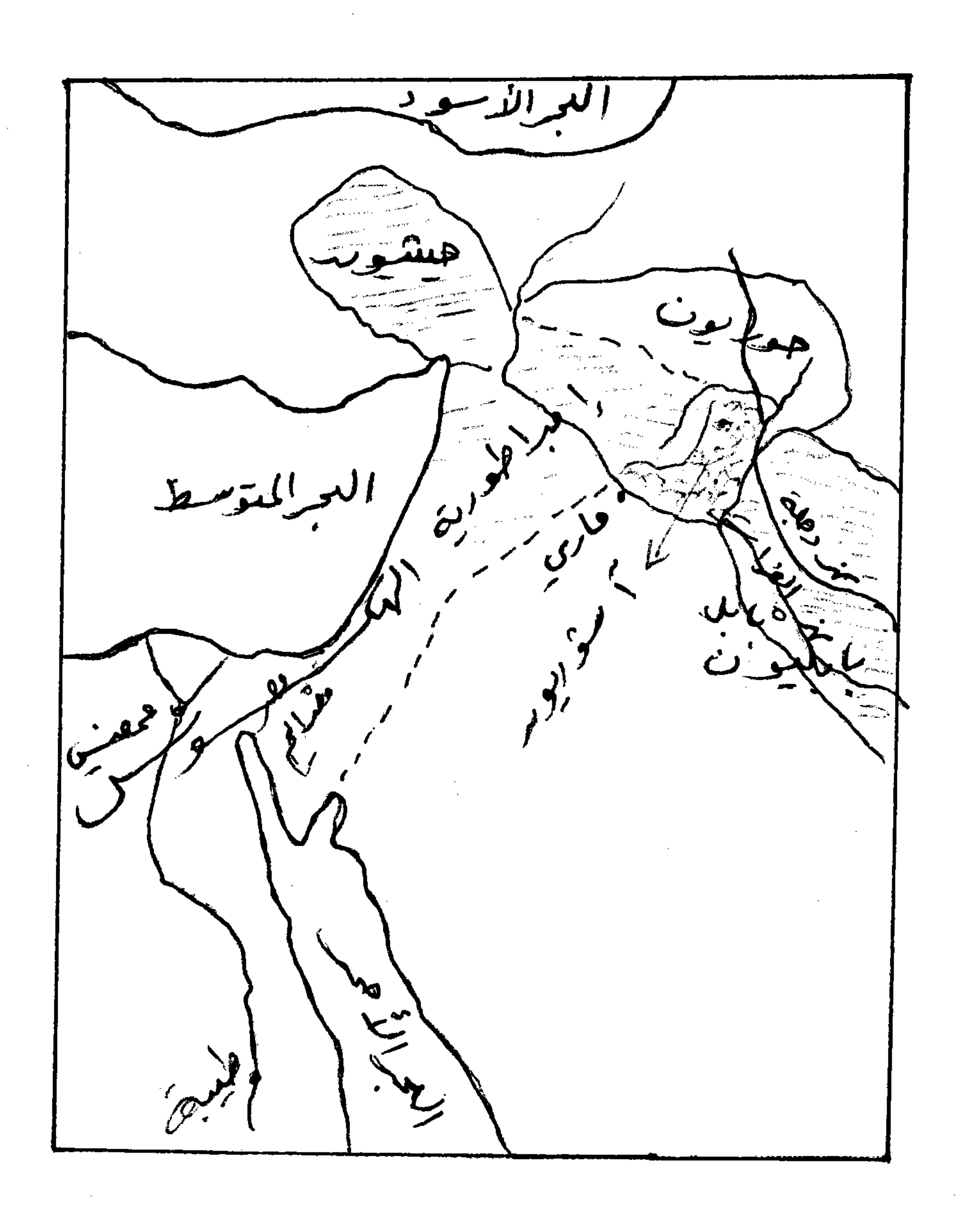
قُلنا إنَّ هجرة يعقُوب ـ عليه السّلام ـ إلى مصر كانت حوالي 1650 ـ 1600 قبل الميلاد. وإذا رجعنا إلى تاريخ مصر القديم نجد أنَّ حُكَّام مصر في هذا الوقت هُم "الهكسوس"، أو "الرُّعاة"، فمَنْ هُم هؤلاء الهكسوس؟

الهكسوس هُم قبائل عَرَبيَّة (والقبائل العَرَبيَّة البائدة، وهُم العَرَب العماليق) خرجت من الجزيرة العَرَبيَّة إلى شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين، ومنها توغَّلوا شمالاً في سُوريَّة، وغرباً في مصر وادي النّيل (انظر المُصوَّر المُرفق لدولة الهكسوس رَقْم 7).

ويقول الدُكتُور أحمد سُوسة[1]: إنَّ الهكسوس اغتنموا فُرصة الضّعف والانحلال اللّذَيْن كانا يسودان مصر السُّفلى، ولا سيّما الدّلتا، وثبَّتوا سُلطانهم فيها، واستمرَّ حُكْم الهكسوس لمصر السُّفلى (مصر العُليا أو الصّعيد بقيت بيد مُلُوك مصر وادي النّيل) زهاء قرنَيْن من 1785 ـ 1580 قبل الميلاد.

---

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 194.



مُصوَّر رَقْم (7)

إمبراطُوريَّة الهكسوس

وكان المصريُّون يُسمُّون الهكسوس "شاسو"؛ أيْ البدو، وعُرفت دولتهم بدولة البدو أو الرُّعاة. وكان العَرَب يُسمُّونهم العمالقة، أو العماليق، أو العَرَب البائدة. واليُونان هُم الذين سمَّوهم بالهكسوس، فأوَّل مَنْ أطلق عليهم هذا الاسم هُو الكاهن المصري "مانيثون" الذي عاش وكَتَبَ تاريخه المشهور في حُدُود 280 ق. م. وقد نقل المُؤرِّخ "يُوسفوس" كلام مانيثون عن الهكسوس ما نصّه: «واتَّفق على عهد "تيماوس" أحد مُلُوكنا أنَّ الإله غضب علينا، فأذنَ لقوم لا يُعرف أصلهم جاؤوا من الشّرق، وتجاسروا على مُحاربتنا، وغلبونا على بلادنا، وأذلُّوا مُلُوكنا، وأحرقوا مُدُننا، وهدموا هياكلنا وآلهتنا، وساموا النّاس ذُلاً وخسفاً، فقتلوا الرِّجال، وسبوا النّساء والأولاد، ثُمَّ نصبّوا عليهم ملكاً منهم اسمه "سلاطيس"، أقام في ممفيس (عاصمة مصر قبل مجيء الهكسوس)، وضَرَبَ الجزية على مصر؛ أعلاها وأسفلها، وأقام الحاميات في المعاقل لدفع الآشوريِّيْن عن وادي النّيل إنْ هُم طمعوا به، وبنى مدينة "أوراس" في ولاية "صان" لهذه الغاية، وحصَّنها بالأبراج والقلاع والأسوار، وأكثر من حاميتها، حتَّى بلغ عدد أفرادها "240000" (يظهر أنَّ الرَّقْم مُبالغ فيه) وكان سلاطيس يأتي إليها في الصّيف لجَمْع الحنطة، ودَفْع رواتب الجُند. وبعد ثلاث عشرة سنة من حُكْمه خلفه ملك اسمه "بيون" حكم 44 سنة، ثُمَّ "أباخناس"، وحكم 36 سنة وسبعة أشهر، ثُمَّ "أبو فيس" 61 سنة، ثُمَّ "بانياس" 50 سنة وشهر، وأخيراً؛ حكم "أسيس" 49 سنة وشهرَيْن، وهؤلاء السِّتَّة أوَّل مَنْ حكم من مُلُوكهم، ولم يكفُّوا عن مُحاربة المصريِّيْن؛ لأنَّهم كانوا يلتمسون إبادتهم، وكانت هذه الأُمَّة تُسمَّى "الهيكسوس"؛ أيْ مُلُوك الرُّعاة؛ لأنَّها مُؤلَّفة من (هيك) ومعناها باللُّغة المُقَدَّسة ملك، و(سوس) ومعناها الرّاعي».

نُلاحظ من النّصِّ السّابق المنقول عن المُؤرِّخ يُوسيفُوس[1] والذي نقله ـ بدوره ـ عن المُؤرِّخ المصري القديم الكاهن "مانيثون" والذي يرجع عهده إلى سنة 280 قبل الميلاد، نُلاحظ

---

(1) يُوسيفُوس: كاهن ومُؤرِّخ يهُودي وُلد في أُورشليم (القُدس)، وكان مُضطلعاً في الفقه اليهُودي، انضمَّ إلى فرقة الفرِّيسيِّيْن (وهُم طائفة من اليهُود). أُوفد سنة 64 ميلاديَّة عن اليهُود للمُفاوضة مع الرُّومان حول إطلاق سراح الأسرى اليهُود، فحظي في رُوما بالمُثول بين يدَيْ الإمبراطُور "جوبيا"، واشترك في حرب ضدَّ الرُّومان سنة 66 ميلاديَّة، اعتبره اليهُود خائناً؛ لأنَّه عمل كمُترجم لـ "تيتموس" عندما ضرب حصاراً حول أُورشليم، ثُمَّ رافق "تيتس" إلى رُوما؛ حيث مُنح معاشاً وحقُوق المُواطن، وله مُؤلَّفات منها: "حرب اليهُود"، و"تاريخ اليهُود القديم"، و"تاريخ حياته"، ورسالة في الدّفاع عن اليهُود (المصدر دائرة المعارف البريطانيَّة، ج13، ص89).

أنَّ لقب حُكَّام مصر وادي النّيل هُو: مُلُوك، وليس فراعنة، وأنَّ الهكسوس عندما احتلّوا مصر سمّوا حُكَّامهم مُلُوكاً أيضاً، وهذا يدلُّنا على أنَّ لَقَبَ فرعُون لم يكن مُستعملاً لدى حُكَّام أو مُلُوك مصر وادي النّيل، بل كان مُقتصراً على حُكَّام مصرايم على وادي العريش في سيناء فقط.

ثُمَّ يمضي يُوسيفُوس، فينقل عن مانيثون قوله: « إنَّ هؤلاء القوم الذين أطلقنا على زُعمائهم اسم "مُلُوك"، ودعوناهم الرُّعاة، حكموا مصر 511 سنة ».

ولكنَّ المُؤرِّخ البريطانيّ المشهور "برستد" في كتابه "تاريخ مصر ص143" يرى أنَّ هذه المُدَّة (511 سنة) كبيرة جداً، ويرى أنَّ حُكْم الهكسوس لمصر لم يزدْ عن مئة سنة. ويُضيف إلى ذلك قوله: « إنَّ الأرجح أنَّ دُخُول الهكسوس لمصر كان تدريجيّاً أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحُرُوب أو مُنازعات »، ويُضيف برستد (صفحة 142): إنَّ إمبراطُوريَّة الهكسوس ساميَّة الأصل؛ أيْ عَرَبيَّة.

وقد اقتبس العَرَب الهكسوس الحضارة المصريَّة، وأدخلوا إلى مصر الحيوانات والعَرَبات الحربيَّة التي تجرُّها الخُيُول، ممَّا ساعدهم على فَتْح مصر، وإحداث الرُّعب والفزع بالمصريِّيْن الذين لم يُشاهدوها من قبلُ.

وقد أدخل الهكسوس إلى مصر - أيضاً - السّيف المُقوَّس من الحديد، والقوس المُركَّب، وأدخلوا تحسينات مُهمَّة على فنِّ التّعدين[1].

وفي أوائل حُكْم الهكسوس هاجر يعقُوب وأُسرته إلى مصر[2]، فوجدوا فيها حُكَّاماً تربطهم بهم اللُّغة والأصل والعادات، ووجدوا عندهم الملاذ الآمن، لا سيّما وأنَّ يُوسُف الصّدّيق عليه السّلام قد أصبح قيِّماً على خزائن مصر، ويحظى بمكانة رفيعة ومركزاً هامَّاً في هذه الدّولة العَرَبيَّة، فقد كان المُتصرِّف بخيرات البلاد، كما وَرَدَ في القُرآن الكريم بقوله

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 196.

(2) كانت هجرة يعقُوب والمصْرين مُوحَّدين (مصر سيناء ومصر وادي النّيل)، وأنزل يُوسُفُ أُخوتَهُ في "جاسان"، وتقع بين مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش (انظر المُصوَّر رَقْم 6 ص 95 المُرفق) لرعي مواشيهم.

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يُوسُف 54 ـ 56.

هذا؛ وقد يكون مُلُوك الهكسوس قد ارتاحوا ليعقُوب وأُسرته، ووجدوا فيهم نصيراً لهم على أهل البلاد من المصريّين.

أمَّا ديانة الهكسوس؛ فليس هُناك معلومات واضحة عن مُعتقداتهم الدِّينيَّة، إلاَّ أنَّهم لم يعبدوا الآلهة المصريَّة.

وإنِّي أرى أنَّ الهكسوس تأثَّروا بديانة بني إسرائيل التّوحيديَّة، التي هي ديانة إبراهيم الخليل عليه السّلام، وذلك عندما هاجر يعقُوب وأُسرته إلى مصر، واختلطوا بالسُّكَّان، وخاصَّة بعليَّة القوم. وأُرجِّح أنَّ بعض الهكسوس اعتنقوا هذه الدّيانة. وقد مرَّ معنا أنَّ ملك مصر زمن يعقُوب اعتنق الدّيانة التّوحيديَّة، وهُو الذي عيَّن يُوسُف على خزائن مصر، وكان اسمه كما أسلفنا: الرَّيَّان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عَمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح، ولكنَّ الذين خلفوه تراجعوا عن ديانة بني إسرائيل.

والدُكتُور أحمد سُوسة يُؤيِّد أنَّ الدّيانة التّوحيديَّة انتشرت في مصر، فهُو يقول: «إنَّ اثنَيْن من مُلُوك الهكسوس كانا يحملان اسم "يعقُوب إيل" و"يعقُوب بعل" جرياً على العادة المُتَّبعة بإلحاق اسم الإله باسم الملك من قبيل التَّبرُّك، وهذا يدلُّ على أنَّ اسم يعقُوب أصبح شائعاً في مصر بعد رحيل يعقُوب إليها، وكذلك اسم الإله "إيل"؛ أي "الله" الذي وَرَدَ في التّوراة.

وبالمُناسبة؛ أقول: إنَّ الهكسوس استعملوا لقب "ملك" لرئيس دولتهم، ولم يستعملوا لقب "فرعُون"، والذي اختصَّ به حُكَّام مصرايم على وادي العريش.

والقُرآن العظيم يُميِّز بين الحُكمَيْن: الفرعُوني الذي اقتصر على مصر سيناء فقط، والهكسوسي الذي وحَّد المصرين مصر وادي النّيل ومصر سيناء؛ حيثُ أُطلق الهكسوس لقب "ملك" على حُكَّامهم، اقتداء بمُلُوك مصر وادي النّيل قبلهم.

ففي زمن يُوسُف ـ عليه السّلام ـ يأتي اللّقب "ملك"؛ حيثُ كان المصريُّون مُوحّدين تحت حُكْم الهكسوس، فيقول تعالى في الآيات التّالية:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ يُوسُف 43.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يُوسُف 54.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ يُوسُف 71ـ 72.

أمَّا في زمن مُوسى عليه السّلام؛ فقد جاء لقبه "فرعُون"، بعد أنْ عادت مصرايم وسيناء تابعة لمُلُوك مصر وادي النّيل، وقد جاء ذلك في آيات عديدة بلغت 73 آية نذكر منها قوله تعالى مُخاطباً مُوسى عليه السّلام:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ طه 24.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ النّازعات 17ـ 18ـ 19.

وفي هذا إعجازٌ تاريخيٌّ عظيم للقُرآن الكريم، فالرّسول الكريم ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لم يكن يعرف مَنْ كان يحكم مصر زمن يُوسُف عليه السّلام، ولا زمن مُوسى عليه السّلام، ليُميِّز في لقب كُلٍّ منهما، وإنَّما كان ذلك إخباراً من ربِّ العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

والخُلاصة بالنّسبة للهكسوس أنّهم ـ في الأصل ـ من العَرَب العماليق (أو العَرَب البائدة)، وكانوا ينتشرون في شبه جزيرة سيناء وما جاورها شمالاً وشرقاً، وأنَّ حُكّام مصر على وادي العريش في سيناء كانوا من العَرَب العماليق أيضاً، وكانوا هُم الفراعنة الحقيقيِّيْن (كما برهنَّا سابقاً)، وكانوا يتبعون مُلُوك مصر وادي النّيل، وقد مرَّ معنا أنَّ كلمة فرعُون تعني الوكيل أو النّائب لمُلُوك مصر وادي النّيل.

ولمَّا قويت شوكتهم، وآنسوا من مُلُوك مصر ضَعْفاً، سيطروا على مصر السُّفلى، وأصبحت دولتهم تمتدُّ على شمال مصر وشبه جزيرة سيناء وجنوب بلاد الشّام (انظر المُصوَّر

السّابق رَقْم 7 ص 109)، وأصبح حُكَّامهم يُطلقون على أنفسهم لقب "ملك" بدل "فرعُون" اقتداء بمُلُوك مصر وادي النّيل، ونقلوا عاصمتهم من مصرايم إلى ممفيس عاصمة مصر وادي النّيل، ثُمَّ بنوا عاصمة لهم سمّوها "أوراس"، وفي أوّل عهدهم؛ بيع يُوسُف ـ عليه السّلام ـ إلى أحد رجال دولتهم (وهُو عزيز مصر)، ثُمَّ استخلفه ملكهم لنفسه، وجَعَلَه على خزائن مصر، بعد أنْ فسَّر له حُلمه المُزعج. وقد ذكرنا أنَّ الملك زمن يُوسُف هُو: الرَّيَّان بن الوليد بن ثروان بن أراشه . . إلى نُوح عليه السّلام.

ثُمَّ رحل يعقُوب مع أولاده إلى مصر للَّحاق بابنه يُوسُف بسبب المجاعة التي حلَّت في فلسطين. وأنزل يُوسُف إخوته مع مواشيهم وذراريهم في جاسان بين المصريِّين (مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش).

بقيت أوضاع بني إسرائيل مُمتازة في دولة الهكسوس، إلى أنْ استطاع أُمراء مصر العُليا (الصّعيد) من طرد الهكسوس من مصر بعد حُرُوب دامت زهاء نصف قرن من الزّمان على يد القائد المصري الشّهير "أحمس" أو "احموسه"؛ وهُو مُؤسِّس السُّلالة الثّامنة عشرة، وبها ابتدأ عهد جديد في تاريخ مصر هُو عهد الإمبراطُوريَّة، والذي دام من **1580 ـ 1085** ق. م.

ولم يكتف مُلُوك هذه السُّلالة بطرد الهكسوس من مصر، بل لاحقوهم إلى فلسطين وسُوريَّة؛ حيثُ اصطدموا بالحِثِّيِّين الذين امتدَّت دولتهم في أقصى شمال سُوريَّة وآسية الصُّغرى (الأناضول)، وبذلك تكوَّنت الإمبراطُوريَّة المصريَّة نتيجة التَّوسُّع في بلاد الشّام[1].

أمَّا مصرايم؛ فعادت مدينة مُزدهرة ومحطَّة هامَّة للقوافل التّجاريَّة وبوَّابة مصر وادي النّيل الشّرقيَّة. وعاد لقب حاكمها "فرعُون" حتَّى ظُهُور مُوسى عليه السّلام فيها، وكان اسم فرعُونها كما مرَّ معنا: أبو العبَّاس بن الوليد بن مُصعب بن الرَّيَّان بن أراشه بن ثروان بن عَمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح (حسب رواية الثّعالبي في قَصَص الأنبياء)، زوجته هي آسيا بنت مُزاحم بن عُبيد بن الرَّيَّان بن الوليد بن ثروان إلى آخر النّسب، حتَّى نُوح عليه السّلام (وهي التي ربَّتْ مُوسى عليه السّلام كما سيمرُّ معنا عند الحديث عن مُوسى عليه السّلام).

---

(1) د. أحمد سُوسة: "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 201، باختصار وتصرُّف.

أمَّا يُوسُف عليه السّلام؛ فبعد أنْ أُخرج من السّجن، واستخلصه الملك لنفسه زوَّجه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون، وعُمره آنذاك 30 سنة، وولدتْ له ابنَيْن هُما: منسي وافرايم. وهذه رواية التّوراة كما جاء في (سفْر التّكوين، الإصحاح 42، من آية 48 ـ 53).

أمَّا أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثّعالبي (في كتابه قَصَص الأنبياء ص75)؛ فيقول: إنَّ الملك زوَّج يُوسُف راعيل امرأة قطفير عزيز مصر بعد وفاته، وهُو الذي اشترى يُوسُف وربَّاه، وولدتْ له ابنَيْن هُما: سنشا وافرايم.

وقطفير الذي ذكره "الثّعالبي" هُو فوفيطار الوارد في التّوراة، وتقول عنه التّوراة (سفْر تكوين، إصحاح 39، فقرة 1، 2) إنَّه خصي فرعُون ورئيس شُرطته. لذلك يذكر الثّعالبي أنَّ يُوسُف وَجَدَ راعيل زوجة فوطيفار عذراء، وهي التي راودت يُوسُف عن نفسه، فأبى.

أحوال بني إسرائيل بعد الهكسوس، حتَّى ظُهُور مُوسى عليه السّلام:

إنَّ الفترة بين يُوسُف ومُوسى عليهما السّلام وخُرُوج بني إسرائيل معه من مصر يلفُّها الغُمُوض الشّديد، فالتّوراة تُغفل الحديث عنها. كذلك المصادر الآثاريَّة، فقد ظلَّت في صمت مُطبق بالنّسبة لتلك العشيرة البدويَّة (بني إسرائيل)، وهذا أمر طبيعي؛ لأنَّ البدوي لا يُخلِّف آثاراً مادِّيَّة، باعتباره مُتنقِّلاً، وكذلك لا يُخلِّف مُدوَّنات كتابيَّة.

لقد أدَّى هذا الغُمُوض في تاريخ بني إسرائيل من يُوسُف إلى مُوسى ـ عليهما السّلام ـ إلى تساؤلات كثيرة جداً؛ منها: كم المُدَّة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر من يُوسُف إلى مُوسى عليهما السّلام؟ وأين كانوا يعيشون؟ وهل مكثوا بداة في جاسان بين مصر وادي النّيل ومصر سيناء، أم تركوا حياة الرّعي، والتجؤوا إلى المُدُن؟ وأيُّ مُدُن هذه؟ هل هي مُدُن مصر وادي النّيل أو مُدُن شبه جزيرة سيناء، وخاصَّة مصرايم على وادي العريش؟ وأخيراً؛ كيف كانت حياتهم؟

الكُلُّ يُجمع أنَّهم كانوا مُضْطَهَدين في هذه الفترة، ولكنْ؛ ما أنواع الاضطهاد الذي وقع على بني إسرائيل؟ وما هي أسباب هذا الاضطهاد؟

أمَّا المُدَّة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر مُنذُ وفاة يُوسُف حتَّى خُرُوجهم من مصر مع مُوسى عليه السّلام؛ فقد اختلفت الأقوال في هذا الصَّدد، وتباينت الآراء، فالتّوراة تقول: إنَّها 430 سنة (سفْر الخُرُوج، إصحاح 12، فقرة 37).

والدُّكتُور أحمد سُوسة يأخذ بهذا الرَّقْم، ويُحدِّده بين 1720 ـ 1290 ق. م. أمَّا الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار (في كتابه قَصَص الأنبياء، صفحة 202)؛ فيُقدِّرها في 336 سنة، من 1573 ـ 1237 ق. م.

ولكنَّ الدُّكتُور أحمد داود يجعلها مئة سنة فقط. ويعتمد في ذلك على أنَّ الجدَّ الرّابع لُموسى عليه السّلام هُو لاوي بن يعقُوب أحد إخوة يُوسُف. فمُوسى ـ عليه السّلام ـ هُو ابن عُمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي، وهكذا يكون لاوي هُو الجدُّ الرّابع لُموسى عليه السّلام.

وكذلك زوجة فرعُون مُوسى عليه السّلام، وهي آسية بنت مُزاحم بن عُبيد بن الرَّيَّان، والرَّيَّان هُو الملك في زمن يُوسُف. وهكذا يكون الرَّيَّان هُو الجدُّ الثّالث لآسيا.

ويستنتج الدُّكتُور أحمد داود من هذه الأنساب أنَّ المُدَّة لا تتجاوز 100 سنة، وهذا التّقدير على أساس أنَّ كل ابن هُو بكْر أبيه، والفرق بينهما 25 سنة، ولكنْ؛ قد لا يكون الابن بكْر أبيه، وقد يكون بينهما أكثر من 60 سنة كأنْ يُولد للأب ابنٌ وهُو في السِّتِّينات من عُمره، وعلى هذا الأساس؛ يُمكن أنْ يكون بين الابن وجدِّه الرّابع حوالي 240 سنة، وليس مئة سنة.

وعلى كُلِّ حال؛ فإنَّ تقدير الدُّكتُور داود قليل جداً، وإنِّي أرى أنَّه بين 200 ـ 300 سنة، والرَّقْم 250 سنة قد يكون هُو الأقرب إلى الصّواب.

أمَّا اضطهاد بني إسرائيل بعد القضاء على دولة الهيكسوس؛ فأسبابه مُختلفة حسب المكان الذي هاجر إليه بنو إسرائيل، وعاشوا فيه بعد انحسار حُكْم الهيكسوس عن المنطقة.

فالذين أخذوا بحَرْفيَّة التّوراة، واعتبروا أنَّ مصر المقصودة هي مصر وادي النّيل قالوا: إنَّ بني إسرائيل اضطُهدوا هُناك بعد طَرْد حُلفائهم الهيكسوس، وسُخِّروا بأعمال البناء والزّراعة، ولكنْ؛ ليس لدينا أيُّ مرجع يُؤيِّد ذلك. وقُلنا سابقاً: إنَّه لا يُوجد أيُّ مرجع يُؤيِّد حتَّى وُجُود بني إسرائيل في مصر وادي النّيل.

وينفي الدُّكتُور أحمد سُوسة أنْ يكون المُضْطَهَدُون من بني إسرائيل، ويقول: إنَّهم من بقايا الهيكسوس، وذلك بقوله[1]: «وما يدلُّ على أنَّ الجماعة التي سخَّرها رعمسيس الثّاني 1300 ـ 1233 ق. م لبناء مدينته المُسمَّاة باسمه "رعمسيس" هي من بقايا الهيكسوس، وليست من بني إسرائيل[2]؛ لأنَّ المدينة (أيْ مدينة رعمسيس) بُنيت في موضع مدينة "أفارس أو أوراس" عاصمة الهيكسوس في مصر، وبطبيعة الحال؛ فإنَّ مَنْ بقي من الهيكسوس في مصر (وفي عاصمتهم أفارس) لابُدَّ وأنْ يكونوا قد تجمَّعوا في هذه المنطقة ذاتها، فسُخِّروا في بناء المدينة الجديدة في المكان نفسه، مع العلم أنَّ المصريِّيْن كانوا يعتبرونهم ـ بعد القضاء على حُكْم الهيكسوس في مصر ـ مصدر خطر على الدّولة».

ويُتابع الدُّكتُور سُوسة قوله: «ومن المُهمِّ ذكْره في هذا الصّدد أنَّ المصريِّيْن كانوا يُسمُّون بقايا الهيكسوس "عبريو" أو "عبيرو"، وقد صار هؤلاء خطراً على البلاد بعد تزايدهم، فأُجبروا على العمل في بناء "الرّعمسيوم" و"البيتوم"، وعاشوا في مصر عيشة العُبُوديَّة، يعملون في الحقل والبناء، وقد وَرَدَ اسمهم في برديَّتَيْن مصريَّتَيْن تعودان بتاريخهما إلى عهد "رعمسيس الثّاني"؛ إذْ وَرَدَ في إحداهما؛ وهي رسالة الكاتب "كويسر" إلى "بكنفتاح" يقول فيها: «أعط الجُنُود قوتهم، وأعط أيضاً العبريّو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع مُوسى (رعمسيس.. إلخ». وأمَّا الرّسالة الثّانية؛ فهي رسالة من "كينا" إلى "كجاناهو" يقول فيها: «أطعمتُ ما أمرني به سيِّدي قائلاً: أعط الجُنُود أرزاقهم، والعبريّو أيضاً الذين ينقلون الحجارة إلى هيكل الشّمس، الذي انصرفت إليه عناية رع مُوسى (رعمسيس)»، والمقصود هُنا بالعبريّو والعبيرو القبائل العَرَبيَّة البدويَّة، وليس بني إسرائيل، ذلك ممَّا يُثبت أنَّ الجماعة التي عاشت في مصر عيشة العُبُوديَّة، وأُجبرت على العمل في الحقل والبناء تُمثِّل بقايا الهيكسوس، وليس بني إسرائيل كما روى كَتَبَةُ إسرائيل. ويُؤكِّد الباحثون على أنَّ هُناك دلائل قويَّة على أنَّ "العبيرو" التحقوا بالهيكسوس العَرَب عندما غزوا مصر، وهُم أنفسهم "الهبيرو" أو "الأبيرو" الذين وَرَدَ ذكْرهم في الكتابات المصريَّة. وهؤلاء كانوا يدخلون في خدمة الأقوام الغازية في أكثر الأحيان. وكانوا أشبه بالبدو الرُّحَّل،

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 605 ـ 606.
(2) التّوراة تعتبر بُناة رعمسيس هُم من بني إسرائيل.

يتجوَّلون من مكان إلى آخر على أطراف الجزيرة العَرَبيَّة، وذلك ما يُؤيِّد بأنَّ الاضطهاد الـذي أدَّى إلى الخُرُوج من مصر كان مُوجَّهاً ضدَّ مُعتنقي ديانة أخناتون، وأكثرهم من بقايا الهيكسوس، وليس لهم أيَّة صلة ببني إسرائيل».

إنَّ في النّصِّ السّابق عدَّة مُغالطات مثل:

1 - إنَّ طلب الحاكم في مصر إعطاء العبيرو حقَّهم وأجْرَهم: "وأعط أيضاً العبيرو الذين ينقلون الحجارة.." يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا مُسخَّرين للعمل في البناء، وإنَّما كانوا يعملون بأجر، وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا مُضطَهَدين، وأنَّ عملهم مأجور، وليس سُخرة. فأظنُّ أنَّ هؤلاء العبيرو هُم من البدو العَرَب الذين كانوا يصلون إلى أطراف مصر (وادي النّيل) في رعيهم وترحالهم، وهُناك يعملون في أعمال البناء أو الزّراعة؛ ليزيدوا دخلهم، أو أنَّ القَحْط أو قلَّة الرّعي اضطُرَّتهم للعمل في البناء.

2 - أمَّا قول الدُّكتُور أحمد سُوسة بأنَّ "الاضطهاد الذي أدَّى إلى الخُرُوج من مصر كان مُوجَّهاً ضدَّ مُعتنقي ديانة أخناتون وأكثرهم من بقايا الهيكسوس وليس لهم صلة ببني إسرائيل"؛ فليس صحيحاً؛ لأنَّ كثيراً من بقايا الهيكسوس كانوا مُوحِّدين على ديانة بني إسرائيل، وليس من معتنقي ديانة أخناتون؛ لأنَّ الهيكسوس احتكّوا، وتعاملوا مع بني إسرائيل، وآمن ملك مصر زمن يُوسُف عليه السّلام الذي كان له مركز مرموق في دولتهم، لذلك؛ فالذين أخذوا فكْرة التّوحيد أخذوها عن بني إسرائيل، وليس عن أخناتون، بالإضافة إلى أنَّ المُدَّة التي قضاها بنو إسرائيل في دولة الهيكسوس كانت طويلة وكافية لانتشار ديانتهم التّوحيديَّة بين الهيكسوس ورعاياهم. والحقيقة أنَّ فكْرة التّوحيد عند أخناتون نفسه أخذها عن بني إسرائيل؛ لأنَّ وُجُودهم في مصر أو على أطرافها سابق لوُجُوده وتبنِّيه فكْرة التّوحيد.

والدُّكتُور سُوسة يعتقد (كما نرى فيما بعد) أنَّ الذين خرجوا مع مُوسى عليه السّلام من مصر كانوا من المُوحِّدين: من هيكسوس ومصريّين وبني إسرائيل، وليس بني إسرائيل وحدهم. وهذا يُنافي نصَّ القُرآن الكريم في أنَّ الله أرسله عليه السّلام لإنقاذ بني إسرائيل

بقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ (أي الفرعون) فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ (أي مُوسى وهارُون) فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ طه 47.

3ـ إنَّ القُرآن الكريم يُؤكِّد أنَّ الاضطهاد كان واقعاً على بني إسرائيل فقط في قوله تعالى وهُو يُذكِّر بني إسرائيل بنعَمه عليهم: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ سُورة البقرة 49 والأعراف 142.

وهذا يُخالف قول الدُّكتُور سُوسة بقوله: إنَّ العذاب والاضطهاد وقع على مُعتنقي ديانة أخناتون التّوحيديَّة.

وإنِّي أستغرب موقف الدُّكتُور سُوسة هذا، مع أنَّ النّصّ القُرآني واضح وصريح بأنَّ العذاب والاضطهاد كان واقعاً على بني إسرائيل وحدهم، وأنَّ مُوسى عليه السّلام أُرسل لإنقاذهم هُم بالذّات (كما هُو واضح في الآيتَيْن الكريمتَيْن السّابقتَيْن، وآيات أُخرى كثيرة في القُرآن الكريم).

والتّوراة تُؤيِّد أنَّ الاضطهاد كان واقعاً على بني إسرائيل وحدهم، كما هُو واضح في النّصِّ القُرآني (من سفْر الخُرُوج، الإصحاح الأوَّل) وقد جاء في النَّصِّ ما يلي: «ثُمَّ قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يُوسُف، فقال لشعبه: هُو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا، هلمَّ نحتالُ لهم؛ لئلاَّ ينمو، فيكون إذا حَدَثَتْ حرب، أنَّهم ينضمُّون إلى أعدائنا، ويُحاربوننا، ويصعدون من الأرض، فجَعَلوا عليهم رُؤساء تسخير؛ لكي يذلُّوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعُون مدينتَيْ مخازن "فيثوم ورعمسيس" ولكنْ؛ بحسبما أذلّوهم هكذا نموا، وامتدُّوا، فاختشوا من بني إسرائيل، فاستعبد المصريُّون بني إسرائيل بعُنف، ومرَّروا حياتهم بعُبُوديَّة قاسية في الطِّيْن واللِّبْن، وفي كُلِّ عمل في الحقل..

وكلَّم ملك مصر قابلتَيْ العبرانيَّات اللّتَيْن اسم إحداهما "شفره"، واسم الأُخرى "فوعة"، وقال: حينما تُولِّدان العبرانيَّات، وتنظرانهنَّ على الكراسي: إنْ كان ابناً فاقتلاه، وإنْ كان بنتاً فتحيا. ولكنَّ القابلتَيْن خافتا الله، ولم تفعلا كما كلَّمهما ملك مصر. بل

استحيتا الأولاد، فدعا ملك مصر القابلتَيْن، وقال لهما: لماذا فعلتُما هذا الأمر، واستحييتما الأولاد، فقالت القابلتان لفرعُون: إنَّ النّساء العبرانيَّات لسنَ كالمصريَّات، فإنَّهن قويَّات يلدنَ قبل أنْ تأتيهنَّ القابلة. فأحسن اللهُ إلى القابلتَيْن، ونما الشّعب (يقصد اليهُود) وكثر جدّاً، وكان إذا خافت القابلتان اللهَ أنَّه صنع لهما بُيُوتاً، ثُمَّ أمر فرعُون جميع شعبه قائلاً: كُلُّ ابن يُولد تطرحونه في النّهر، لكنَّ كُلَّ بنت تستحيونها».

نستنتج من النَّصِّ التّوراتي السّابق ما يلي:

1 ـ إنَّ الاضطهاد كان مُوجَّهاً لبني إسرائيل وحدهم، وإنَّه لم يكن بسبب ديني، ولا بسبب مُوالاتهم السّابقة للهيكسوس، بل بسبب تكاثرهم السّريع، فخشي أهل مصر وفرعُونها من هذه الكثرة والنُّمُوِّ السّريع الذي أصبح يُهدِّد وحدة الأُمَّة وتجانسها، وتُعطي لبني إسرائيل إمكانيَّة الانقضاض على الحُكْم والسَّيطرة على البلاد، أو التّعاون مع الغُرباء من أجل ذلك.

2 ـ إنَّ ما جاء في النَّصِّ التّوراتي السّابق يُؤيِّد وُجهة النّظر القائلة بأنَّ بني إسرائيل هاجروا إلى مصر سيناء، وليس إلى مصر وادي النّيل. وإلاَّ كيف يُمكن لبني إسرائيل ـ وهُم عشيرة صغيرة ـ أنْ يتكاثروا، حتَّى يُصبحوا خطراً على البلاد، ومصر وادي النّيل ـ كما نعرف ـ بلاد واسعة، وسُكَّانها يُعدُّون بالملايين، وجُيُوشها تبلغ مئات الأُلُوف، فكيف يتسنَّى لهذه العشيرة ـ بل الأُسرة ـ أنَّ تنمو وتتكاثر خلال قرنَيْن ونصف من الزّمان، وتُهدِّد التّجانس السُّكَّاني في مصر، ويُصبح لديها الإمكانيَّة العدديَّة لتنقضَّ على الحُكْم، وتُسيطر على البلاد، لولا أنْ تكون مصر المقصودة هي مصرايم أو مصر وادي العريش في سيناء، وليست مصر وادي النّيل؟!

فمصرايم وشبه جزيرة سيناء بلاد صغيرة إذا ما قُورنت بمصر وادي النّيل، وسُكَّانها مُعظمهم من البدو الرُّحَّل عدا مدينة مصرايم أو مصر وادي العريش العامرة بسبب تجارتها الواسعة وزراعتها المُزدهرة على نهر العريش آنذاك.

إنَّ في هذا بُرهاناً جديداً على أنَّ مصر المقصودة في التّوراة هي مصر شبه جزيرة سيناء، ومدينة مصرايم على وادي العريش.

3 ـ إنَّ وُجُود قابلتَيْن فقط لجميع نساء بني إسرائيل "شفره وفوعه" يدلُّ على أنَّهم كانوا قلَّة لا يتجاوزون بضعة آلاف، وأنَّهم كانوا يعيشون في مدينة واحدة، وهذا لا ينطبق إلاَّ على مصرايم على وادي العريش، فلو كانوا يعيشون في مصر وادي النّيل، وينتشرون في مُدُنها، فلا يُمكن أنْ تكفي لتوليد نسائهم قابلتان فقط، فمصرايم مدينة وحيدة هاجر إليها بنو إسرائيل، ولم ينتشروا خارجها، وكان عددهم عندما تُوفِّي يعقُوب 70 نسمة فقط كما وَرَدَ في التّوراة (سفْر الخُرُوج، الإصحاح الأوَّل، فقرة 5).

وهذا ـ بدوره ـ يُؤيِّد أنَّ مصر التي هاجر إليها بنو إسرائيل هي مصر سيناء.

ونُلاحظ في النَّصِّ التّوراتي السّابق أنَّه يُسمَّى حاكم مصر مرَّة ملكاً، ومرَّة فرعُوناً، وهُو خَلْط تعمَّده كَتَبَةُ التّوراة، وكذلك الفقرة: "فبنوا للفرعُون مدينتَيْ مخازن "فيتوم ورغمسيس"، وكُلُّ ذلك ليجعلوا تاريخهم ووُجُودهم القديم يمتدُّ إلى مصر وادي النّيل، كما مدُّوه إلى وادي الفُرات.

والخُلاصة أنَّ بني إسرائيل ـ بعد يُوسُف وبعد طرد الهيكسوس من مصر وسيناء ـ وقعوا تحت ضغط واضطهاد وسُوء مُعاملة، إلى أنْ جاء مُوسى عليه السّلام ليُخلِّصهم ممَّا هُم فيه من ذُلٍّ واضطهاد.

وهُناك مُلاحَظَة جديرة بالانتباه؛ وهي أنَّ التّوراة تتكلَّم عن تاريخ اليهُود من إبراهيم إلى يُوسُف ـ عليهما السّلام ـ بتفصيل شديد من سفْر التّكوين، ولكنَّ الفترة من يُوسُف إلى مُوسى ـ عليهما السّلام ـ تغفل الحديث عنها. وقد لفتت هذه الظّاهرة أنظار الكثير من المُؤرِّخين الذين كتبوا عن تاريخ اليهُود القديم، وتساءلوا لماذا لم تتحدَّث التّوراة عن هذه الفترة الطّويلة من تاريخ اليهُود، والبالغة أكثر من قرنَيْن من الزّمن من يُوسُف إلى مُوسى عليهما السّلام.

وفي رأيي (والله أعلم) أنَّ بني إسرائيل ابتعدوا ـ بعد يُوسُف عليه السلام ـ عن صفاء التّوحيد وتعاليم يعقُوب وإسحاق وإبراهيم (عليهم السّلام)، فعاقبهم الله باستعباد فرعُون مصر (سيناء) لهم، وإذلالهم، حتَّى جاء سيِّدنا مُوسى عليه السلام؛ ليُعيدهم إلى صفاء التّوحيد.

الفصل الرّابع:

مُوسى عليه السّلام

مُوسى الكليم عليه السّلام، وهُو من أُولي العَزْم من الرُّسُـل؛ وهُـم: نُـوح، إبراهيـم، مُوسى، عيسى، مُحَمَّد، عليهم أفضل الصّلاة، وأتمُّ التّسليم.

ولَقَبُ مُوسى "الكليم" لُقِّب به؛ لأنَّ الله كلَّمه كما في الآية الكريمة التّالية: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ سُورة النّساء 164.

كما اتَّخذ تعالى من قَبْلُ إبراهيم خليلاً، كما وَرَدَ فـي الآيـة التّاليـة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ سُورة النّساء 125.

وقد كلَّم اللهُ مُوسى، وأبلغه رسالة ربِّه بقوله تعالى في آيات كثيرة: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ النّازعات من 15 ـ 19.

وآتاه اللهُ الكتابَ: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ الإسراء الآية 2.

وهكذا؛ فمُوسى ـ عليـه السّـلام ـ صـاحب كتـاب وهُـو "التّـوراة"؛ فيـها شـريعة جديـدة تتناسب مع عصر مُوسى. وبهذا؛ أصبح بنو إسرائيل ـ بعـد مُوسـى ـ يُسـمّون مُوسـويِّين؛ أيْ أتباع مُوسى عليه السّلام، هذه الشَّريعة التي نَسَخَتْ شريعة إبراهيم السّابقة.

ومُوسى ـ عليه السّلام ـ من سبط لاوي بن يعقُوب، ونَسَـبُهُ ـ كمـا تُجمـع عليـه المصـادر العَرَبيَّة ـ هُو: مُوسى بن عُمـران بـن يصـهر بـن قـاهت بـن لاوي بـن يعقُـوب بـن إسـحاق بـن

إبراهيم الخليل. وهكذا؛ فبين مُوسى - عليه السّلام - ولاوي أربعة جُدُود، وهذا الذي دعا الدُّكتُور أحمد داود أنْ يُقدِّر الفترة بين يُوسُف ومُوسى بمائة سنة، ويستنكر مُبالغة التّوراة في تقديرها بـ **430** سنة.

هذا؛ وليس هُناك من شخصيَّة قديمة حظيت بكثرة مَنْ كتبوا عنها مثل شخصيَّة مُوسى عليه السّلام، فبعضهم اعتبروها شخصيَّة أُسطُوريَّة من نسج خيال كُتَّاب الأسفار التّوراتيَّة؛ لغياب ذكْره في الآثار المُكْتَشَفَة في جميع أنحاء الوطن العَرَبيّ، وزعم آخرون أنَّه كاهن مصري، أو قائد مصري اشترك في حملة ضدَّ أثيوبيا (الحبشة). والبعض يقول: إنَّه مُوحِّد أخذ التّوحيد عن "أخناتون" فرعُون مصر، وإنَّه لا يمتُّ للإسرائيليِّين بصلة، وإنَّه قاد بقايا الهيكسوس المُوحِّدين مع المُوحِّدين من المصريِّين أتباع ديانة أخناتون خارج مصر؛ لإيجاد مكان آمن لهم، وإنقاذهم من الظُّلم والاضطهاد والاستعباد بسبب مُعتقداتهم الدِّينيَّة.. إلخ.

والواقع أنَّ هذه الاختلافات في الرَّأي - حول شخصيَّة مُوسى عليه السّلام - ترجع إلى الاختلافات في المصادر، فالبعض اعتمد على التّوراة (على ما فيها من تحريف)، والبعض اعتمد على الاكتشافات الأثريَّة والمُدوَّنات التّاريخيَّة. وممَّا زادها كثرة وتعقيداً وتشعُّباً هُو الخَلْط في مكان ظُهُور مُوسى عليه السّلام بين مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش. ولو اعتمد المُؤرِّخون، واستقرَّ رأيهم على أنَّ ظُهُور مُوسى عليه السّلام كان في مصرايم في سيناء لما تشعَّبت الآراء، واختلفت الأقاويل حول شخصيَّة مُوسى عليه السّلام.

والذي أستغربه كيف أنَّ كثيراً من المُؤرِّخين العَرَب المُسلمين أخذوا بأقوال الغربيِّين الذي لا يُؤمنون بالقُرآن الكريم، ولا بما جاء به حول مُوسى، بل يأخذون بأقوال التّوراة إذا أحوجتهم الحاجة حول هذه الشّخصيَّة.

وفيما يلي سأذكر الأقوال والآراء حول شخصيَّة مُوسى عليه السّلام، ثُمَّ القيام بالرَّدِّ عليها، إنْ شاء الله.

1: قال كثير من المُؤرِّخين بمصريَّة مُوسى عليه السّلام، ومن هؤلاء فلامينوس يُوسيفُوس، الذي عاش في القرن الأوَّل الميلادي، وقال: إنَّ مُوسى كان حاكماً، أو كاهناً مصريّاً، أو قائداً مصريّاً.

وكذلك الفيلسوف اليهُوديّ الإسكندري "فيلون" 30ـ 40 ق . م الذي أيّد القول بأنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ كان مصرياً .

ويُؤكِّد "وول ديورانت" أنَّ مُوسى كان مصريّاً ، ويُضيف ـ نقلاً عن "جارستانج" عُضو بعثة مارستن Merstain التّابعة لجامعة ليفربول ـ أنَّه اكتشف في مقابر أريحا المَلَكيَّة أدلَّة تُثبت أنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ قد أنجبَتْهُ في عام 1537 ق . م الأميرة "حتشبسوت" (الملكة حتشبسوت فيما بعد 1601 ـ 1479 ق . م) ، وأنَّه فرَّ من مصر إلى أرض مدين حين جلس على العرش في مصر عدوّها "تحتمس الثّالث" 1479 ـ 1447 ق . م .

ويُضيف المُؤرِّخ البريطانيّ "جيمس برستيد" إلى أنَّ اسم مُوسى هُو اسم مصري ، وهُو نفس الكَلمة المصريَّة القديمة "مس" ؛ ومعناها الطّفل (أو طفل) .

والبعض يقول : إنَّه مصري ، واسمه اسم مصري ، وإنَّ هذا الاسم كان مُنتشراً في مصر ، فمثلاً اسم "أحمس" (وهُو الملك الذي طرد الهيكسوس من مصر) هُو في الأصل "أح موس" وكذلك "رعمسيس" "رع موس" ، واسم تحتمس هُو "تحوت موس" .

ومن أشهر الذين بحثوا في شخصيَّة مُوسى عليه السّلام العالم النّفساني الشّهير "سيغموند فرويد" وهُو يهُودي نمساوي ، وذلك في كتابه "مُوسى والتّوحيد" ، وانتهى فرويد إلى القول : إنَّ مُوسى كان مصرياً ، وليس إسرائيلياً ، ممَّا أثار عليه غضب الصّهاينة . ويُضيف فرويد بعد أنْ يُقدِّم الدّليل تلو الدّليل إلى أنَّ الدّيانة التي جاء بها مُوسى عليه السّلام هي ديانة "أخناتون" التّوحيديَّة ، وهي مصريَّة بحتة ، ومصدرها مصري ، لا علاقة له ببني إسرائيل ، وأنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ لم يكن إسرائيلياً ، وإنَّما كان مصرياً ، أراد كَتَبَةُ التّوراة أنْ يجعلوا منه يهُودياً لأغراضهم .

ويُؤكِّد الدُّكتُور سامي سعيد الأحمد صلة ديانة النّبي مُوسى بالمُعتقدات المصريَّة القديمة . (1)

---

(1) راجع "العَرَب واليهُود في التّاريخ" ، د . أحمد سُوسة ، ص 584 ـ 592 .

أمَّا الردُّ على هذه الأقوال؛ فهُو:

1: إنَّ القول بأنَّ مُوسى - عليه السّلام - ليس إسرائيليّاً يُخالف النَّصَّ القُرآني مُخالفة صريحة لا يُمكن القبول بها، فمُوسى - عليه السّلام - يُخاطب بني إسرائيل في آيات كثيرة بأنَّهم قومه؛ مثل قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يُونُس 84.

﴿ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ الأعراف 93.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ الأعراف 128.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الإسراء 2.

وكتاب مُوسى هُو التّوراة التي جعَلَها الله هدى لبني إسرائيل قومه.

هذا؛ والتّوراة تُؤكِّد أنَّ مُوسى - عليه السّلام - من بني إسرائيل، فقد جاء فيها:

« قال: أنا إله أبيكَ، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقُوب»، (سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني من فقرة 1 - 9).

وجاء أيضاً في التّوراة أنَّ مُوسى - عليه السّلام - إسرائيلي من سبط لاوي، وذلك في قولها: « وَذَهَبَ رجل من بيت لاوي، وأخذ بنتاً، فحبلتْ، وولدتْ ابناً، لَمَّا رأته حسن خبَّأته ثلاثة أشهر، ولمَّا لم يُمكنها أنْ تُخبِّئه بعد، أخذت له سفطاً من بردي، وطلته بالحُمّر والزّفت، وَوَضَعَتْ الولد فيه، وَوَضَعَتْهُ بين الحُلفاء على حافَّة النّهر، وَوَقَفَتْ أُخته من بعيد؛ لتعرف ماذا يُفعل به».

«فنزلت ابنة فرعُون إلى النّهر؛ لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النّهر، فرأت السّفط بين الحُلفاء، فأرسلت أَمَتَهَا، وأخذتْهُ، ولمَّا فتحتْهُ رأت الولد، فإذا هُو صبي يبكي، فرقَّتْ له، وقالت: هذا من أولاد العبرانيِّيْن. فقالت أُخته لابنة فرعُون: هل أذهب فأدعو لك امرأة مُرضعة من العبرانيَّات؛ لتُرضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعُون: اذهبي،

فَذَهَبَتْ الفتاة، ودعتْ أُمَّ الولد، فقالت لها ابنة فرعُون: اذهبي بهذا الولد، وأرضعيه لي وأنا أُعطي أُجرتك» (سفْر الخُرُوج، الإصحاح 3، فقرة 6).

الحديث فيما سَبَقَ من كلام التّوراة هُو عن مُوسى عليه السّلام، ويظهر منه أنّه من سبط لاوي، وأنّه من أولاد العبرانيّين (كما قالت ابنة فرعُون)، وأنّه رُدَّ إلى أُمّه العبرانيّة كي تُرضعه.

وجاء في القُرآن الكريم ما يُؤيِّد الذي جاء في التّوراة وهُو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورة القَصَص من الآية 7 إلى 13).

وجاء في سُورة طه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ طه من 37 ـ 40.

نُلاحظ من الآيات الكريمة السّابقة التّشابه الكبير في المعنى بين آيات الذّكْر الحكيم وبين ما جاء في التّوراة. ففي التّوراة أرضعتْهُ أُمُّه ثلاثة أشهر، ثُمَّ ألقتْهُ في اليمِّ، وفي النّصِّ القُرآني نرى أنّها أرضعتْهُ مُدَّة قبل أنْ تُلقيه في اليمِّ (بوحيٍ من الله)، بعد أنْ خافت افتضاح أمرها، ولكنَّ القُرآن لا يُحدِّد المُدَّة.

والاختلاف بين القُرآن الكريم والتّوراة هُو تحديد التي التقطتْهُ، وربّتْهُ، وتبنّتْهُ. فالتّوراة تقول: إنَّها ابنة الفرعُون، والقُرآن يقول: إنَّها زوجة الفرعُون؛ وهي آسيا بنت مُزاحم (وقد مرَّ نَسَبُهَا) وكانت امرأة صالحة مُؤمنة مُوحِّدة كما يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سُورة التّحريم الآية 11. (والقول الفَصْل طبعاً هُو ما جاء في القُرآن الكريم). ومن النَّصِّ القُرآني والنَّصِّ التّوراتي نستنتج أنّه كان عليه السّلام من العبرانيِّيْن، وبالتّحديد؛ من بني إسرائيل، وليس مصريّاً.

وسُمِّي مُوسى أو مُوشي أي "المُنتَشَل"؛ لأنَّه انتُشل من الماء، وليس كما مرَّ سابقاً من أنَّ مُوسى هُو اسم شائع في مصر قبل مُوسى، وكان يلحق بأسماء المُلُوك مثل "أحمس" (أح موس)، ورعمسيس (رع موس)، وتحتمس (تحوت موس).

وهكذا؛ فاسم مُوسى جاء من العَرَبيَّة القديمة (الكلدانيَّة أو السّريانيَّة القديمة) وتعني: المَرمي/ المُنتَشَل، المُنقَذ[1]، وهذا ـ بدوره ـ يُؤكِّد أنَّ تسميته لم تكن مصريَّة، بل كانت عَرَبيَّة، ومن العَرَب العماليق في مصر وادي العريش، وليس في مصر وادي النّيل.

2: أمَّا نَسَبُهُ عليه السّلام؛ فيُؤكِّد أنَّه من بني إسرائيل، وليس مصريّاً، فقد ذكرت المصادر العَرَبيَّة أنَّ نَسَبَهُ يرجع إلى سبط لاوي بن يعقُوب كما وَرَدَ في شجرة نَسَب إبراهيم وذُرِّيَّته. (راجع الشّجرة..).

والتّوراة تُؤكِّد هذا النَّسَبَ في سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني، فقرة 1 ـ 9.

والطّبري يذكر أنَّ أُمَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ هي يحيب ابنة شموئيل بن بركيا بن يقشان ابن إبراهيم عليه السلام، ويقشان هذا هُو ابن إبراهيم من زوجته قطورة[2]. وهذا دليل جديد على أنَّ بني إسرائيل كانوا يعيشون في مصر وادي العريش؛ أيْ في سيناء قريباً من أبناء عُمُومتهم أحفاد إبراهيم عليه السّلام، وليس في مصر (لأنَّ أبناء إبراهيم من قطورة انتشروا في سيناء وجنوب الأُردُن وفلسطين).

---

(1) الدُكتُور أحمد داود، (العَرَب والعبرانيُّون..) ص 154 ـ 155.

(2) د. أحمد داود، "العَرَب والعبرانيُّون.."، ص 155.

والإمام أحمد بن مُحَمَّد الثّعالبي يذكر نَسَبَ أُمِّ مُوسى، فيقول: هي نجيب بنت شموئيل بن بركيا بن بشعان (أيْ يقشان) بن إبراهيم، وقيل - أيضاً - : إنَّ اسمها نجاجية ويوخاييل أو يوكابيد[1].

وهكذا نرى أنَّ نَسَبَهُ - عليه السّلام - من جهة والده عُمران أو عُمرام، ووالدته (يحيب أو نجيب أو يوكابيد) يرجع إلى ذُرِّيَّة إبراهيم الخليل عليه السّلام، فهُو ليس مصريّاً كما ذَكَرَ الكثير من المُؤرِّخين (والسّبب - في ذلك - هُو اعتقادهم أنَّ مُوسى عليه السّلام وبني إسرائيل عاشوا في مصر وادي النّيل، وليس في سيناء).

3: أمَّا القول إنَّ مُوسى عليه السّلام أخذ التّوحيد عن أخناتون؛ وإنَّه لم يتلقَّ رسالة من الله، ولم تنزل عليه التّوراة؛ ففي ذلك الكُفْر الصّريح بالنّسبة للمُسلمين؛ لأنَّ القول بذلك يهدم رُكنَيْن من أركان الإيمان في الإسلام[2] وهُما: الإيمان بكُتُب الله ورُسُله.

ولكنْ؛ مَنْ هُو "أخناتون"؟ وما هي عقيدته الدِّينيَّة التي جَعَلَت العالم النّفساني الشّهير سيغموند فرويد يقول: إنَّ مُوسى - عليه السّلام - أخذ التّوحيد عنه؟

أخناتون وعقيدته التّوحيديَّة:

أخناتون هُو ملك من مُلُوك مصر (وادي النّيل)، وهُو أمنحوتب الرّابع، أو أمنوفيس الرّابع حكم مصر بين 1375 - 1358 ق.م، وقد دعا إلى ديانة التّوحيد؛ أيْ عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلاَّ هُو، وتصوَّر أنَّ قُرص الشّمس إنَّما هُو مظهر من مظاهر الإله الأوحد.

وقد بلغ تحمُّسه لدينه الجديد ما جَعَلَه يُناوئ جميع كَهَنَة الآلهة السّابقة، ويُحاول القضاء عليهم، وعلى مبادئهم، وحَمَلَ النّاس على اتِّباع دينه الجديد، وحَصَرَ العبادة بذلك الإله الواحد الأحد الذي سمَّاه "آتون"، وأراد أنَّ يفرض عبادته في كافَّة أنحاء الإمبراطُوريَّة. وقد صبَّ جام غضبه على الإله "آمون أو آمين" إله طيبة، ولكُرهه لهذا الإله الذي كان اسمه

(1) الثّعالبي، قَصَص الأنبياء، ص 96.

(2) أركان الإيمان في الإسلام هي كما وَرَدَتْ في حديث عبد الله بن عُمر عن والده عُمر رضي الله عنهما عندما جاء جبريل إلى الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم يسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان: فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّ الإيمان هُو أنْ تُؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر؛ خيره وشرِّه.

يدخل في تركيب اسمه (آمين حوتب)، عمد إلى تغيير اسمه من أمنحوتب "أمين حوتب" إلى أخناتون (آخن آتون)، وهجر أخناتونُ العاصمةَ طيبةَ المُقَدَّسةَ، وابتنى له عاصمة جديدة في موضع يُسمَّى (العمرنة أو العمارنة)، وسمَّاها "آخن آتون"، ونقل إليها مقرَّ العاصمة، وأعمال الحُكُومة[1].

والدّيانة عند المصريِّيْن تطوَّرت كما يلي: فقد كان المصريُّون القُدماء يُؤمنون بآلهة كثيرة؛ منها الإله "رع" إله الشّمس، ثُمَّ أصبح الإله "رع" كبير الآلهة، فأصبح اسمه "رع - آمون"، وأخيراً؛ جاء أخناتون بديانته التّوحيديَّة والإله الحقِّ، وُفقاً لعقيدة أخناتون، ليس له شكل مُحدَّد، لذلك لم يسمح أخناتون بأيِّ تصوير للإله "آتون"، وكان يقول: إنَّ الإله الحقَّ لا شكل له، وظلَّ مُتشبِّثاً بهذا الاعتقاد طوال حياته؛ لأنَّ الإله - في عقيدته - لا يُرى، ولا يُلمَس، وهُو ظاهر في قُرص الشّمس التي تُعطي حرارة الحياة[2].

والحقيقة؛ لم تكن دعوة أخناتون التّوحيديَّة هي الأُولى في تاريخ البشريَّة، فقد سبقه إليها إبراهيم الخليل عليه السّلام بأكثر من خمسمائة عام، وكانت ديانة إبراهيم التّوحيديَّة سائدة في شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة وسيناء وجنوب فلسطين والأُردُن (شمال العقبة ووادي عَرَبه) وبين ذُرِّيَّة إسماعيل بن إبراهيم والمديانيِّيْن أبناء مديان بن إبراهيم والأدوميِّيْن أبناء أدوم ابن إسحاق بن إبراهيم والشّبائين أبناء شبأ بن يقشان بن إبراهيم.. إلخ.

وقد دَخَلَتْ عقيدة التّوحيد إلى مصر وادي النّيل مع الهيكسوس الذين حكموا مصر زهاء قرنَيْن من الزّمان قبل عهد أخناتون مُباشرة. وكان الهيكسوس على اتِّصال بيعقُوب وأبنائه وبالمديانيِّيْن، وهكذا؛ فيكون مصدر ديانة أخناتون التّوحيديَّة عَرَبيّاً صرفاً، ومن ذُرِّيَّة سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

ولكنَّ ديانة أخناتون التّوحيديَّة لم تعشْ بعد أخناتون، وسُرعان ما عادت الدّيانة المصريَّة القديمة بعد وفاته، وعادت عبادة الشّمس والإله "آمون"، وعاد نُفُوذ كَهَنَة آمون كما كان قبل أخناتون.

---

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 417 وما بعد، نقلاً عن طه باقر وعن المُؤرِّخ ديورانت.
(2) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 593.

بعد هذا الاستطراد والتّعريف بأخناتون وديانته التّوحيديَّة نعود للرَّدِّ على القول: بأنَّ مُوسى أخذ التّوحيد عن أخناتون.

مُوسى ـ عليه السّلام ـ والتّوحيد:

إنَّ بني إسرائيل مُوحِّدون على دين جَدِّهم الأعلى إبراهيم الخليل عليه السّلام، هُم وجميع ذُرِّيَّة إبراهيم من نسائه الثّلاث سارة وهاجر وقطورة، وكانت ذُرِّيَّة إبراهيم ـ عليه السّلام ـ تنتشر في غرب وشمال الجزيرة العَرَبيَّة وشبه جزيرة سيناء وجنوب بلاد الشّام. وإبراهيم ـ عليه السّلام ـ ظهر قبل أخناتون بأكثر من **500** عام.

وقد مرَّ معنا أنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ من بني إسرائيل، ومن سبط لاوي، وأُمَّه من ذُرِّيَّة يقشان بن إبراهيم عليه السّلام. ومن الطّبيعي أنْ تكون ديانته توحيديَّة كديانة آبائه وأجداده. هذا؛ بالإضافة إلى أنَّ "آسيا" زوجة الفرعون التي تبنَّتْهُ كانت مُؤمنة مُوحِّدة. فكيف يكون تلقَّى التّوحيد عن أخناتون، ولم يتلقَّه من آبائه وأجداده ومُربِّيته؟!!

وقد مرَّ معنا أنَّ بني إسرائيل هاجروا إلى مصر حوالي **1600** ق. م، في زمن العَرَب الهيكسوس حُكَّام مصر في ذلك الوقت (مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش في سيناء)، وأنَّ ملكهم استخلص يُوسُف عليه السلام لنفسه، وجَعَلَه على خزائن مصر، وقد آمن بديانة يُوسُف عليه السلام، وأنَّ التّوحيد انتشر بين الهيكسوس وفي المصريِّيْن (مصر وادي النّيل ومصر سيناء) قبل ظُهُور أخناتون ودعوته التّوحيديَّة بأكثر من قرنَيْن من الزّمان (حكم أخناتون مصر وادي النّيل من **1375** ـ **1358** ق. م)، فالأفضل والأصحُّ أنْ نقول: إنَّ أخناتون هُو الذي أخذ التّوحيد عن بني إسرائيل أهل مُوسى وعشيرته، وليس مُوسى ـ عليه السّلام ـ هُو الذي أخذ التّوحيد عنه.

فمُوسى ـ عليه السّلام ـ تربَّى في أحضان امرأة مُوحِّدة؛ وهي "آسية"، وأرضعتْهُ أُمُّه "يحيب" مُوحِّدة، وهرب إلى مدين، وعاش في رعاية يثرون، أو شعيب؛ وهُو مُوحِّد من المديانيِّيْن؛ وهُم من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السّلام، وتزوَّج ابنته "صفورة"؛ وهي مُوحِّدة، ولَمَّا عاد إلى مصر بعد أنْ قضى عشر سنوات في مدين، وكلَّمه الله تعالى في جَبَل الطُّور لم يدعه

إلى الإيمان والتّوحيد (فقد كان مُوحِّداً)، بل أبلغه المهمَّة التي سيقوم بها، والتي اختاره للقيام بها؛ وهي إنقاذ بني إسرائيل (جماعته) من الاضطهاد والذُّلّ والهوان، فقال تعالى:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ سُورة طه من 9 ـ 14.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ النّازعات من 15 ـ 19.

طَلَبَ مُوسى من ربّه أنْ يجعل له مُعيناً أو وزيراً من أهله؛ وهُو أخوه هارُون؛ لأداء هذه المهمَّة الصّعبة، فاستجاب له ربُّه (راجع الآيات الكريمة من سُورة طه من 24 ـ 36).

وكانت المهمَّة إنقاذ بني إسرائيل من الذُّلّ والهوان والعذاب كما جاء في قوله تعالى مُخاطباً مُوسى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ طه 42 ـ 47.

والخُلاصة أنَّ التّوحيد كان مُنتشراً في المنطقة قبل ظُهُور أخناتون بقُرُون عن طريق إبراهيم الخليل عليه السّلام وذُرّيّته؛ ومنهم عشيرة بني إسرائيل، عشيرة مُوسى عليه السّلام.

4: أمَّا القول بأنَّ شخصيَّة مُوسى ـ عليه السّلام ـ شخصيَّة أُسطُوريَّة؛ فهذا قول غريب ومردود، فهُناك آلاف الملايين من أتباع الدّيانتَيْن المسيحيَّة والإسلاميَّة يُؤمنون بمُوسى ونُبُوّته ورسالته وكتابه (التّوراة)، بالإضافة إلى اليهُود أنفسهم.

5: أمَّا القول بأنَّ خرُوج مُوسى ـ عليه السّلام ـ من مصر كان لإنقاذ بقايا الهيكسوس في مصر من الاضطهاد والتّعذيب، وكذلك العبيد الآبقين والمُؤمنين المُوحّدين على ديانة

أخناتون، وأنَّ مُوسى قاد هؤلاء جميعاً من أرض مصر إلى أرض كنعان؛ ليجد لهم ملجأ آمناً هُناك؛ فقول مردود أيضاً، فقد ذكرنا أنَّ مُوسى ـ عليه السّلام، حسب ما جاء في القُرآن الكريم ـ أُرسل لإنقاذ بني إسرائيل من الاضطهاد وسُوء العذاب، ولكنَّ هذا لا يمنع أنْ يخرج مع بني إسرائيل بعض بقايا الهيكسوس وبعض المصريِّيْن، وخاصَّة مَنْ آمن بديانة بني إسرائيل التّوحيديَّة بعد هجرة هؤلاء إلى مصر في زمن يعقُوب عليه السّلام.

أسباب الأخطاء السّابقة:

وأخيراً؛ لابُدَّ من التّنويه بأنَّ أكثر الأخطاء وتشعُّب الآراء حول شخصيَّة سيِّدنا مُوسى ـ عليه السّلام ـ وديانته وخُرُوجه من مصر، كانت بسبب الخَلْط بين مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش في شبه جزيرة سيناء، وهي مصرايم التي كانت محطَّة تجاريَّة هامَّة ومُزدهرة زراعيّاً وتجاريّاً.

لقد قُلنا ـ سابقاً ـ: إنَّ المقصود بمصر التّوراتيَّة هي مصرايم على وادي العريش في سيناء، وليس مصر وادي النّيل، فهذا الخطأ الجَغرافي هُو سبب هذه البَلْبَلَة في تاريخ اليهُود القديم، وقد قدَّمتُ ـ فيما سَبَقَ ـ البراهين على أنَّ مصر المقصودة في التّوراة هي مصر وادي العريش؛ أيْ مصرايم، وليس مصر وادي النّيل.

ولو أخذ العُلماء والمُؤرِّخون بأنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ ظهر في مصرايم لإنقاذ بني إسرائيل عشيرته من الاضطهاد لما احتاجوا إلى القول بأنَّه مصري، وإنَّه آخذ التّوحيد عن أخناتون، وإنَّه كان قائداً مصريّاً، أو كاهناً مصريّاً، وإنَّه جاء لإنقاذ بقايا الهيكسوس والمُوحِّدين من أتباع أخناتون من الاضطهاد في مصر، ولما احتاجوا إلى التّفتيش عن فرعُون مُوسى من بين أباطرة مصر الحديثة، وماذا كان مصيره . . إلخ.

وهكذا نرى أنَّ الخَلْط الجَغرافي بين مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش هُو الذي أدَّى إلى كثرة الآراء وتعدُّد الأقوال حول شخصيَّة مُوسى عليه السّلام، حتَّى وَصَلَ القول بأُسطُوريَّة هذه الشّخصيَّة.

والخُلاصة أنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ عَرَبيّ من بني إسرائيل ومن سبط لاوي، وهُو مُوحِّد قبل الرّسالة التي كلَّفه الله بها، وقد ربَّتْهُ، وتبنَّتْهُ آسيا بنت مُزاحم زوجة فرعُون مُوسى عليه السّلام، وهُو قابوس بن مُصعب بن مُعاوية . . (إلى آخر نَسَبه)، وكان حاكم مصرايم المحطَّة التّجاريَّة، وتابعاً لمُلُوك مصر وادي النّيل.

وهكذا نرى أنَّ مُوسى وعشيرته من العَرَب، وأنَّ فرعُون مصرايم وأهل مصرايم من العَرَب العماليق أيضاً، وأنَّ بني إسرائيل اضطُهدوا في مصرايم ليس بسبب قوميَّتهم، بل بسبب تكاثرهم بالنّسبة إلى سُكَّان مصرايم، وخوف فرعُونها على عرشه منهم، وقد يكون ـ أيضاً ـ بسبب عقيدتهم التّوحيديَّة، وذلك لأنَّ فراعنة مصرايم بعد فرعُون يُوسُف تراجعوا عن التّوحيد إلى الوَثَنيَّة.

هذا؛ وقد مرَّ الحُكْم في مصرايم بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأُولى:

حيثُ كان فرعُونا تابعاً لمصر وادي النّيل، وكانت مصرايم بوَّابة مصر التّجاريَّة على المشرق العَرَبيّ، وفي هذه المرحلة زار إبراهيم ـ عليه السّلام ـ مصرايم، وكان فرعُونها هُو سنان بن عُلوان . . إلى آخر نَسَبه.

المرحلة الثّانية:

عندما بيْع فيها يُوسُف عليه السّلام، وهاجر إليها يعقُوب وأُسرته، وكان حُكَّامها مُلُوك الهيكسوس حُكَّام سيناء، بالإضافة إلى مصر السُّفلى أو الدّلتا.

المرحلة الثّالثة:

في زمن مُوسى عليه السّلام؛ حيثُ طُرد الهيكسوس من مصر وادي النّيل ومصرايم، وتوسَّع مُلُوك مصر الحديثة (عصر الإمبراطُوريَّة) في بلاد الشّام، وعادت مصرايم محطَّة تجاريَّة تابعة لمصر، وعاد حُكَّامها يُلقَّبون بالفراعنة، وفي هذه المرحلة ظهر مُوسى.

بعد هذه المُقدِّمات الطّويلة حول مُوسى عليه السلام وشخصيَّته والتي كان لابُدَّ منها، ننتقل إلى الحديث عنه عليه السّلام من مولده حتَّى خُرُوجه من مصر، ووُصُوله أبواب أرض كنعان.

مولد مُوسى ـ عليه السّلام ـ وتربيته[1] :

ذكرنا سابقاً أنَّ الفترة بين يُوسُف ومُوسى ـ عليهما السّلام ـ يكتنفها الغُمُوض، ولا نعرف عن تاريخ بني إسرائيل شيئاً خلالها؛ سوى أنَّهم تعرَّضوا للاضطهاد والاستعباد، وقد اختلف المُؤرِّخون في تقدير هذه المُدَّة.

وقُبيل نهاية هذه الفترة؛ وُلد مُوسى عليه السّلام، وأبوه عُمران أو عُمرام؛ وهُو من سبط لاوي، وأُمُّه يوكابيد أو يحيب، ويرجع نَسَبُهَا إلى يقشا بن إبراهيم الخليل عليه السّلام، (وقد مرَّ معنا نَسَبُ الأب والأُمِّ سابقاً).

وقد ولدتْ يحيب هارُون ومُوسى وابنة اسمها مريم، وهي التي قالت لها أُمُّها: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القَصَص 11.

ولم أعثر على مرجع يُبيِّن أيُّهما أكبر هارُون أم مُوسى، إلاَّ أنَّ الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار في كتابه قَصَص الأنبياء صفحة 157 يقول: «وأخذ عُمران يوكابيد زوجة له، فولدتْ له هارُون ومُوسى عليهما السّلام»، ويقدّم هارُون على مُوسى في الولادة، وأظنُّ أنَّ هذا هُو الصّحيح.

وسنذكر فيما يلي كيف نجا مُوسى من القتل، أمَّا كيف نجا هارُون فهذا ما لم أجد له تفسيراً، وقد تكون ولادته قبل أنْ يأمر فرعُون بقَتْل ذُكُور بني إسرائيل.

وبعد ولادته عليه السّلام خبَّأَتْهُ والدته عن أعين مَنْ يطلبون أطفال بني إسرائيل لقَتْل ذكرانهم، فَمَكَثَ عندها ثلاثة أشهر حسب تقرير التّوراة (والقُرآن لا يتعرَّض لتقدير المُدَّة). فلمَّا خافت افتضاح أمرها أوحى الله لها ماذا تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ

(1) المرجع الأساسي في مولده وتربيته عليه السّلام، قَصَص الأنبياء للأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار.

لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سُورة القَصَص من 7 ـ 13 وكذلك وَرَدَ في سُورة طه بهذا المعنى الآيات من 37 ـ 40.

وَرَدَ في التّوراة (سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني) أنَّ التي تبنّتهُ، وربّتهُ هي ابنة الفرعُون، وليس امرأته، وابنة الفرعُون هي التي سمّتهُ (مُوسى أو مُوشي) أيْ المُنتشَل من الماء.

بعد أنْ أتمَّ رضاعته أعادتْهُ أُمُّه إلى بيت فرعُون؛ حيثُ رُبِّي كما يُربَّى أبناء المُلُوك، فتعهَّده الكَهَنَةُ ورجال الدِّين حسب التّقاليد في تلك الأيّام، وهكذا يكون مُوسى عليه السّلام قد تعلَّم علماً راقياً (حسب ظُرُوف ذلك الزّمان). يُضاف إلى ذلك ما أفاضه الله عليه في كبره من الحكمة والعلم كما يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ القَصَص 14.

خُرُوج مُوسى ـ عليه السّلام ـ إلى أرض مدين:

شبَّ مُوسى في بيت فرعُون، وكان أيّداً، قويَّ البأس، وافر القُوَّة. ولم يخفَ عليه أنَّه دخيل في بيت فرعُون، وأنَّه إسرائيلي من ذلك الشّعب المُضطهَد من فرعُون وآله، فكان ظهيراً للعبرانيِّين قومه. ونتيجة لهذه المُظاهرة لقومه قَتَلَ مصرياً بوكْزَة منه كانت القاضية، وذلك عندما استغاث به عبراني ضدَّ ذلك المصري. ثُمَّ ندم على فعْلته، وعندما عرف أنَّ القوم يأتمرون به؛ ليقتلوه، هرب إلى أرض مدين، وفي ذلك يقول الله تعالى في سُورة القَصَص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ سُورة القَصَص الآيات من 15 ـ 21.

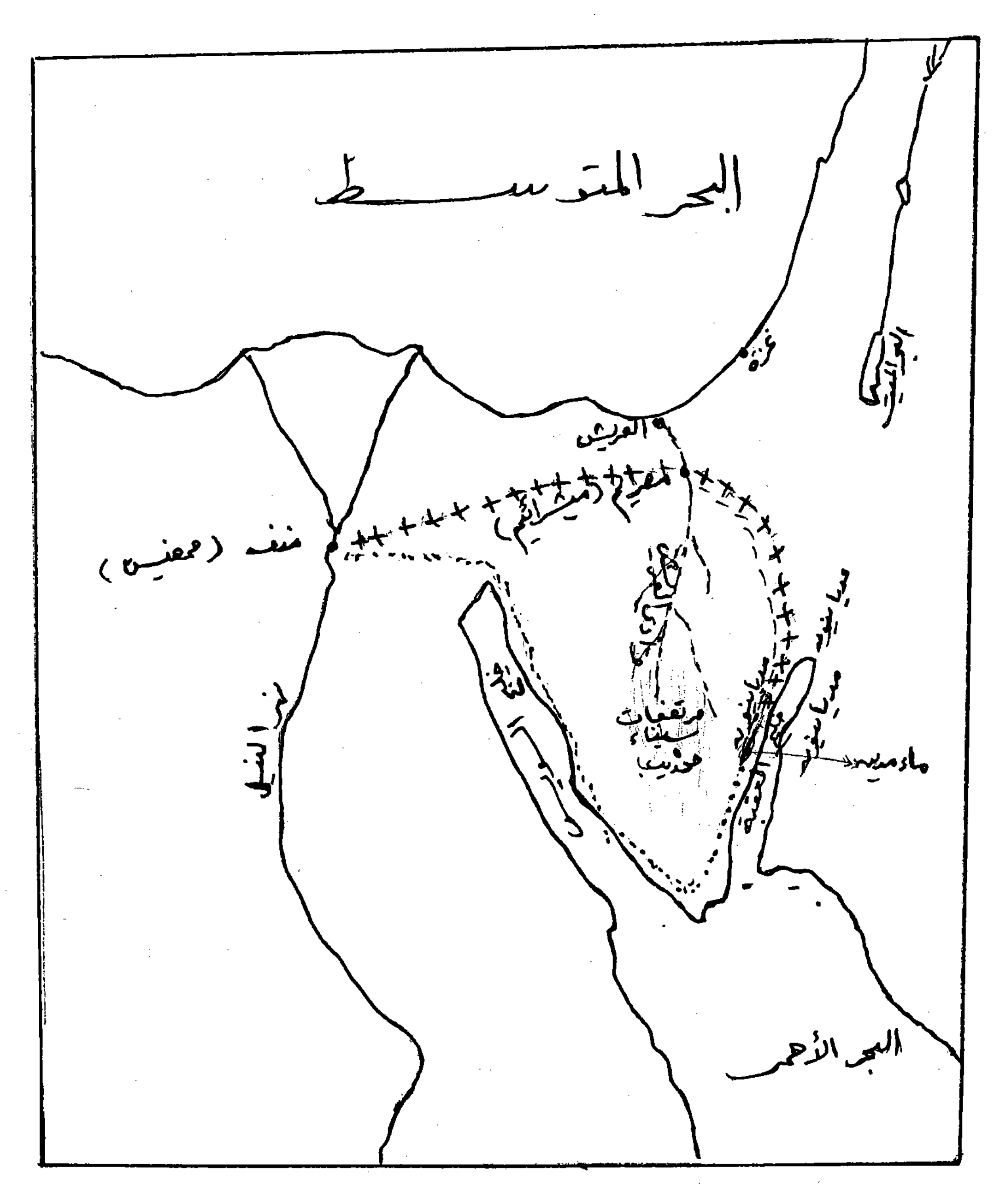
يظهر من النَّصِّ القُرآني السّابق مدى الإيمان العميق الذي يغمر قلب مُوسى عليه السّلام، وهذا قبل تكليفه بالرّسالة. ويظهر ـ أيضاً ـ أنَّه خرج على عجل، ولم يُعدّ للسَّفر عدَّتَهُ، مُعتمداً على هداية الله، ومُساعدته.

وبلاد مدين التي التجأ إليها مُوسى عليه السّلام تقع حول خليج العقبة[1] (انظر المُصوَّر رَقْم 8) وسُكَّانها من المديانيّين، وينتسبون إلى مديان بن إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة، وكانوا شاوية (أيْ يعتمدون في حياتهم على تربية الغَنَم).

ثُمَّ وَرَدَ ماء مدين، وجلس ليستريح، ونترك الكلام لله تعالى يقصُّ علينا ما حَدَثَ لُموسى عليه السلام هُناك: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ سُورة القَصَص الآيات 22 ـ 28.

---

(1) نزل مُوسى ـ عليه السّلام ـ في مدين الواقعة غرب الخليج؛ أيْ في سيناء، وليس شرقه في الجزيرة العَرَبيَّة.



مُصورَّ رَقْم (8) طريق هُرُب مُوسى عليه السلام من وادي النّيل(+++++ الطّريق إلى ماء مدين مُرُوراً بمصرايم)

(......... الطّريق إلى ماء مدين بالدّوران حول سيناء) (ـــ ـــ ـــ الطّريق إلى ماء مدين من مصرايم مُباشرة)

النَّصُّ القُرآني السّابق واضح حول وُصُول مُوسى عليه السلام إلى ماء مدين، ومُصاهرته للشّيخ والد الابنتَيْن، ولكنْ؛ مَنْ هُو هذا الشّيخ؟ الحقيقة إنَّ مُفسِّري القُرآن الكريم تعدَّدتْ أقوالهم حول اسم هذا الشّيخ، وعلى كُلٍّ؛ أكثر المُفسِّرين قالوا: إنَّه النّبي شُعَيْب عليه السلام، أو يثري، أو يثرون ابن أخي شُعَيْب عليه السلام.

هذا؛ وقصَّة هرب مُوسى عليه السلام من مصر، والتجائه إلى مدين، وزواجه من ابنة الشّيخ وَرَدَتْ في التّوراة في سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني بشكل لا يُخالف القُرآن إلاّ في موضعَيْن:

أوّلهما: أنّها ذكرتْ أنَّ بنات الشّيخ كُنَّ سبعاً، وليستا اثنتَيْن كما وَرَدَ في القُرآن.

ثانيهما: أنّها ذكرتْ أنَّ النّسوة قد ملأنَ الحياض لسقاية غنمهنَّ، فجاء الرُّعاة، وطردوهنَّ، وأبعدوا غنمهنَّ، وسقوا هُم ماشيتهم، فغضب مُوسى عليه السلام من هذا العمل، وطرد الرُّعاة، وسقى لهنَّ (والحقُّ ما قصَّه القُرآن الكريم).

وتذكر التّوراة أنَّ ابنة الشّيخ التي تزوَّجها مُوسى عليه السلام هي "صفورة"، وولدتْ له ولداً أسماه "جرشوم" (سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني).

عودة مُوسى - عليه السّلام - إلى مصر:

قضى مُوسى الأجل الذي بينه وبين حميه "يثرون"، وأغلب المُفسِّرين قالوا: إنَّه الأجل الأكبر، وهُو عشر سنين.

أخذ مُوسى أهله، وما منحه إيَّاه حميه من الغَنَم، وسار عائداً إلى مصر، وفي ليلة باردة ضلَّ الطّريق، وهُو في جانب طُور سيناء، وهُناك كلّمه الله تعالى، وكلَّفه بمهمَّة إنقاذ بني إسرائيل من الاضطهاد والذّهاب بهم إلى أرض كنعان، وقد وَرَدَ ذلك في سُورة طه والقَصَص والنّمل، نختار ما وَرَدَ في سُورة القَصَص وهي: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا

جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ القَصَص 29 ـ 35 (ووَرَدَ في سُورة طه بالمعنى نفسه الآيات من 9 ـ 36 ومن 42 ـ 47 بتفصيل أكثر، وكذلك في سُورة النّمل من الآيـة 7 ـ 12)، ووَرَدَ أيضاً ـ بالمعنى نفسه، ولكنْ؛ باختصار ـ في سُور الفرقان والشُّعراء والسّجدة والنّازعات.

أمَّا التّوراة؛ فتذكر عودة مُوسى ـ عليه السّلام ـ إلى مصر في الإصحاحَيْن الثّالث والرّابع من سفْر التّكوين بشكل مُفصَّل.

وفيما يلي سأذكر أقوال التّوراة في الإصحاحَيْن الثّالث والرّابع من سفْر التّكوين، لما لذلك من أهمِّيَّة في معرفة هَرَب مُوسى ـ عليه السّلام ـ من مصر، وعودته إليها، وخُرُوج بني إسرائيل معه. وإنَّ أقوال التّوراة في هذَيْن الإصحاحَيْن تُقدِّم أدلَّة جديدة على أنَّ هجرة بني إسرائيل كانت إلى مصرايم في سيناء، وليس إلى مصر وادي النّيل، وخُرُوجهم كان منمصرايم.

الإصحاح الثّالث من سفْر التّكوين: «وأمَّا مُوسى؛ فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرِّيَّة، وجاء إلى جَبَل الله "حوريب". وظهر له ملاك الرَّبِّ بلهيب نار وسط عليقة. فنظر، وإذا العليقة تتوقَّد بالنّار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال مُوسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلمَّا رأى الرَّبُّ أنَّه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة، وقال: مُوسى، مُوسى، فقال: ها أنا ذا، فقال: لا تقتربْ إلى ها هُنا، اخلعْ حذاءك من رجلَيْكَ؛ لأنَّ الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مُقَدَّسة، ثُمَّ قال: أنا إله أبيك، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقُوب، فغطَّى مُوسى وجهه؛ لأنَّه خاف أنْ ينظر إلى الله. فقال الرَّبُّ: إنِّي قد رأيتُ مذلَّة شعبي الذي في مصر، وسمعتُ صراخهم من أجل مُسخِّريهم، إنِّي علمتُ أوجاعهم، فنزلتُ لأُنقذهم من أيدي

المصريِّيـن ، وأُصعدهـم من تلـك الأرض إلـى أرض جيِّدة وواسـعة ، إلـى أرض تفيـض لبنـاً وعسلاً ، إلى مكان الكنعانيِّين والحثِّيِّين والأمُوريِّين والفرزيِّين والحوريِّـن واليبوسـيِّين (وكُـلُّ هؤلاء من الكنعانيِّين ، وكانوا يعيشون في فلسطين) . والآن ؛ هُو ذا صـراخ بنـي إسـرائيل قـد أتى إليَّ ، ورأيتُ ـ أيضاً ـ الضّيقة التي يُضايقهم بها المصريُّـون ، فـالآن ؛ هلـمَّ ؛ فأُرسـلكَ إلـى فرعُون ، وتُخرج شعبي بني إسرائيل من مصر ، فقـال مُوسـى للـه : مَنْ أنـا حتَّـى أذهـب إلـى فرعُون ، وحتَّى أُخرج بني إسرائيل من مصـر ؟ ! فقـال : إنِّي أكـون معـكَ ، وهـذه تكـون لـكَ العلامة أنِّي أرسلتكَ . حينما تُخرج الشّعب من مصر تعبدُون الله علـى هـذا الجَبَـل ، فقـال مُوسى لله : ها أنا آتي إلى بني إسرائيل ، وأقول لهم : إله آبـائكم أرسـلني إليكـم . فـإذا قـالوا لي : ما اسمه ؟ فماذا أقول لهم ؟ فقال الله لمُوسى : أهيَهْ الذي أهيَهْ . وقال : هكذا تقـول لبنـي إسرائيل : أهيَه أرسلني إليكم » (سفْر التّكوين ، الإصحاح الثّالث من الفقرة 1 : 14) .

وفي نهاية هذا الإصحاح من الفقرة 21 : 22 جاء ما يلي : « وأُعطي نعمـة لـهذا الشّـعب في عيُون المصريِّين ، فيكون حينما تمضون أنَّكم لا تمضون فارغين ، بل تطلـب كُـلُّ امـرأة مـن جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضَّـة ، وأمتعـة ذَهَـب ، وثياباً تضعونـها علـى بنيكـم وبنـاتكم ، فتسلبون المصريِّين » .

أمَّا ما جاء في الإصحاح الرّابـع مـن سفْر الخُرُوج ؛ فـهُو : « فأجـاب مُوسـى : ولكـنْ ؛ ها هُم لا يُصدِّقونني ، ولا يسمعون قولي ، بل يقولون : لم يظهر لك الرَّبُّ ، فقـال لـه الـرَّبُّ : ما هذه في يدكَ ؟ فقال : عصا ، فقال : اطرحها إلى الأرض ، فطرحها إلى الأرض ، فصـارت حيَّة ، فـهرب مُوسـى منها ، ثُـمَّ قـال الـرَّبُّ لمُوسـى : مُـدَّ يـدكَ ، وامسـك بذنبـها ، فَمَـدَّ يـده ، وأمسك به ، فصارت عصاً في يده ، لكي يُصدِّقـوا أنَّـه قـد ظـهر لـك الـرَّبُّ ؛ إلـه آبائـهم ، إلـه إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقُوب .

ثُمَّ قال له الرَّبُّ : أيضاً ؛ أَدخلْ يدكَ في عبِّكَ ، فَأَدخلَ يده في عبِّه ، ثُـمَّ أخرجـها ، وإذا يده برصاء مثل الثّلج ، ثُمَّ قال له : رُدَّ يدكَ إلى عبِّكَ ، فَرَدَّ يدهُ إلى عبِّه ، ثُمَّ أخرجها من عبِّه ، فإذا هي عادت مثل جسده ، فيكون إذا لـم يُصدِّقـوكَ ، ولـم يسمعوا الصّـوت ، الآيـة الأولـى

أنَّهم يُصدِّقون صوت الآيـة الأخيرة ، ويكون إذا لـم يُصدِّقوا هـاتَيْن الآيتَيْـن ، ولـم يسـمعوا لقولكَ ، أنَّك تأخذ من ماء النّهر ، وتسكب على اليابسة ، فيصير الماء الـذي تـأخذه مـن النّهر دماً على اليابسة ».

« فقال مُوسى للرَّبِّ : استمعْ أيُّها السَّيِّد ، لستُ أنا صاحب كلام ، مُنذُ أمس ، ولا أوَّل من أمس ، ولا من حين كلَّمتَ عبدكَ ، بل أنا ثقيل الفم واللّسان ، فقال لـه الـرَّبُّ : مَـنْ صَنَـعَ للإنسان فماً؟ أو مَنْ يصنع أخرس ، أو أصمَّ ، أو بصيراً ، أو أعمى؟ أمَا هُو أنا الرَّبُّ؟ فالآن ؛ اذهبْ ، وأنا أكون مع فمكَ ، وأُعلِّمكَ ما تتكلَّم به ، فقال : استمعْ أيُّها السَّـيِّد ، أرسـلْ بيـدي مَنْ تُرسل . فحمي غضب الرَّبِّ على مُوسى ، وقال : أ ليس هارُون اللاَّوي أخاك؟ ، أنا أعلم أنَّـه يتكلَّـم ، وأيضـاً ؛ هُـو خـارج لاستقبالكَ . فحينمـا يـراكَ يفـرح قلبـه ، فتُكلِّمـه ، وتضـع الكلمات في فمه ، وأنا أكون مـع فمـكَ ، ومـع فمـه ، وأُعلِّمكمـا مـاذا تصنعـان ، وهُـو يُكلِّـم الشّعب عنكَ ، وهُو يكون لكَ فماً ، وأنتَ تكون له إلـهاً ، وتـأخذ فـي يـدكَ هـذه العصـا التـي تصنع بها الآيات ».

« فمضى مُوسى ، ورجع إلى يثرون حميه ، وقال له : أنـا ذاهـب ، وأرجـع إلـى إخوتـي الذين في مصر ، لأرى هل هُم ـ بعدُ ـ أحياء؟ فقال يثرون لمُوسى : اذهبْ بسلام ».

« وقال الرَّبُّ لمُوسى في مديان : اذهبْ ، ارجعْ إلى مصر ؛ لأنَّه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسكَ . فأخذ مُوسى امرأته وبنيه ، وأركَبَهُم على الحمير ، ورجع إلـى أرض مصـر ، وأخذ مُوسى عصا الله في يده » (الإصحاح الرّابع من سفْر الخُرُوج من الفقرة **1** حتَّى **20**).

ومن الفقرة **27** ـ **31** تذكر التّوراة في هذا الإصحاح لقاء هارُون ومُوسى : « وقال الـرَّبُّ لهارُون : اذهبْ إلى البرِّيَّة لاستقبال مُوسى ، فَذَهَبَ ، والتقاه فـي جَبَـل اللـه ، وقبَّلـه ، فـأخبر مُوسى هارُون بجميع كلام الرَّبِّ الـذي أرسـلهُ ، وبكُـلِّ الآيـات التـي أوصـاه بهـا ، ثُـمَّ مضـى مُوسى وهارُون ، وجَمَعَا شُيُوخ بني إسرائيل ، فتكلَّم هارُون بجميع الكلام الذي كلَّـم الـرَّبُّ مُوسى به ، وصَنَعَ الآيات أمام عُيُون الشّعب ، فآمن الشّعب ، ولمَّا سمعوا أنَّ الرَّبَّ افتقـد بنـي إسرائيل ، وأنَّه نظر مذلَّتهم ، خرُّوا ساجدين ».

نُلاحظ ممَّا سَبَقَ أنَّ ما جاء في التّوراة لا يختلف عمَّا جاء في القُرآن الكريم إلاَّ فيما يلي :

1 : إنَّ الله كلَّم مُوسى أثناء رعيه غنم حميه يـثرون أو شعيب ، وليس وهُو عـائد إلى مصر بعد أنْ قضى المُدَّة المُتَّفق عليها بينه وبين حميه كما جاء في القُرآن الكريم .

2 : إنَّ حميه يثرون كان يعيش في الجانب الشّرقي من شبه جزيرة سيناء مع بني مديان (المديانيُّون) ، والذين كانوا ينتشرون ، وتمتدُّ مراعيهم على جانبَيْ خليج العقبة (في جزيرة العَرَب وسيناء) .

والقُرآن الكريم لا يتطرَّق إلى تحديد المكان ، هل هُو شرق الخليج؟ أم غربه في سيناء؟ بل يكتفي بالقول : إنَّه توجَّه تلقاء مدين ، والحقيقة أنَّ الأقرب إلى المنطق هُو ما حدَّدَتْهُ التّوراة ؛ أيْ في غرب خليج العقبة ، أو شرق سيناء ؛ لأنَّ هذا الموقع أقرب إلى مصر ، ولا يحتاج فيه مُوسى إلى أنْ يقطع خليج العقبة ، ليصل إلى الجانب الآخر الواقع في الجزيرة العَرَبيَّة .

3 : وفي نهاية الإصحاح الثّالث تقول التّوراة : إنَّ الرَّبَّ طَلَبَ من نساء بني إسرائيل أنْ يسلبنَ المصريَّات حليهنَّ وأمتعتهنَّ (قبل الرّحيل عن مصر) وهذا مُنكر كبير ، فكيف يأمر الله بالسّرقة والسَّلْب ، وهُو - دائماً - يأمر بالعدل والإحسان؟!!

وهذا - في الحقيقة - من جُملة تحريف اليهُود للتّوراة حسب عقائدهم المُتأخِّرة ، بعد أنْ شذّوا عن شريعة مُوسى الحقَّة ، وأدخلوا عقيدة شعب الله المُختار ، وأنَّ "الأغيار" ؛ أيْ غير اليهُود مُسخَّرون لهم كالبهائم ، وأنَّ شريعة مُوسى ووصاياه لا تُطبَّق إلاَّ بين اليهُود أنفسهم ، أمَّا الأغيار ؛ فسرْقَتُهُم ، وغشُّهم ، وقَتْلُهُم ، واستباحة أموالهم ونسائهم ، واستعبادهم حلال ، لا ضير فيه ، ولا إثم .

4 : في نهاية الإصحاح الرّابع تذكر التّوراة أنَّ هارُون خرج بأمر الله لاستقبال مُوسى ؛ حيثُ التقاهُ عند جَبَل الله (جَبَل الطُّور أو جَبَل حوريب) ، وأَطْلَعَهُ مُوسى على المهمَّة التي كلَّفه بها الله ، وإشراكه في تنفيذها . ولا يُوجد في القُرآن شيء من هذا ، وإنَّما الذي يُوحي به القُرآن أنَّ مُوسى التقى أخاه هارُون ، وأطلعه على المطلوب منهما بعد وُصُوله إلى مصر .

5: وفي الإصحاح الرّابع يُخبر اللهُ مُوسى - وهُو لا يزال في مديـان - أنَّ الذين يطلبونه في جريمة القَتْل التي ارتكبها جميعـهم مـاتوا؛ ليُقـوِّي عزيمتـه، وهـذا لـم يتطرَّق إليـه القُرآن الكريم أيضاً.

براهين جديدة على أنَّ مصر هي مصرايم في سيناء:

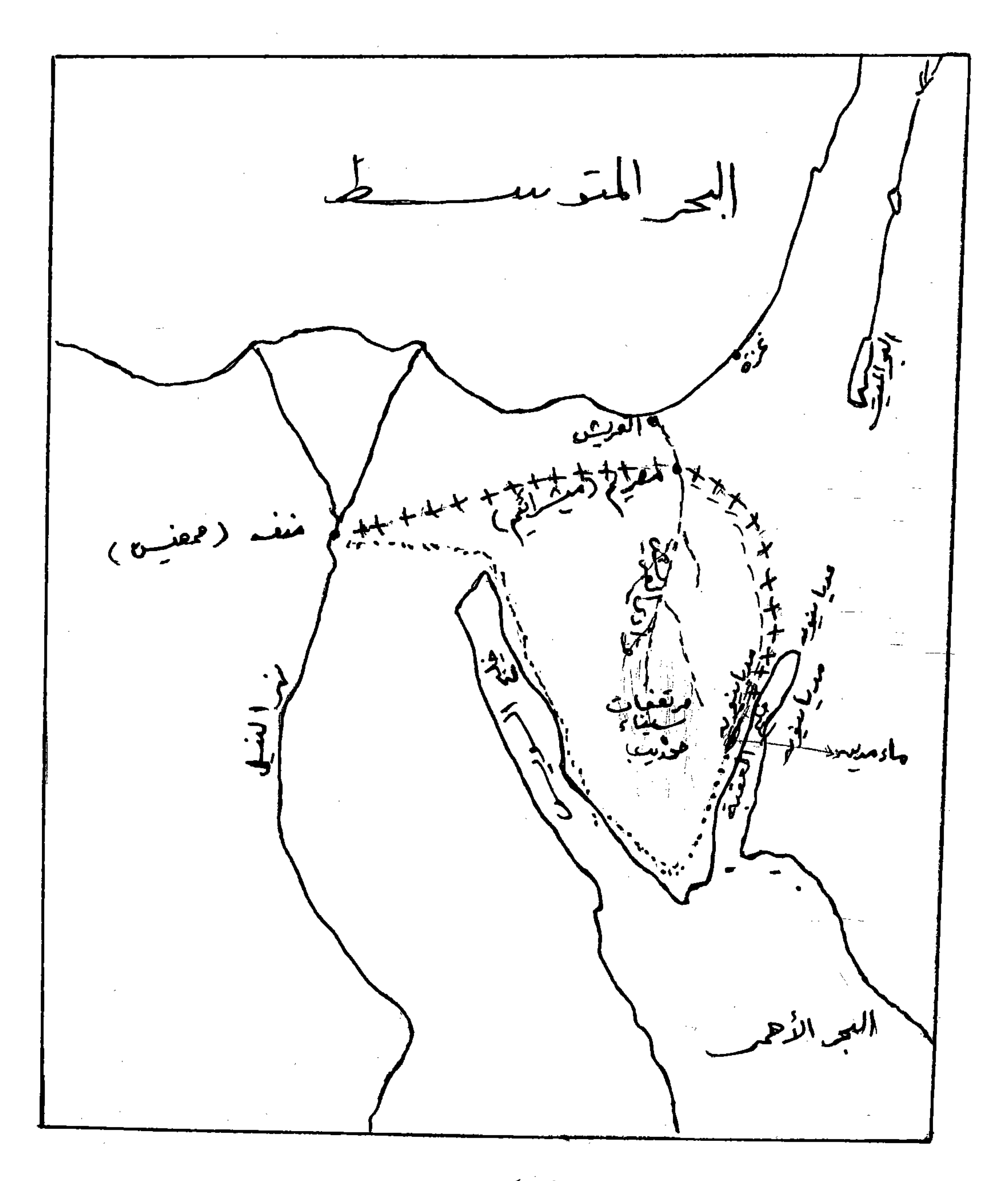
لقد قدَّمنا - فيما سَبَقَ - عدَّة براهين أنَّ مصر المقصودة في التّوراة هي مصرايم على وادي العريش في سيناء، وليس مصر وادي النّيل. والآن؛ نستطيع أنْ نُقدِّم المزيد من هذه البراهين بعد أنْ تحدَّثنا عن خُرُوج مُوسى - عليه السّلام - من المدينة، وعودته إليها، وأنَّ هـذه المدينة هي مصرايم المدينة الواقعة على وادي مصر وادي العريش في سيناء. وهـذه البراهين هي: (انظر المُصوَّر رَقْم 6 ص 95).

1: يقول الله تعالى في سُورة القَصَص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾. ولكنْ؛ أيّ مدينة هذه التي دَخَلَها مُوسى عليه السّلام؟ ولدى مُراجعـة التّفاسير وجدتُ في تفسير الجلالَيْن تقريراً يفيد أنَّها "منف أو ممفيس أو منفيـس" عاصمـة "مصر وادي النّيـل"، في ذلك الزّمان، وتقع إلى الجنوب من القاهرة الآن. والتّفاسير الأُخرى تُقرِّر أنَّها عاصمـة مصر وادي النّيل، دُون تحديد اسمها وموقعها.

وهذا يعني أنَّ مُوسى عليه السلام هرب من "منف" إلى منطقة ماء مدين فـي شرق شبه جزيرة سيناء قاطعاً حوالي 600 كم، لينجو بنفسه من العقاب، بعد أنْ قَتَـلَ مصريّـاً انتصـاراً لعبراني استغاث به.

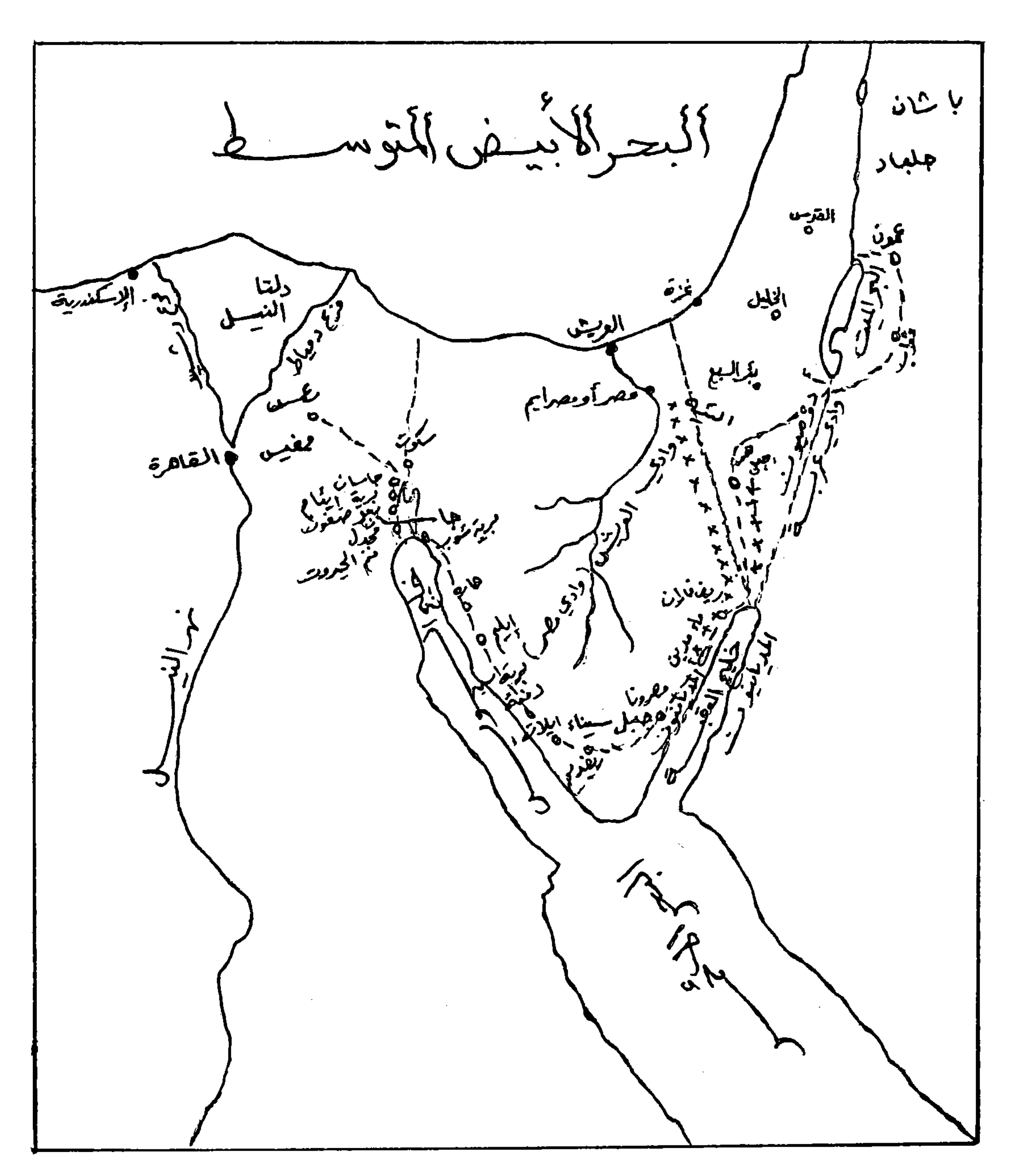
والوُصُول إلى ماء مدين يُحتِّم على مُوسى سُلُوك أحد طريقَيْن:

الأوَّل: أنْ يتَّجه من منف شرقاً سالكاً طريق القوافل التّجاريَّة إلى مصرايـم، ثُـمَّ ينحـدر نحو الجنوب الشّرقي مع الطّريق التّجاري الذّاهب إلـى الجزيـرة العَرَبيَّة، وقبـل خليـج العقبـة يترك الطّريق إلى جزيرة العَـرَب، ويتّجـه جنوبـاً مُحاذيـاً غـرب خليـج العقبـة، أو شـرق شبـه جزيرة سيناء حتَّـى مـاء مديـد (انظر المُصوَّرات المُرفقـة رَقْـم (9 و 10)، وقـد رمزنـا إلـى هـذه الطّريق بعلامة +).



مُصوَّر رَقْم (9)

(ـــ الطّريق إلى ماء مدين من مصرايم على وادي العريش في سيناء)



مُصوَّر رقْم (10)

يُبيّن وادي العريش أو وادي مصر وموقع مصر أو مصرايم عليه والخُروج : الطّريق التي سلكها مُوسى عليه السّلام وقومه إلى أرض كنعان (على أساس مصر وادي النّيل) حسب وصف التّوراة ، ورمزنا لها بالخطّ المُتقطّع ـ ـ ـ

المصدر (العرب واليهُود في التّاريخ ، د. أحمد سوسة ، ص 612)

الثّاني: فهُو يخرج من منف، ويتّجه شرقاً إلى سيناء، ثُمَّ ينحدر جنوباً على طُول الشّاطئ الشّرقي لخليج السُّويس حتَّى طرف سيناء الجنوبي، ثُمَّ يتَّجه شمالاً إلى مدين (انظر المُصورَّ 9 ص 144 نفسه، وقد رمزنا للطّريق الثّاني بالنُّقَط...).

وكلا الطّريقَيْن يزيدان عن 600 كم، والتي يتحتَّم على مُوسى - عليه السّلام - قطعها.

ولكنْ؛ لماذا كُلُّ هذا الابتعاد عن مكان الجريمة كما يقولون؟! كان يكفي مُوسى - عليه السّلام - أنْ يخرج من منف إلى سيناء، ويعيش بين عشائرها البدويَّة؛ لينجو بنفسه، ويطمئنَّ على سلامته، والمسافة بين منف وغرب سيناء لا تزيد على 150 كم.

إذنْ؛ فَقَطْعُ هذه المسافة الطّويلة (600 كم) ليكون في أمان غير منطقي، وغير معقول.

أمَّا إذا كان هَرَبُهُ - عليه السّلام - من مدينة مصرايم على وادي العريش أو وادي مصر (انظر المُصورَّ رَقْم 6 ص 95) في شمال سيناء إلى ماء مدين في طرف سيناء الشّرقي؛ فإنَّ ذلك لا يحتاج منه إلاَّ إلى قَطْع حوالي 150 كم، وهذا هُو المنطقي والمعقول (انظر المُصورَّ 9 ص 144، 10 ص 145 والطّريق الثّالث من مصرايم إلى مدين ورمزه ------).

وهذا يُؤكِّد أنَّ مصرايم هي المدينة التي خرج منها مُوسى عليه السّلام، وهي المقصودة في التّوراة، وهي التي كان يعيش فيها بنو إسرائيل.

2: تقول التّوراة: إنَّ مُوسى عندما ودَّع حميه يثرون مُسافراً إلى مصر، أَرْكَبَ أهله على الحمير، وساق غنمه مُتوجِّهاً إلى مصر. والآن؛ كيف يتسنَّى لمُوسى - عليه السّلام - هُو وأهله أنْ يقطع مسافة 600 كم على الحمير من ماء مدين إلى منف على نهر النّيل؟! ولكنَّ الأقرب إلى الصّواب والمعقول هُو أنْ تكون مصر المقصودة هي مصرايم على وادي العريش في سيناء نفسها، وبذلك يستطيع أنْ يصل إليها على الحمير.

3: وتقول التّوراة أيضاً: إنَّ هارُون خرج من مصر لمُلاقاة أخيه مُوسى، والتقى الأخوان في جَبَل الله (جَبَل حريب أو جَبَل الطُّور). والآن؛ كيف يتسنَّى لهارُون أنْ يخرج من منف، ليلتقي بأخيه عند جَبَل الله، ويقطع هذه المسافة الطّويلة الشّاقَّة؟! وهُنا - أيضاً - الأقرب للواقع أنْ يخرج من مصاريم، وليس من مصر وادي النّيل لمُلاقاة أخيه.

4 : وجاء في القُرآن الكريم : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ اليهُود كانوا يعيشون في مدينة واحدة ، وحديث القُرآن والتّوراة عن بني إسرائيل في مصر يُوحي بأنَّ وُجُودهم كان ينحصر في مدينة واحدة . والأقرب للمنطق أنْ تكون هذه المدينة هي مصرايم في سيناء ؛ لأنَّها كانت المدينة الوحيدة المُزدهرة العامرة بسبب تجارتها وزراعتها على وادي العريش ، أمَّا باقي سيناء ؛ فكانت مرتعاً للعشائر البدويَّة ، وكانت مراكز الاستقرار البشري فيها قليلة وصغيرة .

أمَّا لو كانت المدينة في مصر وادي النّيل ؛ فكان لابُدَّ من أنْ يعيش بنو إسرائيل في مُدُن عديدة ، ولا يتمركزون في العاصمة فقط .

5 : وأخيراً ؛ مرَّ معنا أنَّ أُمَّ مُوسى - خوفاً من افتضاح أمرها - وَضَعَتْ مُوسى في تابوت ، وأَلْقَتْهُ في اليمِّ كما جاء في القُرآن (سُورة طه 37) ، ووَضَعَتْهُ في سفط ، ووَضَعَتْ السّفط بين الحُلفاء على حافَّة النّهر ، ووقفتْ أُخته ترقبه من بعيد ؛ لتعرف مصيره . (سفْر الخُرُوج ، الإصحاح الثّاني 3 - 4) .

والآن ؛ أيُّ نهر ، أو يَمٍّ الذي أُلقي فيه مُوسى ، أو وُضع على حافَّته ؟ أ هو نهر النّيل في مصر ، أم نهر العريش في سيناء الذي كان نهراً دائم الجريان قبل أربعة آلاف سنة ؟ !

الأقرب إلى المنطق في رأيي أنْ يكون نهر العريش ؛ لأنَّ نهر النّيل نهر عظيم ، إذا أُلقي فيه تابوت أو سفط جَرَفَهُ بعيداً ، أمَّا نهر العريش ؛ فهُو نهر صغير ، فيُمكن أنْ يعلق على جانبه بين الحُلفاء والقصب النّامية على ضفَّتَيْه .

وهكذا نستطيع القول بعد هذه البراهين الدّامغة السّابقة والحاليَّة أنَّ المقصود بمصر في التّوراة - وكذلك في القُرآن الكريم - هُو مدينة مصرايم على وادي العريش أو وادي مصر ، وليس مصر وادي النّيل .

أمَّا المقصود بـ ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وبالتّحديد كلمة ﴿غَفْلَةٍ﴾ ؛ فالأقوال بتفسير كلمة "غفلة" كثيرة ، ووجدتُ أنَّ أقربها للمعقول هُو وقت الظّهيرة عندما يكون النّاس في بيُوتهم للقيلولة ، أو بعد العشاء عندما يأوي النّاس إلى فراشهم للنّوم . وفي كلا الحالتَيْن تكون الشّوارع خالية يُمكن للخائف السّير فيها بشيء من الطّمأنينة على نفسه وعدم اكتشاف أمره .

عودة مُوسى ومُواجهة فرعُون مصر مع أخيه:

عاد مُوسى ـ عليه السّلام ـ إلى مصر، وأخبر أخاه هارُون ـ عليه السّلام ـ بأنّه شريكه في الرّسالة، ومعين له على تبليغها. امتثل هارُون أمر الله، وقام الاثنان بإبلاغ الفرعُون رسالة ربّهما، وكان الموقف رهيباً، وأراه مُوسى الآية الكُبرى، فَكَذَّبَ، وعصى، ودار جدل ومُحاجَّة بين مُوسى وفرعُون كما وَرَدَ في سُورة الشُّعراء (الآيات من 8 ـ 28)، وكذلك في سُورة طه (الآيات من 48 ـ 55).

واتهَّم فرعُونُ مُوسى بالسِّحْر، وجَمَعَ له السَّحَرَةَ كما هُو وارد في سُورة طه (الآيات من 57 ـ 76) وسُورة يُونُس (الآيات من 75 ـ 87)، وسُورة الشُّعراء (الآيات من 29 ـ 52)[1].

فشل السَّحَرَةُ، وخرُّوا ساجدين، وقالوا: آمنّا بربِّ العالمين؛ ربِّ مُوسى وهارُون كما يقول تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ (الشُّعراء 45ـ 48).

وبعد فشل السَّحَرَة أخذ فرعُون وجماعته يأتمرون بمُوسى للخلاص منه. وأصرَّ فرعُون على رَفْض السّماح لبني إسرائيل بالخُرُوج من مصر، فابتلاه اللهُ وقومه بأنواع العذاب الشّديد، وكان فرعُون يطلب من مُوسى أنْ يدعو ربَّه؛ ليكشف عنهم العذاب، وهُو يُرسل معه بني إسرائيل، ولكنَّ فرعُون كان ينكث بوعده، ولا يسمح لبني إسرائيل بمُغادرة مصر كما جاء في سُورة الأعراف: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ الأعراف 132 ـ 135.

وهكذا أُوتي مُوسى عليه السلام تسع آيات هي:

ـ العصا، وانقلابها إلى أفعى.

---

(1) لم أذكرْ الآيات لسُهُولة مُراجعتها في القُرآن الكريم، والاطّلاع عليها.

ـ اليد تخرج بيضاء من غير سُوء، بعد وَضْعها في جيبه.

ـ الجدب (السّنون).

ـ النَّقْص في الثّمرات.

ـ الطُّوفان (طُوفان النّيل، أو وادي العريش، أو طوفان أمطار).

ـ القمل (صغار الذّرّ، أو قمل النّاس، أو شيء صغير خبيث الرّائحة يُؤذي النّاس).

ـ الجراد الذي أكل الزّرع والثّمار.

ـ الضّفادع التي كثرتْ، ونغَّصت على النّاس عيشهم بوُجُودها في كُلّ مكان في الفراش وفي الطّعام.

ـ الدّم: يُقال استحال الماء إلى دم لأهل مصر، وقيل: سلّط الله عليهم الرّعاف.

ويقول الله بذلك: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الأسرار 101.

أمَّا التّوراة؛ فتُورد اثنتيْ عشرة آية في سفْر الخُرُوج من الإصحاح السّابع إلى الإصحاح الحادي عشر، والقول الحقُّ هُو ما جاء في القُرآن الكريم.

وأخيراً؛ انطلق مُوسى عليه السلام بقومه بني إسرائيل من أرض مصر قاصداً أرض كنعان.

والتّساؤل الآن: هل كان الانطلاق بإذن الفرعُون، أم هرباً دُون إذنه؟

القُرآن يُشير إلى أنَّ الانطلاق كان دُون إذن، ومُوافقة الفرعُون كما جاء في سُورة الشُّعراء آية 52: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

وهكذا؛ فالانطلاق كان بوحي من الله إلى مُوسى، ودُون رضا وإذن فرعُون. لذلك استنفر فرعُونُ النّاسَ لقتالهم، ولحق بهم ليُعيدهم إلى مصر، أو يُبيدهم، ويتخلّص منهم ومن مُوسى عليه السّلام، وقد جاء ذلك مُفصّلاً في سُورة الشُّعراء الآيات من 52 ـ 68.

أمَّا التّوراة؛ فتقول: إنَّ الانطلاق كان بمُوافقة الفرعُون (سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثّاني عشر، فقرة 31 ـ 33) ليُخلِّص من ضُرُوب العذاب والمصائب التي حاقت بقومه، ولكنَّه ـ عندما علم بخُرُوج بني إسرائيل ـ نقض وعده، فخرج وراءهم ليُعيدهم (سفْر الخُرُوج، الإصحاح 14 فقرات 5 ـ 9) ويظهر أنَّ الفرعُون غيَّر رأيه عندما علم أنَّ نساء بني إسرائيل أخذوا معهم ذَهَبَ وفضَّة المصريَّات كما جاء في التّوراة (سفْر الخُرُوج، الإصحاح 11 فقرات 2، 3).

وعلى كُلِّ حال؛ نجا بنو إسرائيل من فرعُون وعمله، وغرق هُو وجُنده، وقد ذكرتْ التّوراة ذلك (سفْر الخُرُوج، الإصحاح 14)، ولا يختلف عمَّا جاء في القُرآن الكريم (الشُّعراء الآيات من 52 ـ 68).

مُوسى ـ عليه السّلام ـ والخُرُوج:

اختلفت آراء المُؤرِّخين في تاريخ خُرُوج بني إسرائيل من مصر، كما اختلفت ـ من قبلُ ـ في تاريخ هجرتهم إلى مصر.

فالدُّكتُور أحمد سُوسة يُقرِّر بأنَّ خُرُوجهم كان سنة 1290 ق.م، زمن رعمسيس الثّاني الذي حكم من 1300 ـ 1233، ويُقدِّر عددهم بـ 6 ـ 7 آلاف فقط. وإذا كان دُخُولهم إلى مصر 1600 ق.م، فيكون مكُوثهم فيها حوالي 300 سنة[1].

أمَّا الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار؛ فيُقرِّر أنَّ خُرُوجهم كان 1290 ق.م، في زمن رعمسيس الثّاني، ولكنْ؛ كان ابنه "منفتاح أو مرنفتاح" الذي أنابه على الحُكْم بعد أنْ شاخ رعمسيس الثّاني، وأنَّ دُخُولهم كان عام 1570 ق.م، وبذلك يكون مكُوث بني إسرائيل في مصر حوالي 280 سنة. أمَّا عددهم عند الخُرُوج؛ فلا يتطرَّق إليه الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار.

ويُضيف الأُستاذ النَّجَّار أنَّ فرعُون مصر الذي اضطَهَدَ بني إسرائيل هُو رعمسيس الثّاني، الذي وُلد مُوسى عليه السلام في زمنه، وكان يستخدمهم في بناء مدينتَيْن هُما: مدينة "بر رعمسيس"؛ أيْ بيت أو قصر رعمسيس، وقد اكتشفها عالم الآثار المصري "محمود حمزة"

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 602.

سنة 1928م ، ومدينة "فيثوم" أو "بريثوم" ؛ أيْ بيت الإله "ثوم" التي اكتشفها العالم الفرنسي "نافيل" سنة 1883م[1] .

كُلُّ هذا على اعتبار أنَّ مصر المقصودة هي مصر وادي النّيل ، وليست مصرايم على نهر العريش في شبه جزيرة سيناء .

أمَّا الدُكتُور أحمد داود ؛ فيُقرِّر أنَّ هجرة بني إسرائيل كانت إلى "المصرمة" إلى تهامة عسير في الجزيرة العَرَبيَّة ، وليس إلى مصر وادي النّيل ، ويُقدِّر أنَّها كانت حوالي 1400 ق . م ، وأنَّ خُرُوجهم من المصرمة إلى جبال عسير كان حوالي 1300 ق . م ، وأنَّ عددهم عند وفاة يعقُوب كان 70 نفساً ، وعند خُرُوجهم من المصرمة كان من 700 ـ 1400 نفس فقط .

وسبب هذا التّقدير المُنخفض من الدُكتُور داود هُو المُدَّة القصيرة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر أو المصرمة ، وهي 100 عام فقط ، وفي هذه المُدَّة لا يُمكن أنْ تكون الزّيادة أكثر من عشر إلى عشرين ضعفاً .

أمَّا التّوراة[2] ؛ فلا تتطرَّق إلى زمن هجرتهم إلى مصر ، ولا إلى وقت خُرُوجهم منها ، ولكنَّها تقول : إنَّهم مكثوا فيها 430 سنة ، وكان عددهم عند وفاة يعقُوب سبعين نفساً ، وعند خُرُوجهم 600 ألف رجل عدا النّساء والأولاد ؛ أيْ أنَّهم كانوا عند الخُرُوج حوالي 5 ، 2 مليون نسمة رجالاً ونساء وأطفالاً ، وهذا رَقْم مُبالغ فيه جداً ، ومُستحيل أنْ يخرج مثل هذا العدد الهائل سراً ، ولا سيّما وأنَّ عدد السُكَّان في ذلك الزّمان كان قليلاً ، وقد لا يزيد سُكَّان مصر والشّام على ثلاثة ملايين في ذلك الزّمان المُغرق في القدم ، لا سيّما وأنَّ القُرآن الكريم ـ وهُو أصدق المراجع ـ يصفهم عند الخُرُوج على لسان فرعُون ؛ حيثُ يقول : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ سُورة الشُّعراء . فكيف كانوا "شرذمة قليلون" وعددهم عند الخُرُوج 600 ألف رجل ، عدا النّساء والأولاد ؟ ! !

والقُرآن الكريم لا يتطرَّق إلى عدد بني إسرائيل عند هجرتهم إلى مصر ، ولا عند خُرُوجهم منها . فالله ـ جلَّ شأنه ـ يقصد من قَصَص الأنبياء في القُرآن الكريم الموعظة

(1) الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار ، "قَصَص الأنبياء" ، ص 202 .

(2) راجعْ التّوراة ، سفْر الخُرُوج ، الإصحاح الأوَّل ، فقرة 5 ، والإصحاح 12 ، فقرة 37 .

والعبرة والتّذكير برعاية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده الصّالحين، والعقاب الشّديد لمَنْ كَفَرَ بآيات الله، وأنكر رسالات أنبيائه عليهم السّلام.

وفيما يلي؛ سأتحدَّث عن الطّريق التي سلكها بنو إسرائيل بقيادة مُوسى عليه السّلام من خُرُوجهم من مصر إلى أنْ تاهوا في شمال شرق شبه جزيرة سيناء (المعروفة الآن بهضبة التّيه) على أساس أنَّ خُرُوجهم كان من مصر وادي النّيل، ثُمَّ أُقدِّم النَّقْدَ لهذا القول، وأُبرهن على أنَّ الخُرُوج كان من مصرايم على وادي العريش في سيناء.

حسب وصف التّوراة في سفْر الخُرُوج وسفْر العدد، فإنَّ الطّريق التي سلكها المُوسويُّون ـ في خُرُوجهم من مصر ـ هي طريق عُمَّال المناجم القديم إلى سيناء، فارتحلوا من بلدة "رعمسيس" في أرض جاسان (شرق الدّلتا)، وتوجَّهوا إلى "سكوت"، ومنها نزلوا في "إيتام" في طرف البرِّيَّة، ثُمَّ نزلوا في "فم الحيروت"، (انظر المُصوَّر رَقْم **10** ص **154**) بعد أنْ مرّوا في "بعل صنون" و"مجدل" أمام البر.

وقد أدركهم المصريُّون وهُم نازلون عند البر في "فم الحيروت"، خاف بنو إسرائيل، وقالوا لمُوسى عليه السّلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ سُورة الشُّعراء **61ـ 64**.

وكان العُبُور شمال خليج السُّويس؛ حيثُ كان الخليج مُتَّصلاً بالبُحيرة المرَّة التي انفصلت عنه؛ بسبب سفي الرّمال، وتمرّ فيها قناة السُّويس التي تصل البحرَيْن الأحمر والمُتوسِّط[1]. (انظر المُصوَّر رَقْم **10** ص **145**).

والآن؛ مَنْ هُو الفرعُون الذي لحق بمُوسى ـ عليه السّلام ـ وجماعته، والذي غرق بعد أنْ أطبق البحر عليه أثناء عُبُوره ليلحق بمُوسى وجماعته كما يقول تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

(1) الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار، قَصَص الأنبياء، ص 203.

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ ؟ سُورة يُونُس 90 ـ 92 .

اختلف المُؤرِّخون في تعيين مَنْ هُو هذا الفرعُون، مُحاولين التّوفيق بين ما جاء في التّوراة وما جاء في المُكتشفات التّاريخيَّة والآثاريَّة في مصر حديثاً، وزاد من هذا الاختلاف عدم تحديد زمن خُرُوج بني إسرائيل من مصر بشكل دقيق، فبعضهم يقول: إنَّ فرعُون مُوسى هُو رعمسيس الأوَّل 1319 ـ 1317، أو ابنه "سيتي الأوَّل" 1317 ـ 1300 .

وآخرون يقولون: إنَّه "رعمسيس الثّاني" 1300 ـ 1233، أو ابنه منفتاح[1] .

خرج مُوسى بعد عُبُوره خليج السُّويس إلى "بريَّة شور" (على الضِّفَّة الشّرقيَّة لخليج السُّويس، انظر المُصوَّر رَقْم9 ص 144)، ثُمَّ سار جنوباً إلى "حاره"، ومنها إلى "إيليم"، وفي إيليم عُيُون ماء، وهذه العُيُون ـ كما يُقال ـ هي التي ذكرها القُرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ سُورة الأعراف الآية 160 .

ثُمَّ رحلوا إلى "بريَّة سين"، ومنها إلى "دفقة"، وتقع في مدخل جَبَل سيناء في وادي "فيران" التي كانت فيها مناجم النُّحاس، وكان يستثمرها المصريُّون مُنذُ أقدم الأزمنة، ثُمَّ ارتحلوا إلى "إيلوش"، ومنها إلى "ريفيديم"؛ حيثُ دارت أوَّل معركة بين جماعة مُوسى ـ عليه السّلام ـ وبين العَرَب العماليق سُكَّان البلاد .

ومن "ريفيديم" ارتحلوا إلى بريَّة سيناء؛ حيثُ نزل المُوسويُّون مُقابل الجَبَل (جَبَل سيناء أو جَبَل مُوسى الذي نزلت فيه شريعة مُوسى عليه السّلام)، وهُنا التقى مُوسى زوجته "صفورة" وحميه "يثرون" وابنه "جرشوم" الذين جاؤوا من مديان للالتحاق به .

بقي مُوسى وبنو إسرائيل في سيناء حوالي السّنة، ثُمَّ ارتحلوا منها إلى "قادش بربيغ" ـ بأمر الرَّبِّ ـ الواقعة شمال شرق سينار مارين ببلدة "حصيروت" و"فاران" و"عصيون جابر"

---

(1) د. مُحَمَّد أبو المحاسن عُصفُور، "تاريخ الشّرق الأدنى القديم"، ص 184 .

الواقعة على رأس خليج العقبة، ومنها إلى "بريَّة سين أو صين"، وهي "قادش برييغ" أيضاً. ثُمَّ نزلوا جَبَل "هُود" في طرف أرض آدوم الجنوبي (حيثُ تعيش عشائر الآدوميِّين)[1].

هذه الطّريق الطّويلة من رعمسيس أو جاسان، إلى جَبَل هُود شمال خلييج العقبة، وما ذكرنا من مواقع وقُرى ومُدُن (وأكثرها لا وُجُود لها الآن) هي الطّريق التّوراتيَّة كما وَرَدَتْ في سفْر الخُرُوج من الإصحاح 13 إلى الإصحاح 19، ولم تردْ في مرجع آخر غير التّوراة.

في كُلِّ ما سَبَقَ تحدَّثنا عن الخُرُوج على أساس أنَّه كان من مصر وادي النّيل، ولكنَّنا بيَّنَّا ـ فيما سَبَقَ ـ أنَّ مصر المقصودة في التّوراة والقُرآن الكريم هي مصر وادي العريش (أو مصرايم أو مشرائيم عليه) الذي يُسمَّى ـ أيضاً ـ وادي مصر في شبه جزيرة سيناء. وقد قدَّمنا البراهين الكثيرة على ذلك، وقُلنا: إنَّ لقب فرعُون هُو لَقَبٌ خاصٌّ بحُكَّام مصرايم، وليس بمُلُوك مصر وادي النّيل، وإنَّ حُكَّام وادي النّيل كانوا مُلُوكاً، وليسوا فراعنة، وإنَّ فرعُون مصرايم كان ـ دائماً ـ من العَرَب العماليق، وإنَّه كان تابعاً ـ في مُعظم الأحيان ـ إلى مُلُوك مصر وادي النّيل، وإنَّ معنى "فرعُون" وكيل أو نائب لمُلُوك مصر وادي النّيل، وإنَّ مصرايم كانت مُزدهرة بسبب وُقُوعها على الطّريق التّجاري الهامِّ بين مصر وادي النّيل وبلاد الشّام وشبه الجزيرة العَرَبيَّة، فهي بوَّابة مصر الشّرقيَّة، وزاد في ازدهارها وُقُوعها على وادي العريش الذي كان نهراً دائم الجريان يروي المناطق التي يمرُّ بها، ممَّا جَعَلَ منطقة مصرايم ذات زُرُوع ومقام كريم.

وعلى هذا الأساس؛ فإنَّ الخُرُوج لابُدَّ وأنْ يكون من مصرايم التي كان فرعُونها في زمن مُوسى ـ عليه السّلام ـ هُو ـ كما مرَّ معنا: ـ قابوس بن مُصعب بن مُعاوية بن نمير بن السّلواس ابن فاران بن عَمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نُوح عليه السلام، وهُو الذي جاءه مُوسى ـ عليه السّلام ـ بالبيِّنات؛ ليُوافق على إرسال بني إسرائيل معه، وهُو الذي لحق بمُوسى عليه السلام ليردَّ بني إسرائيل إلى مصرايم، وهُو الذي غرق، وأطبق عليه البحر، وهُو خليج العقبة، وليس خليج السُّويس (لأنَّ الخُرُوج من مصرايم وادي العريش).

---

(1) د. أحمد سُوسة، "تاريخ العَرَب واليهُود"، من 610 ـ 613.

والآن؛ كيف كان الخُرُوج من مصرايم؟ خرج مُوسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصرايم مُتَّجهاً نحو الشّرق (سالكاً طريق القوافل القادمة من الجزيرة العَرَبيَّة)، وبعد وُصُوله إلى رأس خليج العقبة، انحرف جنوباً قاصداً بلاد حميه يثرون في الجانب الغربيّ من خليج العقبة. فلمَّا وَجَدَ عند حميه وعشيرته من المديانيِّيْن الملجأ والأمان عندما هرب من مصرايم لينجو بنفسه من العقاب على جريمة القتل التي ارتكبها، فهُنا ـ أيضاً ـ يُمكن أنْ يجد الملجأ الآمن لقومه وجماعته (المُصوَّر رَقْم 9 ص 144).

ولَمَّا لحق به فرعُون مصرايم أدركه وهُو في غرب خليج العقبة، وهكذا؛ فالبحر الذي ضربه مُوسى ـ عليه السّلام ـ بعصاه هُو خليج العقبة، وليس خليج السُّويس، وَعَبَرَهُ مُوسى مع بني إسرائيل إلى الشّاطئ الشّرقي لخليج العقبة، ولَمَّا عَبَرَ فرعُون البحر ليلحق به أطبق عليه وعلى جُنده، وغرقوا جميعاً، وطافت جُثَّة فرعُون؛ ليكون عِبْرة لِمَنْ يعتبر كما يقول تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ سُورة يُونُس الآية 92.

ثُمَّ توجَّه مُوسى ـ عليه السّلام ـ بجماعته شمالاً حتَّى رأس خليج العقبة، وبعد ذلك توجَّه إلى جَبَل هُود. (انظر المُصوَّر رَقْم 10 ص 145).

بعد هذا الحديث عن الخُرُوج على أساس أنَّه من مصرايم، وليس من مصر وادي النّيل، نرى أنَّ الأقرب للمنطق هُو الخُرُوج من مصرايم، لا سيّما وأنَّ طريق الخُرُوج من مصاريم أقصر مسافة، وأقلّ مشقَّة، وأيسر تحقيقاً للهدف المنشود؛ وهُو الوُصُول إلى أرض كنعان.

وعلى كُلِّ حال؛ كلا الطّريقَيْن انتهى بجَبَل هُود في أقصى جنوب بلاد كنعان، ليستطيع مُوسى ـ عليه السّلام ـ من هُناك استطلاع أحوال بلاد كنعان (فلسطين الآن) التي هي الهدف والغاية من الخُرُوج، ثُمَّ ينتظر الظُّرُوف المُناسبة لمُهاجمة أرض كنعان من المكان والجهة التي يرى أنَّها الأصلح للهُجُوم، وتحقيق الهدف بعد الاستطلاع والتّقصِّي المُناسب لأحوالها الجَغرافيَّة والسُّكَّانيَّة. (انظر المُصوَّران رَقْم 9 و 10 ص 144 و 145).

ولكنَّ بني إسرائيل ـ بعد خلاصهم من الذُّلِّ والهوان والاضطهاد الذي كانوا فيه ـ مرّوا بفترة حافلة بالأحداث قبل أنْ يتيهوا في هضبة التّيه (في الشّمال الشّرقي من سيناء). ففي هذه الفترة قبل التّيه أغدق الله تعالى عليهم نعمَهُ الكثيرة، وأكرمهم غاية الإكرام، فبالإضافة إلى نجاتهم وإغراق أعدائهم من فرعُون وجُنُوده، فإنَّ الله سقاهم لمَّا عطشوا، وظلّل عليه الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسّلوى كما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف 160.

وبعد نجاتهم من فرعُون مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطَلَبوا من مُوسى أنْ يجعل لهم إلهاً كما لأُولئك القوم آلهة، فأجابهم الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف من 138 ـ 140.

ولكنَّ بني إسرائيل قابلوا كُلَّ هذا الإكرام بالعَنَت الشّديد، والتّبرُّم، والتّذمُّر، وهُو الشّكوى كما هُو وارد في الآيات الكريمة التّالية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ البقرة 61.

وأهمُّ أحداث هذه الفترة هُو ذهاب مُوسى ـ عليه السّلام ـ لميقات ربِّه؛ لتلقِّي شريعته عليه السّلام، وكان الميقات 30 ليلة، ثُمَّ تمَّت أربعين ليلة، وفي غياب مُوسى عليه السلام وتأخُّره عشرة أيَّام عَبَدَ بنو إسرائيل العجلَ الذي صَنَعَهُ لهم السّامريّ، وفيما يلي خبر كُلِّ ذلك كما وَرَدَ في القُرآن الكريم: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا
بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ (1) سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ
ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ
قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ
مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى
ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى
فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا
فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ
وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ سُورة الأعراف من 142 ـ 154.

وكان السّامريّ هُو الذي صَنَعَ لبني إسرائيل العجلَ من ذَهَبهم كما ورَدَ في القُرآن الكريم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ سُورة طه من 95 ـ 98.

---

(1) "يأخذوا بأحسنها": أيْ يسيروا على أحسن وأفضل ما رُسم فيها بأنْ يفعلوا ما هُو أدعى إلى القُرب من الله تعالى، فإذا نصَّ فيها على خصلتَيْن تُقرِّبان إلى الله تعالى، فعليهم أنْ يأخذوا بالأفضل، والتي تستدعي ثواباً أعظم.

أمَّا "السّامري"؛ فَمَنْ هُو؟ وكيف صَنَعَ العجلَ؟ وكيف أصبح له خوار؟ فقد ذكر المُفسِّرون أقوالاً كثيرة لا يهمُّ ذكْرها، ونكتفي بما وَرَدَ في القُرآن الكريم عنه.

أمَّا بالنّسبة لبني إسرائيل الذين عبدوا العجلَ؛ فطَلَبَ منهم الله أنْ يتوبوا إليه، ويقتلوا أنفسهم كما وَرَدَ في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟[1] أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة 54.

والتّوراة لا تذكر السّامريّ، ولكنَّها تقول: إنَّ هارُون نفسه ـ عليه السّلام ـ هُو الذي صَنَعَ في إسرائيل العجلَ، بناء على طلبهم؛ عندما استبطؤوا عودة مُوسى ـ عليه السّلام ـ من ميقات ربِّه، فقد جاء في سفْر الخُرُوج، الإصحاح 32، الفقرات من 1 ـ 6 ما يلي:

« ولمَّا رأى الشّعب "؛ أيْ بنو إسرائيل" أنَّ مُوسى أبطأ في النُّزُول من الجَبَل، اجتمع الشّعب على هارُون، وقالوا له: قُمْ، اصنعْ لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأنَّ هذا الرّجل مُوسى الذي أصْعَدَنَا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه: فقال لهم هارُون: انزعوا أقراط الذّهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وآتوني بها، فنزع كُلُّ الشّعب أقراط الذّهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى هارُون. فأخذ ذلك من أيديهم، وصوَّره بالإزميل، وصَنَعَهُ عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصْعَدَتْك من مصر. فلمَّا نظر هارُون، فبنى مذبحاً أمامه، ونادى هارُون، وقال: غداً عيد الرَّبِّ، فبكّروا في الغد، واصعدوا محرقات، وقدّموا ذبائح سلامة (سلامة من فرعُون)، وجلس الشّعب للأكل والشُّرب، ثُمَّ قاموا للَّعب ».

وكذلك الفقرات من 31 ـ 34 من الإصحاح نفسه، فقد جاء بها ما يلي: « وقال مُوسى لهارُون: ماذا صَنَعَ بكَ هذا الشّعب حتَّى جلبت خطيَّة عظيمة؟ فقال هارُون: لا يحم غضب سيِّدي، أنت تعرف الشّعب، إنَّه في شرٍّ، فقال لي: اصنعْ لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأنَّ هذا مُوسى الرّجل الذي أصْعَدَنَا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقُلتُ لهم: مَنْ له ذَهَبٌ فلينزعه، يُعطيني، فطرحتُهُ في النّار، فخرج هذا العجل ».

---

(1) "اقتلوا أنفسكم" كما جاء في تفسير القُرآن العظيم لابن كثير، أنَّ بني إسرائيل أخذ بعضهم يقتل بعض، حتَّى فني منهم خلق كثير تنفيذاً لأمر الله "اقتلوا أنفسكم"، وتكفيراً عن ذنبهم بعبادة العجل، إلى أنْ تاب الله عليهم، "فتابَ اللهُ عليكم، إنَّه هُو التَّوَّاب الرّحيم" (كما جاء في الآية الكريمة).

وهذا - بلا شكٍّ - بُهتان عظيم، وافتراء غريب على هارُون عليه السّلام، فلا يُعقل أنْ يصدر هذا عن نبيٍّ من الأنبياء، ثُمَّ إنَّ اللهَ لم يُعاقب هارُون، بل عاقب بني إسرائيل، كما جاء في التّوراة نفسها، وفي الفقرات من 34 - 38 من الإصحاح 32 من سفْر الخُرُوج.

أمَّا ما جاء في القُرآن الكريم من أنَّ مُوسى أخذ برأس أخيه هارُون؛ فكان غضباً من مُوسى على أخيه؛ لأنَّه ترك بني إسرائيل يعبدُون العجل، فأجابه هارُون: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٥٠ قَالَ (أيْ مُوسى) رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ سُورة الأعراف.

أمَّا عقاب بني إسرائيل على عبادتهم العجل؛ فقد وَرَدَ في التّوراة ما يُشبه ما وَرَدَ في القُرآن الكريم من أنَّ اللهَ طَلَبَ منهم أنْ يقتلوا أنفسهم «واقتلوا كُلّ واحد أخاه، وكُلّ واحد صاحبه، وكُلّ واحد قريبه». (راجع سفْر التّكوين، الإصحاح 32، الفقرات من 37 - 39).

هذا؛ وقد عاد مُوسى عليه السلام من ميقات ربِّه (عند جَبَل الطُّور)، وقد نزلت عليه شريعة جديدة، هي الشّريعة المُوسويَّة بأحكامها وأوامرها ونواهيها، وهكذا أصبح لبني إسرائيل شريعة جديدة نَسَخَتْ شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام السّابقة، والتي يُمكن أنْ نُسمِّيها بالشّريعة "الحنيفيَّة"، وشريعة مُوسى الجديدة تتناسب مع عصره عليه السّلام، وهكذا نستطيع أنْ نُسمِّي بني إسرائيل - بعد نُزُول شريعة مُوسى - بقوم مُوسى أو "المُوسويُّون".

والتّعاليم والوصايا التي نزلت في شريعة مُوسى - عليه السّلام - الجديدة وَرَدَتْ في سفْر الخُرُوج، الإصحاحات من 20 - 24 بالتّفصيل.

وهكذا؛ نستطيع القول: إنَّ بني إسرائيل في عصر مُوسى - عليه السّلام - أصبحوا مُوسويِّين (أو قوم مُوسى)، وهُم الذين اتَّبعوا مُوسى عليه السّلام، ووافقوه، ونزلت عليهم شريعته، وبقي معمولاً بها حتَّى داود وسُلَيْمَان عليهما السّلام، وبعدهما - وخاصَّة مُنذُ السّبي البابليّ - أصبح اسمهم "اليهُود" نسبه ليهُوذا، وأصبحت شريعتهم تختلف عن شريعة مُوسى عليه السّلام، فالتّوراة - بعد تحريفها - أصبحت مُناقضة للدّيانة المُوسويَّة التي نزلت على مُوسى عليه السلام، ولا تنسجم مع ما جاء به عيسى، ثُمَّ مُحَمَّد عليهما الصّلاة والسّلام.

والحقيقة أنَّ اليهُود أدخلوا عقيدة "شعب الله المُختار" بالإضافة إلى تحريف التّوراة، وجَعَلَ التّعاليم والأوامر والنّواهي الواردة فيها لا تُطبَّق إلاَّ بين اليهُود أنفسهم، أمَّا "الأغيار"؛ فليس على اليهُوديّ ضَيْر بأنَّ يغشَّهم، ويسرقهم، أو يعتدي عليهم .. إلخ، لأنَّهم ليسوا يهُوداً.

وقد اقتصرت المُوسويَّة على بني إسرائيل، ومَنْ اعتنقها معهم من بقايا الهيكسوس، وبعض المصريِّيْن الذين خرجوا مع بني إسرائيل من مصر.

واليهُوديَّة ـ اليوم ـ هي ديانة تضمُّ كُلَّ مَنْ اعتنق اليهُوديَّة من مُختلف الشُّعُوب والأجناس في العالم من السّبي البابليّ إلى العصر الحديث، وهُم لا يمُتُّون بصلة العرْق أو الأصل لبني إسرائيل، وبذلك؛ فهُم ليسوا عَرَباً أو ساميِّيْن (وسنتكلَّم عن ذلك بالتّفصيل فيما بعد إنْ شاء الله).

ولكنَّ الصّهيُونيَّة العالميَّة استطاعت إقناع اليهُود أنَّهم من أحفاد إسرائيل، وأنَّ أرض فلسطين هي "أرض المعاد" التي وعد الرَّبُّ أنْ تكون لإبراهيم ونسله من بعده. وقد رأينا ـ وسنرى بالتّفصيل ـ كيف أنَّ هذا الوعد انتقل من إبراهيم إلى إسحاق دُون أخيه إسماعيل وبقيَّة أُخوته، ثُمَّ من إسحاق إلى يعقُوب دُون أخيه آدوم، ثُمَّ لبني يعقُوب من بعده. وهكذا أُخْرِجَ من ذلك الوعد كُلُّ أبناء إبراهيم وأحفاد إبراهيم من زوجته هاجر وقطورة.

هذا؛ وقبل أنْ نتحدَّث عن تيه نبي إسرائيل في سيناء 40 سنة بعد أنْ عصوا أمر الله بدُخُول فلسطين، علينا أنْ نتحدَّث عن آراء بعض المُؤرِّخين في الخُرُوج، ثُمَّ نتحدَّث ـ بالتّفصيل ـ عن التّيه وأسبابه ونتائجه.

آراء بعض المُؤرِّخين في الخُرُوج:

يقول الدُّكتُور أحمد سُوسة في هذا الصّدد[1]: «أمَّا قصَّة خُرُوج مُوسى عليه السلام وجماعته من مصر (القصَّة التي استرسل كَتَبَةُ التّوراة في شَرْحها في سفْر الخُرُوج في العهد القديم)؛ لم تكن خُرافة كما يرى البعض، وإنَّما هي حادثة تاريخيَّة حقيقيَّة تنطوي على خُرُوج جماعة من مصر في عهد مُعيَّن، وتوجُّه هذه الجماعة نحو أرض كنعان المُجاورة، وذلك بقيادة زعيم

(1) د. سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 597.

رُوحي عرفتْهُ الأجيال باسم النّبي مُوسى عليه السلام، وقد شاءت الأقدار أنْ يسدل السّتار عن حقيقة هذه الجماعة، وأسباب خُرُوجها؛ إذْ لم يُعثَر - حتّى الآن - على مصدر قديم من المخطوطات الآثاريَّة يُعاصر خُرُوج هذه الجماعة من مصر[1] يشرح لنا هُويّتها على حقيقتها، أو الدّوافع التي حَمَلَتْهَا على الخُرُوج من مصر. والمصدر الوحيد - الذي بين أيدينا عنها - هُو التّوراة التي كَتَبَهَا مُدوِّنوها في الأسر بعد ثمانمائة عام من الحادث، فجاءت القصَّة مُشوَّهة ومُحوَّرة بالشّكل الذي يخدم مقاصد خاصَّة وأهداف مُعيَّنة، فأصبحت في نَظَر الكثير أشبه بالأساطير الخياليَّة منها بالحقائق التّاريخيَّة».

مُلاحَظَة على ما سَبَقَ:

نسي الدُّكتُور أحمد سُوسة - أو تناسى - أنَّ بين أيدينا مصدراً هامَّاً جدَّاً وموثوقاً جداً، وهُو كتابنا المُقَدَّس "القُرآن الكريم"، ففيه كُلُّ ما يتساءل عنه الدُّكتُور سُوسة، هُويَّة الذين خرجوا، وأسباب خُرُوجهم من مصر، ودوافعهم إلى ذلك، وفيه الحديث عن النّبي مُوسى عليه السّلام "كليم الله" ورسالته السّماويَّة (وهي ليست أخناتونيَّة كما يقول بعضهم)، وقيادته لهذه الجماعة في الخُرُوج، كُلُّ ذلك وَرَدَ في القُرآن الكريم - كلام الله - الذي لم يدخله التّحريف والتّبديل.

صحيح أنَّ الرّسالة السّماويَّة التي أُرسل بها مُوسى - عليه السّلام - ليست هي الرّسالة الواردة في التّوراة الحاليَّة، بعد أنْ حرَّفها اليهُود، وزادوا، وبدَّلوا، وابتدعوا، وحذفوا ما شاؤوا، بعد ثمانمائة سنة من نُزُولها على مُوسى عليه السّلام، ولكنَّ هذا لا يجعلنا نتجاهل القُرآن الكريم، وأنَّ مُوسى أُرسل لهداية فرعُون، وإخراج بني إسرائيل من مصر، بعد أنْ سامهم الفراعنة فيها سُوء العذاب سنين طويلة، وأنَّ دين مُوسى هُو دين سماوي، وليس مأخوذاً عن أخناتون (كما أورد الدُّكتُور أحمد سُوسة في أمكنة سابقة)، بل القول السّليم أنَّ أخناتون هُو الذي أخذ عن بني إسرائيل مُعتقداتهم التّوحيديَّة، فهُم قد سبقوه بتوحيدهم مئات السّنين.

---

(1) د. سُوسة يقول بأنَّ الخُرُوج كان من مصر وادي النّيل.

وأنا مع الدُكتُور أحمد سُوسة بتسمية هذه الفترة بالمُوسويَّة أو قوم مُوسى ؛ لأنَّها أتتْ بشريعة جديدة تختلف عن الفترة الإبراهيميَّة (أو الحنيفيَّة) السّابقة، وكذلك عن اليهُوديَّة اللاَّحقة، والتي جَعَلَت الدّيانة اليهُوديَّة ديانة خاصَّة باليهُود، وبُرُوز فكْرة "شعب الله المُختار"، والإله "يَهْوَه" الخاصّ باليهُود وحدهم.

ويُتابع الدُكتُور أحمد سُوسة قوله مُحلِّلاً دوافع اليهُود للتّحريف وإثبات هذا التّحريف فيقول[1]: «لو سلَّطنا أضواء علم النّفس على الفئة التي دوَّنت التّوراة - وهي نفسها من بقايا الجماعة التي خرجت من مصر قبل ثمانمائة سنة - لوجدنا أنَّها كانت فئة منبوذة مُشرَّدة قابعة في زاوية الأَسْر (في بابل)، لا وطن لها، مهيضة الجناح، لا حول لها ولا قُوَّة لها تستند إليها. هذه الفئة نفسها جلست لتُدوِّن تاريخ الجماعة التي هي من بقاياها، كما سَبَقَ وسمعت به من الأسلاف عن خُرُوجها من مصر قبل مُدَّة غارقة في القدم. أجل؛ إنَّها جلستْ لتُدوِّن هذا التّاريخ الذي لمستْ بعض خُيُوطه الغامضة، وهي غارقة في خضمٍّ الأحلام التي كانت تُساورها، وتستأثر بتفكيرها، فتارةً تحلم بالحُصُول على القُوَّة التي تسندها[2]، وتارةً أُخرى بالجاه الذي يرفع من منزلتها، ثُمَّ الوطن الذي تأوي إليه، فاتَّخذت من "إلهها" يَهْوَه، ومن شخصيَّة النّبي مُوسى عليه السلام قُوَّة دينيَّة تتشبَّث بها على الأعداء، كما اتَّخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحفيده يعقُوب عليه السلام هذا النّسب الأصيل الذي يجعلها أهلاً لتكون الشّعب "المُختار"، ومن كنعان اتَّخذت عقيدة "الوطن الموعود" الذي يفيض لبناً وعسلاً، وعزت كُلَّ ذلك إلى الإله "يَهْوَه"، وإلى إبراهيم ويعقُوب عليهما السّلام، وكُلُّهم بريئون منها».

أمَّا العالم الألماني الدُكتُور "مورتكات[3]"؛ فهُو ينفي ما جاء في أساطير التّوراة القائلة بقرابة اليهُود من الآراميِّين الذين ينتمي إليهم إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقُوب عليهم الصّلاة والسّلام؛ فيقول: «إنَّ الأبحاث الأثريَّة برهنتْ على عدم صحَّة أكثر الأساطير التي

(1) د. سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 598 - 602.

(2) كما حصل عندما اعتمد اليهُود على الملك "كُورش" ملك الفُرْس الذي فتح بابل، وحرر اليهُود المسبيِّين في بابل من قبَل ملك بابل بختنصر، الذي تعاونوا معه، فكافأهم بالسّماح لهم بالعودة إلى فلسطين (راجعْ كتابنا: الكون والأرض والإنسان في القُرآن العظيم، ص 364 - 376).

(3) د. مورتكات في كتابه "تاريخ الشّرق الأدنى"، ص 272.

وَرَدَتْ في التّوراة، كما أنَّ هُناك أبحاثاً تُبرهن على عكس هذه الأساطير التي تقول بقرابة الآراميِّين واليهُود».

ومن المُهمِّ ذكْره بهذا الصّدد أنَّ القُرآن الكريم فرَّق بين بني إسرائيل ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السّلام من جهة، وبين اليهُود من جهة أُخرى، وذلك باستعمال اسمَيْن لهؤلاء القوم، فيُطلق اسم بني إسرائيل في مواضع الرّضا، واليهُود في حالات السّخط، وقد سبقتْ الإشارة لذلك.

وممَّا لا ريب فيه أنَّ كُلَّ جماعة تكتب تاريخها كما تُحبُّ وتهوى، لا كما هي الحقيقة المُجرَّدة من كُلِّ غرض، فهي تجتهد في إظهار أصلها مُقترناً بأشرف الشّخصيَّات من الأجداد، والتي تتمتَّع بماض عريق وشُهرة واسعة، وفي مجرى التّاريخ حوادث كثيرة من مثل هذا التّمويه.

ولكنَّ اليهُود فاقوا غيرهم في التّزوير التّاريخي، وبرعوا في نَسْب كُلِّ خير لهم، ولَصْق كُلِّ شرٍّ بغيرهم. فالكتابات اليهُوديَّة ـ قديماً وحديثاً ـ تجعل إبراهيم الخليل ـ عليه السّلام ـ الحبر الأعلى لليهُود، وأنَّه غادر العراق ومعه اليهُود إلى فلسطين، في حين أنَّ اليهُود ظهروا بعد إبراهيم عليه السلام بأكثر من ألف عام، وقد قبلت الأجيال هذا الادِّعاء من غير تمحيص ولا تدقيق ولا معرفة التّسلسل الزّمني للأحداث التّاريخيَّة.

ويرى فرويد العالم النّفساني أنَّ كَتَبَةَ التّوراة أدخلوا الآباء الأوَّلين في ديانتهم، واعتبروهم أسلافهم؛ بُغية إعطاء دليل على أنَّ اليهُود ليسوا غُرباء عن المنطقة، وبخاصَّة عن أرض كنعان، وأنَّهم لم يدخلوها بصفتهم غُرباء، فيقول في ذلك: إنَّهم «لجأوا إلى هذه الحيلة الماهرة، وهي أنَّ إلههم "يَهْوَه" قد وعدهم بالأرض التي كان يحتلُّها أسلافهم بالفعل. . أُولئك الأسلاف الذين كانوا يعبدُون "يَهْوَه" أيضاً تحت اسم آخر»[1].

وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي "جان لوي برنار"[2]: «ونتحسَّس كُلَّ التّحسُّس أنَّ الأحبار قد اقتبسوا من تاريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات، فَعَبَّرُوْنَهَا (أيْ

---

(1) مُحَمَّد العزب، "مُوسى مصريّاً"، ص 71ـ 72.

(2) أُسطُورة "الشّعب المُختار" ترجمة د. أكرم فاضل، ص 21.

جعلوها عبرانيَّة؛ بمعنى يهُوديَّة) ولكنْ؛ لماذا هذه اللُّصُوصيَّة من قبَل الصّهاينة؟ إنَّ الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم، يُثير أعظم ضجَّة فيه، وكُلُّ ذلك لاختراع مُلفَّقة "الشّعب اليهُوديّ المُختار"».

كُلُّ هذه الادِّعاءات الوَهْميَّة كانت تنفيساً لإحساساتهم الغارقة في عُقد نَفْسيَّة مُعيَّنة نتيجة اليأس وتبدُّد الآمال، وهذا هُو أبعد ما يكون من توراة مُوسى عليه السلام الأصليَّة، التي تُعدُّ شريعة خالصة خالية من الأساطير والخُرافات والادِّعاءات الوَهْميَّة.

ويقول الدُّكتُور أحمد شلبي مُعلِّقاً على ذلك[1]: «إنَّ اليهُود ـ بعد أنْ انحرفت مُعتقداتهم وطباعهم ـ تخلَّصوا من أسفار مُوسى الحقيقيَّة؛ لأنَّها كانت تختلف عمَّا أرادوه من طباع وخُلُق، وكتبوا سواها ممَّا يتناسب مع ما يُريدون من تاريخ ومن مُعتقدات». ثُمَّ يُضيف الدُّكتُور شلبي قوله: «وهكذا كُتبت أسفار العهد القديم باسم الله ـ الله منها براء ـ إنَّها في الحقيقة صُورة لانفعالات اليهُود وأحاسيسهم، ولهذا؛ وبسبب كثرة الكُتَّاب الذين اشتركوا في تدوين العهد القديم كَثُرَتْ الأخطاء فيه».

وفي تعليق للأديبة أبكار السَّقَّاف على سفْر الخُرُوج تقول: «يقيناً؛ لقد خاض مُؤلِّف سفْر الخُرُوج خضمَّ التُّرَّهات خوضاً عجيباً، لا لأنَّه انتزع من وهاد الرُّبُوبيَّة القَبَليَّة هذا الرَّبَّ انتزاعاً، وجعله لإسرائيل إلهاً فحسب، وإنَّما لأنَّه قد افترى على مُوسى عليه السّلام؛ إذْ نَسَبَ إليه هذه الافتراءات، وقال عنه: إنَّه بهذا الرَّبِّ أتى، وجَعَلَهُ إلهاً، ثُمَّ يعدهم باسمه امتلاك أرض كنعان ميراثاً»، ثُمَّ أضافت ـ في مُلاحَظَاتها ـ لفتة هامَّة؛ حيثُ تقول: «إنَّ الإسلام الذي يبسط جناحَيْه بالرّحمة، ويرفرف بالسّلام، يُؤمن بتوراة هي على مُوسى عليه السلام قد أُنزلت، ولكنَّه فرَّق بين توراة مُوسى عليه السلام وتوراتهم المُفتراة على مُوسى، التي كَتَبَهَا رجال بيت يهُوذا في أعقاب الأَسْر البابليّ. لذلك حارب ـ مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ـ اليهُود، وسمَّاهم كُفَّاراً؛ لكذبهم على مُوسى، ونَبْذهم إيَّاه، كما نبذوا ـ من بعده ـ رُوح الله عيسى عليه السّلام[2]، وصدق الله تعالى إذْ يقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو

---

(1) أحمد شلبي، "مُقارنة الأديان"، ص 239.

(2) أبكار السَّقَّاف، "إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة"، ص 175.

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة 61.

وممَّا يجدر مُلاحَظَته هُنا هُو أنَّ الإله الذي كان يدعو مُوسى عليه السلام إلى عبادته هُو الإله الواحد خالق السّموات والأرض (لا إله غيره)، والذي تقوم عبادته على أساس مبدأ الإخاء العالميّ بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولا صلة لمُوسى عليه السلام بالإله "يَهْوَه" الخاصِّ باليهُود وحدهم، باعتبارهم "الشّعب المُختار"، وهُو الإله الذي استعاره كَتَبَةُ التّوراة، ونسبوا إليه صلته بمُوسى عليه السلام زوراً.

وقد عرفهم مُوسى الكليم عليه السلام قبل وفاته حقَّ المعرفة، وذاق من صَلَفهم وكثرة لجاجاتهم الكثير، فقال عنهم ـ عليه السّلام ـ: "أنا أعرف تمرُّدكم وقُلُوبكم الصُّلبة، إنَّكم ـ بعد موتي ـ تُفسدون في الأرض، وتزيغون عن الطّريق الذي أوصيتُكُم، ويُصيبكم الشَّرُّ في آخر الأيَّام"[1].

والخُلاصة أنَّ الذين خرجوا مع مُوسى من مصر هُم ـ فعلاً ـ الأسباط الاثنا عشر؛ ذُرِّيَّة يعقُوب (أو ما يُطلق عليهم بنو إسرائيل)، ولكنَّ هذا لا يمنع أنَّه خرج معهم بعض بقايا الهيكسوس الذين آمنوا بدينهم، ووحَّدوا الله مثلهم، وكذلك من المصريِّين الذين اعتنقوا التّوحيد، مُتأثِّرين ببني إسرائيل، أو ومُتأثِّرين بالآيات التي أتى بها مُوسى عليه السلام، (كالسَّحَرَة الذين جمعهم فرعُون، ولكنَّهم خرّوا ساجدين لربِّ مُوسى وهارُون عندما أدركوا أنَّ آيات مُوسى ليست سحْراً)، أو من أتباع أخناتون المُوحِّد (على أساس أنَّ الخُرُوج كان من مصر وادي النّيل)، فجميع هؤلاء كانوا مُضطهدين بسبب عقيدتهم التّوحيديَّة.

وقد يكون الذين خرجوا مع بني إسرائيل من المُوحِّدين يفوقون بني إسرائيل عدداً، ولكنَّ الاقتصار على ذكْر بني إسرائيل فقط بالآية الكريمة التّالية، والتي تنصُّ على تكليف مُوسى وهارُون ـ عليهما السّلام ـ بالذّهاب إلى فرعُون، والطّلَب منه أنْ يُرسل معهما بني إسرائيل، وأنْ يُوقف العذاب الواقع عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ

(1) فوزي حميد، "حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل"، ص 7.

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ سُورة طه 47.

(وفي نفس المعنى وَرَدَتْ الآيات 104 - 105 من سُورة الأعراف، و 16 - 17 من سُورة الشُّعراء).

يرجع ذلك - برأيي - إلى العداء المُوجَّه إلى بني إسرائيل لتعاونهم مع الهيكسوس، الذين حكموا مصر حوالي 200 سنة، وكانت هجرة بني إسرائيل إلى مصر في زمنهم (هذا على أساس أنَّ الهجرة إلى مصر وادي النّيل). أمَّا إذا كانت الهجرة إلى مصرايم (وهُو الأقرب إلى الصّواب، فيعود العداء إلى تكاثرهم هُناك، وخوف فرعُون من انقضاضهم على الحُكْم، وخوفه هذا هُو الذي جَعَلَه يرى رُؤيا هالتْهُ، فقد رأى أنَّ ناراً خرجتْ من بيت المَقْدس، فَدَخَلَتْ بُيُوت المصريِّيْن، ولم تدخل بُيُوت بني إسرائيل، وقد سمع من سُحَّاره (أو سَحَرَته) بأنَّ بني إسرائيل يتوقَّعون خُرُوج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فأمر بقَتْل ذُكُور بني إسرائيل، واستحياء بناتهم، وفي ذلكم بلاء عظيم، كما يقول تعالى مُخاطباً بني إسرائيل، ومُذكِّراً إيَّاهم بنعمه عليهم[1]: ﴿ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الأعراف 141.

لذلك كان الإنقاذ بالدّرجة الأُولى لبني إسرائيل ممَّا هُم فيه من سُوء العذاب والبلاء العظيم بقَتْل أبنائهم، واستحياء بناتهم، أمَّا المُوحِّدون الآخرون من بقايا الهيكسوس والمصريِّيْن، فقد وقع عليهم العذاب، وليس سُوء العذاب، ولم يُطبِّق على أولادهم ما طُبِّق على أولاد بني إسرائيل.

وسنرى في بُحُوثنا المُقبلة أنَّ اليهُوديَّة دين اعتنقه الكثيرون من غير ذُرِّيَّة يعقُوب عليه السلام من الكنعانيِّيْن في فلسطين ومن البابليِّيْن، وبعد طَرْد اليهُود من فلسطين على يد الإمبراطُور الرُّوماني طيطس (أو تيتس) وتحريمها عليهم، وتشتيتهم في أنحاء العالم القديم (في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة والإمبراطُوريَّة الفارسيَّة) اعتنقت شُعُوب كثيرة الدّيانة اليهُوديَّة؛

(1) قصَّة رُؤيا الفرعُون مرويَّة في تفسير آية 49 من سُورة البقرة في تفسير القُرآن العظيم لابن كثير.

وخاصَّة بعد اعتناق مُلُوك الخَزَر هذه الدِّيانة وانتشارها في دولة الخَزَر. وبعد القضاء على دولة الخَزَر تشتَّت يهُودها في أنحاء رُوسيا وأُورُوبا الشَّرقيَّة، حتَّى إنَّ اليهُوديَّة انتشرت في الجاهليَّة في جزيرة العَرَب، فيهُود اليمن عَرَب اعتنقوا الدِّيانة اليهُوديَّة زمن الملك يُوسُف ذي نوَّاس الحميري الذي اعتنق اليهُوديَّة، وحاول نَشْرها في اليمن. وهكذا ضاع نَسَبُ يعقُوب عليه السلام، وخاصَّة عندما تنصَّر عشرة أسباط من أسباط اليهُود الاثنَيْ عشر، وهُم الذين نفاهم الآشوريُّون إلى كُردستان، وهُناك تنصَّروا (وسيمرُّ معنا الحديث عن كيفيَّة تنصُّرهم).

وهكذا أصبحت اليهُوديَّة تضمُّ أتباعاً من مُعظم شُعُوب الأرض، والذين لا تربطهم بيعقُوب وذُرِّيَّته أيَّة رابطة. واليهُوديَّة اليوم دين لا قوميَّة (كما سنتحدَّث عن ذلك). ومع كلِّ ذلك تُصرُّ الصّهيُونيَّة على اعتبار جميع اليهُود في العالم من بني إسرائيل. إنَّها أكبر فرية تحدث في العالم في عصرنا الحاضر. والذي يُريد أنْ يرى جميع شُعُوب العالم مُجتمعة في دولة واحدة فليذهب إلى إسرائيل، ليرى اليهُوديّ الإنكليزيّ مع الألماني والرُّوسيّ والكُرديّ واليمنيّ والحبشيّ.. إلخ. كُلُّهم كما تدَّعي الصّهيُونيَّة عبرانيُّون، وكُلُّهم من نسل يعقُوب، ويرجعون في أُصُولهم إلى جدِّهم الأعلى إبراهيم عليه السلام، وأنَّهم والعَرَب أولاد عُمُومة. وقد صدَّق العالم هذه الفرية الكُبرى بالدِّعاية تارةً، وبالأقلام المأجورة والمال تارةً أُخرى.

هذا؛ وقد وَجَدَ الغرب ـ وعلى رأسه بريطانيا أوَّلاً، ثُمَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة حاليّاً ـ في الدّعوة الصّهيُونيَّة ضالَّتهم المنشودة لاستعمار بلادنا العَرَبيَّة، واستغلال ثرواتها، وإبقاء الوطن العَرَبيّ مُجزَّءاً مُشتَّتاً، وَضَرْب كُلِّ وحدة أو تقارب بين أقطاره.(1)

الأمر بغزو فلسطين، وتيه بني إسرائيل في سيناء:

مَكَثَ مُوسى عليه السّلام وبنو إسرائيل في شرق سيناء (قُرب جَبَل سيناء) حوالي السّنة، ثُمَّ تقدَّموا إلى "فاران"، ومنها نزلوا جَبَل هُود على طريق أرض آدوم (انظر المُصوَّر رَقْم 10 ص 145).

ولَمَّا كان المُوسويُّون في "فاران"؛ أرسل مُوسى عليه السلام رجالاً ليتجسَّسوا على أرض كنعان، ويستطلعوها، وقال لهم: «اصعدوا، واطلعوا إلى الجَبَل، وانظروا الأرض ما هي،

---

(1) والحقيقة أنَّ الاستعمار الغربي هُو الذي جزَّء الوطن العَرَبي وقسَّمه إلى دُويلات ضعيفة يسهل السّيطرة عليها واحتوائها.

والشّعب السّاكن فيها أ قويٌّ هُو أم ضعيف؟ قليل أم كثير؟ وكيف هي الأرض، جيِّدة أم رديَّة؟ »، وأتوا، وقالوا لُموسى: قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتَنَا إليها، وحقّاً إنَّها تفيض لبناً وعسلاً، وهذا ثمرها (وقد أتوا بعنقود من العنب، مع بعض الرُّمَّان والتِّين، اقتطفوه من منطقة حبرون) غير أنَّ الشّعب السّاكن مُعتزٌّ، والمُدُن حصينة وعظيمة جداً، وقد رأينا هُناك الجبابرة بني عناق، فكانوا في أعيننا كالجراد » (سفْر العدد، الإصحاح 13).

وهذه الخُطوة التي خطاها مُوسى الطَّيْلا بإرسال الجواسيس إلى داخل أرض كنعان خُطوة ضروريَّة لاستطلاع المنطقة قبل الهُجُوم أو التَّحرُّك نحوها.

وكان لوصف الكنعانيِّيْن بالجبابرة والأشدَّاء وَقْعٌ سيِّء في نُفُوس المُوسويِّيْن، فتذمَّروا على مُوسى وأخيه هارُون عليهما السّلام، فصعدوا إلى الجَبَل رغم تحذيرهما (يُقصد بالجَبَل جَبَل هُود) (انظر المُصورَّ رَقْم 9 ص 144) فنزل العمالقة والكنعانيُّون السّاكنون في ذلك الجَبَل، وَضَرَبُوهُم، وكَسَرُوهُم. (سفْر العدد، إصحاح 14، فقرة 45).

ولم تُوِّضح التّوراة الوَضْعَ بعد هذه المرحلة، فقد جاء كلامها غامضاً، غير أنَّ فقرة تُشير إلى أنَّ الرَّبَّ أتاه المُوسويِّيْن في البرِّيَّة أربعين سنة، حتَّى فني الجيل الذي فعل الشَّرَّ في عين الرَّبِّ. (سفْر العدد، إصحاح 14، فقرة 32).

ونخلص من هذا أنَّ المُوسويِّيْن لم يقوموا بأيِّ غزو أو فَتْح، حتَّى جاء الجيل الجديد بعد أربعين سنة، وقضوا هذه الفترة مع مُوسى في منطقة "قادش بربيغ) في جوار جَبَل هُود في طرف أرض أدوم (انظر المُصورَّ رَقْم 10 ص 145) أيْ أنَّ أرض التّيه كانت في شمال شرق سيناء، أو شمال خليج العقبة[1].

وهُناك تُوفِّي هارُون في السّنة الأربعين لخُرُوجهم من أرض مصر (سفْر العدد، إصحاح 33، فقرة 38).

وقد فضح الله تعالى في قُرآنه المجيد جُبن اليهُود، ومواقفهم المُتخاذلة المُخزية من مُوسى الطَّيْلا عندما أمرهم بدُخُول الأرض المُقَدَّسة، فيقول تعالى ذاكراً الحوار بين مُوسى وقومه:

---

(1) كانت هذه المنطقة وكُلُّ شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين وغرب الجزيرة العَرَبِيَّة بَوَادي، ولم تكن صحراء جافَّة كما هي الآن.

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (وهذان الرّجلان هما الوحيدان اللّذان استجابا لطلب مُوسى عليه السلام من جميع القوم) ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ سُورة المائدة 21 ـ 25.

واضح من الآيات الكريمة السّابقة عصيان بني إسرائيل أمر مُوسى عليه السلام، ورَفْضهم دُخُول فلسطين، مُتعلّلين بأنَّ فيها قوماً جبَّارين، وأنَّهم لن يدخلوها ماداموا فيها، ويطلبون من مُوسى عليه السلام ـ بكُلِّ صفاقة ـ أنْ يُقاتلهم هُو وربُّه، ويُخرجوهم منها.

هذا؛ ولا يتحدَّث القُرآن عن الطّريق التي سَلَكَهَا اليهُود إلى جَبَل هُود بقيادة مُوسى عليه السلام، وإنَّما التّوراة هي التي تتحدَّث عنها بالتّفصيل، وقد كان الأمر بدُخُول فلسطين بعد استتابة بني إسرائيل عن عبادة العجل.

إنَّ الآيات السّابقة والحوار الذي دار بين مُوسى عليه السلام وقومه تُعبِّر تعبيراً دقيقاً عن نَفْسيَّات اليهُود السيِّئة، وأخلاقهم السّقيمة، وصفاقتهم العجيبة، وخاصَّة وهُم خارجُون من ذنب كبير بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن التّوحيد إلى الشِّرك، بل الكُفر، وقد تاب الله عليهم، وغفر لهم هذا الذّنب العظيم بعد قَتْلهم أنفسهم. الحقيقة أنَّ هذه هي صفات اليهُود وأخلاقهم، وسُوء سُلُوكهم مع خالقهم وأنبيائهم، ومع النّاس أجمعين، عبر تاريخهم الأسود الطّويل. إنَّهم يتمسكنون عند الضّعف، أو في سبيل هدف ينشدونه، أو غاية يُريدون تحقيقها، ويتجبَّرون إذا تمكَّنوا، ويبطشون ـ دُون رحمة ـ إذا استطاعوا، هذا هُو سُلُوكهم في كُلِّ زمان ومكان، ومع كُلِّ شُعُوب الأرض كما سنرى، وكما هُو حاصل الآن في فلسطين.

انظر إلى قولهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ هل هُناك صفاقة أكثر من هذا؟ وكأنَّه تعالى ربُّ مُوسى عليه السلام فقط، وليس ربَّهم الذي أكرمهم غاية الإكرام، وأغدق عليهم نعمه، وتاب عليهم في مواقف كثيرة. هُنا قال مُوسى عليه السلام والأسى يحزُّ في

نفسه، ويملأ قلبه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، فأجاب الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

فتاهوا في بوادي سيناء كما أمر الله عقاباً لهم (نذكر هُنا مرَّة أُخرى أنَّ سيناء وما حولها لم تكن صحاري كما هي الآن، بل كانت بوادي تنتشر فيها المراعي الخصبة).

إنَّ حياة بني إسرائيل أربعين سنة في بوادي سيناء قضت على الجيل المُتمرِّد المُتأنِّف الخنوع، الذي اعتاد الذُّلَّ والهوان والاستعباد، وظهر جيل جديد أصلب عوداً، وأكثر تحمُّلاً، وأقلُّ تذمُّراً، وأقدر على القتال، وأشدُّ اندفاعاً للخُرُوج من هذه الحياة القاسية الطّويلة في بوادي سيناء، وأصبحوا أسهل انقياداً لُموسى عليه السلام، وتنفيذاً لأمره بدُخُول فلسطين.

ويُعلِّق المارشال البريطاني "مُونتغمري" على تيه جماعة مُوسى عليه السلام أربعين سنة ما خُلاصته[1]: «إنَّ مُوسى ـ عليه السّلام ـ كان يعلم حقَّ العلم أنَّه لا يستطيع أنْ يُحقِّق الجانب الثّاني من مهمَّته وهُو دُخُول أرض كنعان (كان الجانب الأوَّل الخُرُوج ببني إسرائيل من مصر) والذي كان ينطوي ـ حتماً ـ على قتال مرير مع الكنعانيِّين سُكَّان البلاد، إلاَّ إذا مات المُتبرِّمون القُدامى من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مُطعم برُوح القتال، مُدرَّب على الحرب، أكْسَبَتْهُ حياة البادية صلابة وقُدرة على تحمُّل المشاقِّ. ولقد أدرك مُوسى عليه السلام أنَّه ليس في الإمكان تحويل أناس مُستعبَدين إلى شعب مُقاتل في أسابيع، أو حتَّى في أشهر، وأنَّه لابُدَّ من رُوح جديدة تُبعث فيهم، وهُو أمر يتطلَّب وقتاً لا يُستهان به، وكان من العبث الإقدام على غزو أرض كنعان من غير خُطَّة سليمة للوُصُول إلى الهدف المنشود بغير انتكاسات؛ إذْ إنَّ الانكسار في المعركة كان يُؤدِّي إلى فُقدان الثِّقة بقيادة مُوسى عليه السلام».

لذلك كان من الواجب التَّخلُّص من هؤلاء المُتبرِّمين أو الفاسقين (كما وصفهم القُرآن)، ليظهر بدلهم قوم جُدُد أكسبتهم حياة البادية شدَّة وبأساً واندفاعاً للخلاص من التَّشرُّد وحياة البوادي إلى البلاد التي تفيض لبناً وعسلاً كما تصفها التّوراة.

---

(1) النَّصُّ مأخوذ من (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، د. أحمد سُوسة، ص 615 ـ 616.

مُناقشة حقيقة الوعد وأرض المعاد:

قد يفهم القارئ من قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ سُورة المائدة 21، أنَّ هذه الآية الكريمة تُؤيِّد دعوى اليهُود بأنَّ فلسطين كَتَبَهَا الله لهم، وأنَّه وعد إبراهيم وإسحاق ويعقُوب (عليهم السّلام) من قبلُ بها؛ فهي "أرض الميعاد".

ولكنِّي أقول: إنَّ الله تعالى يَعدُ عباده الصّالحين بكُلِّ خير، في كُلِّ أُمَّة، وفي كلِّ زمان ومكان؛ سواء أكانوا من بني إسرائيل، أم من غيرهم، فالله سُبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ سُورة الأنبياء 105، ويقول كذلك على لسان مُوسى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سُورة الأعراف 128. فالعاقبة في الميراث للمُتَّقين.

فمُوسى عليه السلام طَلَبَ من اليهُود أنْ يُقاتلوا، ويُكافحوا، ويصبروا على ذلك، حتَّى يُورِّثهم اللهُ تلكَ الأرض، وأفْهَمَهُم أنَّ العاقبة ـ دائماً ـ للمُتَّقين الذين يُحافظون على تقواهم وصلاحهم.

والله ـ سُبحانه وتعالى ـ أكْرَمَهُم، ومكَّنهم من العودة إلى فلسطين، ولكنْ؛ لَمَّا فسقوا، وضلُّوا، أَخْرَجَهُم منها بسبي يهُود السّاوه على يد الآشوريِّين، وملكهم سرجُون الثّاني، وسبي يهُود يهُوذا (القُدس)، على يد الكلدانيِّين (البابليِّين)، وملكهم نبوخذ نصر (بختنصر).

وهكذا؛ فالله ـ سُبحانه وتعالى ـ لا يُعطي عطاء أبديّاً إلاَّ لمَنْ يتَّقيه تقوى أبديَّة، ثُمَّ عادوا من السّبي البابليّ، بعد أنْ تراجعوا عن غيِّهم وضلالهم بقيادة يشعيا أو "إشعياء"[1]!

ولَمَّا عادوا إلى الضّلال ونَبْذ تعاليم الله، سلَّط عليهم اليُونان (السّلوقيِّين)، ثُمَّ الرُّومان الذين طردوهم من فلسطين (زمن طيطس)، وحرَّموها عليهم، فتشتَّتوا في أرجاء الأرض كما سيمرُّ معنا في فُصُول قادمة.

---

(1) راجع سفْر إشعياء، الإصحاح الحادي والسِّتُّون.

ومَنْ يقرأ التّوراة كتاب اليهُود المُقَدَّس (رغم تحريفها) يرى - بشكل واضح - كيف أنَّ إلـه اليهُود "يَهْوَه" الـذي يعتبرونـه إلهـهم الخـاصّ بـهم، والـذي يرعـاهم، ويحميهـم كـان يُسلِّط عليـهم مَـنْ يسـومهم سُـوء العـذاب عندمـا ينحرفـون عـن تعاليمـه، ويشـذُّون عـن أوامـره، ويفعلون المُنكرات.

ويُسجِّل "التّلمود" الكتاب المُقَدَّس اليهُوديّ الثّاني، أنَّ تدمير مملكة يـهُوذا وسـبي اليـهُود منها وتدميرها على يد بختنصـر البـابليّ لـم يكـن إلاَّ "عندمـا بلغـت ذُنُوب إسـرائيل مبلغـها، وفاقت حُدُود مـا يطيقـه الإلـه العظيـم"، وعندمـا رَفَضُـوا أنْ يُنصتـوا إلـى كلمـات وتحذيـرات نبيِّهم "إرميا"[1].

وبعد تدمـير الـهيكل؛ قـال النّبـي "إرميـا" مُوجِّـهاً كلامـه إلـى نبوخـذ نصـر أو "بختنصـر" والكلدانيِّيْن «لا تظنّ أنَّكَ بقُوَّتكَ وحدها استطعتَ أنْ تتغلَّب على شـعب الله المُختـار، إنَّـها ذُنُوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب».

وكذلك قول الرَّبِّ مُخاطباً سُلَيْمَان ﷺ بعد بنـاء بيت الـرَّبِّ "الـهيكل" مُؤيِّـداً مـا سَـبَقَ قوله، ففي سفْر المُلُوك الأوَّل، الإصحاح التّاسع من الفقرة 4 - 9 ما يلي: «وأنتَ إنْ سـلكتَ أمامي كما سلكَ داود ﷺ أبوكَ بسلامة قلب واستقامة، وعملتَ حـسب كُـلِّ مـا أُوصيـكَ، وحفظتَ فرائضي وأحكامي، فإنِّي أُقم كُرسي ملككَ على بني إسرائيل. أمَّا إنْ كُنتُم تنقلبون أنتـم وأبنـاءكم مـن ورائـي، ولا تحفظـون وصايـاي وفرائضـي التـي جعلتُـهَا أمـامكم، بـل تذهبون، وتعبدُون آلهة أُخرى، وتسجدون لها، فإنِّي أقطع إسرائيل عـن وجـه الأرض التـي أعطيتُكُم إيَّاها، والبيت الذي قدَّستُهُ لاسمي أنفيه من أمامي، ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشُّعُوب، وهذا البيت يكون عبرة (أيْ الهيكل) كُلُّ مَـنْ يمـرُّ عليـه يتعجَّـب، ويُصفِّـر، ويقول: لماذا عمل الرَّبُّ هكذا لهذه الأرض، ولهذا البيت؟! فيقولون: من أجل إنَّـهم تركـوا الـرَّبَّ إلهـهم الـذي أخـرج آبـاءهم مـن أرض مصـر، وتمسَّكوا بآلهـة أُخـرى، وكبَّروا لـها، وعبدوها، لذلك جلب الرَّبُّ عليهم كُلَّ شرٍّ».

---

(1) تاريخ فلسطين، ظفر الإسلام خان، 59.

انظر إلى هذا الكلام ما أروعه، إنَّه يصيب كبد الحقيقة وهي: أنَّ الله لا يُعطي عطاء أبديّاً، ولا يَعدُ وعداً دائماً، إنَّما تقوى الله الأبديَّة والتَّقيُّد الدّائم بتعاليمه تعالى هي التي تجعل وعد الله أبديّاً، وعطاءه دائماً ومُستمراً.

ولو كان الوعد والعطاء الإلهي لليهُود أبديّاً، فكيف أُخرجوا منها (من فلسطين) عدَّة مرَّات على يد الآشوريِّين والبابليِّين والرُّومان؟!!

ولو كان اليهُود "شعب الله المُختار" وإلههم "يَهْوَه" حاميهم ومُؤيِّدهم ومعهم دائماً، فكيف يسمح بذبح شعبه المُختار قديماً على يد الآشوريِّين والبابليِّين واليُونان والرُّومان، وحديثاً في رُوسيا وبُولُونيا وألمانيا على يد النّازيَّة وهتْلَر (كما سيمرُّ معنا بالتّفصيل) ومن قبلُ كيف سمح لفرعُون مصر بأنْ يسومهم سُوء العذاب؟!!

إنَّ الله أخذ على نفسه - دائماً وأبداً - أنْ يكون مع المُتَّقين المُحسنين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرُون، ويتوبوا إلى الله، ويستغفروه إذا وقعوا في الخطأ، ولا يستمرُّوا فيه، ويُثابروا عليه. والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النّحل **128**، ويقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سُورة مُحمَّد 7.

حتَّى إنَّ الوعد بفلسطين هُو للعَرَب، وليس خاصّاً ببني إسرائيل بنصِّ التّوراة نفسها، فقول الرَّبِّ لإبراهيم الخليل عليه السّلام كما جاء في التّوراة: «لنسلكَ أُعطي هذه الأرض»، فالعَرَب العدنانيُّون هُم من نَسْل إسماعيل بن إبراهيم، والعَرَب المديانيُّون هُم من نَسْل مديان ابن إبراهيم، والعَرَب الآدوميُّون هُم من نَسْل آدوم بن إسحاق بن إبراهيم، والعَرَب الشّبائيُّون (أو السّبئيُّون) هُم من نَسْل شبأ بن يشباق بن إبراهيم. وهكذا نرى أنَّ الوعد ليس خاصّاً ببني إسرائيل، وهُم جُزء ضئيل جداً من ذُرِّيَّة إبراهيم الكثيرة.

وكذلك نصُّ التّوراة يقول: «نُبارك مُباركيكَ» والعَرَب المُسلمون قاطبةً هُم وحدهم الذين يُباركون إبراهيم عليه السّلام في كُلِّ صلاة يُصلُّونها، وذلك في الصّلاة الإبراهيميَّة وهي: "اللّهمَّ صلِّ على مُحمَّد، وعلى آل مُحمَّد، كما صلَّيتَ على إبراهيم، وآل إبراهيم، وبارك على مُحمَّد، وآل مُحمَّد، كما باركتَ على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين، إنَّك حميد مجيد".

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يصف العَرَب والمُسلمين في القُرآن بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ سُورة آل عُمران **110**.

بينما يصف اللهُ اليهُودَ بقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ البقرة **61**.

العَرَب والمُسلمون خير أُمَّة أُخرجت للنّاس؛ لأنَّهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المُنكر، ويُؤمنون بالله، واليهُود ضُربت عليهم الذِّلّة والمَسْكَنة؛ لأنَّهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ، ذلك بعصيانهم واعتدائهم.

والله ـ سُبحانه وتعالى ـ يعد كُلَّ أُمَّة صالحة بالخير والسّيادة؛ لأنَّها ـ بسيادتها على غيرها من الأُمم ـ تُصلحها، وتهديها إلى الخير.

والله ـ سُبحانه وتعالى ـ وعد مُحَمَّداً ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ بفَتْح العراق والشّام ومصر، "وتحقّق الوعد"، وذلك أثناء حفر الخندق حول المدينة المُنوَّرة في غزوة الأحزاب، لحمايتها من أكبر غزو تعرَّضت له من قِبَل قُريش والقبائل العَرَبيَّة التي تحالفت معها للقضاء على الإسلام والمُسلمين، واجتثاث شُعلة الإسلام من جُذُورها في المدينة المُنوَّرة، في هذه الظُّرُوف الصّعبة القاسية، وأثناء حفر الخندق، وقعت آيات رائعة من نبوة مُحَمَّد ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ وَرَدَتْ في صحيح البُخاري، وكتاب "دلائل النُّبُوَّة"، وسيَر الرّسول الأعظم عليه الصّلاة والسّلام، فقد وَرَدَ عن جابر رضي الله عنه قوله: «إنَّا يوم الخندق نحفر، فعرضتْ (أيْ ظهرتْ) لنا كُدية شديدة (وهي القطعة الصّلبة الصّخريَّة من الأرض لا يعمل فيها المعول)، فجاؤوا للنّبي ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ فقالوا: يا رسول الله؛ هذه كدية عرضتْ في الخندق، فجاء عليه الصّلاة والسّلام، وأخذ المعول من سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقال: باسم الله، ثُمَّ ضربها، فنثر ثُلثها، وخرج نُور أضاء ما بين لابتَيْ المدينة، فقال: الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشّام، والله؛ إنِّي لأُبصر قُصُورها الحُمر السّاعة من

مكاني. ثُمَّ ضرب الثّانيـة، فقطع ثُلثاً آخر، فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتَيْهَا، فقال: الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله؛ إنِّي لأُبصر قصر المدائن الأبيض الآن (أيْ مدائن كسرى). وفي رواية؛ وإنِّي لأُبصر مدائن كسرى وقُصُور الحيرة كأنَّها أنياب الكلاب من مكاني هذا، وأخبرني جبريل أنَّ أُمَّتي ظاهرة عليها، فأبشروا بالنّصر، فَسُرَّ المُسلمون. ثُمَّ ضرب الثّالثة، وقال: باسم الله، فقطع بقيَّة الحجر، وخرج نُور من قبَل اليمن، فأضاء لابتَيْ المدينة، حتَّى كأنَّه مصباح في جوف ليل مُظلم، فقال: الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، والله؛ إنِّي لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني السّاعة.

هذا وعد رسول الله مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وفي أحرج الأوقات وهُو غزوة الأحزاب، وقد تحقَّق الوعد والحمد لله، ففُتحت الشّام والعراقَيْن (فارس والعراق)، واليمن، وامتدَّ الفتح إلى الهند والصّين شرقاً، وإلى إسبانيا غرباً، ولا يزال مُتحقِّقاً، والحمد لله حتَّى الآن.

ونُكرِّر القول: إنَّ اللهَ يعدُ عباده الصّالحين بكُلِّ خير، ويُحقِّق اللهُ وعدَهُ ماداموا مع الله. ولكنَّ اليهُود فسقوا، وضلُّوا، وكفروا بأنعم الله، حتَّى قتلوا أنبياء الله، فلا يُمكن أنْ يُحقِّق اللهُ وعدَهُ لهم، واللهُ مع المُتَّقين الصّالحين، المُؤمنين بالله، الشّاكرين لله فضله، الحامدين الله على ما أنعم به عليهم.

ثُمَّ إنَّ العَرَب ليسوا عُنصُريِّيْن ولا مُتعصِّبين، وإلههم هُو "الله" ربُّ العالمين، لا إله إلاَّ هُو، وحده لا شريك له، والرّسول مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم قال: سلمان منَّا آل البيت، وهُو فارسي الأصل.

ومع كُلِّ هذا؛ يدَّعي اليهُود أنَّهم "شعب الله المُختار"، وليس أجمل من ردِّ البابا شنوده بابا الأقباط في مصر عندما التقى "جيمي كارتر" رئيس الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الأسبق (وهُو مشهور بتديُّنه) وعند الحديث عن اليهُود قال جيمي كارتر للبابا شنوده: "لا تنسَ أنَّ اليهُود شعب الله المُختار"، فأجاب البابا شنوده جواباً مُفحماً وقال: إذا كان اليهُود شعب الله المُختار، فَمَنْ نكون نحنُ؟! (أيْ المسيحيِّيْن).

وربَّ قائل يقول: ها هُم اليهُود عادوا إلى فلسطين، وأنشؤوا لهم مُلكاً عظيماً، ودولة قويَّة، أقول له:

أوَّلاً: إنَّ حُكْم اليهُود ووُجُودهم في فلسطين غير مُستقرٍّ، ولا أمان لليهُود فيها، طالما المُقاومة مُستمرَّة فيها بكُلِّ وسيلة مُتاحة من الحجر والسكِّين، إلى الأعمال الاستشهاديَّة، كُلُّ ذلك يُقلق اليهُود، ويقضُّ مضاجعهم، ويجعل حياتهم في خطر، ووُجُودهم غير مُستقرٍّ، ولن يستقرَّ طالما المُقاومة مُستمرَّة، والحمد لله.

ثانياً: إنَّ (إسرائيل) في فلسطين لا تملك مُقوِّمات الدَّولة، لا من النَّاحية الاقتصاديَّة، ولا من النَّاحية العسكريَّة، فهي لا تستطيع العيش لولا مُساعدات الغرب الماليَّة، وعلى رأسه الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، فآلاف الملايين من الدُّولارات التي تُدفع (لإسرائيل) سنويّاً، والمُساعدات العسكريَّة الهائلة، هذا؛ بالإضافة إلى الدَّعم المعنوي من قِبَل الغرب، وحرْصه على بقاء (إسرائيل)، واستمرار وُجُودها، ودَعْمها في الهيئات الدَّوليَّة، والوُقُوف بجانبها في كُلِّ قضيَّة تمسُّ وُجُودها، واستمرار بقائها، وهذا هُو حبل النَّاس الذي يعنيه الله تعالى بقوله: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ آل عُمران 112.

أمَّا حبله تعالى ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهُو كما جاء في تفسير القُرآن العظيم لابن كثير: وحبل الله؛ أيْ ذمَّة الله عندما يكونون في ذمَّة المُسلمين، ويعيشون في ديار الإسلام، ويدفعون الجزية للمُسلمين، ويلتزمون بأحكام الله؛ أيْ شريعة الإسلام (لأنَّ أهل الذِّمَّة تُطبَّق عليهم شريعة الإسلام، ولكنْ؛ يعبدُون الله حسب أديانهم).

هذا؛ وبمُجرَّد أنْ ينقطع حبل النَّاس، وتتوقَّف المُساعدات عن اليهُود؛ سواء كانت اقتصاديَّة، أو عسكريَّة، أو معنويَّة، فستنهار (إسرائيل)، وهذا يتوقَّف علينا نحنُ العَرَب والمُسلمين، فإذا توحَّدت كلمتنا، وعملنا بعقيدتنا الإسلاميَّة، ووقفنا كالبنيان المرصُوص في وجه (إسرائيل)، ومَنْ يدعم (إسرائيل)، فلا شَكَّ أنَّنا سنصل إلى حُقُوقنا، والله كفيل بذلك

كما يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ سُورة الحجّ 39 ـ 40.

هذا؛ وإنَّ وُجُود (إسرائيل) كوُجُود الصّليبيّين في بلادنا، والذي استمرّ 200 سنة، ثُمَّ انحسر كأنْ لم يكنْ، وكانت الحُرُوب الصّليبيَّة كالصّهيُونيَّة الآن يقف بجانبها الغرب بكامله، ويرمي معها بكُلِّ ثقله، ويُقدِّم لها كُلَّ إمكاناته، ومع كُلِّ ذلك؛ انتهت بعون الله وجهاد العَرَب والمُسلمين.

إنَّ (إسرائيل) جسم غريب في بحر عَرَبيّ وإسلامي مُتلاطم، فلابُدَّ أنْ يأتي اليوم الذي سيُجتثُّ هذا الجسم الغريب إنْ عاجلاً أو آجلاً.

ويحضرني الآن حديث الرّسول الأعظم عليه الصّلاة والسّلام بقوله: «لا تقوم السّاعة حتَّى تُقاتلوا اليهُود، فتقتلوهم، حتَّى إنَّ الحجر والشّجر يُنادي المُسلم، ويقول: يا مُسلم! هذا يهُودي ورائي، تعال، فاقتله، إلاَّ شجر الغرقد، فهُو من شجر اليهُود».

وفي رواية أُخرى كما جاء في صحيح البخاري: «لا تقوم السّاعة حتَّى تُقاتلوا اليهُود، حتَّى يقول الحجر: يا مُسلم! هذا يهُودي ورائي، تعال، فاقتله».

وفاة مُوسى عليه السّلام والغُمُوض في هذه الوفاة:

بعد الاستطراد السّابق؛ نعود إلى مُوسى عليه السلام وجماعته. فنرى أنَّه ـ عليه السّلام ـ عقد العزم بعد انقضاء الأربعين سنة على غزو أرض كنعان من جهة شرقي الأُردُن، لصُعُوبة اختراق الجبهة الجنوبيَّة الغربيَّة. وكان في جبهة شرق الأُردُن خمس ممالك هي: (كما جاء في التّوراة): [1]

الأُولى: مملكة عوج بن باشان، وتقع في أقصى الشّمال عند حُدُود جَبَل حرمون في سُوريَّة (جَبَل الشّيخ)، وهي بيد الرّفائيّين.

الثّانية: مملكة سيمور في جلعاد، وهي بيد العموريّين.

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 615 ـ 617.

الثّالثة: مملكة عمون، وقد استولى عليها العموريُّون من العمونيِّين.

الرّابعة: مملكة مُؤاب بيد المُؤابيِّين (وهُم الشّبائيُّون الذي يرجع نَسَبُهُم إلى شبأ بن يقشان ابن إبراهيم من زوجته قطورة)، وحُرِّف اسمهم إلى السّبئيِّين (ومنهم بلقيس، كما سيمرُّ عند الحديث عن سُلَيْمَان عليه السّلام).

الخامسة: مملكة آدوم، وتمتدُّ من رأس خليج العقبة إلى البحر الميِّت، وهُم ذُرِّيَّة آدوم أو "عيسو" بن إسحاق بن إبراهيم.

(انظر المُصوَّر رَقْم 5 ص 72 لمعرفة مواقع هذه الممالك).

وقد كانت هذه الممالك ممالك صغيرة عشائريَّة.

وقد تمَّ للمُوسويِّين بقيادة مُوسى ـ عليه السّلام ـ الاستيلاء على ثلاث ممالك منها؛ وهي: مملكة سيحون، ومملكة عمون، ومملكة باشان، ولم يتحرَّشوا بمملكَتَيْ مُؤاب وآدوم. ويعزو الدُّكتُور أحمد سُوسة ذلك لمناعة تحصيناتها، وأمَّا التّوراة؛ فتعزوه لأمر الرَّبِّ.

وإنِّي أرى أنَّهم لم يتحرَّشوا بهم للقُربى التي تجمعهم ببني إسرائيل، فالمُؤابيُّون من ذُرِّيَّة شبأ بن يقشان بن إبراهيم، والأدوميُّون هُم من ذُرِّيَّة آدوم أو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم. وكذلك لم يحدث بينهم وبين المديانيِّين أيُّ احتكاك، فهُم ـ أيضاً ـ من ذُرِّيَّة مديان بن إبراهيم، وقد تزوَّج مُوسى منهم، وزوجته "صفوره" ابنة "يثرون" كاهنهم.

ثُمَّ هُناك تعليل آخر، وهُو أنَّ هؤلاء جميعاً كانوا مُوحِّدين على ديانة إبراهيم جدِّهم الأعلى، وأنَّ مُوسى كان مُوحِّداً وداعياً للتّوحيد (وفي جنوب المديانيِّين في جزيرة العَرَب كان ينتشر الإسماعيليُّون أبناء إسماعيل بن إبراهيم من زوجته هاجر).

وبعد القضاء على الممالك الثّلاث سالفة الذِّكْر، لم يدخل مُوسى عليه السلام أرض كنعان، وقد تمَّ الدُّخُول في عهد خليفته "يُوشع بن نُون" بعد وفاته عليه السّلام.

ولكنْ؛ كيف مات مُوسى عليه السلام؟ وأين؟

من أغرب ما ابتدعه كَتَبَةُ التّوراة عن وفاة مُوسى عليه السلام أنَّهم اتَّهموا هذا الرّسول الجليل كليم الله، كما اتَّهموا أخاه هارُون بخيانة الرَّبِّ، فعاقبهما الرَّبُّ بالموت. فقد كلَّم الرَّبُّ

مُوسى قائلاً: «مُتْ في الجَبَل، كما مات أخوكَ في جَبَل هُود. . لأنَّكما خُنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء قادش في بريَّة صين، لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل. فإنَّكَ تنظر الأرض من قبالتها، ولكنَّكَ لا تدخل إلى هُناك، إلى الأرض التي أنا أُعطيها لبني إسرائيل» (سفْر التّثنية، الإصحاح 32، الفقرات 50 ـ 53).

ثُمَّ تُتابع التّوراة قولها: «يُوشع بن نُون هُو يدخل هُناك» (سفْر التّثنية، الإصحاح الأوَّل، فقرة 38) وكذلك قولها: «لا تعبر هذا الأُردُن، وأمَّا يُوشع هُو يعبر» (تثنية، إصحاح 3، فقرة 28).

وقد كان من الطّبيعي في ضوء ما تقدَّم أنْ تُثار تساؤلات حول كيفيَّة موت مُوسى عليه السّلام، هل مات موتاً طبيعيّاً؟ أم هل أمر الرَّبُّ بموته حقّاً، فقُتل؟؟.

وقد استخلص الباحث الألماني "سيللين" من بعض الفقرات في سفْر يُوشع «أنَّ هُناك دلائل أنَّ مُوسى عليه السلام مات شهيداً، اغتاله الكَهَنَةُ الذين قادوه، فهدموا كُلَّ ما نادى به من تعاليم دينيَّة تقريباً»، وهُناك مَنْ يرى أنَّ يُوشع بن نُون هُو الذي اغتال مُوسى عليه السلام؛ حيثُ استصحبه إلى أعلى الجَبَل، ثُمَّ عاد بدُونه، ليُعلن أنَّ الأمر بموت مُوسى قد تمَّ تنفيذه وُفقاً لأمر الرَّبِّ.

وإذا كان مُوسى عليه السلام في نَظَر التّوراة التي بين أيدينا خائناً، فكيف تُنسب هذه التّوراة إليه، وتُسبغ عليها صفة القُدسيَّة؟! هذا السُّؤال تُلقيه الكاتبة الأديبة "أبكار السَّقَّاف"، والتي تقول: «إنَّ هذه التّوراة التي بين أيدينا وهي مصدر العقيدة والدِّين اليهُوديّ الحالي، تعتبر مُوسى عليه السلام خائناً، وإنَّ الرَّبَّ غضب عليه، وأمر بموته جزاء خيانته، فكيف ـ بعد ذلك ـ يُمكن أنْ يُنسب هذا الدِّين إلى مُوسى عليه السّلام؟؟!

ويقول فرويد: «إنَّ ما استخلصه "سيللين" من اغتيال مُوسى عليه السلام على أيدي أتباعه مُحتمل جدّاً. . إنَّ المُوسويِّين ذوي الطّباع الخشنة التي تُقارب الوحشيَّة لم يصبروا حتَّى يموت مُوسى، فثاروا عليه، وقتلوه».

صدق الله العظيم بوصفه لـهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ (سُورة النِّسـاء 155 ـ 156) (قُلُوبنـا غُلـف؛ أيْ لا تعي كلام الأنبياء).

وبعد وفاة سيِّدنا مُوسى عليه السَّلام؛ استـلم قيـادة المُوسـويِّين يُوشـع بن نُـون، الـذي دَخَلَ بهم إلى فلسطين.

تابوت العهد وخيمة الاجتماع:

وقبل الانتهاء من الحديث عن مُوسى عليه السلام؛ لابُـدَّ من التَّطـرُّق إلـى شـيئَيْن هـامَّيْن عند المُوسويِّيْن تتحدَّث عنـهما التَّوراة وعـن صُنعـهما فـي عـهد مُوسـى عليه السلام في سـفْر الخُـرُوج، الإصحاحات 37 ـ 38 ـ 39 ـ 40.

تابوت العهد:

وهُو تابوت صُنع من خشب السَّنط كما تقول التَّوراة، ووُضعت فيه الألواح التي أُنزلت على مُوسى عليه السلام، والتي كُتبت فيها الوصايا العشر التي نزلت على مُوسى. وكان المُوسويُّون يأخذون تابوت العهد معهم في حُرُوبهم للبركة وتحقيق النَّصر.

خيمة الاجتماع:

وهي خيمة صُنعت في عهد مُوسى عليه السلام من أفضل الأقمشة، تنتقل مع بنـي إسـرائيل، وتُنصـب عنـد الاسـتقرار، وتُقـام حولـها الصَّلـوات والعبـادات، ولا يدخلـها إلاَّ مُوسـى وهارُون، وبعدهما يدخلها الكُهَّان فقط، ويُوضع في داخلـها تـابوت العـهد والمائدة والمنـارة (وكانت مصنوعة من الذَّهب الخالص لإنارة الخيمة).

الفصل الخامس:

عهد يُوشع بن نُون ودُخُول فلسطين

تُوفِّي هارُون عليه السّلام في جَبَل هُود، ودَفَنَهُ مُوسى عليه السّلام هُناك، وأمَّا مُوسى ـ عليه السّلام ـ؛ فقد تُوفِّي، ودُفن في جَبَل "نبو" بعد أنْ أشرف على أرض الميعاد، ونظر إليها، ولكنَّه لم يدخلها[1].

وقد أثنى الله تعالى ثناء طيِّباً على مُوسى وهارُون فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ سُورة مريم من 51 ـ 53.

وفي سُورة الصَّافَّات يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ۝ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الصَّافَّات من 114 ـ 122.

وبعد وفاة مُوسى عليه السلام؛ قام بأمر المُوسويِّيْن "يُوشع بن نُون"، وهُو من سبط يُوسُف عليه السلام، وكان خادماً لمُوسى.

ويُوشع بن نُون كان قد استوعب الحكْمة، وعرف شريعة مُوسى أكثر من غيره من بني إسرائيل، نَظراً لمُصاحبته لمُوسى عليه السلام، وخدمته له. لذلك كان أهلاً لخلافته، وجاء في التّوراة: «ويُوشع بن نُون كان قد امتلأ رُوح حكْمة؛ إذْ وَضَعَ مُوسى عليه يده، فسمع له بنو إسرائيل، وعملوا كما أوصى الرَّبُّ» (سفْر التّثنية، إصحاح 34، فقرة 9).

---

(1) الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار، قَصَص الأنبياء، 298 ـ 299.

بعد استلام يُوشع القيادة؛ أمره الرَّبُّ (كما تقول التّوراة) بعُبُور الأُردُن إلى الجانب الغربيّ، وكانت أريحا أو المُدُن الكنعانيَّة التي احتلّها (المُوسويُّون)، فقتلوا جميع سُكّانها حتّى الدّواب، ونهبوها كما جاء في التّوراة، : « فحرّموا كُلّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتّى البقر والغنم بحدّ السّيف، وأحرقوا المدينة بالنّار مع كُلّ ما فيها، إنّما الفضَّة والذّهب وآنية النُّحاس والحديد جعلوها زينة بيت الرَّبّ» سفر يُوشع، الإصحاح 6، فقرة 21 ـ 24.

ويقول ظفر الإسلام خان بعد أنْ يُحدِّد الغزو بسنة 1220 ق. م[1]: « أمَّا كيف غزا اليهُود فلسطين؟ فإنَّ التّوراة بما وَرَدَ سابقاً تكفينا مؤونة إلقاء الضّوء على هذا الشّعب الفريد في التّاريخ، والذي لا مثيل لهمجيَّته وشراسته وحقده، ونستطيع مُقارنة تلك الوحشيَّة اليهُوديَّة الأُولى بما فعلوه في غزوهم الجديد لأرض كنعان (فلسطين)، في دير ياسين وقبية وكفر قاسم وناصر الدِّين وبلد الشّيخ وحواسة (وهي قُرى مُعظمها في شمال فلسطين)، وغيرها المئات من القُرى والمُدُن العَرَبيَّة.

ويُمكننا أنْ نستبدل باسم يُوشع أسماء مُوشي دايان، ومناحيم بيغن، وإسحاق شامير، وإسحاق رابين، وآريئيل شارون . . إلخ، من الأسماء والشّخصيّات اليهُوديَّة التي فاقت في أعمالها البربريَّة في فلسطين والبلاد العَرَبيَّة المُجاورة ما فَعَلَهُ الصّليبيُّون والمغول في بلادنا».

إنَّ هَمَجيَّة (إسرائيل) تتكرَّر ـ الآن ـ في فلسطين بعد ثلاثة آلاف سنة، بكُلّ تفاصيلها الدّقيقة من شراسة وهَمَجيَّة وحقد.

وأُضيف إلى قول السَّيِّد ظفر الإسلام خان همجيَّة اليهُود ووحشيَّتهم التي لا نظير لها، والتي حَدَثَتْ عند غزو اليهُود للُبنان عام 1982م، ومذابح صبرا وشاتيلا فيها. ثُمَّ قصفهم القُرى والمُدُن جنوب لُبنان في شهر آب 1993، بالطّائرات والمروحيّات والصّواريخ برّاً وبحراً وجوّاً، والتي أدَّت إلى تشريد سُكّان الجنوب، وهدم أكثر من 150 ألف منزل، بالإضافة إلى قَتْل وجَرْح المئات، أو الآلاف من السُّكّان، وأخيراً؛ عمليَّة "عناقيد الغضب" التي أمر بها

---

(1) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص 37.

شمعون بيريز رئيس وُزراء (إسرائيل) (والذي يزعـم بعض العَرَب أنَّه راعي السّلام وقائد مسيرة السّلام مع العَرَب) في 11 نيسان 1996، والتي استمرَّت ستَّة عشر يوماً، والتي استخدمت فيها (إسرائيل) كُلَّ وسائل التّدمير من البرِّ والبحر والجوِّ، وشرَّدت أكثر من نصف مليون لُبناني من منازلهم، وهدمت قُراهم ومُدُنهم في الجنوب، وقتلتْ، وشرَّدتْ المئات من السُّكَّان الأبرياء، وتوَّجتْ هذه العمليَّة المشؤومة بمذبحة (قانا) الرّهيبة، التي ذَهَبَ ضحيَّتها وحدها أكثر من مئة قتيل ومئات الجرحى، مُعظمهم من الأطفال والنّساء والشُّيُوخ، الذين التجؤوا إلى قاعدة الأُمم المُتَّحدة في قانا، للاحتماء بها من القصف الإسرائيلي المُستمرِّ.

وأُضيف مجزرة المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل؛ حيثُ قام أحد حاقديهم بمُساعدة حُرَّاس المسجد من جُنُود الصّهاينة بفَتْح النّار على المُصلِّين وهُم ساجدون في 15 رمضان 1414 هـ المُوافق عام 1994م.

إنَّ هذه الوحشيَّة المُفرطة في حُرُوبهم نابعة من مُعتقدهم الدِّيني أنَّ "الأغيار" (أيْ غير اليهُود) هُم كالبهائم، لا ضير، ولا جناح عليهم في قَتْلهم.

وقد وَرَدَ في القُرآن الكريم ذكْر دُخُول اليهُود أريحا. وقد أمرهم الله تعالى أنْ يدخلوا باب المدينة سُجَّداً؛ أيْ خاضعين مُتذلِّلين لله الذي مكَّنهم من دُخُولها، وأنْ يقولوا "حطَّة"، ولكنَّ القوم عاودتهم سجيَّة مُخالفة أمر الله تعالى، فقالوا قولاً غير الذي أمرهم الله أنْ يقولوه، وَدَخَلُوا وهُم على هيئة غير التي أُمروا بها، فغضب الله عليهم، وأنزل عليهم العذاب، والآيات هي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ سُورة البقرة 58 ـ 59.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف 161 ـ 162.

ومعنى "حطَّة" ؛ أيْ يطلبون من الله أنْ يحطَّ عنهم ذُنُوبهم ؛ أيْ يغفرها لـهم ، كمـا جاء في تفسير الجلالَيْن .

ويقول البيضاوي : إنَّ المدينة هي "بيت المَقْدس" أو "أريحا" وإنِّي أُرجِّح أنَّها أريحا ، وليست القُدس ؛ لأنَّ دُخُول اليهُود القُدس (وكان اسمها "يبوس") تأخَّر حتَّى زمن داود عليه السلام[1] .

ومن المُدُن التي استولى عليها يُوشع[2] "بيت إيل"[3] و"عاي"[4] و"الخيش" و"عجلون" و"حبرون" و"دبير" .

وتقول التّوراة : إنَّه قضى على 31 ملكاً من مُلُوك الكنعانيِّيْن (وهذا من مُبالغات التّوراة الكثيرة) إلاَّ أنَّ الفلسطينيِّيْن المُتحصِّنين في مُدُنهم السّاحليَّة بين غزَّة ويَافَا صدّوا تقدُّم المُوسويِّيْن غرباً . فكان الفلسطينيُّون مُتفوِّقين على المُوسويِّيْن في معدَّاتهم الحربيَّة المصنوعة من الحديد ، لذلك لم يجرؤ يُوشع بن نُون على مُحاربتهم ، فتجنَّبهم ، وتجنَّب المُدُن المُحصَّنة الأُخرى ؛ ومنها القُدس ، أو أُورشليم ، وكان اسمها "يبوس" .

وفي رأيي أنَّ الذي ساعد المُوسويِّيْن على التَّقدُّم في احتلال بلاد كنعان بقيادة يُوشع بن نُون هُو مُلاءمة الظُّرُوف السِّياسيَّة السّائدة آنذاك ، فقد كانت البلاد مُنقسمة على نفسها ، تتصارع فيما بينها ، وتتألَّف من دُويلات عديدة يحكمها حُكَّام مُستبدُّون مُتصارعون ، هَمُّهم الوحيد الحفاظ على سيطرتهم . هذا ؛ بالإضافة إلى أنَّ مصر كانت في بداية تراجع عصر الإمبراطُوريَّة فيها ، وكذلك في العراق كانت الدّولة البابليَّة (بابل الأُولى) قد دبَّ فيها الضّعف ، وكانت الدّولة الآشوريَّة في بداية تكوينها .

هذا ؛ وإنَّ المصادر المصريَّة والبابليَّة ، ثُمَّ الآشوريَّة ، قد سكتتْ عن كُلِّ ما يتعلَّق بالغزو اليهُوديّ لفلسطين .

---

(1) قَصَص الأنبياء ، الأُستاذ عبد الوهاب النَّجَّار ، ص 298 ـ 299 .

(2) المرجع ، د . أحمد سُوسة ، العرَب واليهُود في التّاريخ ، ص 618 ـ 633 ، باختصار ، والمُفسدون في الأرض ، الأُستاذ س . ناجي (31 ـ 51) ، باختصار .

(3) بيت إيل (بيت الله) تقع على بعد عشرة أميال شمال القُدس .

(4) عاي تقع شرق بيت إيل على بعد 9 أميال من القُدس .

ونستخلص من رواية التّوراة أنَّ أُورشليم كانت من بين المُدُن التي لم يستطع يُوشع بن نُون احتلالها؛ لمناعتها وصلابة سُكَّانها اليبوسيِّين، ويُؤكِّد ذلك الأُستاذ بريت Brit في مقالة عن تاريخ أُورشليم بقوله: «ومن الجلي الواضح أنَّ مدينة أُورشليم كانت قبل مجيء الإسرائيليِّين بقيادة يُوشع بن نُون مدينة كنعانيَّة خالصة، على جانب كبير من الأهمِّيَّة والمَنَعَة».

ويقول الأُستاذ س. ناجي في كتابه "المُفسدون في الأرض" صفحة 32 ـ 35: «برغم أنَّ عمليَّة الغزو دامت عدَّة قُرُون، فإنَّ اليهُود لم يتمكَّنوا من احتلال سوى أربع مُقاطعات جَبَليَّة في أرض فلسطين، وهي المُرتفعات الواقعة غرب نهر الأُردُن ومنطقة الجليل وجَبَل إفرايم وجَبَل يهُوذا. أمَّا أسباب عجزهم عن احتلال جميع البلاد؛ فتعود إلى المُقاومة الضّارية التي كانوا يلقونها من سُكَّان السُّهُول، وإلى جَهْلهم بأساليب القتال في النّهار، وافتقارهم إلى أسلحة معارك السّول كالعَرَبات والخُيُول، وعجزهم عن القيام بعمليَّة الحصار؛ إذْ إنَّهم كانوا يعتمدون في حُرُوبهم على المُباغتة التي تسهل ليلاً؛ حيثُ يقلُّ المُدافعون. ولمَّا كانت المناطق الجَبَليَّة وقُراها أقلّ سُكَّاناً من المناطق السّهليَّة والسّاحليَّة، فقد هان على اليهُود مُهاجمتها؛ لاستحالة التّعاون بين سُكَّان قُراها من جرَّاء وُعُورة المسالك، وبُعْد القُرى عن بعضها البعض. ولهذا؛ تمكَّنوا من احتلال المُرتفعات، وفرضوا سيطرتهم عليها. وحتَّى هذه السّيطرة لم تكن كاملة؛ لأنَّ مناطقهم الأربعة كانت مفصولة عن بعضها بواسطة القلاع الكنعانيَّة التي عجز اليهُود عن احتلالها طويلاً، والتي ظلَّت تحول دُون اتِّصالهم ببعضهم البعض حتَّى عهد داود عليه السلام.

وفي الأسفار ظاهرة أُخرى تُكَذِّب زعم احتلال اليهُود بالقُوَّة للمناطق التي أقاموا فيها، وهي أنَّ سفْر القُضاة يذكر في الإصحاح الثّالث، فقرة 5/ 6 أنَّ قبيلتَيْ أستير ونفتالي (من أسباط اليهُود) كانتا تُقيمان بين الكنعانيِّين. وهذا القول يعني ـ بصراحة ـ أنَّ بعض القبائل اليهُوديَّة كانت تخضع للكنعانيِّين، وتقطن بينهم كلاجئين، أو أتباع، أو عشائر رعويَّة.

ولقد ذَهَبَ أكثر النُّقَّاد إلى الأخذ بهذه النّظريَّة اعتماداً على المخطوطات الأثريَّة التي عثروا عليها في تلّ العمارنة، والتي تُشير إلى أنَّ بعض حُكَّام فلسطين كانوا يستخدمون العبرانيِّين لمصالحهم الخاصَّة؛ أيْ أنَّهم كانوا يستأجرونهم كجُنُود مُرتزقة للاستعانة بهم،

سواء في حُرُوبهم مع جيرانهم، أو لأعمال أُخرى. ويقول المُؤرِّخ الفرنسي "لودس": إنَّه رُبَّما كانت قبيلتا أستير ونفتالي من القبائل التي سَبَقَ لأحد أُمراء فلسطين استئجارها، ومن ثمَّ استساغتا العيش في كنفه، وعملتا تحت حمايته. وممَّا سَبَقَ توضيحه يتبيَّن أنَّ قصَّة الغزو العامِّ لفلسطين لا يستند على أيِّ أساس متين.

وهكذا يتَّضح أنَّ الغزو كان على مراحل وعلى نطاق قبلي أو عشائري، ومن جهات مُختلفة.

أمَّا زعم التّمركز النّهائي لليهُود في عهد يُوشع؛ فتدحضه الفقرة الثّامنة من الإصحاح السّابع عشر من سفْر القُضاة، التي تروي لنا حادثة فرار قبيلة "دان" من منطقتها إلى المناطق الشّماليَّة. كما تدحضه الفقرة الرّابعة عشرة من الإصحاح نفسه من سفْر القُضاة، التي تُحدِّثنا عن نُزُوح سبط "منسي" من غرب البلاد إلى شرقها.

ومن فحوى هذه القَصَص يُفهم أنَّ اليهُود لم يتمكَّنوا من تثبيت أقدامهم في المناطق التي زعموا احتلالها، وكانوا دائماً معرضين لخطر الطّرد والتّهجير منها.

أمَّا ادِّعاء سفْر القُضاة (إصحاح 3 فقرة 2) بأنَّ بُطء سير الفتح والغزو نتج عن رغبة "يَهْوَه" إلههم في إطالة أمد الحُرُوب، حتَّى يُوفِّر للأجيال اليهُوديَّة المُتعاقبة فُرص التَّمرُّس على أساليب القتال، ومزاعم سفْر الخُرُوج (إصحاح 23، فقرة 29 ـ 30) وسفْر التّثنية (إصحاح 7، فقرة 22) القائلة بأنَّ "يَهْوَه" أطال أمد الفتح حتَّى يحول دُون تفريغ البلاد من سُكَّانها قبل أنْ يتكاثر عدد اليهُود ليملؤوا الفراغ، أو حتَّى لا تتكاثر الوُحُوش الكاسرة، وتُصبح خطراً على اليهُود، أو لتحول دُون أنْ تُصبح البلاد صحراء قاحلة بعد خُلُوِّها من السُّكَّان؛ فذلك كُلُّه ليس إلاَّ من قبيل الاستدراك لتغطية فشل اليهُود في فتح البلاد، أراد كُتَّاب الأسفار من استبطائها التّمويه على شَطَط سفْر يشوع في وصفه المغلوط لهذا الغزو المزعوم.

والحقيقة ـ كما يبدو لي ـ أنَّ الغزو الإسرائيلي لفلسطين والأُردُن لم يكن إلاَّ رحلة انتجاع طَلَباً للمرعى الخصب، والماء الوفير، والعشائر الإسرائيليَّة التي كانت تجوب بوادي سيناء وشمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة أرادت أنْ تنتقل شمالاً إلى مناطق أوفر خصباً، وأعذب مناخاً، وأكثر مياهاً، شأنهم في ذلك شأن الموجات العَرَبيَّة التي خرجت من الجزيرة العَرَبيَّة

إلى بلاد الهلال الخصيب (العراق والشّام)، ولا ننسى أنّهم كانوا عَرَباً لُغة وأصلاً غير يهُود اليوم الذين لا يمُتُّون إلى تلك العشائر الإسرائيليَّة بأيَّة صلة (كما سنرى فيما بعد).

عهد القُضاة:

يُستدلُّ من عرض التّوراة لوَضْع المُوسويِّيْن في كنعان بعد موت يُوشع بن نُون على أنّهم أصبحوا مُهدَّدين بالفناء، وقد اضطرُّوا أنْ يُخلوا بعض المُدُن التي استولوا عليها، فضاق بهم الأمر حتّى أقام لهم الرَّبُّ قُضاة ليُخلِّصوهم من أيدي أعدائهم، لذلك سُمِّي هذا العهد بعصر (القُضاة)، وقد استمرَّ هذا العصر حسب تقرير المُؤرِّخين قرناً كاملاً من 1125 ـ 1025 ق. م.

وكان عهد القُضاة عهداً مُضطرباً، تخلَّلَتْهُ عدَّة نكسات، كادت تُهدِّد المُوسويِّيْن في فلسطين بالفناء؛ إذْ تعترف التّوراة أنَّ الكنعانيِّيْن والفلسطينيِّيْن أصبحوا من القُوَّة؛ بحيثُ تمكّنوا من إخضاع المُوسويِّيْن، وحُكْمهم في فترات مُتواصلة قُبيل وخلال عهد القُضاة، فكان أوَّل مَنْ أخضعهم "كوشان رشعتايم" ملك آرام النّهرَيْن[1] (قُضاة، إصحاح 3، فقرة 8). ثُمَّ هجم عليهم بنو عمون والعمالقة، فضربوهم، واستولوا على مدينة أريحا (مدينة النّخل كما تقول التّوراة، سفْر القُضاة، إصحاح ثالث، فقرة 13)[2].

ثُمَّ ضايقهم "يابين" ملك كنعان في حاصور بشدَّة عشرين سنة (قُضاة 4، فقرة 3) واستعبدهم بنو عمون والفلسطينيُّون ثماني عشرة سنة (قُضاة 10، فقرة 8). وفي أواخر عهد القُضاة، أوقع الفلسطينيُّون بالمُوسويِّيْن هزائم شديدة، حتّى إنّهم استولوا على "تابوت العهد"، وخضع المُوسويُّون لحُكْمهم أربعين سنة، حتّى ظهر "شمشون[3]"، فحارب الفلسطينيِّيْن (قُضاة 3، فقرة1).

---

(1) آرام النّهرَيْن: إحدى ممالك الآراميِّيْن في بلاد الشّام. وبنو عمون أو العمونيُّون كانت مملكتهم في شرق الأُردُن، واسم عمَّان عاصمة الأُردُن مُشتقٌّ منهم.

(2) المصدر د. سُوسة، ص 620 ـ 625، وس. ناجي، ص 39 (المُفسدون في الأرض).

(3) شمشون: أحد قُضاة بني إسرائيل، وقصّته مرويَّة بالتّفصيل من مولده إلى مماته في سفْر القُضاة من الإصحاح 13 ـ 16، ومُلخَّص قصّته أنّه وُلد لرجل من عشيرة الدّانيِّيْن (سبط دان)، وكانت امرأته عاقراً، فبشّرها الرَّبُّ بولَد يكون قويّاً جدّاً. وقد حارب الفلسطينيِّيْن، وانتصر عليهم، ولكنّهم عرفوا بسرِّ قُوّته وهي في شعره. فقصّوا شعره بمُساعدة زوجته وهي من الفلسطينيِّيْن، فأصبح لا حول له ولا قُوَّة، واقتيد أسيراً إلى بلدهم؛ حيث عذّبوه، وفقؤوا عينَيْه.

وتعترف التّوراة بصمُود سُكَّان فلسطين أمام المُوسويّين؛ إذْ تُؤكِّد مراراً أنَّ المُوسويّين لم يستطيعوا طَرْد سُكَّان فلسطين الأصليّين من أراضيهم، وقد سكنوا معهم، وشاركوهم في وطنهم، فتذكر أنَّهم «سكنوا وسط الكنعانيّين والحثّيّين (بني حث من الكنعانيّين)، والأمُوريّين، والفرزيّين، والحيويّين، واليبوسيّين، واتّخذوا بناتهم لأنفسهم نساءً، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم» (قُضاة 3، فقرة 5 ـ 6).

وهذا دليل قاطع على بقاء سُكَّان فلسطين على أراضيهم، واستمرار الثّقافة الكنعانيَّة في البلاد. وإليكَ التّأكيدات التي وَرَدَتْ في التّوراة بهذا المعنى:

1 ـ لم يطرد بنو إسرائيل الجشوريّين والمعكيّين (وهُم من قبائل الجانب الشّرقي للأُردُن)، فسكن الجشوري والمعكي وسط كنعان إلى هذا اليوم. (سفْر يُوشع، إصحاح 13، الفقرة 13).

2 ـ لم يطرد "منسي" أهل بيت شان (بيسان الآن في غور فلسطين) وقُراها، ولا أهل تعفك وقُراها، ولا سُكَّان دور وقُراها، ولا سُكَّان يبلعام وقُراها، ولا سُكَّان مجدو وقُراها. فعزم الكنعانيُّون السَّكَنَ في تلك الأرض. وكان لمَّا تشدَّد إسرائيل أنَّه وَضَعَ الكنعانيّين تحت الجزية، ولم يطردهم طَرْداً». (قُضاة 1، فقرة 27).

3 ـ زبلون لم يطرد قطرون[1] ولا سُكَّان نهلول[2]، فسكن الكنعانيُّون في وسطه (قُضاة 1، فقرة 30).

4 ـ نفتالي لم يطرد سُكَّان بيت شمس، ولا سُكَّان بيت عناة، بل سكن في وسط الكنعانيّين سُكَّان الأرض. (قُضاة 31، فقرة 23).

5 ـ وأخذ يهُوذا غزَّة وتُخُومها، وأشقلون[3] وتُخُومها، وعقرون وتُخُومها، ولم يطرد سُكَّان الوادي. (قُضاة 1، فقرة 16 ـ 18).

---

(1) مطرون: هي النّطرون الآن، غرب سهل مرج بن عامر.

(2) نهلول: نهلال الآن، في وسط مرج بن عامر.

(3) أشقلون: هي عسقلان الآن، على البحر المُتوسِّط جنوب يَافَا.

6 ـ إفرايم لم يطرد الكنعانيِّيْن السّاكنين في جازر، فسكن الكنعانيُّون في وسطه في جازر. (قُضاة 1، فقرة 29).

7 ـ لم يطرد أشير سُكَّان عكو (عكا الآن) ولا سُكَّان صيدون واحلب واكزيب وحلبه وأفيق ورحوب، فسكن الأشيريُّون في وسط الكنعانيِّيْن سُكَّان الأرض لأنَّهم لم يطردوهم (يُوشع 1، فقرة 10).[1]

8 ـ وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيِّيْن سُكَّان أُورشليم، فسكن اليبوسيُّون مع بني بنيامين في أُورشليم إلى هذا اليوم. (قُضاة 1، فقرة 21) وكذلك قول التّوراة: « وأمَّا اليبوسيُّون السّاكنون في أُورشليم؛ فلم يقدر بنو يهُوذا على طردهم، فسكن اليبوسيُّون مع بني يهُوذا في أُورشليم إلى هذا اليوم. (يُوشع 15، فقرة 62)[2].

(ولعلَّ المقصود "هذا اليوم"؛ أيْ إلى ما بعد السّبي البابليّ هُو زمن تدوين التّوراة).

وأوضح دليل على أنَّ أُورشليم بقيت في أيدي سُكَّانها الأصليِّيْن هُو أنَّ الملك داود عليه السلام لَمَّا أراد أنْ يُنشئ الهيكل في أُورشليم قام بشراء قطعة الأرض التي اختارها لهذا الغرض من أصحابها اليبوسيِّيْن (سفْر صموئيل الثّاني، إصحاح 24، فقرات 24 ـ 25) وليس هُناك ما يُشير إلى أيِّ حَدَث تاريخي اضطُرَّ سُكَّان أُورشليم غير المُوسويِّيْن إلى مُغادرة مدينتهم، فلم يُصبهم شيء من السّبي والتّشريد والتّقتيل التي أصابت المُوسويِّيْن مثل السّبي الآشوري، ثُمَّ السّبي البابليّ والمذابح التي لحقت باليهُود زمن الإمبراطُور الرُّوماني طيطس، ثُمَّ تشريدهم من فلسطين، وتحريمها عليهم. وكان كُلُّ ذلك واقعاً على اليهُود فقط، أمَّا السُّكَّان الأصليُّون؛ فلم يُصبهم شيء من ذلك، وبقوا في بلادهم فلسطين.

ومن الغريب حقّاً أنَّ الكُتَّاب اليهُود ـ عندما يتطرَّقون إلى موضوع الكنعانيِّيْن ـ يدَّعون أنَّ اليهُود أبادوا الشّعب الكنعاني، ولم يبق له وُجُود، مثل: "هانس كوهن" في كتابه

(1) راجع ماسَبَقَ من 1 ـ 8 العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة ص 621 ـ 623.

(2) نُلاحظ مِمَّا سَبَقَ أنَّ مناطق فلسطين قد قسَّمها بنو إسرائيل بين أسباطهم، واختصَّ كُلُّ سبط بمنطقة مُحدَّدة له في فلسطين، ولم يستطع كُلُّ سبط أنْ يطرد الكنعانيِّيْن من منطقته، فاضطُرَّ للتّعايش والسَّكَن معهم، ونُلاحظ ـ أيضاً ـ أنَّ منطقة القُدس كانت مُخصَّصة لسبط يهُوذا وسبط بنيامين، وكان فيها دولة اليبوسيِّيْن القويَّة نسبة إلى عاصمتهم يبوس (وهي القُدس الآن).

"الصّهيُونيَّة وفكْرة القوميَّة اليهُوديَّة" (صفحة 209)، وذلك على الرّغم من أنَّ التّوراة نفسها تُؤكِّد مراراً وتكراراً (كما أسلفنا) أنَّ اليهُود سكنوا إلى جانب الكنعانيِّيْن؛ إذْ لم يستطيعوا طردهم من ديارهم كما تقدَّم شرحه.

وهذا يدلُّ على أنَّ المُوسويِّيْن لم يدخلوا فلسطين كغُزاة حاكمين، بل سكنوا بين أهل البلاد الأصليِّيْن كلاجئين، أو كبدو رُحَّل، كانت لهم فلسطين أخصب أرضاً من بوادي سيناء ووادي عَرَبة.

أمَّا الرّوايات القائلة بأنَّهم دخلوا فلسطين كمُقاتلين؛ فهي تُناقض مُدوَّنات التّوراة المُتقدِّمة. واستناداً إلى نظريَّة الكُتَّاب اليهُود بإبادة الشّعب الكنعاني أمثال "هانس كوهن" كان "هرتزل"[1] يرى: «أنَّ الحلَّ البسيط للقضيَّة اليهُوديَّة هي عبارة عن: مَنْح أرض بلا شعب، إلى شعب بلا أرض»؛ أيْ العمل على إبادة الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ، أو طرده من أرضه.

وهذا ما حَدَثَ فعلاً سنة 1948؛ حيثُ عمل اليهُود - بكُلِّ الوسائل - إلى إخلاء أرض فلسطين من سُكَّانها بالطَّرْد والتّشريد الإجباري، كما حَدَثَ في مُدُن كثيرة من مُدُن فلسطين مثل: صَفَد، طبريا، حَيْفَا، اللّدّ، الرّملة، يَافَا وحَيْفَا.. إلخ، أو بإرهاب السُّكَّان وتخويفهم بالقَتْل والمذابح الجماعيَّة؛ وخاصَّة بالقُرى؛ حيثُ يكون اليهُود بمنجى من الرّقابة، ويستطيعون إخفاء جرائمهم عن الرّأي العامِّ العالميّ؛ مثل قُرى: حواسه، وبلد الشّيخ، وناصر الدِّين، وعيلوط.. إلخ، والتي لا تقلُّ المذابح الوحشيَّة فيها عن مذبحة دير ياسين، ولكنَّ الرّأي العامَّ لم يعلم بها، واستطاع اليهُود إخفاء جرائمهم فيها[2].

ولقد صَدَرَ مُؤخَّراً كتاب باللُّغة الإنكليزيَّة بعُنوان "غزو الإسرائيليِّيْن لبلاد كنعان" لمُؤلِّفه الأُستاذ "يبغين"، وقام بطباعته المعهد الهُولندي في استانبول، وخُلاصة ما توصَّل إليه المُؤلِّف من بحثه هُو: أنَّ الغزو المُوسويّ لبلاد كنعان لم يقم على أساس التّخطيط المسبق، ثُمَّ التّنفيذ دفعة واحدة، نتيجة هُجُوم مُنظَّم كما وَرَدَ في سفْرَيْ (العدد ويُوشع)، بل كان عبارة عن

(1) هرتزل مُؤسِّس الحَركَة الصّهيُونيَّة.
(2) للتّوسُّع في المجازر اليهُوديَّة؛ يُراجَع الكتاب الهامُّ (المجازر اليهُوديَّة والإرهاب الصّهيُوني) وذلك مُنذُ نُزُول التَّوراة حتَّى الآن، للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، ط1، 2003.

موجات مُتتالية من الهجرات إلى كنعان تمَّت بشكل تدريجي ، مُستهدفة الاستقرار على الأرض والحُصُول على ما يسدُّ الرّمق بواسطة الزّراعة والرّعي ، ويُؤكِّد المُؤلِّف أنَّ هذه النّتيجة التي توصَّل إليها في بحثه أصبحت ـ الآن ـ مقبولة بوجه عامٍّ ، وتلقى الدّعم الكُلِّيَّ . [1]

ويقول الأُستاذ س. ناجي : « ومن فحوى الاعترافات اليهُوديَّة يتبيَّن لنا أنَّ سُكَّان فلسطين ثابروا على مُقاومة اليهُود طيلة عدَّة قُرُون ، وأذلُّوهم أكثر من مرَّة. ولولا تعنُّت قُضاة اليهُود وسعيهم الدّائم إلى تحريض أبناء قومهم على مُتابعة القتال ، بُغية تحقيق وُعُود "يَهْوَه" المزعومة التي كان اليهُود يُؤمنون بها ، ويعتقدون بصحَّتها ؛ لكثرة ما كان زُعماؤهم ، وقُضاتهم يُردِّدونها على أسماعهم ، لكان اليهُود ذابوا في البوتقة الكنعانيَّة والعَرَبيَّة مُنذُ القرن الأوَّل لدُخُولهم إلى فلسطين ، ولكنَّ مُثابرة قُضاتهم على حثِّهم لُمتابعة القتال كانت تُجدِّد عزائمهم ، وتُحيي في نُفُوسهم أحلام الأسلاف ، وتدفعهم إلى مُتابعة العراك بأبشع الأساليب من غدر وحيلة ، وتطبيق شريعة القَتْل العامِّ على مَنْ ينتصرون عليهم ، بُغية إرهاب مَنْ ينوي مُناوأتهم من الأعداء . بيد أنَّ هذا الأُسلُوب لم ينجح مع سُكَّان فلسطين ، ولم تُرهبهم همجيَّة اليهُود ، فظلُّوا يُقارعونهم من أواخر القرن السّادس قبل الميلاد ؛ أيْ حتَّى القضاء على دولتَيْ السّامرة ويهُوذا ، وسُبي مُعظم اليهُود من فلسطين إلى خارجها »[2] .

وأُضيف أنَّ من أهمِّ أسباب عدم ذوبان اليهُود في البوتقة الكنعانيَّة ، وكذلك عدم ذوبانهم وانصهارهم في مُختلف الشُّعُوب والبيئات التي عاشوا فيها ، ومُحافظتهم على كيانهم ، وتقوقعهم على أنفسهم ، هُو عقيدة اليهُود بأنَّهم "شعب الله المُختار" ، وعليهم أنْ يُحافظوا على أنفسهم ، وأنَّهم مُتميِّزون من بقيَّة النّاس ، أو ما يُطلقون عليهم "الأغيار" وقد رأينا ذلك في توراتهم عندما حرَّم إبراهيم ﷺ أبناء السّراري (هاجر وقطورة) (حسب عقيدتهم) من ميراثه ، وخصَّه بإسحاق ابن السَّيِّدة (سارة) ابنة عمِّه ، وأرسل عبده ليحضر زوجة لابنه إسحاق هي "رفقة" ابنة بتوئيل بن ناحور أخي إبراهيم ﷺ. ورَفَضَ أنْ يتَّخذ

---

(1) راجعْ ، اليهُود والعَرَب في التّاريخ ، د. أحمد سُوسة ، ص 224 ـ 225 .

(2) الأُستاذ ناجي ، "المفسدون في الأرض" ، ص 39. وكما هُو الحال الآن ، فإنَّ الشّعب العَرَبيّ في فلسطين يُقارع الغزاة اليهُود مُنذُ بداية هجرتهم إلى فلسطين (قبل وعد بلفور وبعده) وحتَّى الآن ، وسيستمرُّ الكفاح إنْ شاء اللّه ، رغم تخاذل المُتخاذلين واستسلام المُستسلمين .

لابنه زوجة من بنات كنعان (تكوين، الإصحاح 22، فقرة 3 و23). وكذلك حرَّم إسحاق ابنه عيسو (آدوم) من ميراثه؛ لأنَّه تزوَّج من "يهُوديت" ابنة بيري و"بسمة" ابنة إيلون الحثيان (وهُم من نسل كنعان)، فكانتا مرارة في نفس إسحاق وزوجته رفقة، كما وَرَدَ في (سفْر التّكوين، الإصحاح 26، فقرات 24 - 25). وخصَّ إسحاق ميراثه بابنه يعقُوب، الذي تزوَّج من ابنتَيْ خاله لابان، وهُما (زلفه وراحيل) كما أوصاه والده إسحاق (تكوين 28، فقرات 2، 3) وكان أحبَّ أولاده إليه يُوسُف وبنيامين ابنا راحيل ابنة خاله. (هذا كُلُّه حسب ما جاء في التّوراة، ولكنَّ إبراهيم وإسحاق ويعقُوب هُم أنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وحاشا أنْ يكون عندهم هذا التّمييز العنُصُري، ولكنَّ كُلَّ ما في الأمر أنَّها عادة الزّواج من الأقارب، فالقريبة - وخاصَّة ابنة العمِّ أو ابنة الخال - تكون أكثر إخلاصاً ومودَّة لزوجها، وفي ذلك صلة للقُربى وتمتين الأواصر بين الأقارب، وخاصَّة في الأزمان السّابقة).

وممَّا جاء في التّوراة بهذا الخُصُوص أنَّ الرَّبَّ غضب، وحمي غضبه على بني إسرائيل، عندما سكنوا وسط الكنعانيِّين، واتَّخذوا من بناتهم نساء لأنفسهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم، حتَّى وعبدوا آلهتهم. (سفْر القُضاة، إصحاح 3، فقرة 5، 6).

حتَّى إنَّ الملك سُلَيْمَان عليه السلام حسب ما جاء في التّوراة غضب عليه الرَّبُّ لأنَّه تزوَّج نساء غريبات كثيرة (كما جاء في سفْر المُلُوك الأوَّل، إصحاح 11، من الفقرة 1 إلى 13). وهي: «أحبَّ سُلَيْمَان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعُون، مُوآبيَّات وعمونيَّات وآدوميَّات وصيدونيَّات وحثِّيَّات من الأُمم الذين قال عنهم الرَّبُّ لني إسرائيل: لا تدخلون إليهم، وهُم لا يدخلون إليكم، لأنَّهم يميلون قُلُوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سُلَيْمَان بهؤلاء بالمحبَّة، وكانت له سبعمائة من النّساء السَّيِّدات، وثلاثمائة من السّراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمن شيخوخة سُلَيْمَان أنَّ نساءه أملنَ قلبه وراء آلهة أُخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرَّبِّ إلهه كقلب داود أبيه.. فقال الرَّبُّ لسُلَيْمَان: من أجل أنَّ ذلك عندكَ، فلم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتكَ بها، فإنِّي أُمزِّق المملكة عنكَ تمزيقاً».

إنَّ كلام التّوراة السّابق هُو اتِّهام واضح بالكُفر والزّيغ لنبي الله سُلَيْمَان عليه السّلام، وهذه عادة اليهُود باتِّهام أنبيائهم بالكُفر والانحراف عن الدِّين، ثُمَّ قَتْلهم في أكثر الأحيان

كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ سُورة النّساء 155.

ونُلاحظ - أيضاً - فيما سَبَقَ من كلام التّوراة هذه العصبيَّة المقيتة التي يتَّصف بها اليهُود، والنّابعة من اعتبار أنفسهم "شعب الله المُختار"، واحتقار الأغيار، واعتبارهم دُونهم، وأنَّهم خُلقوا لخدمتهم، وأنَّهم لا يزيدون عن مرتبة الحيوانات (كما سنرى عند الحديث عن مُعتقداتهم إنّ شاء الله).

وحتَّى الآن لا يتزوَّج اليهُود من غيرهم إلاَّ ما ندر، ولكنَّهم يُزوِّجُون بناتهم الحسناوات إلى مُلُوك أو حُكَّام، أو زُعماء المناطق التي يعيشون بها، طَمَعاً في تهويدهم، وأملاً في حمايتهم، والتَّحصُّن بنُفُوذهم، وهُم يعتبرون ابن اليهُوديَّة يهُوديّاً مهما كان أبوه (كما سنرى عن التَّحدُّث عن مُعتقداتهم إنْ شاء الله).

هذا هُو السِّرُّ في بقاء اليهُود وعدم انصهارهم في كُلِّ مكان وزمان في المُجتمعات التي عاشوا فيها سابقاً، ويعيشون فيها الآن. مع أنَّ أبناء عُمُومتهم من المديانيِّيْن والآدوميين والشّبئيِّيْن والإسماعيليِّيْن وغيرهم من ذُرِّيَّة إبراهيم الخليل عليه السّلام (عدا بني إسرائيل ذُرِّيَّة يعقُوب) قد اندمجوا في البوتقة العَرَبيَّة في المنطقة، ولم يبق لهم أيُّ أثر إلاَّ عُرُوبتهم.

هجرة الفلسطينيِّيْن إلى فلسطين:

مرَّ معنا أنَّ الفلسطينيِّيْن كانوا في عهد القُضاة أشدُّ سُكَّان فلسطين مُقاومة لليهُود وتوسُّعهم.

مَنْ هؤلاء الفلسطينيُّون؟

إنَّهم قوم هاجروا من بحر إيجه وغرب آسيا الصُّغرى وجنوب اليُونان، وكانت هجرتهم هَرَبَاً من زحف القبائل اليُونانيَّة القادمة من الشّمال، واستقرارها في بلاد اليُونان الحاليَّة وغرب آسيا الصُّغرى، وكانت هجرتهم في أوائل القرن الثّاني عشر قبل الميلاد (الدُّكتُور مُحَمَّد عُصفُور في تاريخ الشّرق الأدنى يُقدِّر هجرتهم في أواخر القرن الثّالث عشر قبل الميلاد).

وقد حاولوا الاستقرار في سواحل مصر، ولكنَّ رعمسيس الثّاني تمكّن من صدِّهم، فاتَّجهوا إلى سواحل فلسطين الجنوبيَّة من غزَّة جنوباً إلى جنوب يَافَا شمالاً، وأسَّسوا ـ في هذا القطاع ـ المُدُن التّالية: غزَّة، أشقلون (عسقلان) جت، أشدود، عقرون، وكانت كُلُّها على السّاحل، عدا جت؛ فكانت إلى الدّاخل قليلاً.

وكان أتباع مُوسى في فلسطين عندما نزح الفلسطينيُّون إلى سواحل فلسطين الجنوبيَّة، وكان ذلك في عهد يُوشع. ولم يستطع يُوشع التَّحرُّش بهم؛ لأنَّهم كانوا مُتفوِّقين على أتباعه في معدَّاتهم الحربيَّة.

وأقدم ذكْر للفلسطينيِّيْن وَرَدَ في النُّصُوص المصريَّة والآشوريَّة، فقد سُمِّيت بلادهم باسم "بالاستو" أو "بيلستو"، والذي أصبح "بالستينا".

وقد وَرَدَتْ تسميتهم بـ (الفلاشيُّون)، وعلى كُلِّ حال؛ فإنَّ تسمية السّاحل الجنوبي لفلسطين بالسّهل الفلسطينيّ كان نسبة لهم، ثُمَّ عمَّ الاسم على كُلِّ ما يُعرَف ـ الآن ـ باسم "فلسطين".

وتذكر التّوراة أنَّ قوم مُوسى تمكَّنوا في عهد يُوشع بن نُون من الاستيلاء على غزَّة وأشقلون وعقرون وتُخُومها (سفْر القُضاة، إصحاح 1، فقرة 18)، ولكنَّ الفلسطينيِّيْن عادوا فأوقعوا بالمُوسويِّيْن في أواخر عهد القُضاة هزائم شديدة، حتَّى إنَّهم استولوا على تابوت العهد (صموئيل الأوَّل، إصحاح 1، فقرة 5)، وخضع المُوسويُّون إلى حُكْمهم أربعين سنة (قُضاة 13، فقرة 1) حتَّى ظهر شمشون الجبَّار، فحارب الفلسطينيِّيْن (قُضاة، إصحاح 15، فقرة 14 ـ 16).

وفي عهد صموئيل (آخر عهد القُضاة) استرجع المُوسويُّون المُدُن السّاحليَّة التي استولى عليها الفلسطينيُّون، ثُمَّ هاجم المُوسويُّون بقيادة الملك شاؤول الفلسطينيِّيْن، إلاَّ أنَّهم اندحروا أمامهم، وقُتل الملك شاؤول وأولاده الثّلاثة في المعركة، ثُمَّ تقلَّد الحُكْمَ الملكُ داود عليه السلام الذي استطاع أنْ يُخضع أكثر المُدُن الفلسطينيَّة إلى حُكْمه (صموئيل، إصحاح 1، فقرة 1 ـ 8)، وسنذكر ذلك فيما يلي عند الحديث عن الملك داود[1].

---

(1) المرجع الأساسي فيما سَبَقَ د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، من ص 228 ـ 234.

الفصل السّادس:

عهد المُلُوك

اختلف كُتّاب سفْر القُضاة في وصفهم قيام الملكيَّة المزعومة في المناطق اليهُوديَّـة، فقـال رُواة الإصحاحات 7/ 10/ 12 من السِّفْر نفسه: إنَّ قيامها كان بناء على رغبة اليهُود و"يَـهْوَه" معاً. واختلاف الرُّواة هذا أدّى إلى اختلاف النُّقَّاد حول تحديد الظُّرُوف التي أحاطت بقيام النّظام الجديد.

بعضهم قال: إنَّ انتصار شاؤول غير المُنْتَظَر على الفلسطينيِّين كان السّبب المُباشر لالتفاف اليهُود حوله، ومن ثمَّ المُناداة به ملكاً على المنطقة، ومن هؤلاء المُؤرِّخ الفرنسي الشّهير "لودس".

بينما قال آخرون: إنَّ قيام الملكيَّة استلزم كثيراً من الجُهُود بذلها اليهُود لإقناع شعبهم بضرورة تأييد قيام الملكيَّة لمُجابهة الأخطار التي تحدق بهم، من جرَّاء تمزُّقهم وتفرُّق شملهم.

والأُستاذ ناجي (في كتابه المفسدون في الأرض) يأخذ بالنّظريَّة الأخيرة التي تنسجم مع منجزات القاضي "صموئيل" الذي اشتهر بتعصُّبه القومي وتعلقه بالنّظام والتّنظيم، وإذا دققنا فيما حقّقه من أُمُور نجد أنَّه كان خلف عمليَّة إقرار النّظام الملكي بين اليهُود.

وأيّاً كان الدّافع لقيام النّظام الملكي، فإنَّ التّوراة تصف كيف عيَّن صموئيل آخر كبار القُضاة "شاؤول"[1] ملكاً على اليهُود (سفْر صموئيل الأوَّل، الإصحاح 8، الفقرات من 1 ـ 5، ومن 19 ـ 20).

ويقول الأُستاذ ناجي: «إنَّ زعم قيام الملكيَّة في عهد شاؤول ما هُو إلاَّ زعم باطل، فهُو لم يتَّخذ لنفسه قصراً (ليكون قصراً للحكْم) ولم يُعيِّن لمملكته عاصمة، ولم يصكّ

(1) شاؤول هُو طالوت في القُرآن الكريم، كما سنرى فيما بعد.

نُقُوداً، ولـم يفـرض ضرائـب، ولا أتـاوات، وعـاش طـوال حياتـه فـي الجبـال مـع أنصـاره (وخاصَّة رجال قبيلة "منسي") يُقاتل أعداء اليهُود، فانتصر علـى "صويـا" (وهـي مـن الممـالك الآراميَّة)، وعلى المؤابيِّين، وطارد القبائل الرُّحَّل التي كانت تعتدي على اليهُود في الجنوب، واشتبك مراراً مع الفلسطينيِّين. وكان مُحبّاً لليهُود لا يحجم عـن مُساعدة كُلِّ مَـنْ يستنجد به. فذاع صيته، وعظم شأنه لدى الأسباط، والتفَّ حوله خيرة شباب اليـهُود، ومنهم داود عليه السلام (قبل أنْ يُصبح طريده).

وقد أراد كُتَّاب الأسفار تعظيم شأن شاؤول نتيجة لأعماله الحربيَّة هـذه وورعـه الشّديد وانصياعه لرجال الدِّين، فسمّوه ملكاً مُكافأة له. وهُو - في الواقع - لم يكن إلاَّ رئيس عصابة صغيرة تمرَّدت على السُّلطات الفلسطينيَّة، واعتصمـت فـي الجبـال، وكـانت تقـوم بالغـارات اللّيليَّة على المراكز الفلسطينيَّة بقَصْد مُباغتتها، وسَلْب ما تحويه من سلاح ومال».

وكان على الملك شاؤول الرُّضُوخ التّـامّ لأوامـر "يَـهْوَه" المنقولـة إليه علـى أيـدي الكَهَنَـة رجـال الدِّيـن، ولمَّـا أهمـل الملـك الرُّضُـوخ التَّـامَّ لـهم، خَذَلَـهُ الـرَّبُّ، وأوقعـه بيـد أعدائـه الفلسطينيِّيْن، فاندحر أمامهم، وقُتل هُو وأولاده الثّلاثة في المعركة.

وقد استمرَّ حُكْم شاؤول **15** سـنة بـين **1025 ـ 1010** ق.م (صموئيـل **1**، إصحـاح **31**، فقرة من **1 ـ 10**، وصموئيل **2**، إصحاح **1**، فقرات **6 ـ 10**).

وشاؤول من سبط بنيامين، ونَسَبُهُ كما جاء في سفْر صموئيل هُو شـاؤول بـن قيـس بـن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح بن بنيامين بن يعقُـوب بـن إسـحاق بـن إبراهيـم (صموئيـل **1**، إصحاح **9**).

الملك داود عليه السّلام:

تقلَّـد الحُكْـم خلفـاً لشـاؤول، رغـم وُجُـود وريثـه الشّـرعي (أشيوشـت) الـذي فـرَّ مـن حبرون، لعَجْزه عن رَدْع داود من احتلال مركز أبيه.

وقد اتَّخذ داود أُورشليم بعد استيلائه عليها من اليبوسيِّيْن عاصمة له، وبنى فيها قصـره الملكي، وأقام فيها معبداً للإله "يَهْوَه"، وقد استمرَّ حُكْم داود زهاء **40** سنة، مـن **1010 ـ 971**

ق.م، منها سبع سنوات في حبرون، والباقي في بيت المَقْدس (سفْر صموئيل الثّاني، إصحاح 5، فقرة 4).

وقد انقسم اليهُود إلى فئتَيْن(1): الأُولى تُناصر داود، بينما الأُخرى تدعم أشبوشت بن شاؤول، ولكنَّ داود وأنصاره استطاعوا الانتصار، وتوحَّد اليهُود تحت مَلَكيَّة داود.

وحسب ما وَرَدَ في صموئيل الثّاني والمُلُوك الأوَّل أنَّ داود ـ بمُجرَّد أنْ انتهى من تثبيت مُلكه ـ عمد إلى التَّخلُّص من الفلسطينيِّيْن، وأعلن الحرب عليهم، وبعد صراع دام طويلاً، تمكَّن من تقليص ظُلمهم عن المُقاطعات اليهُوديَّة، ثُمَّ بادر إلى تصفية القواعد الكنعانيَّة التي ظلَّت أمداً طويلاً تحول دُون توحيد المناطق اليهُوديَّة، وكانت القُدس آخر هذه المعاقل، فاحتلَّها من يد اليبوسيِّيْن، ونقل إليها "خباء المحضر"، أو "خيمة الاجتماع"، و"تابوت العهد"، وأعلنها عاصمة لمُلْكه.

وتُثابر الأسفار الحديث عن قصَّة داود، وتقول: إنَّه بُويع من قبَل جميع الأسباط، وأصبح سيِّد اليهُود دُون مُنازع، ولمَّا استتبَّ له الأمر باشر في تنظيم دولته، فعيَّن لها الوُزراء والرُّؤساء والدّواوين، وكوَّن جيشاً من المُتطوِّعة، وآخر من أفراد الشّعب، ونصب عليها الأُمراء والقادة، كما نظَّم الكَهَنُوت ورجال الدِّين، وحدَّد الطُّقُوس الدِّينيَّة.

ولقد اشتهر داود بالتّقوى، واحترام رجال الدِّين، والعمل بسُنن الشّريعة، ومع هذا؛ عُرف بحُبِّه للبذخ والتّرف، فذكرتْ المصادر اليهُوديَّة أنَّه بنى القُصُور والقلاع لزوجاته وقُوَّاد جيشه، واكتنز الأموال الطّائلة.

وفيما يتعلَّق بانتصاراته العسكريَّة؛ تقول الأسفار: إنَّه اجتاح الممالك والدُّولن حتَّى أصبحت مملكته تشمل كافَّة الأقطار الواقعة بين النّيل والفُرات (راجع سفْرَيْ صموئيل الثّاني، والمُلُوك الأوَّل) وهذا من مُبالغات التّوراة الكثيرة.

وفي وَصْف مناقبه لم يدَّخر كُتَّاب الأسفار وُسعاً في التَّحدُّث عنها، حتَّى إنَّ القلم يعجز اليوم عن تسطير كُلِّ ما قيل عنه، ويزعم اليهُود أنَّ عهده كان أسعد عهد عرفوه، ولذا؛ فهُم يُطلقون عليه اسم "العهد الذّهبي".

---

(1) ناجي، "المُفسدون في الأرض"، ص 44 ـ 46.

ومع كُلِّ هذا المديح الذي يُكيله السِّفْران (صموئيل الثّاني، ومُلُوك الأوَّل) لداود يعود ليروي لنا في فقرات أُخرى تآمره مع الفلسطينيِّيْن على شاؤول، وإقدامه على إعدام مَنْ بشَّره بوفاة غريمه شاؤول، وقَتْله الذين تعاونوا معه ضدَّ أشبوشت، واغتصاب نساء أتباعه (مثل اغتصاب بتشيع بنت أليعام امرأة أُوريا الحثِّي (صموئيل الثّاني، إصحاح 11) وسُكُوته على اغتصاب ابنه أمنون أخته من أبيه وهي "تامار" أُخت أبشالوم، الذي انتقم من أخيه أمنون، فقتله، ثُمَّ عفا داود عن أبشالوم، ولم يُقم عليه القصاص. (صموئيل الثّاني، إصحاح 13).

والذي يقرأ سفْر المُلُوك الأوَّل وسفْر صموئيل الثّاني يرى أنَّ داود لم يكن مُنزَّهاً عن الهوى والحقد والغدر بمَنْ أخلصوا له. وهذه الخصال تُناقض كُلَّ ما أُضفي عليه من المناقب في السِّفْرَيْن نفسَيْهما.

أمَّا بالنّسبة لامتداد مُلْكه - والذي وصفته التّوراة بأنّه امتدَّ على البلاد الواقعة بين النّيل والفُرات - ؛ فالواقع أنَّه كان يشمل المنطقة الجَبَليَّة في فلسطين فقط، والتّوراة نفسها في السِّفْر نفسه (صموئيل1) تُؤكِّد أنَّ داود تحالف مع الإمارات الآراميَّة التي كانت تُطوِّق الجبال الفلسطينيَّة من الشّرق والشّمال، وكذلك مملكة صُور، حتَّى ومع الفلسطينيِّيْن الذين كانوا يُسيطرون على سواحل فلسطين الجنوبيَّة.

ومن هُنا؛ يظهر - بجلاء - مدى ما وَصَلَ إليه كُتَّاب الأسفار من تعمُّد المُغالاة والتّلفيق والاستخفاف بكُلِّ القيَم الأخلاقيَّة والأدبيَّة والتّاريخيَّة، فيما كَتَبوه عن شعبهم، وكيف يُلصقون تُهمة الزّنا والاغتصاب والقَتْل بداود ﷺ وأولاده (كما مرَّ معنا)، وداود بريء من هذه التُّهم هُو وأولاده، وهُو العبد الصّالح المُؤمن، واللهُ يصفه في القُرآن الكريم فيقول: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ص30. وكذلك: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ البقرة 251.

وقوله تعالى فيما أكرم به داود وسُلَيْمَان، وحمدهما الله على ما أولاهما به من النّعَم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ النّمل 15.

ونَسَبُ داود عليه السلام يعود إلى "يهُوذا"، فهُو من سبط يهُوذا، وقد جاء في إنجيل متَّى أنَّ نَسَبَهُ كما يلي: داود بن يسي بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن حشون بن عمينا داب بن آرام بن حصرون بن فارض بن يهُوذا بن يعقُوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام[1].

أمَّا قصَّة شاؤول (طالوت) والنّبي داود؛ فقد وَرَدَ في الأخبار ما يلي[2]: «عندما دَخَلَ بنو إسرائيل فلسطين، اشتبكوا في حُرُوب طويلة مع الفلسطينيِّين على السّاحل الجنوبي لفلسطين، وفي إحدى المعارك غَلَبَهُم الفلسطينيُّون، وأخذوا منهم "تابوت العهد"، وَدَخَلُوا به إلى "بيت داجُون" (لعلّها قرية بيت دجن قُرب مدينة الرّملة)، وكانت هزيمة بني إسرائيل عظيمة، وذُلّهم شديداً بأخْذ التّابوت منهم، وقد جاء في القُرآن حول تابوت العهد: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ سُورة البقرة **248**.

وكان من قُضاة بني إسرائيل نبي اسمه "صموئيل"، وقد قضى لبني إسرائيل زمناً، ثُمَّ عيَّن ابنَيْن له للقضاء في أحياء إسرائيل، فلم يعدلا، وخاف بنو إسرائيل أنْ يفسد عليهم الأمر بعد صموئيل، فجاؤوا إليه في بلدة الرّامة، وألحّوا عليه أنْ يُقيم عليهم ملكاً منهم؛ يأتمرون بأمره، ويقودهم إلى قتال أعدائهم الذين أذلُّوهم زمناً طويلاً (وهُم الفلسطينيُّون)، فعرَّفهم بعد ذلك أنَّ الله قد جَعَلَ عليهم "طالوت" ملكاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ (صموئيل) إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ سُورة البقرة **247** (واسمه في سفْر صموئيل شاؤول كما مرَّ معنا).

ولكنَّ اليهُود لم يُعجبهم هذا الاختيار، وتذمَّروا منه: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ فقال لهم نبيُّهم: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سُورة البقرة **247**.

(وكان طالوت (أو شاؤول) طويلاً جسيماً عالماً).

---

(1) قَصَص الأنبياء، عبد الوهاب النَّجَّار، ص 303 (نَسَبُهُ).

(2) قَصَص الأنبياء، عبد الوهاب النَّجَّار، ص 303 - 316، باختصار.

وأخبر صموئيل بني إسرائيل أنَّ آية مُلكه عليهم أنْ يأتيـهم التّابوت الـذي أُخـذ منـهم. وقد ذكرنا أنَّه وقع بيد الفلسطينيِّيْن.

وجاء في سفْر صموئيل أنَّ الفلسطينيِّيْن كانوا يجدون إلههم "داجُـون" مُلقـى فـي مكانـه في كُلِّ ليلة، وسلَّط عليهم الفئران، فأفسدت عليهم محاصيلهم، وخرَّجت لهم البواسـير، وعلموا أنَّ كُلَّ ذلك كان بسبب وُجُـود التّـابوت عندهـم، فصنعـوا تماثيل فئران مـن ذَهَـب، وتماثيل بواسير من ذَهَب، وَوَضَعُوها مع التّابوت قُرباناً، وَوَضَعُوا التّابوت على عجلة تجرُّهـا بقرتان، ثُمَّ أطلقوها مع التّابوت، فجاءتا بالتّابوت وما معـه إلـى اليـهُود، الذيـن وَضَعُـوه فـي بيت، وخصُّوا به أحد الكَهَنَة لخدمته. وكان التّابوت قد مَكَثَ عند الفلسطينيِّيْن سبعة أشهر. وجاء فـي القُرآن الكريـم قولـه تعـالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ (صموئيـل) إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة آية 248، وصُعُـود التّـابوت مـن عند الفلسطينيِّيْن هُو الذي أقامه صموئيل آية على ملك طالوت (شـاؤول)، ومعنـى ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيْ أنَّها كانت تدلُّ البقرتَيْن الجارَّتَيْن للعجلة إلى مساكن بني إسرائيل.

ثُمَّ جمع ـ بعد ذلك ـ طالوتُ الجُنُودَ لقتال الفلسطينيِّيْن، وكان أشجعهم، وأعظم رجـل عند الفلسطينيِّيْن هُو "جالوت"، ويُسمِّيه اليهُود "جليات"، وقد هابه النّـاس، وخـافوا حربـه، وتحاشوه؛ لشجاعته وقُوَّته.

وكان في ذهاب طالوت إليه لقتاله أنْ قال لجُنده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ البقرة 249.

فلمَّـا أشـرفوا علـى النّـهر لـم يملكـوا أنفسـهم أنْ شـربوا منـه، إلاَّ قليـلاً منـهم امتنعـوا، وصبروا على الظّمأ، وآثروا طاعة الله، وكانوا قلَّة. فلمَّا جاوز النّـهر هُـو والذيـن آمنـوا معـه ـ على قلَّتهم ـ قالوا: لا طاقة لنا ـ اليوم ـ بجالوت وجُنُوده؛ لأنَّهم نظـروا إلـى قلَّتـهم، وكـثرة أعدائهم، فقال الذين يظنُّون أنَّهم مُلاقو ربِّـهم؛ أيْ المُؤمنـون (وعـبر بـالظَّنِّ للإشـارة إلـى أنَّ

مُجرَّد الظَّنِّ كافٍ للعاقل أنْ يعمل ما يُنجيه؛ لأنَّه آخذ بالأحوط). ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ البقرة 249.

وكان من حاضري الحرب داود بن يسي، وكان صغيراً يرعى الغنم، لا فضل فيه للحرب، ولكنَّ أباه أرسله إلى إخوته الثّلاثة الذين كانوا مع طالوت ليأتيه بأخبارهم، فرأى "جالوت" وهُو يطلب المُبارزة والنّاس قد تحاشتْهُ من هيبته، فسأل داود عمَّا يصير لقاتل هذا الفلسطينيّ، فأُجيب بأنَّ الملك يُغنيه، ويُعطيه ابنته، ويجعل بيت أبيه حُرّاً.

كان داود - في ذهابه إلى إخوته الثّلاثة - لا يعلم أنَّه سيُحارب، ولم يكن قد جرَّب نفسه في الحرب، وطَلَبَ الإذن من طالوت (شاؤول) بمُبارزة "جالوت"، فحذَّره طالوت، ولكنَّه أصرَّ، وتقدَّم بعصاه ومقلاعه، وبعد كلام مع جالوت رماه داود بحجر بمقلاعه، فثبت في جبهته، فقتله، وأخذ داود منه السّيف، وفصل به رأسه عن جسمه، وهُزم الفلسطينيُّون، ووعد الملكُ داودَ بأنْ يُزوِّجه ابنته "يكال"، وجعَلَهُ رئيس الجُند.

وقد جاءت القصَّة السّابقة بالتّفصيل في القُرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم

مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ البقرة 246 ـ 252.

وتذكر التّوراة أنَّ داود عظمت منزلته عند طالوت (شاؤول)، وزوَّجه ابنته، وانعقدت أواصر المحبَّة بين داود وطالوت، ولكنَّ قلب طالوت تغيَّر تجاه داود لَمَّا أحس بتعلُّق الشّعب به، وكانت الأُمُور تزداد سُوءاً بين طالوت وداود حتَّى وفاة طالوت وخلافة داود عليه السلام له في المُلك (كما مرَّ سابقاً).

وقد أنعم اللهُ تعالى على داود عليه السلام بنعَم عظيمة كما وَرَدَ في القُرآن الكريم مثل:

1: إنَّ الله سخَّر الجبال والطّير يُسبِّحن مع داود كما يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ سُورة سبأ 10.

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ سُورة ص 18.

2: إلانة الحديد له كما يقول تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ سبأ 10 ـ 11.

3: تشديد مُلكه بقوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ص 20. (تشديد مُلكه؛ أيْ جَعَلَهُ منصوراً على أعدائه، والحكمة النُّبُوَّة، وفصل الخطاب: الفَصْل بين الخُصُوم بالعدل، "كما يقول البيضاوي").

4: إنَّ اللهَ أعطاه الزّبورَ كما يقول تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ وهُو يُسمَّى عند أهل الكتاب من اليهُود والنّصارى "المزامير"، أو "مزامير داود"، وعددها مائة وخمسون مزموراً، بعضها منسوب لداود، وبعضها لـ "قورح"، وبعضها بعد السّبي البابليّ. والزّبور ـ أو المزامير ـ هي قصائد وأناشيد دينيَّة تتضمَّن تسبيح الله، وحَمْده، والثّناء عليه، والتَّضرُّع له.

أمَّا ما وَرَدَ في التّوراة من اغتصاب داود عليه السلام امرأة "أُوريا"[1] وإرساله أو إبعاده ليُقتل ويتزوَّجها من بعده، فهُو افتراء على نبي الله داود. حتَّى إنَّ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: مَنْ حدَّث بحديث داود على ما ترويه التّوراة (أو ما يرويه القصَّاص) جَلَدْتُهُ مائة وستِّين جلدة (80 جلدة على القذف، و80 جلدة لأنَّ المقذوف نبي).

والبيضاوي يقول: «لعلَّ داود عليه السلام خطب مخطوبة "أُوريا" "بتشيع"، أو استنزله عن زوجته، وكان ذلك مُعتاداً فيما بينهم في ذلك الزّمان»[2].

أمَّا سيِّد قُطب في الظّلال؛ فيستنكر الأمر من أساسه، ويقول في تفسير الآيات التّالية[3]: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ص من 21 ـ 24.

وبيان هذه الفتنة أنَّ داود عليه السلام كان يُخصِّص بعض وقته للتَّصرُّف في شُؤُون المُلك والقضاء بين النّاس، ويُخصِّص بعضه الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده؛ تسبيحاً لله في المحراب، وكان إذا دَخَلَ المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل عليه أحد حتَّى يخرج للنّاس.

وفي ذات يوم؛ فُوجئ بشخصَيْن يتسوَّران المحراب المُغلق عليه. ففزع منهما، فبادرا يُطمئنانه؛ قالا: لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعض، وجئنا للتّقاضي أمامكَ، فاحكمْ بيننا بالحقِّ، ولا تشططْ، واهدنا سواء الصّراط، وبدأ أحدهما يعرض خُصُومته، فقال: هذا أخي له تسع وتسعون نعجة (أيْ زوجة) ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها؟ (أيْ اجعلها لي وفي مُلكي وكفالتي) وعزّني في الخطاب (أيْ تشدَّد عليَّ في القول، وأغلظ).

---

(1) وهي بتشيع بنت أليعام (راجع سفر صموئيل 2، الإصحاح 11).

(2) قَصَص الأنبياء، الأُستاذ عبد الوهاب النَّجّار، ص 312.

(3) الظّلال، تفسير سُورة ص.

اندفع داود عليه السلام في الحُكْم دُون سماع حُجَّة الطَّرف الآخر، وقال: لقد ظلمكَ بسُؤال نعجتكَ إلى نعاجه، وإنَّ كثيراً من الخُلطاء (أيْ الأقرباء المُخالطين بعضهم بعضاً) ليبغي بعضهم على بعض، إلاَّ الذين آمنوا، وعملوا الصَّالحات.

ثُمَّ اختفى الرَّجلان. فقد كانا مَلَكَيْن جاءا للامتحان، وتعجَّل داود عليه السلام بالحُكْم، دُون أنْ يُعطي الخصم فُرصة للإدلاء بحُجَّته وأقواله، فقد يتغيَّر وجه المسألة، وينكشف إنْ كان الخصم الأوَّل مُخادعاً وكاذباً. عند هذا تنبَّه داود إلى أنَّه ابتلاء. "وظنَّ داود إنَّما فتنَّاه"، فأدركته طبيعته، إنَّه أوَّاب، فاستغفر ربَّه، وخرَّ راكعاً، وأناب.

ويُضيف سيِّد قطب أنَّ بعض التَّفاسير خاضت مع الإسرائيليَّات خوضاً كبيراً تتنزَّه عنه طبيعة النُّبُوَّة، ولا تتَّفق مع قوله تعالى بحقِّ داود ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

الملك سُلَيْمَان[1] 971 ـ 931 ق.م:

على أثر تمرُّد أبشالوم بن داود على أبيه، واحتلاله القُدس، واعتدائه على سراري أبيه الذي هرب من عاصمة ملكه خشية بطشه، فَقَدَ داودُ ثقته بأكثر أولاده، ووعد زوجته "بتشايع أو يتشيع" بأنْ يُورِّث ابنها سُلَيمَان العرشَ من بعده. ولمَّا علم أولاده الآخرون بهذا القرار من أبيهم عمدوا إلى التَّآمر عليه، وخُصُوصاً ابنه "آدونيا" (من زوجته حجيت) الذي كان يسعى لإزاحة سُلَيمَان ليحلَّ مكانه. وعندما شاخ داود، وقرب أجله، جزعت زوجته بتشيع، فتقدَّمت برفقة "ناتان" النَّبي تُطالب زوجها بتحقيق وعده لها، وذلك بتنصيب سُلَيْمَان على العرش قبل فوات الأوان.

لبَّى داودُ طَلَبَها، وأجلس سُلَيْمَان على العرش، وهُو لم يزل على قَيْد الحياة، ثُمَّ زوَّده بالإرشادات، وحذَّره من أعدائه، وأوصاه بأنْ يثأر من شمعي، وكُلّ مَنْ أساؤوا إليه[2].

---

(1) المصدر: سفْر صموئيل الثَّاني، وسفْر المُلُوك الأوَّل من التَّوراة. والمُفسدون في الأرض، للأُستاذ س. ناجي من ص 47 ـ 50.

(2) راجع سفْر المُلُوك الأوَّل، الإصحاح 2 من 36 ـ 45.

ويبدو أنَّ سُلَيْمَان كان حكيماً وشُجاعاً، فَدَشَّنَ أعماله بالإيعاز إلى قائد جيشه "بناياهو" أنْ يقتل كُلاً من أدونيا ويؤاب وشمعي. ولَمَّا تمَّ له ذلك، أمر بعزل "أبياتار" الحبْر الأعظم من منصبه، وأبعد عن مراكز النُّفُوذ كُلَّ مَنْ ناصر أدونيا في الماضي.

ولَمَّا تخلَّص من أعدائه؛ سارع إلى تجديد المُحالفات مع جيرانه، وأعاد تسليح وتنظيم جيشه، ثُمَّ بنى هيكله الشّهير بـ "هيكل سُلَيْمَان"، وبنى قصراً له بمُساعدة صديقه الملك حيرام (ملك صُور).

ويظهر أنَّ سُلَيْمَان عليه السلام لم تحدث في عهده معارك هامَّة، أو فُتُوحات ذات بال، وجُلُّ ما تذكره الأسفار في هذا الصّدد لا يعدو قصَّة اصطدامه مع الأمير "هدد أو حدد" الأدومي في جنوب فلسطين، والذي أعلن انفصال قومه الأدوميِّين عن مملكة سُلَيْمَان، بعد أنْ كانوا يخضعون لليهُود مُنذُ عهد داود، وتروي الأسفار وُقُوع حرب بين سُلَيْمَان وملك "صوبا" (مملكة آراميَّة)، وانتهت دُون أنْ ينتصر أحد من الطّرفَيْن على الآخر.

أمَّا مزاعم أسفار التّوراة المُتعلّقة بسعة ملك سُلَيْمَان وعظمته وسطوته؛ فهي من مُبالغات كُتَّاب التّوراة. أمَّا احتلاله لحماة وإقدامه على بناء تدمر وبعلبك؛ فلا أساس لها من الصّحَّة.

ويقول النُّقَّاد - وعلى رأسهم "لودس" المُؤرِّخ الفرنسي الشّهير - : إنَّ المرجع الأساسي لسُلَيْمَان وعهده هُو سفر المُلُوك الأوَّل، وهذا السِّفْر كُتب في القرن الثّامن ق. م (أيْ بعد وفاة سُلَيْمَان بـ 130 سنة)، وهُو، وإنْ كان لا يخلو من بعض الوقائع التّاريخيَّة الصّحيحة، إلاَّ أنَّ أكثر ما جاء فيه يتألّف من القَصَص الخياليّة والأحاديث والأمثال الشّعبيَّة التي لا تمُتُّ إلى الحقيقة بصلة.

أمَّا شُهرة سُلَيْمَان الفلسفيَّة والأدبيَّة وتعمُّقه في الحكمة؛ فقد جاء في القُرآن الكريم ما يُؤيِّد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ من الآية 79 من سُورة الأنبياء (يعني داود وسُلَيْمَان).

ولكنَّ التّوراة تُبالغ مُبالغات كثيرة في هذه النّاحية، والتي هي من بنات أفكار كُتَّاب الأسفار، وقد أجمع النُّقَّاد على أنَّ تنظيمات سُلَيْمَان الدّاخليَّة والإداريَّة التي حقَّقها في عهده

كانت رائعة، فقد أظهرت اليهُودَ - لأوّل مرَّة - في التّاريخ بشكل شعب له كيان مُوحَّد، وأضفت على دولتهم صفات الدّولة الحقيقيَّة. والواقع أنَّ عهد سُلَيْمَان كان العهد الوحيد الذي يحقُّ لليهُود أنَّ يقولوا عنه: إنَّه كانت لهم فيه دولة، وإنْ لم يدمْ إلاَّ أربعين سنة، ثُمَّ هوت هذه الدّولة بسُرعة مثلما قامت.

سُلَيْمَان - عليه السّلام - في القُرآن:

سُلَيْمَان نبيٌّ من أنبياء الله عليهم السّلام، فقد جاء في القُرآن الكريم كثير من الآيات في نعَم الله الكثيرة عليه وعلى أبيه داود عليهما السّلام، منها قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ سُورة النّمل 15 - 19.

وكذلك سخَّر اللهُ له الرّيحَ والجنَّ وإسالة القطر (النُّحاس)، كما في الآية التّالية:

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ سبأ الآية 12.

ومع كُلِّ ذلك؛ فإنَّ اليهُود يتَّهمونه بالانحراف، والغُلُوِّ بالملذَّات، والإكثار من النّساء؛ وخاصَّة من نساء "الأغيار" الأجنبيَّات الوَثَنيَّات، وتَركهن على دينهنَّ، ومُساعدتهن على عبادة أوثانهنَّ، حتَّى والاشتراك معهنَّ في عبادة هذه الأوثان، ممَّا أغضب الرَّبَّ عليه كما جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفْر المُلُوك الأوَّل من فقرة 1 - 12.

ثُمَّ تذكر التّوراة في بقيَّة الإصحاح الحادي عشر من سفْر المُلُوك الأوَّل كيف أثار الرَّبُّ الخُصُومَ ضدَّ سُلَيْمَان؛ غضباً عليه، ولمُعاقبته على ما جرَّه هواهُ إليه.

إنَّ سُلَيْمَان نبيٌّ من أنبياء الله، فلا يُمكن أنْ يكون مثلما يذكر كَتَبَةُ التَّوراة، ولكنْ؛ هذا هُو دأب اليهُود مع أنبيائهم في مُهاجمتهم وتكفيرهم واتِّهامهم بالانحراف والأعمال الشّائنة، هذا؛ إذا لم يقتلوهم، ويتخلَّصوا منهم ظُلماً وعُدواناً.

قصَّة سُلَيْمَان - عليه السّلام - وملكة سبأ:

لابُدَّ لنا قبل الانتهاء من الحديث عن سُلَيْمَان ﷺ من التَّحدُّث عن قصَّته مع ملكة سبأ، وما جاء حول هذه القصَّة من تفسيرات وأقاويل غريبة، تجعل مُلك سُلَيْمَان يمتدُّ حتَّى اليمن (على اعتبار أنَّ سبأ هي سبأ اليمن)، وتجعل بعض مَنْ كَتَبَ حول هذه القصَّة يقولون: إنَّ سُلَيْمَان تزوَّج من ملكة سبأ، وإنَّ يهُود اليمن من ذُرِّيَّتها، وإنَّ أصل العائلة التي كانت مالكة في الحبشة (وآخر مُلُوكها الإمبراطُور هيلاسيلاسي) هي من ذُرِّيَّة ملكة سبأ ونسل سُلَيْمَان، وإنَّ اسم الملكة هُو "بلقيس".

لذلك أردت أنْ أجلو الحقيقة حول قصَّة سُلَيْمَان ﷺ وملكة سبأ.

وَرَدَتْ قصَّة سُلَيْمَان ﷺ وملكة سبأ في سُورة النّمل من الآية 20 - 44 وهي: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ

يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ
يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ
مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ
تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ
مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾
قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

القصَّة واضحة كما جاءت في القُرآن الكريم لا تحتاج إلى تعليق أو توضيح، إلاَّ في حكاية الذي عنده علم من الكتاب، وأحضر إليه عرش بلقيس بهذا العلم، قبل أنْ ارتدَّ إليه طرفه. وحسب تفسير الجلالَيْن أنّه كان: آصف بن يرخيا، وكان صدِّيقاً صالحاً عنده علم باسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به تعالى أجاب.

هذا؛ وذُكرت قصَّة سُلَيْمَان عليه السلام وملكة سبأ في التّوراة في (سفْر المُلُوك الأوَّل، الإصحاح العاشر من فقرة 1 ـ 11) وفيها أنَّ ملكة سبأ هي التي زارت سُلَيْمَان لتتعرَّف على مُلكه العظيم، وحكْمته، وغناه، ولتمتحنه بمسائل تُريد معرفتها. وجاءت بموكب مَلَكي عظيم، وحاشية كبيرة من السّادة والخدم والعبيد، وأحمال من الذّهب والأحجار الكريمة وهدايا أُخرى قيِّمة.

ولا تذكر التّوراة أنَّ طير الهُدهُد الذي دلَّ سُلَيْمَانَ عليها، وكشف مكانها، وأنَّها جاءت بطَلَب من سُلَيْمَان صاغرة مُستسلمة.

وتتَّفق التّوراة مع القُرآن في عدم ذكْر أنَّها ملكة اليمن، بل ملكة سبأ فقط، ولا أنَّ اسمها "بلقيس".

وتقول التّوراة: إنَّها ـ بعد زيارتها لسُلَيْمَان ـ انصرفتْ إلى بلادها هي وحاشيتها، بعد أنْ أكرمها سُلَيْمَان بكُلِّ ما تشتهي من الأموال والهدايا حسب ما يقتضيه كرم الضّيافة، وَجُود سُلَيْمَان، ومكانته العظيمة.

إنَّ الالتباس الذي وقع فيه المُؤرِّخون بين مصر وادي النّيل ومصرايم على وادي العريش في شبه جزيرة سيناء يتكرَّر هُنا بالالتباس بين سبأ الواردة في الآيات السّابقة من سُورة النّمل وفي التّوراة في سفْر المُلُوك الأوَّل، الإصحاح العاشر، وهي قبيلة "سبأ" التي كانت تسكن شرق البحر الميِّت، وهي من ذُرِّيَّة شبأ بن يقشان بن إبراهيم عليه السّلام (راجع شجرة نَسَب إبراهيم) وبين سبأ اليمن، وعاصمتها مأرب[1].

لقد تحدَّثنا عن الالتباس الأوَّل بين مصر وادي النّيل ومصر وادي العريش في سيناء حديثاً مُسهباً، وقدَّمنا البراهين حول هذا الالتباس، والخطأ الذي وقع فيه المُؤرِّخون قديماً وحديثاً باعتبارهم مصرايم الواقعة على وادي العريش في سيناء هي مصر وادي النّيل.

والآن نجد الالتباس نفسه بين "سبأ" اليمن (الدّولة اليمنيَّة المشهورة وعاصمتها مأرب) وبين "سبأ" القبيلة التي ترجع في نَسَبها إلى شبأ بن يقشان بن إبراهيم عليه السلام، والتي كانت منازلها تمتدُّ شرق البحر الميِّت ووادي عَرَبة، وقد تحوَّل حرف الشّين في شبأ إلى سين، وأصبح اسمها سبأ وقبيلة السّبئيِّين.

لقد وَرَدَ اسم سبأ في القُرآن الكريم وفي التّوراة دُون تعيِّين الإشارة إلى مكانها، وباعتبار أنَّ المشهور لدى المُؤرِّخين والنّاس أنَّ سبأ هي سبأ اليمن لذلك قرَّروا أنَّ سبأ الواردة في قصَّة سُلَيْمَان مع بلقيس في القُرآن والتّوراة هي سبأ اليمن.

وقد فطن لهذا الالتباس بعض المُؤرِّخين الغربيِّين مثل موسيل وونكر، ومن المُؤرِّخين العَرَب الدُّكتُور جواد علي، والدُّكتُور أحمد داود. وقال هؤلاء المُؤرِّخين: إنَّ المقصود ليس

---

(1) وَرَدَتْ أيضاً في القُرآن في سُورة سبأ الآية 15 بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ فسبأ هذه في اليمن، وعاصمتها مأرب، وهكذا تكون سبأ الواردة في سُورة النّمل هي غير سبأ الواردة في سُورة سبأ.

سبأ اليمن، وإنَّما عشيرة سبأ من ذُرِّيَّة شبأ بـن يقشـان بـن إبراهيـم والتـي تعيش شـرق البحـر الميِّت، وشمال وادي عَرَبَة.

ونتيجة لذلك فكَّرْتُ في هذا الالتباس، وتساءلت: هل هُناك ما يُؤيِّد أنَّ سـبأ المقصـودة هي قبيلة سبأ شرق البحر الميِّت، وليس دولة سبأ في اليمن؟ وأخيراً؛ استطعتُ الوُصُول إلـى عدَّة براهين تُؤكِّد أنَّ سبأ المقصودة هي سبأ الأُردُن (شرق الأُردُن)، وليس سبأ اليمـن، وهـي - كما سيرى القارئ الكريم - براهين لا لبس فيها، ولا غُمُوض.

أوَّلاً: جاء في القُرآن الكريم قوله تعـالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ (أي سُلَيْمَان) فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ سُورة النّمل الآية 20 والآية 22.

نفهم من الآية الكريمة أنَّ الهُدهُد لم يطلْ غيابه إلاَّ يوماً، أو بعض يوم، أو أقلّ من ذلك كما يقول تعالى ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، ولكنَّ المسافة بين القُدس عاصمة سُلَيْمَان في فلسطين ومأرب عاصمة سبأ في اليمن هي حوالـي ثلاثـة آلاف كيلومتر، وعلـى الـهُدهُد أنَّ يقطـع هـذه المسافة ذهاباً وإياباً حتَّى يصل إلى اليمن، ويعود منها، وطائر مثل الـهُدهُد لا يسـتطيع أنْ يقطـع أكثر من 100 كم في اليوم؛ لأنَّه لا يطير إلاَّ في النّهار فقط، وهُو بحاجـة إلـى الغـذاء والماء فـي سفْره، فلابُدَّ أنْ ينزل إلى الأرض، ويقضي بعض الوقت في التقاط طعامـه، والتّفتيـش عـن شرابه، وبذلك يحتاج إلى شهر في الذّهاب وشهر فـي العـودة؛ أيْ أنَّ غيابـه لابُـدَّ أنْ يسـتمرَّ حوالي الشّهرَيْن، أو على الأقلّ شـهر واحـد، إذا قدَّرنـا أنَّـه كـان يقطـع 200 كـم فـي اليـوم، ولكنَّ النَّصَّ القُرآنيَّ يقول ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أيْ أنَّ غيابه لم يطلْ إلاَّ فترة قصيرة؛ هي يوم أو بعض يوم، وقال ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إذنْ؛ فالذّهاب لم يكن لليمن، وإنَّما إلى مكان قريب لا يتعدَّى بُعْده عن القُدس سوى 50 - 100 كم، وهذا لا يتحقَّق إلاَّ إذا كانت سبأ المقصودة هي سبأ شرق البحر الميِّت، وليس سبأ اليمن.

وقد يقول قائل إنَّ سَفَرَ الهُدهُد إلـى اليمـن بقُـدرة أو قُـوَّة إلهيَّـة، ولكـنْ؛ لا يُوجـد فـي النَّصِّ القُرآني ما يُشير على أنَّ الهُدهُد سافر بقُوَّة إلهيَّة، بل علـى العكـس؛ إنَّـه سـافر عاصيـاً

لسَيِّده، وآبقاً منه. أمَّا في إسراء الرّسول مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فالإشارة واضحة أنَّه كان بقُدرة الله تعالى وقُوَّته؛ حيثُ يقول جلَّ شأنه في الآية الأُولى من سُورة الإسراء: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ فكلمة "بعبده"؛ أيْ بقُدرة الله، ولو قال تعالى "سبُحان الذي أسرى عبده"، لكان الإسراء بقُوَّة من مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، فالباء في "بعبده" تُعطينا الدّلالة على أنَّ الإسراء كان بقُدرة الله وقُوَّته، وليس بقُدرة مُحَمَّد ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ وقُوَّته.

وكذلك في إحضار عرش ملكة سبأ، فكان بقُدرة الله سُبحانه وتعالى؛ حيثُ قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ وهُو كما وَرَدَ في الجلالَيْن آصف بن يرخيا، وكان صدِّيقاً عنده علم باسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب. وهكذا؛ فقد أحضر أصفر بن يرخيا العرشَ بقُدرة الله، مُستعملاً اسمه الأعظم، لذلك وصفه القُرآن أنَّ عنده علم من الكتاب.

ثانياً: إنَّ ما وَرَدَ في القُرآن الكريم والتّوراة حول قصَّة ملكة سبأ وسُلَيْمَان لا يُوجد به ما يُشير إلى أنَّها ملكة سبأ اليمن، وإنَّما الوارد سبأ فقط، ولا يُوجد ـ أيضاً ـ ذكْر لاسم ملكة سبأ، ولكنْ؛ في تفسير الجلالَيْن يذكر أنَّ اسمها كان "بلقيس"، وفي تفسير ابن كثير يذكر الحسن البصري قوله: إنَّها كانت "بلقيس" بنت شراحيل بن مالك بن الريَّان، وأنَّ أُمَّها كانت جنِّيَّة اسمها "فارغة".

والدُكتُور أحمد داود يقول: «إنَّ بلقيس هي زعيمة أو ملكة عشيرة السّبئيِّيْن (شرق البحر الميِّت)، وليس في تاريخ اليمن كُلِّه، ولا في سجلاَّت مُلُوكها ملكة دُعيت باسم بلقيس»[1].

ثالثاً: إنَّ التّوراة تقول في سفْر المُلُوك الأوَّل الإصحاح العاشر (من فقرة 1 ـ 11): إنَّ ملكة سبأ جاءت لسُلَيْمَان مع حاشية ضخمة من رجالها وخَدَمها وعبيدها، وذلك لتمتحنه، فهل يُعقل أنْ تأتي ملكة سبأ من اليمن إلى القُدس مع حاشية ضخمة وجُنُود وعبيد، وتقطع

---

(1) د. أحمد داود، "العَرَب والسّاميُّون. ."، ص 123.

مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر لتمتحن سُلَيْمَان؟! المنطق يقول: لا، ولكنْ؛ إذا كانت بلاد هذه الملكة هي شرق البحر الميِّت، فالزّيارة معقولة وقريبة من المنطق، فهُما جاران، ولابُدَّ أنْ يتعرَّف أحدهما إلى الآخر.

رابعاً: ولدى مُراجعة تاريخ دولة سبأ - وتاريخ اليمن بشكل عامٍّ - تبيَّن لي أنَّ دولة سبأ[1] بدأت حوالي سنة 650 قبل الميلاد، وانتهت على يد دولة حمير عام 115 ق. م، وأنَّ سبأ كانت قبل 650، تقع تحت حُكْم وسيطرة دولة معين، وإذا عرفنا أنَّ حُكْم سُلَيْمَان في القُدس امتدَّ من 971 - 931 قبل الميلاد، فهذا يعني - بشكل قاطع - أنَّ دولة سبأ لم يكن لها وُجُود في اليمن زمن سُلَيْمَان عليه السلام، وأنَّ الدّولة التي كانت مُسيطرة على اليمن هي دولة معين، وأنَّ عصر سُلَيْمَان عليه السلام سابق لدولة سبأ في اليمن بثلاثة قُرُون.

وهذا بُرهان قاطع لا لبس فيه أنَّ سبأ المعنيَّة في القُرآن الكريم والتّوراة، والتي اكتشفها الهُدهُد لم تكن سبأ اليمن، وإنَّما سبأ أُخرى غيرها، وهي قبيلة سبأ شرقي البحر الميِّت كما أسلفنا، والتي كانت زعيمتها، أو الشّيخة عليها "بلقيس".

وقد يقول قائل: إنَّ بعض المُؤرِّخين يذكرون أنَّ سبأ بدأت في اليمن مُنذُ 950 قبل الميلاد، (أيْ مُنذُ عصر سُلَيْمَان)، وإنَّها كانت تابعة لدولة معين حتَّى سنة 650 قبل الميلاد، عندما استولت على الحُكْم في اليمن بعد ضعف معين واضمحلالها. أقول جواباً عن ذلك: إنَّ كان هذا صحيحاً، فكان على الهُدهُد أنْ يكتشف دولة معين، ويخبر سُلَيْمَان عنها، وليس عن إمارة صغيرة تابعة لدولة معين العظيمة، لا سيّما وأنَّ هذه الإمارة كانت في بداية وُجُودها وتكوُّنها.

وفي هذا المجال لي رأي خاصٌّ قد يكون فيه إيضاح للأمر، وهُو أنَّ قبيلة سبأ أو شبأ جنوب شرق البحر الميِّت كانت تعمل بالتّجارة، بحُكْم موقعها مُنذُ وُجُودها على الطّريق التّجاري بين الشّام واليمن عبر مدين والحجاز، فسيطرت عليه، واحتكرته (كما فعل الأنباط، ثُمَّ قُريش فيما بعد)، وعندما آنست ضعفاً من دولة معين في اليمن،

(1) د. حسن إبراهيم حسن، "تاريخ العَرَب والإسلام"، الجُزء الأوَّل.

استولت عليها، وحكمت اليمن، وأقامت دولة سبأ العظيمة فيها بعد سُلَيْمَان عليه السلام بأكثر من ثلاثة قُرُون.

خامساً: والحقيقة أنَّ "بلقيس" لم تكن ملكة، بل كانت سيِّدة، أو رئيسة، أو شيخة على قبيلة السّبئيِّين، والقُرآن الكريم يُعبِّر ـ بدقَّة ـ حول لقبها، فهُو يقول على لسان الهُدهُد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾، ولم يقل امرأة ملكة عليهم (والمالك قد لا يكون ملكاً)، فهي سيِّدة قومها، ورئيستهم.

سادساً: وبُرهان آخر أنَّ بلقيس لم تكن ملكة هُو قوله تعالى على لسانها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

فهل يُعقل أنْ تكون بلقيس ملكة، وتقول عن المُلُوك إنَّهم مُفسدون، وإنَّهم إذا دخلوا قرية (أيْ بلاد) أفسدوها، وإنَّهم طُغاة يذلُّون البلاد التي يدخلونها؟؟.

ولكنَّ التَّوراة تنعت بلقيس بملكة سبأ، والرَّدُّ على ذلك هُو أنَّ اللُّغات السّاميَّة القديمة مثل: الآراميَّة والكنعانيَّة والبابليَّة والآشوريَّة.. إلخ، تُسمِّي رئيس العشيرة، أو القبيلة "ملك".

وتأييداً لذلك أذكر أنَّ الآشوريِّيْن في مُحافظة الحسكة السُّوريَّة على نهر الخابور يُسمُّون رُؤساء عشائرهم "مُلُوكاً"، وهُم من بقايا السّاميِّيْن (وقد عرفتُ ذلك خلال إقامتي بينهم مُعلِّماً في قُراهم من 1950 ـ 1952م).

والخُلاصة أنَّ سبأ الواردة في سُورة النَّمل في القُرآن الكريم هي عشيرة أو قبيلة من ذُرِّيَّة شبأ بن يقشان بن إبراهيم، لذلك أُطلق عليها اسم سبأ، وكانت منازلها تقع جنوب شرق البحر الميِّت، وكانت تعمل بالتِّجارة بين الشّام واليمن، ممَّا أدَّى إلى ثرائها، وهي التي كشف أمرها الهُدهُد لسُلَيْمَان. أمَّا سبأ اليمن والواردة في سُورة سبأ؛ فهي غير سبأ سُلَيْمَان عليه السلام، ولكنَّ المُؤرِّخين وقعوا في التباس بين الاسمَيْن، فاعتقدوا أنَّ سبأ اليمن هي سبأ سُلَيْمَان، مع أنَّ الفاصل بينهما هُو ثلاثة قُرُون، وهذا نفس ما حصل من التباس بين مصر وادي النِّيل ومصر وادي العريش في سيناء، كما أسلفنا سابقاً.

انقسام المملكة اليهُوديَّة:

سَبَقَ وقُلنا: إنَّ سفْر المُلُوك اتَّهم سُلَيْمَان عليه السلام بالإسراف، والغُلُوِّ بالملذَّات، والإكثار من النّساء، وبخاصَّة الأجنبيَّات، والانحراف عن الدِّين، وفرض الضّرائب الفادحة على الشّعب. ونتيجة لذلك ثارت عليه قبيلة "إفرايم" (سبط إفرايم)، ولكنَّه قَمَعَ ثورتها، وأرغمها على الرُّضُوخ لمشيئته، وهذه الحادثة أثارت ضدَّه حفيظة أكثر القبائل اليهُوديَّة، فأضمرت له ولقبيلته "يهُوذا" الشَّرَّ، وصارت تتحيَّن الفُرصة المُواتية؛ لتنقضَّ عليها.

ولَمَّا وافاه الأجل نحو عام 931 ق.م، سارع "يربعام بن نياط" زعيم ثورة "إفرايم" الذي كان لاجئاً لدى "شيشنك" ملك مصر، بالعودة إلى قبيلته "إفرايم"، وبادر بإثارة أهلها على وَرَثَة سُلَيْمَان، فلاقت دعوته هوى في نُفُوس أسباط اليهُود، فتمنَّعت عن مُبايعة (رحبعام بن سُلَيْمَان)، إلاَّ بعد أنْ يُلغي الضّرائب التي فَرَضَهَا سَلَفُهُ عليها، وأنْ ينشر المُساواة بينها، ويُعلن عدم التَّحيُّز ليهُودا، ولكنَّ رحبعام أبى أنْ ينصاع لطَلَب زُعماء اليهُود، فثار عليه الشّعب في إفرائيم، فالتجأ إلى القُدس، ومن ثمَّ أعلن أبناء إفرائيم انفصالهم عن القُدس، واختيارهم "ياربعام بن نياط" ملكاً على سبطهم، وتسمية مملكتهم الجديدة باسم "إسرائيل".

ولَمَّا رأت الأسباط الأُخرى ما قامت به إفرائيم انضمَّت إليها، ولم يبقَ مع يهُودا إلاَّ سبط بنيامين[1].

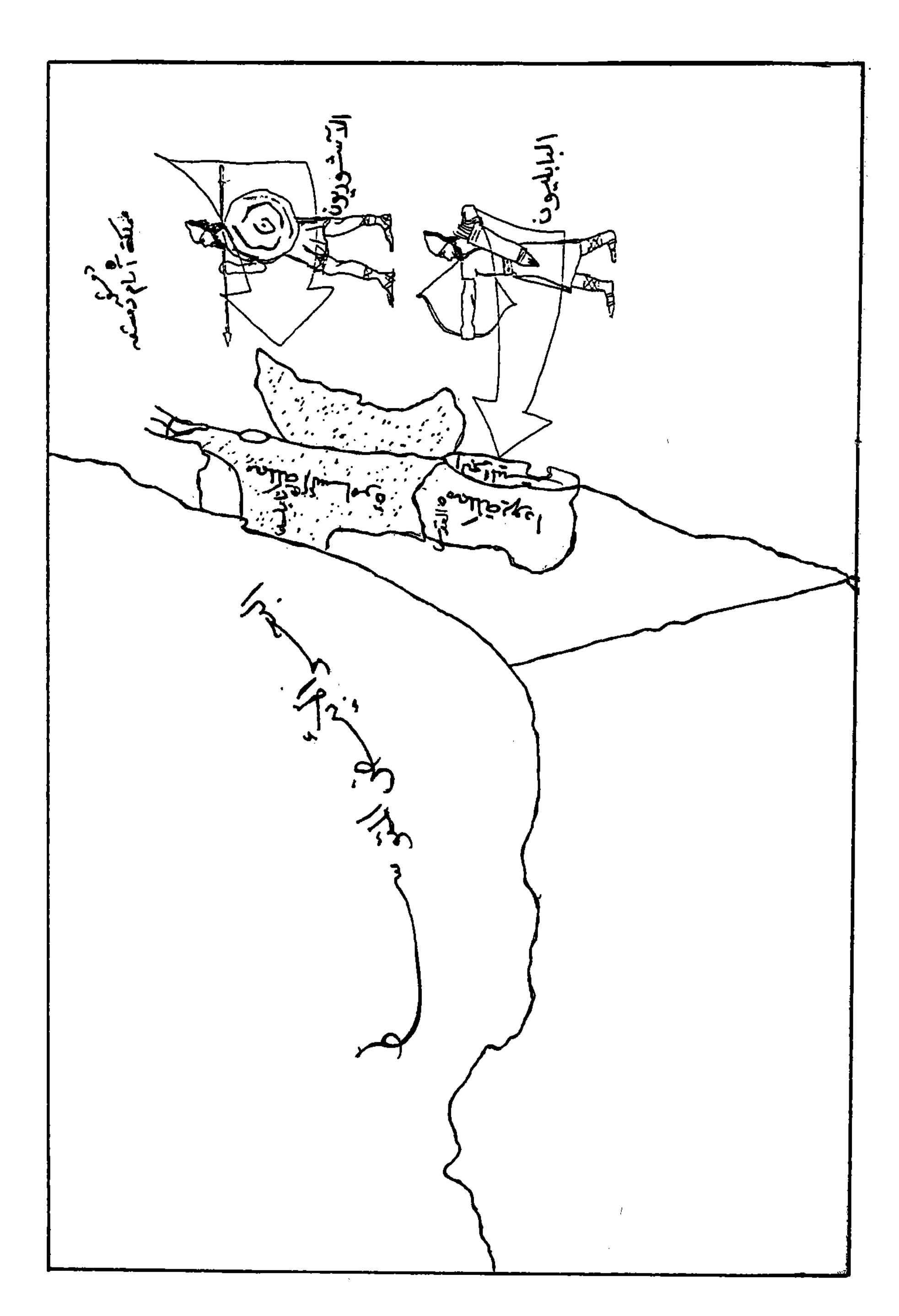
وهكذا تمخَّض عن هذا الانقسام قيام دولتَيْن هزيلتَيْن؛ الأُولى في الشّمال باسم مملكة "إسرائيل"، وعاصمتها السّامرة (نابلس الآن)، وملكها "ياربعام"، والأُخرى في الجنوب باسم مملكة "يهُوذا"، وعاصمتها أُورشليم (القُدس)، وتولَّى المُلْكَ فيها (رحبعام بن سُلَيْمَان).

ومملكة يهُوذا كانت تضمُّ سبطَيْن فقط من أسباط اليهُود؛ وهما سبط يهُوذا، وسبط بنيامين، ومملكة السّامرة أو "إسرائيل" وتضمُّ الأسباط العشرة الباقية.

ويُعلِّق المُؤرِّخ الفرنسي "لودس" على هذا الانقسام بقوله: «إنَّه كان بداية النّهاية؛ إذْ قضي على العهد الذّهبي الذي مازال اليهُود يتغنَّون بقيامه حتَّى اليوم»، (انظر المُصوَّر رَقْم 11 الذي يُظهر الدّولتَيْن اليهُوديَّتَيْن).

---

(1) المُفسدون في الأرض، الأُستاذ ناجي، من ص 50 ـ 51.



مُصوَّر (11) انقسام المملكة العبرانيَّة والقضاء عليها

722 ق . م قضى الأشوريُّون على مملكة السَّامرة – 586 ق . م قضى البابليُّون على مملكة يهُوذا

وممَّا زاد الأمر سُوءاً في هاتَيْن المملكتَيْن الهزيلتَيْن الحُرُوب المُستمرَّة بينهما، والتي استمرَّت سجالاً طوال وُجُودهما، ممَّا أضعف كلَيْهما، بالإضافة إلى الغزوات التي كانت المملكتان تتعرَّضان لها من الخارج، فكان أوَّل مَنْ غزا مملكة يهُوذا شيشنق الأوَّل ملك مصر عام 926 ق. م، وفي زمن بهرام ملك يهُوذا الرَّابع (848 ـ 841 ق. م)، انفصل الآدوميُّون عن المملكة، وملَّكوا عليهم ملكاً منهم، وفي زمن بهرام ـ أيضاً ـ صعد الفلسطينيُّون إلى يهُوذا، واقتحموها، واستولوا على كُلِّ الأموال المُوجُودة في بيت الملك، وسبوا نساءه أيضاً، ولم يبقَ إلاَّ أصغر بنيه. وفي زمن "يواش" غزا الجيش الآرامي (مملكة الآراميِّيْن في دمشق) أُورشليم وأهلك كُلَّ الرّؤساء، وأخذ جميع الخزائن، وفي عهد "أمصيا" ملك يهُوذا (796ـ 767 ق. م)، هجم "يهوآش" ملك إسرائيل على أُورشليم، فَهَدَمَ سُورها، وأخذ كُلَّ الذّهب والفضَّة وجميع الآنيَّة المُوجُودة في بيت الرَّبِّ، وفي خزائن بيت الملك.

وفي عهد ازدهار مملكة دمشق الآراميَّة أصبحت كلتا المملكتَيْن إسرائيل ويهُوذا تحت سيطرتها. وأخذ ابن هداد (ابن هدد أو حدد) ملك دمشق (879 ـ 843 ق. م) الجزية من يهُوذا، وضمَّ منطقة جلعاد في شرقي الأُردُن إلى المملكة الآراميَّة، كما أنَّه فرض الحماية الآراميَّة والجزية على مملكة إسرائيل في عهد ملكها (آخاب بن عومري 874 ـ 853 ق. م)، وكان الآراميُّون يستغلُّون الخلاف بين يهُوذا وإسرائيل لإخضاعهما إلى نُفُوذهم، ثُمَّ تحرَّكت الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة المُتعطِّشة للفتح، فاصطدمت أوَّلاً بالآراميِّيْن، واستغلَّت الصّراع القائم بين الآراميِّيْن وبين إسرائيل ويهُوذا للانقضاض عليهم جميعاً، وإخضاعهم الواحد تلو الآخر للحُكْم الآشوري[1].

والخُلاصة أنَّ اليهُود في فلسطين لم يستطيعوا السّيطرة على كامل فلسطين حتَّى في عهدهم الذّهبي زمن داود وسُلَيْمَان عليهما السّلام، والذي تدَّعي المصادر اليهُوديَّة والتّوراتيَّة أنَّ دولتهم امتدَّت فيه من الفُرات إلى النّيل، وحتَّى إلى اليمن، وكُلُّ ذلك كذب

(1) راجع د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 637 ـ 638، وكذلك أسفار المُلُوك الأوَّل والثّاني، وأخبار الأيَّام الأوَّل والثّاني في التّوراة.

وافتراء على التّاريخ، فالوُجُود الكنعاني بقي مُستمراً، والفلسطينيُّون في السّاحل كانوا يقضُّون مضاجعهم، والأدوميُّون في الجنوب كانوا يتحيَّنون الفُرص للخُرُوج على اليهُود، حتَّى إنَّ خُضُوعهم لليهُود كان تحالفاً أكثر منه استسلاماً، والآراميُّون في الشّمال، وخاصَّة مملكة دمشق الآراميَّة التي كانت أكثر الأعداء خُطُورة على اليهُود في فلسطين.

أمَّا أوضاع اليهُود الدّاخليَّة؛ فكانت مُتردِّية بصُورة دائمة، من جرَّاء التّطاحن الذي دام بين المملكتَيْن، والاستعانة بالممالك المُجاورة ضدَّ بعضهما بعضاً، هذا؛ بالإضافة إلى كثرة الانقلابات، وحوادث القتل والاغتيال بينهم.

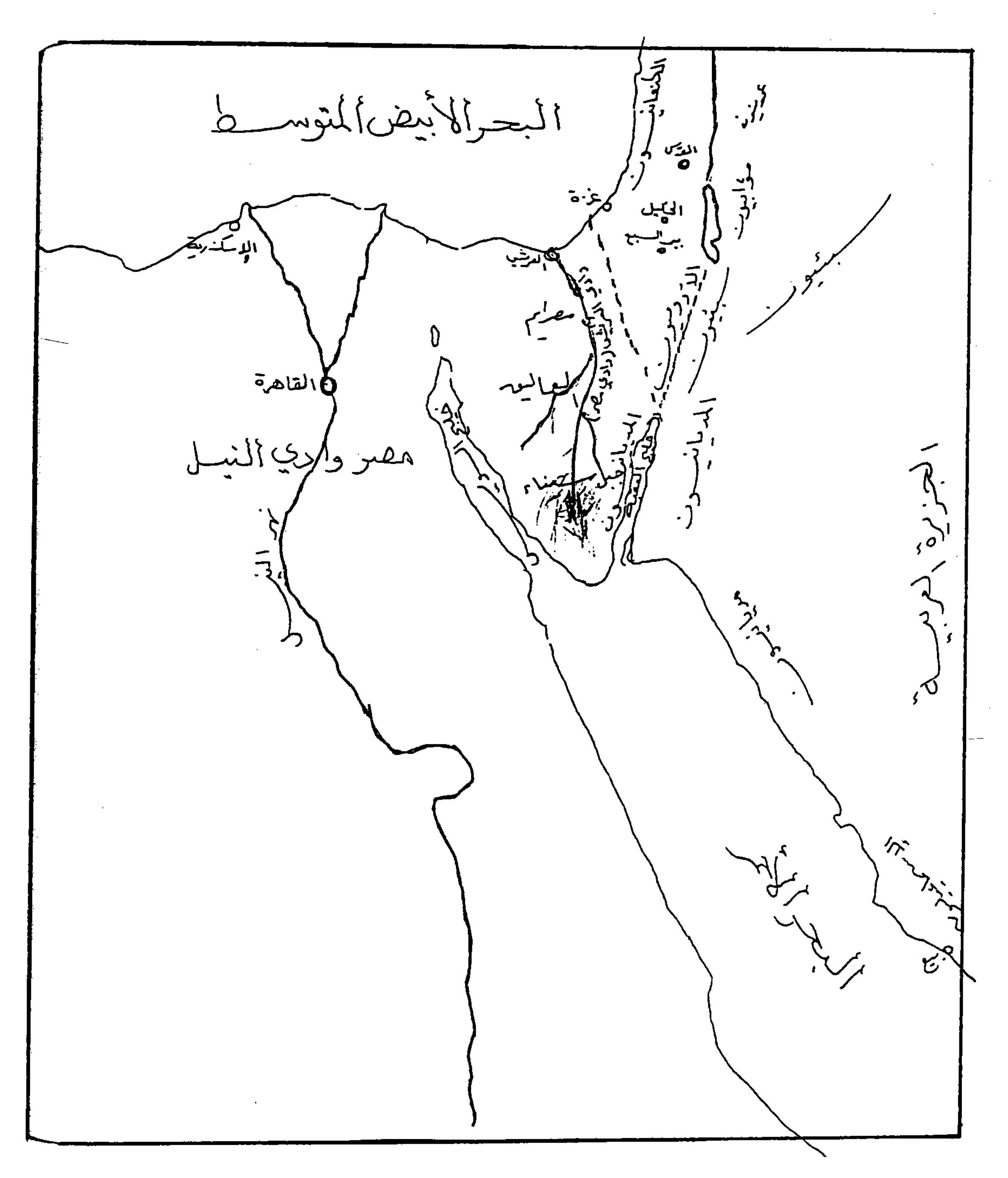
ولهذا؛ كانت كُلٌّ من مملكة مصر في الجنوب ومملكة آشور، ثُمَّ مملكة الكلدان في الشّمال تنظر إلى دولتَيْ اليهُود الهزيلتَيْن على أنَّهما منبع الاضطراب وعدم الاستقرار والقلق في المنطقة، وأخيراً؛ استطاعت آشور القضاء على مملكة السّامرة ومملكة الكلدان (بابل الثّاني) القضاء على مملكة يهُوذا. وسنتكلَّم عن ذلك بالتّفصيل فيما بعد، ولكنْ؛ قبل ذلك لابُدَّ من تقديم نبذة عن الممالك التي كانت تقع حول فلسطين آنذاك، وهي: (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 12 و 13).

العمونيُّون:[1]

عمون مُقاطعة جَبَليَّة تقع شرق نهر الأُرْدُن (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 12 و 13)، وكانت تقع شمال مُؤاب (وتقع أرض جلعاد ضمنها)، والعمونيُّون من نسل لُوط عليه السّلام، وكان لهم دولة، ولمَّا جاء المُوسويُّون بقيادة مُوسى عليه السلام من مصر، طَلَبوا من الملك "سيمون" السّماح لهم بالمُرُور من أراضيه، فَرَفَضَ، ممَّا أدَّى إلى نُشُوب حرب بينهما، انتصر فيها المُوسويُّون.

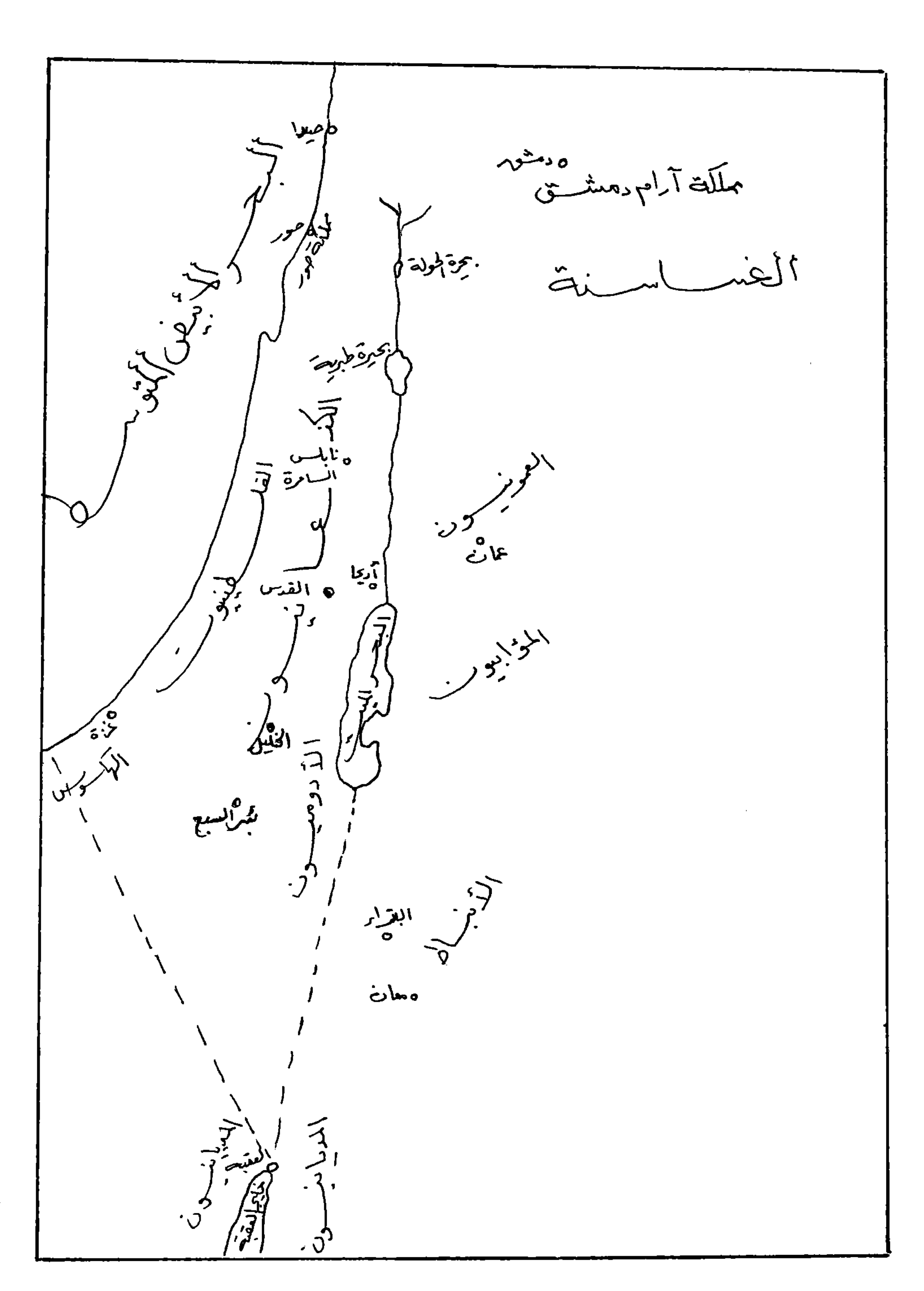
---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 934.



مُصوَّر رَقْم (13)

يُبيّن توزُّع أحفاد وأبناء إبراهيم عليه السَّلام



مُصوَّر رقم (12)

الشُّعُوب المُعاصرة لليهُود في فلسطين وماحولها

المؤابيُّون: [1]

مُؤاب مُقاطعة يُتاخمها العمونيُّون من الشّمال، والأدوميُّون من الجنوب، وتقع شرق نهر الأُردُن والبحر الميِّت، سكَنَهَا المُؤابيُّون (وهُم من نسل لُوط أيضاً)، ولمَّا جاء المُوسويُّون، وطَلَبوا المُرُور من بلاد المُؤابيِّين إلى فلسطين عارضوهم أوّلاً، ثُمَّ سمحوا لهم بالمُرُور في حُدُودهم الشّرقيَّة، وقد استولى عليهم داود ﷺ، ثُمَّ صار المُؤابيُّون يتبعون دولة إسرائيل فيما بعد انقسام مملكة اليهُود في فلسطين، ثُمَّ استقلَّت مُؤاب في عهد ملكها "ميشع".

الأدوميُّون: [2]

يرجعون في أصلهم إلى أدوم، أو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم. وتقع أدوم في جنوب فلسطين حتَّى العقبة. وقد عارضوا مُرُور المُوسويِّيْن إلى فلسطين أوَّل الأمر، ثُمَّ وافقوا على ذلك مثل المُؤابيِّيْن. وقد استولى المُوسويُّون في عهد الملك شاؤول (طالوت) على أرض آدوم، وخضعت للملك داود وسُلَيْمَان، ثُمَّ لمملكة يهُوذا، ولكنَّها استقلَّت في عهد ملكها "يهورام" (848 ـ 841 ق. م)، وقد ورث الأدوميُّون القسم الشّرقي والجنوبي من مملكة يهُوذا بعد أنْ قضى عليها الكلدانيُّون، ومن الآدوميِّين الملك هيرود الذي حكم يهُوذا في زمن الرُّومان (كما سنرى فيما بعد).

الأنباط: [3]

أصلهم موجة عَرَبيَّة خرجت من جزيرة العَرَب، وكانوا قبائل بدويَّة، وسكنوا في شرق الأُردُن حوالي القرن السّادس قبل الميلاد، وأسَّسوا عاصمتهم "البتراء" في منطقة وادي مُوسى (جنوب شرق الأُردُن)، عملوا بالتّجارة، وساعدهم على ذلك موقع بلادهم على طريق القوافل التّجاريَّة بين جزيرة العَرَب والشّام، وبلغت دولتهم أوج عزِّها وقُوَّتها في القرن الرّابع قبل الميلاد، وامتدَّت دولتهم على جميع شرق الأُردُن وحوران وجَبَل العَرَب وجنوب فلسطين (بلاد مدين وآدوم).

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 955.

(2) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 869.

(3) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 235، باختصار.

اشتبكوا في حُرُوب مع الهيروديِّين في القُدس في عهد ملكهم "عبادة الأوَّل" 90 ق. م، ومن أشهر مُلُوكهم الحارث الثّالث 87 ـ 62 ق. م، الذي حاصر القُدس، واحتلَّ دمشق، وحاول الإمبراطُور الرُّوماني "بُومبي" احتلال عاصمة الأنباط البتراء، ولكنَّ الحارث الثّالث صمد في وجهه، وتمَّ الصُّلح بين الأنباط والرُّومان، واستمرَّت دولتهم إلى 106 ميلاديَّة، عندما استولى على دولتهم الإمبراطُور الرُّوماني "تراجان"، واحتلَّ عاصمتهم البتراء بعد ضَعْف دولتهم؛ بسبب تحوُّل طريق التّجارة عن بلادهم إلى تدمر، وأصبحت بعد 106م البتراء مُقاطعة رُومانيَّة.

مملكة دمشق الآراميَّة: (1)

نشأت في سُوريَّة الدّاخليَّة عدَّة ممالك آراميَّة؛ كان من أشهرها مملكة دمشق، ومن أشهر مُلُوكها "ابن هدد أو حدد 879 ـ 847 ق. م)، الذي بسط نُفُوذه على المناطق المُجاورة لدمشق، وعقد حلفاً مع الممالك الآراميَّة الأُخرى ضدَّ التَّوسُّع الآشوري، وصمد ضدَّ هُجُوم قام به ملك الآشوريِّيْن شلمنصر الثّالث، ولكنَّ ملك الآشوريِّيْن "تغلات فلاسر الثّالث" تمكَّن أخيراً من احتلال دمشق بعد حصار دام سنتَيْن، وقَتَلَ آخر مُلُوك دمشق المدعو "رصين"، وسبى أهل المدينة، وقضى على الحُكْم الآرامي في دمشق بشكل نهائي.

نهاية مملكتَيْ: إسرائيل ويهُوذا (المُصوَّر رَقْم 11 ص 215):

قضى الآشوريُّون على مملكة إسرائيل، وقضى الكلدانيُّون على مملكة يهُوذا.

أوَّلاً: الغزو الآشوري وإزالة دولة إسرائيل (السّامرة) من الوُجُود:

لقد كان لقيام الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة في شمال العراق والتي دامت من 911 ـ 626 ق. م، أثر كبير في تغيير وجه الشّرق، فقد حكم الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكاً، بلغت الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة في عهد بعضهم أوج عظمتها واتِّساعها؛ حيثُ ضمت جميع أراضي الهلال الخصيب (بلاد الشّام والعراق) ومصر.

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 908.

ولقد لعبت الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة دوراً حاسماً في القضاء على مملكة إسرائيل، وسبي سُكَّانها إلى أماكن بعيدة، وإحلال سُكَّان جُدُد من غير اليهُود محلّهم من مُختلف أنحاء الإمبراطُوريَّة، فقد تمكَّن "شلمنصر الثّالث (858 ـ 822 ق. م) من إخضاع ممالك الآراميِّين والفينيقيِّين ومملكة إسرائيل.

ومن الحملات التي شنَّها مُلُوك الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة حملة "تغلات فلاسر الثّالث" على مملكة آرام دمشق، واستولى على دمشق عام 732 ق. م، وسبى أهلها، وقتل ملكها "رصين"، ثُمَّ توجَّه إلى مملكة إسرائيل، فاستولى عليها زمن ملكها "فقح" (739 ـ 731 ق. م)، وسبى اليهُود إلى آشور[1]، وأحلَّ محلّهم سُكَّاناً من أقاليم آشوريَّة أُخرى، تاركاً لخلف "فقح" الملك "هوشع" مدينة السّامرة، وقد قام تغلات فلاسر أو بلاسر بهذه الحملة استجابة لطلب "آحاز بن يوثام" ملك يهُوذا (732ـ 715 ق. م) لإنقاذه من ضغط الملك فقح ملك إسرائيل، وقد قدَّم ملك يهُوذا إلى ملك آشور مُقابل ذلك كمِّيَّات كبيرة من الذّهب والفضَّة[2].

ثُمَّ جرَّد شلنصر الخامس خلف تغلات بلاسر حملة تأديبيَّة على إسرائيل، فحاصر عاصمتها السّامرة مُدَّة ثلاث سنوات، وقبل أنْ يظفر بالنّصر النّهائي وافته المنيَّة، وخلفه "سرجُون الثّاني" الذي استطاع القضاء على مملكة إسرائيل نهائيّاً بعد استسلامها عام 721 ق. م، وأجلى سرجُون الثّاني يهُود مملكة السّامرة إلى ناحية حران، وإلى منطقة الخابور وكُردستان (شرق تُركيا الآن)، وأحلَّ محلّهم آراميِّين من إقليم حماة، ثُمَّ لحق بهم العَرَب عام 715 ق. م، وقد عُثر على مسلّة سرجُون الثّاني، والتي نقش عليها تفاصيل الحملة الآشوريَّة على مملكة إسرائيل، التي انتهت بالقضاء التّامِّ عليها، وسبى سُكَّانها إلى أماكن نائية في الشّمال الشّرقي من الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة[3].

---

(1) هذا هُو السّبي الأوّل بقيادة تغلات فلاسر الثّالث، أمَّا السّبي الآشوري الثّاني؛ فكان بقيادة سرجُون الثّاني عام 721 ق. م، فكان إلى بلاد كُردستان؛ حيث تمَّ القضاء على دولة إسرائيل قضاء نهائيّاً، والقضاء على عشرة أسباط من أسباط اليهُود كانوا يُشكّلون مملكة إسرائيل، والذين ضاعوا في مُرتفعات كُردستان في تُركيا، كما سنرى فيما بعد.

(2) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 639 ـ 642.

(3) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 639 ـ 642.

وقد عُثر على مسلّة نُقش عليها فُتُوحات شلمنصر الثّالث، وأُخرى نُقش عليها فُتُوحات تغلات فلاسر الثّالث.

الأسباط العشرة المفقودة:

وهُم أسباط مملكـة إسـرائيل العشـرة، الذيـن أبعدهـم الآشـوريُّون بعـد الاسـتيلاء علـى عاصمتهم السّامرة بقيادة الإمبراطُور سرجُون الثّاني إلى مناطق نائية في بلاد كُردستان الجَبَليَّة (فـي شـمال العـراق)، (كمـا تحدَّثنـا قبـل قليـل)، وأحلّـوا محلَّـهم أقوامـاً أُخرى مـن أنحــاء الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة.

عاش الأسباط العشرة في منفاهم مُنعزلين في مناطق جَبَليَّـة نائيـة وبعيـدة عـن فلسـطين بين أكراد المنطقة، فمارسوا حياتهم، وقلَّدوهم فـي أُسلُوب معيشـتهم بالاعتمـاد علـى تربيـة الأغنام والزّراعة.

وقد تنصَّر هؤلاء الأسباط العشرة في بداية عهد انتشار المسيحيَّة، ومذهبهم في المسيحيَّة هُو المذهب النّسطوري.

فهُم يتكلَّمون اللّهجة الآراميَّة الغربيَّة، ويعيشون في مُحافظـة الحسـكة (فـي الجُمهُوريَّـة العَرَبيَّة السُّوريَّة) على نهر الخابور وفي منطقـة الموصـل (فـي الجُمهُوريَّـة العراقيَّـة)، ويُسـمّون بالآشوريِّين، رغم أنَّهم لا يمُتُّون للآشوريِّين بصلة، وسنتحدَّث عنهم بالتّفصيل عندما نتكلَّم عن أُصُول اليهُود وأقسامهم، والمُهمُّ ـ الآن ـ أنْ نعرف أنَّ عشرة مـن أسـباط اليـهُود تنصَّـروا، ولم يعودوا يمُتُّون لليهُود بصلة، وأنَّ سبط بنيامين وسبط يهُوذا فـي مملكـة يـهُوذا هُمـا ـ فقـط ـ اللّذان بقيا على اليهُوديَّة، ومع كُلِّ ذلك؛ يدَّعي اليـهُود والصّهيُونيَّة أنَّ أُصُولـهم ترجـع إلـى ذُرِّيَّة يعقُوب، وسنرى في بحث أُصُول اليهُود وأقسـامهم وديانتـهم أنَّ يـهُود العصـر الحـاضر لا يمُتُّون بصلة إلى يعقُوب وذُرِّيَّته، وأنَّ اليهُوديَّة هي دين، وليست قوميَّة.

ثانياً: الغزو الكلداني وإزالة "يهُوذا" من الوُجُود:(1)

بعد القضاء على مملكة إسرائيل في السّـامرة بقيـت مملكـة يـهُوذا الصّغـيرة تنتظـر دورهـا وهي تتأرجح بين دولة مصر من الغرب ودولة آشور من الشّرق، فـإذا انحـازت إلـى إحداهمـا غضبت الأُخرى.

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 662 ـ 665، بتصرُّف، وباختصار.

ولمّا انحاز "حزقيا" ملك يهُوذا إلى مصر غضب "سنحاريب" الذي خلف سرجُون الثّاني، فصمّم على القيام بحملة قويَّة على مملكة يهُوذا؛ لإخضاعها، أو تدميرها، والقضاء عليها نهائيّاً (كما فعل أسلافه بإسرائيل)، فطَلَبَ "حزقيا" النّجدة من ملك مصر الذي وعده بالمُساعدة. وانتقد "أشعيا" (أحد أنبياء بني إسرائيل) حزقيا باعتماده على ملك مصر ومُساعدته، بدلاً من اعتماده على الرَّبِّ.

ولدينا مصدران عن أخبار حملة سنحاريب على مملكة يهُوذا:

المصدر الأوَّل: وهُو ما خلَّفه سنحاريب من مُدوَّنات يظهر فيها أنَّ سنحاريب اتَّجه غرباً، حتَّى وَصَلَ إلى ساحل البحر المُتوسِّط، فاستولى على صيدون (صيدا) بعد فرار ملكها "لوتي"، ولم يتحرَّش بمملكة "صُور" الفينيقيَّة لمناعتها، وقد جاءه التّأييد والطّاعة من مُدُن السّاحل: أرواد وجبيل (بيبلوس) وأشدود، وكذلك من دُول الشّرق مُؤاب وعمون وآدوم.

أمّا مصر؛ فقد أرسلت بجيش استولى على عسقلان (أشقلون)، واتَّجه شمالاً للاتِّصال بقُوَّات حليفه ملك يهُوذا "حزقيا"، إلاَّ أنَّ سنحاريب انتصر عليهم، واستولى على مُدُن مملكة يهُوذا، وَضَرَبَ الحصار على العاصمة أُورشليم.

المصدر الثّاني: وهُو رواية التّوراة، وقد جاءت هذه الرّواية مُشوَّشة غير واضحة، فمرَّة تقول: صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مُدُن يهُوذا الحصينة، وأخذها، وأرسل ملك يهُوذا إلى ملك آشور في "لخيش" يقول: لقد أخطأت، ارجعْ عنِّي، ومهما جعلت علي حملته، فَوَضَعَ ملك آشور على حزقيا ملك يهُوذا ثلاثمائة وزنة فضَّة وثلاثين وزنة ذهباً. فدفع حزقيا جميع الفضَّة المُوجُودة في بيت الرَّبِّ وفي خزائن بيت الملك (سفْر المُلُوك الثّاني، إصحاح 18، فقرة 15 ـ 18)، ثُمَّ تعود التّوراة في رواية أُخرى فتقول: إنَّ ملك آشور أرسل من لخيش إلى حزقيا بجيش عظيم إلى أُورشليم، فصعدوا، وأتوا إلى أُورشليم . . وإنَّ ملاك الرَّبِّ خرج، وَضَرَبَ من جيش آشور مائة وخمسة وثلاثون ألفاً، ولمّا بكروا صباحاً إذا هُم جُثث ميِّتة، فانصرف سنحاريب ملك آشور، وَذَهَبَ راجعاً، وأقام في نينوى" (سفْر المُلُوك الثّاني، إصحاح 18 ـ 19).

هذا؛ وقد حدَّدت التّوراة تاريخ حملة سنحاريب على يهُوذا في السّنة الرّابعة عشرة لملك حزقيا، وملك حزقيا بدأ 715 ق. م، فتكون حملة سنحاريب على يهُوذا في عام 701 ق. م، وهذا التّاريخ يتّفق مع المُدوَّنات التّاريخيَّة التي وَصَلَتْ إلينا عن تلك الحقبة من التّاريخ.

هذا؛ ومع أنَّ مدينة أُورشليم لم تسقط بيد الآشوريِّيْن، إلاَّ أنَّ الجيش الآشوري ترك البلاد خراباً، ولم يستطع ملك يهُوذا الاحتفاظ بعرشه، إلاَّ بعد دَفْع الجزية، واعترافه بالسّيادة الآشوريَّة، وظلَّ الأمر كذلك، حتَّى انهيار الدّولة الآشوريَّة عام 612 قبل الميلاد.

إزالة مملكة يهُوذا:

بعد انقراض الدّولة الآشوريَّة بسُقُوط نينوى عام 612 ق. م، اقتسم المادِّيُّون والكلدانيُّون مُمتلكاتها، فوقعت حصَّة الكلدان في سُوريَّة والعراق، وتأسَّست الدّولة الكلدانيَّة (البابليَّة الثّانية)، ودام حُكْمها 73 سنة من 612 ـ 539 ق. م، والذي يهمُّنا من حُكْم هذه الدّولة قضاؤها على مملكة يهُوذا، وسبي اليهُود إلى بلاد بابل، وقد أُنجزت هذه العمليَّة على يد نبوخذ نصر (بختنصر) الثّاني، أعظم مُلُوك هذه الدّولة، والذي حكم 43 سنة من 605ـ 562 ق. م، وذلك في حملتَيْن: الأُولى سنة 597 ق. م، والثّانية في 586 ق. م.

وأهمُّ مصادرنا عن هذا الحَدَث التّاريخي هُو القُرآن الكريم، ثُمَّ التّوراة؛ لأنَّ أكثر المُدوَّنات التّاريخيَّة عن هذا الملك تنحصر في أعماله العُمرانيَّة.

أوَّلاً: القُرآن الكريم:

جاء في القُرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء من 4 ـ 8.

ومعنى الآيات السّابقة: أنَّ الله قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله إليهم (وهُو التّوراة) أنّهم سيُفسدون في الأرض مرّتَيْن، ويعلون عُلُوّاً كبيراً؛ أيْ ينحرفون، ويطغون، ويَفْجُرُون، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أيْ أوّل الإفسادَيْن سلَّط الله عليهم جُنداً من جُنُوده أُولي بأس شديد وعُدد وعُدَّة، ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أيْ تملَّكوا البلاد، وسلكوا خلالها لا يخافون أحداً. وقد اختلف المُفسِّرون في مَنْ هؤلاء الذين سلَّطهم الله على بني إسرائيل في المرَّة الأُولى؛ فقال ابن عبَّاس وقتادة: إنَّه جالوت (ملك الفلسطينيِّيْن)، وقد قتله داود عليه السّلام بمقلاعه (كما أسلفنا).

أمَّا الإفساد الثّاني؛ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فعن سعيد بن جُبير أنْ سلَّط عليهم في المرَّة الثّانية "بختنصر" الذي أذلَّهم، واستباح مُقَدَّساتهم، ونهب أموالهم، وخرَّب ديارهم، وهدم هيكلهم، وسباهم إلى بابل، وقوله تعالى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ فهي صُورة للدّمار الشّامل الكامل الذي يطغى على كُلّ شيء، ولا يبقي أيّ شيء.

ولقد صدقت النُّبُوءة، ووقع الوعد، فسلَّط الله على بني إسرائيل مَنْ قهرهم أوّل مرَّة، ثُمَّ سلَّط عليهم مَنْ دمَّر مملكتهم، وسباها في المرَّة الثّانية.

أمَّا قوله تعالى؛ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فقد عاد اليهُود للفساد والإفساد، فسلَّط عليهم "طيطس" ملك الرُّوم (كما سيمرُّ معنا)، فدمَّر بلادهم، وخرَّب هيكلهم، وشرَّدهم، وحرَّم عليهم دُخُول القُدس، ثُمَّ عادوا في زمن الرّسول مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، فسلَّط الله عليهم المُسلمين الذين أخرجوهم من الجزيرة العَرَبيَّة كُلِّها (يهُود المدينة وخيبر وتيماء وفدك).[1]

وفي العصر الحاضر؛ سلَّط الله عليهم "هتْلَر" الذي أذاقهم مُرَّ العذاب والتّنكيل والقَتْل كما هُو معروف.

وقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صُورة "إسرائيل" التي أذاقت العَرَب أصحاب الأرض الويلات والقَتْل والتّشريد، وليُسلطنَّ عليهم اللهُ مَنْ يسومهم سُوء العذاب تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وإنَّ غداً لناظره قريب، ولا يُخلف اللهُ وعداً.

---

(1) التّفسير للآيات السّابقة من تفسير القُرآن العظيم لابن كثير، والظّلال لسيِّد قُطب.

ثانياً: التّوراة:

تُشير التّوراة إلى أنَّ الملك "يهوياقيم" ملك يهُوذا بين 608 ـ 597 ق . م ، تمرَّد على نبوخذ نصر أو بختنصر على الرّغم من تحذير النّبي "إرميا" له ، وذلك بعد أنَّ أظهر الطّاعة والخُضُوع للعاهل الكلداني مُدَّة ثلاث سنوات ، ثُمَّ تُضيف التّوراة أنَّ نبوخذ نصر أوعز ـ بادئ الأمر ـ إلى السُّوريِّيْن (الآراميِّيْن) والمُؤابيِّيْن والعمونيِّيْن بأنْ يغزوا مملكة يهُوذا ؛ حيثُ كانت هذه الدُّويلات تحت قبضته . (سفْر المُلُوك الثّاني ، الإصحاح 24، فقرة 1 ـ 6)، ثُمَّ شنَّ "نبوخذ نصر" بعد ذلك سنة 579 ق . م ، حملة على "يهوياقيم" الذي اضطُرَّ للاستسلام ، فسبى نبوخذ نصر ـ بعد ذلك ـ كُلَّ يهُود أُورشليم ، وكُلَّ الرُّؤساء ، وجميع جبابرة البأس ، عشرة آلاف صبي ، وجميع الصُّنَّاع ، والأقيان ، ولم يبقَ أحد إلاَّ مساكين شعب الأرض ، كما سبى "يهوياكين" ، وأُمَّه ، ونساءه ، ورجاله ، من أُورشليم إلى بابل . وأخرج نبوخذ نصر جميع خزائن بيت الملك ، وكسر كُلَّ آنية الذّهب ، ثُمَّ عيَّن "صدقيا" عم "يهوياكين" خلفاً له ، الذي أكَّد ولاءه للملك الفاتح . (سفْر المُلُوك الثّاني ، إصحاح 24، من 9 ـ 17) .

وهذا هُو السّبي الأوَّل ، ثُمَّ تبعه السّبي الثّاني سنة 586 ق . م ، وهذا وقع على أثر نقض "صدقيا" العهد بالولاء لنبوخذ نصر ؛ إذْ دَخَلَ في حوالي 589 ق . م ، في تحالف مع المُدُن السُّوريَّة والفلسطينيَّة بتحريض من ملك مصر "حوفرا" ، الذي كان يطمع في استعادة سيطرة مصر على سُوريَّة . وهكذا ؛ فقد وَضَعَ "صدقيا" مصيره مع مصر وحُلفاءها ، على الرّغم من مُحاولة "إرميا" إبعاده عن هذا الحلف المُوجَّه ضدَّ نبوخذ نصر .

غضب نبوخذ نصر غضباً شديداً ، وجاء بنفسه على رأس حملة ، وحاصر "أُورشليم" ، إلاَّ أنَّ دُخُول ملك مصر "حوفرا" إلى فلسطين لنجدة حُلفائه اضطُرَّ البابليِّيْن إلى رفع الحصار عن أُورشليم لُمحاربته ، فظنَّ اليهُود أنَّ النّصر بات حليفهم ، ولكنَّ النّبي "إرميا" حذَّرهم ، فَوَضَعُوه في السّجن (سفْر إرميا ، إصحاح 38 ، فقرة 2) ، ثُمَّ وقع ما تنبَّأ به إرميا فعلاً ، فقد تمكَّن البابليُّون من صدِّ المصريِّيْن على أعقابهم ، ثُمَّ أعادوا حصار أُورشليم ، ولم يمض وقت طويل حتَّى تفشَّت المجاعة ، وربَّما الوباء في المدينة ، ممَّا اضطُرَّ اليهُود إلى الاستسلام ،

وَدَخَلَتْ جُيُوش البابليِّين، وهرب "صدقيا" هُو وعائلته، ولكنَّ البابليِّين قبضوا عليه قُرب أريحا، ونقلوه إلى مُعسكر الملك نبوخذ نصر، وهُناك ذُبح أولاده أمام عينَيْه، ثُمَّ فُقِئت عيناه، وأُخذ مُكبَّلاً مع الأسرى إلى بابل، وكان النّبي "دانيال" مع المسبيِّين. أمَّا أُورشليم؛ فقد دُمِّرت تدميراً كاملاً، وأُحرق بيت الربِّ، وبيت الملك، وكُل بُيُوت المدينة، وسُلبت الخزائن، ونُقلت إلى بابل، وقد قُدِّر عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهُود من السّبي الأوَّل بحوالي 50 ألفاً، ثُمَّ وجَّه نبوخذ نصر جُيُوشه إلى باقي المُدُن السُّوريَّة، وفتحها، إلاَّ مدينة صُور، فقد قاومت لحصانتها، وتمَّ الصُّلح معها، وأظهرت ولاءها لبابل، ودفعت الجزية.

وهكذا قُضي على مملكتَيْ إسرائيل ويهُوذا الهزيلتَيْن، وقد دام حُكْم إسرائيل 209 أعوام من 931 ـ 732 ق. م، ودام حُكْم يهُوذا 345 عاماً، وذلك من 931 ـ 586 ق. م.

وبعد تخريب نبوخذ نصر لأُورشليم، وسبي اليهُود إلى بابل، ورث الأدوميُّون ديار يهُوذا الجنوبيَّة من الخليل إلى بئر السّبع، وشرقاً حتَّى وادي عَرَبة، ومنهم هيرودوس الكبير (من 37 ـ 4 ق. م)، كما سيمرُّ معنا. والأدوميُّون عَرَب من ذُرِّيَّة آدوم أو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام[1].

أحوال اليهُود في السّبي:

لم يكن السّبي الآشوري، ثُمَّ البابليّ، لليهُود استرقاقاً أو استعباداً كما يتبادر للذّهن، بل كان ذلك السّبي عبارة عن نفي وتغيير مكان الإقامة، ثُمَّ يبقى المنفيُّون أحراراً في بلاد المنفى. وأردتُ بهذا القول تصحيح مفهوم السّبي هُنا؛ لأنَّ السّبي والسّبايا كان في ظُرُوف تاريخيَّة أُخرى كثيرة يعني العُبُوديَّة والاسترقاق، وكان السّبي رجالاً ونساء وأولاداً يُباع بَيْعَ الرّقيق. ولذلك؛ كان السّبي مصدراً هاماً من مصادر الرّقيق.

لذلك فقد عاش يهُود السّامرة (أو يهُود مملكة إسرائيل) في كُردستان ـ حيثُ نفاهم الآشوريُّون ـ حياة حُرَّة بين سُكَّان المنطقة الأصليِّين من الأكراد، ثُمَّ أخذوا طراز حياتهم

---

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود..) 643 ـ 647 ـ 662 ـ 665، باختصار.

وأُسلُوب معيشتهم، وتطبَّعوا بطباعهم. وبسبب انعزال هذه المنطقة بجبالها العالية ووديانها السّحيقة ومناخها القاسي شديد البُرُودة، انقطعت صلة يهُود السّامرة في هذا المنفى البعيد عن مملكتهم في السّامرة.

أمَّا السّبي البابليّ إلى بابل وحوض الفرات؛ فقد كانت الظُّرُوف أفضل، والحياة أرغد، والمناخ أطلف، لا سيّما وأنَّ نبوخذ نصر - ومُلُوك بابل من بعده - أعطوا اليهُود الحُرِّيَّة الكاملة بالعمل، حتَّى واستعانوا بهم.

ويقول الدُّكتُور أحمد سُوسة[1]: «والمُهمُّ ذكْره أنَّ اليهُود استفادوا من وُجُودهم في بابل، فأخذوا حضارة البابليِّيْن وثقافتهم، واقتبسوا عنهم الكثير من فُنُون الزّراعة والتّجارة، وأخذوا يُمارسون الزّراعة التي تعتمد على الرّي الدّائم، بما في ذلك أساليب شقّ الأقنية والجداول وتطهيرها وطُرُق الرّي المُختلفة، وأسَّسوا لهم القُرى والمُدُن في منطقة بابل».

ويقول الأُستاذ ناجي[2] تأييداً لما قاله الدُّكتُور أحمد سُوسة، ونقلاً عن المُؤرِّخ "لودس": «لقد استفاد اليهُود كثيراً من المُميِّزات التي منحها لهم الكلدان، وأصبح في صُفُوفهم الكثير ممَّنْ تمرَّسوا على أساليب الحُكْم والسِّياسة، وممَّنْ أتقنوا فُنُون الحرَف والصّناعات المُختلفة، وعظُم شأنهم، ولولا أنبياء المهجر الذين كانوا لا ينفكُّون عن تنبيه اليهُود إلى أخطار الانصهار، ومساوئ التَّمرُّد على إلههم "يَهْوَه"، وحثّهم على ضرورة التّفكير في العودة إلى يهُوذا "فلسطين" أمثال النّبي "حزقيال" لانصهر اليهُود في الشّعب الكلداني انصهاراً تامّاً بسبب ما توفَّر لهم من رَغَد العيش والأمن والاستقرار والثّراء العظيم».

وبفضل هذا الثّراء الكبير ليهُود بابل؛ تمكَّن المُوسرون منهم من جَمْع الملايين من الذّهب؛ لإيفاد قافلة العودة الأُولى، وتزويدها بالمال؛ لإعادة بناء الهيكل في القُدس، وإعادة إعمارها، وإقامة نُواة جديدة لهم في القُدس.

---

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود..)، ص 674.

(2) الأُستاذ ناجي، (المُفسدون في الأرض)، ص 71.

إنَّ هذه الأوضاع المُمتازة لليهُود في بابل، والأوضاع الصّعبة لليهُود في كُردستان، كان له دور كبير (في رأيي) في بقاء يهُود "يهُوذا" في منطقة بابل على يهُوديَّتهم، وتخلِّي يهُود "السّامرة" عن يهُوديَّتهم في تلك الأصقاع النّائية، ثُمَّ تنصُّرهم - فيما بعد - وانقطاع أيَّة صلة لهم باليهُود حتَّى من النّاحية العرْقيَّة بانتسابهم إلى الآشوريِّيْن، واعتزازهم بآشوريَّتهم (كما لاحظتُ ذلك أثناء إقامتي بينهم).

وهكذا؛ فُقد الأسباط العشرة من بني إسرائيل في مجاهل كُردستان وجبالها الوعرة إلى الأبد، ومع ذلك يدَّعي اليهُود - الآن - أنَّ أُصُولهم ترجع إلى أسباط بني إسرائيل الاثنَيْ عشر، ويُصرُّون على ذلك.

مرحلة اليهُوديَّة:

الحقيقة أنَّه مُنذُ السّبي البابليّ بدأ اليهُود بمرحلة جديدة بالنّسبة لتطوُّر الدّيانة اليهُوديَّة. وإذا كُنَّا أطلقنا على اليهُود في الفترة السّالفة على السّبي اسم "المُوسويِّيْن"، وقبل ذلك كان اسمهم بني إسرائيل نسبة إلى إسرائيل أو يعقُوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقبل ذلك كان اسمهم العبرانيِّيْن "الهيبرو" نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه السّلام، فاسمهم الآن (بعد السّبي البابليّ) الذي أصبحوا يُعرفون به هُو "اليهُود"، والذي أطلق عليهم هذا الاسم هُم البابليُّون الكلدان، نسبة إلى مملكة يهُوذا التي سبوهم منها (وليس إلى يهُوذا بن يعقُوب).

والخُلاصة أنَّ الدِّين اليهُوديّ المُتمثِّل بالتّوراة الحاليَّة، التي دُوِّنت في بابل، بالإضافة إلى شُرُوح الكَهَنَة عليها، والمُتمثِّلة بـ "التّلمود"، وقيام عزرا ببَلْوَرَة مُعتقدات اليهُود الحاليَّة، ووَضْع قواعدها هي غير شريعة مُوسى عليه السلام التي نزلت قبل **800** عام من السّبي البابليّ، والتي انحرف اليهُود عنها.

إنَّ ديانة اليهُود الحاليَّة القائمة على اغتصاب حُقُوق الغَيْر، وعدم التَّورُّع عن القَتْل والإبادة للأغيار هي شريعة يتبرأ منها مُوسى عليه السلام، ويتبرأ من أهلها، ومن القائمين عليها.

الفصل السّابع:

اليهُود في عهد الحكْم الأجنبي

أوّلاً: اليهُود في عهد الفُرْس الأخمينيِّيْن:

أخذ اليهُود في بابل يتآمرون على الدّولة البابليَّة، رغم المُعاملة الحسنة التي عاملهم بها البابليُّون شعباً وحكُومة، وخُصُوصاً من قبل المُتديِّنين منهم، الذين كانوا يُفكِّرون بالعودة إلى فلسطين، وهذا لا يتحقَّق إلاَّ إذا قُضي على الحُكْم البابليّ الذي كان يقف حجر عثرة في طريق عودتهم.

وأخيراً؛ اعتلى عرش الإمبراطُوريَّة البابليَّة "نابونيد **Nabonid**" وكان ملكاً ضعيفاً، فتوالت عليه حوادث العصيان في مُختلف أنحاء الإمبراطُوريَّة، وتوزَّعت قُوَّاته على عدَّة جبهات، ممَّا أضعفها.

ظهر في هذه الأثناء "كُورش الثّاني" ملك الفُرْس، وأعلن تمرُّده على بابل. وبعد ستّ سنوات من مُقاومة بابل، تمكَّن كُورش عام **539**، من دُخُول بابل، والقضاء على الإمبراطُوريَّة البابليَّة الكلدانيَّة.

وخلال الحرب بين الكلدان وكُورش تحالف اليهُود مع كُورش، ونشروا الشّائعات والاضطرابات في بابل، فكان لهم دور كبير في انهزام الجيش البابليّ، وتحقيق النّصر لكُورش.

كافأ كُورشُ اليهُودَ على خدماتهم، فولاَّهم أُمُور أهل بابل، وأجزل لهم العطاء، ثُمَّ أعاد لهم كُنُوز هيكل سُلَيْمَان التي سلبها نبوخذ نصر، وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين، وإعادة بناء الهيكل، وتعمير أُورشليم.

مَنْ هُو كُورش الثّاني؟ [1]

كُورش الثّاني هُو "ذُو القرنَيْن" كما وَرَدَ في القُرآن الكريم في سُورة الكهف: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ سُورة الكهف **83 ـ 88**.

وكان كُورش ملكاً صالحاً مُؤمناً، وكان دُستُوره في الحُكْم العدل والعمل الصّالح، فلم يكن وَثَنيّاً، بل مُوحِّداً يُؤمن بالبعث والحساب واليوم الآخر على دين "زرادشت"، أو "زراوستر" نبي الفُرْس، وقد عَطَفَ على اليهُود لعدَّة أسباب منها: قُرب عقائد اليهُود من عقيدته هُو، فلم تكن العقيدتان وَثَنيَّتَيْن، وبسبب وُقُوف اليهُود بجانبه ومُساعدتهم له عند فتح بابل والانتصار على الكلدان.

وقد وَرَدَ في التّوراة ما يُشبه أصل كلمة "ذي القرنَيْن" وهي أقْرآنائيم" ووُجد إلى ما يُشير إلى اسم كُورش بلفظ "حورش، أو حورس، أو خورس، أو خورش"، وقد عُني اليهُود بـ "كُورش" عناية كبيرة، وحاكوا حوله رُؤى كثيرة، وأغدقوا عليه كثيراً من ألفاظ المديح؛ كما جاء في سفْر "يشعيا، أو أشعياء" مثل: « إنِّي أقول في حقِّ خورش بأنّي داع له وهُو يُتمُّ مرضاتي كُلّها. يقول الرَّبُّ في شأن مسيحه "خورس": أنا أخذتُ بيده اليُمنى؛ لأجعل الأُمم بحوزته، وأنتزع من سواعد المُلُوك مُلكهم، وأفتح له الأبواب تلو الأبواب، أجل؛ إنّني أمشي بين يدَيْك، وأُقوِّم ما اعوجَّ من سُبُلكَ»، إلى أنْ يقول « أفعل كُلَّ ذلك لتعلم أنّني الرَّبُّ إله إسرائيل، الذي ناداكَ باسمكَ صراحةً لأجل إسرائيل شعبه المُختار ».

والأسفار ـ وبخاصّة سفْر أشعياء ـ تُصوِّر أنَّ ملكاً سيظهر في الشّرق، ويُنقذهم من الأسر الذي وقعوا فيه على يد بختنصر، ويُعيدهم من بابل إلى فلسطين. ويُرمز إليه بصُورة

---

(1) راجع كتابي (الكون والأرض والإنسان في القُرآن العظيم) ففيه قصّة كُورش بالتّفصيل، وتعاطفه مع اليهُود من ص 358 ـ 380.

كبش له قرنان "أقْرآنائيم"، أو عقاب يأتي من الشّرق، له جناحان، أو تذكر اسمه صراحة بأنّه "خورس"، وقد ظهر هذا في الأسفار التّوراتيَّة على شكل رُؤى أو نُبُوءات.

وهكذا اندفع كُورش إلى مُساعدتهم كما اندفعوا هُم إلى مُساعدته.

وكُورش من الفُرْس الأخمينيِّيْن، وهُو مُؤسِّس الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة الأخمينيَّة، والتي تُعدُّ أعظم إمبراطُوريَّة تكوَّنت في العالم حتَّى عصره.

عاد اليهُود إلى فلسطين على دفعتَيْن: الأُولى بقيادة "زوروبابل"، والثّانية بقيادة "سابا ساد"، وعند عودتهم دبَّ الخلاف بينهم وبين أهل السّامرة، الذين قاوموا عودتهم.

هذا؛ ولم يعد إلى فلسطين من اليهُود إلاَّ الذين لم يُحالفهم الحظُّ والنّجاح في منفاهم في بابل، أو من اليهُود شديدي التَّعصُّب. أمَّا الأثرياء وأصحاب الأملاك؛ فقد آثروا البقاء في بابل مع أموالهم وأملاكهم، وحتَّى لا يُلقوا بأنفسهم في مصير مجهول، وهُم الذين موَّلوا العودة، واستمرّوا في تقديم المُساعدة والعون للعائدين، ولإعادة بناء الهيكل في القُدس.

أمَّا أثرياء اليهُود الذين ظلّوا في بابل؛ فكان الواجب يقضي عليهم أنْ يُخلصوا لكُورش ولخُلفائه، مُقابل لفتته الكريمة نحوهم، ولكنَّهم أخذوا في عهد الملك "أرتخسس أو أحشويرش" بالتّآمر مع البابليِّيْن ضدَّ الفُرْس، فشعر بمكائدهم الوزير "هامان"، الذي أمر رجاله بمُراقبتهم، فجزع اليهُود من مغبَّة تصدِّي هامان لهم، فسارعوا إلى تدبير مكيدة له على يد إحدى بناتهم التي توصَّلوا إلى تزويجها من الملك "أحشويرش"، وكانت آية في الجمال، وهي التي أوغرت صَدَرَ زوجها الملك على وزيره هامان، الذي كان في غاية الإخلاص للملك والتّفاني في خدمته. وكان لليهُود ما أرادوا، فأمر الملك بإعدام وزيره هامان، وكلَّف اليهُود بتنفيذ الأمر، فما كان منهم إلاَّ أنْ نفَّذوا فيه الإعدام صلباً، وبكُلِّ أعوانه ومَنْ يلوذ به (راجع سفْر استر، ففيه القصَّة مرويَّة بالتّفصيل).

وبعد زوال هامان من الوُجُود؛ اشتدَّت شوكة اليهُود في الدّولة الفارسيَّة بفضل "استر" (التي جعَلوا لها سفْراً خاصّاً في التّوراة)، وأصبحت لهم ميِّزات خاصَّة، حتَّى إنَّ مُلُوك فارس اتَّخذوا من اليهُود رُقباء على الشُّعُوب التي أخضعوها[1].

---

(1) الأُستاذ ناجي، (المُفسدون في الأرض)، ص 64 ـ 65.

لقد عاش اليهُود عزَّهم العظيم في رعاية دولة الفُرْس الأخمينيِّين، ولا سيّما في عهد كُورش، وأحشويرش، وقد تصاهر الفُرْس مع اليهُود الذين قدَّموا للسّادة منهم أجمل فتياتهم[1].

أمَّا اليهُود الذين رجعوا إلى فلسطين في عهد الفُرْس؛ فقد تجمَّعوا في منطقة أُورشليم على الأكثر، وقد تمتَّعوا خلال حُكْم الفُرْس بامتيازات كثيرة؛ منها حُرِّيَّة مُمارسة شعائرهم الدِّينيَّة.

ويذكر يُوسيفُوس (المُؤرِّخ اليهُوديّ القديم) أنَّ العائدين من اليهُود كان عددهم 42 ألفاً، وقد واجهوا عداوة الأدوميِّين في الجنوب، وعداوة المُتهوِّدين[2] في السّامرة، ممَّا أعاق بناء الهيكل من جديد[3].

***ثانياً*: اليهُود في ظلِّ اليُونان:**

انهارت دولة الفُرْس على يد الإسكندر المقدوني، وخيَّم على رُبُوع الشّرق ظلُّ اليُونان. وعلى أثر انهزام "دارا الثّالث" ملك الفُرْس دَخَلَ الإسكندر مدينة القُدس، فاستقبله اليهُود أعظم استقبال عام 332 ق. م.

وفي دُخُول الإسكندر القُدس أصبحت المُقاطعة اليهُوديَّة إحدى مُمتلكات الدّولة المقدونيَّة. ولمَّا مات الإسكندر عام 323 ق. م (بدُون وريث) اقتسم قادةُ جيشه إمبراطُوريّته الواسعة: فكانت مصر وجنوب بلاد الشّام (ومنها فلسطين) حصَّة القائد "بطليموس"، وأصبحت عاصمتها الإسكندريَّة، وسُمِّيت دولة "البطالمة"، أمَّا شمال سُوريَّة والأناضول والعراق شرقاً؛ فكانت حصَّة القائد "سلوقس"؛ وعاصمتها أنطاكية، وسُمِّيت "دولة السّلوقيِّين".

وقد استمرَّ حُكْم "البطالمة" أو "البطالسة" في مصر مُدَّة 300 عام تقريباً، حتَّى استولى على مصر الرُّومان. أمَّا حُكْم البطالسة لفلسطين؛ فقد انتهى عام 200 ق. م؛ حيثُ استولى

---

(1) د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود..)، ص 675 - 676.

(2) بقي في السّامرة بعض اليهُود العَجَزَة بعد السّبي الآشوري، وهؤلاء نشروا الدّيانة اليهُوديَّة بين مَنْ جاء بهم الآشوريُّون ليحلّوا محلَّ المسبيِّين، وهكذا؛ فهُم ليسوا من ذُرِّيَّة أسباط اليهُود العشرة سُكَّان السّامرة قبل السّبي الآشوري، بل هُم من المُتهوِّدين، وكانوا على خلاف مع اليهُود العائدين إلى القُدس، ووقفوا ضدَّهم، حتَّى إنَّهم لم يعترفوا بالتّوراة؛ إلاَّ على الأسفار الخمسة الأُولى. وسنتحدَّث عنهم بالتّفصيل عند الحديث عن أقسام اليهُود الدِّينيَّة.

(3) ظفر الإسلام خان، (تاريخ فلسطين) ص 64 - 65.

عليها السّلوقيُّون، وطردوا البطالسة منها، وبقيت تحت حُكْمهم حتَّى عام 63 ق. م، حين استولى الرُّومان على دولة السّلوقيِّيْن، وبذلك أصبحت فلسطين من مُمتلكات الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الجديدة.

وقد كان وَضْع اليهُود مُتأرجحاً بين البطالسة والسّلوقيِّيْن، فتارةً يقع تحت حُكْم البطالسة، وتارةً تحت حُكْم السّلوقيِّيْن، وقد استفاد اليهُود من الخلاف المُستحكم بين البطالسة والسّلوقيِّيْن، فكانت كلتا الدّولتَيْن تخطب وُدَّ اليهُود في القُدس، ليكونوا بجانبها ضدَّ الأُخرى، لذلك تمتَّعوا بحُكْم كَهَنُوتي شبه مُستقلّ.

ولكنَّهم لا قوا أسوأ الحالات بعد أنْ استقرَّ الوَضْعُ لصالح السّلوقيِّيْن في سُوريَّة الجنوبيَّة (أيْ فلسطين) مُنذُ 200 ق. م وحتَّى 63 ق. م، وخُصُوصاً في عهد الملك السّلوقي "أنطيوخس الرّابع" 165 ـ 164 ق. م، فقد دمَّر هذا الملك الهيكل، ونَهَبَ خزائنه، وأجبر اليهُود على نبذ اليهُوديَّة، واعتناق الوَثَنيَّة اليُونانيَّة، وهُنا أخذ الصّراع بين اليهُوديَّة والإغريقيَّة يشتدُّ يوماً بعد يوم، حتَّى اندلعت الثّورة المكابيَّة، وقد أُطلق على عصرهم الذي دام قرناً ورُبع القرن من 166 ـ 37 ق. م اسم العصر المكابي.

الثّورة المكابيَّة 167 ق.م:

حاول السّلوقيُّون حُكَّام بلاد الشّام نَشْرَ الثّقافة والحضارة اليُونانيَّة (الهيللينيَّة) في دولتهم في بلاد الشّام، فأخذ اليهُود بالتَّقرُّب من الأساليب اليُونانيَّة في الحياة. ولم يكن حُكْم السّلوقيِّيْن ظالماً أو مُستبداً، بل كان حُكْماً شعبيّاً. ورغم ذلك وقعت ثورة اليهُود الكُبرى وهي "الثّورة المكابيَّة" وكان لهذه الانتفاضة أسبابها؛ وهي:

1: قيام كبير وُزراء السّلوقيِّيْن (هيليو دورس **Heliodrus**) بنهب كُنُوز الهيكل اليهُوديّ، عقب هزيمة السّلوقيِّيْن أمام الرُّومان سنة 189 ق. م، وتغريم اليهُود بدَفْع تعويض سنوي عن الحرب[1].

---

(1) وأرى أنَّ ذلك لم يكن ظُلماً كما يتبادر إلى الذّهن، بل كان تعويضاً للدّولة عن خسائرها في الحرب، وكثير من الدُّول تلجأ إلى شعبها لتعويض خسائرها في الحُرُوب بالمُصادرة، أو بعمل قرض وطني داخلي.

2 : (وهُو الأهمُّ) وهُو مُحاولـة "أنطوخيـوس" حَـرْفَ اليـهُود عـن دينـهم إلـى المُعتقـدات الدِّينيَّة اليُونانيَّة (الوثَنيَّة)، فعيَّن كاهناً دينيَّاً إغريقيَّاً كبيراً على القُدس.

في هذه الفترة كانت الحضارة اليُونانيَّة (الهيللينيَّة)[1] قد انتشرت في البلاد، ونشأت بين اليهُود جماعـة تُنـاصر اليُونـانيِّين (بسـبب إعجابـهم بحضارتـهم) وهـذه الجماعـة تمكَّنـت مـن الوُصُول إلى الحُكْم في القُدس بقيادة كبير كَهَنَة اليـهُود "جيسـون **Jason**" وسـيطرت ـ بذلـك ـ على الهيكل، واصطبغت الطّبقة العُليا عند اليهُود من سُكَّان القُدس بالصّبغة الهيللينيَّة.

وفي سنة **170** ق . م، مـرَّ أنطيوخـوس بـالقُدس، فـي طريقـه إلـى مصـر، ونـهب كُنُـوز الهيكل كُلِّها، ودمَّر رجاله القُدس، وأقام قلعة "أكرا" التي أصبحت رمزاً لاستعباد اليهُود.

قام الكـاهن "متّاثيـاس **Mattathias**" بثـورة، ولكـنَّ أنطيوخـوس قَـهَرَهَا بعُنـف، ومَنَـعَ الختـان، واحـترام السّـبت عنـد اليـهُود، وقـرَّر إعـدام مَـنْ يُخـالف هـذه الأحكـام، ومضـى أنطيوخوس بإثارة اليهُود، فَوَضَعَ في مكان مذبح الإله "يَهْوَه" إله اليهُود سنة **167** ق . م مذبح "زيوس" كبير آلهة اليُونان، والذي سمَّاه اليهُود (رجس الخراب)، وحطَّم أسوار القُدس.

بعد كُلِّ هذا؛ ثـار اليـهُود ضـدَّ أنطيوخـوس، وقـاد الثّـائرين أحـد أبنـاء متّاثيـاس، وهُـو "جوداس مكابيوس **Judasmaccabaes**"، وسُمِّيت بالثّورة "المكابيَّة".

استطاعت الثّورة المكابيَّة ـ خلال ثلاث سنوات ـ من تطهير الهيكل عام **165** ق . م، وقد ساعد الثّورة المكابيَّة على النّجاح وترسيخ أقدامها وسيطرة المكابيِّين على الحُكْـم فـي القُـدس حتَّى زوال الدّولة السّلوقيَّة عام **63** ق . م على يـد الرُّومـان. إنَّ مـوت أنطيوخـوس والقلاقـل الدّاخليَّة في الدّولـة السّـلوقيَّة نتيجـة الصّـراع علـى الحُكْـم بـين المُطـالبين بـالعرش السّـلوقي، والذين حاول بعضهم استرضاء اليهُود واستقطابهم إلى جانبهم، ليكونوا حُلفاء لـهم، مكَّـن جوداس مكابيوس من الاحتفـاظ بالسَّيطرة علـى زمـام الأُمُـور فـي القُـدس. وفـي عـام **163**

---

(1) الحقيقة أنَّ الحضارة اليُونانيَّة الهيللينيَّة انتشرت في الشّرق، وامتزجت مع حضارة الشّـرق، ونتـج عـن امتزاجـها الحضارة "الهيلنستيَّة"؛ أيْ حضارة اليُونان الهيللينيَّة مع حضارة الشّرق **EAST**، ومن هذا الامتزاج؛ ظهر اصطـلاح الحضارة "الهيلينستيَّة".

ق . م ؛ تمكَّن من عقد اتِّفاق مع الوصيّ السّلوقي حصل ـ بمُوجبه ـ على الحُرِّيَّة الدِّينيَّة والاستقلال الدّاخلي لليهُود .

وتمتَّع اليهُود ببعض الحُرِّيَّة في عهد المكابيِّيْن الذين حكموا ككبار الكَهَنَة حُكْماً دينيَّاً ، وكان الحاكم يُلقَّب بـ "كبير الكَهَنَة ، ومُوحِّد اليهُود" ، وسُرعان ما سمَّى المكابيُّون أنفسهم بالمُلُوك ، بالرّغم من أنَّهم كانوا تابعين للسّلوقيِّيْن ، ويدفعون الخراج لهم .

وبعد حُرُوب بين المكابيِّيْن قُتل جوداس عام 161 ق . م ، وتسلَّم الحُكْم بعده أخوه "جُوناثان" (161 ـ 143 ق . م) الذي قوَّى مركزه الخلاف في الأُسرة الحاكمة السّلوقيَّة . ثُمَّ تولَّى الحُكْم "سيمون" (من 143 ـ 135 ق . م) ، وفي زمنه ؛ أعفى الملك السّلوقي "ديمتريوس الثّاني" اليهُود من الضّرائب بناءً على طَلَب سيمون ، كما أعطاه لقب حاكم ، ثُمَّ أصبح سيمون ملكاً ، ويتولَّى ـ من بعده ـ وَرَثَتُهُ الحُكْم ، واعترف السّلوقيُّون بهذا التَّطوُّر ، وسمحوا لسيمون بصَكِّ النُّقُود باسمه ، وكان عهد سيمون عهد رخاء وسلام .

ثُمَّ تولَّى الحُكْم ابن سيمون "جُون هيركانوس" بعد وفاة أبيه ، وقد غزا هيركانوس (ساماريا) "السّامرة" ، رغم مُعارضة الملك السّلوقي .

ومن أهمِّ أحداث عهد هيركانوس أنَّه تخاصم مع رجال الدِّين "الفرِّيسيِّيْن" ، وساعد أعداءهم "الصّدوقيِّيْن" (وسيمرُّ معنا الحديث عن الفرِّيسيِّيْن والصّدوقيِّيْن بالتّفصيل عند الحديث عن فرَق اليهُود الدِّينيَّة) .

ثُمَّ جاء "الإسكندر جانيوس **Jannaes Alexander**" ، وهُو أطول الحُكّام اليهُود عصراً من 103 ـ 76 ق . م . وتوسَّعت دولته ، وكادت تصل إلى حُدُودها زمن داود وسُلَيْمَان عليهما السّلام . وكان جانيوس من أشدِّ خُصُوم الفرِّيسيِّيْن مثل سابقه سيمون .

ثُمَّ تولَّت أرملته الحُكْم من بعده ؛ وهي سالوم الكزندرا "**Alexandra Saloma**" ، والتي تُوفِّيت عام 67 ق . م . واختلف أولادها على الحُكْم من بعدها ؛ وهُم "أريستوبولوس" ، و"هيراكانوس الثّاني" ، الذي استعان بحاكم أدومية العَرَبيّ على أخيه . وبقي وَضْع اليهُود هكذا ، حتَّى احتلَّتْ رُوما بلادَ الشّام ، وانتهى الحُكْم السّلوقي عام 63 ق . م .

وقد استمرَّ الحُكْم المكابي في ظلِّ الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة حتَّى عام 36 ق. م. وبذلك استمرَّ العصر المكابي من 166 ـ 37 ق. م[1].

ثالثاً: اليهُود في ظلِّ الرُّومان:

بينما كان أبناء جانيوس يتخاصمون؛ كان بُومبي العظيم "بومبيوس" القائد الرُّوماني يغزو أملاك السّلوقيِّيْن، ويستولي على بلاد الشّام، ويدخل أُورشليم القُدس سنة 63 ق. م.

وعند وُصُول بُومبي إلى فلسطين؛ كان أريستو بوليس (ابن جانيوس) يُقاتل أخاه هيركانوس الثّاني الذي استنجد بالأدوميِّيْن، وقد حاول بُومبي الوساطة بين الأخوَيْن، ولكنَّ أريستو بوليس لم يمتثل للوساطة، ورحل إلى القُدس؛ ليستعدَّ لقتال بُومبي، ولكنَّ بُومبي استولى على القُدس، وقَتَلَ الكثير من اليهُود، وحطَّم أسوار القُدس، وأخذ معه أريستو بوليس (المُتمرِّد) إلى رُوما، ونصَّب أخاه هيركانوس الثّاني كبيراً للكَهَنَة، وليس ملكاً، وهُو اللّقب الذي انتحله حُكّام القُدس في العصر المكابي، وهكذا انتهت الدّولة اليهُوديَّة في القُدس، ولكنْ؛ استمرَّت الأُسرة المكابيَّة في الحُكْم في ظلِّ الرُّومان (باسم كبير الكَهَنَة، وليس ملكاً).

في هذه الأثناء؛ كان حاكم أدومية "أنتي بيتر" في جنوب فلسطين قد زاد سُلطته، ووسَّع نُفُوذه، ومنحه "سيزار أو قَيْصَر" لقب حاكم القُدس (أو يهُوديت)، وأعطاه المُواطنيَّة الرُّومانيَّة سنة 47 ق. م، وأصبح هيركانوس كبير الكَهَنَة في القُدس غير ذي أهمِّيَّة تُذكَر، ثُمَّ نصَّب "سيزار قَيْصَر" ابن "أنتي بيتر" فيرائيل "Phassel" حاكماً على القُدس، و"هيرود" الابن الثّاني لأنتي بيتر حاكماً على الجليل (شمال فلسطين).

اغتال اليهُود أنتي بيتر "الأدومي" بسبب توسُّعه وسيطرته هُو وأولاده عليهم.

وفي هذه الأثناء ـ وفي سنة 40 ق. م ـ هاجم الفُرْسُ البلادَ، فجاءت الفُرصة الذّهبيَّة لليهُود للانتقام من الرُّومان وحُلفائهم الأدوميِّيْن، لا سيّما وأنَّ العلاقات وُدِّيَّة وطيِّبة بين الفُرْس واليهُود مُنذُ كُورش وحتَّى خُرُوج الفُرْس من بلاد الشّام على يد الإسكندر المقدوني،

---

(1) المصدر الرّئيسي للبحث السّابق: ظفر الإسلام خان، "تاريخ فلسطين القديم"، من 74ـ 81.

فاتَّصل بهم "أنتي جُونس"، وهُو أخ هيركانوس كبير كَهَنَة اليهُود في القُدس، وجاء مع جُيُوشهم، وحاز ثقة الفُرْس، فنصَّبوه ملكاً على أُورشليم.

أمَّا أولاد أنتي بيتر (الأدوميُّون) المُوالون للرُّومان؛ فقد انتحر فزائيل حاكم القُدس، وهرب هيرود حاكم الجليل إلى رُوما يستصرخ حُلفاءه الرُّومان.

رحَّب اليهُود بـ "جُونس" أو "أنتي جُونوس" بسبب يهُوديَّته وانتمائه إلى المكابيِّيْن، لا سيّما وأنَّه جاء مع الفُرْس الذين يُكنُّ لهم اليهُود الوُدَّ والذّكريات الطَّيِّبة، بالإضافة إلى رَفْضهم أُسرة أنتي بيتر الأدومية غير اليهُوديَّة.

ثُمَّ عاد هيرود الأدومي مع القُوَّات الرُّومانيَّة التي أتت لطَرْد الفُرْس، وانتصر الرُّومان، وانسحب الفُرْس من فلسطين، وَدَخَلَ هيرودُ القُدسَ بعد حصار دام خمسة أشهر، وقَتَلَ العديد من سُكَّانها اليهُود، وتزوَّج من ابنة "جُونوس"، الذي قَتَلَهُ شرَّ قتلة، بعد أنْ وقع بين يَدَيْه.

وهكذا انتهى العصر المكابي، وعاد هيرود الأدومي حاكماً على فلسطين، وفرض في البلاد سلاماً لم تنعم به من قبلُ بمُلاحقة المُشاغبين من اليهُود، وتمتَّعت المنطقة بالرّفاه العامِّ.

وقد استمرَّ عصر هيرود طويلاً من 37 ـ 4 ق. م، وتوسَّع حتَّى شمل مُعظم فلسطين، ونظَّم الإدارة، وكان هيرود من أنصار الرُّومان المُخلصين، وكان يدين لهم في ارتقائه عرش أُورشليم، وكان ضدَّ القوميَّة اليهُوديَّة، لذلك كان مكروهاً من اليهُود.

وبعد موت هيرود؛ عادت الفوضى للبلاد، بسبب كثرة أبنائه من زوجاته العشر. وفي عام 3 ق. م، وزَّع الإمبراطُور الرُّوماني أغسطس البلادَ بين ثلاثة من أبنائه على النّحو التّالي:

1: أرشيلاس **Archelaus** أعطاه حُكْم يهُوديَّة (القُدس)، وساماري (نابلس)، وإيدومية (أيْ فلسطين الوُسْطَى والجنوبيَّة).

2: أنتيباس **Antipas** أعطاه حُكْم الجليل وشرق الأُرْدُن.

3: فيليب تراكونيتس **Trachonitis Philip**، أعطاه دمشق وجنوبها.

استمرَّ حُكْم فيليب حتَّى 34 م، وأنتيباس حتَّى 39 م، أمَّا أرشيلاس؛ فقد تُوفِّي في عام 6 م، وبعد وفاته نَقَلَ الرُّومان حُكْم فلسطين الوُسْطَى والجنوبيَّة إلى أيد رُومانيَّة، وكان من هؤلاء الحُكَّام الرُّومان "بيلاطس **Pilateas**" من 26 ـ 36 م، وهُو الذي وقعت في عهده المُحاولة اليهُوديَّة لصَلْب السَّيِّد المسيح عليه السّلام[1].

وعند نهاية عهد بيلاطس، عاد الحُكْم ثانية إلى أُسرة هيرود؛ حيثُ استلم الحُكْم "هيرود أغريبا الأوَّل **I Agrippa Herod**"، وبعد وفاته، انتقل الحُكْم ـ من جديد، ونهائياً ـ إلى الرُّومان، الذين اعتبروا فلسطين إقليماً تحت حُكْمهم مُباشرة، وبذلك انطفأت آخر شمعة للسّيادة اليهُوديَّة الصُّوريَّة.

الحقيقة أنَّ السّيادة اليهُوديَّة الاسميَّة كانت قد انتهت ـ نهائياً ـ مع سُقُوط أنتي جُونوس آخر مكابي حكم أُورشليم سنة 40 ق. م. والحقيقة الأُخرى أنَّ الدُّويلة اليهُوديَّة التي قامت بعد عودة قسم من اليهُود من بابل، إنَّما قامت كتابعة للدُّول الأُخرى التي سيطرت على فلسطين من الفُرْس أوَّلاً، ثُمَّ اليُونان السّلوقيِّيْن، وأخيراً؛ الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة[2].

حملة تيتوس:

أخذ اليهُود ـ مُنذُ عودة هيرود أغريبا الأدومي لحُكْم البلاد بعد بيلاطس الرُّوماني ـ بالتَّمرُّد والضّغط للخلاص من الأُسرة الأدومية (رغم أنَّ أفرادها تظاهروا باعتناق الدِّين اليهُودي). وبعد إعادة رُوما الحُكْم الرُّوماني المُباشر على المناطق اليهُوديَّة؛ سيطرت على اليهُود خيبة الأمل مُجدَّداً، وعادوا إلى أعمال الشّغب، وإظهار التَّذمُّر، والاعتداء على مُوظَّفي الدّولة، والامتناع عن دَفْع الضّرائب، فتفاقمت الأُمُور، ولم يعد بإمكان الحاكم الرُّوماني السُّكُوت عنهم، فطَلَبَ من أهل القُدس دَفْع ما عليهم من الضّرائب، فأخذ اليهُود هذا الأمر ذريعة لإعلان العصيان والثّورة، وداهموا الحامية الرُّومانيَّة، وقتلوا أفرادها عن بَكْرَة أبيهم، وهكذا أعلنوا الحرب السّافرة على رُوما، والتي استمرَّت خمسة أعوام من 66 ـ 70م.

---

(1) راجع إنجيل مرقس الإصحاح 15، وإنجيل متَّى، الإصحاح 27 (العهد الجديد).

(2) المصدر الرّئيسي لحُكْم الرُّومان، ظهر الإسلام خان "تاريخ فلسطين القديم" من 83 ـ 89.

وعندما اعتلى العرش الرُّوماني "فاسباسيان **Vespasien**" (حاكم سُوريَّة السّابق) كلَّف ابنه البكر "تيتوس **Titus** بقمع الثّورة اليهُوديّة، فقام بحملة واسعة على الثُّوّار سنة 70م، ودَحَرَهُم في مُختلف أنحاء المنطقة، فالتجأ مَنْ بقي منهم إلى مدينة القُدس؛ حيثُ تجمَّعت عصاباتهم فيها، فَعَمَّ الفساد في المدينة؛ بسبب التّنافس بين العصابات المُختلفة؛ إذْ كانت كُلٌّ منها تُريد فَرْضَ سيطرتها على المدينة، فكثرت الاغتيالات وعمليَّات السَّلْب والنَّهْب. ويذكر المُؤرِّخ "فلافيوس" أنَّ عدد سُكَّان القُدس ارتفع في ذلك الوقت إلى حوالي مليون نسمة؛ للاحتماء بها، ممَّا أدَّى إلى بقاء النّاس في الشّوارع، لعدم وُجُود مساكن تستوعبهم.

ولمَّا وَصَلَ جيش تيتوس إلى تُخُوم المدينة، وَضَرَبَ الحصار عليها، كان يُريد استسلامها، وعدم الإساءة إلى أهلها إكراماً للأميرة اليهُوديَّة "بيرينيس **Berenise**" ابنة الملك السّابق "أغريبا"؛ إذْ كان مُولعاً بها لدرجة الوَلَه والهُيام[1]، فأرسل يعرض الاستسلام مُقابل الإبقاء على أرواحهم، ولكنَّ العُصاة رَفَضُوا العرض، فأعاد عرضه مرَّة ثانية وثالثة، ولكنَّ العُصاة رَفَضُوا الرُّضُوخ لعُرُوضه، رغم تفشّي الجُوع والأوبئة بين المُحاصرين في المدينة، وامتلاء الشّوارع بجُثث الموتى.

وهكذا؛ لم يسع تيتوس إلاَّ أنْ يحمل على المدينة حملة صادقة، مكَّنته من دُخُول المدينة، بعد أنْ دمَّر أسوارها، فأحرق الهيكل، ودمَّر المدينة، حتَّى جَعَلَها قاعاً صفصفاً، وقَتَلَ مَنْ قَتَلَ من سُكَّانها، وسبى أهلها، وأمر ببَيْعهم في أسواق النّخاسة، وحرَّم على اليهُود دُخُول القُدس، ثُمَّ تعقَّب فُلُول العصابات التي التجأت إلى حصن "الماكارونت"، واستولى عليه قائد جيش تيتوس "باسوس"، ثُمَّ استولى على حصن "ماساده"، الذي اعتصمت فيه عصابة "السّكير"، وعندما دَخَلَه، وَجَدَ جميع المُعتصمين فيه قد انتحروا، حتَّى لا يستسلموا لقائده "باسوس" أحياء.

---

(1) نذكر القارئ الكريم بـ "استير" اليهُوديَّة زوجة "أحشويرش" ملك الفُرْس، وإنقاذها اليهُود من الإبادة، مُستغلَّة ولع أحشويرش بها، وحبِّه الجنوبي لها، وهذا دأب اليهُود في كُلِّ زمان ومكان، يُزوِّجُون بناتهم الجميلات لسادة القوم؛ لاستخدامهم في تنفيذ مآربهم وأهدافهم.

ولَمَّا تمَّ لتيتوس تطهير فلسطين من العُصاة، عاد إلى رُوما، مُصطحباً معه الغنائم الحربيَّة والأسرى الذين كان في طليعتهم كُلاً من "سيمون بارجيورا" و"جان جيشالا Simon Gishala Jan Bargeore, رأس الفتنة، فاستقبلته رُوما استقبال الفاتحين العظام.

وفي أعقاب هذا النّصر الحاسم ظنَّ الرُّومان أنَّهم تخلَّصوا نهائيّاً من الشّعب اليهُوديّ، ولكنَّ الأحداث أثبتت لهم خطأ ظنِّهم. فبمُجرَّد أنْ استكان اليهُود في رُبُوع فلسطين (الذين نجوا من السّبي والقَتْل والموت جُوعاً) بدأ المجلس الكَهَنُوتي الأعلى بتحريض أتباعه في فلسطين والمُستعمرات الرُّومانيَّة الأُخرى حول فلسطين، بعد أنْ حرَّم "تيتوس" عليهم القُدس وما جاورها.

فقامت الاتِّصالات بين الجاليات اليهُوديَّة (وخاصَّة الجالية اليهُوديَّة في ليبيا)، ووُضعَتْ المُخطَّطات السِّرِّيَّة اللاَّزمة لمُناوأة الرُّومان، حتَّى كان عام 130م، وإذْ بثورة يهُوديَّة عامَّة تندلع نيرانها فجأة في كافَّة أنحاء الشّرق من الفُرات حتَّى ليبيا؛ حيثُ أقدم اليهُود فيها على مُباغتة الحاميات الرُّومانيَّة، وأعملوا فيها القَتْل، والذّبح، ونشروا الرُّعب، والخراب، والدّمار، وبلغتْ وحشيَّة اليهُود المعروفة الذّروة؛ حيثُ تفنَّنوا في تعذيب ضحاياهم، والتّمثيل بهم[1]، وقد دامت ثلاث سنوات، أذاقوا خلالها العالم القديم أبشع أنواع الهمجيَّة والوحشيَّة.

فلمَّا رأى الرُّومان تفاقم أمر اليهُود واستحالة السُّكُوت عليه أصدر الإمبراطُور "تراجان Trajan" أمره إلى الجُيُوش الرُّومانيَّة لقَمْعها، فقامت القطعات الرُّومانيَّة بواجبها على الوجه الأكمل، وقضت على الثّورة والثّائرين بأقصى شدَّة، وانتهى أمر هذا التَّمرُّد.

ثُمَّ أخذ الرُّومان بالإحسان إلى اليهُود، وسمحوا لهم بحُرِّيَّة التَّنقُّل، وأعادوا إليهم حُقُوقهم السّابقة، عسى أنْ يفعل الإحسان معهم فعله، ولكنَّ نُفُوسهم المريضة وحقدهم الأسود يعميهم عن كُلِّ إحسان، حتَّى إنَّ "أدريان Adrien" الذي خلف تراجان على العرش

---

(1) ذكرت المصادر الرُّومانيَّة أنَّ يهُود ليبيا تحت إمرة "أندرياس" كانوا يقتلعون قُلُوب ضحاياهم من صُدُورهم، ويأكلونها كالوُحُوش الضّارية، ويتَّخذون من أمعائهم وآذانهم قلائد يتزيَّنون بها، إمعاناً في إظهار حقدهم، وتذكر المصادر نفسها أنَّ عدد القتلى بلغ 250 ألف قتيل. (ذكر ذلك دُون كاسيوس في كتابه تاريخ الرُّومان ص 140)، قارنْ ذلك بأعمالهم الوحشيَّة في فلسطين في العصر الحاضر؛ كمذبحة الجامع الإبراهيمي، وآخرها مذبحة قانه في لُبنان.

الرُّوماني، أمر وُكلاءه في فلسطين بإعادة بناء الـهيكل على نفقة الدّولة، ولكنَّ أدريان (أو هدريان) تراجع عن سياسة اللّين والرّفق، عندما لاحظ أنَّ اليهُود عادوا إلى تجمُّعهم وتآمرهم ورصِّ صُفُوفهم[1] بتوجيه وتحريض المجلس الكَهَنُوتي الأعلى لهم (السّنهندرين).

ونتيجة لهذا النّشاط المُريب ألغى الإمبراطُور أمره السّابق، فاغتاظ اليهُود من موقفه، وقرَّروا العودة إلى النّضال المُسلَّح، وبادر رجال الدِّين (المجلس الكَهَنُوتي الأعلى) بالتّهيئة للثّورة، ولمَّا خُيِّل إليهم أنَّهم قادرون على مُناوأة الرُّومان، أعلنوا الثّورة العامَّة في فلسطين بقيادة كاهن طبريا المدعوّ "عقيبا **Akba**" ومُساعده "باركوشبا أو باركوخبا **Barcochba**" فعمَّت الفوضى في البلاد، وكثُر عدد الثُّوَّار.

ثورة باركوخبا: 132 ـ 135م (ابن النّجم):

تمكَّن الثُّوَّار من الانتصار على بعض القطعات الرُّومانيَّة، فشعرت رُوما بالخطر الدّاهم، فأرسل أدريان أحسن قُوَّاده وهُو "جُوليُوس سفيرُوس **Severes Jules**" لتأديب العُصاة، وكان له ما أراد، وأُخمدت الثّورة، بعد أنْ دامت ثلاث سنوات (132 ـ 135م)، ارتكب فيها اليهُود ـ كعادتهم ـ عشرات الأُلُوف من الجرائم بحقِّ السُّكَّان من غير اليهُود، ولمَّا استتبَّ الأمر للرُّومان، اعتقلوا "عقبا" أو "أكيبا"، ولكنَّهم لم يعثروا على مُساعده باركوخبا.

وباركوخبا أو باركوشبا هذا لا يُعرف أصله، واسمه الحقيقي "سيمون"، وباركوخبا هُو لقبه، ويعني "ابن النّجم"، واستطاع حمل أقوى حاخام في ذلك العصر وهُو "أكيبا بن يُوسُف" على الادِّعاء بأنَّه "المسيح المُنْتَظَر"، ومن ثمَّ اجتمع تحت لوائه مائتا ألف يهُودي، استطاع بهم احتلال مراكز رُومانيَّة، والقضاء على حاميات كثيرة أُخرى.

استطاع القائد جُوليُوس سيفرُوس الذي أرسله الإمبراطُور أدريان الانتصار على الثُّوَّار، وإعمال السّيف فيهم، ودُخُول القُدس، ثُمَّ بادر جولويوس بمحو كُلِّ أثر للهيكل

---

(1) فاليهُود لن يهدؤوا، أو يستكينوا، مادام المجلس الكَهَنُوتي الأعلى من ورائهم (مجلس السّنهندرين)، هؤلاء الكَهَنَة المُتزمِّتون الذين مازالوا مُنذُ عهد المنفى يعملون دُون هوادة لتحريض أتباعهم على افتعال المصائب، وسفك الدّماء، حرصاً على تحقيق أحلامهم الشّيطانيَّة، وهُم السِّرُّ في ترابط اليهُود، وتفوقعهم، وعدم ذوبانهم في المُجتمعات التي يعيشون فيها.

والمدينة المُقَدَّسة، وأقام مكانها مدينة جديدة، وأسماها "أوليا كابيتولينا Capitolina Olea" وأقام هيكلاً وَثَنياً لجوبيتر وفينوس في مكان هيكل اليهُود القديم، وأقام وسط المدينة الجديدة تمثالَيْن لجوبتير وفينوس، وهكذا أزال عن القُدس كُلَّ طابع يهُودي، وتتبَّع فُلُول العُصاة، حتَّى قضى عليهم، وأصدر أدريان أمراً بمَنْع اليهُود من دُخُول المدينة (القُدس)، والظُّهُور فيها، ودام هذا الحظر مائتَيْ سنة مُتتالية.

ولكنَّ كُلَّ هذه النّكبات والفشل المرَّة تلو المرَّة لم يُفقد اليهُود ترابطهم القومي وتعصُّبهم العُنصُري، رغم تفرُّقهم وتشتُّتهم وانتشارهم في أنحاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الواسعة، وهجرة بعضهم شرقاً إلى الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة المُجاورة. وكُلُّ ذلك بفضل مساعي وتوجيهات مجلسهم الأعلى (مجلس السّنهندرين).

والآن؛ وبعد هذا الفشل المُتلاحق؛ عمد اليهُود إلى تغيير أساليبهم، فنبذوا فكْرة استعمال القُوَّة، إلى التَّملُّق للرُّومان، واللُّجُوء إلى الدَّسِّ، وبَذْر بُذُور الشّقاق، وإطلاق الشّائعات المُغرضة، وتسخير نسائهم الجميلات في حلِّ الأُمُور المُستعصيَّة. كُلُّ ذلك كان تنفيذاً لتعاليم المجلس الكَهَنُوتي الأعلى "مجلس السّنهندرين" التي كانت تُبلَّغ لليهُود بصُورة سرِّيَّة أينما كانوا، بعد أنْ تفرَّقوا في أنحاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة (كما أسلفنا).

وبفضل هذه الأساليب الجديدة؛ تمكَّنوا من التَّقرُّب إلى الرُّومان، فأصبح منهم المُستشارون، وأصحاب النُّفُوذ في بلاط الأباطرة الرُّومان، كما توصَّل بعضهم لاحتلال مراكز حسَّاسة في أجهزة الدّولة المُختلفة، وكان هدفهم الانتقام من الرُّومان، ومُحاربة العدوِّ الجديد وهُو "النّصرانيَّة"، التي شعروا بخطرها وتفاقم أمرها، وآلوا على أنفسهم أنْ يُوقعوا الخصام بين الرُّومان والنّصارى، بُغية إضعاف الطَّرَفَيْن، حتَّى يتمكَّنوا منهما فيما بعد.

وتذكر لنا المصادر التّاريخيَّة أنَّ اليهُود نجحوا في إيذاء النّصارى، وألحقوا بهم أضراراً حاسمة، حتَّى إنَّ المُستشار اليهُوديّ "جحودا Jehouda" تمكَّن من التّغرير بالإمبراطُور "أنتونان Antonin"، وأقنعه بأنَّ سبب الطّاعون الذي نزل بأهل رُوما هُم النّصارى، وحرَّضه على إفنائهم، حتَّى يُبعد الطّاعون عن البلاد. ولقد استجاب الإمبراطُور السّاذج لطَلبه،

وأمر بقَتْل جميع العازاريِّين عام 155م. كما أنَّ اليـهُود "القيَافَا" ساهموا في قَتْل العـازاريِّين عام 177م. وقد أكَّد "سفْر حادوروت اليهُوديّ" Hadoroth وُقُوع هـذه الحـوادث كمـا روتـها المصادر غير اليهُوديَّة.

ويـروي لنـا "سـفْر جوشاسـن Juchasin" اليـهُوديّ أنَّ الإمـبراطُور "ديوكليتيـان Deocletian" أقدم على إعدام عدد كبير من النّصارى، ومنهم البابـا "كـايوس Caius" والبابـا "مارسيلينوس Marcellinus"، إرضاء لأصدقائه ومُرابيـه مـن اليـهُود، هـذا؛ عـدا مـا ترويه المصادر الرُّومانيَّة عن الشُّرُور والمذابح التي حَدَثَتْ بفضل دسائس اليهُود، ولكنَّ كُلَّ هـذا لـم يمنع المسيحيَّة من الازدهار والانتشار وتقويض دعائم اليهُوديَّة والفوز عليها[1].

(1) المصدران الأساسيَّان لليهُود في ظلِّ الرُّومان وحملة تيتوس وثورة باركوخبا هُما: ظفـر الإسـلام خـان، "تـاريخ فلسطين القديم"، ص 83 - 96.

و س. ناجي، "المُفسدون في الأرض"، ص 87 - 99، (باختصار).

الفصل الثّامن:

تشتيت اليهُود وانتشارهم في العالم وحياتهم في ظلِّ العَرَب المُسلمين والدّولة العُثمانيَّة

يقول المُؤرِّخ البريطانيّ الشّهير هـ. ج. ولز في كتابه "مُوجز التّاريخ: «كانت حياة العبرانيِّين في فلسطين تُشبه حياة رجل يُصرُّ على الإقامة وسط طريق مُزدحم، فتدوسه الحافلات والشّاحنات باستمرار.. ومن الأوَّل إلى الآخر لم تكن (مملكتهم) سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسُوريَّة وآشور وفينيقية، ذلك التّاريخ الذي هُو أكبر وأعظم من تاريخهم».

إنَّ الاقتباس السّابق من هـ. ج. ولز إنَّما هُو خُلاصة لتاريخ ما يُسمَّى بالدّولة اليهُوديَّة في فلسطين الوُسْطَى، والتي قامت عقب عودة اليهُود من بابل، وسُمِّيت "يهُوذا أو يهُودية"، لقد كانت مملكة يهُوذا مُقاطعة صغيرة، بل وغاية في الصّغر، حتَّى إنَّ المُؤرِّخ اليُوناني الشّهير "هيرودوتس" تجاهل ذكْر اليهُود؛ ما عدا القُدس وما حولها في رحلاته في الشّرق الأوسط في القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك المُؤرِّخ "جفريز" الذي يقول «إنَّ عدد اليهُود في بابل كان أكثر منه في فلسطين»[1] (الذين لم يعودوا إلى فلسطين).

وعلى كُلِّ حال؛ فبعد دُخُول القائد الرُّوماني جُوليُوس سفيرُوس القُدس، والقضاء على ثورة باركوخبا، وتدمير المدينة، وأسوارها، وهيكلها، وتحويلها إلى مدينة رُومانيَّة باسمها ومعابدها، وتحريم دُخُول المدينة على اليهُود من قبَل الإمبراطُور هدريان (أدريان) والذي دام 200 سنة. كُلُّ هذا حطَّم آمال اليهُود بإنشاء أيِّ كيان سياسي في القُدس، ولو كان هزيلاً وتابعاً للدّولة الرُّومانيَّة.

بعد هذا الحظر الصّارم على اليهُود من دُخُول القُدس، والتي أصبح اسمها "إيليا كابتولينا"، وهي تُشَكِّل لليهُود واسطة العقد في فلسطين، فانفرط عقدهم، وتشتَّت

(1) ظفر الإسلام خان، "تاريخ فلسطين القديم"، ص 97 ـ 99.

شملهم، وأخذوا بالهجرة من فلسطين، والانتشار في أرجاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الواسعة التي كانت تضمُّ مُعظم أُورُوبا (عدا الأجزاء الشّماليَّة الشّرقيَّة) وشمال أفريقيا وغرب آسيا. إنَّ وُجُودهم في هذه الإمبراطُوريَّة المُترامية الأطراف سهَّل عليهم الانتشار، وهكذا أخذت جالياتهم تنتشر في المُدُن الرُّومانيَّة، وبخاصَّة المُدُن الكبيرة، وتُشكِّل لها أحياء في تلك المُدُن (وخُصُوصاً رُوما عاصمة الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة وعواصم الأقاليم).

وقسم من اليهُود اتَّجهوا شرقاً في هجرتهم من فلسطين إلى الدّولة الفارسيَّة، لاسيّما وأنَّه تربطهم بالفُرْس صلات وُدِّيَّة مُنذُ كُورش (الإمبراطُور الفارسي الذي سمح لهم بالعودة إلى فلسطين من بابل). وزاد تعاطف الفُرْس معهم أنَّهم أعداء الرُّومان كالفُرْس، وهذا بالإضافة إلى أنَّ لليهُود ذكريات في العراق أيَّام السّبي البابليّ، وأنَّ هُناك جاليات من اليهُود الذين لم يعودوا إلى فلسطين، وآثروا البقاء في العراق، نظراً للنّجاحات التي أصابوها أثناء السّبي البابليّ. ومن العراق انساح بعض اليهُود، وانتشروا في أقاليم الدّولة الفارسيَّة التي كانت تمتدُّ شرقاً إلى الهند، وشمالاً على بلاد ما وراء النّهر (أو آسيا الوُسْطَى).

وبعض المُؤرِّخين يعزون الوُجُود اليهُوديّ في الجزيرة العَرَبيَّة (في المدينة المُنوَّرة وخيبر وفدك وتيماء) قبل الإسلام أنَّهم هاجروا إلى الجزيرة العَرَبيَّة بسبب الاضطهاد الرُّوماني، وأنَّ هؤلاء اليهُود هُم من الذين هاجروا من فلسطين، والتجؤوا إلى شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة، رغم أنَّ شواهد كثيرة تدلُّ على أنَّهم عَرَب تهوَّدوا؛ لأنَّه لا يُعقَل أنَّ يُهاجر اليهُود إلى تلك الأصقاع الصّحراويَّة، ويتركوا إمبراطُوريَّة واسعة هي الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، والتي كانت لا تُمانع في إقامتهم في أيِّ مكان منها، هذا؛ بالإضافة إلى الدّولة الفارسيَّة في الشّرق، والتي تُرحِّب بهم كحُلفاء لها ضدَّ عدوِّهم اللّدود الرُّومان في الغرب.

وعلى كُلِّ حال؛ أخذ الوُجُود اليهُوديّ في فلسطين يتضاءل ويتقلّص شيئاً فشيئاً، حتَّى اقتصر - أخيراً - على بضع مراكز في: طبريَّا، وصَفَد، ونابلس، وفي القُدس - مُؤخَّراً - بعد السّماح لهم بالإقامة فيها، فأقام بها عدد ضئيل من اليهُود المُتعصِّبين.

وحتَّى تكتمل صُورة تشتُّت اليهُود وانتشارهم في العالم، وانتهاء الوُجُود اليهُوديّ في فلسطين، سنتحدَّث - فيما يلي - عن بقايا اليهُود في فلسطين، في ظلِّ الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة، وقبل قيام دولة العَرَب المُسلمين في الشّرق الأوسط والأدنى.

اليهُود في ظلِّ الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة:

قُلنا ـ سابقاً ـ : إنَّ اليهُود بعد تشتُّتهم أصبحوا عَوْناً للإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الوَثَنيَّة ضدَّ المسيحيِّين والدِّين المسيحي، وذاق المسيحيُّون الويلات من جرَّاء مُؤامرات اليهُود وتعاوُنهم مع السُّلطات الرُّومانيَّة ضدَّ المسيحيِّين.

ولكنْ؛ وقع تطوُّر مُثير في غير صالح اليهُود، حين اعتنق الإمبراطُور "قسطنطين" المسيحيَّة عام 311 م، وبعد فترة وجيزة، أصبحت المسيحيَّةُ دينَ الدّولة الرُّومانيَّة، وبذلك انقلب الوَضْع ضدَّ اليهُود، وأصبحوا هُم المُضطَهَدين من قِبَل الدّولة والشّعب الذي اعتنق الدّيانة المسيحيَّة، والتي انتشرت في جميع أنحاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة.

وعندما انقسمت الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة عام 395 م، إلى إمبراطُوريَّتَيْن كانت فلسطين وجميع بلاد الشّام من حصَّة الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة[1]. وفي القرنَيْن التّاليَيْن، استكان اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة، وشعروا بضَعْفهم وعدم قُدرتهم على مُجابهة المسيحيَّة، ولم يجدوا طَرَفاً ثالثاً يتعاونون معه ضدَّها، وكانت فلسطين مفتوحة للحُجَّاج اليهُود والمسيحيِّين لزيارة الأماكن المُقَدَّسة فيها.

وفي سنة 529 م، قام السّمَّاريُّون بثورة ضدَّ (بيزنطة) الدّولة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة التي أَوكلت لدولة الغساسنة العَرَبيَّة في حوران مُحاربتهم (كانت عاصمتها بُصرى الشّام)، والتي كانت تتبع الدّولة البيزنطيَّة، فحاربتْهُم، وقهرتْهُم، وخرَّبت ديارهم، وأجبرتْهُم على الدُّخُول في المسيحيَّة، ولم يبقَ منهم إلاَّ عدد ضئيل جداً في ساماريا (نابلس للآن)، ولهم مذهب يهُوديٌّ خاصٌّ بهم (سنتكلَّم عنه عند الحديث عن مذاهب اليهُود)[2].

---

(1) أُطلق عليها فيما بعد الدّولة البيزنطيَّة وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينيَّة سابقاً)، أو الدّولة الرُّوميَّة بسبب سيطرة اليُونان عليها، والذين يُسمّون بالرُّوم أيضاً.

(2) اليهُود السّمرة أو السّمَّاريُّون هُم من بقايا اليهُود السّامريِّين في نابلس (السّامرة)، وهُم ـ في الأصل ـ من الشُّعُوب غير اليهُوديَّة، التي أسكنها الآشوريُّون في منطقة السّامرة، بعد إجلاء اليهُود عنها إلى كُردستان، ثُمَّ تهوَّد هؤلاء، فهُم ليسوا من ذُرِّيَّة بني إسرائيل، ويختلفون عن اليهُود بأنَّهم لا يعترفون إلاَّ بالأسفار الخمسة الأُولى من التّوراة، وهُم ـ الآن ـ بضع مئات يعيشون في نابلس.

وفي سنة 611 م، تعرَّض أمن فلسطين للخطر مرَّة أُخرى حين أغار "خسرو الثّاني" إمبراطُور الفُرْس على فلسطين وبقيَّة بلاد الشّام، وانضمَّ اليهُود إلى الفُرْس مُرحِّبين بالاحتلال الفارسي، وانتقموا هُم والفُرْس انتقاماً دموياً من المسيحيِّيْن. وقد حطَّم الفُرْس كَنيسة القيامة، ونهبوا كُنُوزها، وخرَّبوا كنائس أُخرى، واشترك الفُرْس واليهُود في قَتْل جميع المسيحيِّيْن في القُدس، وتدمير أماكنهم المُقَدَّسة.

وهكذا؛ فَقَدَ البيزنطيُّون سُوريَّة، بما فيها فلسطين لبضع سنين، ولم يستردّها البيزنطيُّون إلاَّ عام 628 م، بقيادة إمبراطُورهم "هرَقْل".

عاش اليهُود من جديد في ظلِّ الفُرْس (حُلفاء الأمس)، ورحَّبوا بقُدُومهم، ولكنَّ الخلاف ما لبث أنْ دبَّ بين اليهُود والفُرْس، فقد كانوا يحلمون بأنَّه سيُسمح لهم بالعودة والتَّجمُّع في فلسطين، وإعادة إنشاء دولة لهم في القُدس (بيتهم القديم كما يدَّعون)، ولكنَّ الفُرْس خيَّبوا آمالهم، ولم يُحقِّقوا لهم شيئاً من أهدافهم، هذا؛ بالإضافة إلى ضيقهم بكثرة الضّرائب التي فَرَضَهَا الفُرْس عليهم. ولهذا؛ مال اليهُود ثانية إلى البيزنطيِّيْن، حين قدَّم لهم "هرَقْل" وعداً بالتّسامح معهم عام 627 م، ولكنَّ هرَقْل لم يفِ بوعده بعد استرجاع بلاد الشّام، والانتصار على الفُرْس تحت ضغط رجال الدِّين الذين قالوا له: إنَّ الاتِّفاقات مع الكُفَّار ليست واجبة التّنفيذ، وعند ذلك وقعت مذبحة للبقيَّة الباقية من اليهُود في فلسطين، ولم يفلت منها إلاَّ الذين فرّوا إلى مصر، أو الذين اختفوا عن الأنظار[1].

وهكذا كادت فلسطين تخلو من اليهُود بعد هذه المذبحة الأخيرة، وبقيت شبه خالية من اليهُود طوال الحُكْم العَرَبيّ الإسلامي من الفتح الإسلامي لفلسطين عام 636 م، حتَّى دُخُول بلاد الشّام تحت الحُكْم العُثمانيّ عام 1516م، والذي استمرَّ حتَّى عام 1918م.

وهكذا استمرَّ الوُجُود اليهُوديّ ضعيفاً جداً، ويقتصر على بضعة آلاف في طبريَّة، وصَفَد، والقُدس، طوال أكثر من ألف وثلاثمائة 1300 عام، وحوالي ألفَيْ عام من حملة طيطس، وتحريم دُخُول اليهُود إلى القُدس، إلى أنْ فُرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، والذي

(1) ظفر الإسلام خان، "تاريخ فلسطين القديم"، ص 129 ـ 134.

سمح بتدفُّق اليهُود على فلسطين بحماية ورعاية بريطانيَّة، تنفيذاً لوعد بلفور المشؤوم (وسنتحدَّث عن ذلك بالتّفصيل عند الحديث عن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة).

هذا؛ وقد وَرَدَ في القرآن الكريم ذكْر لانتصار الفُرْس على الرُّوم، ثُمَّ انتصار الرُّوم عليهم، وطَرْدهم من بلاد الشّام، وذلك في سُورة الرُّوم بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إنَّ في هذه الآيات الكريمة خبر انتصار الفُرْس على الرُّوم في أدنى الأرض؛ أيْ بلاد الشّام، ثُمَّ التَّنبُّؤ بانتصار الرُّوم على الفُرْس خلال بضع سنين، وقد تمَّ ذلك، والإخبار كذلك بأنَّ المُؤمنين ـ عند انتصار الرُّوم على الفُرْس ـ سيفرحون بنصر الله، وقد كان ذلك ـ أيضاً ـ بانتصار المُسلمين في غزوة بدر، فقد جاء في تفسير ابن كثير حول تفسير هذه الآية ما يلي: إنَّ نصرة الرُّوم على الفُرْس كانت يوم غزوة بدر في قول طائفة كبيرة من العُلماء؛ مثل ابن عبَّاس والثّوري والسّرّي وغيرهم، وقد وَرَدَ في الحديث الذي رواه التّرمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزَّار من حديث الأعشى عن عطيَّة عن أبي سعيد قال: لمَّا كان يوم بدر، ظهرت الرُّوم على الفُرْس، فأعجب ذلك المُؤمني، ن وفرحوا به، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

اليهُود لم يُشكّلوا أكثريَّة في فلسطين:

نخلص ـ ممَّا تقدَّم ـ أنَّ اليهُود ـ في أيِّ دور من أدوار وُجُودهم في فلسطين ـ لم يُشكّلوا أكثريَّة فيها، وأنَّ سُكَّان فلسطين من غير اليهُود هُم أصحاب البلاد قبل هجرة اليهُود إليها وبعدها، وكانوا يتكاثرون يوماً بعد يوم، ويتمركزون في أرضهم، في حين كان اليهُود يتقلّصون نتيجة تعرُّضهم للاضطهاد والسّبي والقَتْل والتّشريد من دُون سُكَّان البلاد الأصليِّين. لذلك لم يستطع اليهُود ـ كعُنصُر غريب ـ تشكيل أكثريَّة في فلسطين في أيِّ دور من أدوار حياتهم فيها.

إنَّ أهل فلسطين الأصليِّيْن بقوا في أرضهم مُنذُ خمسة آلاف عام، ولم يُغيِّر حُكْـم داود وسُلَيْمَان (عليهما السّلام) الذي لم يطلْ أكثر من 80 عاماً، وحُكْـم مملكـة السّامرة، ومملكـة يهُوذا الهزيلَيْن هذه الحقيقة التّاريخيَّة الدّامغة.

ونحنُ - إذْ نُذكِّر هُنا بحوادث السّبي والتّشريد والإبادة التي تعرَّض لها اليهُود في فلسطين - فذلك للبرهنة على أنَّ أهل فلسطين الأصليِّيْن ومَنْ دَخَلَها، وهاجر إليها من العَرَب وغير اليهُود بقوا فيها، وتكاثروا في وطنهم دُون أنْ يمسَّهم أذى، وكانوا في جميـع الأحـوال الأكثريَّة السّاحقة في البلاد، في حين كان اليهُود يتقلَّصون يوماً بعـد يـوم، علـى مـرِّ الزّمـن، نتيجة ما ذكرنا من عمليّات السّبي والإبادة والتّشريد من قِبَل المصريِّيْن، والفلسطينيِّيْن، والآشوريِّيْن، و الكلدانيِّيْن، واليُونان، والرُّومان، والبيزنطيِّيْن . إلخ، حتَّى أُزيلوا من أرض فلسطين، وبقي أهلها الأصليُّون في وطنهم؛ وَثَنيِّيْن ومسيحيِّيْن قبل الإسلام، ومُسلمين ومسيحيِّيْن بعد الإسلام.

واليهُود في فلسطين لم يتركوا حضارة راقية، بل اقتبسوا حضارة الكنعانيِّيْن في فلسطين، وحضارة مَنْ جاورهم من الشُّعُوب؛ مثل الآراميِّيْن في سُوريَّة، والفينيقيِّيْن في لُبنان، والمصريِّيْن في مصر، وتعلَّموا من الآشوريِّيْن، والبابليِّيْن. وعندما سيطر اليُونان على فلسطين أخذوا بالثّقافة والحضارة "الهللينيَّة"، وكذلك عندما جاء الرُّومان سيطرت في فلسطين وجميع المقاطعات الرُّومانيَّة الحضارةُ الرُّومانيَّة. وكُلُّ حضارة من هذه الحضارات لها مُميِّزاتها وخصائصها، وكان لها دور بارز في بناء صَرْح الحضارة الإنسانيَّة. أمَّا اليهُود؛ فلم يكن لهم حضارة خاصَّة بهم، ولم يُقدِّموا للحضارة والمُجتمع الإنساني أيَّ شيء يُساعد على تقدُّم الإنسانيَّة في معارج الحضارة والتَّقدُّم، اللّـهمَّ سوى المُشاكسة، والأنانيَّة، والتَّعصُّب الأعمى، والاستعلاء على غيرهم، دُون مُبرِّر يدعم ذلك.

العُنصُريَّة اليهُوديَّة:

حافظ اليهُود على كيانهم في الشّتات، فلم يندمجوا في المُجتمعات والشُّعُوب التي عاشوا بين ظهرانيها، حتَّى إنَّ وُجُودهم كان يقتصر - في غالب الأحيان - في العواصم والمُدُن

الضّخمة، وفي أحياء أو ضواحي خاصَّة بهم، لا يدخلها غريب، وقد سُمِّيت أحياء اليهُود في أُورُوبا، وخاصَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة بـ "الغيتو".

وكان لليهُود في مناطق سُكناهم طابع خاصٌّ بهم، يستطيع النّاس معرفتهم وتمييزهم من غيرهم، حتَّى وكانت لهم أعمال خاصَّة بهم، وتقتصر عليهم في أغلب الأحيان؛ وهي: تعاطي الرِّبا، وخاصَّة الرِّبا الفاحش، واستغلال حاجة النّاس أبشع استغلال، ثُمَّ فتح الحانات وإدارتها، وبُيُوت الدّعارة والإشراف عليها، وتجارة الرّقيق (النّخاسة)؛ وبخاصَّة الرّقيق الأبيض النّسائي، أو ما كان يُسمَّى بالجواري، وكان اليهُود أكبر المُورِّدين لهنَّ، بالإضافة لاحتكار تجارة المعادن الثّمينة والمُجوهرات. وأخيراً؛ كان وُكلاء الإقطاعيِّيْن في أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى دائماً من اليهُود؛ حيثُ كان الإقطاعيُّون يعتمدون عليهم في الإشراف على الفلاَّحين، وتحصيل الأموال منهم(1).

إنَّ هذه المهن كانت شبه مُحتكرة منهم، مُقتصَرَة عليهم في العصر الرُّوماني والعُصُور الوُسْطَى. لذلك كان اليهُود مكروهين مُحتَقَرين من المُجتمعات التي كانوا يعيشون بينها، حتَّى إنَّ أكبر شتيمة أو إهانة يُمكن أنْ تُوجِّهها إلى أيِّ إنسان هي بأنْ تنعته بأنَّه يهُودي.

أمَّا تعليل مُحافظتهم على كيانهم في الشّتات وعدم اندماجهم وذوبانهم في المُجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها؛ فيعود إلى تعصُّبهم المقيت، وعُنصُريَّتهم الشّديدة، واعتبار أنفسهم فوق البشر، وأنَّهم شعب الله المُختار، وأنَّ غيرهم من الأغيار أو "الغُوييم" - بلُغتهم - خُلقوا لخدمتهم، وأنَّهم كالدّواب؛ أيْ الأغيار، وأنَّ إلههم (يَهْوَه) هُو حاميهم، وراعيهم، وإلههم وحدهم، هذا؛ بالإضافة إلى عيشهم في مُنعزلات خاصَّة بهم.

وقد أدَّى تعصُّبهم هذا، وتقوقعهم الغريب إلى اقتصار تزاوجهم فيما بينهم فقط، ونادراً ما يحصل التّزاوج مع الأغيار، ولكنْ؛ لا مانع عندهم من تزويج بناتهم الجميلات من أصحاب السُّلطان والنُّفُوذ، ليستغلّوا نُفُوذهم وسُلطانهم في مصالحهم الخاصَّة، وتنفيذ

---

(1) للتّوسُّع في هذا الموضوع؛ يُراجَع الكتابان المرجعان المُهمَّان جداً (مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها) للفرنسي برنار لازار، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004، و(اليهُوديَّة والغَيْريَّة غير اليهُود في منظار اليهُوديَّة) للفرنسي ألبيرتُو دانزول، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004.

غاياتهم وتحقيق أهدافهم. وقد مرَّ معنا زواج "استر" اليهُوديَّة ذات الجمال الفاتن من ملك الفُرْس "أحشويرش"، وكيف أنقذت اليهُود من الإبادة، بعد أنْ اكتشف تآمرهم على الدّولة. و"بيرينيس" ابنه "أغريبا" ملك اليهُود التي تزوَّجها "تيتس" الرُّوماني الذي عرض على اليهُود - وعدَّة مرَّات - الصُّلح قبل أنْ يبطش بهم إكراماً "لبيرينيس" التي كان مُولعاً بها أشدَّ الولع. وكذلك تزويج يهُود بريطانيا في العصر الحديث بناتهم من اللُّوردات الإنكليز، حتَّى أصبح مُعظم أعضاء مجلس اللُّوردات من أبناء اليهُوديَّات، أو من المُتزوِّجين من يهُوديَّات، واليهُود يعتبرون ابن اليهُوديَّة يهُودياً، مهما كانت جنسيَّة والده (وسنتكلَّم عن هذه النّواحي بالتّفصيل في القسم الثّاني من الكتاب).

وقد رأينا - فيما سَبَقَ - أنَّ بني إسرائيل لم يذوبوا في المُجتمع المصري؛ سواء أكان في مصر وادي النّيل، أم في مصر سيناء، رغم بقائهم في مصر عدَّة قُرُون. وبعد انتقالهم إلى فلسطين؛ حيثُ كان يعيش فيها وحولها العمونيُّون والمُؤابيُّون في شرق الأُردُن، والمديانيُّون والأدوميُّون في جنوب فلسطين وسيناء، والفلسطينيُّون في سواحلها، والآراميُّون في شمالها، والكنعانيُّون في داخلها، وكُلُّ هذه الشُّعُوب والأقوام ذابت، ولم يعد لها وُجُود، ولكنَّ اليهُود بقوا مُحافظين على كيانهم، حتَّى في أحلك الأيَّام، وأقسى الظُّرُوف التي مرّوا بها؛ سواء في فلسطين أو خارجها، ولم يحصل أيُّ امتزاج أو ذوبان في تلك الشُّعُوب والمُجتمعات التي عاشوا بينها.

وقد لحق بهم من جرَّاء هذه العُنصُريَّة المُفرطة والتَّعصُّب المقوت الكثير من الأذى والآلام والمذابح التي قاربت الإبادة في بعض الأحيان، ولو اندمجوا مع غيرهم وذابوا في مُجتمعاتهم لما تعرَّضوا إلى مثل هذه النّكبات والآلام والمذابح.

إنَّ عُنصُريَّتهم هذه وشدَّة تعصُّبهم واستعلائهم على غيرهم واحتقارهم للشُّعُوب التي يعيشون بينها هي التي جلبت لهم هذه الويلات والمصائب والمذابح التي تعرَّضوا لها.

إنَّ اليهُود شعب مُشاغب مُشاكس عبر الأيَّام والعُصُور، شعب شديد التَّبرُّم في الأحوال العاديَّة، وفي حال الضّعف؛ فهُو شديد التَّمسكن واستدرار العطف واستجداء المُساعدة، أمَّا في القُوَّة والتَّمكُّن؛ فينقلب اليهُود إلى وُحُوش مُفترسة لا رحمة عندهم،

ولا شفقة لديهم، بطّاشون بلا هوادة، مُنتقمون بلا شفقة، إنَّهم شُغل العالم الشّاغل، وقضيَّته الدّائمة مُنذُ وُجدوا حتَّى يومنا هذا، إنَّه شعب لا يُعجبه العَجَب، ولا تقف أطماعه عند حدٍّ، لا يتقيَّد بعهد، ولا يُنفِّذ وعداً، إلاَّ إذا كان في مصلحته.

وقد عانى الرّسول الكريم ـ مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ـ من اليهُود في المدينة المُنوَّرة بعد هجرته إليها، وكذلك من اليهُود حولها في خيبر وتيماء وفدك، عانى الشّيء الكثير من مؤامراتهم وخيانتهم له عليه الصّلاة والسّلام، رغم أنَّه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ عاملهم مُعاملة حسنة، وعقد معهم الاتِّفاقات والعُهُود، ولكنَّهم كانوا ينقضونها، ويتآمرون عليه، وعلى المُسلمين، وخاصَّة في الظُّرُوف العصيبة والأوقات الحرجة، كما حصل في غزوة الأحزاب، حين انحازوا إلى قُريش ضدَّه عليه الصّلاة والسّلام، حتَّى إنَّهم حاولوا قَتْلَهُ بالسُّمِّ مرَّة، وبإلقاء حجر عليه مرَّة أُخرى، ولكنَّ الله سلَّمه عليه الصّلاة والسّلام ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، حتَّى تمَّ للرّسول ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ والمُسلمين إخراج اليهُود من المدينة المُنوَّرة، ثُمَّ من مُستعمراتهم في خيبر وتيماء وفدك، ثُمَّ حرَّم عُمَر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ سكَنَ الجزيرة العَرَبيَّة عليهم، حتَّى تكون خالصة للمُسلمين، لا يُشاركهم بها أحد.

والذي يقرأ القُرآن الكريم يجد الكثير الكثير من مُؤامراتهم، ونَقْضهم العُهُود، وقَتْلهم الأنبياء بغير حقٍّ، وشدَّة تبرُّمهم، وكثرة طَلَبَاتهم، بالرّغم ممَّا أنعم الله به عليهم من النِّعَم الكثيرة، وإنقاذهم من أعدائهم في كثير من الأحوال.

وقد حيَّرت تصرُّفاتهم الإمبراطُوريَّةَ الرُّومانيَّةَ سنين عديدة، حتَّى استنفدوا صبرهم، فعزمتْ على إبادتهم وتشتيتهم كما مرَّ معنا، وفي ذلك يقول المُؤرِّخ الفرنسي الشّهير غُوستاف لُوبُون ما يلي: «وحيَّرت لهجة الشّعب اليهُوديّ الفارغة دولة رُوما العُظمى نفسها، فاقتصرت ـ أوّلاً ـ على احتقاره، مع أنَّها كانت تعلم قُدرتها على سَحْق مَكْر المُتعصِّبين المُشاغبين (في فلسطين) عند الضّرورة، ثُمَّ استنفدَ صبرَ تلك الدّولة العُظمى فوضى وشغبُ ذلك الشّعب، فعزمتْ على إبادته؛ لكيلا تسمع حديثاً عنه»[1].

---

(1) غُوستاف لُوبون، "في تاريخ الحضارات الأُولى"، ص 42، نقلاً عن كتاب "تاريخ فلسطين القديم"، لظفر الإسلام خان، ص 83.

الأحياء اليهُوديَّة أو المُجتمع اليهُوديّ المُتشرِّد:

كانت حياة اليهُود في مُجتمعاتهم الجديدة في أُورُوبا وبقيَّة أقاليم الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، شديدة الانعزال، فكانوا يعيشون مُنعزلين تماماً عن الأغيار، وهذا الانعزال وثَّق الرّوابط العنصُريَّة بين اليهُود، وهيَّأ لهم العيش وكأنَّهم أُمَّة داخل أُمَّة. فكانوا يتجمَّعون مع بعضهم في كُلِّ البلاد التي ينزحون إليها، وينعزلون عن أهلها، وكأنَّهم لم يأتوها إلاَّ للانفراد بأنفسهم، مع أنَّ أكثر هجراتهم كانت بقَصْد الوُصُول إلى حياة أفضل.

وكان اليهُود إذا دخلوا مدينة للعيش فيها سارعوا إلى بناء حيٍّ خاصٍّ بهم تجنُّباً للاختلاط بأهلها، وللإبقاء على الاتِّصالات الوثيقة فيما بينهم، وللمُحافظة على تقاليدهم وشعائرهم الدِّينيَّة، وأوَّل ما يبنونه في حيِّهم هُو "الكَنيس"؛ أيْ المعبد الذي يعتبرونه بمثابة مقرٍّ لمجلسهم الدِّيني والنِّيابي، الذي يمدُّهم بالتّعليمات الضّروريَّة في عيشهم اليومي، وسُلُوكهم مع أهل البلد الذي نزلوا فيه. وكان كُلُّ فرد منهم ينتظر التّعليمات التي يُصدرها المجلس الدِّيني قبل أنْ يُقدم على أيِّ عمل ديني أو دُنيوي مهما عظم شأنه. ولمَّا كان المجلس الدِّيني حريصاً على عدم الاختلاط، ويُنبِّههم إلى تحريم الشّريعة اليهُوديَّة له، وهذا التّوجيه الدّائم المقرون بالمُراقبة الشّديدة جَعَلَ اليهُود يعيشون في مُستعمراتهم مُنعزلين تماماً عن الأغيار أو الأغراب.

وكان من البديهي أنْ يتساءل المُواطنون عن أسباب انعزال اليهُود الدّائم، ولمَّا عجزوا عن كشف السّتار عنه، عمدوا إلى التَّكهُّن والاستنتاج، فتعدَّدت الأقوال، وكثر اللّغط حول أسباب هذا الانعزال، فتضخَّم عدد القَصَص الخياليَّة التي كانت تُروى عن أسبابه، ولكنَّ اليهُود أصمُّوا آذانهم عن تلك القَصَص، وما رافقها من شائعات، وثابروا على عيشهم الذي اختاروه لأنفسهم بملء حُرِّيَّتهم، بُغية الاحتفاظ بتقاليدهم الدِّينيَّة، ومنهجهم العُنصُري، بعيداً عن الأغراب؛ إذْ إنَّ فكْرة كونهم "شعب الله المُختار" كانت قد تأصَّلت في نُفُوسهم، والزّعم أنَّ انحدارهم هُو من أصل أعرق الشُّعُوب الأُخرى أصبح لديهم عقيدة راسخة، كما أنَّ فرية اقتراب اليوم الموعود الذي سيُصبحون فيه سادة العالم انطلت عليهم، فامتلأت نُفُوسهم غُرُوراً وتيهاً، فلم يعد بإمكانهم قبول الاختلاط مع الشُّعُوب الأُخرى، خاصَّة وأنَّ

المجلس الكَهَنُوتي الأعلى "السّنهندرين" كان لا ينفكُّ عن تقوية هذه النّوازع في نُفُوس أتباعه، ليحملهم على الولاء له، والانصياع لكُلِّ أوامره ورغباته.

هذا؛ ولمّا طال انعزال اليهُود، وازدادت الإشاعات حوله، عمدت الكَنيسة إلى جعله إجباريّاً، بعد أنْ اختاره اليهُود لأنفسهم، فأصدرت تعليماتها إلى الدُّول التي تتبعها، وطَلَبَت إليها عدم السّماح لليهُود بالانتشار في الأحياء المسيحيَّة ضمن بلادها.

والمصادر اليهُوديَّة عزت هذا الموقف الجديد من الكَنيسة إلى أنَّها كانت ترمي من ورائه إلى مَنْع اليهُود من نَشْر مذهبهم بين النّصارى، مع أنَّ اليهُود كانوا قد انقطعوا - مُنذُ أمد بعيد - عن التّبشير بعقائدهم، واكتفوا بالانعزال عن العالم أجمع. ويبدو أنَّ اليهُود لم يستاؤوا من هذه التّعليمات الجديدة التي أصدرتها الكَنيسة لأنَّها كانت في مصلحتهم، وبمُوجبها؛ أصبحت كُلُّ دولة أُورُوبيَّة تُحافظ على انعزالهم، ومسؤولة عن أمنهم في مُنعزلاتهم هذه. وأصبحوا أحراراً في مُزاولة بعض الأعمال المُربحة التي كانت مُحرَّمة على أتباع الكَنيسة؛ مثل: مُمارسة الرّبا، وتجارة الذّهب، وأعمال الرّهن والارتهان، بالإضافة إلى تجارة الرّقيق، وفتح الخمَّارات وبيُوت الدّعارة. وكانت هذه الأعمال أقصى ما يتمنَّاه اليهُود؛ لأنَّها تدرُّ عليهم المرابح الطّائلة دُون مُزاحمة، وتربط عُظماء النّاس بهم لحاجتهم لأموالهم، وللاقتراض منهم، وهذه الأعمال - في مُعظمها - لا تربطهم بأرض أو وطن، وتُسهِّل عليهم التَّنقُّل والهجرة عند الأزمات، ممَّا مكَّن اليهُود من الحُصُول على السّيطرة والنُّفُوذ في كافَّة الأقطار الأُورُوبيَّة، وجَعَلَهم أصحاب الحلِّ والرّبط في أكثر الدُّول، وفي زمن قصير.

وهذه القيُود الكَنَسيَّة الجديدة مهَّدت لليهُود سُبُلَ تنظيم شؤُونهم الدّاخليَّة في العيش، فوَضَعُوا نظاماً سرِّيّاً خاصّاً لكُلِّ حيٍّ من أحيائهم، يعتمد على النّظام الدِّيمُقراطي في تفاصيله الإداريَّة، وكانت لهم في كُلِّ حيٍّ هيئة مُكوَّنة من الأعيان ورجال الدِّين تُدعى بـ "جرُوسيا **Geroussia**" يرأسها مَنْ يُطلق عليه اسم "الجرُوسياك **Geroussiarque**"، وكان لهم مجلس آخر مهمَّته الاتِّصال وتنفيذ ما يُعهَد إليه من الهيئة الأُولى، وكان اليهُود يُطلقون على أعضاء هذا المجلس اسم "آباء وأُمَّهات الكَنيس"، ويختارونهم بمُوجب انتخابات سرِّيَّة يشترك فيها جميع أفراد الحيِّ.

وممَّا سَبَقَ؛ يتَّضح للقارئ مدى ما كان عليه اليهُود من التّنظيم الدّاخلي في أحيائهم، وتُشير المعلومات القليلة التي تسرَّبت إلى أسماع المُؤرِّخين إلى أنَّها كانت في غاية الدِّقَّة والإتقان، ويبدو أنَّ اليهُود اكتسبوا هذه المهارة في التّنظيم بعد التّجارب المريرة التي تعرَّضوا لها، فاتَّخذوا منها عبرة وموعظة، كما أنَّ المجلس الكَهَنُوتي الأعلى (السّنهندرين) ساهم في هذه التّنظيمات بقسط وافر جدّاً؛ إذْ كان أعضاؤه يُدوِّنون كافَّة الأحداث التي يتعرَّضون لها، ويعمدون إلى دراسة أسبابها ونتائجها، ثُمَّ يضعون الحُلُول الكفيلة التي تقي شعبهم من التَّعرُّض لمثيلاتها في المُستقبل، ولقد أنارت نتائج هذه الدّراسات المُجتمع اليهُوديّ، وجَعَلَته يتفادى بُذُور التّفرقة التي كانت تسود صفُوفه، والانعزاليَّة التي اشتهروا بها كانت نتيجة هذه الدّراسات؛ إذْ أيقنوا بصلاحها للإبقاء على وحدتهم العُنصُريَّة، ولابتعادهم عن مساوئ الاختلاط، ولذا؛ نجد كُتَّابهم يُفاخرون بها، وكأنَّها فضيلة خاصَّة بهم.

لذلك؛ فالمُؤرِّخ اليهُوديّ "سلمون ريناخ **Reinach Solomon**" في كتابه "أورنوس" يقول بافتخار: «لقد هزمَ شعبُنا كُلَّ مُحاولات الانصهار والاختلاط التي تعرَّض لها عبر العُصُور، رغم كُلِّ ما ناله في سبيل ذلك من الاضطهاد والعذاب، وما تعرَّض له من النّفي والتّشريد، وهكذا حافظ على أصالة عُنصُره ونقاوة دمه»[1].

أمَّا أصالة عُنصُره ونقاوة دمه؛ فهُو كاذب بذلك، وإلاَّ كيف يُفسَّر وُجُود اليهُوديّ الهندي واليمني والأسمر واليهُوديّ الحبشيّ (الفلاشا) الأسود مع اليهُوديّ السُّويدي أو الإنكليزيّ أو الرُّوسيّ الأشقر ذي البشرة البيضاء والعيُون الزُّرق، وهذا واضح بأنَّ اليهُوديَّة دين، وليست قوميَّة، ولا عرْق، وسنُبرهن على ذلك في القسم الثّاني من الكتاب، إنْ شاء الله.

إنَّ هذه التّنظيمات الدّقيقة المُتزمِّتة في الأحياء اليهُوديَّة في أُورُوبا لم تكن هكذا في الأحياء اليهُوديَّة في ظلِّ الحُكْم العَرَبيّ الإسلامي في الشّرق؛ حيثُ كان اليهُود يعيشون بين المُسلمين في ظلِّ الإسلام في حُرِّيَّة وأمان وحماية تكفلها لهم الدّولة، ولكنْ؛ خلال الحُكْم العُثمانيّ كانت تنظيماتهم في الأقاليم الأُورُوبيَّة من الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة تُشابه تنظيماتهم في بقيَّة أُورُوبا كما أسلفنا الحديث عنها.

---

(1) المصدر، س. ناجي، "المُفسدون في الأرض"، ص 105 ـ 108.

لذلك لابُدَّ من الحديث عن حياة اليهُود في ظلِّ الدّولة العَرَبيّة الإسلاميَّة والدّولة العُثمانيَّة.

اليهُود في ظلِّ العَرَب المُسلمين:

استطاع العَرَب المُسلمون أنَّ يكونوا دولة واسعة في أقلِّ من قرن من الزّمان (من 630 - 730م) بعد وفاة الرّسول الكريم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم؛ حيثُ استطاعوا إخراج الرُّوم من بلاد الشّام ومصر وشمال أفريقيا، وتمزيق دولة الفُرْس، والاستيلاء على أملاكها، وامتدَّت دولتهم من الهند والصّين شرقاً، إلى أسبانيا غرباً، وبذلك خضع اليهُود في هذه المناطق للحُكْم العَرَبيّ الإسلامي.

عاش اليهُود في ظلِّ الحُكْم العَرَبيّ الإسلامي أجمل أيَّامهم وأفضلها، فقد أعطاهم الإسلام الحُرِّيَّة الكاملة في العبادة والعمل تحت حمايته، واعتبرهم أهل كتاب ومن أهل الذِّمَّة. وقد لاقى اليهُود من العَرَب المُسلمين أحسن مُعاملة، ولا عجب في ذلك، فهذه هي مبادئ الإسلام السّمحة. ولذلك قال غُوستاف لُوبون المُؤرِّخ الشّهير "لم يعرف التّاريخ فاتحاً أرحم من العَرَب".

واليهُود أنفسهم يعترفون بأنَّ الفتح الإسلامي كان مُنقذاً لهم من الذُّلِّ والاضطهاد، حتَّى ومن الإبادة والزّوال (وخُصُوصاً في ظلِّ الحُكْم البيزنطي)، فقد وَرَدَ في دائرة المعارف اليهُوديَّة العامَّة ما يلي: «إنَّ فَتْحَ العَرَب للبلاد أنقذ البقيَّة الباقية من يهُود فلسطين من الدّمار الكامل». وكذلك قول المُؤرِّخ اليهُوديّ "هيامرون" «وعمليّاً؛ فيما يتعلَّق بيهُود فلسطين (واليهُود عامَّة) فإنَّ المُسلمين قد جاؤوا كمُنقذين، وليس كمُضطهدين»، وهذا ليس مُقتصراً على البقيَّة الباقية من اليهُود في فلسطين، بل على جميع اليهُود في طُول البلاد وعرضها في ظلِّ الحُكْم الإسلامي[1].

واستمرَّت أوضاع اليهُود على خير ما يُرام في ظلِّ العَرَب المُسلمين، وكذلك طوال الحُكْم العُثمانيّ للبلاد العَرَبيَّة وغير العَرَبيَّة (جنوب شرق أُورُوبا)، وهكذا وَجَدَ اليهُود في

---

(1) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص 135.

ظلِّ الإسلام أحسن المُعاملة وأفضل الرّعاية، ولم يتعرَّضوا لأيِّ اضطهاد أو سُوء مُعاملة. حتَّى إنَّ يهُود أسبانيا عندما طُرد العَرَب المُسلمون من الأندلس، رحلوا مع العَرَب المُسلمين، والتجؤوا إلى الدّيار العَرَبيَّة في المغرب العَرَبيّ، أو إلى الدّولة العُثمانيَّة؛ حيثُ كوَّنوا جاليات كثيرة في استانبول وأزمير وسالونيك، وهُم اليهُود "السّفارديم" (وسيمرُّ معنا الحديث عنهم)، وكان لليهُود دور كبير في الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في الدّولة العُثمانيَّة.

إذا قارنَّا أوضاع اليهُود في البلاد الإسلاميَّة في ظلِّ الإسلام وأوضاعهم في أُورُوبا في ظلِّ المسيحيَّة، فإنَّ الفرق شتَّان بين الوَضْعَيْن؛ ففي البلاد الإسلاميَّة وَجَدَ اليهُود الحُرِّيَّة والأمان، بينما في البلاد المسيحيَّة وجدوا الذُّلَّ والهوان.

ومع كُلِّ ذلك؛ تَنَكَّرَ اليهُود الآن ـ وهذا شأنهم دائماً ـ للعَرَب والمُسلمين، وقابلوا كُلَّ الإحسان السّابق (عبر قُرُون عديدة) من العَرَب والمُسلمين بما نراه الآن من الأعمال الوحشيَّة ضدَّ العَرَب في فلسطين، واغتصاب أرضهم، وتشريدهم، وطردهم من بلادهم، هذا؛ بالإضافة إلى أعمالهم الوحشيَّة في الأقطار العَرَبيَّة المُجاورة، وخاصَّة في لبنان.

اليهُود في ظلِّ الأتراك العُثمانيِّيْن:

لقد مدَّ الأتراك العُثمانيُّون يدَ المُساعدة والعون لليهُود؛ عملاً بمبادئ الإسلام، وقدَّموا لهم الملجأ الآمن من الاضطهاد، حتَّى إنَّ مجيء الأتراك إلى أُورُوبا كان مُنقذاً لليهُود من الإبادة، والفناء، والتّشريد، فقد كانت الكَنيسة الرُّومانيَّة الشّرقيَّة (الأرثُوذُكسيَّة) تُعاملهم أسوأ مُعاملة، وتتَّهمهم بأنَّهم كانوا وراء "صَلْب" المسيح عليه السّلام.

كانت الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة آخر الإمبراطُوريَّات الواسعة، فقد ورثت الإمبراطُوريَّةَ البيزنطيَّةَ بعد أنْ قضت عليها، واحتلَّت عاصمتها القسطنطينيَّة عام **1453**م، بقيادة السُّلطان مُحَمَّد الفاتح، وأصبح اسمها استامبول، وجعلوها عاصمة لإمبراطُوريَّتهم، التي كانت تضمُّ جميع أقطار جنوب شرق أُورُوبا وسواحل البحر الأسود، بالإضافة إلى جميع الأقطار العَرَبيَّة (عدا مراكش).

عاش اليهُود في ظلِّ هذه الإمبراطُوريَّة المُترامية الأطراف، وتمتَّعوا في ظلِّ تعاليم الإسلام بالأمان والحُرِّيَّة والحماية، و ليس هذا فقط، فقد كانت الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة الملجأ الآمن، والملاذ الوحيد لهم في العالم، عندما بدأت الكَنيسة الكاثُوليكيَّة في إسبانيا والبُرتُغال باضطهاد اليهُود، وإجبارهم على اعتناق النّصرانيَّة أو الرّحيل، وذلك بعد طَرْد العَرَب المُسلمين منهما، فقد طَلَبَ اليهُود من العاهل التُّركي السُّلطان مُراد الثّاني أنْ يقبلهم في بلاده، ورحَّب بهم الأتراك، وأحسنوا إليهم.

ولكنَّ اليهُود استغلّوا هذا العطف والإحسان أبشع استغلال، فتسلَّقوا إلى المرافق التّجاريَّة والصّناعيَّة، وزحفوا على كُلِّ المشاريع ذات النّفع السّريع، والرّبح الوفير، وفي فترة وجيزة أصبحوا أصحاب أكبر المحلاَّت التّجاريَّة في استامبول العاصمة وإزمير وسالونيك. وكانت هذه المُدُن الثّلاث تُسيطر على النّشاط الاقتصادي في الدّولة العُثمانيَّة (أزمير غرب الأناضول على بحر إيجه وسالونيك مدينة في شمال شرق اليُونان).

وهكذا قبض اليهُود على ناصية التّجارة في الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة، وسيطروا على اقتصاد البلاد، وتحكَّموا فيه.

ومن الغريب أنَّ السّاسة الأتراك وعُلماء الدِّين لم ينتبهوا لهذا الزّحف اليهُوديّ الخطير على مرافق البلاد الاقتصاديَّة والسَّيطرة عليها، وفي ظنِّي أنَّ الأتراك العُثمانيِّين رحَّبوا باليهُود، وآووهم، وعاملوهم مُعاملة حسنة؛ ليكونوا عامل توازن مع رعايا الدّولة النّصارى في جنوب شرق أُورُوبا، فرأى الأتراك أنَّ يكسبوا اليهُود إلى جانبهم؛ ليكونوا عوناً لهم في هذه البلاد المسيحيَّة الواسعة، التي كان أهلها لا يُكنُّون الوُدَّ للأتراك، ويعتبرونهم غُزاة مُغْتَصبين لبلادهم، ويتمنَّون زوال حُكْمهم، ولكنَّ الأتراك كانوا قصيري النَّظَر في هذه النّاحية، فاليهُود لا يُكنُّون الوُدَّ لأحد غير أنفسهم، ولا يخدمون إلاَّ مصالحهم، ولا يُخلصون إلاَّ لأهدافهم.

وعلى كُلِّ حال؛ لم يكتف اليهُود بالسَّيطرة على زمام الاقتصاد في الدّولة العُثمانيَّة، بل طمعوا - أيضاً - بالسَّيطرة على الحُكْم والسِّياسة في الدّولة، وذلك لدَعْم سيطرتهم الاقتصاديَّة، واتَّخذوا للوُصُول إلى أهدافهم طريقَيْن:

الطَّريق الأوَّل: كان يقف في طريقهم للسَّيطرة على الحُكْم والسِّياسة أنَّهم أهل كتاب، وليسوا مُسلمين، ليتبوَّؤوا المناصب العالية في الدَّولة، لذلك ـ ولحلِّ هذه المُشكلة ـ أوعز لهم مجلسهم الأعلى (السّنهدرين) بالتّظاهر باعتناق الإسلام؛ ليسهل عليهم التّغرير بالأتراك، وكسب ثقتهم، بُغية التَّسلُّل إلى مراكز الجاه والسُّلطان.

وهكذا بادر قسم منهم بالتّظاهر باعتناق الإسلام، وبدّلوا أسماءهم بأسماء إسلاميَّة، وأخذوا بالاندماج في صُفُوف الشّعب التُّركي المُسلم، وهؤلاء هُم يهُود "الدُّونمة" (وسنتكلَّم عنهم بالتّفصيل في القسم الثّاني من الكتاب).

راح يهُود الدُّونمة[1] يعملون لتحقيق أغراض اليهُود وأهدافهم، فتسلَّلوا إلى الكُلِّيَّات العسكريَّة (التي كانت محظورة على غير المُسلمين)، وَدَخَلُوا مُعترك السِّياسة، ولم يمض وقت طويل حتَّى كان نُفُوذهم السِّياسي والعسكري قد توطَّد في الدَّولة.

الطَّريق الثَّاني: تأسيس المحافل الماسُونيَّة من مُختلف أنحاء العالم، وورَّطوا خيرة رجال الأُمَّة التُّركيَّة في الانتساب إليها. وركَّز الماسُون جُهُودهم بين طُلاَّب الجامعات والكُلِّيَّات العسكريَّة، فهؤلاء سيكونون رجال الدَّولة في المُستقبل، وفي مُستهلِّ القرن العشرين كانت المحافل الماسُونيَّة قد انتشرت في المُدُن التُّركيَّة انتشار النَّار في الهشيم.[2]

والماسُونيَّة هي بدْعَة يهُوديَّة للسّيطرة على العالم باسم الأُخُوَّة، لا سيّما وأنَّ مُعظم المُنتسبين إليها هُم من أصحاب النُّفُوذ والجاه والسُّلطان (سنتحدَّث عن الماسُونيَّة بالتّفصيل في القسم الثّاني من الكتاب إنْ شاء الله، كوسيلة من وسائل اليهُود للسّيطرة على العالم).

وهكذا استطاع اليهُود أنْ يُحكموا قبضتهم على الدّولة العُثمانيَّة في أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ويُمسكوا بزمام الأُمُور فيها بواسطة هذَيْن الطّريقَيْن.

---

(1) كان مركزهم الأساسي في مدينة (سالونيك) في شمال شرق اليُونان، وكانت هذه المدينة تضمُّ جالية يهُوديَّة كبيرة ونشيطة، وكانت مركز المحافل الماسُونيَّة التي رعاها اليهُود ونشروها بين رجال الدّولة الأتراك.

(2) للاستزادة والتَّوسُّع في هذا الموضوع؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ (الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فَعَلَتْ؟ ومَنْ خَدَمَتْ؟) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، ط1، 2003، وط2، 2003.

فالطّريق الأوَّل أمَّن ليهُود "الدُّونمة" دُخُول الكُلِّيّات العسكريَّة العُثمانيَّة (التي كانت محظورة على غير المُسلمين)، فتخرَّج منهم ضُبّاط سُرعان ما وصلوا إلى أعلى المراتب العسكريَّة؛ ومنهم على سبيل المثال الضّابط (جاويد بك) الذي اشترك بالانقلاب العسكري ضدَّ السُّلطان عبد الحميد، ويُقال إنَّه دَخَلَ عليه بعد عَزْله واعتقاله، وقال له: «إنَّ الذي رَفَضَتْ إعطاءه لنا (يعني فلسطين) أخذناه، والآن، بدُون ثمن». والقصَّة أنَّ اليهُود في المُؤتمر الصّهيُونيّ الذي انعقد في بال في سويسرا عام **1898**، برئاسة الزّعيم الصّهيُونيّ "ثيودور هرتزل" قرَّروا أنْ تكون فلسطين وطناً قوميّاً لهم، وكانت فلسطين - في ذلك الوقت - جُزءاً من الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة، لذلك أرسل الصّهاينة وفداً إلى السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد الثّاني يطلبون منه أنْ يسمح لهم بالهجرة والاستيطان في فلسطين، وقدَّموا له المُغريات الماليَّة، وعرضوا عليه الوُقُوف بجانب الدّولة العُثمانيَّة في المحافل والمُؤتمرات الدّوليَّة، ومُساعدته ضدَّ الطّامعين بأملاك الدّولة، ولكنَّ السُّلطان عبد الحميد أجاب بالرَّفْض القاطع، وقال: «إنَّ فلسطين أمانة في عُنقي، ولن أتخلَّى عنها لأحد غير المُسلمين».

فما كان من اليهُود المُسيطرين على المال والصّحافة في أُورُوبا إلاَّ أنْ فتحوا عليه أبواق دعايتهم، وشوَّهوا سُمعته، وألصقوا به أبشع الصّفات، وجعلوه مثال الحاكم المُستبدّ الفاجر الفاسق المُنغمس في الملذّات والمفاسد، حتَّى يسهل التَّخلُّص منه، وإزالته من طريقهم. وفعلاً - بعد إزاحة السُّلطان عبد الحميد الثّاني عن الحُكْم - عمدت جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي التي قادت الانقلاب ضدَّه بالسّماح لليهُود بالهجرة والاستيطان في فلسطين. (وبالفعل؛ قامت في فلسطين عدَّة مُستعمرات يهُوديَّة قبل الحرب العالميَّة الأُولى كان منها: بتاخ تكفا، ملبس، الخضيرة . . إلخ).

ومن رجال الماسُون الأتراك الذين وصلوا إلى أعلى المراتب في الدّولة "مدحت باشا" المُلقَّب بأبي الدُّستُور، والذي دعمه اليهُود حتَّى أوصلوه إلى الصّدارة العُظمى (رئاسة الوزارة)، ولكنَّ السُّلطان عبد الحميد عندما استلم العرش العُثمانيّ، عزله عن الحُكْم، وأبعده عن العاصمة استانبول، نظراً لماسُونيَّته، وابتعاده عن الإسلام، واندفاعه لتقليد الغرب في كُلِّ شيء، فقامت قيامة اليهُود والمحافل الماسُونيَّة في تُركيا، وأظهروا مدحت باشا بمظهر التَّقدُّمي المُخلص، وإنَّ إبعاده جريمة كُبرى بحقِّ الشّعب التُّركي.

ومن هؤلاء أيضاً طلعت بك رئيس المحافل الماسُونيَّة في تُركيا، والذي كان مُؤسِّس جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، ومن أقوى أركانها، ومنهم أنور بك الضّابط الماسُوني التُّركي، ومن أعضاء جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، والذي كان له مع طلعت بك الدّور الأساسي في الإطاحة بالسُّلطان عبد الحميد.

هذا؛ واليهُود في تُركيا ـ الآن ـ هُم الذين دفعوا الدّولة العُثمانيَّة للقيام بالمذابح البشعة ضدَّ الأرمن؛ ليُزيحوهم عن طريقهم؛ لإحكام سيطرة اليهُود على اقتصاد البلاد. فقد كان الأرمن هُم المُنافس الوحيد لليهُود في السّيطرة على اقتصاديَّات البلاد، فألصقوا بهم تُهمة التّآمر على الدّولة، ومُحاولتهم إنشاء دولة لهم في شرق الأناضول، والانفصال عن الدّولة، والتّعاون مع الدُّول الأجنبيَّة ضدَّها، وبخاصَّة رُوسيا العدوّ اللّدود للدّولة العُثمانيَّة.

وقد اشتدَّ تآمر اليهُود على الدّولة العُثمانيَّة في الحرب العالميَّة الأُولى، رغم نُفُوذهم فيها، فقد وجدوا في وُعُود الإنكليز لهم بإعطائهم فلسطين وطناً قوميّاً لهم ما يُحقِّق أطماعهم وأهدافهم أكثر من التّركيز على تُركيا، فانحازوا للحُلفاء ضدَّ تُركيا وحليفتها ألمانيا في الحرب العالميَّة الأُولى. واليهُود هُم الذين دفعوا الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لدُخُول الحرب العالميَّة الأُولى إلى جانب الحُلفاء، ممَّا أدَّى إلى رجحان كفَّة الحُلفاء، والانتصار على ألمانيا وتُركيا. وقد قبض اليهُود الثّمن بمنح بريطانيا لهم وعد بلفور المشؤوم عام **1917**.

ولا يزال لليهُود نُفُوذ قوي في تُركيا الحديثة، ولهم دور كبير في التّفرقة بين الأتراك والعَرَب، والمُتتبِّع لتاريخ تُركيا الحديثة يرى أنَّ حكُومة الأتراك السَّابقة أقلّ الحُكُومات الإسلاميَّة وُقُوفاً مع الحقِّ العَرَبيّ في فلسطين، وأنَّها أكثر الحُكُومات الإسلاميَّة تعاوناً مع اليهُود مُنذُ تكوَّنت حكُومة لليهُود في فلسطين، رغم أنَّ المفروض بالحُكُومة التُّركيَّة كحكُومة لشعب مُسلم الوُقُوف بجانب الحقِّ العَرَبيّ ضدَّ كُلِّ اليهُود في فلسطين.

(وأخيراً؛ لابُدَّ من ذكر اتِّفاقيَّة التّعاون بين تُركيا و(إسرائيل) في مجال الطّيران الحربي، والتّدريب، وتحديث سلاح الجوِّ التُّركي من قبَل الخُبراء الإسرائيليِّيْن التي وُقِّعت بين البلدَيْن).

الفصل التّاسع

انتشار اليهُوديَّة في العالم

هل يُشكِّل اليهُود عرْقاً أو جنساً واحداً؟

لم يعد خافياً على كُـلِّ ذي بصر وبصيرة أنَّ اليـهُود لا يُشكِّلون جنسـاً أو عرْقـاً واحـداً مُميَّزاً، أو أنَّهم يتحدَّرون من أصل واحد، تحـدَّروا منه، وإليه ينتسبون. فالكيـان اليـهُوديّ كيان ديني بحت. واليهُوديَّة دين اعتنقه أُناس من شعُوب مُختلفة وعُرُوق مُتباينـة. وكُـلٌّ من يزور (إسرائيل) الآن يرى ويلمس الأجناس البشريَّة المُختلفـة والعُـرُوق المُتباينـة التـي يتشَـكَّل منها المُجتمع الإسرائيلي، فنحـنُ نـرى ونُشاهد فـي (إسـرائيل) اليـهُوديّ الأُورُوبـي الأبيـض (القُوقازي) بجـانب اليـهُوديّ الحبشـيّ الأسـود (الفلاشـا)، واليـهُوديّ اليمنـي الأسـمر بكُـلِّ ملامحه العَرَبيَّة الأصيلة مع اليهُوديّ الإيراني والكُردي والهندي . . إلخ، من أجنـاس البشـر المُتباينة والفُرُوق المُختلفة، ولا يجمعها إلاَّ الرّابط الدِّيني فقط؛ وهُو اليهُوديَّة.

صحيح أنَّ اليهُوديّ - مهما كـانت أُصُولـه العرْقيَّة - لـه سُلُوكيَّة خاصَّـة تُمـيِّزه مـن سـائر البشر، وذلك نتيجة اعتناقـه الدِّيـن اليـهُوديّ، وتشـرُّبه مبـادئ هـذا الدِّيـن، وتقيُّـده بتعاليمـه وتوجيهاته، ولكنْ؛ كُلَّ ذلك لا يجعل من اليهُود جنساً أو عرْقـاً واحـداً كمـا يدَّعـي اليـهُود، الذيـن يُرجعـون أُصُولـهم إلـى يعقُـوب عليه السلام، وإلـى إبراهيـم عليه السلام، الـذي يعتبرونـه جدَّهـم الأعلى - حسب زعمهم - وهُما عَرَبيَّان أصلاً ولُغة ووطناً (كما تحدَّثنا سابقاً)، وهُمـا لا يمُتَّـان بصلة إلى يهُود أُورُوبا، لا من ناحية العرْق، ولا الأصل، ولا حتَّى الشّكل.

والسُّؤال الذي يفرض نفسه هُو كيف انتشر اليهُود والدّيانة اليهُوديَّة في العالم، وخاصَّة بعـد أنْ أجلاهم الرُّومان عن فلسطين نهائيّاً بقيادة "تيتس" ابن الإمبراطُور الرُّوماني فسبسـيان **Vespasian** عام 70م، ثُمَّ قضى الإمبراطُور هدريان (أو أدريان) على البقيَّة الباقية منهم في فلسطين؟

الحقيقة أنَّ التّبشير بالدِّين اليهُوديّ بدأ مُنذُ تكوَّنت الدّيانة اليهُوديَّة بعد كتابة التّوراة في بابل، وبدَعْم وتأييد من الفُرْس، واستمرَّ ذلك حتَّى القُرُون الوُسْطَى، عندما أُغلق باب التّبشير بها في أواسط القرن الثّالث عشر الميلادي.

والدّيانة اليهُوديَّة - بشكلها وتعاليمها الحاليَّة - بدأت مُنذُ السّبي البابليّ، وكتابة وتدوين التّوراة، وقد مرَّت هذه الدّيانة بالمراحل التّالية:

الأُولى: ديانة إبراهيم الخليل عليه السّلام، وتمتدُّ من ظُهُور إبراهيم عليه السّلام، وهي الحنفيَّة، فلم يكن إبراهيم عليه السلام يهُودياً ولا نصرانياً ولكنْ؛ كان حنيفاً مُسلماً كما جاء في سُورة آل عُمران الآية 67: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

الثّانية: الدّيانة المُوسويَّة، وتمتدُّ من ظُهُور مُوسى عليه السّلام، حتَّى مملكة يهُوذا، والسّبي البابليّ، ونستطيع تسمية مُعتنقيها "بالمُوسويِّين".

الثّالثة: الدّيانة اليهُوديَّة، وتمتدُّ من السّبي البابليّ، وتدوين التّوراة، والشُّرُوح عليها "التّلمود"؛ حيثُ أخذت شكلها الحالي، بعد أنْ حُرِّفت ديانة مُوسى، وابتعد اليهُود عنها، وأصبحوا يُسمّون يهُوداً، وديانتهم بالدّيانة اليهُوديَّة.

وعلى كُلِّ حال؛ لم تأخذ الدّيانة اليهُوديَّة صفة الدّيانة التّبشيريَّة كالإسلام والمسيحيَّة، وكانت في مُعظم تاريخها ديانة مُغلقة، لا تقبل أتباعاً جُدُداً إلاَّ في ظُرُوف خاصَّة، ولأهداف مُعيَّنة، هي - في الأغلب الأعمِّ - لتقوية اليهُود أنفسهم بأتباع جُدُد، وخاصَّة بعد السّبي البابليّ؛ حيثُ بشَّروا بديانتهم في بابل والعراق، ثُمَّ بعد تشريد الرُّومان لهم وهَدْم هيكلهم في أُورشليم (القُدس)، وتحريمها عليهم، ممَّا أدَّى - في هذه المرحلة - إلى عمل اليهُود بجدٍّ ونشاط لنَشْر ديانتهم بين شُعُوب الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُترامية الأطراف، واستمرَّ هذا التّبشير حتَّى القرن الثّالث عشر كما أسلفنا. وقد توسَّع التّبشير شرقاً في الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة، ومنطقة بحر الخَزَر، وجنوباً في الجزيرة العَرَبيَّة (وخاصَّة اليمن)، وشمال أفريقيا بين سُكَّانها من البربر.

قضى اليهُود أكثر من عشرين قرناً في نَشْر ديانتهم بين شُعُوب وأُمم لا تُمتُّ لبني إسرائيل (ذُرِّيَّة يعقُوب)، ولا إلى قوم مُوسى - عليه السّلام - بأدنى صلة، وليست لهم أيُّ علاقة بفلسطين، أو سُكَّان فلسطين، لا من بعيد، ولا من قريب. وهكذا اعتنقت شُعُوب عديدة الدِّينَ اليهُوديَّ وهُم في ديارهم وأوطانهم، ولم يكونوا - في أيِّ وقت من الأوقات - من سُكَّان فلسطين، ولا هُم من بني إسرائيل ذُرِّيَّة يعقُوب عليه السلام والأسباط الاثنَيْ عشر.

لقد انتشرت اليهُوديَّة في القارَّات القديمة (آسيا وأُورُوبا وأفريقيا)، واعتنقتْهَا أُمم وشُعُوب مُتباعدة الأوطان من الجزيرة العَرَبيَّة والحبشة واليمن في أقصى الجنوب إلى بلاد القفقاس والخَزَر في الشّمال، ومن أُورُوبا إلى شمال أفريقيا في إمبراطُوريَّتَيْن واسعتَيْن هُما: الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة في الغرب، والإمبراطُوريَّة الفارسيَّة في الشّرق، وفي الأقطار المُجاورة لهما.

وكما انتشرت اليهُوديَّة بين شُعُوب وَثَنِيَّة عديدة وأقطار مُتباعدة، فإنَّ كثيراً من اليهُود اعتنقوا الدّيانة المسيحيَّة بعد ظُهُورها وانتشارها.

وهكذا مثلما انتشرت الدّيانة اليهُوديَّة بين الوَثَنيِّيْن؛ حيثُ لم يكن هُناك ديانة توحيديَّة سماويَّة غيرها، انتشرت المسيحيَّة بين الوَثَنيِّيْن وبين اليهُود أنفسهم، لا سيّما وأنَّ المسيح - عليه السّلام - ظهر في القُدس بينهم ليُصحِّحَ انحرافات اليهُود، ويُعيدَهم إلى جادَّة الصّواب، ويُحلَّ بعض الذي حُرِّم عليهم كما يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. سُورة آل عُمران آية **50**.

على أنَّ اليهُود كانوا يُؤمنون بمجيء مسيح مُنْتَظَر بَشَّرَ به مُوسى عليه السلام ليُنقذهم، ويُخلِّصهم من المآسي والكوارث التي حاقت بهم.

ومن اليهُود الذين تنصَّروا يهُود السّامرة "مملكة إسرائيل"، الذين نفاهم الآشوريُّون إلى منطقة كُردستان، بعد القضاء على مملكة السّامرة اليهُوديَّة في فلسطين، وقد تنصَّرت غالبيَّتهم السّاحقة هُناك، وكانوا يُؤلِّفون عشرة أسباط من أسباط اليهُود الاثنَيْ عشر.

وهكذا نرى أنَّ اليهُود الحاليِّين لا يمُتُّون بصلة لبني إسرائيل، ولا لفلسطين بأيَّة صلة، حتَّى إنَّ ذُرِّيَّة يعقُوب من الأسباط الاثنَيْ عشر تنصرَّ مُعظمها في شمال العراق. وفيما يلي سنذكر نماذج من اليهُود المُتنصِّرين، ونماذج من الشُّعُوب المُتهوِّدة:

أ: الأسباط العشرة المفقودة، والمسيحيُّون النَّساطرة في كُردستان[1]:

كانت سياسة الآشوريِّيْن أنْ يُبعدوا سَبْيَهُم إلى أماكن نائية مُنعزلة، حتَّى لا يتيسَّر لهم العودة إلى ديارهم، التي أُبعدوا عنها، وهكذا؛ فقد أَبعدَ الآشوريُّون أسراهم اليهُود من مملكة (إسرائيل أو السَّامرة) إلى المناطق الجَبَليَّة المُنعزلة في كُردستان ضمن حُدُود الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة، وأحلّوا محلّهم أقواماً آخرين من الشُّعُوب الخاضعة للإمبراطُوريَّة الآشوريَّة، حتَّى خفيت أخبارهم عن اليهُود[2] في فلسطين، واعتبروهم بحُكْم المفقودين، لذلك سمَّاهم الباحثون "الأسباط العشرة المفقودة"؛ لأنَّ مملكة إسرائيل أو السَّامرة كانت تتألَّف من عشرة أسباط على قول التّوراة، عندما قضى عليها الآشوريُّون عام 720 ق.م، على يد إمبراطُورهم سرجُون الثّاني.

هذا؛ وقد كوَّن يهُود السَّامرة المسبيُّون قُرى ومراكز استقرار بين السُّكَّان المحلِّيِّين، وبقوا مُنعزلين عن اليهُود في فلسطين، في تلك المناطق الجَبَليَّة الكُرديَّة النَّائية؛ حيثُ قلَّدوا جيرانهمّ الأكراد في أُسلُوب حياتهم، وطراز معيشتهم، وتمتَّعوا بحماية رُؤساء القبائل الكُرديَّة؛ حيثُ كانوا يُؤدُّون لهم الجزية، مُقابل تلك الحماية.

ومن المُهمِّ ذكره في هذا الصَّدد أنَّ هؤلاء اليهُود المنفيِّين إلى تلك الأصقاع النّائية مايزالون يتكلَّمون ـ فيما بينهم ـ لُغتهم الأصليَّة؛ وهي الآراميَّة الغربيَّة القديمة (السّريانيَّة)، مع اللُّغة الكُرديَّة، رغم مُرُور حوالي 2800 سنة على إبعادهم إلى تلك المناطق.

---

(1) المصدر الرّئيسي د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 649 ـ 680.

(2) اليهُود الذين بقوا في فلسطين هُم يهُود مملكة يهُوذا في القُدس، وقد وجدوا في نفي يهُود السّامرة (أو إسرائيل) راحة لهم، نظراً للعداء المُستحكم بين المملكتَيْن اليهُوديَّتَيْن، ولذلك لم يُحاولوا أنْ يعرفوا أين هُم، ولا الاتِّصال بهم، فامتنعت أخبارهم عن يهُود يهُوذا.

وعندما نُفي يهُود يهُوذا إلى بابل في العراق على يد ملك الكلدان (بابل الثّانية) بختنصر، لم يعرفوا عنهم أيَّ شيء، بالإضافة إلى أنَّ يهُود يهُوذا في بابل كانوا في شُغل عنهم، بأنفسهم وبالمُصيبة التي حلَّت بهم أيضاً.

ومن أشهر مَنْ كَتَبَ واطَّلع على دقائق حياتهم وأخبارهم الدُّكتُور "غرانت Grant" الطّبيب والمُبشِّر الأمريكي، الذي قضى عدَّة سنوات في منطقة كُردستان، وتجوَّل في أنحائها، والذي توصَّل إلى أنَّ نصارى كُردستان هُم أحفاد السّبايا اليهُود، الذين أبعدهم الآشوريُّون من السّامرة إلى كُردستان، بعد القضاء على مملكة إسرائيل في السّامرة، وأنَّهم أخذوا بتعاليم المسيح - عليه السّلام - بعد ظُهُوره، واعتنقوا المسيحيَّة، وصاروا يُعرَفُون بالمسيحيِّين "النّساطرة"(1)؛ نسبة إلى القدِّيس نسطورس، أو نسطور(2)(3).

وقد قضى الدُّكتُور غرانت - هُو وعائلته - ستَّ سنوات في منطقة كُردستان، وبعد دراسة عميقة لحياة هؤلاء النّساطرة وعاداتهم وتقاليدهم وطُقُوسهم الدِّينيَّة تأكَّد له أنَّهم هُم أحفاد الأسباط العشرة المفقودة الذي سباهم الآشوريُّون، وأبعدوهم إلى مناطق آشور النّائية في جبال كُردستان، ثُمَّ لَمَّا ظهر المسيح - عليه السّلام، بعد حوالي سبعة قُرُون - اتَّخذوا تعاليمه

---

(1) تدلُّ المُدوَّنات التّاريخيَّة على أنَّ أحد تلاميذ المسيح وهُو "مار أدي" ومعه "مار ماري" قد طافا بلاد نصيبين وآشور وكركوك، وبعد وفاة "مار أدي" بقي "مار ماري" يطوف بلاد كُردستان؛ حيثُ نشر المسيحيَّة، وتُوفِّي في المدائن عاصمة الفُرْس عام 82 م، ودُفن في "سرجاد".

(2) المذهب النّسطوري مذهب مسيحي ظهر إثر انشقاق مذهبي واسع في المسيحيَّة في الشّرق عام 431 م، (وبالتّحديد في إمبراطُوريَّة الرُّوم البيزنطيِّين)، وظهر مذهب آخر مُناوئ له هُو المذهب اليعقُوبي، أمَّا الفَرْق بين المذهبَيْن؛ فهُو: النّساطرة: يقولون بأنَّ للمسيح طبيعتَيْن؛ بشريَّة وإلهيَّة، وإنَّ الطّبيعتَيْن غير مُندمجتَيْن، فالمسيح عندما كان يعيش بين النّاس كان يأكل، ويشرب، وينام، ويتألَّم، وكان يعيش بطبيعته النّاسوتيَّة أو البشريَّة، وعندما كان يقوم بمُعجزاته مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، والأعمى.. إلخ، كان يقوم بذلك بطبيعته الإلهيَّة. أمَّا اليعاقبة؛ فيقولون: إنَّ طبيعة المسيح البشريَّة والإلهيَّة قد اندمجتا مع بعضهما، والذي ظهر من المسيح هُو طبيعته الإلهيَّة، واختفت طبيعته البشريَّة، ولذلك فالمسيح بطبيعته المُندمجة كان لا يعرف الألم، وعندما صُلب (كما يقول المسيحيُّون) لم يتألَّم من الصَّلْب. وقد نشطت البعثات التّبشيريَّة الأُورُوبيَّة بين هاتَيْن الفرقتَيْن لتحويلها إلى الكاثوليكيَّة أو البروتستانيَّة، وقد نجحت هذه المُحاولات، فقد تحوَّل النّساطرة الكلدان في شمال شرق سُوريَّة إلى الكاثوليكيَّة.

(3) للتّوسُّع والاستزادة - بشكل مُوثَّق - في موضوع نشأة الفرَق المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى الآن؛ يُراجَع الكتابان المُهمَّان جداً (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام) للباحث نهاد خيَّاطة، و(الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى الآن) للباحث سعد رُستُم، والكتابان صادران عن دار الأوائل، الأوَّل عام 2002، والثَّاني عام 2004، كما قامت الدَّار نفسها بإصدار كتابَيْن مُهمَّيْن هُما (الفرَق والمذاهب اليهُوديَّة مُنذُ البدايات) للباحث عبد المجيد همُّو، ط1، 2003، وكتاب (الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة مُنذُ البدايات النَّشأة التَّاريخ العقيدة التَّوزُّع الجَغرافي) للباحث سعد رُستُم، ط1، 2004.

ديناً لهم، وذلك نتيجة البعثات المسيحيَّة التي أوفدها الحواريُّون وأتباع المسيح إلى هذه المناطق؛ للتّبشير بتعاليم الدِّين المسيحي الجديد، وكان ذلك بعد وفاة المسيح بقليل (عند المُسلمين رَفَعَ اللهُ المسيح إليه): ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ آل عُمران آية 55.

وهذا يدلُّ على أنَّ الحواريِّين (تلاميذ المسيح) كانوا على علم بوُجُود الأسباط العشرة في تلك الأصقاع النّائية، وأنَّهم كانوا على اتِّصال مُستمرٍّ بهم، وقد حافظ هؤلاء اليهُود المُتنصِّرون على تقاليدهم وعاداتهم القديمة[1] ولُغتهم الآراميَّة الغربية.

---

(1) مُنذُ القرن التّاسع عشر؛ أصبحوا يُعرَفُون بالآشوريِّين أو "الأثوريِّين"، والذي أطلق عليهم هذه التّسمية هُو الدُّكتُور "غرانت" نفسه، وبعثته التّبشيريَّة، وهُم - في الحقيقة - ليسوا أحفاد الآشوريِّين القُدامى (الذين أسَّسوا الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة)، وأنَّ لُغتهم التي تُسمَّى بالآشوريَّة لا تعدو كونها لهجة سريانيَّة (آراميَّة) غربيَّة.
وكذلك الحال بالنّسبة للنّساطرة الكلدان، الذين تحوَّلوا إلى الكاثوليكيَّة فهُم ليسوا أحفاد الكلدان القُدامى (الذين أسَّسوا الإمبراطُوريَّة البابليَّة الثّانية، وسبوا اليهُود إلى بابل)، وأنَّ اللُّغة الكلدانيَّة التي يتكلَّمونها ليست إلاَّ لهجة سريانيَّة آراميَّة (وبقاياهم تسكن - الآن - في الشّمال الشّرقي من سُوريَّة؛ في الحسكة والقامشلي).
ومن عجائب المُصادفات أنَّني كُنتُ مُعلِّماً في إحدى قُرى هؤلاء الآشوريِّين على نهر الخابور (بين الحسكة ورأس العين) واسمها "تلّ طلعة"، ولمُدَّة سنتَيْن من 1950 - 1952، وقد اختلطتُ بهم، ودرستُ أوضاعهم، وتعلَّمت شيئاً من لُغتهم الآشوريَّة، والتي هي لُغة سريانيَّة آراميَّة لا تختلف عن اللُّغة السّريانيَّة في قُرى جبال القلمون؛ مثل معلولا، أو قرية صَدَد في بادية الشّام إلاَّ قليلاً، وكذلك عن اللُّغة العبريَّة، وقد كُنتُ أُجالس كبار السِّنِّ منهم، وأسألهم عن بلادهم في كُردستان، يدفعني لذلك حُبُّ المعرفة والاستطلاع، فعرفتُ منهم أنَّ قريتهم كان اسمها "سرناي"، وتقع على بُحيرة "وان" أو "فان" (شرق الأناضول)، وعرفتُ منهم أسباب هجرتهم من بلادهم تلك، ومُلخَّصها ما يلي: إنَّهم في الحرب العالميَّة الأُولى تعاونوا مع الجيش الرُّوسيّ الذي هاجم الدّولة العُثمانيَّة من الشّرق، ولكنْ؛ عندما قامت الثّورة البلشفيَّة (الشُّيُوعيَّة) في رُوسيا عام 1917، انسحبت رُوسيا من الحرب، وعقدتْ صُلحاً مع الألمان، وتراجع جيشها إلى بلاده، ممَّا اضطرَّ الآشوريُّون إلى مُرافقة الجيش الرُّوسيّ، والرّحيل معه، خوفاً من فَتْك الأتراك بهم، وذَبْحهم كالأرمن، ولكنَّ الجيش الرُّوسيّ تخلَّى عنهم في شمال غرب إيران، بحُجَّة عدم استطاعته حمايتهم، وتقديم الغذاء لهم، ولذراريهم، لا سيّما وأنَّه كان في حالة تراجُع، وفوضى، ونَقْص في الإمدادات؛ وخاصَّة الغذائيَّة. لذلك قرَّر الآشوريُّون الاحتماء بشمال غرب إيران، بعيدين عن مُتناول يد الأتراك، ولكنَّ الإيرانيِّين عاملوهم مُعاملة سيِّئة، وكادوا يفتكون بهم، ولكنَّ الإنكليز - أصحاب النُّفُوذ القويّ في إيران في ذلك الوقت - تلقَّفوهم، فجنَّدوا رجالهم للقتال معهم (في الحرب العالميَّة الأُولى)، وأسكنوا عائلاتهم في مُخيَّمات مُؤقَّتة، ثُمَّ أشركوهم في احتلال العراق، وطَرْد الأتراك منه. وبعد انتهاء الحرب العالميَّة الأُولى؛ أسكنهم الإنكليز في منطقة الموصل من العراق، وأدخلوا في روعهم أنَّهم عادوا إلى بلادهم، وإلى مقرّ دولتهم الآشوريَّة القديمة، وكان رئيسهم في ذلك الوقت "مار شمعون"، وفي سنة 1936، قاموا - بتحريض من الإنكليز - بثورة في العراق، مُطالبين بأنْ يكون لهم حُكْم ذاتي في منطقة الموصل. قضى على ثورتهم الملك غازي، فَنَزَحَ قسم منهم إلى شمال شرق سُوريَّة؛ حيث أسكنهم الفرنسيُّون على نهر الخابور؛ حيث تنتشر قُراهم الآن هُناك، وأكبر مركز لهم هُناك هُو مدينة "تلّ تمر".

وقد بقيتْ قلَّة منهم لم تتنصَّر، ويصعب التّميز بين النّساطرة المسيحيِّيْن واليهُود المُجاورين لهم في المنطقة، فاللُّغة واحدة، وكذلك العادات والتّقاليد.

هذا؛ وقد استطاع اليهُود تهويد بعض الأكراد قبل تنصُّرهم، وهؤلاء اليهُود الأكراد امتزجوا باليهُود من الأسباط العشرة، وكلاهما كان يُتقن اللُّغة الآراميَّة والكُرديَّة.

وعندما انتشرت المسيحيَّة ـ مُنذُ قرنها الأوَّل، وتنصَّر القسم الأكبر من اليهُود في كُردستان كما أسلفنا ـ بقي قسم قليل على يهُوديَّته، وكان يتألَّف من أحفاد الأسباط العشرة، ومن أُصُول كُرديَّة تهوَّدتْ.

وقد حرص اليهُود في فلسطين على تهجير هؤلاء اليهُود الأكراد إلى فلسطين، قبل قيام (إسرائيل) في 15 أيار 1948، وبعد قيامها؛ أكثر من حرصهم على تهجير بقيَّة يهُود العراق، والسَّبب هُو أنَّهم كانوا أصحَّاء الأجسام، ويمتهنون الفلاحة وتربية الأغنام، وكان اليهُود في مساس الحاجة إلى مثل هؤلاء للعمل في مُستعمراتهم الزّراعيَّة التي أنشؤوها في فلسطين، أو لمعرفتهم أنَّ بعض هؤلاء اليهُود الأكراد يرجع في أُصُوله إلى الأسباط العشرة المفقودة، حتَّى إنَّ اليهُود يُصرُّون على أنَّ اليهُود الأكراد هُم من أحفاد الأسباط العشرة الذين نفاهم الآشوريُّون إلى مناطق كُردستان، ويُنكرون أنَّ بعض الأكراد تهوَّدوا، وامتزجوا بهم.

هذا؛ وقد أورد الدُّكتُور غرانت أدلَّة كثيرة مُفصَّلة لدَعْم ما توصَّل إليه بخُصُوص أصل المسيحيِّيْن النّساطرة في كتابه الذي نَشَرَهُ بالإنكليزيَّة بعُنوان «النّساطرة أو الأسباط المفقودة».

وقد أيَّد الدُّكتُور "نيوزنر **Neusner**" في كتابه "تاريخ اليهُود في بابل" الدُّكتُور غرانت فيما ذَهَبَ إليه من أنَّ النّساطرة هُم ـ في الأصل ـ من اليهُود الذين نفاهم الاشوريُّون إلى منطقة كُردستان، ثُمَّ تنصَّروا بعد ظُهُور المسيح عليه السّلام، ويرى الدُّكتُور نبوزنر أنَّ الأسباب التي ساعدت وسهَّلت انتشار المسيحيَّة بين يهُود كُردستان هُو التَّذمُّر من تحكُّم وتشدُّد "الربَّانيِّيْن" الذين كانوا يدَّعون بأنَّهم يمتلكون الحقَّ والامتياز بتوجيه حياة الطّائفة اليهُوديَّة حسب تفسيراتهم للتّوراة، ومن هذه الأسباب ـ أيضاً ـ مُضايقات "الربَّانيِّيْن" بتحريم

اختلاط أبناء الطّائفة اليهُوديَّة بالأغيار المُجاورين لهم؛ خوفاً من تأثُّرهم بالدّيانات الأُخرى غير اليهُوديَّة، ومنها المسيحيَّة[1].

ب: إمارة حدياب اليهُوديَّة:[2]

ومِمَّا تجدر الإشارة إليه، ونحنُ نتحدَّث عن الأسباط العشرة المفقودة، أنَّ إمارة واسعة تُدعى إمارة "حدياب" وبالعَرَبيَّة إمارة "حزة" ازدهرت في القرن الأوَّل الميلادي، وكانت عاصمتها "أربيل" في العراق، وكانت أراضي هذه الإمارة من ضمن أراضي مملكة آشور القديمة، ومن المنطقة التي نُفي إليها الأسباط العشرة اليهُود من مملكة إسرائيل (السّامرة في فلسطين).

كانت هذه الإمارة تمتدُّ بين نهر دجلة في الغرب وأذربيجان في الشّرق، وعلى نهرَيْ الزّاب الأعلى والزّاب الأسفل (من روافد دجلة)، وكانت تتبع الفُرْس الأخمينيِّين أوَّلاً، ثُمَّ الفُرْس الفرثيِّين ثانياً. (انظر المُصورَّ المُرفق رَقْم 14).

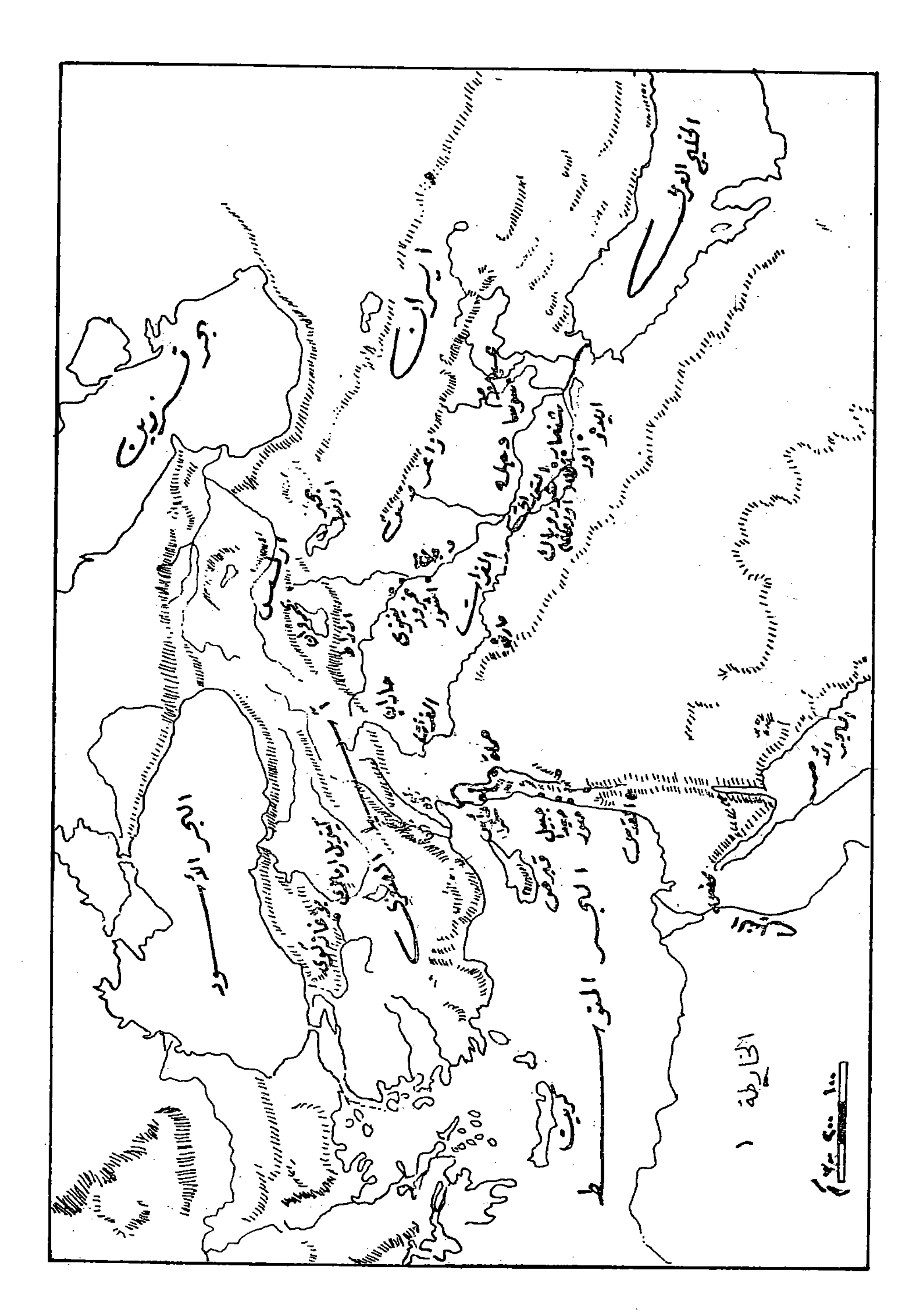
والمُهمُّ في هذه الإمارة أنَّ حُكَّامها كانوا وَثَنِيِّين حتَّى أميرها (مونوباس) الأوَّل الذي تزوَّج أخته (هيلينا) (ويظهر أنَّ هؤلاء الوَثَنِيِّين كانوا يُحلِّلون الزّواج من الأُخت)، وأنجبت له ابنه "إيزاط" الأوَّل الذي اعتنق اليهُوديَّة هُو وأُمّه هيلينا على يد تاجر يهُودي اسمه "حنينا"، (وهُو من اليهُود المُبعدين إلى تلك المنطقة)، ولمَّا مات مونوباس الأوَّل خلفه ابنه إيزاط الأوَّل المُتهوِّد، وحكم من 36 - 60 م، وفي زمنه؛ امتدَّت الإمارة إلى نصيبين غرباً، ثُمَّ خلفه ابنه "مونوباس الثّاني"، واستمرَّت الإمارة حتَّى عام 115م، حين قضى عليها الإمبراطُور الرُّوماني "تراجان".

وقد التزمتْ هذه العائلة الحاكمة في إمارة "حدياب" والمُتهوِّدة بولائها لليهُود في أُورشليم، وكانت على صلة بهم (عكس اليهُود الذين كانوا في شمال كُردستان حول بُحيرة "فان"، والذين انقطعت أخبارهم وصلتهم باليهُود عامَّة).

---

(1) ومن الجدير بالذّكر أيضاً أنَّ هؤلاء المسيحيِّين النّساطرة - والذين يرجعون في أُصُولهم إلى الأسباط العشرة المفقودة - لهم إنجيلهم الخاصُّ بهم، ويختلف عن الأناجيل الأربعة المعروفة والمعمول بها وهي: إنجيل متَّى، مرقس، لُوقا، يُوحنَّا، وهُو أقرب إلى إنجيل "برنابا"، وقد فهمتُ من الآشوريِّين - أثناء إقامتي بينهم - أنَّ سيِّدنا مُحَمَّد - عليه الصّلاة والسّلام - وارد في إنجيلهم، وأنَّ المسيح بشَّر به، وأنَّ اسمه في إنجيلهم "البارقليط"؛ ومعناها كثير الحمد؛ أيْ "أحمد" عليه السلام.

(2) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 658 - 661، و ص 901 - 902.



مُصوَّر رَقْم (14)

المواقع القديمة في الشّرق الأدنى

ويذكر المُؤرِّخ اليهُوديّ "يوسيفوس" أنَّ هيلينا أُمّ إيزاط الأوَّل ساعدت يهُود أُورشليم في مجاعة حلَّت بهم، وأرسلتْ لهم القمح، ووزَّعتْهُ عليهم.

وقد انتشرت اليهُوديَّة في الإمارة نتيجة تهوُّد حُكَّامها، ممَّا أدَّى إلى انتشار اللُّغة الآراميَّة فيها، مع انتشار اليهُوديَّة.

ولكنَّ المُهمَّ في الأمر أنَّ تلميذَيْ السَّيِّد المسيح ـ عليه السَّلام ـ "مار ادي" و "مار ماري"، اللّذينْ بشَّرا بالمسيحيَّة في المنطقة مُنذُ الجيل الأوَّل للدّيانة المسيحيَّة (كما أسلفنا) استطاعا نَشْرَ الدِّين المسيحي في الإمارة، حتَّى إنَّ أوَّل أُسقُف في إمارة حدياب هُو من الذين تتلمذوا على يد "المار ادي" في أربيل العاصمة، وهُو الأُسقُف "بغيدا" من سنة 104 ـ 114م، وقد نصَّر بغيدا أهلَهُ وكثيرين من سُكَّان المدينة، وقد تولَّى أُسقُفيَّة أربيل عشرة أساقفة بين 114 ـ 312 م، كلُّهم من اليهُود المُتنصِّرين الذين استطاعوا إقناع أقربائهم اليهُود بأفضليَّة الدِّين المسيحي على الدِّين اليهُوديّ؛ إذْ جاء هذا الدِّين الجديد لإصلاح ما أُدخل على دين مُوسى عليه السلام من التّحريف والبدَع على يد الرَّبَّانيِّين اليهُود.

وهكذا نرى أنَّ المسيحيِّين في إمارة حدياب هُم ـ في الأصل ـ من اليهُود المُبعدين إلى المنطقة، ومن الأكراد المُتهوِّدين على يدهم، وقد تنصَّروا على المذهب النّسطوري ـ أيضاً ـ كبقيَّة يهُود منطقة كُردستان، وانتشرت بينهم الآراميَّة الشّرقيَّة.

هذا؛ ويذهب الدُّكتُور غرانت والمُؤرِّخ نيوزنر إلى أنَّ القبائل اليزيديَّة في كُردستان هي كالمسيحيِّين النّساطرة من أحفاد الأسباط العشرة المفقودة اليهُوديَّة.

واليزيديُّون هُم طائفة تنتشر بين أكراد كُردستان وجَبَل سنجار في العراق وشمال شرق سُوريَّة (في الجزيرة السُّوريَّة؛ وبخاصَّة في منطقة عاموده).

وهكذا؛ فاليزيديُّون هُم أكراد كانوا يدينون باليهُوديَّة حسب رأي غرانت، وقد تهوَّدوا على يد يهُود الأسباط العشرة، ثُمَّ تأثَّروا بديانة الفُرْس ـ بعد أنْ سيطروا على المنطقة ـ وهي الزّرادشتيَّة، التي تقول بوُجُود إلهَيْن؛ إله الخير، وهُو إله النُّور، وإله الشَّرّ، وهُو إله الظُّلمة،

(وهُو الشّيطان)، ثُمَّ تأثَّروا بالإسلام بعد الفَتْح الإسلامي، فأصبحتِ اليزيديَّة مزيجاً من هذه المُعتقدات الدِّينيَّة الثّلاث: اليهُوديَّة والزّرادشتيَّة والإسلاميَّة.

والخُلاصة أنَّ الأسباط العشرة الذين نفاهم الآشوريُّون من فلسطين إلى مناطق كُردستان، قد تنصَّرت غالبيَّتهم السّاحقة، ومَنْ تهوَّد من الأكراد على أيديهم، وكانت لُغتهم الآراميَّة والكُرديَّة (لُغة أهل المنطقة)؛ وهُم من النّساطرة، وهُو مذهب مسيحي قديم. أمَّا الذين تحوَّلوا إلى المذهب الكاثوليكي - نتيجة البعثات التّبشيريَّة المسيحيَّة - فهُم يُدعون الآن بالكلدان، ويُقيم قسم منهم في شمال شرق سُوريَّة في مُحافظة الحسكة، وهُم لا يمُتّون بصلة إلى الكلدان الذين كوَّنوا الدّولة الكلدانيَّة في بابل، وكان أعظم مُلُوكهم بختنصر، الذي سبى يهُود مملكة يهُوذا إلى بابل.

وكذلك انتساب النّساطرة إلى الآشوريِّيْن، فهُو حديث العهد، وقد أطلقه عليهم الدُّكتُور غرانت، وهُم لا يمُتُّون إلى الآشوريِّيْن، الذين أسَّسوا الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة بصلة[1].

وهكذا نرى أنَّ أحفاد عشرة أسباط من أسباط اليهُود الاثنَيْ عشر قد ضاعت في جبال كُردستان، وتنصَّرت هُناك، حتَّى أنكرت أُصُولها، فانتمى قسم منها إلى الكلدان، والقسم الآخر إلى الآشوريِّيْن، أو الآثوريِّيْن.

وبعد أنْ تحدَّثنا عن اليهُود الذين تنصَّروا؛ سنتحدَّث - فيما يلي - عن الشُّعُوب التي تهوَّدت في العالم.

(1) مع أنَّني - أثناء وُجُودي بين الآشوريِّيْن، كمُعلِّم (كما أسلفتُ) - لمستُ أنَّهم كانوا يفتخرون بنَسَبهم إلى الآشوريِّيْن، وأظنُّ أنَّهم وجدوا في هذا النَّسَب عزَّة وفخراً لهم، بانتسابهم إلى شعب له تاريخ عريق، وكون أعظم إمبراطُوريَّة في العُصُور القديمة هي الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة وعاصمتها نينوى قُرب الموصل الآن، ولاحظتُ أنَّهم يحفظون أسماء الأباطرة الآشوريِّيْن، ويتحدَّثون عنهم بكُلِّ فخر واعتزاز.

الشُّعُوب التي تهوَّدت في العالم:

أ ـ اليهُود في بلاد اليمن والجزيرة العَرَبيَّة:

لقد انتشرت اليهُوديَّة في الجزيرة العَرَبيَّة، وبخاصَّة في بلاد اليمن؛ حيثُ أصبحت اليمن مركزاً هامّاً من مراكز اليهُود في العالم القديم.

ويرجع انتشار اليهُوديَّة في اليمن إلى القرن الخامس بعد الميلاد؛ حيثُ تهوَّد أحد مُلُوك حمير وهُو المدعو "تبان أسعد أبو كرب"، فقد التقى أثناء غزوه ليثرب (المدينة المُنوَّرة) حبرَيْن من أحبار اليهُود، فأُعجب بما وصفاه له من دينهما، فاتَّبعه، وأخذهما معه إلى اليمن، ودعا قومه إلى الدُّخُول فيه، فأجابوه. وقد ثبت الدِّين اليهُوديّ في اليمن في عهد الملك الحميري "يُوسُف ذي نُوَّاس" في أوائل القرن السّادس الميلادي، وقد أجبر هذا الملكُ المسيحيِّيْن على اعتناق اليهُوديَّة[1].

وقصَّة ذلك هي: أخذت المسيحيَّة بالانتشار في اليمن في عهد الدّولة الحميريَّة (التي امتدَّت من 115 ق. م ـ 525 م)، وبخاصَّة في وادي نجران شمال اليمن، فاتَّخذ الأحباش من نصارى اليمن سَنَداً لهم، واستولوا على اليمن في عام 340 م، غير أنَّ حُكْم الأحباش لم يدم طويلاً في اليمن، فقد استطاع اليمنيُّون إخراجهم منها عام 378 م، وكان لحملة الأحباش لمُساندة المسيحيِّيْن في اليمن ردّ فعْل عند الحميريِّيْن مُلُوك اليمن ضدَّ النّصارى، فلمَّا جاء يُوسُف ذي نُوَّاس 515 ـ 525 م، عزم على اجتثاث المسيحيَّة من اليمن، وفرض على النّصارى تَرْكَ دينهم والتَّهوُّد، فلمَّا أبوا حفر أُخدُوداً، وأشعل فيه النّيران، وأحرقهم بإلقائهم في الأُخدُود، وأحرق الإنجيل، وقد وَرَدَتْ قصَّة إحراق النّصارى في الأُخدُود في سُورة البُرُوج بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ البُرُوج، الآيات 4 ـ 8.

---

(1) د. أحمد سُوسة، "تاريخ العَرَب واليهُود"، ص 686 ـ 687.

غير أنَّ اضطهاد يُوسُف ذي نُوَّاس للمسيحيِّيْن وتعصُّبه لليهُود أثار عليه البيزنطيِّيْن، الذين أوعزوا للأحباش بمُهاجمة اليمن انتصاراً للنّصارى، فقام الأحباش بحملة على اليمن قضت على الدّولة الحميريَّة، ولكنَّ أميراً من الحميريِّيْن وهُو سيف بن ذي يزن استنجد بالفُرْس السّاسانيِّيْن وبملكهم أنوشروان وهُم أعداء البيزنطيِّيْن، الذين أمدّوه بجيش فارسي، استطاع به طَرْدَ الأحباش، واسترداد عرش أجداده باليمن، وتحرَّرت اليمن من حُكْم الأحباش، ولكنَّها وقعتْ في قبضة الفُرْس، حتَّى جاء الإسلام، وأخرج السّاسانيِّيْن الفُرْس منها، وَدَخَلَتْ اليمن في الإسلام، إلاَّ قلَّة من أهلها بقيتْ على دين اليهُوديَّة، وهؤلاء - كما هُو واضح - عَرَب يمنيُّون لا يمُتُّون بصلة إلى ذُرِّيَّة يعقُوب التي يدَّعي اليهُود انتسابهم إليها.

قُلنا - قبل قليل - : إنَّ اليهُوديَّة أخذت بالانتشار في اليمن في القرن الخامس الميلادي، ولكنَّ بعض المُؤرِّخين (وخاصَّة اليهُود منهم) يُرجعون بداية انتشار اليهُوديَّة في اليمن إلى الملك سُلَيْمَان، واتِّصاله بملكة سبأ، حتَّى إنَّ أهل القَصَص والتّفسير يذكرون أنَّ سُلَيْمَان تزوَّج ملكة سبأ عندما قدمت عليه، وأتى منها بولد، ويزعم مُلُوك الحبشة أنَّهم من ذُرِّيَّة سُلَيْمَان من ولده ابن هذه الملكة.

ولكنَّ هذا غير صحيح كما قُلنا في الحديث عن سُلَيْمَان عليه السلام، وقدَّمنا البراهين على خطأ هذا الزّعم، وقُلنا إنَّ سبأ المقصودة التي اتَّصلت ملكتها (أو رئيسة عشيرتها) بسُلَيْمَان عليه السلام هي عشيرة السّبئيِّيْن نسبة إلى شبأ أو (سبأ) بن يقشان بن إبراهيم عليه السّلام من زوجته قطورة. وكانت مساكنها تقع شرق البحر الميِّت، وإنَّه لا يُوجد بين ملكات اليمن في دولة سبأ ملكة باسم "بلقيس"، حتَّى إنَّ تاريخ وُجُود الملك سُلَيْمَان سابق على تاريخ وُجُود دولة سبأ في اليمن بحوالي ثلاثمائة سنة.

لذلك لم يكن دُخُول اليهُوديَّة إلى اليمن إلاَّ في القرن الأوَّل للمسيحيَّة، عندما أخذ الصّراع يشتدُّ بين الدّيانتَيْن للسّيطرة على جنوب الجزيرة العَرَبيَّة.

انتشار اليهُوديَّة في بقيَّة الجزيرة العَرَبيَّة:

أمَّا انتشار اليهُوديَّة في: يثرب وخيبر وتيماء وغيرها من بقاع الجزيرة العَرَبيَّة؛ فقد ذَهَبَ بعض الباحثين إلى أنَّ هؤلاء اليهُود هاجروا إلى الجزيرة العَرَبيَّة في أعقاب حملة الرُّومان

بقيادة "طيطس" على اليهُود في فلسطين، وتدمير هيكلهم، وإجبارهم على الهجرة من فلسطين، وتشتُّتهم في مُختلف أرجاء البلاد المُجاورة، ومنها الجزيرة العَرَبيَّة.

وعلى هذا الأساس؛ يكون اليهُود ـ الذين انتشروا في الجزيرة العَرَبيَّة ـ هُم من بقايا اليهُود الذين هاجروا من فلسطين، وبالتّالي؛ يكون يهُود يثرب وخيبر وتيماء .. إلخ، من قوم مُوسى ومن ذُرِّيَّة يعقُوب عليهما السّلام، وهذا ما يُريده اليهُود، حتَّى يصلوا إلى ادِّعائهم بأنَّ اليهُود قوميَّة واحدة، ومن أصل واحد؛ ليربطوا أُصُولهم بالمنطقة العَرَبيَّة، إلاَّ أنَّ هذا القول يُخالف الواقع، فيهُود الجزيرة العَرَبيَّة هُم من العَرَب المُتهوِّدين؛ لأنَّ اليهُود تحمَّسوا، وحرصوا كُلَّ الحرص على نَشْر دينهم بعد ظُهُور المسيحيَّة، وكانت المُنافسة شديدة بين الدّيانَتَيْن، حتَّى وَصَلَ الأمر إلى العداء الدّامي كما رأينا ذلك قبل قليل في اليمن، وقد استمرَّت المُنافسة على أشدِّها، حتَّى أُغلق باب التّبشير باليهُوديَّة مُنذُ مُنتصف القرن الثّالث عشر الميلادي، في حين أنَّ التّبشير بالمسيحيَّة استمرَّ، ومايزال مُستمراً حتَّى اليوم.

والدُّكتُور أحمد سُوسة يُورد في كتابه "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، صفحة 689، أقوالاً للمُؤرِّخ اليعقُوبي ولياقوت الحموي في مُعجمه تُؤيِّد أنَّ يهُود الجزيرة العَرَبيَّة كانوا من العَرَب المُتهوِّدين، فيقول: « إنَّ المُؤرِّخ اليعقُوبي يُنكر وُجُود طوائف يهُوديَّة في الجزيرة العَرَبيَّة، أصلها من فلسطين قبل عصر الإسلام، ويُؤكِّد أنَّ القبائل اليهُوديَّة فيها كانت من العُنصُر العَرَبيّ الأصيل، ويقول في وقعة بني النّضير: إنَّ نضير هُو فخذ من جذام، إلاَّ أنَّهم تهوَّدوا، ونزلوا بجَبَل يُقال له النّضير، فَسُمّوا به. وفي وقعة بني قُريظة يقول: إنَّ بني قريظة هُم فخذ من جذام أيضاً أُخوة بني النّضير، ويُقال إنَّ تهوُّدهم كان في أيّام عاديا والد السّموءل، ثُمَّ نزلوا بجَبَل يُقال له قُريظة، فَنُسبوا إليه، ويُؤيِّد ياقوت الحموي ذلك في مُعجمه، فيقول: إنَّ يهُود يثرب هُم من القبائل العَرَبيَّة، وقد اعتنقوا اليهُوديَّة ».

ثُمَّ ينقل الدُّكتُور أحمد سُوسة عن ابن قُتيبة والقاضي أبي القاسم الأندلسي أنَّ اليهُوديَّة انتشرت بين قبائل حمير (كما مرَّ معنا)، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وقبيلة كندة في الجزيرة العَرَبيَّة.

لذلك؛ فليس بالمُستطاع تأييد بعض الكُتَّاب الذين اعتبروا أصل يهُود الجزيرة العَرَبيَّة مُرتبطاً بيهُود فلسطين الذي أجلاهم الرُّومان، لأنَّ ذلك يُخالف سُنَّة الطّبيعة: فالهجرة لا تتمّ من البيئة الغنيَّة المُستقرَّة المُتحضِّرة إلى بيئة صحراويَّة فقيرة مثل الجزيرة العَرَبيَّة، بل العكس هُو الصّحيح.

والحقيقة هي أنَّ اليهُوديَّة والمسيحيَّة كانتا تتزاحمان على تهويد أو تنصير القبائل العَرَبيَّة في الجزيرة العَرَبيَّة قبل الإسلام، وقد توجَّه المُبشِّرون من اليهُود والمسيحيِّين نحو الجزيرة العَرَبيَّة؛ لأنَّهم وجدوا أنَّ القبائل العَرَبيَّة في الجزيرة العَرَبيَّة قبل الإسلام كانت مُهيَّئة نَفْسيّاً لتقبُّل فكْرة التّوحيد، لذا؛ كان نشاط المُبشِّرين في جزيرة العَرَب على أشدِّه، حتَّى تمكَّن الأحبار اليهُود من تهويد بعض القبائل العَرَبيَّة، كما استطاع المُبشِّرون المسيحيُّون من تنصير بعض القبائل العَرَبيَّة؛ مثل الغساسنة، والمناذرة، وتغلب، وقضاعة، بالإضافة إلى مسيحيِّيْ نجران[1].

ويُضيف الدُّكتُور أحمد سُوسة قوله: «ومن المُهمِّ ذكْره في هذا الصّدد أنَّ عَرَب الجزيرة العَرَبيَّة المُتهوِّدة لم تلتزم "التّلمود"؛ لأنَّ مُعظم هذه القبائل قد أخذ باليهُوديَّة قبل إنجاز التّلمود، كما أنَّ انعزالهم في الجزيرة العَرَبيَّة قد جَعَلَ الاتِّصال بينهم وبين المدارس التّلموديَّة ـ التي أسَّسها الأحبار في فلسطين، وفي بابل ـ مُتعذَّراً، لذلك؛ فقد وَجَدَ يهُود الجزيرة العَرَبيَّة ـ بعد إجلائهم عنها، وفي عهد عُمَر بن الخطَّاب[2] رضي الله عنه ـ في حَرَكَة "القرَّائين" بزعامة "عنان بن داود" أحد عُلماء اليهُود في العراق ـ والتي تُناهض التّلموديِّين، وتدعو إلى الاكتفاء بالتّوراة ـ ما يتَّفق ومُعتقداتهم.

والقرَّاؤون هُم من الطّوائف اليهُوديَّة التي ترفض الاعتراف بالتّلمود، وترفض الاستعلاء، والتّعاليم المُتزمِّتة التي يدعو إليها التّلمود، فانضمَّ أكثرهم إلى هذه الفرقة[3] (سنتكلَّم عنها بالتّفصيل في الحديث عن مُعتقدات اليهُود).

ويقول الدُّكتُور حسن إبراهيم حسن (في كتابه تاريخ الإسلام، ج1، صفحة 72ـ 73): «انتشرت اليهُوديَّة في الجزيرة العَرَبيَّة قبل ظُهُور الإسلام، ولا سيّما في اليمن، كما انتشرت

---

(1) د. سُوسة، ص 690ـ 691.

(2) طَرَدَهُم عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه، حتَّى لا يجتمع في الجزيرة العَرَبيَّة دينان، وتبقى خالصة للإسلام.

(3) د. أحمد سُوسة، ص 692ـ 693.

في وادي القُرى وخيبر وتيماء ويثرب؛ حيثُ أقامت قبائل بني قُريظة وبني النّضير وبني قينقاع، ويُضيف الدُكتُور حسن إبراهيم نقلاً عن المُؤرِّخ "ندلكه": إنَّ هؤلاء اليهُود كانوا ـ في الأصل ـ من أهالي الجزيرة العَرَبيَّة، ثُمَّ اعتنقوا اليهُوديَّة، وإنَّهم لم يكونوا مُزوَّدين بمعلومات كافية عن التّوحيد، وإنْ كانوا شديدي التّمسُّك بدينهم».

وهكذا انتشرت تعاليم التّوراة في جزيرة العَرَب، وخاصَّة في المناطق التي وُجد فيها اليهُود بكثافة؛ مثل يثرب (المدينة المُنوَّرة)، ولذلك كان أهل يثرب من الأوس والخَزرج أسرع العَرَب إلى قبول الإسلام، فقد عرفوا عن جيرانهم اليهُود أنَّ نبيّاً مبعوثاً قد أظلَّ زمانه، فلمّا ظهر ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ أسرعوا باتّباعه، والإيمان برسالته[1].

عاش اليهُود في جزيرة العَرَب معيشة أهلها، فلبسوا لباسهم، وتكلّموا لُغتهم، ومارسوا أعمالهم وعاداتهم، والتزموا بتقاليدهم، وتصاهروا معهم، فتزوّج اليهُودُ عَرَبيّات، وتزوّج العَرَبُ يهُوديّات، والفرق الوحيد الذي كان بين العَرَب واليهُود في جزيرة العَرَب هُو الاختلاف بالدِّين، إنَّ هذا يُؤكِّد ـ أيضاً ـ أنَّ اليهُود في الجزيرة العَرَبيَّة كانوا عَرَباً مُتهوِّدين، لا يهُود مُهاجرين؛ لأنَّ العصبيَّة العَرَبيَّة في الجاهليَّة كانت تُقيم حاجزاً يحول دُون زواج أيِّ عُنصُر غير عَرَبيّ بالعَرَبيّات كما هُو معروف، ويُؤيِّد الدُكتُور جواد علي ذلك بقوله: «لعلَّ كون اليهُود في جزيرة العَرَب من أصل عَرَبيّ هُو الذي ساعد على تحطيم القُيُود التي تحول دُون زواج اليهُود بالعَرَبيّات، وبالعكس»[2].

ب ـ اليهُود في الحبشة:

كانت العلاقات بين الحبشة (أو إثيوبيا) والجزيرة العَرَبيَّة وثيقة جداً مُنذُ غابر الأزمان، وخاصَّة مع اليمن. وعندما أخذ الصّراع بين النّصرانيَّة واليهُوديَّة ينمو ويشتدُّ في جزيرة

---

(1) راجعْ كتابنا "أضواء على الصّلات بين العُرُوبة والإسلام"، صفحة 17، ودلائل النُّبُوَّة، ج2، ص 75.

(2) كان العَرَب في الجاهليَّة يرفضون تزويج بناتهم من الأعاجم، مهما سما مركزهم، ولو كانوا مُلُوكاً أو أبناء مُلُوك، ويعتبرون ذلك عاراً ومذلَّة، ومن ذلك قصَّة النُّعمان بن المُنذر ملك الحيرة مع ملك الفُرْس "أبرويز" أو ابنه الذي خطب ابنه النُّعمان، فَرَفَضَ تزويجه بها، وكان ذلك سبباً في معركة ذي قار الشّهيرة، حتّى إنَّ أشراف العَرَب كانوا يترفَّعون عن الزّواج بغير العَرَبيّات.

العَرَب عامَّة ـ وفي اليمن خاصَّة ـ انتقل هذا الصّراع إلى الحبشة، ولكنْ؛ كانت الغَلَبة للمسيحيَّة فيها، إلاَّ قلَّة من الأحباش اعتنقوا اليهُوديَّة، ومن بقاياهم الآن يهُود "الفلاشا"، الذين بذل اليهُود في (إسرائيل) جهُوداً كبيرة لنَقْلهم وتَهْجيرهم إلى (إسرائيل)، (وقد ساعد اليهُودَ في ذلك رئيسُ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الأسبق جيمي كارتر)، والفلاشا يختلفون عن اليهُود العاديِّيْن في بعض المُعتقدات، وخاصَّة فيما يتعلَّق بالتّلمود وشرُوحه.

ج ـ اليهُود في شمال أفريقيا:

مرَّ معنا ـ أثناء الحديث عن تاريخ اليهُود ـ أنَّ "طيطس" احتلَّ القُدس، ودمَّرها عام 70م، بعد ثورة قام بها اليهُود هُناك، وحرَّم عليهم دُخُول القُدس، واستمرَّ التّحريم نافذاً قرنَيْن من الزّمان، وأنَّ اليهُود تشتَّتوا في أرجاء الإمبراطُوريَّتَيْن الرُّومانيَّة والفارسيَّة.

ومن البلاد التي انتشر فيها اليهُود أقطار شمال أفريقيا وخاصَّة ليبيا؛ حيثُ كوَّنوا جالية كبيرة شاركت في الانتفاضة اليهُوديَّة الكُبرى ضدَّ الرُّومان، والتي امتدَّت بين الجاليات اليهُوديَّة من ليبيا إلى الفُرات في عهد الإمبراطُور "هدريان"، وقضى عليها قائده جُوليُوس سيفريوس عام 137م، الذي زاد من تشتيت اليهُود، والانتقام منهم، وخاصَّة يهُود فلسطين، وحوَّل القُدس إلى مدينة رُومانيَّة.

انتشر اليهُود في شمال أفريقيا، وهُناك بشَّروا بديانتهم، ونشطوا بذلك، وتمكَّنوا من تهويد بعض القبائل البربريَّة، ويقول ابن خلدون في تاريخه: إنَّ اليهُوديَّة انتشرت في المغرب العَرَبيّ قبل الإسلام، وأخذت بعض قبائل البربر بدين اليهُود مثل: قبيلة جرادة التي سكنت جبال الأوراس، وقبائل أُخرى هي: نفُّوسة، قندلاوة، مديونة، بهلولة، غياثة، بنو بازار.[1]

ثُمَّ إنَّ هذه القبائل البربريَّة المُتهوِّدة دَخَلَ بعضها في الإسلام بعد الفُتُوحات الإسلاميَّة العَرَبيَّة في المغرب العَرَبيّ، واعتناق البربر بشكل جماعي الإسلام. ومن البديهي أنْ ينتقل بعض اليهُود البربر إلى الأندلس بعد فَتْحها؛ حيثُ امتزجوا هُناك باليهُود الإسبان، وباليهُود القادمين إلى إسبانيا من أُورُوبا ليتمتَّعوا بالحُرِّيَّة والعدالة والمُساواة والأمان التي يُحقِّقها الإسلام لرعاياه، وخُصُوصاً إذا كانوا أهل كتاب (كالمسيحيِّيْن واليهُود).

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 691.

وهكذا عاش اليهُود في الأندلس عصرهم الذّهبي، في ظلِّ دُول العَرَب المُسلمين؛ حيثُ أُعطوا من الحُرِّيَّات والأمان ما لم يحلموا به في ظلِّ أيِّ دولة غير عَرَبيَّة، أو غير إسلاميَّة.[1]

ويهُود الأندلس هُم اليهُود "السّفارديم" أو الشّرقيُّون، الذين سنتحدَّث عنهم بالتّفصيل عندما نتحدَّث عن أقسام اليهُود. والذي أُريد أنْ ألفتَ الانتباه إليه هُو أنَّ يهُود الأندلس - وإسبانيا عامَّة - خُيِّروا كالمُسلمين؛ إمَّا بالتَّنصُّر أو الرّحيل، وذلك عندما احتلَّ الإسبان آخر معقل للعَرَب المُسلمين في الأندلس، وهُو غرناطة عام 1492م؛ حيثُ كانت دولة بني الأحمر.

وخرج اليهُود مع العَرَب المُسلمين، واستقرَّ قسم منهم في بلاد المغرب العَرَبيّ؛ وخاصَّة في مراكش (المملكة المغربيَّة الآن)؛ حيثُ شكَّلوا أكبر جالية يهُوديَّة في الوطن العَرَبيّ وَصَلَ تعدادها إلى رُبع مليون نسمة[2].

والقسم الآخر وَجَدَ الملجأ الآمن والحُرِّيَّة الكاملة في الدّولة العُثمانيَّة، فهاجر إليها؛ حيثُ وَجَدَ التّرحيب والاستقبال الحَسَنَ، وتمركز مُعظمهم في سالونيك وإزمير والعاصمة استانبول، (وقد تحدَّثنا عنهم عندما تحدَّثنا عن اليهُود في الدّولة العُثمانيَّة).

د - اليهُود الألمان "الأشكناز":

كانت ألمانيا في العُصُور القديمة (وهي تُشكِّل مُعظم وسط القارَّة الأُورُوبيَّة) تخضع للسّيادة الرُّومانيَّة. وعندما ظهرت المسيحيَّة، وبدأت تنتشر في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، دَخَلَتْ مع اليهُوديَّة في سباق لكَسْب الألمان إلى صُفُوفهما، فتهوَّد قسم من الألمان؛ وهُم الذين أُطلق عليهم اسم اليهُود "الأشكناز"، ومعناها اليهُوديَّة الحديثة، وكانت هذه التّسمية تُطلق على اليهُود الألمان - فقط - في القُرُون الوُسْطَى.

---

(1) للتَّوسُّع والاستزادة في موضوع مُناهضة اليهُوديَّة، أو مُناهضة السَّاميَّة؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ (مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها) للفرنسي برنار لازار، ترجمة د. ماري شهرستان، دارالأوائل، ط1، 2004، ؛ حيثُ يُبرز المُؤلِّف الأسباب - من وُجهة نَظَره - للاضطهاد والكُره اللَّذَيْن واجههما اليهُود في العالم كُلِّه، وقد حاول المُؤلِّف - وهُو يهُودي - أنْ يُصوِّر اليهُود على أنَّهم مُضطَهَدُون، رغم أنَّه قال إنَّ كتابته ستكون علميَّة وبتجرُّد، لكنَّ المُتتبِّع للكتاب سيظهر له هوى المُؤلِّف اليهُودي مع اليهُود.

(2) وحتَّى الآن؛ مايزال اليهُود في المملكة المغربيَّة يصل تعدادهم إلى أكثر من 100 ألف نسمة، ويشغل بعضهم مراكز حسَّاسة في المملكة، وكذلك اليهُود المغاربة في (إسرائيل) لهم وزنهم بين يهُود (إسرائيل).

وقد انتشر اليهُود الألمان شرقاً وغرباً، وكانت لُغتهم "اليديش" أو "الإيدش" مُؤلَّفة من مزيج من اللُّغة الألمانيَّة المُستعملة في القُرُون الوُسْطَى واللُّغة الآراميَّة لُغة اليهُود ولُغة التّوراة، وكانت تُكتَبُ بالحُرُوف الآراميَّة، فقد اقتبس اليهُود الألمان الدِّين اليهُوديّ والكتابة بالحُرُوف الآراميَّة معاً؛ إذْ لم تكن للألمانيَّة كتابة وقت اعتناق الألمان للدِّين اليهُوديّ.

قُلنا: إنَّ "الأشكناز" هُم - في الأصل - اليهُود الألمان، ثُمَّ أصبحت التّسمية تُطلق على يهُود أُورُوبا جميعاً. أمَّا "السّفارديم"؛ فأُطلقت على اليهُود من أصل إسباني، أمَّا اليهُود الشّرقيُّون؛ فهُم اليهُود الذين انتشروا في العراق وإيران وأفغانستان ومصر، حتَّى شمال أفريقيا، وقد تكلَّموا بلُغات البلاد التي عاشوا فيها.

واليهُود الألمان يُشكِّلون نسبة كبيرة بين يهُود العالم، وقد تلاقوا في أُورُوبا الشّرقيَّة مع اليهُود الخَزَر، وامتزجوا بهم، وتعاونوا معهم. وقد هاجر قسم كبير من اليهُود الألمان إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، ولكنَّ الهجرة الضّخمة وبأعداد كبيرة حَدَثَتْ بين عام 1937 - 1939م، بعد قيام النّازيِّين الألمان بزعامة "هتْلَر" باستلام الحُكْم في ألمانيا، وإظهارهم العداء لليهُود، واعتبار موقفهم المُؤيِّد للحُلفاء سبباً هامّاً في خسارة ألمانيا الحرب العالميَّة الأُولى[1]. وكانت هذه الهجرة مُوجَّهة إلى فلسطين؛ حيثُ دَخَلَها في هذه الفترة حوالي 300 ألف يهُودي من ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى.

ويظهر أنَّ اليهُود الألمان كانوا ممقوتين من الشّعب الألماني (شأنهم في كُلِّ مكان يعيشون فيه) حتَّى قبل النّازيَّة، وفيهم يقول المُصلح الدِّيني الألماني "لُوثر **Luther**" الذي أسَّس المذهب البرُوتستانتي المسيحي «أيقنتُ أنَّ اليهُود أُناس غُلاظ الأكباد، قُساة القلب، انحرفوا عن شريعة مُوسى عليه السلام، وزوَّروا كُتُبَهُ وأقواله، أمَّا معابدهم؛ فما هي إلاَّ مواخير للفُسق والفُجُور، فيجب علينا إحراق كُتُبهم المُزوَّرة، وتدمير معابدهم القذرة، لنُنقذ شعبنا من خطرها. فلو عاد مُوسى عليه السلام للحياة؛ لأَمَرَ بنفسه بحَرْقها، وإزالتها من الوُجُود.. واليهُود لا يهمُّهم إلاَّ النَّهْب والسَّلْب، وهُم وُحُوش ضارية، وأفاع سامَّة، يجبُ مطاردتهم حيثُما

---

(1) فاليهُود حرَّضوا الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة على دُخُول الحرب العالميَّة الأُولى إلى جانب الحُلفاء، وبدُخُولها عام 1917، رجحتْ كفَّة الحُلفاء، وانتصروا على الألمان، وقد كافأتْهُم بريطانيا بوعد بلفور عام 1917.

كانوا، والقضاء عليهم كما يُقضى على الكلاب المسعورة»[1]. واليهُود الألمان واليهُود الخَزَر الذين انتشروا (كما سيمرُّ معنا) في رُوسيا وبُولُونيا والمجر ورُومانيا هُم سادة (إسرائيل) الآن، والذين بيدهم الحلُّ والرّبط، ثُمَّ يأتي اليهُود السّفارديم، وأخيراً؛ في قاعدة السُّلَّم الطّبَقي يأتي اليهُود الشّرقيُّون.

هـ - يهُود الخَزَر:

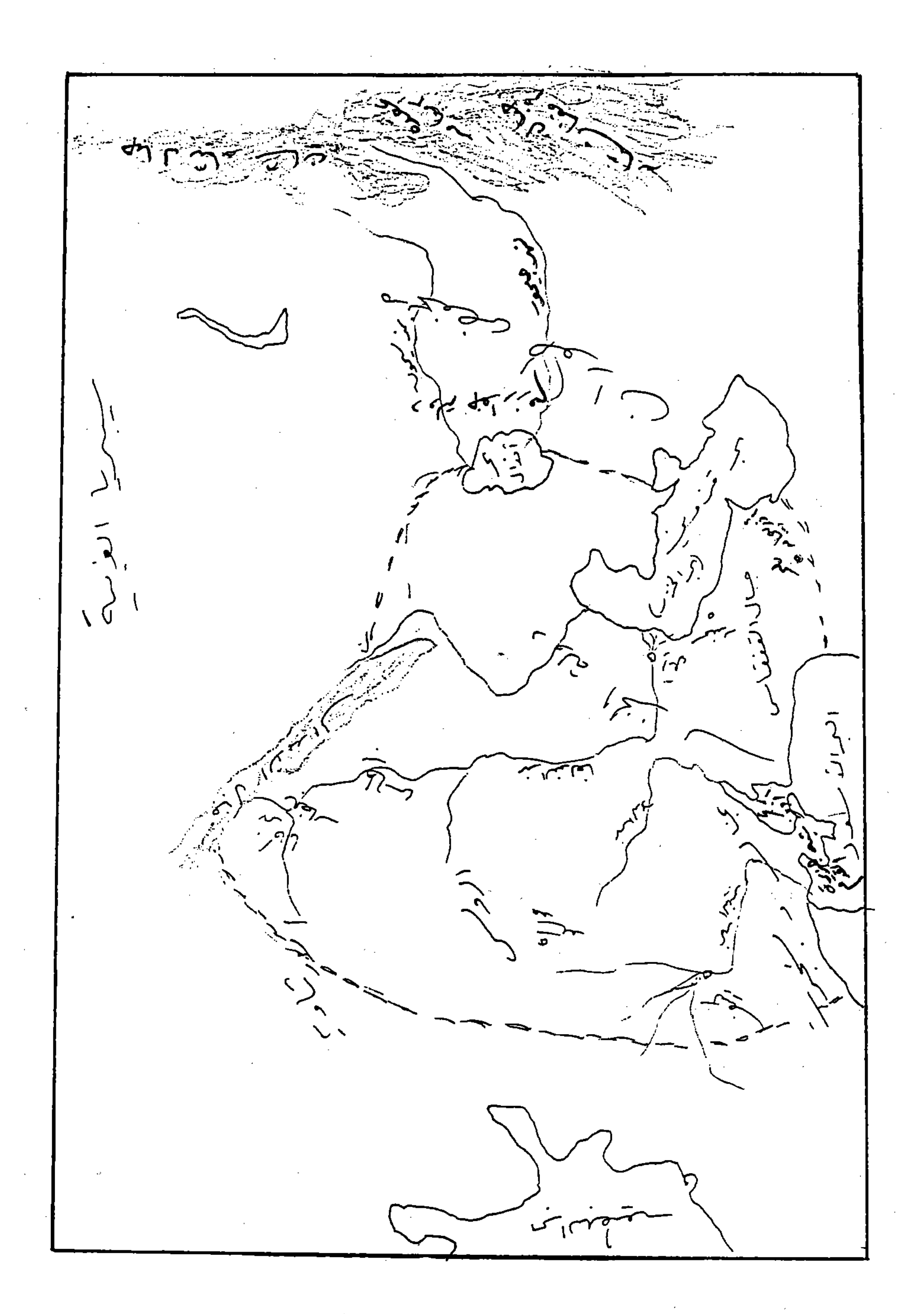
الخَزَر في الأصل هُم من الأتراك، استقرّوا في حوض الفُولغا الأدنى، قُرب مصبِّه في بحر قزوين، وعُرفت هذه المنطقة ببلاد الخَزَر. كان الخَزَر - في أوّل أمرهم - جُزءاً من الأتراك الغربيّيْن، ويخضعون لهم، وبدأ ظُهُور الخَزَر في نصف القرن السّادس الميلادي الثّاني، وفي النّصف الأوّل من القرن السّابع أخذوا يتمتّعون بالاستقلال الكامل عن الأتراك الغربيّيْن[2]، وكوّنوا إمبراطُوريّة لهم.

ازدهرت إمبراطُوريّة الخَزَر، وأصبح لها وزن كبير في المنطقة خلال القرن التّاسع الميلادي، وامتدّت على مساحات واسعة في شرق قارّة أُورُوبا وغرب قارّة آسيا، وفي أقصى اتِّساع لها امتدّت من غرب مدينة "كييف" (في جُمهُوريّة أوكرانيا) ونهر الدّنيبر في الغرب إلى نهر جيحون في الشّرق، ومن مدينة بلغار على نهر الفُولغا في الشّمال إلى جبال القفقاس في الجنوب (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 15). كانت شُعُوب هذه الإمبراطُوريّة تتألّف من شُعُوب القفقاس في الجنوب، والتُّرك في الشّرق، والسّلاف في الغرب، والشّمال (الرُّوس)، بالإضافة إلى البلغار في أقصى الشّمال على نهر الفُولغا. وكانت هذه الإمبراطُوريّة مركز التقاء الشُّعُوب الصّفراء القادمة من الشّرق من مغول وتتار وتُرك والشُّعُوب البيضاء في الغرب والشّمال، وأغلبها من السّلاف وسُكّان القُوقاز من (شركس وشاشان وداغستان)، بالإضافة إلى الأرمن، والجيُورجيِّين، والأكراد، والفُرْس في الجنوب.

---

(1) المُفسدون في الأرض، سُلَيْمَان ناجي، ص 273.

(2) الأتراك الغربيُّون: هُم سُكّان مُنخفض طوران أو بلاد ما وراء النّهر كما سمّاها العَرَب المُسلمون، أو بلاد تركستان الغربيّة، ويفصلها عن تركستان الشّرقيّة التّابعة للصّين سلاسل جبال تيان شان وألطاي. وكانت تركستان الغربيّة تُشكّل جُزءاً من الاتّحاد السُّوفياتي (سابقاً)، ويشغلها - الآن - أربع جُمهُوريّات إسلاميّة: وهي جُمهُوريّة أُوزبكستان، وجُمهُوريّة تركمانستان، وقرغيزيا، وطادجيكستان، وأهمُّها أُوزبكستان، وعاصمتها "طشقند".



مُصوَّر رَقْم (15)

___ حدود الإمبراطُوريَّة الخَزَريَّة اليهُوديَّة

وهكذا نرى أنَّ دولة الخَزَر التُّركيَّة الأصل كانت بوتقة انصهرت فيها واختلطت شُعُوب عديدة؛ آسيويَّة وأُورُوبيَّة، صفراء وبيضاء، مع بقاء الحُكْم والسِّيادة بيد الخَزَر الذين أنشؤوا هذه الدّولة، وكانت عاصمتها مدينة "إتل، أو أتل، أو أتيل"، على نهر الفُولغا الأدنى قبل مصبِّه في بحر قزوين (انظر المُصوَّر رَقْم 15 ص 284)، وكانت أتيل تمتدُّ على ضفَّتَيْ النّهر، وقد وصفها الرَّحَّالة والمُؤرِّخون العَرَب المُسلمون وصفاً دقيقاً كما سنرى.

تهوُّد الخَزَر:

لا يُوجد بالعَرَبيَّة رواية واحدة مشهورة مُعتمَدَة حول تهوُّد الخَزَر، وربَّما كانت أكثر الرّوايات شُهرة وتفصيلاً هي رواية المسعودي في كتابه (مُرُوج الذّهب) (بدأ تصنيفه من 943-947م، 332-336 هـ) يقول المسعودي: «وفي هذه المدينة (يعني أتلّ عاصمة الخَزَر على نهر الفُولغا) خَلْقٌ من المُسلمين والنّصارى واليهُود والجاهليَّة (أيْ الوثَنيِّيْن)، فأمَّا اليهُود؛ فالملك وحاشيته من الخَزَر، وكان تهوُّد الخَزَر في خلافة هارُون الرّشيد، وقد انضاف إليه خَلْقٌ من اليهُود، وَرَدُوا عليه من سائر أمصار المُسلمين، ومن بلاد الرُّوم، وذلك أنَّ ملك الرُّوم في وقتنا هذا 332 هـ-943 م؛ وهُو "أرمنوس" (يعني رُومانوس ليكابيوس) نقل مَنْ كان في مُلكه من اليهُود إلى دين النّصرانيَّة، وأكْرَهَهُم على ذلك.. فتهارب خَلْقٌ من اليهُود من أرض الرُّوم إلى أرضه على ما وصفناه»[1].

وجاء في كتاب "صُورة الأرض" للدّمشقي 727هـ 1327م، ما يلي: «ما حكاه ابن الأثير أنَّ صاحب قسطنطينيَّة أيَّام هارُون الرّشيد أجلى مَنْ كان في مملكته من اليهُود، فقصدوا بلد الخَزَر، فوجدوا قوماً عُقلاء ساذجين، فعرضوا عليهم دينهم، فوجدوه -أيْ دين اليهُود- أصلح ممَّا هُم عليه، فانقادوا إليهم»[2].

ويقول "بيوري" عن تهوُّد الخَزَر: «إنَّ الحاكم كان مُتأثِّراً بدوافع سياسيَّة فيما اعتنق اليهُوديَّة، كذلك يُعزى تهوُّد الخَزَر -أو بالأحرى أوساطهم الحاكمة- إلى هَرَب يهُود اليُونان

(1) تاريخ الخَزَر، د. م. دنلوب، ترجمة د. سُهيل زكّار، ص 135.

(2) تاريخ الخَزَر، د. م. دنلوب، ترجمة د. سُهيل زكّار، ص 136.

(أو الرُّوم) ولُجُوئهم إلى بلاد الخَزَر، نتيجة للاضطهاد (اضطهاد أباطرة الرُّوم البيزنطيِّيْن لليهُود). ولَمَّا كان الفارُون أبناء حضارة رفيعة، فقد كان لهم تأثير كبير على البلاد، وعلى الصّفوة من النُّبلاء». ويُضيف بيوري: «إنَّه لَمَّا كانت اليهُوديَّة عقيدة مُحترمة لها كُتُبُها المُقَدَّسة التي يعترف بها كُلٌّ من المُسلمين والمسيحيِّيْن، وأنَّ اعتناقها قد رفع ملك الخَزَر فوق مصافِّ البرابرة الوَثَنِيِّيْن، وكفل له الأمن من تدخُّل الخليفة المُسلم والإمبراطُور البيزنطي المسيحي». أمَّا عن صدق التَّهوُّد؛ فيقول بيوري: «إنَّ ملك الخَزَر لم يُقرّ تعصُّب الدّيانة اليهُوديَّة، ولا شريعة الختان اليهُوديَّة، وسمح لسواد شعبه أنْ يظلّوا على وَثَنِيَّتهم، وأنْ يُقدِّسوا أصنامهم»[1].

ويروي البكري الأندلسي 487هـ - 1094م، أنَّ السّبب في تحوُّل الخَزَر إلى اليهُوديَّة هُو أنَّ ملك الخَزَر تحدَّث مع أحد وُلاته حول الهمِّ الذي شغل خاطره حول الدِّين الذي يكون عليه، فقال له الوالي: أيُّها الملك؛ إنَّ أهل الكتاب يُشكِّلون ثلاث جماعات، ادْعُهم، واسألهم، ثُمَّ اتبع الذي يملك الصّدق أكثر من سواه. وهكذا طَلَبَ من المسيحيِّيْن أنْ يبعثوا إليه بأُسقُف من عندهم، وسار معه يهُودي بارع في الجَدَل، تناظر مع الأُسقُف، وسأله: ماذا تقول عن مُوسى بن عُمران، والتّوراة التي أُنزلتْ عليه؟ وأجاب الأُسقُف: مُوسى كان نبيّاً، والتّوراة صحيحة، وهُنا قال اليهُوديّ للملك: لقد أَقَرَّ بصحَّة عقيدتي. وسأل الملك الأُسقُف عن عقيدته، فقال: المسيح عيسى بن مريم هُو الكَلمة، وقد أصبح هذا معروفاً باسم "الرَّبِّ". وعند ذلك قال اليهُوديّ مُخاطباً ملك الخَزَر: إنَّه يُؤمن بعقيدة لا أعرفها، وذلك بالوقت الذي يُقرُّ فيه بما عرضْتُهُ (من عقيدتي)، ولقد كان الأُسقُف ضعيفاً في عرض حُجَجه، ثُمَّ استدعى المُسلمين، فبعثوا له برجل عالم وذكي بفقه المُناظرة، ولكنَّ اليهُوديّ اكترى مَنْ قام بدَسِّ السُّمِّ له وهُو في طريقه إلى ملك الخَزَر[2].

إنَّ مُحتوى القصَّة يُفيدنا بقيام مُناظرة دينيَّة قبل تحوُّل الخَزَر إلى اليهُوديَّة.

(1) الظُّرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة، هشام الدُّجاني، ص 20 - 21.

(2) تاريخ الخَزَر، د. م. دنلوب، ترجمة د. سُهيل زكَّار، ص 136.

ونستنتج - أيضاً ممَّا سَبَقَ - أنَّ دولة الخَزَر كانت - في أوَّل أمرها - دولة وَثَنِيَّة بدائيَّة، ثُمَّ تهوَّدت الطَّبقة الحاكمة فيها، ولكنَّها لم تكن مُتعصِّبة لليهُوديَّة، وأنَّها أعطت الحُرِّيَّة الكاملة للشُّعُوب الخاضعة لها باعتناق ما تُريده من الدِّين؛ سواء كان أحد الأديان السَّماويَّة الثَّلاث اليهُوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، أو البقاء على الوَثَنِيَّة لِمَنْ اختار ذلك. ولكنْ؛ كما يقول المثل (النّاس على دين مُلُوكهم) فإنَّ اليهُوديَّة أخذت بالانتشار في دولة الخَزَر، واكتساب أتباع جُدُد، وخاصَّة بين الذين لا يزالون على الوَثَنِيَّة، هذا؛ بالإضافة لِمَنْ هاجر إليها من يهُود الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة نتيجة الاضطهاد والإكراه على التَّنصُّر، أو من يهُود الخلافة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وذلك للالتحاق بدولة تدين باليهُوديَّة، لِمُساعدتها، والتَّمتُّع بحمايتها، وتقويتها، للوُقُوف أمام عدوِّ اليهُود اللّدود الدّولة البيزنطيَّة زعيمة الكَنيسة الأرثُوذُكسيَّة الشّرقيَّة، التي كان اليهُود يُكنُّون لها وللكَنيسة الأرثُوذُكسيَّة كُلَّ الكراهية والمَقْت أكثر من الكَنيسة الكاثُوليكيَّة الغربيَّة التي يتزعَّمها "البابا" في رُوما.

ومن أشهر الرّوايات العَرَبيَّة التي تحدَّثت عن دولة الخَزَر اليهُوديَّة هي رواية ابن فضلان، ثُمَّ رواية الاصطخري، وقد أخذ عنهما مَنْ تلاهما من المُؤرِّخين العَرَب، ونظراً لأهمِّيَّة هاتَيْن الرّوايتَيْن سنذكر شيئاً ممَّا وَرَدَ فيهما، لما في ذلك من الأهمِّيَّة الفائقة في التّعريف بدولة الخَزَر اليهُوديَّة.

رواية ابن فضلان عن يهُود الخَزَر:

ابن فضلان رحَّالة عَرَبيّ أوفده الخليفة العبَّاسي المُقتدر بالله سنة 309 هـ - 921 م في بعثة إلى ملك البلغار على نهر الفُولغا (انظر المُصوَّر رَقْم 15 ص 284)، وفي طريق عودته؛ مرَّ بمملكة الخَزَر وبعاصمتها "إتل"، ووصف ما شاهده في تلك البلاد وصفاً دقيقاً من النّاحية الجَغرافيَّة والمناخيَّة والنّباتيَّة وشُعُوبها وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعيَّة ودياناتهم.. إلخ. نأخذ منها ما يتعلَّق بدولة الخَزَر واليهُوديَّة فيها: «الخَزَر اسم مملكة، وأتيل العاصمة، وهي قطعتان: واحدة غربي النّهر، وهي أكبرها، وقطعة شرقيَّة، والملك يسكن القطعة الغربيَّة، وقصر الملك بعيد عن شطِّ النّهر، وقصره من الآجرّ، وليس لأحد بناء من آجر غيره.. وملكهم يهُودي،

ويُقال إنَّ له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل . . والخَزَر وملكهم كُلُّهم يهُود، وكـان الصّقالبة (الرُّوس) وكُلُّ مَنْ جاورهم في طاعته، ويُخاطبهم بالعُبُوديَّة، ويدينون له بالطّاعة »[1] .

أمَّا عن انتشار الإسلام في دولة الخَزَر؛ فيقول ابن فضلان «وعلى المُسلمين رجل من غلمان الملك يُقال له "خز"، وهُو مُسلم، وأحكام المُسلمين المُقيمين في بلد الخَزَر والمُختلفين إليها في التّجارات مردود على ذلك الغُلام، لا ينظر في أُمُورهم، ولا يقضي بينهم غيره».

ويُتابع ابن فضلان قوله حول المُسلمين في دولة الخَزَر: « وللمُسلمين في هذه المدينة "إتـل" مسجد جامع يُصلُّون فيه، ويحضرون فيه أيَّام الجُمع، وفيه منارة عالية، وعدَّة مُؤذِّنين ».

رواية الاصطخري عن يهُود الخَزَر:

أمَّا رواية الاصطخري الهامَّة جداً ـ والتي كُتبت حوالي 320هـ ـ 932م ـ ؛ فقد أخذ عنه الذين جاؤوا بعده، واعتمدوا عليه مثل: ابن حوقل، وياقوت الحموي . . إلخ .

وفيما يلي بعض ما جاء في رواية الاصطخري: « وأمَّا الخَزَر؛ فإنَّه اسم الإقليم، وقصبته تُسمَّى "إتل"، وتقع على نهر إتل (الفُولغا الآن). وإتل قطعتان: قطعة غربي النّهر، وهي أكبرها، وقطعة على شرقيه، والملك يسكن في الغربيَّة، ويُحيط بها سُور، وأبنيتهم خركاهات لبود (أيْ أكواخ من خشب مكسوَّة باللّبَّاد من الدّاخل) إلاَّ شيئاً يسيراً من الطّين. ولهم أسواق وحمَّامات، وفيها خَلْقٌ من المُسلمين، ولهم حوالي 30 مسجداً . . وقصر الملك بعيد عن الشّاطئ، وهُو من الآجرِّ، وليس لأحد أنْ يبني من الآجرِّ غيره (كما روى ابن فضلان) . . وملكهم يهُودي يُقال إنَّ حاشيته نحو أربعة آلاف . . والخَزَر مُسلمون ونصارى ويهُود، وفيهم عَبَدَةُ أوثان، وأقلُّ الفرَق اليهُود، وأكثرهم المُسلمون والنّصارى، إلاَّ أنَّ الملك وخاصَّته يهُود ».

« والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان؛ حيثُ يسجد بعضهم لبعض عند التّعظيم، وأحكام خُصُّوا بها على رُسُوم قديمة مُخالفة لدين الإسلام واليهُود والنّصارى ».

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 684 ـ 695 .

ثُمَّ يذكر جيش الملك، وأبواب ماله، وعلاقته برعيَّته، ويتحدَّث عن النّصف الشّرقي من المدينة إتل العاصمة، فيقول: إنَّه مُخصَّص للمتاجر والتّجارة، أمَّا النّصف الغربيّ؛ فهُو خالص للملك وحاشيته وجُنده والخَزَر الخُلَّص، ثُمَّ يتحدَّث عن نهر "إتل" الفُولغا من بدايته إلى مصبِّه في بحر قزوين، ذاكراً غزارته وتجمُّده في فصل الشّتاء، والأُمم التي يمرُّ بها.

ويذكر مدينة "سمندر" وموقعها (المُصوَّر رَقْم 15 ص 284) وحاكمها اليهُوديّ المُعيَّن من قبَل ملك الخَزَر، ويصف بساتينها وبيُوتها والمُسلمين فيها.

ويصف الخَزَر فيقول: «والخَزَر لا يُشبهون الأتراك، وهُم صنفان: صنف يُسمّون قره خَزَر، وهُم سُمر كأنَّهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهر الحسن والجمال ورقيق. الخَزَر هُم من أهل الأوثان، الذين يستجيزون بَيْع أولادهم، واسترقاق بعضهم بعضاً»، ثُمَّ يقول: «وأمَّا سياستهم وأمر المملكة؛ فإنَّ عظيمهم يُسمَّى "خاقان خَزَر"، وهُو أجلُّ من ملك الخَزَر؛ لأنَّ ملك الخَزَر يُقيمه خاقان الخَزَر»، ويتحدَّث عن كيفيَّة انتخاب خاقان الخَزَر وأحواله ومسكنه.

ويتحدَّث بالتّفصيل عن الشُّعُوب المُجاورة لمملكة الخَزَر، فيتحدَّث عن البلغار والبرطاس والبنجاك (بشناق) والبشجرت (انظر المُصوَّر لبيان مواقعهم على المُصوَّر رَقْم 15 ص 284)، ويذكر مساكنهم والظُّرُوف المناخيَّة في بلادهم، وإنتاجهم، وما يتجرون به، ويذكر أنَّهم من الأتراك.

ويتحدَّث عن الرُّوس، ويُقسِّمهم إلى ثلاثة أصناف: رُوس كويابه (كييف الآن، وهي عاصمة أُوكرانيا)، والصّلاوية (أيْ السّلاف، أو الرُّوس الحُمر، شمال مُوسكُو، وحولها)، والأرثاويَّة، وهُم في أقصى الشّمال الغربيّ، ولا يقبلون في بلادهم الغُرباء، والذي يصل إليهم من الغُرباء يقتلونه، ويذكر تجارتهم وإنتاجهم والغابات التي يعيشون فيها، وهُم من الوَثَنِيِّين (وهذا قبل تنصرُّهم)، وأنَّهم يحرقون موتاهم، و المُوسرون منهم تُحرق معهم جواريهم عن طيب خاطر، ويذكر أنَّ الرُّوس كثيرو العدد، شديدو البأس»[1].

---

(1) المرجع بالنّسبة لرواية ابن فضلان ورواية الاصطخري: دولة الخَزَر، د. م. دنلوب، ترجمة الدُّكتُور سُهيل زكّار، ص 137 ـ 163.

هذه هي رواية الاصطخري عن بلاد الخَزَر، وما حولها من الأقطار، وهي - بلا شَكٍّ - من أهمِّ الرّوايات التي وصلتْنا عن أخبار دولة الخَزَر، وأحوالها، وما جاورها من الأصقاع النّائية القريبة من القطب الشّمالي ذات البرد القارص، والغابات الهائلة، والفُرُوق الكبيرة بين طُول اللّيل والنّهار، ممَّا لا يألفه العَرَب في بلادهم، وما لم يجدوه في فُتُوحاتهم شرقاً وغرباً، وهُو يقول حول طُول اللّيل والنّهار: «وأخبرني الخطيب (إمام المسجد في بلاد البلغار) أنَّ اللّيل عندهم لا يتهيَّأ أنَّ يسير فيه الإنسان أكثر من فرسخ في الصّيف، وفي الشّتاء يقصر النّهار، ويطُول اللّيل، حتَّى يكون نهار الشّتاء مثل ليالي الصّيف».

ونستطيع أنْ نستنتج من هذه الرّواية الطّريفة الحقائق التّالية:

1: أنَّ الطّبقة الحاكمة وحاشيتها في دولة الخَزَر كانت من اليهُود.

2: أنَّ المسيحيَّة كانت مُنتشرة في تلك الأصقاع، وخُصُوصاً المُتاخمة لدولة الرُّوم البيزنطيَّة حول البحر الأسود وجنوب القفقاس.

3: أنَّ الإسلام كان - أيضاً - مُنتشراً في تلك البلاد النّائية عن طريق الدُّعاة والمُبشِّرين بالإسلام، وعن طريق التُّجَّار المُسلمين، وليس عن طريق الفتح.

4: كانت هُناك نسبة كبيرة من السُّكَّان لا تزال على الوَثَنيَّة، فالدّولة الخَزَريَّة - بالأساس - كانت وَثَنيَّة، ثُمَّ تهوَّد حكَّامها كما رأينا، ثُمَّ أخذت اليهُوديَّة تنتشر وتتغلغل بين هؤلاء الوَثَنيِّين، ولا نستبعد مُساعدة الحُكَّام المُتهوِّدين على تغلغل اليهُوديَّة بين سُكَّان الدّولة الخَزَريَّة، لا سيّما وأنَّ اليهُود المُهاجرين من الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة الأرثُوذُكسيَّة هَرَباً من الاضطهاد والتّنصير الإجباري، كان يهمُّهم تهويد هؤلاء الوَثَنيِّين؛ لتقوى دولة الخَزَر اليهُوديَّة، وتُصبح قادرة على الانتقام لهم من عدوِّتهم اللّدودة الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة الرُّوميَّة، لذلك كانوا ينشرون اليهُوديَّة بينهم بكُلِّ همَّة ونشاط، وبكُلِّ وسائل الإغراء. ولا شَكَّ في أنَّ مُلُوك الخَزَر اليهُود كانوا ينظرون إلى هذا التّبشير باليهُوديَّة بكُلِّ الرّضا والارتياح.

والأُستاذ سُلَيْمَان ناجي في كتابه "المُفسدون في الأرض"[1] يُؤكِّد أنَّ أُمراء الخَزَر المُتهوِّدين كانوا يفرضون المُوسويَّة (اليهُوديَّة) على أتباعهم بالقُوَّة، بل كان اليهُود يحلمون بتهويد الرُّوس جميعاً (قبل تنصُّرهم) وإنشاء إمبراطُوريَّة يهُوديَّة في شرق أُورُوبا.

(1) المُفسدون في الأرض، سُلَيْمَان ناجي، ص 223 - 224.

وفيما يلي رأي الأُستاذ ناجي؛ حيثُ يقول: «ولمّا ظهر الإسلام في النّصف الثّاني من القرن السّادس الميلادي، وانهمكت المسيحيَّة في مُحاربته، استفاد اليهُود من هذا الظّرف، وعمد مجلسهم الأعلى (السّنهندرين) إلى توجيههم وُجهة جديدة، وهي أنَّ يتسلَّلوا إلى المناطق التي كانت بعيدة عن النُّفُوذ المسيحي، ولا يزال أهلها وَثَنِيِّين، ليعملوا على تهويدهم، لتُصبح لهم في المُستقبل مركزاً للانطلاق لمُحاربة المسيحيَّة والإسلام معاً، فبادر اليهُود إلى تنفيذ مُخطَّطهم الجديد، فزحف يهُود اليُونان وأُورُوبا الوُسْطَى إلى المناطق السّلافيَّة الشّرقيَّة (رُوسيا وأُوكرانيا الآن) والتي كانت لا تزال على الفطْرة والوَثَنيَّة، بينما تسلَّل يهُود فارس إلى البلاد الواقعة شمال وشمال غرب بحر قزوين (بحر الخَزَر)، وكانت - أيضاً - لا تزال على الوَثَنيَّة. وبدأ الجميع بالتّبشير والدّعوة لدينهم؛ حيثُما حلّوا، ويبدو أنْ حظَّ مَنْ استوطن بلاد الخَزَر كان أحسن من حظِّ الآخرين، فتمكَّنوا من تهويد كافَّة القبائل التي كانت تسكن ما بين نهرَيْ الفُولغا والدّنيبر (المُصوَّر رَقْم 15 ص 284). وفي مُنتصف القرن التّاسع؛ تمكَّن أحد أُمراء الخَزَر المُتهوِّدين والمدعو "بُولُون" من فَرْض سيطرته على جميع القبائل الخَزَريَّة، وأعلن نفسه ملكاً عليها، ومن ثمَّ؛ سمَّى منطقة نُفُوذه بمملكة الخَزَر اليهُوديَّة، وباشر بالتَّوسُّع على حساب المناطق المُجاورة، وكان يفرض الشّريعة المُوسويَّة على أتباعه بالقُوَّة، وهذه المملكة كانت أوَّل دولة تقوم في البلاد الرُّوسيَّة (الجنوب الشّرقي من رُوسيا) والتي كانت حتَّى ذلك التّاريخ تعيش حياة القبيلة والبداوة (مُنعزلة في غابات تلك المناطق النّائية). وقيام هذه المملكة اليهُوديَّة أحيا آمال اليهُود في تهويد رُوسيا بكاملها، واستخدام شعبها في صراعها المُرتقَب مع النّصرانيَّة والإسلام»[1].

ولكنَّ آمال اليهُود خابت بعد أنْ استيقظ الرُّوس ونزعوا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربيَّة، وتنصَّروا على يد الأمير "أندريه" الذي استلم الحُكْم عام 1157م، وهُو الذي قضى على دولة الخَزَر، بعد أنْ اقتطع أجزاء كبيرة من أملاكها، وقلَّص نُفُوذها، ثُمَّ قضى عليها.

---

(1) نُلاحظ - هُنا - في أقوال الأُستاذ ناجي أنَّ مُلُوك الخَزَر اليهُود اجتهدوا في نَشْر اليهُوديَّة بين الوَثَنيِّين من أتباعهم بعكس ما سَبَقَ من أقوال ابن فضلان والمسعودي والاصطخري بأنَّ الحُرِّيَّة الدِّينيَّة كانت موجُودة، وأنَّ مُلُوك الخَزَر لم يكن لديهم تعصُّب لليهُوديَّة ونشرها. ولكنِّي أميل إلى رأي الأُستاذ ناجي؛ لأنَّه لا يُعقَل أنْ يقف مُلُوك الخَزَر المُتهوِّدين هذا الموقف الحيادي، لا سيّما وأنَّ تهوُّد رعاياهم يُكسبهم قُوَّة أمام الخلافة الإسلاميَّة في الجنوب والدّولة البيزنطيَّة الأرثُوذُكسيَّة في الغرب.

ولَمّا ظهر جنكيز خان إمبراطُور المغول في القرن الثّالث عشر على مسرح التّاريخ ـ وقام هُو وخُلفاؤه باكتساح البلاد الإسلاميَّة من حُدُود الصّين إلى فلسطين؛ حيثُ أوقف المماليك حُكّام مصر بقيادة "الظّاهر بيبرس" زحفهم في معركة "عين جالوت" المشهورة عام 1261م، وكانت حُرُوبهم تتّصف ببربريَّة لم يعرف التّاريخ لها مثيلاً، فقد دمَّروا، وأحرقوا، ونهبوا، وقتلوا كُلَّ ما وَصَلَتْ إليه أيديهم ـ وَجَدَ اليهُود في إمبراطُور المغول الرّهيب جنكيز خان فُرصتهم الذّهبيَّة للانتقام من أُمراء الرُّوس، فاتَّصلوا بالمغول، وأغروهم بمُهاجمة البلاد الرُّوسيَّة، وتعاونوا معهم. وفي عام 1236م، تحقَّقت آمالهم بقيام الأمير المغولي "باتي أو باتو" بغزو بلاد الرُّوس، وقضى على إماراتهم، وأخضع بلادهم لسيطرة المغول، ولكنَّ هذا الحال لم يدم طويلاً؛ حيثُ انسحب المغول، وتراجعوا بعد موت إمبراطُورهم "أجتاي" 1227 ـ 1241م.

ويُحَدِّثنا الدُّكتُور حسن إبراهيم حسن في كتابه "تاريخ الإسلام"[1] فيقول: « خلف جنكيز خان "أجتاي" الذي أرسل جيشاً إلى شرق أُورُوبا، وجَعَلَ على رأسه القائد "باتو جوجي" أكبر أُخوته الذي تقدَّم نحو نهر الفُولغا، فاحتلَّ مدينة "ريازان"، وذبح أميرها وأُسرته وجميع سُكَّان المدينة، واحتلَّ مُستشاره "سابوتاي" بلغاريا (يعني بلاد بلغار على نهر الفُولغا شمال برطاس)، (انظر المُصوَّر رَقْم 15 ص 284)، ثُمَّ سَقَطَتْ مُوسكُو بيد باتو عام 1236م، وانتقم المغول من أهاليها، ثُمَّ تقدَّم إلى "كييف" أُمِّ المدائن الرُّوسيَّة، واستولى عليها عُنوة، وسحق المدينة، حتَّى أصبحت أثراً بعد عين. وهكذا دمَّر المغول في تلك الحُرُوب الجُزء الأعظم من بلاد رُوسيا ».

ثُمَّ انقسم الجيش المغولي إلى فريقَيْن: فريق بقيادة "باتو" القائد العامّ الذي أغار على بلاد البحر، وفريق ثان بقيادة "بيدار" استولى على بلاد بُولُونيا.

وبينما كان باتو ينعم بانتصاراته وصله خبر موت أخيه "أجتاي" إمبراطُور المغول بعد جنكيز خان، فاضطُرَّ للتّراجع عن أُورُوبا الشّرقيَّة. وهكذا كان اجتياح المغول لبلاد الرُّوس وشرق أُورُوبا كالإعصار الهائل الذي دمَّر، وخرَّب، وقتل، ثُمَّ انحسر سريعاً كما بدأ.

---

(1) تايخ الإسلام، ج4، د. حسن إبراهيم حسن، ص 150 ـ 152.

وبعد هذا الاجتياح المغولي السّريع عادت الإمارات الرُّوسيَّة للظُّهُور. وفي سنة 1613م، توحَّدت الإمارات الرُّوسيَّة تحت زعامة "ميشيل رُومانوف" أمير "مُوسكُوفا"، وقامت القَيْصَريَّة في رُوسيا، وأصبحت عاصمة البلاد مُوسكُو، وأضحت الدّولة الرُّوسيَّة حامية الكَنيسة الأرثُوذُكسيَّة والمُدافعة عنها بعد سُقُوط الدّولة البيزنطيَّة واحتلال عاصمتها القسطنطينيَّة من قبَل الأتراك العُثمانيِّين بقيادة السُّلطان مُحَمَّد الفاتح 1453م.

بعد توحيد رُوسيا وانتشار المسيحيَّة فيها على المذهب الأرثُوذُكسي، فَقَدَ اليهُود - نهائياً - كُلَّ أمل لهم بتهويد الرُّوس، وَفَقَدُوا القُدرة على إذلالهم والانتقام منهم بعد انحسار الغزو المغولي، فالتجؤوا إلى المُؤامرات والدّسائس ضدَّ الرُّوس عامَّة، وأُسرة رُومانوف الحاكمة خاصَّة.

وقد تعرَّض اليهُود في رُوسيا للاضطهاد والمذابح، وخاصَّة بعد اغتيالهم القَيْصَر إسكندر الثّاني 1881، وكذلك بعد اكتشاف أمر "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، التي فضحت نوايا اليهُود، وأهدافهم، وحقْدهم على الأغيار. (1)

وعندما قامت الثّورة البلشفيَّة في رُوسيا 1917م، تعاون اليهُود معها للقضاء على أُسرة رُومانوف، وقد قضتْ الثّورة على الأُسرة، وأُعدم آخر قياصرتها وهُو "نقولا الثّاني". وكان اليهُود يأملون بالسَّيطرة على الاتِّحاد السُّوفياتي، وتوجيهه لخدمة مآربهم، وتنفيذ أهدافهم، ولكنْ؛ سُرعان ما انقلب السِّحْر على السّاحر، وعاد العداء للرُّوس، والحقد على الاتِّحاد السُّوفياتي، وذلك لوُقُوف اليهُود مُمثَّلين بالحَرَكَة الصّهيُونيَّة مع الاستعمار والإمبرياليَّة، وتعاونهم الوثيق مع الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة زعيمة المُعسكر الرّأسمالي الغربيّ المُعادي للاتِّحاد السُّوفياتي، حتَّى انهار الاتِّحاد السُّوفياتي، وكان لليهُود دور هامٌّ في انهياره، فقد عمل اليهُود - بكُلِّ أساليبهم الخبيثة - على تحطيم الاتِّحاد السُّوفياتي، وذلك لتعاونه مع العَرَب، وتقديم السّلاح لهم، ليُمكِّنهم من الدّفاع عن أنفسهم، ولرَفْضه السّماح لليهُود فيه بالهجرة إلى (إسرائيل). هذا؛ بالإضافة إلى أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة - من أساسها - هي حَرَكَة استعماريَّة إمبرياليَّة عدوَّة للاشتراكيَّة.

---

(1) للتَّوسُّع والاستزادة في موضوع البرُوتُوكُولات، وما تحقَّق منها، ومالم يتحقَّق، والنُّصُوص الكاملة للبرُوتُوكُولات؛ يُراجَع كتاب (أضواء على برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون النُّصُوص الكاملة دراسة تحقيقيَّة تاريخيَّة مُعاصرة) رجا عبد الحميد عُرابي، دار الأوائل، ط1، 2004.

علاقة الخَزَر بالإسلام والمُسلمين:

لابُدَّ لنا من التَّحدُّث عن علاقة الخَزَر بالإسلام والمُسلمين قبل تهوُّدهم وبعده.

مرَّ معنا أنَّ تهوُّد الخَزَر كان في خلافة هارُون الرّشيد؛ أيْ في القرن التّاسع الميلادي، وهذا يعني أنَّ دولة الخَزَر الوَثَنيَّة عاصرت العَرَب المُسلمين في أوج عظمة الإسلام وازدهاره حوالي قرنَيْن من الزّمان، مُنذُ القرن السّابع إلى القرن التّاسع الميلادي. وقد تزامن ظُهُور الإسلام في مكَّة المُكرَّمة مع بداية تكوُّن دولة الخَزَر شمال بحر قزوين (بحر الخَزَر).

حاول العَرَب المُسلمون فَتْحَ بلاد الخَزَر بشكل مُنظَّم مرَّتَيْن: الأُولى زمن الخُلفَتَيْن الرّاشدَيْن: عُمَر بن الخطَّاب، وعُثمان بن عفَّان رضي الله عنهما، وذلك بعد فَتْح بلاد فارس، والثّانية زمن الخلافة الأُمويَّة بعد فَتْح بلاد ما وراء النّهر (تركستان الغربيَّة) على يد القائد العَرَبي "قُتيبة بن مُسلم الباهلي" في خلافة الوليد بن عبد الملك.

ولكنَّ مُحاولات العَرَب المُسلمين أيَّام الخُلفاء الرّاشدين بقيادة "سُراقة بن عَمرو"، ومُحاولاتهم أيَّام الخلافة الأُمويَّة بقيادة "مُسلمة بن عبد الملك" في خلافة هشام بن عبد الملك باءت بالفشل، ولم يتحقَّق لها النّجاح؛ بسبب البرد القارص، وللبُعْد الشّديد عن مركز الدّولة في دمشق.

وكانت المُحاولة الأخيرة ترتبط "بمروان بن مُحَمَّد" آخر الخُلفاء الأُمويِّيْن قبل أنْ يُصبح خليفة، والذي تقدَّم سنة 737م، بحَشْد عسكري وَصَلَ إلى أربعين ألف رجل، وأخذ بالزّحف مع مَنْ كان هُناك من الجُيُوش العَرَبيَّة الإسلاميَّة، واستطاع الوُصُول إلى الفُولغا شمال العاصمة "إتل"، وتوسَّع في بلاد برطاس، وهُناك حقَّق المُسلمون انتصاراً ساحقاً على الخَزَر، وأُسر قائدهم "هزار طرخان".

هُنا؛ وَجَدَ خاقان الخَزَر أنَّ قُوَّاته قد دُمِّرت، فراسل مروان بن مُحَمَّد، طالباً الصُّلح، فعرض عليه مروان خيارَيْن: هُما الإسلام، أو السّيف. وبعد ثلاثة أيَّام، طَلَبَ الخاقان الدُّخول في الإسلام، فأرسل مروان بن مُحَمَّد رجلَيْن من الفُقهاء؛ ليُعرِّفا ملك الخَزَر بالإسلام وتعاليمه، وهُما: نُوح بن السّائب الأسدي، وعبد الرّحمن الخولاني، ويبدو أنَّ

الخلاف قام بين الخاقان والفقيهَيْن على تناول لحم الخنزير والخمر، فقد طَلَبَ خاقان الخَزَر التّرخيص له بالخمر ولحم الخنزير، ولكنَّ الفقيهَيْن أصرّاً على أنّ التّحريم فيهما قطعي، فوافق الخاقان، وأعلن إسلامه.

هُنا؛ ارتكب مروان خطيئة كُبرى، رغم أنَّه عبقريَّة عسكريَّة عظيمة، إلاَّ أنَّه لم يكن في السِّياسة على نفس المُستوى، فقد اطمأنَّ إلى إسلام الخاقان، وأقرَّه في مملكته، وتركه لنفسه، وكان على مروان أنْ يجعل بلاد الخَزَر ولاية عَرَبيَّة إسلاميَّة، ويُعيِّن عليها والياً بجانب الخاقان، يكون الأمر بيده، لا بيد الخاقان، ويسنده بجيش قوي، ولكنَّه لم يفعل ذلك، ولعلَّه رأى أنَّ الاضطرابات في داخل الدّولة الأُمويَّة تقتضي الاحتفاظ معه بعدد كبير من العساكر، وتوفيرها للطّوارئ، وأمل أنْ يكون قادراً على حُكْم الخَزَر من خلال خاقان مُسلم، ولكنَّ الخاقان - بعد انسحاب مروان - عاد إلى عداوته للعَرَب والمُسلمين، وارتدَّ إلى وَثَنيَّته، وهكذا ضاعت فُرصة ذهبيَّة في السّيطرة على الخَزَر، وإدخالهم في الإسلام.

وهكذا كُتب ألاَّ تكون الخَزَر ولاية عَرَبيَّة مُسلمة، بل تبقى - كما كانت - عقبة في وجه العَرَب، ووسيلة تهديد لهم، حتَّى سُقُوطها بيد الرُّوس عام 918 م. فمروان بن مُحَمَّد بعد استلامه الخلافة الأُمويَّة؛ انشغل بالقضاء على الفتَن والثّورات التي انتشرت في الدّولة الأُمويَّة، حتَّى زال حُكْم الأمويِّين في خلافته، وانتقل إلى العبَّاسيِّين الذين كان همُّهم في عصر قُوَّتهم مُوجَّهاً ضدَّ البيزنطيِّين، ولم يُعيروا الخَزَر اهتمامهم، بل كان بينهم وبين الخَزَر رُسُل وسفارات كسفارة ابن فضلان زمن الخليفة المُقتدر كما أسلفنا. وأظنُّ أنَّ الخَزَر والعبَّاسيِّين لم يتعرَّضا لبعض؛ لأنَّ كلَيْهما كان عدوُّه الأكبر هُو الدّولة البيزنطيَّة، (وكما يقول المَثَلُ عدوُّ عدوِّكَ صديقكَ)، بالإضافة؛ إلى أنَّ همَّ الخَزَر الأكبر كان التَّوسُّع غرباً في بلاد السّلاف (الرُّوس) لتهويدهم، ولم يكن لهم مصلحة بالاصطدام مع العَرَب المُسلمين، وكسب عداوتهم، ولا سيّما وقد رأوا خُطُورة مُعاداة العَرَب المُسلمين عليهم، وعلى دولتهم في زمن الخُلفاء الرّاشدين والخُلفاء الأُمويِّين، ونتيجة تسامحهم مع المُسلمين، وتحاشي عداوتهم، انتشر الإسلام في بلاد الخَزَر عن طريق التّبشير والتُّجَّار.

وأخيراً؛ لابُدَّ من ذكْر أنَّ تهوُّد الخَزَر كان في أوج عظمة الدّولة العبَّاسيَّة، وفي خلافة هارُون الرّشيد[1].

نهاية دولة الخَزَر:

بلغت دولة الخَزَر أوج عظمتها في القرنَيْن التّاسع و العاشر الميلاديَّيْن، وسيطرت على مجموعات قوميَّة مُتباينة مثل: التُّرك، البلغار، جيُورجيُّون، أرمن، أكراد، وشُعُوب القُوقاز المُختلفة، بالإضافة إلى السّلاف (الرُّوس في الغرب).

والآن؛ ما أسباب ضعف هذه الإمبراطُوريَّة المُترامية الأطراف؟ وما العوامل التي أدَّت إلى زوالها؟

في الحقيقة؛ إنَّ عوامل الضّعف الدّاخليَّة والخارجيَّة كانت كثيرة.

من أهمِّ عوامل الضّعف الدّاخليَّة:

أوَّلاً: **تعدُّد الأديان:** كانت هُناك الدّيانة اليهُوديَّة، ديانة الطّبقة الحاكمة من الخَزَر وحاشيتهم، وفي الوقت نفسه، كان الإسلام مُنتشراً بين رعايا الدّولة كما مرَّ معنا في روايتَيْ ابن فضلان والاصطخري، وغيرهما. وكان المُسلمون يُشكِّلون قسماً من الجيش الخَزَري، ويُمارسون نُفُوذاً سياسيّاً كبيراً على شُؤُون الدّولة، حتَّى إنَّ الفرَق المُسلمة كانت ترفض - في بعض الأحيان - الدُّخُول في حرب مع الجُيُوش الإسلاميَّة بسبب الرّوابط الدِّينيَّة.

ويروي الأُستاذ هشام الدّجاني في كتابه "الظُّرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة" ما يُؤيِّد وُجُود فرَق مُسلمة في الجيش الخَزَري، فيقول: أعْلَمَنَا المُؤرِّخ العَرَبيّ المسعودي أنَّ الجيش المَلكي الخَزَري كان يضمُّ فرقة مُسلمة، ويقول المُؤرِّخ العَرَبيّ ابن حوقل: إنَّ تلك الفرقة المُسلمة كانت تقف على الحياد عندما كانت خزاريا تشتبك في حرب مع جهات إسلاميَّة أُخرى، لأنَّهم لا يُحاربون أناساً من نفس عقيدتهم. وفي رواية عن المسعودي: أنَّ المُجنَّدين المُسلمين وغير المُجنَّدين من المُسلمين طَلَبوا من ملك الخَزَر أنْ يَدَعَهُم يُقاتلون الرُّوس الذين

(1) المرجع الرّئيسي: تاريخ الخَزَر، ترجمة الدُّكتُور سُهيل زكّار، صفحة 98 - 132، باختصار شديد.

أغاروا على بلاد المُسلمين، وسفكوا الدّماء، وسبوا النّساء، واسترقّوا الأطفال، ونهبوا الأموال، وفعلاً؛ قاتلوهم»[1].

ويظهر أنَّ ملك الخَزر عندما توقَّف عن إعطاء الإذن للرُّوس بمُهاجمة بلاد المُسلمين عبر دولته كان خوفاً من إغضاب الرّعايا المُسلمين في دولته.

هذا؛ بالإضافة إلى انتشار المسيحيَّة في بلاد الخَزَر، فقد كان المسيحيُّون يُشكِّلون قسماً هاماً من الشُّعُوب الخاضعة للخَزَر، فالأرمن والجيُورجيُّون كانوا مسيحيِّيْن قبل تُشَكِّل دولة الخَزَر، وخُضُوعهم لها، بالإضافة لِمَنْ تنصَّر من سُكَّان شواطئ البحر الأسود الشّماليَّة والشّرقيَّة بفعْل الكَنيسة الأرثُوذُكسيَّة في الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة.

وكذلك كان الكثير من رعايا الدّولة الخَزَريَّة وَثَنِيِّيْن، وخاصَّة الخَزَر أنفسهم، والرُّوس الخاضعون لهم، قبل أنْ تنصَّروا.

إنَّ دولة بهذا الشّكل ـ تنتشر فيها ديانات مُتعدِّدة ومُتنافرة، بالإضافة إلى الوَثَنِيِّيْن ـ لابُدَّ أنْ يكون التّرابط بين رعاياها ضعيفاً واهياً، إنْ لم يكن عدائيّاً، لا سيّما ونحنُ في زمن كان المُعتقد الدِّيني هُو الأساس في الوحدة والتّضامن بين النّاس، ولم تكن القوميَّة لها دور هامٌّ كما هُو الحال الآن. وهكذا؛ فإنَّ تعدُّد الانتماءات الدِّينيَّة في هذه الدّولة كان سبباً هامَّاً في ضعفها، ثُمَّ اضمحلالها، وتلاشيها.

ثانياً: ضعف الموارد الماليَّة: لا شَكَّ في أنَّ الموارد الماليَّة هي الأساس في قُوَّة الدّولة واستمرارها، فالمال هُو عصب الحياة للدّولة والأفراد. ودولة الخَزَر كانت ذات موارد ماليَّة واقتصاديَّة ضئيلة، رغم اتِّساعها الكبير، وترامي أطرافها. فالأقسام الشّماليَّة الشّرقيَّة كانت سهباً رعويَّة فقيرة، والسُّكَّان على ضفاف الفُولغا وبحر قزوين كانت حرفتهم الأساسيَّة صيد الأسماك، وهُوغذاؤهم الرّئيسي، وسُهُول رُوسيا في الشّمال والغرب كانت تعتمد على زراعة الحبوب وتربية الأبقار في مناخ قاس وشديد البُرُودة، والمناطق الغنيَّة من الدّولة كانت تمتدُّ على سواحل البحر الأسود الشّماليَّة؛ وخاصَّة شبه جزيرة القرم، وكذلك سُفُوح جبال القُوقاز؛ حيثُ كانت تزدهر زراعة الأشجار المُثمرة، بالإضافة إلى موارد الغابات.

---

(1) هشام الدّجاني، "الظُّرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة"، ص 23.

وعلى كُلٍّ حال؛ كانت المناطق الخاضعة للخَزَر تعيش على الاكتفاء الذّاتي، فلم يكن هُناك فائض للتّصدير إلاّ ما نَدَرَ من: الفراء والأخشاب وبعض المعادن والخُيُول التي كانت تشتهر بها المنطقة. هذا؛ ولابُدَّ من التّنويه بتجارة الرّقيق الأبيض؛ حيثُ كان الوَثَنيُّون في الدّولة يبيعون أبناءهم وبناتهم للأقطار الإسلاميَّة المُجاورة في الجنوب، فكانت سُوق النّخاسة مُزدهرة، وكان المصدر الأساسي للجواري والغلمان في قُصُور الخُلفاء والحُكّام والطّبقة الأرستقراطيَّة يأتي من هذه المناطق.

أمَّا موارد التّجارة؛ فدولة الخَزَر تقع على طريق الحرير القادم من الصّين إلى أُورُوبا، ولكنَّ هذا الطّريق كان ينقسم إلى شُعبَتَيْن: شُعبة تمرُّ شمال بحر قزوين، مارَّة بدولة الخَزَر إلى أُورُوبا، وشُعبة تنحدر عبر بلاد ما وراء النّهر إلى إيران والعراق، فبلاد الشّام؛ حيثُ تنتهي بموانئها؛ ليُصدَّر إلى أُورُوبا. وكانت الشُّعبة الثّانية أكثر ازدهاراً؛ لأنَّها كانت أكثر أماناً من الشُّعبة الأُولى التي كانت تمرُّ بشُعُوب بدائيَّة وغير مُنضبطة، بالإضافة إلى الرُّسُوم الكبيرة التي كانت تفرضها دولة الخَزَر[1].

وهكذا نرى أنَّ موارد الدّولة كانت ضئيلة، وعندما كانت بعض الفئات تسعى لاستقلالها، كانت السُّلطات المركزيَّة في الدّولة لا تستطيع المُبادرة إلى إرسال قُوَّات تقضي على تمرُّدها، حتَّى الذين كانوا يمتنعون عن دَفْع الضّرائب لا تستطيع الدّولة إجبارهم على ذلك.

ثالثاً: تعدد القوميّات: كانت الدّولة الخَزَريَّة تضمُّ شُعُوباً مُتعدِّدة يُكنُّ مُعظمها العداء والكراهية لبعضهم البعض، فبالإضافة إلى الخَزَر ذوي الأُصُول التُّركيَّة كان هُناك البلغار والرُّوس في الشّمال والغرب، والتُّرك في الشّرق، وكان الجنوب يضمُّ قوميّات مُتعدِّدة في القفقاس مثل: الدّاغستان والشّركس والشّاشان والأرمن والكرخ والأكراد والفُرْس.. إلخ. وكان هذا الخليط من الشُّعُوب والقوميّات يخضع لدولة الخَزَر، فلابُدَّ أنَّ هذا الخليط المُتنافر كان عاملاً هاماً في ضعف دولة الخَزَر، وسبباً من أسباب زوالها.

أدَّت العوامل السّابقة إلى تفكُّك دولة الخَزَر وزوالها، وزاد الأمر سُوءاً تكوُّن أرستقراطيَّة عسكريَّة من الخَزَر المُتهوِّدين، الذين امتلكوا قُوَّة عسكريَّة ذات شأن في مُقاطعاتهم أضعفت وحدة الدّولة، وكانت سبباً في تفكُّكها وزوالها.

---

(1) المصدر لما سَبَقَ، "تاريخ اليهُود الخَزَر"، د. م. دنلوب، ترجمة د. سُهيل زكّار 295 - 312، باختصار.

ومن الغرائب أنْ نرى المجموعات العرْقيَّة التي خضعت للإمبراطُوريَّة الخَزَريَّة قد استمرَّت بالوُجُود حتَّى أيَّامنا هذه؛ مثل شعُوب القُوقاز وغيرها من تتار وتُرك، بينما الخَزَر أنفسهم الذين كانوا أُمَّة عظيمة باتت من الصّعب تذكُّر اسمهم لزوال وُجُودهم كخَزَر. والسّبب يعود إلى أنَّ الخَزَر قد تهوَّدوا، وعندما انساحوا في رُوسيا وشرق أُورُوبا كان يُميِّزهم من الآخرين ليس عرْقهم وقوميَّتهم الخَزَريَّة، بل دينهم، فعرفهم النّاس في مواطنهم الجديدة على أنَّهم يهُود مُختلفون عنهم بالدِّين، زدْ على ذلك اتِّصاف اليهُود بسُلُوكيَّة خاصَّة بهم تُميِّزهم من غيرهم من الأُمم والشُّعُوب، ولو تنصَّر الخَزَر - أو أسلموا - لبقوا على قوميَّتهم التي تُميِّزهم من سائر القوميَّات النّصرانيَّة أو المُسلمة. بينما الآن (وبعد تهوُّدهم) أصبح المُميِّز الوحيد لهم عن النّصارى في أُورُوبا هُو يهُوديَّتهم، فتناسى النّاسُ أصلَهُم وقوميَّتهم، وأصبح مُميِّزهم الوحيد هُو يهُوديَّتهم، وهذا ما تُريده الصّهيُونيَّة الآن؛ بأنْ تجعل اليهُوديَّة هي المُميِّز الوحيد لهم، ولتُصبح قوميَّتهم هي يهُوديَّتهم، مهما كانت أُصُولهم وألوانهم.

كيف انتهت دولة الخَزَر؟[1]

بعد أنْ عرفنا مكان الضّعف في الدّولة الخَزَريَّة لابُدَّ لنا - الآن - من بيان كيف انتهت دولة الخَزَر؟ ومَنْ قضى عليها؟

من روايات الاصطخري والمسعودي نجد أنَّ دولة الخَزَر كانت مُزدهرة في مُنتصف القرن العاشر، وقد حقَّق الخَزَر نجاحاً عسكريّاً ملموساً ضدَّ البيزنطيِّين، ولكنَّ الذي قضى على دولة الخَزَر هُم الرُّوس، ولا يُعرَف - بشكل واضح ودقيق - متى بدأت غارات الرُّوس على الخَزَر انحداراً مع نهر الفُولغا.

لقد مرَّ معنا أنَّ الرُّوس كانوا واقعين تحت النُّفُوذ الخَزَري أيَّام ازدهار دولتهم، ومُنذُ القرن التّاسع الميلادي أصبح الرُّوس أقوياء بما فيه الكفاية للتَّخلُّص من السّيطرة الخَزَريَّة، وخاصَّة في الغرب في منطقة مدينة "كييف" (عاصمة أُوكرانيا الآن).

وقد مرَّ معنا أنَّ الخَزَر سمحوا للرُّوس بمُهاجمة بلاد المُسلمين عبر بلادهم، وأنَّ "بُطرس الكبير" قاد جيشاً وأسطُولاً عبر نهر الفُولغا إلى بحر قزوين لقتال المُسلمين جيران الخَزَر في

(1) المصدر الرّئيسي لانتهاء دولة الخَزَر هُو "تاريخ الخَزَر"، د. م. دنلوب، تر: د. سُهيل زكّار، من 315 - 347، باختصار.

الجنوب، وليضربوا عدوَّين لدودين لهما بعضهم ببعض: المُسلمين في الجنوب والرُّوس المسيحيِّين في الشّمال والغرب، وكان ذلك عام 913 م، ثُمَّ عاد الرُّوس في عام 943 م.

وينقل الأُستاذ هشام الدّجاني رواية عن المسعودي مفادها: أنَّ سماح ملك الخَزَر للرُّوس بمُهاجمة الأراضي الإسلاميَّة حول بحر الخَزَر (قزوين) مُرُوراً ببلاده كان مُقابل نصف ما يحصلون عليه من غنائم، وليس لكراهيَّتهم للمُسلمين فقط[1].

ثُمَّ توقَّف الخَزَر عن إعطاء الإذن للرُّوس بمُهاجمة بلاد المُسلمين من خلال دولتهم حوالي 960 م. ويظهر أنَّ احتجاج الرّعايا المُسلمين في دولة الخَزَر على أعمال الرُّوس الوحشيَّة في بلاد المُسلمين كان له دور في توقُّف مُلُوك الخَزَر عن إعطاء الإذن للرُّوس لمُهاجمة المُسلمين من خلال دولتهم.

لقد أدَّى (على ما أظنُّ) توقُّف مُلُوك الخَزَر عن إعطاء الإذن للرُّوس بمُهاجمة ديار الإسلام إلى العداوة بين الرُّوس والخَزَر، وقيام الرُّوس بقتال الخَزَر وتدمير عاصمتهم "إتل"، ويُعطي ابن حوقل تاريخاً لذلك هُو 358 هـ و968 - 969 م.

ويروي ابن حوقل والمَقْدسي أنَّه جرت مُحاولة من قبَل الخَزَر لإعادة بناء عاصمتهم إتل بعد غارة الرُّوس المُدمِّرة عليها، ولكنَّهم فشلوا. وعلى كُلِّ حال؛ هُناك روايات كثيرة تُثبت أنَّ الخَزَر استمرّوا بعد تدمير عاصمتهم إتل إلى ما بعد القرن العاشر الميلادي وحتَّى إلى القرن الحادي عشر. ففي رواية لـ "سيدرينوس **Cedrenus**" أنَّ الإمبراطُور البيزنطي أرسل عام 1016م حملة ضدَّ بلاد الخَزَر، تمكَّنت - بالتّعاون مع الرُّوس - من إخضاع البلاد بسُرعة وإلحاق الهزيمة بحاكمها "جرجس تزول **Tzul**" في الجولة الأُولى (وليس مُدهشاً أنْ يحمل ملك الخَزَر اسماً مسيحيّاً وهُو جرجس، فقد كان الخَزَر يتسمّون بأسماء مسيحيَّة، نقلاً عن المسيحيِّين المَوجُودين في بلادهم)، وكانت عاصمتهم الجديدة وهي "سقسين"، والبعض يقول إنَّ سقسين هي إتل نفسها، والأصحُّ أنَّها بُنيَتْ عاصمة للخَزَر بجوار إتل، وليس بعيداً عنها.

وعلى كلِّ حال؛ من المُؤكَّد أنَّ الخَزَر كانوا قد انتهوا - كدولة ذات سيادة - قبل حملة المغول على رُوسيا بقيادة "باتو" 1236م.

---

(1) الأُستاذ الدُّجاني، "الظُّرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة"، ص 23.

وبعد انتهاء دولة الخَزَر ـ سواء في القرن العاشر، أو الحادي عشر، وبعد الغزو المغولـي ـ فإنَّ يهُود الخَزَر انتشروا وانساحوا في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة، وحتَّى الوُسْطَى.

اختلف المُؤرِّخون حول أسباب انسياح يـهُود الخَـزَر فـي رُوسـيا وأُورُوبـا الشّـرقيَّة والوُسْطَى، واختلفوا ـ أيضاً ـ في إرجاع أُصُول يهُود شرق أروروبا إلى أُصُول خَزَريَّة فقط.

فقد جاء في كتاب "تاريخ بلاد الخَزَر" (لدنلوب ترجمة د. زكَّار) ما خُلاصته:

« إنَّه من المُؤكَّد وُقُوع أعمال انتقال هامٍّ للسُّكَّان من يهُود الخَزَر؛ وخاصَّة خلال الحملات المغوليَّة، وأنَّ هـؤلاء اليـهُود انساحوا فـي رُوسيا الغربيَّة وأُورُوبـا الشّـرقيَّة والوُسْـطَى، وهُنـاك امتزجوا باليهُود الألمان (الأشكناز)، وهذا يعني أنَّ يهُود أُورُوبـا الشّـرقيَّة والوُسْـطَى لا يرجعـون بأُصُولهم إلى أُصُول خَزَريَّة فقط، بل إنَّ هُناك امتزاجاً بين يهُود ألمانيا من الأشكناز القادمين مـن الغرب مع اليهُود الخَزَر القادمين من الشّرق، وأنَّ القول بأنَّ يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة وغـرب رُوسيا يعودون إلى أُصُول خَزَريَّة فقط فيه مُبالغة، وليس هُناك مصادر تاريخيَّة تدعم ذلك ».

وإذا كان فـي القـول السّـابق بعـض التّشـكيك بـأنَّ يـهُود أُورُوبـا الشّـرقيَّة يتحـدَّرون مـن الخَزَر، فإنَّ الأُستاذ هشـام الدّجـاني يُؤكِّـد أصـل يـهُود أُورُوبـا الشّـرقيَّة والوُسْـطَى الخَـزَري، ويُرجعه إلى سببَيْن هُما[1]: الهُرُوب غرباً أمام موجات الغزو المغولي القادمة من الشّـرق، ثُـمَّ الانتعاش الاقتصادي في أُورُوبا الوُسْطَى والشّماليَّة، والانهيار الاقتصادي النّاجم عن خراب المُدُن الإسـلاميَّة بسبب الغـزو المغولـي المُدمِّر؛ فيقـول: «فـي تلـك المرحلـة (مرحلـة الغـزو المغولي)؛ حيثُ الانهيارات الكُبرى الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة تحدث في كُـلِّ مكـان أمام موجات الغزو المغولي العاصفة والمُتتابعة في أواسط آسيا وغربها، وحيثُ اتَّجه تيَّار قوي من تلك الموجات المغوليَّة إلى مناطق الأقوام التُّركيَّة والسّلافيَّة، وبلغ قلب رُوسيا وأُوكرانيا، حَدَثَتْ حَرَكَة كُبرى من الهجرات في المناطق الواقعة على طريق الغزوات المغوليَّة، ومن تلك الهجرات كانت هجرة اليهُود الخَزَر نحو مناطق الانتعاش الاقتصادي (والاستقرار السِّياسـي) في أُورُوبا الوُسْطَى والشّـماليَّة، مُخلِّفـين وراءهـم منـاطق الاضطـراب والانـهيار الاقتصـادي

---

(1) الظُرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة، هشام الدّجاني، ص 24.

النّاجم عن خراب المُدُن الإسلاميَّة وتفسخ الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة . . وقد توضَّع أُولئك المُهاجرون ـ على الأخصِّ ـ على الطّريق التّجاري بين رُوسيا وغرب أُورُوبا ؛ أيْ في بُولُونيا ؛ حيثُ أصبح مركز ثقلهم (أيْ يهُود الخَزَر) الرّئيسي ، وأيضاً في شرق ألمانيا ورُوسيا ودُول البلطيق وفنلنده » .

وهكذا نرى أنَّ هجرة اليهُود من خازاريا ورُوسيا إلى الغرب كانت لثلاثة أسباب مُجتمعة هي :

1 ـ الهُرُوب من وجه الغزوات المغوليَّة الكاسحة .

2 ـ الانتعاش الاقتصادي في أُورُوبا الوُسْطَى والشّماليَّة وهُو السّبب الأهمُّ ؛ لأنَّ اليهُود ـ كما هُو معروف ـ لا يستقرُّون في البلاد الفقيرة أو العديمة الاستقرار .

3 ـ الاضطهاد الذي لحق بهم هُناك على يد الرُّوس ؛ وخاصَّة بعد تنصُّرهم .

وعلى كُلِّ حال ؛ مهما كانت أسباب الهجرة فإنَّه من المُؤكَّد أنَّ يهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة يرجعون ـ في غالبيَّتهم ـ إلى يهُود الخَزَر ؛ وخاصَّة في رُوسيا الغربيَّة والجنوبيَّة وبُولُونيا والمجر ورُومانيا ، فأصبحوا يُشكِّلون 15٪ من سكَّان المجر ، وأكثر من ذلك في بُولُونيا ورُومانيا[1] .

أمَّا يهُود أُورُوبا الوُسْطَى ؛ فلا شَكَّ في أنَّهم يُشكِّلون مزيجاً من يهُود ألمانيا الأشكناز واليهُود الخَزَر القادمين من الشّرق .

أمَّا رُوسيا نفسها ؛ فكانت حتَّى أواخر القرن التّاسع عشر موطن أكبر عدد من اليهُود في العالم ؛ إذْ بلغ عددهم عام 1897 (400 ، 884 ، 5) نسمة ؛ أيْ ما يُقارب ستَّة ملايين من مجموع 11 مليون يهُودي في العالم في ذلك التّاريخ[2] .

ومايزال عدد اليهُود في رُوسيا (الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً) حتَّى يومنا هذا يُقارب الثّلاث ملايين نسمة ، رغم الهجرة الكثيفة من رُوسيا إلى (إسرائيل) والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة .

---

(1) المُفسدون في الأرض ، سُلَيْمَان ناجي ، ص 294 .

(2) العَرَب واليهُود في التّاريخ ، د . أحمد سُوسة ، ص 697 .

ويهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة هُم من أكثر يهُود العالم تعصُّباً وتشدُّداً، ومُعظم غُلاة الصّهيُونيَّة منهم، وهُم واضعو برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، والتي تظهر - من خلال سُطُورها - بغضاء دينيَّة وعُنصُريَّة مُتغطرسة وعميقة الغور، وإنَّ أخطر المُبشِّرين بالقوميَّة اليهُوديَّة ووُجُوب تكوين دولة لهم هُو "أشرغنزبرغ"؛ وهُو يهُودي من أُوديسا في جنوب أُوكرانيا على البحر الأسود، وُلد عام 1856، وهُو المعروف باسم "أحدهاعام" أيْ "واحد من النّاس"، وسيمرُّ معنا كيف اختلف مع هرتزل بالرّأي، فقد كان يدعو إلى التّجمُّع والاقتحام؛ أيْ دُخُول فلسطين بالقُوَّة، والاستحواذ عليها عن طريق العُنف وسفك الدّماء، ومن أشهر تلاميذه جابوتنسكي؛ وهُو - أيضاً - من مواليد أُوديسا عام 1880، وهُو المُؤسِّس والمُنظِّم للمُنظَّمات الإرهابيَّة في فلسطين، ومناحم بيغن، وشتيرن، وإسحاق شامير، قادة المُنظَّمات الإرهابيَّة الصّهيُونيَّة في فلسطين هُم تلاميذه، وممَّن تدرَّبوا على يدَيْه، وأشرغنزبرغ، وجابوتنسكي هُما من يهُود رُوسيا، أمَّا مناحم بيغن، وإسحاق شامير؛ فهُما من يهُود بُولُونيا، والجميع من أُصُول خَزَريَّة.

كلُّ هذا يقودنا إلى القول بأنَّ اليهُود الحاليِّيْن لا يمُتُّون بأيَّة صلة إلى ذُرِّيَّة يعقُوب (بني إسرائيل) لا من قريب، ولا من بعيد، فيهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا يعودون إلى أُصُول خَزَريَّة، والتي هي - بدورها - من عناصر تُركيَّة وقُوقازيَّة وسلافيَّة.. إلخ، ويهُود أُورُوبا الوُسْطَى والغربيَّة يعودون بأُصُولهم إلى العُنصُر الألماني، وقد حصل امتزاج بين يهُود ألمانيا (الأشكناز) ويهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة (الخَزَر)، وأصبحوا جميعاً يُشكِّلون مُعظم يهُود أُورُوبا، ثُمَّ يهُود العالم الجديد (الأمريكيَّتَيْن وأُستراليا)؛ وخاصَّة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، التي تضمُّ - الآن - أكثر من 50٪ من يهُود العالم.

وقد صَدَرَ كتاب بعُنوان "السّتّار الحديدي حول أمريكا" للكاتب الأمريكي "جُون بيتي Beaty John" تناول فيه بحث تاريخ يهُود الخَزَر، وصبَّ جام غضبه عليهم، واعتبرهم دُون يهُود العالم الآخرين؛ بسبب المشاكل التي انهالت على أمريكا بوُجُودهم، وذلك على أساس أنَّ يهُود الخَزَر أكثر يهُود العالم تعصُّباً لليهُوديَّة والصّهيُونيَّة؛ إذْ لم يسمح لهم رجال الدِّين في وسطهم أنْ يتحرَّروا من الطّوق الدِّيني الانعزالي الذي يعيشون فيه، لذلك فهُو

يُحذِّر المسؤولين من العواقب الوخيمة من تأثير نُفُوذهم على سياسة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وينتهي - بعد أنْ يشرح الدّور الذي يلعبونه في توجيه سياسة الولايات المُتَّحدة - إلى وُجُوب تدارك الأمر قبل فوات الأوان وتدهور مصالح الولايات المُتَّحدة إلى الحضيض، وتحلّ الكارثة، ويهيب بالمُواطنين المُخلصين المُتمسّكين بالمُثُل الأمريكيَّة أنْ يتعاونوا على دفع الخطر، فيُحافظوا على سيادة الدّولة ونُفُوذها في أنحاء العالم ضمن إطار الحضارة المسيحيَّة، وذلك بتغيير السِّياسة التي تسير عليها الولايات المُتَّحدة الأمركيَّة حاليّاً بتأثير مُخطَّطات اليهُود (يهُود الخَزَر بوجه خاصٍّ)[1] ونُفُوذهم، وهذا لا يتمُّ إلاَّ بإجراء تطهير واسع في جهاز الدّولة وتبديل البعثات الدِّبلُوماسيَّة إلى البلاد الإسلاميَّة، ويقول المُؤلِّف: إنَّ الدّافع الذي حمله على وَضْع كتابه هُو تقديم معلومات مُركَّزة على المشاكل التي خلقتها فئة قليلة تحمل مبادئ تتنافر مع تقاليدنا وهي مُندفعة بحماس لتحقيق أهداف تُهدِّد مصالحنا؛ ممَّا يُؤدِّي إلى الدّمار وإثارة حرب عالميَّة ثالثة، وقد طُبع الكتاب لأوّل مرَّة سنة 1951، فحاز شُهرة واسعة، حتَّى طبع خمسة عشر مرَّة بين 1951 - 1958، وقد أعدَّت دار النَّشر للجامعيِّين في لُبنان مُلخَّصاً للكتاب باللُّغة العَرَبيَّة تحت عُنوان "الصّهيُونيَّة لُعبتها أمريكا"[2].

ولكنْ؛ أقول بصراحة وألم وأسف وحسرة: إنَّ الأوان قد فات، ونحنُ - الآن - في عام 2004، وقد أصبح اليهُود في الولايات المُتَّحدة يقبضون على ناصية الأُمُور فيها بيد من حديد (وسيمرُّ معنا هذا عند الحديث عن اليهُوديّ العالميّ)، وأصبحت سياسة أقوى دولة في العالم مُوجَّهة لخدمة اليهُوديَّة والصّهيُونيَّة وتحقيق أهدافها، ولا يستطيع رجال أمريكا المُخلصون

---

(1) مُلاحَظَة: كانت مُشكلة اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة (وأغلبهم من يهُود الخَزَر) مُشكلة واسعة النّطاق، فقد قام اليهُود فيها بعدَّة ثورات، وتعاونوا مع المغول ضدّ رُوسيا، واغتالوا قَيْصَر رُوسيا الإسكندر الثّاني، وعندما قامت الثّورة الشُّيُوعيَّة في رُوسيا عام 1917، تعاونوا معها، واشتركوا فيها، وقدَّموا لها الدّعم الكامل معنويّاً ومادّيّاً، أملاً بالقضاء على القَيْصَريَّة الرُّوسيَّة، وإضعاف الدِّين المسيحي الأرثُوذكسي، وبالتّالي؛ السّيطرة على نظام الحُكْم الجديد، وقد حاول الاتِّحاد السُّوفييتي الذي قام على أنقاض الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة حلَّ مُشكلة اليهُود في رُوسيا، وذلك بإنشاء جُمهُوريَّة لهم في الشّرق الأقصى على نهر "الآمور"؛ وهي مُقاطعة واسعة غنيَّة بمواردها الزّراعيَّة وغاباتها وثرواتها المعدنيَّة، ولكنَّ هذا الحلَّ لم يُعجب اليهُود، ولم يرضوا عنه، ولذلك لم يُهاجر ويستقرّ في هذه الجُمهُوريَّة إلاَّ العدد القليل جداً منهم؛ وهي جُمهُوريَّة بيروبيجان.

(2) د. أحمد سُوسة، العَرَب واليهُود في التّاريخ، 697 - 698.

الخُرُوج من هذا الطّوق الحديدي، فاليهُود يُسيطرون على مُقدّرات البلاد، وعلى الرّأي العامّ فيها، وذلك بسيطرتهم الماليّة والصّحافيَّة، وأصبحت أمريكا تخدم مصالح اليهُود والصّهيُونيَّة أكثر من خدمتها لمصالح أمريكا نفسها، وأصبحت السِّياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة مُوجَّهة بكُلِّ ثقلها وإمكاناتها لخدمة أهداف ومصالح الصّهيُونيَّة، حتَّى ولو كانت هذه المصالح تتعارض مع مصالح الولايات المُتَّحدة نفسها، وأصبحت سياسة الكيل بمكيالَيْن في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة مشهورة ومعروفة في كُلِّ ما يتعلَّق (بإسرائيل) ومصالح الصّهيُونيَّة العالميَّة، وأصبح اللُّوبي الصّهيُونيّ الأمريكي هُو الوجه الحقيقي لسياسة أمريكا ضدَّ العَرَب خاصَّة، والمُسلمين عامَّة.

وإنِّي لا أُبالغ في ذلك، ونحنُ نرى ونلمس الدّعم الأمريكي (لإسرائيل) والصّهيُونيَّة في كُلِّ مُناسبة، وبكُلِّ قواها وثقلها العالميّ، ولولا الدّعم الأمريكي المالي والاقتصادي والعسكري والسِّياسي (لإسرائيل) لما استطاعت الحياة والبقاء في قلب الوطن العَرَبيّ، وإنَّ عَرْبدة (إسرائيل) وَضَرْبَهَا عرض الحائط بكُلِّ قرارات الأُمم المُتَّحدة ومجلس الأمن الدّولي لا يُمكن أنْ يتحقَّق لولا الموقف الأمريكي المُنحاز، والذي يُؤمِّن لها الحماية والدّعم التّامَّيْن، وما الهُجُوم الأمريكي على العراق واحتلاله إلاَّ تنفيذاً لأهداف الصّهيُونيَّة للسّيطرة على الوطن العَرَبي وتحقيق أمن (إسرائيل).

لقد أسهبنا في الحديث عن يهُود الخَزَر ودولتهم للأسباب التّالية:

أوّلاً: لأنَّهم يُشكِّلون مُعظم يهُود العالم الآن، ولأنَّ مُعظم المُهاجرين إلى (إسرائيل) هُم في أُصُولهم من يهُود الخَزَر، وأنَّ مُعظم قادة (إسرائيل) مُنذُ نشأتها حتَّى اليوم هُم من هؤلاء الخَزَرِيِّين، وخُصُوصاً المُتشدِّدين من قادة (إسرائيل) أو ما يُسمّون بالصُّقُور، بالإضافة إلى كونهم رُوح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة وقُوَّتها الدّافعة[1].

---

(1) وممَّا يجبُ ذكره هُنا أنَّ أوَّل حَرَكَة يهُوديَّة مُنظَّمة تدعو إلى عودة اليهُود إلى فلسطين "أرض المعاد" هي حَرَكَة أحبَّاء صهيُون أو عُشَّاق صهيُون، وهي حَرَكَة قام بها ودعا إليها يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا، وقد سبقت حَرَكَة هرتزل الصّهيُونيَّة بحوالي نصف قرن.

ثانياً: تكتسب دولة الخَزَر أهمِّيَّة خاصَّة؛ فهي ثاني دولة لليهُود أُقيمت في العالم بعد مملكة داود وسُلَيْمَان عليهما السّلام في فلسطين، وجاءت بعد هذه المملكة بأكثر من ألف وستُّمائة سنة، فإذا كانت مملكة داود وسُلَيْمَان دامت 80 عاماً، وتُمثّل فيها أسباط اليهُود الاثنا عشر الذين ينتهي نَسَبُهُم إلى يعقُوب ﷺ، فإنَّ مملكة الخَزَر اليهُوديَّة قد نشأت خارج فلسطين، ومن غير ذُرِّيَّة يعقُوب، ودامت حوالي قرنَيْن من الزّمان (من القرن الثّامن إلى العاشر الميلادي).

ثالثاً: كان اليهُود يأملون من هذه الإمبراطُوريَّة الخَزَريَّة أنْ تقف في وجه المسيحيَّة والإسلام، وتقضي على الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة مُمثِّلة المسيحيَّة الأرثُوذُكسيَّة والخلافة الإسلاميَّة مُمثِّلة المُسلمين، ثُمَّ السّيطرة على العالم هدف اليهُود الأوَّل والدّائم، ولكنَّها لم تستطع - كما أسلفنا - مع أنَّها وقفت في وجه الدّولتَيْن فترة طويلة من الزّمن، وحقَّقت - في بعض الأحيان - انتصارات عليهما.[1]

رابعاً: تُعطي الدّولة الخَزَريَّة البُرهان القاطع الذي لا لبس فيه أنَّ ادِّعاء اليهُود أنَّهم حَفَدَةُ يعقُوب كاذب، فيهُود الخَزَر - كما أسلفنا - هُم مزيج من عناصر تُركيَّة و سلافيَّة وقُوقازيَّة لا تمُت إلى يعقُوب وذُرِّيَّة يعقُوب بأيَّة صلة، وأنَّ بدْعَة اللاَّساميَّة التي ابتدعها اليهُود في أُورُوبا مُتَّهمين الأُورُوبيِّيْن باحتقارهم واضطهادهم لأنَّهم ساميُّون ليس صحيحاً، والصّحيح أنَّ أُورُوبا احتقرتْهُم وكرهَتْهم لأنَّهم يهُود، ولهم سُلُوكيَّة خاصَّة، جَعَلَت مُحيطهم يكرههم، ويمقتهم في كُلِّ مكان أو زمان عاشوا فيه[2]، نتيجة هذه السُّلُوكيَّة التي تجعلهم مُتميِّزين من غيرهم، وأنَّهم شعب الله المُختار، لهم دينهم الخاصُّ بهم وحدهم، وإلههم الخاصُّ بهم، والذي يرعاهم ويحرسهم، وأنَّ مكارم الأخلاق التي دعا إليها مُوسى - عليه السّلام - لا تُطبَّق إلاَّ فيما بينهم، أمَّا العلاقة مع الآخرين "الأغيار"؛ فهي علاقة كُلُّها أنانيَّة واستغلال واستعلاء، تُحلُّ كُلَّ مُنكَر، وتُبيح كُلَّ مُحرَّم.

---

(1) سبب زوال الإمبراطُوريَّة الخَزَريَّة هُو الغزو المغولي من الشّرق والتّوسُّع الرُّوسي من الشّمال والغرب.

(2) للتّيقُّن من أنَّ اليهُود هُم أنفسهم الذين جَعَلوا العالم كُلَّه يكرههم، ويمقتهم، ويتمنّى الخلاص منهم؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ (اليهُوديَّة والغَيْريَّة غير اليهُود في منظار اليهُوديَّة) للفرنسي ألبيرتو دانزول، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004.

خامساً: اليهُود من غير الخَزَر في كُلِّ مكان في العالم اعتادوا الـذُّلَّ وكَبْتَ المشاعر في مُحيط لا يربطهم به دين ولا قوميَّة، وكان همُّهم جَمْعُ المال بأيَّة وسيلة كانت.

أمَّا يهُود الخَزَر؛ فقد كانت لهم دولة وسطوة ونُفُوذ استمرَّ أكثر من قرنَيْن، فلم يعتادوا الذُّلَّ وكَبْتَ المشاعر، فبمُجرَّد أنْ زالت دولتهم، وانتهى عزُّهم، لم يستكينوا، ولم يقبلوا بالأمر الواقع، ممَّا جعَلَهم يثورون ضدَّ الرُّوس، ويحيكون المُؤامرات للقضاء على حُكْمهم، ثُمَّ انساحوا في أُورُوبا الشّرقيَّة والوُسْطَى، وهُم - في كُلِّ مكان حلّوا فيه - حاولوا أنْ يكونوا سادة، ولَمَّا وجدوا أنَّهم لا يستطيعون ذلك، انبثقت عندهم فكْرة الصّهيُونيَّة، ونبتتْ لديهم فكْرة إنشاء دولة لهم تضمُّ شملهم، وتُعيد عزَّهم، وتُحقِّق لهم فكْرة السّيطرة على العالم، ثُمَّ تقرَّر في مُؤتمر بال في سويسرا عام 1897، أنْ تكون هذه الدّولة في فلسطين، ودَعَمَهَا يهُود العالم بمالهم، كما دَعَمَهَا يهُود الخَزَر برجالهم؛ أمثال جابوتنسكي، وبن غُوريُون وبيغن وشامير.. إلخ، ومن قبلهم واضع برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون "اشرغنزبرغ"، أو "آحدهاعام" "واحد من النّاس"، والتي تُحدِّد أهداف اليهُود ووسائل الوُصُول إلى تحقيق هذه الأهداف.

خُلاصة وتعليق:

لقد رأينا في هذا الفصل أنَّ اليهُود الحاليِّين يتألَّفون من عُرُوق عديدة وأجناس مُتباينة اعتنقت اليهُوديَّة في ظرف من الظُّرُوف، فقد انتشرت اليهُوديَّة؛ وخاصَّة بعد طَرْد اليهُود من القُدس خاصَّة، وفلسطين عامَّة على يد أباطرة الرُّومان؛ من تيتس إلى هدريان وتراجان، وأخيراً؛ على يد هرَقْل قبل فَتْح المُسلمين لبلاد الشّام بقليل.

وانتشر اليهُود وتشتُّتوا في أنحاء المعمورة، وكادت فلسطين أنَّ تخلو منهم قبل الفتح العَرَبيّ الإسلامي، وقد تهوَّد على يدهم الكثير من الشُّعُوب والقوميَّات، وخاصَّة بعد ظُهُور المسيحيَّة، التي أصبحت - هي واليهُوديَّة - في سباق على كَسْب الأتباع والانتشار.

وقُلنا: إنَّ اليهُوديَّة انتشرت بين القبائل العَرَبيَّة في جزيرة العَرَب؛ وخاصَّة في اليمن والحجاز، وانتقلت من اليمن إلى الحبشة، وانتشرت بين القبائل البربريَّة في شمال أفريقيا قبل الإسلام، وانتشرت - كذلك - في أُورُوبا، وخُصُوصاً في ألمانيا، وهُم يهُود الأشكناز، وكذلك في الشّرق بين الأكراد والفُرْس.

ولكنْ؛ كان تهوُّد الخَزَر هُو أكبر نجاح حقَّقتْهُ اليهُوديَّة في انتشارها؛ حيثُ أصبح لليهُود دولة، بل إمبراطُوريَّة شاسعة الأطراف، دامت أكثر من قرنَيْن من الزّمان، وإليها يعود يهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة الذين انتشروا من هُناك إلى أُورُوبا الوُسْطَى والغربيَّة، ثُمَّ انتقل الكثيرون منهم إلى العالم الجديد؛ وخاصَّة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

وهكذا نرى أنَّ اليهُوديَّة دين انتشر واعتنقتْهُ شُعُوب وأُمم عديدة ومُتباينة، وليس لليهُود الحاليِّيْن أيَّة صلة بيعقُوب وذُرِّيَّته، حتَّى إنَّ ذُرِّيَّة يعقُوب نفسها تنصَّر من أسباطها عشرة، وهُم الأسباط العشرة المفقودة في جبال كُردستان، الذين تنصَّروا، ومن بقاياهم النّساطرة الآشوريُّون اليوم. وهذا يعني أنَّ سبطَيْن - فقط - هُم الذين بقوا على اليهُوديَّة بعد تنصُّر الأسباط العشرة السّابقة الذّكْر.

وبهذا؛ ينتفي الأصل السّامي لليهُود، وتُصبح السّاميَّة بدْعَة يهُوديَّة صهيُونيَّة لإثبات حقِّهم في فلسطين، وأنَّ أُصُولهم تعود إلى المنطقة، وأنَّهم ليسوا غُرباء عنها، وأنَّهم - بعودتهم إلى فلسطين - يستردون حقَّهم فيها، ويستعيدون وطناً سُلب منهم، وطُردوا منه، وليُؤكِّدوا حقَّهم في فلسطين سمّوا (دولتهم بدولة "إسرائيل")، نسبة إلى إسرائيل، أو يعقُوب عليه السلام.

إنَّ في هذا أكبر فريّ في التّاريخ، وأكبر تجنٍّ على حقِّ عَرَب فلسطين في بلادهم. والتّاريخ يُثبت أنَّ فلسطين عَرَبيَّة قبل اليهُود، وبعد طَرْدهم منها، وتوراة اليهُود نفسها تُثبت أنَّ العَرَب العماليق والعَرَب الكنعانيِّيْن والأدوميِّيْن والمديانيِّيْن والسّبئيِّيْن.. إلخ، كانوا في فلسطين قبل هجرة بني إسرائيل إليها، وخلال تواجدهم فيها، والتّاريخ يُثبت - أيضاً - أنَّ وُجُود اليهُود في فلسطين كان وُجُوداً عابراً، مرَّ وكأنْ لم يَكُنْ.

أقسام اليهُوديَّة الرّئيسيَّة:

على ضوء ما تقدَّم من انتشار اليهُوديَّة؛ يُقسِّم الباحثون المُختصُّون يهُودَ العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسيَّة، هي: الأشكنازيُّون، السّفارديُّون، الشّرقيُّون.

الأشكنازيُّون:

تُنسب هذه الطّائفة إلى اليهُود الألمان، أو الذين يتحدَّرون من أصل ألماني، عاشوا في القُرُون الوُسْطَى في البُلدان التي كانت تتكلَّم الألمانيَّة. وفي العُصُور التي تلت ذلك أصبحت

الكلِّمة ذات مفهوم أوسع؛ إذْ لم تعد مُقتصرة على يهُود ألمانيا وحدهم، بل شملت جميع يهُود أُورُوبا الغربيَّة، ثُمَّ أُطلقت التّسمية - أيضاً - على اليهُود السّلاف من رُوسيا وبُولُونيا وشرق أُورُوبا بشكلٍ عامٍّ؛ أيْ أنَّ التّسمية أصبحت تُطلق على جميع يهُود أُورُوبا، دُون استثناء؛ عدا يهُود إسبانيا والبُرتُغال.

وكانت لُغتهم (اليديش Veadish) أساسها اللُّغة الألمانيَّة القديمة (المُستعملة في القُرُون الوُسْطى)، ثُمَّ دَخَلَتْ عليها مُفردات آراميَّة وغيرها من المُفردات الأجنبيَّة، فخرجت عن اللّهجة الألمانيَّة الأصليَّة، وتكوَّنت لها لهجات اختلفت باختلاف المناطق واللُّغات الأُخرى. وتُكتب هذه اللُّغة بالحُرُوف الآراميَّة؛ لأنَّ جماعات الألمان والسّلاف التي اعتنقت الدِّين اليهُوديّ اقتبست - أيضاً - الكتابة بالحُرُوف الآراميَّة مع هذا الدِّين. وكانت اللُّغة اليهُوديَّة (العبريَّة) قائمة إلى جانب لُغة "اليديش"، ولكنَّها كانت لُغة كتابة، وليست لُغة تخاطُب.

أمَّا مصدر تسمية "أشكنازيُّون"؛ فهُو كلِّمة "أشكناز"، وهي كلمة ألمانيَّة؛ ومعناها اليهُوديَّة الحديثة.

السّفارديُّون:

هُم اليهُود الذين تحدَّروا من اليهُود الذين هاجروا إلى شبه جزيرة "إيبريا" (أيْ إسبانيا والبُرتُغال)؛ خُصُوصاً بعد الفتح العَرَبيّ الإسلامي لإسبانيا عام 711م، وكان هؤلاء يتكلِّمون اللُّغة العَرَبيَّة في إسبانيا حتَّى القرن الثّالث عشر، ثُمَّ أخذوا يتكلَّمون اللُّغة الإسبانيَّة، والتي تمسَّكوا بها، واعتبروها لُغتهم التّقليديَّة في آخر عهدهم في إسبانيا قبل أنْ يُطردوا منها عام 1492، مع العَرَب المُسلمين.

والذين بقوا في إسبانيا، وأُجبروا على التَّنصُّر أصبح يُطلق عليهم مُنذُ عام 1496، "المارنيِّيْن"؛ أيْ الذين يتظاهرون بالنّصرانيَّة وهُم يقومون بالعبادات والطُّقُوس الدِّينيَّة اليهُوديَّة سراً[1]، وكانوا يعودون إلى اليهُوديَّة بعد خُرُوجهم من إسبانيا، وقد هاجر هؤلاء إلى جنوب

(1) كذلك "المُورسكيُّون"؛ وهُم المُسلمون الذين بقوا في إسبانيا، وأُجبروا على التَّنصُّر، وكانوا يقومون بعباداتهم الإسلاميَّة سراً، وأُقيمت محاكم التّفتيش لمثل هؤلاء؛ لمُحاكمتهم وإعدامهم.

أُورُوبا وشمال أفريقيا وبُلدان الشّرق الأوسط (الدّولة العُثمانيَّة)، وَذَهَبَ بعضهم إلى لندن وأمستردام وهامبورغ، ثُمَّ هاجروا إلى أماكن أُخرى في العالم.

وتُعرَف لُغة السّفاردِيِّين ـ والتي لا يزالون يتكلّمونها ـ بلُغة (اللاّدينو) "Ladino" الإسبانيَّة. وكلا "اليديش واللاّدينو" بقيتا على الأصل الألماني والإسباني في القرن الخامس عشر وما قبله، مع أنَّ اللُّغة الألمانيَّة والإسبانيَّة تغيَّرتا وتطوَّرتا مُنذُ ذلك الحين إلى شكلِّهما الحالي.

ويتميَّز السّفارديُّون من الأشكنازيِّين في الاختلاف الثّقافي، ذلك أنَّ اليهُود السّفارديِّين كانوا على مُستوى أعلى في الثّقافة والحضارة؛ مُستفيدين من حضارة العَرَب في إسبانيا، بينما عاش الأشكنازيُّون مُنطوين على أنفسهم، مُتمسِّكين باليهُوديَّة وتعاليمها وتقاليدها الدِّينيَّة. وقد برزت الفُرُوقات والاختلافات بين الطّائفتَيْن بعد هجرة يهُود إسبانيا وانتشارهم في أُورُوبا، ثُمَّ في الأمريكيَّتَيْن، وبعد اختلاطهم باليهُود الأشكنازيِّين في أُورُوبا؛ فكان اليهُود السّفارديُّون يعتبرون أنفسهم أعرق نَسَباً وأجلّ قدراً في المُستوى الحضاري والاجتماعي من الأشكنازيِّين، فلا يُخالطونهم في معابدهم، ولا يزوجُون بناتهم منهم. وقد استمرَّت هذه الفرقة بين الطّائفتَيْن حتَّى القرن السّابع عشر؛ حيثُ كانت الطّبقات الغنيَّة المُرفَّهة من اليهُود ماتزال من طائفة السّفارديِّين وحدها، ومُنذُ القرن الثّامن عشر بدأت بعض المجموعات اليهُوديَّة من أُورُوبا الوُسْطَى والشّرقيَّة (الأشكنازيُّون) بالحُصُول على مكانة مُتساوية مع اليهُود السّفارديِّين.

ويرجع الفرق بين اليهُود السّفارديِّين والأشكناز ـ أيضاً ـ إلى أنَّ اليهُود السّفارديِّين عاشوا في إسبانيا بين العَرَب، وتمتَّعوا في ظلِّ الإسلام بالحُرِّيَّة التّامَّة، وكانت عقائدهم مُحترمة، وحُقُوقهم مُؤمَّنة، ومُعترف بها، أمَّا اليهُود الأشكناز؛ فقد عاشوا في أُورُوبا في القُرُون الوُسْطَى بين المسيحيِّين منبوذين مُحتَقَرين ومُضطَهَدين، فكانوا أذلاَّء مُتقوقعين على أنفسهم في أحيائهم الخاصَّة بهم. وهذا أدَّى إلى اختلاف كبير في نفسيَّات الفريقَيْن وسُلُوكهما. فالسّفارديُّون اعتادوا العزَّة والكرامة والحُرِّيَّة في ظلِّ الإسلام، بينما الأشكنازيُّون اعتادوا الذُّلَّ والاضطهاد والتّقوقع في ظلِّ المسيحيَّة التي تعتبرهم قَتَلَةَ المسيح عليه السّلام.

اليهُود الشّرقيُّون:

وهُم اليهُود الذين غادروا فلسطين في إثر السَّبي البابليّ والطَّرْد الرُّوماني، وانتشروا شرقاً في العراق وإيران وأفغانستان، وغرباً في مصر وشمال أفريقيا، وصاروا يتكلّمون لُغات أهل البلاد التي نزحوا إليها، وعاشوا فيها، مع المُحافظة على لُغتهم الآراميَّة فيما بينهم، وهي اللُّغة التي يتكلّمونها قبل مُغادرتهم فلسطين.

إنَّ هذا التّقسيم التّاريخي قد تبدَّل الآن؛ بحيثُ أصبح المفهوم من كلمة "أشكنازيِّيْن" اليهُود الغربيِّيْن الذين هاجروا إلى فلسطين من أُورُوبا وأمريكا، وكثير منهم من أصل سفاردي، وأصبح المفهوم من كلمة سفارديِّيْن اليهُود الشّرقيُّون الذين هاجروا إلى فلسطين من بُلدان الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وقد انعكست الآية الآن في (إسرائيل)، فبعد أنْ كان السّفارديُّون يعتبرون أنفسهم أعرق نَسَباً، وأرفع قدراً في الثّقافة والحضارة من الأشكنازيِّيْن، أصبح الأشكنازيُّون (الذين يُمثّلون اليهُود القادمين من أُورُوبا والأمريكيَّتَيْن) هُم المُسيطرين في (إسرائيل)، وينظرون إلى اليهُود الشّرقيِّيْن (أصبح اسمهم السّفارديم) القادمين من اليمن وشمال أفريقيا والعراق ومصر (أيْ يهُود الوطن العَرَبيّ) والقادمين من إيران والهند وأفغانستان نظرة استخفاف واستهانة؛ لتفوقهم عليهم في المُستوى الثّقافي والحضاري والاجتماعي، ويُطلق عليهم - الآن؛ كما قُلنا - اليهُود السّفارديُّون (أيْ الشّرقيُّون).

ويقول ألفرد ليلنتال في كتابه (إسرائيل): «إنَّ اليهُود الشّرقيِّيْن الذين أُقنعوا بعد عام 1948، بالهجرة إلى (إسرائيل) سُرعان ما وجدوا أنفسهم ضحايا التَّعصُّب، ومع أنَّهم أصبحوا يُشكِّلون 50٪ من مجموع اليهُود في (إسرائيل)، إلاَّ أنَّ اليهُود المُسيطرين هُم من أُورُوبا الغربيَّة والشّرقيَّة، ويعتبرونهم فئة أدنى».

وفي إسرائيل حاخامان أكبران: حاخام أكبر لطائفة الأشكنازيِّيْن، وحاخام أكبر لطائفة السّفارديِّيْن (الشّرقيِّيْن) (وهُو في الأغلب من يهُود العراق أوالمغرب)[1].

---

(1) بحث أقسام اليهُود، د. أحمد سُوسة، (العَرَب واليهُود في التّاريخ)، ص 696 - 701، باختصار.

هل يُشكِّل اليهُود أُمَّة؟

إنَّ الشّعب اليهُوديّ لا وُجُود له مُنذُ أنْ شتَّته الرُّومان عام 70م، على يد طيطس الرُّوماني (ومَنْ خَلَفَهُ من أباطرة الرُّومان)، ولكنَّ الصّهيُونيَّة تستغلُّ الأساطير الدِّينيَّة اليهُوديَّة وخُرافات التّوراة والتّلمود من أجل إثارة عواطف وحماسة اليهُود؛ لتثبت وُجُود قوميَّة وأُمَّة يهُوديَّة.

والحقيقة؛ أنَّ اليهُود ليسوا أُمَّة واحدة، ولا شعباً مُتجانساً، بل هُم طائفة دينيَّة تضمُّ جماعات مُختلفة من النّاس اعتنقوا ديناً واحداً، كما رأينا ذلك واضحاً في هذا الفصل، أمَّا الذين يدَّعون أنَّ جميع اليهُود المُعاصرين هُم من نسل بني إسرائيل؛ فادِّعاؤهم باطل، لا يستند إلى أساس تاريخي، أو علمي.

وقد بيَّنَّا - في الفصل السّابق - كيف انتشرت اليهُوديَّة في قارَّات العالم القديم آسيا وأُورُوبا وأفريقيا، وخاصَّة بين القبائل الجرمانيَّة (الألمانيَّة) في ألمانيا، والخَزَر على نهر الفُولغا، وبين القبائل العَرَبيَّة في جزيرة العَرَب، والقبائل البربريَّة في المغرب العَرَبيّ (كُلُّ ذلك قبل الإسلام)، والقبائل الكُرديَّة في مُرتفعات كُردستان .. إلخ.

والحقيقة؛ أنَّ مُقوِّمات القوميَّة الواحدة أو الأُمَّة الواحدة لا تتوافر عند اليهُود؛ عدا النّاحية الدِّينيَّة؛ وهي العُنصُر الوحيد من مُقوِّمات الأُمَّة الواحدة الذي يجمع اليهُود.

فأيُّ ارتباط أو تشابه بين يهُود الحبشة (الفلاشا) واليهُود الزُّنُوج مع اليهُود الألمان أو يهُود رُوسيا وبُولُونيا والمجر ورُومانيا؟ وما الذي يربط هؤلاء بيهُود الصِّين أو الهند أو اليمن والمغرب العَرَبيّ؟ الحقيقة أنَّه لا رابط بين هذه الأقوام إلاَّ الدِّين، وحتَّى الدِّين ضعفت رابطته؛ لأنَّ كثيرين من اليهُود أصبحوا علمانيِّين، لا يتمسكون بتعاليم دينهم، ولا يعرفون من تعاليمه سوى أنَّهم يهُود.

وقد أدركت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أنَّ الرّابط الدِّيني لا يكفي، وأنَّ اللُّغة هي أقوى رابط في الأُمَّة، وأنَّ اللُّغة في كُلِّ أُمَّة هي رُوحها الحيّ والرّباط المتين الذي يربط بين أفرادها وجماعاتها.

لذلك عملت الصّهيُونيَّة - بكُلِّ ما تستطيع من جهد - لإحياء اللُّغة العبريَّة القديمة "الآراميَّة"، فوَضَعَتْ لها القواعدَ، وأحيت آدابها، وجَعَلَتْهَا لُغة اليهُود في فلسطين مُنذُ بدأت هجرة اليهُود إليها.

ونظَّموا الدّورات لتعليم اليهُود القادمين إلى فلسطين اللُّغـة العبريَّة ؛ لأنَّ كثيرين منهم كانوا لا يعرفون العبريَّة ، وإنَّما يتكلَّمون لُغة البلاد القادمين منها . وجَعَلوا لُغة التّعليم في مدارسهم اللُّغة العبريَّة من المرحلة الابتدائيَّة إلى الدّراسة في الجامعات ، لذلك فالجامعة العبريَّة في القُدس ـ مُنذُ تأسيسها عام 1925 ، على جَبَل المكبر ـ جَعَلَت اللُّغة العبريَّة هي لُغة التّدريس والبحث العلمي ، حتَّى في كُلِّيَّة الطِّبِّ وجميع الكُلِّيَّات العلميَّة ، ولحقت بها الجامعات التّالية ؛ مثل جامعة تل أبيب ، وجامعة حَيْفَا . . إلخ . وطَلَبوا من الحُكُومة البريطانيَّة أنْ تكون اللُّغة العبريَّة لُغة رسميَّة في فلسطين ، فوافقت على ذلك حكُومة الانتداب ، وأصبحت كُلُّ مطبوعات حكُومة الانتداب تصدر باللُّغات الثّلاث الإنكليزيَّة والعَرَبيَّة والعبريَّة .

والآن ؛ أصبحت اللُّغة العبريَّة هي اللُّغة الرّسميَّة في (إسرائيل) (كما هُو معروف) في جميع مجالات الحياة فيها . والحقُّ يقال : إنَّ ذلك كان إنجازاً عظيماً قامت به الصّهيُونيَّة في فلسطين ، وقد حقَّقت به نجاحاً كبيراً بخَلْق رابط قومي جديد وهامّ بين اليهُود في فلسطين وهُو الرّابط اللُّغوي ، وهُم القادمون من بلاد شتَّى ، ويتكلَّمون لُغات عديدة ومُتنافرة .

ومع كُلِّ ذلك مازالت هُنالك لُغات عديدة مُنتشرة في (إسرائيل) ، ومازالت تصدر لكُلِّ طائفة منها صُحُف يوميَّة بلُغاتها الخاصَّة . وفيما يلي نذكر اللُّغات المُنتشرة في (إسرائيل) وجنسيَّة المُتكلِّمين بكُلِّ لُغة[1] :

22٪ يتكلَّمون اللُّغة العبريَّة .

19٪ يتكلَّمون لُغة اليديش .

15٪ يتكلَّمون اللُّغات الرُّومانيَّة والبُولُونيَّة والمجريَّة .

10٪ يتكلَّمون اللُّغة الإنكليزيَّة .

7٪ يتكلَّمون اللُّغة الرُّوسيَّة .

7٪ يتكلَّمون اللُّغة الإسبانيَّة (اللاّدينو) .

---

(1) فوزي حميد ، "حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل" ، ص 76 .

6٪ يتكلَّمون اللُّغة الفرنسيَّة.

14٪ يتكلَّمون لُغات أُخرى مُتفرِّقة.

وكما أنَّ اللُّغة هي رُوح الأُمَّة استطاعت الصّهيُونيَّة أنْ تحقِّق إنجازاً عظيماً في هذه النّاحية، وأحيت لليهُود لُغة تربطهم، وتجمعهم، كذلك فالتّاريخ الذي هُو ذاكرة الأُمَّة ومن أهمِّ مُقوِّماتها، قامت الصّهيُونيَّة بإحياء تاريخ اليهُود القديم في فلسطين، واهتمَّت بهجرتهم إلى مصر، وخُرُوجهم منها (رغم أنَّ الهجرة كانت إلى مصرايم على وادي العريش، والخُرُوج منها، وليس من مصر ووادي النّيل؛ كما أسلفنا، وقدَّمنا البراهين على ذلك). واهتمّوا ـ كذلك ـ بتاريخ اليهُود في بابل على الفُرات، وذلك ليجعلوا مجال تاريخهم يمتدُّ على الوطن العَرَبيّ من النّيل إلى الفُرات. وقاموا بتدريس هذا التّاريخ في جميع مراحل التّعليم عندهم. وهكذا أصبح تاريخ اليهُوديّ الخَزَري واليهُوديّ الألماني والهندي .. إلخ، هُو تاريخ اليهُود أو بني إسرائيل في فلسطين، حتَّى اليهُوديّ اليمني العَرَبيّ الأصل أصبح تاريخه وأصله مُرتبط ببني إسرائيل وتاريخهم القديم في فلسطين. وبذلك استطاعت الصّهيُونيَّة أنْ تربط جميع يهُود العالم ـ مهما كانت أُصُولهم ـ بفلسطين أرض "المعاد" وتاريخها القديم. إنَّها أكبر فرية في التّاريخ، وعلى التّاريخ، عرفها العالم، ومع ذلك أصبحت حقيقة واقعة بين اليهُود.

وهكذا خلقت الصّهيُونيَّة لليهُود لُغة واحدة وتاريخاً مُشتركاً واحداً، بالإضافة إلى الدِّين المُشترك، وجَعَلَت من هذه الشُّعُوب المُتنافرة والأقوام المُختلفة أُمَّة واحدة هي الأُمَّة اليهُوديَّة[1].

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك، ورغم كُلِّ الجُهُود المبذولة لصهر اليهُود المُهاجرين إلى فلسطين في بوتقة واحدة لخلق أُمَّة واحدة منهم، فإنَّ التّمييز العُنصُري مايزال قائماً في (إسرائيل)، ولا يخفى على كُلِّ بصير.

---

(1) ونحنُ العَرَب تجمعنا جميع مُقوِّمات الأُمَّة الواحدة من لُغة وتاريخ وأرض ودين وعادات وتقاليد وآمال .. إلخ، ومع كُلِّ ذلك لم نستطع ـ حتَّى الآن ـ أنْ نُحقِّق الوحدة العَرَبيَّة، ولا حتَّى التّعاون العَرَبيّ المُشترك.

فالمُجتمع اليهُوديّ في (إسرائيل) هُو مُجتمع طَبَقي عُنصُري استعلائي، ففي قمَّة الـهَرَم السُّكَّاني في (إسرائيل) تأتي:

طبقة اليهُود الأشكنازيِّيْن: وهُم اليهُود الغربيُّون القادمون من أُورُوبا، ويدخل ضمنهم اليهُود السّفارديُّون الذيـن هـاجروا مـن إسبانيا إلـى بقيَّـة أنحـاء أُورُوبـا، ويُشـكِّلون 48٪ مـن السُّكَّان في عام 1984، وهُم يقبضون على ناصية الحُكْم والإدارة والاقتصاد في (إسرائيل)؛ ومنهم مُعظم الخُبراء والفنِّيِّيْن والقادة وأساتذة الجامعات.

طبقة اليهُود الشّرقيِّيْن: وهُـم اليـهُود الذيـن هـاجروا مـن الأقطـار العَرَبيَّـة، ويُشـكِّلون حوالي 40٪ من السُّكَّان في (إسرائيل) في عام 1984، وهُناك اليهُود الذين هاجروا من تُركيـا وإيـران والـهند وأفغانستان، ويُشكِّلون حوالـي 10٪ مـن السُّكَّان، ويدخـل ضمـن اليـهُود الشّرقيِّيْن اليهُود السّفارديِّيْن الذين هاجروا مـن إسبانيا إلـى الأقطـار العَرَبيَّـة وتُركيـا هَرَبـاً مـن اضطهاد الإسبان لهم.

ويُشكِّل اليهُود الشّـرقيُّون مُعظـم الطّبقـة العاملـة والحِرَفيِّـيْن، وبينـهم قلَّـة مـن خرِّيجـي الجامعات وأصحاب الثّقافة الأكاديميَّة العالية، وتتميَّز أُسَرُهُم بكَثْرة الإنجـاب وعـدد الأولاد بعكس الأُسرة الأشكنازيَّة القليلة الإنجاب والمحدودة العدد، واليهُود الشّرقيُّون يُشكِّلون وسط الهَرَم السُّكَّاني.

اليهُود الملوَّنون: وهُم يتُشكَّلون من اليهُود الزُّنُوج من الأمريكيَّتَيْـن، الذيـن تحـدَّروا مـن أُمَّهات يـهُوديَّات وآبـاء زُنُـوج[1]، أو مَنْ اعتنـق اليهُوديَّـة مـن زُنُـوج أمريكـا، ثُـمَّ مـن اليـهُود الأحباش (الفلاشا) واليهُود التّاميل القادمين من جنـوب الـهند، حتّـى اليـهُود العَـرَب السُّـمر المُهاجرين من اليمن، ويُشكِّل هؤلاء حوالي 2٪ من السُّكَّان في (إسرائيل)، وهُـم فـي أسـفل الهَرَم السُّكَّاني فيها.

وتُمارس (إسرائيل) ضـدَّ هـؤلاء تمييزاً عُنصُريّـاً واضحـاً، وتُسـمِّيهم "باليـهُود السُّـود"؛ احتقاراً لهم وتمييزاً لهم عن بقيَّة اليهُود.

---

(1) اليهُود يعتبرون ابن اليهُوديَّة يهُوديّاً مهما كان والده كما أسلفنا.

وقد ظهرت في (إسرائيل) أصوات كثيرة تُنادي بإيقاف هجرة اليهُود الْملوَّنين إلى (إسرائيل)، حتَّى البعض يُنادي بطَرْدهم من (إسرائيل)، فهُم يُشكِّلون مجموعة ناشزة في (إسرائيل) تفضح المبدأ القائل بأنَّ اليهُود أُمَّة واحدة.

ومن هؤلاء الحاخام "مائير كاهانا" الذي يُطالب بطَرْد اليهُود الزُّنُوج من (إسرائيل)؛ لأنَّ بشرتهم سوداء[1].

العَرَب الإسرائيليُّون: وهُم عَرَب فلسطين الذين بقوا في فلسطين الْمحتلَّة، ومَنَحَهُم اليهُودُ الجنسيَّةَ الإسرائيليَّةَ، وهؤلاء يقعون في قاعدة الهَرَم السُّكَّاني، والتَّمييز ضدَّهم واضح، حتَّى إنَّ اليهُود الْملوَّنين أحسن منهم حالاً، ويبلغ تعدادهم أكثر من ثلاثة أرباع المليون.

والخُلاصة؛ أنَّ الْمجتمع الصَّهيُونيّ يضمُّ في فلسطين أكثر من سبعين مجموعة عرْقيَّة مُختلفة عن بعضها في كُلِّ شيء. وقد هُجِّرت إلى فلسطين من مُختلف أنحاء العالم[2]. وتحمل كُلُّ جماعة منهم عادات وتقاليد البلد في مُجتمعها الأصلي. ولذلك فالتّباين واضح بينها، والتَّمييز فاضح؛ ليس بين أبيض وأسود وشرقي وغربي فحسب، بل إنَّ الصّراع في هذا الْمجتمع الْمتناقض يتمُّ على مُختلف الْمستويات والعُرُوق، رغم كُلِّ الجُهُود المبذولة لخَلْق أُمَّة واحدة من هذه المجموعات الْمتنافرة (والهجرة الْمضادَّة من (إسرائيل) إلى خارجها شاهد على ذلك).

والآن؛ مَنْ هُو اليهُوديّ؟

إنَّ الْمجتمع الإسرائيلي الصَّهيُونيّ في فلسطين يحتوي على كثير من غير الْمتديِّنين، بل ومن الْملحدين أيضاً، فهُم يهُود بالتَّسمية، وصهاينة بالانتماء، وهُم لا يحملون من طُقُوس الدّيانة اليهُوديَّة ومُعتقداتها ما يُؤهِّلهم لأنْ يُعترَف بهم كيهُود من حاخاماتهم، فهيرتزل مثلاً الذي يُسمَّى "نبيّ الصَّهيُونيَّة" كان علمانيَّاً مُلحداً، لا يتقيَّد بتعاليم التَّوراة والتّلمود، بل يستهزئ بها، ويقول في مُذكّراته: «إنَّ قفاه أقدس من التّوراة».

---

(1) فوزي حميد، "حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل"، ص 88.

(2) وقد غُرِّر بالكثيرين منهم بالوُعُود المعسولة والآمال الكاذبة.

والحقيقة أنَّ الصّهاينة في (إسرائيل) لم يتَّفقوا على وَضْع تعريف عملي لليهُوديَّة، وقد نصَّ قانون العودة على أنَّه: « يحقُّ لكُلِّ يهُودي أنْ يُهاجر إلى (إسرائيل)، ويُقيم فيها بصُورة نهائيَّة ». ولكن؛ مَنْ هُو اليهُوديّ المعني بالأمر؟ وعلى مَنْ تنطبق الهُويَّة اليهُوديَّة؟

فقد وَرَدَتْ تعليمات إسرائيليَّة صَدَرَت على شكل قانون عام 1960، تقول: « يُسجَّل يهُودياً في حقلَيْ الدّيانة والجنسيَّة في سجلاَّت الحالة المَدَنيَّة مَنْ تتوفَّر فيه الشُّرُوط التّالية:

1 - مَنْ وُلد من أُمٍّ يهُوديَّة، ولم يعتنق ديناً آخر.

2 - مَنْ اعتنق اليهُوديَّة وُفق شُرُوط مفروضة.

فالشّرع اليهُوديّ يقول: إنَّ اليهُوديّ مَنْ كانت أُمُّه يهُوديَّة، والقاعدة عندهم أنَّ الولد يتبع أُمَّه رقّاً وحُرِّيَّة، فابن الجارية يُولد رقيقاً، ولو كان أبوه حُرّاً.

ولكنَّ كثيراً من الأُمَّهات غير يهُوديَّات، وتزوَّجن من رجال يهُود، وهاجرن معهم إلى فلسطين، فأولادهن حسب الشّرع ليسوا يهُوداً، ولكي يكون أولادهنَّ يهُوداً عليهنَّ أنْ يكتسبن الانتماء للدِّين اليهُوديّ، وذلك بتنفيذ طُقُوس خاصَّة نصَّ عليها "الكنيست الإسرائيلي" كقانون عام 1970، جاء فيه: « يتوجَّب على كُلِّ امرأة غير يهُوديَّة تُهاجر من وطنها مع زوجها المُعتنق الدّيانة اليهُوديَّة أنْ تتعلَّم اللُّغة العبريَّة إلى جانب تعاليم التّوراة والتّلمود، ومن ثمَّ يتمُّ تهويدها ».

ولكنْ؛ كيف يتمُّ تحويلها إلى يهُوديَّة؟ يقول قانون "الكنيست الإسرائيلي": يتمُّ هذا بدُخُولها الحمَّام التّابع للمعبد اليهُوديّ وهي عارية الجسم تماماً. ومن ثمَّ عليها أنْ تغتسل أمام ثلاث حاخامات يهُود، وهُم الذين سيمنحونها تصريحاً أنَّها صارت يهُوديَّة ».

يقول جُورج فريدمان في كتابه "نهاية الشّعب اليهُودي": « إنَّ بن غُوريُون أثار فضيحة حول هذه المسألة في عام 1964، ونشأ نزاع بين الطّرف اليهُوديّ المُتشدِّد والطّرف المُتحرِّر نسبيّاً، حول ما إذا كان ينبغي للمرأة دُخُول الحمَّام عارية تماماً، أم يجوز لها التّستُّر بشيء من الملابس؛ حياءً من نَظَرَات الحاخاميِّيْن الثّلاثة ». وإذا رَفَضَتْ المرأة غير اليهُوديَّة ذلك، فإنَّها

لَا تتمتَّع بحُقُوق اليهُوديَّات، وكذلك أولادها لا ينتمون إلى الدّيانة اليهُوديَّة. والسّبب في كُلِّ ذلك أنَّ الدّيانة اليهُوديَّة تعتبر زواج اليهُوديّ من غير اليهُوديَّة يعتبر سفاحاً وغير شرعي، فـ "الغوييم" (أيْ غير اليهُود) كالدّواب لا يجوز عقد زواج بينهم وبين اليهُود.

وتقول التّوراة في سفْر التّكوين: «إنَّ الرَّبَّ يُحرِّم على الجيل العاشر المُنحدر من نسل السّفاح دُخُول بيته».

ولكنَّنا رأينا - فيما سَبَقَ، عندما تحدَّثنا عن تاريخ اليهُود القديم - أنَّ يهُوذا بن يعقُوب تزوَّج ابنة "يشوع" الكنعاني، وتزوَّج مُوسى ﷺ من ابنة شُعيب "صفورة"، وكانت أُمُّ الملك شاؤول كنعانيَّة، وكذلك جدَّة داود "راغوث" مُؤابيَّة، وتزوَّج داود وسُلَيْمَان - عليهما السّلام - نساء كثيرات من قوميَّات مُختلفة، وَوَثَنيَّات أيضاً.

الحقيقة أنَّ اليهُود - الآن - يُريدون من هذا التَّشدُّد في الانتماء لليهُوديَّة أنْ يُشعروا العالم أنَّهم من عرْق صاف، لم يختلط بغيره، وأنَّهم قد حافظوا على هذا الصّفاء والنّقاء من يعقُوب حتَّى اليوم، وهذا يُخالف ما وَرَدَ في التّوراة من الزّيجات السّابقة، ويُخالف الحقائق التّاريخيَّة التي لا مراء فيها من اعتناق أُمم وشُعُوب عديدة الدّيانة اليهُوديَّة (كما مرَّ معنا سابقاً).

وفي 23/ 1/ 1970، أصدرت محكمة العدل العُليا الإسرائيليَّة فتوى؛ وهي أنَّه «يحقُّ للشّخص أنْ يكون يهُودي القوميَّة دُون أنْ يكون يهُودي المذهب». وفي 10/ 3/ 1970، عُدِّلت الفتوى السّابقة كما يلي: «لا يُعتبر يهُودياً إلاَّ مَنْ وُلد من أُمٍّ يهُوديَّة، ويعتنق الدّيانة اليهُوديَّة».

وهكذا فإنَّنا نرى تخبُّطاً واضحاً في تعريف "مَنْ هُو اليهُوديّ؟" يدلُّ على حَيْرَة بالغة في هذا الموضوع، وخلاف عميق بين اليهُود المُتشدِّدين واليهُود المُعتدلين.

وآخر التّعديلات المُتساهلة هي: «يُعتبر يهُودياً كُلّ مَنْ كان له سَلَف يهُودي»، في حين كان في الأصل لا يُعتبر يهُودياً إلاَّ مَنْ كان أبوه وأجداده من اليهُود[1].

---

(1) فوزي حميد، "حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل"، ص 97 - 99.

القسم الثَّاني:

اليهُود

عقائدهم الدِّينيَّة

وطوائفهم وتعاليم حُكَمَائهم

ونشاطاتهم السِّياسيَّة وسُلُوكيَّاتهم وأخلاقهم

الفصل الأوّل:

الدّيانة اليهُوديَّة[1]

التّوراة ـ التّلمود

مُقدِّمة:

تقوم الدّيانة اليهُوديَّة على مصدرَيْن: أوَّلهما ـ وهُو الأساس ـ "التّوراة"، وتُعرَف ـ أيضاً ـ "بالعهد القديم"، أو "العهد العتيق" تميُّزاً لها من "العهد الجديد" "الإنجيل". والعهد القديم مُقَدَّس عند اليهُود وعند النّصارى على السّواء، ويُعتبر جُزءاً من الدّيانة المسيحيَّة، ويُسمَّى كلا العهدَيْن القديم والجديد بـ "الكتاب المُقَدَّس".

أمَّا المصدر الثَّاني؛ فهُو "التّلمود"، ومعناه التّعاليم أو الشّرح والتَّفسير، ويشتمل على مجموعة من الشّرائع اليهُوديَّة، وشُرُوح وتعليقات على التّوراة، وَضَعَهَا عُلماء اليهُود والأحبار والحاخامات بعد المسيح عليه السّلام، فبنوا عليها سُنَناً وآداباً أصبحت على مرِّ الزَّمن محلَّ تقديس عند اليهُود كالتَّوراة، لذلك لم يردْ أيُّ ذكْرٍ للتّلمود؛ لا في الإنجيل، ولا في الحوار بين النّصارى والفرَق اليهُوديَّة، كما أنَّه لم يرد ذكْر للتّلمود؛ لا في القُرآن الكريم، ولا في الأحاديث النّبويَّة الشّريفة.

أوّلاً: العهد القديم "التَّوراة":

يتألَّف العهد القديم من الكتاب المُقَدَّس، أو ما يُسمَّى بالتّوراة بالآراميَّة؛ أيْ "الهدى والإرشاد"، وبمعناها الحرفيّ "التّعليم" من 39 سفْراً، ويُقسم إلى ثلاثة أقسام (حسب التّرجمة البرُوتستانتيَّة، إصدار الجامعة الأمريكيَّة):

---

(1) المراجع الأساسيَّة لهذا البحث هي: 1 ـ التّوراة؛ الطّبعة البرُوتستانتيَّة. 2 ـ العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 354 ـ 618. 3 ـ برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، عجاج نُويهض، ج3، ص 1 ـ 26.

القسم الأوّل:

ويتألّف من خمسة أسفار هي:

سفْر التّكوين **siseneG**

سفْر الخُرُوج **Exodus**

سفْراللاّوِيِّيْن **Leviticus** (يُسمَّى حسب التّرجمة الكاثُوليكيَّة سفْر الأحبار).

سفْر العدد **Numbers**

سفْر التّثنية **Deuteronome**

وقد أُطلق على هذه الأسفار الخمسة الأُولى اسم "كُتُب مُوسى الخمسة"، وسُمِّيت باليُونانيَّة "بنتاتيك **Pentatichus**" أيْ الكتاب ذُو الأسفار الخمسة. وتُطلق ـ أحياناً ـ لفظة "التّوراة" على الأسفار الخمسة؛ باعتبارها في بعض المذاهب اليهُوديَّة الأسفار التي تعود إلى عهد النَّبيّ مُوسى عليه السّلام.

وقد نُسِّق العهد القديم على أساس تسمية كُلِّ سفْر حسب مُحتواه:

فسُمِّي السِّفْر الأوّل "التّكوين": لأنّه يصف الخليقة وبدء العالم والشّعب المُختار بنوع خاصٍّ، وسُمِّي السِّفْر الثّاني "الخُرُوج": لأنّه يتحدَّث عن خُرُوج بني إسرائيل من مصر، وعن الوحي على جَبَل سيناء، وقد دُوِّنت أحكام الشّريعة فيه؛ ومن ضمنها الوصايا العشر[1] في الإصحاح العشرين من هذا السِّفْر.

وسُمِّي السِّفْر الثّالث "اللاّوِيِّيْن": لأنّه يحتوي على طُقُوس الكَهَنَة أبناء لاوي من نسل هارُون، وسُمِّي السِّفْر الرّابع "العدد": لما تضمّنه من إحصاءات الشّعب المُختار، وسُمِّي السِّفْر الخامس "التّثنية أو تثنية الاشتراع": الذي يبدو كتكرار وتتمّة لشريعة مُوسى عليه السّلام.

---

(1) الوصايا العشر هي: أنا إلهكَ، فلا يكنْ لك آلهة أُخرى أمامي ـ لا تصنعْ تمثالاً منحوتاً، ولا صُورة ما ـ لا تنطق باسم الرَّبِّ إلهكَ باطلاً ـ اذكرْ يوم السّبت المُقَدَّس ـ أكرمْ أباكَ وأُمَّكَ ـ لا تقتلْ ـ لا تزن ـ لا تشهد الزُّور ـ لا تشته بيتَ قريبكَ، ولا شيئاً ممَّا يملكُ.

وقد تضمَّن السِّفْران الأخيران وصفاً للفتح الذي تمَّ على يد النَّبيّ مُوسى عليه السلام في الجانب الشّرقي من نهر الأُردُن، وتوزيع الأراضي المُستولى عليها على سبطَيْن ونصف السّبط من الأسباط الاثنَيْ عشر.

وقد جاءت هذه المجموعة على مزيج من القَصَص والشّرائع تربط سياق الحوادث مُنذُ خَلق العالم، حتَّى موت مُوسى عليه السّلام.

القسم الثّاني:

ويُسمَّى "نبييم"؛ أيْ الأنبياء، ويشتمل هذا القسم على مجموعتَيْن:

المجموعة الأُولى: خاصَّة بالأنبياء المُتقدِّمين، وتتناول تاريخ اليهُود من دُخُول يُوشع فلسطين حتَّى هدم هيكل اليهُود في بيت المَقدس، وتتألَّف هذه المجموعة من الأسفار التّالية: وهي ثمانية أسفار:

1 ـ سفْر يُوشع: ويحتوي على تفاصيل توغُّل المُوسويِّيْن في فلسطين (غربي الأُردُن)، وتقسيم الأراضي التي تمَّ فتحها على تسعة أسباط ونصف السّبط الباقية.

2 ـ سفْر القُضاة: ويشمل فترة عهد القُضاة بين موت يُوشع وولادة صموئيل.

3 ـ 4 ـ سفْرا صموئيل الأوَّل والثَّاني (ويُسمَّيان سفْر المُلُوك الأوَّل والثَّاني حسب التّرجمة الكاثُوليكيَّة).

السِّفْر الأوَّل: خاصّ بتاريخ صموئيل وشاؤول، والقسم الأوَّل من عهد داود عليه السلام.

السِّفْر الثَّاني: خاصّ بحُكْم داود عليه السلام.

5 ـ 6 ـ سفْرا المُلُوك الأوَّل والثَّاني (ويُسمَّيان سفْر المُلُوك الثَّالث والرَّابع حسب التّرجمة الكاثُوليكيَّة)، ويبحثان في الفترة من موت داود حتَّى بدء السّبي البابليّ.

7 ـ 8 ـ سفْرا أخبار الأيَّام الأوَّل وأخبار الأيَّام الثَّاني: وهُما كناية عن وثائق غير مُصنَّفة، وسُلالات نَسَب، وأجزاء روائيَّة من آدم حتَّى بداية عهد قورش.

المجموعة الثَّانية: خاصَّة بالأنبياء المُتأخِّرين، وتتألَّف من أربعة عشر سفْراً هي: أشعيا - إرميا - حزقيال - يوئيل - عاموس - عوبديا - يُونان - ميخا - ناحوم (أو نحوم) - حبقوق - صفنيا - حجي أو حجاي - ملاخي.

القسم الثَّالث:

ويُسمَّى "كتبيم" (أيْ الكتابات والأشعار)، ويتألَّف من اثنَيْ عشر سفْراً هي: مزامير داود - أمثال سُلَيْمَان وأيُّوب - نشيد الإنشاد - راعوت - هوشع - مراثي إرميا - الجامعة - أستير - دانيال - عزرا - نحميا.

وعلى هذا؛ يكون العهد القديم مُؤلَّفاً من 39 سفْراً مُقسَّماً إلى ثلاثة أقسام؛ وهي: البنتاتيك - النَّبيّيم - الكتبييم.

والأُستاذ عجاج نُويهض يُورد في كتابه "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون" الجُزء الثَّاني صفحة 4، تقسيماً يُشبه التّقسيم السّابق تقريباً؛ وهُو كما يلي:

أوّلاً: الأسفار التَّاريخيَّة: وتتألَّف من 17 سفْراً هي: **1** - سفْر التَّكوين، **2** - سفْر الخُرُوج، **3** - سفْراللاَّويِّيْن، **4** - سفْر العدد، **5** - سفْر التّثنية، **6** - سفْر يُوشع، **7** - سفْر القُضاة، **8** - سفْر راعوث، **9** - سفْر صموئيل الأوَّل، **10** - سفْر صموئيل الثَّاني، **11** - المُلُوك الأوَّل، **12** - المُلُوك الثَّاني، **13** - أخبار الأيَّام الأوَّل، **14** - أخبار الأيَّام الثَّاني، **15** - عزرا (عُزَيْر)، **16** - نحميا، **17** - أستير.

ثانياً: الأسفار الشَّفويَّة؛ وهي خمسة أسفار: **18** - سفْر أيُّوب، **19** - سفْر المزامير، **20** - سفْر الأمثال، **21** - سفْر الجامعة، **22** - سفْر نشيد الإنشاد.

ثالثاً: أسفار الأنبياء، ، وهي سبعة عشر سفْراً: **23** - أشعيا، **24** - إرميا، **25** - مراثي إرميا، **26** - حزقيال، **27** - دانيال، **28** - هوشع، **29** - يوئيل، **30** - عاموس، **31** - عوبديا، **32** - يُونان (يُونُس)، **33** - ميحا، **34** - ناحوم، **35** - حبقوق، **36** - صفنيا، **37** - حجي (حجاي)، **38** - زكريَّا، **39** - ملاخي.

وهذا التّقسيم ينطبق على ما وَرَدَ في الكتاب المُقَدَّس إصدار "دار الكتاب المُقَدَّس في الشّرق الأوسط"، وهي الطّبعة البرُوتستانتيَّة.

أمَّا الطّبعة الكاثُوليكيَّة (اليسوعيَّة)؛ فتضمُّ 46 سفْراً، وتقسم العهد القديم إلى أربعة أقسام، هي:

أ ـ الكتاب ذُو الأسفار الخمسة (البانتيتيك)، وهي الخمسة أسفار الأُوَّل؛ وهي:

التّكوين ـ الخُرُوج ـ الأحبار ـ العدد ـ التّثنية (تثنية الاشتراع).

ب ـ كُتُب التّاريخ، وتشمل أسفار: يُوشع ـ قُضاة ـ راعوث ـ المُلُوك الأوَّل والثَّاني والثَّالث والرَّابع ـ أخبار الأيَّام الأوَّل والثَّاني ـ عزرا ـ نحميا ـ طوبيا ـ يهُوديت ـ أستير ـ المكابيِّين الأوَّل والثَّاني (وهي 17 سفْراً).

ج ـ كُتُب الشّعر والحكَم، وتشمل أسفار: أيُّوب ـ المزامير ـ الأمثال ـ نشيد الإنشاد ـ الحكْمة ـ يُوشع بن سيراج ـ باروك (وهي سبعة أسفار).

د ـ الأنبياء، وتشمل أسفار: أشعيا ـ إرميا ـ مراثي إرميا ـ حزقيال ـ دانيال ـ هوشع ـ يوئيل ـ عاموس ـ عوبيديا ـ يُونان ـ ميخا ـ نحوم ـ حبقوق ـ صفتيا ـ حجاي ـ زكريا ـ ملاخي (وعددها 17 سفْراً).

وهكذا؛ يُصبح عدد أسفار العهد القديم في التّرجمة الكاثُوليكيَّة 46 سفْراً؛ أيْ بزيادة سبعة أسفار عن التّرجمة البرُوتستانتيَّة؛ والأسفار الزّائدة هي: يهُوديت ـ طوبيا ـ مكابيِّين أوَّل وثاني ـ حكْمة ـ يشوع بن سيراج ـ باروك.

الدّيانة اليهُوديَّة ديانة كَهَنُوتيَّة:

تُعدُّ الدّيانة اليهُوديَّة ديانة كَهَنُوتيَّة؛ إذْ إنَّ الكَهَنَة هُم الذين يقومون بتفسير التّوراة، وهُم الوُسطاء بين اليهُود وإلههم "يَهْوَه"، وهُم الذين يُتقنون الشّريعة، ويُوجِّهون الشّعب اليهُوديّ في مُمارسة شعائره الدِّينيَّة، وكانت وظيفة الكُهَّان عندهم وراثيَّة، وقد حُصرت في نَسْل هارُون عليه السلام، وهُم "اللاَّويُّون" على قول التّوراة.

وتُوجد ـ هُناك ـ فئة قليلة من اليهُود لا تعترف مـن التّوراة إلاّ بالأسفار الخمسة الأُولى المنسوبة لُموسى عليه السلام، وتُسمَّى أسفار مُوسى، ومن هذه الفئـة "السّامريُّون" أو "السّمرة" نسبة إلى السّامرة (نابلس الآن)، وتُوجد لديهم ـ كما يدَّعـون ـ نُسخة قديمة من الأسفار الخمسة مكتوبة على رقٍّ يدَّعون بأنَّها ترجع إلى ما قبل عهد المسيح عليه السّلام، وهُم يرفضـون كُلَّ ما عداها من الأسفار.

وهُناك فرقة يهُوديَّة أُخرى تُسمَّى (بالصّدُّوقيِّين) نسبة إلى رائدهم الأوَّل "صدقـة"، وقد ظهرت في زمن السّلوقيِّين، وهؤلاء لا يُقرُّون بما يأتي به الشُّيُوخ والكَتَبَة ممَّا هُو خارج عن الأسفار الخمسة المنسوبة لُموسى عليه السّلام، وهُم ـ بذلك ـ يقفون مع السّامريِّين على صعيد واحد، (وسنتكلم عن هاتَيْن الفرقتَيْن بشيء من التّفصيل عندما نتحدَّث عن الطّوائف والفرَق اليهُوديَّة).

تاريخ التّوراة:

لُغتها ومكان ظُهُورها وزمانها:

إنَّ البحث في تاريخ التّوراة ولُغتها ومكان ظُهُورها وزمانه هامٌّ جداً؛ لأنَّه يتعلَّق بتاريخ اليهُود القديم.

يقول الدُّكتُور أحمد سُوسة[1]: إنَّ البحث في هذا الموضوع يحتاج ـ أوّلاً ـ إلى توضيح نُقطة هامَّة تدور حول استعمال مُصطلح "بني إسرائيل" كما جاء في التّوراة؛ فالتّوراة اعتبرت بني إسرائيل الموضوع الرّئيس الذي ترتكز عليه جميع الحوادث الواردة فيها، وقد اعتبرتهم موجودين في كُلِّ زمان ومكان؛ حتَّى في الأدوار الأُولى التي سبقت ظُهُورهم إلى عالم الوُجُود، فقد اعتبرت وُجُودهم في دور إبراهيم الخليل عليه السّلام في القرن التَّاسع عشر قبل الميلاد؛ أيْ قبل أنْ يُخلق يعقُوب (إسرائيل)، كما أنَّها اعتبرت وُجُودهم بعد عهد أبيهم يعقُوب بعدَّة قُرُون؛ أيْ في عهد النَّبيّ مُوسى عليه السلام، عندما نزحت جماعته إلى أرض فلسطين في القرن الثَّالث عشر قبل الميلاد، ثُمَّ اعتبرت وُجُودهم في جميع الأدوار التّالية،

---

(1) د. أحمد سُوسة، "اليهُود والعرَب في التّاريخ"، 363ـ365.

ومن ضمنها عهد المُلُوك، وعهد الانقسام، وما تلا ذلك من السّبي الآشوري والسّبي البابليّ، وحتَّى يهُود العالم اليوم هُم ـ على رأي التّوراة (والصّهيُونيَّة) ـ أبناء يعقُوب الذي عاش قبل 3600 سنة . . فيا لغرابة هذا المنطق!!!

أمَّا إذا أُردُنا تتبُّع الأدوار التَّاريخيَّة حسب تسلسلها الزّمني؛ فيتوجَّب علينا التّمييز بين عصر إبراهيم وإسحاق ويعقُوب عليهم السّلام، الذي يمتدُّ حتَّى ظُهُور مُوسى، وبين عصر مُوسى الذي يمتدُّ حتَّى زمن مملكة يهُوذا، ثُمَّ زمن مملكة يهُوذا الذي جاء اسم "اليهُود" منها، والذي يمتدُّ حتَّى العصر الحاضر.

وهكذا نستطيع أنْ نُلخِّص تسلسل الأدوار بالقياس إلى اللُّغة والدّيانة والزّمن كما يلي:

أ ـ **الدَّور الأوَّل**: وهُو دور إبراهيم وإسحاق ويعقُوب ويُوسُف عليهم السّلام، وترجع حوادثه إلى القرنَيْن التَّاسع والثَّامن عشر قبل الميلاد، وهُو مُستقلٌّ بداية، ليس له صلة بدور مُوسى عليه السلام والدَّور اليهُوديّ الذي يليه. ويمتدُّ هذا الدَّور حتَّى ظُهُور مُوسى عليه السلام. ولُغة هذا الدَّور هي العَرَبيَّة الأُمّ (الكنعانيَّة)، والدّيانة فيه وحدانيَّة إبراهيم الخليل الخالصة لله وحده لا شريك له.

ب ـ **الدَّور الثَّاني**: وهُو دور مُوسى عليه السلام، وتقع حوادثه في القرن الثَّالث عشر قبل الميلاد، ولا صلة له بعصر إبراهيم وإسحاق ويعقُوب عليهم السّلام، إلاَّ من النّاحية التَّوحيديَّة، فالكُلُّ مُوحِّدون، ولكنَّ مُوسى عليه السلام جاء بشريعة جديدة هي شريعة مُوسى عليه السلام، لذلك نستطيع أنْ نُسمِّي أتباعه "قوم مُوسى"، أو "المُوسويِّيْن"، ولُغة هذا الدَّور هي اللُّغة الآراميَّة أو الكنعانيَّة. ويستمرُّ هذا الدَّور حتَّى السّبي البابليّ 582 ق. م.

ج ـ **الدَّور الثَّالث**: وهُو الدَّور الذي يبدأ بسبي اليهُود إلى بابل في القرن السَّادس قبل الميلاد، وهُم بقايا جماعة يهُوذا، وقد سُمّوا باليهُود نسبة إلى مملكة يهُوذا في القُدس، والتي ـ هي بدورها ـ سُمِّيت مملكة يهُوذا؛ نسبة إلى سبط يهُوذا بن يعقُوب. وقد كان لهؤلاء في ـ هذا الدَّور الأخير ـ النّصيب الأوفى في تكوين الدّيانة اليهُوديَّة بشكلها الحالي[1].

(1) لأنَّ يهُود السّامرة أو مملكة السّامرة الذين نفاهم الآشوريُّون إلى مجاهل كُردستان قد ضاعوا هُناك، وتنصَّروا، وقد جاء الآشوريُّون بسُكَّان بدلهم إلى السّامرة، كما مرَّ معنا.

وفي بابل؛ مارس اليهود شعائرهم الدِّينيَّة، وواصل كَهَنَتُهُم أعمالهم الدِّينيَّة بكتابتهم أهمّ فُصُول التّوراة، والتّمهيد لتدوين التّعاليم اليهُوديَّة باسم "التّلمود البابليّ"، حتَّى إنَّ السّبي البابليّ كان عاملاً قويّاً في تطوير الدّيانة اليهُوديَّة في القُرُون التّالية.

وقد دوَّن الكَهَنَةُ التّوراةَ باللُّغة الآراميَّة (المعروفة بآراميَّة التّوراة). ويبدو - لأوَّل وهلة عندما نستعرض التّوراة - أنَّ **الهدف الأوَّل** لكَتَبَة التّوراة هُو تمجيد تاريخ زُمرتهم اليهُوديَّة، وجعلها صفوة الأقوام البشريَّة، والجماعة المُختارة التي اصطفاها الرَّبُّ من دُون بقيَّة الشُّعُوب. وهكذا دَخَلَتْ مقولة أنَّ اليهُود هُم "شعب الله المُختار"، وأنَّ أصلهم يرجع إلى أقدس شخصيَّة في التّاريخ؛ وهي إبراهيم الخليل عليه السّلام، الذي كان صيته وتأثيره قد عمَّ جميع أرجاء عالم ذلك الزّمان (لأنَّ كثيراً من سُكَّان المنطقة هُم من ذُرِّيَّته من عدنانيِّيْن، ومديانيِّيْن، وأدوميِّيْن، وسبئيِّيْن، ومُؤابيِّيْن .. إلخ).

أمَّا **الهدف الثَّاني**؛ فهُو تثبيت عقيدة الأرض الموعودة على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقُوب، ثُمَّ مُوسى عليهم السّلام (وهُم بريئون منها)، وقد حالفهم النّجاح في سرد هذا التّاريخ حسب أهوائهم ونزعاتهم بلباقة ومهارة لم يسبق لها نظير في العالم.

ثُمَّ جاء عهد اليُونان، فأضاف أخلافهم في فلسطين إصحاحَيْ المكابيِّيْن إلى التّوراة.[1]

ويتَّضح - ممَّا تقدَّم - أنَّ التّوراة قد كُتبت بعد إبراهيم الخليل بألف وثلاثمائة عام، وبعد عهد مُوسى بأكثر من سبعة قُرُون، وهي - بالطّبع - غير التّوراة التي نزلت على مُوسى عليه السلام.

ويُؤكِّد لودس في كتابه (إسرائيل ص 359) ذلك بقوله: «إنَّنا لا نستطيع أنْ نُؤيِّد صحَّة وُقُوع تاريخ أيٍّ من أسفار مُوسى الخمسة وحتَّى الوصايا العشر إلى عصر مُوسى؛ لأنَّ ما وَرَدَ من روايات في هذه الأسفار قد تعرَّض أكثر من بقيَّة الأسفار في التّوراة إلى تكرار وإعادة

(1) كُتب هذان الإصحاحان (أو السِّفْران) - في الأصل - باليُونانيَّة، ثُمَّ تُرجما إلى الآراميَّة، ويبحثان في تاريخ فترة المكابيِّيْن من 167 - 37 ق.م. وكتابات التّوراة عن هذه الأدوار المُتأخِّرة تُعتبر تاريخاً للوقائع السِّياسيَّة والحُرُوب التي وقعت في الشّرق الأدنى في العُهُود الآشوريَّة والبابليَّة واليُونانيَّة، أمَّا ما وَرَدَ في التّوراة من مزامير وأمثال وأشعار وشرائع وما إلى ذلك من أساطير وقَصَص؛ فهُو مُستقى من المصادر الأدبيَّة القديمة لمُختلف الثّقافات التي اطّلع عليها كَتَبَةُ التّوراة، ومن المُعتقدات والتّقاليد الاجتماعيَّة التي عاشوها ومارسوها - فعلاً - في فلسطين وبابل.

وإلى تغيير وتوسيع مُستمرِّين على مرِّ العُصُور »، ثُمَّ يُضيف إلى ذلك قوله: « وإذا أمعنَّا النَّظر إمعاناً دقيقاً في العهد القديم نجد الوصايا العشر أُدخلت في سفْر الخُرُوج وسفْر التَّثنية في وقت مُتأخِّر؛ حيثُ ظهرت في الكتابات اليهُوديَّة في القرن السَّابع قبل الميلاد » (لودس 315).

ويعترف العالم اليهُوديّ "سيلفر" بأنَّ التّوراة الحاليَّة لا تُمثِّل توراة مُوسى الأصليَّة في أيَّة ناحية، وحتَّى الوصايا العشر ـ التي يكاد يُجمع العُلماء أنَّها الشَّيء الوحيد المُتبقِّي من التّوراة الأصليَّة ـ لم تكن في شكلها ومضمونها الحاليَّين كتلك التي أتى بها مُوسى عليه السّلام[1].

ويقول العالم الألماني الدُّكتُور مورتكات: « لا يُمكن الاعتماد ـ من ناحية العلميَّة ـ على أساطير التّوراة؛ إذْ برهنت الأبحاث الأثريَّة على عدم صحَّة أكثر تلك الأساطير التي وَرَدَتْ فيها، كما وتُوجد أبحاث تُبرهن على عكس هذه الأساطير » (مورتكات: تاريخ الشّرق الأدنى القديم، صفحة 272).

وفي نفس المعنى يقول المرحوم عبَّاس محمود العقَّاد: « وأعجب العجب أنْ تُنسب هذه الأسفار (الخمسة) لمُوسى، وفيها وصف موته ودفنه، ومُقارنة بينه وبين التّابعين له من الأنبياء، ومعنى ذلك أنَّ الإصحاح الرَّابع والثَّلاثين من سفْر التَّثنية كُتب بعد مُوسى، وبعد قيام أنبياء كثيرين لتقوم المُقارنة بينهم وبين مُوسى عليه السّلام، فمن الثّابت ـ قطعاً ـ أنَّ هذه الأسفار اليهُوديَّة كُتبت بعد عصر مُوسى بعدَّة قُرُون »، (العقَّاد، "الصّهيُونيَّة العالميَّة وقضيَّة فلسطين" ص150)[2].

والخُلاصة ممَّا تقدَّم أنَّ أحبار اليهُود دوَّنوا التّوراة في الأَسْر (في بابل)، وحاولوا تثبيت الاستمراريَّة بين دينهم وتعاليم إبراهيم الخليل عليه السّلام، وسدِّ الثّغرات بين كُلِّ دور والذي يليه، وإبراهيم الخليل ومُوسى الكليم عليهما السّلام بريئان من اليهُود وتعاليمهم.

ترجمة التّوراة إلى العَرَبيَّة:

لقد تُرجمت التّوراة إلى كُلِّ لُغات العالم قديماً وحديثاً، وأقدم ترجمة إلى اللُّغة العَرَبيَّة ترجع إلى عهد هارُون الرّشيد. فقد ذكر ابن النّديم أنَّ أحمد بن عبد الله بن سلام الإنجيلي

(1) د. سامي سعيد، "الأُسُس التّاريخيَّة للعقيدة اليهُوديَّة"، ص 76، نقلاً عن لودس، 315.

(2) الفقرات السّابقة كُلُّها منقولة عن كتاب: العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 369 ـ 370.

هُو الذي ترجم التّوراة من اللُّغة الآراميَّة إلى اللُّغة العَرَبيَّة ، ويُؤكِّد أنَّه التزم بالنَّصِّ حَرْفيّاً ، ولم يزد عليه ، ولم يُنقص منه مخافة التّحريف .

وقد ذكر المسعودي ثلاثة نُقُول أُخرى : الأُولى لحنين بن إسحاق النّسطوري المُتوفَّى عام 874ن ، وقد اعتمد فيه على التّرجمة اليُونانيَّة ، والاثنان الآخران لحبرَيْن من أحبار اليهُود ؛ وهُما : أبو كثير المُتوفَّى 932م ، ويُوسُف الفيُّومي المشهور بـ "سعديا جادون" المُتوفَّى عام 943م ، ولم يبقَ من هذه النُّقُول إلاَّ نَقْل سعديا ، والنَّقل الوحيد الآخر الذي بقي من هذا العهد هُو الذي أُنجز عمله في الأندلس عام 956 ، ونُقل عن اللاَّتينيَّة .

وفي القرن الثَّامن عشر للميلاد ؛ قام المُستشرقان الفرنسيَّان : البارون دي ساسي وكاترمير **Quetremere** بالإشراف على طبع التّوراة بالعَرَبيَّة .

أمَّا ترجمات "الكتاب المُقدَّس" العَرَبيَّة الكاملة بشقَّيه العهد القديم و العهد الجديد ؛ فهُناك ثلاث ترجمات أُنجزت جميعها خلال النّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر ؛ وهي التّالية :

أوَّلاً : **التّرجمة البرُوتستانتيَّة الأمريكانيَّة** ، وقد قام بها الإرساليُّون الأمريكان في بيروت بواسطة لجنة مُؤلَّفة من خمسة أعضاء ، أُضيف إليها سادس فيما بعد برئاسة العلاَّمة جُورج بُوست .

وقد فرغت هذه اللّجنة من تحقيقاتها بإصدار العهد الجديد عام **1860** ، والعهد القديم عام **1865** ، ومن ثمَّ عمدت إلى ضمِّ العهدَيْن معاً في مُجلَّد واحد ضخم . وقد تمَّت طباعة هذه التّرجمة على مطابع الجامعة الأمريكيَّة ، وعلى نفقة اللّجنة التّوراتيَّة الأمريكانيَّة .

ثانياً : **التّرجمة الكاثُوليكيَّة** التي قام بها الآباء اليسوعيُّون في بيروت أيضاً . وقد استغرقت هذه التّرجمة تسع سنوات ، وانتهت بإصدار العهد الجديد عام **1878**م ، والعهد القديم **1880**م ، وقد جرت طباعتها بمطابع ونفقة المطبعة الكاثُوليكيَّة في بيروت .

وتعتبر هاتان التّرجمتان الأكثر تداولاً بين المسيحيِّيْن العَرَب . وتُرجمتا عن اللُّغات اليُونانيَّة والكلدانيَّة والآراميَّة ، والأُولى **39** سفْراً والثَّانية **46** سفْراً كما أسلفنا بزيادة أسفار :

يهُوديت - طوبيا - الحكْمة - يشوع بن سيراخ - باروك - وسفْر المكابيِّيْن، ورأي الكَنيسة البرُوتستانتيَّة أنَّ هذه الأسفار مدسُوسة على التّوراة، بينما أقرَّتْهَا الكَنيسة الكاثُوليكيَّة.

ثالثاً: أمَّا التّرجمة الثَّالثة؛ فهي التَّرجمة التي كانت قد عهدت بها إحدى اللّجان الإنكليزيَّة إلى الأُستاذ فارس الشّدياق، وقام بترجمتها عام **1851**، وقد صَدَرَت هذه التّرجمة، إلاَّ إنَّها مُنعت من التّداول لكون صاحبها أعلن - بعد الفراغ منها - إسلامه، واتَّخذ له اسم أحمد أثناء التّرجمة، والشّدياق هُو من أصل لُبنانيّ، ومن العائلات المسيحيَّة المشهورة[1].

تحريف التّوراة: [2]

والآن؛ يتبادر إلى الذّهن التّساؤل التّالي: هل التّوراة المُتداولة - الآن - هي نفسها التي نزلت على النَّبيّ مُوسى عليه السّلام؟

الجواب: لا. فالتّوراة المُتداولة دُوِّنت بعد النَّبيّ مُوسى عليه السلام بمُدَّة طويلة، فحُرِّفتْ، وأُضيف إليها ما اتَّفق مع رغبات ونزعات ومُيُول الكَتَبَة، مارَّة بعدَّة أدوار من الرّواية الشَّفويَّة والانتخاب والحذف والإضافة إلى دور التّدوين، وإلاَّ كيف يُمكن أنْ يكون قد نزل الأمر من الرَّبِّ بقَتْل الأطفال والنّساء والشُّيُوخ كما جاء في سفْر يُوشع (إصحاح **6** فقرة **21**) «حرّموا كُلَّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتَّى البقر والغنم والحمير بحدِّ السّيف..»؛ لا سيما وأنَّ إحدى الوصايا العشر تُحرِّم قَتْلَ الشُّيُوخ والنّساء والأطفال.. إلخ.

ويعترف رجال الدِّين المسيحيّ بذلك؛ إذْ جاء في مُقدِّمة الكتاب المُقدَّس من الطّبعة الكاثُوليكيَّة بهذا المعنى ما نصُّه: «فما من عالم كاثُوليكي في عصرنا يعتقد أنَّ مُوسى ذاته كَتَبَ "البانتانيك" (أيْ الأسفار الخمسة الأُولى)، وقد ندَّد المسيح - عليه السّلام - بأعمال مَنْ سمَّاهم الفرِّيسيِّيْن والنَّاموسيِّيْن (رجال الشّريعة)، وأنذرهم بالويلات؛ لانحرافهم عن الفضيلة، وتكالبهم على الدُّنيا»[3].

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 376 - 379.

(2) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 382 - 385.

(3) راجعْ إنجيل متَّى، إصحاح 23، وإنجيل لُوقا، إصحاح 11، فقرة 52.

وقد أشار القُرآن الكريم إلى تحريف اليهُود للتّوراة؛ فقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ سُورة البقرة، آية 79.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ النّساء 46.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة 75.

ويقول الدُكتُور سامي سعيد الأحمد[1]: «وعندما ذكَرَ القُرآن قبل زهاء أربعة عشر قرناً أنَّ اليهُود حرَّفوا التّوراة الأُولى، نجد ـ الآن؛ بعد البحث والتّدقيق والتَّقدُّم العلمي الذي سهَّل على عُلماء الآثار والمُؤرِّخين عملهم ـ أنَّ هذا الكلام (كلام القُرآن) هُو عين الحقيقة».

وفي الوقت الذي تُؤمن التّعليم الإسلاميَّة بعصمة الأنبياء والرُّسُل، واعتبارهم صفوة البشر، وهُم الذين يجبُ أنْ يتَّخذ النّاس من سُلُوكهم قُدوة يقتدون بها، نرى التّوراة تفتري عليهم بأعمال قبيحة تتنافى ومكانتهم الدِّينيَّة والاجتماعيَّة، فقد نَسَبَتْ إلى الملك داود أنَّه زنا، واغتصب زوجة أحد قُوَّاده (صم2، إصحاح 11، فقرة 2 ـ 26)، كما نَسَبَتْ إلى الملك سُلَيْمَان أنَّه أحبَّ نساء كثيرات أجنبيَّات، وَعَبَدَ آلهتـهنَّ (مُلُوك، إصحاح 11، فقرة 1 ـ9)، وإلى لُوط إثماً مع ابنتَيْه (تكوين، إصحاح 19، فقرة 30 ـ 37)، وإلى أمنون بن داود اغتصاب أُخته ثامار (صم2، إصحاح 13، فقرة 1 ـ 29)، إلى آخر ذلك من الافتراءات على أنبياء الله.

ومن أهمِّ مظاهر الانحراف عن توراة مُوسى عليه السلام الأصليَّة أنَّ التّوراة التي كَتَبَهَا الكَهَنَةُ بعد عصر مُوسى بعدَّة قُرُون تقوم على التّفرقة العُنصُريَّة والاستعلاء، وذلك بأنَّها تجعل اليهُود شعب الله المُختار، وتنظر إلى ما عداهم نظرتها إلى شُعُوب دُونهم منزلة في المُجتمع الإنساني (بل إنَّها تعتبر الأغيار كالدّواب خُلقوا لخدمة اليهُود شعب الله المُختار)، وتضع شريعتها على هذا الأساس، فتُبيح لليهُودي امتيازات خاصَّة دُون سواه من غير اليهُود، حتَّى

(1) د. سامي سعيد الأحمد، "الأُسُس التَّاريخيَّة للعقيدة اليهُوديَّة"، ص 8.

إنَّ الوصايا العشر التي جاء بها مُوسى عليه السّلام لا تُطبَّق إلاَّ بين اليهُود أنفسهم، أمَّا بينهم وبين الأغيار؛ فلا تُطبَّق، بل يُطبَّق عكسها تماماً.

وديانة مُوسى الأصليَّة كانت تقوم على التّوحيد والمُساواة المُطلقة بين النّاس من غير تفريق أو تحيُّز، فالله - سُبحانه وتعالى - ربُّ العالمين، والنّاس كُلُّهم خَلْق الله وعباده، وإنَّ أكرمهم عند الله أتقاهم.

ومن الفلاسفة المُسلمين الذين كَتَبوا في موضوع تحريف التّوراة الأصليَّة التي نزلت على مُوسى عليه السّلام ابن حزم؛ الفيلسوف الأندلسي الشّهير، ففي كتابه "الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل" ذَكَرَ الأكاذيب والتّحريفات والتّناقضات والفضائح الموجودة في التّوراة، ثُمَّ يقول: «هُنا؛ ينتهي ما أخرجناه من توراة اليهُود وكُتُبهم من الكذب الظّاهر والمُناقضات الكثيرة التي لا شَكَّ معه في أنَّها كُتُبت مُبدَّلة مُحرَّفة مكذوبة وشريعة موضوعة من قبَلهم».

ويذكر ابن حزم أنَّ السّامريِّيْن يزعمون بأنَّهم يحتفظون بالتّوراة الأصليَّة المُنزلة، فيُؤكِّد أنَّ كلا التّوراتَيْن (توراة اليهُود والسّامريِّيْن) مُحرَّفتان مُبدَّلتان، وهُما غير الذي أنزله الله على مُوسى عليه السّلام.

الأسفار التّاريخيَّة، وموقف عُلماء التّاريخ منها:

الأسفار التّاريخيَّة هي الأسفار السّبعة عشرة الأُولى من التّوراة من سفْر التّكوين حتَّى سفْر استير (حسب الطّبعة البرُوتستانتيَّة).

وتُسمَّى الأسفار الخمسة الأُولى بالأسفار الخُماسيَّة أو السُّداسيَّة إذا أُضيف إليها سفْر يُوشع.

والأسفار التّاريخيَّة هذه تتحدَّث عن تاريخ اليهُود مُنذُ جدِّهم الأكبر إبراهيم عليه السّلام (كما يزعمون) حتَّى سفْر استير؛ أيْ إلى ما بعد العودة من السّبي البابليّ.

كانت هذه الأسفار المصدر الأساسي لتاريخ اليهُود القديم وتاريخ الشّرق الأدنى القديم (الشّرق الأدنى هُو مصر وبلاد الشّام والعراق والجزيرة العَرَبيَّة)، وخاصَّة قبل الاكتشافات الأثريَّة العظيمة في المنطقة وقراءة الكتابات الهيرُوغليفيَّة في مصر، والمسماريَّة في الشّام

والعراق وإيران. إنَّ هذه الاكتشافات الأثريَّة الهامَّة سلَّطت الأضواء على تاريخ المنطقة القديم، وكَشَفَتْ زيف التّوراة وتحريفها.

وفيما يلي؛ نُلقي الضّوء على آراء المُؤرِّخين في العصر الحديث في الأسفار التَّاريخيَّة كمصدر لتاريخ اليهُود والتّاريخ القديم للمنطقة ككُلّ.

يقول الأُستاذ ناجي[1]: «يبدو أنَّ عُلماء التّاريخ ونُقَّاده لم يأخذوا بوُجهة النَّظَر اليهُوديَّة القائلة بنُزُول الأسفار الخمسة الأُولى على مُوسى عليه السلام أو كتابته إيَّاها؛ إذْ نرى أكثر العُلماء المُعاصرين مُتَّفقين على القول بأنَّها كُتبتْ بعد قُرُون عديدة من عهد مُوسى عليه السلام. ولإيضاح مذهبهم هذا نُورد رأي المُؤرِّخ الشّهير "لودس" في منشأ الأسفار السُّداسيَّة على ضوء آراء الكثير من العُلماء وتحرِّياته الخاصَّة:

يقول لودس: «إنَّني لا أُقرُّ بتاتاً ما أُوليَ هذا الكتاب (أيْ التّوراة) من الثّقة العمياء طويلاً، فعليه أرى - عند التّحقيق في أجزاء التّوراة - أخْذَ كُلّ قسم منه على حدة، والتّدقيق فيه، مع مراعاة ظُرُوف تأليفه وزمن صُدُوره؛ لأنَّ بعض هذه الأجزاء تبحث عن أُمُور قريبة الشّبه ببعض أحداث التّاريخ، وأُخرى مُطابقة تماماً لأحداث مُعيَّنة. ومن هُنا؛ يتَّضح استحالة نَبْذه كُلِّيّاً، وضرورة إخضاع أقسامه للتّدقيق التّقليدي المعمول به عند التَّحرِّي عن كُنْه المصادر القديمة؛ أيْ أَخْذ مضمون النَّصِّ المُراد تدقيقه ومُقارنته مع مضمون كُلِّ نصٍّ مُماثل، ليس بالتّرجمة العبريَّة فحسب، بل بالتّراجم الأُخرى، وعلى الأخصِّ التّراجم اليُونانيَّة واللاَّتينيَّة والسّريانيَّة التي نقلت عن المخطوطات اليدويَّة القديمة التي تختلف نسبيّاً عن التّرجمة العبريَّة التي كَتَبَهَا الماسُورت (ماسُورت ناقل نُصُوص التّوراة). وفي نتيجة هذه المُقارنة تظهر للنّاقد نُقاط الاختلاف بين التّراجم، ويتَّضح له أمر هذا الكتاب وَوَضْعه الرّاهن، ممَّا يُشير - بجلاء - إلى أنَّ جميع فقراته التَّاريخيَّة مُكوَّنة من قَصَص قديمة اختارها مُحرِّرو الأسفار، ودُوِّنتْ بصيغتها الحَرْفيَّة، مُتَّبعين الطّريقة المُبسَّطة المُجرَّدة من كُلِّ زُخرف أدبي وتحقيق تاريخي، دُون الاهتمام لما في هذه القَصَص أو المجموعات القَصَصيَّة من تناقض

---

(1) ناجي، "المُفسدون في الأرض"، من ص 14 - 25، باختصار.

بين بعضها، أو لما فيها من ازدواجيّة النُّصُوص والتّكرار والإعادة للحدث الواحد مثل: حادثة اقتياد زوجة أحد الآباء إلى حريم أمير أجنبي تتكرَّر ثلاث مرَّات في سفْر التّكوين (الإصحاح 12، فقرة 3 ـ 26) مع اختلاف شكلي بسيط في سردها، وحادثة عفو داود عن اغتيال شاوول ـ أيضاً ـ تتكرَّر مرَّتَيْن، دُون تغيُّر ملحوظ في تفاصيلها (سفْر صموئيل الثّاني، الإصحاح الأوَّل، فقرة 24 ـ 26).

كما أنَّنا نُلاحظ كثيراً من التّناقضات في وصف عمليَّات الاحتلال وحوادث الفتح في مُختلف الأسفار. وإذا أضفنا إلى ما سَبَقَ ما تتميَّز به الأسفار من تعدُّد أساليب الكتابة وطُرُق الإنشاء حتَّى في السِّفْر الواحد، وتتكرَّر المُفردات في مُختلف الأسفار وآثار التّنقيح والتّصحيح الظّاهرة في أكثرها، لظهر لنا جليّاً مُشاركة الأيدي العديدة في كتابة مجموعات التّوراة، والأخذ بما أجمع عليه النُّقَّاد مُنذُ عهد استروك، وهُو أنَّ هذه الأسفار كُتِبَتْ من قِبَل أربع فئات مُعيَّنة؛ لكُلٍّ منها مدرستها وعصرها، ولقد أطلق النُّقَّاد على كُلٍّ منها تسمية خاصَّة تُميِّزها من سواها؛ وهي:

الفئة الأُولى: سُمِّيت باليهوائيَّة لاصطلاحها على تسمية الخالق "يَهْوَى"، وزعمها أنَّه كائن يُدعى كذلك مُنذُ القِدَم، ويُوافق ظُهُورها القرن التَّاسع قبل الميلاد، وينسب إليها سِيَر الآباء.

الفئة الثّانية: تُسمَّى بالألوهيميَّة لزعمها أنَّ الخالق كان يُدعى قبل عهد مُوسى بـ "أُلهيم"، وظهرت للوُجُود بعد زمن قصير من ظُهُور "اليهُويست؛ أيْ اليهوائيَّة السّابقة، واختصَّت ـ أيضاً ـ بسِيَر الآباء الأوَّلين.

الفئة الثّالثة: تُسمَّى بالتّثنويَّة نسبة إلى سفْر "التّثنية"، والذي اختصَّت بكتابته، ولها آثار ظاهرة في عمليَّات التّصليح والتّنقيح في الأسفار الأُخرى، وساهم أفرادها في الإصلاحات التي أُدخلت على الدّيانة اليهُوديَّة في عهد "يوشيا"، وظهرت للوُجُود نحو عام 622 ق. م.

الفئة الرّابعة: تُسمَّى بمدرسة الكَهَنُوت، وهي التي أوجدت ما يُسمَّى بقوانين الكَهَنُوت تحت إشراف النَّبيّ حزقيال (انتهى كلام لودس).

يُضاف إلى ما سَبَقَ من كلام المُؤرِّخ لودس ما يُلاحظ في تكوين أكثر الأسفار من تعدُّد أساليب الإنشاء وما فيها من أخطاء تدلُّ ـ صراحة ـ على تعدُّد الأيدي التي كَتَبَتْهَا، وما يصحُّ القول في الأسفار الخمسة الأُولى يصحُّ ـ أيضاً ـ في كافَّة الأسفار الأُخرى.

والخُلاصة أنَّ الأسفار كتبت في عُهُود مُتأخِّرة عن زمنها وعما تبحث عنه، وبأيدٍ مُتعدِّدة وبأساليب مُختلفة ويتَّضح ذلك بجلاء لكل باحث وناقد.

أمَّا فيما يتعلَّق بأهمِّيَّة الأسفار في التّطوُّر الدِّيني والاجتماعي والسِّياسي لليهُود؛ فلا مجال لإنكاره، وعلى الأخصِّ ما كُتب منها في العُهُود اللاَّحقة لجلاء اليهُود عن فلسطين.

آراء العُلماء في أهمِّيَّة الأسفار؛[1] من النّاحية التّاريخيَّة فقط:

فيما يلي نُورد آراء بعض مشاهير المُؤرِّخين في القيمة التّاريخيَّة للأسفار التّاريخيَّة خاصَّة، والأسفار التي تليها، (الأسفار التّاريخيَّة هي الخمسة أو السِّتَّة الأُولى).

يقول المُؤرِّخ الشّهير لودس: «المعروف عن القَصَص الشّفهيَّة أنَّها تفقد أصالتها بمُجرَّد مُرُور جيل واحد على قصِّها لأوَّل مرَّة، وذلك لما يطرأ عليها من تعديلات كُلَّما انتقلت من راوٍ إلى آخر؛ إذْ المعروف عن القصَّاصين أنَّ يُزيِّفوا، ويُحرِّفوا كُلَّ ما يسمعونه إمَّا سهواً أو عمداً، وكُلَّما طال الزّمن على انتشار القصَّة زاد انحرافها عن أصلها، حتَّى تُصبح في غُضُون بضعة أجيال قصَّة أُخرى، وكأنَّها لا علاقة لها بتلك القصَّة القديمة.

فإذا كانت هذه هي حال القصَّة التي تمرُّ عليها بضعة أجيال، فما بالنا بحالة القَصَص التي مرَّت عليها مئات الأجيال قبل أنْ تصل إلى كُتَّاب الأسفار؟!!

والجواب عن ذلك هُو أنَّ هذه القَصَص كانت قد خرجت مُنذُ أمد بعيد عن محاورها الأصليَّة، ولم تعد على ما كانت عليه في مُستهلِّ قصِّها، فكيف يُمكننا في هذه الحالة أنْ ننظر إليها نظرة الجدِّ طالما عرفنا منشأها وعهد كتابتها؟!! وعلى الأخصِّ؛ ونحنُ نرى اليوم التّناقض البيِّن بين ما كَتَبَهُ حُكَمَاء "الميشنا" عن الحُرُوب اليهُوديَّة التي وقعت في مُنتصف القرن الثّاني الميلادي وبين ما كَتَبَهُ عنها المُؤرِّخون من غير اليهُود.

---

(1) المرجع، س. ناجي، المُفسدون في الأرض، ص 18 ـ 26، باختصار.

وهذا التّناقض وحده يكفينا لتحديد الثّقة التـي يُمكننـا أنْ نُوليـها قَصَص سفْر التّكويـن ومُؤلِّفيها، حتَّى إنَّ الثّقة تنعدم عندما نُفاجأ فـي آخر سفْر التّكويـن بسُكُوت كُتَّاب الأسفار المُطبق عن أحداث شعبهم في المُدَّة الفاصلة بين نهايـة قصَّـة يُوسُف وبداية قصَّة الخُرُوج مع مُوسى، والبالغة **430** عاماً (كما جاء في التّوراة)، وهـذا السُّكُوت إنْ دلَّ على شـيء فإنَّما يدلُّ على جهل مُؤلِّفي الأسفار لكُلِّ ما يتعلَّق بتاريخ قومهم، ليس في هذه الحقبـة من الزّمـن فحسب، بل لكُلِّ العُصُور السّابقة لعهد تمركزهم في فلسـطين، كمـا أنَّـه يُؤيِّـد مـا ذَهَـبَ إليـه النُّقَّاد من أنَّهم التقطوا من أفواه الرُّواة ما تيسَّر لهم من القَصَص، واحتكروها باسم شـعبهم، دُون التَّقيُّد بأيِّ اعتبار تاريخي أو أدبي، فلو لم تكن هذه هـي الحقيقـة لكـان الأَحْـرَى بـهم أنْ يبحثوا عمَّا جرى لشعبهم في تلك الحقبة الطّويلة والقريبة من عصرهم، بدلاً من البحث عن مُعجزات خياليَّة زعموا وُقُوعها لآبائهم قبل عشرات القُرُون.

وهكذا نرى أنَّ هذه الثّغرة الزّمنيَّة الواسعة في تسلسلهم القَصَصي (بين عصر يُوسُـف وعصر مُوسى عليـهما السّلام) تدينـهم صراحـةً بالاسـتنباط، وتُفقـد أسفارهم كُـلَّ قيمـة علميَّة وتاريخيَّة.

ولكنَّ بعض أنصار التّـوراة كالسَّيِّد "شـامبوليت" يرفضـون المنطـق السّليم، ويُحـاولون إثبات أصالة العهد القديـم، وذلـك بسبب الوصـف الدّقيـق لحياة الآبـاء الأوَّلـين الـوارد فـي الأسفار، وهُو وصف للحياة البدويَّة. ولكنَّ هذا لا يُعطـي الأسـفار الأصالـة والصِّحَّـة؛ لأنَّ الحياة البدويَّة لم تتبدَّل مُنذُ الخليقة إلى يومنا هذا، والتي يُمكن رُؤيتها فـي أمـاكن عديـدة مـن العالم، وَوَضْعها على حقيقتها، وكأنَّكَ تصف حياة البدو قبل آلاف السِّنين.

ولهذا؛ نرى أنَّ أمانة كُتَّاب الأسفار في وصف حياة البـدو الأبديَّة والوصـف الجَغرافـي للبلاد لا تُبرهن ـ قطعاً ـ على صحَّة وصدق قَصَصهم الأُسطُوريَّة، بل العكس هُو الصّحيـح؛ إذْ إنَّها تدينهم بالاستنباط كما سَبَقَ وقُلنـا، وتُؤكِّـد نظريَّـة كونـهم كَتَبـوا أسـفارهم بعـد أنْ تمَّ تمركزهم في فلسطين.

والمُؤرِّخ لودس يقول: إنَّ نظريَّات النُّقَّاد فيما يتعلَّق بمنشأ هذه القَصَص هي أكثر من أنْ تُحصى، وأقربها إلى المنطق ما يلي:

1 ـ نظريَّة بورني وستوارانجل، القائلة إنَّ هذه القَصَص هي ـ أصلاً ـ وصف لتنقُّلات وتحرُّكات بعض القبائل العبرانيَّة الرُّحَّل، وكانت تُدعى بالأسماء التي زعم كُتَّاب الأسفار أنَّها لأفراد أسلافهم الأوَّلين، ونسبوا لكُلٍّ منهم أعمالاً ومناقب ومُغامرات خياليَّة لتحقيق أغراض مُعيَّنة من ورائها.

2 ـ نظريَّة ثانية يُقرُّها الكثير من النُّقَّاد، وتقول: إنَّ هذه القَصَص ليست سوى تحديد لبعض القَصَص القديمة المعروفة كانت تُروى مُنذُ أجيال عديدة.

3 ـ نظريَّة كُونكل وتقول: إنَّ هذه القَصَص كانت في الأصل لقبائل وَثَنية انقرض أصحابها قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، رواها رُواة الوَثَنيَّة، وتناقلها النّاس إلى أنْ وَصَلَتْ إلى كُتَّاب الأسفار، فاحتضنوها لحسابهم الخاصّ.

4 ـ نظريَّة رابعة وهي التي يعتمد عليها كُلٌّ من السّادة: إدوار مايير، ريمون واي، وبيرنهارد لوثر، والقائلة: إنَّ أكثر الأسماء التي أطلقها كُتَّاب الأسفار على أبطال قَصَصهم هي ـ في الأصل ـ أسماء بُعُول (آلهة أُسطُوريَّة) كنعانيَّة، عُرف كُلٌّ منهم بإقامته في أحد الأمكنة التي أقام بها اليهُود معابدهم فيما بعد تكريماً لأصحابها الذين اتَّخذهم كُتَّاب الأسفار أسلافاً لهم، ولتأكيد نظريَّتهم هذه يزعمون أنَّ بعل حبرون كان يُدعى إبراهم، كما أنَّ بعل بئر السَّبع كان يُدعى إسحاقاً، وبعل شكيم (نابلس) يعقُوب، ويختتمون نظريَّتهم بالقول إنَّ اليهُود حاكوا حول هذه الآلهة وأمكنة سُكناها ما شاءت لهم أهدافهم من القَصَص والأساطير، واحتكروها باسم أسلافهم المزعومين.

وأخيراً؛ ومن خلال آراء هؤلاء العُلماء يتَّضح لنا ـ بجلاء ـ استحالة الاعتماد من الوُجهة التّاريخيَّة على كُلِّ ما وَرَدَ في الأسفار من القَصَص والرّوايات عن العُهُود السّابقة للقرن السّادس قبل الميلاد، ممَّا يهدم مزاعم المصادر اليهُوديَّة المُتعلِّقة بمجدهم القومي أو العرْقي.

رأي وتعليق على تحريف التّوراة:

لي رأي وتعليق حول تحريف التّوراة والقيمة التّاريخيّة للأسفار التّاريخيّة، وخاصّة الخمسة أو السّتّة الأُولى.

إنّ المُؤرّخين والنُّقّاد السّابقين الذين قرّروا أنّ التّوراة مُحرّفة، وأنّه ليس للأسفار - بشكل عام - أيّ قيمة تاريخيّة، وخاصّة الأسفار الخمسة الأُولى، وأنّ مُعظم ما جاء بها من تاريخ إنّما هُو عبارة عن أساطير وقَصَص أخذها اليهُود عمّن سبقهم من الأُمم، وعبّرونها (أيْ جعلوها عبرانيّة).

هُنا؛ يجبُ علينا أنْ نُفرّق بين التّحريف في التّاريخ والتّحريف في الشّريعة التي نزلت على مُوسى عليه السّلام:

أوّلاً: التّحريف في التّاريخ: إنّي أرى أنّ التّحريف في هذه النّاحية موجود، ولكنّه أقلّ بكثير من التّحريف في الشّريعة؛ لأنّ القُرآن الكريم يُؤيّد الكثير من المعلومات التّاريخيّة الواردة في التّوراة حول إبراهيم الخليل وإسحاق وإسماعيل ويعقُوب ويُوسُف ومُوسى عليهم السّلام جميعاً. وعندما تحدّثتُ عن تاريخ اليهُود في القسم الأوّل من هذا الكتاب، كُنتُ أُقارن بين المعلومات الواردة في القُرآن الكريم وتلك الواردة في التّوراة حول هؤلاء السّادة الأنبياء، وأذكر الخلافات بينهما، وكانت - في أكثر الأحيان - مُطابقة لما وَرَدَ في القُرآن الكريم، وخاصّة ما وَرَدَ حول قصّة يُوسُف ومُعظم قصّة مُوسى عليهما السّلام، لذلك لا نستطيع القول إنّ كُلّ ما كُتب عن هؤلاء الأنبياء والرُّسُل غير صحيح، وأنّه عبارة عن أساطير وقَصَص خُرافيّة منقولة عن الأُمم السّابقة. ونحنُ نؤمن أنّ القُرآن الكريم كلام الله الذي لم يدخله التّحريف والتّبديل، وأنّ الله تكفّل بحفظه كما يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ سُورة الحجر 9. لذلك فكُلُّ ما وَرَدَ في التّوراة ويتوافق مع القُرآن الكريم فهُو صحيح.

ولكنّ المُؤرّخين والنُّقّاد الغربيّين - وهُم من المسيحيّين - لم يطّلعوا على ما جاء في القُرآن الكريم من تاريخ لبني إسرائيل، ولو اطّلعوا عليه لما أخذوا به لعدم إيمانهم بالقُرآن الكريم نفسه. لذلك قالوا: إنّ ما جاء في التّوراة هُو أساطير غير صحيحة. أمّا نحنُ المُسلمين؛ فالقُرآن

الكريم عندنا هُو كلام الله الذي أنزله على رسوله مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه لا تحريف فيه ولا تبديل، وقد تكفَّل الله بحفظه، وكان يُكتَبُ ويُسجَّل ويُحفظ في الصُّدُور فور نُزُوله، لا كالتّوراة التي سُجِّلت وكُتِبَتْ بعد حوالي تسعة قُرُون من نُزُولها على مُوسى عليه السلام، ولا كالإنجيل الذي دُوِّن بعد حوالي ثلاثة قُرُون من نُزُوله، ممَّا أدَّى إلى وُجُود عدَّة أناجيل.

لذلك لا يُمكن أنْ نقول - نحنُ المُسلمين - : إنَّ التّوراة في الأسفار السِّتَّة الأُولى بشكل خاص، والأُخرى بشكل عامٍّ غير صحيحة، ويجبُ نبذها من الوُجهة التَّاريخيَّة. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ التّاريخ فيها غير مُحرَّف، بل فيه الكثير من التّحريف والتّزوير والمُبالغات الخياليَّة، وقد بيَّنَّا الكثير من هذا التّحريف التّاريخي عندما تحدَّثنا عن تاريخ اليهُود في القسم الأوَّل من الكتاب، وقارنَّا بين ما جاء في القُرآن الكريم وما جاء في التّوراة.

ثانياً: التّحريف في الشّريعة: التّحريف هُنا هُو المُهمُّ، فشريعة اليهُود - الآن - بعيدة كُلّ البُعْد عن شريعة مُوسى عليه السلام، والقُرآن الكريم عندما قال عنهم إنَّهم يُحرِّفون الكَلم عن مواضعه؛ كان القصد في تحريف ما شرَّعه الله لهم، والتّحريف - هُنا - كبير جداً، فقد بدَّلوا، وغيَّروا، وحرَّفوا ما شاءت لهم أهواؤهم، ومجيء عيسى عليه السّلام كان لهدايتهم وإعادتهم إلى جادَّة الصّواب والدِّين الحقِّ، ولكنَّهم أنكروا ما دعاهم إليه، وتآمروا عليه (كما هُو معروف)، ثُمَّ جاء مُحَمَّد عليه الصّلاة والسّلام، الذي لم يسلم من مُؤامرات اليهُود وتآمرهم على قَتْله، بسبب ما كَشَفَهُ الله - تعالى - في القُرآن الكريم من انحرافاتهم وزيفهم عن شريعة الله؛ ممَّا أدَّى إلى غضب الله عليهم.

وسنتكلَّم - فيما يلي - عن تحريف اليهُود لقوانين الحرب كمثال على تحريفهم لشريعة مُوسى عليه السّلام وللتّوراة.

قوانين الحرب في التّوراة: [1]

إنَّ أغرب ما يُلاحظه المُتتبِّع لمُدوَّنات التّوراة الأمر بقَتْل الأطفال والنّساء حتَّى البهائم، ففي التّعاليم الخاصَّة بحرب المُوسويِّين مع أهل فلسطين وَرَدَتْ الوصايا التّالية في التّوراة:

---

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، ص 379 ـ 380.

1 ـ « احذر أنْ تقطع عهداً مع سُكَّان الأرض التي أنت آتٍ إليها؛ لئلا يصير فخّاً في وسطك». (سفْر الخُرُوج، إصحاح 34، فقرة 12).

2 ـ « وأمَّا مُدُن هؤلاء الشُّعُوب التي يُعطيكَ الرَّبُّ إلهكَ نصيباً؛ فلا تستبق منها نسمة ما، بل تُحرِّمها (أيْ تقتلها) تحريماً للحثِّيِّيْن والأدوميِّيْن والكنعانيِّيْن والفرزيِّيْن والحوريِّيْن واليبوسيِّيْن[1] كما أمركَ الرَّبُّ إلهكَ». (سفْر التَّثنيَّة، إصحاح 20، فقرات من 10 ـ 17).

3 ـ « اقتلوا كُلَّ ذَكَر من الأطفال، وكُلَّ امرأة عرفت رجلاً بمُضاجعة ذَكَر اقتلوها، لكنَّ جميع الأطفال من النِّساء (يقصد البنات الأبكار) اللّواتي لم يعرفنَ مُضاجعة ذَكَر أبقوهنَّ لكم حيات». (سفْر العدد، إصحاح 31، فقرة 17 ـ 18).

وفي غزو المُوسويِّيْن لمدينة أريحا دمَّر المُوسويُّون المدينة، وأحرقوها بالنّار، وقتلوا كُلَّ مَنْ فيها من رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتَّى البقر والغنم والحمير بأمر من إلههم "يَهْوَه"؛ كما جاء في التّوراة. (سفْر يُوشع، إصحاح 6، فقرة 21).

ويأمر إلههم "يَهْوَه" الملك شاوول أنْ يضرب العمالقةَ العَرَب، وهذا نصُّ الأمر كما وَرَدَ في سفْر صموئيل الأوَّل: « فالآن؛ اذهبْ، واضربْ عماليق، وحرِّموا كُلَّ ماله، ولا تعفُ عنهم، بل اقتلْ رجلاً وامرأة طفلاً رضيعاً بقراً وغنماً جملاً وحماراً». (صموئيل أوَّل، إصحاح 15، فقرة 3). ولَمَّا أبقى شاوول على خيار البقر والغنم أحياء لم يغفر له الرَّبُّ ذلك، فقيل له: « إنَّكَ رَفَضْتَ كلام الرَّبِّ، فَرَفَضَكَ الرَّبُّ من أنْ تكون ملكاً على إسرائيل». (سفْر صموئيل أوَّل، إصحاح 15، فقرة 24 ـ 31).

انظر معي أيُّها القارئ الكريم إلى هذه التّعاليم المُنكرة السّوداء التي لا مثيل لها في العالم قاطبة، والتي لم يقم بها أطغى طُغاة العالم أمثال تيمورلنك المغولي ولا نيرون الطّاغية الرُّوماني، حتَّى إنَّ المغول الذين اكتسحوا العالم الإسلامي والغربي في القرن السَّابع الهجري لم يقوموا بمثل هذه الأعمال الوحشيَّة، لقد قتلوا، وسبوا، ونهبوا، ودمَّروا، واستباحوا، ولكنَّهم لم يقتلوا الشُّيُوخ والنّساء والأطفال والبهائم كما هُو وارد في تعاليم التّوراة المُنحرفة المُخزية.

---

(1) الشُّعُوب المذكورة هي شُعُوب وقبائل كنعانيَّة كانت تسكن فلسطين قبل مجيء اليهُود إلى فلسطين.

هل يُعقَل أنْ تكون هذه تعاليم ربِّ العالمين الرّحمن الرّحيم؟؟!!

حاشا لله أنْ يأمر بمثل هذا، إنَّه افتراء على ربِّ العزَّة، ربِّ الرّحمة، وتحريف لتعاليمه وأوامره تعالى. إنَّ الله أمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، ونهى عن الفحشاء والمُنكر والبغي؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سُورة النّحل، الآية 9.

هذه تعاليم الإسلام السّمحة، والتي هي تعاليم الله جَلَّ شأنه، أنزلها على جميع أنبيائه ورُسُله في كُلِّ زمان ومكان، وحضَّ اللهُ على العفو والمغفرة بقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الشُّورى، الآية 40، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سُورة التّغابن، الآية 14.

وجاء في القُرآن الكريم تحذيراً لبني إسرائيل من مغبَّة الأعمال المُنكرة والفساد في الأرض، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ سُورة المائدة، الآية 32.

والإسلام يأمر بعدم الاعتداء كما يقول تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة، الآية 190.

وتعاليم الإسلام هذه كانت ـ ومازالت ـ النّبراس الذي اهتدى به المُسلمون في فُتُوحاتهم وحُرُوبهم مع جميع شعُوب الأرض، وما أكثر الدّلائل والأمثلة على تسامح العَرَب والمُسلمين ورأفتهم بالمغلوبين، ومن أبرز ما جاء في تطبيق التّعاليم الإسلاميَّة في هذا الصّدد وصيَّة أبي بكر الصِّدِّيق إلى قُوَّاده المُتَّجهين إلى فَتْح الشّام والعراق قوله رضي الله عنه: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تقصُّوا (أيْ تقطعوا) نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تذبحوا شاة، أو بقرة، ولا بعيراً إلاَّ لأكله، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصّوامع (رُهبان مسيحيُّون)، فدعوهم، وما فرَّغوا أنفسهم له».

ما أروع هذه الوصايا!! أين هذه التّعاليم الإنسانيَّة والوصايا السّمحة من تعاليم التّوراة (المُحرَّفة) الوحشيَّة.

وعلى كُلِّ حال؛ علينا أنْ نُدرك أنَّ هذه التّعاليم لا يُمكن أنْ تكون من عند الله الغفور الرّحيم، الذي رحمته وسعت كُلَّ شيء، ولكنَّ اليهُود بدّلوا، وحرَّفوا، وغيّروا، حسب أهوائهم ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

إنَّ تعاليم الله ـ سُبحانه وتعالى ـ لا تكون إلاَّ للمحبَّة والأُخُوَّة والتّسامح والبرَّ والتّقوى والفضيلة، والمسيح ـ عليه السّلام ـ يقول: «مَنْ ضربكَ على خدِّكَ الأيمن، فأدرْ له الأيسر»، وفي ذلك قمَّة التّسامح والعفو، وفي رسالة القدِّيس بُطرُس الثَّانية يقول: «زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى الفضيلة التَّعقُّل، وعلى التَّعقُّل التّقوى، وعلى التّقوى المودَّة الأخويَّة، وعلى المودَّة الأخويَّة المحبَّة». (الإنجيل، الطّبعة الكاثُوليكيَّة، إصحاح أوَّل، من 5 ـ 7).

وفي الإنجيل، الطّبعة البرُوتستانتيَّة، يقول: «قدِّموا في إيمانكم فضيلة، وفي الفضيلة معرفة، وفي المعرفة تعفُّفاً، وفي التَّعفُّف صبراً، وفي الصّبر تقوى، وفي التّقوى مودَّة أخويَّة، وفي المودَّة الأخويَّة محبَّة». (رسالة القدِّيس بُطرُس الثَّانية، إصحاح 1، من 5 ـ 8).

وممَّا جاء في التّوراة أيضاً (تأكيداً على تحريفهم للتّوراة) أنَّ نساء بني إسرائيل ـ حينما عزمنَ على الخُرُوج من مصر ـ استعرنَ حلي جاراتهنَّ المصريَّات؛ ليتجمَّلنَ بها، وقد زعمنَ أنَّهنَّ ورجالهنَّ سيحتفلون بالعيد في الصّحراء، فهربنَ بالحلي إلى سيناء، وكان هذا السّلب والسّرقة بأمر إلههم "يَهْوَه" أيضاً (وَرَدَ في سفْر الخُرُوج، إصحاح 3، فقرة 22، وإصحاح 12، فقرة 35 ـ 36) بالنَّصِّ التّالي: «فيكون حينما تمضون أنّكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كُلُّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضَّة وذهباً وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريِّيْن.. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول مُوسى، وطَلَبوا من المصريِّيْن أمتعة فضَّة وذهباً وثياباً، وأعطى الرَّبُّ نعمة للشّعب في عُيُون المصريِّيْن، حتَّى أعاروهم، فسلبوا المصريِّيْن».

انظر أمر الرَّبِّ وأمر مُوسى بسرقة المصريِّيْن!! وهل يُعقَل أنْ يأمر الرَّبُّ ونبيُّه الكريم بالسّرقة؟!!

ثانياً: التّلمود في الدّيانة اليهُوديَّة: [1]

التّلمود معناه "التّعاليم" أو "الشّرح والتّفسير"، وهي مجموعة الشّرائع اليهُوديَّة التي نقلها الأحبار شرحاً وتفسيراً للتّوراة، واستنباطاً من أُصُولها.

وهكذا؛ فالتّلمود عند اليهُود جُزء من أحكام الدّيانة اليهُوديَّة.

وأصل كلمة "تلمود" من الآراميَّة "لامادٌ"؛ أيْ "يعلم"، ويُقسم التّلمود إلى قسمَيْن: "المشنه"؛ أيْ النَّصُّ أو المتن، و"الجمارا"؛ أيْ الشّرح والتّفسير. والتّلمود اسم جامع للمشنه والجمارا معاً.

والمشنه: هي مجموعة تقاليد اليهُود المُختلفة في شتَّى نواحي الحياة اليهُوديَّة، مع بعض آيات من كتاب التّوراة.

أمّا الجمارا؛ فهي مجموع المُناظرات والتّعاليم والتّفاسير التي وُضعت في المدارس العالية، بعد الانتهاء من وَضْع المشنه، ويزعم اليهُود بأنَّ هذه التّقاليد "المشنه" والتّعاليم "الجمارا" ألقاها النّبيّ مُوسى عليه السلام شفاهة على شعبه، وقد أُعطيتْ له حين كان على الجَبَل، وتداولها هارُون وأليعازر ويُوشع، وسلّموها إلى الأنبياء، ثُمَّ انتقلت إلى المجمع العلمي الأعلى لليهُود وهُو "السّنهندرين"، ويعتبر أكثرُ اليهُود التّلمودَ كتاباً مُنزَلاً، ويضعونه في منزلة التّوراة، ويرون أنَّ الله أعطى مُوسى عليه السلام التّوراة على طور سيناء مُدوَّنة، ولكنَّه أرسل على يده التّلمود شفاهة.

وهُناك تلمودان: التّلمود الفلسطيني؛ ويُسمِّيه اليهُود "الأُورشليمي"، ويُعرف الثَّاني *بالتّلمود "البابليّ"*؛ والأوَّل كُتب في فلسطين (طبريَّة) باللُّغة الآراميَّة الغربيَّة، ولَمَّا اشتدَّ ضغط الرُّومان على اليهُود في فلسطين اضطُرَّ عدد كبير من "الرّابيِّين"[2]؛ أيْ المُعلِّمين للهجرة إلى العراق؛ حيثُ الأمان والحُرِّيَّة الدِّينيَّة المُطلقة لليهُود في ظلِّ الفُرْس (الذين تربطهم باليهُود

---

(1) المصدر، د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 390 ـ 398، باختصار.
عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، المُجلَّد الثّاني، الجُزء الرَّابع، من ص 150 ـ 167، باختصار.
(2) رابي Rabbi مُعلِّم الشّريعة اليهُوديَّة أو الحاخام.

روابط جيِّدة، مُنذُ أطلق قورش أو كُورش سراحهم من الأَسْر البابليّ، وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين)، وفي العراق كُتب التّلمود البابليّ بالآراميَّة الشّرقيَّة. وقد نشأت في العراق أربعة مراكز رئيسيَّة للدّراسات الدِّينيَّة اليهُوديَّة تحت إشراف الرّابيِّين، وقد تعاونت هذه المراكز فيما بينها في وَضْع التّلمود البابليّ.

وفي التّلمود تأكيد الاستعلاء والتَّفوُّق العُنصُري اليهُوديّ على بقيَّة شُعُوب الأرض، وجَعْل النّاس عبيداً لليهُود؛ باعتبارهم شعب الله المُختار، وأنَّ الله قد اصطفاهم من دُون سواهم من شُعُوب الأرض، كما تتجسَّد فيه الانعزاليَّة عند الشّعب اليهُوديّ، وحقّه في جميع خيرات الأرض كُلِّها التي وهبها إلهه الخاص "يَهْوَه" دُون الآخرين من النّاس، فكان التّلموديُّون يُصوِّرون اليهُود وكأنّهم أرفع من طينة غيرهم من الجنس البشري غير اليهُوديّ، الذي خُلق لخدمة الشّعب اليهُوديّ، ولا فرق بينه وبين الحيوانات.

ويقول العلاَّمة ديورانت: «إنَّ الرَّبَّانيِّيْن والحاخاميِّيْن أخذوا يُفسِّرون التّوراة حسب أهوائهم، بالشّكل الذي يُرضي غرائزهم الشّريرة، ونُزُوعهم إلى الاستعلاء على بقيَّة أجناس البشر».

وينصُّ التّلمود على أنَّه: «يجبُ على كُلِّ يهُودي أنْ يبذل جهده لَمْنع تسلُّط باقي الأُمم على الأرض، حتَّى تؤول السُّلطة لليهُود وحدهم، فإذا لم تَصرْ السُّلطة إليهم عَدُّوا أنفسهم وكأنَّهم في حياة المنفى والأَسْر».

أمَّا نظرة التّلموديِّيْن إلى النّصارى؛ فقد جاء في التّلمود الكثير من عبارات الطّعن والشّتم والتَّهجُّم على النّصرانيَّة وعلى السَّيِّد المسيح عليه السّلام، ممَّا لا يستسيغه المُستوى الخُلُقي الإنساني، ونحنُ نُحجم عن نقل تلك العبارات النّابية التي يندى لها الجبين خجلاً (كالطَّعْن في خُلُق السَّيِّدة مريم وابنها) إنَّها تدلُّ على الحقد المرير الذي يُكنُّه اليهُود للمسيح عليه السّلام وللمسيحيَّة.

هذا؛ ويُجيز التّلمود الكذب والنّفاق مع غير اليهُود.

ويقول التّلمود بالتّناسخ[1]، وهُو فكْر كان قد تسرَّب من الهند إلى بابل، وأخذه حاخامات بابل، وأدخلوه في تعاليم التّلمود.

واليهُود يُقدِّسون التّلمود، ويعتبرونه أهمَّ من التّوراة، ويقولون فيه: إنَّ مَنْ احتقر الحاخامات استحقَّ الموت، وإنَّه لا خلاص لمَنْ ترك تعاليم التّلمود، وتمسَّك بالتّوراة فقط، لأنَّ أقوال عُلماء التّلمود أفضل ممَّا جاء في شريعة مُوسى[2][3].

وكان اليهُود حريصين كُلّ الحرص على أنْ لا يطَّلع على التّلمود غيرهم، خوفاً من ثورة العالم المسيحيّ ضدَّهم، فأخفوه أربعة عشر قرناً مُنذُ وَضَعَهُ حاخاموهم. وفي سنة 1243م، أمرت الحُكُومة الفرنسيَّة في باريس بإحراق التّلمود عَلَنَاً؛ بعد أنْ كُشف عمَّا يحتويه من عبارات الطّعن والإهانة ضدَّ الأغيار عامَّة، وضدَّ النّصارى خاصَّة، وقد تمَّ حرقه. وفي إيطاليا - أيضاً - عام 1553م، تمَّ حرق التّلمود، ثُمَّ أُحرق عدَّة مرَّات في مُختلف الأزمان والأقطار.

لذلك؛ قرَّر المجمع الدِّيني (السّنهدرين) الذي انعقد في بُولُونيا سنة 1631م، بالإجماع أنَّ العبارات التي تُهين الأغيار يجبُ حذفها، وأنَّ التّعاليم القائلة بأنَّ المسيحيِّين سافلو الأخلاق لا يستحقُّون المحبَّة والعدل لا يجوز نَشْرها خوفاً ممَّا يجرُّه ذلك على اليهُود من اضطهاد ومذابح وتشريد من المسيحيِّين، ولا سيما وأنَّ مُعظمهم يعيش بين المسيحيِّين في القارَّة الأُورُوبيَّة.

وكانت أوَّل طبعة كاملة للتّلمودَيْن الفلسطيني (الأُورشليمي) والعراقي (البابليّ) بعد ظُهُور وسائل الطّباعة، تلك التي طُبعت خلال عامَيْ 1520 إلى 1524م، في البُندقيَّة (في إيطاليا).

ويبلغ التّلمود باللُّغة الإنكليزيَّة بأُصُوله ومتُونه وشرُوحه وتعليقاته 36 مُجلَّداً. وقد نُقل الجُزء الأوَّل إلى العَرَبيَّة عام 1909م، والعُثُور على نُسخ كاملة للتّلمود صعب للغاية، نظراً لما حذفه المُتأخِّرون من العبارات النّابية التي تُهين الأغيار؛ وبخاصَّة النّصارى (كما أسلفنا).

---

(1) هي عقيدة هندُوسيَّة نَبَتَتْ في الهند، وانتقلتْ إلى البُلدان المُجاورة، وتعني انتقال الرُّوح من جسد إلى جسد، وقد تأثَّر بها اليهُود وبعض الفرَق الدِّينيَّة الإسلاميَّة.

(2) برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، شوقي عبد النّاصر، ص31.

(3) للتَّوسُّع في التّلمود وتعاليمه؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ (مفاهيم تلموديَّة نظرة اليهُود إلى العالم) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، ط1، 2003.

وقد وَضَعَ مُوسى بن ميمون الفيلسوف اليهُوديّ القُرطبـي الأندلسي (1139 ـ 1205م) ـ بعد انتقاله إلى مصر ـ تفسيراً وشـرحاً مُفصَّـلاً بالعَرَبيَّـة للمشنه؛ سمَّاه "السّراج"، وقد ألـفَّ بالآراميَّـة كتـاب "تثنيـة التّـوراة" يبحـث بالفقـه اليـهُوديّ، استمدَّه مـن التّلمـود البـابليّ والأُورشليمي.

ومـن أشـهر طبعـات التّلمـود: طبعـة أمسـتردام عـام 1644م، وطبعـة وارسـو 1863م، وطبعة براغ 1839م.

ويُورد الأُستاذ شـوقي عبـد النّـاصر في كتابه "برُوتُوكُـولات حُكَمَـاء صـهيُون وتعـاليم اليهُود" (إصدار مُؤسَّسة دار الكتاب الحديث في بيروت) بعضاً من تعاليم التّلمود، صفحة 33 ـ 40، نختار منها التّعاليم التّالية ليطَّلع القارئ على مدى حقد اليـهُود وعُنصُريّتهم وتعاليـهم على غيرهم من الأغيار، وتصوُّرهم للذّات الإلهيَّة، وفكْرتهم عنها:

ـ النّهار اثنتا عشرة ساعة: في الثّلاثـة الأُولـى منـها يجلس الله يُطالع الشّريعة، وفـي الثّلاثة الثّانية يحكم، وفي الثّلاثة الثّالثة يُطعم العالم، وفي الثّلاثة الأخيرة يجلـس، ويلعـب مع الحوت ملك الأسماك.

ـ اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل (عندما خرَّبه البابليّون)، فصار يبكي قائلاً: تبّاً لي؛ لأنّي صرَّحتُ بخراب الهيكل وإحراق بيتي ونهب أولادي.

ـ ليس الله معصوماً عن الطّيش والغضب والكذب (أستغفر الله)، (انظـر إلـى مُعتقداتـهم في العزَّة الإلهيَّة، والتي تأبى أكثر الأديان بدائيَّة أنْ تصف معبودها بهذه الصّفات).

ـ تتميَّز أرواح اليهُود عن باقي الأرواح بأنَّها جُزء من الله، كما أنَّ الابن جُزء من أبيه.. وأرواح اليهُود عزيزة عند الله بالنّسبة لبـاقي الأرواح؛ لأنَّ الأرواح غـير اليهُوديَّـة هـي أرواح شيطانيَّة تُشبه أرواح الحيوانات.

ـ النّعيم مأوى أرواح اليهُود، ولا يدخل الجنَّة إلاَّ اليهُود، أمَّا الجحيم؛ فمأوى الكُفَّار مهما اختلفت أسماء دياناتهم، ولا نصيب لهم فيها؛ إلاَّ البُكاء، لما فيها من الظّلام والعُفُونة والطّين.

ـ الإسرائيلي مُعتبَرٌ عند الله أكثر من الملائكة . . فإذا ضَرَبَ أُمي (أيْ غير إسرائيلي) إسرائيلياً ؛ فكأنَّه ضرب العزَّة الإلهيَّة ، ويستحقُّ الموت .

ـ لو لم يُخلق اليهُود لانعدمت البركة في الأرض .

ـ الأجانب (غير اليهُود) كالكلاب ، والأعياد المُقَدَّسة لم تُخلق للأجانب ، ولا للكلاب . . والكلب أفضل من الأجنبي ؛ لأنَّه مُصرَّح لليهُودي في الأعياد أنْ يُطعم الكلب ، وليس له أنْ يُطعم الأجنبي ، أو أنْ يُعطيه لحماً . . بل يُعطيه للكلب ؛ لأنَّه أفضل منه .

ـ الخارجُون عن دين اليهُود خنازير نجسة .

ـ ليس من العدل أنْ يُشفق الإنسان على أعدائه ، ويرحمهم .

ـ يحقُّ لليهُودي أنْ يغشَّ الكُفَّار (غير اليهُود) .

ـ محظور على اليهُوديّ أنْ يُحيِّي الكافر بالسّلام ؛ إلاَّ إذا خشي ضرره أو بطشه . . والنّفاق جائز في هذه الحالة . . ولا بأس من التّظاهر بمحبَّة الكُفَّار إذا خاف اليهُوديّ أذاهم .

ـ بما أنَّ اليهُود يُساوون أنفسهم مع العزَّة الإلهيَّة ، فالدُّنيا وما فيها ملك لهم ، ويحقُّ لهم التَّسلُّط على كُلِّ شيء فيها . . والسّرقة مسموح بها من مال غير اليهُوديّ ، ولا تُعتبر سرقة ، بل استرداد لمال اليهُود ، ولذلك ؛ فأموال غير اليهُود مُباحة لليهُود .

ـ مسموح غشُّ الأجنبي ، وسرقة ماله بواسطة الرّبا الفاحش .

ـ بأمر الله تأخذ الرّبا من غير اليهُود ، ولا تُقرضه إلاَّ تحت شرُوط ضخمة ، وبدُون ذلك نكون قد ساعدناه ، مع أنَّه من الواجب علينا ضرره .

ـ إذا احتاج غير اليهُوديّ بعض النُّقُود فعلى اليهُوديّ أنْ يستعمل معه الرِّبا المرَّة بعد الأُخرى ، حتَّى يعجز عن سداد ما عليه ؛ إلاَّ بتنازله عن جميع أمواله وأملاكه . (وهذا ينطبق على ما جاء في التّوراة : "لا تُقرضْ أخاكَ بربا فضَّة ، أو ربا طعام ، أو ربا شيء ، ممَّا يُقرض بربا . . للأجنبي تُقرض بربا ، ولكنْ ؛ لأخيكَ لا تُقرض بربا ؛ لكي يُباركك الرَّبُّ إلهكَ" سفر التّثنية ، إصحاح 23 ، فقرة 19 .

- يجوز لليهُودي أنْ يحلف أيماناً كاذبة في مُعاملاته مع غير اليهُود.

- على اليهُوديّ أنْ يُقسم عشرين مرَّة كاذباً، ولا يُعرِّض اليهُوديّ للضّرر.

- يجوز لليهُودي أنْ يشهد زوراً، و أنْ يقسم أنَّ ما يقوله صحيح، و أنْ يُؤوِّل ذلك في سرِّه.

- نحنُ شعب الله في الأرض.. وقد فرَّقنا اللهُ (في الأرض) لمنفعتنا.. وذلك لأنَّ اللـه سخَّر لنا الحيوان الإنساني، وأهل كُلّ الأُمم والأجناس.. سخَّرهم لنا؛ لأنَّنا نحتـاج نوعَيْن من الحيوانات: نوع أخرس كالدّواب والأنعام والطّيُـور، ونـوع نـاطق كالنّصارى والمُسلمين والبُوذيِّيـن وغيرهم من أُمـم الشّـرق والغـرب.. وسخَّر هـؤلاء لنـا لخدمتنـا، وفرَّقنـا فـي الأرض؛ لنمتطي ظُهُورهم، ونُحرِّكهم كما نشاء، ونستغلّ عُلُومهم وفُنُونهم لمنفعتنا.

- لليهُود مُناسبتان دمويَّتـان تُرضيـان إلـهنا "يَـهْوَه": إحداهمـا عيـد الفطـائر (أو الفطير) الممزوجة بالدّماء البشريَّة، والأُخرى ختان أطفالنا.

- مُحرَّم على اليهُوديّ أنْ يُنجِّي أحداً من الأجانب من هلاك، أو يُخرجه من حُفـرة يقـع فيها، بل عليه أنْ يسدَّها بحجر.

- من العدل أنْ يقتل اليهُوديّ بيده كُلّ كافر؛ لأنَّ مَنْ يسفك دم كافر يُقدِّم قُرباناً إلى الله.

- الشّفقة ممنوعة بالنّسبة لغير اليهُوديّ.. فإذا رأيتَهُ واقفاً على نهر أو مُهدَّداً بخطر فيُحـرَّم عليكَ أنْ تُنقذه، وعلى اليهُوديّ أنْ يقتل مَنْ يتمكَّن من قَتْله، فإذا لم يفعل يُخالف الشّريعة اليهُوديَّة.

- قَتْلُ غير اليهُوديّ من الأفعال التي يُكافئ عليـها اللـه.. وإذا لـم يتمكَّـن اليـهُوديّ مـن قَتْلهم، فواجب عليه أنْ يتسبَّب في هلاكهم في أيِّ وقت وبأيَّة طريقة.

- الذي يخرج عن دين اليهُود يُقتَل؛ إلاَّ إذا فعل ذلك ليغشَّ غير اليـهُود، ويُوهمـهم أنَّـه أصبح على دينهم.

بعد هذه التّعـاليم الواضحـة لا نستغرب مـا يقـوم بـه اليـهُود مـن مذابـح قديمـاً كمذبحـة أريحا، وحديثاً مذابحهم المُتكرِّرة في فلسطين ولُبنان[1]، وإزهاق أرواح النّاس الأبرياء العُزَّل مـن السّـلاح: كمذابـح ديـر ياسـين ونـاصر الدِّيـن وحواسـة عـام 1948، ومذبحـة قبيـة فـي

(1) للباحث عبد المجيد همُّو كتاب مُهمٌّ هُو (المجازر اليهُوديَّة والإرهاب الصّهيُوني)؛ حيـث عـدَّد فيه وشـرح المجـازر التي قام بها اليهُود مُنذُ ظُهُور التّوراة حتَّى الآن، دار الأوائل، ط1، 2003.

الخمسينات، ومذبحة المسجد الأقصى في السّبعينات، ومذابح صبرا وشاتيلا 1982، في لُبنان، ومذبحة المسجد الإبراهيمي في الخليل، والتي تُمثِّل أسوأ أنواع الإجرام، وذلك بقتل العُزَّل الأبرياء وهُم يعبدُون الله في بيت الله، ومذبحة قانا في لُبنان، والتي أودت بحياة أكثر من مئة شهيد ومئات الجرحى والمُشوَّهين، وكُلُّهم كانوا من الأطفال والنّساء والشُّيُوخ الذين التجؤوا إلى قاعدة الأُمم المُتَّحدة في قانة هَرَباً من القصف الجويِّ والمدفعي الإسرائيلي، واحتماء بقاعدة دوليَّة تتبع الأُمم المُتَّحدة.

هذه هي سجايا اليهُود النّابعة من تعاليم دينهم، والمُجرَّدة من أيِّ عاطفة إنسانيَّة، والمُتعطِّشة لسفك دماء الأغيار، طالما لا يُوجد رادع ولا عقاب.

أمَّا عن العلاقات الجنسيَّة بين اليهُود والأغيار؛ فقد جاء في التّلمود الكثير من إباحة أعراض الأغيار لهم؛ منها على سبيل المثال:

اليهُوديّ لا يخطئ إذا اعتدى على عرْض غير اليهُوديَّة؛ لأنَّ كُلَّ عقد زواج عند غير اليهُود باطل، فالمرأة غير اليهُوديَّة تُعتبر بهيمة، والعقد بين البهائم لا يقوم.

لليهُود الحقُّ في اغتصاب النّساء غير اليهُوديَّات.

إنَّ الزّنى بغير اليهُود - إناثاً أو ذُكُوراً - لا عقاب عليه؛ لأنَّهم من نسل الحيوانات.

ليس للمرأة اليهُوديَّة أنْ تشكو إذا زنى زوجها بأجنبيَّة في بيت الزّوجيَّة.

علينا أنْ نُزوِّج بناتنا الجميلات للمُلُوك والأُمراء والوُزراء والعُظماء (من الأغيار)، وأنْ نُدخل أبناءنا الدّيانات المُختلفة؛ لتكون لنا الكلمة العُليا في الدُّول والحُكُومات، فنُوقع بينهم.. ونُدخل عليهم الخوف.. ليُحارب بعضهم بعضاً، ومن ذلك كُلِّه نجني أكبر الفوائد.

اللّواط بالزّوجة جائز عند اليهُود؛ لأنَّ الزّوجة خُلقت للاستمتاع بها، وهي - في ذلك - مثل قطعة لحم اشتراها من الجزّار، ويُمكنه أكْلُها مسلوقة أو مشويَّة حسب رغبته.

أمَّا بالنّسبة إلى المسيحيِّين والدّيانة المسيحيَّة والمسيح عليه السّلام؛ فقد وَرَدَ في التّلمود ما يخجل المرء عن ذكْره، ولكنْ؛ رأيتُ أنْ أُورده ليطَّلع المسيحيُّون على موقف اليهُود من

المسيح وأُمِّه والدّيانة المسيحيَّة، وذلك ردّاً على موقف ما يُسمَّون بالمسيحيِّيْن الصّهاينة الذين يقفون مع باطل اليهُود في فلسطين؛ ليعرفوا موقف اليهُود من المسيحيَّة والمسيحيِّيْن[1]:

قتْل المسيحيّ من الأُمُور الواجب تنفيذها، وإنَّ العهد مع المسيحيّ لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم به اليهُوديّ.. إنَّ الواجب أنْ يلعنَ اليهُوديُّ ثلاث مرَّات رُؤساءَ المذهب المسيحيّ، وجميع المُلوك الذين يُظهرون العداوة ضدَّ بني إسرائيل.

إنَّ يسوع النّاصري موجود في لجان الجحيم بين الزّفت والقُطران والنّار، وإنَّ أمَّه مريم أتت به من العسكري "باندارا" بمُباشرة الزّنى (أستغفر الله من هذه الأقوال، ولعنة الله على اليهُود).

قارنْ هذا الكلام بما جاء في القُرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا (أيْ مريم عليها السّلام) فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ سُورة الأنبياء، آية 91.

إنَّ الكنائس المسيحيَّة بمقام القاذورات، وإنَّ الواعظين فيها أشبه بالكلاب النّابحة.
على اليهُود أنْ يُعاملوا المسيحيِّيْن كحيوانات دنيئة غير عاقلة.
كنائس المسيحيِّيْن كبُيُوت الضّالّين ومعابد الأصنام، فيجبُ على اليهُود تخريبها.
على كُلِّ يهُودي أنْ يلعن المسيحيِّيْن وغيرهم كُلّ يوم ثلاث مرَّات.

هذا غيض من فيض من تعاليم التّلمود، ذكرنا بعضها ليطّلع القارئ على نماذج من عُنصُريَّة اليهُود وحقدهم وسُوء أخلاقهم وسُلُوكهم مع الأغيار، وكُلُّها تنبض بالحقد، وتفيض بالكراهية وحُبِّ الانتقام وسَفْك الدّماء.

لذلك؛ كان يتمُّ حَرْق التّلمود - كما مرَّ معنا - عندما يطّلع عليه المسيحيُّون، ويلحق باليهُود الاضطهاد والمذابح، لذلك كان اليهُود يُخفون التّلمود، ولا يسمحون لأحد غيرهم بالاطّلاع عليه، ومن هُنا؛ جاءت ندرته وصُعُوبة الحُصُول عليه.

(1) سنتكلَّم عن المسيحيِّيْن الصّهاينة في مكان لاحق من هذا الكتاب، وهُم الذين يُؤيِّدون الحَركَة الصّهيُونيَّة، ويعتبرونها تُحقِّق نُبُوءة التّوراة بالعودة إلى أرض "المعاد".

طائفة القرَّائين ورَفْضهم التّلمود[1]:

وكما ظهر بين اليهُود طوائف ترفض التّوراة، ولا تعترف إلاَّ بالأسفار الخمسة الأُولى (وهي أسفار مُوسى عليه السّلام؛ مثل طائفة السّامريِّيْن والصّدُّوقيِّيْن) كذلك ظهرت طائفة "القرَّائين" تُنكر التّلمود، وترفض العمل به.

وأوّل مَنْ نادى بنَبْذ التّلمود، وجَعَلَ شعاره "اتركوا تعاليم التّلمود" هُو: المسيزنيوس، وهُو من يهُود سُوريَّة، وظهر حوالي عام 720م، في خلافة يزيد بن عبد الملك، الذي أمر بتسليمه لليهُود أنفسهم؛ ليتولّوا مُحاكمته، وانتهى ـ بذلك ـ أمره.

ثُمَّ ظهر يهُودي آخر في أصفهان (في إيران) يُدعى عوبديا بن عيسى، نادى بعدم الاعتراف بالتّلمود، وأدخل تعديلات كثيرة على الأحكام اليهُوديَّة، وكان ذلك حوالي عام 750م.

وقد ظهرت في القرن الثّامن الميلادي فرقة يهُوديَّة أسَّسها الحبر عنان بن داود، وهي ترفض التّلمود، وتُنادي بنَبْذه، وتصف تعاليم الرّبّانيِّيْن بأنّها خارجة عن التّوراة، وقد أطلقت هذه الفرقة على نفسها اسم "القرَّائين"؛ أيْ قارئو التّوراة فقط دُون التّلمود. وقد استمالت هذه الفرقة كثيراً من يهُود العراق، وانتشرت الدّعوة في مصر والشّام وتُركيا وإيران ورُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة، وأخذ القرَّاؤون يُدقِّقون نُصُوص التّلمود، ويتعمّقون في تحليلها علميّاً؛ بقصد تفنيدها وفَضْحها، وقد رجعوا إلى الأديان السّماويَّة التي شجبت العقليَّة التّلموديَّة الاستعلائيَّة كالإنجيل والقُرآن الكريم، فقال عنان: «إنَّ عيسى بن مريم لم يكن زنديقاً، وإنّه لم يُشوِّه التّوراة، ولم يُكذِّبها، أو ينسخها، وإنَّما كان رجلاً من البشر، تقيّاً صالحاً، لم يُفَكِّر ـ قطُّ ـ في النُّبُوَّة والأُلُوهيَّة، وإنَّما كان رجلاً مُصلحاً أراد أنْ يُخلِّص شريعة مُوسى من المفاهيم التي ألصقها النّاس بها». ونادى عنان كذلك بأنَّ مُحَمَّداً ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ نبيّ حقّ، وأنّه ـ كعيسى عليه السّلام ـ لم يُفكِّر ـ قطُّ ـ في مُخالفة التّوراة، أو التّعدِّي عليها، أو نسخ شرائعها.

وقد اشتدَّ الصّراع بين القرَّائين والرّبَّانيِّيْن، فنادى رُؤساء كُلٍّ من الفريقَيْن بتكفير الفريق الآخر، ولم يترك القرَّاؤون أيَّة ناحية ضعيفة في العقليَّة التّلموديَّة إلاَّ ولجوها بقصد فضح

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 498 ـ 402، باختصار.

الرَّبَّانيِّين والسُّخرية منهم ، وكان الصّراع على أشدِّه في العراق زمن الخليفة أبو جعفر المنصور ، وفي مصر في العهد الفاطمي .

واستمرَّت حَرَكَة القرَّائين العلميَّة نشيطة على يد زُعماء من أقطاب الفكْر القرَّائي حتَّى مُستهلِّ القرن السَّابع عشر الميلادي ، ثُمَّ أخذ ظلُّهم بالتَّقلُّص مع انتشار اليهُود الرَّبَّانيِّين بأعداد كبيرة في أُورُوبا وأمريكا وكثير من البلاد التي استعمرها الغرب في أفريقيا وآسيا ، وظلَّ القرَّاؤون مُنكمشين في الشّرق .

وساعد الرَّبَّانيِّين سيطرتُهُم على المال والاقتصاد والصّحافة في الغرب ، وبالتّالي ؛ على الرَّأي العامِّ اليهُوديّ وغير اليهُوديّ . وكان لظُهُور الحَرَكَة الصّهيُونيَّة واتِّساع نُفُوذها الأثر الأكبر في إخماد حَرَكَة القرَّائين وتقلُّص ظلّهم ، وذلك على الرّغم من ظُهُور عُلماء مُتبحِّرين في الفقه اليهُوديّ من بين طائفتهم ، ووَضْعهم العديد من كُتُب التّفسير والشُّرُوح الدِّينيَّة ؛ حيثُ كانت الصّهيُونيَّة ترى في طائفة القرَّائين أكبر خطر يُهدِّد مشروعها الاستعماري السِّياسي الذي خطَّطته بالاتِّفاق مع الرَّبَّانيِّين للاستيلاء على فلسطين ، واتِّخاذها وطناً قوميَّاً لليهُود بالقُوَّة ، وفي ذلك يقول الدُّكتُور حسن ظاظا في كتابه "الفكْر الدِّيني الإسرائيلي 295 - 306" ما يلي : « كان للقرَّائين في تُركيا ورُوسيا ومصر نشاط ملحوظ ضدَّ الصّهيُونيَّة ، ولكنَّ هذه الأخيرة استعانت بالجواسيس والعُملاء ، واستغلَّت ظُرُوفاً حربيَّة وسياسيَّة مُعيَّنة لاصطياد بضعة آلاف من القرَّائين وإدخالهم إلى (إسرائيل) ، وهُم يعيشون هُناك كرهائن ، وكوسيلة للضّغط والمُساومات مع باقي القرَّائين خارج هذا الشّرك ؛ إذْ ألزمتهم الصّهيُونيَّة على التزام الصّمت ، والكفّ عن مُهاجمتها ؛ حرصاً على حياة أبناء طائفتهم في (إسرائيل) وأمنهم » .

ويختم الدُّكتُور ظاظا كلامه عن القرَّائين والصّهيُونيَّة بقوله : « والآن ؛ هل تنتفض القرَّائيَّة ، وتنهض من جديد؟ هذا أمر مُستبعد حاليَّاً ؛ نَظَرَاً للثّقل السّاحق دوليَّاً للرَّبَّانيَّة وصهيُونيَّتها » .

مجمع السَنهندرين[1] :

هُو المجمع الدِّيني الأعلى لليهُود ، وأصل كلمة السّنهندرين أو السّنحدرين يُوناني ، ومعناه المقعد أو المجلس .

---

(1) د. أحمد سُوسة ، "العَرَب واليهُود في التّاريخ" ، ص 358 - 359 .
الأُستاذ عجاج نُويهض (برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون) ص 139 - 149 ، باختصار .

والسّنهندرين له علاقة خفيَّة في أمر "حُكَمَاء صهيُون" في أيَّامنا هذه، بل يصحُّ القول إنَّ لفظتَيْ "حُكَمَاء صهيُون" و"السّنهندرين" مُترادفتان لهما مدلول واحد.

وأصل فكْرة السّنهندرين يعود إلى عزرا ونحميا (ولهما سفْران مُستقلاَّن)، وظهر ـ بشكل واضح ـ أيَّام خُلفاء الإسكندر: البطالسة في مصر، والسّلوقيّيْن في سُوريَّة[1]؛ حيثُ كانت المنطقة اليهُوديَّة ـ بعد الرُّجُوع من السّبي البابليّ ـ بين المدِّ والجَزْر، فتارةً تقع تحت نُفُوذ البطالسة في مصر، وتارةً أُخرى تكون تابعة لسُلطة السّلوقيّيْن في سُوريَّة، واستمرَّت الحالة كذلك حتَّى ظُهُور المكابيّيْن، ومن بعدهم الرُّومان على مسرح الأحداث في فلسطين.

وعندما جاء الرُّومان حيَّرهم أمر السّنهندرين، ولكنَّه بقي قائماً في عهدهم، حتَّى تمَّ إلغاؤه سنة 70م، عندما هُدمت أُورشليم وهيكلها على يد طيطس، وحُرِّم على اليهُود دُخُول القُدس، فانتقل أعضاؤه إلى بلدة "يبنة" قرب يَافَا، ومن "يبنة" إلى طبريَّة، وفي عهد الإمبراطُور أنتونين بيوس 138 ـ 161م، أُعيد تشكيل السّنهندرين في الجليل في بلدة "أوشا"، وقد بقي منصب الرّئاسة للسّنهندرين وراثياً في عائلة "هليل" أكثر من ثلاثة قُرُون.

ويُحاول الكتاب جعل بداية وُجُود السّنهندرين مُنذُ الرُّجُوع من السّبي البابليّ على الأقلّ؛ أيْ إرجاعه إلى أواخر القرن السَّادس قبل الميلاد، وأمَّا التّقليد اليهُوديّ؛ فيُعتبر أوَّل سنهندرين وُجد كان في عهد مُوسى عليه السّلام، عندما دعا إليه سبعين رجلاً ليعملوا معه؛ عندما قام أتابعه يتذمَّرون، ويُطالبون بالعودة إلى مصر؛ (كما جاء في سفْر العدد، إصحاح 11، الفقرات 16 ـ 17 و24).

وكانت تتمثَّل في السّنهندرين فئتان: الفئة الأُولى (ساودسي) وهي الفئة المُتمسِّكة بتعاليم الدِّين، ومهمَّتها حَمْلُ النّاس على الزُّهد والتَّعبُّد، والفئة الثَّانية وتُسمَّى "بيروشيم"؛ وهي التي تدفع النّاس إلى ناحية العمل والكسب والإثراء ليُصبح الشّعب اليهُوديّ ذا قُوَّة مادِّيَّة ودينيَّة (أيْ يجمع طالبي الآخرة وطالبي الدُّنيا).

---

(1) بعد تقسيم إمبراطُوريَّة الإسكندر كانت فلسطين من حصَّة البطالسة في مصر، ثُمَّ أدخلها السّلوقيُّون في حُكْمهم في سُوريَّة، وكانت عاصمتهم أنطاكية.

وكانت صلاحيَّة السّنهندرين تضيق وتتَّسع من وقت لآخر، حسب إرادة الرُّومان بعد احتلالهم سُوريَّة عام 64 ق. م. وقد منح الرُّومانُ السّنهندرينَ صلاحيَّات دينيَّة واجتماعيَّة واسعة، شريطة عدم تأثير ذلك على المصالح السِّياسيَّة الرُّومانيَّة في المنطقة، والسّنهندرين هُو الذي حاكم السَّيِّد المسيح عليه السّلام، وأمر بصَلْبه[1] عام 29م، على ما جاءت به الأخبار (إنجيل مرقص، الإصحاح 14، فقرة 53 ـ 54، وإنجيل متَّى، إصحاح 26، فقرة 55 ـ 68). وكان السّنهندرين ـ عندئذ ـ في أقصى ما وَصَلَ إليه من نُفُوذ وصلاحيَّات، وكان يتألَّف ـ حينذاك ـ من 71 عُضواً، كُلُّهم من كبار الكَهَنَة والشُّيُوخ وأشهر الحاخاميِّين، وكان يُحصِّل على النِّصاب فيه بحُضُور 23 عُضواً.

ولَمَّا عُيِّن "غابينوس" أوَّل والٍ رُوماني على سُوريَّة عام 57 ق. م، قسَّم المنطقة اليهُوديَّة إلى خمسة أقسام، وأقام في كُلٍّ منها سنهندرين محلِّي مُؤلَّف من سبعة أعضاء، وقد سُمِّي السّنهندرين الرّئيسي في أُورشليم السّنهندرين الأعلى؛ تمييزاً له من الهيئات المحلِّيَّة.

ويقول الأُستاذ عجاج نُويهض حول السّنهندرين: «السّنهندرين هُو عُقدة الرّابطة اليهُوديَّة في العالم أجمع، هُو الرّابط الخفي الذي يُسيطر على "البرُوتُوكُولات" وتنفيذها. والسّنهندرين معناه ـ اليوم، امتداداً من القُرُون الماضية، ولا سيما من القرن السَّابع عشر، عند الكُتَّاب والمُعلِّقين السِّياسيِّين والباحثين في شؤُون اليهُود، هُو الهيئة اليهُوديَّة السِّرِّيَّة العُليا لا يُعلَم أين مكانها، ولا مَنْ هُم رجالها»[2].

ويقول الأُستاذ عجاج نُويهض في نهاية حديثه عن السّنهندرين ما يلي: «مُنذُ تشتيت الرُّومان لليهُود عام 70م، والسّنهندرين الخفي يتبع جماعات اليهُود في كُلِّ البلاد، ومُنذُ الثّورة الفرنسيَّة صار لهم سنهندرين عالمي له السُّلطة العُليا على الحَرَكَة اليهُوديَّة في العالم كُلِّه؛ وهُم "حُكَمَاء صهيُون"، ودُستُورهم هُو "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون".

ومن السّنهندرين خرجت بُذُور التّلمود وأحكامه وشُرُوحاته، ثُمَّ القَبَالَة[3] وتعاليمها، وأخيراً؛ برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون.

---

(1) كما هُو معروف عند النّصارى، أمَّا المُسلمون؛ فيقولون إنَّ اللّه رفعه إلى السّماء: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ سُورة آل عُمران، آية 55.

(2) عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، الجُزء الثّاني، ص 140.

(3) القَبَالَة والقَبَاليُّون هُم طائفة يهُوديَّة لها أهمِّيَّة كبيرة في الفكْر الدِّيني اليهُودي، وذلك بتوغُّلاتهم الصُّوفيَّة، وتطلُّعاتهم إلى ظُهُور المسيح المُنْتَظَر الذي سيُنقذ اليهُود من آلامهم، ويُملِّكهم العالم، وسيأتي الحديث عنهم بالتّفصيل فيما يلي.

الفصل الثَّاني:

الفرَق والطّوائف اليهُوديَّة

ظهرت بين اليـهُود طوائـف ومذاهـب وفـرَق كثيرة ومُتشـعِّبة؛ منـها مـا انقـرض وزال، ومنها ما هُو باق ومُستمرّ، ومنها القديم قدَم اليهُوديَّة، ومنها الحديث الذي ظهر في العُصُـور المُتأخِّرة، وهذه الفرَق والمذاهب هي:

أوّلاً: الفرَق والطّوائف اليهُوديَّة القديمة:

أ ـ الكَتَبَةُ (السُّوفريم):

السُّوفريم تعني بالآراميَّة الكَتَبَة (وأصلها من سفْر، وجمعها أسفار، وكَتَبَةُ الأسفار هُـم السُّوفريم). وسوفير معناها كاتب الأسفار، وهُم طائفة من الفُقهاء اليهُود كانت تقوم بكتابـة النّاموس (أيْ الأسفار الخمسة الأُولى) وتدوين الأجزاء الأُخرى مـن التّوراة (أيْ مـا زاد عـن الأسفار الخمسة)، وأوّل مَنْ لُقِّب بالكاتب هُو عـزرا، فقيـل عـزرا الكـاتب، كمـا قيـل عـزرا الكاهن[1].

ويقول الأُستاذ عجاج نُويهض في تعريفهم[2]: «وصار هؤلاء المعروفون بالكَتَبَـة طبقـة مُتميِّزة، تضمُّ العُلماء المُفسِّرين للشّريعة، وهُم يزعمون ـ عن طريـق وَضْعـهم والإشـارة إلـى غايتهم ـ أنَّهم يطلبون الرّويَّة في الحُكْم، وتكثير عدد التّلامذة والأتباع، وإقامة السّياج حـول التّوراة»، وقالوا: إنَّ الرّويَّة في الحُكْم؛ فلكي يُؤمن الآخـذ مـن يُنبـوع التّـوراة، وأمَّـا تكثير

(1) لمعرفة كيف نشأت اليهُوديَّة بالتَّفصيل، وكيف أُقرَّت، وماهي الفرَق والمذاهب اليهُوديَّـة، تُراجَع الكُتُب المُهمَّـة التَّالية: (ما بين مُوسى وعزرا كيـف نشـأت اليهُوديَّة)، و(اليهُوديَّة بعـد عـزرا وكيـف أُقرَّت)، و(الفـرَق والمذاهـب اليهُوديَّة مُنذُ البدايات) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، ط1، 2003.

(2) أ. عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، المُجلَّد الثَّاني، ص 133 ـ 134.

سواد التّلاميذ؛ فلكي يكون منهم خَلَف بعد سَلَف يُتابعون حَمْل التّوراة، وأمَّا إقامة السّياج حول التّوراة؛ فمعناه العمل بأحكامها.

وبعبارة مُوجزة: إنَّ من هذه الهيئة التي قالت بلسانها هذا القول انبثق التّلمود الذي صار فوق التّوراة في الغُلُوِّ والتَّعصُّب والاستعلاء.

ويختلف كُتَّاب اليهُود اليوم في تعيِّين آخر عهد هذه الهيئة؛ لكنْ؛ يُقال: إنَّ آخر عهدها كان بعد أيَّام عزرا بعدَّة قُرُون، وفي خلال العهد المكابي، ويظهر أنَّهم امتدّوا إلى ما بعد العهد المسيحيّ، فالكَتَبَة كانوا أيَّام المسيح عليه السّلام، وأخبارهم في الإنجيل مُستفيضة، وبقوا إلى ما بعد ذلك، ويُقال لهم في الإنجيل: "النّاموسيُّون"، أو "أصحاب النّاموس"؛ أيْ الشّريعة. وكلمة ناموس يُونانيَّة الأصل، وليست عبريَّة. وكان هؤلاء الكَتَبَةُ يُحاجُّون المسيح بالباطل، ويدَّعون أنَّ لهم وحدهم النّاموس (أيْ الشّريعة).

ويقول الدُّكتُور أحمد سُوسة حول هؤلاء الكَتَبَة، ما يلي[1]: «وقد توصَّلوا إلى مُمارسة سُلطة كُبرى عُليا عامَّة، بلغت ذروتها في عهد السَّيِّد المسيح ﷺ، فكان لهم أعضاء كثيرون في السّنهندرين، وعليهم يقع الوزر الأكبر في الجريمة النّكراء، وهي جريمة صلب "المسيح" (حسب دعوى الإنجيل)، بالاشتراك مع الفرِّيسيِّيْن والصّدُّوقيِّيْن.

وأطلق عليهم العهد الجديد ـ أيْ "الإنجيل" ـ تسمية "النَّاموسيِّيْن" في أماكن مُتعدِّدة منه، وقلَّما وَرَدَ ذكْرهم فيه مُنفرداً، بل مقروناً مع "الفرِّيسيِّيْن" الذين كانوا يُشَكِّلون معهم حزباً سياسيَّاً، وصاروا يحملون ـ فيما ـ بعد اسم حاخاميِّيْن؛ أيْ (مُعلِّمي الشّريعة اليهُوديَّة).

وقد كانت هذه الطّائفة من الكَتَبَة تتمتَّع بسُمعة سيِّئة، كما كانت مكروهة من العامَّة، حتَّى العهد القديم (التّوراة) يتَّهمها بالأسفار المُتأخِّرة بتحريف التّوراة (كما جاء في سفْر إرميا، إصحاح 8، فقرة 8) ويصفها بالكذب أيضاً (إرميا، الإصحاح 6، فقرة 15، والإصحاح 8، الفقرات من 1 ـ 9، وسفْر أشعيا، إصحاح 19، فقرة 11).

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 943 ـ 944.

والعهد الجديد (الإنجيل) يُضيف إلى ذلك وصفها بالمُراءاة، وفساد السّريرة، ويُشبِّهها بأولاد الأفاعي، ويَعدُها بثماني ويلات لثماني خصال فاسدة تتّصف بها (إنجيل متَّى، إصحاح 23).

وقد جاء في القُرآن الكريم حول هؤلاء الكَتَبَة تقريع شديد بقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة، آية 79.

ب ـ طائفة السّامريِّيْن:

هي طائفة قليلة من اليهُود لا تعترف من التّوراة إلاَّ بالأسفار الخمسة الأُولى المنسوبة إلى النَّبيّ مُوسى عليه السّلام، وتُعرَف هذه الطّائفة بالسّامريَّة؛ نسبة إلى السّامرة؛ وهي مدينة نابلس اليوم.

وقد استقلّت هذه الطّائفة بكيانها الدِّيني، وَبَنَتْ لها هيكلاً خاصّاً بها على جَبَل "جرزيم" قُرب نابلس. وقد قام بينها وبين سائر اليهُود عداءٌ استمرَّ قُرُوناً، حتَّى راح السّامريُّون ـ أحياناً ـ يُعينون الغُزاة على اليهُود.

ويُعتقَد أنَّ هؤلاء السّامريِّيْن هُم بقايا الجماعات التي نقلها الآشوريُّون إلى السّامرة من البلاد المُجاورة؛ لتحلَّ محلَّ اليهُود الذين تمَّ نَفْيُهم بعد القضاء على مملكة السّامرة اليهُوديَّة، وَنَفْيِ أسباطها العشرة (وهُم الأسباط العشرة المفقودة، والتي تنصَّرتْ فيما بعد؛ كما مرَّ معنا).

وقد اختلط السُّكَّان الجُدُد ببقايا اليهُود في منطقة السّامرة، واعتنقوا الدّيانة اليهُوديَّة، وتكوَّنت منهم هذه الفئة المُسمَّاة بالسّامريِّيْن، أو السّمرة.

وعندما رجع اليهُود من السّبي البابليّ (وهُم يهُود مملكة يهُوذا) عام 536 ق. م، إلى منطقة أُورشليم القُدس، عزلوا هذه الطّائفة عن المُجتمع اليهُوديّ كُلِّيّاً، وحرَّموا التّزاوج معهم، والاختلاط بهم، حتَّى إنَّهم رَفَضُوا طَلَبَ يهُود السّامرة الاشتراك معهم في إعادة بناء الهيكل.

وتُقيم هذه الطّائفة في مدينة نابلس (في فلسطين)، وهُم أقلُّ الطّوائف اليهُوديَّة عَدَداً؛ إذْ يبلغ عددهم 337 نسمة فقط.

وكانت هذه الطّائفة - في تاريخها القديم - في صراع مُستمرٍّ مع اليهُود، ومع الرُّومان، وقد قاموا بثورات زمن الإمبراطُور الرُّوماني "زينو" 474 - 491 م، فَطَرَدَهُم من مقرِّهم في جَبَلِهم المُقَدَّس "جرزيم"، وبنى فيه كَنيسة بدل الهيكل، وثاروا في زمن الإمبراطُور جوستنيان، فَنَكَّلَ بهم، ودمَّر معبدهم، وأقام الكنائس في المدينة، فهرب بعضهم إلى إيران، واعتنق بعضهم المسيحيَّة (وهذا السّبب في قلَّة عددهم).

وبعد الفَتْح الإسلامي العَرَبي؛ عاد السّامريُّون إلى نابلس، وعاشوا في أمانٍ في ظلٍّ الإسلام، يُقيمون طُقُوسهم الدِّينيَّة بحُرِّيَّة تامَّة.

وتقوم عقيدة السّامريِّيْن على خمسة أركان: وحدانيَّة الله، نُبُوءة مُوسى عليه السّلام، قداسة جَبَل جرزيم، الإيمان بالتّوراة (الأسفار الخمسة الأُولى فقط) وأنَّها مُنزلة من الله، والإيمان بيوم الدّينونة والبعث، وإنَّه لا ريب فيه (هذا ما جاء في مجلَّة العَرَبي)[1].

أمَّا الدُّكتُور أحمد سُوسة فيقول عن فرقة السّامريَّة: «إنَّها فرقة من اليهُود لا تُؤمن بغير الأسفار الخمسة الأُولى من التّوراة، وتُنكر التّلمود، وهُم - مثل الصّدُّوقيِّيْن - لا يُؤمنون بالبعث وباليوم الآخر، ولا يعترفون بغير النَّبيّ مُوسى عليه السّلام، والنَّبيّ يُوشع من بين الأنبياء»[2].

ج - طائفة القرَّائين:

تُراجع صفحة 352 من هذا الكتاب، وقد بحثنا أمر هذه الطّائفة عند الحديث عن اليهُود الذين يرفضون الاعتراف بالتّلمود.

د - الصّدوقيُّون[3]:

ينتسبون إلى رائدهم الأوَّل "صدوق"، أو "صادق"، وأرجح الأقوال في تعيِّين وقت ظُهُور هذه الفرقة هُو خُلفاء الإسكندر، وكان اليهُود قد أمسوا تحت حُكْم البطالسة في مصر تارة، والسّلوقيِّيْن في سُوريَّة تارة أُخرى، وذاق اليهُود من هؤلاء جميعاً العذاب الذي يستحقُّونه.

(1) مجلَّة العَرَبي، العدد 29، نيسان، 1956، ص 81، - 87، تحقيق صُحُفي.
(2) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 359 - 362، باختصار، وص 914.
(3) أ. نُويهض، (برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون)، ج2، ص 134 - 135.

وعندما جاء الرُّومان كانوا يميلون إلى مُسالمة الرُّومان.

وتتلخَّص عقائدهم بما يلي:

1 ـ الصّدوقيُّون يرفضون كُلَّ ما يأتي به الشُّيوخ والكَتَبَةُ مِمَّا هُو خارج عن الوحي المُدوَّن في أسفار التّوراة، ولهم في مجلس السّنهدرين مُمثِّلون أقلّ من عشرين عُضواً من أصل 70 عُضواً.

2 ـ يقتصرون من التّوراة على أسفار مُوسى الخمسة، وهُم ـ في هذه النّاحية ـ يقفون مع السّامريِّيْن على صعيد واحد؛ إذْ كلاهما لا يقبل من التّوراة إلاَّ الأسفار الخمسة الأُولى (أسفار مُوسى عليه السّلام).

3 ـ وهُم يُنكرون البعث والنُّشُور والقيامة، وقالوا: إنَّما هي الحياة الدُّنيا، وكفى، وخُلُود النّفس باطل عندهم، ولا يعتقدون بالملائكة، وقالوا: إنَّ الإنسان خالق لعمله باختياره، وهُم قريبون من الفلسفة الأبيقوريَّة[1].

وقد كانوا قلَّة في العدد، ولكنْ؛ كانت لهم الثّروة المادِّيَّة واليُسر والبُرُوز في المُجتمع. وقد نَبَتَتْ منهم فرقة القرَّائين، والقرَّاؤون ـ كما مرَّ معنا ـ لا يقولون أو يعترفون بالتّلمود. ومن الصّدوقيِّيْن في (إسرائيل) جماعة اشتهرت بالتَّزمُّت حول الطُّقُوس والسّبت.

هـ ـ الفرِّيسيُّون[2]:

وهُم يُناقضون الصّدوقيِّيْن، ولهم الكثرة في العدد، وفي مقاعد السّنهدرين، وجمهرة العُلماء منهم، ومُعظم الكَتَبَة ينتمون إليهم، وهُم يقبلون ـ بالإضافة إلى التّوراة ـ الأشياء الخارجة عن الوحي، لذلك غزرت عندهم الأساطير، ويتباهون بأنَّهم حَفَظَةُ شريعة مُوسى، وغالوا في ذلك تقيُّداً وتزمُّتاً، حتَّى انغمسوا في المظاهر الكاذبة في السُّلُوك الدِّيني، فالقُشُور استغرقتهم حتَّى أعمت بصيرتهم، وهؤلاء هُم الذين عانى منهم المسيح عليه السّلام أشدَّ المُعاناة، وخبره معهم مشروح في الأناجيل، فَوَصَفَهُم بالمُرائين، وكرَّر ذلك فيهم، وشَبَّهَهُم بالقُبُور النّظيفة من الخارج، والخاوية من الدّاخل.

---

(1) أبيقور فيلسوف يُوناني جَعَلَ اللّذّة (التي لا تجلب ألماً وعذاباً) رأس النّعيم وقاعدة الأخلاق.

(2) عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ج2، ص 135.

واسم الفرِّيسيِّيْن يدلُّ على طبيعة أمرهم وعقائدهم، فهُم ـ لُغالاتـهم كـواذب المظاهر ـ جَعَلوا أنفسهم كأنَّهم جماعة مفروزة عن عامَّة المُجتمع اليـهُوديّ أو الشّعب، وجـذر الكلمة هُو "فرز" بالعَرَبيَّة، والاسم فريز وفرِّيزيُّون أو فرِّيسيُّون.

ومَنْ شاء الاستزادة عـن أخبارهم وأخبـار الصّدوقيِّـن وجماعـة "العشَّارين" فـي حيـاة السَّيِّد المسيح عليه السّلام فليُراجع أخبارهم في الإنجيل. هذا؛ وإنَّ بُولُس الرّسـول كـان مـن فرقة الفرِّيسيِّيْن قبل أنْ يُشرق في قلبه نُور الإيمان بالسَّيِّد المسيح ؑ.

وجاء في تعريف الفرِّيسيِّيْن عند الدُّكتُور أحمد سُوسة مـا يلـي: «الفرِّيسـيُّون فرقـة مـن الفرَق اليهُوديَّة المُتأخِّرة، يُؤمن مُنتسبوها بالقيامة وبالرُّوح والملائكة، على نقيض الصّدوقيِّيْـن الذين لا يُؤمنون بالقيامة والرُّوح والملائكة»[1].

و ـ الأسينيُّون (المُغتسلون أو المُطهَّرون)[2]:

هُم فرقة يهُوديَّة اعتزلت المُدُن، وأقام أتباعها رجالاً لا نساء بينهم في الكُهُوف والمغـاور حول البحر الميِّت في منطقة وادي قمران، واتَّخذوا لهم نظاماً سَكَنيّاً خاصّـاً بـهم أشبه بنُظُـم الرُّهبان في العُصُور المسيحيَّة على مبادئ اشتراكيَّة جماعيَّة.

وقد انقرضوا في القرن الأوَّل المسيحيّ عنـد تدمير الرُّومـان أُورشـليم ومُلاحقـة هـؤلاء الأسينيِّيْن في مُنعزلاتهم حول البحر الميِّت.

وقـد اتَّخـذوا لـهم نظامـاً سَكَنيّاً خاصّـاً قائمـاً علـى الدِّقَّة والصّرامـة والطّاعـة. ومـن الخصائص فـي نظامـهم وعقـائدهم أنَّـهم يرفضـون القَسَـم وتقديـم الذّبـائح والقرابـين، وقـد ذكرهم المُؤرِّخ اليهُوديّ يُوسيفُوس الذي عاصرهم، ويُقال: إنَّه أقام معهم، وعاشـرهم، ثُـمَّ فارقهم. وكان لهم صبغة اشتراكيَّة كما أسلفنا.

وقد عثر أحد الرُّعاة العَرَب من عشيرة التّعامرة في كهف يقع عنـد مصبِّ وادي قمـران في السّاحل الشّمالي الغربي من البحر الميِّـت علـى بُعد 12 كم، جنوب أريحـا علـى لفـائف

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 464.

(2) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 373 ـ 374.
عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ص 45، وص 136.

أُسطوانيَّة من الرُّقُوق مُغلَّفة بقماش قديم من الكتَّان داخـل جدار مـن الخزف ، وهـي تحتـوي على بعض أسفار العهد القديم (التّوراة) ؛ منها درج كامل لنُبُوَّة إشعيا ، كما عُـثر فـي كُـهُوف أُخرى في المنطقة على بقايا من هذه الرُّقُوق تحتوي على سـفْر اللاَّوِيِّيـن ، ودرج مـن المزامـير ، ونصّ لسفْر أيُّوب بالآراميَّة . وقـد عثر المُنقِّبـون ـ فيمـا بعـد ، فـي زوايا هـذه الكُـهُوف ـ علـى مقاطع من أسفار التّكوين والخُرُوج والتّثنيـة ونُبـوءة أشعيا . ويُعتقَـد أنَّ فرقـة الأسـينيِّين التـي كانت تُقيم في هذه المغاور هي التي تركت هذه المخطوطات ، وكانت لهذه المُكتشـفات أهميَّـة تاريخيَّة كبيرة .

ز ـ الجليليُّون[1] :

هُم أتباع يهُوذا الجليلي (نسبة إلى منطقة الجليل في شمال فلسطين) وظهر قبـل الميـلاد ، وأحدث فتنة في أيَّام إجراء الإحصاء للمواليد المُسمَّى في الإنجيل (بالاكتتاب) ، وتبعـه قـوم ، وكان يقول لا ملك لليهُود إلاَّ الله .

ح ـ الهيرُوديُّون :

نسبة إلى هيرُودُوس ملك اليـهُود ، وهُـو آدومـي الأصـل ، وليـس يـهُوديّاً ، عيَّنتـه رُومـا حاكماً على اليهُود ، لذلك نقم عليه اليهُود رغم اعتناقه اليهُوديَّة وبنائه الهيكل لمرضاتهم بنـاء فخماً جاوز فيه العناية ، وهُو يُتقنه ويُحسِّنه حوالي 40 عاماً .

وهيرُودُوس عَرَبي ، فوالده آدومي[2] وأُمُّه من عَرَب الأنباط . والدُّكتُور جـواد علـي يقـول : « وقد ذَهَبَ مُونتغمري إلى أنَّ الأدوميِّين كانوا عَرَباً ، وكانت عواطفهم مع العَرَب كذلك »[3] .

وكان الهيرُوديُّون فرقة سياسيَّة لا دينيَّة ، تُمثِّل الاتِّجاه الرُّوماني وتيَّار الاندمـاج مـع الرُّومـان والأخذ بحضارتهم ؛ أيْ عكس ما دعا إليه عزرا ونحميا ، بُعيد الرُّجُوع من السّبي البابليّ .

---

(1) عجاج نُويهض ، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون" ، ج2 ، ص 136 .

(2) يرجع نسبهم إلى آدوم أو عيسو بن إسحاق ، وكان وطنهم بين البحر الميِّت والعقبة في جنوب فلسطين والأُردُن ، وكان يُجاورهم في الجنوب المديانيُّون (بلاد مدين) التـي تمتـدُّ فـي شـمال غـرب الحجـاز ، وللأدوميِّيـن سـجلٌ حـافل بالنّزاع مع اليهُود ، ولم يعترفوا بأنَّ أُصُولهم واحدة ترجع إلى إسحاق عليه السلام .

(3) د . جواد علي ، "تاريخ العَرَب قبل الإسلام" ، ج2 ، ص 352 .

وفي عهد هيرُودُوس ظهر السَّيِّد المسيح ﷺ، وكان الفرِّيسيُّون على خُصُومة مع الهيرُوديِّين الذين كانوا أكثر تحرُّراً وأقلّ تزمُّتاً منهم[1].

وقد اتَّسم عصر هيرُودُوس الطَّويل من 37 ق. م إلى 4 م، بالرَّفاه والاستقرار على فلسطين سلاماً لم تنعم به البلاد حتَّى أيَّام حُكْم اليهُود أنفسهم بأنفسهم. وكان هيرُودُوس من أنصار الرُّومان والحضارة الرُّومانيَّة، وكان يدين لهم بارتقاء عرش أُورشليم.

وبعد موت هيرُود عادت الفوضى إلى البلاد؛ بسبب كثرة أولاده من زوجاته العشر، فأقام الرُّومان حُكْماً مُباشراً على البلاد[2].

هذه هي الفرَق القديمة عند اليهُود، في مُعظمها إمَّا انقرضتْ، أو أنَّها في طريق الانقراض، نظراً لتقلُّص مُعتنقيها، ونَقْص أعدادهم.

وفيما يلي؛ سنتكلَّم عن فرقة دينيَّة هامَّة عند اليهُود بدأت قديماً، ولا تزال مُنتشرة حتَّى التَّاريخ الحديث؛ وهي فرقة القَبَاليِّين والزُّوهرُ وعقيدة المسيح المُنْتَظَر.

القَبَاليُّون والزُّوهر وعقيدة المسيح المُنْتَظَر:

هُم طائفة لها أهمِّيَّة كبيرة في الفكْر الدِّيني اليهُوديّ، فقد لعبوا دوراً هامَّاً في تطوُّر العقل اليهُوديّ بتوغُّلاتهم الصُّوفيَّة، وتطلُّعهم إلى ظُهُور المسيح المُنْتَظَر الذي سيُنقذ اليهُود "شعب الله المُختار" من آلامه، ويُملِّكه العالم[3].

لقد ظهر - بعد إنجاز كتابة التّلمود - عدد من الأحبار اليهُود الذين تأثَّروا بالآراء الشّرقيَّة ودين الفُرْس وزرادشت (زرداستر)، فخرجوا بمجموعة باطنيَّة من الحكَم التي لها علاقة بأسرار الكون وبالإله وبالكائنات، ونشأت عنهم حَركَة دُعيت - في مراحلها الأُولى - "الحكمة المستورة"، وصارت تُعرف عند اليهُود بـ "القَبَالَة"، وهي كلمة آراميَّة معناها القبول

---

(1) تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، ص 86 - 87.

(2) "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ج2، عجاج نُويهض، ص 136.

(3) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، 403 - 413.

عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ج2، ص 190 - 203.

أو التَّلقِّي. ويذهب أُولئك الأحبار إلى أنَّ هذه الحكَم نزلت على القدِّيسين مُنذُ أقدم الأزمنة، وقد احتفظ بها بعض الأحبار. وبالرّغم ممَّا اتَّخذته القَبَالَة من الزّرادشتيَّة من جُمُوح وخيال ونُطُوح أعطاها صبغة ميثُولُوجيَّة؛ فقد بقيت ـ في جوهرها ـ مُوسويَّة يهُوديَّة.

وهذا الوحي الذي يتناول القوى الباطنيَّة للسّماء والأرض كان الخوض فيه مقصوراً على نُخبة مُمتازة هُم الفاهمون والعُقلاء الذين انصرفوا للبحث عن السِّرِّ الإلهي فيما يتعلَّق بمصير الإنسان، وكانوا ـ قبل كُلِّ شيء ـ يبحثون عن معرفة العلائم التي تُنبئ بظُهُور المسيح اليهُوديّ الذي يُنقذ الشّعب المُختار من الآلام التي يُعانيها، وهذه هي عقيدة "المسيح المُنتظَر" التي انبثقت من عقيدة السّيادة والامتياز للشّعب اليهُوديّ.

ويدَّعي القَبَاليُّون أنَّ كتاب سفْر التّكْوين في التّوراة مُستمدٌّ من مُوسى، وأنَّ مُوسى قد استمدَّه من إبراهيم عليهما السّلام حتَّى آدم ﷺ، أو ممَّن هُم أقدم من آدم وأعلى مقاماً.

أمَّا المنابع الرّئيسيَّة التي استقت منها القَبَالَة مادَّتها؛ فهي الرّوايات الباطنيَّة التّلموديَّة. ومذهب التَّصوُّف الذي راود "الغاؤونيم"؛ وهُم الرّابيُّون أو المُعلِّمون رُؤساء المدرستَيْن الدِّينيَّتَيْن في بابل، والفلسفة العَرَبيَّة الأفلاطُونيَّة.

وكانت هذه الدّراسات ـ خلال القرن الثّالث عشر الميلادي وما بعده ـ مُقتصرة على فئات محدودة، ثُمَّ انتشرت انتشاراً واسعاً، ممَّا أدَّى إلى ظُهُور مجموعة أدبيَّة كُتبت بلهجة خاصَّة من اللُّغة الآراميَّة، وقد جُمعت كُلُّها في كتاب مُقَدَّس جديد هُو "الزُّوهر" والزُّوهر كلمة آراميَّة معناها "النُّور أو الضّياء"، والتّسمية مأخوذة من التّوراة، والفاهمون يُضيئون كضياء الجلد (أيْ الجليد أو الثّلج) (سفْر دانيال، الإصحاح 12، فقرة 3). وأمَّا واضعه؛ فهُو: مُوسى اللّبوني 1250ـ 1305م، وقد دوَّنه بالآراميَّة في إسبانيا، غير أنَّ المعروف أنَّ ما احتواه الزُّوهر من الشّعائر الصُّوفيَّة وما إليها من حكَم يرجع إلى زمن الحاخام "سمعان بن بوشاي" من القرن الثّاني الميلادي، الذي قيل عنه إنَّه بقي مُختفياً في إحدى مغاور فلسطين ثلاث عشرة سنة، كُشفتْ له ـ خلالها ـ أسرار السّماء والأرض. وتتَّصل أسرار الزُّوهر بالتّوراة، وكُلُّ كلمة أو حرف من حُرُوفها يحمل ـ باعتقاد القَبَاليِّيْن ـ معنى باطنيَّاً. وفي

أُسطُورة من أساطير الزُّوهر أنَّ الاثنَيْن والعشرين حرفاً من الأبجديَّة الآراميَّة نزلت من السّماء قبل الخليقة بستَّة وعشرين جيلاً، وأنَّها نُقشت بنار مُلتهبة. والحياة في الزُّوهر صراع بين الخير والشَّرِّ، وكلاهما يخدمان غاية مُقَدَّسة، فكُلُّ عمل خير، وكُلُّ صلاة حارَّة تبعث قُوَّة رُوحيَّة تُؤدِّي إلى انتصار الخير على الشَّرِّ، ذلك الذي سوف يظهر - بكُلِّ جلاء وبهاء - مع ظُهُور المسيح المُنْتَظَر.

ومن القَبَاليِّيْن المشهورين: نخمان، ومُوسى بن ميمون، وكلاهما ظهر في الأندلس.

عقيدة المسيح المُنْتَظَر:

يتَّضح - ممَّا تقدَّم - أنَّ القَبَالَة لعبتْ دوراً هامَّاً في تطوُّر العقل اليهُوديّ، وقد كانت كُلُّ هذه التَّوغُّلات الصُّوفيَّة تدور حول شيء واحد هُو التَّطلُّع إلى ظُهُور المسيح اليهُوديّ المُنْتَظَر، الذي سيُنقذ اليهُود (شعب الله المُختار) من آلامه، ويُملّكه العالم، ويُؤخذ من مُحمل التّفسيرات التّلموديَّة التي تعود لنُصُوص التّوراة أنَّ المسيح المُنْتَظَر هُو إمَّا من نسل داود، أو من نسل يُوسُف.

ولمَّا كان مجيء المسيح اليهُوديّ يُعتبر تجديداً للعالم، فلابُدَّ وأنْ يسبق مجيئه عودة للفوضى، وكانت كُلُّ الآلام والمصائب التي تحمَّلها اليهُود عبر تاريخهم تُفسَّر وتُقبَل على أنَّها (آلام المخاض) التي تسبق مجيء المسيح. وبعد مجيء المسيح، وانقضاء فترة المخاض؛ فإنَّ العالم الجديد المُقبل لن يكون كالعالم اليوم، فالسَّلام سيعمُّ العالم الجديد، البُكاء والأنين يختفيان من العالم، ولن يكون بعد ذلك شكوى أو احتجاج أو حُزن، تباركَ إسرائيل بمجيء المسيح اليهُوديّ، وينتهي عنها الضّغط، وتتبوأ مركزها العالمي الذي أعدَّه الرَّبُّ لها. ويتبدَّل مصير إسرائيل؛ لدرجة أنَّ كثيراً من الغُرباء سيُحاولون الانضمام إلى الطّائفة، ولكنَّه يتوجَّب رَفْضهم؛ لأنَّ رغبتهم ينقصها الإخلاص (لا يُقبَل مُهتدٍ في أيَّام المسيح).

وأغرب ما تضمَّنَتْهُ مُعتقدات العالم الآخر اليهُوديّ هُو مُحاكمة الأُمم؛ حيثُ تشهد مُحاكمة أعداء إسرائيل الأرضيِّيْن، ومُجمل هذه المُعتقدات مُستوحى من حياة التَّشتُّت التي وَصَلَتْ مداها الأبعد في الفترة الرُّومانيَّة، وولَّدتْ حقداً وكراهية لبقيَّة الشُّعُوب عند اليهُود،

وولَّدت آمالاً مأساويَّة بنهاية العالم لخدمة مصالح اليهُود في عالم آخر مادِّي، أو غير مادِّي، للانتقام من أُمم الأرض التي ناصبت اليهُود العداء.

ويرى البعض أنَّ فكْرة المسيح المُنْتَظَر برزتْ من الفكْر اليهُوديّ في وقت مُتأخِّر، ولم تظهر إلاَّ بعد سُقُوط دولة اليهُود، وأَسْرهم في بابل، ثُمَّ خُضُوعهم للفُرْس، وهذا ما دفع كثيراً من الباحثين إلى الاعتقاد بأنَّ فكْرة المُنقذ المُخلِّص مُستعارة من الزّرادشتيَّة التي كان يدين بها الفُرْس. وتتحدَّث التّوراة في بعض أسفارها (سفْر أشعيا وإرميا وعاموس) عن المسيح المُنْتَظَر؛ فتقول: «يُولد لنا، ونُعطى ابناً، وتكون الرّئاسة على كتفه، ويُدعى اسماً عجيباً، ويكون إلهاً قديراً وأباً أبديّاً رئيس السّلام، لنُمُوِّ رئاسته، يجلس على كُرسي داود، وعلى مملكته؛ ليُثَبِّتها، ويعضدها بالحقِّ والبرِّ من الآن وإلى الأبد، غَيْرة ربِّ الجُنُود تفعل هذا». (سفْر أشعيا، الإصحاح 9، فقرة 6 ـ 7).

وقد رسم اليهُودُ الصُّورةَ التي تخيَّلوها للمسيح المُنْتَظَر، فذكروا أنَّ النّاس في ظلِّه لن يعيشوا وحدهم في العالم الجديد في سلام وسعادة، بل يُشاركهم في ذلك كُلُّ أنواع الحيوانات، فالذّئبُ يُسالم الحَمَلَ، والعجلُ يُداعبُ الأسدَ، ويربض النّمر مع الجدي، والعجلُ السّمينُ والشّبلُ معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدّبَّة ترعيان، وتربض أولادهما معاً.. إلخ.

ويكون في ذلك اليوم أنَّ السَّيِّد يُعيد يده؛ ليجمع بقيَّة شعبه التي بقيت من آشور ومصر، ومن حماة وأجزاء البحر.. ويرفع راية الأُمم، ويجمع منفيِّي إسرائيل، ويضمّ مُشتَّتي يهُوذا من أطراف الأرض الأربعة.

وعندما ظهر المسيح عيسى بن مريم (عليهما السّلام)، أعلن بعض اليهُود أنَّه المسيح المُنْتَظَر، ولكنَّ مُعظمهم رَفَضُوا هذا الرّأي، وقاوموا دعوة عيسى عليه السلام، حتَّى حاكموه، وصلبوه (حسب ما يعتقده المسيحيُّون).

ويُعلِّل الأُستاذ عبد الوهاب النَّجّار في كتابه (قَصَص الأنبياء، صفحة 425) سبب رَفْض اليهُود "للمسيح" أنَّ «المسيح عيسى بن مريم جاء يُشيد بينهم مملكة الأخلاق الفاضلة

والتّقوى والسّجايا الكريمة، فلم يكن المسيح الذي صوّروه لأنفسهم (لينتقمَ لهم من أُمم الأرض، ويُملّكهم ناصية العالم)، فمكروا به، وأرادوا قَتْلَهُ، ولو جاءهم يملك الثّروة لآمنوا به؛ إذْ هُم قوم يُؤلّهون الثّروة والمال».

ويُتابع الأُستاذ النَّجّار قوله: انظروا إليهم وقد قال لهم صموئيل كما جاء في القُرآن الكريم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ماذا أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ فأجابهم: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة، آية **247**.

فلا عجب إنْ كان المسيح عليه السلام مرفوضاً منهم، وظلّوا على حالهم ينتظرون مسيحاً ماليّاً إلى اليوم.

والمُسلمون ينتظرون عودة المسيح عيسى بن مريم عليهما السّلام، وظُهُور المهدي المُنْتَظَر، والأحاديث بعودة المسيح وقَتْله المسيح الدَّجّال بعد ظُهُور المهدي المُنْتَظَر كثيرة. وقد جاء في حاشية كتاب "التّاج الجامع للأُصول في أحاديث الرّسول" - وبعد ذكْر حديث المهدي - قوله: «اشتُهر بين العُلماء سَلَفاً وخَلَفاً أنّه في آخر الزّمان لابُدَّ من ظُهُور رجل من أهل البيت يُسمَّى (المهدي) يستولي على الممالك الإسلاميَّة، ويتبعه المُسلمون، ويعدل بينهم، ويُؤيِّد الدِّين، وبعده؛ يظهر المسيح الدَّجَّال، وينزل المسيح عيسى بن مريم، فيتعاون مع المهدي على قَتْله..». وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصّحابة، وخرَّجها أكابر المُحدِّثين كأبي داود، والتّرمذي، وابن ماجة، والطّبري، والبزّار، والإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم أجمعين». التّاج من **5 - 41**[1].

وجاء في القُرآن الكريم حول عودة المسيح عليه السّلام قوله تعالى في القُرآن الكريم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ سورة النّساء، آية **159**.

---

(1) جاء ذلك في كتاب "المهدي وأشراط السّاعة"، الشّيخ مُحَمَّد علي الصّابوني، ص **13**.

ويقول الشّيخ مُحَمَّد علي الصّابوني في تفسير هذه الآية: أيْ ما من أحد من أهل الكتاب إلاَّ سيؤمن بعيسى قبل موته، ويوم القيامة سيشهد عيسى عليهم[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سُورة الزُّخرف، آية 61. وفي قراءة ﴿وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ﴾ بفَتْح العين؛ أيْ إشارة وعلامة على السّاعة (أيْ على قُرب السّاعة).

وبنُزُول السَّيِّد المسيح عيسى عليه السّلام تواترت به الأخبار، فهُو ـ الآن ـ حي في السّماء، وقد رفعهُ اللهُ إليه برُوحه وجسده، وسينزل إلى الأرض حاكماً عادلاً يحكم بشريعة سيِّد المُرسلين مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم كما صحَّت بذلك الأحاديث، فقد أخرج البُخاري ومُسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ قال: «والذي نفسي بيده؛ ليُوشكنَّ أنْ ينزل فيكم ابن مريم حَكَمَاً قسطاً، فيكسرَ الصّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتَّى لا يقبله أحد، وحتَّى تكون السّجدة الواحدة خيراً من الدُّنيا وما فيها»، وفي حديث آخر: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم فيكم؟»، والمُراد بالإمام المهدي (أخرجه الشّيخان وأحمد)، وقد ثبت في الصّحاح ـ أيضاً ـ أنَّ عيسى هُو الذي سيقتل الدَّجَّال[2].

وقد أخبر رسول الله مُحَمَّد ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ في الحديث الذي رواه مُسلم في صحيحه عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تقوم السّاعة حتَّى يُقاتل المُسلمون اليهُودَ، فيقتلهم المُسلمون، حتَّى يختبئ اليهُوديّ وراء الحجر والشّجر، فيقول الحجر أو الشّجر: يا مُسلم؛ يا عبد الله؛ هذا يهُودي خلفي، فتعال، فاقتله، إلاَّ الغرقد، فإنَّه من شجر اليهُود». أخرجه مُسلم والتّرمذي.

هذا؛ وإنَّ المسيحيِّيْن (كما عرفتُ من العارفين عندهم) يعتقدون بعودة المسيح في آخر الزّمان، وأنَّه سيعود بعد أنْ يجتمع اليهُود في فلسطين، ليُبيدهم، أو يقتل مَنْ لا يُؤمن به منهم.

---

(1) أيْ قبل وفاته عليه السّلام، بعد عودته من السّماء إلى الأرض، ووفاته فيها. المصدر كتاب المهدي وأشراط السّاعة، الصّابوني، ص 40 ـ 41.

(2) الصّابوني، المهدي وأشراط السّاعة، 40 ـ 41.

وبعد هذا الاستطراد الطّويل نعود إلى (عقيدة المسيح المُنْتَظَر) عند اليهُود، وإنَّ هذه العقيدة أدَّت إلى ظُهُور الأدعياء والدَّجَّالين واحد بعد الآخر، كُلّ يدَّعي أنَّه المسيح المُنْتَظَر.

ويُحَدِّثنا الدُّكتُور أحمد سُوسة عن هؤلاء الأدعياء والدَّجَّالين[1] فيقول: «وانطلاقاً من عقيدة المسيح المُنْتَظَر قام واحد بعد الآخر من الأدعياء يدَّعي أنَّه المسيح المُنْتَظَر. ففي عام 640 م، ادَّعى يهُودي من بيت آراميا من قرية الفلُّوجة في العراق أنَّه المسيح المُنْتَظَر، وقد تجمَّع حوله حوالي 400 شخص من مُختلف المهَن، وحرقوا ثلاث كنائس، وقتلوا عُمدة المنطقة، ولَّما بلغ خبر هذا المسيح السُّلطة، أرسلت ثُلَّة من الجُند أعملتْ فيهم بطشاً وتقتيلاً، وقُبض على المسيح المُنْتَظَر، وأُعدم.

ومن أُولئك الأدعياء في الشّرق الإسلامي خلال القُرُون الوُسْطَى، دجَّال ظهر في الشّام في آخر خلافة عُمر بن عبد العزيز، وأوَّل خلافة يزيد الثَّاني 720- 724م، وآخر في بلدة شيرين، ادَّعى أنَّه المسيح المُنْتَظَر، ووعد بأنَّه سيُحقِّق مُعجزة استعادة فلسطين، وظهر يهُودي آخر من بلدة أصفهان يُدعى عُبيد الله أبو عيسى إسحاق بن يعقُوب الأصفهاني، ابتدأ دعوته في زمن آخر خُلفاء بني أُميَّة مروان بن مُحَمَّد 742- 750م، وقال: إنَّ عودة فلسطين لن تتمَّ إلاَّ بالقتال، وأعدَّ جيشاً قوامه عشرة آلاف مُقاتل من اليهُود، وقد عاشت حَركَته فترة من الزّمن في عهد الخليفة العبَّاسي السَّفَّاح، إلاَّ أنَّ الخليفة المنصور قضى على هذه الحَركَة، وهزم جيش اليهُود، وفرّ أبو عيسى باتِّجاه الشّمال.

وفي حوالي 1160م، وفي عهد الخليفة المُقتفي لأمر الله العبَّاسي حَدَثَتْ فتنة كان سببها يهُودي يُدعى داود بن الرُّوحي، كان قد ادَّعى أنَّه المسيح المُنْتَظَر، وداود هذا نشأ في سواد العراق، ثُمَّ انتقل إلى بغداد؛ حيثُ تفقَّه بعلُوم اليهُود في مدارسهم الكُبرى، وقد برع في عُلُوم العَرَب ولُغتهم، يُضاف إلى ذلك إتقانه لفُنُون السِّحْر والشّعوذة، وقد اختار بلدة العماديَّة في شمال العراق ليُعلن نُبُوءته فيها؛ إذْ كان ينوي الاستيلاء على قلعتها الشّهيرة بالقُوَّة والمَنَعَة، فبلغ ذلك صاحب العماديَّة، فَقَتَلَهُ.

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 407- 410.

وقد بقيت فكْرة مجيء المسيح المُنْتَظَر مُسيطرة على العقل اليهُوديّ، وكانت تشتدُّ كُلَّما وقعت حَركَة اضطهاد ضدَّ اليهُود. ولمَّا وقعت حوادث الاضطهاد باليهُود في بُولُونيا عام 1648م، قيل عنها إنَّها بشير لليهُود بقُرب مجيء المسيح المُنْتَظَر، وهكذا ظهر في هذه الفترة أشهر مُدَّعي بأنَّه المسيح المُنْتَظَر؛ وهُو "ساباتاي زيوي".

ساباتاي زيوي:

ساباتاي زيوي، أو شاباتاي: شابٌّ يهُودي من أهل أزمير في تُركيا ادَّعى أنَّه المسيح المُنْتَظَر، ولم يكن قد تجاوز الثَّانية والعشرين من عُمره، وكان قَبَاليّاً مُتحمِّساً لتعاليم الزُّوهر. وما إنْ أعلن دعوته حتَّى تبعه عدد كبير من اليهُود المُتحمِّسين، برغم إنكار رجال الدِّين دعوته، وأوَّل عمل نادى به هُو إلغاء بعض الطُّقُوس الدِّينيَّة الموروثة، ثُمَّ إدخال تعاليم جديدة تتَّفق مع رُوح القَبَالَة والزُّوهر، ومن ثمَّ دعا إلى شَطْب اسم السُّلطان التُّركي مُحَمَّد الرَّابع من الخُطب وإحلال اسمه: "ساباتاي المسيح"، وأضاف إليه لقب داود وسُلَيْمَان. واستمرَّ ساباتاي ينشر دعوته في الأوساط الدِّينيَّة اليهُوديَّة في العالم، فصار له أعوان كثيرون، وصاروا يُسمُّون مُعارضيهم "كوفريم"؛ أيْ الكُفَّار.

وفي سنة 1666م، غادر ساباتاي أزمير مع جمهرة من أعوانه، مُتَّجهاً نحو استانبول؛ لُمارسة سُلطته كملك، ولكنَّ الباخرة التي تُقلُّه مع أعوانه داهمَتْهَا عاصفة شديدة اضطُرَّتها إلى اللُّجُوء إلى مضيق الدّردنيل، ومن هُناك؛ سيق ساباتاي مُكبَّلاً بالحديد إلى استانبول؛ حيثُ قُدِّم إلى الوزير الأعظم (أو الصّدر الأعظم؛ أيْ رئيس الوُزراء) أحمد كوبريلي، ومع أنَّ الوزير كان يشعر بخُطُورة الوَضْع بسبب الهياج والقلق اللَّذَيْن أحدثهما "ساباتاي"؛ إلاَّ أنَّه كان يرى بأنَّ الحالة تكون أخطر إذا استُعملت الشِّدَّة ضدَّه، وضدَّ أتباعه، فأمر بسجنه تحت الرّقابة في استانبول. ولمَّا حاول ساباتاي مُغادرة العاصمة؛ تقرَّر نَقْلُهُ إلى قلعة أبيدس على الدّردنيل، غير أنَّ إبعاده زاد من نُفُوذه ومكانته الدِّينيَّة، فصار النّاس من أتراك ويهُود يذهبون لزيارته في سجنه، حتَّى أصبح مقرُّه في أبيدس محجّاً لأعوانه، ولُمعتنقي دعوته، وقد لقي ساباتاي أعواناً مُتنفِّذين يبثُّون الدّعاية له.

ولمّا توسع نُفُوذ ساباتاي وازداد سُلطانه بـين الطّائفـة اليهُوديَّة فـي تُركيـا، أمـر السُّلطان مُحَمَّد الرَّابع ـ الذي أصبح يخشـى اغتصـاب سـاباتاي الحُكْم منـه ـ بنَقْلـه إلـى أدرنـة، وعقـد السُّلطان اجتماعاً للتّداول في مُشكلة ساباتاي، وإيجاد حلٍّ لها، فاستقرَّ الرّأي علـى تكليـف إحدى الشّخصيَّات ذات النُّفُوذ من اليهُود أنْ تتولّى أمر إقناعه، وحمله على إعلان إسـلامه؛ إنقاذاً له ولأتباعه من الدّمار والهلاك. وقد تمَّ ذلك بالفعل؛ فأعلن ساباتاي إسلامَهُ؛ وسـمّى نفسه مُحَمَّد أفندي، وأجرى له السُّلطان راتباً شهريّاً، لكـنَّ سـاباتاي ـ رغـم إسـلامه ـ استـمرَّ بالادِّعاء خفية بأنَّه المسيح المُنْتظَر، وأخذ يبـثُّ تعاليمـه بـين طائفـة "الدُّونمَـة" فـي تُركيـا، وهُـم اليـهُود الذيـن خرجـوا مـن إسـبانيا، واعتنقـوا الإسـلام فـي الظّـاهر، بينمـا كـانوا يُمارسـون طُقُوسهم اليهُوديَّة في الخفاء (وسنُفرد لهم بحثاً خاصّـاً فيمـا يلـي)، واسـتمرَّ سـاباتاي يدَّعـي بأنَّه يُبشِّر بالدِّين الإسلامي بين اليهُود ظاهراً، ولكـنَّ هـذه الحيلـة لـم تُجـده نَفْعـاً، فَنُفـي إلـى مدينة "دلسينكو" في ألبانيا؛ حيثُ تُوفِّي عام 1676م.

وقد جاء فـي مجلّة العَرَبي، العـدد 255، شُـباط 1980، مقـال حـول سـاباتاي ويـهُود الدُّونمَة بقلـم مُحَمَّـد حـرب عبـد الحميـد، نقتبس منـه مـا يلـي لزيـادة التّعريـف بـهذا المسـيح الدَّجَّال: «وكانت أُورُوبا تعيش في هذا العـهد (القـرن السَّـادس عشـر والسَّـابع عشـر) فـترة محاكم التّفتيش، والحُرِّيَّات الدِّينيَّة مكبوتة. وكان اليهُود الأُورُوبيُّون يتعرَّضون للاضطـهاد؛ وخاصَّة في إسبانيا، ولم يجد هؤلاء اليهُود ملاذاً لهم إلاَّ الدّولة العُثمانيَّـة، ومـا عُـرف عنـها من تسامح ديني في ظلِّ تعاليم الإسلام السّمحة، فهاجر الكثير منهم إليها.

في هذه الظُّرُوف التّاريخيَّة، وفـي عـام 1626، وُلـد فـي أزمير سـاباتاي بـن مردخـاي زفي، وكان والده يعمل بالتّجارة، وهُو من يهُود إسبانيا. وفي هذه الظُّرُوف القاسية بالنّسـبة لليـهُود كـانوا يتوقَّعـون ظُـهُور المسـيح المُنْتَظَـر؛ لكـي يقـود اليـهُود للخـلاص مـن الـذُّلِّ والاضطهاد، وأنَّه سيظهر بصُورة نبيٍّ مُخلِّص سيحكم العالم من فلسطين، ويجعـل القُـدس مركزاً وعاصمة للدّولة اليهُوديَّة.

وفي عام 1648م، فاتح ساباتاي أقرب المُقرَّبين إليه بأنّـه المسـيح المُنْتَظَـر الـذي تُشير إليه الكُتُبُ المُقَدَّسة، وكان عُمره آنذاك 22 عاماً.

وكان الجوُّ الإعلامي الذي أشاعه حاخامات اليهُود عن قُرب ظُهُور المسيح المُنْتَظَر بالإضافة إلى تقوى ساباتاي الظّاهرة وانكبابه على دراسة النُّصُوص الدِّينيَّة والكُتُب ذات الصّبْغة الصُّوفيَّة اليهُوديَّة مع اشتهاره بتفسيرها، بالإضافة إلى حالة الصَّرَع التي كانت تنتابه بين الحين والحين، كُلُّ هذا هيَّأ الجوَّ أمام ساباتاي ليُعلن نفسه مسيحاً مُنْتَظَراً.

وفي عام 1663م، ذَهَبَ ساباتاي إلى مصر؛ حيثُ استضافه يهُودي يُدعى رافائيل يُوسُف (أو جُوزيف)، ويعرفه المصريُّون باسم يُوسُف الحلبي، وكان هذا يعمل رئيساً للصّيارفة في القاهرة، واستطاع ساباتاي أنَّ يكسب رافائيل إلى جانبه، ويفيد من دَعْمه المالي لحَرَكَته.

ثُمَّ سافر إلى فلسطين، وفي غزَّة التقى بـ "ناثان بنيامين لاوي" الذي أصبح أكبر عون له لبثِّ دعوته. وفي فلسطين؛ تعرَّف بيهُود القُدس عن قُرب. ويذكر الأُستاذ عجاج نُويهض أنَّه في فلسطين تزوَّج من يهُوديَّة بُولُونيَّة اسمها سارة، فَقَدتْ أهلها في بعض المذابح، فأُخذت إلى أحد الأديرة؛ حيثُ نُصِّرَتْ، لكنَّها فرَّتْ، وجاءت إلى فلسطين؛ حيثُ التقت ساباتاي، وتزوَّجته، (برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، "نُويهض"، مُجلَّد ثاني، 205-206).

ثُمَّ عاد إلى أزمير عام 1666م؛ حيثُ كانت شُهرته قد طبَّقت الآفاق.

وفي إزمير؛ انهالت عليه وُفُود اليهُود من: رُودس، وأدرنة، وصُوفيا، واليُونان، وألمانيا.. إلخ، حيثُ قلَّدتْهُ هذه الوُفُود تاج "ملك المُلُوك"، ثُمَّ قام ساباتاي بتقسيم العالم إلى 38 جُزءاً، وعيَّن على كُلِّ جُزء منه مَلكاً: لأنَّه كان يتصوَّر أنَّه سيحكم العالم كُلَّه من فلسطين، وكان يُوقِّع في كُلِّ ذلك بلقب "الابن الوحيد الأوَّل ليَهْوَه" »[1].

ثُمَّ ظهر مسيح آخر يُدعى "كُوهين" مُنافساً لساباتاي. تقدَّم كُوهين بشكوى إلى السُّلطان العُثماني؛ مُدَّعياً أنَّ ساباتاي يعدُّ العدَّة للقيام بتمرُّد يهدف إلى إقامة دولة يهُوديَّة في فلسطين،

(1) وقد اقترب اليهُود - الآن - من حُكْم العالم من فلسطين، والمُتتبِّع للسِّياسة الدّوليَّة - اليوم - يُدرك مدى نُفُوذ (إسرائيل) العالمي، والسّيطرة التي حقَّقها اليهُود على العالم، فقد أصبحت (إسرائيل) في فلسطين دولة فوق القانون، كُلُّ ذلك بسبب رعاية وحماية واحتضان الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لها ولمصالحها؛ حيثُ تُلقي أمريكا - الآن - بكُلِّ ثقلها ونُفُوذها وقُوَّتها إلى جانب باطل اليهُود في فلسطين، ممَّا جَعَلَها تكيل بمكيالَيْن في كُلِّ ما يتعلَّق باليهُود ومشاكلهم مع العَرَب وغير العَرَب، حتَّى أصبحت مصالح (إسرائيل) مُقدَّمة على مصالح أمريكا نفسها في الشّرق العَرَبي. كُلُّ ذلك بسبب النُّفُوذ الهائل لليهُود في أمريكا. (وسنتحدَّث عن ذلك في القسم الثَّالث من هذا الكتاب).

عندها أصدر السُّلطان أمراً بالقبض على ساباتاي، وجرت محاكمته؛ حيثُ أنكر كُلَّ الادِّعاءات ضدَّه. وبين الخوف من العقاب موتاً وبين نصيحة العُلماء أشهر ساباتاي إسلامه، وصار يُدعى مُحَمَّد البوَّاب، وخصَّص له السُّلطان رَيْعَ وظيفة رئيس البوَّابين في القصر السُّلطاني، وعلى الفور؛ أرسل ساباتاي نَشْرة إلى أتباعه قال فيها: «جعلني الله مُسلماً، أنا أخوكم مُحَمَّد البوَّاب، هكذا أمرني، فَأَطَعْتُ، والمعروف أنَّ الكُتُبَ اليهُوديَّة تقول بأنَّ المسيح سيبتلعه المُسلمون»، ثُمَّ قدَّم أخوه التَّوضيح التَّالي: «كيان ساباتاي القديم صعد إلى السَّماء، وبأمر من يَهْوَه ترك ملكاً يستمرُّ في كونه المسيح، ولكنْ؛ تحت جُبَّة وعمامة».

وعلى هذا؛ أطلق الأتراك لقب "الدُّونمة" على أتباع ساباتاي، والدّونمة تعني (العائد)؛ أيْ الذي أسلم بعد أنْ كان يدين باليهُوديَّة، مُتَّبعاً ساباتاي زفي.

ثُمَّ أصبحت الكلمة اصطلاحاً يعني المُسلم ظاهراً، واليهُوديّ فعلاً وباطناً.

ثُمَّ قدَّم ساباتاي أُسُس دعوته، ووَجَّهَهَا إلى كُلِّ "المُؤمنين" به، وصدَّرها كالآتي: «هذه الأوامر الثّمانية عشر التي أمر بها سيِّدنا وملكنا ومسيحنا ساباتاي زفي، فليزود شرفه».

ومن هذه الأوامر: «الإيمان بأنَّ مسيح يَهْوَه هُو المسيح الحقُّ، والمُخلِّص الحقُّ، ولا مُخلص غيره، وهُو سيِّدنا وملكنا ساباتاي، وأنَّه من نسل داود، وقراءة مزامير داود سرّاً كُلّ يوم، ويجبُ مراعاة الأتراك المُسلمين ذرّاً للرّماد في أعينهم، ويجبُ عدم إظهار الضّيق بصوم رمضان، أو عند تقديم أُضحيَّة العيد، بل يجبُ المُحافظة على المظاهر الدِّينيَّة الإسلاميَّة، والزّواج من المُسلمين ممنوع». ومن بين هذه الأوامر ما ينصُّ على اعتبار اليوم الذي أسلم فيه ساباتاي عيداً يجبُ الاحتفال به احتفالاً بالغاً.

وبناء على تقارير إدارة الأمن العُثمانيَّة حول إقامة ساباتاي الطُّقُوس اليهُوديَّة مع أتباعه تمَّ نَقْلُهُ إلى ألبانيا، وهُناك تُوفِّي عام 1675م، المسيح المُزيَّف والمُسلم المُزيَّف زعيم طائفة السّاباتيِّيْن، وعُمره 49 عاماً. ومايزال أتابعه إلى اليوم يقفون على ضفاف الأنهار (لأنَّ ساباتاي دُفن على ضفَّة أحد الأنهار) ويدعون قائلين: يا ساباتاي زفي؛ إنَّنا ننتظركَ.

لقد توسَّعنا في التَّحدُّث عن عقيدة المسيح المُنْتَظَر لسببَيْن هامَّيْن :

الأوَّل : إنَّ عقيدة المسيح المُنْتَظَر عند اليهُود تقترن بالعودة إلى أرض المعاد "أو الميعاد" في فلسطين ، فلا تكون العودة ولَمُّ شَمْل اليهُود إلاَّ على يد المسيح المُنْتَظَر الذي سيقود اليهُود إلى فلسطين أرض المعاد ، ويرفع الذُّلَّ والاضطهاد عنهم ، ويقضي على أعدائهم ، ويُقيم دولتهم في فلسطين "أرض الميعاد أو المعاد" ، ويُمكِّنهم من السّيطرة على العالم .

الثَّانية : إنَّ هذه العقيدة قادت إلى وُجُود يهُود الدُّونمة الذين يُعلنون الإسلام ، ويُؤدُّون شعائره ، ويُبطنون اليهُوديَّة ، وهُم يهُود الدُّونمة الذين كان لهم دور كبير بتخريب الإسلام من الدّاخل في تُركيا ، وإضعاف الدّولة العُثمانيَّة وتحطيمها . وسنتكلَّم عنهم بالتّفصيل بعد إكمال الحديث عن القَبَالَة في القرن الثَّامن عشر وما بعده .

القَبَالَة في القرن الثَّامن عشر:

استمرَّ نشاط المدرسة القَبَاليَّة ، فظهر كثير من الأدعياء القَبَاليِّيْن[1] ، وكان من أشهرهم في بُولُونيا ، إسرائيل البدولي الذي أسَّس "الحَسديم"[2] في عام 1740م ، ويُرجع إسرائيل البدولي تعاليمه إلى الزُّوهر ، بيد أنَّه لم يُسلِّم ـ قطُّ ـ بنظريَّة القَبَالَة القائلة : إنَّ الكون هُو صُورة من صُور الله ، بل زعم أنَّ الكون كُلَّه هُو الله ، وأنَّ الشَّرَّ عُنصُر من عناصره ؛ إذْ إنَّ الشَّرَّ ليس خبيثاً في حدِّ ذاته ، وإنَّما هُو خبيث في علاقته بالإنسان ، وعليه ؛ فإنَّه ليس للخطيئة وُجُود مادِّيٌّ .

وكان إسرائيل بارعاً في ضُرُوب السِّحْر والشّعوذة ، فالتفَّ حول دعوته كثير من الأتباع اليهُود الذين خرجوا على تعاليم التّلمود وتقاليده الأخلاقيَّة .

ثُمَّ ظهر في أثره داعية آخر هُو "حويل بن أوري" ، وعكف على مُزاولة الشّعوذة والخوارق باسم الله ، وجمع حوله نفراً من الأنصار استمرّوا بعد وفاته يستغلُّون سذاجة العامَّة .

وكانت أشهر الجمعيَّات القَبَاليَّة في القرن الثَّامن عشر طائفة "الفرانكيِّيْن" نسبة إلى مُؤسِّسها "يعقُوب فرانك" 1755م ، وقد عُرف مُنتسبوها بـ "الزُّوهريِّيْن" أيضاً ، أو "إخوان

(1) د. أحمد سُوسة ، "العَرَب واليهُود في التّاريخ" ، ص 410 ـ 412 .

(2) طائفة يهُوديَّة حديثة ظهرت في بُولُونيا ، سنتحدَّث عنها ـ فيما بعد ـ مع الطّوائف اليهُوديَّة الحديثة .

الشّعلة" لانتمائهم إلى الزُّوهـر. وكـان فرانـك أحـد أمـهر دُعـاة القَبَالَـة، وأعلمـهم بأسرارها وتعاليمها، انتمى إليه في مُنتصف القرن الثَّامن عشر في "بودوليا" (إحدى مقاطعـات بُولُونيـا) جُمهُور كبير من الأنصار والدُّعاة، وعاش فرانـك فـي بـذخ شرقي هـائل لـم يـهتد أحـد إلـى حقيقـة مصـدره. وقـد نقـم الأحبـار اليـهُود علـى الزُّوهريِّيْـن لنشـاطهم فـي هَـدْم اليهُوديَّـة، وامتدَّت الخُصُومة بـين الفريقَيْـن، حتَّى إنَّ الزُّهرويِّيـن أعلنـوا - فـي النّهايـة - خُرُوجـهم علـى اليهُوديَّة، واعتناقهم النّصرانيَّة عَلَنَاً كما فعل فرانك نفسه، ثُمَّ استقرَّ فـي ألمانيـا؛ حيثُ أقـام في "أرخنياخ" قُرب فرانكفُورت، واستأنف بَذخه الطّائل، وكانت له حاشية مـن بضـع مئـات من الفتيان والفتيات اليهُود ذوي الحُسن الرّائع، وكان أنصاره يعتقـدون فيـه الخُلُـود، بيـد أنَّـه تُوفِّي عام 1791م، في بذخ فاق بذخه في حياته.

وأكبر دُعاة القَبَالَة هُو: "حـاييم صموئيـل فـوك" أو الدُّكتُـور فـوك، أو دي فـوك الشّـهير "بزعيم الشّعب اليهُوديّ بأسره"، وُلد في بودوليا (في بُولُونيا) في مطلع القرن الثَّـامن عشـر. واتَّصل بالزُّوهريِّيْن، ولبث حيناً يُزاول ضُرُوب السِّحْر والشّعوذة في بودوليـا وألمانيـا. وكـان يزعم أنَّه ذُو قُدرة خفيَّة، وأنَّه يستطيع اكتشـاف الكُنُـوز الدّفينـة، ثُـمَّ اضطُـهدَ، وحُكـم عليـه بالحَرْق لاتِّهامه بالسِّحْر، فَفَرَّ إلى بريطانيا، وهُناك استُقبل بالتّرحاب، وطار صيته، وأُذيعـت عن قُدرته أغرب الرّوايات. وكان ظُـهُوره فـي لنـدن عـام 1742، وتُوفِّـي فيـها عـام 1782م، واحتُفل بدَفْنه احتفالاً فخماً، وممَّا نُقش علـى قـبره "هُنـا يثـوي الشّـيخ الشّـريف، وهُـو رجـل عظيم قدم من الشّرق، وهُو حكيم مُتبحِّر، وداعية قَبَالي.. وطار صيته إلى أقـاصي الأرض والجُزُر النّائية".

وهُناك طوائف وجماعات يهُوديَّة تركت دينـها ظاهريَّـاً، واعتنقـت إمَّـا الإسـلام؛ مثـل يهُود "الدُّونمة" في تُركيا، أو النّصرانيَّة؛ مثل يهُود "الماران" في إسبانيا.

يهُود الدُّونمة:

قُلنا سابقاً: إنَّ الدُّونمة هُـم أتبـاع سـاباتاي زفـي، وإنَّ كلمـة "دُونمـة" تعنـي "العـائد"؛ أيْ الذي أسلم بعد أنْ كان يهُوديّاً.

وفي تعريف آخر للدُّونمة فإنَّها تعني "العودة إلى فلسطين باطنياً، والعودة إلى الإسلام ظاهرياً"[1].

ويهُود الدُّونمة هُم - في الأصل - من يهُود إسبانيا (السّفرديم) الذين فرّوا منها بسبب الاضطهاد الدِّيني الذي لحق بهم بعد خُرُوج العَرَب المُسلمين من إسبانيا، وإجبارهم على التَّنصُّر أو الرّحيل، فهاجروا إلى الدّولة العُثمانيَّة؛ حيثُ وجدوا الأمان والحُرِّيَّة في ظلِّ تعاليم الإسلام (كما كانوا يتمتَّعون بذلك في ظلِّ الدّولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة في إسبانيا؛ وخاصَّة في مُمارسة طُقُوسهم الدِّينيَّة، واستقرَّ مُعظمهم في سالونيك (وهي مدينة في شمال شرق اليُونان) وأزمير، وانتشروا منهما إلى بقيَّة أنحاء السّلطنة العُثمانيَّة؛ وخاصَّة العاصمة استانبول، وكانوا يتحدَّثون فيما بينهم باللُّغة الإسبانيَّة.

وقد مرَّ معنا أنَّ يهُود الدُّونمة هُم من أتباع ساباتاي زفي الذي ادَّعى أنَّه المسيح المُنتَظَر، وأنَّه دَخَلَ الإسلام تقية؛ خوفاً من العقاب والقَتْل؛ بعد أنْ اشتُهر أمره، وخاف السُّلطان مُحَمَّد الرَّابع على الدّولة من استفحال أمره، حتَّى إنَّ يهُود الدُّونمة يُطلَق عليهم "السّباتائيَّة".

ليهُود الدُّونمة دور كبير مستور في تاريخ الأتراك الحديث، خَوَّلهم إيَّاه إسلامهم الظّاهر، فانفتحت أمامهم جميع مناصب الدّولة العُثمانيَّة المَدَنيَّة والعسكريَّة، واستطاعوا أنْ يُحقِّقوا أهدافهم في القضاء على الدّولة العُثمانيَّة، رغم ما قدَّمته لهم من حُسن المُعاملة والمُساواة التي لم يجدوها في أيِّ دولة أُخرى في العالم.

أمَّا في تُركيا الحديثة؛ فكان لهم دور هامٌّ جداً في نَبْذ الإسلام، والتّغريب، وعلمانيَّة الدّولة، وهَدْم الإسلام من الدّاخل.

وفي ذلك يقول الأُستاذ الأرقم الزّعبي: «إنَّ دور الدُّونمة في تُركيا دور أسود مستور، عبث في الأرض والمُعتقدات، وقلَّما نجد زعيماً أو رئيس جُمهُوريَّة بعد "أتاتورك" إلاَّ تربَّى في مدارس أزمير، وبين يهُود الدُّونمة فيها، فهذا "عصمت إينونو" أوَّل رئيس بعد أتاتورك،

---

(1) بَحْثُ يهُود الدُّونمة مرجعه: حقائق عن اليهُوديَّة، الأُستاذ الأرقم الزّعبي، من 178 - 181. ومجلَّة العَرَبي، العدد 255، شُباط 1980، (مقال عن يهُود الدُّونمة).

وهذا "جلال بايار" ثاني رئيس بعد أتاتورك، كُلُّهم درسوا، وترعرعوا في مدارس يهُود الدُّونمة في إزمير».

ويُضيف الأُستاذ الأرقم الزّعبي قوله: «أمَّا مُصطفى كمال ـ ولقبه أتاتورك ـ ؛ فقد عبَّر عن صدْق ولائه للدُّونمة، فأصدر مرسوماً يقضي بتسمية نفسه "مُصطفى أتاتورك"؛ أيْ أبو تُركيا أو الأتراك، وَوَضَعَ دُستُوراً جديداً، وأغلق الجمعيَّات الإسلاميَّة، وغيَّر نظام الميراث، وَمَنَعَ الأذان باللُّغة العَرَبيَّة، وَوَصَلَ إلى درجة في عداء الإسلام أكبر من عداء اليهُود أنفسهم للإسلام عندما قال: «تمنَّيتُ أنْ أخلع الإسلام من تُركيا كما أخلع حذائي هذا»، وَمَنَعَ لبْس العمائم؛ إلاَّ في المساجد، وَمَنَعَ الحجابَ، وشجَّع الإباحيَّة، وطاف في مُدُن تُركيا مع زوجته وهي بثياب تتنافى والشّريعة الإسلاميَّة تشجيعاً لذلك، وكان ـ بذلك ـ يُنفِّذ أفكار وتوجيهات صديقته اليهُوديَّة "خالدة أديب"؛ وهي من يهُود الدُّونمة، والتي ادَّعتْ حُبَّهَا للأدب والفُنُون، فأسَّست مدرسة للخلاعة، ولهَدْم البُنية الأخلاقيَّة للمُجتمع التُّركي، وادَّعت حُبَّها للمتاحف، فَحَوَّلَ لها أتاتورك بعض المساجد إلى متاحف».

وقد أوحى له يهُود الدُّونمة، وأوهموه أنَّ الإسلام هُو سبب تأخُّر تُركيا وضعفها، فأراد هَدْمَهُ، وأنَّ التَّقدُّم لا يتمُّ إلاَّ بالتَّشبُّه بالغرب باللّباس والمظاهر، دُون الأَخْذ بأسباب التَّقدُّم والحضارة الأُورُوبيَّة، كما فعل اليابانيُّون الذين أخذوا من الغرب عُلُومه وكُلّ أسباب تقدُّمه، وأبقوا في ـ الوقت نفسه ـ على جميع مظاهر حياتهم وسُلُوكهم ومُعتقداتهم وأخلاقهم، ففاقوا الغرب، وتقدَّموا عليه.

وفيما يلي يُحَدِّثنا الأُستاذ مُحَمَّد حرب عبد الحميد (وهُو من استانبول) في مقال له في مجلَّة العَرَبي، عدد 255، شُباط 1980، بعُنوان "يهُود الدُّونمة"؛ فيقول: عاش يهُود الدُّونمة مُختلفين عن المُسلمين، لكنَّهم يُؤدُّون الشّعائر الدِّينيَّة الإسلاميَّة، فيصومون رمضان، ويحجُّون أحياناً، ويدخلون المساجد والجوامع للصّلاة، ولكنَّهم لا يتزوَّجُون من المُسلمين، ولا يُزوِّجُون بناتهم للمُسلمين إلاَّ ما نَدَرَ.

ويهُود الدُّونمة ثلاث فرَق "اليعاقبة" و"القراطاشيَّة" و"الطّابانجيَّة"؛ ولهم لُغتان: تُركيَّة للتّعامل مع الأتراك، وإسبانيَّة للتّعامل فيما بينهم، ولكُلٍّ منهم اسمان: اسم يهُودي خاصٌّ،

واسم إسلاميٌّ عامٌّ، ولهم مدارسهم الخاصَّة بهم: صباحيَّة وداخليَّة، كما أنَّ لهم مقابرهم الخاصَّة. وقد تركزت جُهُود يهُود الدُّونمة ـ مُنذُ الحرب العالميَّة الأُولى ـ في دَفْع عجلة التّغريب في الحياة الاجتماعيَّة التُّركيَّة (في تُركيا الحديثة بعد القضاء على الخلافة العُثمانيَّة)، وبدؤوا بالحرب على الحجاب، وشجَّعوا السّفور، وطرحوا قضيَّة اختلاط الشّباب بالفتيات.

ويبلغ عدد يهُود الدُّونمة في تُركيا الآن حوالي 30 ألف، ولكنْ؛ لهم تأثيرهم البالغ في كُلِّ مجالات الحياة في البلاد (رغم قلَّة عددهم بالنّسبة للسُّكَّان في تُركيا).

ومُنذُ إسلام ساباتاي الظّاهري ويهُود الدُّونمة يحتلُّون مراكز هامَّة في الدّولة العُثمانيَّة؛ مثل منصب أمين التّرسانة البَحْريَّة، وأمين الصّرَّة، وكتخدا القصر، وكتخدا المدينة.

وفي حَرَكَة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي في أواخر عهد الدّولة العُثمانيَّة، اندسَّ فرع القابانجيَّة من يهُود الدُّونمة في خلايا الحزب، وأداروا الجُزء الأكبر من انقلاب تُركيا الفتاة الذي أطاح بحُكْم السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد الثَّاني[1] وأفسح المجال لحُكْم جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي في الدّولة العُثمانيَّة، ثُمَّ الحُكْم العلماني في الجُمهُوريَّة التُّركيَّة الحديثة بعد الحرب العالميَّة الأُولى.

ومن أبرز أسماء الدُّونمة في الحياة السِّياسيَّة التُّركيَّة في بداية القرن العشرين وقبل الحرب العالميَّة الأُولى: قراصو عُضو اللّجنة التي قابلت السُّلطان عبد الحميد لخَلْعه، وهُو الذي كان مسؤول جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي عن إثارة الشّعب ضدَّ عبد الحميد لتهيئة الفُرصة لعمل الجمعيَّة الثّوري.

وهُناك أسماء أُخرى كثيرة من يهُود الدُّونمة برزت في شتَّى فُرُوع الحياة في تُركيا؛ منها مُحَمَّد جاويد وزير الماليَّة في عهد الاتِّحاد والتَّرقِّي (وهُو من أركان حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي)، وهُو الذي دَخَلَ على السُّلطان عبد الحميد بعد خَلْعه عن العرش، وقال له: لقد حصلنا الآن على ما رفضتَ السّماح لنا به وهُو الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين، وكان السُّلطان عبد الحميد قد رَفَضَ جميع الإغراءات والعُرُوض التي قدَّمها اليهُود الصّهاينة للسُّلطان من أجل المُوافقة

---

(1) كان قادة الانقلاب ضدَّ السُّلطان عبد الحميد أربعة: طلعت وأنور؛ وهُما تُركيَّان، ومحمود شوكت؛ عَرَبي من العراق؛ وهُو الذي قاد الهُجُوم على قصر السُّلطان، وجاويد؛ وهُو من يهُود الدُّونمة.

على فَتْح باب الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين، وكان هذا الرَّفْض هُو السّبب الرّئيسي في إزاحة عبد الحميد عن العرش.

ومنهم - أيضاً - نُزهت فائق؛ وهُو - أيضاً - أحد وُزراء ماليَّة العهد ذاته، ومُصطفى عارف أحد وُزراء الدّاخليَّة، ومُصلح الدِّين عادل، وكان مُستشاراً لوزارة التّعليم وأحد أساتذة الحُقُوق.

ومن النّاحية الإعلاميَّة؛ فلليهُود دور بارز فيها، وتأثير يهُود الدُّونمة على هيئة الإذاعة والتّلفزيون التُّركيَّة ضخم لدرجة ملحوظة وواضحة، وكذلك تولَّي عبدي إيبكجي عام 1964، إدارة تحرير جريدة "مليت"، كما ترأس نقابة الصُّحُفيِّين الأتراك، وهُو من أشهر عائلات الدُّونمة، وكان لعبدي هذا شُهرة عالميَّة في عالم الصّحافة. ويمتلك يهُود الدُّونمة جريدة "حُريت" أوسع الصُّحُف انتشاراً في تُركيا، وغيرها من الصُّحُف والمجلاَّت. هذا؛ وكان ليهُود الدُّونمة دور في إدخال التّعاليم الماركسيَّة إلى تُركيا، فإسماعيل جم يهُودي من يهُود الدُّونمة؛ وهُو من أبرز الكُتَّاب الماركسيِّين الأتراك.

وكان من الطّبيعي أنْ تُدافع أجهزة الإعلام الخاضعة للدُّونمة عن (إسرائيل)، وتشتدَّ في تبنِّي وُجهات نَظَرها في كُلِّ مُواجهة لها مع العَرَب. وقد نجحت أجهزة إعلام الدُّونمة في إيجاد رأي عامٍّ تُركي مُؤيِّد (لإسرائيل) وغير مُتعاطف مع العَرَب. وهُنا - أيضاً - يجبُ القول بأنَّ أجهزة إعلام الدُّونمة تعمل على خدمة اليهُوديَّة العالميَّة، فمن مقالات سامي كُوهين (مُدير الشُّؤُون الخارجيَّة في جريدة مليت) إلى عرض أفلام التّنديد بمُعاداة اليهُود في التّلفزيون التُّركي، وهدف هذا الإعلام هُو دَفْع الشّعب التُّركي للعَطْف على (إسرائيل) واليهُود.

ويهُود الدُّونمة ليسوا المثال الوحيد على انتحال اليهُود ديانتَيْن في آن واحد، فهُناك مثال آخر على هذا، وهُو يهُود إسبانيا أو يهُود الماران.

يهود الماران *Maranes*:

كان اليهُود في الأندلس في ظلِّ الحُكْم العَرَبي الإسلامي يتمتَّعون بالحُرِّيَّة التّامَّة في عباداتهم وطُقُوسهم الدِّينيَّة، وفي مُزاولة أعمالهم، وعلى المُسلمين توفير الحماية والحُرِّيَّة

والأمن لهم، مع احترام عقائدهم حسب مبدأ الإسلام؛ وهُو ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة، آية 256). فاليهُود عند المُسلمين أهل كتاب، يجوز مُواكلتهم والزّواج منهم، كما وَرَدَ في القُرآن الكريم: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ المائدة، آية 5.

لذلك كانت حياة اليهُود في ظلِّ الحُكْم العَرَبي الإسلامي في إسبانيا (الأندلس) هي أفضل حياة عاشوها في ظلِّ الشُّعُوب والدّيانات الأُخرى، ولم يقتصر ذلك على الأندلس، بل في جميع الأقطار الإسلاميَّة.

وفي ذلك يقول الدُّكتُور حسن إبراهيم حسن[1]: «كما أحسن العَرَب مُعاملة أهل الذِّمَّة في بلاد الأندلس، فسمحوا لليهُود ـ الذين ذاقوا كثيراً من ألوان العسف في عهد القُوط ـ بمُزاولة التّجارة، وأمَّنوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم».

وعندما انتهى حُكْم العَرَب في الأندلس بسُقُوط غرناطة آخر معاقلهم في إسبانيا، ذاق اليهُود صنُوف الذُّلِّ والهوان، وأجبروهم على التّنصُّر، أو الرّحيل، دُون أموالهم ومتاعهم، وكانوا أغنى أهل إسبانيا، بفضل ما كسبوه من المال في عهد الدّولة العَرَبيَّة.

ويُحَدِّثنا الأُستاذ سُلَيْمَان ناجي[2] عمَّا فعل اليهُود لحلِّ هذه المُشكلة؛ فيقول: «وعندما عمدتْ إسبانيا إلى إرغام اليهُود على اعتناق النّصرانيَّة قَسْراً اهتدى اليهُود إلى فكْرة شيطانيَّة لم يسبقهم إليها أحد، وهي الرُّضُوخ للأمر الواقع والتّظاهر بالمسيحيَّة وجني ثمرات الفُرص التي تسنح لهم باعتناقهم المذهب الجديد لصالح بني قومهم. وهكذا ظهرت في إسبانيا فئة المُرتدِّين الذين أُطلق عليهم اسم "الماران *Maranes*" وكان أفرادها يتظاهرون بالنّصرانيَّة، ويملؤون منازلهم بالصُّلبان والشّعائر المسيحيَّة، ويُداومون على الكنائس إمعاناً في التّضليل، بينما كانوا يُمارسون الطُّقُوس الدِّينيَّة اليهُوديَّة سرّاً، ويُلقِّنُونها لأولادهم خفية. ولقد تمكّنوا بهذه الوسائل من تضليل الإسبان طويلاً، حتّى أصبح منهم الوُزراء والحُكّام والقادة، وحتّى رجال الدِّين من أساقفة وكَهَنَة ورُهبان. (قارن ذلك بيهُود الدُّونمة).

---

(1) د. حسن إبراهيم حسن، "تاريخ الإسلام"، ج1، ص 530.

(2) أُستاذ، س ناجي، "المُفسدون في الأرض"، ص 426 ـ 428.

ويبدو أنَّ هؤلاء اليهُود الإسبان لـم يقبلـوا التّظاهر بالمسيحيَّة بناءً على فكْرة جماعيَّة طارئة، بل قبلوا، بعد أنْ أخذوا رأي مجلسهم الكَهَنُوتي الأعلى (السّنهندرين) الذي كان يُقيم آنذاك في استامبول (حيثُ الحُرِّيَّة الدِّينيَّة مُتوافرة لهم هُناك).

ولقد أوضح لنا المُؤرِّخ "هيبيس *Hepass P.*" تفاصيل هذه الخدعة اليهُوديَّة فقال: « عندما بدأ الأمير فرديناند حَمْلَتَهُ الشّهيرة على اليهُود، وخيَّرهم بين الجلاء عن إسبانيا دُون مالهم ومتاعهم، وبين اعتناق النّصرانيَّة، هالهم الأمر، وعلى الأخصِّ أنَّهم كانوا أغنى أهل إسبانيا؛ بفضل ما كسبوه من أموال في عهد الدّولة العَرَبيَّة، وبعد تفكير طويل قرَّ رأيهم على استشارة الرّئيس الأعلى للمجلس الكَهَنُوتي (السّنهندرين)، فأرسلوا إليه كتاباً يستشيرونه في أمرهم، فسارع الرّئيس بالرَّدِّ عليهم، وكان الرَّدُّ يتلخَّص بالتّرجمة التّالية:

إلى يهُود إسبانيا؛ إخواني الأعزَّاء:

وصلنا كتابكم الذي تصفون فيه ما أنتم عليه من ضيق مُرٍّ من جرَّاء ما أصابكم من ظُلم وحيف. فثقوا أنَّ الألم كان عظيماً، وحزَّت أحزانكم في نُفُوسنا، ولكنْ؛ ما الحيلة ونحنُ أعجز من أنْ نُخرجكم من ورطتكم هذه، لذلك ننصحكم بأنْ تقبلوا عرض الملك، وتتظاهروا باعتناق النّصرانيَّة، على أنْ تظلّوا على عقيدتكم، وتُمارسوا طُقُوسها خفية، وأنْ تُلقِّنوها لأولادكم، وتُوصوهم بعدم الجَهْر بها. أمَّا فيما يتعلَّق بأموالكم وأملاككم المُعرَّضة لخطر الاستيلاء عليها أو سلبها منكم؛ فإنَّنا نُشير عليكم أنْ تعمدوا - مُنذُ الآن - لتعليم أولادكم أُصُول التّجارة وإتقانها، حتَّى إذا أقدم الإسبان على تجريدكم ممَّا تملكون تمكَّن أولادكم من تدبير معيشتهم، ومن ثمَّ استرداد ما سُلب منكم مع الزّمن، ولكي تتمكَّنوا من الثّأر في المُستقبل من الذين يعتدون عليكم، علِّموا أولادكم مهنة الطِّبِّ ليثأروا لكم من هؤلاء الأوباش بقَتْلهم دُون أنْ يشعر أحد بما يفعلونه. وانتقاماً لما أصاب معابدكم على يد النّصارى أَدخلوا بعض أولادكم في مدارس الكَهَنُوت المسيحيّ؛ ليتعلَّموا فيها، ويتخرَّجوا منها كَهَنَةً ورُهباناً؛ ليُضلِّلوا النّصارى، ويُخرجوهم عن عقائدهم، وليتمكَّنوا من تدنيس كنائسهم بكُلِّ حُرِّيَّة وأمان. ولكي تردُّوا للنّصارى ما يُلحقونه بكم من الإهانة، علِّموا أولادكم

القانونَ؛ حتَّى يُصبحوا حُكّاماً لهم الحقُّ بأنْ يقضوا بين النّصارى بما يسمح لهم بإهانتهم عند الحاجة، وليردُّوا لهم الصّاع صاعَيْن، ومن ثمَّ يتوصَّل أولادكم إلى مراتب الحُكْم والسّيطرة التي تُخوِّلهم تأديب مَنْ يتجرأ عليكم، وإرغام الجميع على احترامكم. وأخيراً؛ نطلب إليكم التَّقيُّد بهذه الإرشادات، والتَّجمُّل بالصّبر حتَّى يتحقَّق لكم ما أشرنا إليه.

التّوقيع: رئيس الكَهَنُوت في استامبول

ويُضيف السَّيِّد "هيبيس" أنَّ نصَّ الكتاب وَرَدَ حرفيَّاً في المُؤلَّف الإسباني المُسمَّى بـ "سيلفا كوريزا لجوليو دي مدرانو"، الذي صَدَرَ في القرن السَّادس عشر، والمحفوظ حاليَّاً في المكتبة الرّسميَّة لبلدة مدينة تُوليدو "طُليطُلة" الإسبانيَّة.

ويُفهَم مِمَّا جاء في هذا الكتاب أنَّ المجلس اليهُوديّ الأعلى (السّنهندرين) لم يكن يُحرِّم على أتابعه التّظاهر باعتناق النّصرانيَّة، وذلك بُغية تضليل الكَنيسة وتحقيق أهدافه القوميَّة. ويبدو أنَّ اليهُود - بعد أنْ تقبَّلوا فكْرة التّظاهر بالنّصرانيَّة - استفادوا الكثير منها؛ إذْ تُحدِّثنا المصادرَ التّاريخيَّة الإسبانيَّة عن توصُّل بعض اليهُود في إسبانيا إلى المراكز الهامَّة، حتَّى إنَّه كان منهم الوُزراء والحُكّام والبطارقة كما حَدَثَ في العهد العَرَبي الذي استثمره اليهود لصالحهم على أوسع نطاق. وبفضل هذه الخدعة؛ تمكَّنوا من التَّسلُّل إلى الكَنيسة، وحماية شعبهم من الاضطهاد.

ويُحَدِّثنا السَّيِّد "هيبيس" في مكان آخر من كتابه عن البابا "بيو الحادي عشر" (**XI Pie**) ويقول: إنَّ قداسته كان ينحدر من السَّيِّدة "ليبمان" (**Lipman**) اليهُوديَّة، وقد انتسب إلى الكَنيسة مُنذُ الصّغر، وتدرَّج في مناصب الكَهَنُوت، حتَّى انتُخب حبراً أعظماً لسبعمائة مليون كاثُوليكي في العالم، وأنَّه كان على أوثق الصّلات مع كبير حاخامي مدينة "ميلانو" الإيطاليَّة، الذي علَّمه العبرانيَّة، وأنَّه كان يتبادل معه التّهاني بالمُناسبات.

هؤلاء هُم يهُود "المَاران"؛ وهُم - كما ترى - نُسخة طبق الأصل من يهُود الدُّونمة.

وإذا كان يهُود الدُّونمة ويهُود المَاران قد دخلوا الإسلام والنّصرانيَّة بشكل جماعي، وقاموا بدور فعَّال لهَدْم الإسلام والنّصرانيَّة من الدّاخل، فهُناك أفراد من اليهُود دخلوا

الدّيانتَيْن الإسلاميَّة والنّصرانيَّة لخدمة أغراض اليهُود ومصالحهم ومُحاربة الإسلام والنّصرانيَّة من الدّاخل. وهُم كُثُرٌ عبر التّاريخ، وسأقتصر على شخصيَّتَيْن هامَّتَيْن في هذا المجال؛ وهُما: عبد الله بن سبأ ودوره في شقّ صفُوف المُسلمين، ولا نزال نُعاني من أعماله المُنكرة وآرائه الفاسدة في ظُهُور الفرَق الدِّينيَّة الإسلاميَّة حتَّى الآن، ودزرائيلي اليهُوديّ الإنكليزي الذي وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة البريطانيَّة عدَّة مرَّات، وخدم مصالح اليهُود، مُمتطياً نُفُوذ وقُوَّة بريطانيا في القرن التَّاسع عشر؛ حيثُ كانت أقوى دولة على سطح الكُرة الأرضيَّة.

عبد الله بن سبأ:

عبد الله بن سبأ من يهُود اليمن، ومن صنعاء. أسلم، وأخذ ينتقَّل في البلاد الإسلاميَّة، فبدأ بالحجاز، ثُمَّ البصرة، فالكوفة، فالشّام، وأخيراً؛ استقرَّ في مصر.

ويظهر من تصرُّفاته ونشاطه العجيب ـ كما سنرى ـ أنَّه كان يُضمر بثَّ الفتنة بين المُسلمين، وشقَّ صفُوفهم؛ مُستفيداً من تذمُّر المُسلمين عامَّة؛ وكبار الصّحابة خاصَّة، واستيائهم من سياسة عُثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وما كانوا يعتقدونه في عُثمان من هوادة في الدِّين، وتهاون في أحكامه، وخاصَّة في تولية أقاربه حُكَّاماً وقادة في الولايات الإسلاميَّة، وتقريب مروان بن الحَكَم منه؛ والذي استغلَّ طيبة عُثمان وكبَر سنِّه في تصرُّفات سيِّئة؛ أدَّت إلى شقِّ وحدة المُسلمين، والإساءة إلى عُثمان، وزيادة النّقمة عليه.

وعندما قدم ابنُ سبأ الشّامَ التقى فيها أبا ذرٍّ الغفاري؛ الصّحابي الجليل الذي لم يكن راضياً عن بذْخ مُعاوية في الشّام، واكتنازه المال، فَوَجَدَ فيه ابن سبأ ضالَّته في إشعال نار الفتنة، وقال لأبي ذرٍّ الغفاري: «يا أبا ذرٍّ؛ ألا تعجب إلى مُعاوية يقول: المال مال الله؟ ألا إنَّ كُلَّ شيء لله، وكأنَّه يُريد أنْ يحتجبه دُون المُسلمين (أيْ يضمُّه إليه)، ويمحو اسم المُسلمين؛ (أيْ من ديوان العطاء)»، وهكذا أخذ أبو ذرٍّ يقود حملة عنيفة ضدَّ مُعاوية والأغنياء في الشّام، فضاق مُعاوية به ذَرْعاً، واشتكاه إلى عُثمان، الذي أمره بالقُدُوم إلى المدينة، وهُناك نفاه عُثمان ـ بدوره ـ إلى الرّبدة؛ على مقربة من المدينة، أو أمره بالإقامة فيها، (وقد تُوفِّي هُناك)، وكانت المدينة عندما قدمها أبو ذرٍّ تعجُّ بالتَّذمُّر، وَوَجَدَ الاجتماعات تُعقَد للتّآمر على عُثمان (رضي الله عنه).

وهكذا نرى أنَّ الأجواء كانت مُلتهبة في المدينة نفسها، وفي الأمصار، والنّار تحت الرّماد، فأثارها عبد الله بن سبأ فتنة هوجاء، مُستفيداً من كُلِّ الظُّرُوف التي أدَّت ـ في النّهاية ـ إلى مقتل عُثمان رضي الله عنه، وتولية علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، ورضي الله عنه، ثُمَّ الحرب بين عليّ وطلحة والزُّبير في معركة الجَمَل، والحرب بين عليّ ومُعاوية في معركة صفِّين، وما تلاها من فتَن، وكان أشدّها ألماً مأساة كربلاء، واستشهاد الحُسَيْن بن علي رضي الله عنهما، وانقسام المُسلمين شيَع وأحزاب.

إنَّ الفتنة التي أشعلها عبد الله بن سبأ، وأجَّج نيرانها حقداً على الإسلام والمُسلمين مايزال المُسلمون يُعانون منها ـ حتَّى الآن ـ بانقساماتهم إلى فرَق وشيَع مُتعدِّدة.

ويُحَدِّثنا الدُّكتُور إبراهيم حسن عن نشأة الشّيعة؛ فيقول[1]: واعتقد أنصار عليّ بن أبي طالب (رض) أنَّه أحقُّ بالخلافة، وأنَّ أبا بكر وعُمر وعُثمان ـ رضي الله عنهم ـ أخذوا حقَّ الإمامة المُقَدَّس من عليّ (رض)، وأتاح تذمُّر المُسلمين من سياسة عُثمان الفُرصة لأنصار عليّ لتحويل الخلافة إلى أهل البيت (أو آل البيت)، وأذكى نيران الثورة أبو ذرٍّ الغفاري بتحريض من ابن سبأ، الذي أخذ يتنقَّل بين الولايات الإسلاميَّة، من البصرة إلى الكُوفة، إلى الشّام، وانتهى به المطاف إلى مصر؛ حيثُ أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدِّين، وأرسل دُعاته إلى الأمصار الإسلاميَّة؛ لنَشْر الدّعوة لعلي، ووَضْع مذهب الرّجعة؛ أيْ رجعة مُحَمَّد ﷺ، وقال في ذلك: إنِّي أعجب ممَّن يقول برجعة عيسى، ولا يقول برجعة مُحَمَّد، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ القَصَص، الآية 85.

لقد جَعَلَ ابن سبأ من هذه الآية الكريمة دليلاً على رجعة مُحَمَّد ﷺ إلى الأرض بعد وفاته، مع أنَّ هذه الآية نزلت على سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ وهُو في المدينة، بعد هجرته إليها، وقد اشتاق إلى مكَّة المُكرَّمة؛ بلده التي أُخرج منها، فبشَّره اللهُ ـ تعالى ـ وطَمْأنَهُ أنَّه سيردُّه إلى مكَّة في معاد قادم، وقد ردَّه الله ـ تعالى ـ إلى مكَّة المُكرَّمة عند فَتْحها مُعزَّزاً مُكرَّماً، وأتتْ إليه

---

(1) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج1، ص 394 ـ 396.

قُريش التي أخرجتْهُ من قبلُ صاغرة، مُستسلمة، مُقبلة على الإسلام، طالبة العفو والمغفرة، فعفا عنها عليه الصّلاة والسّلام، وقال لقُريش جُملته المشهورة: «اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء».

وهكذا جَعَلَ ابن سبأ من هذه الآية الكريمة دليلاً على رجعة مُحَمَّد ﷺ تحريفاً وتزويراً في المعنى (وهذا دأب اليهُود في كُلِّ حياتهم، فقد حرَّفوا، وزوَّروا التّوراة من قبلُ)، وزاد ابن سبأ أنَّ مُحَمَّداً - عليه الصّلاة والسّلام - أحقُّ بالرُّجُوع من عيسى عليه السّلام.

وابن سبأ هُو الذي أدخل إلى الإسلام مذهب تناسخ الأرواح (وهُو انتقال الرُّوح من جسد، وحُلُولها في جسد آخر، وهُو مذهب يُؤمن به اليهُود كما مرَّ معنا).

كما نَشَرَ ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهُوديَّة دينه القديم؛ بمعنى أنَّ مُحَمَّداً ﷺ وصَّى عليَّاً، وأنَّ عليَّاً خاتم الأوصياء بعد مُحَمَّد خاتم الأنبياء عليه الصّلاة والسّلام. كما أخذ عن الفُرْس الذين كانوا يحتلُّون في صدر الإسلام بلادَ اليمن موطنه الأصلي نظريَّة الحقِّ الإلهي؛ بمعنى أنَّ عليَّاً - كرَّم الله وجهه - هُو الخليفة بعد النّبي، وأنَّه يستمدُّ الحُكْم من الله سُبحانه وتعالى، وأعلن ابن سبأ: «أنَّ عُثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر، فَحَرِّكوه، وابدؤوا بالطَّعْن على أُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، تستميلوا النّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر».

أمر عليٌّ - رضي الله عنه - بنَفْي ابن سبأ إلى المدائن، ولكنَّ هذا لم يثنه عن مُواصلة الدّعوة لعليّ، (لاحظْ أنَّ عليّاً - رضي الله عنه - ينفيه، ويحرق أتباعه، ولا يزال يدعو لعليّ، لأنَّ غايته وهدفه ليس نصرة عليّ، بل الفتنة، ونَسْف الإسلام عن طريق تغيير مبادئه؛ انتقاماً ليهُود المدينة المُنوَّرة الذين نكَّلَ بهم مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وعليٌّ رضي الله عنه).

وعندما قُتل عليّ قالت السَّبَئيَّة برجعته، وذَكَرَ ابن حزم أنَّ ابن سبأ لَمَّا بلغه قَتْلُ عليّ، فقال: (لو آتيتموني بدماغه سبعين مرَّة لما صدَّقْنا موته، ولا يموت حتَّى يملأ الأرض عدلاً، كما مُلئت جوراً). وكذلك ذَهَبَ السَّبَئيَّة إلى القول بأنَّ عليّاً يجيء في السّحاب، وأنَّ الرّعد صوته، والبرق تبسُّمه، أو نُوره، وأنَّه سينزل بعد ذلك إلى الأرض، فيملؤها عدلاً، بعد أنْ مُلئت جوراً وظُلماً.

هذا هُو عبد الله بن سبأ، وهذا هُو دوره في إذكاء نار الفتنة، وشقِّ صُفُوف المُسلمين، وبَذْر بُذُور الخلاف بينهم، والذي مايزال يتَّقد حتَّى الآن.

دزرائيلي[1]:

هُو سياسي بريطانيّ، مسيحيّ في الظّاهر، ويهُودي في الأصل والباطن، تولَّى رئاسة الوزارة البريطانيَّة ثلاث مرَّات؛ وكان من أخطر رجال حُكَمَاء صهيُون في العصر الحاضر.

وُلد بنيامين بن إسرائيل (تحوَّل اسمه إلى بنيامين دزرائيلي) في لندن عام **1802**م، وأبوه هُو إسحاق بن إسرائيل، وأُمُّه إيطاليَّة.

وفي سنة **1815**م، اعتنق أبوه المسيحيَّة، وتبعه ابنه بنيامين، وكان عُمره **13** سنة. وأصل عائلة دزرائيلي (بن إسرائيل) من يهُود إسبانيا، وبعد أنْ طُرد منها؛ لجأت الأُسرة إلى إيطاليا، وأقامت فيها زمناً طويلاً حتَّى جَدّ دزرائيلي؛ واسمه بنيامين أيضاً، والذي انتقل إلى لندن بأعماله المصرفيَّة.

ولا ندري ما السّبب الخفي الذي جَعَلَ والده يعتنق المسيحيَّة، والذي اشتهر عن دزرائيلي أنَّه بَذَلَ كُلَّ قواه في خدمة الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة، وترسيخ قَدَمها في الشّرق الأوسط؛ وخاصَّة فلسطين، وذلك لتحقيق مطامع اليهُود ومراميهم في أرض المعاد (فلسطين) عندما تسنح الفُرصة، مُمتطياً ظَهْرَ أقوى دولة استعماريَّة في ذلك الحين (وهي بريطانيا، كما يمتطون ظَهْرَ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة أقوى دولة إمبرياليَّة في العالم).

ودزرائيلي هُو الذي اشترى حصَّة مصر من أسهم قناة السُّويس عندما باعها الخديوي إسماعيل وفاءً لدُيُونه، وقد اشتراها دُون أنْ يستشير البرلمان البريطانيّ، ويأخذ مُوافقته، وذلك لكَسْب الوقت؛ حتَّى لا تضيع الفُرصة، ويشتريها غير بريطانيا، لذلك كافأه البرلمان البريطانيّ على خدمته الفائقة هذه وحُسن تصرُّفه بأنْ أصبح لُورداً، وَدَخَلَ مجلس اللُّوردات باسم "إيرل أوف بنكنسفيلد"، ثُمَّ جاء مُبرِّر بريطانيا في إعطاء اليهُود وعد بلفور؛ ليكون وُجُودهم في فلسطين حارساً لقناة السُّويس شريان المُواصلات البريطانيَّة الهامّ على طريق الهند.

---

(1) المصدر الأساسي، عجاج نُويهض، "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ص 261 - 270، باختصار.

ودزرائيلي هُو القائل: «إنَّ العالم يُديره رجال من وراء السّتار»، وكأنَّه كان يعني نفسه باعتباره أحد حُكَمَاء إسرائيل، وكانت سياسته تجمع بين مصلحة بريطانيا ومصلحة الصّهيُونيَّة.

وقد تولَّى رئاسة الوزارة البريطانيَّة ثلاث مرَّات، وترك الرّئاسة في المرَّة الثَّالثة سنة 1880م، ومات سنة 1881، وعُمره 79 سنة.

وقد صرَّح سُوكُولُوف[1] غير مرَّة بقوله: «إنَّ دزرائيلي هُو الرّجل الذي يُمثِّل الحَرَكَة الصّهيُونيَّة تمثيلاً حقيقياً»، وهذا يُؤكِّد أنَّ لدزرائيلي دوراً هاماً في الحَرَكَة اليهُوديَّة الصّهيُونيَّة.

لقد كانت كتابات دزرائيلي ذات تأثير عظيم في اجتذاب العطف على اليهُود، وكانت توجيهاته للسِّياسة البريطانيَّة في الشّرق الأوسط (شرق البحر المُتوسِّط) تهدف إلى مُقاومة نُفُوذ رُوسيا في الشّرق، ومنعها من القضاء على الدّولة العُثمانيَّة (فقد كانت رُوسيا القَيْصَريَّة تعتبر نفسها وريثة الدّولة البيزنطيَّة في القسطنطينيَّة (استامبول)، وحامية المذهب الأرثُوذُكسي المسيحيّ السّائد في الشّرق واليُونان)، وهذا ما كانت تودُّه الصّهيُونيَّة، وتدعمه؛ لأنَّ بقاء فلسطين تحت إدارة تُركيَّة عُثمانيَّة ضعيفة ومُتخلِّفة إلى أنْ تحين الفُرصة المُناسبة لليهُود لاقتناصها هُو الواقي لها من الانتقال إلى دولة أُخرى غير بريطانيَّة؛ وخاصَّة رُوسيا التي كانت تكنُّ لليهُود العداء الشّديد.

وقد أرسى دزرائيلي في بريطانيا نُفُوذ اليهُود والصّهيُونيَّة في الدّولة والمُخابرات، واستطاع اليهُود السّيطرة على مُخابرات الهند البريطانيَّة؛ ومنهم: برسي كُوكُس المشهور

---

(1) سُوكُولُوف: هُو ذراع حاييم وايزمن الأيمن في الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وهُو من مُتقدِّمي الحَرَكَة الصّهيُونيَّة ومُؤرِّخيها، وكتابه "تاريخ الصّهيُونيَّة" من عام 1600 ـ 1918 (عند نهاية الحرب العالميَّة الأُولى)، وهُو كتاب في بضع مُجلَّدات، وهُو أجمع تاريخ للصّهيُونيَّة، وسُوكُولُوف معروف في رُوسيا، ومعروف من جميع اليهُود خارج رُوسيا قبل ظُهُور هرتزل، وكان سُوكُولُوف رئيس الوفد الصّهيُوني في مُؤتمر الصُّلح الذي عُقد في باريس بعد الحرب العالميَّة الأُولى عام 1919، وهُو الذي نال مُوافقة فرنسا وإيطاليا على وعد بلفور، وهُو ـ في الأصل ـ من يهُود "وارسو" عاصمة بُولُونيا، وكان بيته فيها محطَّة لليهُود بين غرب أُورُوبا وشرقها. وسُوكُولُوف من مُتقدِّمي الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الذين حملوا عبأها في العُقُود الأخيرة من القرن الماضي، وهُو من طبقات دُعاة الصّهيُونيَّة العظام؛ مثل: هرتزل، وأحدهاعام، وايزمن، سيشكين، رُوتمبرغ، جابُوتنسكي، وأضرابهم من قادة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.
(هذا التّعريف من برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، عجاج نُويهض، مُجلَّد أوَّل، ص 124 و145 ـ 155).

الذين عُيِّن مندوبـاً سـامياً على العـراق عـام 1921، وهُـو الـذي دَعَـمَ الأُسـرة السُّعُوديَّة فـي الجزيرة العَرَبيَّة، وخطَّط الحُدُود بينها وبين الدُّول المُجاورة؛ وخاصَّة الكُويت والعراق.

والحقيقة أنَّ لدزرائيلي الفضل الحقيقي في التّمهيد للصّهاينة الإنكليز للحُصُول على وعد بلفور، وجَعَلَ بريطانيا تقوم بتنفيذه بشكل مُدهش، حتَّى يُقال: إنَّ بريطانيا لم تُنفِّذ وعداً أو مُعاهدة أو اتِّفاقاً بالدِّقَّة والحماسة التي نفَّذتْ بها وعد بلفور. وفي الحقيقة أنَّ بريطانيا نفَّذتْ أكثر بكثير من وعد بلفور، فالوعد ينصُّ على السّماح لليهُود بالهجرة إلى فلسطين، على أنْ لا تضرَّ هذه الهجرة بمصالح السُّكَّان فيها، ولكنَّ بريطانيا عملت ـ بكُلِّ ما في وُسعها القيام به ـ على قيام دولة لليهُود في فلسطين، كُلُّ ذلك بفضل النُّفُوذ اليهُوديّ الصّهيُوني، الذي أرسى دعائمه اليهُوديّ المُتنصِّر دزرائيلي، أو ابن إسرائيل.

فكْرة البعث والحساب عند اليهُود:

وأخيراً؛ هُناك مُلاحَظَة هامَّة جداً جديرة بالوُقُوف عندها؛ وهي أنَّه لا يُوجد في التّوراة والتّلمود ذكْر لفكْرة البعث والنُّشُور في حياة أُخرى في العالم الآخر، فالنَّصُّ التّوراتي يقول: «إنَّ العقاب زمنيّ في هذه الحياة الدُّنيا؛ كالآلام، والمرض، وفَقْد المال، والموت العاجل، وتسلُّط الأعداء.. إلخ» (سفْر جامعة، إصحاح 5، فقرة 18 ـ 20). أمَّا بعد الموت؛ فيذهب الإنسان إلى دار الأموات: «في الظّلام يذهب، واسمه يغصُّ بالظّلام»، سفْر جامعة، إصحاح 6، فقرة 4)، ويتساءل الجميع: «أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع؟!» (سفْر جامعة، إصحاح 6، فقرة 6).

وقد ظهرت جماعة من اليهُود مُؤلَّفة من الكَهَنَة وبعض الكَتَبَة كانت تُجاهر بمبدأ نُكران البعث والنُّشُور والقيامة، وتذهب إلى أنَّ عقاب العُصاة وإثابة المُحسنين إنَّما يحصلان في الحياة الدُّنيا، وهؤلاء هُم المعروفون بـ "الصّدوقيِّيْن" (راجع البحث عن الصّدوقيِّيْن فيما سَبَقَ)، وهُم ـ أيضاً ـ يرفضون كُلَّ ما هُو خارج عن الأسفار الخمسة الأُولى من التّوراة، والتي تُسمَّى بـ "أسفار مُوسى الخمسة".

ثُمَّ نشأت فكْرة العقاب عند عُلماء اليهُود في وقت لاحق، فقال بعضهم بوُجُود سبع دُور مُتناوبة الدّرجات، ورأى بعضهم أنَّ للعقاب داريْن: داراً عُليا، وداراً سُفلى، واحدة لعقاب الجسد في الحياة الدُّنيا، وواحدة لعقاب النَّفْس في الآخرة، ولهذه سبع دَرَكات مُتفاوتة حسب تفاوت الذُّنُوب، ومنهم مَنْ قال: إنَّ النّاس يُقسمون إلى ثلاث فرَق بعد الموت: فرقة صالحة حسناتها تزيد على سيِّئاتها، تتمتَّع بالسّعادة الأبديَّة حالاً، وفرقة طالحة تزيد سيِّئاتها على حسناتها، تُعذَّب عذاباً أبديّاً، وفرقة ثالثة يُعذَّب أصحابها في جهنَّم مُدَّة حتَّى تطهر من ذُنُوبها، فتصعد إلى السّماء[1].

وفرقة السّامريِّين في نابلس (مرَّت معنا سابقاً) هي الفرقة الوحيدة التي تُؤمن - بشكل واضح وصريح - بالقيامة والحساب والعقاب، وتُؤمن بوُجُود الملائكة.

ويظهر أنَّ فكْرة الحياة بعد الموت أخذت تظهر وتتبلور عند اليهُود تأثُّراً بالنّصرانيَّة والإسلام.

خاتمة لما سَبَقَ:

لقد تحدَّثنا - فيما سَبَقَ - عن الطّوائف والفرَق الدِّينيَّة اليهُوديَّة القديمة؛ وهي إمَّا انقرضتْ، ولا وُجُود لها الآن؛ مثل: الكَتَبَة، الأسينيُّون، الجليليُّون، الهيرُوديُّون، أو طوائف باقية، ولكنَّ أتباعها قليلون، وقد لا يصلون إلى بضع مئات؛ مثل: السّامريُّون، الصّدوقيُّون، القرَّاؤون، الفرِّيسيُّون.

أمَّا القَباليُّون والزُّوهر؛ فقد أوردنا لهم بحثاً خاصّاً؛ فهُم طائفة قديمة حديثة، وقد لعبوا دوراً هامّاً في تطوُّر العقيدة اليهُوديَّة والفكْر اليهُوديّ، وذلك بتأمُّلاتهم الصُّوفيَّة (الزُّوهر)، وتطلُّعهم إلى ظُهُور المسيح المُنْتَظَر، الذي سيُنقذ اليهُود من آلامهم، وما يتعرَّضون له من اضطهاد، ويُعيدهم إلى فلسطين، ويُملِّكهم العالم.

وفيما يلي سنتحدَّث عن الطّوائف والفرَق الدِّينيَّة اليهُوديَّة الحديثة، والتي قامت ردّاً على الحَرَكَة الصّهيُونيَّة العلمانيَّة، ومواقف اليهُود منها: إمَّا تأييداً لها، والوُقُوف بجانبها، وإيجاد المُبرِّرات لعلمانيَّتها، أو استنكارها والوُقُوف ضدَّها؛ بظُهُور الأحزاب الدِّينيَّة اليهُوديَّة المُتطرِّفة والمُتزمِّتة.

---

(1) د. أحمد سُوسة، "العرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 461 - 463.

ثانياً: الطّوائف والفِرَق الدِّينيَّة اليهُوديَّة في العصر الحاضر:

إنَّ قيام الصّهيُونيَّة في القرن التَّاسع عشر ودعوتها إلى قيام الدّولة اليهُوديَّة على أُسُس علمانيَّة أدَّى إلى ظُهُور طوائف ومذاهب وفرَق دينيَّة يهُوديَّة مُتعدِّدة نتيجة لموقف اليهُود في مُختلف أنحاء العالم من الدّعوة الصّهيُونيَّة وعلمانيَّتها.

ولكنْ؛ قبل التَّحدُّث عن هذه الطّوائف والمذاهب الجديدة لابُدَّ لنا من إلقاء الضّوء على مواقف اليهُود في العالم ـ بشكل عامٍّ ـ من التُّراث الدِّيني اليهُوديّ، ودرجة الالتزام بالعقيدة اليهُوديَّة، وذلك قبل ظُهُور الصّهيُونيَّة، ودعوتها إلى الهجرة إلى فلسطين، وإقامة الدّولة اليهُوديَّة فيها.

ونستطيع أنْ نُقسِّم اليهُود في العالم ـ على ضوء ذلك ـ إلى ثلاث فئات:

أ: اليهُود الغربيُّون:

وهُم يهُود أُورُوبا الغربيَّة (يهُود ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وهُولندا، وبلجيكا، والدّانمارك[1].. إلخ)؛ هؤلاء اليهُود هُم أقلُّ الفئات اليهُوديَّة تمسُّكاً بالتُّراث الدِّيني اليهُوديّ، وقد انفتحوا على المُجتمعات الأُورُوبيَّة الغربيَّة، وخرجوا من أحيائهم الخاصَّة (الغيتو)، وأخذوا بالاندماج مع الشُّعُوب التي يعيشون بين ظهرانيهان وبعضهم غيَّر دينه، واعتنق النّصرانيَّة، وكان الكثيرون منهم يرون أنَّ الاندماج مع السُّكَّان في الأقطار التي يُقيمون فيها هُو الحلُّ الوحيد لمشاكلهم؛ وخاصَّة التّمييز العُنصُري والدِّيني الذي يُلاقونه من السُّكَّان[2].

(1) استثنينا يهُود إسبانيا والبُرتُغال من يهُود أُورُوبا الغربيَّة؛ لأنَّ يهُودهما خرجوا منها مع العَرَب المُسلمين بعد انتهاء الوجود العَرَبي في إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، ومَنْ بقي من اليهُود فيهما إمَّا تنصَّر أو تظاهر بالتَّنصُّر كما مرَّ معنا. واليهُود الإسبان هُم اليهُود السّفارديُّون الذين هاجروا إمَّا إلى أُورُوبا الغربيَّة، واندمجوا هُناك باليهُود الأشكنازيِّين، أو إلى الشّرق، واندمجوا باليهُود الشّرقيِّين.

(2) أشرنا ـ فيما سَبَقَ ـ إلى كتاب مُهمٍّ حاول مُؤلِّفه الفرنسي شَرْحَ الأسباب كُلِّها التي أدَّت إلى مُناهضة اليهُوديَّة ومُناهضة السَّاميَّة في العالم كُلِّه مُنذُ وُجِدَ اليهُود حتَّى العصر الحديث، وهُو كتاب (مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها) للفرنسي برنار لازار، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004.

والسّبب في ذلك أنَّ أقطار أُورُوبا الغربيَّة كانت أوَّل الأقطار التي أخذت بالنُّظُم الدِّيمُقراطيَّة وتحقيق العدالة والمُساواة والحُرِّيَّة للمُواطنين؛ وخُصُوصاً بعد قيام الثّورة الفرنسيَّة، وانتشار مبادئها في الحُرِّيَّة والمُساواة والعدالة في أُورُوبا الغربيَّة، وكذلك فإنَّ شُعُوب أُورُوبا الغربيَّة كانت قد أخذت بالعلمانيَّة، والتَّخلُّص من قُيُود الكَنيسة وسيطرتها. لذلك وَجَدَ اليهُود فيها الحُرِّيَّة الكافية والمُساواة مع السُّكَّان، بالإضافة إلى اختفاء العصبيَّة الدِّينيَّة شيئاً فشيئاً، والتي كانت سبباً هامّاً من أسباب اضطهاد اليهُود واحتقارهم.

هذا؛ بالإضافة إلى أنَّ النُّظُم الدِّيمُقراطيَّة في أُورُوبا الغربيَّة تُخوِّل اليهُود إمكانية الوُصُول إلى المراكز الحسَّاسة في الإدارة والحُكْم.

لذلك؛ فقد نشأت بُذُور الصّهيُونيَّة العلمانيَّة بين يهُود أُورُوبا الغربيَّة لبناء دولة يهُوديَّة على أساس قومي، وليس على أساس ديني؛ على اعتبار أنَّ اليهُود يُشكِّلون قوميَّة واحدة، وأنَّ الدّعوة الصّهيُونيَّة دعوة استعماريَّة أكثر منها دعوة للعودة إلى أرض "المعاد"، ولَمِّ شَمْل اليهُود فيها، ورَفْع الاضطهاد عنهم، وتنفيذاً لوعد رَبِّ اليهُود بإعطائهم فلسطين "أرض المعاد أو الميعاد".

ويقول المُفكِّر الصّهيُوني "جرشوم شوكن"[1] عن هذا الواقع الجديد لليهُود الغربيِّيْن ما يلي: «لقد كان اليهُود في نهاية القرن التَّاسع عشر مُختلفين عن اليهُود في سائر الأجيال السّابقة. وقد مرَّ كُلُّ اليهُود الذين استهوتْهُم الفكْرة الصّهيُونيَّة بمرحلة الانعتاق (أيْ التَّحرُّر من التَّقيُّد بتعاليم التّوراة والتّلمود)، أو كانوا - على الأقلِّ - في ذروة هذه المرحلة. وكان كُلُّ الزُّعماء اليهُود - الذين نادوا بالفكْرة الصّهيُونيَّة، وكرَّسوا أنفسهم لتحقيقها - أشخاصاً تخلَّصوا من الإطارات التّقليديَّة لحياة اليهُود قبل عصر الانعتاق، ولم تكن الفكْرة الصّهيُونيَّة عند أيٍّ منهم مُرتبطة بتطلُّعات العودة إلى صُور الحياة التّقليديَّة اليهُوديَّة».

ثُمَّ يُتابع قوله: «لقد انقسم الجُمهُور اليهُوديّ - خلال فترة قصيرة - بين أُولئك الذين يحرصون على الشّرائع، وأُولئك الذين لا يحرصون عليها، ولم تستطع فكْرة العهد بين الله

(1) د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 16 - 17.

وشعبه المُختار أنْ تظلَّ راسخة بين أُولئك الذين تبخَّر الأساس الدِّيني في يهُوديَّتهم، بعد أنْ اتَّضح لهم أنَّ أبواب العالم مفتوحة على مصاريعها أمام الجماهير المُتدفِّقة إلى العلمانيَّة والتَّحديث»، وقد جاء مُؤسِّسو الصّهيُونيَّة من بين صفُوف اليهُوديَّة العلمانيَّة التي سعت إلى طرح حلٍّ علماني لمُشكلة اليهُود بإنشاء دولة يهُوديَّة على أساس علماني.

وهكذا؛ فالصّهيُونيَّة العلمانيَّة الغربيَّة ترى أنَّ دولة اليهُود سوف تُخلِّص أُورُوبا من مُشكلة اليهُود فيها، وسوف تُخلِّص اليهُود من مُشكلتهم في أُورُوبا (من دعوى السَّاميَّة ضدَّهم). إنَّ دولة اليهُود سوف تُصبح بمثابة سويسرا صغيرة في قلب الشّرق الأوسط. والصّفة المُميَّزة الرّئيسيَّة فيها سوف تكون سُكَّانها؛ لأنَّها سوف تكون "دولة لليهُود"، وليس دولة يهُوديَّة.

لقد هجرَ مُعظمُ اليهُود ممَّن خرجوا من أسوار الغيتو في الغرب التّقاليدَ اليهُوديَّة التي كانت سائدة ضمن "الغيتو"، وسعوا لترسيخ جُذُورهم في بيئتهم، عن طريق الانصهار فيها، وعن طريق إقامة معابد إصلاحيَّة، وعن طريق الزّواج المُختلَط، وتغيير الدِّين[1].

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك لم تكن شعُوب أُورُوبا الغربيَّة تنظر إلى هذا الانصهار بعين الرّضا والمُباركة بسبب أُصُول اليهُود السّاميَّة، رغم أنَّ هذه الأُصُول غير صحيحة وغير واقعيَّة (كما بيَّنَّا سابقاً)، لذلك كان الرَّدُّ الصّهيُوني على هذا الموقف هُو جَمْع اليهُود في وطن آخر، وقيام "دولة اليهُود" على أُسُس علمانيَّة.

لقد كانت هذه النّتائج التي توصَّل إليها "تيُودُور هرتزل" ورفاقه هي الباعث الأوَّل على تأسيس الحَركَة الصّهيُونيَّة، أو "الصّهيُونيَّة الهرتسليَّة العلمانيَّة".

لذلك لم يكن لعدد كبير من مُؤسِّسي الصّهيُونيَّة أيّ اهتمام باليهُوديَّة، بل إنَّهم أظهروا العداوة الملحوظة لأفكارها ولمُمارساتها؛ ومن الأمثلة على ذلك تصرُّف تيُودُور هرتزل **1860 ـ 1904**، مُؤسِّس الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة عندما زار القُدس، فقد انتهك العديد من الشّعائر الدِّينيَّة اليهُوديَّة؛ ليُؤكِّد تميُّز نظرته اللاَّدينيَّة عن العقيدة الدِّينيَّة، وكذلك فقد كان "ماكس

---

(1) د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 69.

نُورداو 1849 ـ 1923"، الكاتب الألماني والزّعيم الصّهيُوني وصديق هرتزل المُقرَّب مُلحداً يجهر بالإلحاد.

لقد كانت هذه النّتائج لا تتّفق مع الدّافع اليهُوديّ في شرق أُورُوبا، الذي كان مُختلفاً - إلى حدٍّ كبير - عن واقع اليهُود في غرب أُورُوبا، ممَّا حدا بالمُفكِّرين الصّهاينة في شرق أُورُوبا إلى مُهاجمة هرتزل ونَقْد ما وَرَدَ في كتابه "دولة اليهُود"، و"الأرض القديمة الجديدة". وقد وَصَلَ الأمر إلى حدِّ الصّدام بين هرتزل من ناحية و"آحدهاعام" المُفكِّر الصّهيُوني المشهور في شرق أُورُوبا، والذي هاجم صهيُونيَّة هرتزل بعُنف، ممَّا كشف الفُرُوق في القضايا الصّهيُونيَّة بين صهيُونيَّة الغرب الأُورُوبي العلماني وصهيُونيَّة شرق أُورُوبا المُتمسِّكة باليهُوديَّة وتعاليمها.

ب: اليهُود الشّرقيُّون: (يهُود شرق أُورُوبا)

وهُم يُشَكِّلون الأكثريَّة بين اليهُود، ويتألَّفون - بشكل رئيسي - من يهُود رُوسيا، وبُولُونيا، ورُومانيا، وأُصُول مُعظمهم خَزَريَّة (من يهُود الخَزَر).

هؤلاء اليهُود كانوا أشدّ تمسُّكاً بالتُّراث اليهُوديّ والدِّين اليهُوديّ، وأكثر تشدُّداً في الأخذ بتعاليم التّوراة والتّلمود، وكان لديهم العُنفوان القومي، والاعتزاز بيهُوديَّتهم؛ لا سيما وأنَّ عهدهم بإمبراطُوريَّتهم الخَزَريَّة ليس ببعيد، فقد كان لهم دولة ذات شأن يعتزُّون بذكرياتها، وكانت لهم آمال بتحقيق أهدافهم على يد هذه الدّولة، ولكنَّ اعتناق الرُّوس المسيحيَّة الأرثُوذُكسيَّة (المُتشدِّدة ضدَّ اليهُود)، وقيامهم بالقضاء على الدّولة الخَزَريَّة اليهُوديَّة، أحبط آمالهم بالسّيطرة على العالم، والقضاء على النّصرانيَّة والإسلام. لذلك كانوا يكنُّون للرُّوس عداوة شديدة، فهُم سبب ضياع دولتهم، وتحطيم آمالهم.

ونتيجة لعُنصُريَّتهم، واستعلائهم، وتمسُّكهم بعقيدتهم اليهُوديَّة، وتطبيق تعاليمها، وحياتهم المُنغلقة في أحيائهم (الغيتو)، كُلُّ ذلك جلب عليهم عداوة الأقوام التي يسكنون بين ظهرانيهم، وكثرة المذابح التي تعرَّضوا لها في رُوسيا وبُولُونيا؛ وخُصُوصاً بعد اغتيالهم القَيْصَر الرُّوسي إسكندر الثّاني عام 1881م، وانفضاح أمر "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، واطّلاع أُورُوبا - غربها وشرقها - عليها، وما فيها من تعاليم ضدَّ "الأغيار"، وأهداف اليهُود

بالسّيطرة على العالم، واستغلال شعُوبه لمصالح اليهُود (لنا حديث خاصٌ عن برُوتُوكُولات حكَمَاء صهيُون فيما بعد).

لقد كانت أكثر الطّوائف الدِّينيَّة والأحزاب السِّياسيَّة تشدُّداً منهم، وظهرت بينهم، وعندما نتحدَّث عن برُوتُوكُولات حكَمَاء صهيُون سنرى أنَّها نابعة منهم، ومن صُنعهم، ولذلك كان موقفهم من الصّهيُونيَّة العلمانيَّة عدائيَّاً رافضاً، ممَّا أدَّى إلى قيام الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة التي تدعو إلى قيام الدّولة اليهُوديَّة في فلسطين على أُسُس دينيَّة، وبدافع ديني، وليس بدافع قومي واستعماري فقط.

وسنرى أنَّ مُعظم الصّهاينة المُتشدِّدين كانوا ـ ولا يزالون ـ منهم؛ مثل: آحدهاعام، أو واحد من النّاس، وجابُوتنسكي الذي نادى بمبدأ الهُجُوم والاقتحام لتأسيس الوطن القومي والدّولة اليهُوديَّة في فلسطين، وليس عن طريق السِّياسة والتَّروِّي وكسب العطف؛ كما كان يرى أمثال ثيُودُور هرتزل، وحاييم وايزمن (الغربيِّيْن).

وإذا كان اليهُود الغربيُّون هُم الذين حكمُوا (إسرائيل) بعد قيامها، وكانوا يُسيطرون على الوكالة اليهُوديَّة قبل قيام (إسرائيل)؛ أمثال: حاييم وايزمن، وبنْ غُوريُون، ومُوشيه شرتوك، وأبا إيبان.. إلخ، من قادة حزب العمل (ومُعظمهم من يهُود أُورُوبا الغربيَّة)، فإنَّ السّيطرة مُنذُ نكسة 5 حُزيران 1967، أخذت تنتقل إلى يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة وحزب اللّيكود أمثال: مناحيم بيغن، وإسحاق شامير، وأرييل شارون.. إلخ، والذين اعتبروا الانتصار الذي حقَّقه اليهُود على العَرَب في 5 حُزيران 1967، هُو لوُقُوف إلههم "يَهْوَه" معهم يُبارك عودتهم إلى فلسطين، وأنَّهم ـ بعودتهم إلى فلسطين ـ قد نفَّذوا وعد الرَّبِّ لهم بإعطائهم فلسطين "أرض المعاد".

لقد كانت **الفرُوق بين يهُود شرق أورُوبا ويهُود غربها كبيرة وواضحة في أمُور كثيرة**؛ منها على سبيل المثال:

1: لقد مُنح يهُود أُورُوبا الغربيَّة المُساواة في الحُقُوق مع شعُوب أُورُوبا الغربيَّة. ولكنْ؛ في شرق أُورُوبا لم يُعامَل اليهُود كمُواطنين مُتساوين في الحُقُوق والواجبات مع السُّكَّان كما

هُو الحال في غرب أُورُوبا، بل كانوا كجسم غريب في مُجتمعات شرق أُورُوبا. وكان الرَّفْض قاطعاً هُناك في مُساواتهم مع شُعُوب المنطقة، وقد أدَّى ذلك إلى قيام اضطرابات ومذابح بين يهُود شرق أُورُوبا وشعُوبها؛ وخاصَّة بعد اغتيالهم قَيْصَر رُوسيا إسكندر الثَّاني 1881. وقد وَصَلَتْ هذه المذابح والاضطهادات إلى أبعاد هزَّت الطَّبقة المُثقَّفة بين اليهُود من الأعماق، ودفعها ـ بعُنف ـ إلى إيجاد مخرج من هذه الاضطهادات والمذابح، وكان ذلك بقيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.

2: كان هُناك فارق أساسي آخر بين يهُود الشّرق ويهُود الغرب في أُورُوبا؛ فيهُود رُوسيا، وبُولُونيا، ورُومانيا ـ والذين يُشَكِّلُون الاحتياطي اليهُوديّ الكبير(1) الذي سوف تستقي منه الحَرَكَة الصّهيُونيَّة عُنفوانها وقُوَّتها فيما بعد ـ لم يكن المعبد بالنّسبة لهم ذكرى طُفُولة فقط، بل كان واقعاً حيَّاً في أذهانهم، وكانت الثّقافة اليهُوديَّة والتّعاليم اليهُوديَّة معروفة بالنّسبة لهم بكُلِّ أبعادها وتعبيراتها وصلواتها، بعكس يهُود أُورُوبا الغربيَّة الذين أخذت العلمانيَّة تنتشر بينهم، وأخذوا بهَجْر أحيائهم، والامتزاج بشُعُوب غرب أُورُوبا، وأخذوا بالتَّحلُّل من قُيُود وتعاليم اليهُوديَّة.

هذا؛ وكانت فلسطين ـ بالنّسبة ليهُود شرق أُورُوبا ـ محطّ آمالهم، وأرض عودتهم، وكانت فكْرة "المسيح المُنْتَظَر" مُسيطرة على عقُولهم؛ ينتظرونه ـ أيْ المسيح المُنْتَظَر ـ ليقودهم إلى فلسطين من أجل إقامة "مملكة إسرائيل".

حتَّى إنَّ الحاخام مُوشيه بن نحمان 1194ـ 1270م، قال بقُدسيَّة فلسطين، واعتبر أنَّ الاستيطان في فلسطين واجب دينيّ على كُلِّ يهُودي.

3: لا يعني ما سَبَقَ أنَّ يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة لم يكن بينهم علمانيُّون، وأنَّهم كانوا جميعاً مُتمسّكين بالتّقاليد والتّعاليم اليهُوديَّة، بل ظهر منهم علمانيُّون ثوريُّون أعنف من علمانيَّة يهُود غرب أُورُوبا الهادئة التي تأخذ بالنُّظُم الدِّيمُقراطيَّة الغربيَّة والمبادئ الدِّيمقراطيَّة الرّأسماليَّة. فقد كان علمانيُّو أُورُوبا الشّرقيَّة اشتراكيِّين ثوريِّين وماركسيِّين تمرَّدوا على

---

(1) كان اليهُود يُشَكِّلون في بُولُونيا ورُومانيا بين 15 ـ 20٪ من السُّكَّان، وفي رُوسيا كان تعداد اليهُود يقرب من نصف يهُود العالم في القرن الثَّامن عشر.

تعاليم التّوراة، وكانوا يُريدون إقامة دولة يهُوديَّة اشتراكيَّة تضمُّ يهُود العالم، ولكنْ؛ كانت اشتراكيَّتهم قوميَّة، وليست أُمميَّة. لذلك لا يزال التَّعصُّب القومي اليهُوديّ مُسيطراً عليهم، وعلى أهدافهم.

ج: يهُود المشرق: (يهُود الوطن العَرَبي وتُركيا وإيران)

يتألَّف مُعظم يهُود المشرق من يهُود الوطن العَرَبي وإيران ويهُود تُركيا قبل هجرة اليهُود الإسبان إليها؛ (وهُم اليهُود السّفارديُّون).

كان هؤلاء اليهُود يعيشون بين العَرَب والمُسلمين حياة حُرَّة كريمة دُون اضطهاد، فقد كانوا أهل ذمَّة؛ حمايتهم واجبة، وحُقُوقهم مُؤمَّنة، وحُرِّيَّتهم مضمونة، وقد وَصَلَ بعضهم إلى مناصب رفيعة في الدُّول العَرَبيَّة والإسلاميَّة.

لم يشعر هؤلاء اليهُود بأيِّ اضطهاد أو سُوء مُعاملة، ولم يتعرَّضوا لمثل ما تعرَّض له يهُود أُورُوبا من الذُّلِّ والهوان والاحتقار، أو للمذابح والقَتْل والتّشريد؛ كالذي تعرَّض له يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة. وكانوا يُمارسون طُقُوسهم الدِّينيَّة بكُلِّ حُرِّيَّة واحترام من قَبَل الحُكُومات التي يعيشون تحت ظلِّها، أو الشُّعُوب التي يعيشون بينها.

وكانوا يعيشون في أحياء خاصَّة بهم في المُدُن الكُبرى أو العواصم، وهذا الذي كان يُميِّزهم من غيرهم، وكانوا يفرضون على أنفسهم العُزلة، فلم يندمجوا مع غيرهم، ولم يخرجوا من مُنعزلاتهم في أحيائهم الخاصَّة بهم.

وكان عملهم المُفضَّل هُو التّجارة؛ وخاصَّة التّجارة بالمعادن الثّمينة كالذّهب والأحجار الكريمة كالألماس واللُّؤلُؤ.. إلخ، أو يعملون بالحِرَف الفنِّيَّة المُتوارثة بينهم كالحَفْر والنَّقْش على الخشب أو المعادن والتّطعيم بالذّهب أو الفضَّة، بالإضافة إلى تعاطي الأعمال الرِّبَويَّة المشهورين بها.

وكانوا مُتمسّكين بالتُّراث اليهُوديّ، وبتعاليم دينهم، وكانوا في معزل عن الأفكار والتَّوجُّهات التي ظهرتْ، ونَمَتْ في أُورُوبا الغربيَّة والشّرقيَّة، ولكنَّهم كانوا يُؤمنون بمبدأ

العودة إلى فلسطين، وبالمسيح المُنْتَظَر الذي سيُعيدهم ـ هُو ـ إلى أرض المعاد (فلسطين)، ويُقيم دولتهم فيها، ويُملّكهم العالم.

وقد هاجرت غالبيّتهم السّاحقة إلى فلسطين تحت ضغط الدّعاية الصّهيُونيَّة وإغراءاتها. وقد بذلت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة جُهُوداً جبَّارة في سبيل تهجير اليهُود العَرَب إلى فلسطين قبل قيام (إسرائيل)، وبعد قيامها. وقد مرَّ معنا القول: إنَّهم يُشَكّلون ـ الآن ـ حوالي نصف اليهُود في (إسرائيل)، وقد كانت حياتهم في الأقطار العَرَبيَّة وغير العَرَبيَّة في الشّرق أفضل منها في (إسرائيل)، لذلك؛ فأكثرهم نادمون على هذه الهجرة، لا سيما وأنَّهم يأتون في الدّرجة الثَّانية في السُّلَّم الطّبقي في (إسرائيل) بعد يهُود أُورُوبا الغربيَّة والشّرقيَّة[1].

وبعد أنْ تحدَّثنا ـ فيما سَبَقَ ـ عن التَّوجُّهات الدِّينيَّة العامَّة لليهُود في العالم، لابُدَّ أنْ نُعطي فكْرة عن (الدّولة الإسرائيليَّة) في فلسطين، وموقفها من الدّيانة اليهُوديَّة.

المعروف عن الدّولة العلمانيَّة أنْ تكون واحدة من ثلاث: علمانيَّة مُعارضة للدِّين، أو علمانيَّة تقف موقفاً مُحايداً من الدِّين، أو علمانيَّة؛ ولكنَّها تقف موقف المُشجِّع والمُؤيِّد للدِّين، ومن هذا النّوع (إسرائيل) في فلسطين، فهي لا تستطيع أنْ تكون غير ذلك، فالدِّين في (إسرائيل) رُكن من أركان وُجُودها، فمهما كانت علمانيَّتها لابُدَّ لها من أنْ تقف الموقف المُشجِّع والمُؤيِّد للتّعاليم الدِّينيَّة اليهُوديَّة ورجالها.

ونستطيع أنْ نُقسِّم ***الاتّجاهات الدِّينيَّة في (إسرائيل)*** إلى ثلاث فئات:

أ: الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة.

ب: الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة المُعارضة للصّهيُونيَّة.

ج: القوى الدِّينيَّة الحريديَّة (أي المُتشدِّدة).

وفيما يلي سنتحدَّث ـ إنْ شاء الله ـ عن هذه الفئات الدِّينيَّة في (إسرائيل) وخارجها، ودورها في قيام (إسرائيل).

---

(1) المصدر الرّئيسي في التّقسيم السّابق (يهُود غربيُّون وشرقيُّون في أُورُوبا ومشرقيُّون) د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 16 ـ 19.

أوَّلاً : الصَّهيُونيَّة الدِّينيَّة:[1]

انطلقت الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة من فكْرة أساسيَّة تتمثَّل فـي مُعارضـة الفكْـرة التـي يُؤمـن بـها عامَّة اليهُود والدّاعية إلى الاعتماد على المسيح المُنْتَظَر كي يقودهم إلى فلسطين من أجل إقامة "مملكة إسرائيل". وقد رأت الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة أنَّ هذا الاعتقاد الذي ساد بين اليهُود على مدى ثمانية عشر قرناً (أيْ مُنذُ تشتُّتهم من فلسطين)، وأدَّى بهم إلـى الابتعـاد عـن اتِّخـاذ أيِّ عمـل سياسي يُعيدهم إلى "أرض المعاد" هُو اعتقاد باطل يجبُ التَّخلُّص منه، وأنَّ الذي شجَّع علـى انتشاره هُو وَضْعُ اليهُود الضّعيف، وقد استندت فـي دعواهـا هـذه إلـى الفـترة التـي ثـار فيـها اليهُود مراراً وتكراراً ضدَّ اليُونان والرُّومان بين 539 ق. م - 135م، ولـو كـان الانتظـار لظُـهُور المسيح المُنْتَظَر هُو الأساس لما قامت هذه الثّورات، وكذلك عودة اليهُود من السّبي البابليّ إلى فلسطين على يد كُورش إمبراطُور الفُرْس، وليس علـى يـد المسـيح المُنْتَظَـر، وإلاَّ كـان يجـبُ على اليهُود أنْ لا يعودوا حتَّى يظهر المسيح المُنْتَظَر، ويُعيدهم هُو طبقـاً لفكْـرة الاعتمـاد علـى ظُهُور المسيح المُنْتَظَر ليقودهم إلى فلسطين.

لذلك اعتبرت الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة أنَّ سياسة التّهدئة والمُسالمة وانتظـار المسـيح المُنْتَظَـر هـي سياسة غير صحيحة، وهي سياسة الضّعيف المُتخاذل، وأنَّ سياسة البعث والتّنشيط قد تكون هي السِّياسة المُسْتَحْسَنَة لدى الرَّبِّ.

وقد استغلَّت الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة مقولتَيْن أساسـيَّتَيْن يُؤمـن بـها عامَّـة اليـهُود، وجَعَلَتْـهُمَا دعامَّة فكْريَّة لمفاهيمها؛ وهما: الشّعب المُختار، وأرض المعاد (أو الميعـاد). وطالمـا أنَّ اليـهُود شعب الله المُختار؛ وقد وعد شعبه بأرض المعاد، فلماذا التَّوقُّف والانتظار؟! ولمـاذا لا يكـون اليهُود عوناً للمسيح المُنْتَظَر قبل ظُهُوره وبعد ظُهُوره في تنفيذ وعد الرَّبِّ في أرض المعاد؟!!

وقد أضفى الحاخام "مُوشـيه بـن نحمـان" المُلقَّـب بـ "رمبـان" 1194 - 1270، فـي تفسـيره للتّوراة طابعاً من القداسة على "أرض فلسطين"؛ فاعتبر أنَّ هـذه الأرض هـي المكـان المُناسـب والوحيـد لتأدية الوصايـا الدِّينيَّـة المنصـوص عنـها فـي التّـوراة، وقـد اعتـبر بـن نحمـان أنَّ الاستيطان فـي "أرض إسـرائيل" والعيـش فيـها واجـب دينـي، بـل اعتـبر أنَّ اسـتيطان "أرض

---

(1) المصدر "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، بحث "الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة"، د. رشاد الشّامي، من ص 85 - 95، باختصار.

إسرائيل" يُوازي كُلَّ الفرائض، كما يُلْزِمُ كُلَّ فرد يهُودي بالهجرة إلى فلسطين، والعيش فيها تمهيداً لمجيء المسيح المُخلِّص.

وقد انطلقت البداية الحقيقيَّة للصّهيُونيَّة الدِّينيَّة في العصر الحديث من أفكار الحاخام "يهُوذا القلعي" 1798 ـ 1878م، الذي دعا إلى خلاص اليهُود من العودة إلى التّلمود وأساطير "القَبَالاة"، واقترح في كُرَّاسته "اسمعي يا إسرائيل" "شـمعي يسرائيل" ـ نَشَرَهَا 1834، العودة إلى فلسطين تحت قيادة وزعامة بشريَّة دُون انتظار المسيح المُخلِّص.

ومن أهمِّ دُعاة الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة الحاخام البُولندي "تسفي هيرش كليشر" 1795 ـ 1874م؛ وهُو زميل وصديق الحاخام "قلعي"، ومن أقواله: إنَّ عذاب اليهُود وشقاءهم هُما امتحان لإيمانهم، وإنَّ بداية حُلُول الخلاص تكمن في التَّطوُّع للذّهاب إلى فلسطين بقَصْد الاستيطان وشراء الأراضي؛ لأنَّ الاستيطان في البلاد المُقَدَّسة هُو من أهمِّ وصايا التّوراة.

ولم يكن تمرُّد هذَيْن الحاخامَيْن: قلعي وكاليشر على فكْرة انتظار المسيح عملاً سهلاً؛ إذْ إنَّ غالبيَّة الحاخامات ورجال الدِّين كانوا ـ حتَّى ذلك الوقت ـ يعتبرون هذه الدّعوة نوعاً من الهرطقة، ولكنَّها شكَّلت ـ في النّهاية ـ المُقدِّمة المطلوبة لبُرُوز تيَّار الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة داخل المُجتمعات اليهُوديَّة.

وقد أعطت أفكار هذَيْن الحاخامَيْن ثمارهما بعد حين، وكَثُر مُعتنقوها والمُتأثِّرون بها، مثل الحاخام الرُّوسي شموئيل موهيليفر 1824 ـ 1898م، الذي ساعد هرتزل في الإعداد للمُؤتمر الصّهيُوني الأوَّل، وموهيليفر أحد زُعماء حَرَكَة "أحبَّاء صهيُون" أيضاً.

ولكنَّ الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة قفزت قفزة كبيرة إلى الأمام بأفكار الرّابي "أفرام إسحق كُوك" فتبلورت ـ بفضل أفكاره، ولأوَّل مرَّة ـ فلسفة شاملة للصّهيُونيَّة الدِّينيَّة. وقد استطاعت آراؤه استيعاب كُلِّ وُجهات النَّظَر والبرامج السِّياسيَّة وفلسفات الأحزاب الدِّينيَّة، حتَّى تلك الاتِّجاهات المُناوئة للدِّين، وقد استمدَّ منظوره هذا من تبحُّره في عقيدة "القَبَالاه" التي سخَّرها لخدمة أهداف الصّهيُونيَّة.

وانسجاماً مع النّظرة الانفتاحيَّة على غير المُتديِّنين كرَّس "كُوك" حياته للتّوفيق بين الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة والصّهيُونيَّة العلمانيَّة، وكان على يقين من أنَّ جيل المُستوطنين الصّهاينة في

فلسطين هُو الذي ينتمي إلى عصر "المسيح المُخلِّص"، وأنَّ الرُّوَّاد - بالرّغم من لادينيَّة قسم كبير منهم - إنَّما يُنفِّذون تعاليم الدِّين باستيطانهم في فلسطين، ودعا إلى التّحالف مع العلمانيِّين.

وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ أفكار كُوك تُمثِّل أوضح مُحاولة لجَعْل مسألة "أرض إسرائيل" مسألة مركزيَّة في التّقاليد الدِّينيَّة اليهُوديَّة. وكان يرى أنَّ هُناك ثلاثة مبادئ رئيسيَّة تنظم العلاقة بين التّقاليد الدِّينيَّة والقوميَّة اليهُوديَّة الحديثة هي:

1: إعطاء معنى ديني حقيقي لمركزيَّة "أرض إسرائيل" في الحياة اليهُوديَّة.

2: تنمية العلاقة بين الدِّين اليهُوديّ ونشاط الصّهيُونيَّة العلمانيَّة.

3: إعطاء أهمِّيَّة عالميَّة للنّهضة اليهُوديَّة من خلال نظام الفلسفة الدِّينيَّة.

وتطبيقاً لهذه المبادئ شنَّ كُوك هُجُوماً عنيفاً على التّقاليد الدِّينيَّة اليهُوديَّة التي تُبيح للإنسان اليهُوديّ أنْ يعيش في "الشّتات"، واعتبر أنَّ ارتباط التّعاليم اليهُوديَّة "بأرض إسرائيل" وآمال العودة هي التي حفظت اليهُوديَّة من الضّياع، واعتبر أنَّ:

"إسرائيل والتّوراة وأرض إسرائيل هي مزيج واحد".

والحقيقة - كما نرى - أنَّ أفكار كُوك الدِّينيَّة هي تقريب واضح بين الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة التي تجعل الاستيطان في فلسطين واجباً دينيَّاً يعلو على كُلِّ الواجبات الدِّينيَّة الأُخرى، وبين الصّهيُونيَّة العلمانيَّة التي تجعل الهجرة والاستيطان في فلسطين واجباً قوميَّاً للمُحافظة على اليهُوديَّة المُهدَّدة بالذَّوَبَان في الشّتات والاندماج والانصهار بالمُجتمعات الأُخرى[1].

---

(1) وفيما يلي؛ نُقدِّم لمحة عن حياة أفرام يتسحاق كُوك؛ نَظراً لدوره الهامّ في التّوفيق بين الصّهيُونيَّة العلمانيَّة والصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، وُلد كُوك في شمال رُوسيا عام 1865م، تلقَّى في صغره تعليماً تلموديَّاً، ثُمَّ تأثَّر بالقَبَالا، وسعى إلى تجارب الإشراق الدّاخلي، وحين بلغ الثَّالثة والعشرين من عُمره أصبح حاخام قرية زيجل في ليتوانيا، ثُمَّ أصبح حاخام بلدة بويسك في لتفيا، وفي عام 1904، هاجر إلى فلسطين، وأصبح حاخام لمدينة يَافَا (لمُستعمرة يهُوديَّة قرب يَافَا)، وبذلك؛ أصبح أوَّل حاخام صهيُوني بارز في فلسطين، سافر إلى أُورُوبا 1914، للاشتراك بالاجتماع الكَنَسي العالمي؛ مُمثِّلاً عن "أجودات يسرائيل"، وحالت الحرب العالميَّة الأُولى دُون عودته، وأخيراً؛ عاد إلى القُدس، وأصبح الحاخام الرّئيسي لها، ثُمَّ أصبح الحاخام الأكبر لليهُود الأشكناز في فلسطين، تُوفِّي عام 1935، وقد خلَّف وراءه بُحُوثاً في العُلُوم الدِّينيَّة والتَّصوُّف اليهُوديّ والفلسفة والشّعر، ونُشرت أعماله في عدَّة مُجلَّدات بعُنوان "أوروت"؛ أيْ أضواء، (المرجع: القوى الدِّينيَّة في إسرائيل، د. رشاد عبد الله الشّامي، عالم المعرفة، 186) ص 333.

ومن قادة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة الحاخام "صموئيل حاييم لانداو" الذي انخرط بعد الحرب العالميَّة الأُولى في حَرَكَة "مزراحي"، وقد أكَّد أهميَّة الاستيطان في "أرض إسرائيل"؛ لأنَّ الإقامة في الأرض المُقَدَّسة هي أحد الأوامر الدِّينيَّة، ولا يُمكن اعتبار إسرائيل أُمَّة حيَّة وهي تعيش في المنفى.

وعلى نهجه؛ برز الحاخام "مائير بر إيلان"؛ وهُو يُعتبر أحد زُعماء "المزراحي" الكبار، وقد حارب الاتِّجاه الصّهيُوني العلماني، وقال: إنَّه ليس في اليهُوديَّة فَصْل بين الدِّين والدّولة.

هذا؛ وقد أعطى قيام (إسرائيل) دفعة قويَّة للصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، وتعزَّزتْ دعواها في جعل "أرض إسرائيل" هي النُّقطة المركزيَّة في حياة اليهُود، خُصُوصاً وأنَّ قيامها جاء بعد فترة قصيرة من أحداث النّازيَّة ضدَّ اليهُود.

ويتلخَّص موقف دُعاة الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة بقولهم: «نحنُ لم نتوقَّع قيام دولة يهُوديَّة ذات طابع علماني، لكنَّها ـ على أيَّة حال، وفي وَضْعها القائم ـ تُمثِّل ـ من وُجهة نَظَرنا ـ هديَّة مُعجزة من الله، وأنَّ وظيفتنا التَّاريخيَّة تتمثَّل ـ الآن ـ في المُشاركة في بناء الدّولة، ودفعها نحو مُستويات رُوحيَّة أعلى».

وقد بقيت الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة مُرتبطة سياسيّاً بالصّهيُونيَّة العلمانيَّة (وهي رئيسيَّة في إسرائيل). ولكنَّ هذا الوَضْع تغيَّر بصُورة جذريَّة بعد أحداث حرب 1967، العاصفة، والتي أدَّت إلى التَّغيُّرات الهائلة في الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، فقد انتقلت من الائتلاف مع حزب "العمل الإسرائيلي" (مُمثِّل الصّهيُونيَّة الرّئيسيَّة العلمانيَّة) قبل حرب حزيران 1967، إلى الائتلاف مع "اليمين الصّهيُوني المُتطرِّف اللّيكود" مُمثِّل فكْر: جابُوتنسكي، بيغن، شامير، وهُم مُمثِّلو الصّهيُونيَّة التّصحيحيَّة أو الصّهيُونيَّة المُتطرِّفة.

وقد انبثق عن الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة أحزاب على السّاحة السِّياسيَّة في (إسرائيل) وخارج (إسرائيل)؛ (وخاصَّة في شرق أُورُوبا)، وتُعتبر من أقدم القوى الحزبيَّة الدِّينيَّة في (إسرائيل)، وخارجها؛ وهي[1]:

---

(1) المصدر "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، د. رشاد الشّامي من 95 ـ 122، باختصار.

أ: حزبا "المزراحي" و "العامل المزراحي":

نبعت هذه الحَرَكَة من بين مُؤسِّسي حَرَكَة "مُحبِّي صهيُون، أو أحبَّاء أو عُشَّاق صهيُون"[1] (صهيُونيَّة شرق أُورُوبا) أمثال الحاخامات: إليا شبرغ، وشموئيل موهيليفر. ولكنَّ التّنظيم الدِّيني الذي عُرف باسم "مزراحي" أيْ "مركز رُوحاني أو المركز الرُّوحي" كان بناءً على اقتراح الحاخام "أبراهام سلوتسكي"، ويُعتبر الحاخام إسحاق يعقُوب دانيس **1839 - 1915**م، المُؤسِّسَ الحقيقي لـ "المزراحي"، وقد كان العُنصُر المُحرِّك للمُؤتمر الصّهيُوني الذي عُقد في فيينا (عاصمة النّمسا) عام **1902**م.

وقد انشقَّ عن حَرَكَة "المزراحي" الدِّينيُّون المُتشدِّدون، وانضمّوا إلى حَرَكَة أُخرى أكثر تشدُّداً تشكَّلت آنذاك؛ وهي "أجودات يسرائيل" في مايو **1912**، بُغية الوُقُوف في وجه الحَرَكَة الصّهيُونيَّة العلمانيَّة (سنتحدَّث - فيما بعد - عن هذه الحَرَكَة).

ويُمكن القول: إنَّ حَرَكَة "مزراحي" كانت - طوال تاريخها - مشغولة بالخلافات بين أُولئك الذين يرون أنفسهم صهيُونيِّيْن أوَّلاً وقبل كُلِّ شيء، وأُولئك الذين يضعون الدِّين فوق الصّهيُونيَّة.

وعلى ضوء هذا؛ فإنَّ أيديُولُوجيَّة "المزراحي" كانت بمثابة خطٍّ وسط بين تيَّارَيْن: فهي - من ناحية - ترفض الصّهيُونيَّة كحَرَكَة علمانيَّة خالصة، بدعوى أنَّ القيَم الرُّوحيَّة أساسيَّة في الشّعب اليهُوديّ، وكانت ترى أنَّ الشّعب اليهُوديّ دُون دين هُو جسد بلا رُوح، وأنَّ الدِّين والشّعب يُشكِّلان وحدة لا انفصام لها، وأنَّ الدِّين يجبُ أنْ يكون هُو دليل الصّهيُونيَّة، وأنَّ التّقاليد الدِّينيَّة اليهُوديَّة يجبُ أنْ تُصبح قانون (إسرائيل)، ومن ناحية أُخرى؛ كانت مزراحي تقول دائماً: إنَّ الإيمان الدِّيني دُون رُوح قوميَّة (يهُوديَّة) هُو مُجرَّد "شبه يهُوديَّة"، وأصرَّت - مرَّة أُخرى - على أنْ تكون اللُّغة العبريَّة هي لُغة الحياة الرُّوحية واليوميَّة على حدٍّ سواء.

---

(1) "مُحبُّو أو عُشَّاق صهيُون" حَرَكَة صهيُونيَّة دينيَّة نشأت في شرق أُورُوبا تدعو إلى العودة إلى أرض الميعاد (فلسطين) على أُسُس دينيَّة، وقد سبقت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة العلمانيَّة في غرب أُورُوبا بحوالي نصف قرن، وكان أوائل المُهاجرين إلى فلسطين زمن الحُكْم العُثمانيّ من مُحبِّي صهيُون، ومن شرق أُورُوبا، ومُعظمهم من غُلاة الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة.

وكانت توجُّهات "المزراحي" تتناقض مع توجُّهات "أجودات يسرائيل" المُتشدِّدة.

ب: "الحزب الدِّيني القومي" (المفدال):

بعد قيام (إسرائيل) عام **1948**، برز اتِّجاه قومي لتوحيد الحزبَيْن "المزراحي" و"العامل المزراحي"[1]، وكان لكُلٍّ منهما أسبابه الذّاتيَّة والعامَّة في ذلك؛ فعلى الصّعيد العامِّ يمنح التّوحيد الحزبي وزناً ونُفُوذاً أكبر على السّاحة السِّياسيَّة في (إسرائيل). وفي مُؤتمر مُشترك في صيف عام **1956**، تقرَّر تشكيل "الحزب الدِّيني القومي" (مفلاجا دانيت لئوميت)؛ أيْ الحزب الدِّيني القومي، واختصاراً؛ أُطلق عليه (مفدال).

وبشكل عامٍّ؛ يتشكَّل المفدال من ثلاثة أجنحة هي:

1: العامل المزراحي، ويُشكِّل أقصى التَّطرُّف اليساري، مع الاحتفاظ بالنّزعة الدِّينيَّة.

2: المزراحي (كُتلة الوسط)؛ وهي أقلُّ اعتدالاً، وأكثر تصلُّباً في المفاهيم الدِّينيَّة، وتُمثِّل 45٪ من حزب المفدال.

3: عصبة الزّراعين وعصبة السّفارديم؛ وهي أقرب عناصر المفدال إلى اليمين المُتطرِّف.

وقد شارك المفدال في كُلِّ الائتلافات والحُكُومات، وكانت وزارة الأديان دائماً من نصيبه.

وبالنّسبة للكنيست؛ فقد بلغ أكبر عدد من المقاعد حصل عليها المفدال بين **1951** - **1981**، اثنَيْ عشر مقعداً، وأقلّها عشرة مقاعد.

وفي عام **1981**، (عام الكنيست العاشر) انشقَّ عن حزب المفدال "أهارُون أبو حصيرا"، وسعى لتأييد الطّوائف الشّرقيَّة (فهُو من يهُود المغرب)، وبعد ذلك؛ تدنَّت قُوَّة المفدال البرلمانيَّة إلى 6 مقاعد فقط.

وعلى الرّغم من ذلك؛ بقي المفدال يُحافظ على دوره كشريك ائتلافي يتهافت عليه الحزبان الكبيران "المعراخ، العمل، وحُلفاؤه" و"اللّيكود"، وبفضل مقاعد المفدال استطاع مناحم بيغن تشكيل حُكُومة ائتلافيَّة.

---

(1) العامل المزراحي له نفس مبادئ "المزراحي"، ولكنَّه يتشكَّل من العُمَّال ذوي التَّطرُّف اليساري.

ثُمَّ أخذت أهمِّيَّة المفدال بالتَّقلُّص ، وأخذ يفقد أهمِّيَّته التّقليديَّة ، فحصل في انتخابات 1988 ، على خمسة مقاعد من أصل 18 مقعداً حصلت عليها الأحزاب الدِّينيَّة .

ومن الجدير بالذّكْر أنَّ طَلَبَةَ المدارس الدِّينيَّة التّابعة للمفدال يذهبون للخدمة العسكريَّة طواعيَّة ، رغم أنَّ القانون يعفيهم من الخدمة العسكريَّة .

ج: "تامي" [قائمة تقاليد (إسرائيل)]:

أسَّسها أهارُون أبو حصيرا ليستقطب المُتديِّنين من اليهُود الشّرقيِّيْن ؛ وبخاصَّة يهُود المغرب ، وفاز بثلاثة مقاعد في انتخابات 1981 ، واشترك بوزارة مناحم بيغن وزيراً للعمل ، ثُمَّ استقال ـ إثر إدانته ـ بفضيحة ماليَّة .

ثُمَّ أخذت تامي بالتّراجع ، فحصلت على مقعد واحد 1984 ، ثُمَّ لم تحصل على أيِّ مقعد في انتخابات 1988 .

والحقيقة أنَّ تامي تعكس مواقف المفدال نفسها في القضايا الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة ، حتَّى شاع عنها إنَّها مفدال شمال أفريقيا .

د: موراشا (التُّراث):

انشقَّت ـ أيضاً ـ عن المفدال بزعامة الحاخام المُتطرِّف "حاييم دروكمان" ، وتتكوَّن موراشا من : "متساد" (المُعسكر الصّهيُوني الدِّيني) برئاسة دروكمان و"أوروت" (أضواء) بزعامة "حانان بن مورات" أحد قادة حَركَة "جوش إيمونيم" الأُصُوليَّة الاستيطانيَّة المُتطرِّفة (المعروفة بالتَّمسُّك بالأراضي المُحتلَّة ، والاستيطان بها) ، و"عُمَّال أجودات يسرائيل" المُتطرِّفة أيضاً .

وقد جاء هذا التّحالف بين الفئات الثَّلاث السّابقة نتيجة تبدُّد الأمل في توحيد المُعسكر الدِّيني القومي "المفدال" بعد رَفْض زعيم المفدال يُوسُف بُورج اعتزال رئاسة الحزب ، كما طالب بذلك دوركمان وبن بورات .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ قائمة "موراشا" تُعْتَبَرُ من أكثر الأحزاب الدِّينيَّة تطرُّفاً وتعصُّباً ؛ إنْ على الصّعيد الدِّيني ، أو على الصّعيد السِّياسي ؛ إذْ إنَّ مواقفها المُتشدِّدة تلتقي مع مواقف "اللّيكود" وحَركَة "حيروت" بالذّات .

واتُّهمت "موراشا" في أنَّها كانت السَّبب في نُشُوء "شراذم أحزاب دينيَّة".

هـ: "ميماد" أو "اليهُوديَّة العقلانيَّة" (مُعسكر الوسط الدِّيني):

أُنشئ هذا الحزب الدِّيني الجديد "ميماد" أو مُعسكر الوسط الدِّيني بزعامة الحاخام "يهُوذا عميطل" الذي يرتبط بحزب العمل. ويعتمد هذا الحزب على اليهُود من أصل أُورُوبي (وخاصَّة النَّاطقين بالإنكليزيَّة) ليُنافس "المفدال" و"شاس" اللَّذَيْن كانا يتنافسان على أصوات اليهُود الشَّرقيِّيْن، ولم يحصل هذا الحزب على أيِّ مقعد في انتخابات عام 1988.

***ثانياً*: الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة المُعارضة للصَّهيُونيَّة:**

(أحزاب تكفير الدَّولة):

الطَّوائف والأحزاب اليهُوديَّة المسيحانيَّة (نسبة إلى المسيح المُنْتَظَر) هي الطَّوائف المُتمسِّكة بتعاليم التَّوراة والتَّلمود، وهي تُؤمن بأنَّ العودة لا تكون إلاَّ على يد "يَهْوَه" الذي سيُرسل المسيح المُخلِّص المُنْتَظَر للقيام بهذا العمل، وقيادة اليهُود في العودة إلى أرض المعاد فلسطين، وإقامة مملكة إسرائيل فيها، وتمليك اليهُود العالم. لذلك؛ فالحَرَكَة الصَّهيُونيَّة عندهم - سواء العلمانيَّة أو الدِّينيَّة - هي تمرُّد على إرادة الله، وخيانة الشَّعب اليهُوديّ والتَّعاليم اليهُوديَّة، واليهُوديّ الصَّالح لا يُمكن أنْ يكون صهيُونيّاً، والصَّهيُوني لا يُمكن أنْ يكون يهُوديّاً صالحاً.

واعتبرت هذه الطَّوائف المسيحانيَّة المُعارضة للصَّهيُونيَّة أنَّ الجُهُود المبذولة لإقامة دولة يهُوديَّة في فلسطين هي اعتداء على سُلطة المسيح المُنْتَظَر؛ لأنَّه هُو وحده القادر على إقامة الدَّولة اليهُوديَّة؛ حيثُ تكون مملكة الكَهَنَة والقدِّيسين.

ولكنَّ هذه الطَّوائف اليهُوديَّة المسيحانيَّة واجهت مُشكلتَيْن زعزعتا الإيمان بالتَّقاليد والتُّراث اليهُوديّ، وهاتان المُشكلتان هُما: ظُهُور "الحَرَكَة الصَّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة"، وظُهُور "الهسكالا، أو حَرَكَة التَّنوير"، وقد أضعفت هاتان الحَرَكَتان في العصر الحديث الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة، وسنتحدَّث - فيما يلي - عن هاتَيْن الحَرَكَتَيْن دُون تأثيرهما على الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة:

أ: الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة والعلمانيَّة:

تنطلق اليهُوديَّة المسيحانيَّة (الحريديَّة) المُعارضة للصّهيُونيَّة و(إسرائيل) من رَفْضها للصّهيُونيَّة؛ لأنَّ الصّهيُونيِّيْن لا يسيرون على هدى التّوراة وتعاليم الدِّين والشّريعة اليهُوديَّة الحقَّة، ويرى هؤلاء اليهُود المُتشدِّدون المُعادون للصّهيُونيَّة أنَّ دُعاة الصّهيُونيَّة هُم بَشَرٌ لم يقبلوا السّيادة السّماويَّة، ولا الإرادة الإلهيَّة، ولا يتبعون طريق التّوراة، ويتفاخرون بأنَّهم قادرون على تحقيق السّلام لليهُود، وإنقاذهم من محنتهم الحاليَّة، وهي مزاعم تُنكرها - جذريّاً - نُصُوص التّوراة والتّلمود، لأنَّ الخلاص المسيحاني لا يُمكن أنْ يتمَّ بوسائل بشريَّة؛ سواء كانت هذه الوسائل المال أو السّلاح، واستشهدوا بالأقوال التّوراتيَّة التّالية:

«هكذا قال الرَّبُّ: لقد باعوكم بدُون مُقابل، لذلك لن يفكَّ أسْرَكُم المال»، (سفْر أشعيا، إصحاح 52، فقرة 3).

«لا بالعُنف ولا بقُوَّة الجيش، ولكنْ؛ برُوحي أخلِّصهم»، (سفْر زكريَّا، إصحاح 4، فقرة 6).

«سوف أُخلِّصهم بقُوَّة ربِّ الخُلُود إلههم، ولن أُنقذهم بالقوس، ولا بالسّيف، ولا بالحُرُوب، ولا الخيل والفُرْسان»، (سفْر هُوشع، إصحاح 1، فقرة 7).

وقد أدرك الزُّعماء الدِّينيُّون اليهُود، مُنذُ ظُهُور الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أنَّها حَرَكَة قوميَّة علمانيَّة، وتصدَّى هؤلاء للفكْرة والحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ليس بسبب طابعها العلماني فقط، بل لإيمانهم أنَّ بناء مملكة إسرائيل لابُدَّ أنْ يتمَّ على يد المسيح المُنْتَظَر.

ولقد رأى هؤلاء أنَّ مساعي الصّهيُونيِّيْن الرّامية إلى تأسيس دولة قوميَّة يهُوديَّة في فلسطين تتنافى مع العقائد المُتعلِّقة بانتظار مجيء المسيح المُخلِّص في اليهُوديَّة، وذلك كما وَرَدَتْ هذه العقائد والتّعاليم في أسفار العهد القديم، وفي المصادر المُتأخِّرة للدّيانة اليهُوديَّة.

ويُمكن القول: إنَّ أمل العودة وإحياء مملكة إسرائيل كان أهمّ قواعد اليهُوديَّة التّقليديَّة لفترة ثمانية عشر قرناً، وقد انقرض خلالها ستُّون جيلاً من اليهُود. إنَّ هذه الأجيال المُتابعة

كانت ترى جميعها أنَّ تحقيق هدف العودة سيكون على يد "يَهْوَه القدير" نفسه الذي سيُرسل المسيح المُخلِّص للقيام بهذا العمل، وليس ذلك من عمل "شعب الله المُختار" كما نادت الصّهيُونيَّة، وكانت هذه القضيَّة هي نُقطة الخلاف الفاصل بين الفريقَيْن، فقد اعتبر المُتديِّنون أنَّ اليهُوديَّة والصّهيُونيَّة غير قابلتَيْن للتّوافق والانسجام؛ لأنَّ الصّهيُونيَّة تمرُّد على إرادة الله، وخيانة للشّعب اليهُوديّ، وأنَّ اليهُوديّ الصّالح لا يُمكن أنْ يكون صهيُونيّاً، والصّهيُوني لا يُمكن أنْ يكون يهُوديّاً صالحاً، (كما أسلفنا في مُقدِّمة الحديث).

وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ فكْرة "المسيح المُخلِّص" كانت إحدى العوائق الفكْريَّة التي جابهت الحَركَة الصّهيُونيَّة. وقد لجأت الحَركَة الصّهيُونيَّة إلى الالتفاف على هذه الفكْرة عن طريق الادِّعاء بأنَّ جُهُودها لإقامة وطن قومي لليهُود في فلسطين سيكون من أجل تمهيد الطّريق أمام قُدُوم المسيح، بيد أنَّ هذا التّعليل لم ينطل على قطاع واسع من اليهُود؛ وخاصَّة المُتديِّنين المُتشدِّدين "الحريديم"، وإنَّ "أجودات يسرائيل" - على سبيل المثال - اعتبرت أنَّ الجُهُود لإقامة دولة يهُوديَّة في فلسطين هي اعتداء على سُلطة المسيح، واستعجال لنهاية غير مرغوب فيها. وعندما حاولت "أجودات يسرائيل" في الثّلاثينات مدَّ الجُسُور مع الحَركَة الصّهيُونيَّة أدَّت هذه المُحاولة إلى انشقاق في داخلها، وأسفر هذا الانشقاق عن ظُهُور حَركَة "نطوري كارتا" التي رَفَضَتْ الاعتراف بالحَركَة الصّهيُونيَّة و(بإسرائيل) حتَّى اليوم، وذلك لأنَّ هذه الدّولة - حسب مفاهيم "نطوري كارتا" - قامت على يد نفر من الكافرين، الذين حرَّفوا مشيئة الله بعملهم، وتطاولوا على وعد الرَّبِّ بدلاً من انتظار المسيح الموعود، وتدخَّل الرَّبُّ بصُورة إعجازيَّة، فالمسيح المُنْتَظَر هُو وحده القادر على إقامة الدّولة؛ حيثُ تكون مملكة الكَهَنَة والقدِّيسين.

ويُطلَق على المُعارضين للصّهيُونيَّة والمُتشدِّدين في التَّمسُّك بتعاليم الدِّين اليهُوديّ "الحريديم"، وينتمي مُعظم الحريديم إلى التَّيَّار "الحريدي" المُتمثِّل في حزب "أجودات يسرائيل". وإذا كان هؤلاء الحريديم لا يعتبرون أنَّ (إسرائيل) هي علامة على بداية الخلاص، ويعتقدون أنَّ عليهم الانتظار حتَّى قُدُوم المسيح المُخلِّص، إلاَّ إنَّهم يعترفون بحقيقة الوُجُود السِّياسي (لإسرائيل)، ويمتثلون لقوانينها، ويشتركون في انتخابات الكنيست، ويُشاركون في "الائتلافات الحُكُوميَّة" للاستفادة من الامتيازات التي تُقدِّمها

الدّولة، ولكنّ غالبيّتهم لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي، ولديهم شبكة تعليم خاصّة بهم يُطلَق عليها "بيت يعقُوب"، ويُقيمون في أحياء مُنفصلة عن الجُمهُور العلماني.

ب: "الهسكالاه" أو "عصر التّنوير":

لقد كان عصر التّنوير "الهسكالاه" 1780 ـ 1880، لَطْمَةً قويّة للقوى الدِّينيّة "الحريديّة" أو اليهُوديّة المُتمسّكة بتعاليم التّوراة والتّلمود.

فقد هاجم المُثقّفون اليهُود التّقاليد اليهُوديّة، وخاصّة انغلاق اليهُود وتقوقعهم على أنفسهم ضمن الأحياء اليهُوديّة "الغيتو"، ووجهوا سهامهم المسنونة نحو تحجُّر الدِّين اليهُوديّ ووصايا الحاخامات، ومهّدوا الطّريق للخُرُوج من أسوار "الغيتو" اليهُوديّ في غرب أُورُوبا، ثُمّ انتقل ذلك إلى شرق أُورُوبا.

وقد أدان اليهُود المُتشدِّدون "الحريديم" هذه التَّوجُّهات إدانة بالغة، ورأوا فيها ابتعاداً آثماً عن الشّريعة والوصايا اليهُوديّة، ولكنّ تلك الإدانة من اليهُود المُتشدِّدين لم تفد شيئاً، ولم تثن اليهُود المُتنوِّرين "الهسكالاه" عن مُهاجمة اليهُود المُتزمِّتين والمُحافظين على التّقاليد اليهُوديّة "الحريديم"، وزاد الأمر سُوءاً عندما ورثت الصّهيُونيّة السِّياسيّة العلمانيّة "الهسكالاه"، وتعاونت معها ضدّ اليهُوديّة المُتشدِّدة "الحريديّة".

وفي الحقيقة؛ فإنّ نظام "القهيلوت"؛ أيْ نظام الجماعات التّقليديّة في الشّتات، والذي يلعب فيه الحاخام دوراً رئيسيّاً في الرّقابة الاجتماعيّة الدِّينيّة قد بدأ يتفكّك اعتباراً من مطلع القرن التّاسع عشر بفعل قُوّتَيْن هامّتَيْن هُما: حَرَكَة التّنوير "الهسكالاه"، و"الصّهيُونيّة العلمانيّة"، وهُناك قُوّة ثالثة مُتناقضة مع القُوّتَيْن السّابقتَيْن؛ وهي الحَرَكَة الدِّينيّة غير التّقليديّة، وتُدعى "الحسيديّة" التي كان لها دور هامٌّ ـ أيضاً ـ في مُهاجمة نظام الجماعات اليهُوديّة التّقليديّة المُتزمّتة، رغم أنّ الحَرَكَة "الحسيديّة" حَرَكَة دينيّة، ولكنّها تُخالف في مفاهيمها الدِّينيّة المفاهيم الدِّينيّة التّقليديّة. (وسنتحدّث عنها بعد قليل، إنْ شاء الله).

هذا؛ وقد قضت أحداث النّازيّة خلال الحرب العالميّة الثّانية على المراكز الدِّينيّة المُتشدِّدة (الحريديّة) في ليتوانيا، وبُولندا، وبسارابيا. . إلخ. وأخذ الصّهاينة يتّهمون الحاخامات

التّقليديِّيْن المُعادين للصّهيُونيَّة في وسط أُورُوبا وشرقها بأنَّهم يتحمَّلون مسؤوليَّة المذابح التي قامت بها النّازيَّة ضدَّ اليهُود، وذلك لأنَّهم منعوا اليهُود من الهجرة إلى فلسطين استجابة لمطالب الصّهيُونيَّة وأهدافها في إنشاء وطن قومي لليهُود في فلسطين (قبل ظُهُور المسيح المُخلِّص)، وأنَّهم منعوا تنظيم اليهُود في شرق أُورُوبا لمُقاومة اقتيادهم للمذابح النّازيَّة.

وبالمُقابل؛ فإنَّ اليهُود التّقليديِّيْن (الحريديم) يقولون إنَّ الصّهيُونيَّة هي المسؤولة عن استفزاز الألمان النّازيِّيْن، وذلك لأنَّ الصّهيُونيِّيْن أخذوا في التَّدخُّل في الحُرُوب والصّراعات الأُورُوبيَّة، وحُجَّتهم في ذلك هي الوُصُول إلى أهدافهم بتحقيق أحلام الصّهيُونيَّة في العودة إلى فلسطين، وإقامة دولة اليهُود فيها.

فقد وقف الصّهاينة في الحرب العالميَّة الأُولى مع الحُلفاء، وأيَّدوهم ضدَّ ألمانيا، واستخدموا نُفُوذهم في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لدَفْعها لدُخُول الحرب العالميَّة إلى جانب الحُلفاء، وفعلاً؛ دَخَلَتْ الولايات المُتَّحدة الحرب في عام 1917، (أيْ بعد قيام الحرب بثلاث سنوات)، وكان لدُخُولها الحرب أنْ رجحت كفَّة الحُلفاء، وتمَّ حسم الحرب لصالحهم، وكان من نتيجة هذه المواقف الصّهيُونيَّة المُنحازة إلى جانب الحُلفاء أنْ منحتْ بريطانيا وعدَ بلفور للصّهاينة بإنشاء وطن قومي لليهُود في فلسطين.

وكان الألمان ـ دُون شكٍّ ـ يعرفون دور الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الهامَّ في انكسارهم وإذلالهم في الحرب العالميَّة الأُولى. وكان يُمثِّل هذا الحقد على اليهُود والكراهية والمقت لهم الحزب النّازي الألماني؛ وعلى رأسه زعيمه أدولف هتْلَر. لذلك عندما وَصَلَ هذا الحزب إلى الحُكْم عام 1933، كان في مُقدِّمة أهدافه الانتقام من اليهُود. لهذا؛ اتَّهم اليهُودُ التّقليديُّون (الحريديم) الصّهيُونيَّةَ في أنَّها هي السّبب في كُلِّ ما عانى منه اليهُود في أُورُوبا على يد الألمان والحزب النّازي.

ويقول أحد غُلاة الحاخامين المُتطرِّفين: «إنَّ يهُود عصر التّنوير "الهسكالاه" لم يُصغوا، وشاؤوا أنْ يتصرَّفوا على هواهم، و أنْ يتشبَّهوا بغير اليهُود، ويندمجوا معهم في كافَّة وُجُوه حياتهم. والنّتيجة كانت أنَّ الضّربات الأكثر فظاعة التي تلقَّاها اليهُود من غير اليهُود حَدَثَتْ في البلاد التي اندمجوا وانصهروا فيها أكثر من أيِّ مكان آخر؛ وهي ألمانيا».

وتبدو أحداث النّازيّة في نَظَر اليهُود التّقليديِّيْن ـ وُفقاً لهذا المنظـور ـ بمثابـة عقـاب الـرَّبِّ وقصـاص مـن أُولئـك الذيـن انتـهكوا وصايـا التّـوراة وأوامرهـا ، وسـعوا للتَّشـبُّه بـالأُمم أو "الأغيار" والانصهار بهم (في عصر التّنوير) ، أو من أُولئـك الذيـن صمَّمـوا علـى إنشـاء دولـة يهُوديَّة على غرار الدُّول الأُخرى ؛ كما هُو شعار الصّهيُونيَّة العلمانيَّة الاشتراكيَّة .

وهكذا ؛ فإنَّ الأيديُولُوجيَّة اليهُوديَّة التّقليديَّة قلبت المنهج الصّهيُوني رأساً على عقـب ، وجَعَلَت من المذابح اليهُوديَّة في أُورُوبا عقاباً لكُلِّ مشـروع سياسـي يـهُودي لا يستمدُّ إلهامـه من التّوراة ، ويحترمها احتراماً صارماً ودقيقاً[1] .

والخُلاصـة : أنَّ قيـام (إسـرائيل) وَضَـعَ الجماعـات الدِّينيَّـة المُتشـدِّدة أمـام مـأزق ليـس بالسّهل ، وهُو أنَّهم واجهوا ظاهرة غير مُتوقَّعة من السّيادة اليهُوديَّة على "أرض إسرائيل" قبـل قُدُوم المسيح المُخلِّص ، وأنَّ هـذه السّـيادة قائمـة بزعامـة مُنتـهكي الحُرُمـات والمبـادئ الدِّينيَّـة التّقليديَّة من اليهُود العلمانيِّيْن .

وباستثناء جماعة "نطوري كرتا"[2] (حُرَّاس المدينة) المُعادية للصّهيُونيَّة ، ولوُجُـود الدّولـة الإسرائيليَّة ، فـإنَّ الاتِّجاهـات الدِّينيَّـة التّقليديَّـة الحريديَّـة تنقسـم إلـى ثـلاث تيَّـارات أساسـيَّة يجمعها العداء للطّبيعة العلمانيَّة للدّولة ؛ وهي :

1 ـ التّعايش مع (إسـرائيل) كدولـة غريبـة يجـبُ التّعـامل معـها كمـا يتعـامل اليـهُود مـع الدُّول الأجنبيَّة .

2 ـ إضفاء صبغة دينيَّة مُجرَّدة على (إسرائيل) ؛ لأنَّ قيامـها كـان نوعـاً مـن أنـواع العنايـة الإلهيَّة لإنقاذ أرواح اليهُود ، رافقتْهُ مُعجزات مُتكرِّرة أهمّها مـا حَـدَثَ فـي 5 حُزيـران 1967 . ولكنْ ؛ يظلُّ مفهوم الخلاص على يد المسيح المُنْتَظَر هدفاً وليس واقعـاً حتَّـى الآن (رغـم قيـام (إسرائيل) ؛ لأنَّها دولة علمانيَّة) ، كما يدَّعي الإسرائيليُّون .

---

(1) المصدر للأحزاب المسيحانيَّة هُو : القوى الدِّينيَّة في إسرائيل ، د . رشاد الشّامي ، ص 125 ، 135 .

(2) نطوري كرتا أو (أجودات يسرائيل) الأُورشليميَّة ؛ سيأتي الحديث عنها ، والمدينة هي القُدس .

3 - إضفاء صبغة القُدْسيَّة على الوُجُود اليهُوديّ على "إسرائيل"، وذلك بصُورة مُجرَّدة، دُون الدُّخُول في نقاش بشأن وُجُوب أو عدم وُجُوب الاستيطان كفريضة دينيَّة يهُوديَّة (وهي نقاشات مُحتدمة في الأوساط الدِّينيَّة الصّهيُونيَّة حتَّى الآن).

وهكذا نرى أنَّ النّجاحات والانتصارات التي حقَّقتها الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة كان لها دور هامٌّ في التَّغلُّب على المُعارضة الدِّينيَّة، حيثُ نشأت - كما أسلفنا - الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، وكيف أخذت جماعات تكفير الدّولة من اليهُود المُتشدِّدين (الحريديم) تقف موقفاً ليِّناً من الدّولة اليهُوديَّة العلمانيَّة في فلسطين، وتُحاول أنْ تجد المُسوِّغات والمُبرِّرات للتّعامل معها.

وقبل الانتهاء من الحديث عن الطّوائف الدِّينيَّة التّقليديَّة المسيحانيَّة، سأتكلَّم - فيما يلي - عن الأحزاب المُنبثقة عن هذه الاتِّجاهات الدِّينيَّة التّقليديَّة المسيحانيَّة، وذلك لأُعطي للقارئ الكريم صُورة مُختصرة جداً عن هذه الأحزاب، ودورها في الحياة السِّياسيَّة في (إسرائيل).

الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة: [1]

وتُقسم إلى قسمَيْن: أحزاب دينيَّة مسيحانيَّة أشكنازيَّة، وأحزاب دينيَّة مسيحانيَّة سفارديَّة.

أ - الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة الأشكنازيَّة: (يهُود أُورُوبا):

1 - *"أجودات يسرائيل"*:

هي مُنظَّمة عالميَّة دينيَّة وسياسيَّة لليهُود المُتشدِّدين، مبدؤهم الرّئيسي هُو حلُّ كُلِّ القضايا اليهُوديَّة وُفقاً لرُوح التّوراة.

وقد طُرحت فكْرة تأسيس "أجودات يسرائيل" لأوَّل مرَّة عام **1909**، ولكنَّ الإعلان الرّسمي عن تأسيسها كان عام **1912**.

أخذت بالتّعاون مع المُؤسَّسات الصّهيُونيَّة وعند إعلان (إسرائيل) عام **1948**، كان حزب أجودات يسرائيل قد قطع شوطاً طويلاً في عمليَّة تقبُّل فكْرة الاندماج في إطار الدّولة اليهُوديَّة بعد سنوات طويلة من النّهج الانعزالي، وتحوَّل إلى حزب يعمل في إطار مُؤسَّسات الدّولة.

---

(1) د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، باختصار شديد، من ص 139 - 215.

وقد شارك حزب أجودات يسرائيل في كافَّة الانتخابات العامَّة التي جرت في (إسرائيل) مُنذُ تأسيسها حتَّى الآن. كما مُثِّل الحزب في مجلس الدّولة المُؤقَّت مع "عُمَّال أجودات يسرائيل" بثلاثة أعضاء.

وشارك حزب الأجودات في الحُكُومات الإسرائيليَّة الثَّلاث خلال الفترة من 1949 ـ 1952، ثُمَّ انقطع عن المُشاركة في الحُكُومات الإسرائيليَّة بقرار من "مجلس كبار عُلماء التّوراة". ومُنذُ 1977، أصبح يُشارك حكُومة "اللّيكود" دُون أنْ يُمثَّل في الحُكُومة تمشِّياً مع القرار السّابق. ومُنذُ قيام (إسرائيل) أُعفيَ طُلاَّب "اليشفوت" (وهي مدرسة دينيَّة تابعة لحزب الأجودات) من الخدمة العسكريَّة، وذلك بمُوافقة بنْ غُوريُون على ذلك.

2 ـ *"بوعالي أجودات يسرائيل" أو "عُمَّال أجودات يسرائيل":*

وهي مُنظَّمة عُمَّاليَّة دينيَّة في إطار الحَركَة العُمَّاليَّة لـ "أجودات يسرائيل" هدفها إرساء الحُكْم الاجتماعي والاقتصادي على أُسُس التّوراة وقوانينها وشرائعها، وقد تأسَّست في بُولُونيا عام 1922.

وقد تحوَّلت مُنظَّمة عُمَّال الأجودات إلى حزب سياسي مع إعلان قيام الدّولة الإسرائيليَّة.

3 ـ *"أجودات يسرائيل الأُورشليميَّة":*

وهي من الجماعات التي تُغالي في تشدُّدها الدِّيني، تأسَّست في القُدس في بداية سنوات الانتداب الإنكليزي في فلسطين، وأُطلق عليها ـ في البداية ـ "أجودات يسرائيل الأُورشليميَّة"، ثُمَّ "شباب أجودات يسرائيل"، ثُمَّ أصبح اسمها "الطّائفة المُتشدِّدة دينيّاً"، وأخيراً؛ أصبح اسمها "نطوري كرتا".

4 ـ *"ديجل هتوراه" (حزب علم التّوراة):*

وهُو حزب من المُتشدِّدين الدِّينيِّين (الحريديم)، وهُو الوريث الرُّوحي لـ "المتنجديم"؛ (أيْ المُعادين للحسيديَّة والحَسديم). وقد ظهر هذا الحزب عشيَّة انتخابات الكنيست الثَّاني

عشر 1988، بزعامة الحاخام "أفرهام رافيتس"، وحصل على مقعدَيْن في هذه الانتخابات. وبرنامجه السِّياسي كما حدَّده زعيمه: «إنَّنا نُحدِّد موقفنا تجاه كُلِّ القضايا الحيويَّة في الموضوعات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة وُفق رأي التّوراة، والتي يُحدِّدها كبار عُلماء التّوراة في هذا الجيل؛ وعلى رأسهم الحاخام "أليعيزر شاخ"».

ويُعتبَر حزب "ديجل هتوراه" أقلّ الأحزاب الدِّينيَّة تطرُّفاً في مواقفه من العَرَب، فقد ذَهَبَ رئيسه أفراهام رافيتس إلى حدِّ المُوافقة على الانسحاب من المناطق المُحتلَّة عام 1967، وقيام دولة فلسطينيَّة فيها، ولكن؛ منزوعة السّلاح.

ب: الأحزاب الدِّينيَّة المسيحانيَّة السّفارديَّة[1] (اليهُود الشّرقيُّون):

إنَّ العامل الدِّيني والمُحافظة على التَّمسُّك الشّديد بالتّقاليد اليهُوديَّة الدِّينيَّة هُو من أبرز الخصائص التي تميَّز بها أبناء الطّائفة السّفارديَّة[2] في (إسرائيل) الذين يرفضون ـ بشدَّة ـ عَلْمَنَةَ الدِّين اليهُوديّ وُفق المفهوم الصّهيُوني الاشتراكي الذي تُعبِّر عنه الأحزاب العلمانيَّة الصّهيُونيَّة الاشتراكيَّة.

وقد ظهر الاستقطاب الطّائفي في الحياة السِّياسيَّة[3] في (إسرائيل) اعتباراً من عام 1977، ونُزُوع اليهُود الشّرقيِّيْن للتّصويت لصالح اللّيكود، والجُنُوح للتَّطرُّف؛ وخاصَّة فيما يتَّصل بالموقف من مصير الأراضي العَرَبيَّة المُحتلَّة بعد عام 1967، حيثُ يميل كثيرون منهم ـ وخُصُوصاً الشّباب اليهُوديّ من أصل شرقي ـ إلى اعتبار أنَّ "يهُوذا والسّامرة" (الضفَّة الغربيَّة) جُزءاً من (إسرائيل)؛ وهي الأيديُولُوجيَّة التي تتبنَّاها القوى الدِّينيَّة المُتطرِّفة في

---

(1) المصدر: د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 188 ـ 194، باختصار.

(2) السّفارديَّة: المقصود بها ـ هُنا ـ يهُود إسبانيا الذين استقرّوا في الشّرق؛ وخاصَّة في تُركيا؛ ومنهم ـ أيضاً ـ يهُود الوطن العَرَبي، وبعض يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة.

(3) كان من أسباب هذا الاستقطاب الطّائفي هُو الانتصار الحاسم لليهُود في عام 1967، حيثُ حصل المدُّ الدِّيني الواسع في (إسرائيل)، واعتبار أنَّ هذا النّصر كان منحة من "يَهْوَه"، وتعبيراً عن رضاه في قيام (إسرائيل) قبل ظُهُور المسيح المُخلِّص، كما أنَّ هذا الانتصار الحاسم أضعف النّقد الشّديد من القوى الدِّينيَّة التّقليديَّة للصّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة.

(إسرائيل) على اختلاف تنوُّعاتها الحزبيَّة، وأهمُّ هذه الأحزاب المُتطرِّفة السّفارديَّة هـو حـزب "شاس" أو "اتِّحاد حُرَّاس التّوراة السّفارديم".

حزب شاس: (اتِّحاد حُرَّاس التّوراة السّفارديم):

جاء تشكيل شاس في عام 1983، ليجمع الفئات الأربع التّالية:

أ ـ *المُتديِّنين الشّرقيّين خرِّيجي المدارس الغربيَّـة الأشكنازيَّة*؛ وخاصَّـة المدارس اللّتوانيَّـة (ليتوانيا جُمهُوريَّة على بحر البلطيق).

ب ـ *المُتديِّنين الشّرقيّين الذين تعلَّموا في المدارس الشّرقيَّة السّفارديَّة*، ويرون في الحاخام "عوفاديا يُوسُف" زعيماً لهم.

(وكانت هاتـان المجموعتـان تُصوِّتـان ـ قبـل تشكيل شـاس ـ لصـالح الأحـزاب الدِّينيَّـة؛ وخاصَّة أجودات يسرائيل، وقليل منهم لصالح المفدال.

ج ـ *جموع العائدين إلى الدِّين باسم "هحوزريم بتشوفا" أو (التّائبين)* من أبنـاء الطّوائـف الشّرقيَّة، والذين يُؤمنون بزعامة "عوفاديا يُوسُف".

د ـ *جُمهُور واسع من أبناء الطّوائف الشّرقيَّة التّقليديَّة*.

وكان إنشاؤه احتجاجاً على عدم إشراك مندوبين من السّفارديم في قائمة المُرشَّحين عن حزب "أجودات يسرائيل" للكنيست.

وهكذا؛ فإنَّ هذا الحزب ظهر في انتخابات 1984، لأوَّل مرَّة كقائمة طائفيَّـة تُمثِّل اليـهُود الشّرقيِّين في الأحزاب الدِّينيَّة علـى غـرار قائمـة "تـامي" التـي يتزعَّمـها "أبـو حصيرا"، وكحَرَكَـة تمرُّديَّة داخل "أجودات يسرائيل" بسبب تقصيره إزاء المُتديِّنين من أبناء الطّوائف الشّرقيَّة.

والزّعيم الرُّوحي لحزب "شاس" هُو الحاخام "عوفاديا يُوسُف" رئيس كبار عُلماء التّـوراة السّفاردي. وبتأييد من الحاخام "شلخ" اللّتواني، وتحت زعامة الحاخام "بيرتس"، حصـل هـذا الحزب عام 1984، على أربعة مقاعد؛ وذلك بتأييد المُتديِّنـين اللّتوانيِّـين ويـهُود اليمـن. وفـي عام 1988، حصل على ستَّة مقاعد (رغم عدم تأييد اللّتوانيِّين الذين صوَّتـوا لصـالح "ديجـل هتوراه"، ودُون مُساندة الطّائفة اليمنيَّة التي صوَّتتْ لقائمتَيْن يمنيَّتَيْن صغيرتَيْن).

وهكذا أصبح "شاس" القُوَّة السِّياسيَّة الثَّالثة في الكنيست بعد حزب "العمل" و"اللّيكود".

وحَرَكَة شاس تُؤيِّد الانسحاب من الضّفّة الغربيَّة وقطاع غزَّة، حتَّى إنَّ الحاخام بيرتس زعيم شاس أيَّد مبدأ التّفاوض مع مُنظَّمة التّحرير الفلسطينيَّة على أساس مبدأ الأرض مُقابل السّلام.

ثالثاً: الطّائفة الحريديَّة "الحريديم"[1]:

(المُغالون في التَّشدُّد الدِّيني وتكفير الدّولة والانعزال الجينوي):

"الحريديم" مُفردها "حاريد"؛ أيْ التُّقى الورع. وقد أُطلقت هذه الكلمة سابقاً على المُتديِّنين المُتشدِّدين المُحافظين على التّقاليد التّوراتيَّة، وسمَّينا فرَقهم وطوائفهم بالطّوائف المسيحانيَّة نسبة إلى المسيح المُنتَظَر المُخلِّص.

ولكنَّ الطّائفة "الحريديَّة" - التي نحنُ بصدد التَّحدُّث عنها - هي طائفة مُستقلَّة شديدة التَّعصُّب للتّقاليد الدِّينيَّة اليهُوديَّة وشديدة التَّمسُّك بحَرْفيَّة التّوراة وتعاليمها.

وهكذا؛ "فالحريديم" ليسوا كالمُتديِّنين العاديِّين الذين يرتدون الطّاقيَّة اليهُوديَّة "هاكيبا"، أو المُتديِّنين التّابعين لـ "الحزب الدِّيني القومي" الذي يتعامل مع الأحزاب العلمانيَّة الصّهيُونيَّة من مُنطلق اعتناق الأيديُولُوجيَّة الصّهيُونيَّة (مع احتفاظه بالتَّمسُّك بالتّقاليد والتّعاليم اليهُوديَّة)، وكذلك ليسوا من الأحزاب الدِّينيَّة الأكثر تطرُّفاً الرّافضة للصّهيُونيَّة؛ مثل "أجودات يسرائيل".

إنَّ "الحريديم" - خلافاً لهؤلاء جميعاً - يرتدون ملابس سوداء أيّاً كانت حرارة الجوِّ، ويرتدون غطاء أسود للرّأس أسفل قُبَّعة سوداء، ويُطلقون لحاهم، ويعيشون في جوِّ القُرُون الوُسْطَى، ويتحدَّثون "البيدش" لُغة اليهُود الألمان (وهي خليط من العبريَّة والألمانيَّة القديمة).

والحريديم واثقون بأنَّهم يملكون الحقيقة لفَهْمهم التّوراة، واطّلاعهم على الكُتُب المُقَدَّسة؛ وبصفة خاصَّة التّلمود، وأنَّ طريقهم هُو الطّريق الصّائب الوحيد.

والحريديم يستخدمون "الإكراه الدِّيني" "هكفياه هراتيت"، ويُجيزون لأنفسهم التَّدخُّل في حياة الآخرين، وكُلُّ الوسائل - بالنّسبة لهم - مشروعة؛ بما في ذلك استخدام سلاح الاعتداء

---

(1) المصدر: د. رشاد الشّامي، "القوى السِّياسيَّة في إسرائيل"، ص 303 - 305، باختصار.

ضدَّ اليهُود الضَّالِّين، ويشنُّون حرباً على الثّقافة العلمانيَّة للمُجتمع الإسرائيلي، ويُهاجمون دُور السِّينما، وحمَّامات السّباحة المُشتركة، والصُّحُف العلمانيَّة، ممَّا يُثير عنُفاً مُضاداً من جانب العلمانيِّين، ولكنَّهم لا يرتدُّون، ويعتبرون أنَّهم يشنُّون حرباً مُقدَّسة باسم الرَّبِّ.

وعلى شاكلتهم حَرَكَة "نطوري كارتا" المُتشدِّدة، والتي انفصلت عن "أجودات يسرائيل" عام 1935، وتُمثِّل المُعسكر المُعادي للصّهيُونيَّة[1] والانعزال عن (إسرائيل) باعتبارها ثمرة الغطرسة الآثمة؛ لأنَّها قامت على يد نَفَر من الكَفَرَة الذين تحدّوا مشيئة الله وإرادته بإعلانهم إقامة (إسرائيل) بدلاً من انتظار "المسيح المُنتَظَر المُخلِّص" المُخوَّل ـ وحده ـ بإقامة "مملكة إسرائيل".

وكانت حَرَكَة "نطوري كارتا" حتَّى عام 1965، إحدى الجماعات المُكوِّنة للطّائفة الحريديَّة، ثُمَّ انفصلت عنها في ذلك العام، ومن أبرز زُعماء حَرَكَة "نطوري كارتا" الحاخام عميرام بلوي، والحاخام أهارُون كتسنبويجن.

هذا؛ وتُقدِّم الطّائفة الحريديَّة لأتباعها مجموعة من الخدمات الطّائفيَّة مثل: المحاكم الدِّينيَّة، المُعلِّمين، المُرشدين، أماكن تربويَّة وثقافيَّة، ومراكز زواج، ونظام كامل لترخيص المسالخ والمخابز والمطاعم والأطعمة والمشروبات حسب القواعد الشّرعيَّة اليهُوديَّة "الكاشير".

وباختصار؛ تُؤمِّن الطّائفة الحريديَّة لأتباعها الحياة حسب قواعد وتعاليم التّوراة بدقَّة تامَّة.

رابعاً: الطّائفة الحسيديَّة "الحسيديم": [2]

كان من الظّواهر التي ميَّزت تاريخ اليهُود في أُورُوبا خلال القرن الثَّامن عشر ظُهُور حَرَكَة دينيَّة جديدة عُرِفت باسم "هسحيدوت"، أو "الحسيديَّة"، انتشرت ـ في بدايتها ـ في منطقة جبال كاربتيان (الكربات) على حُدُود بُولندا، ومن العوامل التي أدَّت إلى ظُهُور الحسيديَّة في القرن الثَّامن عشر ما يلي:

1: انحلال الطّائفة اليهُوديَّة في بُولندا (تُعتبر الطّائفة اليهُوديَّة في بُولندا من أكبر الطّوائف؛ حيثُ تصل حوالي 20٪ من السُّكَّان).

---

(1) المصدر: د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 315 ـ 319، باختصار.

(2) المصدر: د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 245 ـ 255، باختصار.

2: جفاف النّظام التّعليمي التّلمودي (ممَّا جَعَلَ هـذه الطّائفة ترفض التّلمود، وتقتصر على التّوراة).

3: المسيحيَّة الزّائفة التي ظهرت خلال القرنَيْن السَّابع عشر والثَّامن عشر (كما مـرَّ معنا بعضها مَّن ادَّعوا أنَّهم المسيح المُخلِّص المُنْتَظَر).

4: الحَرَكَة الصُّوفيَّة عند اليهُود، والتي أصبحت احترافاً، وليس تصوُّفاً في "القَبَالا".

ومُؤسِّس هـذه الحَرَكَة هُو "إسـرائيل اليعيزر" الـذي عُرف باسـم "إسرائيل بعـل شـيم طوف"؛ ومعناها "إسرائيل ذُو السُّمعة الطَّيِّبة"؛ وبالاختصار عن التّسمية العبريّة "بعشط"، وقد أصبح بعشط الشّخصيَّة الرّئيسيَّة للعديد من الأساطير التي حيكت حـول حياته وأعماله ومُعجزاته وكراماته.

ومن تحليل النّظريَّة اللاَّهوتيَّة الحسيديَّة يظهر لنا أنَّها لم تكن لاهوتاً فحسب، بـل كانت دعوة شاذَّة لأُسلُوب في الحياة.

وقد أبقت الحسيديَّة على ما أكَّده "بعل شيم طوف" أو بعشط الصّلاة والعبادة الشّخصيَّة كما هي، ولكنَّه احتقر دراسة التّلمود وحتَّى الاطّلاع عليه، واتَّفق أتباعه على أنَّه في عالم الرُّوح وحده يُمكن للإنسان أنْ يجد مُراده؛ لأنَّ هُناك مُساواة بين كُلِّ الأشخاص: الغني والفقير والمُتعلِّم والجاهل.

وتقول الحسيديَّة: إنَّ كُلَّ عمل من أعمال الإنسان سواء كان دينيَّاً أو دُنيويَّاً يُمكن اعتباره مُقَدَّساً لو أمكن أداؤه في مرح ونشوة، وَحَثَّ "بعل شيم طوف" أتباعه بأنْ لا يثوروا على رغباتهم، ولكنْ؛ حَثَّهم على السّيطرة عليها، وتوجيهها للرَّبِّ.

وتُؤمن الحسيديَّة بما يلي:

1 - بأنَّ القُوَّة المُقَدَّسة كامنة في حُرُوف اسم الرَّبِّ "يَهْوَه".

2 - بظُهُور المسيح المُخلِّص، ووُجُود الملائكة وعبادتها.

3 - بترافق صلواتها بالمرح والصّخب والرّقص العنيف الانتشائي والتّمادي بالشّراب.

4 ـ يجمع الحسيديم الأُخُوَّة الحارَّة، سواء في صلواتهم المرحة، أو أثناء تناول الطّعام وفي سائر ساعات اليوم.

5 ـ وعدَّل الحسيديم طريقة الذّبح الشّرْعي، وأصرّوا على طريقة خاصَّة بهم.

6 ـ تُجيز الحسيديَّة الصّلاة في أيّ مكان، ولكنّها طوّرت لنفسها أماكن عبادة خاصَّة بها.

وتُؤكّد الحسيديَّة أنَّ الخلاص يبدأ بالسُّلُوك اليومي للإنسان الذي يسبق الخلاص الإعجازي والكامن بالهجرة إلى فلسطين. وترى الشّريعة الحسيديَّة أنَّ انتشار الحسيديَّة هُو الذي سيعجل بقُدُوم المسيح، ويرى أحد زُعمائها وهُو ربي (مناحم مندل): أنَّ فلسطين هي الرُّوح القُدس ذاتها، وقد أدّى هذا الاعتقاد إلى هجرة الحسيديم إلى فلسطين لتنشر شريعة الحسيديم، وإقامة مركز حسيدي فيها، وللرّغبة في التّعجُّل بالخلاص عن طريق الهجرة إلى فلسطين.

وهكذا؛ فإنَّ هذه الحَرَكَة الدِّينيَّة أسهمت في إعداد يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة لتقبُّل أفكار الصّهيُونيَّة (التي تُنادي بالهجرة إلى فلسطين)، وصعَّدت ـ أيضاً ـ من حُبِّ اليهُود لـ "أرض إسرائيل" وقُدسيَّتها، ومن الكُره الشّديد لغير اليهُود "الأغيار"، وزادت ـ أيضاً ـ في حدَّة النّزعة القوميَّة، ممَّا جَعَلَها أحد عوامل الفكْرة القوميَّة اليهُوديَّة في القرن التّاسع عشر.

وتُعتبر شخصيَّة "الصِّدِّيق" إحدى الأفكار الرّئيسيَّة في شريعة الحسيديَّة على المُستويَيْن الرُّوحي والمادِّي على السّواء. ويُعرف "الصِّدِّيق" باسم "ربي" تميُّزاً له عن الرّابي أو الحاخام في اليهُوديَّة التّلموديَّة. ويُطلق على "الصِّدِّيق" في (إسرائيل) الآن لقب "الأدمون"؛ وهُو اختصار لثلاث كلمات عبريَّة هي: "أدونيو مورينو فيرابينو"؛ أيْ "سيِّدنا وأُستاذنا ومُعلِّمنا".

وتُوجد للصِّدِّيق رسالتان: الأُولى: أنْ يكون زعيماً رُوحانيّاً لأبناء طائفته، وهذا العمل من أجل الرَّبِّ، والثّانية: أنْ يكون زعيماً عمليّاً لأبناء طائفته، وهذا العمل عمل تنظيمي عملي.

والصِّدِّيق هُو ذلك الشّخص الذي يتمتَّع بخصال رُوحانيَّة خاصَّة تُؤهِّله لأنْ يقوم بدور "الرّسول" أو "الوسيط" بين العوالم العُليا والعوالم السُّفْلي؛ أيْ بين الخالق والمخلوق. وتكمن

قُوَّته في إيمانه الهائل ودروشته الصُّوفيَّة التي لا يعلوه فيها أحد. وقُوَّة "الصِّدِّيق" هي قُوَّة هائلة، وبإمكانه أنْ يُؤثِّر على العوالم العُليا بفضل صلاته، ويستطيع أنْ يُلغي الأحكام الإلهيَّة، والحقيقة كُلُّها خُلقت من أجل "الصِّدِّيق"، وتحلُّ عليه الرُّوح القُدس في "المنفى" (أيْ خارج فلسطين)، ومكانة "الصِّدِّيق" أو الصّديقيم (جمع صِدِّيق) تفوق مكانة الملائكة.

والصِّدِّيق لا يُمارس تأثيره عن طريق التّوراة، بل عن طريق إيمانه وتأمُّله الصُّوفي.

وقد كان الحسيديم يُقدِّمون للصِّدِّيق الأموالَ التي تُسمَّى "الفدية"، وذلك لإعفاء الصّدِّيق من مُمارسة العمل والكَسْب. وكان للصِّدِّيق خَدَم وشمامسة يُسمّون "جُباة أو جبائيم" يقومون بجَمْع الفدية من الحسيديم، ويقومون بالوساطة بين الحسيديم والرّبي أو الصّدِّيق، ويكتبون الرُّقَع التي يُقدِّمها الحسيديم للصِّدِّيق طَلَباً للمشورة الرُّوحانيَّة والمادِّيَّة. وكان الحسيديم يُكرِّمون الصّدِّيق حتَّى بعد موته؛ لأنَّه لا يُعتبَر ميِّتاً في نَظَرهم، ويستمرُّون بالوساطة بين "شعب إسرائيل" والرَّبِّ، ويُلغي الأحكام الإلهيَّة السَّيِّئة.

ومن تقاليد الحسيديم الغَطْس في "مغطس التّطهير" مساء السّبت.

وهكذا؛ فإنَّ شخصيَّة الصِّدِّيق الجديدة هذه قد أدَّت إلى تغيير قُوَّة الزّعامة اليهُوديَّة. وقد حلَّت شخصيَّة الصِّدِّيق عند الحسيديم محلَّ العقيدة التّوراتيَّة. بل إنَّ التّوراة نفسها انتقلتْ إلى شخصيَّة الصِّدِّيق؛ بحيثُ شاع بين الحسيديم قولهم "حديث الصِّدِّيق توراة". ولذلك لم يكن عَبَثاً أنْ اعتبرت الحسيديَّة أنَّ الإيمان بالصِّدِّيق يُعتبَر أهمَّ من معرفة التّوراة.

هذا؛ وقد واجهت الحسيديَّةُ مُعارضةً عنيفةً من "اليهُوديَّة التّقليديَّة".

ولم تُفرز الحَرَكَة الحسيديَّة تنظيماً مُوحَّداً، وشكَّل أتباعها تجمُّعات محلِّيَّة مُتعدِّدة، كُلٌّ منها يتمتَّع باستقلاليَّة نسْبيَّة، ومن أشهر هذه التَّجمُّعات ثلاثة تيَّارات رئيسيَّة هي:

أ: حسيديَّة "حَبَدْ"؛ وتُوجد مبادئ شريعة "حَبَدْ" في كتاب "هَتَنْيا" الذي كَتَبَهُ ربي شنئيور زلمان من لاي 1745 ـ 1813، وهُو زعيم حسيدي رُوسيا البيضاء، ومن كبار مُفكِّري وزُعماء الحسيديَّة.

وقد اجتهد شنئيور زلمان في وَضْع فلسفة حسيديَّة خاصَّة به، قائمة على عدم تجاهل العقل وتعاليم التّوراة، كما تفعل الجماعات الحسيديَّة الأُخرى، فجاءت لفظة "حَبَدْ" اختصاراً لكلمات ثلاث قائمة عليها فلسفة شنئيور؛ وهي: "حوماخا، بينا، دعت" (الحكْمة، الفَهْم، المعرفة).

ومع مُرُور الوقت؛ أصبحت "حَبَدْ" تيَّاراً مُستقلاً في الحسيديَّة أقلّ عاطفة، وأكثر عقلانيَّة، وانتقل مركز هذه الحَركَة من رُوسيا البيضاء إلى لتفيا، ثُمَّ إلى بُولندا، وأخيراً؛ إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة **1940**.

ب: حسيديَّة فشيحا: وهي حَركَة حسيديَّة شكَّلت ما يُسمَّى بالتَّيار النُّوري.

وقد أسَّسها الرّبي "يعقُوب يتسحاق" الذي عُرف بلقب "اليهُوديّ المُقَدَّس"، وكانت بمثابة المُعارضة بالنّسبة للحسيديَّة القديمة.

ج: *حسيديَّة برسلاف*: وهُو التَّيار الحسيدي الذي أسَّسه ربي "نحمان من برسلاف"، الذي ارتقى بمكانة "الصِّدِّيق" إلى أعلى مرتبة رُوحانيَّة.

وكان يخشى من العُلُوم الدُّنيويَّة التي رأى أنَّها تُمثِّل خطراً على الدِّين. واعتبر أنَّ السُّرُور والطَّرَب والرَّقْص تُشكِّل جُزءاً رئيسيّاً من عبادة الرَّبِّ، كما أنَّها تربط الإنسان بالرَّبِّ.

هذه هي الطَّوائف والفرَق والأحزاب الدِّينيَّة عند اليهُود، وفي الفصل التَّالي؛ سنتحدَّث عن النّشاطات السِّياسيَّة اليهُوديَّة في العالم.

الفصل الثَّالث:

النّشاطات السِّياسيَّة اليهُوديَّة في العالم

سنتحدَّث ـ في هذا الفصل ـ عن النّشاطات السِّياسيَّة لليهُود في العالم، بعد أنْ تحدَّثنا في الفصلَيْن السّابقَيْن عن الدّيانة اليهُوديَّة وعن التّوراة والتّلمود، ثُمَّ عن الطّوائف اليهُوديَّة قديماً وحديثاً.

إنَّ هذه النّشاطات كثيرة ومُتشعِّبة كما سنرى، ولكنَّ دُستُورها ومنهاجها في العمل هُو "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، التي هي الخُطَّة المرسومة والمدرُوسة بعناية فائقة؛ لتحقيق هدف اليهُود بالسّيطرة على العالم.

لقد كان لليهُود ـ قبل اغتصاب فلسطين ـ نُفُوذ عالمي قوي، وذلك بفضل سيطرتهم على الصّحافة والرّأي العامّ العالمي، وبفضل سيطرتهم على المال والمصارف، وبالتّالي؛ على الاقتصاد العالمي، وساعدهم على ذلك النُّظُم الدِّيمُقراطيَّة؛ وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا؛ حيثُ مكَّنتهم هذه النُّظُم ـ عن طريق الانتخابات ـ من الوُصُول إلى الحُكْم فيها، أو إيصال أعوانهم والمُتعاطفين معهم إليه.

وقد أحْكَمَ اليهُود قبضتَهُم على كثير من دُول العالم؛ وبخاصَّة دُول الغرب الاستعماريَّة التي بيدها النُّفُوذ العالمي الأكبر، ولكنْ؛ كان ينقصهم دولة تُؤَمِّنُ لهم القُوَّة العسكريَّة والملاذ الآمن، وبعد قيام (إسرائيل)، وبناء القُوَّة العسكريَّة الرّهيبة فيها، وجعلها أشبه بثكنة عسكريَّة كُبرى، وترسانة لجميع أنواع الأسلحة؛ وخاصَّة أسلحة الدّمار الشّامل، أصبح اليهُود ـ الآن ـ يملكون ثالوث الرُّعب في العالم، ثالوث القبضة الحديديَّة: الرّأي العامّ العالمي عن طريق السّيطرة على الصّحافة، المال عن طريق السّيطرة على المصارف والاقتصاد

العالمي، القُوَّة العسكريَّة ذات الذّراع الطّويلة التي بنوها في فلسطين بمُساعدة الغرب؛ وعلى رأسه الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

ولكنْ؛ قبل التَّحدُّث عن البرُوتُوكُولات والنّشاطات السِّياسيَّة اليهُوديَّة في العالم، لابُدَّ لنا من الحديث عن الماسُونيَّة وأهدافها ومحافلها العالميَّة، والتي هي أداة من أدوات السّيطرة والنُّفُوذ اليهُوديّ في العالم.

الماسُونيَّة:[1]

الماسُونيَّة ليست جمعيَّة، ولا حزب، ومحافلها ليست مُقتصرة على اليهُود فقط، ولكنَّها قدَّمت لليهُود خدمات عظيمة في مُحاربة المسيحيَّة والإسلام، وإضعافهما، ونَشْر العلمانيَّة، والتَّحلُّل من التّعاليم الدِّينيَّة، وتشجيع الإباحيَّة؛ بحُجَّة تحقيق حُرِّيَّة الفرد، وتسخير المُنتسبين لمحافلها من عُظماء الرّجال والمُتنفِّذين لخدمة مصالح اليهُود وتحقيق أهدافهم.

ويصعب تحديد تاريخ ظُهُور الماسُونيَّة، وكيف نشأت، ودوافع نشأتها الأُولى، ويرى بعضهم أنَّ الماسُونيَّة جاءت ردّاً على تسلُّط طائفة الكَتَبَة اليهُوديَّة والفرِّيسيِّيْن في القرن الأوَّل الميلادي، ومنهم مَنْ عدَّ الماسُونيَّة ردّاً على الدّعوة المسيحيَّة قديماً.

والحقيقة أنَّه ليس بين أيدينا مراجع عن الماسُونيَّة؛ كونها تُراثاً محفوظاً في الصُّدُور، وليس مكتوباً في السُّطُور، والسِّرُّ والكتمان من أولويَّات الماسُونيَّة، ولكنَّ الثّابت ـ بشكل قطعي ـ أنَّ الماسُونيَّة فكْرة يهُوديَّة، أسَّسها اليهُود لخدمة مصالحهم، وتنفيذاً لأهدافهم[2].

والأُستاذ الأرقم الزّعبي يُقسِّمها إلى ثلاثة أقسام هي:

---

(1) إنَّ المرجع الرّئيسي لبحث الماسُونيَّة كتاب "حقائق عن اليهُوديَّة"، الأُستاذ الأرقم الزّعبي، من صفحة 159 ـ 172، باختصار.

(2) صَدَرَ حديثاً كتابان مُهمَّان عن الماسُونيَّة؛ الأوَّل للباحث عبد المجيد همُّو، عُنوانه (الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فَعَلَتْ؟ ومَنْ خَدَمَتْ؟)، والثَّاني مُترجم عن الإنكليزيَّة، عُنوانه (الحُكْمُ بالسِّرِّ التَّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سرّاً؟) للكاتب الأمريكي الشّهير جيم مارس، ترجمة مُحمَّد مُنير إدلبي، والكتابان صادران عن دار الأوائل، ط1، 2003، وقد أُعيد طبعُهُما في السَّنة نفسها مرَّة ثانية؛ لما أحدثا من ضجَّة وجَدَل كَبيرَيْن حين صُدُورهما للمرَّة الأُولى عام 2003.

أوّلاً: الماسُونيَّة الرّمزيَّة:

وسُمِّيت كذلك لأنَّها جَعَلَت الرُّمُوز لُغة التّحاور بين أعضائها. والماسُونيَّة الرّمزيَّة تنقسم إلى درجات تبدأ بالدّرجة الأُولى إلى أعلى الدّرجات؛ وهي الثَّالثة والثَّلاثون، ورمزها (م. م. م. 33)؛ أي مُوسوي مسيحيّ مُسلم.

وهذه الفئة من الماسُونيَّة عُمُوميَّة يُمكن أنْ يدخلها أيٌّ كان دينه، ولكن؛ يختارهم رُوَّاد الماسُون مِمَّن يرون بهم سمات رجال المُستقبل الذي تسعى الماسُونيَّة إليهم. وشعار الماسُونيَّة: «حُرِّيَّة - عدالة - مُساواة»؛ لتكسب إلى صُفُوفها مَنْ سَحَرَتْهُم معاني هذه الكلمات.

يتعهَّد الماسُوني - مُنذُ دُخُوله الدّرجة الأُولى - بكتمان السِّرِّ، وبالأمانة للماسُونيَّة، وإطاعة الأوامر، وحفظ الإشارات والرُّمُوز، والإجابة عن الطَّلَبَات، وحفظ الأُصُول والقرارات دُون تردُّد، ولا مُواربة، ولا خداع.

ولكُلِّ درجة من الدّرجات التّالية حتَّى الثَّالثة والثَّلاثين كلمة سرٍّ وتعاليم خاصَّة بها. ومن العَرَب الذين وصلوا إلى درجة أُستاذ أعظم بها في محفل بيروت الدُّكتُور مُحَمَّد علي الزّعبي، وقد عايش الماسُونيَّةَ خلال خمسين عاماً قضاها بين محافل فلسطين وسُوريَّة ولُبنان.

ولَمَّا كشف عن علاقتها باليهُود حاول قيادة حَرَكَة إصلاحيَّة أو ثورة إصلاحيَّة للماسُون العَرَب، ولكنَّه فشل، فتصدَّى لفضح الماسُونيَّة بكتابَيْه: "لا ماسُونيَّة بعد اليوم"، و"الماسُونيَّة في العراء".

وقد حاول الماسُون اغتياله عام 1978، داخل مصعد بيته، مِمَّا أعاق حَرَكَته، ومُتابعة الكشف عن أعمال الماسُونيَّة وعلاقتها باليهُوديَّة.

ثانياً: ماسُونيَّة العقد المُلُوكي:

وهي عبارة عن محافل ماسُونيَّة مُقتصرة على اليهُود من الماسُون، ولكنْ؛ طُوِّرت قوانينها، وسمحت لبعض رُؤساء محافل الماسُونيَّة الرّمزيَّة من الأُمميِّين بالانتساب إليها، من الذين يبحثون عن مجد شخصي، والتي تمكَّنت الماسُونيَّة من إقناعهم أنَّه لن يتأتَّى لأيٍّ منهم

الظُّهُور والمجد والشُّهرة إلاَّ بقُوَّة خفيَّة مُقَدَّسة؛ وهي الماسُونيَّة وقوانينها، لا الجامعات تبني كاتباً، ولا المسارح تصقل فنَّاناً، ولا الأحزاب تُحقِّق مجداً سياسيّاً طموحاً، وحده المحفل اليهُوديّ المعروف بالعقد المُلُوكي هُو الذي يُحقِّق كُلَّ ما يُريده أعضاؤه.

ثالثاً: الماسُونيَّة الكونيَّة (الماسُونيَّة الحمراء):

أعضاؤها يهُود حتماً، وليس أيّ يهُودي، بل إنَّهم رُؤساء محافل ماسُونيَّة العقد المُلُوكي فقط، لذلك لا يُعرَف الكثير عن عدد أعضائها، ولا مَنْ رئيسها، ولامكان اجتماعها.

هذا؛ وقد أجمعت كثير من الحُكُومات على حظر اجتماعات الماسُون، ومنع نشاطهم، وقد أغلقت الماسُونيَّة محافلها عندما طُلب الإشراف عليها من قبَل الجهات الحُكُوميَّة، ويدلُّ هذا على حرص الماسُون على أسرار المحفل، والكتمان؛ الذي هُو أحد أركان الإيمان عند اليهُود، وحتَّى لا يطَّلع العارفون والباحثون على طُقُوس الماسُونيَّة، ويربطون بينها وبين اليهُوديَّة.

ويظهر ارتباط الماسُونيَّة باليهُوديَّة من خلال بعض المواقف، مثل النّداء الذي أصدره المحفل الماسُوني المصري للثّورة الفلسطينيَّة عام 1936، التي قامت ضدَّ الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وضدَّ الإنكليز الذين منحوا وعد بلفور لليهُود لإنشاء وطن قومي لليهُود في فلسطين، جاء فيه: «يا أهل فلسطين؛ تذكروا أنَّ اليهُود إخوتكم، وأبناء عُمُومتكم، وقد ركبوا متن الغُربة فأفلحوا، ونجحوا، وهُم يطمعون بالرُّجُوع إليكم لفائدة وعظمة الوطن المُشترك العامّ؛ بما أحرزوا من مال، وما اكتسبوا من خبرة وعرفان».

ومن خلال هذا النّداء الغريب الوقح نرى إقرار المحفل الماسُوني المصري بحقٍّ اليهُود في فلسطين، وحقِّهم بالعودة إليها، وتبنِّيه أهدافهم.

وكان للماسُون دور كبير في هدم الدّولة العُثمانيَّة، والقضاء عليها، ومُحاربة الدِّين الإسلامي، فقد كان مدحت باشا (المُلقَّب بأبي الدُّستُور) من الأساتذة في المحافل الماسُونيَّة التُّركيَّة، وكذلك قادة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي الذي خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، كانوا من الأعضاء البارزين في المحافل الماسُونيَّة؛ ومنهم: مُحَمَّد جاويد (أو أجاويد)؛ (وهُو من يهُود الدُّونمة)، وطلعت، وأنور، وجمال السَّفَّاح، ومُصطفى كمال، الذي أجهز على

الدّولة العُثمانيَّة، وأقام تُركيا الحديثة على دعائم علمانيَّة، وقاد سياسة التّغريب ومُعاداة الإسلام؛ والعَرَب عامَّة.

وهؤلاء القادة هُم الذين تبنّوا سياسة التّتريك؛ بتوجيه من يهُود الدُّونمة والماسُون؛ ليخلقوا العداوة بين التُّرك والعَرَب، وحتَّى لا يقف التُّرك مع العَرَب ضدَّ الصّهيُونيَّة وأهدافها في اغتصاب فلسطين وإقامة (إسرائيل) فيها في المُستقبل.

وقد رأينا ـ ومانزال نرى ـ التّعاون الوثيق بين (إسرائيل) والجُمهُوريَّة التُّركيَّة مُنذُ قيامها عام 1948، في النّواحي الاقتصاديَّة، وأخيراً؛ في التّعاون العسكري القائم بين تُركيا و(إسرائيل)؛ وخاصَّة في الطّيران العسكري، والذي شَجَبَتْهُ، واستنكرتْهُ مُعظم الأقطار العَرَبيَّة.

وأخيراً؛ لم يعد هدف الماسُونيَّة خفيّاً على أحد، فهي تسعى لعودة اليهُود إلى فلسطين، وتحطيم الأديان والأخلاق، وذلك لنَشْر الإلحاد والانحلال الخُلُقي، والعمل على تحطيم كُلِّ مصادر قُوَّة الأُمم؛ بتشجيع المُنازعات الدّاخليَّة فيها، وبَذْر بُذُور الشّقاق بينها؛ لتنتشر الحُرُوب، ويكون المُستفيد الأوَّل من هذه المُنازعات والحُرُوب هُم اليهُود وحدهم.

وكذلك مُحاولة القضاء على المسيحيَّة وإضعافها، وإبعاد المُسلمين عن مبادئ دينهم الحنيف، وهدم القيَم الأخلاقيَّة بالدّيانتَيْن، وإثارة المُنازعات الطّائفيَّة والدِّينيَّة والإقليميَّة بين الشُّعُوب، وتغذية هذه الانقسامات بالأكاذيب والدّعايات، وتشويه الحقائق والتّاريخ، كُلُّ ذلك في سبيل الوُصُول إلى تحقيق أهدافهم بالسّيطرة على العالم، واستغلال خيراته وشُعُوبه لمصالحهم الخاصَّة فقط.

هذه هي الماسُونيَّة ذراع اليهُود في الماضي، ونصير الصّهيُونيَّة في الحاضر. إنَّها القُوَّة التي تعمل في الخفاء لتحقيق أهداف الصّهيُونيَّة خاصَّة؛ واليهُود عامَّة.

برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون:

لبرُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون أهمِّيَّة فائقة في الكَشْف عن مُخطَّطات اليهُود، وأهدافهم البعيدة، وأساليبهم الماكرة، وأخلاقهم، وسُلُوكيَّاتهم البشعة.

فما هي هذه البرُوتُوكُولات؟ ومَنْ هُم حُكَمَاء صهيُون؟[1]

لنترك الجواب الشّافي للدكتُور محمود سمرة[2]؛ حيثُ يقول: «إنَّ لفظة "برُوتُوكُول" عديدة المعاني، وهي - هُنا - تعني "الميثاق"؛ مثل قولنا "برُوتُوكُول الإسكندريَّة"؛ وهُو الميثاق الذي قامت عليه جامعة الدُّول العَرَبيَّة، وهكذا؛ فإنَّ برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون تعني مواثيقهم، أو مقرَّراتهم.

ولفظة حُكَمَاء تعني "الشُّيُوخ"؛ أي أصحاب النُّفُوذ الدِّيني، أو النُّفُوذ في دُنيا السِّياسة والاقتصاد والصِّناعة.. إلخ.

وكلمة "صهيُون" لفظة كنعانيَّة؛ وهي اسم تلَّة أو جَبَل في بيت المَقْدس، سَكَنَهَا الكنعانيُّون، وعلى هذه التَّلَّة بنى داود قصره بعد انتقاله من الخليل إلى بيت المَقْدس في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ثُمَّ صارت كلمة "صهيُون" - بمُرُور الزّمن - تعني "الحُكُومة اليهُوديَّة الدِّينيَّة".

وعدد البرُوتُوكُولات أربعة وعشرون برُوتُوكُولاً، ترسم خُطط اليهُود للسّيطرة على العالم في مدى مئة عام، وقد عُرف هذا المُخطَّط اليهُوديّ بهذا الاسم؛ أيْ "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون" سنة 1897؛ حيثُ كُشف أمره في هذا العام، أمَّا في أيَّة سنة تمَّ وَضْعُ هذه البرُوتُوكُولات؛ فغير معروف تماماً.

ولم يتسنَّ للعَرَب للاطّلاع على البرُوتُوكُولات إلاَّ بعد مُنتصف هذا القرن (العشرين)، وعلى نطاق محدود؛ لأنَّ اليهُوديَّة العالميَّة حرصت ألاَّ يتسرَّب شيء عنها إلى الشّرق العَرَبي، كما حرصت مثل هذا الحرص حُكُومة الانتداب في فلسطين، حتَّى إنَّ الوُفُود

---

(1) اقترحتْ عليَّ دار الأوائل كتابة كتاب عن برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، وماذا تحقَّق منها، وما الذي يُنتظَر تحقيقه، مع إيراد النُّصُوص الأصليَّة للبرتُوكُولات، ودراسة وافية شافية لها؛ والكتاب - الآن - في مراحله الطّباعيَّة الأخيرة، وعُنوانه (أضواء على برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون النُّصُوص الكَاملة دراسة تحقيقيَّة تاريخيَّة مُعاصرة)، وسيصدر - إنْ شاء الله - خلال عام 2004.

(2) الدكتُور محمود السّمرة أُستاذ في الجامعة الأُردُنيَّة كَتَبَ مقالاً عن "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون" في مجلَّة العَرَبي، العدد 111، شُباط، 1968، اقتبسنا منه التّعريف بهذه البرُوتُوكُولات.

العَرَبِيَّة التي توجَّهتْ إلى لندن وباريس من مصر وسُوريَّة وفلسطين والعراق ولُبنان في فترة ما بين الحربَيْن العالميَّتَيْن وبعد الحرب العالميَّة الثَّانية إلى عام 1948، لم تكن تعرف شيئاً واضحاً عن هذه البرُوتُوكُولات.

وفي سنة 1951، صَدَرَت أوَّل ترجمة للبرُوتُوكُولات بالعَرَبِيَّة قام بها الأُستاذ مُحَمَّد خليفة التُّونُسي، وترجمة التُّونُسي منقولة عن الطَّبعة الإنكليزيَّة الخامسة للبرُوتُوكُولات، والتي صَدَرَت عام 1921، (وقد صَدَرَت الطَّبعة الرَّابعة لترجمة التُّونُسي).

وفي عام 1967 صَدَرَت للأُستاذ عجاج نُويهض ترجمة جديدة للبرُوتُوكُولات مع تعليقات كثيرة من المترجم تتناول كل ما له صلة بالبرُوتُوكُولات من بعيد أو قريب، وهذا العمل من الأُستاذ نُويهض خدمة قوميَّة جليلة.

وقد اتَّفق الذين تصدَّوا للتَّعليق على البرُوتُوكُولات في أُورُوبا على أنَّه قد كُشف أمرها عام 1897، ولكنَّهم يختلفون في الطَّريقة، فهُناك رواية تقول إنَّ رجال البُوليس السِّرِّي التَّابع لرُوسيا القَيْصَريَّة هاجموا المبنى الذي عَقَدَ فيه أقطاب الصَّهيُونيَّة أوَّل مُؤتمر لهم في بازل، وأضرموا النَّار فيه، فَلاذَ الصَّهاينة (ويبلغ عددهم الثَّلاثمائة) بالفرار، وَدَخَلَ البُوليس السِّرِّيُّ الرُّوسي إلى قاعة الاجتماع، وجمع ما فيها من أوراق ومضابط ومُذكَّرات، وعاد بها إلى مُوسكُو، وهُناك صُنِّفَتْ، فكان منها البرُوتُوكُولات. وكانت حُكُومة رُوسيا القَيْصَريَّة تُتابع تحرُكات الصَّهيُونيَّة؛ لأنَّها كانت تشكُّ في أنَّها كانت تعمل ضدَّها، وعن طريق الحُكُومة الرُّوسيَّة حصل أحد النُّبلاء الرُّوس على البرُوتُوكُولات؛ وهُو "أليكس نيقولا نيفيتش"، وقام - بدوره - بتسليمها إلى صديقه الأُستاذ نيلوس Nilus، سنة 1901، فَتَرْجَمَهَا، وَنَشرَهَا بالرُّوسيَّة.

وهُناك رواية تقول إنَّ سيِّدة فرنسيَّة استطاعت أنْ تختلس البرُوتُوكُولات أثناء اجتماعها في فرنسا بزعيم من أكبر رُؤساء الحَرَكَة الصَّهيُونيَّة، ثُمَّ هربتْ وسلَّمتها للنَّبيل الرُّوسي "أليكس نيقولا نيفيتش" الذي وَضَعَهَا - بدوره - بين يدَيْ صديقه الأُستاذ نيلوس.

ويعترف نيلوس - في المُقدِّمة التي كَتَبَهَا للبرُوتُوكُولات - أنَّه تسلَّمها من صديقه أليكس نيقولا نيفيتش كبير جماعة أعيان رُوسيا الشَّرقيَّة أيَّام القَيْصَريَّة، وهُو يرى: «أنَّها - بالتَّأكيد

القطعي ـ صُورة من وثائق سَرَقَتْهَا سيِّدة فرنسيَّة من أحد ذوي النُّفُوذ والرّئاسة من زُعماء اليهُود، وقد تمَّت السّرقة في نهاية اجتماع سرِّيٍّ مع هذا الرّئيس في فرنسا. ومن أجل الذين يُريدون أنْ يروا ويسمعوا فإنَّني أُخاطر بنَشْر هذا المخطوط تحت عُنوان "برُوتُوكُولات حُكَماء صهيُون"؛ وهي برُوتُوكُولات تتأرجح بين سُطُورها بغضاء دينيَّة وعُنصُريَّة عميقة الغور ومُتغطرسة..».

وقد طَبَعَ نيلوس من الطّبعة الأُولى نُسخاً قليلة، ولكنَّها كانت كافية لفَضْح نيَّات الصّهيُونيَّة، فَجُنَّ جُنُون اليهُود لهذا، وهبّوا في كُلِّ مكان يُعلنون أنَّ البرُوتُوكُولات ليست من عملهم، وأنَّها مُزيَّفة ومدسُوسة عليهم، ولكنَّ العالم لم يُصدِّق أقوالهم؛ لأنَّها تتوافق مع التّعاليم في التّوراة والتّلمود. وعمَّت المذابح ضدَّهم في رُوسيا؛ حتَّى لقد قُتل منهم ـ في إحداها ـ نحو عشرة آلاف.

وأعاد نيلوس نَشْرَ الكتاب في سنة **1905**، مع مُقدِّمة وتعقيب بقلمه، وَنَفَدَتْ هذه الطّبعة بسُرعة غريبة، وبوسائل خفيَّة؛ لأنَّ اليهُود قاموا بجَمْع نُسخها من الأسواق بكُلِّ الوسائل، وأحرقوها. ثُمَّ طُبع سنة **1911**، فَنَفَدَتْ النُّسخ بالطّريقة ذاتها، وحَدَثَ الشّيء نفسه في طبعة **1917**.

وكانت قد وَصَلَتْ نُسخة من طبعة **1905**، إلى المُتحف البريطانيّ بلندن، ومختوم عليها أنَّ المُتحف البريطانيّ قد تسلَّمها في **10** آب **1906**.

وبعد الحرب العالميَّة الأُولى سنة **1919**، ظهرت أوَّل ترجمة للبرُوتُوكُولات بالإنجليزيَّة، والمُترجم هُو فكتور مارسدن المُحرِّر في جريدة "المُورننغ بُوست" الإنجليزيَّة.

وهُناك روايتان تُفسِّران طريقة حُصُول مارسدن على نُسخة من البرُوتُوكُولات؛ تقول إحداها: إنَّه لمَّا قامت الثّورة البلشفيَّة طَلَبَت جريدة "المُورننغ بُوست" من مارسدن أنْ يُسافر إلى رُوسيا؛ لمُوافاتها بما يجري هُناك، فأخذ يتردَّد على المُتحف البريطانيّ ليقرأ بعض الكُتُب عن رُوسيا ـ قبل الذّهاب إليها ـ؛ فوقعت في يده نُسخة البرُوتُوكُولات الرُّوسيَّة الموجودة فيه، فذُهل لما فيها، وقرَّر ترجمتها.

وتقول الرّوايـة الثّانيـة: إنَّ مارسـدن سـافر إلـى رُوسيا مُراسلاً لجريدتـه خلال الحـرب العالميَّة الأُولى، ولمَّا وقعت الثّورة البلشفيَّة 1917، كان نشيطاً فـي مُوافـاة جريدتـه بأخبارهـا، فاعتُقل، وزُجَّ به في السّجن في عـهد كيرنسكي، وعندمـا أُطلق سراحه، عـاد إلـى لنـدن، ومعه زوجته الرُّوسيَّة، ويحمل نُسخة بالرُّوسيَّة من البرُوتُوكُولات التي كان قـد ترجمـها عـن أصلها العبري العالم الرُّوسي سرجي نيلوس.

وفي لندن، وفي قاعـة المُطالعـة بـالمُتحف البريطـانيّ، أقبـل مارسـدن علـى ترجمـة هـذا الكتاب سراًّ. ولمَّا فرغ منه نَشَرَهُ عام 1919، فكان في 85 صفحة من القطع المُتوسِّط، مـا عـدا المُقدِّمة والفهرس. وقد أُعيد نَشْرُ هذه التّرجمة عدَّة مرَّات، كانت الخامسة والأخيرة فيها سنة 1921، وكانت النُّسخ تختفي في كُلِّ مرَّة بسُرعة مُذهلة، ولم يجـرُؤ أحـد ـ بعـد عـام 1921 ـ على نَشْر البرُوتُوكُولات كما يقول المُؤرِّخ الإنكليزي (دغـلاس ريـد) فـي كتابـه "من الدُّخـان إلى الخَنْق"، وهُو عن الحَرَكات السِّرِّيَّة المُعاصرة.

وفي سنة 1919، تُرجم الكتاب إلى الألمانيَّة، ونُشر في برلين، ثُمَّ توقَّف طَبْعُهُ، بعـد أنْ جُمعت أكثر نُسخه، ورغم مُحاولات اليهُود إخفاء أمر البرُوتُوكُولات؛ إلاَّ أنَّها تُرجمت إلى لُغات عدَّة منها: الفرنسيَّة والإيطاليَّة والبُولُونيَّة، وكانت النُّسـخ ـ كالعـادة ـ تختفـي بأسـاليب مُحـيِّرة. ونَشَـرَتْ مجلَّـة "فرنسـا القديمـة" كتابـاً بعُنـوان "مُؤامـرة اليـهُود"، وإلـى جانبـه البرُوتُوكُولات، فحاول اليهُود مَنْعَهَا، فلمَّا عجزوا عن إقناعـها، أحرقـوا مطبعتـها. وكـانت من نتيجة كُلِّ هذا أنْ كـانت نُسـخ الكتـاب قليلـة جـداًّ. حتَّـى إنَّ النُّسـخة المكتوبـة علـى الآلـة الكاتبة كانت تُباع بثمانين جُنيهاً (أيْ بثمانين ليرة ذهبيَّـة؛ لأنَّ الجُنيـه الإنكليـزي كـان يُسـاوي ليرة ذهبيَّة في ذلك الوقت). وشاع أنَّه ما من أحد ترجم هذا الكتـاب، أو عمـل علـى إذاعتـه بأيَّة وسيلة، إلاَّ وانتهت حياته بالاغتيال أو الموت في ظرُوف غامضة.

وقد كُتبت المقالات والدّراسات الكثيرة عن الـبرُوتُوكُولات، ومـن أهمِّـها وأوفاهـا فـي تحليلها ومُقارنتها بأقوال زُعماء اليـهُود والأحـداث الجاريـة هُـو كتـاب جُـون تريـج سـكوت، الذي ظهر بالإنكليزيَّة سنة 1951، وقد تُرجم هذا الكتاب إلـى العَرَبيَّـة، ونَشَـرَتْهُ "دار النّصـر" بمصر سنة 1952، بعُنوان "الحُكُومة السِّرِّيَّة في بريطانيا".

والآن؛ مَنْ هُو واضع البرُوتُوكُولات؟

يُرجِّح الذين تصدّوا للبحث في البرُوتُوكُولات أنَّها وُضعت لتُقرأ في المُؤتمر الصّهيُوني الأوَّل، وتُقَرَّ، وتُصبح دُستُوراً للعاملين في الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، على ألاّ تُنشَر، وتبقى سرِّيَّة. ويبدو من أُسلُوبها أنَّها من وَضْع فرد لا جماعة، ويغلب على الظَّنِّ أنَّ صانعها هُو "أشرغنزبرغ"؛ وهُو يهُودي من أوديسا في أُوكرانيا على البحر الأسود، وفيها وُلد عام 1856، وتُوفِّي في تلّ أبيب عام 1927، وهُو بمثابة الأُستاذ الرُّوحي لحاييم وايزمن؛ أوَّل رئيس (لإسرائيل)، ووايزمن نفسه يعترف بهذا اعترافاً فيه اعتزاز ومُباهاة، وذلك في كتابه "التّجربة والخطأ" "Error and Trial"، وإنْ كان وايزمن يُنكر - في هذا الكتاب - أنَّ البرُوتُوكُولات هي من وَضْع "اشرغنزبرغ"، أو من وَضْع أحد من اليهُود.

وأشرغنزبرغ معروف باسمه الأدبي "أحدهاعام"، وهُو الاسم الذي كان يُوقِّع به كتاباته، ومعناه "واحد من النّاس". وقد حضر "أحدهاعام" المُؤتمر الصّهيُوني الأوَّل في بازل عام 1897، كما حضره هرتزل، ولكنَّهما اختلفا في الرّأي: فأحدهاعام كان يرى أنَّه يجبُ خَلْق رُوح التَّجمُّع والمُخاطرة والاقتحام في الشّعب اليهُوديّ لانتزاع الأرض، ومعنى هذه الدّعوة إراقة الدّماء، والتّدمير، وإقامة الهيئات السرِّيَّة، وهذا رُكنٌ من أهمِّ أركان البرُوتُوكُولات، وعن طريق القُوَّة يستطيعون الحُصُول على وطن لهم. أمَّا هرتزل؛ فكان يرى أنَّ الحُصُول على الأرض يأتي - أوّلاً - بالمال والانحدار (والمُوافقة السِّياسيَّة من الدُّول العُظمى).

وقد وَضَعَ "أحدهاعام" مُؤلَّفَيْن بالعبريَّة في الدّعوة إلى مُخطَّطه؛ وهُما: "مُوسى" و"على مُفترق الطُّرُق"، وأنشأ مُنظَّمة "بني مُوسى" لتخريج عدد من الشّباب كُلّ سنة، يحملون رُوحه وعقائده، ولم يكن يقبل في الدَّورة الواحدة أكثر من مئة شابٍّ، وكان وايزمن أحد تلاميذه، وإنْ كان يجمع في التّطبيق العملي بين تعاليم أحدهاعام، ودعوة هرتزل إلى الهجرة الواسعة وامتلاك الأرض.

وكُلُّ زُعماء الحَرَكَات الإرهابيَّة التي قامت في فلسطين هُم من تلاميذ "أحدهاعام"؛ ابتداءً من "جابوتنسكي" أُستاذ مناحيم بيغن (رئيس مُنظَّمة الأرغون الإرهابيَّة) وشتيرن (رئيس مُنظَّمة شتيرن الإرهابيَّة)، وكذلك إسحاق شامير، وانتهاء بكُلِّ العاملين في مُنظَّمات

الإرهاب والتّدمير، وكُلُّ المذابح الإرهابيَّة الوحشيَّة التي حَدَثَتْ في فلسطين ولُبنان من صُنْع مَنْ تتلمذ على يد أحدهاعام، أو ممَّنْ تشرَّب مبادئه وأهدافه[1].

وعلى كُلِّ حال؛ فإنَّ برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون لا تخرج عن تعاليم كُتُب اليهُود المُقَدَّسة "التّوراة والتّلمود"، ويُمكن مُقارنة كُلِّ فكْرة أو نصٍّ في البرُوتُوكُولات بمثيله في التّوراة والتّلمود، وفي أقوال حاخاماتهم وزُعمائهم المُعترَف بصُدُورها عنهم، وكُلُّها تُوجب على اليهُودي أنْ يستحلَّ كُلَّ وسيلة للوُصُول إلى غايته؛ حتَّى القَتْل. وقَتْلُ "الغُوييم"؛ أيْ غير اليهُود هُو قُربان إلى الله في رأي الرَّبَّانيِّين.

وهكذا؛ فمهما حاول اليهُود التَّنصُّل من تبعيَّة البرُوتُوكُولات لهم، فإنَّ العالم أجمع مُقتنع بأنَّها من وَضْعهم؛ لأنَّها لا تتعارض مع التّوراة والتّلمود، ولا تعدو تعاليم حاخاماتهم وحُكَمَائهم وزُعمائهم السِّياسيِّين.

ونظراً لأهمِّيَّة هذه البرُوتُوكُولات وبشاعتها وإعطائها صُورة حقيقيَّة عن اليهُود وسُلُوكهم وأخلاقهم وأهدافهم وطُرُق تحقيق هذه الأهداف، نُورد مُقتطفات من هذه البرُوتُوكُولات والتّعاليم[2]:

من البرُوتُوكُول الأوَّل:

«إنَّ خير النّتائج التي يُراد تحقيقها من التَّسلُّط على الغُوييم (الأغيار) إنَّما تكون بالعُنف والإرهاب، لا بالمجادلة النّظريَّة المجرَّدة. . ».

وكذلك: ***«مدار السِّياسة غير مدار الأخلاق، والحاكم الذي يخضع لنهج الأخلاق لا يكون سياسيّاً حاذقاً.. وإنَّما الحاكم اللّبيب يجبُ أنْ تتوافر فيه صفتان: الدّهاء النّافذ والمكر الخادع. . ».***

من البرُوتُوكُول السَّادس:

«سنشرع - دُون تأخُّر - في إنشاء أجهزة احتكاريَّة ضخمة، وحشد الثّروات، وتجميع الأموال؛ ليكون كُلُّ ذلك محصوراً بأيدينا.. وفي الوقت نفسه؛ تكون هذه القُوَّة هي المسيطرة على الكثير الوافر من ثروات" الغُوييم" ».

---

(1) مُنظَّمة شتيرن هي التي اغتالت الكُونت برنادوت الوسيط الدّولي بين العَرَب واليهُود عام 1948.

(2) اختار هذه المُقتطفات الدُّكتُور محمود السّمرة في مقاله عن البرُوتُوكُولات في مجلَّة العَرَبي، العدد 111، شُباط، 1968، ص 138.

من البرُوتُوكُول السَّابع:

«العامل الرّئيسي في نجاح خُططنا السّياسيَّة هُو: كتمان المساعي والمشروعات، وليس شرطاً أنْ تتَّفق أقوال السِّياسي مع أفعاله، ويجبُ إرغام حُكُومات الغُوييم على انتهاج الخُطَّة التي نُشير بها نحنُ.. وطريقة حمل تلك الحُكُومات على ما نُريد هُو التَّيار الذي يُقال عنه "الرّأي العام"، وهذا الرّأي العامُّ زمامه بيدنا، نُحرِّكه بالقُوَّة الكُبرى التي هي الصّحافة، التي نملكها، أو نُسيطر عليها». (وهذا هُو المُتحقِّق الآن من سيطرتهم على الصّحافة والرّأي العام في أورُوبا عامَّة؛ وأمريكا خاصَّة).

من البرُوتُوكُول الحادي عشر:

«الغُوييم قطيع من الغنم، ونحنُ ذئابهم، وأنتم تعلمون ماذا يحلُّ بالغنم إذا هاجمتْها الذّئاب».

من البرُوتُوكُول الثَّاني عشر:

«سنُعالج قضيَّة الصّحافة على النّحو التّالي:

1: *سنمتطي صهوتها، ونكبح جماحها، وسنفعل مثل ذلك بالنّسبة إلى المطبوعات الأُخرى؛ إذْ لا جدوى من تخلُّصنا من الحملات الصُّحُفيَّة إذا كُنَّا مُعرَّضين للنّقد عن طريق المنشورات والكُتُب.*

2: *لن يصل أيُّ إعلان للنّاس إلاَّ بعد مُراقبتنا، وقد تمكَّنَّا من تحقيق ذلك الآن؛ إلى الحدّ الذي لا تصل فيه الأنباء إلاَّ عبر الوكالات المُختلفة المُتمركزة في مُختلف أنحاء العالم،* (واليهُود يُسيطرون على مُعظمها الآن).

والأدب والصّحافة قُوَّتان تعليميَّتان وتوجيهيَّتان كبيرتان، وستُصبح حُكُومتنا مالكة لمُعظم الصُّحُف والمجلاَّت.. وإذا سمحنا بظُهُور عشر مجلاَّت مُستقلَّة، فيجبُ أنْ يكون لنا ثلاثون مجلَّة مُقابلها. ولن نجعل النّاس يشكُّون في سيطرتنا على هذه الصُّحُف والمجلاَّت. ولذا؛ فسنجعلها من النّوع الذي يُناقض بعضه بعضاً في الأفكار والاتّجاهات؛ لنحصل على

ثقتهم، ولنجتذب خُصُومنا الذين لا يتطرَّق إليهم الشَّكُّ في قراءتها؛ فيقعون في الشّرك الذي نصبناه لهم، ويفقدون كُلَّ قُوَّة على الإضرار بنا.

(وهذا هُو الحاصل تماماً ـ الآن ـ من سيطرة اليهُود على الصّحافة العالميَّة، وبالتّالي؛ على الرّأي العامِّ العالمي، وتوجيهه لخدمة أهدافهم، وتحقيق مصالحهم).

من البرُوتُوكُول الرَّابع عشر:

«*متى وَلَجْنَا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا أنْ يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهُو دين الله الواحد، المُرتبط به مصيرنا من حيثُ كوننا "الشّعب المُختار"، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا، فيجبُ علينا أنْ نكنس جميع الأديان على اختلاف صُورها. وهذا الأمر موكول إلى محافل الماسُون، وإلى اليهُود الذين يدخلون المسيحيَّة لنسفها من الدّاخل*»؛ (مثل يهُود الماران في إسبانيا، ويهُود الدُّونمة في تُركيا؛ الذين دخلوا وانتسبوا إلى المسيحيَّة، وإلى الإسلام، لتشويه صُورتَيْهما، ونَسْفهما من الدّاخل. وكذلك الماسُونيَّة التي هي يهُوديَّة قلباً وقالباً).

ومن البرُوتُوكُول الخامس عشر:

«*وسنذبح ـ بلا رحمة ـ جميع الذين يحملون السّلاح؛ ليقاوموا الانضواء إلى مملكتنا*»، (وهذا هُو الحاصل ضدَّ شعبنا العَرَبي الفلسطيني، والشُّعُوب العَرَبيَّة المُجاورة).

ومن البرُوتُوكُول السَّابع عشر:

«*وسننتقي جواسيسنا من مُختلف الطّبقات العُليا والسُّفلى، ومن رجال الإدارة العاكفين على اللّهو، ومن مُحرِّري الصُّحُف، والكُتَّاب، والنّاشرين، وباعة الكُتُب، ومُوظَّفي الدّوائر والدّواوين، ومن الذين كثر اختلاطهم بالجُمهُور عن طريق الأخذ والعطاء، والبيع والشّراء*»، (ولهذا السّبب أصبحت المُخابرات الإسرائيليَّة "المُوساد" من أقوى أجهزة المُخابرات في العالم).

ومن كتاب "اليهُوديّ العالمي"[1] انتقينا الفقرات التّالية من برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون التي استشهد بها المُؤلِّف هنري فُورد لبيان الخطر اليهُوديّ العالمي:

---

(1) كتاب (اليهُوديّ العالمي) تأليف هنري فُورد، وتعريب خيري حمَّاد، طبعة دار طلاس، عام 1991، وسنقوم بدراسة عن هذا الكتاب ـ فيما يلي ـ إنْ شاء الله.

من البرُوتُوكُول الرَّابع: صفحة 73 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«لهذا؛ علينا أنْ نزرع الألغام لتهديم الأديان، و أنْ نمحو من عُقُول الغير مبادئ الله والرُّوح، و أنْ نبدِّل هذه المبادئ بحسابات رياضيَّة، ورغبات مادِّيَّة».

من البرُوتُوكُول الخامس: صفحة 137 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«وفي وُسع تحالف عالمي من الأغيار أنْ يصمد لنا مُؤقَّتاً، ولكنَّنا على ثقة من النّتيجة؛ بسبب وُجُود الجُذُور العميقة من الخلافات بينهم؛ بحيثُ يصعب اجتثاثها. وقد خلقنا الحزازات الدِّينيَّة بين المصالح الشّخصيَّة والقوميَّة للأغيار عن طريق إثارة الصّدامات الدِّينيَّة والعُنصُريَّة التي غذَّيناها في قُلُوبهم عشرين قرناً».

ومن البرُوتُوكُول السَّابع: صفحة 183 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«وعلينا أنْ نكون في موقف القادر على مُواجهة كُلِّ عملٍ من الأعمال المُعارضة لنا، و أنْ نُجيب على ذلك بحَمْل جيران الدّولة التي تجرؤ على مُعارضتنا على حَرْبها. أمَّا إذا وَضَعَ هؤلاء الجيران مُخطَّطهم على أساس الوُقُوف ضدَّنا بصُورة جماعيَّة؛ فعلينا أنْ نُطلق الحرب الكونيَّة من عقالها، و أنْ نستغلَّها».

(وهذا ما حَدَثَ في الحربَيْن العالميَّتَيْن الأُولى والثَّانية؛ حيثُ كان لليهُود يدٌ نافذة في إشعالهما؛ الأُولى للخلاص من الدّولة العُثمانيَّة التي رَفَضَتْ إعطاءهم فلسطين وطناً قومياً، والثَّانية للخلاص من ألمانيا التي أعلنت العداء السّافر لليهُود).

ومن البرُوتُوكُول السَّابع أيضاً: صفحة 31 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«علينا أنْ نُرغم حُكُومات الأغيار على اتِّخاذ إجراءات تُؤدِّي إلى تشجيع خُطَّتنا الشّاملة، والتي أخذت ـ الآن ـ في الدُّنُوِّ من هدفها الظّافر، وذلك عن طريق فَرْض الضّغط الذي يقوم به الرّأي العامُّ المُتحمِّس، والذي أتْمَمْنَا ـ في الواقع ـ تنظيمه؛ بمُساعدة ما يُسمَّى "بقُوَّة الصّحافة الكُبرى"، وإذا ما استثنينا بعض الصُّحُف التي لا تستحقُّ العناية، فإنَّ جميعها قد غدتْ خاضعة لنا، وتحت تصرُّفنا».

ومن البرُوتُوكُول الثَّامن: صفحة 161 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«*وسنُحيط حُكُومتنا بعالم كامل من الاقتصاديِّيْن*، (ولهذا السّبب؛ فإنَّ علم الاقتصاد هُو الموضوع الرّئيسي للتّعليم عند اليهُود)، *وسَنُحَاط بكواكب ساطعة من أرباب البُنُوك، ورجال الصّناعة، والرّأسماليِّيْن، ولا سيما أصحاب الملايين، وذلك لأنَّ كُلَّ شيء سيتقرَّر في الواقع على ضوء الأرقام*».

ومن البرُوتُوكُول الحادي عشر: صفحة 167 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«*لقد مَنَحَنَا الله ـ نحنُ شعبه المُختار ـ نعمة التّشتيت، لا ريب في أنَّ هذا الوَضْع ـ الذي بدا للجميع على أنَّه مظهر من مظاهر ضعفنا ـ هُو ـ في الحقيقة ـ السّبب الكُلّيُّ لقُوَّتنا، فقد أوْصَلَنَا إلى عتبة الحُكْم العالمي*»، (وذلك لأنَّ انتشار اليهُود في مُعظم دُول العالم ـ وخاصَّة دُول أُورُوبا وأمريكا ـ يجعل تحكُّمهم وتسلُّطهم على دولة أسهل من أنْ يكونوا في دولة واحدة؛ إذْ كيف يستطيعون السّيطرة على دولة ليس لهم وُجُود فيها؟!).

ومن البرُوتُوكُول الرَّابع عشر: صفحة 377 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«*ومن هُنا؛ هذا البون بيننا وبين الأغيار في القُدرة على التّفكير والنّجاح، فالمنطق يُجوِّز لنا أنْ نرى القرار بأنْ نكون "شعب الله المُختار"، وأنْ نكون مخلوقات بشريَّة رفيعة، إذا ما قُورنَّا بالأغيار الذي يتميَّزون بعُقُول حيوانيَّة غريزيَّة، فهُم يُلاحظون، ولكنَّهم لا يستشفُّون الغيبَ، وهُم لا يخترعون شيئاً إلَّا الأشياء الماليَّة. ويبدو من هذا أنَّ الطَّبقيَّة نفسها هي التي قدَّمت لنا أنْ نحكم العالم، ونُوجِّهه*». (انظر معي ـ أيُّها القارئ الكريم ـ إلى هذه العُنصُريَّة المُفرطة في التَّعصُّب، وهذه العنجهيَّة المُفرطة في التَّكبُّر والاستعلاء).

ومن أخطر ما جاء في هذه البرُوتُوكُولات ما وَرَدَ في البرُوتُوكُول التّاسع والعاشر والثّالث عشر.

فمن البرُوتُوكُول التّاسع: صفحة 309 ـ 310 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«*رغبة منَّا في عدم تحطيم مُنظَّمات الأغيار قبل الأوان، وَضَعْنَا أيدينا الفعَّالة القديرة عليها، وأمْسَكْنَا بزمام قُوتّها الآليَّة. ولقد كانت هذه المُنظَّمات ـ في السّابق ـ في وَضْع صحيح*

وصادق، ولكنّنا استعضْنَا عن هذا الوَضع بإدارة إلزاميَّة تفتقر ـ كُلّيَة ـ إلى التّنظيم. وقد عَبَثْنَا بالقوانين، والأنظمة الماليّة، والصّحافة، وحُرِّيَّة الفرد، كذلك بما هُو أهمّ من كُلِّ ذلك؛ وهُو التّعليم والثقافة، وهُو حجر الزّاوية في الوُجُود الحُرّ».

ومنه أيضاً:

«وقد تمكَّنّا من تضليل الشّباب من الأغيار، وإفسادهم خُلُقيّاً، وَحَمْلهم على البلادة؛ عن طريق تعليمهم المبادئ والنّظريّات التي نعتبرها نحنُ باطلة، على الرّغم من إيماننا بها».

ومنه أيضاً:

«وقد تمكَّنّا ـ مع وُجُود القوانين الحاليَّة، ودُون أنْ نُحدث فيها تبديلاً واقعيّاً ـ ولكنْ؛ عن طريق تحريفها بالتّفاسير المُتناقضة، وخَلْق شيء عجيب في طريق النّتائج».

ومنه أيضاً: صفحة 351 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«يقف النّاس من أصحاب مُختلف الآراء والعقائد في خدمتنا؛ سواء منهم المَلكيُّون، والغُوغائيُّون، والاشتراكيُّون، والشُّيُوعيُّون، وغيرهم من الطُّوبائيِّيْن، وقد حملناهم جميعاً على العمل، فكُلُّ واحد منهم يُحاول تحطيم آخِرِ مظهر من مظاهر السُّلطة من الزّاوية التي يراها، ويعمل على قلب النّظام القائم. وقد لقيتْ جميع الحُكُومات العذابَ من هذه الأعمال، ولكنّنا لن نمنحهم الطّمأنينة، حتّى يعترفوا جميعاً بسيطرتنا المُطلقة».

ومن **البرُوتُوكُول العاشر**: صفحة 273 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«لنُهلكَ كُلَّ إنسان بالمُنازعات، والعداوات، والحزازات، والمجاعة، وانتشار الأوبئة، والعَوَز، والفاقة، حتّى يجد الأغيار أنْ لا مناصَ لهم من مُناشدتنا العونَ المادّيَّ والسُّلطان».

ومن أخطرها حقّاً ما جاء في **البرُوتُوكُول الثّالث عشر**: صفحة 329 (من كتاب اليهُودي العالمي):

«وسنعمل للحيلولة دُون قيام الأغيار بأيِّ تفكير حقيقي نابع عن ذاتهم، وذلك بتوجيه اهتماماتهم إلى مجالات: اللّهو، واللّعب، والتّسلية، والإثارة الجنسيَّة. ومثل هذا

الاهتمام سيصرف عُقُولهم تماماً عن القضايا التي نجد أنفسنا مُضطرِّين إلى مُكافحتـهم فيـها. وإذا ما غدوا ـ شيئاً فشيئاً ـ أقلّ اعتباراً للتّفكـير المُستقلّ؛ فإنّـهم سيُعَبِّرون عـن أنفسهم بطريقة لا تختلف عن تعبيرنا نحنُ (أي يُفَكِّرون بما نُريد) لأنّنا ـ نحنُ وحدنا ـ نستطيع أنْ نعرض خُطُوطاً جديدة من الفكْر، وبالطّبع؛ عن طريق أشخاص لا يعتبرونهم ـ بأيّ شكل من الأشكال ـ من ذوي العلاقة بنا».

هُنا غيض من فيض ممَّا جاء في هذه البرُوتُوكُولات الخطيرة على المُجتمع البشري عامَّة، وعلى العَرَب خاصَّة. وهي تطفح بأساليب المكر والخداع والدّهاء والنّفاق التي يقوم بـها اليهُود للوُصُول إلى أهدافهم في السّيطرة على العالم. ولذلك حاولوا ـ بشتَّى الوسائل ـ عدم نَشْرها، وعندما لم يُفلحوا بذلك، وفُضح أمرها، أنكروها، وتبرَّؤوا منها، ولكنَّ العالم أدرك صحَّة انتسابها إليهم؛ لأنَّها تتطابق تطابقاً كاملاً مع ما جاء في توراتهم وتلمودهم.

والغريب العجيب أنَّ الدُّول الأُورُوبيَّة الغربيَّة والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة تقوم بتنفيذ كُلِّ مخططاتهم حَرْفياً، مع أنَّها هي أوَّل مَنْ كَشَفَ وَعَرَفَ هذه البرُوتُوكُولات، حتَّى إنَّ كَشْفَهَا أدَّى إلى مذابح ذَهَبَ ضحيَّتها آلاف اليهُود في رُوسيا وبُولُونيا[1].

وقد بدأ اليهُود بتنفيذ مُخطَّطهم بإنشاء دولتهم في فلسطين، مُستخدمين طريقة الإغراء والمال التي نادى بها هرتزل، وطريقة التَّجمُّع والاقتحام التي تبنَّاها "أحدهاعام"، ونفَّذها

---

(1) ولِمَنْ يُريد الاطِّلاع على برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون بشكل كامل ومُفصَّل؛ فقد صَدَرَ في موضوعها الكُتُبُ التَّالية:
كتاب "الخطر اليهُودي وبرُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، ترجمة الأُستاذ مُحَمَّد خليفة التُّونُسي، والنّاشر "دار الكتاب العَرَبي"، بيروت.
"برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، للأُستاذ عجاج نُويهض، مع تعليقات كثيرة، تتناول كُلَّ ما له صلة بالبرُوتُوكُولات من قريب أو من بعيد. وهُو مُؤلَّف من مُجلَّدَيْن وأربعة أجزاء، وقد قامت "مُؤسَّسة طلاس للنّشر" بإعادة طبعه الطّبعة السَّابعة عام 1993.
وكتاب "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون وتعاليم التّلمود" للأُستاذ شوقي عبد النّاصر، إصدار مُؤسَّسة "دار الكتاب الحديث"، بيروت.
كما سيصدر لنا ـ إنْ شاء الله ـ كتاب بعنُوان (أضواء على برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون النُّصُوص الكاملة دراسة تحقيقيَّة تاريخيَّة مُعاصرة)، وسيصدر عن دار الأوائل، دمشق، 2004، وسنشرح فيه كيف اكتُشفت البرُوتُوكُولات، ومَنْ كَتَبَهَا، وسنقوم بدراسة شافية عنها، ونُظهر ما تحقَّق منها، وما يُنْتَظَر تحقيقه.

تلميذه جابوتنسكي[1] ؛ وذلك باستخدام القُوَّة والهُجُوم. (وهُو ـ كما مرَّ معنا ـ المُنظِّم الأوَّل لجميع المُنظَّمات الإرهابيَّة اليهُوديَّة السِّرِّيَّة في فلسطين، تحت بَصَر وسَمْع حُكُومة الانتداب البريطانيَّة في فلسطين).

ولابُدَّ لي ـ بعد التَّحدُّث عن برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون ـ من تقديم دراسة خطيرة جداً حول كتاب "اليهُوديّ العالمي"، الذي نقلنا عنه بعض المُقتطفات من برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون.

وهي دراسة تُعطينا فكْرة واضحة موضوعيَّة عن مدى تغلغل النُّفُوذ اليهُوديّ في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بصُورة خاصَّة، وفي العالم بصُورة عامَّة.

اليهُوديّ العالمي[2]:

(المُشكلة الأُولى التي تُواجه العالم):

(تعليق على كتاب اليهُوديّ العالمي "تأليف هنري فُورد" من الدُّكتُور محمود السّمرة):

يقول الدُّكتُور محمود السّمرة في تعليقه على هذا الكتاب: «هذا الكتاب كان له صدى بالغ عندما بدأت فُصُوله تظهر تباعاً عام 1921، في صحيفة "ديربورن اندبندت **Dearborn Inddependent**"، وهي الصّحيفة النّاطقة باسم شركة فُورد للسَّيَّارات، فقد وقف الأمريكيُّون مذهولين أمام المدى الذي وَصَلَتْ إليه السّيطرة اليهُوديَّة على مُقدَّرات الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة والعالم، كما نشط اليهُود يُحاربون ملك السَّيَّارات المليونير هنري فُورد بكُلِّ ضراوة وشراسة.

والمعركة ـ في حقيقتها ـ تنافس على السّيطرة؛ فاليهُود كانوا قد أحكموا تطويق الاقتصاد الأمريكي، فجاء هنري فُورد يُحاول أنْ يكسر هذا الطَّوْقَ، ويُحرِّر الاقتصاد الأمريكي من تبعيَّته لهم، ولكنَّ نتيجة المعركة أثبتت الحقيقة المُرَّة التّالية وهي: أنَّ اليهُود

(1) جابوتنسكي من مواليد أُوديسا عام 1880، وتُوفِّي في فلسطين عام 1940.

(2) كتاب "اليهُوديّ العالمي" هُو تأليف الثّري الأمريكي المشهور هنري فُورد صاحب مصانع سيَّارات فُورد، نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّة الأُستاذ خيري حمَّاد، وأصدرتْهُ دار الآفاق الجديدة (بيروت) عام 1991، ثُمَّ أعادت إصداره دار طلاس عام 1993، بالاتِّفاق مع دار الآفاق الجديدة. قام الدُّكتُور محمود السّمرة بدراسة وتعليق على هذا الكتاب في مجلَّة العَرَبي، العدد 107، تشرين أوَّل، 1967، والدُّكتُور السّمرة أُستاذ في الجامعة الأُردُنيَّة.

كانوا قد بلغوا من القُوَّة والنُّفُوذ درجة لم يستطع حتَّى الصّناعي المشهور والثّري الكبير أنْ يقف أمامهم، ذلك لأنَّه ـ أخيراً ـ استخذل، ونزل عند إرادتهم، وقام اليهُود بجَمْع كُلّ ما وقعتْ عليه أيديهم من نُسخ الكتاب، كما هي عادتهم دوماً مع كُلّ كتاب لا يرضون عنه.

وهذا الكتاب شأنه شأن برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون يجعل اليهُود وراء كُلّ حَدَث عالمي هامٍّ، بحيثُ يبدو للقارئ وكأنَّهم قادرون على كُلّ شيء.

وإذا كان هذان الكتابان يُثيران مخاوف غير اليهُود وكراهيَّتهم؛ وهُما (برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، واليهُوديّ العالمي) فإنَّهما ـ في الوقت نفسه ـ يخدمان اليهُود ـ حسب رأي الدُّكتُور السّمرة ـ وذلك بإسباغ كُلّ هذا النُّفُوذ وهذه القُدرة عليهم، بحيثُ يصيح المرء قائلاً: هؤلاء قوم لا قبَلَ لنا بهم.

إنَّ الإقلال من درجة نُفُوذ اليهُود خطأ، كما أنَّ المُغالاة في تقديره لدرجة تشلُّ قُدرتنا على العمل خطأ أكبر، وضرره أعظم[1].

ومُصطلح "اليهُوديّ العالمي" يُوحي بمعنيَيْن: اليهُوديّ الموجود في أيّ مكان من العالم، أو اليهُوديّ المُسيطر على العالم. والمعنى الثّاني هُو المقصود من عُنوان الكتاب.

ومن الحقائق الهامَّة عن اليهُود في أمريكا أنَّ مدينة نيُو يُورك أصبحت ـ مُنذُ عام 1914 ـ أعظم مركز لليهُود في العالم، وكانت عاصمتهم قبلها باريس، ثُمَّ لندن[2].

وقد بدأ اليهُود في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بتوجيه جهدهم للسّيطرة على الصّحافة والمسرح والسّينما، بُغية توجيه الذّوق العامّ، والتّأثير في الجماهير دعاية لقضاياهم. والواقع

---

(1) ولدينا مثال على عدم المُبالغة والمُغالاة في قُدرات اليهُود هُو: حرب تشرين التّحريريَّة عام 1973م، عندما قامت سُوريَّة ومصر بمُباغتة (إسرائيل) بهُجُوم أذهل (إسرائيل)، وأدهش العالم، واشتركت فيه الدُّول العَرَبيَّة في تضامن رائع ووحدة أعادت للأُمَّة العَرَبيَّة ثقتها بنفسها وبقُدراتها.

(2) لاحظْ من كلام الدُّكتُور السّمرة كيف أنَّ اليهُود ركبوا ظهر فرنسا بعد الثّورة الفرنسيَّة؛ مُستفيدين من مبادئ الثّورة الفرنسيَّة في الحُرّيَّة والمُساواة، ومن مركز فرنسا في أُورُوبا؛ حيثُ كانت أقوى قُوَّة ضاربة فيها، ثُمَّ بريطانيا أيَّام دزرائيلي اليهُوديّ المُتنصّر عندما أصبحت أكبر دولة استعماريَّة في العالم، ثُمَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة عندما خرجت من الحرب العالميَّة الثَّانية أقوى دولة في العالم عسكريّاً واقتصادياً.

أنَّه تمَّ لهم تكييف الرّأي العامِّ في أمريكا على الصُّورة التي يُريدونها، حتَّى كَتَبَ صُحُفي أمريكي هُو "أمريكانوس" 1948، يقول: « في وُسع الإنسان أنْ يقول ـ بسُهُولة ـ : إنَّ الثّقافة الأمريكيَّة ـ في مجموعها ـ قد اتَّخذت صُوراً يهُوديَّة مُعيَّنة ».

واليهُود يُسيطرون على اقتصاد الولايات المُتَّحدة، فَبِيَدهم 70٪ من صناعة اللُّحُوم المُعلَّبة، وأكثر من 60٪ من صناعة الأحذية، ومُعظم صناعات الأدوات المُوسيقيَّة، والمُجوهرات، والفُولاذ، وتجارة الحنطة، والقطن، والزُّيُوت، والمشروبات الرُّوحيَّة، والأهمُّ من ذلك أنَّهم المُسيطرون على المصارف، وهُم مانحو القُرُوض، ومنهم جُلُّ المُحامين.

ورغم هذه السّيطرة على الحياة الأمريكيَّة، فإنَّ اليهُود يعيشون حياتهم الخاصَّة بهم، ويُحسُّون بالتَّفوُّق على الشّعب الأمريكي، ويسكنون مُنعزلين عن الآخرين في أماكن تُعرَف باسم "الغيتُو Ghetto" كما كانوا يعيشون في أُورُوبا. ومع أنَّهم هُم الذين آثروا العيش في أحياء خاصَّة بهم للسّبب الذي أشرنا إليه، إلاَّ إنَّهم يستخدمون "الغيتُو" للدّعاية لأنفسهم، وإثارة العطف عليهم؛ مُدَّعين أنَّ الباعث على هذه العُزلة اضطهاد الآخرين لهم. ويكفي لتصوُّر إحساس اليهُود بالتَّفوُّق والكراهيَّة للآخرين أنَّهم يُقسِّمون البشر إلى قسمَيْن: اليهُود وغير اليهُود.

والنّموذج الأمثل لليهُودي في نَظَر اليهُود هُو ذاك الذي يعيش في "الغيتُو"، ولهذا يُحذِّر زُعماؤهم اليهُودَ الذين يقطنون مع الآخرين من الاندماج في حياتهم، واكتساب عاداتهم.

وكما يستخدم اليهُود "الغيتُو" الذي هُو من صُنْع أيديهم لإثارة العطف عليهم، فإنَّهم يستعملون كلمة "الاضطهاد الدِّيني" للغاية نفسها، بينما ـ في الحقيقة ـ هُم المُضْطَهِدين، وليس المُضْطَهَدين. وكلمة "الاضطهاد الدِّيني" كانت جواز مُرُورهم عند بدء هجرتهم إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، فقد كانوا يُثيرون مشاعر العطف عليهم بادِّعائهم أنَّ هجرتهم إنَّما هي فرار من الاضطهاد. وهذه الدّعوى نفسها كانت حُجَّتهم في الهجرة إلى فلسْطين، وهي دعوى ليست سوى ستار لإخفاء اغتصابهم لأراضي وثروات العَرَب.

وقد أطلق اليهُود على عداء الآخرين لهم اسم "اللاَّسامية" ؛ أيْ أنَّ العداء وُجِّه ضدَّهم لأنَّهم ساميُّون[1][2].

وولاء اليهُوديّ هُو أوَّلاً وأخيراً ليهُوديَّته، وتُؤكِّد هذه الحقيقة أقوال زُعمائهم، فيقول ليوان ليفي: «إنَّ اليهُوديّ الذي يُولد يهُودياً يظلُّ كذلك حتَّى لو بدَّل دينه بدين آخر».

ويقول مُوسى هيس: «إنَّ كُلَّ يهُودي - سواء أَرَغبَ أم لم يرغب - مُرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقوميَّة اليهُوديَّة كُلِّها».

ووَرَدَ في "دليل الصّهيُونيَّة": «اليهُوديّ غير المُتديِّن يظلُّ يهُوديّاً، ولا يستطيع إلاَّ بمشقَّة كبيرة الخلاص من الولاء لقوميَّته عن طريق إنكاره يهُوديَّته»، (بسبب تشرُّبه سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم مُنذُ صغره).

ويتجلَّى النُّفُوذ اليهُوديّ في أمريكا في مُنظَّمتَيْن هما: مُنظَّمة "كهيلا نيُو يُورك" و"اللّجنة اليهُوديَّة - الأمريكيَّة" وفي ثلاث قَصَص لشخصيَّات تُظهر مدى النُّفُوذ اليهُودي في أمريكا أيضاً.

أوَّلاً: كهيلا نيُو يُورك:

تعني كلمة "كهيلا" "المُجتمع، أو الجمعيَّة، أو الحُكُومة". ولهذه المُنظَّمة التّأثير الأوَّل في الحياة السِّياسيَّة في نيُو يُورك خاصَّة، وهي في نيُو يُورك حُكُومة داخل حُكُومة. وهذه المُنظَّمة هي أضخم اتِّحاد لليهُود في العالم. وهي - بواقعها - تُؤكِّد أنَّ كُلَّ ما يُشاع عن وُجُود انقسام بين اليهُود غير صحيح.

وقد استمرَّ نُفُوذ الكهيلا في الازدياد؛ حتَّى إنَّ عدد المُنظَّمات التّابعة لها بلغ عام 1921، أكثر من ألف مُنظَّمة. وفي الكهيلا تختفي الظُّرُوف الطَّبَقيَّة بين اليهُود، ويرتبط الجميع في تضامن عجيب: فمثلاً حضر مُؤتمر عام 1918، كبار رجال المصارف والمُحامين

---

(1) السّاميَّة التي يدَّعيها اليهُود غير صحيحة، فإنَّهم من أُصُول عرْقيَّة عديدة، لا تمتُّ للسّاميَّة والسّاميِّين بصلة كما أسلفنا في فُصُول سابقة، وقدَّمنا البراهين القاطعة على ذلك.

(2) كُنَّا قد أشرنا إلى كتاب مُهمٍّ هُو(مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها) للفرنسي برنار لازار، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004، فليُراجعه مَنْ أراد.

والصّناعيِّين والصُّحُفيِّين والقُضاة، إلى جانب أعضاء عاديِّين. لقد جلس صاحب جريدة "نيُو يُورك تايمز" إلى جانب مُحرِّر صغير في صحيفة هزيلة تصدر بلُغة "الإيديش" (وهي لُغة خاصَّة باليهُود المُقيمين في أُورُوبا الوُسْطَى، ثُمَّ نقلوها معهم إلى أمريكا).

وقد وسَّعت الكهيلا أعمالها ونُفُوذها عالميّاً، وأصبحت تُعرَف اليوم باسم "المُؤتمر اليهُوديّ العالمي".

ثانياً: اللّجنة اليهُوديّة الأمريكيّة:

لقد برزت هذه المُنظَّمة إلى الوُجُود عام **1906**، للدّفاع عن اليهُود ضدّ تُهمة الإتجار بالرّقيق الأبيض (وهي تجارة اشتُهر بها اليهُود مُنذُ القدَم). وهي تُهمة وجَّهها لليهُود في نيُو يُورك الجنرال "بنغهام" مُدير شرطة المدينة آنذاك. وقد وَرَدَ في تقرير الجنرال أنَّ خيرة الأُسَر اليهُوديَّة الثَّريَّة إنَّما جَمَعَتْ ثرواتها الضّخمة عن هذا الطّريق. وجاء في تقريره - أيضاً - أنَّ **50٪** من الجرائم التي تقع في المدينة الضّخمة هي من صُنْع اليهُود.

وقد نشطت هذه اللّجنة مع "كهيلا نيُو يُورك" تُدافعان عن اليهُود بضراوة، ونجحتا لدرجة أنَّ الجنرال اختفى من الحياة العامَّة، وطُويَ ملفُّ التّحقيقات الرّسميَّة.

وتضمُّ هذه اللّجنة في عُضويَّتها أصحاب أكثر الصُّحُف نُفُوذاً، ومُوظَّفي الحُكُومات والإدارات في الولايات والمُدُن، والمُوظَّفين البارزين الذين يُسيطرون على المجالس العامَّة، والاتِّحادات التّجاريَّة، والقُضاة، ومُوظَّفي دوائر الشّرطة، ورجال المال، ومُجيري المصارف، والمُؤسَّسات التّجاريَّة والصّناعيَّة، وزُعماء العُمَّال، ومُنظِّمي الأحزاب السِّياسيَّة من كُلِّ لون وشكل.

والحقيقة أنَّ هذه اللّجنة (أيْ اللّجنة اليهُوديَّة الأمريكيَّة) و"الكهيلا" شيء واحد تُكمِّل إحداهما الأُخرى، ولهما أهداف مُعلنة مُحدَّدة؛ منها: الحيلولة دُون المساس بالحُقُوق المَدَنيَّة والدِّينيَّة لليهُودي في أيِّ جُزء من أجزاء العالم (وليس في الولايات المُتَّحدة فقط) وتقديم المُساعدات اللاَّزمة لهم حيثُما كانوا.

ولم يكتف اليهُود بأنْ يكون لهم مُنظَّماتهم الخاصَّة بهم، بل تسلَّلوا إلى المُنظَّمات غير اليهُوديَّة؛ ليُسيطروا عليها من وراء السّتار، ومثل هذه المُنظَّمات قدَّمت لليهُود

خدمات جُلَّى ؛ لأنَّها كانت تذهب في تأييدها إلى أبعد ممَّا تستطيع أنْ تذهب إليه المُنظَّمات اليهُوديَّة .

ومُنظَّمة "تاماني" خير مثال على هذا : فهي مُنظَّمة سياسيَّة ظهرت عام 1800 ، وسيطرت على مدينة نيُو يُورك ، وكانت أقوى مُنظَّمة سياسيَّة عرفتها الولايات المُتَّحدة في تاريخها ، وكانت زعامتها أوَّلاً بيد الإيرلنديِّين ، ولكنَّ هذه المُنظَّمة لم تلبث أنْ أصبحت عُنواناً للخداع السِّياسي ، بعد أنْ تسلَّل اليهُود إلى صفُوفها .

وقد بدأ تفكير اليهُود بالسّيطرة على "تاماني" عندما جاء المالي اليهُوديّ الألماني "شوينبرغ" إلى أمريكا مُمثِّلاً لمصالح "آل روتشيلد"[1] ، فَهَالَهُ أنْ يرى أنَّ أقوى مُنظَّمة سياسيَّة في أكبر مدينة يهُوديَّة ليست يهُوديَّة . وهكذا أخذ يسعى حتَّى أصبح عُضواً في "تاماني" ، ولم يلبث أنْ أصبح زعيم هذه المُنظَّمة من وراء السّتار ، بسبب إغداقه الأموال عليها ، كما فتح الطّريق أمام كبار أصحاب المال والمُحامين والسِّياسيِّيْن من اليهُود ؛ ليُصبحوا أعضاء فيها ، ويُسيطروا عليها . وعن طريق هذه المُنظَّمة سيطروا على الحياة السِّياسيَّة والقضائيَّة وعلى المحكمة العُليا ، وبَلَغَ من نُفُوذهم أنْ ضمنوا النّجاح في الانتخابات لأيِّ مُرشَّح يهُودي مهما كان الصَّفُّ الذي يقف فيه .

وليس أدلّ على المدى الذي بلغه نُفُوذ اليهُود في الولايات المُتَّحدة من هاتَيْن القصَّتَيْن : قصَّة "برنارد باروخ" ، وقصَّة "جيمس غُوردُون بنيت" .

قصَّة برنارد باروخ:

باروخ يهُوديٌّ وُلد في العقد السَّابع من القرن الماضي في ولاية كارولينا الجنوبيَّة لأب كان يعمل طبيباً ؛ هُو الدُّكتُور سيمون باروخ ، وتخرَّج برنارد في جامعة نيُو يُورك ، واقتحم

(1) صَدَرَ حديثاً كتاب مُهمٌّ جداً ، يشرح فيه مُؤلِّفه الكاتب الأمريكي المشهور جيم مارس الدَّور الحقيقي للعائلات المُتحكِّمة باقتصاد أمريكا ، وأشهر المُنظَّمات السِّرِّيَّة القديمة والحديثة ، كما يشرح الأسباب الحقيقيَّة للحُرُوب العالميَّة ، والاغتيالات السِّياسيَّة لأشهر زُعماء العالم ، ويُفسِّر سيطرة الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة - مُنذُ القديم - على مُقدَّرات العالم ، وهُو كتاب (الحُكم بالسِّرِّ التَّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سرّاً؟!) ، ترجمة مُحمَّد مُنير إدلبي ، دار الأوائل ، دمشق ، ط1 ، وط2 ، 2003 ، وط3 ، 2004 .

"وول ستريت" شارع المال في نيو يُورك؛ حيثُ عمل كاتباً وسمساراً، وأخذ يرتقي دُنيا المال، إلى أنْ احتلَّ مقعداً في بُورصة الأوراق الماليَّة، ولعب دوراً في شراء عدد من شركات التّبغ، وشركات النُّحاس، والفُولاذ، والمطَّاط، وصهر المعادن، وكان العامل الرّئيسي في إقامة صناعة المطَّاط الضّخمة في المكسيك، وهكذا جمع باروخ ثروة ضخمة.

ولا نعرف كيف اتَّصل باروخ بالرّئيس الأمريكي "ولسون"، ولكنَّنا نعرف أنَّه كان في الحرب العالميَّة الأُولى ساعدَه الأيمن، حتَّى إنَّه كان أقوى رجل في أمريكا أيَّام الحرب العالميَّة الأُولى، وكان الرّئيس الأمريكي يُنفِّذ له ما يُريد؛ بحيثُ أصبح القُوَّة المُسيطرة على الإنتاج الأمريكي.

ولم يكن نُفُوذ باروخ في زمن السِّلم أقلّ منه في زمن الحرب، فقد برز بُرُوزاً واضحاً في مُؤتمر فرساي "مُؤتمر الصُّلح 1919، بعد الحرب العالميَّة الأُولى"؛ حيثُ كان عُضواً في الوفد الأمريكي، كما كان السّبب في وُجُود عدد كبير من اليهُود أعضاء في الوفدَيْن البريطانيّ والأمريكي، وقد أدهشت هذه الظّاهرة أعضاء الوفد الفرنسيّ، لدرجة أنَّهم أطلقوا على مُؤتمر الصُّلح في فرساي اسم "مُؤتمر الكاشير"؛ (أيْ مُؤتمر اليهُود المُتعصِّبين).

وهذه الظّاهرة - أيضاً - هي التي دفعت مُراقباً في المُؤتمر هُو الدُّكتُور "ديلون" إلى القول في كتابه "القصَّة الحقيقيَّة لمُؤتمر الصُّلح" ما يلي: «كان عدد كبير من المندوبين يعتقدون أنَّ التّأثيرات التي تقوم وراء الأنجلو سكسون[1] هي يهُوديَّة في طابعها. وكانت الأُمُور في المُؤتمر تسير بوحي من اليهُود الذين اجتمعوا في باريس لغاية واحدة هي تحقيق برنامجهم المدرُوس دراسة كاملة[2] والذي تمكَّنوا من تنفيذه كما يُريدون تماماً».

---

(1) الأنكلو سكسون: لفظة تعني بريطانيا والولايات المُتَّحدة. وأصل الكلمة هُو اسم القبائل الجرمانيَّة التي هاجرت إلى إنكلترا، وَسَكَنَتْهَا قديماً، وهي قبائل الأنكلو والسّكسون، وجاءت تسمية إنكلترا من الأنكلو، وعلى اعتبار أنَّ المُهاجرين الأوائل إلى أمريكا كانوا من الإنكليز، فصار الاسم "الأنكلو سكسون" يُطلَق على بريطانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

(2) ومُلخَّص برنامجهم المدرُوس هذا هُو تأمين مُوافقة مُؤتمر الصُّلح على وعد بلفور الذي منحته لهم بريطانيا في 2 تشرين الثَّاني 1917، قبل نهاية الحرب العالميَّة الأُولى. وحتَّى يكتسب هذا الوعد مُوافقة وضماناً عالميّاً، وليس من بريطانيا فحسب، قام اليهُود بنُفُوذهم الطّاغي في بريطانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بالإقرار والمُوافقة على:

(وباروخ هُو الذي كان وراء دَفْع وتحريض الرّئيس ولسون لدُخُول الولايات المُتَّحدة الحرب العالميَّة الأُولى بجانب بريطانيا وحُلفائـها. وكان الثّمن الذي وعدت به بريطانيا اليهُودَ وباروخ نفسه هُو مَنْح اليهُود وعد بلفور. وفعلاً؛ بعد دُخُول الولايات المُتَّحدة الحربَ مع بريطانيا والحُلفاء في 6 نيسان 1917، بحوالي سبعة أشهر تمَّ مَنْح الحَركَة الصّهيُونيَّة وعد بلفور المشؤوم في 2 تشرين ثاني عام 1917، مُمثَّلَةً باللُّورد رُوتشيلد الثّري اليهُوديّ البريطانيّ الشّهير).

ولقد لعب باروخ الدَّور الهامّ نفسه في الحرب العالميَّة الثَّانية، فكان اليدَ اليُمنى للرّئيس رُوزفلت طوال سنوات رئاسته في الحرب والسِّلم، كما كان صديقاً حميماً لونستون تشرشل رئيس وُزراء بريطانيا في الحرب العالميَّة الثَّانية.

وقد بلغ باروخ من النُّفُوذ حدّاً جَعَلَه ينتشي بسُلطانه ونُفُوذه، ويقول مُشيراً إلى نفسه: «انظروا إلى دزرائيلي الولايات المُتَّحدة»، (وقد مرَّ معنا دزرائيلي اليهُوديّ البريطانيّ المُتنصِّر، والذي ترأس الوزارة البريطانيَّة ثلاث مرَّات في النّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر).

أَتَعْجَبُ - بعد هذا - من التّأييد المُطلق الذي لقيتْهُ الصّهيُونيَّة من الدّولتَيْن الكبيرتَيْن: بريطانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة؟!

(ولا يزال النُّفُوذ الصّهيُوني في الدّولتَيْن على زخمه وقُوَّته من زمن دزرائيلي وبلفور وباروخ حتَّى الآن، واللُّوبي الصّهيُوني في الولايات المُتَّحدة مشهور، ولا يستطيع أيُّ رئيس للولايات المُتَّحدة أنْ يتحدَّاه، أو يتجاهله).

1: إقرار وعد بلفور في مُؤتمر الصُّلح المُنعقد في باريس من 1919 - 1921.

2: إقراره من قِبَل الحُلفاء في مُؤتمر سان ريمو في إيطاليا في 25 نيسان 1920، الذي وَضَعَ فلسطينَ تحت الانتداب البريطانيّ، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

3: أقرَّه مجلس عصبة الأُمم عندما وافق على الانتداب البريطانيّ على فلسطين، وأقرَّ تنفيذ وعد بلفور في صكِّ الانتداب.

4: وليطمئنَّ اليهُود على تنفيذ الوعد دفعوا بريطانيا إلى تعيين أوّل مندوب سامي بريطانيّ على فلسطين السّير هربرت صموئيل اليهُوديّ البريطانيّ الصّهيُوني. كُلُّ هذا لأنَّ بعض قادة الحَركَة الصّهيُونيَّة المُتزمِّتين جداً قد ساورهم الشّكُّ بعدم تنفيذ الوعد من ناحية كونه وعداً، وكانوا يُفضِّلون أنْ تكون ميثاقاً يُبرَم بين الحَركَة الصّهيُونيَّة وبريطانيا، لذلك قامت الصّهيُونيَّة، وحشدتْ كُلَّ قواها للحُصُول على النّقاط الأربع السّابقة الذّكْر، والتي جَعَلَت الوعد أكثر من ميثاق في عُنُق بريطانيا، وأصبح التزامها بالتّنفيذ دوليّاً أمام عصبة الأُمم، وليس أمام الحَركَة الصّهيُونيَّة فحسب.

قصَّة جيمس غُوردُون بنيت:

إنَّ قصَّة جيمس غُوردُون بنيت مَثَلٌ آخر على ما يُمكن أنْ يفعله اليهُود لِمَنْ يُحاول أنْ يقف في طريقهم. إنَّهم يبدؤون بالمُقاطعة، فتشويه السُّمعة، ثُمَّ التّهديد؛ مُستخدمين - في هذا السّبيل - كُلَّ أجهزة الدّعاية التي يملكونها، أو يُسيطرون عليها.

وجيمس غُوردُون بنيت هُو صاحب صحيفة "نيُو يُورك هيرالد"؛ وهي الصّحيفة الوحيدة التي حاولت الاحتفاظ باستقلالها عن النُّفُوذ اليهُوديّ في نيُو يُورك، وكانت "نيُو يُورك هيرالد" من الصُّحُف المُحترمة الواسعة الانتشار الموثوق بأخبارها. وكان معروفاً عنها - بين رجال الصّحافة - أنَّ أنباءها وتعليقاتها لا تُباع، ولا تتأثَّر بنُفُوذ.

ولم يكن صاحبها جيمس مُتعصِّباً ضدَّ اليهُود، ولم يُحاول - أبداً - أنْ يُثير غضبهم، ولكنَّه لم يكن - في الوقت نفسه - مُستعداً للتَّخلِّي عن استقلال صحيفته، والوُقُوف موقفاً غير نبيل.

وتبدأ القصَّة يوم أنْ ظنَّ اليهُود أنَّهم يستطيعون السّيطرة على الصّحيفة؛ لأنَّهم كانوا يُغرقونها بإعلاناتهم، وكانوا مُخطئين في هذا، لأنَّ المُعلنين - كما هُو معروف - يتسابقون للإعلان في صحيفة واسعة الانتشار مثل: نيُو يُورك هيرالد، وقد أثبتت الأحداث - فيما بعد - صحَّة هذا.

وكان اليهُود يكرهون جيمس بنيت لأسباب؛ منها: أنَّه كان يرفض أنْ ينشر في صحيفته أخبار الأُسَر اليهُوديَّة رغم غناها، لأنَّه كان مُقتنعاً بأنَّها قد جمعت ثروتها من طريق غير شريف، كما أنَّه كان لا يتردَّد في نَشْر الفضائح التي تمسُّ كبار أفراد الأُسَر اليهُوديَّة، غير مُبالٍ بالتّهديد والوعيد. وبلغت عداوتهم له ذروتها يوم أنْ رشَّح اليهُود يهُودياً لرئاسة بلديَّة نيُو يُورك. وأرسلت المُنظَّمات اليهُوديَّة كُتُباً "سرِّيَّة خاصَّة" لأصحاب الصُّحُف تطلب منهم فيها مُؤازرة مُرشَّحهم في الانتخابات والدّعاية له. وقد رضخت الصُّحُف لهذا الأمر، إلاَّ جيمس بنيت؛ فإنَّه نَشَرَ الرّسالة "السِّرِّيَّة الخاصَّة"، وكَتَبَ تحتها ردّاً عليها خُلاصته: «إنَّ الصّحيفة لا تستطيع تأييد مُرشَّح يُمثِّل المصالح الشّخصيَّة؛ لأنَّها نذرت نفسها لخدمة المصلحة العامَّة».

هُنا ثارت ثائرة اليهُود، وصمَّموا على الانتقام، وكان أوَّل ما فعله اليهُود أنْ سحبوا إعلاناتهم من الصّحيفة، ظانِّين أنَّهم - بهذا - يُحطِّمونها وصاحبها، وأتبعوا ذلك بادِّعائهم أنَّ

بنيت عدوٌّ للسّاميَّة، كارهٌ لليهُود، ثُمَّ أخذوا في تهديده. ولكنَّ بنيت كان خصماً عنيداً؛ إذْ سُرعان ما دَفَعَ بالإعلانات غير اليهُوديَّة التي كانت تُنشر عادة في زوايا غير بارزة إلى أماكن إعلانات اليهُود. ولمَّا رأى اليهُود أنْ سَحْبَ إعلاناتهم لم يُؤثِّر على الصّحيفة، بل بالعكس أضرَّ بهم هُم، عادوا يرجُون نَشْرَ إعلاناتهم؛ حيثُ كانت تُنشَر؛ عارضين عليه أُجُوراً أعلى من ذي قبلُ، فأصرَّ بنيت على الرَّفْض، وقَبلَ أنْ ينشر إعلاناتهم في الأماكن الدّاخليَّة المُنزوية من الصّحيفة.

وهكذا صمد بنيت، ولم ينحن أمام ضُغُوط اليهُود وأساليبهم الماكرة في التّهديد والوعيد والطّعن والتّجريح كما حصل مع المليونير "هنري فُورد" ملك السَّيَّارات وصاحب كتاب "اليهُوديّ العالمي".

ولكنَّ صحيفة "نيُو يُورك هيرالد" لم تصمد بعد وفاة جيمس بنيت في أيّار 1919، وأكمل اليهُود سيطرتهم على الصُّحُف في نيُو يُورك، ولم يبقَ فيها صحيفة واحدة تستطيع أنْ تنشر خبراً لا يرضى عنه اليهُود.

ولكنْ؛ ما قصَّة "هنري فُورد" نفسه مع اليهُود، والتي كان من نتائجها تأليفه كتاب "اليهُوديّ العالمي"، والذي فضح فيه نواياهم وسُلُوكهم وخُططهم للسّيطرة على العالم.

قصَّة "هنري فُورد":

بدأ نجم المليونير الأمريكي "هنري فُورد" في الصُّعُود، ودفعت به عصاميَّته إلى عالم الصّناعة؛ ليغدو ملك السَّيَّارات في أمريكا والعالم. وأحسَّ هذا الرّجل وهُو يرتقي سُلَّم المجد والثّروة بالنُّفُوذ اليهُوديّ يُحاول أنْ يسدَّ عليه الطّريق، و أنْ يُحطِّمه وهُو في أوَّلها. . وشعر بالمُقاومة اليهُوديَّة العنيفة لمشاريعه الصّناعيَّة الضّخمة، والمساعي التي تُبذل لتحطيمه والقضاء عليه، فثار ثائره، وقرَّر أنْ يُحارب خُصُومه بسلاحهم، و أنْ يُناضلهم نضالاً لا هوادة فيه، فاستخدم لفيفاً من خيرة رجال البحث العلمي الأمريكيِّين (وخاصَّة مَنْ تخصَّصوا بالدّراسات التَّاريخيَّة)؛ ليقوموا بدراسات دقيقة وشاملة عن النُّفُوذ اليهُوديّ العالمي، وسيطرة المال اليهُوديّ على أمريكا بالذّات، وعُمُوم العالم، وتعاقد معهم على أنْ يقوموا بهذه الدّراسات،

وتعهَّد لهم بتقديم جميع نفقاتهم، بالإضافة إلى الرّواتب المُغرية التي عرضها عليهم. وفعلاً؛ لم يبخل فُورد على هذا المشروع، ويُقدَّر ما أنفقه عليه بملايين الدُّولارات.

ثُمَّ أخذ هنري فُورد بنَشْر ما توصَّل إليه أُولئك الخُبراء من دراسات مُستوفية وكاملة عن "اليهُوديّ العالمي" بصحيفة "دير بورن المُستقلَّة **Independent Dearborn**" والتي كانت النّاطقة بلسان شركة فُورد للسَّيّارات.

ثُمَّ جُمعَت هذه المقالات، ونُشرت في كتاب "اليهُوديّ العالمي"، وكان كُلُّ موضوع من مواضيع الكتاب يُستَهَلُّ بفقرات مأخوذة من تعاليم حُكَمَاء صهيُون؛ (أيْ برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون)، أو من أقوال كبار رجال اليهُود في العالم.

ومُنذُ أخذ هنري فُورد بنَشْر الكتاب على شكل مقالات في صحيفة "ديرن بُورن المُستقلَّة"، وبعد أنْ تمَّ طَبْعُهُ، وشرع في توزيعه، سارع اليهُود وعُملاؤهم إلى جَمْعه من الأسواق والمكتبات فور صُدُوره، ثُمَّ تعرَّض المليونير هنري فُورد وزوجته وأُسرته وشركته لحملات من التّشهير والسُّباب، ولكُلِّ أنواع الاضطهاد التي يُمكن أنْ يتصوَّرها المرء: كتلويث السُّمعة، والسُّخرية، والمُقاطعة. واستمرَّ الضّغط على الرّجل بشكل ثابت ودائم، حتَّى اضطُرَّ إلى وَقْف نَشْر الكتاب، وتوزيعه. ثُمَّ أصبحت نُسخ الكتاب نادرة للغاية؛ لأنَّ اليهُود قاموا بجَمْع نُسخه من الأسواق، وإتلافها، ومضى عُملاؤهم إلى المكتبات العامَّة يزورونها، ويسرقون النُّسخ الموجودة فيها، فأدَّى كُلُّ ذلك لأنَّ يُصبح الكتاب نادراً، بل مفقوداً.

ثُمَّ إنَّ المدعو "هاري بنيت" وهُو مُوظَّف كبير من مُوظَّفي شركة سيَّارات فُورد أقحم نفسه في الخلاف بين فُورد واليهُود، وقدَّم اعتذاراً باسم فُورد لهم، وزوَّر توقيعه على الاعتذار بدقَّة تامَّة، ثُمَّ قام اليهُود بنَشْر الاعتذار، وتكذيب ما جاء في كتاب "اليهُوديّ العالمي" من معلومات عن اليهُود، وعمَّمَ الاعتذار والتّكذيب في الصّحافة بشكل يصعب على فُورد إنكاره أو التّراجع عنه.

وفي إحدى الزّيارات العائليَّة لفُورد من صديقه الحميم "جيرالد كي سميث" سمع منه أنَّه لم يقدِّم اعتذاراً لليهُود، ولم يُكذِّب المعلومات الواردة في كتابه "اليهُوديّ العالمي"، وأنَّه

لم يستطع أنْ يُكذِّب الاعتذار لأنَّ تقليد توقيعه كان دقيقاً جداً، وأنَّ اليهُود كانوا قد عمَّموه بسُرعة في جميع الصُّحُف، وأنَّه لن تقبل أيُّ صحيفة نَشْرَ إنكاره وتكذيبه للاعتذار.

وهُنا قام صديقه جيرالد سميث بنَشْر الكتاب مرَّة ثانية نكاية باليهُود، ولمَّا لم تقبل دُور النّشر والطّباعة طَبْعَهُ ونَشْرَهُ في الولايات المُتَّحدة قام بطَبْعه ونَشْره بنُسخ محدودة في بريطانيا. ولكنْ؛ سُرعان ما فُقدت نُسخ الطّبعة الثّانية بسُرعة مُذهلة كما حصل بالطّبعة الأُولى في أمريكا[1].

وحتّى تكتمل أمامنا صُورة "اليهُوديّ العالمي"؛ أيْ (اليهُوديّ المُسيطر على العالم) لابُدَّ من التَّحدُّث عن مُنظَّمة يهُوديَّة عالميَّة هي مُنظَّمة (بنّاي بريت)، أو "جماعة العهد".

مُنظَّمة البنْاي بريت أو جماعة العهد:

إنَّ "البنّاي بريت" مُنظَّمة يهُوديَّة بدأت 1843م، في نيُو يُورك. وهي تقوم على رعاية المصالح اليهُوديَّة العُليا في العالم، وقد ركَّزت جهُودها في سبيل توحيد يهُود العالم حول أُسُس ومبادئ عريضة؛ لا سيما على الصّعيد الثّقافي، وحماية حقُوقهم السِّياسيَّة والدِّينيَّة أينما وُجدوا.

وتضمُّ هذه المُنظَّمة ستُّمائة فرع في مُدُن الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وفُرُوعاً أُخرى تنتشر في ثمان وعشرين دولة أُخرى في العالم.

وتُعتَبَر هذه الشّبكة اليهُوديَّة المُتماسكة أعظم قُوَّة تنظيميَّة في العصر الحديث.

ولمُنظَّمة "بنّاي بريت" قيادة دائمة تسهر على جميع الشُّؤُون المُرتبطة بحياة اليهُود، وهي - باختصار - على قَدْر من التّنظيم الدّقيق؛ إلى حدٍّ أنَّها تستطيع استخدام إمكانيّاتها البشريَّة والماليَّة والدّعائيَّة لتُوفِّر كُلَّ ما يحتاج إليه اليهُود على كُلِّ صعيد، وفي كُلِّ ميدان، وفي كُلِّ مكان وأيِّ زمان[2].

« ولهذه المُنظَّمة اتِّصال وثيق بالمحافل الماسُونيَّ؛ إذْ إنَّ أعضاء هذه المُنظَّمة اليهُوديَّة الكُبرى هُم أقطاب في هذه المحافل، كما أنَّ محفل لندن الماسُوني يرأسه يهُودي من المُنظَّمة »[3].

---

(1) المصدر من مُقدِّمة المُترجم خيري حمَّاد، ومن مُقدِّمة النّاشر (مرَّة ثانية) جيرالد سميث لكتاب اليهُوديّ العالمي.

(2) عن كتاب "اليهُود"؛ إعداد الأُستاذ زهدي الفاتح، ص 107 - 108.

(3) عن كتاب "الصّهيُونيَّة العالميَّة وخطرها على الشّباب"، الأُستاذ سُلَيْمَان حاتم، ص 176.

وقد نشرت مجلَّة "كاثوليك غازيت" في عدد شباط 1936، فقرات من الخُطب التي أُلقيَت في مُؤتمر المُنظَّمة المُنعقد في باريس (في تلك السّنة)، وهي تدور حول أخلاق الأغيار والدّيانة المسيحيَّة وخاصَّة الكاثوليكيَّة، وحول ارتباط اليهُوديَّة بالماسُونيَّة وتسخيرها لخدمة أهدافهم، وفيما يلي مُقتطفات من هذه الخُطب[1]: «*طالما تبقَّى شيء من الأخلاق في نظام الأغيار الاجتماعي، وإلى أنْ نقتلع من جُذُور الأنفس الأديانَ والمبادئَ الوطنيَّة والكرامة.. فإنَّ ساعة حُكْمنا للعالم لم تحنْ*».

«*نفَّذنا جُزءاً من خُطَّتنا، ولكنَّنا لا نملك القول إنَّ كُلَّ ما نُريد قد تحقَّق. أمامنا جهد كبير طويل يجبُ أنْ نبذله قبل أنْ يتسنَّى لنا تحطيم الكَنيسة الكاثُوليكيَّة التي علينا أنْ لا ننسى بأنَّها المُنظَّمة الوحيدة التي وقفت في وجهنا، وستستمرُّ كذلك ما بقيت قائمة.. إنَّما الأهمُّ من ذلك أنَّنا نجحنا في إقناع كثيرين بالإعلان جهاراً عن إلحادهم الكُلِّيِّ وعدم الإيمان بوُجُود خالق البتَّة، بل أغويناهم بالتّفاخر لكونهم من أحفاد القُرُود*.. (يُشير هُنا إلى نظريَّة داروين في أصل الأنواع)، *ثُمَّ قدَّمنا لهم عقائد ومبادئ جديدة يستحيل عليهم سبر أغوار حقيقتها وأهدافها ومبادئها ونهاياتها، كالشُّيُوعيَّة والاشتراكيَّة والفوضويَّة.. التي تخدم ـ مُنفردة ومُجتمعة ـ مصالحنا وأهدافنا.. وقد تلقَّى الأغيارُ المعتوهون هذه العقائدَ والمبادئَ بقبول حسن وحماس شديد، دُون أنْ يُراود عُقُولهم أيُّ شكٍّ بأنَّ هذه العقائدَ والمبادئَ إنَّما وُجدَتْ لخدمة مصالحنا.. وإنَّها ـ بحدِّ ذاتها ـ تُشَكِّل أمضى الأسلحة التي نستخدمها في القضاء على وُجُودهم*».

«*وفي كُلِّ ذلك؛ برهنَ الأغيارُ الأغبياءُ عن سذاجة ما كُنَّا نتصوَّرها فيهم، فقد كُنَّا ننتظر من بعضهم ذكاءً ووعياً أعمق لحقيقة الأُمُور وأُصُولها، لكنَّهم ـ جميعاً ـ لم يكونوا أفضل من قطيع من الغَنَم.. فلنتركهم يرعون في حُقُولنا، حتَّى "يسمنوا"، ويكونوا صالحين للذَّبح كأضاحي أمام مَلِك عالم المُستقبل*».

---

(1) عن كتاب "اليهُود" إعداد الأُستاذ زهدي الفاتح، الفقرة 254، من الكتاب، في الصّفحات من 110 حتَّى نهاية المُقتطفات حول المُنظَّمة.

«وبعد ذلك؛ أنشأنا عديداً من الجمعيّات والمنظَّمات السِّرِّيّة التي وُجدت لخدمة مصالحنا وأهدافنا، تعمل تحت أوامرنا وإرشاداتنا، فتهافت على الانضمام إليها الأغيارُ من كُلِّ صوب، فأوحينا إليهم أنَّه من الشّرف أنْ يكون الفرد عُضواً في إحدى هذه المُنظَّمات والجمعيَّات التي ازدهرتْ وانتعشت بفَضْل ذَهَبنا» (يُشير بذلك إلى المحافل الماسُونيَّة).

«إنَّ هؤلاء الأغيار - وهُم يخونون أهمَّ مصالحهم بإسهامهم في نجاح خُططنا - لن يرتابوا أبداً، ولن يعرفوا بأنَّ تلك الجمعيَّات والمُنظَّمات صَنَعَتْهَا أيدينا وعُقُولنا لتحقيق أهدافنا».

«ومن بين انتصارات الماسُونيَّة أنَّ هؤلاء الأغيار - من أعضاء محافلنا - لن يرتابوا بالأمر، فَيُخَيَّل إليهم أنَّنا نستغلُّهم لإقامة مملكة إسرائيل العالميَّة. كما لن يُفَكِّروا - قطُّ - أنَّنا نأمرهم - وهُم في محافلنا - بصُنْع سلاسل عُبُوديَّتهم لِمُلكِنا المُنْتَظر على العالم».

«والآن؛ دعونا نُوضح لكم كيف مضينا في سبيل الإسراع بقَصْم ظَهْر الكَنيسة الكاثُوليكيَّة، فاستطعنا التَّسرُّب إلى دخائلها الخُصُوصيَّة، وأغوينا البعض من رعيَّتها وَكَهَنَتها، ليكونوا رُوَّاداً في مملكتنا، ويعملوا من أجلنا».

«أَمَرْنَا عدداً من أبنائنا بالدُّخُول إلى جسم الكَنيسة الكاثُوليكيَّة، مع تعليمات صريحة بوُجُوب العمل الدّقيق والنّشاط الكفيل بتخريب الكَنيسة من قلبها (أيْ من داخلها) عن طريق اختلاق الفضائح الدّاخليَّة. ونكون - بذلك - قد عملنا بنصيحة أمير اليهُود الذي أوصانا بحكمة بالغة: «دعُوا بعض أبنائكم يكونوا كَهَنَة ورُعاة أبرشيَّات، فيهدمون كنائسهم. ومع الأسف الشّديد؛ لم يُبرهن جميع اليهُود من أبناء العهد (أيْ جمعيَّة البْنَاي بريت) عن إخلاصهم للمهمَّة الموكولة إليهم، فخان الكثيرون العهدَ، ولكنَّ آخرين حافظوا على العهد، ونفَّذوا مهامَّهم بشرف وأمانة».

«نحنُ آباء جميع الثّورات التي قامت في العالم، حتَّى تلك التي انقلبت علينا أحياناً (يعني بذلك الثّورة الشُّيُوعيَّة في رُوسيا)، ونحنُ - أيضاً - الذين خَلَقْنَا حَرَكَة الإصلاح الدِّيني المسيحيَّة. فكالفن كان واحداً من أبنائنا، يهُودي الأصل. أُمِرَ بحمل الأمانة بتشجيع المسؤولين اليهُود، ودعم المال اليهُوديّ، فَنَفَّذَ مُخطَّط الإصلاح الدِّيني، كما أذعن "مارتن

لوثر" لإيحاءات أصدقائه اليهُود .. وهُنا ـ أيضاً ـ نجح برنامجه ضدّ الكنيسة الكاثوليكيّة بإرادة المسؤولين اليهُود، وتمويلهم».

«ونحنُ نشكر البرُوتستانت على إخلاصهم لرغباتنا، رغم أنَّ مُعظمهم ـ وهُم يُخلِصون الإيمان لدينهم ـ لا يعون مدى إخلاصهم لنا، إنَّنا جدُّ مُمتنِّين للعون القيِّم الذي قدَّموه لنا في حربنا ضدَّ معاقل المَدَنيَّة المسيحيَّة، استعداداً لبُلُوغ مواقع السّيطرة الكاملة على العالم».

«حتَّى اليوم؛ تمكَّنّا من قلْب الأنظمة القائمة في مُعظم ممالك أُورُوبا، والبقيَّة آتية ـ لا ريب ـ عمَّا قريب، فرُوسيا شرعتْ في تمهيد الطَّريق لسيرتنا، وفرنسا ـ بحُكُومتها الماسُونيَّة ـ تحت إصبعنا، وإنكلترا ـ باعتمادها على تمويلنا ـ تحت قدَمنا، ولكنَّها برُوتستانتيَّة؛ فهي مُعين في القضاء على الكَنيسة الكاثُوليكيَّة، أمَّا إسبانيا والمكسيك؛ فهُما دُميتان في أيدينا، وثمَّة دُول عديدة، علاوة على الولايات المُتَّحدة واقعة في شراكنا».

«إنَّ مُعظم صُحُف العالم تحت سيطرتنا، فلْنُغذِّ ـ بواسطتها، بقُوَّة وفعاليَّة أكثر ـ الحقدَ العالميّ على الكَنيسة الكاثُوليكيَّة».

«ولنمضِ لدَعْم وتقوية مُخطَّطاتنا بتسميم أخلاق الأغيار.. ننشر رُوح الثّورة بين الجماهير.. نُشجِّعها على احتقار الوطنيَّة، وازدراء وحدة العائلة والارتباط بمحبَّتها.. اعتبار الدِّين ـ أيّ دين ـ هراء، ومضيعة للوقت، وقضيَّة سبقها العصر، ولم تعد تتماشى مع مُتطلَّباته..».

«ثُمّ أخيراً؛ لنتذكَّر ـ دائماً ـ أنَّ مَلِك اليهُود المُنْتَظر لن يرضى بحُكْم هذا العالم قبل خَلْع البابا عن كُرسِيِّه في رُوما، والإطاحة بجميع مُلُوك العالم».

هذه صُورة واضحة كُلّ الوُضُوح عن أحقاد اليهُود على كُلِّ مَنْ ليس يهُوديّاً، ومُحاولة إفساد الأديان، والأخلاق، وتحطيم الأُسرة، ونَشْر الرّذيلة، وإزالة كُلِّ عقبة تقف في طريق سيطرتهم على العالم، وتسخير شعُوبه وحكُوماته وثرواته لخدمتهم. وهي صادرة عن أوسع المُنظَّمات اليهُوديَّة انتشاراً وهي مُنظَّمة "بْنَاي بريت"، وهي ـ في جوهرها وأهدافها ـ لا تعدو برُوتُوكُولات حكَمَاء صهيُون، بل هي تطبيق حَرْفيّ لهذه البرُوتُوكُولات.

الفصل الرَّابع:

سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم

تحدَّثنا - في الفُصُول السّابقة - عن مُعتقدات اليهُود الدِّينيَّة، وطوائفهم قديماً وحديثاً، واتِّجاهاتهم السِّياسيَّة. وفي هذا الفصل سنتحدَّث عن سُلُوكيَّة اليهُود، وأخلاقهم، والصّفات السُّلُوكيَّة والأخلاقيَّة التي تُميِّزهم عن سائر البشر، والتي لازمتهم عبر تاريخهم الطّويل، والتي حدَّدتْها لهم تعاليم دينهم في التّوراة والتّلمود وتوجيهات حاخاماتهم ومجمعهم الدِّيني "السّنهندرين"، وأخيراً؛ برُوتُوكُولاتهم وأهداف مُنظَّماتهم، وكُلُّها تصبُّ - في النّهاية - بهدف واحد هُو السّيطرة على العالم، وإقامة مملكة إسرائيل فيه.

وفيما يلي؛ يُحَدِّثنا الأُستاذ الجليل مُحَمَّد عزَّت دروزة عن سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم والصّفات التي تُميِّزهم من سائر البشر، فيقول[1]: «إنَّ الباحث في الأسفار التّوراتيَّة التي يتداولها ويُقدِّسها اليهُود، يقع على الجُذُور التي يستوحون منها أحداثهم وأخلاقهم وسُلُوكهم، والتي نَبَتَتْ أُصُولها كما تُلهمهم هذه الأشعار، ثُمَّ غُذِّيت بالاضطهاد والحرمان والكَبْت، فكان من آثارها العجيب المُذهل من الصُّور والسَّوآت والتّناقضات التي تمثَّلت بالأنانيَّة المُفرطة والرّغبة الشّديدة في التَّميُّز والعُزلة والانغلاق عن البشر، واعتبار سائر البشر دُونهم، وأنَّهم (أيْ سائر البشر) وما يملكون مُلك وعبيد لهم، وتعطُّشهم الشّديد لسَفْك الدّماء، وتدمير كيان الغير بالعُنف والغدر والخيانة والاحتيال والخداع والتّآمر، وتبرير كُلِّ وسيلة مهما كانت غير شرعيَّة وغير إنسانيَّة وغير أخلاقيَّة للوُصُول إلى غاية ما، مهما كانت هذه الغاية غير شريفة وغير إنسانيَّة وغير أخلاقيَّة، وجُحُود المعروف، ونُكران الجميل،

(1) الأُستاذ مُحَمَّد عزَّت دروزة، كتاب "الجُذُور القديمة لأحداث بني إسرائيل وأخلاقهم"، ص 4 - 18، باختصار.

ومُقابلة الإحسان بالإساءة[1]، وعدم الولاء لأحد، وعدم تبادل التّوادّ والإخلاص والثّقة مع أحد، وعدم الاعتراف بأيّ حقٍّ لأحد، وعدم التّقيُّد بأيّ عهد واعتبار، أو أيّ قيمة أخلاقيَّة أو إنسانيَّة، وازدراء كُلّ شخصيَّة ونحْلة وقوم، وعدم الشُّعُور بأيَّة مسؤوليَّة عن أيّ عمل تجاه غيرهم، حتَّى الافتراء على الله، ورُسُله، وتحريف كُتُبه، والاحتيال على شرائعه، وتكذيب رُسُله، وقَتْلهم، مع اللّجاجة، والصّفاقة، والمُكابرة، والشُّحّ، والحسد، والارتكاس في مُختلف الآثام والفواحش، ومع الهَلَع، والجَزَع، والجُبن، والانهيار أمام الأخطار والصّدمات»، وكُلّ هذه الأخلاق والصّفات والأفعال مجليَّة عنهم في أسفار التّوراة والإنجيل، وفي القُرآن الكريم.

وبذلك صار اليهُود مَثَلاً فريداً في التّاريخ، فإنَّ ما كان يقع منهم من أفعال مُذهلة نحو جميع النّاس يُفَسِّر ما سجَّله التّاريخ - ومايزال يُسجِّله - من سُلُوك النّاس نحوهم، وصراعهم الدّائم معهم، وكراهيَّتهم الشّديدة لهم، وما تكرَّر من عمليَّات الإبادة فيهم، بدافع المُقابلة بالمِثْل، والدّفاع عن النّفس والكيان؛ على اعتبار أنَّ ذلك هُو العلاج الوحيد النّاجع فيهم، (ومن ذلك مذابحهم قديماً على يد الآشوريِّيْن والبابليِّيْن، ثُمَّ اليُونان والرُّومان، وحديثاً على يد الرُّوس والبُولُونيِّيْن والألمان).

وممَّا له مغزى خطير جدّاً أنَّهم الوحيدون الذين سجَّل لهم التّاريخ صراعاً مُستمرّاً بينهم وبين سائر البشر على اختلاف الأجناس والمُستويات والعُصُور والأمكنة. وفي هذا دليل قاطع على جبلَّتهم وأخلاقهم التي كانوا - وظلُّوا - مُنفردين بها، والتي جَعَلَتهم يعتبرون جميع النّاس دُونهم، وغُرباء عنهم، وأعداء لهم. وجَعَلَت جميع النّاس - بالمُقابل - يعتبرونهم غُرباء عنهم، وأعداء لهم، ويُعاملونهم على هذا الاعتبار، ويُبعدونهم عنهم، أو يستأصلونهم للتَّخلُّص منهم[2].

---

(1) ومن ذلك التّنكُّر للعَرَب المُسلمين الذين عاملوهم أحسن مُعاملة، حتَّى إنَّ اليهُود لم يجدوا الأمان إلاَّ في ظلِّ الحُكْم العَرَبي أو الإسلامي، ولكنَّهم قابلوا ذلك بالمذابح والتّشريد واغتصاب الأرض في فلسطين.

(2) نُذكِّر القارئ بما حَدَثَ عندما قضى الآشوريُّون بقيادة سرجُون الثّاني على مملكة السّامرة، ونفوا اليهُود منها إلى جبال كُردستان عام 722 ق . م، وكذلك عندما سبى بختنصر يهُود مملكة يهُوذا إلى بابل عام 586 ق . م، ثُمَّ طردهم طيطس الرُّوماني من فلسطين، وحرَّم عليهم دُخُول القُدس، والعيش فيها عام 70م، ثُمَّ إبادتهم على يد الإمبراطُور هدريان، وأخيراً؛ مذابحهم على يد هرَقْل إمبراطُور بيزنطة.

ومع أنَّ يهُود اليوم لا يمُتُّون بصلة إلى بني إسرائيل القُدماء على ما ثَبَتَ لدى جُمهُور الباحثين المُحققِّين (كما أسلفنا)، فإنَّ تداولهم الأسفار نفسها التي كان يتداولها بنو إسرائيل، وأَخْذهم بما جاء في التّلمود من تعاليم وشُرُوح، ودأبهم المُستمرَّ على استمرار صُور حياتهم، وسُلُوكهم منها طوال القُرُون العديدة جَعَلَهُم يتأثَّرون بتلك الجُذُور في أحداثهم وأخلاقهم وسُلُوكهم أشدَّ التأثُّر؛ بحيثُ صاروا - بدورهم - كبني إسرائيل القُدماء مَثَلاً فريداً بين البشر، وجَعَلَ غيرهم يقف الموقف نفسه الذي وقفه غير بني إسرائيل من بني إسرائيل في القديم للمُقابلة بالمثْل والدّفاع عن النّفس.

وقد بُلِيَ العَرَب بهذا القبيل الحاقد اللّئيم ذي الصّفة العُدوانيَّة المُخادعة الغادرة، مدفوعاً بتلك الجُذُور، ثُمَّ بطواغيت الاستعمار الذين أرادوا أنْ يستفيدوا منهم في إرهاق العَرَب، وإرهابهم، وإبقائهم ضُعفاء مُتفرِّقين لاستمرار هيمنتهم على بلادهم، واستغلال ثرواتهم، فصاروا أكثر النّاس حاجة إلى معرفة هذا العدوِّ الغادر، والجُذُور التي يستمدُّ منها سُلُوكه وأخلاقه وتصرُّفه.

الجَذْر الأوَّل: "شعب الله المُختار":

وهُو أوَّل هذه الجُذُور، وأخطرها عل البشر، حتَّى وعلى اليهُود أنفسهم.

وقد ظهر هذا الجَذْر بعد خُرُوجهم من مصر، وبعد عُبُوديَّة طويلة فيها، انبثق لديهم فكْرة كونهم "شعب الله المُختار" المُختصّ وحده بعناية الله، الذي يُهيِّيء لهم كُلَّ أسباب الغَلَبَة والنّجاة والتّفوُّق، ويتسامح معهم في كُلِّ ما يرتكبون من انحرافات (كما رأينا عند الحديث عن تاريخهم). والذي جَعَلَ الأُمم الأُخرى عبيداً لهم، وأباح لهم أرضهم وديارهم وأموالهم ودماءهم يأخذونها بأيِّ أُسلُوب قدروا عليه: بالقُوَّة والعنوة، أو بالاحتيال والغدر والخيانة والخداع، دُون أيِّ حرج ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وحرَّم عليهم التّعايش والتّسالم معهم؛ إلاَّ في أضيق الحُدُود، وحالات الاضطرار مع تربُّص الدّوائر بهم، وتحيُّن الفُرص المُناسبة للانقضاض عليهم، والغدر بهم، ونقض العهد معهم، وتدميرهم، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم. وقد صار هذا دَيْدَناً لهم، وجبلَّة لازمَتْهُم في كُلِّ ظُرُوف حياتهم، وسار على خُطاهم اليهُود الذين تطبَّعوا بطباعهم.

الجَذْر الثَّاني: إلههم "يَهْوَه" (إلههم وحدهم):

يتلازم هذا الجَذْر مع الجَذْر الأوَّل "شعب الله المُختار"، و"يَهْوَه" إله خاصٌّ باليهُود فقط؛ فهُو إلههم وحدهم، يحميهم، ويتسامح معهم، أمَّا بقيَّة البشر؛ فَهُم كالدّواب مخلوقة لخدْمتهم؛ كما جاء في الجَذْر الأوَّل"، ونتيجة لهذَيْن الجَذْرَيْن ينبثق الجَذْر الثَّالث"[1].

الجَذْر الثَّالث: الدّيانة اليهُوديَّة ديانة مُغلقة:

أيْ أنَّ الدّيانة اليهُوديَّة ليست تبشيريَّة أو إنسانيَّة عامَّة، وعلى اليهُود أنْ يُبشِّروا بها بين شعُوب البشر الأُخرى، كما هُو معروف في الدّيانتَيْن النّصرانيَّة والإسلام. فلا يُوجد في الأسفار التّوراتيَّة ما يفيد ذلك، بل إنَّ مُعظم ما في الأسفار مُنصبٌّ على تقرير وتوكيد أنَّهم هُم ـ وحدهم (أيْ بنو إسرائيل) ـ أصحاب هذه الدّيانة، وأنَّ الرَّبَّ هُو ربُّهم وحدهم الخاصّ بهم.

ولكنْ؛ من الثّابت ـ يقيناً ـ أنَّ طوائف كثيرة كبيرة من أُمم أُخرى اعتنقت اليهُوديَّة، وقد مرَّ معنا سابقاً عند الحديث عن تشتُّت اليهُود أنَّ أُمماً شتَّى اعتنقت الدّيانة اليهُوديَّة؛ وخاصَّة قبل المسيحيَّة وبعدها، وكان هُناك تنافس بين الدّيانتَيْن لكَسْب أتباع جُدُد.

وقد تحدَّثنا سابقاً كيف اعتنقت بعض القبائل الجرمانيَّة (الألمانيَّة) اليهُوديَّة في أواسط أُورُوبا، وكذلك بعض الإيرانيِّين والأكراد والهُنُود، بالإضافة إلى انتشار اليهُوديَّة بين بعض القبائل العَرَبيَّة في الجزيرة العَرَبيَّة، وبعض القبائل البربريَّة في المغرب العَرَبي. ولكنْ؛ كان أكبر انتشار لليهُوديَّة في بلاد الخَزَر بعد تهوُّد ملك الخَزَر. وقد حرص اليهُود كُلَّ الحرص على تهويد الخَزَر؛ ليتَّخذوا من إمبراطُوريَّتهم مطيَّة لتنفيذ أهدافهم، وتحقيق غاياتهم بالسّيطرة على العالم، ومُحاربة النّصرانيَّة والإسلام معاً، والقضاء عليهما، أو إضعافهما[2].

ومع كُلِّ ذلك يُحاول اليهُود ـ بكُلِّ وسيلة ـ أنْ يُثبتوا ـ أو يُؤكِّدوا ـ أنَّهم أبناء يعقُوب (إسرائيل)، وأنَّ أنسابهم جميعاً ترجع إليه، أسودهم وأبيضهم، أصفرهم وأحمرهم، وأنَّ ديانتهم مُغلقة ومقصُورة على بني إسرائيل، وأنَّه لم يدخلها أحد مُنذُ يعقُوب ومُوسى عليهما السّلام، وهُم يهدفون من وراء ذلك إلى ما يلي:

---

(1) الأُستاذ مُحَمَّد عزَّت دروزة، "الجُذُور القديمة. ."، ص 19.

(2) راجع الفصل التَّاسع من القسم الأوَّل من الكتاب؛ بحث انتشار اليهُود واليهُوديَّة.

1 : أنْ يُثبتوا حقَّهم بالعودة إلى فلسطين ؛ فهي "أرض الميعاد أو المعاد" ، منها خرجوا ، وإليها يعودون ؛ كما تقول توراتهم .

2 : أنْ يُثبتوا أنَّهم من العرْق السّامي ، وأنَّهم ليسوا غُرباء عن المنطقة ، بل هُم من أبنائها الخُلَّص ، وأنَّ مجالهم في الشّرق العَرَبي يمتدُّ من النّيل إلى الفُرات ؛ حيثُ إنَّ هجرتهم كانت إلى النّيل ، ومنفاهم كان إلى الفُرات .

3 : أنْ يُؤكِّدوا على أنَّهم والعَرَب أبناء عُمُومة ، فَهُم من نسل يعقُوب بن إسحاق بن إبراهيم ، والعَرَب من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم جميعاً السّلام .

4 : أنْ يكسبوا عطف وتأييد العالم المسيحيّ على أنَّهم - بعودتهم إلى فلسطين "أرض المعاد" - إنَّما يُحقِّقون نُبُوءة التّوراة التي يُؤمن بها المسيحيُّون إيمانهم بالإنجيل ؛ وخاصَّة المذهب البرُوتستانتي .

وعلى كُلِّ حال ؛ نعود ونُكرِّر القول : إنَّ الحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ اليهُود - الآن - هُم من شُعُوب وقوميَّات مُتعدِّدة ، لا رابط بينها إلاَّ الدِّين ، وإلاَّ كيف نستطيع أنْ نُرجع يهُود الفلاشا الأحباش ، ويهُود التّاميل السُّود في جنوب الهند ، وكذلك اليهُود الزُّنُوج ، ويهُود اليمن السُّمر إلى أصل واحد ، مع اليهُود الألمان ، والبُولُونيِّين ، والرُّومانيِّين ، والرُّوس . . إلخ ؟! حتَّى إنَّ هُناك يهُوداً من العرْق الأصفر .

هذا ؛ وقد حاول اليهُود البيض في فلسطين أنْ يحصروا اليهُود المُلوَّنين في منطقة النَّقَب ، أو في منطقة الأغوار ، حتَّى يُبعدوهم عن المناطق الأُخرى الكثيفة السُّكَّان ، والتي يقصدها السُّوَّاح ، ليبقى اليهُود أمامهم - وفي نظرهم - شعباً واحداً مُتجانساً .

ومع كُلِّ ذلك هُناك صيحات تتعالى بين اليهُود المُتعصِّبين بين الفَيْنَة والفَيْنَة تُطالب بعدم قبول هجرة اليهُود المُلوَّنين إلى (إسرائيل) ، وحتَّى إبعاد مَنْ هاجر منهم إليها .

والحقيقة أنَّ الدّيانة اليهُوديَّة توقَّفت عن قبول أتباع جُدُد مُنذُ القرن الثَّالث عشر ، والسّبب هُو عدم وُجُود مجال للتّبشير باليهُوديَّة ، واكتساب أتباع جُدُد ، فالوَثَنيُّون في أفريقيا والأمريكيَّتَيْن وأُستراليا وجُزُر جنوب شرق آسيا ، تولَّت تنصيرهم البعثات التّبشيريَّة

المسيحيَّة، والتي لا تترك مجالاً لليهُود للتّبشير بديانتهم فيها. أمَّا التّبشير باليهُوديَّة بين النّصارى والمُسلمين؛ فهُو مُستحيل، لذلك؛ فمُنذُ ذلك التّاريخ أخذ اليهُود في نَشْر وبَثٍّ الادِّعاء بأنَّ ديانتهم اليهُوديَّة مُغلقة مُنذُ ظُهُورها، ولا تقبل أتباعاً جُدُداً.

وكذلك اليهُود لا يقبلون الاندماج أو الانصهار في أيَّة ملَّة أُخرى. وقد جاء في تاريخ سُوريَّة للمُطران الدّبس خبر مفاده: «أنَّ السُّلطات السّلوقيَّة اليُونانيَّة التي قامت في سُوريَّة بعد الإسكندر المقدوني بين 330 ـ 64 ق. م، وشمل سُلطانها فلسطين، حاولت دمج اليهُود في الحياة اليُونانيَّة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة والثّقافيَّة، واستجاب بعضهم إلى ذلك، فأدَّت هذه الاستجابة إلى نزاع شديد بين اليهُود والسّلوقيِّيْن، ثُمَّ إلى ثورة يهُوديَّة عُظمى عُرِفت بالثّورة المكابيَّة (وقد مرَّ ذكْرها أثناء الحديث عن تاريخ اليهُود في القسم الأوَّل من الكتاب). وكان سبب هذه الثّورة هُو رَفْض اندماج اليهُود في حياة أُمَّة أُخرى، والإصرار على البقاء في النّطاق العُنصُري والدِّيني الخاصِّ باليهُود»[1].

الجَذْر الرَّابع: "الوعد وأرض المعاد":

وهُو الوعد الذي قطعه الرَّبُّ لإبراهيم ـ عليه السّلام ـ وذُرِّيَّته من بعده؛ بإعطائهم أرض فلسطين، ولذلك سُمِّيت فلسطين "أرض المعاد، أو الميعاد".

وقد استقطب هذا الوعد جُهُود اليهُود حول تحقيقه وإيجاد الظُّرُوف الدّوليَّة المُلائمة للعودة وتحقيق هذا الحُلم والأمل الذي وعدهم به الرَّبُّ. وقد استمرَّت جُهُود اليهُود والتفافهم حول تحقيق هذا الوعد حتَّى مطلع القرن العشرين، حتَّى جاء اليهُود بقيادة الصّهيُونيَّة لتحقيق هذا الوعد بعد أربعة آلاف سنة من ظُهُور إبراهيم عليه السّلام. وقد استعانوا بالدُّول الاستعماريَّة وعلى رأسها بريطانيا، واستغلُّوا ضعف العَرَب، وتفرُّقهم، ووُقُوع مُعظم أقطارهم تحت نير الاستعمار الأُورُوبي المُتعاطف والمُتعاون مع الصّهيُونيَّة العالميَّة.

أمَّا الوعد كما جاء في التّوراة؛ فهُو: «اذهبْ من أرضكَ، ومن عشيرتكَ، من حيثُ بيتُ أبيكَ، إلى الأرض التي أُريكَ، فأجعلكَ أُمَّة عظيمة، وأُباركك، وأُعظِّم اسمكَ، وتكون

(1) الأُستاذ دروزة، "الجُذُور القديمة..."، ص 22 ـ 23.

بركة، وأُبارك مُباركيكَ، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيكَ جميع قبائل الأرض، فَذَهَبَ أبرام كما قال الرَّبُّ، وَذَهَبَ معه لُوط.. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان.. وكان الكنعانيُّون - حينئذ - في الأرض، وظهر الرَّبُّ لأبرام، وقال له: لنسلكَ أُعطي هذه الأرض»، (سفْر التّكوين، الإصحاح 12، فقرات من 1 - 7).

وإذا نحن[1] وقفنا عند هذا النّبأ العظيم وقفة المُتأمِّل، وناقشنا ما جاء به، وجدناه يشتمل على أُمُور غيبيَّة لا تنطبق - بجُملتها وعظمتها - إلاّ على الأُمَّة العَرَبيَّة لا غير، وذلك للأُمُور التّالية:

1: قوله «فأجعلكَ أُمَّة عظيمة»، فمن المعلوم أنَّ كلا العَرَب واليهُود ينتسب إلى إبراهيم الخليل عليه السّلام: العَرَب من إسماعيل (العَرَب العدنانيَّة) واليهُود من يعقُوب (رغم أنَّ اليهُود الحاليِّين هُم من شُعُوب عديدة اعتنقت اليهُوديَّة). وإذا نحنُ قارنَّا بين العَرَب واليهُود وبين مجد أُولئك وهؤلاء لوجدنا الفرق عظيماً جداً؛ إذْ بينما لا نرى لإسرائيل من المجد والفخر سوى ذلك الشّيء الضّئيل في زمانه ومكانه، والذي كان محصوراً في فلسطين مُنذُ عشرات القُرُون، نجد مجد العَرَب باسم الإسلام قد أظلَّ مُعظم العالم القديم، وامتدَّ من الصّين شرقاً إلى إسبانيا غرباً، ومن جنوب أُورُوبا شمالاً إلى تُخُوم الصّحراء الكُبرى جنوباً، في إمبراطُوريَّة عظيمة لم يعرف التّاريخ قبلها دولة باتِّساعها. وهذا القائد نابليون يقول: «ما أعجب أمر هؤلاء العَرَب، فقد فتحوا العالم في أقلّ من نصف قرن».

هذا من جهة التّاريخ، أمّا من جهة العدد؛ فالعَرَب - الآن - يزيدون على الثّلاثمئة مليوناً، ويمتدُّ وطنهم على شمال أفريقيا والشّام والعراق وجزيرة العَرَب، بالإضافة إلى الصُّومال والسُّودان، بمساحة تصل إلى 12 مليون كيلومتر مُربَّع، بينما اليهُود يبلغ تعدادهم حوالي العشرين مليوناً (بين 16 - 25) مُشتَّتين في أنحاء العالم القديم والجديد، فأيُّهما الأُمَّة العظيمة التي تنطبق عليها نُبُوءة التّوراة: بأنْ يجعل الرَّبُّ من إبراهيم أُمَّة عظيمة؟! اليهُود، أم العَرَب؟

[1] الأُستاذ نذير مرادني، "حقائق إسلاميَّة"، ص 42 - 51، باختصار.

2: وقولـه: «وأُبـاركك، وأُعظِّـم اسـمكَ، وتكـون بركـة»، إنّنـا نـرى أنَّ اليـهُود لا يذكرون ولا يُعظِّمون سوى مُوسى ويعقُوب عليهما السّلام، وليس لإبراهيم عليه السّلام من ذكْر عندهم سوى أنَّه نبي كغيره من الأنبياء، وأنَّه جدُّهم الأعلى.

بينما نحنُ العَرَب والمُسلمين في جميع بقاع الأرض قد بـارك اللهُ إبراهيـمَ، وعُظِّـم اسـمه على ألسنتنا، والمُسلمون والعَرَب يذكرون النَّبيّ مُحَمَّد ـ صلّى الله عليه وسلَّم ـ في صلواتـهم، ويذكرون اسـم إبراهيـم ـ عليه السّلام ـ مـع اسـمه، فيقولـون: اللّهمَّ؛ صـلِّ علـى مُحَمَّد وآل مُحَمَّد، كما صلَّيتَ على إبراهيم وآل إبراهيم، وبـاركْ علـى مُحَمَّد وآل مُحَمَّد، كمـا بـاركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنَّكَ حميد مجيد». (وهي الصّلاة الإبراهيميَّة).

فأين تلك البركة لإبراهيم عليه السّلام عند اليهُود بجانب ما هي عند المُسلمين؟!

وقوله: «وأُبارك مُباركيكَ»، لا شكَّ أنَّ العَرَب والمُسلمين وحدهم الذين يُباركون إبراهيـم عليه السّلام مراراً كثيرة كُلّ يوم في صلواتـهم الخمس، وبذلـك فَوَعْدُ اللـه ـ سُبحانه وتعـالى ـ لا ينطبق إلاَّ عليهم وحدهم، وبركته تعالى ليست إلاَّ لهم وحدهم (وأُبارك مُباركيك).

وقوله: «ولاعنك ألعنُهُ» واللّعنة في اللُّغة هي البُعْد من نعمة الله ورحمتـه، ولا شَكَّ في أنَّ العَرَب والمُسلمين الذين يُباركون إبراهيم عليه السّلام في كُلِّ يوم، وفـي كُلِّ صـلاة لا ينطبق عليهم نبأ اللّعنة. إذنْ؛ لا يبقى إلاَّ الفرع الثَّاني لنسل إبراهيم، وهُم بنو إسرائيل الذين كذَّبوا المسيح، وكذَّبوا مُحَمَّداً عليهما الصّلاة والسّلام، ولـهذا؛ قـال اللـه تعـالى فـي القُرآن المجيـد عنـهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ سُورة المائدة، آية 78.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ الأعراف، آية 167.

وكذلـك قولـه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ آل عُمران، آية 112.

وهذا ما حصل فعلاً عبر تاريخهم: فقد سامهم فرعُون سُوء العذاب، وقضى ملك الآشوريِّين سرجُون الثَّاني على مملكة السّامرة، وسبى أهلها، وأبْعَدَهُم إلى مُرتفعات كُردستان، وقضى ملك الكلدانيِّين (نبوخذ نصر) على مملكة يهُوذا في القُدس، وسبى أهلها إلى بابل، ونكَّل بهم اليُونان في فلسطين أثناء الثّورة المكابيَّة عام 167 ق.م، أمَّا طيطس وهدريان وغيرهم من القادة الرُّومان؛ فقد قضوا على ثوراتهم، ونكَّلوا بهم أبشع تنكيل، وشتَّتوهم من فلسطين، ومنعوهم من دُخُول القُدس.

وفي زمن الرّسول مُحَمَّد ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ قضى على يهُود المدينة المُنوَّرة، وخيبر، وتيماء، بعد أنْ خانوا العُهُود والمواثيق التي عقدوها مع الرّسول الكريم، وتعاونوا مع أعدائه، وتآمروا ضدَّه، وخاصَّة في غزوة الأحزاب (أو الخندق).

هذا؛ بالإضافة إلى المذابح التي لحقت بهم في رُوسيا وبُولُونيا حتَّى المذبحة الكُبرى على يد هتْلَر زعيم ألمانيا النّازيَّة خلال الحرب العالميَّة الثَّانية.

أمَّا قوله: (تتبارك فيكَ جميع شُعُوب الأرض)؛ فلا شَكَّ أنَّ هذه البركة لا تكون إلاَّ من خلال الرّسالة العالية التي كلَّف بها اللهُ جميعَ خلقه باتِّباعها، والإيمان بها، وهذه الرّسالة هي دين الإسلام وحده، الذي جَعَلَه الله ـ سُبحانه وتعالى ـ للنّاس كافَّة، بينما كانت جميع رسالات الأنبياء قبل الإسلام محصُورة في أقوامهم خاصَّة.

3: وقوله: (وظهر الرَّبُّ لإبرام، وقال: لنسلكَ أُعطي هذه الأرض):

وكذلك قوله: (لأنَّ جميع الأرض التي أنتَ ترى، لكَ أُعطيها، ولنسلكَ إلى الأبد، وأجعل نسلكَ كتُراب الأرض، حتَّى إذا استطاع أحد أنْ يعدَّ تُراب الأرض، فنسلكَ ـ أيضاً ـ يُعدُّ)، سفْر التّكوين، إصحاح 13، من 15 ـ 17.

وقال أيضاً: (لنسلكَ أُعطي هذه الأرض؛ من نهر مصر إلى النّهر الكبير الفُرات)، سفْر التّكوين، إصحاح 15، من 18 ـ 19.

وقال أيضاً: (انظرْ إلى السّماء، وعدَّ النُّجُومَ، إنْ استطعتَ أنْ تعدَّها، وقال: هكذا يكون نسلكَ) سفْر التّكوين، إصحاح 15، من 5 ـ 6.

نُلاحظ ممَّا سَبَقَ والوارد في سفْر التّكوين من التّوراة أنَّ كُلَّ هذه الأنباء لـم تكـن خاصَّـة بـأحد أولاد إبراهيـم عليـه السّـلام، بـل لنسـله عامَّـة، وهـل نسـله ذُرِّيَّـة يعقُـوب فقــط؟! إنَّ لإسماعيل بن إبراهيم عليه السّـلام وذُرِّيَّتـه حظّاً ونصيباً بـهذه الأنبـاء، وهُـم ـ فـي الحقيقـة ـ المقصودون بمُلك أرض المعاد فلسطين، وإلى الأبد (والتّاريخ يُؤيِّد ذلك).

وأُحبُّ أنْ أُضيف هُنا أنَّ "عيسو أو أدوم" ابن إسحاق وتوأم يعقُوب (انظر شـجرة نَسَـب إبراهيم)، والذي خرج منه الأدوميُّون، وكوَّنوا دولة لهم في أقصى جنوب بـلاد الشّـام؛ هُـو ـ أيضاً ـ من نسل إبراهيم عليه السلام، وقد امتزج الأدوميُّون بالعَرَب، وذابوا فيهم. وبنـو إسـرائيل لا يعترفون أنَّهم منهم، وأبناء عُمُومتهم، بل عندما خرج مُوسى من مصر ببني إسـرائيل إلـى سيناء اصطدم بالأدوميِّين، وحاربهم.

وكذلك أولاد إبراهيم عليه السلام من زوجته "قطورة"؛ وهُم ستَّة: زمـران، يقشـان، مـدان، مدين، يشباق، شوح، وقد تكاثروا في شمال الجزيرة العَرَبيَّة وجنـوب بـلاد الشّـام وسـيناء، وامتزجوا بأولاد عُمُومتهم ذُرِّيَّة إسماعيل وذُرِّيَّة آدوم. وهكذا نـرى أنَّ جميـع ذُرِّيَّـة إبراهيـم عليه السلام هُم أجداد العَرَب وأصلهم (ما عدا ذُرِّيَّة يعقُوب بن إسحاق بـن إبراهيـم عليـهم السّـلام الذين ميَّزوا أنفسهم من باقي أبناء عُمُومتهم).

4: وجاء في التّوراة بعد أنْ وَهَبَ اللهُ لإبراهيـم ابنَـهُ إسـماعيل ـ عليـهما السّـلام ـ قـول الرَّبِّ له: « وتكون أباً لجُمهُور من الأُمم، فلا يُدعى اسمكَ ـ بَعْدُ ـ إبرام، بل يكون إبراهيم؛ لأنِّي أجعلكَ أباً لجُمهُور من الأُمم، وأُثمِّرك كثيراً جدّاً، وأجعلك أُمماً. . وأُقيم عـهدي بينـي وبين نسلكَ من بعدكَ في أجيال عهداً أبديّاً. . وأُعطي لكَ ولنسلكَ مـن بعـدكَ أرض غُربتـكَ كُلَّ أرض كنعان ملكاً أبديّاً». (سفْر التّكوين، إصحاح 17، فقرة من 4 ـ 8).

فإبراهيم ـ عليه السّلام ـ لم يُصبح اسمه إبراهيم، إلاَّ بعد ولادة ابنه إسماعيل، وأنَّ الله ـ تعالى ـ سمَّاه بهذا الاسم؛ لأنَّه أراد جعله أباً لجُمهُور من الأُمم، وهذا يُؤيِّـد الأنبـاء السّـابقة التي تُشير إلـى مُباركـة أُمم الأرض لإبراهيـم عليه السلام، وهـذا كُلُّه لا يكـون إلاَّ علـى يـد سـليل إسماعيل سيِّدنا مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا يعني ـ أيضاً ـ أنَّ إسـماعيل ـ عليـه السّـلام ـ هُو الوارث الأبدي لأرض المعاد؛ لأنَّه منه تكون المُباركة الأبديَّة.

والخُلاصة أنَّ أرض المعاد ليست لأبناء إسرائيل واليهُود، وإنَّما لأبناء إسماعيل والعرَب، وأنَّ الوعد كان لهم، وليس لليهُود، وذلك بنصِّ التّوراة نفسها كما أسلفنا. ولكنَّ كُتَّاب سفْر التّكوين نقلوا الوعد إلى إسحاق دُون إسماعيل. فقد جاء في هذا السِّفْر قول الرَّبِّ لإبراهيم: «إنَّ سارة ستلد لكَ ابناً تُسمِّيه إسحاق، وأُقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده»، (سفْر التّكوين، الإصحاح 17، فقرة 18 ـ 20)، وفي هذا السِّفْر، وفي الإصحاح نفسه؛ يُكرِّر الرَّبُّ العهدَ لإسحاق، ولكنَّ التّكثير يقصره على إسماعيل؛ حيثُ يقول: (وأمَّا إسماعيل؛ فقد سمعتُ لكَ فيه، ها أنا أُباركه، وأُثمِّره، وأُكثِّره كثيراً جداً، اثنَيْ عشر رئيساً يَلد، وأجعله أُمَّة كبيرة، ولكنَّ عهدي أُقيمه مع إسحاق الذي تلده لكَ سارة في هذا الوقت في السّنة الآتية)، تكوين، إصحاح 17، فقرة 20 ـ 22.

وكذلك لم ينسوا أنْ يُوثِّقوا هذا الأمر بالنّسبة ليعقُوب بن إسحاق (الذي ينتسب إليه اليهُود)؛ حيثُ جاء في هذا السِّفْر: (إنَّ يعقُوب رأى الله في منامه حينما كان في طريق عودته من بلد خاله حاران إلى أرض كنعان؛ حيثُ كان يُقيم أبوه، وقال له: أنا الرَّبُّ إله إبراهيم، وإله إسحاق أبيكَ. الأرض التي أنت مُضطجع عليها لكَ أُعطيها، ولنسلكَ. ويكون نسلكَ كتُراب الأرض، وتنمو غرباً وشمالاً وجنوباً، ويتبارك بكَ وبنسلكَ جميع قبائل الأرض)، سفْر التّكوين، إصحاح 28، فقرة 13 ـ 15.

نرى ـ ممَّا تقدَّم ـ أنَّ الوعد الأوَّل كان لإبراهيم الجدِّ الأعلى، ثُمَّ إلى إسحاق، مُتخطِّياً بكْرَ إبراهيم إسماعيل، ثُمَّ ليعقُوب، مُتخطِّياً بكْر إسحاق عيسو أو أدوم (عيسو ويعقُوب توءمان، وكان خُرُوج عيسو من بطن أُمِّه أوَّلاً، ثُمَّ يعقُوب، وسُمِّيَ يعقُوب؛ لأنَّه خرج من بطن أمه عَقبَ أخيه عيسو).

وعلى كُلِّ حال؛ لي على هذا الوعد التّوراتي المُلاحَظات التّالية:

1: إنَّ الرَّبَّ قال لإبراهيم إنَّه سيجعل نسله كتُراب الأرض، وقال لإسماعيل: كذلك ويعقُوب أيضاً (عليهم السّلام)، ولكنَّ الذي تحقَّق هُو وعد إسماعيل، فمن نسله العرَب الذين يبلغون أكثر من ثلاثمئة مليون، أمَّا اليهُود؛ فأقلُّ من عشرين مليوناً (هذا على اعتبار أنَّهم كُلّهم من نسل يعقُوب، وهذا ادِّعاء كاذب، ليس له سند تاريخي).

2: إنَّ الرَّبَّ وعد يعقُوب أنَّه سيردُّه إلى أرض كنعان، وكان يعيش في شمال سُوريَّة في حاران؛ حيثُ ذَهَبَ للزّواج من ابنة خاله "لابان". وقد وفى الرَّبُّ بوعده، وردَّه إلى فلسطين، وعاش فيها، حتَّى رحل عنها بنفسه إلى مصر دُون إكراه.

3: وأنَّ الرَّبَّ قد وفى بوعده - أيضاً - حين ردَّ بني إسرائيل (ذُرِّيَّة يعقُوب) إلى أرض كنعان بقيادة يُوشع خليفة مُوسى عليه السّلام، بعد أنْ سامهم فرعُونُ مصر سُوءَ العذاب.

4: وأنَّ الرَّبَّ قد ردَّ اليهُود من الأَسْر البابليّ إلى فلسطين على يد ملك الفُرْس كُورش، بعد أنْ سباهم بختنصر.

وبذلك؛ فإنَّ الله (حسب التّوراة) قد وفى بوعده ليعقُوب وذُرِّيَّته ثلاث مرَّات.

5: ثُمَّ شتَّتهم الرُّومان على يد طيطس وهدريان، وحرَّموا عليهم العيش في القُدس وفلسطين، والآن؛ عادوا إليها على يد الصّهيُونيَّة. ولا شَكَّ أنَّ مصيرهم في العودة الرَّابعة سيكون كمصيرهم في العودات السّابقة بإذن الله، والله مع الصّابرين. فقد طغى اليهُود، وبغوا، وانتهكوا الحُرُمات، وظلموا، وشرَّدوا الشّعب العَرَبي من فلسطين، والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سُورة الحجّ، آية 39 - 40.

إسماعيل الذّبيح (عليه السّلام):

لم يكتف اليهُود بأنْ حصروا الوعد وأرض المعاد بإسحاق، ثُمَّ بابنه يعقُوب دُون ذُرِّيَّة إبراهيم الأُخرى، بل جَعَلوا الذّبيح إسحاق، وليس إسماعيل، وذلك عند امتحان إبراهيم وابتلائه بذَبْح ابنه.

تقول التّوراة: إنَّ الله خاطب إبراهيم بقوله: (خُذْ ابنكَ وحيدكَ الذي تُحبُّه إسحاق)، (تكوين، إصحاح 22، فقرة 2)، مع أنَّ وحيده كان إسماعيل، ولم يكن إسحاق الذي وُلد بعد إسماعيل، ولو كان إسحاق هُو المقصود لما قال له الرَّبُّ "خُذ ابنكَ وحيدكَ". ولا يُمكن

القول بأنَّ المقصود من لفظ وحيدكَ؛ أيْ وحيدكَ بالمحبَّة؛ لأنَّ إسماعيل كان موضع حُبٍّ أبيه أيضاً، كما يظهر من مُطالعة التّوراة في أماكن كثيرة، بالرّغم من كُره زوجته سارة لإسماعيل، وإبعاده وأُمّه إلى مكان مكّة المُكرَّمة الآن.

وتُضيف التّوراة أنَّ الله قال لإبراهيم حين هَمَّ بذَبْح ابنه: «لا تمدَّ يدكَ إلى الغُلام، ولا تفعل شيئاً؛ لأنّي ـ الآن ـ علمتُ أنّكَ خائفاً الله، فلم تُمسكْ ابنكَ وحيدكَ عنّي»، (سفْر التّكوين، إصحاح 22، فقرة 12 ـ 13)، وهُنا يتبيَّن ـ صراحة ـ بأنَّ ابنه الذي هَمَّ بذَبْحه كان وحيده، ووحيده كان إسماعيل عليهما السّلام.

ثُمَّ قال له الرَّبُّ: (من أجل أنّكَ فعلتَ هذا الأمرَ، ولم تُمسكْ ابنكَ وحيدكَ أُباركك مُباركةً، وأُكثّر نسلكَ كثيراً كنُجُوم السّماء، وكالرّمل الذي على الشّاطئ، ويرث نسلكَ بابَ أعدائه، ويتبارك في نسلكَ جميع الأُمم)، (سفْر التّكوين، إصحاح 22، فقرة 17 ـ 18).

وهُنا ـ للمرَّة الثّالثة ـ يُؤكّد أنَّ الذّبيح كان وحيده، وأنَّ أعظم امتحان للمرء أنْ يُمتحَنَ بذَبْح ابنه الوحيد. وإسماعيل هُو الذي وُلد أوّلاً، وكان هُو الوحيد، ثُمَّ إنَّ البُشرى بتكثير النّسل كنُجُوم السّماء، ورمل شاطئ البحر، لا تنطبق إلاَّ على إسماعيل عليه السّلام، فَنَسْلُهُ من العَرَب (كما قُلنا) أضعاف أضعاف ذُرِّيَّة يعقُوب بن إسحاق، والإسلام تباركتْ به جميع أُمم الأرض، بينما اليهُود كانوا ـ ولا يزالوا ـ في صراع دائم مع أُمم الأرض، واليهُوديَّة دين مُغلَق، وتحتقر غيرَ اليهُود، وتعتبرهم كدوابِّ الأرض، فكيف تكون بركة على جميع الأُمم؟!

والآيات في القُرآن الكريم الخاصَّة بحادثة الذَّبْح لم تذكر اسم ولد إبراهيم المقصود بالذَّبْح، ولكنَّ سياق الكلام، وذكْر تبشير إبراهيم بإسحاق لا يكاد يُبقي شكّاً في أنَّ الذّبيح هُو إسماعيل عليه السلام، وهذه الآيات الكريمة الواردة في هذا الأمر: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (تلّه؛ أيْ صرعه، وألقاه على عُنقه وخدِّه) ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ الصّافات 99 ـ 113 .

ولا شَكَّ في أنَّ الضّمير في "عليه" راجع إلى الذّبيح (أيْ باركْنا على إسماعيل، وعلى إسحاق)، والإتيان بالبُشرى بإسحاق بعد ذكْر قصَّة الذّبيح ـ في الآيات السّابقة ـ يدلُّ ـ صراحة ـ على أنَّ إسحاق غير الغلام الذي ابتُليَ إبراهيم بذَبْحه، وهذا يُشير ـ بشكل جليّ ـ إلى أنَّ الذّبيح هُو إسماعيل، وليس إسحاق، بالإضافة إلى أنَّ إسماعيل وُلد قبل إسحاق، وهُو ابنه البكْر. وفي حديث رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ما يُؤيِّد أنَّ الذّبيح كان إسماعيل عليه السّلام، وذلك في قوله عليه الصّلاة والسّلام: «أنا ابن الذّبيحَيْن»؛ يعني إسماعيل وعبد الله والده (الذي افتداه عبد المُطَّلب بنَحْر مائة بعير في قصَّة مشهورة ومعروفة).

وباعتقادي أنَّ اليهُود حشروا اسم إسحاق حشراً في غُضُون كلام التّوراة كما جاء: « خُذْ ابنكَ وحيدكَ إسحاق » (سفْر التّكوين، إصحاح 22) وذلك حرصاً منهم على أنْ يكون الذّبيح هُو أباهم إسحاق الذي جاد بنفسه طاعة لربِّه وأبيه، وهذا ليس بعيداً عن أخلاقهم وسُلُوكهم وجُرأتهم على تحريف كلام الله.

ومسألة الذّبح وقعتْ في مكَّة المُكرَّمة؛ حيثُ كان إسماعيل يعيش مع أُمِّه هاجر، وكان عُمره عندما وُلد إسحاق 14 سنة.

وهكذا؛ فكما حرَّف اليهُودُ الوعدَ والعهدَ من إسماعيل إلى إسحاق حرَّفوا الأمر بالذّبح ـ أيضاً ـ من إسماعيل إلى إسحاق.

القُرآن الكريم والوعد وأرض المعاد[1]:

والآن؛ هل لهذا الوعد وأرض المعاد ذكْر في القُرآن الكريم، وإشارة إليه؟

---

(1) راجع مُناقشة حقيقة الوعد وأرض المعاد في القسم الأوَّل من كتابنا هذا؛ فهي تُلقي الضّوء على حقيقة هذا الوعد بشكل واضح.

إنَّ الله ـ سُبحانه وتعالى ـ يُقرِّر ـ في القُرآن الكريم ـ أنَّ سُنَّته ـ تعالى ـ في الأرض ودُستُوره في ميراثها هُو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (سُورة الأنبياء، آية 105).

إذنْ؛ فالأرض يرثها عباد الله الصّالحون، ويبقى الميراث مادام صلاحهم، وإذا فسدوا وحادوا عن الطّريق القويم، فإنَّ الله ينزع ميراثها منهم، ويُورثها لغيرهم، ويُسلِّط عليهم مَنْ يسومهم سُوء العذاب. وهكذا؛ فلا ميراث دائم، ولا وعد دائم ينتقل من جيل إلى جيل، وإنَّما هي أعمال الفرد والجماعة تُحدِّد ما ينالهم من خير، وما يحيق بهم من شرٍّ؛ كما يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فُصِّلَتْ، آية 46، ثُمَّ يقول تعالى مُخاطباً بني إسرائيل: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ الإسراء، آية 7.

إنَّها قواعد لا تتغيَّر، وهي تجعل الإنسان كُلّه له بكُلِّ ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعيَّة للعمل، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه، إنْ شاء أحسن لها، وإنْ شاء أساء، لا يلومنَّ إلاَّ نفسه؛ حيثُ يحقُّ عليه الجزاء كما يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فاطر، آية 18.

أمَّا قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ سُورة البقرة، آية 122 ـ 123.

فقد يُفهَم من قوله تعالى: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أنّهم مُفضَّلون على كُلِّ الخَلْق، وهذا يقود إلى قول اليهُود بأنَّهم "شعب الله المُختار"، ولكنَّ هذا التّفضيل لبني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختبارهم، أمَّا بعد ما عَتَوا عن أمر ربِّهم، وعصوا أنبياءهم، وقتلوهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلّوا عن التزاماتهم وعهدهم،

---

(1) الزّبور: هُو عند أهل الكتاب "المزامير"، وعددها 150 مزموراً، منسوب مُعظمها لداود عليه السّلام، كما يقول تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ سُورة النّساء، 163. وهي عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمَّن تسبيح الله، وحمده، والثّناء عليه، والتَّضرُّع له، (هذا ما جاء في قَصَص الأنبياء للأُستاذ عبد الوهاب النّجّار، ص 311).

فقد أعلن اللهُ حُكْمَهُ عليهم باللّعنة، وغضب عليهم، وَضَرَبَ عليهم الذِّلّةَ والمَسْكَنَةَ، وقضى عليهم بالتّشريد، وحقّ عليهم الوعيد كما يقول تعالى في الآيات التّالية: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ المائدة، آية 78.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة، آية 61.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأعراف، آية 167.

نرى من الآيات الكريمة السّابقة أنَّ الله: لَعَنَ الذين كفروا منهم، وَضَرَبَ عليهم الذِّلّة والمسكنة، وغضب عليهم، وتعهّد بأنْ يبعث مَنْ يسومهم سُوء العذاب إلى يوم القيامة. فكيف يكون هذا من ربِّ العالمين لشعبه المُختار؟!

أمّا من حيثُ انتقال الوعد والعهد من إبراهيم إلى إسحاق، ثُمَّ إلى يعقوب - عليهم السّلام - دُون بقيَّة أبناء إبراهيم، ودُون ابن إسحاق عيسو (آدوم)؛ فقد جاء في القُرآن الكريم بخُصُوص ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ سُورة البقرة، آية 124.

يقول صاحب الظّلال في تفسير هذه الآية: «يقول الله تعالى للنّبي مُحَمَّد - صلّى الله عليه وسلَّم - أُذكُر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتّكاليف، فأتمَّهنَّ إبراهيم وفاءً وقضاءً.. وقد شهد اللهُ لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النّحو الذي يُرضي الله، فاستحقّ شهادته تعالى الجليلة بقوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (سُورة النّجم، آية 37)، وهُو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم عليه السّلام؛ وهُو مقام "الوفاء"؛ عندئذ؛ استحقّ البُشرى، أو تلك الثّقة: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، وإماماً؛ أيْ قُدوة، هُنا تُدرك إبراهيمَ فطرةُ البشر، وهي الرّغبة في امتداد هذه البُشرى، وهذه الإمامة والقيادة إلى الذُّرّيّة والأحفاد، فيقول لله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ هُنا يأتيه الرَّدُّ الحاسم من الله

العزيز الحكيم، الذي يُقرِّر القاعدة الكُبرى، وهي أنَّ الإمامة لِمَنْ يستحقُّها بالعمل الصّالح والإيمان، وليس وراثة أصلاب وعلاقة أنساب ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وهكذا؛ فالوعد والعهد والبُشرى والإمامة تكون لإرضاء الله، ولا تكون وراثة، بل بالعمل وتقوى الله، فلا ينال عهدَهُ تعالى القومُ الظّالمون.

الجَذْر الخامس: غدر اليهُود، واستباحة أموال النّاس، ووحشيَّتهم المُفرطة:

سنتحدَّث في هذا الجَذْر عن بعض نواحي سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم مُستقاة من قَصَص وأخبار جاءت في التّوراة تُشير إلى غدر اليهُود واستباحتهم أموال الغير ووحشيَّتهم الرّهيبة عندما يتمكّنون من عدوِّهم، وقد أصبحت هذه الصّفات ديدنهم عبر تاريخهم؛ لأنَّ تسجيلها في التّوراة، وتداولها بينهم جَعَلَهم يتّصفون بها، وتتعمَّق جُذُورها في نُفُوسهم، وتُوجِّه سُلُوكهم وعلاقتهم بالأغيار، حتَّى أصبح النّاس - في كُلِّ زمان ومكان - لا يأمنون جانبهم، ولا يطمئنُّون إليهم؛ ومنها:

أ: مثال على الغدر والخيانة والقسوة البالغة:

جاء في سفْر التّكوين، الإصحاح 34، تسجيل لحادث وقع بين يعقُوب وأبنائه من جهة، وملك شكيم (نابلس) من جهة أُخرى، ومُلخَّص الحادث: أنَّ شكيم بن حمور (وحمور هُو ملك[1] مملكة شكيم نابلس)، وكان يعقُوب قد نزل بجوار بلدة شكيم بإذن ملكها (أو رئيسها) وهُو عائد من حاران إلى فلسطين هُو وأولاده، وقد أَحَبَّ شكيم بن حمور ابنة يعقُوب "دينة" من زوجته "ليئة" وتمكَّن منها، ثُمَّ خطبها أبوه حمور من يعقُوب لتكون زوجة لابنه شكيم. وتشاور يعقُوب وأولاده، فوافقوا مع إضمار نيَّة الغدر؛ حيثُ قالوا: إنَّنا لا نستطيع أنْ نُزوِّج أُختنا لرجل أقلف (غير مختون)؛ لأنَّ ذلك عار علينا، فإذا اختتنَ كُلُّ ذَكَر عندكم، فحينئذ؛ نُوافقكم، ونُصاهركم، ونصير شعباً واحداً؛ (وقد أشار السِّفْر على أنَّ هذا كان من أبناء يعقُوب على سبيل الكيد والمكر)، ووافق الملك حمور وولده شكيم، واختتنَ جميع ذُكُور المدينة، وحينئذ؛ دَخَلَ أبناء يعقُوب المدينةَ مُشهرين سُيُوفهم، وقتلوا كُلَّ ذَكَر فيها، بِمَنْ فيهم الملك، وابنه، اغتناماً لفُرصة جراح الختان وآلامه، وسبوا

---

(1) علينا أنْ نعرف أنَّ كلمة "ملك" في تلك الأزمان كانت تُطلَق على كُلِّ رئيس عشيرة أو عائلة أو أيِّ تجمُّع سُكَّاني كان صغيراً أو كبيراً، بدويّاً أو حضريّاً، وليس بمعنى الملك الآن.

جميع النّساء والأطفـال، واستاقوا ما فيها من مواشي (بقر وغنم وحمير) ونهبوا جميع أموالها، وفرّوا إلى منطقة أُخرى تحصَّنوا بها لفترة، ثُمَّ ارتحلوا إلى حبرون.

وفي الحادث؛ صُورة مُفزعة من الغدر والخيانة والقسوة البالغة نحو أهل بلد أكرموهم، ووافقوا على النُّزُول في أرضهم، وفي جوارهم، وذلك بسبب نزوة غراميَّة لشخص منهم مع أنَّ ملك البلد وأهل البلد أظهروا كُلَّ استعداد لتلافي الأمر، وإصلاح الخطأ، ووافقوا على شُرُوط يعقُوب وأولاده، بالإضافة إلى أنَّ ابنة يعقوب "دينة" لم تُغتصَب اغتصاباً، وإنَّما كان الأمر برضاها ومُوافقتها، فقد بادلتْ شكيم بن حمور الحُبَّ والغرام.

ب: مثال على استباحة أموال النّاس بغير حقٍّ:

وَرَدَ في سفْر الخُرُوج، الإصحاح الثَّاني عشر، فقرة 24 ـ 27، تسجيل لمُؤامرة تآمر بها بنو إسرائيل عند خُرُوجهم من مصر مع جيرانهم المصريِّين؛ حيثُ أُمرت النّساء الإسرائيليَّات بأنْ تطلب كُلُّ واحدة من جارتها أو نزيلة بيتها أمتعةً من فضَّة وذَهَب وثياب، فتكون غنيمة وسلباً، ولا ينصرفون عن مصر فارغي اليد. ويقول السِّفْر: إنَّ الرَّبَّ أتى الشّعب (يقصد بني إسرائيل) حظوة في عُيُون المصريِّين، فأعاروهم ما طلبوه، وسلبوا المصريِّين.

وتسجيل الجَذْر بهذا الأُسلُوب جَعَلَهُ من الجُذُور التي كانت ـ وظلَّت ـ تتحكَّم في أخلاق بني إسرائيل واليهُود، تُسيغ لهم استحلال أموال النّاس، وسَلْبها بأيَّة وسيلة كانت، ولو لم تكن بينهم حالة عداء وحرب ودفاع عن النّفس، بل ولو كان بينهم وبين ذلك الغير حُسن توافق، وتوادّ، وتعايش، ولو كان بين المصريِّين وبني إسرائيل عداء مُستحكم لما أعارت النّساء المصريَّات حليّهنَّ وثيابهنَّ للإسرائيليَّات ليلة خُرُوجهم من مصر، ويظنُّ أنَّ العداء كان بين السُّلطة الحاكمة وبين اليهُود التي استعبدتْهُم، وسامتْهُم سُوء العذاب.

ج: مثال على وحشيَّة اليهُود الفظيعة:

في سفْر يُوشع، الإصحاح الحادي والعشرين، ذكر ما قام به اليهُود من ذَبْح جميع سُكَّان مدينة أريحا دُون استثناء للنّساء والشُّيُوخ والأطفال، حتَّى الحيوانات ذُبحت في تلك المدينة المنكوبة، وهذا ما حلَّ ـ أيضاً ـ بمدينة "العي"، وغيرها من المُدُن الفلسطينيَّة.

لقد نفَّذ يُوشع في أريحا وغيرها من المُدُن الأوامر التي أمرهم بها الرَّبُّ عند دُخُول فلسطين أرض المعاد، وهذا ما جاء في سفْر التّثنية في أوّل الإصحاح السَّابع؛ وهُو: « إذا أدخلكَ الرَّبُّ إلهكَ الأرضَ التي أنت صائرٌ إليها لترثها، فاستأصلَ أُمماً كثيرة من أمام وجهكَ: الحِثّيّيْن، والجرماشيّيْن، والأمُوريّيْن، والكنعانيّيْن، والفرزيّيْن، والحويّيْن، واليبوسيّيْن، سبع أُمم أعظم وأكثر منكَ، فأسلم الرَّبّ إلهكَ، وضربتهم، فأبسلهم إبسالاً (يعني أبدهم)، لا تقطعْ معهم عهداً، ولا تأخذكَ بهم رأفة، ولا تُصاهرهم» (الأُمم المذكورة ليست أُمماً بالمعنى المعروف الآن، بل هي عبارة عن عشائر كانت تسكن فلسطين).

انظر إلى هذه التّوجيهات الرّهيبة من إله اليهُود "يَـهْوَه"، والتي صبغت تصرُّفاتهم تجاه الأغيار بالقسوة والوحشيَّة المُتناهية، إنَّه جَذْرٌ رهيب لازَمَ تاريخ اليهُود حتَّى اليوم، وقد ذاق عَرَب فلسطين ولُبنان من هذه القسوة والمذابح الرّهيبة طوال قرن من الزّمان، وآخرها مذبحة قانا البشعة، وبعدها مذبحة جنين حديثاً، وقبلها كانت مذبحة الخليل، التي فاقت بشاعتها كُلَّ حدٍّ، وكُلَّ تصورٌ؛ لأنَّها قَتْلُ الأبرياء وهُم مُستغرقون في عبادة الله، وفي بيت الله (الجامع الإبراهيمي).

هذا ما جاء في توراة اليهُود المُحرَّفة، لأنَّه لا يُمكن أنْ يُنزِّل الله كتاباً يأمر فيه بمثل هذا الذي مرَّ معنا. إنَّ الله يأمر بالرّحمة والتّسامح وعدم أكل أموال النّاس بالباطل، ويأمر بالعدل والإحسان وصلة الرّحم، وينهي عن الفحشاء والمُنكر والبغي، ويطلب الوفاء بالعُهُود؛ كما يقول تعالى في القُرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النّحل، آية 90 - 91.

(وقد مرَّ معنا في القسم الأوّل من الكتاب الكثير من غدر اليهُود ووحشيَّتهم).

الجَذْر السَّادس: التّعاليم الأخلاقيَّة وقواعد المُعاملات في اليهُوديَّة تقتصر على اليهُود فقط:

وهكذا؛ فوصايا مُوسى عليه السلام العشرة، والحضُّ على مكارم الأخلاق والسُّلُوك الحَسَن، وعدم الغشِّ والصّدق في التّعامل لا يكون إلاَّ بين اليهُود أنفسهم، أمَّا مع الأغيار؛ فيكون بدُون وازع من أخلاق أو ضمير، فكُلُّ شيء مُحرَّم بين اليهُود هُو مُباح بين اليهُود والأغيار.

إنَّ هذا الجَذْر الرّهيب أدَّى إلى احتكار اليهُود لأعمال يأبى المُسلم أو المسيحيّ أنْ يقوم بها، ويترفَّع عنها؛ نظراً لأنَّها مُحرَّمة، أو تتنافى مع الأخلاق وقواعد السُّلُوك؛ مثل:

1: الرّبا: فقد اقتصر التّعامل الرّبوي على اليهُود تقريباً، فكان المُرابون - عبر العُصُور التّاريخيَّة - من اليهُود، والرّبا مُحرَّم في الدّيانة اليهُوديَّة بين اليهُود، لكنَّه مُباح، بل ومطلوب بين اليهُود والأغيار؛ لاستغلال حاجتهم، واستلاب أموالهم، وتسخيرهم لخدمتهم.

وفي العصر الحاضر نجد أنَّ مُعظم الصّيارفة وأصحاب البُنُوك هُم من اليهُود، بالإضافة لسيطرتهم على البُورصات العالميَّة، والمُضاربات؛ وخاصَّة في أُورُوبا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

2: تجارة الرّقيق: اليهُود - مُنذُ القدم - هُم تُجَّار الرّقيق؛ وخاصَّة الرّقيق الأبيض من الجواري والغلمان، وهذه التّجارة - بالنّسبة لهم - كمَنْ يُتاجر بالحيوانات (من مواشي وأغنام وإبل.. إلخ)، فالأغيار عند اليهُود هُم والحيوانات سواء، لذلك؛ فالتّجارة بهم لا ضير فيها، ولا إثم.

3: البغاء: إنَّ اليهُود هُم - تقريباً - أصحاب أقدم مهنة في العالم، ومُديروها؛ وهي مهنة البغاء. فَدُورُ البغاء - وما تحتاجه من فتيات - كانت - في مُعظمها - من اختصاص اليهُود؛ وهُم المُسيطرون عليها، والزّنى في الدّيانة اليهُوديَّة مُحرَّم بين اليهُود، ولكنَّ الزّنى بين اليهُوديّ وغير اليهُوديَّة لا غُبار عليه، ولا يحقُّ لزوجة اليهُوديّ الاعتراض عليه، حتَّى ولو كان في بيت الزّوجيَّة، واغتصاب نساء وبنات الأغيار لا إثم فيه عند اليهُود.

واليهُود يعتبرون العلاقات الجنسيَّة بين الأغيار كالعلاقات الجنسيَّة بين الحيوانات، لذلك؛ فعقُود الزّواج بين الأغيار باطلة.

من هُنا؛ جاءت سيطرة اليهُود على دُوْر الدّعارة في العالم دُون وازع من دين، أو رادع من أخلاق.

4: كان وكلاء الإقطاعيِّيْن في أُورُوبا في العُصُور الوُسْطى من اليهُود، وكانوا هُم الواسطة بين الإقطاعيِّيْن في قُصُورهم وقلاعهم وبين فلاَّحيهم في إقطاعيَّاتهم.

ولم يكن هذا الاختيار عن عبث، فقد كان الإقطاعيُّون لا يطمئنُّون إلاَّ لليهُود في إدارة إقطاعيَّاتهم، والإشراف عليها، فالفلاَّحون - بالنّسبة للوكيل اليهُوديّ - هُم من الأغيار، ومسيحيُّون أعداء، لذلك؛ فهُو الوحيد القادر أنْ يخدم الإقطاعي بكُلِّ إخلاص وتفانٍ، ويُنفِّذ تعليماته بكُلِّ ما فيها من قسوة وظُلم ضدَّ فلاَّحيه المسيحيِّيْن.

5: مُعظم المُهرِّبين وتُجَّار المُخدّرات (وخاصَّة الكبار منهم) هُم من اليهُود. واليهُود أكبر المُضاربين في العالم، وبيدهم تجارة الذّهب واحتكار تجارة الألماس.

خاتمة وخُلاصة حول الجذُور اليهُوديَّة:

رأينا - فيما سَبَقَ - سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم المُنبثقة عن مُعتقداتهم الدِّينيَّة الواردة في توراتهم وتلمودهم، بالإضافة إلى توجيهات كبار حاخاماتهم وتعاليم مجمعهم الدِّيني "السّنهندرين" "برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون"، وأخيراً؛ تعاليم جمعيَّة العهد "البَنّاي بريت"، التي فضحت أهدافهم ونواياهم وأنانيَّتهم المُفرطة. وقد نتج عن كُلِّ ذلك مُعتقدات وسُلُوكيَّات وتصرُّفات غريبة عند اليهُود، أهمّها كما مرَّ معنا: أنَّهم شعب الله المُختار، وأنَّ إلههم لهم وحدهم، وأنَّ جميع الأغيار مُسخَّرون لهم، ولخدمتهم، تسخير الدَّوابِّ لخدمة الإنسان.

وزادوا على ذلك أنَّ دينهم مُغلق وغير تبشيري كالمسيحيَّة والإسلام، وذلك لإضفاء الصّفاء والنّقاء لعرْقهم، وأنَّهم ذريَّة يعقُوب عليه السلام، فَهُم "بنو إسرائيل"، لم يختلطوا بأحد، ولم يندمجوا بشعب ودينهم يقتصر عليهم وحدهم (وقد رأينا - فيما سَبَقَ في القسم الأوَّل

من هذا الكتاب ـ بُطلان هذا الادِّعاء وكذبه)، وأنَّ "أرض المعاد" أرضهم وحدهم، وعودتهم إليها ضرورة دينيَّة.

ونتيجة لذلك فإنَّ الدّعوة لمكارم الأخلاق، وحُسن المُعاملة، وإحقاق الحقِّ، وتجنُّب الظُّلم والاعتداء على حُقُوق الآخرين، لا تكون إلاَّ بين اليهُود أنفسهم، أمَّا بين اليهُود وغيرهم من سائر البشر؛ فلا يتورَّع اليهُوديّ أنْ يقوم بأحطِّ الأعمال، وأسوأ المُعاملات. والوصايا العشر[1] وغيرها من مكارم الأخلاق التي دعا إليها مُوسى عليه السّلام لا تنطبق ولا تُنفَّذ إلاَّ بين اليهُود فقط، لذلك؛ فالكذب، والغشُّ، والخداع، والسّرقة، والاغتصاب، والاستحواذ على أموال النّاس بالباطل، وشهادة الزُّور، والرِّبا، والزّنى.. إلخ، كُلُّ ذلك مُباح بين اليهُوديّ والأغيار، أمَّا بين اليهُود أنفسهم؛ فلا يجوز ذلك، وهُو مُحرَّم عندهم قَطْعاً.

من هُنا؛ كان اليهُود لا يتورَّعون عن القيام بأحطِّ الأعمال، وأخسِّها، وأكثرها ضرراً بالمُجتمعات الإنسانيَّة، فهُم مشهورون، بل ومُحتكرون لبعض الأعمال؛ مثل: الرِّبا، والإتجار بالرّقيق، وخاصَّة الرّقيق الأبيض؛ وبالتّحديد بالفتيات، وسرقتهنَّ، وبَيْعهنَّ لدُوْر البغاء التي يُسيطر على مُعظمها اليهُود أنفسهم (كانوا في زمن الدّولة العُثمانيَّة المُورِّد الأوَّل للفتيات الجميلات الصّغيرات للسَّادة في الدّولة ولدُوْر البغاء)، بالإضافة إلى الغشِّ والسّيطرة على التّهريب بمُختلف أنواعه؛ وخاصَّة تجارة المُخدّرات، والسّيطرة على الحانات والمُضاربات الماليَّة، والسّيطرة على أسواق الذّهب وتجارة الماس في العالم.

ويقول دُونالد داي في كتابه "إلى الأمام أيُّها الجُنُود المسيحيُّون"[2] «إنَّ أكثر من 98٪ من تجارة الرّقيق الأبيض والمُهرِّبين هُم من اليهُود، واليهُوديّ لا يتورَّع عن القيام بأيِّ عمل مُنحرف أو قذر، فخلال عملي ـ كمُراسل لحوادث الجريمة في كُلٍّ من شيكاغو ونيُو يُورك؛ حيثُ كُنتُ أُغطِّي أنباء النّوادي اللّيليَّة ـ اكتشفتُ أنَّ الدّعارة هي صناعة يهُوديَّة، وأنَّ تُجار الدّعارة ومُديريها في أمريكا هُم اليهُود، وهُم الذين يُديرونها في باريس وفيينا اليوم، كما كانوا يفعلون ذلك في برلين وغيرها من مُدُن ألمانيا وبُولُونيا.. إلخ».

---

(1) راجع الوصايا العشر في سفْر الخُرُوج، الإصحاح العشرين، والحضّ على مكارم الأخلاق في الإصحاحات من 20 ـ 23 من سفْر الخُرُوج، ولكنَّ بين اليهُود فقط.

(2) المصدر كتاب "اليهُود"، إعداد زُهدي الفاتح، الفقرة 108.

ويقول السيِّد غرُوس هُوفينغر[1] : « الرّأسماليُّون الأثرياء اليهُود هُم سادة المُضاربات في البُورصة، ويستخدمون ـ بعد البحث والاختيار ـ أكثر الفتيات الصّغيرات جمالاً وطهارة وبراءة، ثُمَّ يُلقون بهنَّ إلى مهاوي الرّذيلة، أمَّا فُقراء اليهُود؛ فهُم أبرع القوَّادين. . يعرفون أين يجدون الفتيات الصّغيرات لبَيْعهنَّ إلى بيُوت الدّعارة والرّذيلة في العالم ».

« إنَّ اليهُود هُم ـ تقريباً ـ أصحاب أقدم مهنة في العالم ومُديروها (وهي بيُوت البغاء وإدارتها) ».

ويُتابع السيِّد غرُوس هُوفينغر قوله:

« لقد لاحظنا اختفاء أعداد كبيرة من فتياتنا الصّغيرات فجأةً، ولم نعرف ما الذي حلَّ بهنَّ، ولكنَّه في مُحاكمة 1892، التي جرت في "لامبرغ" عاصمة بُولُونيا النّمساويَّة، كُشف النّقاب عن حقيقة وقائع الاختفاء هذه. . فقد اتُّهم 28 يهُوديّاً باختطاف عدد كبير من الفتيات الصّغيرات والإتجار بهنَّ، وقد أعدَّ هؤلاء اليهُود شراكاً خبيثة حاذقة لإغواء هؤلاء الفتيات الصّغيرات، وأكثرهنَّ مازلنَ تلميذات على مقاعد الدّراسة، فرسموا لخيالهنَّ أزهى المُستقبل لإقناعهنَّ بالسّفَر إلى الخارج، وفور عبُور الحُدُود تتغيَّر مُعاملة هؤلاء كُلِّيّاً لهنَّ، فينقلبون إلى أسياد يقودون عبيداً. . وهُم يقودونهنَّ إلى دُوْر البغاء في تُركيا (الدّولة العُثمانيَّة في ذلك الوقت)؛ حيثُ يبيعون الواحدة منهنَّ بألف مارك (كانت القُوَّة الشّرائيَّة للمارك أكبر ممَّا عليه الآن بعشرات المرَّات)، ولكنْ؛ مَنْ هُم أصحاب دُوْر البغاء هذه؟ إنَّهم يهُود أيضاً. أمَّا الفتاة التي تتمرَّد على مصيرها هذا، وتقاوم؛ فيُلقى بها في أقبية لتخضع لأبشع أنواع التّعذيب إلى أنْ ترضخ وتعود خاضعة مُستسلمة، وحينما تدخَّل البُوليس في نهاية المطاف، تمكَّن من إنقاذ ستِّين فتاة صغيرة ».

ويُشير تزايد هذه التّجارة القذرة وانتشارها الواسع واحتكار اليهُود لها إلى أنَّ أُلُوف أغنياء اليهُود يُباركون مَنْ يتعاطى هذه التّجارة، حتَّى إنَّكَ لن تجد كلمة تعريض أو لوم ضدَّها في أيَّة صحيفة من الصُّحُف اليهُوديَّة، والأهمُّ من ذلك أنَّ المُجتمع اليهُوديّ لا ينبذ هذه

---

(1) المصدر كتاب "اليهُود"، إعداد زُهدي الفاتح، فقرة 207، وهي مأخوذة ـ بدورها ـ عن كتاب "النّمسا اليهُوديَّة"، تأليف ف. تروكاس.

التّجارة، ولا يتنكّر لها (لأنّها لا تتعارض مع مُعتقداتهم الدِّينيَّة، فالأغيار - بالنّسبة لهم - كالدّوابِّ يصحُّ بيعها وشراؤها واستخدامها، والزّنى بالأغيار لا إثم فيه، ولا عقاب عليه).

ثُمَّ يتابع السَّيِّد غرُوس هُوفينغر قوله بالنّسبة إلى الإمبراطُوريَّة النّمساويَّة[1] فيقول: «مُنذُ عام 1848، واليهُود يُواصلون زحفهم التَّسلُّطي المُتصاعد خُطوة خُطوة، فاحتكروا ثروات النّمسا وهنغاريا (المجر)، وقبضوا بيد من حديد على الصّحافة، وأسواق المال، وسيطروا على مُقدّرات البلاد السِّياسيَّة، كُلُّ ذلك من أجل تحقيق المطامع اليهُوديَّة بالحُصُول على أكبر قدر مُمكن من الأموال. وأخيراً؛ أثاروا التَّعصُّب الدِّيني، ثُمَّ وجَّهوا مُؤامراتهم بخَلْخَلَة الحياة العائليَّة، وخَنْق رُوح الوطنيَّة، وإثارة جميع أنواع الصّراعات الدّاخليَّة التي فكَّكَتْ قوى الحياة في الدّولة، وأفسحت المجال للأزمات الاقتصاديَّة»، (انتهت أقوال غرُوس).

واليهُوديّ لا يتورَّع عن القيام بأيِّ عمل يبتزُّ به أموال النّاس، ويستغلُّهم أبشع استغلال، دُون وازع من ضمير، أو رادع من أخلاق، طالما أنّه يعمل في إطار مُعتقداته الدِّينيَّة التي تُؤيِّد ذلك.

لذلك؛ كان الإقطاعيُّون - في أُورُوبا في القرن الوُسْطَى وأوائل العصر الحديث - يجدون في اليهُود ضالَّتهم، فكان وُكلاؤهم في إقطاعيَّاتهم دائماً من اليهُود، يجبُون لهم الأموال، ويُنفِّذون رغباتهم وأوامرهم بكُلِّ إخلاص وقسوة، والويل لمَنْ يُحاول أنْ يتخلَّف عن الدَّفْع، أو يتمرَّد على السَّيِّد الإقطاعي النَّبيّل من هؤلاء الفلاّحين المسيحيِّين المساكين.

كُلُّ هذا أدَّى إلى كُرْه اليهُود، ومَقْتهم، وازدرائهم من جميع شُعُوب الأرض، وأصبحت كلمة "يهُودي" مسبَّة لا أحقر منها مسبَّة في أُورُوبا كُلِّها.

واليهُود لا يسكنون إلاَّ في العواصم أو المُدُن الكُبرى في العالم، وفي أحياء خاصَّة بهم، لا يدخلها غيرهم، ودُخُولها من قبَل الغير يُعتبَر مُجازفة خطرة، وكانت هذه الأحياء تُسمَّى

---

(1) كانت الإمبراطُوريَّة النّمساويَّة واسعة الأرجاء تُسيطر على مُعظم أُورُوبا الوُسْطَى، وكانت تمتدُّ من إيطاليا جنوباً إلى حُدُود رُوسيا الغربيَّة، وتُجاور الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة في الجنوب الشّرقي، ولكنّها انتهت بعد الحرب العالميَّة الأُولى إلى جُمهُوريَّة النّمسا الحاليَّة.

"الغيتو" في أُورُوبا الوُسْطَى والشّرقيَّة ورُوسيا، وحتَّى اليهُود الذين هاجروا إلى العالم الجديد تجدهم يسكنون في أحياء خاصَّة بهم، ولا يمتزجُون في المُجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وقد حقَّق اليهُود ـ من وراء العيش في مُنعزلاتهم هذه ـ مكاسب عديدة؛ منها: الحيلولة دُون اندماجهم وذوبانهم في المُجتمعات التي يعيشون فيها، وبقاء واستمرار سيطرة الكَهَنَة على المُجتمع اليهُوديّ، ووقُوفهم صفاً واحداً أمام أيِّ خطر خارجي يُمكن أنْ يلمَّ بهم، ثُمَّ تعاونهم فيما بينهم، ومُساعدتهم لبعضهم البعض، وخاصَّة في العالم الجديد، فاليهُوديّ الذي كان يُهاجر إلى العالم الجديد (الأمريكيَّتَيْن وأُستراليا) يذهب ـ فور وُصُوله إلى البلد الذي يقصده ـ إلى الحيّ اليهُوديّ فيه؛ حيثُ يلقى المُساعدة والعون والتّوجيه، ولذلك؛ كان نجاح المُهاجرين اليهُود إلى العالم الجديد أسرع، وحُظُوظهم بالنّجاح والتّوفيق أكبر من غيرهم من المُهاجرين، وخاصَّة المُهاجرون إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

ولذلك؛ فإنَّ نُفُوذ اليهُود في كُلِّ مكان يتواجدون فيه هُو نُفُوذ قويٌّ ومُسيطر في أكثر الأحيان لا يتناسب مع عددهم، ولا مع كُره ومَقْت النّاس لهم، والسّبب يعود إلى تعاونهم المُنقطع النّظير، وتكاتفهم الشّديد، وقد ساعدهم على ذلك تجمُّعهم في أحياء خاصَّة بهم ـ كما أسلفنا ـ وفي عدد محدود من المُدُن في كُلِّ دولة (فاليهُود في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة ـ على سبيل المثال، والذين يبلغون حوالي نصف يهُود العالم ـ يعيش أكثر من نصفهم في مدينة نيُو يُورك، والنّصف الباقي يعيش مُعظمه في ثلاث مُدُن رئيسيَّة أُخرى؛ وهي: شيكاغو، سان فرانسيسكو، لُوس أنجلوس.

والذي ساعد على تمركز اليهُود في المُدُن؛ وخاصَّة الكبيرة منها، هُو أنَّهم لا يعملون بالزّراعة، ولا يسكنون الأرياف، فأعمالهم الرّئيسيَّة التي تخصَّصوا بها ـ والتي تحدَّثنا عنها سابقاً ـ الرّبا، والأعمال المصرفيَّة والبُورصات، والمُضاربات، وتجارة المُخدّرات، والتّهريب، ودُوْر البغاء، وتجارة الرّقيق الأبيض، وتجارة المعادن الثّمينة كالذّهب والألماس، بالإضافة إلى مهنة المُحاماة والطِّبِّ التي برعوا واشتهروا بها في العصر الحديث، وأخيراً؛ الصّحافة والنَّشْر، وكُلُّها أعمال تتطلَّب الحياة في العواصم والمُدُن الضّخمة.

وقد بقي اليهُود عدَّة قُرُون مُنذُ السّبي البابليّ حتَّى أوائل القرن التَّاسع عشر وهُم منبوذون مُحتقَرون بين الأُمم، ولم يستطيعوا أنْ يظهروا على مسرح الحياة السِّياسيَّة، ويكون لهم دور في التّاريخ إلاَّ عن طريق مُصاهرة المُلُوك، أو ذوي السُّلطان والنُّفُوذ، أو عندما استطاعوا تشكيل دولة يهُوديَّة لهم عند بحر الخَزَر؛ هي مملكة الخَزَر التي تحدَّثنا عنها بإسهاب في القسم الأوَّل من الكتاب؛ حيثُ استطاعوا أنْ ينشروا الدّيانة اليهُوديَّة في تلك المنطقة، رغم ادّعاءهم أنَّ ديانتهم مُغلقة ـ كما أسلفنا ـ وذلك ليستطيعوا ـ عن طريق هؤلاء المُتهوِّدين ـ أنْ يُحقِّقوا أحلامهم بالسّيطرة على العالم، والقضاء على المسيحيَّة والإسلام.

ولكنْ؛ مُنذُ أوائل القرن التَّاسع عشر أخذت الدِّيمُقراطيَّة والمُناداة بحُقُوق الإنسان تظهر بعد الثّورة الفرنسيَّة التي نادت بالحُرِّيَّة والمُساواة بين بني الإنسان، وقد دعمها اليهُود في فرنسا بكُلِّ قواهم، وساندوها بكُلِّ طاقتهم؛ ليستطيعوا عن طريق الدِّيمُقراطيَّة والانتخابات الحُرَّة أنْ يصلوا إلى الحُكْم، أو يُوصلوا إليه مَنْ يُحقِّق لهم أهدافهم، ويُؤمِّن لهم مصالحهم، ويرفع عنهم الذُّلَّ والهوان.

ولذلك؛ وَجَدَ اليهُود في ظلِّ الدِّيمُقراطيَّة مَنْ يخطب وُدَّهم، ويتعهَّد بتأمين مصالحهم إذا هُم ساندوه، ووقفوا بجانبه في معاركه الانتخابيَّة، وهكذا صار المُرشَّحون من رُؤساء الجُمهُوريَّات إلى الأعضاء في المجالس النّيابيَّة، حتَّى أعضاء مجالس البلديَّات، يتبارون في التَّقرُّب من اليهُود في بلادهم، ويتنافسون في خَطْب وُدِّهم، وتقديم الوُعُود والعُهُود لهم؛ لتنفيذ مطالبهم، وتحقيق أهدافهم؛ طمعاً في أصواتهم وأموالهم، ولاسيما بعد أنْ سيطروا على الصّحافة، وبالتّالي؛ على الرّأي العامِّ في مُعظم الأقطار التي يعيشون فيها (وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة).

وبعد أنْ دعم اليهُودُ الدِّيمُقراطيَّةَ بكُلِّ قواهم في كُلِّ مكان في العالم، وحقَّقوا ـ بذلك ـ مكاسب عظيمة، انتبهوا إلى أهميَّة الصّحافة ودورها الهامّ في توجيه الرّأي العامّ، أخذ اليهُود بالسّيطرة عليها بالتّدريج، حتَّى أصبحت صاحبة الجلالة الصّحافة مُلْكَ أيديهم، وطَوْع بنانهم.

وهكذا أصبح بيد اليهُود أقوى سلاحَيْن في العالم: المال والصّحافة؛ فبالمال يشترون الذِّمم، ويُنفقون على معارك أعوانهم الانتخابيَّة، وبالصّحافة يُسيطرون على الرّأي العامِّ، ويُوجِّهونه لخدمة مصالحهم وأهدافهم.

وقد استطاعوا ـ بهذَيْن السّلاحَيْن (المال والصّحافة)، ثُمَّ بانتشار النُّظُم الدِّيمُقراطيَّة ـ أنْ يُوصلوا إلى سدَّة الحُكْم رجالاً من اليهُود كان لهم دور هامٌّ في تاريخ العالم الحديث؛ مثل: "دزرائيلي" البريطانيّ المُتنصِّر، الذي وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة البريطانيَّة ثلاث مرَّات (كما مرَّ معنا)، وكذلك "ليون بلون" اليهُوديّ الفرنسيّ المُتنصِّر أيضاً، والذي ترأس الوزارة الفرنسيَّة عام 1936، وذلك في أوج عظمة فرنسا، وكان رئيساً للجبهة الشّعبيَّة الاشتراكيَّة.

واستطاعوا السّيطرة على الحُكْم في الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة عن طريق المُستشارين اليهُود مثل: "برنارد باروخ" (الذي تحدَّثنا عنه سابقاً) الذي سيطر على توجيه سياسة الولايات المُتَّحدة الخارجيَّة والدّاخليَّة من الحرب العالميَّة الأُولى إلى الحرب العالميَّة الثَّانية (في عهد الرّئيسَيْن ولسون ورُوزفلت)، ومن المشاهير في هذه النّاحية الدُّكتُور هنري كيسنجر اليهُوديّ الذي كان رئيساً للأمن القومي، ثُمَّ وزيراً للخارجيَّة في الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة في السّبعينات (زمن الرّئيس الأمريكي نكْسون)، وكان له دور هامٌّ في حرب تشرين التّحريريَّة عام 1973؛ حيثُ عمل جهده للحيلولة دُون استفادة العَرَب من انتصاراتهم في هذه الحرب.

هذا؛ واللُّوبي الصّهيُوني في الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة مشهور ومعروف بمُساندته (لإسرائيل) وأطماعها، هذا؛ بالإضافة إلى الجمعيَّات والهيئات والمُنظَّمات اليهُوديَّة في الولايات المُتَّحدة ونُفُوذها القوي (مرَّ معنا: كهيلا نيُو يُورك، واللّجنة اليهُوديَّة الأمريكيَّة، ومُنظَّمة بْنَاي بريت، أو جمعيَّة العهد).

وعندما قامت الثّورة الشُّيُوعيَّة في رُوسيا ساندها اليهُود بكُلِّ قواهم؛ للقضاء على القَيْصَريَّة، وإضعاف الكَنيسة المسيحيَّة الأرثُوذكسيَّة، التي تكنُّ لهم العداء الشّديد. وكانوا زُعماء الشُّيُوعيَّة الأوائل، فواضع أُسُس الشُّيُوعيَّة هُو اليهُوديّ (كارل ماركس)، والذي قاد

الثّورة الشّيُوعيَّة في رُوسيا "لينين"[1] هُو يهُودي أيضـاً، وكذلـك كـان تروتسكي المُنشقّ على الثّورة يهُوديّاً.

وقد دعم اليهُود خارج رُوسيا الثّورة الشُّيُوعيَّة بأموالهم، وكان الاتِّحاد السُّـوفييتي أوَّل مَنْ اعترف (بإسرائيل)، كمـا هُو معروف عـام 1948، وكـان السّـلاح التّشيكي عـن طريـق الاتِّحاد السُّوفييتي هُو السّلاح الذي حارب به اليهُودُ العَرَبَ عام 1948.

ولكنَّ الاتِّحاد السُّوفييتي وقف مع العَرَب في كفاحهم ضدَّ الاستعمار ونُفُوذ الاستعمار الغربي مُنذُ ثورة 1952، في مصر بقيادة جمال عبد النّاصر، ولكنَّـه لـم يقـف مـع أهـمِّ وأنبـل هدف عند العَرَب وهُو الوحدة العَرَبيَّـة (مثـل الوحـدة بـين مصـر وسُوريا عـام 1958) موقـف التّأييد والمُساعدة والدّعم.

وعلى كُلِّ حال؛ لم يكن الاتِّحـاد السُّـوفييتي (قبـل تفكُّكـه) في أيِّ يـوم من الأيَّـام ضـدَّ وُجُود (إسرائيل)، وإنْ كانت مواقفه مع العَرَب تقتصر علـى الوُقُـوف ضـدَّ توسُّـع (إسـرائيل)، حتَّى أنَّ هذه المواقـف لـم تكـن حازمـة في أكثر الأحيـان، وتـأييداً لـهذا الكـلام؛ فـإنَّ الدُّكتُـور ناحوم غُولدمان رئيس المُؤتمر اليهُوديّ العالمي يُصرِّح لمجلَّة "القضايا الخارجيَّة الأمريكيَّة" عدد أيَّار عام 1970، بقوله: «لا أعتقد أنَّ ثمَّة دولة من الدُّول الكُبرى تُريد (لإسرائيل الدّمار)، ويُخيَّـل للبعض في (إسرائيل) أنَّ الاتِّحـاد السُّـوفييتي يبغـي (لإسـرائيل) الدّمـار، إلاَّ أنَّني لـم أجد بـين الدِّبلُوماسيِّيْن الشّرقيِّيْن والغربيِّيْـن مَنْ يـأخذ هـذه الفكْـرة مـأخذ الجـدِّ، وقـال لـي دبلُوماسـي أمريكي: إنَّ مُوسكُو لن تدَّخر جهداً، ولن تضنَّ بثمن للحفاظ على بقاء (إسرائيل)».

وبعد هذا الاستطراد؛ نعود للتَّحدُّث عن أساليب اليهُود للسّيطرة على العالم ومُقدَّراتـه وتوجيهـه لخدمـة مصالحهم، وقـد تحدَّثنـا عـن سيطرتهم علـى المـال والصّحافة ومُسـاندتهم للدِّيمُقراطيَّةن ثُمَّ جاء دور السّينما، فسيطروا عليها، ووجَّـهوها ليس لخدمـة المُثُـل العُليـا فـي المُجتمع، وغَرْس الفضيلة، بل ليُفسدوا النّشأ بالأفلام المُبتذلَة الخليعة، التي تُثـير الشّـهوات،

(1) وُلد لينين في العاشر من نيسان عام 1870م، على حُدُود مُقاطعة أُوديسا جنوب رُوسيا لأب يهُودي ألماني يُدعى "إيكلو غولدمان" وأُمٍّ يهُوديَّة تُدعى "صُوفيا"، وتبنَّاه، وربَّاه رجل طيِّب يُدعى "أوليانوف"، ولينين يهُودي مُتزوِّج من يهُوديَّة. راجع كتاب "اليهُود"، ص 10 ـ 12، إعداد الأُستاذ زُهدي الفاتح.

وتُطلق الجنس من عقاله، حتَّى وصلنا إلى إباحة جنسيَّة مُنقطعة النّظير كان اليهُود وراءها؛ ليُلهوا الشّباب والشَّابَّات بالرّكض وراء الملذَّات والمتع الجنسيَّة، ممَّا أدَّى إلى تفكُّك العائلة، وإلى ما يُعانيه المُجتمع الإنساني - الآن - من الأمراض النّاتجة عن هذا التَّحلُّل الجنسي والأخلاقي؛ وفي قمَّتها مرض "الايدز" الذي أخذ يكتسح المُجتمع الغربي كالوباء. هذا؛ بالإضافة إلى كثرة الأطفال الذين لا يعرفون آباءهم، أو لا يعرفون لهم أباً ولا أُمَّاً؛ حيثُ تتركهم أُمَّهاتهم إلى دُوْر الحضانة والملاجئ التّابعة للدّولة، التي أخذت على عاتقها تربية هذا السّيل الجارف من اللُّقطاء.

ومُنذُ أواخر القرن التَّاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ أخذ اليهُود يدعون إلى العودة إلى فلسطين "أرض المعاد"؛ بعد أنْ اكتملت بأيديهم الوسائل التي تجعل العالم الغربي - والذي بيده الحلُّ والرّبط في العالم أجمع - يُؤيِّدهم، ويقف بجانبهم، ويسير حسب هواهم؛ فقامت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة تقودهم إلى أرض المعاد (أو الميعاد).

وسنُفرد للحَرَكَة الصّهيُونيَّة القسم الثَّالث من الكتاب.

والآن؛ وبعد أنْ تحدَّثنا عن سُلُوكيَّة اليهُود وأخلاقهم النّابعة من تعاليم دينهم المُنحرف وتوجُّهات أحبارهم، لابُدَّ لنا من التَّحدُّث عن سُلُوكيَّة غريبة عند اليهُود تُثير الدّهشة والرُّعب والاشمئزاز من هذا القبيل اليهُوديّ العجيب الذي ابتُلي العالم به، وهُو الفطير اليهُوديّ المُقَدَّس.

الفطير اليهُوديّ المُقَدَّس:

الفطير هُو الخُبز غير المُختمر، والذي لا يُضاف له خميرة، ويُخبز فور عجنه من دقيق القمح.

أمَّا قصَّة الفطير عند اليهُود والمفروض عليهم، فقد وَرَدَ في سفْر الخُرُوج، الإصحاح 12، ما يلي: « في الشّهر الأوَّل في اليوم الرَّابع عشر من الشّهر مساءً تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشّهر مساءً، سبعة أيَّام لا يُوجد خمير في بُيُوتكم، لا تأكلوا مُختمراً، في جميع مساكنكم تأكلون فطيراً ».

لقد أُمرَ بنو إسرائيل بالخُرُوج من مصر (مصرايم) بعد إقامتهم في مصر عدَّة قُرُون تحت الذُّلِّ والعُبُوديَّة والاضطهاد. وعندما جاء مُوسى ـ عليه السّلام ـ لإنقاذهم بأمر الرَّبِّ، جَعَلَ الرَّبُّ ذلك الشّهرَ الذي خرجوا فيه أوَّل سنتهم العبريَّة، وأُمروا أنْ يَذبح أهل كُلِّ بيت منهم ضحيَّة شاة صحيحة ذَكَراً ابن سنة من الغنم أو الماعز حسب حجم الأُسرة، فإذا ذبحوها لطَّخوا دمها على أعتاب بُيُوتهم، وجوانب وأعلى مداخلها، فيكون ذلك علامة لهم على بُيُوتهم، حتَّى لا يُهلكهم الرَّبُّ حين يضرب أهل مصر ليلة خُرُوج بني إسرائيل منها (وكأنَّ الرَّبَّ جاهل في التّمييز بين بُيُوت اليهُود وبُيُوت المصريِّيْن، ولابُدَّ له من علامة تُرشده!!!) وعليهم أنْ لا يأكلوا اللّحم نيئاً ولا مطبوخاً، بل مشوياً بالنّار مع الفطير، وأنْ يأكلوه برأسه وأكارعه وجوفه، ولا يُبقوا منه شيئاً دُون شيّ، والباقي منه إلى الصّباح يحرقونه بالنّار من أجل الإله، فالرَّبُّ ينتعش من رائحة الدُّخان المُتصاعد من حَرْقه[1].

وعند الذّبح يجبُ أنْ لا يخرج شيء من الأُضحيَّة خارج بُيُوتهم، وليكُنْ خُبزهم فطيراً سبعة أيَّام ابتداءً من اليوم الرَّابع من الشّهر الأوَّل من سنتهم العبريَّة.. فإذا أكلوا منها يجبُ أنْ تكون أوساطهم مشدودة، وأحذيتهم في أرجلهم، وعصيُّهم في أيديهم، و أنْ يأكلوا النّعجة وهُم واقفون (تقليداً لعملهم ليلة الخُرُوج من مصر).

وفي تلك اللّيلة (ليلة الخُرُوج) ضرب الرَّبُّ كُلَّ بكْر في أرض مصر من النّاس والدّوابِّ؛ لأنَّ فرعُون لم يسمح لبني إسرائيل بالخُرُوج من مصر، فغضب الرَّبُّ على أهل مصر، فَأَهْلَكَ كُلَّ بكْر فيها، وخرج بنو إسرائيل من مصر، وأهلها في مناحة عظيمة على أبكارهم من الأبناء ومن البهائم.

وخرجوا من مصر يوم الخلاص، وهُو يوم الخُرُوج مُسرعين برُفقة مُوسى عليه السلام، وصار لهم هذا اليوم ذكرى سنويَّة، فريضة أبديَّة عليهم؛ وهُو عيد الفصح، يبتهجُون فيه بأكبر حَدَث في تاريخهم؛ وهُو تحرُّرهم من العُبُوديَّة في مصر، ويعتقدون أنَّ ضحيَّة عيد الفصح هي من أجل شُكر الرَّبِّ الذي خرَّب مصر، وَضَرَبَ الأبكار فيها، وأنقذ بُيُوت أبناء إسرائيل[2].

---

(1) راجع سفْر اللاّويِّين، إصحاح 10.

(2) سفْر الخُرُوج، إصحاح 29.

ولأنَّ الرَّبَّ ضرب كُلَّ بكْر في مصر من الإنسان والحيوان ليتمكَّن بنو إسرائيل من الخُرُوج من مصر، دُون أنْ ينتبه إليهم أهل مصر المشغولون بموتاهم، فرض عليهم أنْ يُخصِّصوا أوَّل مولود لكُلِّ أنثى من الإنسان والحيوان، ويُقدِّمونه ضحيَّة للرَّبِّ المُنقذ، فجاء في التَّوراة: «قال الرَّبُّ لمُوسى: قدِّسْ لي كُلَّ بكْر، كُلَّ فاتح رحم من بني إسرائيل من النَّاس، من البهائم»[1].

ولكنَّ الرَّبَّ كان رؤوفاً ببني إسرائيل، فخفَّف عنهم تخصيص المولود الأوَّل من الإنسان، ولكنْ؛ شرَّع لهم فداءه بذَبْحٍ من الضَّأن، أو من الحيوانات الأُخرى غير المأكولة اللَّحم.

وهُناك قُربان خاصٌّ بالرَّبِّ، وهُو كما جاء في التَّوراة: «خُذْ ثوراً واحداً ابن بقر، وكبشَيْن صحيحَيْن، وخُبز فطير، وأقراص فطير ملتوتة بزيت، ورقاق فطير مدهونة بزيت من دقيق الحنطة تصنعها، وتجعلها في سلَّة واحدة؛ في السَّلَّة مع الثَّور والكبشَيْن»[2].

ثُمَّ يُبيِّن الإصحاح 29 من سفْر الخُرُوج كيف يُذبَح الثَّور والكبشان[3] وأين، وماذا يُفعَلُ بشحمهم ولحمهم والخُبز الفطير بالتَّفصيل.

والأمر هُنا عاديٌّ، وليس فيه غرابة، أو خُرُوج عن المألوف، ولكنَّ اليهُود انحرفوا عن تعاليم التَّوراة، وحرَّفوا أوامر ربِّهم، وكانت انحرافاتهم على غاية من الشُّذُوذ والوحشيَّة فيما يتعلَّق بالقرابين والأُضحيَّات؛ حيثُ تحثُّهم تعاليم التّلمود (وهي عبارة عن الشُّرُوح والتَّفسيرات المُستنبَطَة من التَّوراة) على ذبح الآدميِّين من غير بني إسرائيل، وتقديمهم قُرباناً للرَّبِّ "يَهْوَه"، ومزج دمائهم بعجين الفطائر المُقَدَّسة التي يتناولونها في أعيادهم ومُناسباتهم الدِّينيَّة، وبخاصَّة عيد الفصح وعيد "استير"[4] ومراسم ختان الأطفال، واستخدام هذه الدّماء

---

(1) سفْر الخُرُوج، إصحاح 13.

(2) سفْر الخُرُوج، الإصحاح 29، (باختصار).

(3) الذَّبح يكون أمام خيمة الاجتماع والمذبح، والشّحم لإنارة الاجتماع، والخُبز واللّحم يُحرَق أمام الخيمة.

(4) استير هي زوجة أحشويرش حفيد كُورش إمبراطُور الفُرْس، الذي أعاد اليهُود من بابل إلى فلسطين، ولاستير سفْر خاصٌّ في التَّوراة هُو سفْر "استير"؛ فيه قصَّتها وإنقاذها اليهُود من الإبادة والذَّبح.

في طُقُوس سحْرهم وشعوذتهم، فالكُتُبُ المُقَدَّسة عند اليهُود تأمرهم بتقديم الذّبائح البشريَّة، واستنزاف الدّماء لصُنع فطير عيد الفصح الشّهير، ويعتبرون ذلك وسيلة لإرضاء "يَهْوَه"!!

وهُم يرغبون في تقديم الذّبائح في عيد الفصح من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، أو تزيد عليها قليلاً. ويُمزَج دمُ الطّفل الضّحيَّة بعجين الفطائر قبل تجفيفه، أو بعد تجفيفه. أمَّا ذبائح عيد "استير" أو عيد "البوريم"؛ فهُم من الشّباب البالغين، أو من الكبار، ويُؤخذ دمُ الضّحيَّة، ويُجفَّف على شكل حُبُوب تُمزَج بعجين الفطائر. أمَّا ذبائح أفراح الختان؛ فتُختار من الأطفال، وكذلك ضحايا السِّحْر والشّعوذة التي يُمارسها كَهَنَة اليهُود وأحبارهم[1].

وهكذا؛ فَقَتْلُ الأطفال والأولاد والكبار عقيدة عند اليهُود، وامتصاص دمائهم شريعة توراتيَّة تلموديَّة، فمُنذُ أقدم العُصُور وقَصَص قَتْل اليهُود للأطفال والأولاد في أعيادهم الدِّينيَّة تُحكى في كُلِّ مكان، واليهُود ينفون عن أنفسهم مثل هذه الجرائم اللاَّإنسانيَّة والوحشيَّة، ويطمسون معالمها التي تدينهم، ويُخفونها بأيِّ شكل كان، وهُم يعتبرون جريمة ذَبْح الأطفال والكبار واستعمال دمائهم لصُنع الفطير المُقَدَّس أمراً من أوامر التّوراة يجبُ تنفيذها إرضاءً للرَّبِّ، وتكريماً له، وتقرُّباً منه. وليس ما نذكره ـ هُنا ـ خُرافة أو من باب الاتِّهام والتَّجنِّي، إنَّما هي حقائق واقعة في المُجتمع اليهُوديّ، فقد ارتكبها اليهُود في مواقع كثيرة من البلاد التي يعيشون فيها، وأُدين الفاعلون بارتكاب جرائمهم، وقامت مذابح ضدَّ اليهُود من جرَّاء هذه الجرائم، وطُردوا من كثير من البلاد بسببها (وتحذير الأُمَّهات أطفالهنَّ وأولادهنَّ من الاقتراب من الأحياء اليهُوديَّة مشهور ومعروف، وكذلك عيد المصَّة معروف ومشهور بين النّاس عن اليهُود).

أمَّا كيفيَّة استنزاف الدّماء من الضّحايا؛ فهُو الأغرب والأبشع، فلهُم في ذلك طُرُق عديدة تُثير الدّهشة، وتقشعرُّ لها الأبدان، لأنَّ الحقد يُعمي قُلُوبهم نحو أبناء الأغيار (وخاصَّة المسيحيِّين)؛ حيثُ يقوم الجُناة بالرّقص والغناء حول ضحيَّتهم المسكينة، ويفعلون

(1) يُعتَبَرُ اليهُود أكثر النّاس تعاطياً للسِّحْر؛ وخاصَّة أحبارهم، والسِّحْر في الإسلام من أكبر الكبائر، فقد وَرَدَ في حديث الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم: أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعُقُوق الوالدَيْن، والسِّحْر.

أشياء غريبة وحَرَكَات مُريبة ليزيدوا من ألم الضَّحيَّة، ويُخاطبون الإنسان الذّبيح بقولهم: « كُنْ مُتألِّماً كما كان النّاصري (يعنون عيسى عليه السّلام) مُعلَّقاً على الصّليب، وليحصل هذا العذاب لجميع أعدائنا ».

ويتمُّ استنزاف الدّم بطريقة فظيعة غاية في القسوة والبشاعة، وذلك عن طريق "البرميل الإبري"، وهُو برميلٌ مُثبتٌ على جوانبه من الدّاخل إبرٌ حادَّة تُوضع فيه الضّحيَّة وهي حيَّة عارية، فتُغرز هذه الإبر في جسم الضّحيَّة، وتسيل الدّماء ببُطء من مُختلف أعضاء الضّحيَّة، وتظلُّ كذلك في عذاب أليم، حتَّى تفيض رُوحها، سواء أكانت طفلاً أو رجلاً، بينما يكون اليهُود المُلتفُّون حول هذا البرميل في أكبر نشوة وأعظم بهجة بما يبعثه منظر الدّم النّازف والأنين المُؤلم في نُفُوسهم من لذَّة وسرُور وابتهاج، ويتسرَّب الدّم إلى قاع البرميل، ثُمَّ يُصَبُّ في إناء مُعَدٍّ لجَمْعه، ثُمَّ يُؤخذ الدّم لصناعة الفطير.

وطريقة أُخرى لاستخلاص دم الضّحيَّة تتمُّ بقَطْع شرايِّيْن الضّحيَّة في عدَّة مواقع في جسمها؛ ليتدفَّق الدّم من الجُرُوح، ويُجمَع في وعاء خاصٍّ، ويُمكن استنزاف دم الضّحيَّة بطريقة ذَبْح الضّحيَّة كما تُذبَح الشّاة، وبعد تجميع الدّم؛ يُسلَّم إلى الحاخام أو الكاهن أو السّاحر الذي يقوم باستخدامها في إعداد الفطائر المُقَدَّسة، أو في عمليَّات السِّحْر، وتبقى عنده سرّاً دفيناً، ولا يزال اليهُود يُمارسون هذه الجرائم التي ترتعد لبشاعتها الأوصال في كثير من بُلدان العالم (وخاصَّة بين المسيحيِّيْن) باسم دينهم، ووصايا تلمودهم، وتنفيذاً لأوامر إلههم[1].

ويذكر المُؤرِّخ اليهُوديّ فيلافُوس يُوسيفُوس (37 ـ 95) بأنَّ اليهُود ما كانوا يقتصرون على شُرب دماء ضحاياهم بعجين فطائرهم، بل كانوا يأكلون كذلك قطعاً من لُحُومهم[2].

---

(1) انظر كتاب "طُقُوس الاغتيال اليهُوديَّة" للكاتب "أرنولد لينر"؛ حيثُ يذكر فيه أكثر من ستِّين جريمة ثبتَ بالأدلَّة القاطعة أنَّ اليهُود هُم الذين ارتكبوها، وباعتراف المُجرمين أنفسهم.

(2) المُؤرِّخ يُوسيفُوس: ظهر في القرن المسيحيّ الأوَّل، وهُو كاهن ومُؤرِّخ يهُودي وُلد في أُورشليم، اعتبره اليهُودُ خائناً؛ لأنَّه عمل مُترجماً لتيتس (تيتس هُو الذي دمَّر الهيكل، وذبح اليهُود، وحرَّم عليهم دُخُول القُدس)، رافق تيتس إلى رُوما، ومُنحَ معاشاً، وحقُوق المُواطن الرُّوماني، له مُؤلَّفات كثيرة حول اليهُود وتاريخهم.

ومن جُملة ما ذَكَرَ المُؤرِّخ يُوسيفُوس: «أنَّ ملك اليُونان أنطُونيُوس الرَّابع (الذي تبوَّأ عرش الدّولة السّلوقيَّة في بلاد الشّام عام 174 ق. م) فَتَحَ مدينة القُدس، وعندما دَخَلَ المدينة وَجَدَ في بعض أنحاء الهيكل رجلاً يُونانيّاً، كان اليهُود قد حبسوه في هذا المكان، وكانوا يُقدِّمون له أحسن الأطعمة؛ ليسمن، وعندما يأتي يوم المُناسبة يخرجُون به إلى إحدى الغابات، فيذبحونه، ويشربون دمه، ويأكلون شيئاً من لحمه، ويحرقون الباقي، وينثرون رماده في الأرض، وكُلُّ ذلك تنفيذاً لوصايا دينهم، وكانوا يُكرِّرون فعلتهم هذه كُلَّ عام مع واحد من اليُونان، ويُذكر أنَّ هذا السّجين قد استرحم الملك أنْ يُنقذه، فأنقذه من الموت».

يذكر أحد الرُّهبان في "دير تير سانت" أنَّ اليهُود كانوا يشترون الأَسْرى المسيحيِّيْن من الفُرْس الذين غزوا القُدس على أيَّام "هرَقْل ملك الرُّوم البيزنطيِّيْن" ويذكر - أيضاً - أنَّ اليهُود اختطفوا طفلاً يُونانيّاً لاستنزاف دمه في أيَّام السُّلطان سليم الثَّالث العُثماني، وثَبُتت التُّهمة ضدَّهم باعترافاتهم، وشُنِقَ ستُّون يهُوديّاً منهم، وعُلِّقَ كُلُّ عشرة منهم في شارع من شوارع المدينة (العاصمة استانبول). وحَدَثَ مثل ذلك في بريطانيا وفي فرنسا؛ حيثُ ارتكب اليهُودُ جرائمَ مُماثلةً، وقد حضر "فيليب أوغسطس" ملك فرنسا، وأشرف على التّحقيق بنفسه في إحداها، وبعد الإدانة؛ أصدر أمره بحَرْق المُتَّهمين، وأصدر مرسوماً بطَرْد جميع اليهُود من فرنسا، وقد حَدَثَ مثل ذلك في ألمانيا.

وقَصَصهم في هذا الموضوع قديمة ومُتكرِّرة، فأعمالهم هذه من صميم شعائرهم التي ابتدعها حاخاماتهم وأحبارهم، وثبَّتوها في تلمودهم، وهُم يعتقدون أنَّه مَنْ احتقر أقوال الحاخامات استحقَّ الموت.. وأنَّ أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء، ومَنْ يُجادل حاخاماته فقد أخطأ؛ وكأنَّه جادل العزَّة الإلهيَّة.

هذا؛ وإنَّهم يتلذَّذون بتعذيب ضحيَّتهم من الأبرياء، ويعبثون بكرامة الإنسان، وهُم يرقصون، ويُغنُّون، ويضحكون حول فريستهم بانتظار وجبة شهيَّة من فطيرهم المُقَدَّس المعجُون بدماء ضحاياهم.

وهُم يُفَضِّلون دم الذَّكَر على دم الأُنثى، ويُفَضِّلون الطِّفل عمَّنْ سواه، ويعتقدون أنَّ في دم المسيحيّ خلاصاً لنُفُوسهم، وهُم يُفَكِّرون - دائماً - بالفطير المُقَدَّس المعجُون بدم

المسيحيِّين كُلَّما اقتربت أعيادهم . . وإذا لم تتوافر الضَّحيَّة من المسيحيِّين، فلا بأس أنْ تكون من المُسلمين، والتّلمود يُجيز دم المُسلمين أيضاً، وحُجَّتهم في ذلك أنَّ كثيراً من المسيحيِّين دخلوا في الإسلام، فَسَفْكُ دم المُسلمين غير حرام.

ويقول حبيب فارس في كتابه "صراخ البريء": «وفي مذهبهم؛ أنَّه إذا لم يكن الحُصُول على دم المسيحيّ مُمكناً؛ فَدَمُ المُسلمين يقوم مقامه، أمَّا دم الأُنثى؛ فلا رغبة لهم فيه، ويُؤثرون الدَّمَ المسيحيّ، ثُمَّ يأتي دم المُسلمين؛ لأنَّ الإسلام يأتي بالدّرجة الثَّانية في الكراهيَّة لديهم بعد المسيحيَّة».

إنَّ حقد اليهُود على المسيحيَّة قديم، وقد انتشر بين المسيحيِّين والمُسلمين مُنذُ القديم أنَّ اليهُود يستخدمون دم البشر في صُنع فطير مُقَدَّس في أعيادهم.

ويقول المُؤرِّخ يُوسُف يزبك في مجلَّة أسرار العالم: «لقد كانت أُمَّهاتنا يُحذِّرننا في طُفُولتنا من الابتعاد عن منازلنا، والاقتراب من أحياء اليهُود؛ لأنَّ هؤلاء يخطفون الأولاد الصّغار، ويضعونهم في "سرير الشّوك" (أيْ برميل الإبر) حتَّى ينزف دمهمن فيعجنون منه خُبزهم المُسمَّى "خُبز الفطير" عملاً بطُقُوس دينهم».

ويقول الحاخام يعقُوب سلانيكي (وهُو من المُتَّهمين بذَبْح الأب تُوما بدمشق؛ كما سنرى بعد قليل) لدى استجوابه عن أسباب سَفْك الدّم عند اليهُود، فيُجيب: «إنَّ أسباب سَفْك الدّم عندنا ثلاثة: هي كراهيَّتنا للمسيحيِّين الذين هُم بمثابة حيوانات أو وَثَنِيِّين كَفَرَة مُستباح قَتْلهم، وأنَّ سَفْك الدّم قُربة من الله، وأنَّ للدّم المسيحيّ أفعالاً سحْريَّة في بعض الأُمُور السِّرِّيَّة»، ثُمَّ يُردِّد أقوال التّلمود؛ إذْ يقول: «من العدل أنْ يَقتل الإسرائيليُّ بيده كُلَّ كافر؛ لأنَّ مَنْ يسفك دم كافر يُقدِّم قُرباناً إلى الله».

إنَّ الحوادث التي ارتكبها اليهُود في هذا المجال أكثر من أنْ تُحصى، وهي تُشَكِّل جرائم بشريَّة لا تُوصَف لشدَّة بشاعتها، واتِّساع خطرها على الإنسانيَّة، وهي تُظهر نَفسيَّة اليهُود الذين تُسيغُ لهم عقائدهم كُلَّ هذه الجرائم[1].

(1) راجعْ كتاب "حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل"، فوزي حميد، وهُو يذكر حوادث كثيرة من هذا النّوع مُوثَّقة، ص 189 ـ 194.

وفيما يلي؛ سنختار عدَّة حوادث (مُوثَّقة) من هذا القبيل من دُول أُورُوبيَّة مُتعدِّدة:

في بريطانيا عام **1144**، في مدينة (نُورفيج) "**Norfige**" من مُقاطعة "نُورفُولـك"؛ حيثُ افتقدتْ إحدى العائلات طفلَهَا "وليم"، وعُمره اثنا عشر عاماً، عُثر عليه - بعد أربعة أيَّام - مقتولاً ومُلقىً في الحرش المُجاور للمدينة، وقد صُفِّيَ دمه، وبعد التّحقيق في أسباب مقتل الطّفل تبيَّن لهم أنَّ اليهُود هُم الذين قتلوه؛ بُغية تقديمه قُرباناً لإلههم، واستعمال دمه لصُنْع الفطائر المُقَدَّسة، وذلك باعتراف الجاني اليهُوديّ "تُوبالت" ورفاقه في الجريمة.

وفي فرنسا؛ عُثر على جُثَّة طفل من مدينة "بلوا **Blais**" بلَّغ ذووه عن فُقدانه فجر يوم عيد الهُولُوكُوست عام **1171**م، ولدى التّحقيق تبيَّن أنَّ اليهُود نفَّذوا جريمتهم؛ بُغية الاستفادة من دمه لصُنْع الفطائر المُقَدَّسة المعهودة، وقد اعترف الجُناة بذنبهم أمام القُضاة، وأُعدم ثلاثة منهم.

وفي ألمانيا عام **1235**، اكتُشفَتْ جُثَثُ خمسة أطفال قُرب الحيّ اليهُوديّ في مدينة "فُولدا" التّابعة لمنطقة "هس ناسو" في عهد الملك "فريدريك الثَّاني" في أعقاب عيد الهُولُوكُوست، ولدى التّحقيق تبيَّن أنَّ القَتَلَةَ كانوا من اليهُود، فاعتُقلَ الجُناة، وكان عقابهم الموت.

أمَّا في النّمسا؛ فجرائم اليهُود لا تُحصى، نذكر منها حوادث الصّخرة المشهورة باسم الصّخرة اليهُوديَّة؛ وهي موجودة قُرب مزرعة "سُولباد هال" التّابعة لمزرعة "إنسبرك" عاصمة مُقاطعة "التيرول"، والتي يحجُّ إليها المسيحيُّون كُلَّ عام، والتي أخذت شُهرتها من الدّماء المسيحيَّة التي كان اليهُود يهدرونها عليها كُلَّ عام بمُناسبة أعياد الهُولُوكُوست خفية عن أنظار السُّلطات.

ومن أبشع الجرائم التي ارتكبها اليهُود في هذا المجال، الجريمة النّكراء التي وقعت في دمشق في **5/ 2/ 1840**، وَذَهَبَ ضحيَّتها الأب تُوما الكبُّوشي وخادمه "إبراهيم أمارة" على يد جماعة من اليهُود، قامت بتصفية دمهما لصُنْع فطير العيد "عيد الكبور"، أو يوم الغُفران.

أمَّا وقائع الجريمة؛ فقد كان "الأب تُوما"[1] يُمارس الطِّبَّ في دمشق؛ حيثُ يقوم بتطعيم السُّكَّان ضدَّ مرض الجُدري، والعناية بالمرضى؛ حيثُ كان وباء الجُدري مُتفشِّياً، وقد

---

(1) وهُو البادري تُوما؛ وهُو مُواطن فرنسي من مواليد كالافيجو اعتمدتْهُ فرنسا بصفته مُرسلاً كاثوليكيّاً إلى دمشق عام **1807**، وأمضى فيها 33 سنة؛ حيثُ ذبحهُ اليهُود غدراً، راجع الحادثة في كتاب: حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل، فوزي حميد، ص 183 - 198، باختصار.

استقدمَهُ حاخامات اليهُود بحُجَّة تطعيم أولادهم باللُّقاح المُضادِّ للجُدري في حارة اليهُود، وهُناك؛ تمّ ذَبْحُهُ، وَذَبْحُ خادمه، وتمّ استصفاء دمهما للغايات المُقَدَّسة.

وقد اشترك في هذه الجريمة النّكراء ستَّة عشر يهُودياً؛ بينهم أربعة حاخامات هُم: مُوسى أبو العافية، يعقُوب العنتابي (كبير حاخامات اليهُود في الشّام) مُوسى بيماد، يهُودا سلاميكي، وأربعة من عائلة هراري هُم: داود هراري، هارُون هراري، إسحاق هراري، يُوسُف هراري، وخادمهم مُراد فتّال، وثلاثة من عائلة فارحي هُم: مايير فارحي، مُراد فارحي، يُوسُف فارحي، والخمسة الباقون هُم: سُلَيْمَان سلُّوم (الحلاق)، وهارُون إسلامبولي، أصلان رفائيل، إسحاق بيجُوتُو، يُوسُف لينادُو.

ويقول مُراد فتَّال (وهُو خادم داود هراري) أثناء التّحقيق بعدما فُضح أمرهم: «دخلتُ، فَوَجَدْتُ إسحاق بيجُوتُو، وهارُون إسلامبولي، وهُما يعملان على تقييده (أيْ الأب تُوما)، وقد وَضَعُوا في فمه خرقة بيضاء، وقد أرتجوا باب الدّار بخشبة كبيرة، ثُمَّ قذفا به إلى الأرض، واجتمع حوله: مايير فارحي، ومُراد فارحي، وهارُون إسلامبولي، وإسحاق بيجُوتُو (وكان مُوظَّفاً في السِّفارة النّمساويَّة) أصلان بن روفائيل، ويعقُوب أبو العافية (حاخام)، ويُوسُف بن مناحيم فارحي، وهؤلاء السّبعة هُم الذين حضروا عمليَّة الذّبح، فمنهم مَنْ وقف يُراقب، ومنهم مَنْ اشترك بالعمليَّة، وأحضروا طبق (طشت) نُحاس، وَوَضَعُوا رقبةَ الأب تُوما فوق الطّبق، وقام مُراد فارحي بذَبْحه، أمَّا أنا "مُراد فتَّال" ومايير فارحي؛ فقد أمسكْنا برأسه، بينما جلس إسحاق بيجُوتُو وأصلان رفائيل على قَدَمَيْه، وأمسك كُلُّ واحد منهما رجْلاً، وجلس عليها، وقام الباقون بتثبيت جذْعه والإمساك به حتَّى لا يتحرَّك، إلى أنْ يُصفَّى دمه. وبعد ذَبحْه بساعة، خمدتْ حَرَكَتُهُ نهائيّاً وقاموا باستصفاء دمه، وطَلَبوا منّا كتمان السِّرِّ، ثُمَّ قاموا يتقطيعه إرباً إرباً، وقذفه في مياه النّهر المالح.

ثُمَّ حصل لخادم الأب تُوما "إبراهيم أمارة" ما حصل لسيِّده بالتّمام، وصُفِّي دمه هُو الآخر. وأترك للقارئ الكريم أنْ يتخيَّل مدى بشاعة هذه الجريمة النّكراء، وقسوة قُلُوب اليهُود، ووحشيَّتهم الفظيعة. لقد اعترف يهُود دمشق بعد أنْ تمّ استجواب كُلٍّ واحد منهم بصُورة إفراديَّة، وتمّ إثبات الجريمة من خلال الوقائع التي كان من أهمِّها العُثُور على عظام

ولحم وطاقيَّة الأب تُوما وشعره وشهادات الأطبَّاء واعترافات المُجرمين أنفسهم . . فكيف كان الحُكْم عليهم في نهاية القضيَّة؟

كان عدد المُتَّهمين في قضيَّة ذَبْح الرَّجُلَيْن معاً (الأب تُوما وخادمه) ستَّة عشر مُتَّهماً (كما أسلفنا) تُوفِّي منهم : يُوسُف هراري ، ويُوسُف لينادو أثناء التَّحقيق . . وأُعفي أربعة ؛ لإعطائهم معلومات كَشَفَت النِّقاب عن القضيَّة (واعتُبروا شُهُود إثبات) وهُم : الحاخام مُوسى أبو العافية (الذي أسلم ، وفَضَحَ مخازي اليهُود ، وأعمالهم الوحشيَّة) وأصلان فارحي ، وسُلَيْمَان سلُّوم ، ومُراد فتَّال . وأصدر الحاكم العامُّ "شريف باشا" حُكْماً بالإعدام على العشرة الباقين ، وصُدِّق الحُكْم ، ولكنَّ الحُكْم لم يُنفَّذ ، ولم يُعدَم اليهُودُ العشرةُ ، بل أُطلق سراحهم!!!

ولكنْ ؛ كيف تمَّ ذلك؟ استطاع اليهُود أنْ يجرُّوا فرنسا وبريطانيا ، ويجمعوا بين العدوَّتَيْن اللَّدودتَيْن (في ذلك الوقت) للتَّدخُّل معاً لدى مُحَمَّد علي باشا والي مصر ليقف دُون تنفيذ حُكْم الإعدام . . ولكَسْب الوقت ؛ قام القُنصل الفرنسيّ في دمشق[1] بالتَّدخُّل ، وطَلَبَ من الحاكم العامِّ شريف باشا تحويل الحُكْم إلى إبراهيم باشا القائد العامِّ للجُيُوش المصريَّة في بلاد الشّام ، للمُصادقة على الحُكْم ، ثُمَّ وَصَلَ إلى الإسكندريَّة مُحاميان يهُوديَّان أوفدهما يهُود أُورُوبا لإنقاذ بني جنسهم من حبْل المشنقة ؛ وهما : كريميو[2] (الفرنسيّ الجنسيَّة) ومُوسى مُونتفيُوري[3] (البريطانيّ الجنسيَّة) .

---

(1) رغم أنَّ الأب تُوما المجني عليه هُو فرنسيّ الأصل ومُعتمد من قبَل الحُكُومة الفرنسيَّة والكَنيسة الكاثُوليكيَّة بصفته مُراسلاً كاثوليكيّاً في دمشق ، بالإضافة إلى أنَّ عمله كان عملاً إنسانيّاً في تطبيب النّاس ، وتحصينهم ضدَّ مرض الجُدري الذي كان مُتفشيّاً في دمشق في ذلك الوقت .

(2) كريميو : مُحامي يهُودي فرنسيّ مشهور ، وكان له مكانة مرموقة في فرنسا ، وهُو الذي توسَّط لدى الحُكُومة الفرنسيَّة لإصدار قرار "كريميو" الذي يُعطي يهُود الجزائر الجنسيَّة الفرنسيَّة ، وبالتّالي ؛ تُصبح لهم نفس حُقُوق المُستوطنين الفرنسيِّين في الجزائر ، ويتمتَّعون برعاية الحُكُومة الفرنسيَّة . وساعد في مهمَّة كريميو لدى مُحَمَّد علي باشا في الإسكندريَّة أنَّ فرنسا كانت - في ذلك الوقت - تقف بجانب مُحَمَّد علي ، وتدعمه في توسُّعه في بلاد الشّام ، وضمّها إلى ولايته في مصر ، بينما كانت بريطانيا أكبر مُعارض لذلك ، حتَّى لا تقوم دولة عَرَبيَّة قويَّة على طريق الهند تُهدِّد مصالح بريطانيا على هذا الطّريق .

(3) مُونتفيُوري : مُحامي يهُودي بريطانيّ كان له دالَّة عظيمة على الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا المشهورة في ذلك الوقت (يُعتبر العصر الفيكتوري أعظم العُصُور في تاريخ بريطانيا ، وقد دام حُكْم فكتوريا 14 سنة) ، وقد جاءت هذه الدّالَّة من مُساعدة ماليَّة من مُونتفيُوري لوالد فكتوريا الدُّوق كنت ، وحصل مُونتفيُوري على رسالة من الملكة فكتوريا إلى مُحَمَّد علي باشا تطلب فيها من الباشا تلبية طلب مُونتفيُوري بمَنْع إعدام اليهُود العشرة ، وكان مُونتفيُوري ثريّاً جداً استخدم أمواله في القضيَّة اليهُوديَّة ، وقدَّم منها إلى مُحَمَّد علي باشا ، مُستغلاً ضائقته الماليَّة .

وَصَلَ المُحاميان إلى الإسكندريَّة، واستطاعا أنْ يدفعا مُحَمَّد علي باشا إلى إصدار أوامره بالتَّوقُّف عن مُلاحقة اليهُود المُتَّهمين بقَتْل الأب تُوما وخادمه، وأمر شريف باشا في 29/ 8/ 1840، بإطلاق سراح اليهُود المُعتقلين، ومنح الهاربين والمطلوبين الأمان، وعودة الجميع إلى أعمالهم، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

لقد خضع مُحَمَّد علي باشا لضُغُوط سياسيَّة دوليَّة هائلة؛ وخاصَّة من فرنسا صديقته، وبريطانيا ذات النُّفُوذ العالمي العظيم في ذلك الوقت، بالإضافة إلى تحسُّن أوضاعه الماليَّة، فقد دُفع له "60 ألف كيس ذهبي، و300 ألف ليرة ذهبيَّة، فكان هذا - بالنِّسبة له - أكثر فائدة من إعدام اليهُود العشرة.

ثُمَّ أكمل ذلك السُّلطان عبد المجيد العُثمانيّ (بعد عودة بلاد الشّام للسّيطرة العُثمانيَّة وخُرُوج مُحَمَّد علي باشا منها)؛ حيثُ أصدر السُّلطان مرسوماً بتاريخ 16/ 11/ 1840، أعلن فيه براءة اليهُود من التُّهمة المنسوبة إليهم، وحذَّر من التَّعدِّي على "الملَّة اليهُوديَّة"، أو توجيه الافتراءات والاتِّهامات الباطلة ضدَّ الرّعايا اليهُود[1].

نستنتج ممَّا سَبَقَ ما يلي:

1: النُّفُوذ اليهُوديّ العالمي في ذلك الوقت (وحتَّى الآن) والذي استطاع أنْ يُنقذ اليهُود العشرة من براثن الموت، رغم الأدلَّة البيِّنة والاعترافات الكاملة، وليس هُناك أيُّ شكٍّ في قيام اليهُود بتلك الجريمة النّكراء.

وفي أثناء هذه المُشكلة وقبلها بقليل - أيْ مُنذُ بداية القرن التّاسع عشر - كانت الدّعوة الصّهيُونيَّة قد بدأت بالظُّهُور، وأخذ اليهُود بالدّعوة إلى العودة إلى أرض المعاد، وتهيئة الظُّرُوف الدّوليَّة لمُساعدتهم في تحقيق عودتهم، وإقامة دولتهم في فلسطين.

2: العداء المُستحكم بين اليهُود والمسيحيَّة، وكُرْه اليهُود الشّديد للمسيحيِّين.

---

(1) المصدر الرّئيسي هُو: "حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل"، فوزي حميد، من ص 183 - 198، باختصار شديد.

3 : التّرابط العجيب بين اليهُود في جميع أركان الأرض، ووُقُوفهم مع بعضهم بالأزمات والمُساعدات المُتبادلة بينهم، وكان كُلُّ ذلك مُقدِّمة لنجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة في قيادة اليهُود إلى أرض المعاد.

الحقيقة أنَّ الشّيء الغريب والمُدهش واللاَّفت للنَّظَر هُو قيام أعظم دولتَيْن مسيحيَّتَيْن في أُورُوبا في ذلك الوقت ـ وهُما بريطانيا وفرنسا ـ بالتَّدخُّل لإنقاذ اليهُود العشرة من حبل المشنقة، رغم أنَّ المجني عليه هُو رجل دين مسيحيّ فرنسيّ، وهُو مُعتمَد من بلاده للكَنيسة الكاثُوليكيَّة في دمشق (وله مهمَّة إنسانيَّة؛ وهي التّخفيف من آلام النّاس، ومُكافحة انتشار وباء الجُدري)، وأنَّ الملكة فكتوريا هي رأس الكَنيسة الأنكليكانيَّة والمُدافع عن المسيحيَّة والمسيحيِّيْن في العالم. ومع كُلِّ ذلك تقف هاتان الدّولتان العظيمتان معاً برغم العداوة المُستحكمة بينهما مع باطل اليهُود، وتُساعدان في إنقاذ اليهُود العشرة من مصيرهم المحتوم؛ وهُو الإعدام شَنْقاً جزاءً على جريمتهم النّكراء. وهذا يقودنا إلى الحديث عن موقف المسيحيَّة من الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ودعوتها إلى العودة إلى "أرض المعاد"، ولكنْ؛ سنبدأ بالحَرَكَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة، وقد كرَّسنا لها القسم الثَّالث من هذا الكتاب.

القسم الثَّالث:

الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة

الفصل الأوَّل:

التَّمهيد

الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة هي الشُّغل الشَّاغل للأُمَّة العَرَبيَّة مُنذُ أوائل القرن العشرين وحتَّى يومنا هذا. والخطر الصّهيُونيّ خطرٌ داهمٌ يستهدف الأُمَّة العَرَبيَّة جمعاء، وتتعرَّض له الأقطار العَرَبيَّة القريبة والبعيدة من فلسطين على حَدٍّ سواء. وهُو أعظم وأكبر من الخطر الصّليبي الذي تعرَّض له الوطن العَرَبيّ طيلة مائتَيْ سنة، وكذلك أعظم وأخطر من الغزو المغوليّ المُدمِّر الذي اكتسح شرق الوطن العَرَبيّ، وانتهى سريعاً، كما بدأ سريعاً.

فالخطر الصّهيُونيّ الإسرائيليّ يُهدِّد وُجُودنا، ويُهدِّد أمَّتنا ووحدتنا واقتصادنا ومُستقبلنا، وحتَّى لو تحقَّق السّلام بين العَرَب و(إسرائيل) فإنَّه سلام لا أمان فيه للأُمَّة العَرَبيَّة، بل الأمان (لإسرائيل)، ومفتاح الأمان والسّلامة بيدها وحدها؛ لأنَّه سلام القوي مع الضّعيف، سلام الذّئب مع الحَمَل، وتجاربنا السّابقة مع (إسرائيل) علَّمَتْنا أنَّها لا تتقيَّد بميثاق، ولا ترتبط بعهدٍ، ولا تقبل بأيِّ حُدُود[1] ثابتة؛ لأنَّ أطماعها لا حُدُود لها، ثُمَّ أيُّ سلام هذا؛ وفلسطين مُحتلَّة، وأرضها مُغتَصَبَة، وشعبها مُشرَّد؟!!

إنَّ (إسرائيل) ـ الآن ـ تملك ترسانة ضخمة من أحدث الأسلحة التَّقليديَّة، وأشدّها فتكاً، وتملك القُدرة والبراعة على استخدامها على أكمل وجهٍ وأفضل حالٍ، هذا؛

---

(1) (إسرائيل) لم تتقيَّد بالهُدنة سنة 1948، التي فرضها مجلس الأمن، وهاجمت الجُيُوش العَرَبيَّة؛ كُلاً على حدة، و(إسرائيل) هي التي نقضت اتِّفاقيَّات رُودُس للهُدنة مع العَرَب المُبرمة عام 1949، وهاجمت مصر مع إنكلترا وفرنسا بالعُدوان الثُّلاثي عام 1956، ثُمَّ نقضت الهُدنة مع مصر وسُوريَّة والأُردُن عام 1967، واستولت على البقيَّة الباقية من فلسطين وأجزاء هامَّة من مصر وسُوريَّة، ونقضتها عام 1982، بمُهاجمة لُبنان واحتلال الشّريط الحُدُودي الجنوبيّ منه، وهي اتِّفاقيَّات كانت بضمان الأُمم المُتَّحدة والمُجتمع الدّولي، ولكنَّ (إسرائيل) لم تتقيَّد بها.

بالإضافة لامتلاكها ترسانة هائلة من جميع أنواع الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وتملك القُدرة على تصنيعها، وعلى رأسها السّلاح النّووي، فهي تملك أكثر من مائتَيْ رأس نووي، وترفض التّوقيع على مُعاهدة وَقْف انتشار الأسلحة الذّرِّيَّة، وهي - فوق كُلِّ ذلك - تملك الصّواريخ البعيدة المدى القادرة على حَمْل هذه الأسلحة الفتَّاكة إلى أيِّ عاصمة عَرَبيَّة، وحتَّى إلى أيِّ عاصمة إسلاميَّة.

كُلُّ ذلك أمام سَمْع وبَصَر ومعرفة العالم الغربيّ، وعلى رأسه الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، والأنكى من كُلِّ ذلك أنَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة والغرب من ورائها تقف ضدَّ انتشار السّلاح النّوويّ، فهي تقف - بحزم - ضدَّ امتلاك كُوريا الشّماليَّة هذا السّلاح، وتضغط على باكستان لعدم صُنْعه[1]، وأقامت الدُّنيا، وأَقْعَدَتْهَا على العراق؛ لأنَّه حاول أنْ يمتلك هذا السّلاح، والآن؛ تُحاول تأليب العالم ضدَّ إيران، مُتَّهمة إيَّاها برعاية الإرهاب والسَّعي للحُصُول على هذا السّلاح، وتُحاول التّمهيد لفرض المُقاطعة على إيران؛ وخاصَّة حَظْرَ تصدير البترول الإيرانيّ؛ لإضعاف إيران، وإفقارها؛ للحيلولة دُون وُصُول إيران إلى امتلاك هذا السّلاح الرّهيب[2]، وفي الوقت نفسه؛ تغضُّ الطَّرْفَ عن (إسرائيل) وامتلاكها هذا السّلاح الفتَّاك، وكأنَّ (إسرائيل) فوق القانون، أو في عالم آخر غير عالمنا.

والأهمُّ من ذلك أنَّ (إسرائيل) وَضَعتْ - مُؤخَّراً - قمراً صناعيّاً تجسُّسيّاً في مدار حول الأرض، وبذلك؛ أصبح الوطن العَرَبيّ عارياً أمام (إسرائيل)، ولم يعد يخفى عليها شيء في طُول الوطن العَرَبيّ وعرضه، وهذا القمر - الذي يستطيع أنْ يكشف رَقْم سيَّارة تسير على طريق عامٍّ، ويُقدِّم (لإسرائيل) بياناً عن الوطن العَرَبيّ كُلَّ سبع ساعات - قد عرَّى الوطن العَرَبيّ، وجَعَلَهُ ككتاب مفتوح أمام المُخابرات الإسرائيليَّة، وبذلك لم تعد (إسرائيل) بحاجة

---

(1) أصبحت باكستان تمتلك السّلاح النّووي، ولكنَّها أصبحت - الآن - تحت نُفُوذ الولايات المُتَّحدة، بعد احتلال الولايات المُتَّحدة لأفغانستان.

(2) والآن؛ أصبح قطر عَرَبي هام هُو العراق مُحتَلاً من الولايات المُتَّحدة؛ بتحريض من (إسرائيل)، وقد احتلَّت أمريكا العراقَ مُتحدِّية الإرادة الدّوليَّة العالميَّة، ومواثيق الأُمم المُتَّحدة؛ بحُجَّة امتلاك العراق للأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وبعد احتلالها للعراق؛ لم تجد أيَّ أثر للأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وإنَّما كان احتلالها للعراق من أجل بتروله، ومن أجل أمن (إسرائيل).

إلى أقمار أمريكا التّجسُّسيَّة، ولا إلى ما تُقدِّمه من معلومات عن الوطن العَرَبيّ تفيد بالإنذار المُبكِّر لأيّ تحرُّك للقُوّات العَرَبيَّة.

وهكذا أصبحنا - نحنُ العَرَبَ؛ الآن - ضُعفاء عسكريّاً، مكشوفين إعلاميّاً، مُتفرِّقين سياسيّاً، كيدنا بين بعضنا، وليس ضدّ عدوِّنا، وهذا ما يحزُّ في النّفس ألماً، ويعتصر القلب حُزناً على هذا الواقع المُؤسف لأُمَّتنا العَرَبيَّة. (1)

وعلى كُلِّ حال؛ علينا أنْ لا نقنط، ولا نستسلم لليأس، فلا أضرَّ علينا من القُنُوط، ولا أسوأ من اليأس، مُتمثِّلين بقَول شاعرنا العَرَبيّ الأصيل أبي القاسم الشّابِّيّ:

إذا الشّعب يوماً أراد الحياة ... فلابُدَّ أنْ يستجيب القدر

ولابُدَّ للّيل أنْ ينجلي ... ولابُدَّ للقيد أنْ ينكسر

إنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة هي التي أقامت (إسرائيل) في فلسطين، فما هي هذه الحَرَكَة؟ وكيف نشأت؟ وكيف أصبحت - الآن - تُمثِّل يهُود العالم الذين ينضوون تحت لوائها، ويتقيَّدون بتعاليمها، ويُنفِّذون أهدافها بكُلِّ دقَّة وتفانٍ وإخلاص؟ وكيف استطاعت أنْ تجرَّ أمريكا خاصَّة؛ والغرب عامَّة لخدمة مآرب الصّهيُونيَّة في الوطن العَرَبي خاصَّة، والعالم عامَّة، بكُلِّ إخلاص وتفانٍ.

الحَرَكَة الصّهيُونيَّة:

تعريف الصّهيُونيَّة: الصّهيُونيَّة كلمة مُشتقَّة من لفظة "صهيُون"؛ وهي اسم جَبَل، أو رابية في فلسطين، بجانب مدينة القُدس "أُورشليم"، وكان اليبوسيُّون (وهُم من الكنعانيِّين) قد أقاموا عليها حصناً قبل مُوسى - عليه السّلام - بألفَيْ سنة.

غير أنَّ هذه اللّفظة لم تُستعمَل بمدلولها السِّياسي الحديث - أيْ بمعنى دعوة اليهُود في العالم لغزو يهُوديّ جديد لفلسطين العَرَبيَّة - إلاَّ في أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ؛ من أجل إقامة دولة لهم فيها.

---

(1) وبعد احتلال العراق جاءت التّهديدات للجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة لإسكات كُلّ صوت عَرَبي يفضح نوايا أمريكا و(إسرائيل).

والصّهيُونيَّة بمعناها السِّياسي هذا ليست من غير مُقدِّمات تاريخيَّـة وأُصُول أيديُولُوجيَّـة سابقة عليها، ففي أسفار اليهُود (في التّوراة) دعوة إلى العودة إلى أرض "المعـاد" كفـرض مـن فرائض العقيدة اليهُوديَّة، وتنبيه وتأكيد على قداسة "جَبَل صهيُون" كرمز للقُدس وفلسـطين، وإلى كونها أرض المعاد، وقد رأينا ـ فيما سَبَقَ من الحديث عـن طوائف اليـهُود ـ مـدى أهمِّيَّـة فلسطين عامَّة، والقُدس خاصَّة، عند اليهُود، حتَّى إنَّ العيش في فلسطين يُعتَبر عبادة وتقرُّبـاً من إلههم "يَهْوَه".

وكذلك التّلمود يُؤكِّد بشكل أشدّ من التّـوراة على قُدسيَّة فلسطين، وضـرورة العـودة إليها، وإذا كـانت التّوراة تدعـو اليـهُود إلى العـودة إلى فلسـطين، وإعـادة بنـاء الـهيكل فـي القُدس، فإنَّ التّلمـود يتَّجـه باليـهُود إلـى عُنصُريَّـة مُفرطـة، وأنَّـهم شـعب الله المُختـار، ومـا عداهم من الأُمم "الأغيار" هُم كالحيوانات، خُلقوا لخدمتهم، والتّلمود يسمح بالالتجـاء إلـى أخسِّ الأساليب لتحقيق أهداف اليهُود باستغلال الأغيار، والسَّيطرة على العـالم، والعـودة إلى أرض المعاد فلسطين.

وقد أُطلقت تسـمية "صُهيون" على مُنظَّمـة إرهابيَّـة أسَّسـها يـهُود رُوسيا وبُولُونيـا بعـد مُنتصف القرن التّاسع عشر، وسُمِّيَ أعضاؤها "أحبَّـاء صـهيُون"، أو "عُشَّـاق صـهيُون"، وقـد انتمى إلى هذه المُنظَّمة مُعظم يهُود رُوسيا البارزين؛ ومنهم والد حاييم وايزمـن (قبـل هجرتـه إلى بريطانيا فراراً من الاضطهاد الرُّوسي) وكذلـك سُـوكُولُوف[1] مـن يـهُود بُولُونيـا البـارزين وكذلك "بنْ غُوريُون" (أوَّل رئيس وزارة يهُوديَّة في فلسطين).

وقـامت هـذه المُنظَّمـة بحَرَكَـات سـرِّيَّة ضـدَّ القَيْصَريَّـة فـي رُوسـيا، ثُـمَّ أخـذت تُعنـى بفلسطين، وصارت تسعى لاسـتعمارها كوطـن قومـيّ لليـهُود، وخاصَّـة بعـد اغتيـال اليـهُود لقَيْصَر رُوسيا الإسكندر الثّاني عام **1881**، وما تلا ذلك مـن مذابـح واضطـهادات ضـدَّ يـهُود رُوسيا، وما يتبعها من أقطار (مثل بُولُونيا) بسبب هذا الاغتيال.

---

(1) سُوكُولُوف: هُو ناحوم سُوكُولُوف؛ وهُـو يـهُوديّ مـن وارسـو عاصمـة بُولُونيـا، وكـانت خاضعـة لرُوسيا بعـد حُرُوب نابليون، وهُو من جماعة "أحبَّـاء صـهيُون"، ثُـمَّ مـن مُتقدِّمي الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وهُـو مـن طبقـات هرتـزل وأحدهاعام وسيشكين ورُوتمبرغ وجابُوتنسكي، استقر مع وايزمن في بريطانيا، وكان له دور كبير في نشاط الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وحُصُول الحَرَكَة على وعد بلفور من بريطانيا عام 1917.

وعلى أثر هذه المذابح أصدرت جماعة مُؤلَّفة من 500 شاب من يهُود خاركوف (مدينة في أُوكرانيا) - وهُم من أعضاء مُنظَّمة "عُشَّاق صهيُون" - بياناً في استامبول عام 1882، على أثر مذابح 1881 في رُوسيا، تدعو إلى تنظيم حَركَة العودة إلى فلسطين التي منحها الرَّبُّ لهم (على حدِّ قولهم)[1].

هذا؛ وقد عرف تاريخ أُورُوبا الحديث العديد من دعوات يهُوديَّة تتَّسم بمثل هذا الطَّابع، غير أنَّه لم يُقَدَّر لأيِّ دعوة من الدّعوات بالنّجاح بسبب ظُرُوف العالم الأُورُوبيّ حينذاك من ناحية، وقيام الدّولة العُثمانيَّة في الشّرق من ناحية أُخرى، والكراهيَّة الشّديدة التي يكنُّها العالم المسيحيّ الأُورُوبيّ لليهُود كَرَدِّ فعلٍ لعُنصُريَّتهم، ولأساليبهم الخسيسة[2]، وتفصيل ذلك كما يلي:

أوّلاً: كان العالم الأُورُوبيّ المسيحيّ في أوائل العصر الحديث يُسيطر عليه التَّعصُّب الدِّينيّ، وكانت سيطرة الكَنيسة على المُجتمع الأُورُوبيّ لا تزال قويَّة، لذلك؛ فقد كان المسيحيُّون يُكنُّون الكراهيَّة الشّديدة لليهُود من ناحيتَيْن: الأُولى أنَّهم كانوا يعتبرونهم قَتَلَةَ المسيح عليه السّلام. والثَّانية: عُنصُريَّتهم الشّديدة، وانعزالهم في أحيائهم الخاصَّة "الغيتو"، وأساليبهم الخسيسة في مُعاملاتهم مع الآخرين "الأغيار"، وتعاطيهم الأعمال المُحتَقَرَة في المُجتمع الأُورُوبيّ، وعلى رأسها تعاطي الرِّبا، كُلُّ ذلك أدَّى إلى عدم التّجاوب معهم، ومُساعدتهم على تحقيق أهدافهم بالعودة إلى فلسطين.

ثانياً: قيام الدّولة العُثمانيَّة الفتيَّة مُنذُ أوائل العصر الحديث، وقد كانت على درجةٍ من القُوَّة تحول دُون التّفكير في غزو يهُوديّ إلى فلسطين، حتَّى ولو كان ذلك بمُساندة ومُساعدة قوى أُورُوبا المسيحيَّة، بل إنَّ هذه القوى كانت مشغولة ومُنهمكة بالوُقُوف أمام التَّوسُّع العُثمانيّ الكبير في أُورُوبا، فقد سيطر الأتراك العُثمانيُّون على جنوب شرق أُورُوبا كُلِّه، وفي زمن السُّلطان سُلَيْمَان القانوني 1520 - 1566م، وَصَلَ العُثمانيُّون إلى أبواب "فيينا" عاصمة الإمبراطُوريَّة النّمساويَّة، فقد حاصرها السُّلطان بجيش قوامه 250 ألف جُندي، ولم يتراجع عنها إلاَّ بسبب البرد الشّديد والأمطار الغزيرة.

---

(1) د. أحمد سُوسة، "تاريخ العَرَب واليهُود"، من ص 713 - 714.

(2) المُجتمع العَرَبيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة، (قسم القضيَّة الفلسطينيَّة)، د. مُحَمَّد طه بدوي، ص 342.

ثالثاً: اليهُود أنفسهم لم يكونوا مُجمعين على أُسلُوب العودة؛ فالقسم الأكبر منهم؛ وخاصَّة المُتديِّنين كانوا يرون أنَّ العودة لا تكون إلاَّ بقيادة المسيح المُنْتَظَر المُخلِّص، الذي سيقودهم إلى فلسطين، ويُعيد بناء الهيكل في القُدس، ويُقيم مملكة إسرائيل، ويُمكِّنهم من السّيطرة على العالم، وكان قلَّة منهم يرون أنَّه يجبُ عدم انتظار ظُهُور المسيح، ويجب المُبادرة إلى القيام بغزو فلسطين، والعودة إليها، وأغلب هؤلاء من اليهُود العلمانيِّين الذين اندمجوا مع الحضارة الأُورُوبيَّة، وخرجوا من أسوار "الغيتو"، وكانوا من المُتعصِّبين قوميّاً لا دينيّاً، وقد تكاثر هؤلاء مُنذُ القرن الثّامن عشر؛ وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة (فرنسا وإنكلترا).

وفيما يلي سنتحدَّث عن مراحل وتطوُّر العمل للعودة إلى فلسطين.

مراحل أو تطوُّر العمل في العودة إلى فلسطين:

ارتباط العودة بأهداف استعماريَّة:

كان أوَّل مَنْ اجتذبتْهُ فكْرة استعمار فلسطين على يد اليهُود هُو نابليون بُونابرت، الذي كان قد خطَّط لتحقيق حُلمه بإنشاء إمبراطُوريَّة فرنسيَّة في الشّرق، وذلك عندما غزا مصر عام 1798م، وكان هدفه الأوَّل من هذه الحملة على مصر هُو تهديد مصالح بريطانيا في الشّرق؛ وخاصَّة في الهند، وإجبارها على الاعتراف بالثّورة الفرنسيَّة(1)، أمَّا الهدف الثّاني؛ فكان إنشاء إمبراطُوريَّة فرنسيَّة في الشّرق تُعوِّضها عن مُستعمراتها التي خسرتْهَا إبَّان الثّورة الفرنسيَّة التي اشتعلت في فرنسا ضدَّ المَلَكيَّة والإقطاع والرّجعيَّة، وتحقيق مبادئها المشهورة في الحُرِّيَّة والعدالة والمُساواة.

وبعد احتلال نابليون لمصر؛ قام بغزو بلاد الشّام عام 1799م(2)، وعندها وجَّه نداءً إلى جميع اليهُود في العالم يستحثُّهم فيه على الانضمام إليه، والانضواء تحت رايته لإعادة بناء

---

(1) حيثُ إنَّ جميع دُول أُورُوبا ـ آنذاك ـ اعترفت بالثّورة الفرنسيَّة، ورضختْ لها؛ إلاَّ بريطانيا، ولم تكن فرنسا تملك القُوَّة البَحْريَّة اللاَّزمة لغزو الجُزُر البريطانيَّة، فرأت في تهديد مصالحها في الشّرق والهند يُمكن أنْ يجعل بريطانيا ترضخ وتعترف بالثّورة الفرنسيَّة، فقامت بالحملة على مصر، ولكنَّ الحملة فشلت، ولم تُحقِّق أهدافها.

(2) كانت مصر وبلاد الشّام أثناء الحملة الفرنسيَّة على مصر، ثُمَّ الشّام تخضع للإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة، وكذلك مُعظم الأقطار العَرَبيَّة الأُخرى.

"مجد (إسرائيل) الضّائع في القُدس"، والظّاهر أنَّ نابليون أصدر هذا النّداء لكَسْب اليهُود إلى جانبه، واستغلال نُفُوذهم في تحقيق أهدافه ومراميه.

ولكنَّ مُحاولة نابليون هذه انتهت بالإخفاق والفشل الذّريع، واندحرت جيُوشه أمام أسوار عكَّا الحصينة، ومُساندة الأسطُول الإنكليزيّ لوالي عكَّا أحمد الجزَّار من البحر، وذلك لمَنْع فرنسا ونابليون من تحقيق أحلامهما بإنشاء إمبراطُوريَّة فرنسيَّة في الشّرق، وتهديد المصالح الإنكليزيَّة في الهند، وعلى طريق الهند. وأخيراً؛ اضطُرَّت الحملة الفرنسيَّة لمُغادرة القُطر المصري، والعودة إلى فرنسا. وهكذا؛ فشلت الحملة، وفشلت مُخطَّطات نابليون في مصر والشَّام.

ويُعتقَد أنَّ نابليون قد تأثَّر بما كَتَبَهُ بعض الفرنسيِّين بعد الثّورة الفرنسيَّة حول اليهُود، ووُجُوب إصلاح شأنهم، وإعادتهم إلى مملكة يهُوذا، وتجديد بناء هيكل سُلَيْمَان في القُدس(1).

هذا؛ وقد نبَّهت حملةُ نابليون على مصر وبلاد الشّام بريطانيا إلى ثلاثة أُمُور هامَّة كانت بريطانيا في غفلة عنها؛ وهي:

1: أهمِّيَّة موقع مصر وفلسطين على طريق الهند؛ وخاصَّة بعد فَتْح قناة السُّويس، ولذلك أصبح محور السِّياسة البريطانيَّة في الشّرق (خاصَّة بعد فشل حملة نابليون بونابرت الفرنسيَّة ورحيله عن مصر) هُو الاستيلاء على مصر بأيَّة وسيلة كانت، وبأيِّ ثمن، ولكنَّ الظُّرُوف الدّوليَّة - آنذاك - لم تسمح لها بتحقيق أهدافها، حتَّى قامت ثورة أحمد عُرابي في مصر عام 1881م، واستنجاد الخديوي توفيق باشا ببريطانيا لحمايته ومُساعدته على القضاء على هذه الثّورة. عندها؛ وَجَدَتْ بريطانيا فُرصتها الذّهبيَّة في احتلال مصر، فلبَّت نداء الخديوي توفيق، ونزلت جيُوشها في مصر، وقضت على الثّورة العُرابيَّة، ولكنَّها لم تنسحب من مصر، وبقيت هُناك تُصدر الوُعُود بالانسحاب، وتتعلَّل بأوْهَى الأسباب للبقاء في مصر حتَّى عام 1955، عندما انسحبت بعد الثّورة المصريَّة عام 1952، بقيادة جمال عبد النّاصر، وعقد اتِّفاقيَّة الجلاء عن مصر.

وكانت بريطانيا - قبل احتلالها لمصر - قد وَضَعتْ أوَّل قَدَم لها في مصر، وذلك بشراء حصَّة مصر من أسهم قناة السُّويس من الخديوي إسماعيل (والد توفيق) في زمن رئيس وُزراء

(1) د. أحمد سُوسة، "العَرَب واليهُود في التّاريخ"، ص 718 - 720، باختصار.

بريطانيا "دزرائيلي" اليهُوديّ المُتنصِّر ـ كما مرَّ معنا ـ وقد اندفع دزرائيلي بشراء الأسهم قبل أَخْذ مُوافقة البرلمان البريطانيّ على ذلك (الذي بارك الصّفقة فيما بعد) وكان هدفه إيجاد موطئ قَدَم لبريطانيا في مصر، وليربط المنطقة بالنُّفُوذ البريطانيّ؛ تمهيداً لمُساعدة اليهُود في الوقت المُناسب لاستعمار فلسطين، والعودة إليها تحت النُّفُوذ والحماية البريطانيَّة.

أمَّا فلسطين نفسها؛ فقد عرف الإنكليز أهمِّيَّة موقعها كحارس لقناة السُّويس وطريق الهند، فركَّزوا اهتمامهم بها ـ وخاصَّة بعد احتلالهم مصر ـ حتَّى جاءت الظُّرُوف الدّوليَّة المُناسبة في الحرب العالميَّة الأُولى عندما جَعَلَت بريطانيا حصَّتها في اتِّفاقيَّة سايكس بيكو 1916م، جنوب بلاد الشّام، ثُمَّ قامت باحتلال فلسطين 1918، ثُمَّ فُرِض الانتداب البريطانيّ على فلسطين وشرق الأُردُن سنة 1920، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور في فلسطين.

2: تنبَّه الإنكليز ـ أيضاً ـ إلى أهمِّيَّة الوُجُود اليهُوديّ في فلسطين، فوقفوا مع الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وأصبحت بريطانيا مقرّاً لقادة هذه الحَرَكَة، وذلك لاستغلال فكْرة "أرض المعاد" عند اليهُود؛ ليكونوا في فلسطين حُرَّاساً لقناة السُّويس، وقاعدة للنُّفُوذ البريطانيّ في المنطقة، وذراعاً لضَرْب أعداء بريطانيا في المشرق العَرَبيّ، وحاجزاً ضدَّ قيام أيَّة وحدة بين مصر وبلاد الشّام.

وهكذا؛ فإنَّ موقع فلسطين الهامَّ استدعى التقاء المصالح الاستعماريَّة البريطانيَّة مع تطلُّعات الصّهيُونيَّة العالميَّة.

وممَّا زاد في اهتمام بريطانيا بفلسطين والتّعاون مع الحَرَكَة الصّهيُونيَّة تقرير مُؤتمر خُبراء الاستعمار البريطاني.

وقصَّة ذلك أنَّ بريطانيا طلبت عام 1907 من خُبراء الاستعمار البريطانيّ أنْ يتدارسوا الوسائل التي يجبُ اتباعها للحيلولة دُون اضمحلال الاستعمار البريطانيّ خاصَّة والغربيّ عامَّة في المنطقة[1].

---

(1) كانت بريطانيا قد عقدت عام 1905، الوفاق الوُدِّي مع فرنسا، وتمَّ تصفية الخلافات بين الدّولتَيْن في الوطن العَرَبي، وتمَّ التّقارب ـ أيضاً ـ بينهما وبين إيطاليا؛ لذلك كان التّقرير يستهدف الحفاظ على المصالح البريطانيَّة خاصَّة، ومصالح فرنسا وإيطاليا عامَّة، وهُما البلدان الواقعان على سواحل المُتوسِّط الشّماليَّة، والهدف من هذا الوفاق والتّقارب كان الوُقُوف أمام القُوَّة الألمانيَّة النّامية في وسط أُورُوبا.

وتقدَّم هؤلاء الخُبراء بنتائج بُحُوثهم في تقرير إلى وزارة الخارجيَّة البريطانيَّة، والذي يعنينا منه الآن القسم الخاصّ بفلسطين؛ حيثُ يقول: «إنَّ البحر المُتوسِّط هُو الشّريان الحيوي للاستعمار.. وهُو مُلتقى طُرُق العالم، فلابُدَّ لنجاح أيَّة خُطَّة تستهدف حماية المصالح الأُورُوبيَّة المُشتركة من السّيطرة على هذا البحر، وعلى شواطئه الجنوبيَّة والشَّرقيَّة؛ لأنَّ مَنْ يُسيطر على هذه المنطقة يستطيع التَّحكُّم في العالم.. فعلى طُول ساحله الجنوبيّ من الرّباط إلى غزَّة، وعلى السّاحل الشّرقي من غزَّة حتَّى مرسين، وعلى الجسر البرِّي الضَّيِّق الذي يصل قارَّة آسيا بقارَّة أفريقيا، وتمُرُّ فيه قناة السُّويس شريان حياة أُورُوبا، وعلى جانبَيْ البحر الأحمر، وعلى طُول ساحل المُحيط الهندي وبحر العَرَب حتَّى خليج البصرة؛ حيثُ تقع الطُّرُق إلى الهند والإمبراطُوريَّات الاستعماريَّة في الشّرق[1].

في هذه البُقعة الشّاسعة الحسَّاسة يعيش شعب واحد (الشَّعب العَرَبيّ)، تتوافر له وحدة تاريخيَّة ولُغويَّة ودينيَّة، ووحدة الآمال، وكُلُّ مقوِّمات التَّجمُّع والتَّرابط والاتِّحاد، وتتوفَّر له في نزعاته التَّحرُّريَّة وفي ثرواته الطّبيعيَّة وفي كثرة سُكَّانه كُلُّ أسباب القُوَّة والتَّحرُّر والنُّهُوض، ويبلغ تعداده الآن **35** مليوناً (وهذا في سنة **1907**، أمَّا الآن؛ فأكثر من **280** مليون نسمة)، ويُمكن أنْ يرتفع عدد سُكَّانه في مدى قرن واحد إلى **100** مليون نسمة (وقد ارتفع إلى ضعف هذا الرَّقْم). فكيف يُمكن أنْ يكون وَضْع هذه المنطقة إذا توحَّدت فعلاً، وتحقّقت آمال شعبها وأهدافه، وإذا اتَّجهت هذه القُوَّة كُلُّها في اتِّجاه واحد؟؟.. عند ذلك ستحلُّ الضّربة القاضية حتَّى بأقوى الإمبراطُوريَّات الاستعماريَّة».

وتفادياً لتلك الضّربة، نبَّه التّقرير إلى: «ضرورة العمل على فصل الجُزء الأفريقيّ من هذه المنطقة عن جُزئها الآسيوي.. وذلك بإقامة حاجز بشريٍّ قويٍّ وغريب على الجسر البرِّيِّ الذي يصل بين آسيا وأفريقيا، ويربطهما معاً.. بحيثُ تُشكِّل هذه المنطقة - وعلى مقربة من قناة السُّويس - قُوَّة صديقة للاستعمار، وعدوَّة لسُكَّان المنطقة».

وليس هُناك أدنى شكٍّ أنَّ السّاسة البريطانيِّين كانوا على إدراك تامٍّ - من قبلُ - بما تضمَّنه هذا التّقرير بصدد استراتيجيَّة المنطقة ككُلٍّ، واستراتيجيَّة فلسطين بشكل خاصٍّ، وأهمِّيَّة

(1) إمبراطُوريَّة بريطانيا في الهند، وإمبراطُوريَّة هُولندا في أندونيسيا، وإمبراطُوريَّة فرنسا في الهند الصّينيَّة (فييتنام ولاوس وكمبوديا)، وإمبراطُوريَّة إيطاليا في الصُّومال.

قُربها من قناة السُّويس[1] ، ولذلك كانت السِّياسة البريطانيَّة في المنطقة تتلخَّص بنُقطتَيْن هامَّتَيْن ؛ هُما :

أوَّلاً: الحيلولة دُون وحدتها ، والوُقُوف - بحزم - ضدَّ أيَّة وحدة أو تقارب بين الأقطار العَرَبيَّة ، بالإضافة إلى زيادة تجزئتها كما حصل في بلاد الشَّام التي جُزِّئت بعد الحرب العالميَّة الأُولى إلى أربعة أقاليم (لُبنان وسُوريَّة وفلسطين والأُردُن) هذا ؛ بالإضافة إلى إحياء النّعرات الإقليميَّة والطَّائفيَّة لزيادة التّشرذم في أقطار هذا الوطن المنكوب .

ثانياً: إقامة جسر بشريٍّ غريب يفصل مغرب العَرَب عن مشرقهم ، وفلسطين هي الموقع المُناسب تماماً لإقامة هذا الجسر البشريّ ، ومن هُنا ؛ جاء تأييد السّاسة البريطانيِّيْن لمطالب الصّهيُونيَّة في فلسطين ، وتقديم الوُعُود لتحقيق هذه المطالب (وعد بلفور) ، والمُساعدة العمليَّة على تحقيقها .

هذا هُو محور السِّياسة البريطانيَّة في بلاد العَرَب مُنذُ حملة نابليون على مصر في أوائل القرن التّاسع عشر ، وحتَّى مُنتصف القرن العشرين ؛ حيثُ ورثت الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بريطانيا في المنطقة ، وسارت على سياستها المشؤومة ، وباندفاع أكبر ، نَظَراً للنُّفُوذ الصّهيُونيّ الكبير في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة .

ومن العوامل التي دفعت بريطانيا للوُقُوف بجانب كُلِّ دعوةٍ لعودة اليهُود إلى أرض المعاد فلسطين هُو قيام حَرَكَة الإصلاح الدِّينيّ فيها ، وانفصال الكَنيسة البريطانيَّة عن التَّبعيَّة للبابا في رُوما ، وقيام المذهب الأنكليكانيّ فيها من عهد الملك هنري الثّامن ، والمذهب الأنكليكانيّ مذهب أُصُولي يجعل للتَّوراة أهمِّيَّة دينيَّة كُبرى كالإنجيل ، وفي التّوراة (كما مرَّ معنا سابقاً) مَنح الرَّبُّ أرضَ فلسطين لليهُود ، وكيف انتقل هذا الميراث من إبراهيم إلى إسحق ، ثُمَّ يعقُوب (عليهم السّلام) كما تدَّعي التّوراة ، وبيان قُدسيَّة فلسطين ، وأنَّ العودة إلى القُدس ضرورة دينيَّة . ومثل المذهب الأنكليكانيّ في بريطانيا المذهب البروتستانتيّ في فرنسا وألمانيا ، وظهر بين المسيحيِّين أتباع هذَيْن المذهبَيْن مَنْ يُسمّون بـ "المسيحيِّين الصّهاينة" ،

---

(1) د. مُحَمَّد بدوي ، "المُجتمع العَرَبيّ وقضيَّة فلسطين" ، ص 338 - 339 .

الذين يُؤيِّدون الحَركَة الصّهيُونيَّة بكُلِّ قواهم، ويعتقدون أنَّ عودة اليهُود إلى فلسطين تُحقِّق نُبُوءات التّوراة. (وسنتكلّم عن المسيحيِّين الصّهاينة ـ فيما بعد ـ إنْ شاء الله).

وهكذا؛ وَجَدَ زُعماء الحَركَة الصّهيُونيَّة ملاذاً آمناً في بريطانيا، وتأييداً حكُوميّاً وشعبيّاً لم يجدوه في أيِّ مكان آخر في أُورُوبا[1]. وأصبحت بريطانيا ـ أقوى الدُّول الاستعماريَّة في ذلك الوقت (القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، وأكثرها خبرة، وأوسعها معرفة بشُؤُون الاستعمار ـ تسير في ركاب الحَركَة الصّهيُونيَّة، تعاطفاً مع أهداف الحَركَة في العودة، وتقارباً مصلحيّاً يخدم مصلحة الفريقَيْن: بريطانيا والصّهيُونيَّة.

فقد رأت بريطانيا ـ ببُعْد نظرها الثّاقب، وقُدرتها على استشفاف المُستقبل ـ أنَّ هذه الحَركَة والدّولة التي تدعو إلى قيامها في فلسطين ستكون مُرتبطة بالاستعمار الغربيّ عامَّة، وببريطانيا خاصَّة، ارتباطاً عُضويّاً وثيقاً لا تستطيع أنْ تعيش بدُونه في قلب الأُمَّة العَرَبيَّة التي تعتبر الصّهيُونيَّة ودولتها في فلسطين جسماً غريباً زُرِع فيها بالقَهْر والإكراه، وهُو كيان ممقوت مرفوض، ولابُدَّ أنْ تأتي الفُرصة (إنْ عاجلاً وإنْ آجلاً) لاجتثاثه، والقضاء عليه.

وأخيراً: إنَّ المُتتبِّع للحَركَة اليهُوديَّة ودعوتها إلى العودة إلى فلسطين قبل قيام الحَركَة الصّهيُونيَّة وبعدها، وحتَّى فرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، يشعر وكأنَّ بريطانيا كانت مُندفعة لتشجيع الهجرة إلى فلسطين، وإقامة الكيان اليهُوديّ الصّهيُونيّ فيها أكثر من اليهُود أنفسهم، وأنَّها في كثير من الأحيان كانت تدفعهم دَفْعاً للعودة إلى فلسطين، وإنشاء دولة لهم فيها، وكانت ـ دائماً ـ تُمهِّد السُّبُل أمامهم، وتُذلِّل الصّعاب، وتُزيل العقبات التي كانت تعترض الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين، وقيام الدّولة اليهُوديَّة فيها.

وبعد فرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين عام 1920 (بعد مُؤتمر سان ريمو في إيطاليا) عملت بريطانيا ـ بكُلِّ طاقتها ـ لتمكين اليهُود من السّيطرة على فلسطين، فَيَسَّرَتْ سُبُل الهجرة اليهُوديَّة إليها، وامتلاك الأراضي فيها بشتَّى الوسائل، وتأمين الرّعاية والحماية لهم حتَّى يصلب عودهم، وتكتمل لهم سُبُل القُوَّة والمَنَعَة.

---

(1) لا شَكَّ أنَّ الحَركَة الصّهيُونيَّة وَجَدَتْ تأييداً وحُرِّيَّة في العمل في فرنسا والنّمسا وألمانيا أوّلاً بسبب النّظام الدِّيمُقراطي فيها، وثانياً بسبب انتشار المذهب البرُوتستانتيّ بين سكّانها.

وللإسراع في ذلك؛ عيَّنت بريطانيا أوَّل مندوب ساميّ بريطانيّ على فلسطين "هربرت صموئيل" اليهُوديّ الصّهيُونيّ البريطانيّ، الذي كان يُلقَّب "بملك إسرائيل"، وذلك للإسراع بتحقيق أهداف الصّهيُونيَّة في فلسطين في أسرع وقتٍ مُمكن. حتَّى لقد قيل إنَّ بريطانيا لم تلتزم بعهد أو ميثاق أو وعد في تاريخها الاستعماري الطّويل، كما التزمت بوعد بلفور، فقد حقَّقت لليهُود في فلسطين أكثر ممَّا أعطاهم الوعد، ومكَّنتهم خلال رُبع قرن من الزّمان ليس بإنشاء وطن قوميّ لهم فحسب، بل بقيام دولة لهم في فلسطين هي (إسرائيل).

ومن المُلاحَظ - أيضاً - أنَّ المُموِّلين الأوائل للاستيطان اليهُوديّ في فلسطين كانوا من اليهُود البريطانيِّيْن أمثال: مُوسى مُونتفيُوري، وأدموند روتشيلد، وكلاهما من أثرى أثرياء العالم، وكلاهما نال أرفع مراتب الشّرف البريطانيَّة؛ حيثُ أصبح مُونتفيُوري السّير مُوسى مُونتفيُوري، ورُوتشيلد اللُّورد أدموند رُوتشيلد. ولا ننسى في هذا المجال هربرت صموئيل الذي أصبح السّير هربرت صموئيل.

وهكذا أصبحت بريطانيا مقرَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ومركز نشاطها، وملاذ أقطاب الصّهيُونيَّة من جميع أنحاء أُورُوبا؛ حيثُ لاقوا التّرحاب والرِّعاية والأمن وتلبية جميع المطالب أمثال: حاييم وايزمن، وبنْ غُوريُون، وسُوكُولُوف، بالإضافة إلى مُؤسِّس الحَرَكَة الصّهيُونيَّة ثيُودُور هرتزل.

ظُهُور الحَرَكَة الصّهيُونيَّة:

مرَّ معنا تعريف "الحَرَكَة الصّهيُونيَّة"، ونَظَراً لأهمِّيَّة هذه الحَرَكَة التي تغلَّبت على جميع الحَرَكَات والمُنظَّمات اليهُوديَّة الأُخرى المُناوئة لها، وقادت اليهُود إلى فلسطين، وبجُهُودها؛ تمَّ إقامة (إسرائيل) في فلسطين، سنتوسَّع في الحديث عن هذه الحَرَكَة بادئين بـ:

أسباب ظُهُور الفكْرة الصّهيُونيَّة والعوامل المُهيِّئة للحَرَكَة الصّهيُونيَّة:

إنَّ استقرار واقع المُجتمع الأُورُوبيّ في القرن التّاسع عشر، مع مُقدِّماته التّاريخيَّة، يُؤدِّي بنا إلى إرجاع العوامل المُهيِّئة للحَرَكَة الصّهيُونيَّة العالميَّة إلى ثلاثة عوامل هي:

عامل مُحرِّك: ويتمثَّل فيما كان عليه المُجتمع الأُورُوبيّ المسيحيّ من عداء لليهُود، وذلك العداء الذي كان يحمل اسم "اللاّساميَّة".

عامل مُهيِّئ: ويتمثَّل في أنَّ القرن التَّاسع عشر كان قرن القوميَّات، ممَّا دفع اليهُود إلى دعوى أنَّ لهم قوميَّة خاصَّة بهم هي "القوميَّة اليهُوديَّة".

عامل مُؤيِّد: اكتملت في القرن التَّاسع عشر معالم الرَّأسماليَّة الصِّناعيَّة، وما أفضت إليه من ظاهرة الإمبرياليَّة. وظهرت بين اليهُود طبقة رأسماليَّة فاحشة الثَّراء تدعم الصّهيُونيَّة، وتجد في فلسطين مجالاً لاستثمار أموالها.

وفيما يلي سنتحدَّث عن هذه العوامل الثّلاثة بالتَّفصيل:

أوَّلاً: العامل المُحرِّك "اللاَّساميَّة":

ويعني الغربيُّون بـ "اللاَّساميَّة" ما كان يلقاه يهُود أُورُوبا من كراهيَّة من جانب المُجتمع الأُورُوبيّ الذي يعيشون فيه، وما أدَّت إليه هذه الكراهيَّة من احتقار واضطهاد. والحقُّ أنَّ اللاَّساميَّة في هذا المعنى ليست من الظّواهر التي ارتبطت في نشأتها بالقرن التَّاسع عشر، فكراهيَّة المُجتمع الأُورُوبيّ المسيحيّ لليهُود قديمة قدَم ظاهرة التّناقض المسيحيّ اليهُوديّ في ذلك العالم.

فاليهُود المُشتَّتون في أُورُوبا على يد الرُّومان ظلُّوا مُتقوقعين على أنفسهم بقيَمهم التي تضمَّنتْهَا أسفار توراتهم، وتَعَنْصُرهم الذي دعاهم إليه التّلمود، مع الأساليب السُّلُوكيَّة الخسيسة في تعامُلهم مع الأغيار، الهادفة إلى استغلال وإفساد المُجتمعات التي يعيشون فيها ومُحاولة تخريبها.

وكانت النّتيجة الحَتْميَّة أنْ وقفت المُجتمعات الأُورُوبيَّة من اليهُود موقف المُتشكِّك، وأُحيطوا بالازدراء والكراهيَّة، وبين الفَيْنَة والفَيْنَة كانت المُجتمعات الأُورُوبيَّة تنفجر بأعمال الاضطهاد ضدَّهم، ومواقف العداء لهم.

والحقيقة أنَّ العداء لليهُود اتَّخذ طابعَيْن:

طابع قديم: وهُو "اللاَّيهُوديَّة" (إنْ صحَّت التّسمية)، وهُو العداء لهم بسبب يهُوديَّتهم.

طابع حديث: وهُو "اللاَّساميَّة" (مُنذُ بداية القرن التّاسع عشر)، وهُو العداء لـهم بسبب قوميَّتهم "السّاميَّة"[1]، بالإضافة إلى يهُوديَّتهم.

وهكذا؛ فإنَّ الشُّعُوب الأُورُوبيَّة التي راحت تُطالب بتقرير مصيرها السِّياسي على مُقتضى قوميَّاتها لا تملك احتراماً لمنطقها، إلاَّ أنْ تُسلِّم بحقِّ اليهُود في أنْ يكون لهم وطن قوميّ. وبذلك؛ تحرَّك اليهُود سياسيّاً نحو المُطالبة بالعودة إلى فلسطين؛ لاتِّخاذها وطناً قوميّاً لهم، وكان ذلك سبباً في قيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة في نهاية القرن التّاسع عشر.

ويرجع المعنيُّون بدراسة ظاهرة "اللاَّساميَّة" إلى عوامل:

دينيَّة: فقد كان يهُود أُورُوبا مكروهين - مُنذُ البداية - بسبب عقيدتهم اليهُوديَّة المُعادية للمسيحيَّة.

اجتماعيَّة: بسبب انطواء اليهُود على أنفسهم وتقاليدهم وسُلُوكيَّتهم الخاصَّة بهم، فلم ينخرطوا في الشُّعُوب الأُورُوبيَّة التي عاشوا بين ظهرانيها، ولم يمتزجوا بها، لذلك ظلَّت هذه الشُّعُوب تنظر إليهم بعين الارتياب والشُّكُوك.

اقتصاديَّة: ظُهُور طبقة بُورجوازيَّة يهُوديَّة فاحشة الثّراء تُنفق على العودة واستعمار فلسطين بسخاء (وسنشرح ذلك؛ لأنَّ هذا يُشكِّل عاملاً مُستقلاً لنجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وسبباً لقيامها).

وعلى كُلِّ حال؛ مهما كانت بواعث "اللاَّساميَّة" فإنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة العالميَّة في أواخر القرن التّاسع عشر استغلَّت هذه المُشكلة، واتَّخذت منها سبباً في الدّعوة إلى إقامة وطن قوميّ لليهُود، وبذلك تُريح العالم الأُورُوبيّ منهم، ومن مشاكلهم ومكائدهم، وتُريح اليهُود، وتُبعدهم عن جوِّ الكراهيَّة والاضطهاد الذي يعيشون فيه في أُورُوبا.

---

(1) هذا حسب دعوى اليهُود، ولكنَّهم - في الحقيقة - لا يمُتُّون للسّاميَّة بأيَّة صلة - كما مرَّ معنا في القسم الأوَّل من هذا الكتاب - فيهُود اليوم هُم من جنسيَّات وقوميَّات مُتعدِّدة اعتنقت اليهُوديَّة في مواطنها، ثُمَّ تطبَّعتْ بطباع اليهُود وسُلُوكيَّتهم، لتقيُّدها بتعاليم التّوراة والتّلمود. (راجع الفصل التّاسع من القسم الأوَّل).

ثانياً: العامل المُهيِّء "أثر القوميَّات":

مُنذُ أوائل القرن التّاسع عشر؛ راحت صُورة جديدة للتّكامل البشريّ تظهر وتتمثَّل بالتّكامل القوميّ في صُورة "الدّولة القوميَّة"، فبدل الإمبراطُوريَّات التي تضمُّ شُعُوب وقوميَّات مُتعدِّدة مُختلفة ومُتنافرة، أصبح التّنظيم السِّياسي للمُجتمعات الأُورُوبيَّة يتَّجه إلى إقامة الدّولة القوميَّة، وبهذه الصُّورة الجديدة؛ لا يُكرَه شعب على الحياة مع شعب آخر يمقته ولا يُريد أنْ يعيش معه في ظلِّ وحدة سياسيَّة واحدة، وبالمُقابل لا يُفتّت شعب له وحدة قوميَّة خاصَّة به، وهكذا أصبح الاتِّجاه نحو قاعدة: لا تفتيت، ولا تجميع بالإكراه.

إنَّ هذه الصُّورة المُثلى للتّنظيم السِّياسي، أو إنْ شئت للتّكامل البشريّ داخل الوحدة السِّياسيَّة بدأت لدى الدّاعين إليها في القرن التّاسع عشر أرقى صُور الوحدة السِّياسيَّة. فبالدّولة القوميَّة تتخلَّص الوحدات السِّياسيَّة من عوامل التّناقض التي كانت تتَّسم بها شُعُوب أصحاب الإمبراطُوريَّات القديمة، وبذلك تتأكَّد الوحدة القوميَّة والوطنيَّة (لذلك يُعتبر القرن التّاسع عشر قرن بُزُوغ القوميَّات والوحدات السِّياسيَّة القوميَّة).

ولقد وَجَدَ الفكْر الصّهيُونيّ الجديد في فكْرة "الدّولة القوميَّة" مُنطلقاً مُناسباً يرتكز عليه اليهُود الصّهاينة في المُطالبة بالعودة إلى فلسطين، وإنشاء وطن قوميّ لهم فيها، لا على أساس إعادة بناء الهيكل فيها، وإنَّما بقصد إقامة "دولة قوميَّة" لهم فيها، وعلى أساس أنَّ الشُّعُوب الأُورُوبيَّة التي صمَّمت على حقِّها في تقرير مصيرها بإقامة دُولها القوميَّة لن تُراجع منطقها هذا بالنّسبة لليهُود، ولن تستنكر عليهم إنشاء وطن قوميّ لهم أيضاً.

وهكذا كان عصر القوميَّات في أُورُوبا مُبرّراً لليهُود بأنْ يكون لهم وطن قوميّ يجمعهم، ويُظلُّهم تحت سمائه.

ثالثاً: عامل مؤيِّد "البُرجوازيَّة اليهُوديَّة":

إنَّ يهُود أُورُوبا الذين تحدَّروا من الازدراء والقيُود التي كانت تُحيق بهم في المُجتمعات الأُورُوبيَّة في العصر الوسيط "عصر الإقطاع وتسلُّط النُّبلاء" وذلك بفضل انتشار أفكار الحُرِّيَّة والمُساواة والعدالة الاجتماعيَّة وحقّ الفرد بالحياة الحُرَّة الكريمة، والتي انتشرت في أُورُوبا في

القرنَيْن السّابع عشر والثّامن عشر، والتي توّجَتْهَا الثّورة الفرنسيَّة في أواخر القرن الثّامن عشر بمُناداتها بالحُرِّيَّة والعدالة والمُساواة، ثُمَّ انتصار البُرجوازيَّة السِّياسيَّة الذي صاحَبَهُ إرساء قواعد المُجتمع الرّأسمالي الحُرِّ في القرن التّاسع عشر، والذي يرتكز ـ بصفة أساسيَّة ـ على رأس المال المنقول (بدل الاقتصاد الوسيط الذي يرتكز على ملكيَّة الأراضي).

إنَّ هذا كُلَّه قد هيَّأ لليهُود المُشاركة العَلَنيَّة في عالم الاقتصاد، بل والتَّسلُّط عليه، بينما كانوا ـ فيما مضى ـ يُمارسون جَمْعَ الذّهب في خفاء وخوف. وتسلُّطهم هذا على عالم الاقتصاد الحُرِّ الجديد أضاف عاملاً قويّاً إلى عوامل عداء الأُورُوبيِّيْن لهم، بل إنَّه كان أقوى من العامل الدِّينيّ والقومي"[1] "اللاّسامية"، فاليهُود المُرابون ـ قديماً ـ أصبحوا هُم اليهُود المُضاربون حديثاً، وهُم ـ في الحالتَيْن ـ مكروهون[2].

والحقيقة أنَّ انتصار اللِّيبراليَّة الذي أعقب الثّورة الفرنسيَّة كان نُقطة تحوُّل هامَّة، وانعطافاً تاريخيّاً في حياة اليهُود، وعاملاً من عوامل تحريرهم في فرنسا وإنكلترا، ثُمَّ في ألمانيا، والنّمسا، وإيطاليا .. إلخ؛ حيثُ تعهَّدت هذه الأقطار بحمايتهم، والدّفاع عنهم، وعلى أثر ذلك اندفع اليهُود في هذه الأقطار (وخاصَّة في فرنسا وإنكلترا) للتّغلغل والانتماء للأحزاب اللِّيبراليَّة بُغية تهيئتها للانقياد والسّير في الطّريق المرسوم، ولتكون في الوقت المُحدَّد المُنطلَق والمُعتمَد لتنفيذ أهدافهم ومشاريعهم[3]، حتَّى تمكَّن اليهُود في بريطانيا من الوُصُول إلى رئاسة الوزارة مثل "دزرائيلي" الذي وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة البريطانيَّة ثلاث مرَّات (وهُو يهُوديّ مُتنصِّر ظهر في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر كما مرَّ معنا سابقاً)، وكذلك "ليون بلوم" الاشتراكي الفرنسي الذي ترأس الوزارة الفرنسيَّة عام 1936، وهُو رئيس الجبهة الشّعبيَّة الاشتراكيَّة في فرنسا، وهُو يهُوديّ فرنسي مُتنصِّر أيضاً، واليهُودي برنارد باروخ الوجه الحقيقي لسياسة الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة من الحرب العالميَّة الأُولى إلى الحرب العالميَّة الثّانية، وهُو الذي زجَّ أمريكا في هاتَيْن الحربَيْن.

---

(1) وقد مرَّ معنا مثال على تصادم المصالح الرّأسماليَّة والصّناعيَّة بين اليهُود وغيرهم، وهُو تصادم الصّناعي هنري فُورد مع الرّأسماليِّيْن اليهُود في أمريكا.

(2) الصّهيُونيَّة العالميَّة، الأُستاذ سُلَيْمَان حاتم، ص 61.

(3) المصدر لما سَبَقَ كتاب "المُجتمع العَرَبيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة"، د. مُحَمَّد طه بدوي، من ص 344 ـ 348.

هذه هي الأسباب غير المُباشرة أو البعيدة لقيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.

أمَّا الأسباب المُباشرة التي دفعت اليهُود لقيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة القوميَّة فهي:

أ: **الاضطهاد القَيْصَري الرُّوسيّ لليهُود:** كان اليهُود في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة أكثر اليهُود تعصُّباً وانعزالاً واستعلاءً، ممَّا أدَّى إلى مقت شُعُوب أُورُوبا الشّرقيَّة لهم، وقيامها برُدُود فعل دمويَّة ضدَّهم؛ كان من أهمِّها:

1: المذابح والاضطهادات التي قامت ضدَّهم في رُوسيا بعد اغتيالهم لقَيْصَر رُوسيا الإسكندر الثّاني عام 1881م.

2: المذابح التي لحقت بهم بعد اكتشاف برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون ونَشرها ومعرفة النّاس بمضمونها، والتي فضحت أهداف اليهُود، وموقفهم من الأغيار.

ب: **فضيحة دمشق:** وهي الجريمة النّكراء التي ارتكبها جماعة من اليهُود في دمشق؛ حيثُ اختطفوا الرّاهب المسيحيّ الأب تُوما وخادمه، وذبحوهما، واستعملوا دمهما في فطيرهم المُقَدَّس. (وقد مرَّ معنا الحديث عن هذه الفضيحة).

ج: **فضيحة الضّابط اليهُوديّ دريفُوس:** دريفُوس ضابط يهُوديّ في الجيش الفرنسي في أواخر القرن التّاسع عشر، والذي اتُّهم بسرقة وثائق عسكريَّة سرِّيَّة فرنسيَّة من رئاسة أركان الجيش الفرنسي، وبيعها إلى المُفوضيَّة الألمانيَّة بباريس، وحضر مُحاكمته تيُودُور هرتسل مُؤسِّس الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وبذل قصارى جهده في سبيل الدّفاع عنه، ولكنَّ التُّهمة ثبتتْ عليه، وهي جريمة خطيرة جداً، لا سيَّما وأنَّ ألمانيا العدوّ اللّدود لفرنسا. ومع كُلِّ ذلك حُكمَ عليه بالنّفي فقط، وجريمة كهذه لا يُمكن أنْ يكون الحُكْم فيها أقلّ من الإعدام، ولكنَّ اليهُود استطاعوا إنقاذه من حبل المشنقة، ويكتفي القضاء بالنّفي فقط (كما أنقذوا - من قبلُ - اليهُود الذين اشتركوا في ذَبْح الأب تُوما وخادمه في دمشق).

إنَّ هذه الفضائح أدَّت إلى موجة من المذابح والاضطهاد والاحتقار لليهُود، وخُصُوصاً في رُوسيا وبُولُونيا، وأدَّت - أيضاً - إلى ظُهُور رُدُود فعل في أوساط اليهُود مُتعدِّدة بهدف إيجاد حلٍّ للمسألة اليهُوديَّة أهمّها:

1: التَّديُّن وانتظار "المسيح المُخلِّص".

2: الذّوبان والاندماج في المُجتمعات التي يعيشون فيها.

3: الهجرة إلى مناطق مُتفرِّقة من العالم (وخاصَّة العالم الجديد الأمريكيَّتَيْن وأُستراليا).

4: الاستيطان السِّياسي، وتكوين مُجتمع خاصٍّ بهم في أيِّ مكان في العالم.

ولكنْ؛ من خلال التَّخبُّط بين هذه الاتِّجاهات والحُلُول المُتباينة، برزت مدرسة جديدة سُمِّيت "مدرسة الفكْر القوميّ اليهُودي"، والتي رَفَضَتْ جميع الحُلُول السّابقة، واعتبرتْها عاجزة عن تقديم الحلِّ المطلوب للمُشكلة اليهُوديَّة، وتقدَّمت بالحلِّ القوميّ على أساس أنَّ اليهُود يُشَكِّلون أُمَّة واحدة.

وإنَّني سأتحدَّث - فيما يلي - عن مُفكِّري هذه المدرسة، ومن خلال حديثي عنهم سأعمد إلى إيضاح وتبيان الأسباب المُباشرة في تبلور الفكْرة الصّهيُونيَّة القوميَّة، وإخراجها من نطاق الأحلام إلى حيِّز الواقع والعمل[1].

وأشهر مُفكِّري هذه المدرسة القوميَّة هُم:

الحاخام هيرش كاليشر 1795 - 1874 Kalisher:

عاش هذا الإنسانُ الجوَّ الذي بدت فيه الظّاهرة القوميَّة تنتشر في أُورُوبا، ورُدُود الفعل النّاجمة عن النّتائج العكسيَّة التي أعطتها قوى "الاستنارة"[2]، فهزَّته هذه الظّواهر، وَوَضَعَ

(1) مرجع الأسباب المُباشرة للحَركَة الصّهيُونيَّة، (الصّهيُونيَّة العالميَّة)، سُلَيْمَان حاتم، من ص 64 - 70، باختصار.
(2) الاستنارة هي حَرَكَة يهُوديَّة تدعو إلى اندماج اليهُود في المُجتمعات التي يعيشون فيها، مع التَّمسُّك باليهُوديَّة كدين فقط.

كتابه "البحث عن صهيُون" ردّاً على أنصار الحلّ المُنادي بالتّديُّن وانتظار المسيح المُخلِّص كأُسلُوب لحلّ المُشكلة اليهُوديَّة، وأكّد على القوميَّة اليهُوديَّة، وعلى ضرورة العمل المُتواصل لكسب مُوافقة الأُمم المُختلفة على جمع اليهُود المُشرَّدين في الأرض المُقدَّسة، ودعا اليهُود إلى استيطان فلسطين، واقترح إقامة مُنظَّمة تُشرف على عمليَّة الاستيطان، وتتولّى شراء المزارع والحُقُول، وتهيئتها للمُهاجرين في المُستقبل، واعتبر أنَّ مُجرَّد العودة إلى الأرض المُقدَّسة هُو عبادة تُرضي اللهَ، وتُحقِّق الخلاص للشّعب المُعذَّب.

والحاخام هيرش كاليشر يهُوديّ بُولُوني عاصر قيام الوحدة الألمانيَّة على أساس قوميّ، وكذلك الحَرَكَات القوميَّة في شرق أُورُوبا ووسطها[1].

مُوسى مُونتفيُوري 1784 - 1885:

وهُو يهُوديّ إنكليزيّ وُلد في ليفُورن، وكان زعيم يهُود إنكلترا، وأصبح عُمدة مدينة لندن، وهُو أوَّل يهُوديّ حصل على لقب "سير **Sir**" في بريطانيا. وقد نجح في إقامة صداقة شخصيَّة حميمة مع الملكة فكتوريا[2] (أعظم مُلُوك بريطانيا).

وهُو من أقطاب البُرجوازيَّة اليهُوديَّة التي ساهمت بأموالها ونُفُوذها مُساهمة فعَّالة في إرساء دعائم أوَّل استيطان يهُوديّ في فلسطين قبل ظُهُور الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بأكثر من نصف قرن.

قام بدَعْم وتأييد من الحُكُومة البريطانيَّة برحلات مُتعدِّدة لوَضْع وتنفيذ مشروع واسع لتوطين اليهُود في فلسطين، مُمثِّلاً ومُنفِّذاً لأهداف بريطانيا من وراء توطين اليهُود في فلسطين[3].

وكانت البُرجوازيَّة اليهُوديَّة في بريطانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة والغرب عامَّة تهدف إلى تحويل مسار الهجرات اليهُوديَّة الفقيرة المُتدفِّقة من أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا (في

---

(1) مصدر الحديث عن كاليشر، "الصّهيُونيَّة العالميَّة"، الأُستاذ سُلَيْمَان حاتم، ص 65.

(2) استغلَّ صداقته مع الملكة فكتوريا ونُفُوذه الكبير في الحُكُومة البريطانيَّة وثروته الماليَّة الضّخمة في إنقاذ اليهُود المُتَّهمين بذَبْح الأب تُوما وخادمه في دمشق (كما أسلفنا).

(3) مرَّ معنا اندفاع بريطانيا لتبنّي قيام حاجز بشريّ أجنبي في فلسطين يُحقِّق لبريطانيا ما يلي:

أ: فَصْل شطرَيْ الوطن العَرَبيّ في آسيا وأفريقيا لمَنْع قيام وحدة عَرَبيَّة في الوطن العَرَبيّ؛ وخاصَّة بين مصر وبلاد الشّام.

ب: هذا الحاجز البشريّ يحمي قناة السُّويس، ويُحافظ على سلامة طريق الهند، ويكون مُوالياً ومُخلصاً للغرب عامَّة؛ وبريطانيا خاصَّة؛ لأنَّه لا يستطيع أنْ يستمرَّ في الحياة بدُون دَعْم الغرب، وحمايته. (وهذا الحاصل - الآن - لإسرائيل).

القرن التّاسع عشر) إلى فلسطين؛ بدلاً من الاتّجاه إلى أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا؛ حيثُ كانت هذه الهجرة تُهدِّد وَضْعَ اليهُود الطَّبَقي والحضاري فيهما. لذلك قام اليهُود الغربيُّون الذين هاجروا إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لتضييق أبواب الهجرة على أمثال هؤلاء اليهُود، والعمل على دَفْعهم للهجرة إلى فلسطين (كما تُريد وترى بريطانيا أيضاً). فقد شَعَرَ اليهُود الغربيُّون في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا أنَّ هؤلاء الوافدين الجُدُد سيكونون عبئاً ثقيلاً عليهم؛ نَظَراً لجَهْلهم التَّامِّ بالثّقافة الغربيَّة واللُّغة الإنكليزيَّة، فخُشُونتهم وفَقْرهم المُدْقع قد يُحيي - من جديد - نزعة اللاّساميَّة ضدَّ اليهُود؛ وخاصَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، لا سيَّما وأنَّ الأموال التي سيُنفقونها عليهم لدَمْجهم بالحياة العامَّة في أمريكا أو أُورُوبا الغربيَّة وإيجاد أعمال لهم، يُمكن أنْ تُنفَق على إقامتهم في فلسطين، واستعمارهم لها، وتكون الفائدة للفريقَيْن:

1: البُرجوازيَّة اليهُوديَّة تستثمر أموالها في فلسطين.

2: فُقراء اليهُود (القادمون من أُورُوبا الشّرقيَّة) يجدون لهم فيها ملاذاً آمناً، وعملاً ثابتاً.

والأهمُّ من كُلِّ ذلك تكون بريطانيا قد حقَّقتْ حُلمها بإيجاد حاجز بشريٍّ بين شطرَيْ الوطن العَرَبيّ في فلسطين؛ قلب الوطن العَرَبي.

كان الثّري اليهُوديّ مُوسى مُونتفيُوري يُمثِّل كُلَّ هذه الأفكار، ويندفع لتحقيقها[1]. ففي عام 1839، قابل مُحَمَّد علي باشا (حاكم مصر وبلاد الشّام)، وحَصَلَ منه على وعد يمنحه امتياز استثمار حوالي 200 قرية في منطقة الجليل شمال فلسطين لمُدَّة خمسين سنة. ولكنَّ الامتياز لم يتحقَّق لانسحاب مُحَمَّد علي من بلاد الشّام عام 1841، وعودتها للسّيطرة العُثمانيَّة.

وفي عام 1849، نَجَحَ مُونتفيُوري في الحُصُول على فَرَمَان من السُّلطان عبد الحميد يسمح لليهُود - بمُوجبه - بشراء بعض الأراضي في فلسطين، وكان ذلك نتيجة تدخُّل بريطانيا

(1) يُشبه مُونتفيُوري الثَّريَّ البريطانيَّ اليهُوديَّ أدموند رُوتشيلد، الذي قام بنَفْس دوره مُونتفيُوري، وتبنَّى أهدافه وأهداف بريطانيا في أوائل القرن العشرين بعد قيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وهُو - أيضاً - أوَّل مَنْ حَصَلَ على لَقَب لُورد من بريطانيا من اليهُود.

لدى الدّولة العُثمانيَّة، ثُمَّ تابعتْ بريطانيا ضُغُوطَهَا المُستمرَّة على الباب العالي للسّماح لليهُود بالتَّملُّك وشراء الأراضي في فلسطين؛ وخاصَّة في منطقة القُدس. وهكذا تمكَّن مُونتفيُوري من شراء بعض الأراضي، وإقامة مزارع يهُوديَّة في المناطق المُجاورة ليَافَا وصَفَد والقُدس (سنتحدَّث عن ذلك مُفصَّلاً عند الحديث عن الاستيطان).

الحاخام يهُوذا القلعي 1798 ـ 1878 [1]:

عاصر الحاخامُ قلعي الحاخامَ هيرش كاليشر (السّابق)، وتبادل الآراء معه.

نشأ القلعي نشأة دينيَّة مُحافظة في أُسرة تُمثِّل الزّعامة الدِّينيَّة بين يهُود الصّرب (في يُوغسلافيا سابقاً).

وهُو مثل الحاخام هيرش كاليشر يُمثِّل الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، ودعا في كتابه "اسمعي يا (إسرائيل)" (شمعي يسرائيل) إلى العودة إلى فلسطين تحت زعامة بشريَّة، دُون انتظار المسيح المُخلِّص. كما دعا إلى إقامة مُستعمرات يهُوديَّة في فلسطين كي تكون مُقدِّمة لظُهُور المسيح، ودعا إلى إنشاء صُندوق قوميّ لشراء الأراضي.

ولم يكتف الحاخام قلعي بالدّعوة النَّظَريَّة إلى آرائه، بل قام بوَضْع كُتُب لتدريس اللُّغة العبريَّة، والتّوصية باستعمالها، وزار العديدَ من دُول أُورُوبا للتّرويج لأفكاره بين يهُودها. كما حاول القيام بنشاط استيطاني في فلسطين، ولكنَّه لم يُوفَّق، وهاجر إلى فلسطين عام 1874م؛ حيثُ تُوفِّي فيها.

ولم يكن تمرُّد الحاخامَيْن كاليشر والقلعي على فكْرة انتظار المسيح عملاً سهلاً؛ إذْ إنَّ غالبيَّة الحاخامات ورجال الدِّين اليهُود كانوا ـ حتَّى ذلك الوقت ـ يعتبرون هذه الدّعوة نوعاً من الهرطقة. ومهما يكن الأمر؛ فإنَّ آراء هذَيْن الحاخامَيْن ـ بالرّغم من أنَّها لم تحظَ بالتّأييد الكامل من قبَل أغلب الحاخامات المُعاصرين ـ فإنَّها شكَّلت ـ في النّهاية ـ المُقدِّمة المطلوبة لبُرُوز تيَّار الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة داخل المُجتمعات اليهُوديَّة، وظُهُور الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة القوميَّة.

---

(1) المصدر، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، (عالم المعرفة الكُويتيَّة)، رشاد الشّامس، ص 86 ـ 87.
مشاريع الاستيطان اليهُوديّ (عالم المعرفة الكُويتيَّة)، أمين عبد الله، ص 64 ـ 65.

أمَّا الصّهيُونيَّة العلمانيَّة القوميَّة؛ فكان من أبرز رجالها (بالإضافة إلى مُونتفيُوري):

مُورنس هيس 1812 ـ 1875: هُو يهُوديّ ألماني، دعا أبناء شعبه إلى إقامة المُستعمرات في الأرض المُقَدَّسة، وطالب فرنسا بإيجاد تلك المُستعمرات من السُّويس إلى القُدس، ومن الأُرْدُن إلى البحر المُتوسِّط.

وكان مُؤلَّفه "رُوما والقُدس" المنشور عام 1861، رداً على الاتِّجاه الدّاعي إلى ذوبان اليهُود في المُجتمعات الأُورُوبيَّة. وكان يَعتبرُ هذا الحلَّ عقيماً وغير مُجدٍ، وأنَّ في هذا قضاءً على الشّخصيَّة اليهُوديَّة، وأنَّ الحُلُول المطروقة فشلتْ جميعها في جَعْل المُجتمع الأُورُوبيّ يُغيِّر نَظْرَتَهُ لليهُودي، لذلك؛ فالحلُّ الوحيد هُو العودة إلى أرض المعاد.

وقد عاش هذا المُفكِّرُ الجريمَةَ التي ارتكبها اليهُود في دمشق 1840، (وهي خَطْفُ وذَبْحُ الرّاهب الأب تُوما وخادمه). وقد رأينا ـ فيما سَبَقَ ـ كيف بَذَلَ الثّري اليهُوديّ مُوسى مُونتفيُوري جُهُوداً جبَّارة لإنقاذ مُرتكبي هذه الجريمة النّكراء من حبل المشنقة، مُستعيناً بإنكلترا وفرنسا وأمواله بهذا الصَّدَد.

ولقد كان هذا الحادث العجيب أحد الأسباب التي دَفَعَتْ مُورنس هيس وغيره للعمل المُتواصل في إيجاد حلٍّ للقضيَّة اليهُوديَّة[1].

ليو بنسكر 1821 ـ 1899[2]: أوضح بنسكر آراءه في نداء وجَّهه إلى اليهُود بعُنوان "التّحرير الذّاتي"، أكَّد فيه على أنَّ التَّحرُّر الحقيقيّ يكمن في خَلْق قوميَّة يهُوديَّة للشَّعب اليهُوديّ تُمكِّنه من العيش على أرض واحدة مُحدَّدة. وقال: إنَّ اللاّسَاميَّة لا يُمكن أنْ تزول طالما أنَّنا ـ اليهُود ـ لا نملك وطناً قومياً خاصّاً بنا، والسَّبب في رأيه أنَّ الشُّعُور بالكراهيَّة نحو اليهُود واحتقارهم مُتأصِّل في النَّفْس البشريَّة (يقصد النَّفْس البشريَّة الأُورُوبيَّة)[3].

---

(1) المصدر، الصّهيُونيَّة العالميَّة، سُلَيْمَان حاتم، ص 65 ـ 66.

(2) المصدر، الصّهيُونيَّة العالميَّة، سُلَيْمَان حاتم، ص 67 ـ 68.

(3) إنَّ ليوبنسكر لا يُحاول أنْ يبحث عن ملجأ لهم من هذه الكراهيَّة والاحتقار الشّديد لليهُود في أُورُوبا والعالم، بل يبحث عن ملجأ لهم من هذه الكراهيَّة والاحتقار، وكان الأَولى به أنْ يبحث عن الأسباب التي أدَّت إلى هذه الكراهيَّة والاحتقار، ولكنَّ سُلُوكيَّة اليهُود لا يُمكن أنْ تتغيَّر؛ لأنَّها نابعة من صُلْب تعاليم دينهم، وتوجيهات حاخاماتهم.

وليوينسكر يهُوديّ رُوسيّ عاش المذبحة التي حلَّت باليهُود في رُوسيا، والتي نَجَمَتْ عن مُحاولاتهم المُتكررة للدَّسِّ، وتدبير المؤامرات لقَلْب نظام الحُكم، ونَشْر الفساد في الجيش الرُّوسيّ والإدارة الحُكُوميَّة، ثُمَّ الإقدام على اغتيال القَيْصَر الإسكندر الثّاني **1881**.

لقد هزَّت هذه المذابحُ والاضطهاداتُ ليوبنسكرَ، فراح يدعو إلى إيجاد وطن قوميّ لليهُود، وتحقيق حُلم الأجداد بأرض المعاد.

أحبَّاء صهيُون: وفي النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر؛ ظهرت حَرَكَة "مُحبِّي صهيُون"، أو "عُشَّاق صهيُون" في مدينة أُوديسا في جنوب رُوسيا (على البحر الأسود)؛ بزعامة ليوبنسكر وأحدهاعام، تُشجِّع هجرة اليهُود إلى فلسطين، وإنشاء مُستعمرات يهُوديَّة فيها لمُهاجرين يهُود من رُوسيا، وبُولُونيا، ورُومانيا، وليتوانيا، ومناطق أُخرى، ويدعمها كبار أثرياء اليهُود أمثال: مُوسى مُونتفيُوري، وأدموند رُوتشيلد، وهرش كاليشر.

وحَرَكَة مُحبِّي صهيُون، وإنْ لم تُطالب بإنشاء دولة في فلسطين بشكل صريح، لكنَّ ما وَرَدَ في برنامجها يقترب - إلى حَدٍّ بعيد - من أهداف الصّهيُونيَّة، ويُعتَبَرُ مُقدِّمة وتمهيداً لها، وبرنامجها هُو:

1: نَشْر المعرفة بالتّاريخ اليهُوديّ واللُّغة العبريَّة والأدب اليهُوديّ.

2: تحقيق الوحدة والتّضامن بين جميع اليهُود في العالم.

3: إنشاء مُستعمرات زراعيَّة في فلسطين.

4: جَعْل هذه المُستعمرات مركزاً للأماني الثّقافيَّة اليهُوديَّة.

ولابُدَّ من التّنويه هُنا إلى أنَّ أحدهاعام مؤسِّس حَرَكَة "مُحبِّي صهيُون" مع ليوبنسكر هُو من المُشتبه بهم في وَضْع برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، أو هُو واضعها وحده (كما مرَّ معنا سابقاً).

ثيُودُور هرتزل 1860 - 1904: يُلقَّب بالصّهيُونيّ الأوَّل، أو أبي الحَرَكَة الصّهيُونيَّة؛ لأنَّه أوَّل مَنْ ساهم - بشكل جدِّيٍّ وعملي - بوَضْع حجر الأساس في بناء الصّهيُونيَّة، ويعتبره اليهُودُ زعيمَ الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة الدّوليَّة، وخالق الدّولة اليهُوديَّة.

وُلد هرتزل في بُودابست عاصمة المجر (هنغاريا) في 2/ 5/ 1860، وعمل صحافيَّاً بعيداً عن الثّقافة واللُّغة والدّيانة اليهُوديَّة، ولكنَّه تحسَّس بالمصائب التي حلَّت باليهُود، والأحداث التي واجَهَتْهُم، وعاش اللاَّساميَّة طالباً وصحفيَّاً.

واهتزَّ لُمحاكمة الضّابط اليهُوديّ الفرنسي "دريفُوس" الذي اتُّهمَ بسرقة وثائق عسكريَّة فرنسيَّة سرِّيَّة، وبَيْعها إلى المُفوضيَّة الألمانيَّة في باريس.

حَضَرَ هرتزل مُحاكمة دريفُوس، وبَذَلَ قصارى جهده في سبيل الدّفاع عنه، ولكنَّ التُّهم ثبتتْ، وحُكم عليه بالنَّفْي، وأيقظ ذلك في نفسه الشُّعُور الدِّينيّ، وراح يُفَكِّر في مصير اليهُود، وكان ذلك عاملاً رئيسيَّاً في تحويل مجرى حياته السِّياسيَّة. ولقد كَتَبَ هرتزل في قضيَّة دريفُوس يقول: «إنَّ هذه القضيَّة جَعَلَتْني صهيُونيَّاً مُتعصبِّاً لصهيُونيَّتي، ولقد اعتقدتُ ـ آنئذ ـ أنَّ جميع شُعُوب العالم تُكنُّ البغضاء لليهُود، ولذ؛ يجبُ إيجاد حلٍّ نهائيٍّ للقضيَّة اليهُوديَّة، والحلُّ الوحيد هُو أنْ يتمسَّك اليهُود بقوميَّتهم التي بدأت تنتشر وترسَّخ في أُورُوبا كنتيجة من نتائج الثّورات القوميَّة الأُورُوبيَّة»[1].

والمعروف أنَّ هرتزل كان يحتقر الشّعب اليهُوديّ، ويُندِّد بانطوائه على نفسه، وكان يُطالبه ـ دائماً ـ بالتَّخلِّي عن عاداته، والاندماج في المُجتمعات التي يعيش في ظلِّها، وخاصَّة المُجتمع الألمانيّ، واتِّخاذ لُغة هذا المُجتمع لُغة أصليَّة وبديلة عن العبريَّة، وكان للتَّيَّار التَّحرُّري الذي ساد في ألمانيا والنّمسا الأثر الكبير في نفس هذا الشّاب الغني، وجَعَلَهُ يتَّخذ موقفاً سلبيَّاً من الدّيانة اليهُوديَّة، ومن الشّعب اليهُوديّ، وحَصْر علاقته ومجالسه مع الأصدقاء المسيحيِّيْن، وتعرَّض لنقمة أبناء دينه، وتناولوه بالتّشهير والتّجريح.

ولكنَّه إذْ ينقلب فجأة ويتبدَّل ويُصبح أكثر حماسة وأشدَّ غَيْرة على اليهُود وقضاياهم، فما هُو السِّرُّ؟

إنَّه حرْصُ الهيئات اليهُوديَّة السِّرِّيَّة لكَسْب هرتزل (الصُّحُفيّ اللاَّمع) إلى جانبها، واستغلال كُلّ طاقاته في خدمة القضيَّة اليهُوديَّة.

---

(1) المصدر الرّئيسي لهرتزل، "الصّهيُونيَّة العالميَّة"، الأُستاذ سُلَيْمَان حاتم، من 68 ـ 71.
وإسرائيل جناية وخيانة، سعدي بسيسو، من ص 12 ـ 13.

وهرتزل من كبار الصُّحُفِيِّين وأذكاهم، ويملك طاقة هائلة، إذنْ؛ لابُدَّ من كَسْبه واستغلال إمكاناته لخدمة القضيَّة اليهُوديَّة، وتغيير نَظْرته كُلِّيّاً تجاه قومه اليهُود.

وكانت مُحاكمة دريفُوس الوسيلة للتَّعرُّف على هرتزل واستمالته، ويروي الأُستاذ سُلَيْمَان حاتم في كتابه "الصّهيُونيَّة العالميَّة" كيف تمَّت استمالته وكَسْبه إلى جانب قضيَّة قومه اليهُود؛ فيقول: «في إحدى الجلسات؛ حيثُ كان هرتزل مُحرِّر جريدة "نيوفرسي برس" النّمساويَّة ومُوفَدها ليُسجل وقائع المُحاكمة، جلس أحد أفراد الهيئة السِّرِّيَّة اليهُوديَّة إلى جانبه آملاً في إقناعه ببراءة دريفُوس، وكي ينقل الأخبار بشكل يُوحي بالعطف والشَّفقة على دريفُوس.

وفي غمرة انصباب العبارات الجارحة على المُتَّهم دريفُوس من قِبَل مُمثِّل الادِّعاء العامِّ الفرنسيّ، اقترب عُضو الهيئة السِّرِّيَّة من هرتزل، وَهَمَسَ في أذنه قائلاً: «هل تعلم - يا هرتزل - مَنْ الذي يُحاكم الآن، وينتظر أبشع مصير؟ والتفت هرتزل مُندهشاً وهُو يُتمتم إنَّه دريفُوس، ولكنَّ عُضو الهيئة السِّرِّيَّة هزَّ رأسه مُتألِّماً ومُتحسِّراً، وقال: لا، لا، يا هرتزل؛ ليس دريفُوس الذي يجلس في قفص الاتِّهام.. أنا وأنت وجميع الشّعب اليهُوديّ يجلس - الآن - في قفص الاتِّهام، وتأكَّد أنَّه لو أُدين دريفُوس في هذه القضيَّة، فلن ينجو يهُوديّ على الأرض من العقاب، سيُقضى على دريفُوس، وعليكَ، وعليّ، وعلى جميع الشّعب اليهُوديّ».

فتأثَّر هرتزل، وَشَعَرَ بقشعريرة حادَّة تسري في عُرُوقه، ومزَّق الأوراقَ التي تحوي وقائع الجلسات، وترك الصّحيفة، وانعزل عن العالم عاماً كاملاً؛ ليخرج بكتابه الجديد "الدّولة اليهُوديَّة" في شُباط عام 1896، الذي يدعو فيه إلى ضرورة تطوير فكْرة "استعادة الدّولة اليهُوديَّة"، وتأسيس كيان سياسيّ ليهُود العالم، دُون أنْ يُشير إلى الأرض التي ستُقام عليها الدّولة اليهُوديَّة المُقبلة، ولم يقلْ بجَعْل فلسطين الهَدَفَ الأصلي لحَركَته السِّياسيَّة القوميَّة، فهُو يقول في كتابه "الدّولة اليهُوديَّة": «يكفي أنْ يُعطونا قطعة من الأرض تتناسب مع حاجات شعبنا، وتكون لنا السّيادة عليها، وإنَّنا لا نُريد أكثر من ذلك». ويقول أيضاً: «إنَّ إنشاء الدّولة اليهُوديَّة هُو ضرورة حيويَّة، ولابُدَّ أنْ تقوم هذه الدّولة.. ولا شَكَّ في أنَّنا

سنلقى مُعارضة لإحباط هـذه المُحاولـة ، ولكنّنـا إذا اعتصمنـا بـالصّبر والأنـاة والـدّأب ، فإنّنـا سنصل - حتماً - إلى غايتنا ».

وكذلك فإنَّ هرتزل لم يجعل انتقال جميع يهُود العالم أمراً لازماً إلى الأرض الجديدة ، بل ذَهَبَ إلى أنْ تقتصر الهجرة على أُولئك الذين لا يطيقون البقاء في البلاد التي يسـكنونها ، أو أُولئك الذين يرغبون بـالرّحيل عنـها ، ولـذا ؛ فـهُو يحصـر الـهجرة - بصُورة عامَّـة - بيـهُود أُورُوبا الشّرقيَّة والوُسْطَى ، والبالغ عددهم نحو عشرة ملايين .

ولمّا عَقَدَ المُؤتمـرُ الصّـهيُونيُّ الأوَّلُ جلسـتَهُ فـي مدينـة بـال بسويسـرا عـام 1897 ، برئاسـة هرتـزل ، وافـق المُؤتمـرون علـى نظريَّـة "الدّولـة الجديـدة" ، غـير إنَّـهم قـرَّروا أنْ يكـون مركـز "(إسرائيل) الجديدة" في فلسطين مكان "(إسرائيل) البـائدة" ، عكـس مـا أراد هرتـزل أنْ يكـون مركز "(إسرائيل) الجديدة" في أيٍّ مكان مُلائم من العالم .

وسُـمِّيت هـذه الحَرَكَـة التـي تـهدف إلـى جَمْـع الملايـين اليهُوديَّـة فـي فلسـطين العَرَبيَّـة بـ "الصّهيُونيَّة" ، وغايتـها - وُفقاً لقرار بـال - إنشـاء وطـن للشّعب اليهُوديّ في فلسـطين ، حتَّـى إنَّ هُنالك فريق مـن غُـلاة زُعمـاء الصّهيُونيَّة يُصرُّون علـى أنْ تمتـدَّ الدّولـة اليهُوديَّـة مـن الفُـرات إلـى النّيل ، وأنْ تضمَّ أراضي سُوريَّة وشرق الأُردُن حتَّى الفُرات ، بالإضافة إلى دلتا النّيل في مصر .

هذا ؛ وقد وَقَفَ كثير من زُعماء اليهُود وحاخاماتهم ومُفكِّريهم ضدَّ الحَرَكَـة الصّـهيُونيَّـة كما سنرى فيما بعد ، ولكنَّ هذه المُعارضة أخذت تضعـف وتخبـو شيئاً فشيئاً ، حتَّـى كـادت تتلاشى الآن ؛ بسبب ما حقَّقتْهُ الصّهيُونيَّة من نجاحات في إقامة (إسرائيل) عام 1948 ، والتـي اعتبرها المُتردِّدون والمُتديِّنون علامةً على رضى إلههم "يَـهْوَه" ومُباركتـه لقيـام (إسـرائيل) قبـل ظُهُور المسيح المُخلِّص (المُنْتَظَر) .

أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة:

تتلخَّص أهداف الصّهيُونيَّة بالنُّقاط التّالية :

1 : إيجاد وطن قوميّ لليهُود ، واعتبارهم شعباً تتوفَّر فيه المُقوِّمات الأساسيَّة للقوميَّة ؛ وهي اللُّغة ، والتّاريخ ، وسيادة قوميَّة على إقليم مُعيَّن .

2: إنشاء دولة يهُوديَّة في فلسطين مهمَّتها حلّ المُشكلة اليهُوديَّة، وتأمين سلامة اليهُود المُنتشرين في جميع أنحاء العالم.

3: العمل على الاستيلاء على الأراضي التي ستُقام عليها الدّولة اليهُوديَّة؛ ولو بالقُوَّة؛ لاستيطان اليهُود عليها، وضمن المُخطَّط العامّ.

4: توطين المُزارعين والفنِّيِّين والصّناعيِّين اليهُود في فلسطين بكُلِّ الطُّرُق المُمكنة؛ لتملك الأراضي الزّراعيَّة، ونَشْر الزّراعة اليهُوديَّة، والاستيلاء على البلاد بطريق الشّراء.

5: تنظيم جميع اليهُود في العالم، وربطهم برباط قوي، وتقوية الرُّوح القوميَّة والشُّعُور القوميّ بينهم.

6: العمل على توطيد دعائم (الدّولة الإسرائيليَّة) في فلسطين كمُنطلق لتحقيق الأحلام في السّيطرة على العالم. (لاحظْ - أيُّها القارئ الكريم - هذه الفقرة الهامَّة؛ وهي تحقيق الأحلام في السّيطرة على العالم).

7: جَمْع التَّبرُّعات؛ وخاصَّة من أثرياء اليهُود، وإنشاء "الكارن كاييت"، أو "الصُّندُوق القوميّ اليهُودي"[1].

أساليب تحقيق الصّهيُونيَّة:

هُناك اتِّجاهان مُتغايران في الوسيلة، مُتَّفقان في المبدأ والغاية، كان لهما الأثر البالغ في تحقيق الأهداف الصّهيُونيَّة، وهُما: الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة، والصّهيُونيَّة العَمَليَّة[2].

أ: الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة:

وتعني تحقيق الأهداف الصّهيُونيَّة، وإيجاد وطن قوميّ ودولة يهُوديَّة في فلسطين لا يُمكن أنْ يتمَّ إلاَّ عن طريق العمل السِّياسي، وأَخْذ مُوافقة الدُّول الكُبرى، وأشهر قادة هذا الاتِّجاه هُو هرتزل.

(1) الصّهيُونيَّة العالميَّة، سُلَيْمَان حاتم، ص 71.

(2) الصّهيُونيَّة العالميَّة، سُلَيْمَان حاتم، ص 72 - 74، (الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة، والعمليَّة).

وقد أوقفَ هذا الزّعيم الصّهيُونيّ البدءَ بالهجرة اليهُوديَّة على نطاق واسع ومُنظَّم على الحُصُول على براءة من الحُكُومة التُّركيَّة (صاحبة السُّلطة والسّيطرة على فلسطين في ذلك الوقت)؛ بحيثُ تأتي هذه البراءة في ظلِّ سيادة صاحب الجلالة السُّلطان العُثماني، وحين تُصبح هذه البراءة (كما يقول هرتزل) في حوزتنا، شريطة اشتمالها على الضّمانات القانونيَّة العامَّة اللاَّزمة، يُمكننا ـ آنذاك ـ الشُّرُوع في استيطان واسع النّطاق، وسوف نجلب للحكُومة التُّركيَّة منافع كُبرى لقاء مَنْحها إيَّانا هذه البراءة».

وقد أغفلَ هذا الثّعلبُ الماكرُ حُقُوق العَرَب، وكأنَّ فلسطينَ خاليةٌ من السُّكَّان، وركَّز اهتمامه على الدّولة التُّركيَّة منها، فقد قال: «نحنُ لا نُريد أنْ نذهب إلى فلسطين بأساليب خدَّاعة وغير مشروعة، ولا أنْ ندخلها تهريباً، لكنَّنا نُريد أنْ نذهب إليها هجرة، ونحنُ آمنون، وأنْ نستقرَّ فيها، ونحنُ مُطمئنُّون».

ويقول أيضاً: «ليس لنا أنْ نبدأ شيئاً من أعمالنا الاستعماريَّة في فلسطين قبل الحُصُول على ترخيص قانوني بدُخُولنا إليها».

وهكذا نرى أنَّ الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة تُركِّز وتُؤكِّد على الحُصُول على المُوافقات القانونيَّة والسِّياسيَّة اللاَّزمة لإنشاء الدّولة اليهُوديَّة، وبعد استلام ورقة البراءة؛ تبدأ الهجرة والاستيطان.

وليست تلك البراءة في نَظَر هرتزل سوى مُجرَّد اتِّفاق قانوني مُلزم بين الطَّرَفَيْن؛ وهُما: اليهُود، والحُكُومة التُّركيَّة.

أمَّا عن عَرَب فلسطين أصحاب البلاد الشّرعيِّيْن، وسُكَّانها مُنذُ آلاف السّنين؛ فليس لهم أدنى أهمِّيَّة في نَظَر الصّهيُونيَّة ورجالها، وكأنَّهم من الهُنُود الحُمْر سُكَّان أمريكا القُدماء يُبادون، ويُطرَدُون لإخلاء البلاد منهم للاستعمار والاستيطان اليهُوديّ الصّهيُونيّ القادم.

ب: الصّهيُونيَّة العَمَليَّة:

وهي خُطَّة جديدة في العمل تقضي بعدم اتِّباع الأُسلُوب السِّياسي وسيلة للوُصُول إلى الهدف، وإنَّه أُسلُوب يُميِّع القضيَّة، ويُؤخِّرها، ولابُدَّ من البدء بتشجيع الهجرة الجماعيَّة،

واحتلال الأراضي الفلسطينيَّة، على أنْ يُلازم ذلك الدُّخول في مُفاوضات للحُصُول على المُوافقات السِّياسيَّة والقانونيَّة اللاَّزمة، وأبرز قادة هذا الاتِّجاه هُم: أحدهاعام الدّاعية الصّهيُونيّ والزّعيم الرُّوحي والثّقافي للصّهيُونيَّة، فهُو يقول: إنَّ خلاص (إسرائيل) لن يأتي عن طريق الدِّبلُوماسيِّيْن، ويُؤكِّد على ذلك بقوله: «ما من دولة تُبنى على أساس البراءة، لأنَّ البراءة ليست سوى السّقف أو السّطح الذي يستظلُّه الكائن العُضوي السِّياسي. فإقامة الدّولة وإرساء قواعدها وأُسُسها يجبُ أنْ يتمَّ بطريق الاستيطان التّدريجي والبطيء».

وكذلك جابوتنسكي الزّعيم الصّهيُونيّ الخطير (وهُو صديق أحدهاعام) يدعو إلى "الاقتحام"؛ أيْ اقتحام فلسطين بأيَّة وسيلة كانت، والاستيطان فيها، وفرض الأمر الواقع ولو بالقُوَّة (وقد مرَّ معنا القول إنَّ زُعماء المُنظَّمات الإرهابيَّة في فلسطين كانوا من تلاميذه؛ مثل مناحم بيغن، وإسحاق شامير، وشتيرن).

ولذا؛ فالصّهيُونيَّة العَمَليَّة تهتمُّ بالشُّرُوع في النّشاط الاستعماري والعَمَلي، دُون الالتفات إلى مُوافقة السُّلطات العُثمانيَّة، وترى أنَّ الاستعمار الاستيطاني الاقتصادي يُؤلِّف الشّرط المُسبَق لكُلِّ اعتراف سياسي.

وإنَّ ما يقوله الزّعيم الصّهيُونيّ الألماني البروفسُور أُوتُو واربورغ سنة 1905، يُعبِّر التّعبير الصّحيح عن مضمون الصّهيُونيَّة العَمَليَّة؛ حيثُ يقول: «إنَّ الحقَّ التّاريخي الذي يستند على امتلاكنا لفلسطين قبل ألفيْ سنة لا مفعول له وحده بنَظَر الدُّول الكُبرى، بل يتوجَّب علينا إيجاد صيغة عصريَّة لذلك الحقِّ؛ كي تُضاف إليه. وهذه الصِّيغة هي أنْ تخضع فلسطينُ لنُفُوذنا الاقتصادي، ويظهر للجميع أنَّ ما أحرزتْهُ تلك البلاد من تقدُّم كبير وملموس يرجع - في الأصل - إلى مُبادرتنا وقُوَّة وسائلنا الاقتصاديَّة وفعاليَّتها، ولم يتمّ إلاَّ بفضلها».

وهكذا كانت سياسة فرض الأمر الواقع عن طريق الهيمنة الاقتصاديَّة والرّأسماليَّة، واستخدام القُوَّة والعُنف للقضاء على الرَّفْض العَرَبيّ، والتَّخلُّص من الأكثريَّة العَرَبيَّة في فلسطين ليس إلاَّ المظهر البارز للاتِّجاه الصّهيُونيّ العَمَلي في تجاهله الفاضح لحُقُوق العَرَب، وكان المال اليهُوديّ أنجع وسيلة لتوطين دعائم النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الأرض العَرَبيَّة.

الهيئات التي تولَّت تنفيذ الخُطَّة الصّهيُونيَّة[1] :

في حَمْأَة هذا النّزاع وغَمْرة التّضارب بين الاتِّجاهَيْن السّابقَيْن في أُسلُوب تحقيق الصّهيُونيَّة أهدافها ، قرَّر مُؤتمر بال المُنعقد في سويسرا عام 1897 ، أنَّ الهدف هُو إنشاء وطن لليهُود في فلسطين ، ويحميه القانون العامُّ ، وأُنشئت لتنفيذ ذلك ثلاث هيئات ؛ هي :

أ : **جمعيَّة اليهُود ، أو الرّابطة اليهُوديَّة الصّهيُونيَّة:** ومهمَّتها تمثيل الشّعب اليهُوديّ تمثيلاً شَرْعيّاً ، والتَّحدُّث باسمه ، وتوقيع الالتزامات والاتِّفاقيَّات والمُعاهدات التي تتعلَّق بتهجير اليهُود إلى فلسطين .

ب : **الشّركة اليهُوديَّة:** ومهمَّتها تنفيذ الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين من مُختلف أقطار العالم ، وتصفية مُمتلكاتهم ، وتنظيم التّجارة والاقتصاد في الوطن المنشود ، وجَمْع التَّبرُّعات من جميع اليهُود في مُختلف أنحاء المعمورة ؛ لتحويل مشروع الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين ، وإنشاء الصُّندُوق القوميّ اليهُوديّ "الكارن كايميت" ، وتقوم ـ أيضاً ـ بتنفيذ جميع المُخطَّطات التي تضعها جمعيَّة اليهُود (أو الرّابطة اليهُوديَّة الصّهيُونيَّة) ، والسِّياسات التي ترسمها .

ج : **الوكالة اليهُوديَّة:** ومهمَّتها تشجيع الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين ، وتلبية الاحتياجات الدِّينيَّة ، وتطوير اللُّغة العبريَّة ؛ حيثُ تعمُّ على جميع يهُود العالم ، وامتلاك الأراضي شراءً ، ورَفْع مُستوى الاستيطان الزّراعي[2] .

---

(1) الصّهيُونيَّة العالميَّة ، حاتم سُلَيْمَان ، 77ـ 78 .

(2) في التّطبيق العَمَلي لإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين سارت الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة والعَمَليَّة جنباً إلى جنب في العمل على إنشاء هذا الوطن ، وقلَّما كان يحصل بينهما تصادم ، بل كان التّعاون التَّامُّ هُو السّائد بينهما .
فأوَّل الهجرات اليهُوديَّة إلى فلسطين (قبل الانتداب البريطانيّ على فلسطين عام 1920) قامت الصّهيُونيَّة العَمَليَّة برعايتها ، والحَضّ عليها ، وكان المال من رجال الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة . وبعد الحُصُول على وعد بلفور ، وتكفُّل الانتداب البريطانيّ بتنفيذه ؛ أصبحت القيادة والإشراف على الهجرة بيد رجال الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة ، ولكنَّ الذي كان يحضُّ اليهُود على الهجرة في أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا هُم رجال الصّهيُونيَّة العَمَليَّة .
وفي عام 1948 ، عندما تخلَّت بريطانيا عن الانتداب على فلسطين ، وصَدَرَ قرار التّقسيم 1947 ، واشتدَّت الاشتباكات بين العَرَب واليهُود ، كانت مُعظم القيادات العسكريَّة بيد الصّهيُونيَّة العَمَليَّة ، وكانت الأعمال الإرهابيَّة والمذابح الفظيعة من مُبادرات وأعمال رجال الصّهيُونيَّة العَمَليَّة وحرب فلسطين على الهجرة من فلسطين .
والآن ؛ تبلورت الأُمُور في (إسرائيل) ، فأصبح حزب العمل يُمثِّل الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة العلمانيَّة ، وحزب اللّيكود يُمثِّل الصّهيُونيَّة العَمَليَّة ، ويضمُّ المُتشدِّدين القوميِّين والدِّينيِّين .

المواقف اليهُوديَّة من الصّهيُونيَّة:

الحقيقة أنَّ الصّهيُونيَّة ـ في أوَّل نشأتها ـ لاقت مُعارضة شديدة من قطاعات واسعة من اليهُود في العالم. وهكذا انقسم اليهُود إلى ثلاث فئات هي: المُعارضون ـ الحياديُّون ـ المُؤيِّدون.

أ: المُعارضون:

وينقسمون إلى قسمَيْن:

1: *المُعارضون الاندماجيُّون*: وهُم الذين خرجوا من "الغيتو"، وتركوا التّقاليد والثّقافة اليهُوديَّة، واندمجوا مع الشُّعُوب التي يعيشون بين ظهرانيها، وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا، وكان مُعظمهم من العلمانيِّيْن. وساعد على اندماجهم في الحياة العامَّة في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا مبادئ المُساواة والدّيمُقراطيَّة التي انتشرت في هذه البلاد بعد الثّورة الفرنسيَّة في أُورُوبا، والثّورة الأمريكيَّة الاستقلاليَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

وكان هؤلاء يرون في قيام الصّهيُونيَّة القوميَّة إعادة الكراهيَّة والحقد على اليهُود، بعد أنْ تناست تلك الشُّعُوب التي اندمجوا فيها تلك الأحقادَ، ونَبَذَ اليهُود المُندمجُون ثقافتهم وتقاليدهم اليهُوديَّة المُتزمِّتة.

2: *المُعارضون الدّينيُّون*: وهُم اليهُود المُتديِّنون المُحافظون على الثّقافة والتّقاليد اليهُوديَّة، ويُطلَق على طوائفهم ـ كما مرَّ معنا ـ الطّوائف الحريديَّة، أو المسيحانيَّة، وهُم يرفضون العودة إلاَّ مع المسيح المُخلِّص المُنْتَظَر، وأنَّ العودة بدُونه هي تحدٍّ للإرادة الإلهيَّة.

وكانوا يتقبَّلون الاضطهادات والمذابح التي تحلُّ بهم بصَدْر رَحْب على أنَّها إشارة وإرهاص بقُرب ظُهُور المسيح المُخلِّص الذي يقودهم إلى أرض المعاد فلسطين؛ حيثُ تعود مملكة (إسرائيل) فيها، ويُمكِّنهم المسيح من السّيطرة على العالم.

وكان مُعظم هؤلاء من يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة، وخاصَّة رُوسيا، وبُولُونيا، ورُومانيا، الذين لا يزالون يعيشون في أحيائهم الخاصَّة، ومُنعزلاتهم في "الغيتو"، وكانت لا تزال سيطرة الحاخامات عليهم قويَّة، والتّقاليد والثّقافة اليهُوديَّة لا تزال مُتمكِّنة من نُفُوسهم.

ب: الحياديُّون:

وهُم الذين لم يهمّهم أمر الصّهيُونيَّة، ولا قيامها، وكانوا فئتَيْن:

1: *غُلاة العلمانيَّة*: وهُم من اليهُود الذين لا يعترفون بالقُيُود والتّقاليد اليهُوديَّة، وقد اندمجوا بالشُّعُوب الأُخرى، وتزاوجوا معها، ونَبَذَ مُعظمهم أيَّ تفكير بيهُوديَّته، وأصبح فرنسيّاً، أو ألمانيّاً، أو بريطانيّاً . . إلخ، حسب البلد أو الشّعب الذي اندمج به.

وهُم - في غالبيَّتهم العُظمى - من يهُود أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا، الذين استهوتهم الحُرِّيَّة والمُساواة والدِّيمُقراطيَّة المُطبَّقة في تلك البلاد، والتي وجدوا الاندماج فيها يُخلِّصهم من الأحقاد والكراهيَّة القديمة ضدَّ اليهُود.

2: *اليهُود الشّرقيُّون*: مثل يهُود الوطن العَرَبيّ، وإيران، وتُركيا . . إلخ، فهؤلاء لم يعرف مُعظمهم شيئاً عن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ولا نشأتها، وأهدافها، إلاَّ بعد صُدُور وعد بلفور عام 1917، وبعد أنْ أخذت الهجرة اليهُوديَّة تتدفَّق على فلسطين، عندها؛ أخذ زُعماء الحَرَكَة الصّهيُونيَّة يتَّصلون بهم، ويشرحون لهم أسباب قيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وأهدافها، ويُقدِّمون لهم شتَّى الإغراءات للهجرة إلى فلسطين، وساعدهم على ذلك الحُدُود المُشتركة بين فلسطين وبعض الأقطار العَرَبيَّة المُجاورة؛ ممَّا جَعَلَ مُعظم هؤلاء يُهاجرون إلى فلسطين بطُرُق غير شَرْعيَّة. واليهُود الشّرقيُّون يُشَكِّلون - الآن، في الهَرَم السُّكَّاني الإسرائيليّ - القاعدةَ، كما أنَّ اليهُود الغربيِّين يُشكِّلون قمَّة الهَرَم.

والحقيقة أنَّ أحوال اليهُود الشّرقيِّين في الوطن العَرَبيّ وتُركيا وإيران كانت جيِّدة جداً، وكانوا لا يشعرون بأيِّ اضطهاد كيهُود أُورُوبا الشّرقيَّة، أو بالتّمييز العرْقي "اللاَّسامية" كيهُود أُورُوبا الغربيَّة، ومُعظمهم هاجر إلى فلسطين بسبب الإغراءات الصّهيُونيَّة، وتغريرها بهم، ولكنْ؛ بعد قيام (إسرائيل) في فلسطين عام 1948، ونكبة عَرَب فلسطين، وأعمال اليهُود الوحشيَّة ضدَّهم، فقد اندفع يهُود الأقطار العَرَبيَّة للهجرة إلى (إسرائيل)؛ خوفاً من انتقام العَرَب منهم، أو التّضييق عليهم. وهكذا كادت الأقطار العَرَبيَّة تخلو من اليهُود؛ وخاصَّة يهُود اليمن، والعراق، وسُوريَّة، ومصر، وليبيا، أمَّا أقطار المغرب العَرَبيّ؛ فلا يزال لليهُود

وُجُود واضح فيها، وخاصَّة المملكة المغربيَّة، وتُونُس. وتبلغ نسبة اليهُود العَرَب في (إسرائيل) 34،9٪ [1].

ج: المُؤيِّدون:

وهُم الذين آمنوا بالحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وتبنّوا أهدافها، وأنَّها الحلُّ الوحيد لقضيَّة اليهُود في العالم.

وقد مرَّ معنا أنَّ هؤلاء المُؤيِّدون انقسموا إلى قسمَيْن: أتباع الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة (مُعظمهم علمانيُّون)، وهُم ينادون بالعودة إلى فلسطين ببراءة قانونيَّة من دُول العالم ذات الحلِّ والرَّبْط والقُدرة على المُساعدة، وعلى رأسهم هرتزل.

وأتباع الصّهيُونيَّة العلميَّة (مُعظمهم مُتديِّنون، أو مُتمسّكون بالثّقافة اليهُوديَّة)، وهُم لا يُريدون الانتظار، بل يُنادون بالاقتحام والهجرة والسَّكَن والسّيطرة، ثُمَّ تأتي النّاحية القانونيَّة التي تُقرُّ الأمر الواقع، وأبرز قادة هذا الاتِّجاه: أحدهاعام.

والحقيقة أنَّ هذا التّقسيم كان بسبب ظُرُوف اليهُود في أُورُوبا: فالصّهاينة السِّياسيُّون كانوا من يهُود أُورُوبا الغربيَّة والوُسْطَى التي أخذت بمبادئ الحُرِّيَّة والمُساواة والدِّيمُقراطيَّة وسيادة القانون.

أمَّا الصّهاينة العَمَليُّون: فكانوا من يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة؛ حيثُ لا تزال أقطارها بعيدة عن الدِّيمُقراطيَّة، ولا تزال الطّبقيَّة موجودة، وحُكْم النّبالة قائماً (مُتمثِّلاً في الإقطاع)، والإرادة الفرديَّة، والأهواء الشّخصيَّة لا يزال لها دور كبير في الحُكْم.

---

(1) المصدر لنسبة اليهُود العَرَب هُو: حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل، (فوزي حميد)، صفحة 78.
إنَّ هذه النّسبة تجعل اليهُود العَرَب أكثر من ثُلث السُّكّان في (إسرائيل)، وتُعطي حُكّام (إسرائيل) حُجَّة يُساومون بها على حُقُوق عَرَب فلسطين، ويجعلون قضيَّة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن العَرَب وكأنَّها عمليَّة تبادل للسُّكّان بين الأقطار العَرَبيَّة و(إسرائيل)، ويرفضون - بذلك - عودة عَرَب فلسطين إلى ديارهم، أو التّعويض عليهم، رغم أنَّ هجرة اليهُود من الأقطار العَرَبيَّة إلى (إسرائيل) كانت طوعيَّة، حتَّى إنَّ أكثر الأقطار العَرَبيَّة كانت تمنعها، أمَّا هجرة عَرَب فلسطين؛ فكانت قَسْريَّة بالضّغط، والإكراه، والطَّرْد.

الفُرُوق بين يهُود أُورُوبا الغربيَّة والشَّرقيَّة وأسبابها:

يُورد الدُّكتُور رشاد الشّامي عدَّة فُرُوق بين يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة والغربيَّة أدَّت إلى قيام الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة والصّهيُونيَّة العَمَليَّة نذكرها فيما يلي[1]:

1: اليهُود الغربيُّون خرجوا من أسوار "الغيتو"، وهجروا التّقاليد اليهُوديَّة، وسعوا إلى ترسيخ جُذُورهم في بيئتهم عن طريق الانصهار، وإقامة معابد إصلاحيَّة، وحتَّى الزّواج المُختلط مع الأغيار.

أمَّا اليهُود الشّرقيُّون؛ فقد خرجوا من المناطق التي يُقيم فيها اليهُود في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة، والتي كانت تُسمَّى بالعبريَّة (تحوم هموشاف[2])، وتمرَّدوا على عالمهم القديم، ورفعوا راية التَّمرُّد ضدَّ المُؤسَّسة الحاخاميَّة، ولكنَّ المُجتمعات الأُورُوبيَّة الشّرقيَّة من رُوسيَّة، وبُولُونيَّة، ورُومانيَّة، ومجريَّة.. إلخ، لم تكن على استعداد لاستيعاب هؤلاء اليهُود المُتمرِّدين المُتنوِّرين الأحرار (كما حَصَلَ في المُجتمعات الأُورُوبيَّة الغربيَّة)، لذلك اتَّجه هؤلاء المُتمرِّدون إلى الحَرَكات الثّوريَّة الاشتراكيَّة العالميَّة الطّابع (أيْ الماركسيَّة).

وهكذا نرى أنَّ الرَّفْض في أُورُوبا الشّرقيَّة كان حُكُوميّاً[3] وشعبيّاً، بينما كان اليهُود في أُورُوبا الغربيَّة لا يجدون أيَّة صُعُوبة بالاندماج بالمُجتمعات الأُورُوبيَّة؛ بسبب انتشار الأفكار الدِّيمُقراطيَّة والحُرِّيَّة والمُساواة، حتَّى إنَّ بعض اليهُود وصلوا إلى أعلى مراتب الحُكْم في أُورُوبا الغربيَّة؛ مثل "دزرائيلي" الذي أصبح رئيساً للوزارة البريطانيَّة، و"ليون بلوم" الذي أصبح رئيساً للوزارة في فرنسا.

ب: كانت صلة يهُود أُورُوبا الغربيَّة بالمعبد اليهُوديّ "الكَنيس"، والثّقافة اليهُوديَّة صلة هادئة، ولم يكن هُناك صدّام وصراع بين المُؤسَّسة الحاخاميَّة والثّقافة اليهُوديَّة وبين التَّحرُّر "أو الاستنارة"، بل كان التَّحرُّر يتمُّ بصُورة هادئة تتمشَّى مع الدِّيمُقراطيَّة الغربيَّة والحُرِّيَّة الفرديَّة، والتي أخذت تسود فيها.

---

(1) د. رشاد الشّامي، "القوى الدِّينيَّة في إسرائيل"، ص 20-44، باختصار.

(2) تحوم هموشاف: هي ضواحي خارج المُدُن يُقيم فيها اليهُود مُنعزلين عن مُجتمعات المدينة المسيحيَّة.

(3) كان القياصرة في رُوسيا وبُولُونيا (كانت بُولُونيا تخضع لهم) يرفضون دَمْج اليهُود في مُجتمعاتهم، وكانت الكَنيسة الأرثوذكسيَّة في رُوسيا والكاثُوليكيَّة في بُولُونيا تُؤيِّدهم في ذلك.

أمَّا في أُورُوبا الشّرقيَّة؛ فقد كان الصّراع مُحتدماً بين المُتمسِّكين بالثّقافة اليهُوديَّة والكَنيس اليهُوديّ وبين المُتنوِّرين المُتحرِّرين الذين رَفَضُوا الثّقافة والتّقاليد اليهُوديَّة.

ج: كان يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا يعرفون الثّقافة اليهُوديَّة معرفة جيِّدة. فمُعظمهم تخرَّج في مدارس دينيَّة يهُوديَّة، وكان مُعظمهم يعرف اللُّغة العبريَّة. أمَّا يهُود أُورُوبا الغربيَّة؛ فكانت الثّقافة اليهُوديَّة ضعيفة عندهم، فمُعظمهم تخرَّج من مدارس حكُوميَّة علمانيَّة، وكانت معرفتهم باللُّغة العبريَّة ضئيلة.

د: كان المُتنوِّرون من يهُود أُورُوبا الغربيَّة علمانيِّيْن رأسماليِّيْن اندمجوا بالحَرَكَة الاستعماريَّة الغربيَّة، واستفادوا منها، وقطفوا ثمارها، أمَّا المُتنوِّرون في أُورُوبا الشّرقيَّة؛ فكان مُعظمهم علمانيِّيْن اشتراكيِّيْن.

هـ: وأُضيف إلى ما ذَكَرَهُ الدُّكتُور رشاد الشّامي من فُرُوق بين يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة والغربيَّة أنَّ ظُرُوف الحياة والبيئة الاجتماعيَّة التي كان يعيش فيها يهُود أُورُوبا الغربيَّة تختلف اختلافاً جَذْريّاً عنها في أُورُوبا الشّرقيَّة، فيهُود أُورُوبا الغربيَّة كانوا يعيشون في أحياء خاصَّة بهم "الغيتو" في المُدُن الكُبرى في أُورُوبا الغربيَّة، وكانت هذه الأحياء على صلة وثيقة بالأحياء المسيحيَّة الأُخرى، فإنَّ الاحتكاك الدّائم بين اليهُود والجوار المسيحيّ أدَّى إلى التّقليل والتّخفيف من حدَّة العداء بين الفريقَيْن، وكان أكثر أبناء اليهُود يدرسون بالمدارس الحُكُوميَّة العلمانيَّة، ويختلطون بزُملائهم من أبناء المسيحيِّيْن، كُلُّ هذا أدَّى إلى الحدِّ من العداء السّافر والكراهيَّة بين الفريقَيْن.

هذا؛ وكانت سُلطة الحاخامات في أُورُوبا الغربيَّة ضعيفة، وكذلك الالتصاق والتَّقيُّد بالتّعاليم والتّقاليد اليهُوديَّة، حتَّى إنَّ الكثير من اليهُود (وخاصَّة أثرياءهم) خرجوا من أحيائهم "من الغيتو"، وسكنوا، واختلطوا مع المسيحيِّيْن في أحيائهم.

أمَّا في أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا؛ فكان اليهُود يعيشون في ضواحي خاصَّة بهم خارج المُدُن تُسمَّى (تحوم همو شان)، وكان اليهُود في هذه الضّواحي يعيشون شبه مُنعزلين عن جوارهم، ويُمارسون في ضواحيهم حياتَهم وطُقُوسَهم الخاصَّة بهم ضمن التّقاليد والتّعاليم

اليهُوديَّة التّوراتيَّة والتّلموديَّة، وكان أولاد اليهُود يتعلَّمون في مدارس هذه الضّواحي الخاصَّة بهم، وفيها يتلقّون تعاليم الدّيانة اليهُوديَّة واللُّغة العبريَّة.

وكان لهذه الانعزاليَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة دور هامٌّ في بقاء الكراهيَّة والمَقْت لليهُود فيها، والنَّظَر إليهم نَظَر الرّيبة والشَّكّ.

كُلُّ هذا أدَّى إلى اختلافات جوهريَّة في تفكير وتوجُّهات كُلٍّ من يهُود أُورُوبا الغربيَّة والشَّرقيَّة[1].

وهكذا نرى كيف حَدَثَ مُنذُ أيَّام الصّهيُونيَّة الأُولى تناقض غريب وشديد بين الصّهاينة في غرب أُورُوبا وعلى رأسهم هرتزل، الذين كانت الخلفيَّة اليهُوديَّة التّقليديَّة لديهم ضئيلة للغاية، ولا يرون أيَّة صُعُوبة في التّعايش مع الدِّينيِّين ومع تقاليد الماضي؛ حيثُ يُوجد في المُجتمع العلماني الغربيّ مساحة مُخصَّصة للدِّين والتّقاليد الدِّينيَّة؛ وحيثُ يتمُّ التّعايش بين المُتدِيِّنين والعلمانيِّين دُون أيَّة حزازات شديدة تُؤدِّي إلى صراعات عنيفة.

أمَّا الصّهيُونيَّة في شرق أُورُوبا والتي انقسم فيها اليهُود بين أقلِّيَّة دينيَّة تقليديَّة وأغلبيَّة مُتمرِّدة على التّقاليد اليهُوديَّة يقودها أمثال جابوتنسكي وبنسكر؛ فقد تحرَّك هؤلاء ضدَّ اليهُوديَّة التّقليديَّة، وتبنّوا الرَّفْض المُطلق للتّعليم الدِّينيّ الذي تلقّوه في طُفُولتهم.

والحقيقة أنَّ صهيُونيَّة أُورُوبا الشّرقيَّة لم تكن ذات توجُّه واحد؛ حيثُ نشبت داخلها خلافات حول مُعظم القضايا، وكانت الثّورات الدّاخليَّة والانشقاقات والاختلافات الأيديُولُوجيَّة سمة مُميِّزة دائماً للتّاريخ اليهُوديّ (ليهُود أُورُوبا الشّرقيَّة)، فقد جاءت من شرق أُورُوبا الاتِّجاهات التّالية:

1: رجال "اليسار الصّهيُوني" الذين ينظرون إلى الصّهيُونيَّة باعتبارها الطّريق اليهُوديّ نحو الثّورة العالميَّة (الماركسيَّة).

---

(1) بعد الحرب العالميَّة الثّانية لم يعد هُناك "غيتو" في أُورُوبا الغربيَّة، ولا "تحوم هموشاف" في أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا، بسبب الدَّمار الهائل الذي لحق بالمُدُن في أُورُوبا الشّرقيَّة والغربيَّة. وعندما أُعيد بناء المُدُن بعد الحرب العالميَّة الثّانية لم يُحسَب أيُّ حساب للفَصْل بين أحياء المسيحيِّين واليهُود؛ وخاصَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا؛ حيثُ طُبِّقت الاشتراكيَّة، وأُزيلت الفُرُوق الدِّينيَّة بين السُّكّان، وحلَّت محلّها الأُمميَّة الاشتراكيَّة.

2: رجال "الصّهيُونيَّة العلميَّة" وهُم مُؤسِّسو الاستيطان، وبُناة الدّولة الذين تبنّوا فكْرة الاقتحام والاستيطان أوّلاً، ثُمَّ تأتي المُوافقة القانونيَّة الدّوليَّة أمثال جابوتنسكي.

3: رجال "المركز الرُّوحي"، وعلى رأسهم مدرسة أحدهاعام.

4: رجال "الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة" الذين حاولوا التّوفيق بين التّعاليم الدِّينيَّة والحَركَة الصّهيُونيَّة، وذلك بالعودة إلى فلسطين قبل ظُهُور المسيح المُنتَظَر "المُخلِّص".

5: رجال "التَّيَّار العلماني" الذين كفروا بكُلِّ ما هُو مُقَدَّس لدى المُؤمنين بالدِّين اليهُودي.

6: رجال "الحلّ السّريع للقضيَّة اليهُوديَّة"، وإيجاد أيّ مكان مُتاح في العالم لحلِّ ضائقة اليهُود، واضطهادهم، واعتبروا ذلك هُو القضيَّة العاجلة، وعارضوا أُولئك الذين قدَّسوا اسم فلسطين، ونادوا بالعودة إلى صهيُون، ورَفَضُوا أيَّ بديل لذلك.

وبالإضافة إلى كُلِّ ما سَبَقَ من الفُرُوق الجوهريَّة بين يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ويهُود أُورُوبا الغربيَّة، فإنَّ ليهُود أُورُوبا الشّرقيَّة أهمِّيَّة كُبرى؛ وخاصَّة في مُستقبل الحَركَة الصّهيُونيَّة، فيهُود أُورُوبا الشّرقيَّة يُشَكِّلون الاحتياطي اليهُوديّ الكبير في العالم، الذي سوف تستخدمه الصّهيُونيَّة في عُنفوانها فيما بعد، فيهُود أُورُوبا الشّرقيَّة يُشَكِّلون أكثر من نصف يهُود العالم عام 1880م، والجدول التّالي يُوَضِّح ذلك[1]:

المجموع الكُلِّيُّ لليهُود في العالم	**7.500.000**	**٪ 100**
يهُود رُوسيا وبُولُونيا	4.250.000	٪56.2
يهُود النّمسا والمجر	1.500.000	٪20
يهُود أُورُوبا الغربيَّة	1.000.000	٪13.3
يهُود الولايات المُتَّحدة	250.000	٪3.3
يهُود آسيا وأفريقيا	478.000	٪6.4
يهُود فلسطين	22.000	٪0.8

(1) المصدر: "مشاريع الاستيطان اليهُودي"، (سلسلة عالم المعرفة، 74)، د. أمين محمود، ص 131.

نُلاحظ من الجدول السّابق أنَّ أكثر من نصف اليهُود في العالم (عام 1880) كانوا يعيشون في أُورُوبا الشّرقيَّة، وقد هاجر مُعظمهم إلى أمريكا؛ وخاصَّة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة وفلسطين، كما يُظهر الجدول الهامُّ التّالي[1]:

جدول توزيع اليهُود في العالم ما بين 1880 ـ 1982م:

المناطق أو الدُّول	عام 1880	عام 1900	عام 1982
الولايات المُتَّحدة وكَنَدَا	230.000	1.000.000	6.145.000
فلسطين	24.000	50.000	3.374.300
أُورُوبا الشّرقيَّة	5.726.000	7.362.000	1.771.000
أُورُوبا الغربيَّة	1.445.000	1.328.000	1.070.000
آسيا	350.000	420.000	-
شمال أفريقيا	280.000	300.000	51.750
أمريكا الجنوبيَّة	250.000	1.175.000	417.900
جنوب أفريقيا ورُوسيا	-	30.000	120.000
أُستراليا ونيُوزيلندا	-	-	79.000
المجموع العامّ	8.305.000	11.665.000	13.028.950

إنَّ للجدول السّابق أهمِّيَّة كُبرى في بيان حَرَكَة توزّع اليهُود في العالم وهجراتهم، ونستنتج منه أنَّ مُعظم يهُود فلسطين الذين هاجروا من أُورُوبا جاؤوا من أُورُوبا الشّرقيَّة وليس من أُورُوبا الغربيَّة (وخاصَّة من بُولُونيا، ورُوسيا، ورُومانيا). فمن هذا الجدول نرى:

أوَّلاً: أنَّ مُعظم يهُود العالم كانوا في عام 1880، يعيشون في أُورُوبا الشّرقيَّة (000، 726، 5 من أصل 500، 004، 7 عددهم في العالم).

أمَّا في عام 1982، فتناقص يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة إلى مليون وثلاثة أرباع المليون (1.771.000)، وأصبحوا يُشَكِّلون أقلَّ من عُشر اليهُود في العالم.

---

(1) المصدر "حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل"، فوزي حميد، نقلاً عن مُلحق جريدة معاريف 14/ 9/ 1984، وعن جريدة ها آرتس 27/ 10/ 1983.

ثانياً: تزايد عدد اليهُود في الولايات المُتَّحدة وكَنَدَا من حوالي رُبع مليـون عـام **1880**، إلى أكثر من ستَّة ملايين عام **1982**، أيْ حوالي نصف اليهُود في العالم.

وكذلك تزايد عدد اليهُود في فلسطين من **24** ألف عام **1880**، إلى أكثر من ثلاثة ملايين وثُلث المليون عام **1982** (**300. 334. 3**).

وهذا يعني أنَّ الغالبيَّة العُظمى من يهُود أُورُوبا الشّـرقيَّة هـاجروا إلـى الولايـات المُتَّحـدة وإلى فلسطين.

وهذا يُؤيِّد ما ذهبنـا إليـه مـن أنَّ مُعظـم يـهُود (إسـرائيل) الأُورُوبيِّيْـن هـاجروا إليـها مـن أُورُوبا الشّرقيَّة، (الحقيقة أنَّ الهجرة من أُورُوبا الغربيَّة ومن الولايات المُتَّحدة كانت ـ وماتزال ـ ضئيلة جداًّ إلى (إسرائيل) لأنَّ أوضاعهم فيها كانت مريحة ولـم يشعروا بـالذّل والاضطـهاد الذي تعرض له يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة).

أمَّا بقيَّة المناطق والدُّول في العـالم؛ فـالتَّغيُّرات السُّكَّانيَّة اليهُوديَّة فيـها كـانت طفيفـة، وأغلبها يعود إلى النُّمُوِّ السُّكَّاني الطّبيعي، وليس للهجرة.

نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ومَنْ هُو الصّهيُوني؟(1)

طرحت الصّهيُونيَّة نفسها بوَصْفها حلاً شاملاً وثورياًّ للمسـألة اليهُوديَّة أينمـا وُجـدت، ولكنَّ الحلَّ الصّهيُوني جُوبهَ بمُعارضة قويَّة وضاريـة مـن قبَـل الجماعـات اليهُوديَّة فـي أُورُوبـا (وهي الجماعات التي طُرح عليـها الحـلُّ الصّـهيُونيّ حـلاً لمشـاكلها؛ لأنَّ الجماعـات اليهُوديَّة خارج أُورُوبا لم تكن تُجابه مشاكل حادَّة تتطلَّب حُلُولاً سريعة لها).

وكانت هذه المُعارضة تتمثَّل ـ بشكل عنيف ـ بالفئات التّاليَّة (كما مرَّ معنا).

1: اليهُود المُتديِّنون: وهُم يـرون أنَّ العـودة إلـى فلسـطين "أرض المعـاد" لا تكـون إلاَّ بعـد ظُهُور المسيح المُخلِّص الذي سيقود اليهُود إلى فلسطين، ويُقيم مملكة (إسرائيل) فيها، ويُمكِّنهم

(1) المرجع: "الأيديُولُوجيَّة الصّهيُونيَّة الأُولى"، (عالم المعرفة)، عبد الوهاب المسيري، ص **71**ـ **77**.
"الأيديُولُوجيَّة الصّهيُونيَّة الثّانية"، (عالم المعرفة)، عبد الوهاب المسيري، ص **126** ـ **127**.

من السّيطرة على العالم. وكُلُّ عمل يُخالف ذلك هُو مُخالفة لأمر الرَّبِّ، وخُرُوج على طاعته وإرادته، ممَّا يُعرِّضهم لسُخط إلههم (يَهْوَه)، وكان مُعظمهم من يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة.

2: **اليهُود الاندماجيُّون**: الذين يرون أنَّ الاندماج في المُجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها هُو الحلُّ الأفضل لمُشكلة اليهُود، وأنَّه ليس هُناك قوميَّة يهُوديَّة، بل هُناك دين يهُوديّ يتمسَّك به مَنْ يشاء التَّديُّن منهم.

3: **اليهُود العلمانيُّون**: وهُم الذين تحرَّروا من الثّقافة اليهُوديَّة وتقاليدها، ويرون أنَّ الاندماج الأفضل هُو بالتّزاوج المُتبادَل بينهم وبين المُجتمعات التي يعيشون بينها، ومُعظمهم كان من يهُود أُورُوبا الغربيَّة.

حتَّى إنَّ اليهُود الذين انضوا تحت لواء الحَرَكَة الصّهيُونيَّة انقسموا إلى عدَّة اتِّجاهات تمثَّلت (كما مرَّ معنا) بالصّهيُونيَّة السِّياسيَّة، والصّهيُونيَّة العَمَليَّة، والصّهيُونيَّة الدِّينيَّة، والصّهيُونيَّة الرّأسماليَّة، والصّهيُونيَّة الاشتراكيَّة (الماركسيَّة).

وبعض الصّهاينة لم يتمسَّكوا بفلسطين كوطن قوميّ لليهُود، بل كانوا يرون أنَّ أيَّ مكان في العالم يجتمع فيه شتاتهم يُمكن أنْ يحلَّ مُشكلتهم[1].

ولكنْ؛ بالرّغم من كُلِّ المواقف المُعادية التي واجهتها الصّهيُونيَّة في بادئ الأمر، فإنَّها نجحت في استقطاب اليهُود، وأنْ تستولي على قيادتهم في العالم بأسره، وأنْ تُسيطر عليهم، وتتحوَّل من مُجرَّد أيديُولُوجيَّة مثاليَّة إلى مُنظَّمة عالميَّة يدين لها مُعظم اليهُود في العالم بالولاء، بل نجحتْ في إنشاء وطن قوميّ لليهُود ودولة قويَّة في الشّرق الأوسط، وفي قلب الوطن العَرَبيّ فلسطين.

وهكذا؛ فإنَّ الدّارس للحَرَكَة الصّهيُونيَّة لا يملك إلاَّ أنْ يعترف بأنَّها قد أصبحت حَرَكَة شعبيَّة تتمتَّع بتأييد مُعظم اليهُود في العالم.

---

(1) لذلك فكَّروا بالهجرة إلى أُوغندا، أو مُوزامبيق، أو أُستراليا، أو الأرجنتين.. إلخ، لتكون وطناً قومياً لهم كما سنرى فيما يلي.

وقد عدَّل كثير من اليهُود المُناهضين للصّهيُونيَّة واليهُود غير الصّهاينة (المُحايدون) من مواقفهم، أو غيَّروها تماماً بسبب الأمر الواقع الذي فرضَتْهُ الصّهيُونيَّة، ابتداءً من إقامة الدّولة الصّهيُونيَّة، وانتهاءً بسلسلة الانتصارات العسكريَّة التي حقَّقَتْهَا هذه الدّولة. كما غيَّرت كثير من الجمعيَّات اليهُوديَّة "الأرثُوذكسيَّة المُتديِّنة" والإصلاحيَّة موقفها المُعادي للصّهيُونيَّة، الذي كانت قد اتَّخذَتْهُ وُفقاً لأُسُس دينيَّة.

فعلى سبيل المثال؛ أصبح لمُنظَّمة "أجودات يسرائيل" التي قامت كمُنظَّمة مُناهضة للصّهيُونيَّة (كما مرَّ معنا عند الحديث عن الطّوائف اليهُوديَّة) أحزاب سياسيَّة تُمثِّلها داخل الدّولة الصّهيُونيَّة، وتدخل الائتلافات الحُكُوميَّة المُختلفة، بل ولها مُستوطنات زراعيَّة خاصَّة بها، ومشاريع اقتصاديَّة تمدُّها الوكالة اليهُوديَّة بالمعونات؛ مثلها مثل أيّ تنظيم صهيُوني آخر.

وقد أخذت المُنظَّمات اليهُوديَّة الإصلاحيَّة هي الأُخرى تتقهقر عن مواقفها الرّافضة للصّهيُونيَّة، وتتبنَّى مواقف أكثر عرقيَّة وقوميَّة، بل إنَّ هذه المُنظَّمات تقوم ـ الآن ـ بمُمارسة الضّغط السِّياسي لصالح الدّولة الصّهيُونيَّة، (كما هُو حاصل الآن من جماعات الضّغط اليهُوديّ في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لصالح (إسرائيل) والتي تُسمَّى باللّوبي الصّهيُوني)[1].

ويُمكننا القول إنَّ المُنظَّمة الصّهيُونيَّة قد أحكمت قبضتها على يهُود العالم، وأصبحت المُهيمن الوحيد عليهم، حتَّى إنَّ الانطباع في الغرب هُو أنَّ كُلَّ اليهُود صهاينة، ولم يبقَ في ساحة النّضال ضدَّ الصّهيُونيَّة سوى بعض المُنظَّمات الضّعيفة الصّامدة؛ مثل جماعة "ناطوري كارتا" (مرَّ الحديث عنها في القسم الثّاني من الكتاب، صفحة 92)، وهي من الطّوائف الحريديَّة المُتشدِّدة جداً، وكذلك جماعة الحاخام "ألمر برجر"، وتُسمَّى "البدائل اليهُوديَّة الأمريكيَّة الصّهيُونيَّة"، بالإضافة إلى بعض الشّخصيَّات العامَّة المُفردة التي تلعب دوراً هاماً في مُجتمعها.

ولكنْ؛ على الرّغم من هذا الاستسلام للمُثُل الصّهيُونيَّة، فإنَّ الدّارس الموضوعي يُلاحظ أنَّ ثمَّة مُعارضة ومُقاومة ورَفْضاً يهُودياً للصّهيُونيَّة يأخذ أشكالاً غير مُنظَّمة ومُستترة، وهذا الرَّفْض يأخذ ـ في تصوُّري ـ شكلَيْن أساسيَّيْن:

(1) ولعلَّ أحد مظاهر ازدياد النُّفُوذ الصّهيُونيّ داخل مُعسكر اليهُوديَّة الإصلاحيَّة أنَّ "الاتِّحاد العامّ لليهُوديَّة الإصلاحيَّة، أيْ التَّقدُّميَّة" عقد مُؤتمره السّنوي الخامس عشر في مدينة القُدس للمرَّة الأُولى عام 1968، وذلك عقب عُدوان 1967، وفي غمرة من الحماس القوميّ الذي اكتسح يهُود العالم.

أوَّلهما: *رَفْض الهجرة إلى فلسطين*:

إنَّ الصّهيُونيَّة تطرح نفسها ـ كما هُو معروف ـ على أنَّها الحلُّ الأوحد للمسألة اليهُوديَّة، وتعني ـ أوَّلاً وقبل كُلِّ شيء ـ ضرورة العودة إلى الوطن القوميّ المزعوم، وأيُّ شيء خلاف ذلك هُو ضدَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة. ولكنَّ الواقع أنَّ مُعظم اليهُود لا يُظهرون حماساً كبيراً للذّهاب إلى (إسرائيل)، وعلى سبيل المثال؛ نجد أنَّ أقلَّ من ثلاثة آلاف أميركي يهُوديّ فقط استقرّوا في فلسطين حتَّى عام **1975**، حتَّى إنَّ أحد زُعماء الصّهاينة البارزين تذمَّر من أنَّ اليهُود الأمريكيِّيْن ينظرون إلى (إسرائيل) كما لو كانت (ديزني لاند) أيْ مدينة ملاه يهُوديَّة، أو مُتحفاً يهُوديّاً، ولا يشعرون بروابط عميقة رُوحيَّة بصهيُون، وغير مُقتنعين بأنَّ الاستقرار المادِّي هُناك أمر ضروري وحيوي من أجل بناء دولتهم العُظمى هُناك.

وكذلك الحال بالنّسبة ليهُود أُورُوبا الغربيَّة (عدا ألمانيا)، فلم يُهاجر منهم إلى أرض المعاد إلاَّ النّزر اليسير.

والحقيقة أنَّه لولا هجرة اليهُود الشّرقيِّيْن ـ وخاصَّة يهُود بُولُونيا، ورُومانيا، ورُوسيا، ويهُود الوطن العَرَبيّ، ويهُود ألمانيا، لما أمْكَنَ قيام (إسرائيل)، وهجرة هؤلاء لم تكن بسبب اعتناقهم مبادئ الصّهيُونيَّة، وامتثالاً لتوجيهاتها، بل كانت الأسباب بعيدة كُلَّ البُعْد عن ذلك مثل:

أ: هجرة يهُود رُوسيا وبُولُونيا إلى فلسطين كانت بسبب المذابح والاضطهادات التي حلَّت بهم بعد عام **1881**، (بسبب اغتيال القَيْصَر الرُّوسيّ الإسكندر الثّاني)، حتَّى إنَّ مُعظمها كان لأمريكا وأُورُوبا الغربيَّة، وليس لفلسطين.

ب: هجرة اليهُود الألمان وأُورُوبا الوُسْطَى قبل الحرب العالميَّة الثّانية، وخلالها، وبعدها، وكانت بسبب عداء الحَرَكَة النّازيَّة الألمانيَّة لليهُود، واستلامها الحُكْم في ألمانيا عام **1933**، والتي كانت تعتبر اليهُود هُم السّبب في خسارة ألمانيا الحرب العالميَّة الأُولى[1]. وكذلك كانت هجرة أكثر هؤلاء إلى أمريكا أيضاً، وليس لفلسطين.

---

(1) فهُم الذين حرَّضوا أمريكا على دُخُول الحرب العالميَّة الأُولى إلى جانب الحُلفاء عام **1917**، وبذلك رجحت كفَّة الحُلفاء، وانتصروا على ألمانيا.

ج : هجرة يهُود الأقطار العَرَبيَّة، وكانت هذه الهجرة ليست بدافع صهيُوني، بل بسبب الإغراءات الصّهيُونيَّة والتّغرير بهم من قبَلها، وخوفاً من انتقام العَرَب منهم بعد نكسة فلسطين عام 1948، واغتصاب اليهُود لها، وطَرْد العَرَب منها، بالإضافة إلى المذابح الفظيعة التي ارتكبها اليهُود ضدَّ عَرَب فلسطين. وكذلك يهُود الأقطار العَرَبيَّة لم يُهاجر بعضهم إلى فلسطين، بل إلى أقطار أُخرى، وخاصَّة يهُود المغرب العَرَبيّ، الذين هاجر الكثير منهم إلى فرنسا، أو الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

وهكذا نرى أنَّ يهُود (إسرائيل) لم تكن هجرتهم تنفيذاً لتوجيهات الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، ولا اعتناقاً لمبادئها، بل كانت هجرة بالإكراه، وليست طوعيَّة. هذا؛ بالإضافة إلى هجرة بعض اليهُود المُتديِّنين بدافع ديني بعيداً كُلَّ البُعْد عن توجيهات الحَرَكَة الصّهيُونيَّة التي كانت - وماتزال - ذات طابع علماني كما أسلفنا.

ثانيهما: رَفْض فكْرة مركزيَّة (إسرائيل) بالنّسبة إلى يهُود الشّتات، وتأكيد فكْرة الحياة بالشّتات، ومركزيَّته في حياة اليهُود:

إنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة تعتبر أنَّ جميع اليهُود خارج (إسرائيل) مُواطنون إسرائيليُّون، ولكنَّهم يعيشون في المهجر أو الشّتات، وإنَّ (إسرائيل) مفتوحة لعودتهم كمُهاجر يعود إلى وطنه. ولكنَّ اليهُود خارج (إسرائيل) يرفضون هذا المنطق، ويرفضون مركزيَّة (إسرائيل)، وأنَّهم يعيشون في المُهاجر، بل يُعلنون أنَّهم يعيشون في أوطانهم مُنذُ قُرُون عديدة، حتَّى إنَّ هذه الفكْرة تُخيف اليهُود خارج (إسرائيل)، وتُقلقهم على مصيرهم، فهي تجعل إمكانيَّة طَرْدهم من بلادهم واردة بحُجَّة عدم ازدواجيَّة القوميَّة والولاء، فلا يصحُّ مثلاً أنْ يكون اليهُوديّ الفرنسي فرنسيّاً، وفي نفس الوقت ولاؤه (لإسرائيل).

وقد وَرَدَ في دراسات واستطلاعات للرّأي العامِّ اليهُودي الأمريكي قام بها "حاييم واكسمان" اليهُوديّ الأمريكي المُتحمِّس للصّهيُونيَّة ما يلي:

01٪ من الشّباب اليهُوديّ الأمريكي يُفكِّر بإمكانيَّة الإقامة في (إسرائيل).

13٪ ترى أنَّه من الضّروري تأييد (إسرائيل).

28٪ وافقوا على أنَّ (إسرائيل) تُعدُّ مركزاً للحياة اليهُوديَّة المُعاصرة.

72٪ رَفَضُوا الاعتراف بأنَّ (إسرائيل) تُعدُّ مركزاً للحياة اليهُوديَّة المُعاصرة، وأنَّ مُساندة (إسرائيل) ليست ضروريَّة ليُصبح الإنسان يهُودياً.

وفي دراسات أُخرى على مُستوى عالمي تبيَّن منها أنَّ خمسةً من كُلِّ ستَّة يهُود يعيشون خارج (إسرائيل) يعتبرون أنَّ وطنهم في الشّتات هُو وطنهم الوحيد، ولا يُفكِّرون بالعيش في (إسرائيل)، أو أنَّهم يعيشون في الشّتات أو المنفى.

ولعلَّ هذه الاستطلاعات والدّراسات تُفسِّر حقيقة أساسيَّة تعيش الصّهيُونيَّة في ظلِّها، على الرّغم من كُلِّ مُنجزاتها وانتصاراتها، وهي أنَّ اليهُود الذين يعيشون في الوطن القوميّ المزعوم (فلسطين) هُم أقلِّيَّة للغاية بالنّسبة ليهُود العالم، فهُم يُشكِّلون ثلاثة ملايين من حوالي **16** مليون عدد يهُود العالم.

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك علينا أنْ نعترف أنَّ الصّهيُونيَّة حقَّقت لليهُود مكاسب هامَّة، وأنشأت لهم وطناً قومياً، ودولة قويَّة، وملاذاً آمناً، وحُصناً حصيناً، وأنَّها القائد الوحيد لليهُود في العالم بأسْره، والمُدافع عن حُقُوقهم، والحامي لمصالحهم.

حتَّى إنَّ اليهُود الذين يعيشون بالشّتات هُم عناصر قُوَّة لليهُود في (إسرائيل)؛ حيثُ يُؤلِّفون (وخاصَّة في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا) مراكز ضغط وتوجيه لخدمة (إسرائيل) وتأييدها.

والحقيقة أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة لم تهدف - مُنذُ قيامها - إلى جَمْع يهُود العالم في فلسطين، بل هدفت إلى تكوين وإنشاء وطن قوميّ لليهُود، وإلى تأمين ملاذ آمن للمُضْطَهَدين منهم، ودولة قويَّة تنطق بلسانهم، وتُدافع عن حُقُوقهم أينما كانوا في العالم. والحَرَكَة الصّهيُونيَّة تُدرك - مُنذُ تأسيسها - أنَّها قامت لرَفْع الظُّلم والاضطهاد والمذابح التي كانت تلحق باليهُود في بعض الأقطار، وذلك بإيجاد وإنشاء ذلك الملجأ الآمن الذي يُحقِّق اليهُودُ فيه حُرِّيَّتهم وأَمْنَهُم، ثُمَّ قُوَّتَهم ومَنَعَتَهُم.

أمَّا في أُورُوبا الغربيَّة وأمريكا؛ حيثُ كان اليهُود يتمتَّعون بالحُرِّيَّة والمُساواة، وقد حقَّقوا في أُورُوبا الغربيَّة تقدُّماً وثراءً ونُفُوذاً لم يحلموا به من قبل؛ فكيف تطلب منهم الصّهيُونيَّة الهجرة إلى فلسطين، وتَرْك ما هُم فيه من عزٍّ وجاه ونُفُوذ، بل إنَّ بقاءهم في

أماكنهم يُمكنهم من خدمة الصّهيُونيَّة و(إسرائيل) أفضل بكثير من هجرتهم إلى فلسطين (كما أسلفنا).

الصّهيُونيَّة المسيحيَّة:

والآن؛ ما هُو رأي المسيحيَّة بالصّهيُونيَّة والوعد والأرض الميعاد؟

نقول: إنَّه من المُفارقات التّاريخيَّة العجيبة والمُؤسفة أنْ يتبنَّى المُصلحون الدِّينيُّون المسيحيُّون (أو الأُصُوليُّون المسيحيُّون) مع ظُهُور حَرَكَة الإصلاح الدِّينيّ في القرنَيْن السّادس عشر والسّابع عشر فكْرة العودة وأرض المعاد (فلسطين)، وذلك لتحقيق النُّبُوءة التّوراتيَّة، ثُمَّ الإنجيليَّة بعودة اليهُود إلى فلسطين.

والحقيقة المُؤسفة أنَّ الصّهيُونيَّة هي - في الأصل - أُنشُودة مسيحيَّة كما يقول "كينين" أحد أبرز القيادات الصّهيُونيَّة اليهُوديَّة الأمريكيَّة في كتابه "خطّ الدّفاع الإسرائيلي"؛ حيثُ يقول: « كانت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أُنشُودة مسيحيَّة قبل أنْ تُصبح حَرَكَة سياسيَّة يهُوديَّة ».

وقد استمرَّت هذه الأُنشُودة المسيحيَّة الأُصُوليَّة طوال القُرُون الثّلاثة الماضية، وتجسَّدت بأشكال مُختلفة، وكان من أبرزها مرحلة "تهويد" المسيحيَّة البرُوتستانتيَّة في أُورُوبا؛ حيثُ فسَّر الإصلاحيُّون المسيحيُّون الحَرْفيُّون مسألة ذهاب اليهُود إلى فلسطين بعد النَّفْي، الواردة في التّعاليم الأُولى للكَنيسة، على أنَّها عودة اليهُود كافَّة إلى أرض فلسطين، من أجل التّحضير والتّهيئة "للعودة الثّانية للمسيح".

كما ساعد كثيراً (في مُنتصف القرن السّابع عشر، وخُصُوصاً في عهد كروموَيل) الاتِّجاه العامُّ الذي ساد في المذهب "البيُوريتاني" (الأتقياء)، والمُتعلِّق بفكْرة "إعادة فلسطين لأسلافها العبرانيِّيْن"، وَذَهَبَ البعض إلى اعتبار "العبريَّة" هي اللُّغة المُلائمة للصّلاة في الكنائس، ولقراءة الكتاب المُقَدَّس.

وفي مطلع القرن التّاسع عشر؛ ظهرت مجموعات كنسيَّة أُورُوبيَّة تُنادي بـ "ضرورة استعادة اليهُود للأرض المُقَدَّسة"، وأنَّ اليهُود هُم مفتاح الخُطَّة الإلهيَّة للعودة الثّانية للمسيح

المُنقذ[1]. وهكذا وُجِدَ جوٌّ نَفْسيٌّ ملائمٌ في أُورُوبا لولادة الصّهيُونيّة السِّياسيَّة في أواخر القرن التّاسع عشر.

وقد كان التّأثير الفكْري والدِّينيّ - وخُصُوصاً عقيدة الحَرَكَة البرُوتستانتيَّة المُؤمنة بعودة المسيح - كبيراً جداً على مُستقبل الموقف البريطانيّ السِّياسي نحو الصّهيُونيَّة، وإقامة دولة اليهُود في فلسطين[2][3]، حتّى إنَّ بلفور صاحب الوعد المشؤوم، وبرغم إعجابه وقناعته السِّياسيَّة بإقامة دولة اليهُود في فلسطين، فإنَّه كان ينطلق من مُعتقدات وأُطرُوحات سابقة في ذهنه؛ وهي: شعبُ الله المُختار، وحقُّه في أرض المعاد، وتحقيق النُّبُوءة التّوراتيَّة بتجميع اليهُود في (إسرائيل) في فلسطين. وكانت هذه المُعتقدات والأُطرُوحات قد تعلّمها وورثها في طُفُولته، وتربّى، ونشأ عليها في إحدى الكنائس الإنجيليَّة الاسكتلنديَّة.

ثُمَّ انتقلت الدّعوة الصّهيُونيَّة المسيحيَّة من بريطانيا إلى الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة مع المُهاجرين الإنكليز إليها. وأُسِّس العديد من الحَرَكَات والمُؤتمرات التي أصدرت الكُتُبَ والمطبوعات التي تنشر الدّعاوى الصّهيُونيَّة، وتركز على عودة اليهُود إلى فلسطين مُنذُ بدايات تأسيس الدّولة الأمريكيَّة. ومازالت هذه الأفكار موجودة ومُنتشرة لدى الكثير من المسيحيِّيْن (وخاصَّة في أوساط المُتديِّنين منهم)، وأفضل مَنْ عبَّر عنها رئيس جُمهُوريَّة الولايات المُتَّحدة الأسبق "جيمي كارتر" الذي كثيراً ما تحدَّث عن الاستيطان اليهُوديّ الصّهيُونيّ في فلسطين بعبارات دينيَّة سياسيَّة[4].

---

(1) المسيحيُّون والمُسلمون يعتقدون بعودة المسيح مرَّة ثانية؛ ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً، وهُو غير المسيح المُنتَظر المُخلِّص الذي ينتظره اليهُود؛ ليُعيدهم إلى فلسطين، ويرفع عنهم الظُّلم، ويُملّكهم العالم.

(2) راجع مقال الدُكتُور مُحمَّد الرُّميحي الافتتاحي في مجلَّة العَرَبيّ، العدد 300، تشرين ثاني، سنة 1983، ص 10.

(3) للتَّوسُّع في موضوع الفرَق والمذاهب المسيحيَّة بشكل تفصيلي دقيق؛ يُراجَع الكتابان المُهمَّان (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام) للباحث نهاد خيَّاطة، دار الأوائل، ط1، 2002، وط2، 2004، والكتاب الثّاني (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى اليوم) للباحث سعد رُسْتُم، دار الأوائل، ط1، 2004.

(4) هذا عامل جديد في اندفاع بريطانيا لتأييد إقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين، يُضاف إلى العوامل الاستعماريَّة السّابقة، وذلك بإقامة دولة أجنبيَّة في قلب الوطن العَرَبيّ تمنع وحدته.

وفي زمن رئاسة جيمي كارتر؛ وُقِّعت اتِّفاقيَّة الصُّلح بين مصر و(إسرائيل) عام 1978، (اتِّفاقيَّة كامب ديفيد)، وبذلك فُتح الباب الأوَّل في تطبيع العلاقات بين (إسرائيل) والدُّول العَرَبيَّة، وكان لجُهُود كارتر العظيمة الدّور الهامّ في توقيع الاتِّفاقيَّة، وتذليل الصُّعُوبات، وإزالة العقبات.

وجيمي كارتر هذا هُو الذي قال للبابا شنوده (بابا الأقباط) أثناء نقاش بينهما: «لا تنسَ أنَّ اليهُود "شعب الله المُختار"»، فأجابه البابا شنوده على الفور جواباً مُفحماً: «إنْ كانوا هُم شعب الله المُختار، فَمَنْ نكون نحنُ؟».

هذا؛ وقد وُلدتْ سنة 1980، مُنظَّمة "السّفارة المسيحيَّة اليهُوديَّة" من المسيحيِّيْن الأُصُوليِّيْن، أو ما يُسمّون "بالمسيحيِّيْن الصّهاينة" حينما اجتمع أكثر من ألف رجل دين مسيحي جاؤوا من 23 دولة في مُؤتمر في مدينة القُدس المُحتلَّة تعبيراً عن الدّور المركزي لهذه المدينة المُقدَّسة في فكْر حَركَة الصّهيُونيَّة المسيحيَّة المُعاصرة. وقد جاء تأسيس هذه المُنظَّمة إثر رَفْض المُجتمع الدّولي لقرار الحُكُومة الإسرائيليَّة اعتبار القُدس عاصمة أبديَّة مُوحَّدة (لإسرائيل)، وكَرَدِّ فعْل على قيام عدد من الدُّول بنَقْل سفاراتها من القُدس إلى تلِّ أبيب. وافْتَتَحَتْ هذه الحَركَة مكاتبها في القسم الغربيّ من المدينة، بحُضُور عُمدة المدينة، وكبار قادة الكيان الصّهيُوني. وفي الوقت نفسه؛ أعلنت عن افتتاح قُنصليَّات لها في أكثر من 37 دولة في أُورُوبا، وآسيا، وأفريقيا، وكَنَدَا، وأُستراليا، وأخذ يُدير هذه المكاتب رجال دين مسيحيُّون مُتعصِّبون للصّهيُونيَّة، وممَّنْ يحملون مشاعر العداء تجاه المُسلمين والعَرَب بشكل عامٍّ، والفلسطينيِّيْن بشكل خاصٍّ.

وقد اتَّخذت السّفارة المسيحيَّة الدّوليَّة ولاية كارولينا الشّماليَّة مقرّاً لها، وافْتَتَحَتْ لها فُرُوعاً في عدد كبير من المُدُن الأمريكيَّة الرّئيسيَّة، وتقوم هذه المراكز بجَمْع التَّبرُّعات (لإسرائيل)، وعَقْد المُؤتمرات، وتسيير المُظاهرات، وحَشْدها تأييداً (لإسرائيل)، وبَيْع وترويج المُنتجات الإسرائيليَّة، وتنظيم الرّحلات السّياحيَّة إليها، ومُمارسة الضُّغُوط السِّياسيَّة على صانعي القرار في دُول العالم (وخاصَّة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة) لصالح (إسرائيل).

ويُؤمن أعضاء وأنصار هذه السِّفارة بأنَّ الله قد وَهَبَ أرض فلسطين لإبراهيم عليه السّلام وأبنائه من بعده[1] ، كما يُعارضون ـ بشدَّة ـ فكْرة مُمارسة الضُّغُوط على (إسرائيل) للانسحاب من الأرض العَرَبيَّة المُحتلَّة عام 1967 ، ويُؤمنون بأنَّ على (إسرائيل) أنْ تمتدَّ من النّيل إلى الفُرات ، ويُؤمنون ـ كذلك ، بحماس شديد ـ بفكْرة أرض المعاد ، ويقول زعيم المُنظَّمة ـ وهُو رجل دين هُولندي ـ : إنَّ (إسرائيل) بحاجة ماسَّة إلى الضّفَّة الغربيَّة ، وقطاع غزَّة ؛ لتوفير أماكن ليهُود الاتِّحاد السُّوفياتي (سابقاً) للاستيطان فيها .

وقد حدَّدت هذه المُنظَّمة (السّفارة المسيحيَّة الدّوليَّة) أهدافها في منشور أصدرتْهُ لهذا الغرض سنة 1980 ، كما يلي :

1 : الاهتمام البالغ بالشّعب اليهُوديّ و(إسرائيل) .
2 : تذكير وتشجيع المسيحيِّين والكنائس للصّلاة من أجل القُدس وأرض (إسرائيل) ، وتحريضهم على مُمارسة التّأثير في بلادهم لصالح (إسرائيل) .
3 : إنشاء مشروعات اقتصاديَّة واجتماعيَّة في (إسرائيل) .

وقد اختصر زعيمُ هذه المُنظَّمة أهدافَها بقوله : «إنَّنا صهاينة أكثر من الإسرائيليِّين أنفسهم» .

وتُدير هذه المُنظَّمة أو السِّفارة عدداً من المشاريع والبرامج في (إسرائيل) والخارج ، وتصل مُوازنتها إلى أكثر من مائة مليون دُولار ، وتضمُّ ملايين الأتباع وعشرات الأُلُوف من الأعضاء في جميع أنحاء العالم . وقد نظَّمتْ هذه السِّفارة ـ على مدى الأعوام الماضية ـ مهرجانات ومسيرات حاشدة في شوارع القُدس احتفالاً بقيام (إسرائيل) ، وبالأعياد الدِّينيَّة الإسرائيليَّة . ونجحت هذه السِّفارة بحَشْد الأُلُوف من رجال الدِّين المسيحيّ للمُشاركة في المهرجانات سنويّاً . ويحرص قادة الكيان الصّهيُونيّ على دَعْم تنظيمها ، وتشجيعها ، وحُضُور احتفالاتها .

---

(1) ولكنَّ العَرَب هُم من أبناء إبراهيم عليه السّلام ، إلاَّ أنَّ التّوراة تحصر هذا الوهب أو العطاء في إسحاق بن إبراهيم ، ثُمَّ في يعقُوب بن إسحاق (كما أسلفنا عند مُناقشة هذا العطاء في القسم الثّاني من الكتاب) .

ومن هذه الاحتفالات احتفالات عام 1983، التي استمرَّت أكثر من أُسبُوع، وشارك فيها أكثر من سبعة آلاف من رجال الدِّين المسيحيّ، جاؤوا من أكثر من خمسين دولة.

وتقول صحيفة الواشنطن بُوست في عددها الصّادر في 13 أُوكتُوبر 1984: «لقد حَضَرَ هذه الاحتفالات رئيسُ وُزراء (إسرائيل)، وقادتها، وكان عُنوانها القُدس عاصمة أبديَّة (لإسرائيل).. وأصبحت الصّلوات المسيحيَّة تُقام من أجل هذا الهدف».

لا شَكَّ أنَّ انتشار الصّهيُونيَّة المسيحيَّة الأُصُوليَّة، وصُعُودها على المسرح السِّياسي والثّقافي والإعلامي، وتأثيرها على عقل المُجتمع الدّولي بشكل عامٍّ، والأمريكي بشكل خاصٍّ، يُشَكِّل خُطُورة وقلقاً بالغَيْن.

ويُخطئ مَنْ يعتقد أنَّ الكَنيسة في أمريكا وأُورُوبا الغربيَّة لا دور لها بسبب ما يُقال من علمانيَّة المُجتمع الأُورُوبيّ الغربيّ والأمريكي، والصّحيح أنَّها تحظى بدرجة عالية من الثِّقَل والتّأثير[1].

وهكذا استطاع اليهُودُ تسخيرَ حَرَكَة الإصلاح الدِّينيّ المسيحيّ لمصلحتهم، وتوجيه المُنظَّمات المسيحيَّة الأُصُوليَّة لخدمة أهدافهم، والعطف عليهم، حتَّى والاندفاع في تأييد عودتهم إلى فلسطين، وقيام دولتهم فيها.[2]

وأين نحنُ العَرَب من كُلِّ هذا النّشاط اليهُوديّ الصّهيُونيّ، وبلادنا تُسلَب، وحُقُوقنا تُهدَر، وأموالنا تُنهَب؟! وقد أصبحنا إمَّا جائع يستجدي المُساعدات من الغرب "صانع (إسرائيل) وحاميها" ليعيش، وإمَّا مُتخَم غارق بالتَّرَف يستجدي الغرب لحماية تُخمته، والمُحافظة على استمرار تَرَفه، والوَيْل لِمَنْ يُريد الخُرُوج من هذَيْن الصّنفَيْن، والجائع مسلوب الإرادة لا يملك حُرِّيَّة التّفكير بواقع أُمّته، والمُتخَم والمُترَف لا يُريدان التّفكير بهذا الواقع المُؤلم.

---

(1) المصدر: مجلَّة العَرَبيّ، العدد 326، كانون الثّاني، 1986، من مقال "المسيحيُّون الصّهاينة"، ص 18، باختصار.

(2) ورئيس الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الآن ـ وهُو جُورج بُوش الابن، ومن حوله الفريق الحاكم في أمريكا؛ مثل (وزير الدّفاع رامسفيلد، ونائب رئيس الجُمهُوريَّة ديك شيني)، وهُم من المسيحيِّين الصّهاينة اليمينيِّين المُتعصِّبين (لإسرائيل) ـ يسعون بكُلِّ قواهم لخدمة (إسرائيل)، وحمايتها، وتحقيق أمنها، مهما كانت الظُّرُوف.

الصّهيُونيَّة المسيحيَّة البريطانيَّة:[1]

قُلنا ـ سابقاً ـ : إنَّ الصّهيُونيَّة المسيحيَّة نَبَتَتْ، وازدهرتْ، وبلغتْ أشدَّها في بريطانيا، ثُمَّ في هُولندا مع ظُهُور حَركَة الإصلاح الدِّينيّ، وخاصَّة حَركَة "البيُوريتان Puritans" ؛ أيْ "الأتقياء أو المُتطهِّرون" وهُم مسيحيُّون أُصُوليُّون يعتمدون على التّوراة، وإحياء تعاليمها. وأنَّ هذه الدّعوة انتقلت إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة مع المُهاجرين الإنكليز والهُولنديِّين، وكان أكثرهم من البيُوريتان، وقُلنا ـ أيضاً ـ : إنَّ زعيم هذه المُنظَّمة الصّهيُونيَّة المسيحيَّة (أو السّفارة المسيحيَّة الدّوليَّة) هُو رجل دين مسيحي هُولندي.

لذلك وجدتُ لزاماً عليَّ أنْ أفرد بحثاً عن الصّهيُونيَّة المسيحيَّة البريطانيَّة، وشدَّة التزام بريطانيا شعباً وحُكُومة بتحقيق عودة اليهُود إلى أرض المعاد فلسطين.

كانت بريطانيا ـ مُنذُ بداية عصر الاستعمار أكثر المُتحمِّسين في تحقيق حلم اليهُود بالعودة إلى فلسطين، وقد قامت بتبنِّي عدَّة مشاريع لاستعمار فلسطين من قبَل اليهُود، وعودتهم إليها قبل قيام الحَركَة الصّهيُونيَّة (وقد مرَّ معنا مشروع الثّري البريطانيّ اليهُوديّ مُوسى مُونتفيُوري عندما تحدَّثنا عن رجال الفكْرة القوميَّة اليهُوديَّة قبل الصّهيُونيَّة)، وعندما قامت الحَركَة الصّهيُونيَّة احتضنَتْهَا بريطانيا، واندفعت لتحقيق أهدافها بكُلِّ ما أُوتيتْ من قُوَّة ونُفُوذ، فهي ـ كما هُو معروف ـ التي مَنَحَت الحَرَكَةَ الصّهيُونيَّةَ وعدَ بلفور، وهي التي سهَّلتْ هجرةَ اليهُود إلى فلسطين، ويسَّرتْ تملُّكهم أراضيها، وقدَّمت لهم كُلَّ ما يحتاجُون إليه من الحماية والرّعاية، حتَّى أوصلتْهُم في مدى 28 سنة (1920 ـ 1948)، إلى إقامة كيانهم (إسرائيل) في فلسطين.

لقد عزونا كُلَّ ذلك ـ فيما سَبَقَ ـ إلى غايات وأهداف استعماريَّة، وذلك لترسيخ أقدام بريطانيا، وتثبيت وُجُودها في منطقة الشّرق الأوسط، ولكنْ؛ بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ

(1) للتَّوسُّع في موضوع الفرَق والمذاهب والحَركَات المسيحيَّة؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ جداً (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى اليوم)، سعد رُسْتُم، دار الأوائل، ط1، 2004، وللتَّوسُّع في موضوع (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام)؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام)، نهاد خيَّاطة، دار الأوائل، ط1، 2002، وط2، 2004.

الجُذُور اليهُوديَّة كانت قد ترسَّختْ في بريطانيا قبل الحَركَة الصّهيُونيَّة بعدَّة قُرُون، وسيطر اليهُود على مُقدَّرات البلاد؛ ممَّا كان له دور كبير في اندفاع بريطانيا لتأييد الحَركَة الصّهيُونيَّة ومُساعدتها.

وفيما يلي؛ سنُوجز تاريخ اليهُود في بريطانيا، وكيف استطاعوا السّيطرة عليها، وتسخيرها لأهدافهم:

كانت بريطانيا في العصر القديم تخضع للإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة (وعاصمتها رُوماني إيطاليا) قبل ظُهُور المسيحيَّة.

وقد تواكب ظُهُور المسيحيَّة في فلسطين مع قيام الدّولة الرُّومانيَّة بطَرْد اليهُود من فلسطين، وتحريمها عليهم (كما مرَّ معنا في القسم الأوَّل من الكتاب) على يد طيطس عام **70**م، ثُمَّ على يد هدريان عام **135**م، وذلك بعد ثوراتهم المُتكرِّرة في فلسطين.

تفرَّق اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، وانتشروا في أقطارها، ورافق انتشار اليهُود انتشار الدّيانة اليهُوديَّة التي واكبت انتشار المسيحيَّة في أقطار الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، وكانت اليهُوديَّة والمسيحيَّة في سباق على كَسْب الأتباع.

في هذه الأثناء؛ وَصَلَتْ الدّيانة اليهُوديَّة إلى بريطانيا، واعتنقها بعض السُّكّان، ولكنَّ الغَلَبَةَ كانت للمسيحيَّة التي اعتنقتها الغالبيَّة العُظمى من السُّكّان، وخاصَّة بعد أنْ كفَّت الدّولة الرُّومانيَّة عن مُلاحقة المسيحيِّين، ثُمَّ تبنَّت المسيحيَّة، وَجَعَلَتْهَا دينَ الدّولة الرّسمي.

وبعد ذلك بقُرُون؛ وفي عام **1290**م، أمر الملك إدوارد الأوَّل (البريطاني) بطَرْد اليهُود من بريطانيا، وذلك على إثر ارتكاب (إسحاق دُوبُوله) مع مجموعة من اليهُود جريمة قَتْل في مدينة أُكسفُورد للحُصُول على دم الضّحيَّة لأغراضهم الدِّينيَّة، وهي صُنْع فطيرهم المشهور، وإرضاءً للرَّبِّ إلههم.

وبعد أنْ أُدين الجُناة ثار سُخط الشّعب الإنكليزيّ على سُلُوكيَّة اليهُود البشعة[1]، وطالب بطَرْد اليهُود من بريطانيا؛ جزاءَ جرائمهم المُنكَرَة، وليس لاضطهاد الكَنيسة المسيحيَّة لهم كما يدَّعون.

وفي عام 1534م، انشقَّت الكَنيسة الإنكليزيَّة عن البابويَّة، وأعلن الملك هنري الثّامن نفسه رئيساً للكَنيسة الإنكليزيَّة، ونشأ المذهب الأنكليكانيّ في بريطانيا[2]، وقام الملك هنري الثّامن بحَمْلة قاسية ضدَّ الكَنيسة البابويَّة (الكاثُوليكيَّة) والكَنيسة البرُوتستانتيَّة في إنكلترا، فأغلق جميع الأديرة، وباع مُمتلكاتها، ثُمَّ استقرَّت الأحوال، بعد أنْ أخذت الأفكارُ الإصلاحيَّةُ اللُّوثريَّة بالانتشار في بريطانيا[3].

ومن الذين اعتمد عليهم الملك هنري الثّامن في قيادة حَمْلته على الكَنيسة "تُوماس كرومويل Gromwell T."، وكانت جميع الدّلائل تُشير إلى إنَّه كان يهُوديّ الأصل[4]. وقد كلَّفه هنري الثّامن بقيادة الحَمْلة ضدَّ الكَنيسة؛ لما اشتُهر به من الكُفْر والإلحاد، وكان كرومويل عند حُسن ظنِّ الملك، فأفرغ كُلَّ حقده اليهُوديّ (المستور) على الإنكليز، فطغى في البلاد، وأحرق الكنائس، وقتل الرُّهبان دُون رحمة أو شفقة، حتَّى استحقَّ - عن جدارة - لَقَبَ جزَّار الرُّهبان[5].

وبعد تُوماس كرومويل بقرن من الزّمان؛ ظهر النّائب "أُوليفر كرومويل **Oliver Gromwell**"، الذي بزغ نجمه فجأة، وقاد ثورة المجلس النّيابي ضدَّ الملك شارل الأوَّل، وخَلَعَهُ عن العرش، ثُمَّ ثار مُجدَّداً على رأس الجيش ضدَّ المجلس النّيابي، وأعلن قيام الجُمهُوريَّة من 1649 - 1659م.

---

(1) المصدر: "حقائق وأباطيل في تاريخ إسرائيل"، الأُستاذ فوزي حميد، ص 190؛ حيثُ يذكر عدَّة جرائم ارتكبها اليهُود في بريطانيا، وذلك بسرقة الأولاد، وذَبْحهم لصُنْع فطيرهم.

(2) كُنَّا أشرنا إلى كتاب مُهمٍّ يُفصِّل في نشأة الفرَق والمذاهب المسيحيَّة، وفي انقسامات تلك الفرَق، وفي الحُرُوب العنيفة التي جرَتْ، والتي أدَّت - في نهاية الأمر - إلى فَصْل الكَنيسة عن الدَّولة، ونقصد كتاب (الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى اليوم) للباحث سعد رُستُم، دار الأوائل، ط1، 2004.

(3) تاريخ أُورُوبا في العصر الحديث، د. ليلى الصَّبَّاغ، 166 - 167.

(4) بعد طَرْد إدوارد السّابع اليهُودَ من بريطانيا بقي بعضهم مُظهراً اعتناقه النّصرانيَّة، ومن أبناء هؤلاء كرومويل المذكور.

(5) المُفسدون في الأرض، س. ناجي، ص 265.

يتميَّز أُوليفر كرومويل - أيضاً كتُوماس كرومويل - بغمُوض الأصل، ولكنَّ تصرُّفاته - أثناء استلامه حُكْم بريطانيا - تُوحي بأنَّه يهُوديّ الأصل أيضاً.

فقد ادَّعى أنَّ الإله "يَهْوَه" أرسله ليُنقذ الشّعب البريطانيّ من الخطيئة، ويُلقِّب جنُوده بجنُود "يَهْوَه"، وكان يتشبَّه بالقاضي اليهُوديّ "جدعون"، ويستمدُّ نظريَّاته من تعاليم التّوراة والتّلمود، ويُنادي بالمُناسبات بحُرِّيَّة الدِّين، بينما كان يتعصَّب - ضمناً - لتعاليم التّوراة، ويُنكِّل بمَنْ يُناوئها، كما اشتُهر باحتقاره الأناجيل وأتباعها، والاعتماد - فقط - على البيُوريتان Puritans أصحاب التّوراة؛ حيثُ أصبحت السّيطرة التَّامَّة في زمنه لهم، وهُو الذي أصدر أمراً بعودة اليهُود إلى بريطانيا، وَمَنَحَهُم جميع الحُقُوق التي كانت ممنوحة للبيُوريتان (الطّبقة المُختارة)، وادَّعى النُّبُوَّة، وقال إنَّه خليفة النّبي حزقيال، وإنَّه مخمور بحُبِّ الإله "يَهْوَه"، ونفى أنْ يكون إله الأناجيل إلهاً صادقاً، وَمَنَعَ البيوريتان من الاعتراف به (أيْ بإله الأناجيل)، وأمرهم بأنْ لا يعترفوا - أيضاً - بالمسيح، وأنْ لا يحترموا سوى "يَهْوَه" إله الجُنُود، وأرغمهم على قراءة التّوراة طيلة يوم الأحد، وألغى جميع الطُّقُوس الدِّينيَّة المسيحيَّة، وحرَّم على النّاس دُخُول الكنائس، وَقَتَلَ كُلَّ مَنْ فيها، وأصدر قانوناً حرَّم - بمُوجبه - العمل على المسيحيِّيْن أيَّام السّبت، وحاول إقامة مجلس كَهَنُوت أعلى على غرار المجلس اليهُوديّ الأعلى "السّنهندرين"، ليُطبِّق شريعة التّوراة في البلاد، ويجعل من بريطانيا دولة يهُوديَّة تامَّة، وكان يدَّعي أنَّ الرَّبَّ اختار بريطانيا بديلاً عن (إسرائيل) لتقوم بتحقيق الوُعُود التي وعدها لليهُود (وهذا ما حَدَثَ فعلاً من قيام بريطانيا بتحقيق عودة اليهُود إلى أرض المعاد، وإقامة دولتهم فيها)، وقد كان - طيلة أيَّام حُكْمه التي دامت حوالي عشر سنوات؛ من 1649 - 1659 - يُطبِّق في بريطانيا الشّرائعَ اليهُوديَّةَ بحذافيرها[1].

ويذكر الدُّكتُور أمين محمود في كتابه (مشاريع الاستيطان اليهُودي) من سلسلة عالم المعرفة[2] ما يلي: «في تلك الفترة من التّاريخ كان هُناك صراع مرير بين الدُّول الأُورُوبيَّة حول السّيطرة على التّجارة العالميَّة في طُرُق مُواصلاتها. وكان البيُوريتان - آنذاك - لا

---

(1) المصدر: المُفسدون في الأرض، س. ناجي، ص 264 - 272، باختصار؛ نقلاً عن (تاريخ بريطانيا) لأندريه مُوريس، ص 441 - 443.

(2) مشاريع الاستيطان اليهُودي، عالم المعرفة، 74، شُباط 1982، ص 13 - 14.

يُشَكِّلون الطّبقة الحاكمة في إنكلترا وهُولندا فحسب، وإنَّما كانوا القُوَّة الاقتصاديَّة المُنفِّذة، فمنهم كبار التُّجَّار ورجال الأعمال[1]. ونَظَراً للصّلة الوثيقة التي كانت تربط البيُوريتانيَّة باليهُود؛ فقد تهيَّأ لليهُود مجال واسع للمُساهمة في النّشاط التّجاري دُون خوف أو وَجَل من البيُوريتانيِّيْن، ولم يكن عسيراً على رئيس إنكلترا البيُوريتاني ـ آنذاك ـ "أُوليفر كروموِيل" أنْ يُدرك مدى الفائدة المادِّيَّة التي كان بمقدور اليهُود تقديمها لاقتصاديَّات بلده؛ وخاصَّة في المجال التّجاري، لذلك فإنَّه أبدى اهتماماً كبيراً بشُؤُون اليهُود، وأخذ يُقدِّم الكثير من التّسهيلات لهم. وقد نظَّم عدد من البيُوريتانيِّيْن "الإنجليز" حَرَكَة بهدف مُساعدة اليهُود على الاستيطان في فلسطين، وقاموا عام **1649**، بتقديم عريضة إلى الحُكُومة الإنجليزيَّة جاء فيها: «إنَّ الأُمَّة الإنجليزيَّة مع سُكَّان الأراضي المُنخفضة (هُولندا) سيكونون أوَّل النّاس، وأكثرهم استعداداً لنَقْل أبناء (إسرائيل) وبناتها على سُفُنهم إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقُوب كي تُصبح إرثاً دائماً لهم».

وبالرّغم من أنَّ هذه الحَرَكَة ودعوتها لتوطين اليهُود في فلسطين (وهي أقدم دعوة يُؤيِّدها الغرب في عودة اليهُود إلى فلسطين) فإنَّه لم يتمخَّض عنها أيَّة نتيجة عَمَليَّة، إلاَّ إنَّها كانت مُؤشِّراً للقُوَّة الحاكمة في بريطانيا وغيرها؛ كي تُولي فلسطين مزيداً من اهتمامها. وبالفعل؛ فإنَّ بريطانيا ـ مُنذُ القرن الثّامن عشر، وبشكل واضح في القرن التّاسع عشر ـ أخذت باحتضان الأفكار اليهُوديَّة، ثُمَّ الصّهيُونيَّة في عودة اليهُود إلى فلسطين.

وعلى كُلِّ حال؛ فإنَّ مسلك أُوليفر كروموِيل اليهُوديّ الصّرف أدَّى إلى تقوية النُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا، وتعميق جُذُورهم فيها.

ولَمَّا عادت المَلَكيَّة مُجدَّداً إلى بريطانيا كان اليهُود قد رسَّخوا أقدامهم في جميع مرافق الدّولة، واستعادوا نُفُوذهم في سُوق المُضاربات (البُورصة) الذي مكَّنهم من السّيطرة على مُقدَّرات البلاد الماليَّة، فاحتاجت الدّولة والطّبقة الحاكمة الأرستُقراطيَّة التي كانت أحداث هنري الثّامن وأحداث عهد كروموِيل الدّامية قد هدَّت قواها، واستنزفت مواردها الماليَّة، فاضطُرَّت أنَّ تستنجد بأثرياء اليهُود؛ لتقترض منهم المال اللاّزم لها، فتقرَّبت إليهم بخَطْب

---

(1) كانت الرّأسماليَّة التّجاريَّة هي المُسيطرة في القرن السّابع عشر.

وُدِّهم، فلبّى اليهُود مطالبهم مُقابل فواتير خياليَّة أعجزت - فيما بعد - أكثر أفرادها عن سداد دُيُونهم، فاضطُرَّ بعضهم للتَّخلِّي عن مُمتلكاته لليهُود، وأُرغم البعض الآخر على تسوية دُيُونه بقبول مُصاهرة اليهُود، والاندماج في مُجتمعهم، بعد أنْ كانوا يحتقرونهم، ويعزفون عن الاقتران ببناتهم اللّواتي كان اليهُود يسعون - دائماً - لتزويجهنَّ من نُبلاء الإنكليز بُغية تهويدهم عرْقيَّاً، بعد أنْ هَوَّدَهُم كرومويل فكْريَّاً ودينيَّاً. وهكذا؛ فلم يسع النُّبلاء إلاَّ الرُّضُوخ للأمر الواقع، فكثُر عدد النُّبلاء الذين تزوَّجوا من يهُوديَّات، وبذلك دَخَلَتْ اليهُوديَّة أعرقَ البيُوت الإنكليزيَّة، وأصبحت الفتيات اليهُوديَّات الجميلات الآمرات النّاهيات في بيُوت نُبلاء بريطانيا، وأصبحنَ أُمَّهات سادة المُستقبل في بريطانيا.

وبفَضْل هذه المُصاهرات - والتي اجتهد اليهُود لتحقيقها - اختلطت الدّماء اليهُوديَّة بدماء نُبلاء الإنكليز، وسيطر اليهُود على مُقدَّرات هذه الطّبقة، حتَّى لم يعد لها خلاص من نُفُوذهم[1].

ويقول الكاتب الإنكليزيّ الكبير "هيللر بلوك **Belloc Hillair**": «إنَّ تهويد الإنكليز وخاصَّة طبقة النُّبلاء منهم بلغ حدّاً استعصى معه التّفريق بين النّبيل الإنكليزيّ واليهُودي، حتَّى إنَّه عندما يُسافر أحد النُّبلاء إلى خارج البلاد يظنُّه النّاس يهُوديَّاً؛ لما في شكله ومنظره وسُلُوكه من الطّابع اليهُوديّ المُميَّز".

وفيما يخصُّ النُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا يُحَدِّثنا الكاتب الشّهير "لامبلان **Lambelin**" في مُؤلَّفه المُسمَّى "مملكة اليهُود في بلاد الأنكلُوسكسُون"؛ فيقول: «لقد توصَّل اليهُود عام **1922**، إلى أنْ يكون لهم في بريطانيا **26** باروناً، و**6** فُرْسان (أيْ سير **Sir**)، و**6** مُستشارين لدى البلاط، و**6** أعضاء في مجلس بلديَّة لندن، هذا؛ عدا عن المئات والآلاف من الكُتَّاب، والأُدباء المشهورين، وأصحاب الشّركات ووكالات الأنباء، وأصحاب الصُّحُف، حتَّى إنَّ مُؤسِّس وكالة "رويتر **Rueter**" المشهورة هُو اليهُوديّ "جُوزيفات بير **Beer Josephat**"، ويُضيف قائلاً: إنَّ ثلاثة من اليهُود شغلوا مركز أو منصب نائب الملك في الهند، وحكموا

---

(1) يُقال: إنَّ مجلس اللُّوردات في بريطانيا أصبح أكثر من ثُلث أعضائه إمَّا أبناء يهُوديَّات، أو مُتزوِّجون من يهُوديَّات.

شبه القارَّة الهنديَّة الواسعة مُدَّة رُبع قرن[1] ، وهُم : "مانتاكو Mantago" ، والسّير "وليم ماير Mayer W." والكُونت "ريدنك Reading" .

ويبدو أنَّ نُفُوذ اليهُود في بريطانيا بلغ أوجه في عهد جُورج الخامس ، الذي كان يعتمدهم في كُلِّ شؤُونه ، حتَّى إنَّه كان يقول عن اليهُوديّ مُوسى مُونتفيُوري (والذي مرَّ معنا التّعريف به ، وكان عُمدة مدينة لندن) : إنَّه أعظم شخصيَّة في الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة .

ويقول المُؤرِّخ "هيبس" حول النُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا ما يلي :

« لقد وَصَلَ النُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا إلى أعظم درجاته قُبيل الحرب العالميَّة الأُولى ؛ إذْ أصبح تسعة منهم أعضاء في مجلس العرش ، الذي يضمُّ اثنَيْ عشر عُضواً فقط (أيْ ثلاثة أرباع أعضائه من اليهُود) ، وهُو أعظم سُلطة في البلاد بعد الملك مُباشرة » .

وكان المجلس الاستشاري الأعلى في بريطانيا يضمُّ عدداً كبيراً من اليهُود ، ويرأسه اليهُوديّ "مُوريس هانكي Hanky Maurice" .

وفي مجلس اللُّوردات كان لليهُود أحد عشر لُورداً ، وعلى رأسهم اليهُوديّ الشّهير "هُور بليشا Beliche Hore Sir" ، والسَّيِّدة سمبسون Simpson التي اقترن بها الملك إدوارد الثّامن ، والذي تنازل عن العرش من أجلها كانت أرملة أمريكيَّة يهُوديَّة .

والغريب أنَّ النُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا كان ينمو باطِّراد ، حتَّى إنَّ المُرشَّحين لرئاسة بلديَّة لندن عام 1942 ، كانوا من اليهُود ؛ وهُما : صمويل جُوزيف ، وفرانك بُوليتزر[2] (Joseph Semuel and Politzer Frank) .

---

(1) وهُو أخطر وأهمُّ منصب في بريطانيا بعد رئاسة الوزارة ، وكانت الهند - في تلك الأيَّام - دُرَّة التّاج البريطاني ، وكان ملك الإنكليز يُسمَّى : ملك بريطانيا وإمبراطُور الهند . وكانت شبه القارَّة الهنديَّة تضمُّ : جُمهُوريَّة الهند الحاليَّة ، وباكستان ، وبنغلاديش ، ومملكة نيبال .

(2) وبالمُناسبة ؛ نذكر أنَّ أوَّل مندوب سامي بريطاني على العراق هُو السِّير برسي كُوكس ؛ وهُو يهُوديّ صهيُوني ، وكان رئيس المكتب الهندي في الخليج العَرَبي ، وكذلك السِّير هربرت صموئيل أوَّل مندوب سامي بريطاني على فلسطين كان يهُودياً صهيُونياً ، وذلك لتسهيل هجرة اليهُود إلى فلسطين ، وتنفيذ وعد بلفور ، وقد ملَّك اليهُود أكثر من 200 ألف دُونم من أراضي فلسطين (هبَة) ، وكان يُلقَّب "بملك إسرائيل" .

وممَّا تقدَّم؛ يتَّضح للقارئ الكريم مدى ما وَصَلَ إليه اليهُود من السّيطرة والنُّفُوذ في بريطانيا، وكُلُّ ذلك بفَضْل تُوماس كروموَيل الذي حارب الكَنيسة الكاثُوليكيَّة في بريطانيا وسميّه أُوليفر كرومويل، الذي تمكَّن من إرغام الإنكليز على اتِّخاذ التّوراة بدلاً من الإنجيل؛ بحُجَّة الإصلاح الدِّينيّ والأُصُوليَّة، ومكَّن البيُوريتان من السّيطرة على مُقدَّرات البلاد (وهُم أشدُّ من اليهُود تعصُّباً لعودة اليهُود إلى أرض المعاد فلسطين)، وهُو الذي فَتَحَ أبواب بريطانيا لليهُود، وساعدهم على السّيطرة والنُّفُوذ فيها (كما سَبَقَ شرحه). وهكذا أصبحت الأُمَّة الإنكليزيَّة برُمَّتها تسير في ركاب اليهُود، وتتبنَّى الصّهيُونيَّة؛ سواء كانت صهيُونيَّة مسيحيَّة، أو صهيُونيَّة يهُوديَّة، وأصبحت بريطانيا لا تتخلَّى عن اليهُود، ولا عن أهدافهم، مهما كلَّف الأمر، وهي التي (كما هُو معروف) حقَّقتْ لهم كُلَّ رغباتهم باندفاع وحماس يفوق حماس واندفاع اليهُود أنفسهم في كثير من الأحوال، وذلك مُنذُ أكثر من 200 سنة وحتَّى يومنا هذا[1]؛ وقد انتقل هذا الولاء المسيحيّ الصّهيُونيّ لليهُود إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة التي ورثت الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة بكُلِّ شيء؛ وخاصَّة الاندفاع بتأييد الصّهيُونيَّة بدُون أيّ تحفُّظ[2].

سرُّ نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة السّريع:

بدأت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وأُعلن عنها، وعن أهدافها في مُؤتمرها الأوَّل المُنعقد في بال في سويسرا عام 1897، برئاسة زعيمها آنذاك ثيُودُور هرتزل.

وقد مرَّ معنا كيف أنَّ المُعارضة للحَرَكَة الصّهيُونيَّة كانت شديدة جداً من جماعات واتِّجاهات عديدة وهامَّة من اليهُود؛ مثل: اليهُود المُتديِّنون، واليهُود الاندماجيُّون، واليهُود المُتنوِّرون.. إلخ، حتَّى إنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة نفسها انقسمت إلى قسمَيْن: قسم الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة التي تُريد أنْ تحصل على براءة قانونيَّة دوليَّة قبل الهجرة وبناء الدّولة في فلسطين،

(1) إنَّ موقف بريطانيا من اليهُود والحَرَكَة الصّهيُونيَّة حتَّى الحرب العالمية الثّانية يُشبه موقف الولايات المُتَّحدة من اليهُود والصّهيُونيَّة الآن.

(2) المرجع الأساسي للصّهيُونيَّة البريطانيَّة هُو: "اليهُود في بريطانيا"، من كتاب "المُفسدون في الأرض"، الأُستاذ س. ناجي، ص 264 ـ 272، باختصار.

والصّهيُونيَّة العَمَليَّة التي نادت بالاقتحام والهجرة الفوريَّة بأيَّة وسيلة مُمكنة، ثُمَّ تأتي - بعد ذلك - المُوافقة الدّوليَّة اعترافاً بالأمر الواقع.

ثُمَّ اصطدمت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بأوّل فشل ذريع لها، وذلك عندما حاولت الحُصُول على مُوافقة الدّولة العُثمانيَّة على الهجرة إلى فلسطين (وكانت فلسطين ضمن أملاك الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة)، وقدَّمت للدّولة العُثمانيَّة إغراءات ماليَّة ضخمة، ولكنَّ الموقف الصّلب من السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد الثّاني حال دُون حُصُول الصّهاينة على الإذن بالهجرة إلى فلسطين.

ثُمَّ استغلَّ رجال الحَرَكَة الصّهيُونيَّة قيام الحرب العالميَّة الأُولى، وكانت رئاسة الحَرَكَة قد آلت إلى حاييم وايزمن بعد وفاة هرتزل. فحصلوا من بريطانيا على وعد بلفور المشهور عام 1917، وقدَّموا لبريطانيا - مُقابل ذلك - معونة ماليَّة ضخمة مُساهمة منهم في تكاليف الحرب (قدَّمها اليهُوديّ الصّهيُونيّ أدموند رُوتشيلد). وَضَغَطُوا على الولايات المُتَّحدة ورئيسها ولسون عن طريق اليهُوديّ الصّهيُونيّ برنارد باروخ صاحب النُّفُوذ الكبير في البيت الأبيض آنذاك (كما تحدَّثنا في القسم الأوّل من الكتاب) للدُّخُول في الحرب العالميَّة إلى جانب الحُلفاء، وانصاعت الولايات المُتَّحدة للضُّغُوط اليهُوديَّة، وَدَخَلَتْ الحرب العالميَّة الأُولى عام 1917، وكانت مُكافأة الصّهيُونيَّة هي إعطاء وعد بلفور لهم، للهجرة إلى فلسطين، وإنشاء الوطن القومي لهم.

وفي عام 1920، أصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور كما وَرَدَ في صكِّ الانتداب الصّادر عن عصبة الأُمم المُتَّحدة (وبذلك حصلت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة على البراءة القانونيَّة الدّوليَّة في الهجرة إلى فلسطين، وإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ فيها).

ومن 1920 - 1948 (أيْ في حوالي رُبع قرن من الزّمان) استطاعت الصّهيُونيَّة أنْ تبنّي الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، وتُتوِّج هذا البناء بإعلان قيام (إسرائيل) في 15 أيَّار 1948.

وبعد رُبع قرن ثانٍ أصبحت (إسرائيل) دولة قويَّة عسكريّاً وسياسيّاً بما لديها من قُوَّة عسكريَّة هائلة ونُفُوذ دولي كبير، وأهمُّ من ذلك تسخير أقوى دولة في العالم لحمايتها، وضمان أمنها، وتحقيق أهدافها.

والأهمُّ من ذلك أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة التي بدأت ضعيفة مرفوضة من قطاعات عريضة من الشّعب اليهُودي، أصبحت ـ الآن ـ المُمثِّل الوحيد لليهُود في جميع أنحاء العالم، وانضوت تحت لوائها جميع فئات الشّعب اليهُوديَّة بكافَّة اتِّجاهاته؛ عدا قلَّة قليلة من اليهُود المُتزمِّتين دينيّاً من بقايا الطّوائف الحريديَّة (المارّ ذكْرها في القسم الثّاني من هذا الكتاب).

والآن؛ ما هُو السِّرُّ في نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة هذا النّجاح السّريع الباهر؟

يحلو للبعض أنْ يعزو هذا النّجاح إلى حيويَّة اليهُود، وتكاتفهم، وتضامنهم في سبيل تحقيق أهدافهم، ولكنَّ هذا غير صحيح؛ لأنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة لاقت ـ مُنْذُ نشأتها ـ مُعارضة عنيفة، وانتقادات مريرة، من قطاعات هامَّة من اليهُود، ولم تستطع الحَرَكَة أنْ تُصبح المُمثِّل الوحيد لليهُود، إلاَّ بعد النّجاحات المُتلاحقة السّريعة في تنفيذ برنامجها، والوُصُول إلى أهدافها، وعلى رأسها تحقيق حُلم اليهُود بالعودة إلى فلسطين أرض المعاد.

وبعضهم يعزو هذا النّجاح إلى أنَّ اليهُود "شعب الله المُختار"، وأنَّ الله يرعاهم (إلههم يَهْوَه)، ويأخذ بيدهم لتحقيق آمالهم بالعودة إلى فلسطين، ومُعظم هؤلاء من الأُصُوليِّيْن المسيحيِّيْن، أو المسيحيِّيْن الصّهاينة الذين تحدَّثنا عنهم قبل قليل. ولكنْ؛ لماذا لم يرعهم الله، ولم يحمهم من الغزو الآشوري والسّبي البابلي والمذابح المُتكرِّرة التي تعرَّضوا لها على يد الرُّومان (طيطس وهدريان)، ثُمَّ على يد البيزنطيِّيْن (زمن الإمبراطُور هرَقْل)؟!

وفي العصر الحاضر؛ لماذا لم يحمهم إلههم يَهْوَه من المذابح والاضطهادات التي لحقت بهم على يد القياصرة الرُّوس في رُوسيا وبُولُونيا، وأخيراً؛ على يد النّازيَّة في ألمانيا، وزعيمها هتْلَر؟!

الحقيقة هي غير ذلك كُلِّه، فَسرُّ نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة يعود لأسباب أُخرى خارجة عن إرادتها، وقيام ظُرُوف دوليَّة خاصَّة أدَّت إلى ظُهُور فُرص ثمينة استطاعت الحَرَكَة أنْ

تستغلّها أحسن استغلال، وتستثمرها أفضل استثمار في تحقيق غاياتها، والوُصُول إلى أهدافها؛ مثل:

أ: **دور بريطانيا:**

كان لليهُود في بريطانيا نُفُوذ لا شبيه له في كُلِّ القارَّة الأُورُوبيَّة، وقد ساعدهم على ذلك حَرَكَة الإصلاح الدِّينيّ فيها. وأصبحت بريطانيا - كما أسلفنا - الملاذ الآمن لليهُود، وقد حقَّقوا فيها مركزاً هامّاً، ونُفُوذاً هائلاً قبل الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بقُرُون.

وقد تبنَّت بريطانيا - في تاريخها الحديث - أهدافَ اليهُود وغاياتهم، وزاد هذا التَّبنِّي والرّعاية بعد أنْ قدَّمت اللّجنةُ البريطانيَّةُ الاستعماريَّةُ تقريرها للحُكُومة البريطانيَّة عام 1907، (راجع القسم الثّالث) والذي تدعو فيه - بشكل مُختصر - إلى هدفَيْن أساسيَّيْن؛ هُما:

1: الوُقُوف ضدَّ أيَّة وحدة أو اتِّحاد أو تضامن عَرَبي، والعمل على تجزئة الوطن العَرَبيّ، وإثارة النّعرات الإقليميَّة، والدِّينيَّة، والطّائفيَّة فيه.

2: العمل على إقامة دولة غريبة في قلب الوطن العَرَبيّ، وفي فلسطين بالذّات، تفصل بين جناحَيْ الوطن العَرَبيّ الآسيويّ والأفريقيّ، وتمنع قيام أيَّة وحدة في المُستقبل، وخاصَّة بين مصر وبلاد الشّام.

وَوَجَدَتْ بريطانيا ضالّتها في تحقيق هذَيْن الهَدَفَيْن في الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وقيام دولة لليهُود في فلسطين، فاندفعت - بكُلِّ قواها ونُفُوذها العالمي آنئذ - لتحقيق أهداف وبرامج الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.

لذلك تبنَّت بريطانيا الحَرَكَةَ الصّهيُونيَّة، وأصبحت مقرّاً وملاذاً لرجالها. وعندما انهارت الدّولة العُثمانيَّة عملت بريطانيا - بكُلِّ نُفُوذها - على أنْ تكون حصَّتها من التّركة العُثمانيَّة فلسطين (جنوب بلاد الشّام) لتُصبح قاعدة استعماريَّة لها في الوطن العَرَبيّ، تحمي طريق الهند وقناة السُّويس، وتمنع أيَّة وحدة بين العَرَب، ولا يتحقَّق ذلك إلاَّ بإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، وقيام الدّولة اليهُوديَّة على أرضها.

وفعلاً؛ لم تتوانَ بريطانيا عن إعطاء وعد بلفور للحَركَة الصّهيُونيَّة عام 1917، قبل نهاية الحرب العالميَّة الأُولى بسنة، ثُمَّ وافق مُؤتمر الصُّلح في باريس عام 1919، على وعد بلفور، وكذلك مجلس الحُلفاء الأعلى المُنعقد عام 1920، في مُؤتمر سان ريمو في إيطاليا. وأخيراً؛ وافقت عصبة الأُمم على انتداب بريطانيا على فلسطين، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

وبذلك حصلت الحَركَة الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة على البراءة القانونيَّة الدّوليَّة التي كانت تنشدها للبدء بإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، مع تعهُّد بريطانيا بالتّنفيذ والمسؤوليَّة عن هذا التّنفيذ أمام عصبة الأُمم (وهي أحرص من عصبة الأُمم على التّنفيذ).

وبعد ذلك؛ فتحت بريطانيا أبوابَ فلسطين للهجرة اليهُوديَّة، وساعدت على ذلك بكُلّ ما أُوتيت من قُوَّة ونُفُوذ، ثُمَّ مكَّنت اليهُود من امتلاك الأراضي في فلسطين؛ بتسليمهم أراضي أملاك الدّولة، وأراضي المشاع، والتّضييق على الفلاَّح العَرَبيّ الفلسطينيّ، ووَضْعه في ظُرُوف اقتصاديَّة قاسية، تجعله يتخلَّى عن أرضه ببَيْعها لليهُود، واعترفت بالوكالة اليهُوديَّة التي أنشأتها الحَركَة الصّهيُونيَّة في فلسطين للإشراف على الهجرة إليها وإدارة جميع شُؤُون اليهُود في فلسطين، ولتكون صلة الوصل بين الإدارة البريطانيَّة في فلسطين واليهُود. ثُمَّ أمّنت لليهُود ومُستعمراتهم الحماية والرّعاية والأمن[1]، وأنشأت حَرَسَ المُستعمرات الذي موَّلتْهُ، وسلَّحَتْهُ، ودرَّبَتْهُ؛ بحُجَّة حماية المُستعمرات اليهُوديَّة من الاعتداءات العَرَبيَّة (وكان هذا الحَرَس نُواة جيش الدّفاع الإسرائيلي)، وتوَّجت كُلَّ ذلك بجَعْل اللُّغة العبريَّة لُغة رسميَّة في فلسطين.

والحقيقة؛ أنَّ بريطانيا كانت أكثر اندفاعاً وحماساً في إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين من اليهُود والحَركَة الصّهيُونيَّة نفسها، وكثيراً ما كانت بريطانيا تسبق الحَركَة الصّهيُونيَّة في تحقيق أهدافها، وتذليل الصّعاب أمامها، وتهيئة الظُّرُوف لنجاحها. وهكذا؛ استطاعت الحَركَة الصّهيُونيَّة أنْ تُحقِّق أهدافها بإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين خلال 28 سنة، من 1920 ـ 1948؛ حيثُ تمَّ الإعلان عن قيام (إسرائيل) في 15 أيَّار 1948. كُلُّ ذلك كان برعاية وحماية بريطانيا، واندفاعها الشّديد لتنفيذ أهداف الحَركَة الصّهيُونيَّة، وتحقيق حُلمها بحماية مُواصلات إمبراطُوريَّتها، وغَرْس جسم غريب في قلب الأُمَّة العَرَبيَّة.

---

(1) قَمَعَتْ بريطانية الثّورات في فلسطين بعُنف ووحشيَّة، والتي قامت ضدَّ وعد بلفور وهجرة اليهُود إلى فلسطين.

ب: دور الاتِّحاد السُّوفياتي (سابقاً):

كان الاتِّحاد السُّوفياتي (سابقاً) من أوائل الدُّول التي اعترفت (بإسرائيل) بعد قيامها في 15 أيَّار 1948. وقد كان الاتِّحاد السُّوفياتي يأمل في أنْ تكون (إسرائيل) أوَّل دولة اشتراكيَّة في الشّرق الأوسط، ثُمَّ تُصبح قاعدة لانتشار الأفكار الاشتراكيَّة والماركسيَّة في المنطقة، لا سيَّما وأنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة كان تضمُّ بين صفُوفها قطاعاً واسعاً من الصّهاينة الاشتراكيِّين والماركسيِّين.

هذا؛ بالإضافة إلى أنَّ الدُّول العَرَبيَّة ـ آنذاك ـ كانت تسير في ركاب الغرب، وتكنُّ العداء السّافر للاتِّحاد السُّوفياتي، وللشُّيُوعيَّة، حتَّى إنَّ مُعظمها كانت لا تُقيم علاقات دبلوماسيَّة مع الاتِّحاد السُّوفياني والدُّول الاشتراكيَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة.

وعندما دَخَلَتْ الجُيُوش العَرَبيَّة فلسطين في 15 أيَّار 1948، لتحريرها، وحماية عُرُوبتها، وَوَصَلَتْ إلى أبواب تلِّ أبيب عاصمة (إسرائيل)، قامت الدُّول الغربيَّة والاتِّحاد السُّوفياتي بفَرْض الهُدنة على العَرَب، وإيقاف القتال؛ وهي الهُدنة الأُولى، أو هُدنة الأربعة أسابيع؛ من 11 حُزيران إلى 9 تمُّوز 1948، وكانت الهُدنة لحماية (إسرائيل)، ومَنْع انهيارها.

في هذه الظُّرُوف؛ كانت (إسرائيل) بحاجة ماسَّة للسّلاح المُتطوِّر، رغم ما أغدقَتْهُ بريطانيا من السّلاح على اليهُود أثناء الانتداب، وعند انسحابها من فلسطين بعد 15 أيَّار 1948؛ حيثُ تركت لهم كمِّيَّات هائلة من السّلاح والذّخائر.

هُنا؛ انتهزت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة و(إسرائيل) فُرصة تعاطف الاتِّحاد السُّوفياتي معها، وطلبت منه تقديم السّلاح لها، فأسرع الاتِّحاد السُّوفياتي بالمُوافقة، وتدفَّق السّلاح التّشيكي (من تشيكُوسلُوفاكيا بإيعاز من الاتِّحاد السُّوفياتي) على (إسرائيل)، ومعه الخُبراء والفنِّيُّون العسكريُّون خلال هُدنة الأربعة أسابيع. وكان لهذا السّلاح دور كبير في هزيمة الجُيُوش العَرَبيَّة، واحتلال مُعظم فلسطين (احتلَّ اليهُود 21 ألف كم مُربَّع من مساحة فلسطين، والباقي هُو الضّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة)، وطُرد حوالي مليون من عَرَب فلسطين من ديارهم.

وهكذا استغلَّ الصّهاينة و(إسرائيل) (في بدايتها) فُرصة شهر العسل بينها وبين الاتِّحاد السُّوفياتي والدُّول الاشتراكيَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة، واستفادوا من سلاحها وخُبرائها في تثبيت الكيان الصّهيُونيّ في فلسطين.

ج: دور ألمانيا:

بعد أنْ استطاعت (إسرائيلُ) دَحْرَ الجُيُوش العَرَبيَّـة عـام **1948**، وأجبرت العَرَب على توقيع اتِّفاقيَّات الهُدنة معها (اتِّفاقيَّات رُودُس)، أصبحت (إسرائيل) تملك **21** ألف كـم مُربَّع من مساحة فلسطين البالغة **27** ألف كم مُربَّـع، ولـم يبـقَ مـن فلسـطين بيـد العَـرَب إلاَّ الضّفَّـة الغربيَّة والقُدس الشّرقيَّة (القديمة)، وقد ضمَّ الملك عبد الله ملك شرق الأُردُن الضّفَّة الغربيَّـة والقُدس (الشّرقيَّة القديمة) إلى دولته، وأصبح اسمها (المملكة الأُرْدُنيَّـة الهاشـميَّة)، وكذلـك قطاع غزَّة الضَّيِّق من السّاحل الفلسطينيّ الجنوبيّ الذي بقي تحت الإدارة المصريَّة.

ولكنَّ خزينة (إسرائيل) أصبحـت فـي أواخـر عـام **1949**، خاويـة، والدّولـة علـى شـفا الإفلاس. وفي إحدى جلسـات مجلس الـوُزراء الإسـرائيليّ خـلال عـام **1950**، صـرَّح بـنْ غُوريُون رئيس الـوُزراء الإسـرائيليّ بقولـه: «إنَّ (إسـرائيل) تُواجه مُنذُ أواخـر عـام **1949**، موقفاً بالغ القسوة، وهُو يُهدِّد وُجُود الدّولة، وكُلُّ المُؤشِّرات أمامنا سلبيَّة، وقد فرضنا برامج للتَّقشُّف، ولكنْ؛ هُناك حُدُود لما يُمكن أنْ يتحمَّله الشّعب الإسرائيلي».

لقد كانت نفقات (إسرائيل) فـي السّنة الماليَّـة **1949 ـ 1950**، **263** مليـون دُولار، بينمـا دخلها كان **90** مليـون دُولار (مُعظمـها مـن تبرُّعـات يـهُود العـالم). وذلـك أنشـأ حالـة عجـز شديدة أدَّت إلى أنْ **420** ألف شخص في (إسـرائيل) يعيشـون تحت حـدِّ الفقـر، حتَّـى إنَّ بـنْ غُوريُون ردَّد كثيراً قوله في مجلـس الـوُزراء الإسـرائيلي: «إنَّ الحـرب لـم تسـتطع تركيعنـا، وأخشى أنَّ الإفلاس قد يقوم بهذه المهمَّة».

أمَّا أسباب هذه الضّائقة الماليَّة الخانقة؛ فهي:

1: كـان تسـليح الـهاجاناه (جيـش الدّفـاع الإسـرائيلي)، وتحويلـه إلـى جيـش نظـامي، وتدريب هذا الجيش، وتسليحه، قد استنزف جُزءاً كبيراً من المـوارد المُتاحـة للوكالـة اليهُوديَّـة و(إسرائيل) النّاشئة، فتكاليف السّلاح ـ وحدها ـ استنزفت أكثر من مئة مليون جُنيه استـرليني (بأسعار ذلك الوقت).

2: الهجرة اليهُوديَّة إلـى فلسـطين (إسـرائيل)، التـي زادت بعـد قيـام (إسـرائيل)، فقـد تدفَّق على (إسرائيل) مُنذُ **1948** وحتَّى **1951**، حوالـي ستُّمائة ألـف مُـهاجر يـهُودي، الأمـر

الذي ضاعف تعداد سُكَّان (إسرائيل) تقريباً. والمُشكلة أنَّ هؤلاء المُهاجرين الجُدُد كانوا من المُعدَمين الذين لا يملكون أيَّ شيء، ويطلبون من (إسرائيل) كُلَّ شيء.

3: إنَّ إقامة (إسرائيل) بوزاراتها وإداراتها الجديدة ومُوظَّفيها.. إلخ، احتاج إلى أكثر من مئة مليون جُنيه استرليني أيضاً[1].

4: إنَّ ما حقَّقَتْهُ (إسرائيل) من تثبيت كيانها في فلسطين، شدَّ أنظار الكثيرين في العالم إلى أنَّ هُناك قُوَّة يهُوديَّة في فلسطين قادرة بالسّلاح على حماية نفسها، وهذا قد يجعل الرّأي العامَّ العالمي يُدير ظهره (لإسرائيل) مُعتبراً أنَّها قادرة على الوُقُوف وحدها.

وهذه النُّقطة الرّابعة الأخيرة هي التي كانت تشغل أفكار رجال (إسرائيل) (أمثال: حاييم وايزمن رئيس (إسرائيل)، ودافيد بن غُوريُون رئيس الوزارة، ومُوسى شاريت وزير الخارجيَّة، وأليعازر كابلان وزير الماليَّة). لقد نجحت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة في استدرار عطف العالم عليها أثناء الحرب العالميَّة الثّانية وبعدها، نظراً لما لاقاه اليهُود على يد النّازيَّة الألمانيَّة من مذابح وإبادة (حسب ادِّعاءات اليهُود المُبالغ فيها)، وأنَّهم ضُعفاء بحاجة إلى المُساعدة والحماية العالميَّة، ولكنَّهم - الآن - أصبحوا أقوياء، انتصروا على جميع العَرَب، واستولوا على مُعظم فلسطين، وذبحوا واضطهدوا أُلُوف العَرَب، وطردوا ما يُقارب المليون من ديارهم وأملاكهم، وقذفوا بهم خارج فلسطين (وكانت هذه الأعمال - وخاصَّة مذبحة دير ياسين - قد أثارت غضب واشمئزاز الرّأي العامَّ العالمي).

لذلك؛ فإنَّ أيَّ طَلَب للمعونات الماليَّة على نطاق واسع للمُساعدة على الخُرُوج من الضّائقة الماليَّة الخانقة في (إسرائيل) قد يُستغَلُّ في طَلَب مُقابل تدفعه (إسرائيل)، ويتمثَّل في انسحابها من الأراضي العَرَبيَّة، والعودة إلى حُدُود التّقسيم، وعودة اللاّجئين الفلسطينيِّين العَرَب إلى وطنهم، والتّعويض عليهم (حسب قرارات هيئة الأُمم المُتَّحدة ومجلس الأمن). لذلك أحجم بنْ غُوريُون عن طَلَب المعونة من أمريكا[2]؛ لأنَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة

(1) كانت بريطانية - قبل انتهاء الانتداب - تدفع رواتب المُوظَّفين والمُعلّمين والشّرطة وحَرَس المُستعمرات. كُلُّ هذا توقَّف بعد نهاية الانتداب، وأصبح على (إسرائيل) أنْ تقوم بهذه المهمَّة، بالإضافة إلى الوزارات والسِّفارات الجديدة.

(2) أمريكا هي الدّولة الوحيدة القادرة على تقديم العون؛ لأنَّ بريطانيا خارجة من الحرب العالميَّة الثّانية مُنهَكَة ومُدمَّرة، وهي نفسها بحاجة للمُساعدة، وكذلك فرنسا.

كان لها رأيها بالحُدُود والقُدس واللاَّجئين، وذلك لاسترضاء أصدقائها العَرَب في المنطقة، الذين أصبحت لها مصالح هامَّة فوق أرضهم، وخاصَّة تدفُّق الرّساميل الأمريكيَّة لاستثمار البترول العَرَبيّ، واستحواذه.

لم تكن هُمُوم بنْ غُوريُون رئيس وُزراء (إسرائيل) ـ في تلك الفترة ـ حكْراً عليه، وإنَّما كانت شراكة بينه وبين الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، والتي كانت رئاستها في ذلك الوقت قد آلت إلى "ناحوم غُولدمان" وهُو يهُوديّ من ليتوانيا (على بحر البلطيق، وكانت تابعة للاتِّحاد السُّوفياتي)، وقد هاجر إلى ألمانيا، ومع صعُود هتْلر إلى الحُكْم في ألمانيا؛ هرب إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

كان ناحوم غُولدمان على صلة وثيقة بالأوضاع في (إسرائيل)، وقد ألحَّت عليه احتياجات الدّولة اليهُوديَّة؛ وخاصَّة عندما أبرق إليه وزير ماليَّة (إسرائيل) "أليعازر كابلان" يسأله ـ بل يستجديه ـ بقوله: هل تستطيع أنْ تُدبِّر للدّولة مائة ألف دُولار على عجل، ممَّا أَرْعَبَ غُولدمان الذي أدرك مدى الأزمة الماليَّة التي تُمسك بخناق (إسرائيل).

كان ناحوم غُولدمان في ذلك الوقت يزور ألمانيا لحُضُور مُحاكمات نُورنبرغ لزُعماء النّازيَّة في ألمانيا. وهُنا؛ قَدَحَ له فكْره الابتزازي فكْرة الطَّلَب من ألمانيا التّعويض عمَّا حَدَثَ لليهُود فيها.

أسرع ناحوم غُولدمان بالاتِّصال بأديناور مُستشار ألمانيا الاتِّحاديَّة الغربيَّة، ومهَّد لهذا الاتِّصال، ثُمَّ اللّقاء، الأعضاءُ اليهُود الذين انتُخبوا في مجلس "اليُونُوستاد" (أيْ البرلمان الألماني)، وعلى رأسهم الدُّكتُور "نواه بارو".

طَلَبَ غُولدمان من أديناور تعويضات تُقدَّم (لإسرائيل) (مُمثِّلة الشّعب اليهُودي) عن الأرواح اليهُوديَّة التي أزهقَتْهَا النّازيَّة، وعن الأموال والمُمتلكات اليهُوديَّة التي استولت عليها ألمانيا، وتقديم المُساعدات لتوطين المُهاجرين اليهُود إلى (إسرائيل)، فمُعظمهم قادم من أُورُوبا الوُسْطَى والشَّرقيَّة، وقد بيَّن له مسؤوليَّة الشّعب الألماني عن هذه المذابح والمُمتلكات اليهُوديَّة.

وأخيراً؛ وافق أديناور على كُلّ ذلك، وكانت النّتيجة تقديم ستِّين ألف مليون دُولار (لإسرائيل) (60 مليار دُولار) في مدى عشر سنوات، ومبلغ ألف وخمسمائة مليون دُولار (مليار ونصف دولار) تُقدَّم فوراً.

وكان سبب مُوافقة ألمانيا على تقديم هذه المُبالغ الضّخمة الخياليّة (لإسرائيل) هُو استغلال الحَرَكَة الصّهيُونيَّة للشُّعُور بالذّنب الذي استحوذ على الزُّعماء الألمان الجُدُد بعد الحرب العالميَّة الثّانية، بالإضافة إلى الخوف من النُّفُوذ اليهُوديّ في الولايات المُتَّحدة الذي يُمكن أنْ يُوقف أو يُعرقل المُساعدات الأمريكيَّة (حسب مشروع مارشال) لإنعاش الاقتصاد الألماني الذي دمَّرتْهُ الحرب[1].

وهكذا؛ أنقذت التّعويضات الألمانيَّة الحُكُومة الإسرائيليَّة من الإفلاس والانهيار، وقدَّمتْ لها ما يلزمها من الأموال للوُقُوف على قدَمَيْهَا، وبناء اقتصادها. الحقيقة أنَّ دور ألمانيا كان هاماً جداً في نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة وبقاء (إسرائيل) واستمراريَّتها ثُمَّ قوتها. لقد كانت التّعويضات الألمانيَّة التّرياق الذي يقدم لمريض على شفا الموت فيهب له الحياة والصّحة ويُنقذه من مصير محتوم وهُو الموت[2].

د: دور فرنسا:

كانت فرنسا تستعمر أجزاء واسعة من الوطن العَرَبي، مثل المغرب العَرَبي: الجزائر وتُونُس ومراكش ومُوريتانيا، وكانت حصَّتها من الصُّومال "جيبوتي" الواقعة على مدخل البحر الأحمر الجنوبيّ. وبعد الحرب العالميَّة الأُولى؛ كانت حصَّة فرنسا من تركة الدّولة العُثمانيَّة: سُوريا ولُبنان، وكان الاستعمار الفرنسي يتَّصف بالقسوة والقَمْع. وكانت فرنسا مكروهة من العَرَب كُرهاً شديداً؛ نتيجة لاحتلالها هذه الأقطار من بلاد العَرَب بالقَهْر والغَلَبَة، بالإضافة إلى قَمْعها القاسي للثّورات العَرَبيَّة التي قامت تُطالب بالحُرِّيَّة والاستقلال.

وكانت الجزائر أقدم مُستعمرات فرنسا في الوطن العَرَبيّ، فقد احتلَّتهَا عام 1830، وكانت أهمَّ مُستعمرات فرنسا في العالم، نَظَرَاً لقُربها من فرنسا، فقد كانت تُسمِّيها "فرنسا وراء البحار"، وقد جَعَلَتْهَا مُستعمرة استيطانيَّة، وشجَّعت استيطان الفرنسيِّيْن فيها، وقد

---

(1) للتَّوسُّع في موضوع هذه التَّعويضات؛ يُراجَع الكتاب المُهمُّ جداً جداً (كيف صَنَعَ اليهُود الهولُوكُوست؟) لمُؤلِّفه اليهُودي الذي كان والداه في المُعتقل الألماني نُورمان فنكلشتاين، ترجمة د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2003.

(2) المصدر لدور ألمانيا هُو الكتاب الثّاني في موضوع الاتِّصالات السِّرِّيَّة بين العَرَب و(إسرائيل) للأُستاذ مُحَمَّد حسنين هيكل، المنشور على شكل مُسلسل في جريدة تشرين السُّوريَّة، العدد 6499، الاثنَيْن في 15/ 5/ 1996، الصّفحة السّابعة.

استوطنها حوالي مليونَيْن من الفرنسيِّيْن، استغلُّوا خيراتـها، وامتلكوا أجـود أراضيـها، وزاد من أهميَّتها غنى الجزائر بثرواتها الزّراعيَّة، وكثرة ثرواتـها المعدنيَّـة؛ وخاصَّـة البـترول والغـاز والحديد والفُوسفات . . إلخ، وأخيراً؛ اتِّساع مسـاحتها (أكثر مـن مليونَـيْ كيلومـتر مُربَّـع)، وامتلاكها حوالي ثُلث الصّحراء الكُبرى الأفريقيَّة.

كُلُّ هذا جَعَلَ فرنسا تتمسَّك بالجزائر تمسُّكاً شديداً، وترفض أيَّ نوع من الاستقلال لها.

وَجَدَ الشّعب الجزائري أنَّ النّضال والكفاح السِّياسي لا يُجدي نَفْعَاً أمـام تصلُّـب فرنسـا وتمسُّكها ببلاده، فأعلن ثورته الكُبرى عام 1954.

حاولت فرنسا القضاء على الثّورة الجزائريَّة، فأرسلت أكثر مـن نصـف مليـون جُنـدي، بالإضافة إلى ميليشيات المُستوطنين الفرنسـيِّيْن، واسـتخدمت جميـع أنـواع الأسـلحة الفتَّاكـة والقَمْع الرّهيب، ولكنَّ الثّورة الجزائريَّة صَمَدَتْ أمام كُـلِّ أعمـال فرنسـا الوحشيَّة، وقدَّمـتْ أكثر من مليون شهيد، حتَّى نالت استقلالها عام 1961، بعد سبع سنوات من الجهاد والكفاح والتّضحيـات التـي أدهشـت العـالم، وَجَعَلَتْـهُ يقـف موقـف الإكبـار والاحـترام مـن الشّـعب الجزائري العَرَبيّ العظيم.

وتعـود أسـباب نجـاح الثّـورة الجزائريَّـة إلـى صُمُـود الشّـعب الجزائـري، كمـا أسـلفنا، بالإضافة إلى الدَّعْم العَرَبيّ من جميع الأقطار العَرَبيَّة الأُخرى، وإمداد الثّورة الجزائريَّة بالمـال والسّلاح والرّجال، ودَعْمها في المحافل الدّوليَّة وهيئة الأُمم المُتَّحدة.

كُلُّ هذا جَعَلَ عداء فرنسا للعَرَب، ونقمتها عليهم شديدة جداً، وكـانت علـى اسـتعداد للتّعاون مع أعدائهم، وباعتبار عدوّ العَرَب رَقْم واحـد هُـو (إسـرائيل) والصّهيُونيَّـة العالميَّـة، لذلك سُرعان ما التقتْ مصالح فرنسا والصّهيُونيَّة في عدائهما الشّديد للعَرَب.

كانت (إسرائيل) بحاجة ماسَّة للسّلاح ليُـوازن السّـلاح السُّـوفياتي، الـذي أخـذ يتدفَّـق على الأقطار العَرَبيَّة بعد 1955، عندمـا كسـر جمـال عبـد النّـاصر احتكـار السّـلاح، وبعدمـا أدرك الاتِّحـاد السُّـوفياتي أنَّ (إسـرائيل) لـن تكـون إلاَّ مخلـب الاسـتعمار والإمبرياليَّـة وقاعدتهما في الشّرق الأوسط.

كان بإمكان اليهُود أنْ يطلبوا السّلاح من الولايات المُتّحدة الأمريكيَّة، والتي لن تبخل عليهم به، ولكنَّها قد تطلب منهم بعض التّنازلات البسيطة للعَرَب مُقابل ذلك، وهُم على غير استعداد لذلك (كما هُو الحال عندما احتاجوا للمال، ولم يطلبوه من أمريكا خوفاً من أنْ يكون مشروطاً).

انتهز اليهُود فُرصة العداء المُستحكم بين العَرَب وفرنسا (وهُم أقدر النّاس على انتهاز الفُرص واستغلال الظُّرُوف)، وتقرَّبوا من فرنسا، وتعاونوا معها، وكانت نتيجة هذا التّعاون والتّقارب تدفُّق السّلاح الفرنسي على (إسرائيل) بالكمِّيَّات والنَّوعيَّات المطلوبة؛ وخاصَّة السّلاح الجوِّي والبَحْري.

غضَّت الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الطَّرْفَ عن تدفُّق السّلاح الفرنسي على (إسرائيل)، وشَجَّعَتْهُ خفية؛ لأنَّ تزويد (إسرائيل) بالسّلاح الأمريكي قد يُثير قَلَقَ العَرَب وسخطهم عليها، (ولو على المُستوى الشّعبي)، كما باركت - من قبلُ - سَيْلَ التّعويضات الألمانيَّة على (إسرائيل).

وقد حاربت (إسرائيلُ) العَرَبَ في نكسة 5 حُزيران 1967، بالسّلاح الفرنسي، وانتصرت عليهم، واحتلَّت سيناءَ، والأجزاء المُتبقِّية من فلسطين (الضّفّة الغربيَّة وقطاع غزَّة)، بالإضافة إلى الجولان[1].

وهكذا استغلّت الحَرَكَةُ الصّهيُونيَّةُ و(إسرائيل) العداءَ المُستحكم بين فرنسا والعَرَب، ولعبتْ فرنسا دوراً هاماً في نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة في بناء قُوَّة (إسرائيل) العسكريَّة.

وممَّا يجدر ذكْره في هذا السّياق اشتراك فرنسا مع بريطانيا والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة في إصدار البيان الثُّلاثي المشهور في 15 أيَّار 1950، بعد توقيع اتِّفاقيَّات الهُدنة بين العَرَب

---

(1) كان السّلاح السُّوفياتي الموجود لدى العَرَب يُوازن السّلاح الفرنسي لدى (إسرائيل)، ولكنْ؛ كان استيعاب اليهُود للسّلاح الفرنسي أكثر من استيعاب العَرَب للسّلاح السُّوفياتي، وذلك بالتّدريب المُستمرّ والانضباط الشّديد. بينما عدم الاستقرار الدّاخلي لم يُمكِّن العَرَب من استيعاب السّلاح السُّوفياتي، بالإضافة إلى أنَّ زمام المُبادرة وتعيين ساعة الصّفر المُناسبة كان بين اليهُود دائماً. ولكنْ؛ في حرب تشرين التّحريريَّة عام 1973، كانت سُوريَّة ومصر قد استطاعتا استيعاب السّلاح السُّوفياتي بالتّدريب القاسي والتّصميم القاطع على استعادة حُقُوقهما، بالإضافة إلى انتزاع زمام المُبادرة من (إسرائيل)، وتعيينها ساعة الصّفر المدرُوسة، والقيام بالمُباغتة، قد حَقَّقَتَا انتصاراً رائعاً على (إسرائيل)، أعاد للعَرَب كبرياءهم، وللجُندي العَرَبيّ كرامته، وقضتا على أُسطُورة الجُندي الإسرائيليّ الذي لا يُغلَب.

و(إسرائيل) لدَعْم (إسرائيل)، والحفاظ على خُطُوط الهُدنة، وقد جاء فيه: «إذا تبيَّنت الحُكُومات الثّلاث أنَّ أيَّ دولة عَرَبيَّة تستعدُّ لانتهاك حُرمة خُطُوط الهُدنة، فإنَّها لن تتردَّد في التَّدخُّل باسم هيئة الأُمم المُتَّحدة، وخارج نطاقها».

ولكنَّ فرنسا ـ بعد نجاح الثّورة الجزائريَّة واستقلال الجزائر ـ غيَّرت مواقفها من العَرَب، وأخذت تقترب منهم، وتقف مع حقِّهم، ولا تزال كذلك (ومواقف جاك شيراك رئيس جُمهُوريَّة فرنسا ـ الآن ـ المُؤيِّدة لتطبيق قرارات هيئة الأُمم المُتَّحدة، ومبدأ السّلام مُقابل الأرض دليل على هذا التّغيير الجَذْري في موقف فرنسا من العَرَب).

وإنِّي أذكر أنَّه في حرب تشرين التّحريريَّة عام 1973، عندما فاجأت الجُيُوشُ العَرَبيَّةُ السُّوريَّةُ والمصريَّةُ (إسرائيل) بهُجُومها النّاجح، قابل سفير (إسرائيل) في فرنسا وزير خارجيَّتها يشكو إليه العُدوان العَرَبيّ على (إسرائيل)، طالباً مُساعدة فرنسا، أجابه رئيس الدِّبلُوماسيَّة الفرنسيَّة (آنذاك) بقوله البليغ الحاسم: «إنَّ مَنْ يضع قَدَمَهُ في بيته ليس مُعتدياً» يعني أنَّ أرض الجولان وسيناء هي أرض عَرَبيَّة مُغْتَصَبَة، والعَرَب يُريدون استردادها.

هـ: دور الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة:

إنَّ دور أمريكا في نجاح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة وقيام (إسرائيل) غنيٌّ عن البيان، فالكُلُّ يعرف دورها الرّئيسي في هذا الشّأن، ولكنْ؛ في رأيي أنَّ هذا الدّور مرَّ بمرحلتَيْن هُما:

المرحلة الأُولى:

تبدأ من سنة 1942، عندما أخذت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة تنقل مركز ثقلها من بريطانيا إلى الولايات المُتَّحدة؛ لأنَّها أدركت أنَّ بريطانيا ستخرج من الحرب العالميَّة الأُولى ضعيفة لا حول لها، ولا قُوَّة، وأنَّ القُوَّة الرّئيسيَّة في العالم ستكون هي أمريكا. وتنتهي هذه المرحلة بعد نكسة 5 حُزيران 1967.

في هذه المرحلة كانت أمريكا تُؤيِّد الصّهيُونيَّة بشكل قوي، ولكنْ؛ في تستُّر، وعلى استحياء من العَرَب، فقد كانت تحسب حساباً لغضبهم، لا سيَّما وأنَّها تدخل المنطقة العَرَبيَّة بعد الحرب العالميَّة الثّانية وريثة للنُّفُوذ البريطانيّ والفرنسي الممقوت والمُتراجع، ولا تُريد أنْ

تُظهر تأييدها السّافر للصّهيُونيَّة و(إسرائيل)، ولكنَّها كانت تُؤيِّد وتدفع مَنْ يقوم بذلك نيابة عنها (كالدَّعْم المالي من ألمانيا، والدَّعْم العسكري من فرنسا)، وذلك لتُبقي شيئاً من صُورتها الجميلة في نَظَر العَرَب بعد الحرب العالميَّة الأُولى، حين أعلن ولسون رئيس جُمهُوريَّة أمريكا مبادئه الإنسانيَّة، وعلى رأسها حقُّ الشُّعُوب بتقرير مصيرها.

المرحلة الثّانية:

بعد نكسة حُزيران 1967، كَشَفَتْ أمريكا عن وجهها الحقيقي في الوُقُوف مع (إسرائيل)، فقد تأكَّدت أنَّ (إسرائيل) هي قلعة الغرب عامَّة، وأمريكا خاصَّة في الشّرق الأوسط. وقد لعب النُّفُوذ الصّهيُونيّ والدّعاية الصّهيُونيَّة دوراً هاماً في تلقين سَاسَة أمريكا وقادتها هذا المبدأ.

وبعد حرب تشرين التّحريريَّة أصبحت المواقف الأمريكيَّة واضحة كُلَّ الوُضُوح في الوُقُوف مع (إسرائيل)، وحمايتها، ورعايتها، فَقَادَتُهَا وسَاسَتُهَا لا يفتؤون يُردِّدون ويُكرِّرون في كُلِّ مُناسبة أنَّ أمريكا مُلتزمة بأمن (إسرائيل) وسلامتها.[1]

لقد وَصَلَ النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة حدّاً أصبحت فيه زعامتها حبيسة هذا النُّفُوذ، لا تستطيع اختراقه، أو الخُرُوج عليه، وأصبح اللُّوبي الصّهيُونيّ[2] فيه من القُوَّة والنُّفُوذ؛ بحيثُ لا يستطيع أيُّ سياسي أمريكي (مهما كان اتِّجاهه) الوُقُوف في وجهه، والويل، ثُمَّ الويل لِمَنْ يتجرأ على الخُرُوج من قبضة اللُّوبي الصّهيُونيّ، والعمل ضدَّ مصالح الصّهيُونيَّة و(إسرائيل)، فالفضائح ستنهال عليه، وتُحيط به من كُلِّ جانب حتَّى يرضخ لمشيئة الصّهيُونيَّة، أو ينسحب من الحياة السِّياسيَّة الأمريكيَّة (وسنتحدَّث بالتّفصيل عن النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، والعلاقة الحميمة بين (إسرائيل) والولايات المُتَّحدة في الفصل السّادس من القسم الثّالث من هذا الكتاب).

---

(1) الآن؛ أصبحت أمريكا لا تُعير أيَّ اهتمام لغَضَب العَرَب أو قلقهم، وترمي بكُلِّ ثقلها السِّياسي والعسكري والاقتصادي مع (إسرائيل)، مُتحدِّية كُلَّ المشاعر العَرَبيَّة على المُستويَيْن الحُكُومي والشّعبي العَرَبيَّيْن.

(2) لا يُوجد في الولايات المُتَّحدة لُوبيٌّ صهيُوني واحد، وإنَّما هُناك لُوبي في الكُونغرس الأمريكي، وآخر في القصر الأبيض (مقرّ رئاسة الجُمهُوريَّة)، وآخر في وزارة الدّفاع، ورابع في وزارة الخارجيَّة والأمن القومي، إلخ؛ بحيثُ يُمكِّن اليهُود والصّهيُونيَّة من السّيطرة ومُراقبة كُلّ مراكز القُوَّة وأصحاب القرار في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

الخُلاصة:

والخُلاصة أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة التي قاومتها قطاعات مُختلفة من اليهُود المُتدينِّين والاندماجيِّيْن واليساريِّيْن، استطاعت أنْ تُحقِّق أهدافها، وتصل إلى غاياتها في بناء الوطن القوميّ اليهُوديّ الصّهيُونيّ، وإقامة (إسرائيل) في قَلْب الوطن العَرَبيّ فلسطين باستغلال الظُّرُوف الدّوليَّة وانتهاز الفُرص المُناسبة:

فَسَخَّرَتْ بريطانيا في إنشاء الوطن القوميّ الصّهيُونيّ في فلسطين حتَّى إعلان قيام (إسرائيل) في 15 أيَّار 1948.

وَسَخَّرَتْ الاتِّحاد السُّوفياتي بعد قيام (إسرائيل) مُباشرة بتسليحها بالسّلاح التّشيكي أملاً من الاتِّحاد السُّوفياتي بأنْ تكون (إسرائيل) أوَّل دولة يساريَّة في الشّرق الأوسط.

وَسَخَّرَتْ ألمانيا الغربيَّة لتمويل بناء (إسرائيل) النّاشئة، وإنقاذها من الإفلاس المُحقَّق والانهيار الاقتصادي، فَتَدفَّقَتْ عليها التّعويضات الألمانيَّة الهائلة، والتي بلغت مليارات الدُّولارات.

وَسَخَّرَتْ فرنسا لتسليح (إسرائيل) لتستطيع الوُقُوف في وجه القُوَّة العسكريَّة العَرَبيَّة المُتنامية انتقاماً من العَرَب الذين وقفوا مع الثّورة الجزائريَّة.

وَسَخَّرَتْ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لرعايتها مُنذُ البداية، ولحماية أمنها وسلامتها، والتي أغدقت عليها المُساعدات الاقتصاديَّة، وَزَوَّدَتْهَا بأحدث ما في التّرسانة الأمريكيَّة من الأسلحة، ولا تفتأ أمريكا - في كُلِّ مُناسبة - أنْ تُعلن عن التزامها بأمن (إسرائيل)، وحمايتها على لسان قادتها وساستها، حتَّى أصبحت مصالح (إسرائيل) في المنطقة العَرَبيَّة مُقدَّمة على مصالح أمريكا نفسها.

المسألة اليهُوديَّة في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة:

بعد أنْ تحدَّثنا عن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والصّهيُونيَّة المسيحيَّة؛ علينا أنْ نتحدَّث بشيء من الإسهاب عن اليهُود في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة قبل الانتقال إلى الحديث عن الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين ومراحله في الفصل التّالي.

الحقيقة أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة قامت من أجل إيجاد الحلِّ الدّائم للمسألة اليهُوديَّة في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة؛ حيثُ كان الاضطهاد والمذابح تُمارس ضدَّ اليهُود في هذه المناطق. واليهُود الشّرقيُّون هؤلاء يُشكِّلون الاحتياطي اليهُوديّ الكبير في العالم، والذي استخدمَتْهُ الصّهيُونيَّة في الوُصُول إلى أهدافها في إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، وهُم الذين حقَّقوا للحَرَكَة الصّهيُونيَّة قُوَّتها وعُنفوانها فيما بعد، فاليهُود في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة كانوا يُشكِّلون حوالي ثُلُثَيْ يهُود العالم في عام 1880م.

وهكذا؛ فالمسألة اليهُوديَّة هي مُشكلة يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا بالحَصْر. فاليهُود في بريطانيا كانوا هُم السّادة - كما رأينا سابقاً - والنُّفُوذ اليهُوديّ في بريطانيا لا يرقى إليه أيُّ نُفُوذ لليهُود في العالم (قبل قيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة[1] وحتَّى الحرب العالميَّة الثّانية) حتَّى قيل: إنَّ بريطانيا دولة يهُوديَّة (كما أسلفنا).

وكذلك حال اليهُود في فرنسا، فبعد الثّورة الفرنسيَّة عام 1789م، والتي نادت بالحُرِّيَّة والمُساواة والعدالة لجميع مُواطنيها، وَسَعَتْ إلى تطبيق المُثُل الدِّيمُقراطيَّة، أصبحت أوضاع اليهُود فيها مُمتازة، لا سيَّما وأنَّ اليهُود دعموا الثّورة الفرنسيَّة بكُلِّ قواهم، وكانوا مُقرَّبين من رجالها. وسنرى أنَّ فرنسا كانت مُنذُ بداية القرن التّاسع عشر تدرس إمكانيَّة إقامة كيان يهُوديّ في فلسطين، وعندما غزا نابليون مصر عام 1798، ثُمَّ بلاد الشّام 1799، قام بنَشْر نداء لليهُود في العالم للعودة إلى فلسطين، وإقامة دولة لهم فيها؛ لتكون هذه الدّولة في خدمة المصالح الفرنسيَّة في المشرق، ولكنَّ حملة نابليون فشلت وعادت إلى فرنسا دُون أنْ تُحقِّق أهدافها، ونبَّهت بريطانيا إلى أهمِّيَّة مصر وبلاد الشّام لوُقُوعهما على طريق الهند، وضرورة إنشاء كيان يهُوديّ في فلسطين يكون حارساً لمصالح بريطانيا في الشّرق.

وللدّلالة على نُفُوذ اليهُود في فرنسا نذكر أنَّ فرنسا مَنَحَتْ يهُود الجزائر عام 1870، الجنسيَّة الفرنسيَّة، وأعطتْهُم نَفْسَ المزايا والحُقُوق الممنوحة للمُستوطنين الفرنسيِّين في الجزائر، وذلك بقرار "كريميو" (وكريميو مُحام يهُوديّ فرنسي حصل على هذا القرار من فرنسا، وسُمِّي باسمه).

---

(1) أصبح النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة الآن ومُنذُ نهاية الحرب العالميَّة الثّانية يتفوق على النُّفُوذ الصّهيُونيّ في بريطانيا.

ولم يكن حال اليهُود في الإمبراطُوريَّة النّمساويَّة وألمانيا سيِّئاً أيضاً. والحقيقة أنَّ اليهُود الاندماجيُّون كانوا من يهُود أُورُوبا الغربيَّة، وكانت البُورجوازيَّة اليهُوديَّة في غرب أُورُوبا شريكة للبُورجوازيَّة الوطنيَّة فيها، وكان التّعاون والتّرابط بينهما وثيقاً وقويّاً. ويهُود أُورُوبا الغربيَّة هُم الذين موَّلوا استيطان يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة في فلسطين، مع العلم أنَّ هجرة يهُود أُورُوبا الغربيَّة إلى فلسطين كانت (ولا تزال) نادرة جدّاً.

ويُحَدِّثنا الدُّكتُور أمين محمود عن اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة القَيْصَريَّة وعن المسألة اليهُوديَّة فيها، فيقول[1]: كانت رُوسيا القَيْصَريَّة في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر تضمُّ أكبر نسبة من يهُود العالم، فقد بلغ عدد اليهُود فيها عام **1880**، حوالي أربعة ملايين ورُبع المليون من أصل سبعة ملايين ورُبع المليون عدد اليهُود في العالم. وكانت غالبيَّة اليهُود الرُّوس مُتمركزة في المناطق الغربيَّة والجنوبيَّة الغربيَّة من رُوسيا. وقد شهدت الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة في نهاية القرن الثّامن عشر زيادة كبيرة في عدد اليهُود فيها، وذلك بعد حُصُول رُوسيا على أُوكرانيا ورُوسيا البيضاء ودُول البلطيق (ليتوانيا، إستونيا، لاتفيا) وضمَّ مُعظم بُولندا (بُولُونيا) لها، وكانت هذه المناطق تضمُّ حوالي **4، 1** مليون يهُودي. وبذلك أصبح عدد اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة حوالي **65، 5** مليون يهُوديّ من أصل **25، 7** مليون عددهم في العالم، وهكذا أصبحت رُوسيا تضمُّ أكثر من ثُلُثَيْ يهُود العالم[2].

أمَّا أوضاع اليهُود الاقتصاديَّة في رُوسيا والمناطق التّابعة لها؛ فقد تميَّزت حتَّى مُنتصف القرن التّاسع عشر بأنَّه يغلب عليها العمل التّجاري البسيط (المركنتلي) (**Mercantile**) والحرفي الصّغير الذي كان قائماً في فترة ما قبل الثّورة الصّناعيَّة وقيام الرّأسماليَّة. وقد كان اليهُود في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة يحتكرون التّجارة والرِّبا، ويقومون بدور الوسيط بين الإقطاعيِّين الرُّوس والبُولُونيِّين وبين الفلاَّحين، وكانوا يستأجرون المزارع والحانات والمطاعم

(1) المصدر: كتاب د. أمين محمود "مشاريع الاستيطان اليهُوديّ مُنذُ الثّورة الفرنسيَّة حتَّى نهاية الحرب العالميَّة الأُولى"، سلسلة عالم المعرفة، عدد 74 شُباط 1984، من ص 97 ـ 103، باختصار.

(2) يعود هذا العدد الضّخم من اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة إلى يهُود الخَزَر الذين انتشروا في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة بعد دمار دولتهم، بالإضافة إلى هجرة بعض اليهُود من أُورُوبا الوُسْطَى؛ وخاصَّة من ألمانيا والنّمسا شرقاً؛ ليكونوا في خدمة الإقطاعيِّين الرُّوس (كما سنرى).

والفنادق، ويتولّون إدارتها، بالإضافة إلى إدارة دُور البغاء وتجارة الرّقيق الأبيض؛ وخاصّة النّسائي منه "الجواري".

أمّا من حيثُ السَّكَن، فكانوا يُقيمون في تجمُّعات استيطانيَّة تُقام - عادةً - خارج حُدُود المُدُن والقُرى في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيّ؛ أيْ في ضواحي المُدُن. وكان يُختار لكُلِّ مُستوطنة يهُوديَّة موقع استراتيجي يُوفِّر للمُستوطنين أمرَيْن هامَّيْن؛ هُما (وكان يُطلق عليها تحوم هموشاف):

1: تأمين وُصُول المُستوطنين اليهُود إلى الأماكن المأهولة بالسُّكَّان للقيام بأعمالهم فيها بيُسر وسُهُولة.

2: أنْ يُوفِّر لهم العُزلة، وعدم الاختلاط بجيرانهم الأغيار (من رُوس وبُولُونيِّيْن وغيرهم). وكان لكُلِّ مُستوطنة مجلس إداريّ خاصّ يتولّى تسيير أُمُورها الدّاخليَّة، وتنظيم علاقتها مع المُستوطنات اليهُوديَّة الأُخرى، بالإضافة إلى تنظيم علاقتها مع الأغيار.

وقد أُطلق على هذا النّظام الإداري اسم "كهال أو قهال **Kahal**". ويُلاحظ أنَّ نظام المُستوطنات هذا لم يكن معروفاً في أُورُوبا الغربيَّة على هذا النّحو، فقد كان اليهُود يُقيمون في مُدُن أُورُوبا الغربيَّة ضمن حُدُود كُلِّ مدينة، ولكنْ؛ في حيٍّ خاصٍّ بهم اصطُلح على تسميته بـ "الجيتو أو الغيتو **Ghetto**"، أو كما عُرف في المُدُن الألمانيَّة باسم "حي أو حارة اليهُود"، (وهكذا كان يُطلق على أحيائهم في مُدُن الوطن العَرَبيّ اسم حارة اليهُود).

لكنَّ أوضاع اليهُود الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة سُرعان ما بدأت تتعرَّض لهزَّات عنيفة في أعقاب التّطوُّرات الجديدة التي شهدتْهَا رُوسيا (وأُورُوبا الشّرقيَّة) في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، فقد أخذت الطّبقة الوُسْطَى الرُّوسيَّة بالظُّهُور لأوّل مرَّة على مسرح الأحداث في أعقاب إلغاء القنانة الرُّوسيَّة عام **1861**م (الأقنان عبيد الأرض)[1]. وأخذت هذه الطّبقة تُنافس التُّجَّار اليهُود، وتُضيِّق سُبُل العيش على الحرَفيِّيْن اليهُود - أيضاً - الذين لم يتمكَّنوا من مُنافسة عمليَّة التّصنيع الآليَّة الحديثة.

---

(1) الأقنان: هُم عبيد الأرض في النّظام الإقطاعي (وهُم الفلاّحون)، تحرَّروا بعد الثّورة الصّناعيَّة، وانتهاء نظام الإقطاع.

وممَّا قوَّى شوكة الطَّبقة الرُّوسيَّة الوُسْطَى النَّاشئة تدفُّق رُؤُوس الأموال الأُورُوبيَّة الغربيَّة على رُوسيا ؛ بحيثُ فتحت آفاق استثمار صناعي واسع ، أدَّى في النّهاية إلى اندثار ثلاثة أبواب عمل كان يهُود رُوسيا يعتمدون عليها في معيشتهم ؛ وهي : الحرَف اليدويَّة الصّغيرة ، التّجارة الصّغيرة المحدودة ، وعمليَّات الرِّبا .

وقد عبَّر أحد كبار دارسي النّظام الرّأسمالي وهُو فيرنر زُومبارت Sombart F. مُشخِّصاً هذه الظّاهرة بقوله : « يعود بُؤس اليهُود في رُوسيا إلى فترة إلغاء القنانة والنّظام الإقطاعي . لقد وَجَدَ اليهُودُ في النّظام الإقطاعي فُرصاً واسعة للاستمرار كتُجَّار ووُسطاء طوال فترة وُجُود ذلك النّظام والقنانة » .

وهكذا ؛ وَجَدَ غالبيَّة اليهُود في الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة أنفسهم إزاء تحدٍّ اقتصاديٍّ كبير يقتلعهم من مواقعهم التّجاريَّة والحرَفيَّة والتّقليديَّة ، وتعاطيهم الرِّبا ، ويُضطرُّهم إلى هَجْر مُستوطناتهم ، والتَّدفُّق في هجرات واسعة بادئ الأمر صوب المُدُن الرُّوسيَّة التي أخذت تنمو بسُرعة ، وتنتشر فيها الورش والصّناعات الثّقيلة ، غير أنَّه لم يكن بمقدور الحرَفي اليهُوديّ في المدينة الرُّوسيَّة النّامية الصُّمُود أمام هجرة الفلاَّحين الرُّوس الوافدة من الرِّيف في أعقاب تحرُّرهم من القنانة والسُّلطة الإقطاعيَّة . لقد كان بوُسع هؤلاء الفلاَّحين ـ الذين اعتادوا مُنذُ زمن بعيد على المُستوى المعيشي المُنخفض والعمل الجسدي الشّاقّ ـ أنْ يتحوَّلوا إلى طبقة عاملة تتحمَّل صُعُوبة الحياة وشظفها . أمَّا الحرَفي اليهُوديّ ؛ ففي الوقت الذي لم يكن بمقدوره مُنافسة المصانع الضّخمة نجده يُواجه صُعُوبة كبيرة في التَّحوُّل إلى صُفُوف الطّبقة العاملة ، ممَّا اضطُرَّه للتّفكير ثانية بالهجرة ، ولكنَّه بدل أنْ يلجأ هذه المرَّة إلى مناطق أُخرى داخل رُوسيا أخذ يستعدُّ ويُحاول الهجرة إلى الخارج ، ولم يجد أمامه إلاَّ الهجرة إلى دُول أُورُوبا الغربيَّة التي كانت قد قَطَعَتْ شوطاً واسعاً في التَّطوُّر الرّأسمالي ، وتجاوزت المراحل المُبكِّرة التي يشتدُّ فيها ـ عادةً التّنافس بين الحرَفيِّين اليهُود وأفراد الطّبقة الوُسْطَى الصّاعدة . وقد كانت أمريكا الشّماليَّة مكاناً آخر استقطب اهتمام الكثير من اليهُود للهجرة والاستيطان فيه . فالظُّرُوف الاقتصاديَّة في أمريكا في أواخر القرن التّاسع عشر كانت تتحسَّن بصُورة مُطَّردة ، وشكَّلت الإمكانيَّات المعيشيَّة الواسعة فيها حافزاً كبيراً لليهُود الرُّوس ويهُود أُورُوبا الشّرقيَّة كي يُهاجروا إليها ،

ويستوطنوا فيها. وتُشير المصادر المُتعلِّقة بهجرة يهُود رُوسيا إلى أمريكا، أنَّ عدد المُهاجرين منهم بين عامَيْ 1880 - 1912، بلغ حوالي مليونَيْ شخص (ولم تتوقَّف هذه الهجرة حتَّى يومنا هذا، وخاصَّة بعد انهيار الاتِّحاد السُّوفياتي والسّماح لليهُود بالهجرة منه)[1].

ولعلَّه من المُناسب في هذا المجال التَّوقُّف هُنا لتفسير ظاهرة المُعاناة والاضطهاد التي تعرَّض لها أغلبيَّة اليهُود في رُوسيا خلال القرن التّاسع عشر. إنَّ السُّلُوك اليهُوديّ وارتباطه بخدمة الإقطاعي الرُّوسيّ في استغلاله للجماهير الفلاَّحيَّة من الشّعب الرُّوسيّ والبُولُوني وغيره من شُعُوب أُورُوبا الشّرقيَّة، لم يُؤدِّ - فقط - إلى كراهيَّة الفلاَّحين للإقطاعيِّين وحدهم، وإنَّما تجاوزه ليشمل على نحو أشدّ كراهيَّتهم لليهُوديّ الذي كان يقوم بدور الوسيط في عمليَّة الاستغلال بين الفلاَّح والإقطاعي.

وممَّا زاد في هذه الكراهية العُزلة التي التزمها اليهُود بعدم اختلاطهم بغيرهم من سُكَّان البلاد، ممَّا أدَّى إلى بقائهم في نَظَر هؤلاء عُنصُراً غريباً ينتفع بخيراتهم، ويُزاحمهم في أرزاقهم. وقد انتهزت الطّبقةُ الوُسْطى الرُّوسيَّةُ الفُرصةَ، فأخذت تُنظِّم حَركَة مُناهضة لليهُود كي تستفيد منها في تحويل الأنظار عن المُشكّلات والتّناقضات التي كانت تُعاني منها. وبالرّغم من أنَّ اليهُود قد تعرَّضت بعض فئاتهم من جرَّاء ذلك إلى اضطهادات مُتلاحقة عُرِفَتْ باسمها الرُّوسيّ "بُوغرُوم Pogrom"، إلاَّ أنَّ هذه الاضطهادات لم تبلغ من القسوة حدّاً لم تتعرَّض له فئات أو أقلِّيَّات رُوسيَّة أُخرى مثل: التّتار، والتُّركمان، والشّاشان، والشّركس . . إلخ، الذين تعرَّضوا للاضطهاد والقهر والإبادة أكثر من اليهُود، غير أنَّ المُعاناة

---

(1) الحقيقة أنَّ الهجرة اليهُوديَّة بين أُورُوبا الشّرقيَّة والغربيَّة مرَّت بمرحلتَيْن: *المرحلة الأولى*: من أُورُوبا الغربيَّة إلى الشّرقيَّة، فقد لجأت الفئات الحِرَفيَّة اليهُوديَّة في المراحل الأُولى لنُمُوّ الرّأسماليَّة وصُعُودها في أُورُوبا الغربيَّة إلى الهجرة إلى أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا في القرنَيْن السّادس عشر والسّابع عشر، وذلك للهجرة إلى مُجتمعات إقطاعيَّة أُخرى كي تعيش في أحضانها، وبقي في أُورُوبا الغربيَّة الرّأسماليُّون اليهُودُ الذين اندمجوا مع الرّأسماليَّة الغربيَّة، وتعاونوا معها، وهذا يُفسِّر لنا قلَّة اليهُود في أُورُوبا الغربيَّة وكثافتهم الكبيرة في رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة. *المرحلة الثّانية*: كانت الهجرة فيها مُعاكسة من أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا إلى أُورُوبا الغربيَّة، ومنها إلى الخارج؛ وخاصَّة إلى أمريكا الشّماليَّة (كما مرَّ معنا في الصّفحة السّابقة). وكان هؤلاء المُهاجرون اليهُودُ عبئاً على الرّأسماليَّة اليهُوديَّة الغربيَّة، وكذلك على اليهُود الذين سبقوهم إلى أمريكا.

اليهُوديَّة على مرِّ العُصُور وَجَدَتْ مَنْ يُصورِّها بحجم مُبالغ فيه، وبطريقة يسهل استغلالها لتعميق تآلف اليهُود وتكاتفهم في سبيل مصالحهم وتطلُّعاتهم الذّاتيَّة[1].

إنَّ الاضطهادات التي تعرَّض لها اليهُودُ الرُّوس ويهُودُ أُورُوبا الشّرقيَّة وتردِّي أحوالهم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، دَفَعَهُم إلى الهجرة إلى أُورُوبا الغربيَّة، وهذه كانت بداية "المسألة اليهُوديَّة". وشكَّلت هجرات هؤلاء اليهُود الرُّوس عبئاً على البُورجوازيَّة اليهُوديَّة في أُورُوبا الغربيَّة. ولقد أدركت هذه الفئة من اليهُود الأثرياء أنَّه ليس من السّهل على هؤلاء الوافدين الجُدُد الاندماج السّريع في مُجتمعات أُورُوبا الغربيَّة، وتخطِّي الحواجز اللُّغويَّة والثّقافيَّة التي كانت تفصلهم عن هذه الشُّعُوب.

وممَّا زاد في تخوُّف البُورجوازيَّة اليهُوديَّة (الغربيَّة) من إمكانيَّة انضمام أعداد كبيرة من فُقراء اليهُود الرُّوس إلى الحَرَكات الثّوريَّة والأحزاب اليساريَّة المُناهضة للأنظمة الرّأسماليَّة، ومن ضمنها النّظام الرُّوسيّ الذي أخذ يتبنَّى المنهج الرّأسمالي في أواخر القرن التّاسع عشر، والذي كان للبُورجوازيَّة اليهُوديَّة من أُورُوبا الغربيَّة استثمارات واسعة في رُوسيا.

وهكذا أصبحت للبُورجوازيَّة الغربيَّة ومعها البُورجوازيَّة اليهُوديَّة الغربيَّة تخوُّفات خطيرة من فُقراء اليهُود الرُّوس؛ سواء من الذين هاجروا إلى أُورُوبا الغربيَّة، أو الذين بقوا في رُوسيا، وهُم - كما أسلفنا - يُشَكِّلون مرتعاً خصباً للأفكار الثّوريَّة والاشتراكيَّة المُعادية للبُورجوازيَّة والرّأسماليَّة الغربيَّة.

كُلُّ هذا أدَّى إلى دَفْع البُورجوازيَّة اليهُوديَّة الغربيَّة للبحث عن مكان خارج القارَّة الأُورُوبيَّة تتَّجه إليه هذه الهجرات حفاظاً على ثروتها ونُفُوذها الكبير في أُورُوبا الغربيَّة.

وبالرّغم من اهتمام البُورجوازيَّة اليهُوديَّة الغربيَّة بإيجاد حلٍّ لُمشكلة المُهاجرين اليهُود الرُّوس، فإنَّ أُولئك الذين اهتدوا إلى "الحلِّ الصّهيُوني" للمُشكلة لم يكونوا من اليهُود، بل

---

(1) كما حصل بالمُبالغات الكبيرة التي قام بها اليهُود حول مذابح هتلَر والنازيَّة الألمانيَّة ضدَّ اليهُود، وصوَّروها بصُور غاية بالبشاعة واللاَّإنسانيَّة، وبالغوا في أعداد الضّحايا، حتَّى أوصلوها إلى الملايين، مع أنَّها - في الحقيقة - لم تتجاوز مئات الآلاف. كُلُّ ذلك لَيَسْتَدرُّوا عطف العالم عليهم، ويُوهموا شُعُوب العالم أنَّ فلسطين هي الملاذ الوحيد لخلاصهم من كُلِّ مشاكلهم واضطهادات بعض شُعُوب العالم لهم.

من المسيحيّين من مُمثّلي الطّبقات البُورجوازيّة الحاكمة في أُورُوبا الغربيّة. فقد أخذت هذه الطّبقات مُنذُ مطلع القرن التّاسع عشر تجرُّ دُولها إلى التّنافس في طَرْح مشاريعها الخاصّة بتوطين اليهُود في فلسطين، أو أيّة منطقة أُخرى ضمن المناطق التي كانت هذه الدُّول تسعى إلى مدّ سيطرتها ونُفُوذها عليها(1).

أمّا البُورجوازيّة اليهُوديّة فإنّ تحرُّكها (نحو الحلّ الصّهيُوني) جاء في أعقاب تحرُّك الصّهاينة الأغيار، أو الصّهاينة المسيحيّين كما بيّنّا سابقاً. وكان كبار الأثرياء من البُورجوازيّة اليهُوديّة هُم أوّل مَنْ تبنّى ذلك الحلّ الصّهيُوني. وهكذا؛ فإنّ جميع المشاريع الهادفة لإبعاد الفُقراء اليهُود من أُورُوبا الغربيّة وإيجاد ملجأ لليهُود الرُّوس أُنشئت بتمويل من كبار أثرياء اليهُود من البُورجوازيّة اليهُوديّة في أُورُوبا الغربيّة (من الثّري اليهُوديّ مُوسى مُونتفيُوري، إلى الثّري اليهُوديّ أدموند رُوتشيلد عميد أُسرة رُوتشيلد الهائلة الثّراء، وكلاهما من البُورجوازيّة اليهُوديّة الإنكليزيّة).

وفي هذا السّياق أيضاً؛ امتدّ التّحرُّك البُورجوازي اليهُوديّ لدَعْم وتشجيع المزيد من المُفكّرين اليهُود للعمل من خلالهم على كسب أكبر قطاع من الجماهير اليهُوديّة لخدمة الأهداف التي كانت البُورجوازيّة اليهُوديّة تسعى لتحقيقها. وكان من بين هؤلاء المُفكّرين ليونسكر الذي مرّ معنا الحديث عنه، وهُو واضع الأُسُس العمليّة للصّهيُونيّة السّياسيّة، ومنهم:

بيرنس سمولينسكين 1842 ـ 1885:

وهُو من مدينة "موجيليف" الرُّوسيّة، انضمّ إلى حَركَة أحبّاء صهيُون، وكان من أشدّ المُتحمّسين لدعوتها لتهجير اليهُود إلى فلسطين، ولكنّ حماسه لم يتجاوز نطاق الكتابة والدّعوة، ولم يقم بنشاط عملي لتنفيذ أفكاره في هذا المجال.

---

(1) وهذا يُفسّر لنا قيام البُورجوازيّة الإنكليزيّة والهُولنديّة (ومُعظمها من البيُوريتان) في عهد كرُومويل باقتراح نَقْل وتوطين اليهُود في فلسطين مُنذُ القرن السّابع عشر، ثُمّ نداء نابليون في أواخر القرن الثّامن عشر لتوطين اليهُود في فلسطين، وأخيراً؛ تبنّي البُورجوازيّة الإنكليزيّة بكُلّ نُفُوذها وقُوّتها مشاريع التّوطين اليهُوديّ في فلسطين قبل الحَركَة الصّهيُونيّة (مشاريع مُوسى مُونتفيُوري وأدموند رُوتشيلد) وبعدها، ثُمّ إصدار وعد بلفور الذي كان تتويجاً لرغبات الرّأسماليّة البريطانيّة في إيجاد حلّ للمسألة اليهُوديّة بإنشاء دولة يهُوديّة في فلسطين تكون كلب حراسة للمصالح البريطانيّة في الشّرق الأوسط.

مُوشيه ليلينبلوم 1843 ـ 1910:

وهُو من مدينة كيدان في ليتوانيا على بحر البلطيق. انضمَّ ـ أيضاً ـ إلى حَرَكَة أحبَّاء صهيُون، وانتُخب ـ فيما بعد ـ لعُضويَّة لجنتها التّنفيذيَّة، وعمل بنشاط في سبيل دَعْم وتطوير المُستوطنات التي أقامَتْهَا الحَركَة في فلسطين. وكانت دعوته الاستيطانيَّة لا تقتصر على فلسطين، وإنَّما تعدَّى ذلك إلى الأرض السُّوريَّة بكاملها. وطالب زُعماءُ اليهُوديَّة في أُورُوبا الغربيَّة لدَفْع حكُوماتهم للضّغط على الدّولة العُثمانيَّة كي تسمح لليهُود بالهجرة إلى فلسطين. ودعا ـ أيضاً ـ إلى توفير الأموال لشراء الأراضي في فلسطين لاستيطان اليهُود عليها.

أليعازر يهُوذا 1858 ـ 1922:

وهُو من مدينة لوشكي من ليتوانيا الرُّوسيَّة. دعا إلى قوميَّة يهُوديَّة على أساس علماني وسياسي، ودعا إلى شراء الأراضي في فلسطين وتوطين اليهُود فيها. اهتمَّ بإحياء اللُّغة العبريَّة، وتحديثها بشكل أصبحت معه هي اللُّغة المنطوقة بالنّسبة لغالبيَّة المُهاجرين اليهُود الذين وفدوا إلى فلسطين.

هاجر إلى القُدس عام **1881**، واستقرَّ فيها حتَّى وفاته عام **1922**.

وهكذا وَضَعَتْ نظريَّات هؤلاء المُفكِّرين (وجميعهم من رُوسيا وليتوانيا التّابعة لرُوسيا) الأُسُسَ الفكْريَّةَ والعقائديَّةَ للحَرَكَة الصّهيُونيَّة العمليَّة، وكانت مسؤولة ـ إلى حدٍّ كبير ـ عن دَفْع موجات الهجرة اليهُوديَّة الأُولى من رُوسيا إلى فلسطين، وساهمت في إرساء دعائم النّزعة الاستيطانيَّة التّوسُّعيَّة للعمل الصّهيُونيّ في فلسطين والشّرق العَرَبيّ خلال الرُّبع الأخير من القرن التّاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

الفصل الثّاني:

الاستيطان اليهُودي

تحدَّثنا في الفصل السّابق عن المسألة اليهُوديَّة والحَركَة الصّهيُونيَّة وسرِّ نجاحها، وفيما يلي سنتحدَّث عن حَركَة الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين تنفيذاً لأهداف الحَركَة الصّهيُونيَّة وحلاً للمسألة اليهُوديَّة.

ولكنْ؛ علينا أوَّلاً أنْ نُقدِّم تمهيداً حول مُحاولات الاستيطان اليهُوديّ حول فلسطين، أو في بقاعٍ أُخرى من العالم.

من المُلاحَظ أنَّ مُعظم الكتابات المُعاصرة تقرن الاستيطان اليهُوديّ بأرض فلسطين فقط، علماً بأنَّ هُناك بقاعاً أُخرى كثيرة تعرَّضت لخطر الغزو الصّهيُونيّ بطريقة أو بأُخرى، فقد قامت مُحاولات صهيُونيَّة جادَّة لاستعمار مناطق أُخرى في الوطن العَرَبيّ مثل: أرض مدين في شمال الحجاز، ومنطقة العريش وسيناء، والجَبَل الأخضر في ليبيا، والبحرَيْن والأحساء في منطقة الخليج العَرَبي. بالإضافة إلى قُبرص، وأُوغندا، وأنغُولا، ومُوزمبيق، والكُونغُو، والأرجنتين، حتَّى إقليم أضنه وجُزُر رُودُس في تُركيا.

مشاريع الاستيطان اليهُوديّ في الوطن العَرَبيّ:

أوَّلاً: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في مدين عام 1891:

المقصود بأرض مدين المنطقة السّاحليَّة الواقعة في شمال غرب الجزيرة العَرَبيَّة على البحر الأحمر، وتمتدُّ من العقبة شمالاً إلى مرفأ الوجه جنوباً.

كانت هذه المنطقة تخضع ـ عملياً ـ لمصر، ومُرتبطة ـ نظريَّاً ـ بالدّولة العُثمانيَّة، وكانت تتبع في إدارتها إلى مركز السُّويس.

والذي دعا إلى إقامة مُستوطنات يهُوديَّة في مدين هُو "بُـول فريدمـان" ؛ وهُـو مـن أُسـرة يهُوديَّة ألمانيَّة ثريَّة.

قـام فريدمـان بزيـارة خاطفـة إلـى منطقـة مديـن عـام 1890 ، لدراسـة ثـروات المنطقــة ، وإمكانيَّة الاستيطان فيها. ثُمَّ نَشَـرَ عـام 1891 ، كتاباً بعنُـوان "أرض مديـن" ، تحدَّث فيـه عـن خُصُوبة أرضها ، وثرواتها المعدنيَّة الهائلة ، بالإضافة إلى قلَّة سُكَّانها (حوالـي 20 ألـف نسـمة فقط) ، ومناخها الملائم ، مُؤكِّداً إمكانيَّة قيام دولة يهُوديَّة في هذه المنطقة يُمكن - فيما بعد - مَدّ نُفُوذها إلى فلسطين والبلاد المُجاورة. وانتهى إلى القول بأنَّ مدين كـانت تُشَكِّل فـي الماضي جُزءاً من المملكة اليهُوديَّة القديمة. نال فريدمان مُوافقة بريطانيا على مشروعه ، وكذلك وَعَـدَ "كرُومر" المندوب السّامي البريطانيّ في مصر بالاعتراف به حال نجاحه.

نزل فريدمان بأرض مدين قُرب قلعة "المويلـح" بحملتـه التـي شـكَّلها مـن الـرُّوَّاد اليـهُود المُتطوِّعين ، وبعد أنْ خيَّمت جماعته هُناك ؛ حاول الاتِّصال بالسُّكَّان ، ونجح فـي شـراء بعـض الأراضي منهم ، ولكنَّ الحملة أخذت تُواجه الصُّعُوبات مع السُّكَّان الذيـن نظروا إليـها بعـين الرِّيبة والشَّكِّ. أمَّا الدّولة العُثمانيَّة ؛ فقد أدركت خُطُورة هذا المشروع الاسـتيطاني ؛ لا سـيَّما وأنَّه يُهدِّد طريق الحجِّ إلى مكة المُكرَّمة والمدينة المُنوَّرة ، فَـأَوْعَزَتْ إلـى واليـها فـي الحجـاز إلـى طَرْد المُستوطنين اليهُود من منطقة المويلح ، وتطهير الجزيرة العَرَبيَّة منهم.

اضطُرَّ فريدمـان إلـى الانسـحاب ، وفشـل المشـروع ، لا سـيَّما بعـد أنْ تخلَّـى عنـه ذوي النُّفُوذ من الرّأسماليِّين اليهُود ، وكذلك تخلِّي الحُكُومة البريطانيَّة عن تأييدها له[1].

ثانياً: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في العريش وسيناء:

مُنذُ مطلـع القـرن العشـرين ؛ وبعـد أنْ خـابت مسـاعي هرتـزل فـي إقنـاع السُّلطان عبـد الحميد بالسّماح لليهُود الصّهاينة بالاستيطان في فلسطين ، بدأت أنظاره تتَّجه إلى شبه جزيـرة سيناء ، والتي سمَّاها بـ "فلسطين المصريَّة"[2].

---

(1) المصدر : د. أمين محمود ، "مشاريع الاسـتيطان اليـهُوديّ مُنذُ قيـام الثّورة الفرنسـيَّة حتّى نهايـة الحرب العالميَّة الأُولى" ، من سلسلة عالم المعرفة ، 74 ، شُباط ، 1984 ، من صفحة 189 - 196 ، باختصار شديد.

(2) وذلك بعد أنْ رَفَضَ هرتزل الاستيطان في أوغندا ، كما اقترحت بريطانيا ، ومُوافقة اللُّـورد رُوتشـيلد ، وبعـد أنْ رَفَضَ جُوزيف تشمبرلين وزير المُستعمرات البريطانيَّة اقتراح هرتزل بتخصيص قُبرص للهجرة والاسـتيطان اليـهُوديّ فيها ؛ بحُجَّة أنَّ سُكَّانها بيض (ويقصد أنَّهم أورُوبيُّون ، ومسيحيُّون ، وليسوا آسيويِّين ، أو أفريقيِّين).

وفي 21 كانون الأوَّل 1902، قابل هرتزلُ وزيرَ خارجيَّة بريطانيا المركيز "لاتسدون"، الذي وافق على مشروع العريش، وأبدى استعداده لكتابة رسالة إلى اللُّورد كرُومر المندوب السّامي البريطانيّ في مصر، وفيما بعد؛ تلقَّى هرتزلُ رسالةً من اللُّورد كرُومر جاء فيها: «إنَّ مشروع الاستيطان في شبه جزيرة سيناء سيكون مُحتمل التّحقيق».

وفي سنة 1903، تشكَّلت لجنة بريطانيَّة يهُوديَّة لاستكشاف سيناء، والتي رفعت تقريرها إلى هرتزل، وجاء فيه: «إنَّ الظُّرُوف الطّبيعيَّة تجعل من الصّعب تأمين الاستيطان للأُورُوبيِّيْن، وذلك بسبب ندرة المياه والأمطار وفقر الحياة النّباتيَّة والحيوانيَّة، ويُمكن استصلاح التُّربة إذا أمكن تأمين المياه لسيناء من نهر النّيل، ولكنَّ جرَّ مياه النّيل إلى سيناء وعبر قناة السُّويس أمرٌ في غاية الصُّعُوبة، بالإضافة إلى إمكانيَّة إثارة الفلاَّحين المصريِّيْن ضدَّه».

ثُمَّ جاءت الضّربة القاصمة للمشروع برَفْض الحُكُومة المصريَّة للمشروع، وذلك في رسالة وجَّهها بُطرُس غالي رئيس الحُكُومة المصريَّة آنذاك إلى الكُولُونيل غُولد سميد أحد أعضاء اللّجنة البريطانيَّة اليهُوديَّة.

ولكنْ؛ هل طُويَت أطماع اليهُود في سيناء؟ كلا، إنَّ هذه الأطماع استمرَّت، ومرَّت بمرحلتَيْن هُما:

أ: المرحلة الأُولى: مشروع حاييم وايزمن لضمِّ سيناء:

بعد مُضي شهرَيْن على وعد بلفور في 2 تشرين الثّاني 1917؛ أيْ في أوائل عام 1918، وبعد أنْ أصبح انتصار بريطانيا وحُلفائها مُحقَّقاً، رأى حاييم وايزمن (رئيس الحَرَكة الصّهيُونيَّة آنذاك) أنَّه لابُدَّ من الحُصُول على وعدٍ إضافي من مُؤتمر السّلام يشمل ضمَّ سيناء إلى وعد بلفور، وتُصبح سيناء ـ بمُوجبه ـ جزُءاً من الدّولة اليهُوديَّة المُقبلة، وقال وايزمن: «إنَّه لابُدَّ من ضمِّ سيناء بالكامل للدّولة اليهُوديَّة (المُقبلة)؛ لأنَّ لليهُود حُقُوقاً في سيناء من النّاحيتَيْن التّاريخيَّة والدِّينيَّة». وبيَّن حاييم وايزمن بمُذكّرة قدَّمها إلى الكُولُونيل مايزهيمن صديق لويد جُورج رئيس وُزراء بريطانيا أهمِّيَّة ضمِّ سيناء للدّولة اليهُوديَّة ولبريطانيا، فَضَمُّ سيناء إلى فلسطين يُفسد أيَّة مُحاولة من مصر لإغلاق قناة السُّويس في وجه الملاحة

البريطانيَّة، وتحصل بريطانيا بهذا الضَّمِّ على نُقطة قويَّة في الشّرق الأوسط تربط بين البحر المُتوسَّط والبحر الأحمر.

ولكنَّ بريطانيا لم تستجب لمطالب وايزمن، رغم قناعتها بأهمِّيَّتها، وذلك خوفاً من إثارة الرّأي العامِّ في مصر خاصَّة، والوطن العَرَبيّ عامَّة، لا سيَّما وأنَّ بريطانيا كانت تُواجه في مصر إصرار المصريِّيْن على جلاء الإنكليز عن مصر بقيادة سعد زغلول ورفاقه.

ب: المرحلة الثّانية: بعد نكسة حُزيران 1967، واحتلال كامل سيناء:

جاءت هذه المرحلة بعد نكسة 5 حُزيران 1967، واحتلال (إسرائيل) لكامل شبه جزيرة سيناء؛ حيثُ أصبحت جيُوش (إسرائيل) تُعسكر على ضفاف قناة السُّويس الشّرقيَّة، وتعطَّلت الملاحة في القناة.

في هذا الظّرف؛ وَجَدَ اليهُود فُرصتهم الذّهبيَّة للاحتفاظ بسيناء، وفرض الأمر الواقع، لا سيَّما وأنَّ سيناء تُؤَمِّن لهم ما يلي:

1: السّيطرة على سيناء تُؤَمِّن لليهُود الملاحة الآمنة في خليج العقبة، فقد أصبح الشّاطئ الغربيّ للخليج بيدهم، وكان سابقاً بيد المصريِّيْن الذين كانوا مع السُّعُوديِّيْن في الشّاطئ الشّرقي يستطيعون قَطْعَ أو مَنْعَ الملاحة اليهُوديَّة في خليج العقبة.

2: استغلال ثروات سيناء الهائلة من البترول والنُّحاس والمنغنيز والزّنك والفُوسفات.. إلخ، وأهمّها البترول الذي كانت (إسرائيل) بحاجة ماسَّة إليه، فبترول سيناء يُؤمِّن حاجة (إسرائيل) منه دُون اللُّجُوء إلى الاستيراد، ولا سيَّما في الأزمات.

3: أيُّ حلٍّ مُستقبلي لا يُمكن أنْ يتمَّ إلاَّ بتأمين الملاحة (لإسرائيل) في قناة السُّويس (وهذا ما تمَّ فعلاً بعد اتِّفاقيَّة كمب ديفيد، وعودة سيناء إلى مصر).

وحتَّى تجعل (إسرائيل) سيطرتها على سيناء قانونيَّة، وتضمّها إليها ضمّاً أبديّاً، قامت بتعميم كتاب من وزارة الخارجيَّة الإسرائيليَّة برَقْم 969 تاريخ 13/ 4/ 1971، على السِّفارات الإسرائيليَّة في الخارج جاء فيه: «إنَّه ليس لمصر حقٌّ شرعيٌّ في سيناء»، واستندت في ذلك إلى:

1 : إنَّ معاهدة لُوزان مع تُركيا عام 1923، والتي وقَّعت فيها تُركيا على التّنازل عن مُختلف حقُوقها الإقليميَّة (في الوطن العَرَبي) بما فيها شبه جزيرة سيناء، أبقت فراغاً من ناحية القانون الدّولي بالنّسبة لشبه جزيرة سيناء.

2 : وفي مُعاهدة عام 1936، بين مصر وبريطانيا ـ والتي تحدَّثت عن انسحاب تدريجي لبريطانيا في المنطقة ـ لم يُذكَر أيُّ شيء عن سيناء.

يُضيف كتاب وزارة الخارجيَّة الإسرائيليَّة: «إنَّه لَمَّا كانت مصر لم تكن طرفاً في اتِّفاقيَّة لُوزان، فإنَّ الطّرَفَ الوحيد صاحب السّيادة على سيناء هُو بريطانيا.. وهكذا يسقط حقُّ مصر في سيناء في الفترة بين 1936 ـ 1954 (أيْ بين مُعاهدة 1936، بين بريطانيا ومصر وانسحاب بريطانيا من مصر 1954).. لقد استولت مصر على سيناء بفعْل الأعمال العُدوانيَّة ضدَّ (إسرائيل) عام 1948. وفي عام 1949، لم تُحدَّد الحُدُود بشكل نهائي بين مصر و(إسرائيل) (باتِّفاقيَّات الهُدنة).. وإنَّ على مصر أنْ تُثبت ملكيَّتها لسيناء تاريخيَّاً، حتَّى يثبت طَلَبُهَا بضرورة انسحاب (إسرائيل) حتَّى حُدُود 1949»[1].

انظرْ إلى هذا المنطق السّقيم العجيب!! (إسرائيل) تطلب من مصر إثبات مصريَّة سيناء. هذا مثال صارخ على منطق اليهُود الأعوج الذي لا يهمُّهم فيه إلاَّ مصالحهم الخاصَّة؛ وهُو منطقهم الذي لازمهم طوال تاريخهم.

إنَّ مصريَّة سيناء هي كمصريَّة القاهرة لا أحد يشك فيها إلاَّ اليهُود ليمهدوا للاستيلاء عليها وعدم إعادتها إلى مصر.

إنَّ سيناء مصريَّة مُنذُ فجر التّاريخ، ومُنذُ وُجدت مصر والنّيل، وقد أيَّد ذلك قرار محكمة العدل الدّوليَّة عندما قرَّرت أنَّ طابة الواقعة في أقصى الشّمال الشّرقي من سيناء أنَّها مصريَّة ردَّاً على دعوى اليهُود بأنَّها غير مصريَّة، وأخَّروا انسحابهم منها عند انسحابهم من سيناء بعد اتِّفاقيَّة كمب ديفيد.

---

(1) المصدر لمشروع الاستيطان اليهُوديّ لسيناء وأطماع (إسرائيل) في سيناء هُو كتاب "استراتيجيَّة الصّهيُونيَّة و(إسرائيل) تجاه المنطقة العَرَبيَّة والحزام المُحيط بها"، إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة، دمشق، 1982، بإشراف حبيب قهوجي، ص 78 ـ 80، باختصار.

ثالثاً: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في ليبيا:

بدأت ليبيا تتعرَّض للأطماع الاستيطانيَّة الصّهيُونيَّة مُنذُ القرن العشرين. فبعد استيلاء بريطانيا على مصر عام 1882، وسُقُوط الجزائر عام 1830، وتُونُس عام 1881، في يد الاستعمار الفرنسي، وتطلُّع فرنسا لوَضْع يدها على مراكش، فلم يبقَ من شمال أفريقيا العَرَبيّ سوى ليبيا التي كانت إيطاليا تنتظر الفُرصة المُناسبة للانقضاض عليها.

وفي عام 1904، تقدَّم هرتزل إلى الملك الإيطالي باقتراح يرمي إلى تحويل مسار الهجرات اليهُوديَّة من أُورُوبا الشّرقيَّة إلى طرابلس الغرب ليستوطنها اليهُود، ويُقيموا فيها حُكْماً ذاتياً في ظلِّ حُكْم إيطالي، ولكنَّ رَدَّ الملك الإيطالي لم يكن مُشجِّعاً خوفاً من إثارة المشاكل بين إيطاليا وكُلٍّ من بريطانيا وفرنسا والدّولة العُثمانيَّة.

وبعد وفاة هرتزل؛ تجدَّدت المُحاولات الاستيطانيَّة في ليبيا برئاسة "إسرائيل زانغويل Zangwill Israel" (رئيس المُنظَّمة الصّهيُونيَّة الإقليميَّة)، وكان الهدف الذي تسعى هذه المُنظَّمة لتحقيقه هُو إيجاد بُقعة استيطان مُناسبة ليهُود أُورُوبا الشّرقيَّة يتوفَّر فيها المناخ المُلائم والتُّربة الصّالحة للزّراعة، وأنْ تكون منطقة ساحليَّة بمُحاذاة البحر، وإذا تمَّ تأمين هذه البُقعة فعلى المُستوطنين اليهُود العمل من أجل إقامة حُكْم ذاتي في ظلِّ الدّولة المُسيطرة عليها، كما دعت المُنظَّمة الصّهيُونيَّة إلى إقامة صلات وثيقة مع الحُكُومات الأُورُوبيَّة على اختلاف أنواعها.

قام "ناحوم سلوش Slousch Nahum" بزيارة طرابلس الغرب في عام 1906، وَدَرَسَ الوَضْعَ فيها، ثُمَّ قدَّم تقريراً إلى زانغويل تضمَّن انطباعاته الإيجابيَّة عن تلك الزّيارة، واستعداد السُّلطات العُثمانيَّة هُناك بقبول فكْرة إنشاء مُستوطنات يهُوديَّة في منطقة الجَبَل الأخضر بولاية برقة.

ثُمَّ أوعزت الحُكُومةُ البريطانيَّةُ إلى قُنصلها العامِّ في مدينة تُونُس السِّير هاري جُونستون بأنْ يقترح على زنغويل فكْرة إنشاء وطن قوميّ لليهُود في منطقة الجَبَل الأخضر، وإرسال بعثة لدراسة أحوال المنطقة، مُؤكّداً له استعداد والي ليبيا العُثمانيّ رجب باشا (1904 - 1906)، لتقديم جميع التّسهيلات المُمكنة لأفراد هذه البعثة.

قام زنغويل وأعضاء مُنظَّمته بدراسة تقرير سلوش واقتراح جُونستون، وَوَجَدُوا في الجَبَل الأخضر مكاناً يصلح للاستيطان اليهُودي، واتَّفقوا على إرسال بعثة خاصَّة من الخُبراء الصّهيُونيِّيْن لدراسة أحوال المنطقة. وقد أعلن زانغويل - مُنذُ البداية - أنَّ ولاية برقة تتمتَّع بمزايا ومُواصفات تتَّفق وأهداف مُنظَّمته. فالمنطقة ساحليَّة على الشّاطئ الجنوبيّ للبحر المُتوسِّط ممَّا يُسهِّل عمليَّة جَلْب المُهاجرين اليهُود من رُوسيا ورُومانيا. كما أنَّ قُرب برقة من فلسطين يجعل الانتقال منها في مرحلة لاحقة إلى "أرض المعاد" سهلاً، بالإضافة إلى ذلك فإنَّ برقة تتمتَّع بمكانة خاصَّة في التُّراث اليهُوديّ القديم؛ حيثُ كانت المنطقة مأوى لعدد كبير من اليهُود مُنذُ أيَّام الاسكندر المقدوني والبطالمة (أو البطالسة) في مصر.

ونظراً لقلَّة السُّكَّان في برقة؛ فقد رأى زانغويل أنَّه من السّهل تحقيق غَلَبَة النُّفُوذ اليهُوديّ فيها، وضمان تفوُّقه العَدَدي عن طريق جَلْب أعداد كبيرة من اليهُود إلى برقة.

وممَّا ساعد على نُمُوِّ الأطماع الصّهيُونيَّة في ليبيا ازدياد خطر الغزو الإيطالي المُسلَّح لليبيا، وتشجيع بريطانيا للوالي العُثمانيّ رجب باشا بالسّماح لليهُود بالتّغلغل الاقتصادي والاستيطان في ليبيا لإيجاد قُوَّة تقف في وجه الغزو الإيطالي. وقد أبدى رجب باشا مُوافقته على هذه الفكْرة.

وفي مُنتصف عام 1908، وَصَلَتْ بعثة من الخُبراء الصّهاينة إلى مدينة طرابلس الغرب برئاسة البرفسُور غريغُوري **Gregory**؛ حيثُ استقبلها هُناكَ القُنصل البريطانيّ العامُّ في طرابلس جُوستين ألفاريز **Alvrez Justin**، وقدَّمها إلى الوالي العُثمانيّ رجب باشا الذي استقبلها بمُنتهى الوُدِّ والتّرحاب، ثُمَّ سافرت البعثة إلى برقة؛ حيثُ مَكَثَتْ ثلاثة أسابيع، وَدَرَسَتْ طبيعةَ المنطقة، وأحوالها المناخيَّة والزّراعيَّة، وموارِدها المائيَّة، ثُمَّ عادت البعثة إلى لندن، وقدَّمت تقريرها عن مدى صلاحيَّة إقليم برقة للاستيطان اليهُودي.

صَدَرَ التّقرير أوَّل عام 1909، وأُطلق عليه "الكتاب الأزرق". وكَتَبَ مُقدِّمة التّقرير إسرائيل زانغويل، كَشَفَ فيها عن الأطماع الصّهيُونيَّة في ليبيا، ومنطقة الجَبَل الأخضر بشكل خاصٍّ. وتحدَّث عن المُؤامرات التي حاكَها الصّهاينة ضدَّ السُّلطان عبد الحميد

لُمعارضته الاستيطان اليهُوديّ الجماعي في فلسطين، كما أشارت المُقدِّمة إلى الدّور الصّهيُونيّ في ثورة جماعة الاتِّحاد والتَّرقِّي ضدَّ السُّلطان عبد الحميد، وَخَلْعه.

وتضمَّن التّقرير مجموعة من المُقترحات حول الاستيطان الصّهيُونيّ في الجَبَل الأخضر من ولاية برقة، وأهمِّيَّة هذا الاستيطان، والأساليب التي تُؤدِّي إلى تحقيقه والسّيطرة على الجَبَل الأخضر.

ولكنَّ وفاة والي ليبيا العُثمانيّ رجب باشا، وانشغال الاتِّحاديِّيْن (في الدّولة العُثمانيَّة) بالمشاكل الدّاخليَّة الحادَّة جَعَلَ الدّعم العُثمانيّ للاستيطان اليهُوديّ في ليبيا أمراً صعب الحُصُول عليه، وممَّا زاد الموضوع تعقيداً تصاعد الأطماع الإيطاليَّة في ليبيا، والتي انتهت بغزوها لليبيا عام 1911، رغم احتجاجات بريطانيا والصّهاينة. وقبل أنْ يُتاح المجال لُمعالجة الموقف لصالح الصّهاينة كان العالم يندفع في غمار حرب عالميَّة كُبرى، وهكذا قُضي على مشروع إنشاء وطن قوميّ يهُوديّ في ليبيا، وبالتّحديد؛ في الجَبَل الأخضر منها[1].

رابعاً: مشاريع أُخرى للاستيطان في الوطن العَرَبيّ:

وفيما يلي مشاريع أُخرى في مشرق الوطن العَرَبيّ لتوطين يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ماتت في مهدها مثل:

1: مشروع الاستيطان في منطقة سهل البقاع: اقترح المشروع ماكس بودنهايمر **Heimer Boden Max** عام 1891، بنداء وجَّهه إلى الرّأسماليِّيْن اليهُود لتمويل المشروع، وقد اقترح استيطانَ اليهُود على جانبَيْ الخطِّ الحديدي بين دمشق وبيروت، وَطَلَبَ من بريطانيا توفير المُساعدة والدَّعْم لهذا المشروع مُقابل حماية المُستوطنين اليهُود لمصالح بريطانيا الحيويَّة في المنطقة، وتأمين مُواصلاتها لُمستعمراتها في شبه القارَّة الهنديَّة.

2: مشروع الاستيطان في منطقة حوران: تلا المشروع السّابق في عام 1893، وقام به هنري دي أفيجدور **Avijdor de Henry** الذي حاول شراء مساحات من الأرض في

(1) المصدر كتاب "مشاريع الاستيطان اليهُودي.." من سلسلة عالم المعرفة الكُويتيَّة، العدد، 74، شُباط، 1982، تأليف د. أمين محمود، من ص 224 ـ 233، باختصار.

حوران، ولكنَّ المُحاولة باءت بالفشل كسابقتها؛ نتيجة المُعارضة العُثمانيَّة، وعدم وُجُود دَعْم كافٍ من الزُّعماء اليهُود.

3: مشروع الاستيطان في شرق الأردُن: قام به أفيجدور بالتّعاون مع صمويل مونتاجو **Montague Samuel** في عام **1893**، نيابة عن جمعيَّة أحبَّاء صهيُون بتقديم التماس إلى السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد بالسّماح لليهُود باستعمار منطقة شرق الأُردُن، بعد أنْ منعت السُّلطات العُثمانيَّة أحبَّاء صهيُون من شراء الأراضي في فلسطين، أو الاستقرار الدّائم فيها، ولكنَّ هذه المُحاولة باءت بالفشل كالمُحاولات السّابقة.

4: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في العراق: حاول هرتزل خلال عامَيْ **1903 - 1904**، إقناع السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد عن طريق مُستشاره بالسّماح لليهُود بالاستيطان في جنوب العراق، ولكنَّ السُّلطان عبد الحميد رَفَضَ فكْرة الاستيطان اليهُوديّ الجماعي، وإنْ كان قد أبدى مُوافقته على الاستيطان اليهُوديّ بشكل فردي، وفي مناطق مُختلفة من العراق، شريطة الحُصُول على الجنسيَّة العُثمانيَّة.

5: مشروع الدّولة اليهُوديَّة في منطقة الخليج العَرَبي: وَرَدَ هذا المشروع ضمن رسالة تقدَّم بها إلى الحُكُومة البريطانيَّة طبيب يهُوديّ رُوسي الأصل يُقيم في باريس هُو الدُّكتُور م. ل. روتشتين **Rothstein L. M. Dr.** في **12** أيلول **1917**، وكان هدف صاحب المشروع إقامة دولة يهُوديَّة في منطقة البحرَيْن والأحساء.

كان رَفْضُ المسؤولين البريطانيِّيْن في الهند مُتشدِّداً من هذا المشروع، ثُمَّ اقتنعت الحُكُومة البريطانيَّة أنَّ قيام دولة يهُوديَّة في منطقة الخليج العَرَبيّ وشرق الجزيرة العَرَبيَّة يُعرِّض مصالحها لمخاطر لا مُبرِّر لها[1].

هذه هي مشاريع الاستيطان اليهُوديَّة في الوطن العَرَبيّ، وكان أكثرها حيويَّة واندفاعاً استيطان مدين وسيناء وليبيا، وكُلُّها فشلت لأسباب مُختلفة بيَّنَّاها سابقاً، وكُلُّها كان الهدف

---

(1) المصدر لهذه المشاريع الاستيطانيَّة: "مشاريع الاستيطان اليهُوديّ مُنذُ قيام الثّورة الفرنسيَّة"، د. أمين محمود، سلسلة عالم المعرفة الكُويتيَّة، 74، شُباط، 1984، راجع الصّفحات 198 - 230.

منها أنْ تكون محطَّة للانقضاض على فلسطين الهدف الأوَّل والنّهائي للاستيطان اليهُوديّ، وإنشاء وطن قوميّ لهم فيها.

مشاريع الاستيطان اليهُوديّ خارج الوطن العَرَبيّ:

سنتحدَّث فيما يلي عن المُحاولات الصّهيُونيَّة للاستيطان خارج الوطن العَرَبي، ولكنْ؛ في مناطق قريبة من فلسطين أيضاً مثل: قُبرص وأُوغندا (تقع جنوب السُّودان)؛ لتكون أيضاً محطَّة للقَفْز منها إلى فلسطين. وأحياناً؛ كانت بعيدة عن فلسطين مثل الأرجنتين (في أمريكا الجنوبيَّة) وأنغُولا ومُوزمبيق (في أفريقيا الجنوبيَّة)، وغيرها من المناطق، ولكنْ؛ كُلُّها لم يُكتَب لها النّجاح لأسباب مُختلفة، سنتعرَّض لها عند التَّحدُّث عنها بالتّفصيل، وسنُلاحظ أنَّ السّبب الرّئيسي والأساسي في فشلها أنَّ أنظار اليهُود كانت - في غالبيَّتها - تتَّجه إلى فلسطين، وخاصَّة يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة الذين هُم أساس المسألة اليهُوديَّة، وأنَّ مشاريع الاستيطان وُجدَتْ من أجل حلِّ مُشكلتهم، وهؤلاء رَفَضُوا أيَّ بديل لأرض المعاد فلسطين.

وأهمُّ هذه الأقطار غير العَرَبيَّة والمُقترَحَة لتوطين اليهُود فيها هي:

أ: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في قبرص:

اهتمَّ اليهُود بقُبرص بعد احتلال بريطانيا لها عام 1878، وفي ذلك العام كَتَبَتْ صحيفة الجويش كرونيكل اليهُوديَّة Chrenicle Jewish The مقالاً تدعو فيه إلى هجرة اليهُود إلى قُبرص.

وتجدَّدت النّداءات اليهُوديَّة للاستيطان في قُبرص عام 1895، وترأسها الصّهيُوني المُتحمِّس ديفيز تريتش Tritsch Devis والذي أصبح - فيما بعد - من كبار أعضاء المُنظَّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة، وهُو من أوائل مَنْ فكَّروا في مشروع فلسطين الكُبرى، والتي في نَظَره تضمُّ - بالإضافة إلى فلسطين - كُلاً من قُبرص وشبه جزيرة سيناء (أيْ بلاد الشّام جميعها مع قُبرص وسيناء).

وأيَّد الفكْرَةَ الزّعيمُ الصّهيُونيّ ثيودور هرتزل. وَبَذَلَ تريتش جُهُوداً جبَّارة في المُؤتمر الصّهيُونيّ الثّالث عام 1899، لأَخْذ مُوافقة المُؤتمر على الاستيطان في قُبرص، ولكنَّ جُهُوده وجُهُود هرتزل باءت بالفشل للأسباب التّالية:

1 : عدم استجابة الرّأسماليِّيْن اليهُود لنداءاته المُتكرِّرة لتقديم المُساعدات الماليَّة للاستيطان، ومُمارسة الضّغط على الحكُومة البريطانيَّة لمَنْح مُوافقتها.

2 : تعرَّض تريتش لهُجُوم شديد من أحبَّاء صهيُون؛ مُتَّهمين إيَّاه بالتّغرير بالمُهاجرين اليهُود (وكان قد نَجَحَ في إقناع 250 يهُوديّ من رُومانيا ورُوسيا بالاستيطان في قُبرص).

3 : والسَّبب الأهمُّ هُو إبداء تشمبرلين (وزير خارجيَّة بريطانيا) تخوُّفه من المشروع، فهُو قد يُثير السُّكَّان القبارصة، وغالبيَّتهم من اليُونان المسيحيِّيْن، الذين ستتبنَّى قضيَّتهم - لا محالة - كُلٌّ من اليُونان ورُوسيا، وألمح أنَّ حكُومته لا تستطيع إحلال اليهُود محلَّ سُكَّان مسيحيِّيْن بيض (يعني أُورُوبيِّيْن)، واقترح أيَّ مكان آخر في الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة لا يُوجد فيه بيضٌ مسيحيُّون.

وهكذا أيقن تريتش أنَّ لا جدوى من مُتابعة مشروع الاستيطان في قُبرص، وأخذ يُوجِّه مساعيه لدَعْم هرتزل في العمل للاستيطان في العريش وسيناء[1].

ب: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في أوغندا (يُوغندا):

جاء هذا المشروع بعد فشل مشروع الاستيطان اليهُوديّ في العريش وسيناء. ففي عام 1903 (23 نيسان) قابل هرتزل تشمبرلين الذي كان عائداً من رحلة إلى مُستعمرات بريطانيا في أفريقيا. عَرَضَ تشمبرلين على هرتزل الاستيطان في يُوغندا أو (أُوغندا)[2].

وسبب هذا العرض أنَّ بريطانيا كانت تتخوَّف من نتائج التَّدفُّق المُستمرِّ ليهُود أُورُوبا الشّرقيَّة على أُورُوبا الغربيَّة، وبريطانيا بالذّات.

استقبل هرتزلُ العرضَ بالتّرحاب هُو ومُؤيِّدوه على أنْ تكون أُوغندا ملجأً مُؤقَّتاً يتجمَّع فيه ما لا يقلُّ عن مليون يهُودي، يتدرَّبون على الأعمال السِّياسيَّة والزّراعيَّة والعسكريَّة، ثُمَّ ينزحون إلى فلسطين حينما تتهيَّأ الفُرصة لذلك.

---

(1) المصدر: "مشاريع الاستيطان اليهُودي..."، د. أمين محمود، عالم المعرفة، عدد 74، شُباط، 1984، صفحة 200 - 208، باختصار.

(2) أو أُوغندا، وتقع في هضبة البُحيرات شرق أفريقيا، وهي منطقة أمطار دائمة، ومناخها مقبول بسبب ارتفاعها الذي يبلغ حوالي 1000م عن سطح البحر.

ولكنَّ هرتزل أخذ يُفكِّر ـ فيما بعد ـ أنْ تكون أُوغندا منطقة استيطان دائم، وليس مُجرَّد ملجأ مُؤقَّت.

وفي المُؤتمر الصّهيُونيّ السّادس عام 1903، أعلن هرتزل أمام وُفُود المُؤتمر أنَّ الحُكُومة البريطانيَّة قرَّرت وَضْع جُزء من شرق أفريقيا البريطانيَّة تحت تصرُّف المُنظَّمة الصّهيُونيَّة بهَدَف تنفيذ مشروع استيطان يهُود فيها. واقترح إرسال لجنة صهيُونيَّة لدراسة إمكانيَّات الاستيطان في تلك المنطقة، مع عدم التّنازل عن مبادئ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الأساسيَّة في الاستيطان في أرض فلسطين "أرض المعاد".

ولكنَّ هرتزل جابه مُعارضة شديدة من مُمثِّلي يهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة، وقالوا: إنَّ الجماهير اليهُوديَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة لا تقبل أيَّ مشروع استيطان لليهُود في أيِّ مكان بديلاً عن فلسطين، وكان وراء هذا الرَّفْض القاطع جماعة أحبَّاء صهيُون المُتطرِّفة.

وبعد أنْ تسرَّبت أنباء مشروع الاستيطان اليهُوديّ في يُوغندا قامت قيامة المُستوطنين البريطانيِّيْن في شرق أفريقيا (يُوغندا وكينيا وتنزانيا) ضدَّ دولتهم التي اضطُرَّت نتيجة ضُغُوط هؤلاء المُستوطنين، وضُغُوط أرباب المصالح المادِّيَّة والاستعماريَّة في الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة أنْ تتراجع عن عَرْضها لليهُود.

أمَّا الضّربة النّهائيَّة للمشروع؛ فقد جاءت على يد لجنة الدّراسة والاستقصاء التي سَبَقَ وأنْ أُرسلَتْ إلى منطقة شرق أفريقيا، فقد جاء تقريرها سلبيّاً، وغير مُشجِّع، نَظَراً للجوِّ المُعادي للمشروع بين المُستعمرين الأنجلو سكسون، واستعدادهم لمُقاومته بشتَّى السُّبُل[1].

ولم تمض شُهُور قلائل على فشل مشروع يُوغندا حتَّى لَفَظَ هرتزل أنفاسه الأخيرة في 3 تمُّوز 1904. وبعد وفاته بعام؛ اجتمع المُؤتمر الصّهيُونيّ السّابع، وقرَّر التَّخلِّي ـ نهائيّاً ـ عن هذا المشروع.

ج: مشروع الاستيطان اليهُوديّ في الأرجنتين:

وهُو أقدم المشاريع الاستيطانيَّة؛ حيثُ بدأ في نفس الفترة التي قامت فيها مُحاولة تأسيس دولة يهُوديَّة في مدين عام 1891.

---

(1) المصدر "مشاريع الاستيطان اليهُودي. ."، د. أمين محمود، عالم المعرفة، 74، شُباط، 1984، ص 215ـ 222، باختصار.

قام بالمشروع البارون دي هيرش بأمواله الخاصَّة، وبرَّر اختياره للأرجنتين لكَوْن أراضيها من أكثر أراضي العالم خُصُوبة، بالإضافة إلى اتِّساع مساحتها، وقلَّة عدد سُكَّانها، وتمتُّعها بمناخ مُعتدل، فقام بشراء 750 ألف هكتار من الأراضي الأرجنتينيَّة، أسَّس عليها عشرين مُستوطنة، وأخذ يُشجِّع يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة على الهجرة إليها، وقد نَجَحَ - بالفعل - في جلب حوالي 3500 أُسرة يهُوديَّة للاستيطان فيها. وفي تحديده لهدف هذه المرحلة أشار هيرش إلى أنَّه يرمي إلى تقليل عدد المُهاجرين اليهُود من أُورُوبا الشّرقيَّة إلى أُورُوبا الغربيَّة، وبالتَّالي؛ التّخفيف من حدَّة "اللاَّساميَّة"، والمُعاناة اليهُوديَّة، وخَلْق جيل يهُوديّ جديد يُقدِّس العمل في الأرض، ويرضى باحتراف مهنة الزّراعة.

كانت خُطَّة هيرش تقضي بتهجير حوالي 5، 3 مليون يهُوديّ من أُورُوبا الشّرقيَّة إلى الأرجنتين على مدى رُبع قرن، وبالتّدريج؛ بحيثُ يكتمل عدد المُهاجرين دُون أنْ تحدث رُدُود فعْل مُعادية لدى الشّعب الأرجنتيني إزاء هؤلاء المُهاجرين فيما لو تسرَّبوا للبلاد دُفعة واحدة. وقد تولَّى الكُولُونيل غُولد سميد **Smid Gold** مهمَّة الإشراف على إدارة هذه المُستوطنات اليهُوديَّة التي كلَّفت هيرش الملايين من الجُنيهات.

ولكنَّ خُطط هيرش لم تلبث أنْ تعرَّضت للانهيار؛ حيثُ إنَّ الموت لم يُمهل البارون، فقد تُوفِّي في مزرعته بالمجر (هنغاريا) عام 1896، عن 65 عاماً. وفشلت تجربته الزّراعيَّة في الأرجنتين، وهجر غالبيَّة المُستوطنين اليهُود أماكن سُكناهم، وانتقلوا للعمل والإقامة في المُدُن الأرجنتينيَّة. وهكذا؛ لم يتهيَّأ لهيرش تحقيق حُلمه بإنشاء دولة يهُوديَّة على جُزء من أرض الأرجنتين[1].

د: مشاريع الاستيطان اليهُوديّ في أماكن أخرى من العالم:

1: مُوزمبيق وأنغُولا: وهما مُستعمرتان بُرتُغاليَّتان غنيَّتان وكبيرتان (تقع أنغُولا في جنوب غرب أفريقيا، وتقع مُوزمبيق في جنوب شرق أفريقيا).

---

(1) المصدر السّابق نفسه، من ص 196 - 198، باختصار.

قام هرتزل عام 1903، بمساعٍ لدى حكُومة البُرتُغال للسّماح للحَرَكَة الصّهيُونيَّة بتوطين أعداد من يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة في المُوزمبيق وأنغُولا مُقابل تغطية الحَرَكَة الصّهيُونيَّة العَجْز المالي البُرتُغالي، مع الالتزام بتقديم معونة ماليَّة سنويَّة للبُرتُغال.

غير أنَّ الحُكُومة البُرتُغاليَّة خشيتْ من مغبَّة التَّورُّط مع المُنظَّمة الصّهيُونيَّة التي كان واضحاً مدى قُوَّة ارتباطها وصلتها ببريطانيا المُنافسة الكُبرى للبُرتُغال في مجال الاستعمار، ولذلك؛ فإنَّها آثرت تجاهل الاقتراح الذي تقدَّم به هرتزل.

2: **الكُونغُو**: الكُونغُو مُستعمرة ضخمة في وسط أفريقيا تملكها بلجيكا.

قام هرتزل عام 1903، أيضاً بالتَّوسُّط لدى ملك بلجيكا من أجل إقامة دولة يهُوديَّة في الكُونغُو (على جُزء منها)، وتدفع المُنظَّمة الصّهيُونيَّة مُقابل ذلك جزية سنويَّة إلى الحُكُومة البلجيكيَّة، ولكنَّ تخوُّف الرّأسماليَّة البلجيكيَّة على مصالحها الاستثماريَّة في الكُونغُو من خَطَر مُنافسة الرّأسماليَّة اليهُوديَّة حال دُون مُوافقة الحُكُومة البلجيكيَّة على هذه العُرُوض اليهُوديَّة[1].

خاتمة وخُلاصة:

نستخلص ممَّا سَبَقَ ما يلي:

1: إنَّ مشاريع الاستيطان المُقترَحَة سواء كانت في الوطن العَرَبيّ (عدا فلسطين)، أو خارجه كان المقصود من مُعظمها أنْ تكون محطَّة للانقضاض على فلسطين عندما تتوفَّر الظُّرُوف المُناسبة.

2: إنَّ الرّأسماليِّين اليهُود ـ وهُم المُموِّلون لعمليَّات الهجرة والاستيطان ـ كان مُعظمهم من أُورُوبا الغربيَّة، وكان لا يهمُّهم المكان، بل هَدَفَهُم التَّخلُّص من تدفُّق المُهاجرين اليهُود من أُورُوبا الشّرقيَّة إلى أُورُوبا الغربيَّة. وأنَّ تلك الهجرة تُؤثِّر على أوضاعهم الماليَّة ونُفُوذهم في أُورُوبا الغربيَّة، وتُحيي اللاَّساميَّة في غرب أُورُوبا (أيْ العداء لليهُود).

---

(1) المصدر السّابق نفسه، ص 222 ـ 223.

3 : كان المُتشدِّدون من أُورُوبا الشّرقيَّة ـ وهُم الذين قامت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة لحلٍّ مُشكِّلتهم ـ لا يرضون بديلاً عن أرض المعاد فلسطين.

4 : مُعظم مشاريع الاستيطان المُقترَحة (عدا فلسطين) كانت بسبب رَفْض الدّولة العُثمانيَّة، وعلى رأسها السُّلطان عبد الحميد الثّاني السّماح للهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين والاستيطان فيها، ممَّا دعا الحَرَكَة الصّهيُونيَّة إلى إيجاد البدائل لفلسطين ريثما تحين الفُرصة المُناسبة للعودة إلى فلسطين، وقد أتت هذه الفُرصة بعد القضاء على الدّولة العُثمانيَّة عام 1918، ووُقُوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني. وبريطانيا ـ كما أسلفنا ـ هي أكثر الدُّول الأُورُوبيَّة تعاطفاً مع اليهُود، واندفاعاً لحلِّ مشاكلهم. وقد اعتبرت أنْ حلَّ مُشكلتهم بالاستيطان في فلسطين سيكون فيه أكبر خدمة لمصالحها الخاصَّة في المشرق العَرَبيّ، وعلى طريق الهند، ولمصالح الاستعمار الأُورُوبيّ بشكل عامٍّ.

5 : ونُلاحظ ـ ممَّا سَبَقَ ـ أنْ هرتزل لم يجعل فلسطين هَدَفَاً لحركته الصّهيُونيَّة، وهذا هُو ما ذَهَبَ إليه ليوبنسكر من قبلُ. وكان هرتزل يقول: «إنَّ هدفي ليس هُو الأرض المُقدَّسة، بل أيَّة بُقعة من الأرض تُخصَّص لنا»، وغيرهما كثيرون كانوا يرون نفس الرّأي (وخاصَّة من رجال الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة). وقد مرَّ معنا قبل قليل البارون دي هيرتش الذي اختار الأرجنتين لتوطين اليهُود فيها.

وباعتقادي؛ على ضوء ما أسلفنا من الحديث عن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، أنَّ تكريس فلسطين لتكون هي الوطن القوميّ اليهُوديّ المنشود يعود لسببَيْن:

1 : إنَّ مُعظم يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة ورُوسيا والذين قامت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة لحلٍّ مُشكلتهم كانوا يرفضون أيَّ بديل لفلسطين لإقامة الوطن القوميّ اليهُوديّ والدّولة اليهُوديَّة فيه، بالإضافة إلى انتشار حَرَكَة أحبَّاء صهيُون بينهم، ثُمَّ قيام قطاع الصّهيُونيَّة الدِّينيَّة منهم ضمن الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وكلاهما يرفض الهجرة إلاَّ لفلسطين أرض المعاد.

2 : دور بريطانيا التي كانت تُؤيِّد بقُوَّة واندفاع قيام الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين لغايات استعماريَّة كما أسلفنا، وتوَّجت تأييدها هذا بمَنْح اليهُود وعدَ بلفور، واندفاعها بكُلِّ

ما أُوتيت من قُوَّة ونُفُوذ ودهاء لتنفيذ هذا الوعد، والوُصُول إلى الـهَدَف المنشـود، وهُـو قيـام (إسرائيل) اليهُوديَّة في قلب الوطن العَرَبي.

الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين:

وأخيراً؛ حصلت الحَرَكَـة الصّهيُونيَّـة علـى سـند قـانوني بالـهجرة إلـى فلسـطين، والاستيطان فيها، بعد أنْ مَنَحَتْهَا بريطانيا وعدَ بلفور في 2 تشرين الثّاني 1917، ووافق علـى هذا الوعد مُؤتمرُ الصُّلح في فرنسا عام 1919، ثُمَّ أُدخـل فـي صـكِّ الانتـداب الـذي أصدرَتْـهُ عصبة الأُمم المُتَّحدة، وأصبحت بريطانيا مُنتدبةً على فلسطين، مع التَّعهُّد بتنفيذ وعد بلفور.

وقد كان هذا ـ في الحقيقة ـ أكبر نصر تُحقِّقه الصّهيُونيَّة، وخاصَّة الصّهيُونيَّـة السِّياسـيَّة. وكان كُلُّ ذلك بفضل تعاون بريطانيا، ورعايتها للحَرَكَة الصّهيُونيَّة لتكون في دورها المُرتقَـب (عندمـا يتحقَّق الكيـان الصّـهيُونيّ فـي فلسـطين) مخفـراً أماميّـاً للاسـتعمار الغربـيّ عامَّـة، والبريطانيّ خاصَّة في المنطقة العَرَبيَّة، وحارساً أميناً على قناة السُّويس وطريق الهند.

تطوُّر الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين:

إنَّ تطوُّر عمليَّات الاستيطان اليـهُوديّ الصّـهيُونيّ فـي فلسـطين ارتبـط ـ إلـى حَـدٍّ كبيـر ـ بالتّطوُّرات السِّياسيَّة في المنطقة، وبمدى نجاح أو فشل الحَرَكَة الصّهيُونيَّة فـي تـأمين العُنصُرَيْـن الأساسيَّيْن لعمليَّة الاستيطان؛ وهُمـا: الأرض التـي ستُقام عليـها المُستوطنات والجماعـات البشريَّة اللاَّزمة للاستيطان عـن طريـق تـهجير اليـهُود إلـى فلسـطين، بالإضافـة إلـى الأمـوال اللاَّزمة لتحقيق ذلك.

وعلى هذا الأساس يُمكن تقسيم تـاريخ الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسـطين إلى أربـع مراحل رئيسيَّة هي[1]:

---

(1) هُناك مُحاولتان سبقتا هذه المراحل الأربع: الأُولى كانت حوالي 1650م، عندمـا تحـرَّك البيُوريتـان في كُلٍّ من إنكلترا وهُولندا (وهُم من المسيحيِّين الأُصُوليِّين الذين يعتمدون على التّوراة، ويتبنّون عودة اليهُود إلـى أرض المعـاد فلسطين، وكانوا يُسيطرون في هذه الفترة على الحُكم في إنكلترا وهُولندا، وقد عرضوا نَقْلَ اليهُود مـن أُورُوبـا إلـى فلسطين على سُفُنهم، ولكنَّ هذا العرض لم يُنفَّذ. أمَّا الثّانية؛ فكانت نداء نـابليون بونـابرت عـام 1799م، عندمـا تقدَّم لاحتلال بلاد الشّام لليهُود في العالم للعودة إلى فلسطين، وإقامة دولتهم فيها، ولكـنَّ هـذا النّداء فشـل؛ لأنَّ نابليون نفسه تراجع عن بلاد الشّام، وانسحب من مصر عام 1801.

أ: المرحلة الأولى: وتمتدُّ بين عامَيْ 1840 ـ 1882:

في هذه المرحلة التي أعقبت خُرُوج مُحَمَّد علي باشا من فلسطين وعودتها إلى السّلطنة العُثمانيَّة، تميَّزت العلاقات بين بريطانيا (التي كانت القُوَّة الاستعماريَّة التي تقف وراء المشروع الاستيطاني الصّهيُوني) وبين الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة بالتّقارب؛ لأنَّ بريطانيا تزعَّمت حملة إخراج مُحَمَّد علي من سُوريَّة، وإعادتها للسّلطنة العُثمانيَّة. وقد شهدت هذه المرحلة تكثيف المشاريع والمُخطَّطات البريطانيَّة الخاصَّة بتوطين اليهُود في فلسطين، سواء بشكل مُباشر وصريح، أو من خلال شخصيَّات يهُوديَّة معروفة بارتباطها بالدّوائر البريطانيَّة الحاكمة، كذلك جرَتْ مُحاولات بريطانيَّة رسميَّة وغير رسميَّة لإقناع السُّلطان العُثمانيّ بالمُوافقة على المشروع الصّهيُونيّ؛ بحُجَّة أنَّه سيكون بمثابة عقبة أو حاجز في وجه أيَّة مُحاولة يُمكن أنْ يقوم بها مُحَمَّد علي باشا أو أحد خُلفائه للتَّوسُّع على حساب الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة في بلاد الشّام.

كذلك شهدت هذه المرحلة المُحاولات الأُولى لشراء أرض تُخصَّص للاستيطان اليهُوديّ الزّراعي خارج المُدُن الأربع: القُدس، الخليل، صَفَد، طبريَّة، التي كان يُقيم بها بعض اليهُود الذين كانوا يعيشون على الصّدقات (الهالوكا) التي كانت تأتيهم من الخارج، وقد قام بهذه المُحاولات وُكلاء بريطانيُّون. ففي خمسينات القرن الماضي نشط السِّير مُوسى مُونتفيُوري، وهُو مُموِّل ومصرفي يهُوديّ بريطاني سَبَقَ له أنْ حاول إقناع مُحَمَّد علي باشا قبل انسحابه من بلاد الشّام أنْ يُؤجِّره مساحة من الأراضي الفلسطينيَّة لإقامة مُستوطنات يهُوديَّة عليها.

ثُمَّ نشط في شراء الأراضي، وتركَّزت مُشترياته حول الأماكن المُقَدَّسة عند اليهُود حول القُدس وصَفَد. وفي عام 1855، اشترى مُونتفيُوري أوَّلَ قُطعة أرض خارج نطاق المناطق المذكورة؛ حيثُ اشترى مائة دُونم قُرب مدينة يَافَا، وأعقب ذلك شراء أراضٍ أُخرى غرب القُدس عام 1859، وهي الأراضي التي تقوم عليها حاليّاً مُستوطنة "موتسا"، كما حاول مُونتفيُوري إقامة مُستوطنة يهُوديَّة على أراض اشتراها قُرب صَفَد.

وفي سبعينات القرن الماضي، تجدَّدت مُحاولات شراء الأراضي لغرض الاستيطان الزّراعي اليهُوديّ على يد "جمعيَّة تطوير الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين"، وهي جمعيَّة أسَّسها عام 1852، الكُولُونيل جُورج جاملر الحاكم البريطانيّ السّابق لأُستراليا بهَدَف المُساعدة في تدريب اليهُود على الزّراعة، وتوطينهم في فلسطين، وبأموال هذه الجمعيَّة كان يتمُّ شراء الأراضي باسم أشخاص يهُود من المُقيمين في فلسطين (لأنَّ الحُكُومة العُثمانيَّة مَنَعَتْ شراء أراض باسم المُهاجرين اليهُود). وعلى هذا الأساس؛ قامت مجموعة من يهُود القُدس عام 1878، بشراء حوالي 3400 دُونم من أراضي قرية ملبس العَرَبيَّة الواقعة إلى الشّمال الشّرقي من مدينة يَافَا من مالكيها، وهُم من اليُونان (وأُقيمت عليها أوّل مُستوطنة يهُوديَّة سُمِّيت بتاح تكفا؛ أيْ مفتاح الأمل). كما قام يهُوديَّان من صَفَد بشراء أراض في قرية الجاعونة الواقعة في الجليل الأعلى قُرب صَفَد. كما تمَّ شراء بعض الأراضي في قرية عيُون قارة الواقعة جنوب يَافَا، وفي قرية زمَّارين الواقعة على ساحل الكرمل عام 1882، وفي نهاية عام 1882، كان اليهُود يملكون في فلسطين أراض مساحتها حوالي 22 ألف دُونم.

كذلك جَرَتْ مُحاولات لتهجير اليهُود إلى فلسطين في هذه المرحلة، ولكنَّ هذه المُحاولات فشلت، وكان عدد المُهاجرين قليلاً بسبب مُعارضة اليهُود المُتديِّنين الذي كانوا يرون أنَّ الهجرة إلى فلسطين والعودة إلى أرض المعاد لا تتمُّ إلاَّ بعد ظُهُور المسيح المُخلِّص المُنْتَظَر، والعودة - بدُونه - هي مُخالفة لتعاليم التّوراة والتّلمود).

وتُشير المصادر الصّهيُونيَّة إلى أنَّه تمَّ تهجير حوالي عشرة آلاف يهُوديّ إلى فلسطين بين عامي 1840 - 1882، وبذلك وَصَلَ عدد اليهُود في فلسطين عام 1882، إلى حوالي 20 - 25 ألف شخص، لكنَّ اليهُود الذين هاجروا إلى فلسطين انضمُّوا إلى الجاليات اليهُوديَّة الصّغيرة المُقيمة في القُدس وطبريَّة وصَفَد والخليل، وآثروا العيش مثلها على الصّدقات القادمة من اليهُود في الخارج.

وهكذا فشلت المُحاولات الأُولى للاستيطان التي تمَّت في هذه المرحلة، وفشلت المُستوطنات التي حاول مُونتفيُوري إقامتها قُرب يَافَا وبجوار صَفَد. كما أنَّ مُستوطنة بتاح

تكفا فشلت هي الأُخرى، ولم يُنقذها سوى مُساعدات اللُّورد رُوتشيلد الماليَّة، وقُدُوم بعض المُهاجرين اليهُود الجُدُد إليها كما سنرى فيما بعد[1].

وفي هذه المرحلة كان للقُنصليَّات الغربيَّة في القُدس نشاط هامٌّ في مُساعدة اليهُود على شراء الأراضي، والاستيطان فيها؛ لأنَّ القوانين العُثمانيَّة كانت تنصُّ - بصراحة ووُضُوح - على مَنْع بَيْع الأراضي والعقارات في القُدس وضواحيها لليهُود، وقد مارست بريطانيا ضغطاً شديداً على الدّولة العُثمانيَّة لتغيير القانون العُثمانيّ، وجعل القُدس مفتوحة لليهُود يحقُّ لهم استملاك الأراضي والعقارات فيها، ونجحت أخيراً عام 1849، عندما حصل الثّري والمُموِّل البريطانيّ مُونتفيُوري من السُّلطان عبد المجيد على السّماح لليهُود بشراء بعض الأراضي في القُدس وضواحيها (لاحظْ بعض الأراضي، وكُلُّ قطعة تحتاج إلى فَرَمَان خاصٍّ من السُّلطان).

ويقول الدُكتُور أمين محمود في هذه النّاحية: «نشط اليهُود بمُساعدة القُنصليَّات الغربيَّة في القُدس، وخاصَّة القُنصليَّة البريطانيَّة، فتمكَّن مُتموِّلان يهُوديَّان عام 1860، من الحُصُول على قطعتَيْن من الأرض: الأُولى حَصَلَ عليها شلومو يهُوذا بمُساعدة القُنصل البريطانيّ "فين"، وكانت تُشكِّل جُزءاً من أراضي قالدونيا، والثّانية حَصَلَ عليها اليهُوديّ البُرتُغالي جُوزيف ناسي، وكانت تُشَكِّل جُزءاً من الأراضي الخصبة المُمتدَّة حول بُحيرة طبريَّة؛ حيثُ أقام مزرعة كبيرة لأشجار التُّوت (لتربية دُود القزِّ، وإنتاج الحرير الطّبيعي).

ومُنذُ بداية السِّتِّينات من القرن الماضي، بدأ اليهُود يُنشئون الجمعيَّات لتشجيع الاستيطان في فلسطين. ففي عام 1860، تأسَّست جمعيَّة الأليانس العالميَّة (الاتِّحاد اليهُوديّ العالمي) **Universalle Israelite Alliance** في فرنسا بواسطة جماعة من اليهُود الفرنسيِّين كان على رأسهم أدولف كريميه (أو كريميو) النّائب اليهُوديّ في البرلمان الفرنسي[2].

---

(1) المصدر "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة"، بإشراف حبيب قهوجي (إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة)، دمشق، عام 1978، ص 153 - 155.

(2) وهُو مُحام شهير، وقد اشترك مع مُونتفيُوري بالتّدخُّل لإطلاق سراح اليهُود الذين اشتركوا في ذَبْح الأب تُوما وخادمه في دمشق، وهُو الذي حَصَلَ من فرنسا على قرار كريميو الشّهير الذي أعطى يهُود الجزائر الجنسيَّة الفرنسيَّة، وصار لهم نفس حُقُوق المُستوطنين الفرنسيِّين (مرَّ ذلك سابقاً).

وقد لعب آل رُوتشيلد (فرع فرنسا) دوراً بـارزاً فـي توجيـه سياسـات "الاتِّحـاد اليـهُوديّ العـالمي" نحـو خدمـة المصـالح الإمبرياليَّـة الفرنسيَّة فـي منطقـة الشّـرق العَرَبـيّ أيَّـام حُكْـم الإمبراطُور نابليون الثّالث.

وكان الهَدَف من إنشاء "الأليانس" العمل على تقديم المُسـاعدة لليـهُود في كُلّ مكـان، والدّفاع عن "الحُرِّيّات المَدَنيَّة والدِّينيَّة لليهُود، وتنمية المُجتمعات اليهُوديَّة المُختلفـة عـن طريـق التّعليم والتّدريس، وإغاثة اليـهُود في الأزمـات". ومـا لبـث نشـاطها أنْ تقلَّـص ـ فيمـا بعـد ـ لينحصر في مُساعدة اليهُود في فلسطين، والعمل علـى زيادة عددهـم بكُـلّ وسـيلة مُمكنـة. وفـي عـام 1868م، تمكَّـن كريميـه (المذكـور سابقاً) مـن الحُصُـول علـى فَرَمَـان مــن السُّـلطان العُثمانيّ، تمَّ بمُقتضاه السّماح للأليانس باستثمار 2600 دُونم من أراضي قرية يازور القريبة من يَافَا، وذلك لمُـدَّة 99 سـنة. وفـي عـام 1870م، أقـامت الأليـانس عليـها أوَّل مدرسـة زراعيَّـة لليهُود في فلسطين أُطلق عليها اسم "مدرسـة مكفيـة يسـرائيل الزّراعيَّـة" بتمويـل مـن البـارون أدموند دي رُوتشيلد والبارون موريس دي هيرش. وقامت هذه المدرسة بالتّعـاون مـع خُبـراء صُندُوق استكشاف فلسطين بدراسات مُكثَّفة للتُّربة وأنـواع المزروعـات التـي تصلـح لـها كمـا ساهمت المدرسة في تدريب المُهاجرين اليهُود على الأعمال الزّراعيَّة، ونجحت الأليـانس فـي إقامة عدَّة فُـرُوع لـها فـي دُول أُورُوبـا الغربيَّـة[1]. (نُلاحـظ ـ فيمـا سَبَقَ ـ التّعـاون الوثيـق بـين البُورجوازيَّة اليهُوديَّة والبُورجوازيَّة الغربيَّة، وخاصَّة البريطانيَّة).

ب: المرحلة الثّانية:

تمتدُّ هذه المرحلة من عام 1882، حتَّى بداية الانتداب البريطانيّ على فلسطين عـام 1920. وقد شـهدت هـذه المرحلـة نشـأة بعـض المُستوطنات اليهُوديَّة فـي فلسـطين مـع وُصُـول الـهجرة اليهُوديَّة الأُولى التي جاءت على مرحلتَيْن: الأُولى عامَيْ 1881 ـ 1882، والثّاني عـامَيْ 1890 ـ 1891. وقد وَصَلَ هؤلاء المُهاجرون مـن رُوسـيا وبُولنـدا ورُومانيـا، وتُقـدِّر المصـادر الصّهيُونيَّة

---

(1) المصدر "مشاريع الاستيطان اليهُودي.."، د. أمين محمود، سلسلة عالم المعرفـة الكُويتيَّة، عـدد 74، شُـباط، 1984، من ص 61 ـ 63.

عددهم بين 20 ـ 30 ألف مُهاجر، ومُعظمهم من الشّباب المُغامرين المُفلسين الذين جنَّدتهم الاستخبارات البريطانيَّة (وخاصَّة في الحرب العالميَّة الأُولى ضدَّ الدَّولة العُثمانيَّة).

وتدَّعي المصادر الصّهيُونيَّة أنَّ هؤلاء المُهاجرين كانوا يعتمدون في إقامة المُستوطنات على مُساعدات جمعيَّات "أحبَّاء صهيُون"، ولكنَّ عدم خبرة المُهاجرين بالزّراعة وفَقْر الموارد الماليَّة لجمعيَّات أحبَّاء صهيُون جَعَلَ المُستوطنات التي أُقيمت في بداية هذه المرحلة على وشك الإفلاس. ومرَّة أُخرى؛ أمَّنتْ بريطانيا غطاءً يهُوديّاً لعمليَّة الاستيطان اليهُوديّ وتمويله في شخص البارون أدموند دي رُوتشيلد (وهُو بريطاني كما أسلفنا، وينتمي إلى عائلة كبيرة من المصرفيِّين ورجال الأعمال، وللعائلة فُرُوع مصرفيَّة في بريطانيا وفرنسا وألمانيا ودُول أُورُوبيَّة أُخرى).

ففي الفترة ما بين 1886 ـ 1890، قدَّم رُوتشيلد المُساعدة الماليَّة والخبرة للمُستوطنين، وأقام إدارة تابعة له تتولَّى الإشراف على شُؤُون المُستوطنات. وجَعَلَ المُستوطنات تتخصَّص في زراعة الكُرُوم، وبناء المصانع للنّبيذ، ووَضْع ترتيبات لتسويق النّبيذ المُنتَج في الخارج. وتركَّزت إدارة المزارع ومصانع النّبيذ في أيدي الخُبراء الذين أرسلهم رُوتشيلد، ولم يكن للمُستوطنين أيّ شأن بالقرارات. وتُشير المصادر الصّهيُونيَّة إلى هذه النّاحية بوُضُوح، وتُقرُّ بأنَّه: «هكذا تلاشت الدّوافع الطّلائعيَّة، وَحَلَّتْ محلَّها الكراهيَّة والمرارة ضدَّ السّيطرة الكُلِّيَّة لرُوتشيلد وأجهزته».

ومن الجدير بالمُلاحَظَة أنَّ المُساعدات التي كان يُقدِّمها رُوتشيلد للمُزارعين لم تكن تتمّ على أساس اقتصادي، أو حسب إنتاجيَّة المزارع، بل حسب عدد أفراد عائلته، ممَّا يدلُّ على أنَّ المشروع الاستيطاني الصّهيُونيّ لم يكن ـ مُنذُ بدايته ـ قائماً على أساس حسابات اقتصاديَّة، وعلى أساس الرّبح والخسارة.

وفي فترة إشراف رُوتشيلد على عمليَّة الاستيطان استمرَّت عمليَّات شراء الأراضي، وأُقيم عدد من المُستوطنات على دفعتَيْن:

الأُولى: ما بين عامَيْ 1882 ـ 1884؛ حيثُ أُقيمت مُستوطنات:

ـ بتاخ تكفا قُرب القرية العَرَبيَّة ملبس شرقي يَافَا (مُقامة سابقاً، وتمَّ توسيعها).

- ريشيون ليتسيون (عيُون قارة).
- نيس تسيونا (وادي جنين).
- عقرون وجديرا (قطرة) في السّهل السّاحلي جنوب يَافَا.
- مُوتسا في منطقة القُدس.
- روش بينا (الجاعونة) في الجليل الأعلى الشّرقي.
- يسود همعلاه مشمار هايأُردُن، في وادي الحولة.
- زخرون يعقُوب على ساحل الكرمل جنوب حَيْفَا.

أمَّا الثّانية؛ فكانت بين 1891 - 1896؛ حيثُ أُقيمت مجموعة أُخرى من المُستوطنات:

- رحبوت، بتير توفيا في السّهل السّاحلي جنوب يَافَا.
- الخضيرة في السّهل السّاحلي بين يَافَا وحَيْفَا.
- المطله "متولا" في الجليل الأعلى الشّرقي.

وفي عام 1896، انتقلت إدارة المُستوطنات اليهُوديَّة القائمة آنذاك في فلسطين، والإشراف على عمليَّة الاستيطان إلى "جمعيَّة الاستيطان اليهُودي" التي أسَّسها البارون مُوريس هيرش المصرفي اليهُوديّ عام 1891، وَسَجَّلَهَا في لندن كشركة رأسمالها 8 مليون جُنيه إسترليني للعمل على مُساعدة اليهُود الذين يتعرَّضون للاضطهاد على الهجرة إلى فلسطين، والاستقرار في أعمال مُنتجة. وكان البارون رُوتشيلد من أبرز أعضاء مجلس إدارة هذه الجمعيَّة.

بدأت جمعيَّة الاستيطان اليهُوديّ تُقدِّم المُساعدات لبعض المُستوطنات، وكانت تُعطي هذه المُساعدات على شكل قُرُوض بدلاً من المنح، ونُقلت إدارة شؤُون المزارع ومعامل النّبيذ إلى المُستوطنين، وخَفَّفت من صرامة القيُود التي كانت تفرضها إدارة رُوتشيلد على المُستوطنين، كذلك بدأت الجمعيَّة في شراء الأراضي، وإنشاء مُستوطنات جديدة مُنذُ عام 1900، فأقامت عدداً من المُستوطنات في منطقة الجليل الأدنى الشّرقي ومنطقة طبريَّة.

وفي هذه المرحلة ـ أيضاً ـ حَدَثَتْ الهجرة الثّانية بين 1903 ـ 1914، وهي شبيهة بالـهجرة الأُولى من حيثُ إنَّها كانت تتكوَّن من أفراد الشّباب المُفلسين.

كما شهدت هذه المرحلة بدء نشاط المُنظَّمة الصّهيُونيَّة وأجهزتـها الماليَّـة فـي مجـال شـراء الأراضـي والاستيطان[1]. ففـي الفـترة مـا بــين 1905 ـ 1907، اسـتطاع الصُّنـدُوق القومـيّ اليهُوديّ "الكارن كايميت" الذي تأسَّس عام 1902، شراء بعض الأراضي في الجليـل الأدنـى. وفي عام 1908، فَتَحَتْ المُنظَّمة الصّهيُونيَّة مكتبـاً لـها فـي يَافـا، وقـد ظلَّ هـذا المكتـب حتَّـى العشرينات من هذا القرن هُو المسؤول عن كافَّة شُؤُون الاستيطان وشـراء الأراضـي وتخطيـط المُستوطنات وتزويدها بالآلات وتأمين الإرشاد الزّراعي للمُستوطنين الجُدُد.

وقد تفرَّع عن الصُّندُوق القوميّ اليهُوديّ في هذه الأثناء شركة خاصَّـة لشـراء الأراضـي هي "شركة شراء وتطوير الأراضي". وبدأت الشّركة أوَّل شراء لها عام 1909؛ حيثُ اشـترت مساحة قدرها 2370 دُونماً في شرقي مرج ابن عامر (قُرب جَبَل طابور جنوب شـرق النّاصرة) أُقيمت عليها مدرسة زراعيَّة تحوَّلت ـ فيما بعد ـ إلى مُستوطنة تُدعى "مرحافيا".

وهكذا وَصَلَتْ مساحة الأراضـي التـي يملكـها اليـهُود فـي عـام 1914، حسـب المصـادر الصّهيُونيَّة 418 ألف دُونم، كما وَصَلَ عدد اليهُود فـي فلسـطين إلـى حوالـي 85 ألـف نسـمة، وكانت مُوزَّعة على النّحو التّالي: 16 مُستوطنة على طُول الخطّ الحديدي بين يَافَـا والقُـدس، أربع مُستوطنات على نهر العُوجا الذي يصبُّ شمال يَافَـا، 24 مُسـتوطنة فـي الجليـل الأعلـى والسّهل السّاحلي.

وفـي سنوات الحـرب العالميَّـة الأُولـى (1914 ـ 1918)، توقَّفـت النّشاطات الصّهيُونيَّـة الاستيطانيَّة في فلسطين، وتناقص عدد اليهُود في البلاد من 85 ألف إلى 55 ألف[2].

---

(1) قبل هذه المرحلة لم تكن المُنظَّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة قد ظَهَرَتْ بعدُ، لذلك كـان الذيـن يقومـون بعمليّـات الـهجرة وشراء الأراضي والاستيطان شخصيَّات يهُوديَّة ثريَّة مثل مُونتفيُوري ورُوتشيلد وهيرش (كما مـرَّ معنـا)، أمَّـا الآن؛ فأصبحت المُنظَّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة هي التي تتولَّى ذلك بعد قيام الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.

(2) المصدر "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة"، بإشراف حبيب قهوجي (إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة)، دمشق، عام 1974، ص 155 ـ 157.

في هذه المرحلة الثّانيـة؛ تمَّ عقـد المُؤتمـر الصّـهيُوني ّ الأوَّل فـي مدينة بـال بسويسـرا عـام 1897، وقد حضره 204 مندوبين من مُختلف الهيئات والمُنظّمات والجمعيّـات الصّهيُونيَّة في العالم (كان بينهم 70 مندوباً من رُوسيا وحدها نَظَراً لعدد اليهُود الكبير فيها).

تمَّ انتخـاب هرتـزل رئيسـاً للمُؤتمـر، بالإضافـة إلـى انتخـاب المجلس الرّئاسـي للمُؤتمـر، وأُمناء السِّرّ، وأعضاء لجنة العمل التي اتّخذت مـن مدينـة فيينـا (عاصمـة النّمسـا) مقـرّاً لـها، وكان أهمّ إنجازَيْن للمُؤتمر الصّهيُوني ّ الأوّل هُما:

أ: إقرار برنامج الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الذي أصبح يُعرَف ببرنامج بازل الصّهيُوني.

ب: تأسيس المُنظّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة لتنفيذ هذا البرنامج.

وجاء تحديد المُؤتمر لهدف الصّهيُونيَّة الذي تسعى لتحقيقه على النّحو التّـالي: «إنَّ غايـة الصّهيُونيَّة هي إنشاء وطن قومي ّ لليهُود في فلسـطين يحظـى بـاعتراف دُول العـالم، ويضمنـه القانون الدّولي»، والنَّصُّ بهذا الشّكل يُمثِّل رأي الصّهيُونيَّـة السِّياسـيَّة، وقـد عـارض بعـض المُؤتمرين كلمة "وطن"، وأرادوا أنْ تكون "دولة"، ولكنَّ هرتزل نَصَحَ بأنَّ تكون "وطـن قومـي" وليس "دولة قوميَّة"، خوفاً من إثارة الدّولة العُثمانيَّة، وحتّـى لا يتسبَّب ذلـك فـي رُدُود فعْـل مُعادية لليهُود من جانبهم[1].

ثُمَّ أخذ هرتزل بإجراء اتِّصالات واسعة مع الدُّول صاحبة الشّأن والتّـأثير للوُصُـول إلـى هـدف الحَرَكَـة الصّهيُونيَّـة فـي إنشـاء الوطـن القومـي ّ اليـهُودي ّ فـي فلسـطين[2]، وأهــمُّ هــذه الاتِّصالات كانت مع ألمانيا والدّولة العُثمانيَّة وبريطانيا. وسأتحدَّث عن هذه الاتِّصالات نَظَـراً لأهمِّيَّتها في كَشْف وبيان الإغراءات والضُّغُوط والدّسائس التي قام بها اليهُود للوُصُـول إلـى تحقيق هَدَفهم في إقامة الوطن القومي ّ اليهُودي ّ في فلسطين، ثُمَّ الوُصُول إلى الهَدَف النّـهائي في إقامة (إسرائيل) في قلب الوطن العَرَبي.

---

(1) المصدر "مشاريع الاستيطان اليهُودي.."، د. أمين محمود، سلسلة عالم المعرفـة الكُويتيَّة، عـدد 74، شُـباط، 1984، من ص 154.

(2) هذا كُلُّه في المرحلة الثّانية من الاستيطان.

هرتزل وألمانيا: (المجال الأوَّل لنشاط هرتزل):

كانت ألمانيا أوَّل دولة يتَّجه إليها هرتزل طالباً مُساعدتها في إقامة الكيان اليهُوديّ في فلسطين للأسباب التّالية:

1: كان اليهُود الألمان يُشكِّلون نسبة كبيرة من يهُود أُورُوبا الغربيَّة، بالإضافة إلى أنَّ ثقافة هرتزل كانت ألمانيَّة.

2: كانت العلاقات بين ألمانيا والدّولة العُثمانيَّة على أحسن ما يكون، فقد وَجَدَتْ ألمانيا في الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة مجالاً مُمتازاً لاستثمار رُؤُوس الأموال الألمانيَّة الفائضة، وَوَجَدَتْ الدّولة العُثمانيَّة سَنَداً قويّاً في ألمانيا للوُقُوف في وجه الأطماع الإنكليزيَّة والفرنسيَّة والرُّوسيَّة في أملاكها، (وكانت كُلٌّ من إنكلترا وفرنسا ورُوسيا قد اقتطعت مناطق واسعة من أملاك الدّولة العُثمانيَّة، وكانت تُسمِّي الدّولة العُثمانيَّة بالرّجل المريض). هذا؛ بالإضافة إلى الصّداقة الحميمة التي كانت تربط إمبراطُور ألمانيا غليوم الأوَّل بالسُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد الثّاني.

تمكَّن هنرتزل من مُقابلة إمبراطُور ألمانيا في الآستانة (استامبول) عام **1898**، (وكان في زيارة وُدّيَّة للسّلطنة العُثمانيَّة)، وَعَرَضَ عليه أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وَضَرَبَ على الوتر الحسَّاس لدى حُكَّام أُورُوبا الغربيَّة، وهُو الخوف من انضمام المُهاجرين اليهُود من أُورُوبا الشّرقيَّة للأحزاب الاشتراكيَّة والحَرَكَات الثّوريَّة، وأبان له أنَّ إبعاد اليهُود الشّرقيِّين وتوطينهم في فلسطين التي ستكون في المُستقبل محميَّة ألمانيَّة، وسيكون في ذلك فائدة عظيمة لألمانيا وللدُّول الأُورُوبيَّة الغربيَّة، وحذَّر، في معرض حديثه، من مغبَّة فشل المشروع؛ حيثُ إنَّ مئات الأُلُوف من اليهُود (إثر الفشل) ستنضمُّ دفعة واحدة، وبشكل جماعي للأحزاب الثّوريَّة المُنتشرة في أُورُوبا، وألمح له أنَّ الكيان اليهُوديّ في فلسطين سيكون في خدمة مصالح ألمانيا في المشرق العَرَبي.

ولدى اجتماع الإمبراطُور الألماني بالسُّلطان العُثمانيّ تطرَّق إلى مُعاناة اليهُود، وضرورة السّماح لهم بالاستيطان في فلسطين، ولكنَّ الإمبراطُور لمس من السُّلطان فُتُوراً ومُعارضة، فتوقَّف عن مُتابعة الحديث في الموضوع.

أمَّا بريطانيا وفرنسا؛ فكانتا ترقبان الجُهُود التي يبذلها هرتزل بحذر، وتُشجِّعان السُّلطان على الرَّفْض حتَّى لا تنجح الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بمُساعدة ألمانيَّة، وتُصبح في المُستقبل امتداداً للنُّفُوذ الألماني في سُوريَّة. وبذلك تُصبح خطراً على قناة السُّويس، وخطراً على النُّفُوذ الفرنسي في لُبنان (بين الطّائفة المُورانيَّة).

والحقيقة أنَّ الإمبراطُور الألماني كان مدفوعاً في تأييد الأفكار الصّهيُونيَّة من قبَل بعض أقاربه من الأُسرة المَلكيَّة الحاكمة. أمَّا الحُكُومة الألمانيَّة؛ فكانت ترى - مُنذُ البداية - رأياً مُخالفاً لآراء الإمبراطُور، ولم تأخذ مزاعم هرتزل بولاء اليهُود لألمانيا مأخذ الجدِّ، وكذلك بولائهم للدّولة العُثمانيَّة. كما أنَّها لم ترَ في الحَرَكَة الصّهيُونيَّة القُدرة على تحقيق المشروع الصّهيُوني، وكانت ترى أنَّ حماية المشروع الصّهيُوني أو مُساندته قد تُسيء إلى علاقاتها الوطيدة بالدّولة العُثمانيَّة[1].

هرتزل والدّولة العُثمانيَّة: (المجال الثّاني لنشاط هرتزل):

الدّولة العُثمانيَّة هي المفتاح في تنفيذ أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بإنشاء الوطن القوميّ لليهُود في فلسطين، ففلسطين جُزء من مُمتلكاتها، لذلك قرَّر هرتزل الحُصُول على مُوافقة السُّلطان العُثمانيّ نفسه على تنفيذ خُطَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين بحمايته ورعايته. وكان هرتزل - في نفس الوقت - يسعى للحُصُول على تأييد إحدى الدُّول الكُبرى، بالإضافة إلى الدّولة العُثمانيَّة، قبل البدء بإرسال مُهاجرين يهُود إلى فلسطين.

وفي أثناء انعقاد المُؤتمر الصّهيُونيّ الثّالث 1899، أرسل هرتزل إلى السُّلطان عبد الحميد رسالة كُلّها نفاق وتزلُّف، وممَّا جاء فيها: «إنَّ الصّهيُونيِّيْن المُجتمعين في مُؤتمر بازل يعتبرون أنَّ واجبهم الأوَّل هُو أنْ يرفعوا إلى أعتاب عرش جلالة السُّلطان تعهُّداتهم بإخلاصهم وتقديرهم للُطف جلالته نحو رعاياه اليهُود. إنَّ الصّهيُونيِّيْن يرغبون في إغاثة إخوانهم التُّعساء في دُول أُورُوبا المُختلفة، وفي الإسهام في عظمة الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة وازدهارها، وإنَّهم ليأملون بإخلاص أنْ تحظى هذه الرّغبات بتقدير وتشجيع حكْمة الخليفة العظيمة».

---

(1) المصدر "مشاريع الاستيطان اليهُودي..."، د. أمين محمود، سلسلة عالم المعرفة الكُويتيَّة، عدد 74، شُباط، 1984، من ص 159 - 166، باختصار.

وكان هرتزل يُدرك الوَضْعَ المالي الخطير في الدّولة العُثمانيَّة والدُّيُون الهائلة المُترتِّبة عليها للبُيُوتات الماليَّة الأُورُوبيَّة، ولذا؛ فما كان من هرتزل إلاَّ أنَّ عَرَضَ على السُّلطان خدمات المُموِّلين اليهُود قائلاً: «وسيكون للمُساعدة الماليَّة التي سيُقدِّمها اليهُود إلى تُركيا أكبر الأثر في حلِّ الكثير من المشاكل والأزمات الدّاخليَّة، والتي تبدو - الآن - وكأنَّها مُستعصية الحلِّ»، ولكنَّ السُّلطان تجاهل رسالة هرتزل؛ إذْ لم يردّ عليها.

استمرَّ هرتزل بمساعيه لمُقابلة السُّلطان، وَدَفَعَ مُبالغ ماليَّة كبيرة لرجال الحاشية؛ ليتمكَّن من مُقابلة السُّلطان، واستعان - أيضاً - بمُستشرق يهُوديّ مَجَري يُدعى أرمينيوس فامبيري، وكانت تربطه بالسُّلطان صلة وثيقة، وكان يُتقن اثنَتَيْ عشرة لُغة، واعتنق خمسة أديان، خَدَمَ في ديانتَيْن منها كرجل دين.. والدّلائل تُشير إلى أنَّه كان يعمل لصالح الاستخبارات البريطانيَّة.

وأخيراً؛ تمَّت المُقابلة مع السُّلطان عام **1901**، بصفة هرتزل زعيماً يهُوديّاً وصُحُفيَّاً بارزاً، وحذَّر فامبيري هرتزل من التَّطرُّق إلى موضوع الصّهيُونيَّة وأهدافها قائلاً له: «إيَّاك أنْ تُحدِّثه عن الصّهيُونيَّة، إنَّ القُدس عند هؤلاء النّاس (أيْ الأتراك) مُقَدَّسة مثل مكَّة».

دامت المُقابلة مع السُّلطان ساعتَيْن، حرص هرتزل فيها على عدم التَّعرُّض لموضوع الهجرة اليهُوديَّة والاستيطان في فلسطين، وَرَكَّزَ حديثه مع السُّلطان على موضوع الخدمات الماليَّة، وإنقاذ الاقتصاد العُثمانيّ من خطر الإفلاس عن طريق مُموِّلين يهُود بقُرُوض طويلة الأجل، وكُلُّ ما طَلَبَهُ من السُّلطان خلال المُقابلة هُو صُدُور بيان وُدِّي من السُّلطان يَعِدُ بتقديم الدَّعْم لهرتزل وأصدقائه حينما تدعو الحاجة لذلك في المُستقبل.

ثُمَّ زار هرتزل الأستانة مرَّة ثانية وثالثة خلال عام **1902**، ولكنَّه لم يستطع مُقابلة السُّلطان، وكانت اتِّصالاته مع المُستشارين أمثال عزَّت باشا العابد وأفراد بطانته، وتفاوض معهم، وكانوا يعرفون موقف السُّلطان من أهداف وغايات هرتزل، وَرَفَضَ السُّلطان القاطع لها، ولكنَّهم أطالوا المُفاوضات طَمَعَاً بالرّشاوى والهبات اليهُوديَّة، فقد كَتَبَ هرتزل في مُذكّراته أنَّه حين قابل السُّلطان عام **1901**، وزَّع حوالي **40** ألف فرنك على أفراد حاشية السُّلطان الذين أفهموه أنَّهم هُم الذين هيَّؤوا له هذه المُقابلة.

وأخيراً؛ أدرك هرتزل أنَّ الاتِّصالات والمُفاوضات مع الدّولة العُثمانيَّة لن تُجدي نفعاً، فالسُّلطان صرَّح أكثر من مرَّة: «إنِّي لا أستطيع التَّخلِّي عن شبر واحد من فلسطين حتَّى مُقابل الملايين»، ففلسطين وبيت المَقْدس بالذّات لهما مكانتهما الخاصَّة في العالم الإسلامي، والسُّلطان كان مُتمسِّكاً بوحدة دولته، ولم يكن مُستعداً لإضافة أقلِّيَّة، أو عرْق جديد لباقي الأعراق والأجناس المُتنافسة في دولته، وحتَّى لا يُعطِّي مُبرِّراً جديداً تستغلُّه الدُّول الكُبرى في زيادة تدخُّلها في شُؤُون دولته الدّاخليَّة.

اضطُرَّ هرتزل بعد زيارته الأخيرة في يُوليُو/ تمُّوز 1902، إلى وَقْف اتِّصالاته بالعُثمانيِّين، والبحث عن حليف جديد، وبعد أنْ اقتنع بأنَّ حُصُول اليهُود على فلسطين لن يتمَّ إلاَّ بعد القضاء على السُّلطان عبد الحميد، وتقسيم الدّولة العُثمانيَّة[1].

هرتزل وبريطانيا: (المجال الثّالث لنشاط هرتزل):

قبل الحديث عن هرتزل وبريطانيا لابُدَّ من تقديم صُورة عن أحوال اليهُود في بريطانيا وقُوَّة هذه الدّولة ونُفُوذها الواسع فيْ بدايات القرن العشرين.

كانت بريطانيا ـ كما رأينا فيما سَبَقَ ـ تعطف على اليهُود، وتحتضنهم، وتُحاول أنْ تجد الحُلُول للمسألة اليهُوديَّة. وكانت أكثر أقطار أُورُوبا الغربيَّة أمناً لهم، وكان البريطانيُّون شعباً وحُكُومة يتعاطفون مع اليهُود، وخاصَّة بعد قيام حَرَكَة الإصلاح الدِّينيِّ، وظُهُور المذهب البيُوريتاني الذي كان أقرب إلى اليهُوديَّة منه إلى المسيحيَّة (راجع بحث الصّهيُونيَّة المسيحيَّة في بريطانيا). وكان اندفاعهم في تحقيق نُبُوءات التّوراة في العودة إلى أرض المعاد أكثر من اليهُود أنفسهم.

وكان النُّفُوذ اليهُوديّ في الجُزُر البريطانيَّة قد أخذ بالازدياد مُنذُ ثورة أُوليفر كرُومويل، واستمرَّ بالازدياد والتَّغلغُل في البلاد، فكان العديد من رجال الدّولة من اليهُود أمثال: مُونتفيُوري ودزرائيلي، وكان عُمدة لندن في أكثر الأحيان من اليهُود. وقد وَصَلَ ثلاثة من اليهُود إلى منصب حاكم الهند نيابة عن الملك. وقد رأينا كيف أنَّ اليهُود كانوا يُزوِّجُون

---

(1) المصدر السّابق نفسه، من ص 166 ـ 174، باختصار، عالم المعرفة 74، شُباط، 1984، د. أمين محمود.

الحسناوات من بناتهم إلى النُّبلاء الإنكليز، ويُغرونهم بذلك بشتَّى الطُّرُق والأساليب، حتَّى أصبح العديد من نُبلاء الإنكليز إمَّا أزواج يهُوديَّات، أو أبناء يهُوديَّات.

وكانت بريطانيا تتبنَّى قضايا اليهُود. وفي بعض الأحيان؛ تكون أكثر اندفاعاً من اليهُود أنفسهم في إيجاد الحُلُول لمشاكلهم.

ولم تكن بريطانيا دولة عاديَّة في بداية القرن العشرين، فقد كانت أكبر دولة استعماريَّة في العالم، وكانت أملاكها تنتشر في جميع قارَّات العالم المأهولة، وكانت الشّمس لا تغرب عن أملاكها، التي كانت تبلغ مساحتها حوالي 33 مليون كيلومتر مُربَّع؛ أيْ حوالي 25٪ من مساحة الأرض اليابسة المعمورة.

وكان سُكَّان هذه الإمبراطُوريَّة المُترامية الأطراف حوالي 400 مليون نسمة من أصل 1550 مليون نسمة عدد سُكَّان العالم؛ أيْ حوالي 40٪ من سُكَّان العالم كانوا تحت النُّفُوذ البريطاني[1]. (وكان أهمّ مُستعمراتها: الهند وباكستان وبنغلاديش وبُورما وماليزيا وسيلان وأُستراليا ونيُوزيلندا وكَنَدَا.. إلخ).

وكانت مُستعمراتها أغنى المُستعمرات، وأكثرها سُكَّاناً.

وكانت لُغتها الإنكليزيَّة أكثر لُغات العالم انتشاراً (ولا تزال).

وكان الجُنيه الإنكليزيّ الإسترليني أقوى عُملة في العالم.

وكانت أساطيلها التّجاريَّة والحربيَّة تجوب مُحيطات وبحار العالم.

وكانت جيُوشها أضخم الجيُوش في العالم (ومُعظمها من أبناء المُستعمرات، وخاصَّة الهند).

هذه هي بريطانيا في ذلك الزّمان، واستمرَّت على هذه العظمة والقُوَّة حتَّى نهاية الحرب العالميَّة الثّانية؛ حيثُ أخذت بالتّراجع، واستقلَّت مُستعمراتها، وانتقلت السّيطرة والنُّفُوذ في العالم إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

---

(1) المصادر الإحصائيَّة السّابقة هي الجَغرافية الطّبيعيَّة، الأُستاذ عُمر الحكيم، وعلم السُّكَّان، د. عبد الكريم اليافي.

لقد أحببتُ أنْ أُقدِّم هذه العُجالة عن قُوَّة بريطانيا ونُفُوذها الهائل حتَّى يُدرك القارئ الكريم السَّنَدَ القوي الذي استند عليه اليهُود في بناء وطنهم القوميّ في فلسطين، وإنشاء (إسرائيل) فيها.[1]

وهكذا في أعقاب الفشل الذي مُني به هرتزل لدى كُلٍّ من الإمبراطُور الألماني والسُّلطان العُثماني، لجأ بعد ذلك إلى التّركيز على بريطانيا. وقد بدأ يتَّضح لهرتزل أكثر فأكثر أنَّ بريطانيا هي الدّولة الوحيدة التي تملك الإرادة والقُدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين. أمَّا الدُّول الأُورُوبيَّة الأُخرى؛ فقد ثبت أنَّها كانت تفتقد القُدرة على التّنفيذ لأيٍّ مشروع الاستيطان لليهُود في فلسطين، وأنَّ أقصى ما كان بإمكانها أنْ تُقدِّمه هُو الدَّعْم المعنوي للمطامع الصّهيُونيَّة.

بدأت اتِّصالات هرتزل ببريطانيا خلال انعقاد المُؤتمر الصّهيُونيّ الرّابع في لندن عام 1900، وقد أعلن في إحدى جلسات المُؤتمر أنَّ: «بريطانيا العظيمة المُتحرِّرة سوف تستوعب عُمق أهدافنا، وتُدرك بُعْدَ مطامحنا من خلال نظرتها الشّموليَّة للعالم وقُوَّتها العسكريَّة المُسيطرة في شتَّى أرجاء العالم، ومصالحها الاقتصاديَّة المُنتشرة في كُلِّ مكان، وإذا ما تسنَّى لنا الانطلاق من إنكلترا، فلاشَكَّ أنَّ مسيرة الفكْرة الصّهيُونيَّة ستتزايد وتتصاعد أكثر من أيِّ وقت مضى».

كان هرتزل يُدرك طبيعة المركز القيادي المُتميِّز الذي كانت تحتلُّه بريطانيا بالنّسبة للحَرَكَة الإمبرياليَّة العالميَّة، بالإضافة إلى وُجُود مصالح حيويَّة لها في منطقة الشّرق العَرَبيّ؛ خاصَّة بعد احتلالها مصر وقُبرص، ورغبتها في زَرْع المنطقة بأعداد كافية من "المُستعمرين البيض"، كما حَدَثَ في قارَّة أفريقيا (جنوب أفريقيا ورُوديسيا الجنوبيّة والشّماليَّة وكينيا وأُوغندا.. إلخ). ولذلك كان من الطّبيعي أنْ يحدث التقاء بين الحَرَكَة الصّهيُونيَّة والإمبرياليَّة البريطانيَّة. وكما قال هرتزل: «إنَّ الإنكليز نجحوا في السّيطرة على أجزاء واسعة من العالم لأنَّهم كانوا أوَّل مَنْ أدرك أهمِّيَّة التّوسُّع الاستعماري عبر البحار، ولذا؛ فإنَّ إنجلترا ستتفهَّم حقيقة الفكْرة الصّهيُونيَّة ـ باعتبارها فكْرة استعماريَّة ـ بمُنتهى السُّهُولة واليُسْر».

---

(1) والسّند القوي الآن ومُنذُ نهاية الحرب العالميَّة الثّانية للحَرَكَة الصّهيُونيَّة هُو الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة أقوى دولة في العالم عسكريّاً واقتصادياً ومالياً.

كذلك كانت بريطانيا ـ آنذاك ـ مُهتمَّة بشكل واضح بذلك السّيل من المُهاجرين اليهُود الرُّوس المُتَّجه إليها، وإيجاد حَلٍّ له بتوطينه خارج بريطانيا. فقد بدأت تظهر رُدُود فعْل مُعارضة له لدى الرّأي العامِّ البريطاني. ففي الفترة بين عامَيْ 1902 ـ 1905، تبنَّى تشمبرلين[1] عدداً من المشاريع التي كانت تهدف إلى تجميع أكبر عدد مُمكن من اليهُود، والتّهيئة لإقامة كيان سياسي لهم. وكان تشمبرلين يعتقد بأنَّ إنشاء كيان سياسي يهُوديّ في منطقة خاضعة للنُّفُوذ البريطانيّ يضمن لبلاده وُجُود قُوَّة مُوالية لها، تعمل على تثبيت نُفُوذها ودَعْمه. وبالإضافة إلى ذلك؛ كان يهمُّ تشمبرلين الحُصُول على الدَّعْم المالي اليهُوديّ لمشاريع بريطانيا التّوسُّعيَّة؛ لا سيَّما وأنَّ مُعظم المُؤسَّسات الماليَّة اليهُوديَّة كانت تتَّخذ من العاصمة البريطانيَّة مقرّاً لها[2].

وقد مرَّ معنا كيف دَعَمَتْ بريطانيا وأيَّدت مشاريع الاستيطان في مدين وسيناء وأُوغندا.. إلخ.

ولكنَّ الفُرصة الذّهبيَّة سُرعان ما جاءت في أواخر الحرب العالميَّة الأُولى مُتمثِّلة بوعد بلفور، وانهيار الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة، ووُقُوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

وسنُفرد ـ فيما بعد ـ بحثاً خاصّاً عن وعد بلفور، وتعهُّد بريطانيا بإنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين. والآن؛ نعود لنُكمل مراحل الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين، مُتحدِّثين عن المرحلة الثّالثة منه.

ج: المرحلة الثّالثة:

امتدَّت هذه المرحلة خلال فترة الانتداب من **1920** إلى **1948**. فمع انتهاء الحرب العالميَّة الأُولى، وصُدُور وعد بلفور، وفرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، والتزام الدّولة المُنتدبة بالعمل على تحقيق مشروع التّوطين القوميّ اليهُودي، تجدَّد النّشاط الصّهيُونيّ الاستيطاني على نطاق واسع.

---

(1) تشمبرلين كان وزير خارجيَّة بريطانيا، ثُمَّ رئيس وُزرائها في الحرب العالميَّة الأُولى.

(2) المصدر "مشاريع الاستيطان اليهُودي.." د. أمين محمود، سلسلة عالم المعرفة الكُويتيَّة، عدد 74، شُباط، 1984، من ص 174 ـ 176، باختصار.

وبعد أنْ كان الاستيطان في المرحلة الثّانية يتمُّ بطُرُق مُلتوية تحايلاً على القوانين العُثمانيَّة التي تمنع انتقال الأراضي لليهُود، وخاصَّة في منطقة القُدس، وتمنع الهجرة اليهُوديَّة الجماعيَّة إلى فلسطين، انقلب الوَضْع تماماً بعد فرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، وأصبحت الدّولة الحاكمة تدعم الاستيطان اليهُوديّ، وتدفُّق المُهاجرين اليهُود، وانتقال الأراضي لهم، وتتعهَّد بإزالة كُلِّ العقبات التي تقف دُون ذلك.

وأثناء الانتداب البريطانيّ؛ أصبح الاستيطان في فلسطين يتمُّ من خلال المُنظَّمة الصّهيُونيَّة، التي أصبحت بمثابة وكالة يهُوديَّة مُعترف بها من قبَل سُلطات الانتداب، أو من قبَل "جمعيَّة الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين" "PICA" والتي نسَّقت جُهُودها في هذا المجال مع الوكالة اليهُوديَّة.

وتجدَّدت عمليَّات شراء الأراضي في هذه المرحلة بشكل واسع، وخاصَّة في شمال فلسطين؛ حيثُ كان بعض الإقطاعيِّيْن والتُّجَّار اللُّبنانيِّيْن يملكون مساحات واسعة من الأراضي، جَمَعُوها عن طريق الالتزام بجَمْع الضّرائب للسُّلطات العُثمانيَّة، يوم كان شمال فلسطين تابعاً لولاية بيروت. ففي عام **1922**، تمكَّن الصُّنْدُوق القوميّ اليهُوديّ "كارن كايميت" من شراء حوالي **50** ألف دُونم من أراضي مرج ابن عامر من آل سرسق اللُّبنانيِّيْن (وكانت أكبر صفقة يستثمرها اليهُود). وفي عام **1929**، اشترى "الكارن كايميت" أراضي وادي الحوارث في سهل شارون الأوسط قُرب طُولكرم من عائلة التّيان (التيناوي)، وهُم - أيضاً - من اللُّبنانيِّيْن، ثُمَّ اشترى اليهُود في منطقة الحولة أقصى شمال فلسطين آلاف الدُّونمات من آل سلام وآل الأسعد وآل الفاعور، والتي أصبحت مراكز هامَّة للاستيطان اليهُوديّ في شمال فلسطين.

وقد سهَّلت سُلطات الانتداب - بمُختلف الوسائل والأساليب - عمليَّات نَقْل الأراضي إلى ملكيَّة الصّهاينة، فقد نصَّت المادَّة السّادسة من صكِّ الانتداب على: «تشجيع استيطان اليهُود في البلاد، وامتلاك الأراضي الزّراعيَّة، بما في ذلك على أراضي أملاك الدّولة والأراضي الفارغة غير اللاَّزمة للاستعمال العامِّ». وعلى هذا الأساس؛ منحت سُلطة

الانتداب البريطانيّ الوكالة اليهُوديَّة أراضي واسعة بلغت مساحتها 195 ألف دُونم من الأراضي الحُكُوميَّة في مُختلف أنحاء البلاد، وبضمنها مساحات في السّهل السّاحلي أُعطيت لبلديّات تلّ أبيب وتباخ تكفا وغيرها من المُستوطنات اليهُوديَّة، لتوسيع رُقعة هذه المُستوطنات، كما مَنَحَتْ سُلطاتُ الانتداب للصُّنْدُوق القوميّ اليهُوديّ امتيازَ تجفيف المُستنقعات حول بُحيرة الحولة، واستثمارها مُقابل مبلغ رمزي. هذا؛ بالإضافة إلى مساحات واسعة أُخرى بجوار البحر الميِّت وفي وادي الأُردُن ومنطقة بيسان أُعطيت للمُؤسَّسات الصّهيُونيَّة على شكل إيجار رمزي لمُدَد طويلة.

وهكذا؛ أصبح الصّهاينة يملكون في فلسطين في نهاية الانتداب عام 1948 حوالي 82،1 مليون دُونم، أو ما يُعادل نحو 6٪ من مساحة فلسطين البالغة 27 مليون دُونم.

ويُوضح التّقرير الذي أعدَّتهُ سُلطات الانتداب عام 1946، لتقديمه إلى لجنة التّحقيق التّابعة للأُمم المُتَّحدة، التي حضرت للبلاد قُبيل صُدُور مشروع التّقسيم أنَّ الأراضي التي يملكها اليهُود كانت مُوزَّعة في مُختلف أقضيَّة فلسطين على النّحو التّالي[1]:

نسبة ما يملكه اليهُود	القضاء	نسبة ما يملكه اليهُود	القضاء
17 ٪	قضاء طُولكرم	3 ٪	قضاء عكّا
39 ٪	قضاء يَافَا	18 ٪	قضاء صَفَد
14 ٪	قضاء الرّملة	35 ٪	قضاء حَيْفَا
4 ٪	قضاء غزَّة	28 ٪	قضاء النّاصرة
أقلّ من 1 ٪	قضاء بئر السّبع	11 ٪	قضاء طبريّا
4 ٪	قضاء الخليل	34 ٪	قضاء بيسان
أقلّ من 1 ٪	قضاء رام الله	1 ٪	قضاء جنين
2٪	قضاء القُدس	1 ٪	قضاء نابلس

(1) المصدر "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلّة"، إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة، دمشق، 1978، إشراف حبيب قهوجي، ص 157 ـ 158.

نُلاحظ من هذا الجدول أنَّ هُناك ستَّة أقضيَّة فقط كان يملك اليهُود فيها أكثر من 15 ٪ هي :

قضاء يَافَا 39 ٪ ؛ بسبب ما مَنَحَتْهُ حُكُومة الانتداب لليهُود من الأراضي لتوسُّع كُلٍّ من مدينة تلِّ أبيب وبتاخ تكفا .

قضاء حَيْفَا 35 ٪ ؛ بسبب ما مَنَحَتْهُ حكُومة الانتداب لليهُود من سُفُوح جَبَل الكرمل الشّماليَّة لإقامة حي "هدار هكرمل" اليهُوديّ في حَيْفَا ، وما يتبع قضاء حَيْفَا من أراضي مرج ابن عامر التي باعها آل سرسق لليهُود .

قضاء النّاصرة 28 ٪ ؛ بسبب ما باعه آل سرسق من سهل مرج ابن عامر التّابع لقضاء النّاصرة .

قضاء بيسان 34 ٪ بسبب ما مَنَحَتْهُ حكُومة الانتداب من أراضي أملاك الدّولة وأراضي "الجفتلك" (أراضي كانت مُسجَّلة باسم السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد) ، بالإضافة لما باعه بعض شيُوخ العشائر البدويَّة في الغور الغربيّ (غور بيسان) ، والانتقال إلى الغور الشّرقي في إمارة شرق الأُردُن (آنذاك) .

قضاء صَفَد 18 ٪ ؛ بسبب ما مَنَحَتْهُ حكُومة الانتداب من مُستنقعات في منطقة الحولة لليهُود لتجفيفها ، وكذلك ما باعه إقطاعيُّون لبنانيُّون وسُوريُّون من أراض في منطقة الحولة .

قضاء طُولكرم 17 ٪ بسبب ما باعه آل التّيان أو التيناوي اللُّبنانيُّون من أراضي وادي الحوارث قرب طُولكرم لليهُود .

وهُناك أقضيَّة كانت شبه خالية من المُستوطنين اليهُود ؛ حيثُ لا يملك اليهُود فيها سوى 1 ٪ ، أو أقلّ من ذلك ، مثل : قضاء جنين ، نابلس ، بئر السّبع ، الخليل ، رام الله ، حتَّى إنَّ قضاء القُدس لم يكن اليهُود يملكون فيه سوى 2 ٪ من مساحة القضاء ، وهُو الجُزء الذي مَنَحَهُ لهم المندوب السّامي البريطانيّ اليهُوديّ الصّهيُونيّ هربرت صموئيل خارج أسوار القُدس القديمة في جَبَل صهيُون والزّيتون والمكبِّر ، وذلك لإنشاء القُدس الجديدة اليهُوديَّة ، وبناء الجامعة العبريَّة ، ومُستشفى هداسا على جَبَل المكبِّر .

ومع كُلِّ ذلك؛ مَنَحَهُم قرارُ التّقسيم الذي أصدرتْهُ هيئة الأُمم المُتَّحدة عام 1947، حوالي 55 ٪ من مساحة فلسطين (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 16)، مع أنَّهم لا يملكون من فلسطين في ذلك التّاريخ سوى حوالي 5، 6٪ من مساحتها. لقد أعطاهم قرار التّقسيم الجائر 48 ٪ من أرض فلسطين زيادة على ما يملكون، دُون أيِّ سند قانوني أو مُبرِّر شرعي. لقد كان قرار التّقسيم أكبر ظُلم عَرَفَهُ التّاريخ في العالم يقع على شعب بسيط مُسالم يُقتلَع من وطنه وأرضه، ويُلقى به خارج بلده، تحت مظلَّة هيئة الأُمم المُتَّحدة، وبقيادة أمريكا وبريطانيا. إنَّ قرار التّقسيم كان طبخة أمريكيَّة غربيَّة لا إنسانيَّة ولا شرعيَّة أُعطي فيها مَنْ لا يَملك بلادَ مَنْ يَملك ظُلماً وقهراً وعُدواناً.

ونتيجة لفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهُوديَّة في هذه المرحلة (الثّالثة)؛ ارتفع عدد اليهُود في فلسطين من حوالي 55 ألفاً في عام 1918، إلى نحو 680 ألف نسمة في نهاية فترة الانتداب، (وهُناك حوالي 75 ألف يهُوديّ هاجر إلى فلسطين في فترة الانتداب بشكل غير شرعي لا يدخلون ضمن الرَّقْم السّابق وهُو 680 ألف).

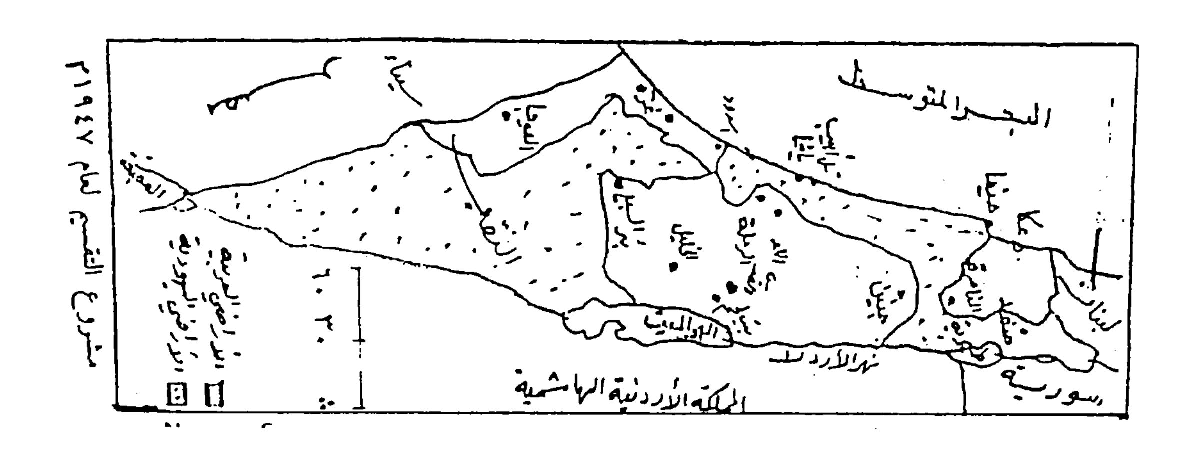
وعلى هذا الأساس؛ توسَّعت عمليَّات الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين في فترة الانتداب بين 1918 ـ 1928، وتكثَّفت ـ بشكل خاصٍّ ـ في منطقة مرج ابن عامر التي أُقيم فيها عدد من المُستوطنات في العشرينات، وامتدَّت عمليَّات الاستيطان إلى وادي الحوارث ابتداءً من عام 1931، ثُمَّ زادت المُستوطنات في منطقة الحولة اعتباراً من عام 1939 (وكُلُّ هذه المناطق باعها ملاّكون إقطاعيُّون من خارج فلسطين، وخاصَّة من لُبنان).

وفي هذه المرحلة؛ برز ـ بشكل واضح ـ الاعتبارات العسكريَّة في تخطيط المُستوطنات واختيار مواقعها. فمُنذُ مطلع الثّلاثينات وإزاء اشتداد حَرَكَة المُقاومة الفلسطينيَّة لمشاريع الاستيطان الصّهيُونيّ والاستعمار البريطاني، رُوعيَ في إقامة المُستوطنات أنْ تكون بمثابة قلاع حصينة يسهل الدّفاع عنها.

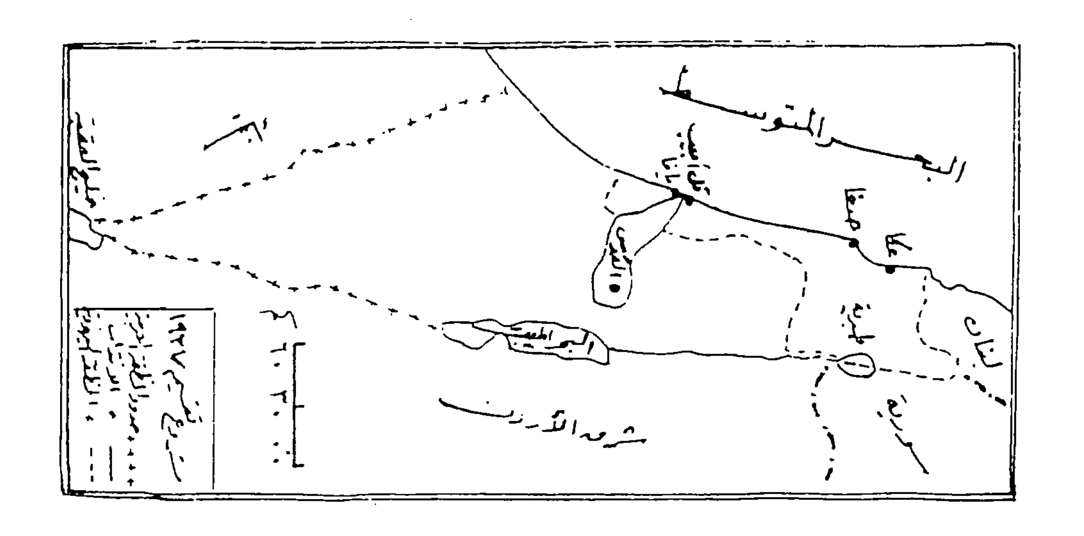
وهكذا ارتفع عدد المُستوطنات الزّراعيَّة في فلسطين مع نهاية فترة الانتداب البريطانيّ إلى 261 مُستوطنة[1].

---

(1) المصدر "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة" إشراف حبيب قهوجي ص 159.



البحر المتوسط
عكا
حيفا
لبنان
سورية
نهر الأردن
المملكة الأردنية الهاشمية
البحر الميت
سيناء
العقبة
مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧م



البحر المتوسط
حيفا
عكا
لبنان
سورية
البحر الميت
شرق الأردن
خليج العقبة

مُصوَّر رَقْم (16)

دور هربرت صموئيل في الاستيطان اليهُودي:

قبل الانتقال إلى الحديث عن مرحلة الاستيطان الرّابعة، لابُدَّ من التّنويه عن دور أوّل مندوب سامي بريطاني على فلسطين، وهُو السِّير هربرت صموئيل اليهُوديّ البريطانيّ الصّهيُونيّ (وهُو من غُلاة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة) ومُساعده نُورمان بنتويش، الذي كان يشغل منصب السّكرتير القضائي في حكُومة الانتداب، وفي يده سُلطة التّشريع وسنّ القوانين، وهُو - أيضاً - يهُوديّ بريطاني صهيُوني.

لقد كان لهربرت صموئيل دور كبير في الاستيطان اليهُوديّ في فلسطين، وخاصّة الاستيطان المديني (نسبة إلى المُدُن). فقد قام بتسليم جَبَل صهيُون وجَبَل الزّيتون وجَبَل المكبِّر خارج القُدس القديمة لليهُود لبناء القُدس الجديدة عليها، ووَضَعَ بنفسه حجر الأساس للجامعة العبريَّة، ومُستشفى هداسا على جَبَل المكبِّر، وأعطى سُفُوح جَبَل الكرمل المُطلَّة على حَيْفَا العَرَبيَّة لليهُود؛ ليبنوا عليها "هدار هكرمل" الحي اليهُوديّ المُشرف على الأحياء العَرَبيَّة في حَيْفَا، ويجعلها تحت رحمته، ثُمَّ سلَّم لليهُود مساحات واسعة من الأراضي شمال تلِّ أبيب، امتدَّت حوالي 20 كم، بعرض من 4 - 5 كم من ساحل البحر نحو الدّاخل، لتوسُّع مدينة تلِّ أبيب؛ بحُجَّة أنَّ هذه الأراضي إمَّا جَبَليَّة غير زراعيَّة في القُدس والكرمل، أو كُثبان رمليَّة تمتدُّ على ساحل البحر شمال تلِّ أبيب، ولا تصلح للزّراعة أيضاً.

وقد كانت مهمَّة السّكرتير القضائي اليهُوديّ نُورمان بنتويش إيجاد المُبرِّر والسّند القانوني لهذه المِنَح الكبيرة من الأراضي العَرَبيَّة، وأنَّها من أملاك الدّولة.

وكان لهذه المساحات الشّاسعة الممنوحة لليهُود دور كبير في توسيع الاستيطان اليهُوديّ في القُدس وتلِّ أبيب وحَيْفَا.

وكمثال على هذا التَّوسُّع الاستيطاني المَدَني أو المديني، ارتفع عدد سُكَّان تلِّ أبيب، التي أُنشئت عام 1909، من 1500 نسمة، إلى نحو 16 ألف نسمة في عام 1923، ثُمَّ إلى 195 ألف نسمة في عام 1945، كما ارتفع عدد السُّكَّان اليهُود في القُدس من 38 ألف نسمة عام 1924، إلى 54 ألف نسمة عام 1931، ثُمَّ إلى حوالي 97 ألف نسمة عام 1945، كما زاد

سُكَّان حَيْفَا من اليهُود من حوالي 8 آلاف نسمة عام 1924، إلى 16 ألف نسمة عام 1931، ثُمَّ إلى 76 ألف نسمة عام 1945؛ أيْ أنَّ سُكَّان هذه المُدُن الثّلاث بلغ عام 1945، 368 ألف نسمة؛ أيْ أكثر من نصف السُّكَّان اليهُود المُقيمين في فلسطين. وهذا يعني - بوُضُوح - أنَّ نصف اليهُود المُستوطنين في فلسطين حتَّى عام 1945، كانوا يعيشون على الأراضي التي مَنَحَهَا لهم هربرت صموئيل، والمُلقَّب بجدارة بـ "ملك إسرائيل"[1].

والحقيقة أنَّ هربرت صموئيل هُو المُؤسِّس الحقيقي (لإسرائيل)، بتسهيل الاستيطان اليهُودي في المرحلة الثّالثة.

د: المرحلة الرّابعة:

جاءت هذه المرحلة بعد نجاح المُؤامرة الاستعماريَّة الصّهيُونيَّة في الاستيلاء على مُعظم أراضي فلسطين، وتشريد شعبها، وقيام (إسرائيل).

بلغت مساحة الأراضي التي تمَّ استيلاء الصّهاينة عليها ظُلماً واغتصاباً وفق خُطُوط الهُدنة عام 1949، حوالي 255، 20 مليون دُونم مُوزَّعة حسب الجدول التّالي:

675، 17 مليون دُونم استولى عليها اليهُود من أملاك العَرَب الغائبين (اللاّجئين)، والأراضي الحُكُوميَّة (أملاك الدّولة)، ولا تزال أراضي أملاك الغائبين باسم الدّولة، والحقيقة أنَّ مُعظم أراضي الغائبين لم تُستثمَر حتَّى الآن[2].

450 ألف دُونم تملكها جمعيَّة البيكا (المارّ ذكْرها).

800 ألف دُونم يملكها الصُّندُوق القوميّ اليهُوديّ (الكارن كايميت).

510 ألف دُونم يملكها أفراد، أو جمعيَّات خاصَّة.

---

(1) المصدر السّابق، ص 162.

(2) حسب الدّراسات التي قام بها الدُّكتُور سلمان أبو ستَّة، وأعدَّ مُصوَّرات تُثبت ذلك.
(منها مُصوَّر جاء مع مجلَّة العَرَبي كهديَّة للقُرَّاء).

820 ألف دُونم يملكها العَرَب الإسرائيليُّون (الذين بقوا في فلسطين) في الجليل والمُثلَّث العَرَبيّ والنَّقَب، بعد أنْ صُودرت واقتُطعت مساحات واسعة من أراضيهم بحُجج واهية.

المجموع: 255، 20 مليون دُونم (عشرون مليوناً ومائتان وخمسة وخمسون ألف دُونم)، وهي مجموع ما بيد اليهُود حتَّى 1967، (قبل نكسة 5 حُزيران عام 1967).

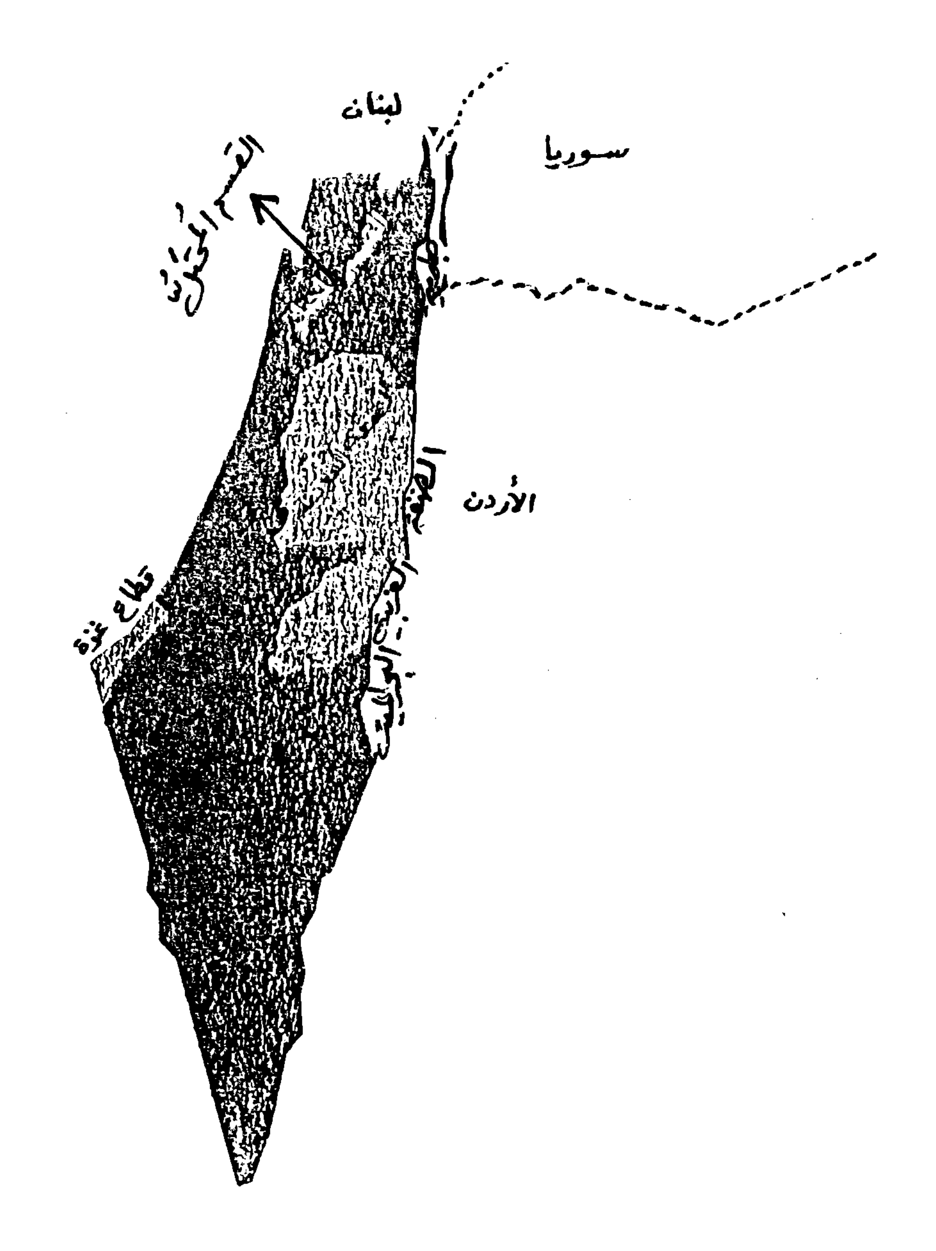
وبقي من فلسطين بيد العَرَب الضّفَّة الغربيَّة وضُمَّت إلى المملكة الأُردُنيَّة ومساحتها حوالي 6 آلاف دُونم، وقطاع غزَّة الذي كان تحت الإدارة المصريَّة، وأجزاء بسيطة تتبع الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة (في منطقة الحمَّة والبطيحة على الضّفَّة الشّرقيَّة لبُحيرة طبريَّة)، (انظر المُصوَّر المرفق رَقْم 17).

ونتيجة لفَتْح أبواب فلسطين للهجرة اليهُوديَّة ولصفقات التّهجير الجماعي التي تمَّت بالتّآمر بين الصّهاينة وبعض حُكَّام البُلدان العَرَبيَّة في مطلع الخمسينات[1]، فقد قفز عدد السُّكَّان في الكيان الصّهيُونيّ من حوالي 680 ألف سنة 1948، إلى أكثر من ثلاثة ملايين عام 1976.

وفي هذه المرحلة؛ حاولت السُّلطات الإسرائيليَّة تنظيم عمليَّة الاستيطان في المناطق الجديدة التي استولت عليها، وطَرْد سُكَّانها العَرَب منها.

ففي الفترة المُمتدَّة بين عامَيْ 1948 ـ 1951، عمدت السُّلطات الإسرائيليَّة إلى توطين القسم الأكبر من المُهاجرين الجُدُد في المباني العَرَبيَّة المهجورة في المُدُن المُختلطة مثل: طبريَّة وحَيْفَا وصَفَد، وكذلك في المُدُن العَرَبيَّة التي هُجِّر سُكَّانها العَرَب منها عام 1948، مثل: عكَّا، بيسان، اللّدّ، الرّملة، يَافَا، المجدل، عسقلان، بئر السّبع.. إلخ. وفي الوقت نفسه؛ استمرَّت عمليَّات إقامة المُستوطنات الجديدة في القُرى العَرَبيَّة المهجورة، فأُقيم خلال هذه الفترة نحو 175 مُستوطنة جديدة (واستفاد اليهُود من البُيُوت العَرَبيَّة في تلك القُرى لسَكَن المُستوطنين الجُدُد). كذلك بدأت (إسرائيل) بإقامة ما عُرِف باسم قُرى المُهاجرين "هموشاف عوليم".

(1) حيثُ سمحت بعض الأقطار العَرَبيَّة لليهُود بالهجرة منها بطُرُق قانونيَّة (مثل العراق؛ سَمَحَ نُوري السّعيد بهجرة يهُود العراق إلى (إسرائيل)، وقام مسير جوّيٌّ لنَقْلهم إلى (إسرائيل) في مطلع الخمسينات).



مُصوَّر رقم (17)

واستمرَّت عمليَّات الاستيطان الصّهيُونيّ؛ وخاصَّة في المناطق الحُدُوديَّة، حتَّى بلغت عام 1960 نحو 275 مُستوطنة دائمة.

وبعد عام 1960، تناقص عدد المُهاجرين اليهُود، وبالتّالي؛ بدأت عمليَّات الاستيطان الصّهيُونيّ في التّباطؤ، بل إنَّها أصبحت في حُكْم المُتوقِّفة، وقد برز هذا التّباطؤ - بشكل واضح - بعد عام 1965، فرغم المظاهر الاستيطانيَّة في المناطق المُحتلَّة بعد حرب 1967، فإنَّ عدد المُستوطنات اليهُوديَّة التي أُقيمت في فلسطين المُحتلَّة مُنذُ عام 1948، كان خلال فترة السّنوات العشر المُمتدَّة بين أعوام 1948 - 1968، هُو 36 مُستوطنة فقط، مُعظمها لا يزال على شكل نُقاط للنّاحال في الجليل والنَّقَب، ولا يزيد عدد سُكَّانها عن ألفَيْ نسمة[1].

الاستيطان المَديني في الكيان الصّهيُوني: (أيْ سُكَّان المُدُن):

على الرّغم من كُلِّ الدّعاية الصّهيُونيَّة عن الطّلائعيَّة والاستيطان الزّراعي الصّهيُونيّ في فلسطين، فإنَّ الأرقام تُؤكِّد أنَّ سُكَّان المُستوطنات الزّراعيَّة في (إسرائيل) لا يزيدون - في مجموعهم - عن 300 ألف نسمة، أو ما يُعادل 10٪ فقط من سُكَّان الكيان الصّهيُوني، بينما يتركَّز نحو 90٪ من السُّكَّان في المُدُن والبلدات والمُستوطنات البلديَّة. وقد مرَّ معنا أنَّ المُدُن الثّلاث الكُبرى: القُدس وتلّ أبيب وحَيْفَا، يُوجد فيها أكثر من 50٪ من سُكَّان الكيان الصّهيُونيّ في عام 1948، وفي عام 1967، كان يعيش في منطقة تلّ أبيب[2] وحدها 4، 53٪ من سُكَّان الكيان الصّهيُوني، وفي منطقة حَيْفَا وضواحيها 65، 15٪، وفي منطقة القُدس 25، 10٪؛ أيْ نحو 3، 79٪ من سُكَّان (إسرائيل) يقطنون هذه المُدُن الثّلاث وما حولها، وأنَّ 7، 20٪ من سُكَّان (إسرائيل) ينتشرون في بقيَّة أنحاء (إسرائيل) من الجليل في الشّمال إلى النَّقَب في الجنوب.

وظاهرة تركُّز السُّكَّان اليهُود في المُدُن هي ظاهرة مُلازمة لليهُود تاريخيَّاً؛ بحُكْم دورهم الاجتماعي والاقتصادي في المُدُن كتُجَّار وصيارفة ومُرابين ووُسطاء، فاليهُوديّ نادراً

---

(1) المصدر للمرحلة الرّابعة "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة"، حبيب قهوجي، ص 159 - 161، باختصار.

(2) أصبح اسمها جافا أو يَافَا تلّ أبيب بعد ضمِّ يَافَا العَرَبيَّة إلى تلِّ أبيب.

ما يعمل بالزّراعة ، فهُو قد يكون وكيلاً لأصحاب الأراضـي والإقطاعـات ، أو وسـيطاً بينـهم وبين الفلاَّحين ، ولكنَّه لا يكون فلاَّحاً .

ولكنَّ اليهُود اضطُرّوا للعمل في الزّراعة ، فكان الاستيطان اليهُوديّ فـي أوَّلـه استيطاناً زراعيّاً ، وفي عهد الانتداب ـ ومُنذُ عام 1924 ، ـ أخذ الاستيطان المَديني بالتَّوسُّع ، وذلك مـع تدفُّق المُهاجرين اليهُود من بُولندا ، وكـانت تتكوَّن غالبيَّتـهم مـن حرَفيِّيـن وتُجَّار جاؤوا مـع عائلاتهم ، ومع بعضهم رُؤوس الأموال الخاصَّة التي استثمروها فـي البنـاء ، وبعـض الـورش والحوانيت التّجاريَّة . ولكنَّ التَّوسُّع في الاسـتيطان البلـدي والمَدينـي ازداد مـع هجـرة اليـهُود الألمان ، وتدفُّقهم على فلسطين بين عامَيْ 1933 ـ 1939 ، بعد وُصُول النّازيَّـة إلـى الحُكْـم في ألمانيا عام1933 .

ومع استمرار التَّوسُّع في الاستيطان البلدي والمَديني اليهُوديّ في فلسطين ؛ تحـوَّل عـدد مـن القُرى والمُستوطنات الزّراعيَّـة ، وخاصَّـة فـي المنطقـة السّاحليَّة إلـى مُـدُن كبـيرة مثـل : رحوبوت ، بتاخ تكفا ، ريشيون ليتسيون ، هرتسليا . كما تحوَّلت بعض المُستوطنات الزّراعيَّة الأُخرى إلى مُدُن مثل : نتانيا ، نهاريا ، كفارسابا . . إلخ .

وفيما يلي جدول يُبيِّن توزُّع السُّكَّان حسب نوع الاستيطان حتَّى عام 1944 :

السّنة	عدد السُّكان في المُدُن بالآلاف	عدد السُّكان في المُستوطنات الزّراعيَّة بالآلاف	مجموع السُّكان بالآلاف	نسبة سُكَّان المُدُن للمجموع
1880	23	-	23	٪100
1914	73	12	85	٪86
1931	134	41	175	٪77
1939	337	138	475	٪71
1944	427	140	567	٪75

نُلاحظ من هذا الجدول أنَّ نسبة سُكَّان المُدُن بين المُستوطنين اليـهُود فـي فلسـطين كـانت باستمرار أكثر مـن ٪70 ، وأنَّ أُسطُورة الطّلائعيَّـة الصّهيُونيَّة والعمـل الزّراعـي واسـتصلاح

الأراضي البور وتجفيف المُستنقعات وغير ذلك من الأساطير التي نسجتها الدّعايـة الصّهيُونيّـة كانت للتّمويه على حقيقة المشروع الصّهيُونيّ وحقيقة توجُّهاته[1].

راجع الجدول رَقْم (14)، وفيه قوائم بالمُدُن والبلدات والمُستوطنات البلديَّة القائمة قبـل عام 1948، وبعده.

المُدُن والبلدات والمُستوطنات البلديَّة القائمة قبل عام 1948، الجدول (14):

الرَقْم	المدينة أو البلدة	مــــوقـــــعها	تاريخ إنشائها	عدد سُكّانها عام 1971 بالآلاف
1	القُدس	جبال القُدس - المنطقة الوُسْطَى الدّاخليَّة	-	222.3
2	تلّ أبيب	السّهل السّاحلي بجوار مدينة يَافَا العَرَبيَّة، وإلى الشّمال منها	1909	375.8
3	حَيْفَا	السّاحل الشّمالي	-	219.2 منهم 13.5 من العَرَب
4	رامات جان	على بُعْد 2 كلم شرق تلّ أبيب	1921	119.3
5	حولون	ضاحية من ضواحي تلّ أبيب، وإلى الشّرق منها بـ 4 كلم	1933	93.4
6	بات يام	ضاحية من ضواحي تلّ أبيب، وإلى الجنوب منها	1926	90.7
7	بتاح تكفا	على بُعْد 12 كلم شرق تلّ أبيب	1882	87.2
8	بني برالد	ضاحية من ضواحي تلّ أبيب على بُعْد كلم شمال شرقي يَافَا	1924	74.2
9	نتانيا	سهل الشّارون الجنوبي - غرب طُولكرم	1929	67.7
10	ريشون لتسيون	على بُعْد 12 كلم جنوب شرق تلّ أبيب	1882	50.4
11	جفعتايم	ساحل تلّ أبيب	1922	47.6
12	هرتسليا	إلى الشّمال من تلّ أبيب	1924	40.1
13	رحوبوت	جنوب شرق يَافَا بـ 22 كلم	1890	27.9
14	الخضيرة	الشّارون الشّمالي جنوب يَافَا	1890	31.5
15	كريات آنا	خليج حَيْفَا، على بُعْد 14 كلم شرقي مدينة حَيْفَا	1925	26.7
16	كفار سابا	سهل الشّارون الجنوبي، مُقابل مدينة قلقيليه	1912	25.2

---

(1) مصدر الاستيطان المَديني "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلّة"، حبيب قهوجي، ص 161 - 163.

الرقم	المدينة أو البلدة	موقعها	تاريخ إنشائها	عدد سكانها عام 1971 بالآلاف
17	نهاريا	على السّاحل شمال عكّا، وعند مصبّ نهر المقطع	1934	23
18	رامات هاشرون	سهل الشّارون الجنوبي	1923	18.5
19	كريات يام	إلى الشّمال من حَيْفَا	1946	18.3
20	عفولة	مرج بن عامر على بُعْد 14 كلم جنوب النّاصرة	1925	16.4
21	كريات موتسكين	خليج حَيْفَا إلى الشّمال من مدينة حَيْفَا	1934	16.2
22	كريات بياليك	شمال خليج حَيْفَا، قُرب كريات يام وكريات موتسكين	1934	15.7
23	كريات أونو	على بُعْد 8 كلم شرق تلّ أبيب	1939	15.4
24	بارديس حناكر كور	شمال شرق الخضيرة	1913	13.8
25	رعنانا	على بُعْد 16 كلم شمال شرق يَافَا	1921	13.6
26	هود هاشارون	الشّارون الجنوبي، قُرب كفار سابا	1924	13
27	نيس تسيونا	السّهل السّاحلي جنوب شرق يَافَا، وإلى الجنوب من ريشون لتسيون	1883	12.2
28	كريات تيفون (طبعون)	جنوب الجليل الأُردُني - تلال طبعون بين النّاصرة وحَيْفَا	1937	9.85
29	نيشر	خليج حَيْفَا، إلى الجنوب الشّرقي من مدينة حَيْفَا	1925	9.65
30	جديرا	على بُعْد 25 كلم جنوب شرق يَافَا، قُرب قرية قطرة العَرَبِيَّة	1884	5.2
31	جفعات شموئيل	إلى الغرب من بتاح تكفا	1942	4.7
32	زخرون يعقوف	ساحل الكرمل بين حَيْفَا والخضيرة	1882	4.5
33	بئير ياكوف	السّهل السّاحلي - قُرب اللّدّ	1907	4.1
34	كاديما	الشّارون الجنوبي	1933	3.17
35	بنيامينا	شمال الخضيرة	1922	2.56
36	عتليت	ساحل الكرمل - شمال زخرون يعقوف	1904	0.4

هـ - المرحلة الخامسة:

الاستيطان الصّهيُونيّ في المناطق المُحتلَّة عام 1967.

تُشَكِّل مشاريع ومُحاولات الاستيطان الصّهيُونيّ في المناطق العَرَبِيَّة المُحتلَّة عام 1967، أحد أهمّ وأخطر المُكوِّنات والرّكائز الأساسيَّة لسياسة خَلْق الحقائق الجديدة على الأراضي

العَرَبيَّة المُحتلَّة، وتنفيذ مُخطَّطات الضَّمِّ والإلحاق التي حاولت (إسرائيل) ـ ولا تزال تُحاول ـ القيام بها في هذه المناطق.

إنَّ هذا يُثبت ويُؤكِّد أنَّ الأطماع الصّهيُونيَّة في البلاد العَرَبيَّة ليس لها حُدُود، وإنَّ ما يُسمَّى بالحُدُود الآمنة، والتي أصبحت بعد حرب حُزيران 1967، أحد مُكوِّنات نظريَّة الأمن الإسرائيليَّة لتجعل منها (إسرائيل) مُبرِّراً للاستيلاء على المزيد من الأراضي العَرَبيَّة.

وقد أوضح إسحاق رابين الهَدَف من وراء الاستيطان الصّهيُونيّ في المناطق المُحتلَّة بقوله: «إنَّ هدف الاستيطان في منطقة القُدس هُو للمُحافظة على الأغلبيَّة اليهُوديَّة فيها، وأنَّ المُستوطنات التي أُقيمت في الجولان ونهر الأُردُن وشرم الشّيخ حتَّى رفح جنوباً هي لتعزيز خُطُوط المُواجهة، وفصل جنوب قطاع غزَّة عن مصر».

وحول موضوع الخُطط الاستيطانيَّة في المناطق المُحتلَّة يقول يغال آلدن (وزير خارجيَّة إسرائيل الأسبق): «أُقيمت المُستوطنات في هضبة الجولان، وفي غور الأُردُن، وفي مشارف رَفَح، وفي خليج العقبة، في إطار استيطان استراتيجي مُبرمَج. وعلينا أنْ نرى في الاستيطان في هذه المناطق على أنَّه جُزء من الحشد الأمني».

وقد تسارع الاستيطان في المناطق العَرَبيَّة المُحتلَّة بعد استلام "اللّيكود" الحُكْم في (إسرائيل) عام 1977. فاللّيكود ـ ومعه كُتلة "إيمونيم" المُرتبطة بالمفدال (الحزب الوطني الدِّيني) وحَرَكَة أرض (إسرائيل)، وعصبة الدّفاع اليهُوديّ "كاخ"، وغيرها من الحَرَكَات الدِّينيَّة اليهُوديَّة المُتطرِّفة ـ كانت تُعارض خُطَّة "المعراخ" (حزب العمل الإسرائيليّ وحُلفاؤه) في اقتصار الاستيطان الصّهيُونيّ في الأراضي المُحتلَّة على الاعتبارات الأمنيَّة فقط، وكانت هذه الأحزاب والحَرَكَات تدعو إلى توسيع نطاق الاستيطان في المناطق المُحتلَّة بشكل عامٍّ، وفي الضّفَّة الغربيَّة بشكل خاصٍّ، استناداً على أنَّ الضّفَّة الغربيَّة جُزء من "أرض (إسرائيل) التّوراتيَّة".

وكانت أشدُّ الحَرَكَات اندفاعاً في الاستيطان هي كُتلة إيمونيم (جويش إيمونيم)، وهي عبارة عن مجموعة تشكَّلت داخل الحزب الوطني الدِّينيّ "المفدال"، ثُمَّ انفصلت عنه بزعامة زبزلون هامر وزير التّعليم في حكُومة بيغن السّابقة.

ولكنْ؛ مع الاندفاع والحماس والإغراءات التي قامت بها الأحزاب الدِّينيَّة والحَرَكات الصّهيُونيَّة المُتشدِّدة والملايين التي صُرفت على الاستيطان في الأراضي العَرَبيَّة المُحتلَّة لم يُحقِّق الاستيطان فيها أهدافه، وكانت المُستوطنات قليلة السُّكَّان ذات طابع مُؤقَّت.

والسَّبب الرّئيسي في تعثُّر مشاريع الاستيطان في المناطق المُحتلَّة هُو - ببساطة - عدم وُجُود مُستوطنين؛ بسبب نُضُوب الحَرَكَة اليهُوديَّة، لذلك ركَّزت الصّهيُونيَّة على يهُود الاتِّحاد السُّوفياتي (سابقاً)، وألْقَتْ بكُلِّ ثقلها ونُفُوذها لتدفع الاتِّحاد السُّوفياتي للسّماح لليهُود بالهجرة[1]، وقد تكلَّلت المساعي بالنّجاح بعد انفراط عقد الاتِّحاد السُّوفياتي، وتدفَّق اليهُود الرُّوس (ومن بقيَّة الجُمهُوريَّات التي كان يتشكَّل منها الاتِّحاد السُّوفياتي) إلى (إسرائيل).

وهذه الهجرة اليهُوديَّة الكثيفة المُتدفِّقة من الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً تُشكِّل خُطُورة حقيقيَّة على الأقطار العَرَبيَّة المُجاورة (لإسرائيل)، وعلى الحُقُوق العَرَبيَّة في الأراضي العَرَبيَّة المُحتلَّة. فقد رفعت عدد سُكَّان (إسرائيل) إلى أكثر من خمسة ملايين نسمة[2]، وبذلك؛ زادت طاقة (إسرائيل) على التّجنيد، لا سيَّما وأنَّ أكثر المُهاجرين لهم خبرات عسكريَّة هامَّة اكتسبوها أثناء خدمتهم في الجيش الأحمر السُّوفياتي (سابقاً). بالإضافة إلى توفُّر الأعداد الكافية من اليهُود للاستيطان في الأراضي العَرَبيَّة المُحتلَّة، والاستقرار فيها، لا سيَّما وأنَّ حكُومات (إسرائيل) والجمعيَّات والأحزاب الدِّينيَّة المُتطرِّفة (وخاصَّة حزب اللّيكود) تُقدِّم تسهيلات وإغراءات كثيرة للمُستوطنين في الأراضي العَرَبيَّة المُحتلَّة. وهكذا تكون الهجرة المُتدفِّقة من الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً أعطت زخماً جديداً للاستيطان، ولتنفيذ المشاريع والمُخطَّطات الاستيطانيَّة.[3]

---

(1) كان للصّهيُونيَّة دور كبير في انفراط عقد الاتِّحاد السُّوفياتي، بسبب تشدُّده في السّماح لليهُود بالهجرة منه إلى (إسرائيل)، هذا؛ وإنَّ تدفُّق الهجرة اليهُوديَّة من الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً لم يكن (لإسرائيل) وحدها، بل كان للولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وأقطار أُخرى في العالم.

(2) بلغ عدد المُهاجرين من الاتِّحاد السُّوفياتي (سابقاً) إلى (إسرائيل) حوالي 750 ألف نسمة، وقد يكون عددهم الآن حوالي المليون، وفي الانتخابات الأخيرة في الكنيست الإسرائيليّ 1996، حصل اليهُود الرُّوس على سبعة مقاعد في الكنيست.

(3) يُوجد بين المُهاجرين اليهُود من الاتِّحاد السُّوفيتي سابقاً عدد كبير من المسيحيِّين الذين هاجروا إلى (إسرائيل) على أنَّهم يهُود بسبب الضّائقة الاقتصاديَّة التي حلَّتْ برُوسيا بعد انفراط عقد الاتِّحاد السُّوفياتي. والحُكُومة الإسرائيليَّة تعلم بذلك، وتغضُّ الطّرف للاستفادة من هؤلاء المُهاجرين المسيحيِّين كفنِّيِّين، أو خُبراء، أو عُمَّال بدل العُمَّال العَرَب الذين يأتون من الضّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة للعمل في (إسرائيل).

وعلى كُلٍّ حال؛ لابُدَّ لنا أنْ نذكر أنَّ المُخطَّطات الاستيطانيَّة في سيناء قد انتهت بعد عودة سيناء بكاملها إلى جُمهُوريَّة مصر العَرَبيَّة (عدا طابة في الزّاوية الشّماليَّة الشّرقيَّة من سيناء، والتي أَجَّرَتْهَا الحُكُومة المصريَّة لشركة يهُوديَّة لاستثمارها كمُنتجع سياحي لِمُدَّة 70 سنة، بعد أنْ حَكَمَتْ محكمة العدل الدّوليَّة بأنَّها منطقة مصريَّة).

أمَّا المُستوطنات الإسرائيليَّة في قطاع غزَّة والضّفّة الغربيَّة؛ فلا تزال باقية رغم قيام الحُكْم الذّاتي الفلسطينيّ فيها، حتَّى إنَّ حُكُومة اللّيكود السَّابقة بزعامة نتنياهو قد قرَّرت توسيعها، وإقامة مُستوطنات أُخرى جديدة.

أمَّا المُستوطنات اليهُوديَّة في الجولان (وهي أوسع المُستوطنات وأنجحها، نَظَراً لخُصُوبة الأرض، وتوفُّر المياه، وعُذُوبة المناخ) فإنَّها ستنتهي إلى الإزالة والزّوال رغم مُناورات وعراقيل حُكَّام (إسرائيل) التي ستنهار أمام التّصميم السُّوري على استعادة الجولان.

بيروبيجان: المُستوطنة اليهُوديَّة في الاتِّحاد السُّوفياتي:

وقبل أنْ ننتهي من الحديث عن الاستيطان اليهُوديّ لابُدَّ من التَّحدُّث عن مُستوطنة يهُوديَّة خُصِّصت لليهُود بعد قيام الاتِّحاد السُّوفياتي وهي "بيروبيجان".

فبعد قيام الاتِّحاد السُّوفياتي عام 1917، والقضاء على الإقطاع والرّأسماليَّة، وإحلال النّظام الاشتراكي والمُساواة بين جميع سُكَّان الاتِّحاد السُّوفياتي على اختلاف أجناسهم ولُغاتهم، حاول الاتِّحاد السُّوفياتي إيجاد حلٍّ لمُشكلة اليهُود في رُوسيا، فكان أنْ خصَّص منطقة واسعة من أراضيه في أقصى شرق الاتِّحاد السُّوفياتي على المُحيط الهادئ، وهي منطقة "بيروبيجان"، وهِي منطقة واسعة خصبة أمطارها غزيرة ودائمة يسودها جوٌّ بارد في فصل الشّتاء ومُعتدل في الصّيف تكسوها الغابات الكثيفة.

وتتشكَّل من حوض "خباروفسك" الذي يخترقه نهر "أُمُور" القادم من منشوريا الصّينيَّة، وحوض خباروفسك يتشكَّل من سهُول واسعة خصبة تزدهر فيها زراعة الحُبُوب والخضار والفواكه وتربية الأبقار.

والمنطقة غنية بثرواتها من الفحم والمعادن الأُخرى. وعاصمتها خباروفسك، التي تقع على نهر آمُور، وينتهي بها الخطُّ الحديدي قاطع سيبيريا؛ حيثُ يتفرَّع إلى فرعَيْن: فرع ينتهي بمدينة "فلاديفوستك" الشّهيرة على المُحيط الهادئ، وفرع ينتهي بمدينة "نيقولايفسك" عند مصبِّ نهر الآمور في المُحيط الهادئ.

أراد قادة الاتِّحاد السُّوفياتي أنْ يجعلوا من هذه المنطقة الواسعة الأرجاء، الغنيَّة بثرواتها الزّراعيَّة والغابيَّة والمعدنيَّة مُستوطنة يهُوديَّة يتجمَّع فيها مَنْ أراد من يهُود الاتِّحاد السُّوفياتي (السّابق)، ومنحوهم جميع التّسهيلات المطلوبة لذلك، ولكنَّ اليهُود السُّوفيات لم يندفعوا إلى إنشاء جُمهُوريَّة لهم ذات حُكْم ذاتي ضمن الاتِّحاد السُّوفياتي رغم كُلِّ التّسهيلات والمُغريات، وهاجر إليها قلَّة من اليهُود الذين يُشكِّلون ـ الآن ـ حوالي ثُلث السُّكَّان، والباقي من شعُوب الاتِّحاد السُّوفياتي الأُخرى.

وقد عارضت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة قيام هذه الجُمهُوريَّة (ذات الحُكْم الذّاتي) ضمن الاتِّحاد السُّوفياتي، رغم أنَّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة قامت من أجل حلِّ مُشكلة يهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة (كما ادَّعت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة عند قيامها).

وهذا يُؤكِّد لنا ـ مرَّة أُخرى ـ أنَّ إنشاء الوطن القوميِّ اليهُوديِّ الصّهيُونيِّ في فلسطين لم يكن من أجل حلِّ مُشكلة يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة وإنقاذهم من الاضطهاد، وإنَّما كان من أجل غايات وأهداف استعماريَّة إمبرياليَّة مثَّلتْهَا الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أصدق تمثيل، من أجل إقامة كيان يهُوديِّ صهيُوني غريب في قلب الوطن العَرَبيِّ؛ لإشغاله واستنزاف قُدراته في مُقاومة هذا الجسم الغريب، وإبقائه مُفتَّتاً ضعيفاً في أهمِّ منطقة استراتيجيَّة في العالم؛ لا سيَّما بعد أنْ تكشَّفتْ أراضي الوطن العَرَبيِّ عن أعظم احتياطي بترولي في العالم (65٪ من الاحتياط العالمي)، وهُو ـ الآن ـ أكبر مُنتج للبترول في العالم.

ولو كان القصد من إقامة وطن قوميٍّ لليهُود هُو هدف إنساني بحت من أجل لَمِّ شمل اليهُود وحمايتهم من الاضطهاد والإبادة لكان في جُمهُوريَّة بيروبيجان أفضل مكان لتحقيق هذا الهدف، لا سيَّما وأنَّ بيروبيجان تبلغ مساحتها أضعاف مساحة فلسطين، وفيها من الإمكانيَّات الاقتصاديَّة الهائلة من زراعيَّة وغابيَّة ومعدنيَّة ما يجعل اليهُود يجدون فيها ما

يحلُّ جميع مشاكلهم. هذا؛ بالإضافة إلى موقعها الهامِّ على المُحيط الهادئ. ومع كُلِّ ذلك؛ قاومت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة الفكْرة، وحالت دُون تحقيقها، يُؤيِّدها في ذلك الاستعمار والإمبرياليَّة الغربيَّة، وخاصَّة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

أنواع الاستيطان الزّراعي الصّهيُونيّ في فلسطين:

بعد أنْ تحدَّثنا ـ فيما سَبَقَ ـ عن مراحل الهجرة والاستيطان، لابُدَّ لنا أنْ نتحدَّث عن أنواع الاستيطان الزّراعي في فلسطين.

يُوجد في الكيان الصّهيُونيّ ثلاثة أنواع من المُستوطنات الزّراعيَّة؛ وهي:

أ: **الكيبوتس**: أو المُستوطنة الزّراعيَّة الجماعيَّة، وجمعها "كيبوتسيم".

ب: **الموشاف**: أو المُستوطنة الزّراعيَّة التّعاونيَّة، وجمعها "موشافيم".

ج: **القرية الزّراعيَّة**: أو المُستوطنة ذات الملكيَّات الخاصَّة، وتُسمَّى "الموشافا"، وجمعها "موشافوت".

أ: الكيبوتسات:

"الكيبوتس" تُعرِّفه الموسوعة اليهُوديَّة على أنَّه تجمُّع كبير يعتمد ـ أساساً ـ على العمل الزّراعي (وقد يشتغل كذلك في الصّناعة). ولا يُوجد في الكيبوتس ملكيَّة خاصَّة؛ فالأرض وأدوات الإنتاج والمساكن والأثاث هُو: ملكيَّة عامَّة حتَّى الطّعام مُشترك؛ إذْ للكيبوتس مطبخ مُشترك ومطعم مُشترك، وكذلك مكتبة مُشتركة.

ويلعب الكيبوتس دوراً هامّاً في وظائف الأمن والدّفاع، فقد تحوَّلت الكيبوتسات ـ أثناء الانتداب البريطانيّ على فلسطين وبعده ـ إلى قواعد للتّنظيمات العسكريَّة الصّهيُونيَّة كالهاغاناه والبالماخ ومُنظَّمة الأرغون الإرهابيَّة.. إلخ، وكذلك في تنظيم الاستيطان في المناطق العَرَبيَّة المُحتلَّة عام 1967.

وأرض الكيبوتس ملك للصُّندُوق القوميّ اليهُوديّ (الكارن كايميت)، أو للدّولة، ويدفع الكيبوتس إيجاراً رمزيّاً سنويّاً مُقابل الأرض.

أمَّا الأدوات الزّراعيَّة والمباني وغيرها من المرافق في الكيبوتس؛ فتُمَوَّل من قبَل الصُّندُوق التّأسيسي "الكارن هايسود"، أو من قبَل الوكالة اليهُوديَّة المُختصَّة بشُؤُون الاستيطان قبل قيام (إسرائيل)، أو من الدّولة بعد قيام (إسرائيل)، ويُسدِّد الكيبوتس قيمتها على أقساط طويلة الأجل.

والعمل المأجور ممنوع في الكيبوتسات، فلا يأخذ العاملون في الكيبوتس أجراً نقديّاً، وتُقدَّم لسُكَّان الكيبوتس جميع مُتطلَّبات الحياة من مأكل ومشرب وملبس ورعاية صحيَّة وترفيه وضمان اجتماعي بعد سنِّ السِّتِّين، بجانب تربية أطفالهم وتعليمهم.. إلخ. ولكنْ؛ مُنذُ 1967، أخذت الكيبوتسات تعتمد - بشكل متزايد - على اليد العاملة العَرَبيَّة، وخاصَّة من عُمَّال المناطق المُحتلَّة عام 1967.

وقد ظهر هذا النّوع من الاستيطان مع وُصُول الهجرة اليهُوديَّة الثّانية (في مرحلة الاستيطان الثّانية)، والتي كانت - كما سَبَقَ وذكرنا - من شباب مُفلسين جاؤوا بمُفردهم، وبعد تعثُّر مُحاولات الاستيطان الأُولى التي قامت على أساس الملكيَّة الخاصَّة، والعمل المأجور. وقد وَجَدَتْ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أنَّ تحقيق المشروع الصّهيُونيّ يقتضي إيجاد نوع من الإشراف المركزي الصّارم على حَرَكَة الاستيطان، وتقييد حُرِّيَّة المُستوطنين، وعدم إتاحة الفُرصة لهم لامتلاك وسائل الإنتاج والمساكن، أو امتلاك ما يُمكنهم من ترك فلسطين والعودة إلى بلادهم الأصليَّة. وعلى هذا الأساس؛ ظهرت فكْرة المزارع الجماعيَّة التي لا يملك المزارع فيها أيَّ شيء، ليكون ذلك القيد المطلوب لإحكام قبضة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة على المُهاجرين؛ حيثُ يُصبحون وكأنَّهم عبيد للكيبوتس، لا يستطيعون مُغادرته، أو العيش خارجه، ولا يملكون ما يُمكنهم من العودة من حيثُ أتوا[1].

---

(1) الرّجال والنّساء في الكيبوتس سواء في الحُقُوق والواجبات، والعمل ثماني ساعات في اليوم، وهُم يتوزّعون العمل في الكيبوتس حسب اختصاصهم، أو مُيُولهم ورغباتهم، والأطفال - مُنذُ ولادتهم - لا يعيشون مع آبائهم، بل هُناك مُربِّيات يقمن بالعناية بهم حتَّى دُخُول المدارس؛ حيثُ يتعلَّمون حسب الخُطَّة والمناهج التي تضعها الوكالة اليهُوديَّة والحَرَكَة الصّهيُونيَّة للمدارس اليهُوديَّة، والآباء يتَّصلون بأبنائهم في أوقات فراغهم، والأبناء لا ينامون مع آبائهم وأُمَّهاتهم، بل ينامون في مهاجع جماعيَّة مع أترابهم. تُشبه الكيبوتسات نظام الكلوخوزات الزّراعيَّة في الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً، وطُبِّق نظام الكيبوتسات على اليهُود الذين يُهاجرون إلى فلسطين ولا يملكون شيئاً، فيعيشون في هذه الكيبوتسات حياة اشتراكيَّة.

يبلغ عدد الكيبوتسات حسب إحصاء 1969 (231) كيبوتس يسكنها 93 ألف نسمة. والكيبوتسات مُوزَّعة بين عدد من المُنظَّمات الكيبوتسيَّة المُرتبطة بالأحزاب أو المُنظَّمات الصّهيُونيَّة.[1]

ب: الموشاف أو الموشافيم:

الموشاف قرية تعاونيَّة، بُدئ بإقامة هذا النّوع من المُستوطنات مع بداية فترة الانتداب البريطاني، وتقوم فكْرة الموشافيم على الأُسُس التّالية:

1: الملكيَّة الخاصَّة لقطعة الأرض التي تُؤجَّر من الصُّنْدُوق القوميّ اليهُوديّ (الكارن كايميت)، أو من مُديريَّة عقارات (إسرائيل).

2: العمل الشّخصي والعائلي مع رَفْض العمل المأجور.

3: المُساعدة المُتبادلة بين أعضاء الموشاف في حالة الحاجة.

4: التّسويق المُشترك للإنتاج والآلات مُشتركة في الموشاف.

يشترك نظام الموشافيم التّعاوني مع الكيبوتسات في كونهما يقومان على أراضي مملوكة للصُّنْدُوق القوميّ اليهُوديّ، أو للدّولة، وتُعطى للموشاف أو الكيبوتس بإيجار رمزي لمُدَّة طويلة. وكلا النّظامَيْن يعتمدان على الصُّنْدُوق التّأسيسي "الكارن هايسود" والوكالة اليهُوديَّة والمُؤسَّسات الحُكُوميَّة الأُخرى في تزويدها بالمياه والأدوات والآلات الزّراعيَّة. كما أنَّهما ترتبطان مع الهستدروت (مُنظَّمة العمل والعُمَّال) اقتصاديّاً؛ وخاصَّة في مجال تسويق مُنتجاتهما عن طريق التّعاونيَّات التّابعة للهستدروت؛ مثل شركة "تنوفا" لتسويق المُنتجات الزّراعيَّة.

ويختلف الموشاف عن الكيبوتس في الملكيَّة الفرديَّة والحياة العائليَّة المُستقلَّة وما تتطلَّبه من مُمتلكات؛ كالبيت والأثاث والإشراف على تربية الأبناء. بينما لا يسمح للكيبوتس بأيٍّ شكل من أشكال الملكيَّة حتَّى الشّخصيَّة، والمُستعمرة الكيبوتسيَّة تتولَّى الإشراف على تربية الأطفال، وتنشئتهم مُنذُ ولادتهم، ثُمَّ تعليمهم إلى المرحلة التي تتناسب مع قُدراتهم العقليَّة، وتوجيههم إلى العمل الذي يتناسب مع مُيُولهم.

---

(1) راجع استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُوني في فلسطين المُحتلَّة، ص 172.

وباختصار؛ تقوم فكْرة الموشاف على تعاون المالكين.

والموشاف نوعان هُما:

1: **موشاف عوفديم:** ويقوم على أساس الملكيَّة الفرديَّة للمنازل والأرض، وعلى أساس الزّراعة الفرديَّة، ولكنَّها تعاونيَّة بالمعدَّات والآلات الزّراعيَّة، وبتسويق الإنتاج. وحسب إحصاء سنة 1970، كان هُناك 346 موشاف عوفديم، عدد سُكَّانها 122 ألف نسمة، وهي إمَّا مُستقلَّة، أو تتبع مُنظَّمات أو أحزاب يهُوديَّة صهيُونيَّة.

2: **موشاف شيتوني:** يقوم على أساس دمج خصائص الكيبوتس بالموشاف عوفديم، فملكيَّة الأرض الزّراعيَّة والمحاصيل والتّسويق في الموشاف شيتوني على غرار الكيبوتس جماعيَّة، ولكنَّ كُلَّ عائلة تملك منزلها الخاصَّ، وهي مسؤولة عن اقتصادها العائلي ومطبخها الخاصّ، وعن العناية بأطفالها؛ مثل الموشاف عوفديم.

وحسب إحصاء 1970، كان في (إسرائيل) 22 موشاف شيتوني يسكنها 4200 (أربعة آلاف ومئتان) نسمة تتوزَّع على المُنظَّمات والأحزاب اليهُوديَّة.

وتجدر المُلاحَظَة أنَّ يهُود الأقطار العَرَبيَّة والإسلاميَّة المُهاجرين إلى (إسرائيل) يُفضِّلون الموشاف على الكيبوتس نَظَراً لتأثُّرهم بالحياة العائليَّة في البلاد العَرَبيَّة الإسلاميَّة، والتي لا تزال الأُسرة فيها مُحافظة على كيانها وتقاليدها، بعكس الأُسرة الأُورُوبيَّة التي أخذت بالانحلال، لذلك فمُعظم سُكَّان الكيبوتسات هُم من يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة، بينما مُعظم سُكَّان الموشافيم هُم من يهُود الوطن العَرَبيّ والأقطار الإسلاميَّة، مع العلم أنَّ نسبة اليهُود المُهاجرين من الأقطار العَرَبيَّة والإسلاميَّة إلى فلسطين تبلغ 60٪ من سُكَّان (إسرائيل)، ويُقدِّرهم أندريه شوراكي بـ 75٪ عام 1971.

ج: القُرى والمُستوطنات الزّراعيَّة الخاصَّة:

هي أقدم أنواع المُستوطنات الزّراعيَّة الصّهيُونيَّة في فلسطين. ومع بداية الحرب العالميَّة الأُولى عام 1914، كان يُوجد في فلسطين نحو 30 قرية زراعيَّة، يقوم الإنتاج فيها على أساس الملكيَّة الخاصَّة والعمل المأجور.

وفي فترة الانتداب البريطانيّ؛ أُقيم عدد من القُرى الزّراعيَّة، وخاصَّة بعد الهجرة في المرحلة الرّابعة التي كانت في مُعظمها تنتمي للطّبقة الوُسْطَى، وقد أُقيمت هذه القُرى إمَّا بأموال المُهاجرين الخاصَّة، أو بمُساعدة جمعيَّة "البيكا"، وساهمت المُنظَّمة الصّهيُونيَّة والصّناديق القوميَّة اليهُوديَّة بإنشاء عدد من القُرى الزّراعيَّة، وخاصَّة في مرج ابن عامر.

وفي عام 1937، قرَّر المُؤتمر الصّهيُونيّ العشرون إنشاء قسم خاصٍّ باستيطان الطّبقة الوُسْطَى في دائرة الاستيطان بالوكالة اليهُوديَّة، وأُقيمت مُؤسَّسة خاصَّة لتسويق إنتاج المزارع الخاصَّة هي مُؤسَّسة "تينا" التّعاونيَّة، وهي الثّانية في حجمها بعد مُؤسَّسة "تنوفا" التّعاونيَّة التّابعة للهستدروت.

ويُمثِّل مزارعي القُرى الخاصَّة اتِّحادان هُما:

- الاتِّحاد الزّراعي: وهُو مُنظَّمة تعاونيَّة لمُزارعي الطّبقة الوُسْطَى الذين يعملون في مزارعهم الخاصَّة. وفي عام 1968، كان الاتِّحاد الزّراعي يضمُّ 52 مُستوطنة، يسكنها 15 ألف نسمة.

- اتِّحاد المزارعين: يُمثِّل المُزارعين الذين يملكون أراضيهم ومبانيهم وآلاتهم الزّراعيَّة ومواشيهم، كان الاتِّحاد يضمُّ في عام 1968، ما بين 7- 8 آلاف مُزارع[1].

مُلاحَظَة:

كانت الوكالة اليهُوديَّة "المُشرفة على شُؤُون اليهُود في فلسطين قبل قيام (إسرائيل)"، ثُمَّ حكُومة (إسرائيل) بعد قيامها عام 1948، تأخذ الوُفُود الزّائرة من الاتِّحاد السُّوفياتي ودُول أُورُوبا الشّرقيَّة الاشتراكيَّة (قبل انفراط عقد الاتِّحاد السُّوفياتي وحلف وارسو) وخاصَّة بعد الحرب العالميَّة الثّانية 1945، تأخذها إلى المُستعمرات أو المُستوطنات الكيبوتسيَّة، أو الموشافيم؛ وخاصَّة موشاف شيتوني، ليطَّلعوا على النّظام الاشتراكي التّعاوني الذي تُدار

(1) المصدر لأنواع الاستيطان الزّراعي الصّهيُونيّ هُو "استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة"، حبيب قهوجي، ص 141 - 148 و171 - 208، باختصار، بالإضافة إلى اطّلاعي الشّخصي على هذه الأنواع من المُستوطنات.

بواسطته الزّراعة والمزارع اليهُوديَّة، وعلى شركة "تنوفا" التّعاونيَّة، التي تقوم بتصريف إنتاج هذه المزارع، كما هُو الحال في "الكولخوزات" في الاتّحاد السُّوفياتي، بل أشدّ اشتراكيَّةً وتعاونيَّةً منه. فتعود هذه الوُفُود وهي تُشيد بالنّظام الاشتراكي التّعاوني في (إسرائيل).

بينما كانت تأخذ الوُفُود الزّائرة والقادمة من أُورُوبا الغربيَّة أو الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لزيارة المُستوطنات أو القُرى الزّراعيَّة الخاصَّة، ولزيارة الشّركات الرّأسماليَّة من صناعيَّة وتجاريَّة، فتعود هذه الوُفُود وهي تُشيد بالنّظام الرّأسمالي الحُرّ في (إسرائيل). وكلا الفريقَيْن يُشيدان بديمُقراطيَّة (إسرائيل)، والرّعاية الاجتماعيَّة، والحُرِّيَّة التي تُؤمِّنها لكُلّ فرد فيها.

الفصل الثّالث:

الدِّبلُوماسيَّة الصّهيُونيَّة تصنع (إسرائيل)

سنتحدَّث في هذا الفصل عن الدِّبلُوماسيَّة الصّهيُونيَّة، وسعيها الدّؤوب لإيجاد الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، ثُمَّ قيام (إسرائيل)، وتعاون الدِّبلُوماسيَّة الصّهيُونيَّة مع الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة، ثُمَّ الدِّبلُوماسيَّة الأمريكيَّة للوُصُول إلى الهدف المنشود، وهُو قيام الكيان الصّهيُونيّ في فلسطين.

المساعي الصّهيُونيَّة ومُساندة الإمبرياليَّة البريطانيَّة:

مرَّ معنا أنَّ هدف الحَركَة الصّهيُونيَّة تحدَّد في المُؤتمر الصّهيُونيّ الأوَّل عام 1897، تحديداً نهائيّاً؛ وهُو: خَلْق وطن قوميّ لليهُود في فلسطين بضمانة القانون الدّولي العامّ (سمَّيناها الصّهيُونيَّة السِّياسيَّة).

ثُمَّ تحدَّثنا عن المساعي الدِّبلُوماسيَّة الصّهيُونيَّة لدى حُكُومات الدُّول التي تستطيع أنْ تُعين الحَركَة الصّهيُونيَّة على تحقيق هدفها النّهائي في إقامة دولة يهُوديَّة في فلسطين، وكيف راح هرتزل يطرق أبواب المُلُوك والأباطرة في عصره حتَّى البابا في رُوما، يلتمس منهم التّأييد والمُساعدة، ولكنَّه وَجَدَ ـ أخيراً ـ أنَّ دولة كُبرى واحدة تستطيع أنْ تُحقِّق آمال الصّهيُونيَّة؛ وهي بريطانيا العُظمى، وذلك لأنَّ لبريطانيا تطلُّعات إلى فلسطين بالذّات، فهي موقع استراتيجي تقتضيه حماية قناة السُّويس من الشّرق، وهي ـ أيضاً ـ على المدخل البَحْري الغربي إلى الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة الآسيويَّة، وكانت بريطانيا قد احتلَّت مصر عام 1882، فدانت لها القناة استراتيجيّاً، وباحتلال فلسطين تُصبح القناة في مأمن من أيِّ خطر قادم من الشّرق.

ولقد تركَّزت - بالفعل - مساعي الحَركَة الصّهيُونيَّة على الدّولة البريطانيَّة، ثُمَّ أثبتت الأحداث أنَّ بريطانيا كانت لا تقلُّ حرصاً من زُعماء الصّهيُونيَّة على تهيئة الوطن القوميّ اليهُوديّ المنشود في فلسطين.

ولقد كان السّاسة البريطانيُّون قد لوَّحوا لزُعماء الحَركَة الصّهيُونيَّة بين الفَيْنَة والفَيْنَة بوطن قوميّ يهُوديّ في غير فلسطين؛ مثل: قُبرص، أو أُوغندا، أو سيناء، إلاَّ أنَّ سير الأحداث كان قد أكَّد بأنَّ ذلك لم يكن من جانب رجال الدّولة البريطانيَّة إلاَّ من قبيل مُحاولة التَّعرُّف على مدى جدِّيَّة الصّهيُونيَّة في حرصها على فلسطين بالذّات.

وقد تأكَّدت بريطانيا أنَّ قُبرص، أو أُوغندا، أو مدين، أو سيناء، لم تكن تعني عند زُعماء الحَركَة الصّهيُونيَّة إلاَّ حُلُولاً مُؤقَّتة، بعيدة كُلَّ البُعْد عن أنْ تكون البديلة لدولة اليهُود في فلسطين، التي هي الهدف النّهائي لتلك الحَركَة. حتَّى إنَّ هرتزل لم يتَّجه إلى أقاليم أُخرى غير فلسطين؛ إلاَّ بعد أنْ فشلت كُلُّ مُحاولاته مع السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد الثّاني في هذا المجال، وفكَّر في المناطق السّابقة لتكون محطَّة مُؤقَّتة للقفز منها إلى فلسطين في المُستقبل، وعندما تتوفَّر الظُّرُوف المُناسبة.

وبعد وفاة هرتزل في 3 تمُّوز 1904، انتقلت قيادة الحَركَة الصّهيُونيَّة إلى الدُّكتُور حاييم وايزمن، الذي استطاعت الحَركَة الصّهيُونيَّة بقيادته أنْ تُحقِّق آمالها، وتصل إلى أهدافها ببناء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين، ثُمَّ تصل إلى إقامة (إسرائيل) فيها، والتي كان حاييم وايزمن أوَّل رئيس لها، لذلك لابُدَّ من نبذة عن حياة وايزمن زعيم الحَركَة الصّهيُونيَّة الجديد.

حاييم وايزمن:

وُلد وايزمن في رُوسيا، وتعرَّض - وهُو صبي - للمشاعر والأعمال المُعادية لليهُود أكثر ممَّا تعرَّض لها هرتزل. وفي سنٍّ مُبكِّرة، ذَهَبَ إلى "بينسك **Pinsk**"؛ حيثُ تقيم جالية يهُوديَّة كبيرة، ثُمَّ انتقل إلى ألمانيا؛ حيثُ دَرَسَ الكيمياء، التي نال فيها - فيما بعد - شُهرة واسعة.

كان وايزمن - مُنذُ صباه - معروفاً ومُقدَّراً بين رجال الحَركَة الصّهيُونيَّة، كان مُؤمناً إيماناً مُطلقاً بالرّأي القائل إنَّ اليهُود شعب واحد؛ لذا يجبُ أنْ تكون لهم دولة، وهذه الدّولة

يجبُ أنْ تكون في فلسطين[1]. وهُو - طيلة حياته الطّويلة النّشطة - لم يتراجع أو يتردَّد في اعتقاده أو التزامه، وإليه - أكثر من أيّ فرد آخر - يعود الفضل في قيام (إسرائيل).

انتقل وايزمن إلى إنجلترا حوالي الفترة التي مات فيها هرتزل، وأصبح - فور وُصُوله إليها - من أكثر رجال الحَرَكَة الصّهيُونيَّة نشاطاً فعَّالاً فيها، ثُمَّ أصبح رئيساً لـ "الاتِّحاد الصّهيُونيّ" البريطاني".

كان وايزمن - بجانب نشاطه الشّديد - ذا حُجَّة مُقنعة، ويُدرك طبيعة الأُمُور بسُرعة. وبسُرعة؛ أصبح صديق اليهُود النّافذين في بريطانيا، وحاز على ثقتهم وثقة زُعماء بريطانيِّيْن كبار أمثال: لويد جورج، بلفور، تشرشل، سيسيل ملنر، بالإضافة إلى ثقة وتقدير أفراد عائلة رُوتشيلد الهائلة الثّراء، وثقة ودَعْم يهُود بريطانيا عامَّة، والبالغ عددهم - آنئذ - نحو 300 ألف نسمة.

أخذ وايزمن - بعد أنْ تولَّى زعامة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة - يُشدِّد على نهج ربط الهدف الصّهيُونيّ بالمصالح والمطامع البريطانيَّة في الشّرق الأوسط. وفي الوقت نفسه؛ سعى لإقامة علاقات مع الحُكَّام العُثمانيِّيْن، وعمل على عدم إغضاب ألمانيا؛ حيثُ مقرُّ المُنظَّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة، وكذلك عدم إغضاب رُوسيا؛ حيثُ تقيم أعداد كبيرة من اليهُود؛ وحيثُ تنتشر النّشاطات الصّهيُونيَّة غير المشروعة هُناك.

ولكنَّه - بعد قيام الحرب العالميَّة الأُولى - ركَّز جُهُوده على بريطانيا، حتَّى حصل على وعد بلفور عام 1917، وقبل نهاية تلك الحرب.

وفي الوقت نفسه؛ أخذت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بقيادة وايزمن تُركِّز جُهُودها على الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وكَسْب يهُودها إلى صفِّ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة. ومُنذُ الحرب العالميَّة الثّانية؛ انتقل مركز ثقل الحَرَكَة الصّهيُونيَّة من بريطانيا إلى أمريكا، التي تبنَّت أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وكان للدِّبلُوماسيَّة الأمريكيَّة الدّور الأوّل في قيام (إسرائيل) كما سنرى فيما بعد.

---

(1) تأثَّر وايزمن بأحدهاعام الزّعيم اليهُوديّ المُتشدِّد المشهور الذي يُنسب إليه وَضْع برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون. وكان وايزمن من أصدقائه المُقرَّبين، رغم فارق السِّنِّ بينهما، فأحدهاعام يكبر وايزمن بـ 21 عاماً.

أصدر حاييم وايزمن كتابه الشّهير "التّجربة والخطأ"، ثُمَّ نُشرت مُذكّراته بعد وفاته، والتي تُبيِّن نشاطه الدّؤوب الذي لا يعرف الكَلل في سبيل تحقيق أهداف الحَركَة الصّهيُونيَّة التي آلت إليه رئاستها[1].

القضيَّة الفلسطينيَّة:

دور الدِّبلُوماسيَّة الصّهيُونيَّة والبريطانيَّة في نشأتها:

لقد رأينا - فيما سَبَقَ - ارتباط الصّهيُونيَّة بالقوى الاستعماريَّة، وخاصَّة بريطانيا بالذّات، وكيف أنَّ الصّهيُونيَّة اتَّجهت إلى بريطانيا للوُصُول إلى أهدافها، وكيف أنّها وَجَدَتْ في بريطانيا الصّدر المفتوح للتّعاون وتبادل المنافع مع الحَركَة الصّهيُونيَّة.

وعندما بدأت الحرب العالميَّة الأُولى وَصَلَتْ المساعي الصّهيُونيَّة لدى بريطانيا إلى قمَّتها؛ حيثُ بدأت القضيَّة الفلسطينيَّة التي لعبت فيها بريطانيا دوراً دبلوماسيّاً هامَّاً، ثُمَّ أكملت هذا الدّور الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، التي برزت بعد الحرب العالميَّة الثّانية كقُوَّة عالميَّة عُظمى، وانتهى هذا الدّور بقيام (إسرائيل) على أرض فلسطين عام **1948**، بمُساندة الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، ممَّا أدَّى إلى صراع عَرَبي إسرائيلي بأبعاده العالميَّة المُعاصرة مُنذُ قيام (إسرائيل) عام **1948**.

لقد كانت بريطانيا - وقبل اندلاع الحرب العالميَّة الأُولى - ترى في ضمِّ فلسطين إلى إمبراطُوريَّتها الواسعة عملاً يُحتِّمه أمن هذه الإمبراطُوريَّة في آسيا، وأمن شريانها الرّئيسي "قناة السُّويس". وكانت ترى - في الوقت نفسه - أنَّ قيام مُجتمع يهُوديّ على أرض فلسطين يُصبح في المُستقبل الحاجز البشريّ الغريب بين جناحَيْ الأُمَّة العَرَبيَّة في آسيا وأفريقيا، ومن ثمَّ المعوق لقيام وحدة عَرَبيَّة شاملة تُهدِّد إمبراطُوريَّتها في المُستقبل (كما قدَّمنا سابقاً). غير أنَّ استراتيجيَّات الحرب العالميَّة الأُولى قد أجبرت بريطانيا على مُهادنة العَرَب، واضطُرَّت الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة إلى السَّير في طريق مُزدوَج وجهه الأوَّل الاتِّصال بالعَرَب، وإغداق

---

(1) المصدر "السّلام المُراوغ"، تأليف جُون ديفر، ترجمة محمود فلاَّحة، ص 20 - 22.

الوُعُود لهم بالحُرِّيَّة والاستقلال والوحدة، ووجهه الثّاني الاتِّصال بالحَرَكَة الصّهيُونيَّـة لتنفيـذ هدفها المنشود بإقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين.

الوجه الأوّل للدبلُوماسيَّة البريطانيَّة المُزدوجة:

مُحادثات حُسَيْن مكماهون:

في الوقت الذي كانت فيه الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة شـديدة الاقتنـاع بـأنَّ مصـالح بريطانيـا في فلسطين تقضي بإقامة ذلك الجسر البشريّ الغريـب فيـها، وأنَّ الظُّرُوف التّاريخيَّة تُرشِّـح اليهُود لهذه المهمَّـة، حتَّمـت ظُرُوف الحـرب مـع تُركيـا علـى بريطانيـا أنْ تتَّجه بـالوُعُود إلـى العَرَب. كانت بريطانيا تعلم أنَّ العَـرَب الخـاضعين للحُكْـم التُّـركي يتطلَّعـون إلـى قيـام "دولـة عَرَبيَّة شاملة" ارتباطاً بمبدأ القوميَّات الذي ظهر في القرن التّاسع عشر، وأنَّ هؤلاء العَرَب مـع ذلك شديدو الولاء لفكْرة الخلافة الإسلاميَّة من ناحية أُخرى، وخوفاً من أنْ يستغلَّ السُّلطان العُثمانيّ ذلك الولاء ليُعلن في العالم الإسلاميّ "الجهاد" فـي وجـه الحُلفـاء، ويجعـل اشـتراك العَرَب فيه عملاً مُقَدَّساً، وتفادياً لذلك - وكَسْباً للعَرَب في المعركة - لم يكن أمام الدِّبلُوماسـيَّة البريطانيَّة بُدٌّ من أنْ تُلوِّح للعَرَب بالتَّعهُّد بتحقيق آمالهم فـي الدّولـة العَرَبيَّة الواحـدة، لتضـمَّ عَرَب المنطقة جميعاً، وأنْ تُذكي فيهم رُوح الثّورة في وجه الدّولـة العُثمانيَّة، وتتَّخذهـم أداة لإضعاف تلك الدّولة في معاركها مع الحُلفاء.

وكان على بريطانيا - في الوقت نفسه - أنْ تُفتِّش عن زعامـة عَرَبيَّـة مُؤهَّلـة يلتـفُّ حولـها العَرَب، لتعود الخلافة الإسلاميَّة إليهم مرَّة أُخرى، وقد وَجَدَتْ بريطانيا في الشّـريف حُسَيْن (شريف مكَّة آنذاك) ضالَّتها المنشودة، فجاءت "مُراسلات حُسَيْن مكماهون"[1].

إنَّ نظرة سريعة على هذه المُراسلات تكفي للإقتناع بأنَّ الشّريف حُسَيْن كـان يسـعى مـن وراء مُساعدته لبريطانيا ضدَّ تُركيا إلى دولة عَرَبيَّـة واحـدة تشـمل الشّـعب العَرَبـيّ الـذي كـان خاضعاً للسُّلطان العُثمانيّ في غرب آسيا (بما فـي ذلـك فلسـطين). بينمـا كـانت الدِّبلُوماسـيَّة البريطانيَّة تسعى - بصفة أصليَّة - إلى كَسْبه فـي معركتـها بوُعُـود ملؤهـا الغُمُـوض فيمـا يتَّصـل

(1) مكماهون المُقيم السّامي البريطانيّ في مصر.

بالحُدُود والأبعاد الجَغرافيَّة للدّولة العَرَبيَّة المُرتقَبَة، فبصدد العراق؛ ثمَّة تحفُّظات عميقة لحساب بريطانيا، ومنطقة لُبنان الحاليَّة مُستبعدَة لحساب الحليفة فرنسا، وحتَّى بقيَّة المناطق فالتّنويه بصددها إلى نوع من الوصاية البريطانيَّة على الدّولة العَرَبيَّة التي ستقوم عليها، وكانت بريطانيا تُضمر أنْ تكون فلسطين بالتّحديد لها حسب مُقتضيات الاستراتيجيَّة البريطانيَّة، وأنْ يكون للصّهيُونيَّة نصيب فيها.

وهكذا؛ بينما كانت الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة تُلوِّح للعَرَب بالحُرِّيَّة والاستقلال والوحدة كانت تتقاسم بلادهم مع حليفتها فرنسا، ومع الحَرَكَة الصّهيُونيَّة.

ولعلَّ في نُصُوص اتِّفاقيَّة سايكس بيكو التي أُبرمت سرّاً بين إنكلترا وفرنسا في نيسان/أيَّار 1916، ووعد بلفور الذي أُبرم مع الصّهيُونيَّة في 2 تشرين الثّاني 1917، ما يُؤكِّد على أنَّ تعهُّد بريطانيا للشّريف حُسَيْن بدولة عَرَبيَّة واحدة مُؤلَّفة من البلاد العَرَبيَّة التي تحكمها تُركيا في غرب آسيا ليست إلاَّ من قبيل الخداع الدِّبلُوماسي[1].

الوجه الثّاني للدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة المُزدوجة:

وعد بلفور:

ممَّا لا ريب فيه أنَّ زُعماء الحَرَكَة الصّهيُونيَّة كانوا ـ مُنذُ البداية ـ على بيِّنة من تطلُّع الاستراتيجيَّة البريطانيَّة إلى فلسطين، فأرادوا أنْ يستغلُّوه في سعيهم إلى إقامة كيانهم في فلسطين، وقد نوَّه هرتزل عن ذلك في كتابه عن "الدّولة اليهُوديَّة".

وفي عام 1914، كان وايزمن خليفة هرتزل أكثر وُضُوحاً وصراحة في هذا الصّدد، ذلك لأنَّ الواقع التّاريخي الدّولي أصبح أكثر مُلاءمة للمُكاشفة، فقال في رسالة وجَّهها إلى رئيس تحرير صحيفة "المانشستر غارديان": «إنَّنا نستطيع أنْ نقول إنَّه إذا ما وقعت فلسطين في منطقة النُّفُوذ البريطانيّ، ثُمَّ شجَّعت بريطانيا استيطان اليهُود في فلسطين، وإقامة مُجتمع يهُوديّ يعتمد على بريطانيا، وأمكن إدخال مليون يهُوديّ هُناك في فترة تمتدُّ من عشرين إلى ثلاثين سنة، فإنَّ هؤلاء اليهُود سيُطوِّرون هذا القُطر، ويكونون حَرَساً فعَّالاً يحمي قناة السُّويس».

---

(1) المصدر "المُجتمع العَرَبيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة"، د. مُحمَّد طه بدوي، ص 362 ـ 365، باختصار.

وبهذه العبارات الواضحة يكون وايزمن قد قـدَّم العربـون الـذي ترجـوه بريطانيـا مُقابل وعدها بإقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين، إذا ما تحقَّق لها النّصر في نهاية الحرب.

ثُـمَّ تتلاحـق أحـداث الحـرب العالميَّـة الأُولـى مُهيِّئة لتلاقـي الوعـد الصّـهيُونيّ بـالوعد البريطاني. ففي نهاية عام 1914، دَخَلَتْ تُركيا الحرب إلى جانب دُول أُورُوبا الوُسْطَى (ألمانيا والنّمسا). ولقد كان حرص بريطانيا شديداً على احتلال فلسطين بالذّات لحمايـة مُواصلاتـها الحيويَّة مع مُستعمراتها في جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا. وفي تمُّـوز عـام 1917، اسـتطاع الجنرال "اللّنبي" أنْ يستولي على القُدس، وفي ذلك يقول الكُتَّاب الإسرائيليون: «إنَّه قـد تمَّ ـ بذلك ـ عودة المدينة المُقَدَّسة من جديد من الإسلام إلى المسيحيَّة، وذلـك بعـد مضـي تسـعمائة سنة على الحُرُوب الصّليبيَّة، ولكنَّها عـادت هـذه المـرَّة مسيحيَّة بروتسـتانتيَّة تراهـا الصّهيُونيَّـة أقرب إليها».

وعد بلفور:

وبينما كانت الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة تُقنع العَرَب بالحرب في صفِّها ضدَّ الدّولـة العُثمانيَّـة عـن طريـق الوعـد بالدّولـة العَرَبيَّـة الكُبرى الشّـاملة لفلسـطين، كـان الوجـه الثّـاني لـهذه الدِّبلُوماسيَّة يُطلُّ على الصّهيُونيَّة، ويدفعـها إلـى الضّغـط علـى الولايـات المُتَّحـدة الأمريكيَّـة لدُخُول الحرب بجانب الحُلفاء.

وفـي عـام 1916، قطفـت بريطانيـا ثمـارَ دبلوماسـيَّتها مـع العَـرَب؛ بـأنْ تحقَّقـت الثّـورة العَرَبيَّـة بـالفعل فـي وجـه الدّولـة العُثمانيَّـة، وثمـار دبلوماسـيَّتها مـع الصّهيُونيَّـة بـأنْ دَخَلَـتْ الولايات المُتَّحدة الحربَ بجانب الحُلفـاء عـام 1917، وكـان لـها الفَضْـل فـي انتصـارهم علـى ألمانيا وحُلفائها عام 1918.

ولكـنَّ بريطانيـا لـم تُحقِّـق للعَـرَب وُعُودهـا لـهم بالحُرِّيَّـة والوحـدة والخلافـة العَرَبيَّـة الإسلاميَّة، بينما حقَّقت للصّهيُونيَّة ما تصبو إليها من إقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين.

ففـي 2 تشرين الثّـاني عـام 1917، أعلـن "آرثـر جيمـس بلفـور" وزيـر خارجيَّـة بريطانيـا ـ حينذاك ـ في خطابه إلى اللُّورد "أدموند دي رُوتشيلد" (وهُـو ـ كمـا أسـلفنا ـ مـن كبـار أثريـاء

اليهُود الذين كانوا يُموِّلون الحَرَكَة الصّهيُونيَّـة)، أعلـن نبأ وعـد بريطانيـا بـالعمل على إقامـة "وطن قوميّ لليهُود في فلسطين"، ذلك الوعد الذي عُرِف في التّاريخ باسم "وعد بلفور".

وقد رأى الصّهاينة في صُدُور وعد بلفور ـ حينذاك ـ ثمرة المساعي الصّهيُونيَّة الطّويلة لـدى السّاسة البريطانيِّين، وبداية الطّريق إلى دولـة اليـهُود المنشـودة فـي فلسـطين، وكـان بعـض قـادة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة يُفضِّلون أنْ يكون الوعد في شكل "ميثاق" بين المُنظَّمة الصّهيُونيَّة وبريطانيا.

وفيما يلي؛ نُورد نصّ التّصريح لما لصيغته من أهمِّيَّة في التّاريخ السِّياسي للقضيَّة الفلسطينيَّة:

عزيزي اللُّورد رُوتشيلد:

« يسرُّني جداً أنْ أُبلغكم بالنّيابة عن حُكُومة جلالته التّصريح التّالي الذي ينطـوي علـى العطف على أماني اليـهُود والصّهيُونيَّـة، وقـد عُـرِض علـى الـوزارة، وأقرّتـهُ: « إنّ حُكُومـة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطـن قومـيّ للشّعب اليـهُوديّ فـي فلسـطين، وستبذل غاية جهدها لتُسهِّل تحقيق هذه الغاية، علـى أنْ يُفـهم جليّـاً أنّـه لـن يُؤتـى بعمـل مـن شأنه أنْ ينتقص من الحُقُوق المَدَنيَّة والدِّينيَّة التي تتمتّع بها الطّوائف غير اليهُوديَّة المُقيمة ـ الآن ـ في فلسطين، ولا الحُقُوق أو الوَضْع السِّياسي الذي يتمتّع به اليهُود في البُلدان الأُخرى ».

« وسأكون مُمتنّاً إذا ما أحطتُم الاتِّحاد الصّهيُونيّ علماً بهذا التّصريح ».

المُخلص

آرثر بلفور

ولقد أقرَّ الحُلفاءُ هذا الإعلانَ في مُؤتمر "سان ريمو" عام **1920**، وتضمَّنتْهُ مُعاهدة سيفر، التي تناولت الوَضْعَ في الشّرق الأوسط، الأمر الذي ألزم الحُلفاء به كوثيقة سياسيَّة.

ولقد تقرَّر وَضْع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وفي هذا تحقيـق للـهدف البريطـانيّ الصّهيُونيّ المُشترك، وسُرعان ما حلّ محلّ الإدارة العسكريَّة حُكْم مَدَني، تسـلّم زمامـه عـام **1920**، مندوب سامي بريطاني صهيُوني هُو "السِّير هربرت صموئيل".

وفي تمُّوز عام 1922 ، أقرَّ مجلس عصبة الأُمم الانتداب البريطانيّ على فلسطين ، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور .

وإذا كان وعد بلفور الوثيقة الدِّبلُوماسيَّة الأُولى نحو إرساء الدّولة اليهُوديَّة المنشودة في فلسطين ، فإنَّ صكَّ الانتداب قُصد به أنْ يكون السّند النّظامي الذي يرتكز إليه التَّحرُّك الصّهيُونيّ نحو ذلك الهدف .

والحقُّ أنَّ صكَّ الانتداب قد جاء صكّاً صهيُونيّاً خالصاً في ديباجته ، وفي أحكامه ، فقد تضمَّنت هذه الدّيباجة ما يلي :

« لَمَّا كانت دُول الحُلفاء الكُبرى قد وافقت على أنَّ تعهد بإدارة فلسطين التي كانت تابعة فيما مضى للسّلطنة العُثمانيَّة بالحُدُود التي تُعيِّنها تلك الدُّول إلى دولة مُنتدبة تختارها الدُّول المُشار إليها تنفيذاً لنُصُوص المادَّة 22 من ميثاق عصبة الأُمم » .

« ولَمَّا كانت دُول الحُلفاء قد وافقت - أيضاً - على أنْ تكون الدّولة المُنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التّصريح الذي أصدرته - في الأصل - حكُومة صاحب الجلالة البريطانيَّة في 2 تشرين الثّاني 1917 ، وأقرَّتْهُ الدُّول المذكورة لصالح إنشاء وطن قوميّ لليهُود في فلسطين ، على أنْ يُفهَم أنَّه لن يُؤتي بعمل من شأنه أنْ يضرَّ بالحُقُوق المَدَنيَّة والدِّينيَّة التي تتمتَّع بها الطّوائف غير اليهُوديَّة الموجودة - الآن - في فلسطين ، أو الحُقُوق والوَضْع السِّياسي ممَّا يتمتَّع به اليهُود في أيَّة بلاد أُخرى » .

« ولَمَّا كان قد اعتُرِف بذلك بالصّلة التّاريخيَّة التي تربط الشّعب اليهُوديّ بفلسطين وبالأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القوميّ في تلك البلاد » .

ولقد كانت النّتيجة المنطقيَّة لهذه المُقدِّمة أنْ أمعنت أحكام هذا الصَّكّ في التّأكيد للصّهيُونيَّة على حقِّها في فلسطين ، وفي تحميل حكُومة الانتداب هذه المسؤوليَّة ، وعلى صُورة تبدو معها وكأنَّ الهَدَف النّهائي للانتداب هُو التّمكين للصّهيُونيَّة من فلسطين ، فطبقاً للمادَّة الثّانية من الصَّكّ ؛ وهي :

« تكون الدّولة المُنتدبة مسؤولة عن وَضْع البلاد في أحوال سياسيَّة وإداريَّة واقتصاديَّة تضمن إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ وُفقاً لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصَّكّ وترقية مُؤسَّسات الحُكْم الذّاتي، وتكون مسؤولة - أيضاً - عن صيانة الحُقُوق المَدَنيَّة والدِّينيَّة لجميع سُكَّان فلسطين، بغضّ النَّظَر عن الجنس والدِّين ».

وتقضي المادَّة الرّابعة بأنْ « يُعترَف بوكالة يهُوديَّة مُلائمة كهيئة عُمُوميَّة لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين، والتّعاون معها في الشُّؤُون الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، وغير ذلك من الأُمُور التي تُؤثِّر في إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ ومصالح السُّكَّان اليهُود في فلسطين، ولتُساعد وتشترك في ترقية البلاد، على أنْ يكون ذلك خاضعاً - دوماً - لمُراقبة الإدارة.

وأنْ يُعترَف بالجمعيَّة الصّهيُونيَّة كوكالة مُلائمة مادامت الدّولة المُنتدبة ترى أنَّ تآليفها ودُستُورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض، ويترتَّب على الجمعيَّة الصّهيُونيَّة أنْ تتَّخذ ما يلزم من التّدابير بعد استشارة حُكُومة صاحب الجلالة البريطانيَّة للحُصُول على معونة جميع اليهُود الذين يبغون المُساعدة في إنشاء الوطن اليهُودي ».

وعلى إدارة فلسطين طبقاً للمادَّة السّادسة: « ومع ضمان عدم إلحاق الضَّرَر بحُقُوق وَوَضْع فئات الأهالي الأُخرى، أنْ تُسهِّل هجرة اليهُود في أحوال مُلائمة، وأنْ تُشجِّع حَشْدَ اليهُود في الأراضي الأميريَّة والأراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العُمُوميَّة ».

وبصدد الجنسيَّة تقتضي المادَّة السّابعة: « أنْ تتولَّى إدارة فلسطين مسؤوليَّة سنّ قانون الجنسيَّة، ويجبُ أنْ يشمل هذا القانون على نُصُوص تُسهِّل اكتساب الجنسيَّة الفلسطينيَّة لليهُود الذين يتَّخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم ».

ولمزيد من التّمكين للوكالة اليهُوديَّة نصَّ صكُّ الانتداب على: « التّرخيص لإدارة البلاد أنْ تتَّفق مع الوكالة اليهُوديَّة المذكورة في المادَّة الرّابعة، على أنْ تقوم هذه الوكالة بإنشاء أو تيسير الأشغال والمصالح والمنافع العُمُوميَّة، وترقية مرافق البلاد الطّبيعيَّة بشُرُوط عادلة ومُنصفة، مادامت الإدارة لا تتولَّى هذه الأُمُور مُباشرة بنفسها ».

ولقد حرص الصَّكُّ على أنْ تكون اللُّغتـان الإنكليزيَّة والعبريَّة على قدم المُساواة مع اللُّغة العَرَبيَّة هي اللُّغات الرَّسميَّة لفلسطين[1].

القناع القانوني لإرادة الأقوى:

دأَبَ الكُتَّاب والسَّاسَة العَـرَب عندما يتعرَّضـون للقضيَّـة الفلسطينيَّة على تناول وعد بلفور وصكِّ الانتداب من حيثُ مدى شرعيَّة الأوَّل وعدالـة الثَّاني، ومن ثمَّ يُصدرون في شأنهما أحكاماً "قَيْميَّة" بحتة، وكأنَّ القضيَّـة الفلسطينيَّة هي قضيَّة قانونيَّة أو خلافيَّة أوَّلاً وآخراً. وهُم بذلك يجهلون ـ أو يتجاهلون ـ حقيقة المُشكلة وأبعادها الواقعيَّة.

إنَّ وعد بلفور هُو عمل من أعمال الدِّبلُوماسيَّة، والدِّبلُوماسيَّة فنٌّ مـن فُنُون السِّياسـة، وفنُّ السِّياسة كان ـ ومايزال ـ مُنفصلاً انفصالاً كُلِّيّاً عن الأخـلاق والقـانون، بعيـداً كُلَّ البُعْد عن فكْرة الخير والشَّرِّ والعدل والظُّلم والفضيلة والرَّذيلة.

إنَّ أيَّ عمـل دبلوماسي هُـو وسيلة مـن وسـائل الدَّولـة فـي علاقاتـها بـالدُّول الأُخـرى، والعلاقات بين الدُّول ليست إلاَّ ضرباً من علاقات القوى، والدَّولة بأعمالها الدِّبلُوماسيَّة تسعى إلى تحقيق ذاتها، ومن ثمَّ قُوَّتها، وفي النِّهاية؛ فَرْض إرادتها على مـا عداهـا مـن القـوى، ومـن هُنا؛ فإنَّ وعد بلفور هُو عمل دبلوماسي أملتْهُ القُوَّة ومن أجل تحقيق مصلحة الأقوى.

والشَّيء نفسه بالنِّسبة لصكِّ الانتداب، فهُو كَسَنَد يصحُّ أنْ يُقال عنـه إنَّـه "قـانوني" تبعـاً لصُدُوره عن مجلس عصبة الأُمم، وهي مُنظَّمة دوليَّة ذات طابع نظامي أو قانوني.

إنَّ عصبة الأُمم أنشأها المُنتصرون في أعقاب الحرب العالميَّة الأُولى؛ لتكـون أداة نظاميَّـة لتحقيق إرادة الأقوياء في مُواجهة الضُّعفـاء، إرادة المُنتصريـن فـي مُواجهـة المُنهزمين، إنَّـها لا تعدو أنْ تكون أكثر من عصبة الأقوياء أو عصبة العمالقة، وما الطَّابع القـانوني الـذي اتَّخذتْـهُ إلاَّ مُجرَّد واجهة أو قناع يضفي على العصبة أو العصابة الشَّرعيَّة الـدَّوام (كمـا هُـو حـال هيئة الأُمم المُتَّحدة الآن، والتي أُقيمـت بعـد الحـرب العالميَّـة الثَّانيـة، فـهي هيئـة الكبـار لاستغلال الصِّغار، وحتَّى إذلالهم بقناع قانوني يضفي الشَّرعيَّة على أعمالهم).

---

(1) المصدر "المُجتمع العَرَبيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة"، د. مُحَمَّد طه بدوي، ص 365 ـ 370، باختصار.

وفي حقيقة عصبة الأُمم هذه تقبع حقيقة صكِّ الانتداب على فلسطين، إنَّه عمل من أعمال عصابة الأقوياء، ومن ثمَّ فهُو عمل من أعمال القُوَّة لصالح الأقوياء، يُفرَض على الضُّعفاء، وليس شيئاً آخر.

وهكذا تلتقي حقيقة الصَّكِّ مع حقيقة الوعد، فكلاهما عمل من أعمال القُوَّة في المجال الدّولي يفرضه القوي على الضّعيف.

وجُملة القول إذنْ؛ إنَّه لا جدوى من مُناقشة قيمة وعد بلفور في ضوء أحكام القانون الدّولي، أو مُناقشة صكِّ الانتداب في ضوء الحقِّ والعدل. إنَّ الجدوى في النّهاية مرهونة بما يتوفَّر للعَرَب من القُوَّة والقُدرة على أخْذ حُقُوقهم، وتحقيق آمالهم، والوُصُول إلى أهدافهم. إنَّ تلك القُوَّة والقُدرة هي التي تفرض احترام الآخرين، وتجعل حُقُوقهم في مأمن من الضّياع، وتجعل ادِّعاءات اليهُود بحقِّهم التّاريخي في فلسطين أرض المعاد ادِّعاءات واهية لا تصمد أمام المنطق السّليم والمُناقشة العادلة.

أمَّا وعد بلفور وصكُّ الانتداب؛ فإنَّ أبرز ما يُحتَجُّ به عليهما من النّاحية القانونيَّة يتمثَّل في أنَّهما قد صَدَرَا عن غير صاحب الحقِّ الشّرعي على فلسطين، وصاحب السّيادة عليها، وهُو الشّعب الفلسطيني، ذلك إلى جانب تعارض مضمون "الوعد" و"الصَّكّ" مع الوُعُود التي قَطَعَتْهَا بريطانيا في نفس الوقت للعَرَب بالحُرِّيَّة والوحدة، ومع حقِّ الشُّعُوب في تقرير مصيرها الذي نادى به الرّئيس الأمريكي ولسون حينذاك.

ولا أظنُّ أنَّ فقيهاً قانونيّاً واحداً مُحايداً في كُلِّ العالم يستطيع ـ مهما بلغت مهارته في التّخريج القانوني ـ أنْ يجد لدعوى اليهُود في فلسطين أيَّ أساس شرعي.

الحقيقة أنَّ التَّنكُّر للمشروعيَّة من جانب كُلٍّ من بريطانيا العُظمى وعصبة الأُمم ليس هُو المسؤول وحده عن خَلْق المُشكلة الفلسطينيَّة، وإنَّما العامل الرّئيسي في خَلْق المُشكلة الفلسطينيَّة يتمثَّل فيما كان عليه العَرَب حينذاك من تخلُّف في كُلِّ جوانب الحياة، وهذا يقودنا إلى الحديث عن العَرَبيّ الغائب واليهُوديّ الحاضر في ذلك الوقت.[1]

(1) المُجتمع العَرَبي والقضيَّة الفلسطينيَّة، د. مُحمَّد طه بدوي، ص 371ـ375.

العَرَبيّ الغائب واليهُوديّ الحاضر:

الحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ الحُضُور العَرَبيّ دوليّاً كان معدوماً في مطلع القرن العشرين. فكان العَرَب في غياب تامٍّ عن مُجريات الأُمُور في العالم. أمَّا بالنّسبة لليهُود؛ فكانت السّاحة الدّوليَّة مفتوحة للنّشاط الصّهيُونيّ (وقد رأينا ذلك في الاتِّصالات الدّوليَّة التي قام بها هرتزل من أجل التّرويج للحَرَكَة الصّهيُونيَّة وتحقيق أهدافها). وقد ساعد اليهُود على ذلك عوامل كثيرة منها:

1: انتشارهم في أُورُوبا المُسيطرة على مُقدَّرات العالم في ذلك الوقت.

2: نُفُوذهم الكبير في أُورُوبا الغربيَّة؛ وخاصَّة بريطانيا.

3: قيام حَرَكَات الإصلاح الدِّينيّ وظُهُور المسيحيَّة الأُصُوليَّة التي تُؤيِّد دعوى اليهُود بحقِّهم في أرض المعاد فلسطين؛ مثل: البيُوريتان، والبروتستانت، والأنكليكان، وقد سمَّيناهم بالمسيحيِّين الصّهاينة.

4: ظُهُور طبقة من الأثرياء اليهُود تُشارك الطّبقة البُورجوازيَّة في أُورُوبا الغربيَّة مصالحها، وتُقدِّم للحَرَكَة الصّهيُونيَّة ما تحتاجه من مال.

أخذ اليهُود يعملون بجدٍّ ونشاط لا يعرف الكلال لتحقيق أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة مُنذُ مُؤتمرها الأوَّل في بازل عام 1897، وذلك بإنشاء وطنهم القوميّ على أرض المعاد فلسطين، في غياب كامل للعَرَب أصحاب الحقِّ الشّرعي في فلسطين، ولولا المُقاومة العنيدة لمُخطَّطات الصّهاينة التي أبداها السُّلطان العُثمانيّ عبد الحميد، وصُمُوده المُثير للإعجاب أمام جميع الإغراءات التي قدَّمها الصّهاينة له، رغم حاجته الماسَّة للدّعم المالي اليهُوديّ، والاستفادة من النُّفُوذ اليهُوديّ في أُورُوبا والمحافل الدّوليَّة، لولا هذا الصُّمُود الرّائع من السُّلطان عبد الحميد لبدأ إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين مُنذُ مطلع القرن العشرين.

كان العَرَب عامَّة - وعَرَب فلسطين خاصَّة - لا يُدركون أخطار المُخطَّطات الصّهيُونيَّة في فلسطين، وعواقبها الوخيمة على الأُمَّة العَرَبيَّة، حتَّى ولا يعرفون عنها شيئاً. كان التَّخلُّف

العَرَبيّ شديداً، والجهل مُطبقاً، وكان اليهُود على العكس تماماً، يعرفون ما يُريدون، ويُخطِّطون لتحقيق ما يُريدون، ويقومون بالنّشاط الدِّبلُوماسي لدى كُلِّ مَنْ يستطيع أنْ يُساعدهم للوُصُول إلى ما يُريدون.

وعندما قامت الحرب العالميَّة الأُولى؛ جاءت فُرصتهم الذّهبيَّة لتحقيق أطماعهم، وتنفيذ مُخطَّطاتهم في إنشاء وطنهم القوميّ في فلسطين. فلم يتركوا الفُرصة تفلت من أيديهم، فألقوا بكُلِّ ثقلهم مع بريطانيا (الدّولة القادرة على تحقيق أهدافهم)، فقدَّموا لها الأموالَ والقُرُوضَ، وَدَفَعُوا الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة لدُخُول الحرب العالميَّة الأُولى إلى جانب بريطانيا وحُلفائها، وأخيراً؛ حصلوا على المكافأة الثّمينة وهي "وعد بلفور"، الذي كان الخُطوة الأُولى نحو فلسطين.

وبعد انتهاء الحرب العالميَّة الأُولى، وانعقاد مُؤتمر الصُّلح في باريس 1919، كان الوُجُود الصّهيُونيّ ظاهراً لكُلِّ بصير في المُؤتمر، ممَّا دَفَعَ الدُّكتُور دبلون إلى القول في كتابه "القضيَّة الحقيقيَّة لمُؤتمر الصُّلح" ما يلي: «كان عدد كبير من المندوبين (في مُؤتمر الصُّلح) يعتقدون أنَّ التّأثيرات التي تقوم وراء الوفدَيْن البريطانيّ والأمريكي هي يهُوديَّة في طابعها، وكانت الأُمُور تسير بوحي من اليهُود، الذين اجتمعوا في باريس لغاية واحدة؛ هي تحقيق برنامجهم المدرُوس، والذي تمكَّنوا من تنفيذه كما يُريدون».

أمَّا الوُجُود العَرَبيّ في مُؤتمر الصُّلح؛ فكان يقتصر على وُجُود وُفُود عَرَبيَّة غير رسميَّة من مصر وتُونُس وغيرها من الأقطار العَرَبيَّة المُستعمرة جاءت تُطالب بحقِّ تقرير المصير في بلادها[1].

أمَّا الوفد العَرَبيّ الرّسمي الوحيد الذي حضر المُؤتمر؛ فهُو وفد الملك فيصل بن الشّريف حُسَيْن، الذي رَفَضَتْ فرنسا قبوله في المُؤتمر كمندوب عن العَرَب، وهُو الحليف الذي كان للثّورة العَرَبيَّة الكُبرى التي قادها دوراً كبيراً في انتصار الحُلفاء في الشّام وإخراج الأتراك

---

(1) مثل وفد مصر بزعامة سعد زغلول، ووفد من تُونُس بزعامة عبد العزيز الثّعالبي، جاءت تُطالب بحقِّ تقرير المصير، ولكنَّها لم تلقَ آذاناً صاغية لمطالبها.

منها. ولم يُقبَل في المُؤتمر إلاَّ بعد توسُّط بريطانيا، وكمندوب عن الحجاز فقط. وهُناك؛ ألقى فيصل خطاباً كُلُّه دفاع عن العَرَب، وحُقُوق العَرَب، ودورهم في النّصر، وحقّهم في تقرير مصيرهم، ولكنَّ خطابه البليغ لم يلقَ آذاناً صاغية، ولم يكن له أيُّ دور في تحقيق أيٍّ مطلب من مطالب العَرَب في الحُرِّيَّة والوحدة والاستقلال. وهُناك تلقَّفه اليهُود الصّهاينة، وحاولوا أنْ يُقنعوه بالمُوافقة على وعد بلفور، وصوَّروا له الوعد على أنَّه عبارة عن وعد إنساني لإيجاد ملجأ لبعض البُؤساء والمُشرَّدين من اليهُود، وعرضوا عليه عُرُوضاً سخيَّة من القُرُوض والمُساعدات، وإنشاء وتنفيذ المشاريع التي تُؤدِّي إلى ازدهار البلاد العَرَبيَّة، حتَّى كاد فيصل أنْ يبلع الطُّعْمَ، وينطلي عليه المكر والدّهاء اليهُودي.

وبعد مُؤتمر الصُّلح وفي مُؤتمر سان ريمو في إيطاليا عام **1920**، الذي فُرض فيه الانتداب البريطانيّ على فلسطين، كان الوُجُود الصّهيُونيّ حاضراً، وفي عصبة الأُمم؛ حيثُ صَدَرَ صكُّ الانتداب وما فيه من تبنٍّ لوعد بلفور، وإلزام الدّولة المُنتدبة بريطانيا بتنفيذ هذا الوعد، كان الحضور الصّهيُونيّ على أحسن وُجُوهه، وكان الغياب العَرَبيّ كاملاً، حتَّى إنَّ عصبة الأُمم لم يدخلها العَرَب إلاَّ بعد عام **1930**، عندما أصبح للعراق مندوب فيها.

وهكذا نرى أنَّ الغياب العَرَبيّ كان كاملاً، والحُضُور اليهُوديّ كان ظاهراً، كُلُّ ذلك خَدَمَ المصالح اليهُوديَّة الصّهيُونيَّة، وتعامى عن الحُقُوق العَرَبيَّة، هذا؛ وإنَّ الضّعف والتَّفكُّك الذي كان عليه العَرَب (وكذلك العالم الإسلامي)، بالإضافة إلى التَّخلُّف في كُلِّ جوانب الحياة، هُو الحقيقة الأُولى التي هيَّأت للصّهيُونيَّة وحُلفائها - حينذاك - القُدرة الفعليَّة على اغتصاب فلسطين، وتقديمها وطناً لليهُود.

إنَّ التّفسير العلمي الصّحيح لأصل المُشكلة الفلسطينيَّة إنَّما يقبع في أنَّها مُشكلة الضُّعفاء مع الأقوياء. إنَّ هذا - بحَدِّ ذاته - يُنبِّه إلى أنَّ الحلّ كامن في أنْ يتوفَّر للعَرَب القُدرة على تحريك واستخدام القُوَّة التَّامَّة لديهم.

إنَّ العَرَب يملكون مجالاً جَغرافيّاً واسعاً بمزاياه الاستراتيجيَّة وموارده الطّبيعيَّة الهائلة (وفي مُقدِّمتها البترول والغاز عصب الحياة في عصرنا الحاضر)، وهُم يُمثِّلون فوق ذلك كمَّاً

بشريّاً ضخماً، ولكنّ هذه القوى لا تزال تفتقر إلى القُدرة على تحريكها وتحويلها إلى طاقة استراتيجيَّة في المجال الدّولي يُمكن استخدامها في حلِّ المشاكل العَرَبيَّة، وخاصَّة قضيَّة فلسطين. إنَّ توفُّر هذه القُدرة للعَرَب مرهون بهذَيْن الأمرَيْن:

1: التَّخلُّص من حالة التَّفتُّت السِّياسي الرّاهنة.

2: بُلُوغ درجة كافية من التَّقدُّم العلمي والتّكنُولُوجي.

بالإضافة إلى الأَخْذ بالنُّظُم الدِّيمُقراطيَّة، فهي الطّريق الأسلم لبُلُوغ الهَدَفَيْن السّابقَيْن. ولكنْ؛ هل الصّهيُونيَّة والإمبرياليَّة بنُفُوذهما الهائل يُمكِّنان العَرَب من الوُصُول إلى هذَيْن الهَدَفَيْن، لا سيَّما وهُما تعرفان أنَّ في وُصُول العَرَب إلى هذَيْن الهَدَفَيْن النّهاية الحتميَّة للصّهيُونيَّة والنُّفُوذ الإمبريالي في المنطقة كُلِّها؟! لذلك فالمُقاومة شرسة جداً لأيِّ تلاقٍ أو تفاهم عَرَبي، ولأيِّ معرفة صحيحة للتّكنُولُوجيا الحديثة.[1]

الزّنجيّ الأبيض:[2]

قبل الانتقال للحديث عن عَرَب فلسطين وكفاحهم، لابُدَّ من زيادة بالإيضاح والحديث عن وعد بلفور، وكيف لعبت المهارة الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة دوراً خطيراً في صياغة هذا الوعد بأنْ جَعَلَت عباراته تتَّصف بالإبهام المقصود، وكذلك - أيضاً - عبارات صكِّ الانتداب.

ففي الدِّبلُوماسيَّة؛ يُوصف التّعبير الذي لا يقطع لفظه بمدلوله، فيكون من شأنه أنْ يسمح بالعديد من التّفسيرات، فيُتيح - بذلك - للدِّبلُوماسيِّيْن حُرِّيَّة العمل. إنَّ مثل هذا التّعبير يُوصف بالدِّبلُوماسيَّة بأنَّه "الزّنجيّ الأبيض". فالتّعبير المُبهم يُهيِّيء للدِّبلُوماسيِّيْن أنْ يروا فيما كان زنجيّاً بالأمس أبيض اليوم، وما كان أبيض بالأمس زنجيّاً اليوم، وهكذا على مُقتضى أهداف دبلوماسيَّتهم.

---

(1) كان لبريطانية وفرنسا دور هامٌّ في تفتيت الوطن العَرَبي إلى دُويلات ضعيفة، وهي - الآن - مع الولايات المُتَّحدة والصّهيُونيَّة العالمية يقفون - جميعاً - موقفاً حازماً ضدَّ أيِّ وحدة، أو اتِّحاد، أو أيّ تقارب، أو تفاهم بين الدُّول العَرَبيَّة، بل بالعكس؛ يُثيرون النّعرات الإقليميَّة والطّائفيَّة بشكل دائم، ويعملون على خَلْق المشاكل والخلافات بين الأقطار العَرَبيَّة؛ ليبقى العَرَب مُفتَّتين ضُعفاء كيدهم بهم.

(2) المُجتمع العَرَبي والقضيَّة الفلسطينيَّة، د. مُحمَّد طه بدوي، ص 375 - 381، باختصار.

وذلك كان حال عبارات "وعد بلفور"، وما ترتَّب عليها من صيغ في صكِّ الانتداب. لقد تعمَّد البريطانيُّون أنْ تأتي أخطر العبارات في تلك الوثائق على إبهام يجعل منها "زنجيّاً أبيض".

لقد قدَّر السَّاسَة البريطانيُّون ـ حين صياغة إعلان بلفور ـ أنَّ وُعُودهم المقطوعة للعَرَب في شأن استقلالهم ووحدتهم بما في ذلك فلسطين من ناحية، وأنَّ ضرورة ضمٍّ فلسطين إلى المُمتلكات البريطانيَّة على مُقتضى استراتيجيَّتها من ناحية ثانية، وإنَّ ضرورة كَسْب اليهُود من ناحية ثالثة، لقد قدَّر هؤلاء أنْ يأتي التّعبير عن "الوعد الفلسطيني" مُبهماً إبهاماً يكون من شأنه أنْ يتصوَّر اليهُود أنَّهم قد حصلوا على كُلِّ شيء، وأنْ تستطيع الدِّبلُوماسيَّة ـ عند الضّرورة ـ أنْ تقول بأنَّهم لم يحصلوا على أيِّ شيء، وهكذا يهدأ اليهُود، ولا يقلق العَرَب، وتطمئنّ بريطانيا على فلسطين كجُزء من إمبراطُوريَّتها، وذلك يقطع به استقراء التّاريخ.

إنَّ "الزّنجيّ الأبيض" في عبارات وعد بلفور، وما ترتَّب عليها من صيَغ في صكِّ الانتداب قد هيَّأ حُرِّيَّة في العمل للدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة مُنذُ البداية، وحتَّى قيام (إسرائيل)، إلى حَدٍّ يصحُّ معه القول بأنَّ التّاريخ الدِّبلُوماسي لنشأة المُشكلة الفلسطينيَّة إنَّما يتمثَّل في الجَدَل الطّويل بين الأطراف المعنيَّة حول مدلول تلك العبارة.

وهكذا كانت بريطانيا عندما تشتدُّ مُقاومة عَرَب فلسطين تُصدر تفسيراً لمدلول "الوطن القومي" يُرضي العَرَب، ويُشعرهم أنَّ ما بدا أسوداً بالأمس أصبح أبيض اليوم.

وهذا ما حَدَثَ بعد ثورة عَرَب فلسطين سنة 1922؛ حيثُ أصدر تشرشل وزير المُستعمرات البريطانيّ ـ حينذاك ـ تفسيراً للوطن القوميّ مُلخَّصه: «إنَّ تعبير "وطن قوميّ" تعني ترقية أو تنمية الوطن القوميّ اليهُوديّ، وليس إحياء دولة يهُوديَّة في فلسطين في الأجيال القادمة»، وسُمِّي تفسيره "بالكتاب الأبيض الأوَّل".

وكذلك بعد ثورة 1929؛ حيثُ أصدرت بريطانيا الكتابَ الأبيض الثّاني، والذي وَضَعَتْ فيه بريطانيا قُيُوداً على بَيْع الأراضي، وَمَنَعَتْ إخراجَ المزارعين العَرَب من الأراضي التي يشتريها اليهُود؛ بحُجَّة عدم الإضرار بالحُقُوق المَدَنيَّة لعَرَب فلسطين، التي نصَّ عليها

وعد بلفور، ولكنْ؛ عندما قامت قيامة اليهُود ضدَّ الكتاب الأبيض الثّاني، تراجعت بريطانيا عمَّا جاء فيه، وأصدرت بياناً بذلك سنة 1931، سمَّاه العَرَب بالكتاب الأسود.

وأهمُّها الكتاب الأبيض الثّالث، الذي أصدرتْهُ بريطانيا بعد ثورة عَرَب فلسطين الكُبرى، والتي امتدَّت من 1936 ـ 1939، وذلك لإيقاف الثّورة، لأنَّ الظُّرُوف الدّوليَّة كانت تُشير إلى قُرب اندلاع الحرب العالميَّة الثّانية، وفيه تتراجع بريطانيا عن إقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين، وتقرَّر تشكيل حُكُومة في فلسطين تعقد مُعاهدة مع بريطانيا، ويكون لليهُود فيها حُقُوق الأقلِّيَّة، ويتمتَّعون بكيان مُستقلٍّ في الشُّؤُون الثّقافيَّة والاجتماعيَّة والإداريَّة في ظلِّ الدّولة الجديدة.

لقد رَفَضَ اليهُودُ هذا الكتابَ لأنَّه ـ بالإضافة لما سَبَقَ ـ يُحدِّد الهجرة اليهُوديَّة بـ 75 ألف خلال خمس سنوات، ويُوقف انتقال الأراضي لهم.

من كُلِّ ما سَبَقَ؛ نرى كيف كانت الدِّبلُوماسيَّة البريطانيَّة تتصرَّف وتُفسِّر حسب مُقتضيات الوَضْع في فلسطين، وتتلاعب بالخصمَيْن العَرَب واليهُود كلَيْهما حسب مصالحها الخاصَّة في المنطقة.

الفصل الرّابع:

الانتداب البريطانيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة

تمهيد:

يُعدُّ وعدُ بلفور الخُطوةَ الأُولى على طريق تحقيق حُلم الصّهيُونيَّة في إنشاء الوطن القوميّ اليهُوديّ في فلسطين. وكان هذا الوعد ثمرة جُهُود رجال الحَركَة الصّهيُونيَّة؛ وعلى رأسهم حاييم وايزمن.

أمَّا الخُطوة الثّانية؛ فكانت فَرْض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، والتزامها في صكّ الانتداب الصّادر عن عصبة الأُمم بتنفيذ وعد بلفور. وهكذا كانت فترة الانتداب البريطانيّ على فلسطين - والتي دامت حوالي 30 سنة - هي تهيئة البلاد للخُطوة الثّالثة؛ وهي إعلان (إسرائيل) في فلسطين عام **1948**.

كانت عمليَّة تهيئة فلسطين لإنشاء دولة اليهُود فيها تسير في خطَّيْن مُتوازيَيْن؛ هُما: تمليك اليهُود للأراضي في فلسطين، وفَتْح أبوابها للهجرة اليهُوديَّة دُون قَيْد، أو شرط.

وسنتكلَّم عن هذَيْن الخطَّيْن، وما اعترى مسيرتهما من مدٍّ وجَزْر؛ بسبب السِّياسة البريطانيَّة، والتي كانت ترمي - بمُجملها - إلى تمكين اليهُود من إنشاء وطنهم القوميّ في فلسطين.

ولكنْ؛ علينا - قبل ذلك - أنْ نتعرَّف إلى فلسطين، وعَرَب فلسطين، عشية صُدُور وعد بلفور، وفَرْض الانتداب البريطانيّ عليها.

فلسطين وسُكَّانها العَرَب:

كانت فلسطين - عبر التّاريخ - جُزءاً من بلاد الشّام، واسم فلسطين - في الأصل - كان يُطلَق على السّهل السّاحلي الجنوبيّ المُمتدّ من مدينة يَافَا شمالاً إلى حُدُود مصر جنوباً، وكان يُسمَّى

بالسّهل الفلسطيني . أمّا السّهل السّاحلي المُمتدُّ شماله بين يَافا ورأس الكرمل ؛ فيُدعى سهل سارون ، أو سهل شارون ، ثُمَّ أصبح اسم فلسطين يُطلَق على جميع فلسطين بحُدُودها الحاليَّة .

وفي العهد العُثمانيّ ؛ كانت فلسطين تتبع ولاية دمشق ، وعندما أُحدثت ولاية بيروت أصبحت فلسطين تتبع هذه الولاية .

وكانت القُدس وما حولها تُشكِّل مُتصرّفيَّة خاصَّة ؛ نَظَراً لأهميَّتها وقُدسيَّتها الدِّينيَّة عند المُسلمين والمسيحيِّين واليهُود .

وبعد الحرب العالميَّة الأُولى ؛ تمَّ تقسيم بلاد الشّام بين بريطانيا وفرنسا ، وكانت حصَّة بريطانيا القسم الجنوبيّ من بلاد الشّام ، والمُؤلَّف ـ حاليّاً ـ من فلسطين والمملكة الأُردُنيَّة (شرق الأُردُن) .

وعندما خُطِّطت الحُدُود بين فلسطين ولُبنان وسُوريَّة ، لعب اليهُود دوراً هامّاً في رَسْم هذه الحُدُود ؛ بحيثُ أُدخلت منطقة الحولة ضمن فلسطين ، وأصبحت تُشكِّل بُرُوزاً بين الأراضي السُّوريَّة واللُّبنانيَّة تُسمَّى إصبع الجليل نَظَراً لخصب منطقة الحولة ، وكثرة مياهها ؛ حيثُ تلتقي فيها مياه بانياس والحاصباني والدّان لتُشكِّل نهر الأُردُن .

بلغت مساحة فلسطين ـ بعد رَسْم حُدُودها مع الأقطار العَرَبيَّة المُجاورة ـ 27 ألف كم مُربَّع ، وتُشكِّل بوادي وصحاري النَّقَب في الجنوب حوالي نصف مساحة البلاد .

أمَّا سُكَّان فلسطين ؛ فكانوا ـ في بداية الانتداب البريطانيّ عليها ـ حوالي 450 ألف نسمة ، أيْ أقلّ من نصف مليون نسمة[1] .

كان عَرَب فلسطين غارقين في بحر من الفقر والجهل والتَّخلُّف ـ شأنهم في ذلك شأن جميع سُكَّان الأقطار العَرَبيَّة ـ وكان التَّخلُّف الثّقافي والاجتماعي والاقتصادي يُسيطر على حياة السُّكَّان .

---

(1) كان سُكَّان فلسطين قلائل ، وكذلك سُكَّان الوطن العَرَبيّ بكامله ، ففي عام 1920 ، كان سُكَّان الوطن العَرَبيّ 40 مليوناً ، وذلك بسبب الأمراض التي كانت تفتك بهم ؛ وخاصَّة الأطفال ، بالإضافة إلى الفقر والجهل وكثرة المُنازعات والحُرُوب الدّاخليَّة ، ولكنّ سُكَّان الوطن العَرَبيّ أخذوا بالتّزايد ، فتضاعفوا في مُنتصف القرن العشرين . والآن يبلغ سُكَّان الوطن العَرَبيّ حوالي 230 مليوناً ، أمَّا العَرَب الفلسطينيُّون في فلسطين وخارجها ؛ فهُم يزيدون ـ الآن ـ على ستَّة ملايين .

وكان الاكتفاء الذّاتي هُو المُسيطر على النّواحي الاقتصاديَّة في البلاد، فالتّصدير والاستيراد كان بسيطاً جداً، والنّاس يكتفون بما يُنتجُون؛ وخاصَّة في الغذاء.

كان مُعظم السُّكَّان يعيشون في الأرياف، ويعملون بالزّراعة، وتربية المواشي؛ وخاصَّة الماعز والأغنام والأبقار، وكان البدو الرُّحَّل ينتشرون في مُعظم أنحاء البلاد؛ وخاصَّة في بوادي النَّقَب والأغوار، وكان النّزاع بين البدو والفلاَّحين كثير الحُدُوث؛ وخاصَّة في السّنوات العجاف. أمَّا سُكَّان المُدُن الفلسطينيَّة؛ فكان مُعظمهم من الحرَفيِّين وصغار التُّجَّار وبعض العائلات الإقطاعيَّة التي كانت تعيش في المُدُن على الموارد التي تأتيها من إقطاعاتها في الأرياف، هذا؛ بجانب رجال الإدارة والحُكْم وقوى الأمن.

كانت الملكيَّة الصّغيرة والمُتوسِّطة هي السّائدة بين فلاَّحي فلسطين؛ وخاصَّة في المناطق الجَبَليَّة، أمَّا الإقطاعات الكبيرة؛ فكانت قليلة، وتقتصر على المناطق السّهليَّة كمرج ابن عامر، وسُهُول الحولة، وبعض الأجزاء من السُّهُول السّاحليَّة. وكان مُعظم الملاَّكين الكبار من لُبنان وسُوريَّة، وخاصَّة في سهل مرج ابن عامر، والحولة، ووادي الحوارث قُرب طُول كرم.[1]

كانت حياة الفلاَّحين الفلسطينيِّين في الأرياف غاية في البساطة، فالمَسْكَنُ كان مُتواضعاً، ولكنَّه يفي بحاجات الفلاَّح؛ حيثُ يُوفِّر له ولحيواناته المأوى الآمن، ويُخزِّن فيه حاجته وحاجة حيواناته من المُؤن والغذاء والأعلاف.[2]

أمَّا الأثاث؛ فكان بسيطاً جداً، ويقتصر على الضّروريَّات، أمَّا الكماليَّات؛ فشبه معدومة، ولباس الفلاَّحين - ذُكُوراً وإناثاً - كان - أيضاً - في مُنتهى البساطة، لا أثر فيه للبذخ والتَّرَف.

أمَّا الغذاء؛ فكان مُتوفِّراً ومُتنوِّعاً ومُتوازناً، يفي بكُلِّ حاجات الجسم؛ وخاصَّة من ناحية الفاكهة والخُضار، فجبال فلسطين تكسوها غابات الزّيتون وكُرُوم التّين والعنب

---

(1) كانت بلاد الشّرق أو سُوريَّة الكُبرى غير مُجزّأة، وكانت تتألَّف من أربع دُويلات قبل الحرب العالميَّة الأُولى؛ وهي: ولاية حلب في الشّمال، ولاية طرابلس في الوسط، وولاية دمشق في الجنوب، ويتبعها شرق الأُردُن، وولاية بيروت، ويتبعها فلسطين (وقد تنقَّل مركز هذه الولاية من صيدا إلى عكَّا، وأخيراً؛ استقرَّ في بيروت).

(2) كانت مُدُن دمشق وحمص وحلب مراكز لصناعة الأقمشة اليدويَّة، وإنِّي أذكر أنَّ الأقمشة التي كانت تصنع منها ألبسة الرّجال كانت تأتي من دمشق، ومُعظم ألبسة النّساء كانت تأتي من حمص؛ وخاصَّة غطاء الرّأس النّسائي الذي كان يُصنَع من الحرير الطّبيعي.

وأشجار الخرّوب، وفي السُّهُول السّاحليَّة أخذت زراعة الحمضيَّات بالانتشار، وفي الأودية ذات الينابيع كانت تنتشر زراعة الرُّمَّان والتُّفَّاح والدُّرَّاق .. إلخ. أمَّا الألبان ومُشتقَّاتها؛ فكانت مُتوفِّرة، وفي مُتناول الجميع، ورخيصة الثّمن خلال أكثر من ثمانية أشهر من السّنة.

لقد كان مظهر الفلاَّح ومسكنه وأدواته وأثاثه يُوحي بالفقر المُدقع، ولكنَّ الحقيقة كانت غير ذلك، وخاصَّة في الغذاء، الذي كان مُتوفِّراً ووافراً للجميع، عدا سنوات القحط والجفاف؛ حيثُ تقلُّ الأمطار، وتُصبح غير كافية، ويُؤدِّي ذلك إلى نقص الإنتاج الزّراعي والحيواني، وفيها يشعر الفلاَّح بالضّنك والشِّدَّة، ولكنَّها نادرة في فلسطين، وخاصَّة في الشّمال والوسط؛ حيثُ الأمطار كافية وغزيرة في أغلب السّنين.

ولابُدَّ هُنا من التّنويه بغزو الجراد، لا سيَّما وأنَّ فلسطين تقع على حافَّة الصّحراء في الجنوب، ولم يكن للجراد في تلك الأيَّام أيُّ نوع من المُكافحة الفعَّالة، فكان يأتي على مزروعات الفلاَّح وأشجاره، فيقضي عليها، وقد شاهدتُ آخر غزوة للجراد على جنوب شرق فلسطين، وكُنتُ مُعلِّماً في قرية "كفره" شمال مدينة بيسان، وكان ذلك في عام 1946.

أمَّا الحال في المُدُن؛ فكانت أفضل من ذلك بكثير من حيثُ المسكن والأثاث وبعض الكماليَّات، وكذلك من حيثُ الملبس، وكان الفلاَّح ينقل إلى المدينة زهرة ما يُنتجه من حُبُوب وفاكهة وخُضار وألبان، ليبيعه ويشتري بثمنه ما ينقصه في حياته الرِّيفيَّة؛ وخاصَّة الألبسة.

كان التّعاون بين الفلاَّحين يتمُّ على أجمل وأكمل صُورة، وكانت الرُّوح الإنسانيَّة التّعاونيَّة تربط المُجتمع الرّيفي. فالفلاَّح الذي يقع في كارثة يهبُّ لنجدته جميع جيرانه وأهل قريته، وكان التّعاون في الأعمال الزّراعيَّة من زراعة وحصاد وقطاف يتمُّ بأروع صُوره بين الفلاَّحين؛ وكأنَّهم أُسرة واحدة[1]. هذا؛ ولم يكن الحال في المُدُن أقلّ من ذلك أيضاً.

---

(1) هذه الصُّورة الجميلة للحياة الرّيفيَّة كانت تُعكِّرها في بعض الأحيان الخلافات بين الرّيفيّيْن؛ وخاصَّة على الحُدُود بين أراضيهم، أو على مياه الرّيّ، أو داخل العشيرة الواحدة حول الميراث، أو الزّواج من بنات العمّ، وأحقِّيَّة ابن العم بذلك .. إلخ. وكانت هذه الخلافات تُؤدِّي إلى نُشُوب نزاعات شديدة قد تطُول أو تقصر، وقد يذهب ضحيَّتها بعض الأفراد، ويتخلّلها الاعتداء على المواشي، أو سرقتها، أو حرق بعض الأشجار للمُتخاصمين. ولكنْ؛ سُرعان ما تخمد هذه المُنازعات بتدخُّل العُقلاء، وحَسْم النّزاع، والحُكم فيه بين المُتخاصمين من قبَل العُقلاء أو مُحكَّمين يرضى بهم أطراف النّزاع، وكان الحُكم يُبنى - في أكثر الأحيان - على العُرف والعادة.

هذه صُورة بسيطة لحياة السُّكَّان العَرَب في فلسطين عشيَّة فَرْض الانتداب البريطانيّ عليهم، وبداية تنفيذ وعد بلفور.

ولكنَّ هذه الصُّورة الجميلة في فلسطين أخذت تهتزُّ وتتبدل مُنذُ فُرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين. فقد أخذت الدّولة المُنتدبة تُضيِّق الخنّاق على الفلاَّحين، ولا تمنحهم العون والمُساعدة والرّعاية في الملمَّات والسّنوات العجاف، ولا تُقدِّم لهم التّوجيه والإرشاد والتّثقيف لأفضل السُّبُل في الزّراعة لزيادة الإنتاج، وتحسينه كمَّاً ونوعاً، بل كانت على العكس من ذلك تماماً تسعى لإفقارهم والتّضييق عليهم، حتَّى تُضطرَّهم إلى بَيْع أراضيهم، أو الاستدانة من البُنُوك الرّبويَّة، ورَهْن أراضيهم لدى هذه البُنُوك، وأهمّها "بنك باركليز" البريطاني، وكان له فُرُوع في مُعظم مُدُن فلسطين الهامَّة.

وفيما يلي سأضرب بعض الأمثلة عمَّا كانت تفعله السُّلطات البريطانيَّة المُتعاونة مع الصّهيُونيَّة لمُضايقة الفلاَّح الفلسطينيّ وإفقاره لإجباره على بَيْع أرضه:

المعروف أنَّ الإنتاجات الرّئيسيَّة للفلاَّح الفلسطينيّ كانت الحُبُوب؛ وعلى رأسها القمح وزيت الزّيتون، ثُمَّ السّمسم، الذي كان يُعتبر إنتاجاً نَقْديّاً للفلاَّح؛ حيثُ يبيعه بكامله ليحصل على النُّقُود، التي تُؤمِّن له حاجاته من اللّباس والأدوات المنزليَّة والزّراعيَّة.. إلخ. هذا؛ بالإضافة إلى الفائض لديه من الحُبُوب؛ وخاصَّة القمح والزّيتون وزيت الزّيتون والألبان ومُنتجاتها، والتي كان يبيعها في المُدُن لتأمين حاجته من النَّقْد، أو سداد ما عليه من الدُّيُون.

كانت بريطانيا - بالتّعاون مع اليهُود - تقوم بإغراق الأسواق المحلِّيَّة بالقمح الأُسترالي، وبالزّيتون، والزّيت اليُوناني أو الإسباني، وبالسّمسم السُّوداني، فيكسد إنتاج الفلاَّح من هذه الأصناف الثّلاثة، ولا يجد مَنْ يشتريها، ويُضطرُّ إلى بَيْعها بأسعار لا تكاد تفي بتكاليف الإنتاج. كُلُّ ذلك لإفقار الفلاَّح الفلسطينيّ والتّضييق عليه كما قُلنا؛ حتَّى لا يبقى لديه إلاَّ أرضه، فيُضطَرُّ لبَيْعها.

هذا؛ بالإضافة إلى قيام الإنكليز بفَتْح فُرُوع لبنك بركليز البريطانيّ في مُعظم المُدُن الفلسطينيَّة؛ ليقوم بتقديم القُرُوض للفلاَّحين مُقابل رهن أراضيهم لديه، وعندما يعجز الفلاَّح عن سداد دُيُونه يقوم البنك ببَيْع أرضه بالمزاد العَلَني، وكان المُشتري الوحيد هُم اليهُود.

هذا غيض من فيض من المُؤامرات الصّهيُونيَّة بالتّعاون مع بريطانيا، والتي كانت تُحاك ضدَّ الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ عامَّة، والفلاَّح العَرَبيّ الفلسطينيّ خاصَّة. وقد استمرَّ هذا الحال من 1920 ـ 1939، عند قيام الحرب العالميَّة الثّانية. ففي فترة الحرب ـ والتي امتدَّت حتَّى عام 1945 ـ انتعش الفلاَّح انتعاشاً كبيراً، وتحسَّنت أحواله تحسُّناً فائقاً لسبَبَيْن هُما:

1: انقطاع الاستيراد من الخارج بسبب ظُرُوف الحرب العالميَّة، وازدياد الطَّلَب على مُنتجاته في الأسواق المحلِّيَّة.

2: حاجة القُوَّات العسكريَّة البريطانيَّة في فلسطين (وكان يُعسكر الجيش التّاسع البريطاني في فلسطين) إلى مُنتجات الفلاَّح الفلسطينيّ لسَدِّ حاجة هذه القُوَّات من الأغذية؛ لصُعُوبة الاستيراد من الخارج.

بعد هذا الحديث عن عَرَب فلسطين والصُّعُوبات والمُؤامرات التي كان يُواجهها هذا الشّعب؛ وخاصَّة الفلاَّحين منه، نُريد أنْ نتساءل:

هل كان هذا الشّعب ـ بجميع فئاته ـ يُدرك الإدراك الصّحيح للمخاطر التي تُحيط به، والمُؤامرات التي تُحاك ضدَّه، والأهداف الحقيقيَّة للحَرَكَة الصّهيُونيَّة في بلاده؟!

هذا ما سنتحدَّث عنه فيما يلي إنْ شاء الله.

عَرَب فلسطين والأخطار المُحدقة بهم:

قُلنا إنَّ عَرَب فلسطين (شأنهم في ذلك شأن إخوانهم العَرَب) كانوا غارقين في بحر من الجهل، وكان التَّخلُّف يلفُّ جميع نواحي حياتهم.

كان الجهل المُطبق والتَّخلُّف الشّامل حائلاً دُون إدراك عَرَب فلسطين مدى الخطر الذي داهمهم بوعد بلفور والانتداب البريطانيّ على بلادهم، والمُثقّفون منهم ـ وهُم قلَّة نادرة ـ كانوا يتصوَّرون أنَّ الانتداب هُو ضَرْب من ضُرُوب الاستعمار والاحتلال الأجنبي الذي ترزح تحت وطأته مُعظم الأقطار العَرَبيَّة، وأنَّ المُقاومة يجبُ أنْ تتركَّز ضدَّ المُحتلِّ الأجنبي للخلاص منه والوُصُول إلى الاستقلال والحُرِّيَّة، أمَّا وعد بلفور وأهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة؛ فلم يكن إدراكهم لها ووعيهم بخَطَرها واضحاً كُلَّ الوُضُوح لديهم.

الحقيقة أنَّ عَرَب فلسطين لم يكونوا يُدركون أنَّ هَـدَفَ وعـد بلفـور ليس - فقـط - إنشـاء وطن قوميّ لليهُود، بل تأسيس دولة لهم فيها، وأنَّ الـهَدَف النّهائي للحَرَكَـة الصّهيُونيَّـة هُـو اقتلاعهم من أرضهم، وطَرْدهم من بلادهم إلى البـلاد العَرَبيَّـة المُجـاورة، كمـا صـرَّح بذلـك زعيمُ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة حاييم وايزمـن عـام 1919، بقولـه: «إنَّ اليـهُود يطمعـون فـي جَعْـل فلسطين يهُوديَّة، كما أنَّ إنكلترا إنكليزيَّة»[1].

ثُمَّ أخذت الأُمُور تتكشَّف لهم شيئاً، فشيئاً، وأخذ وعيـهم للمخـاطر المُحدقة بـهم يـزداد ويتَّضح مع تدفُّق الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين، وتكاثرهم المُطَّرد فيها. ولكنَّهم - مع كُلِّ ذلـك - لم يُقدِّروا الخطر حقَّ قَدْره، ولم يُدركوا الأهداف البعيدة للحَرَكَة الصّهيُونيَّـة، وكـان الكثيرون من الطّبقة المُثقّفة المُستنيرة يُفكِّرون أنَّ الاستيطان اليهُوديّ في بلادهم هُـو كالاستيطان الفرنسـي في الجزائر وتُونُس والمغـرب، وكالاستيطان البريطـانيّ فـي أُوغنـدا ورُوديسيا - زمبـابوي الآن - إلخ، والبُرتُغالي في أنغولا والموزمبيق. لم يُهجِّر هذا الاستيطانُ السُّكَّانَ، ولم يطردهـم خـارج بلادهـم، وكـان يستخدم السُّكَّان الوطنيِّيْـن فـي استثمار الأرض واسـتعمارها، فكـان يُشـبه الإقطاعي في البلاد العَرَبيَّة، الذي يملك الأرض، ويسـتخدم الفلاَّحـين فيـها، ويُعطيـهم قسـماً من المحصـول، ولكـنَّ هـذا الإقطـاعي الجديـد القـادم مـن أُورُوبـا كـان إقطاعيّـاً مُتنـوِّراً يسـتخدم أحدث الأساليب في الزّراعة، ويستخدم السُّكَّان الوطنيِّيْن فـي كُـلِّ مراحـل الإنتـاج الزّراعـي، ويُعطيهم أجرهم نَقْداً، حتَّى إنَّ هـؤلاء المُستعمرين أو الإقطـاعيِّيْن الجُـدُد أفـادوا البـلاد بإدخـال التّكنُولُوجيا الزّراعيَّة الحديثة إلى المُستعمرات، بالإضافة إلـى إدخـال زراعـات جديـدة هامَّـة لـم تكـن معروفـة فـي البـلاد مـن قبـلُ، حتَّـى إنَّ كثيراً مـن الفلاَّحـين تعلَّمـوا الكثير مـن الأسـاليب الزّراعيَّـة الحديثـة مـن هـؤلاء المُستعمرين؛ وخاصَّـة فـي مجـال المكننـة الزّراعيَّـة، واسـتخدام الأسمدة والمُبيدات الحشريَّة لحماية المحاصيل من الآفات الزّراعيَّة.

ولكنَّ المُستوطنين اليهُود في فلسطين كانوا مـن نـوع آخـر، كـانوا يُريـدون الأرضَ خاليـة مـن أصحابـها، ومحظـور عليـهم اسـتخدام اليـد العاملـة العَرَبيَّـة؛ سـواء فـي الزّراعـة، أو غيرهـا مـن الأعمال؛ كالعمل في المصانع والورش والبناء وشقّ الطُّرُق. كانت التّعليمـات تحظـر علـى اليـهُود

(1) المصدر: إسرائيل جناية وخيانة، سعدي بسيسو، ص 42.

استخدام اليد العاملة الفلسطينيَّة في أيِّ مجال من مجالات العمل، وكانت الأرض التي تقع تحت سيطرة اليهُود تُصبح وكأنَّها أرض غير فلسطينيَّة، ومحظور على العَرَبيِّ حتَّى دُخُولها[1].

إنَّ الاستيطان اليهُوديّ الصّهيُونيّ في فلسطين كان يهدف - مُنذُ البداية - إلى اقتلاع الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ من بلاده، وإحلال المُهاجرين اليهُود مكانه، وهذا لا يتمُّ إلاَّ بتشريد وطَرْد عَرَب فلسطين من بلادهم وأرضهم إلى البلاد العَرَبيَّة المُجاورة، أو أيِّ بلاد أُخرى تقبلهم في العالم.

إنَّ هذه الخُطَّة الصّهيُونيَّة لإنشاء (إسرائيل) نعرفها نحنُ الآن، ولكنَّنا كُنَّا في جهل مُطبق بها حتَّى عام 1948، عام المأساة والنّكبة، عندما شُرِّد عَرَب فلسطين، وطُردوا من بلادهم، وأُجبروا على إخلاء قُراهم ومُدُنهم، والالتجاء إلى الأقطار العَرَبيَّة المُجاور، والأسوأ من ذلك أنَّ اللاَّجئين الفلسطينيِّين العَرَب كانوا يظنُّون أنَّ هجرتهم مُؤقَّتة، وسيعودون إلى بلادهم خلال أسابيع أو عدَّة أشهر على الأكثر، وأنَّ الأُمم المُتَّحدة ستُعيدهم إلى بلادهم، وسيتمُّ التّعويض عليهم، وذلك بقراراتها المُتلاحقة حول هذا الموضوع، وأنَّ إخوانهم العَرَب سيعملون على عودتهم، وغاب عنهم أنَّ الأُمم المُتَّحدة هي التي خَلَقَتْ (إسرائيل) ومن قبلُ عصبة الأُمم التي فَرَضَتْ الانتداب البريطانيّ على فلسطين، مع إلزام بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور، وأنَّ كلا المُنظَّمتَيْن الدّوليتَيْن كان - ولا يزال - يُسيطر عليهما دُول أُورُوبا الاستعماريَّة وأمريكا، وهُم الذين أوجدوا (إسرائيل)، وسهَّلوا قيامها، ويسَّروا لها سُبُلَ البقاء والحماية، وأنَّ إخوانهم العَرَب كانوا لا حول لهم ولا قُوَّة، فالنُّفُوذ الأجنبي كان يُسيطر عليهم وعلى جيُوشهم التي كانت على غاية من الضّعف، ونقص العَدَد والعُدَّة، وأنَّ السّلاح كان محظوراً بَيْعه للعَرَب، وفي الوقت نفسه؛ كان يُغدَق على اليهُود من الغرب والشّرق.

---

(1) لم يأخذ اليهُود في فلسطين باستخدام اليد العاملة العَرَبيَّة إلاَّ بعد عُدوان 5 حُزيران 1967، واحتلال اليهُود للضّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة، حيثُ سَمَحَتْ السُّلطات الإسرائيليَّة باستخدام اليد العاملة العَرَبيَّة من قطاع غزَّة والضّفَّة الغربيَّة لرُخصها الشّديد؛ مُستغلِّين فَقْر العَرَب في هذه المناطق المُحتلَّة، وحاجتهم إلى العمل مهما كان أجره. وفي الوقت نفسه؛ أخذ اليهُود يستغلُّون هذه اليد العاملة للضّغط على العَرَب في هذه المناطق، حين تتأزَّم الأُمُور بين العَرَب واليهُود في فلسطين، فيقوم اليهُود بطَرْد العُمَّال العَرَب، ويُحظِّرون عليهم دُخُول المناطق اليهُوديَّة، ويُحظِّرون العمل فيها.

وهكذا نرى كم كان جهلنا مُطبقاً بما يُحاك ضدَّنا وبما يدور حولنا من مُؤامرات. ومع كُلِّ ذلك - والحقُّ يُقال - كانت المُقاومة العَرَبيَّة الفلسطينيَّة مُذهلة، وكان التّضامن والتّعاون بين جميع فئات الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ وطوائفه رائعاً.

وقد استطاع عَرَب فلسطين - وهُم وحدهم في مُواجهة ومُقارعة الصّهيُونيَّة والاستعمار - أنْ يجبُروا بريطانيا عدَّة مرَّات على تفسير وعد بلفور تفسيراً يُخالف أهداف الصّهيُونيَّة، كما حصل في الكتاب الأبيض الأوَّل والثّاني، وآخرها الكتاب الأبيض الثّالث عام 1939، والذي استجابت فيه بريطانيا لبعض المطالب العَرَبيَّة؛ كتحديد الهجرة، وتسليم الأراضي لليهُود، وإنشاء دولة عَرَبيَّة في فلسطين، يكون لليهُود فيها حُقُوق الأقلِّيَّة. ولكنْ؛ بعد كُلِّ كتاب أبيض كانت بريطانيا تتراجع عن تعهُّداتها فيه؛ بسبب موجة الاستنكار الصّهيُونيَّة الشّديدة، والضّغط عليها بشتَّى الوسائل؛ لإجبارها على العودة إلى الالتزام بوعد بلفور كما يفهمه اليهُود، والسّير في ركاب الصّهيُونيَّة.

كفاح عَرَب فلسطين:

تمهيد:

يُتَّهَم عَرَب فلسطين ببَيْع أراضيهم لليهُود، وصَرْف أثمانها على الهوى والمُجُون، وكذلك يُتَّهمون بالتّقاعس عن الدّفاع عن بلادهم ضدَّ الغزو الصّهيُونيّ والاستعمار البريطاني.

لقد سمعتُ التُّهمة الأُولى من مُختلف الأوساط في أُمَّتنا العَرَبيَّة، وحدَّثني بعض الأُخوة المُخلصين من عَرَب فلسطين عمَّا عانوه من الانتشار الواسع لهذه الفرية بين إخواننا العَرَب في مُختلف الأقطار العَرَبيَّة.

إنَّه ممَّا يحزُّ في النَّفس ويُؤلم أشدَّ الألم أنْ تُلصق هذه التُّهمة بعَرَب فلسطين جُزافاً، دُون تبصُّر ودراية، لا سيَّما وأنَّ اليهُود هُم أساس هذه الفرية، فهُم يُروِّجُون هذه الفرية، ويشيعونها، ويزعم اليهُود - أيضاً - أنَّهم اشتروا أرض فلسطين بأموالهم من أصحابها العَرَب، وبالتّالي؛ فإنَّ عَرَب فلسطين لا حقَّ لهم بالعودة إلى فلسطين، ولا المُطالبة بالتّعويض عليهم، ونحنُ العَرَب نتبنَّى هذه الدّعوة الصّهيُونيَّة، ونُصدِّقها، فنُساعد اليهُود

على باطلهم من حيثُ لا نشعر، ونظلم إخواننا عَرَب فلسطين، ونُسيء إليهم، ونُؤلمهم أشدَّ الألم كما يقول الشّاعر:

وظُلم ذوي القُربى أشدُّ مضاضة   على المرء من وقع الحُسام المُهنَّد

ورداً على ذلك أقول:

المعروف أنَّ مُعظم المُدُن والقُرى في فلسطين غادرها سُكَّانها بالإرهاب والتّهديد، وإذا لم يُجد ذلك كان اليهُود يقومون بطَرْدهم بالقُوَّة مثل: سُكَّان اللّدّ، والرّملة، وبيسان، وطَبَريَّة، وصَفَد.. إلخ، من المُدُن الفلسطينيَّة وأريافها. وقد بلغ تعداد السُّكَّان العَرَب الذين طُردوا من ديارهم عام 1948، حوالي مليون نسمة، فكيف باع هؤلاء أملاكهم وبُيُوتهم دفعة واحد؟!

والمعروف - أيضاً - أنَّ اللاَّجئين الفلسطينيِّين كانوا في حالة شديدة من البُؤس والفقر؛ وخاصَّة الفلاَّحين منهم، الذين فَقَدُوا أراضيهم وبُيُوتهم ومحاصيلهم، وقد كاد الفقر والجُوع والمرض يفتك بهم؛ لولا المُساعدات العَرَبيَّة في أوَّل الأمر، ثُمَّ الصّليب الأحمر الدّولي، وأخيراً؛ استلمت هيئة الأُمم المُتَّحدة إغاثتهم ورعايتهم والعناية بهم، وكانت أحوالهم في مُخيَّماتهم على جانب فظيع من البُؤس وسُوء الأحوال، ثُمَّ نتَّهمهم أنَّهم باعوا أملاكهم وبُيُوتهم، وقبضوا أثمانها، وخرجوا، ولو كان هذا صحيحاً لما كانت أحوالهم بهذا الشّكل من الفقر والبُؤس والضّنك!!.

وإذا كانوا قد باعوا أملاكهم قبل الخُرُوج وأثناء حُكْم الانتداب، وأنفقوا أثمانها على الهوى والمُجُون، فأين كانوا يعيشون؟!

ألم تكن مُدُنهم عامرة وقُراهم مُزدهرة، ثُمَّ أُخرجوا منها بالعُنف والطّرد؟!

ثُمَّ نتَّهمهم أنَّهم باعوا وخرجوا!!.

إنِّي أقول - والألم يحزُّ في نفسي - لإخواني من العَرَب في الأقطار العَرَبيَّة كافَّة: لقد ظلمتُم إخوانكم عَرَب فلسطين بهذه التُّهم المُنكَرَة، وساعدتُم اليهُودَ من حيثُ لا تدرون على ادِّعاءاتهم الباطلة بأنَّهم اشتروا فلسطين بأموالهم.

لقد كانت خُطَّة اليهُود الصّهاينة هي إخلاء الأرض العَرَبيَّة في فلسطين من سُكَّانها العَرَب بالإرهاب والعُنف والطَّرْد، ليستقرَّ المُهاجرون اليهُود الجُدُد في بُيُوتهم وأملاكهم. إنَّهم - ببساطة ووُضُوح - يُريدون أرضاً خالية من السُّكَّان[1].

وهذا لا يعني أنَّ عَرَب فلسطين لم يبيعوا أيَّ جُزء من أراضيهم لليهُود. لقد باع البعض أراضيهم، ولكنَّهم كانوا قلَّة نادرة، وفي بداية عهد الانتداب عندما كان النّاس لا يُدركون الخطر الصّهيُونيّ الدّاهم، ثُمَّ اتَّخذ عَرَب فلسطين والمجلس الإسلاميّ الأعلى (في فلسطين) إجراءات وقرارات صارمة مَنَعَتْ أيَّ تسرُّب للأراضي العَرَبيَّة لليهُود كما سنرى بعد قليل.

أمَّا من حيثُ تقاعس عَرَب فلسطين عن الدّفاع عن بلادهم؛ فسنتكلم بالتّفصيل بعد قليل عن كفاح عَرَب فلسطين، وما بذلوه من تضحيات، وما قدَّموه من شُهداء في الدّفاع عن حُقُوقهم، والذّود عن حياض وطنهم، وأنَّ هذه الثّورات والاضطرابات لم يهدأ سعيرها، ولم تخبُ نارها مُنذُ 1920، حتَّى طُرد عَرَب فلسطين من بلادهم بمُؤامرة صهيُونيَّة دوليَّة من أبشع المُؤامرات في العالم. وبعد استيلاء اليهُود على الضّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة بعد نكسة حزيران عام 1967، كانت - وماتزال - مُقاومة سُكَّان الضّفَّة والقطاع مثاراً للإعجاب والإكبار من شعب أعزل أمام جبروت (إسرائيل) وغطرستها، شعب حاولت (إسرائيل) - بكُلِّ وسائل القمع من إرهاب وتعذيب وسجن وتجويع وقتل - أنْ تقضي على مُقاومته، فلم تُفلح، ولن تُفلح، حتَّى ينال حُقُوق، والآن تقوم (إسرائيل) في الضّفَّة والقطاع بجانب وسائل القمع السّابقة بهَدْم البُيُوت وقَطْع الأشجار، وقد بلغ - الآن - ما قَطَعَهُ اليهُود من أشجار الزّيتون - فقط - أكثر من نصف مليون شجرة، بالإضافة إلى أشجار البُرتقال، وتجريف الأرض من كُلِّ ما فيها من مزروعات (بعد انتفاضة الأقصى الأخيرة).

امتلاك اليهُود للأراضي العَرَبيَّة:

قال حاييم وايزمن (زعيم الحَركَة الصّهيُونيَّة بعد هرتزل): «إنَّه لا يُمكن إنشاء دولة دُون أراضٍ ورجال»، وذلك يعني أنَّ الصّهيُونيَّة لا تقنع بإدخال أكبر عدد مُمكن من اليهُود

(1) ولدينا مثال على هذا الأُسلُوب الصّهيُونيّ الإجرامي هُو ما حَدَثَ في الجولان السُّوري بعد نكسة حُزيران 1967، حيثُ طُرد أهل الجولان من قُراهم ومُدُنهم ظُلماً وعُدواناً بعد احتلال اليهُود لهذه المنطقة من الأراضي السُّوريَّة الغالية.

إلى فلسطين فحسب، بل إنَّها ترمي - أيضاً - إلى امتلاك أكبر قسم من الأراضي العَرَبيَّة، وانتزاعها من أيدي أصحابها بمُعاونة حكُومة الانتداب البريطانيَّة.

وفي عام 1918، عُهد إلى لجنة وايزمن التي أوفدتها الجمعيَّة الصّهيُونيَّة إلى القُدس أمر الاتِّفاق مع حكُومة فلسطين على اتِّخاذ الإجراءات الفعَّالة السّريعة التي تكفل تحقيق الأغراض اليهُوديَّة بصدد الأراضي، فتمَّ لها ما أرادت، ونجحت في مهمَّتها على أكمل وجه. وفي سنة 1920، كانت جميع الخُطط التي أعدَّتها لهذه الغاية جاهزة للتّنفيذ.

وأوَّل ما فَعَلَهُ السّير هربرت صموئيل المندوب السّامي البريطانيّ الأوَّل على فلسطين - وهُو صهيُوني مُتحمِّس - هُو إلغاء جميع القوانين والأنظمة العُثمانيَّة التي كانت تمنع اليهُود من امتلاك الأراضي في فلسطين، واستبدالها بقوانين جديدة تُساعد الصّهاينة على تحقيق أهدافهم ومطامعهم، ولا سيَّما قانون انتقال الأراضي لسنة 1920. ونتيجة للسِّياسة الخاصَّة التي انتهجتها إدارة فلسطين البريطانيَّة في هذا الصّدد استطاع اليهُود امتلاك مساحات كبيرة من الأراضي، وأصبح عدد كبير من العَرَب لهذا السّبب بلا أراضٍ[1].

والخُطوة الثّانية التي قام بها هربرت صموئيل هُو منح اليهُود مساحات واسعة من أملاك الدّولة، فَمَنَحَهُم جَبَل الزّيتون وصهيُون والمكبّر خارج القُدس القديمة؛ حيثُ بنى اليهُود على هذه التّلال الثّلاثة مدينة القُدس الجديدة، وَوَضَعَ صموئيل بنفسه حجر الأساس للجامعة العبريَّة، ومُستشفى هداسا على جَبَل المكبّر، وَمَنَحَهُم سفُوح جَبَل الكرمل المُطلَّة على حَيْفَا الغربيَّة؛ حيثُ بنى اليهُود مدينة "هدار هكرمل" على هذه السُّفُوح. وكذلك مَنَحَهُم أراضٍ واسعة شمال تلِّ أبيب بطُول 20 كم وعرض 5.4 كم لتوسُّع مدينة تلِّ أبيب في هذه الأراضي؛ بحُجَّة أنَّها أراضٍ رمليَّة لا تصلح للزّراعة، وقد توسَّعت مدينة تلِّ أبيب فعلاً في هذه الأراضي، حتَّى أصبحت أضخم مدينة يهُوديَّة في فلسطين، وهكذا أصبح يعيش في هذه المُدُن الثّلاث أكثر من نصف اليهُود في فلسطين، والتي بُنيت على أراضٍ مَنَحَتْهَا حكُومة الانتداب لليهُود بدُون مُقابل.

---

(1) "إسرائيل جناية وخيانة"، سعدي بسيسو، ص 50 - 51.

وقد اعترض شو[1] على هذه السِّياسة البريطانيَّة، وكذلك المستر فرنش، وطالبا بحماية الفلاَّح العَرَبيّ الفلسطينيّ، ووَضْع القوانين التي تمنع إخراجه من أرضه، ولكنَّ حكُومة الانتداب لم ترضَ بهذه التّوصيات، ولم تأخذ بها.

وقد جاء في تقرير لجنة شو حول الفلاَّح الفلسطينيّ ما يلي: «إنَّ الفلاَّح العَرَبيّ الفلسطينيّ وطني صميم مُتحمِّس للنّضال السِّياسي ضدَّ الصّهيُونيَّة والاستعمار البريطانيّ، وهُو مُتمسِّك بأرضه رغم الظُّرُوف القاسية المُحيطة به تمسُّكاً شديداً، ولا يقبل التّنازل عنها بأيِّ ثمن لليهُود».

وفي وَصْف دقيق لحالة الفلاَّح الفلسطينيّ البائسة يقول تقرير رسمي من مُدير المعارف البريطانيّ في فلسطين ما نصُّه: «لقد أصبحت حالة المُزارعين العَرَب على حافَّة اليأس والقُنُوط، ولا تكاد تُوجد قرية عَرَبيَّة غير مُغرقة بالدُّيُون. والفلاَّحون مُثقلون بالضّرائب الفادحة التي لا يستطيعون دفعها. وفضلاً عن ذلك؛ فهُم في المواسم الجيِّدة لا يستطيعون بَيْع ما ينتجُونه من حبُوب، أو زيت، أو سُمسم (وذلك لإغراق السُّوق المحلِّيَّة بهذه المُنتجات من الخارج كما أسلفنا). ويُتابع مُدير المعارف تقريره، فيقول: «لقد شحَّ النَّقْد في بعض القُرى، حتَّى أصبح الأهالي يبتاعون حاجيَّاتهم عن طريق المُبادلات العَيْنيَّة».

ويقول الخبير الإنكليزيّ سمبسون[2]: «إنَّ الفلاَّح العَرَبيّ في حالة يأس شديد؛ إذْ ليس لديه رأس مال لمزرعته، ويرزح تحت عبء دُيُون فادحة، وهُو مُكلَّف بدَفْع ضرائب قاسية، وفوائد فاحشة»، ثُمَّ يُضيف قوله: «إنَّ الفلاَّح العَرَبيّ ليس كسولاً ولا خاملاً، بل هُو مُزارع قدير وفَطن، وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّه لو تمكَّن من التَّدرُّب على أساليب أفضل من تلك التي يتَّبعها، وتيسَّر له رأس مال، وخفَّ عنه عبء الضّرائب الثَّقيلة، لاستطاع أنْ يُحسِّن وَضْعَهُ وأحواله بسُرعة. والواقع أنَّ الفلاَّح العَرَبيّ يُمكن تشبيهه من حيثُ المواهب والذّكاء بأيِّ فلاَّح أُورُوبي. ويظهر أنَّه يستطيع أنْ يستعمل نفس وسائل العمل بنفس المقدرة على النّجاح».

---

(1) والتر شو هُو رئيس لجنة التّحقيق التي أرسلتْهَا بريطانيا بعد ثورة 1929، للبحث في أسبابها.

(2) جُونهوب سمبسون أرسلتْهُ بريطانيا عام 1930، إلى فلسطين لإعادة التّحقيق بتقرير والتر شو الذي قدَّمه شارحاً أسباب ثورة 1929، وكان إرسال سمبسون بناء على طعن الصّهاينة بتقرير شو، الذي اتّهموه بالتَّحيُّز للعَرَب.

ولامت اللّجنة المَلَكيَّة أو لجنة اللُّورد بيل التي أوفدتْهَا بريطانيا إلى فلسطين في ثورة 1936، لدراسة أحوال البلاد وأسباب التَّذمُّر والثّورة، والتي وصفت بتقريرها ما وَصَلَتْ إليه حالة الفلاَّحين العَرَب من شقاء وبُؤس؛ إذْ تقول: «إنَّ الحُكُومة (أيْ حُكُومة الانتداب) هي المسؤولة عن الحالة المُؤسفة التي وَقَعَ بها المُزارعون العَرَب.. إنَّ الفلاَّح العَرَبيّ ليس غنيَّاً، ولا مُتعلِّماً، لكنَّ كونه كذلك لا يُبرِّر - قطُّ - إخراجه من أرضه لأجل إفساح المجال للصّهيُونيِّيْن الأغنياء المُتعلِّمين كي يحلُّوا مكانه فيها»[1].

ومن هذه الشّهادات يبدو أنَّ الحُكُومة المُنتدبة لو خصَّصت شيئاً جدِّيّاً من عنايتها بالفلاَّح العَرَبيّ الفلسطينيّ، واهتمَّت بتحسين حاله، وهوَّنت عليه أمر الضّرائب، وخفَّفتْ عنه هول الدُّيُون، وخلَّصتْهُ من شُرُور المُرابين، وَمَنَعَتْ استيراد مثيل ما يُنتجه حتَّى لا يكسد إنتاجه، ولا يجد مَنْ يشتريه، لما أقدم يوماً على التَّخلِّي عن شبر واحد من أرضه، ولكنَّه في الحالات التي وصفناها لم يجد بعضهم بُدَّاً من البَيْع سدّاً للرّمق والضّرائب والدُّيُون، وحفظاً للحياة المُهدَّدة بخطر شديد.

هذا؛ ومع كُلِّ الصّعاب التي واجهها الفلاَّح العَرَبيّ الفلسطيني، وكُلِّ المُحاولات للتّضييق عليه كانت نسبة ما باعه لليهُود لا يتجاوز 10٪ فقط من مجموع الأراضي التي كانت بيد اليهُود عام 1947[2]، (و90٪ باعها إقطاعيُّون من خارج فلسطين، أو سلَّمتها حُكُومة الانتداب لليهُود).

وجاء في كتاب "حقائق عن قضيَّة فلسطين" إصدار "مكتب الهيئة العَرَبيَّة العُليا لفلسطين" في مقال بعُنوان "الفلسطينيُّون لم يُفرِّطوا في أراضيهم" ردّاً على الادِّعاءات والتُّهم المُوجَّهة لعَرَب فلسطين بأنَّهم باعوا أملاكهم وأراضيهم ما يلي: «لا صحَّة لهذه التُّهم التي يُروِّجها الأعداء من يهُود ومُستعمرين، فإنَّ العطف الذي بدا من سائر الأقطار العَرَبيَّة على قضيَّة فلسطين، والحماسة الشّديدة لها، والتّنادي لنصرتها، والاستماتة في سبيل الذّود عنها،

---

(1) المصدر "إسرائيل جناية وخيانة" سعدي بسيسو ص 52 - 54 باختصار.

(2) المصدر "إسرائيل جناية وخيانة"، سعدي بسيسو، ص 51، نقلاً عن تقرير اللّجنة المَلَكيَّة برئاسة بيل، صفحة 316، وتقرير لجنة شو، ص 29، والتّقريران بالإنكليزيَّة.

واعتبار قضيَّة فلسطين قضيَّة الأُمَّة العَرَبيَّة جمعاء، كُلُّ هذا أَقْلَقَ هؤلاء الأعداء، فشرعوا ينشرون الأراجيف، ويذيعون الإشاعات الباطلة عن أهل فلسطين، ويرمونهم بمُختلف التُّهم، تشويهاً لسُمعتهم، وتنفيراً لإخوانهم العَرَب منهم، وصرفاً لهم عن نصرتهم. وكانت التُّهمة الأُولى أنَّ أهل فلسطين باعوا أراضيهم، وتمتَّعوا بأثمانها، ثُمَّ جاؤوا اليوم يدَّعون الويل والثّبور، فهُم أحقُّ باللّوم لَمّا فرَّطوا في أوطانهم».

وأُضيف أيضاً - كما أسلفتُ سابقاً - إنَّ القصد من هذه التُّهمة الباطلة التي روَّجها الصّهاينة هُو حرمان عَرَب فلسطين من المُطالبة بالعودة إلى ديارهم ومُمتلكاتهم، أو التّعويض عليهم كما قضت بذلك قرارات هيئة الأُمم المُتَّحدة المُتلاحقة؛ بحُجَّة أنّهم باعوها، وقبضوا أثمانها، وبذلك يجد اليهُود مُبرِّراً بهذا الادِّعاء لعدم تنفيذ قرارات هيئة الأُمم المُتَّحدة.

ثُمَّ يُضيف كتاب "حقائق عن القضيَّة الفلسطينيَّة" إنَّ الحقيقة تُخالف ذلك كُلَّ المُخالفة، فعَرَب فلسطين قد حرصوا على أراضيهم كُلَّ الحرص، وحافظوا عليها رغم الإغراءات الماليَّة الهائلة من قبَل اليهُود، ورغم الضّغط الاقتصادي عليهم بمُختلف الوسائل من قبَل حكُومة الانتداب البريطانيَّة.

ومُنذُ تأسيس المجلس الإسلاميّ الأعلى الذي انتخبه الفلسطينيُّون لإدارة المحاكم الشّرعيَّة والأوقاف والشُّؤُون الإسلاميَّة في فلسطين عام 1922، قام بأعمال عظيمة لصيانة الأراضي من الغزو اليهُودي، فَمَنَعَ - بواسطة المحاكم الشّرعيَّة التي كان يُشرف عليها - بَيْع أو قسمة أيِّ أرض كان للقاصرين نصيب فيها، وكذلك اشترى المجلس من أموال الأوقاف الإسلاميَّة كثيراً من الأراضي التي كانت عُرضة للبيع، وأقرض كثيرين من أصحاب الأراضي المُحتاجين قُرُوضاً من صناديق الأيتام؛ ليصرفهم عن البَيْع. وكان يعقد مُؤتمراً سنويّاً من العُلماء ورجال الدِّين لتنظيم وسائل مُقاومة بَيْع، أو تسرُّب الأراضي العَرَبيَّة لليهُود.

ويقول الحاجُّ أمين الحُسَيْني رئيس المجلس الإسلاميّ الأعلى: «لقد تعرَّضتُ لحملات شديدة من الإنكليز واليهُود عندما كُنتُ رئيساً لهذا المجلس بسبب ما كان يقوم به من نشاط في مَنْع بَيْع الأراضي لليهُود».

هذا؛ وقد أنفق المجلس الإسلاميّ الأعلى مبالغ طائلة في سبيل إنقاذ الأراضي من التَّسرُّب لليهُود، واشترى بعض القُرى برُمَّتها كقرية دير عمرو، وقرية زيتا، التي بذل في سبيل إنقاذها وحدها نحو 54 ألف جُنيه، وكالأراضي المشاعة في قرية الطّيبة وعتيل والطّيْرَة، وبَذَلَ جُهُوداً عظيمة، وأقام قضايا في المحاكم في هذا السّبيل، ووُفّق في إقناع كثير من القُرى ببَيْع أراضيها إلى المجلس الإسلاميّ الأعلى، وَجَعَلَهَا وَقْفاً على أهلها لإنقاذهم من الضّائقة الماليَّة التي حلَّتْ بهم نتيجة سياسة حكُومة الانتداب ضدَّ الفلاَّحين العَرَب.

وكذلك قامت بعض المُؤسَّسات والمُنظَّمات العَرَبيَّة مثل: صنُدُوق الأُمَّة، الذي بَذَلَ جهداً كبيراً في سبيل إنقاذ كثير من الأراضي اشترى بعضها بالمال، وأنقذ بعضها بإجراءات إداريَّة أو قضائيَّة كأراضي البطيحة لعرقلة البَيْع، وحماية حُقُوق المُزارعين، بالإضافة إلى عقد الاجتماعات وتوزيع النّشرات لتنوير الفلاَّحين وتوعيتهم وتبصيرهم بالخطر الدّاهم المُحدق بهم.

هذا؛ وقد أصدرت الهيئات الدِّينيَّة ومُؤتمرات العُلماء فتاوى بتكفير مَنْ يبيع الأرض، أو يُسمسر على بَيْعها، وتعتبره مُرتداً عن الإسلام، لا يُصلَّى عليه، ولا يُدفَن في مقابر المُسلمين، وتجب مُقاطعته، وعدم التّعامل معه، وقد أصدر مُؤتمر كَهَنَة الأرثوذكس العَرَب في فلسطين قرارات مسيحيَّة مُماثلة.

ونتيجة لما سَبَقَ؛ انقطع بَيْع الأراضي لليهُود انقطاعاً تامّاً مُنذُ ثورة 1929، ولم يعد أحد يتجرَّأ على القيام بذلك مهما كانت المُغريات؛ لأنَّه سيدفع حياته ثمناً لذلك، ويُؤيِّد ذلك تقاريرُ حكُومة الانتداب البريطانيّ، التي كانت تُرفَع إلى لجنة الانتداب في عصبة الأُمم بجنيف، والتي كانت تذكر أنَّ انتقال الأراضي لليهُود قد انقطع انقطاعاً شبه تامٍّ، وكانت تعزو السّبب إلى نشاط المجلس الإسلاميّ الأعلى وفتاوى العُلماء بإهدار دم كُلِّ مَنْ يبيع أرضه لليهُود، وكذلك قرارات مُؤتمرات كَهَنَة الأرثوذكس العَرَب بتحريم بَيْع الأرض لليهُود[1].

---

(1) المصدر كتاب "حقائق عن قضيَّة فلسطين"، أصدره الحاجُّ أمين الحُسَيْني رئيس الهيئة العَرَبيَّة العُليا، ص 10 ـ 13.

وتدلُّ الإحصاءات الرّسميَّة أنَّ مساحة أراضي فلسطين هي سبعة وعشرون مليون دُونم (الدُّونم ألف متر مُربَّع). ويبلغ مجموع ما استولى عليه اليهُود من أراضي فلسطين حتَّى انتهاء الانتداب البريطانيّ على فلسطين في 15 أيَّار 1948، نحو مليونَيْ دُونم؛ أيْ نحو 7٪ (سبعة في المائة) من مجموع أراضي فلسطين، على أنَّ ما تسرَّب من أيدي عَرَب فلسطين من هذَيْن المليونَيْن لا يزيد عن مائتَيْن وخمسين ألف دُونم (250000 دُونم)؛ أيْ ثُمن ما استولى عليه اليهُود. وكان وُقُوع الكثير منها بيد اليهُود في ظُرُوف قاهرة، وبعضها ذَهَبَ نتيجة لنزع ملكيَّة الأراضي العَرَبيَّة، وهُو ما كانت تقوم به حكُومة الانتداب البريطانيّ لصالح اليهُود وُفقاً للمادَّة الثّانية من صكّ الانتداب، أمَّا باقي المليونَيْن؛ فقد تسرَّب لليهُود على النّحو التّالي:

650000 دُونم، استولى عليها اليهُود في عهد الدّولة العُثمانيَّة خلال حقبة طويلة، ومُعظمها من الأراضي الأميريَّة؛ بحُجَّة إنعاش الزّراعة، وإنشاء مدارس زراعيَّة.

300000 دُونم، مَنَحَتْهَا حكُومة الانتداب لليهُود دُون مُقابل (وهي من أملاك الدّولة).

200000 دُونم، مَنَحَتْهَا حكُومة الانتداب لليهُود لقاء أجرة اسميَّة (وهي من أملاك الدّولة أيضاً).

600000 دُونم، اشتراها اليهُود من بعض الإقطاعيِّيْن اللُّبنانيِّيْن والسُّوريِّيْن الذين كانوا يملكون أراضي واسعة في فلسطين مثل: مرج ابن عامر، ووادي الحوارث، والحولة، وغيرها[1].

المجموع: 750000، 1 دُونم المجموع (مليون وثلاثة أرباع المليون).

يتبيَّن من ذلك أنَّ نحو سبعة أثمان ما استولى عليه اليهُود من الأراضي إنَّما تسرَّب إليهم عن طريق غير الفلسطينيِّيْن، وأنَّ ما تسرَّب من الفلسطينيِّيْن هُو رُبع مليون دُونم فقط،

(1) من العائلات الإقطاعيَّة اللُّبنانيَّة التي باعت لليهُود آل سرسق مرج ابن عامر، وآل التّيناوي وادي الحوارث، (قُرب طُول كرم)، وآل الأسعد وآل سلام في الحولة، وباعت بعض العائلات السُّوريَّة مثل آل الفاعور، وآل بُوظُو أملاكها في الحولة (هذا بشهادة أحد كبار السِّنّ من أهالي الحولة؛ وهُو الأُستاذ مُصطفى بلاوني المُلقَّب أبو عُمر).

على أنَّ الكثير ممَّنْ باعوا أراضيهم، أو كانوا سماسرة للبَيْع قد فَتَكَ بهم الشّعب الفلسطينيّ، ولم ينجُ منهم إلاّ مَنْ فرَّ من البلاد، ولجأ إلى أقطار أُخرى.

وهكذا يتبيَّن لنا مدى الظُّلم الذي لحق بعَرَب فلسطين من جرَّاء اتِّهامهم ببَيْع أراضيهم لليهُود.

والأسوأ من كُلِّ ذلك أنَّ اليهُود استولوا عام 1948، (عام النّكبة) على ثمانية عشر ونصف مليون دُونم جديدة (5، 18 مليون دُونم)؛ أيْ حوالي 68٪ من أرض فلسطين؛ أيْ أكثر من ثُلثَيْ أرض فلسطين قهراً واغتصاباً، وشرَّدوا سُكَّانها منها في ظُرُوف مأساويَّة فظيعة، وهكذا أصبح اليهُود يملكون حوالي 75٪ من أرض فلسطين عام 1949، ولم يبقَ من فلسطين إلاّ الضِّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة فقط[1]؛ كُلُّ ذلك نتيجة قرار التّقسيم عام 1947، الذي أعطى اليهُود 50٪ من فلسطين دُون مُقابل.

أمَّا التُّهمة الثّانية وهي: عدم قيام عَرَب فلسطين بالدّفاع عن بلادهم، فسنتحدَّث عنها فيما يلي:

دفاع عَرَب فلسطين عن بلادهم:

كانت التُّهمة الثّانية لعَرَب فلسطين أنَّهم لم يُدافعوا عن بلادهم؛ وهي فرية أُخرى، لا ظلَّ لها من الحقيقة. فقد كافح عَرَب فلسطين الإنكليز واليهُود معاً مُدَّة عشرين عاماً لم يُقهَروا خلالها أبداً، رغم كثرة القُوَّات البريطانيَّة وقوى اليهُود المُنظَّمة، ورغم البطش الشّديد وفرض الغرامات الباهظة على السُّكَّان، وهدم بُيُوت الثُّوَّار والأحكام الجائرة ضدَّ مَنْ يقع بأيديهم من رجال الثّورة، هذا؛ بجانب وسائل التّعذيب التي تقشعرُّ لها الأبدان.

إنَّ الخطر الصّهيُونيّ المُروِّع ـ رغم أنَّ أبعاد هذا الخطر لم تكن واضحة لعَرَب فلسطين كُلَّ الوُضُوح ـ وخيبة آمال عَرَب فلسطين في الحُرِّيَّة والاستقلال، وتمادي الحُكُومة البريطانيَّة

---

(1) بعد قيام (إسرائيل) عام 1948، عَرَضَ اليهُود الصّهاينة على العالم اليهُوديّ الشّهير "ألبرت إينشتاين" (صاحب النّظريَّة النّسبيَّة والبُحُوث الهامَّة في الفَلَك والرّياضيَّات) رئاسة (إسرائيل)، ولكنَّه رَفَضَ باشمئزاز قائلاً: «لا أُريد أنْ أكون رئيساً لدولة قامت على الاغتصاب».

في الكيد لهم، والتآمر عليهم، وتحقيق المطامع الصّهيُونيَّة على حسابهم، دَفَعَ عَرَب فلسطين إلى النّضال والقتال دفاعاً عن حُرِّيّتهم، وذَوْداً عن وطنهم المُهدَّد بالضّياع.

لقد ثار عَرَب فلسطين على أعدائهم ثورات دامية تجلَّت فيها آيات البُطُولة الرّائعة والوطنيَّة الصّادقة والبسالة النّادرة والإيمان الرّاسخ، رغم قلَّة السّلاح والعتاد المُتوفِّر لديهم ضدَّ عدوٍّ مُدجَّج بالسّلاح والعتاد. وكان جهاد عَرَب فلسطين مضرب الأمثال ومثاراً للدّهشة والإعجاب في أنحاء العالم كافَّة؛ ونذكر من هذه الثّورات ثورة نيسان **1920**، وثورة أيَّار **1921**، وثورة آب **1929**، وثورة تشرين أوَّل **1933**، وأخيراً؛ الثّورة الفلسطينيَّة الكُبرى التي دامت من **1936** ـ **1939**.

وقُدِّر عدد الذين استشهدوا من عَرَب فلسطين في ميادين الجهاد اثنَيْ عشر ألف رجل وشابٍّ وامرأة[1].

وقد جاء في كتاب ألَّفه "هنري ميتلاند ولسون" الذي اشترك في المعارك ضدَّ عَرَب فلسطين قبل أنَّ يتولَّى قيادة القُوَّات البريطانيَّة في مصر، ثُمَّ في منطقة البحر الأبيض المُتوسِّط، ذكْرٌ مستفيضٌ لبُطُولات عَرَب فلسطين خلال المعارك الدّامية التي جاهدوا فيها القُوَّات البريطانيَّة؛ إذْ ذَكَرَ ما خُلاصته: «إنَّ خمسمائة من ثُوَّار فلسطين يعتصمون في الجبال، ويقومون بحرب العصابات، لا يُمكن التَّغلُّب عليهم بأقلَّ من فرقة عسكريَّة بريطانيَّة كاملة السّلاح».

وكانت أعظم الثّورات الفلسطينيَّة وأبعدها أثراً ثورة **1936**، والتي امتدَّت حتَّى عام **1939**، وتميَّزت هذه الثّورة بالمُميِّزات التّالية:

1: اشتركت فيها جميع فئات الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ وطوائفه في تضامن رائع، وعمَّت مُعظم بقاع فلسطين من أقصى الشّمال إلى أقصى الجنوب.

2: استمرارها الطّويل أكثر من ثلاث سنوات، سيطر فيها الثّوار على مُعظم الأراضي الفلسطينيَّة؛ باستثناء المُدُن الكبيرة، وأسَّسوا نظاماً إداريّاً وقضائيّاً في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم.

---

(1) المصدر "إسرائيل جناية وخيانة"، سعدي بسيسو، ص 61.

3: اشتراك مُجاهدين من الأقطار العَرَبيَّة المُجاورة؛ وخاصَّة القطر العَرَبيّ السُّوري، ومنهم المُجاهد سعيد العاص، الذي استُشهد على التُّراب الفلسطينيّ، وفوزي القاوقجي، الذي ترأس القيادة العامَّة للثّورة، حتَّى إنَّ المُحرِّض الأساسي على هذه الثّورة ومُنظِّمها وقائدها الأوَّل هُو الشّيخ عزّ الدِّين القسَّام وهُو سُوري من مدينة جَبْلة السّاحليَّة، وقد أبْعَدَتْهُ السُّلطات الفرنسيَّة من سُوريَّة، فاستقرَّ في حَيْفَا؛ حيثُ كان خطيب جامع الاستقلال فيها، وقد استُشهد في جبال يعبد قُرب نابلس.

4: نبغ في هذه الثّورة قادة أفذاذ في حرب العصابات أمثال: عبد القادر الحُسَيْني، وحسن سلامة، وأبو إبراهيم الكبير.. إلخ.

5: تميَّزت بالإضراب العامِّ الطّويل الذي استمرَّ أكثر من ستَّة أشهر.

6: أجبرت بريطانيا على إصدار الكتاب الأبيض الثّالث عام 1939، والذي استجابت فيه بريطانيا للكثير من المطالب العَرَبيَّة مثل:

أ: تأسيس دولة فلسطينيَّة مُستقلَّة في غُضُون عشر سنوات، يكون لليهُود فيها حُقُوق الأقلِّيَّة.

ب: تحديد الهجرة اليهُوديَّة بـ 75 ألف مُهاجر في غُضُون الخمس سنوات الأُولى بعد صُدُور الكتاب، ثُمَّ تتوقَّف تماماً.

ج: فرض الحظر والقُيُود في بعض المناطق على استملاك اليهُود للأراضي العَرَبيَّة.

وفيما يلي يُحَدِّثنا "جُون ديفز" في كتابه "السّلام المُراوغ" عن ثورة 1936، وأسبابها ونتائجها وأهمِّيَّة الكتاب الأبيض الثّالث، فيقول[1]: «بلغ التّوتُّر في أوائل الثّلاثينات ذروات جديدة في فلسطين، فاضطهاد هتْلَر لليهُود في أُورُوبا قاد إلى زيادة سريعة في الهجرة

(1) د. جُون ديفز John H. Davis أمريكي عمل خمس سنوات مُفوّضاً عاماً لوكالة الأُمم المُتَّحدة لإغاثة وتشغيل اللاّجئين الفلسطينيِّين، وكان من المُدافعين عن اللاّجئين الفلسطينيِّين وحقِّهم في وطنهم فلسطين، وكَتَبَ عن الغُبْن والظُّلم الفادحَيْن اللّذَيْن نزلا بعَرَب فلسطين. ألَّف كتاب "السّلام المُراوغ"، ترجمه إلى العَرَبيَّة محمود فلاّحة، اقتبسنا منه من ص 40 ـ 42.

اليهُوديَّة إلى فلسطين مُنذُ 1933، وفي سنة 1936، بدأ العَرَب سلسلة من الاضطرابات العنيفة في عُمُوم أنحاء فلسطين كانت مُوجَّهة إلى الإدارة البريطانيَّة واليهُود، على حَدٍّ سواء، وقد بلغت أوجها في إضراب عامٍّ وثورة عارمة، ممَّا دعا الحُكُومة البريطانيَّة إلى إرسال اللّجنة المَلَكيَّة للتّحقيق، وتُعرَف بلجنة "بيل"، والتي رَفَعَتْ تقريرها سنة 1937. وللمرَّة الأُولى اعترف تقرير رسمي أنَّ الوُعُود البريطانيَّة لكُلٍّ من العَرَب واليهُود يستحيل التّوفيق بينها، وأنَّ صكَّ الانتداب غير عملي، واقترحت لجنة بيل تقسيم فلسطين بين العَرَب واليهُود عام 1937»، (انظر المُصوَّر رَقْم 16 ص 609 يُبيِّن تقسيم 1937).

رُفض قرار التّقسيم، واستمرَّت الثّورة الفلسطينيَّة، ممَّا أجبر الحُكُومة البريطانيَّة على إصدار الكتاب الأبيض الثّالث عام 1939، الذي جاء فيه أنَّ الهَدَفَ البريطانيّ هُو تأسيس دولة فلسطينيَّة مُستقلَّة في غُضُون عشر سنوات، تسير فلسطين في أثنائها نحو الحُكْم الذّاتي، وفي السّنوات الخمس الأُولى تُحدَّد الهجرة بـ 75 ألف مُهاجر (15 ألف كُلٍّ سنة) يتبع ذلك توقُّف الهجرة إلاَّ بمُوافقة عَرَب فلسطين، وأنَّ العَرَب سيُشَكِّلون ثُلثَيْ السُّكَّان، وسوف يُمثَّلون - حسب هذه النّسبة - في الحُكُومة (في الحُكْم الذّاتي)، وَفَرَضَتْ قُيُوداً وحَظْراً في بعض المناطق على استملاك اليهُود للأراضي العَرَبيَّة. لقد ذكر الكتاب الأبيض الثّالث بشكل باتٍّ أنَّ: «حُكُومة صاحب الجلالة تُعلن - الآن، صراحة، وبشكل قاطع - أنَّ سياستها لا تتضمَّن في أيّ جُزء منها أنَّ فلسطين يجبُ أنْ تُصبح دولة يهُوديَّة».

إنَّ الكتاب الأبيض الثّالث كان نتيجة كفاح وجهاد عَرَب فلسطين المُتواصل، وتضحياتهم الكبيرة، وإصرارهم على مُكافحة الخُطط الصّهيُونيَّة بتهويد بلدهم فلسطين. إنَّ هذا الكفاح المُستمرّ، والتّضحيات الهائلة، وإصرار عَرَب فلسطين على مطالبهم، أدّى إلى تراجع الحُكُومة البريطانيَّة عن سياستها المُؤيِّدة للحَرَكَة الصّهيُونيَّة وأهدافها، واعترافها بالحُقُوق العَرَبيَّة.

ويقول جُون ديفز: «كان الكتاب الأبيض الثّالث هزيمة رئيسيَّة للصّهيُونيَّة العالميَّة»، وقد قال وايزمن مُعلِّقاً على نتائجه المُؤثِّرة بالسِّياسة القائمة على وعد بلفور وصكِّ الانتداب ما يلي: «جاء الإلغاء الفعْلي لوعد بلفور بصدُور الكتاب الأبيض عام 1939».

لقد أوقف قيام الحرب العالميَّة الثَّانية عام 1939، إنشاء الحُكْم الذّاتي في فلسطين، ولكنَّ بريطانيا استمرَّت بالتّمسُّك بالكتاب الأبيض في نواحي الهجرة اليهُوديَّة، وانتقال الأراضي لليهُود، وقد رَفَضَ تشرشل رئيس الوزارة البريطانيَّة أثناء الحرب العالميَّة الثّانية أيَّ تراجع عن الكتاب الأبيض، فقد قال لوايزمن عندما راجعه في إلغاء الكتاب الأبيض: «إنَّه يتعاطف مع الأماني الصّهيُونيَّة، ولكنَّ اعتبارات الحرب العالميَّة الثّانية تجعل من غير العملي أيّ سحب للكتاب الأبيض».

واستمرَّ الكتاب الأبيض ساري المفعول حتَّى عام 1948، حين أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين.

وكان للكتاب الأبيض نتائج هامَّة جداً؛ وهي:

أوَّلاً:

انتقل مركز ثقل النّشاط الصّهيُونيّ سنة 1940، من بريطانيا إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة. وفي أيَّار 1942، عُقد مُؤتمر فُندُق بلتيمور في نيُو يُورك، وكان مُؤتمراً كبيراً كرَّس النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الولايات المُتَّحدة، وقد حَضَرَهُ نحو ستُّمائة من اليهُود الأمريكيِّين (كان مُعظمهم من الصّهيُونيِّين، وأقلّهم من مُمثِّلي اليهُود غير الصّهاينة)، وَحَضَرَهُ - أيضاً - عدد كبير من الصّهاينة المرموقين من خارج أمريكا، كان بينهم وايزمن، وبنْ غُوريُون، وَحَضَرَهُ - أيضاً - بعض أعضاء مجلس الشُّيُوخ الأمريكيِّين، وعدد من النُّوَّاب، ومن أهمِّ الحُضُور كان هاري ترُومان، الذي أصبح رئيساً للولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة عام 1945.

أصدر المُؤتمر قرار بلتيمور الشّهير وهُو: «أنْ تُفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهُوديَّة، وأنْ تُمنَح الوكالة اليهُوديَّة حقَّ السّيطرة على الهجرة إلى فلسطين، والسُّلطات الضّروريَّة لبناء البلاد، وتنمية أراضيها المتروكة والبور، وأنْ تُصبح فلسطين مقام الكُومنولث اليهُوديّ، الذي سيندمج في تركيب العالم الدِّيمُقراطي الجديد».

كان للنّشاطات الصّهيُونيَّة في أمريكا فاعليَّة كبيرة جداً، فقد نجح الصّهاينة عام 1944، في إدخال نُقاط على برنامجَيْ الحزبَيْن الأمريكيَّيْن الجُمهُوري والدِّيمُقراطي، تدعو لفتح

أبواب فلسطين لهجرة يهُوديَّة حُرَّة ومُطلقة. كما أفلحوا - أيضاً - عام 1945، في الحُصُول على مُوافقة الكُونغرس الأمريكي على قرارات تدعو الولايات المُتَّحدة لاستخدام كُلّ إمكانيَّاتها لفَتْح أبواب فلسطين للهجرة، وإقامة دولة يهُوديَّة فيها.

ولم يكتف الصّهاينة بذلك، بل حضّوا رُؤساء البلديَّات في الولايات المُتَّحدة، وحُكَّام الولايات، والبارزين من رجال الأعمال، والمُمثّلين، ومُحرِّري الصُّحُف، وأساتذة الجامعات، والأساقفة على إصدار بيانات عامَّة تدعو إلى الأمر ذاته[1].

وهكذا أدار اليهُودُ ظَهْرَهُم لبريطانيا الإمبراطُوريَّة العجوز؛ ليركبوا حصاناً جديداً هُو الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، والتي ستخرج من الحرب العالميَّة الثّانية أقوى دولة في العالم، كما كانت بريطانيا بعد الحرب العالميَّة الأُولى.

ثانياً:

وَجَدَتْ الحُكُومةُ البريطانيَّة نفسَها تتعرَّض لهُجُوم عنيف، وثورة عارمة، قام بها اليهُود في فلسطين ضدَّها، هذا؛ بالإضافة إلى الضّغط السِّياسي، فقد نَمَتْ في فلسطين - بعد عام 1942 - حملة إرهابيَّة قامت بها الجماعات اليهُوديَّة الإرهابيَّة المُسلَّحة ضدَّ البريطانيِّيْن في فلسطين، وكانت الهاغاناه أكبر هذه الجماعات، وتتلقَّى توجيهاتها من الوكالة اليهُوديَّة ذاتها. بالإضافة إلى مُنظَّمتَيْ "الأرغون"؛ ويرأسها "مناحيم بيغن"، و"شتيرن"؛ ويرأسها إسحاق شامير، وكانت هاتان المُنظَّمتان أكثر جُرأة وأشدّ قسوة، وكانتا تعملان سرّاً، وتستخدمان أساليب رجال العصابات.

وكان من أعمالهما الإرهابيَّة: اغتيال اللُّورد موين وزير الشّرق الأوسط في القاهرة، ونَسْف فُندُق الملك داود في القُدس، وكان مقرَّ سكرتاريَّة الشّرق الأوسط البريطانيَّة (خلال الحرب العالميَّة الثّانية)؛ حيثُ قُتل حوالي 45 سكرتيراً، بالإضافة إلى أكثر من مائة جريح، وكذلك مُحاولة اغتيال المندوب السّامي البريطانيّ في فلسطين عدَّة مرَّات. هذا؛ بالإضافة إلى نَسْف الجسُور، وتخريب السّكك الحديديَّة، ومُهاجمة المُعسكرات البريطانيَّة، وخَطْف الضُّبَّاط الإنكليز، والانتقام منهم في فلسطين.

---

(1) السّلام المُراوغ، جُون ديفز، ترجمة محمود فلاَّحة، ص 45 - 46.

كُلُّ هذا كان من نتائج الكتاب الأبيض الثّالث الذي اعترف بشيء بسيط من حُقُوق الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ، نتيجة كفاحه الطّويل وتضحياته الهائلة[1].

ولكنْ؛ ماذا حَدَثَ بعد صُدُور الكتاب الأبيض الثّالث، وانتهاء الثّورة العَرَبيَّة الفلسطينيَّة الكُبرى، وقيام الحرب العالميَّة الثّانية عام 1939؟!

أراد الإنكليز أنْ يسترضوا اليهُود، فانتهزوا قيام الحرب العالميَّة الثّانية، وقاموا بحملة مُنظَّمة قويَّة لتجريد عَرَب فلسطين من أسلحتهم، وفرضوا على سُكَّان القُرى والمُدُن العَرَبيَّة تسليم ما لديهم من الأسلحة، ثُمَّ أصدروا قرارات بالحُكْم بالإعدام على كُلِّ مَنْ يحوز سلاحاً، ولم يُسلِّمه للحُكُومة البريطانيَّة، ثُمَّ شرَّدوا قادة الثّورة، وسجنوا الأُلُوف من المُجاهدين، وأرهقوهم عذاباً وإهانة.

وفي الوقت نفسه؛ كان الإنكليز يُسلِّحون اليهُود، ويُدرِّبونهم، ويُجنِّدونهم في القُوَّات المُسلَّحة البريطانيَّة، وقد شُكِّلَت هيئة عسكريَّة إنكليزيَّة لتنفيذ ذلك، يرأسها القائد "وينجت[2]"، وأسَّسوا الفَيْلَقَ اليهُوديّ الذي اشترك في الحرب العالميَّة الثّانية، وبلغ تعداده حوالي 30 ألف جُندي، مُدرَّبين أفضل تدريب[3].

---

(1) قامت المُنظَّمات الإرهابيَّة الصّهيُونيَّة بحملتها المسعورة ضدَّ بريطانيا في فلسطين مُنذُ أواخر عام 1942، بعد أنْ تأكَّدت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أنَّ ألمانيا في طريقها إلى الانهيار، وخسارة الحرب العالميَّة الثّانية، وخاصَّة بعد انتصار الاتِّحاد السُّوفياتي في معركة ستالينغراد الرّهيبة، وبداية تقهقر الجُيُوش الألمانيَّة. فأدركت أنَّ بريطانيا ستخرج من الحرب دولة من الدّرجة الثّانية أو الثّالثة، وأنَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة ستخرج أقوى دولة في العالم عسكريّاً واقتصاديّاً، وأيقنت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة أنَّ بريطانيا لن تنحاز كُلِّيَّة إلى جانب اليهُود لمصالحها الكبيرة عند العَرَب. لذلك أخذت المُنظَّمات الإرهابيَّة الصّهيُونيَّة بمُهاجمة الإنكليز، وهي مُتأكِّدة أنَّهم لا يستطيعون الرَّدَّ عليها ردّاً حاسماً، بعد أنْ ضمنوا وُقُوف أمريكا إلى جانبهم، وفي رأيي أنَّ انسحاب بريطانيا من فلسطين عام 1948، كان طَرْداً، وليس انسحاباً، فقد أدركتْ أنَّ معاداة الحَرَكَة الصّهيُونيَّة ليس في مصلحتها، وأنَّ دورها في الشّرق الأوسط سيتراجع، ليحلَّ محلَّه النُّفُوذ الأمريكي، فآثرت الانسحاب خوفاً من مُعاداة اليهُود والصِّدام مع حليفتها أمريكا، التي أقنعها اليهُود أنَّهم سيكونون العصا الغليظة بيد أمريكا، تُشهرها في وجه كُلِّ مَنْ يرفض نُفُوذها، والسّير في ركابها من الدُّول العَرَبيَّة.

(2) حقائق عن قضيَّة فلسطين، ص 16.

(3) كان اليهُود يضغطون - مُنذُ بداية الحرب العالميَّة الثّانية - لتجنيدهم وتدريبهم وتسليحهم للدّفاع عن أنفسهم، بعد أنْ وَصَلَتْ القُوَّات الألمانيَّة عام 1941، إلى العَلَمَيْن، قُرب الإسكندريَّة في مصر، زاحفة من ليبيا، بقيادة المارشال رُوميل. والحقيقة كان هَدَفُهم البعيد أنْ يكون لديهم - بعد انتهاء الحرب - قُوَّات مُدرَّبة جاهزة للقتال عند الصِّدام مع العَرَب، وهذا ما حَدَثَ فعلاً، فقد كان لرجال الفَيْلَق اليهُوديّ - وغيرهم مِمَّنْ تطوَّعوا في القُوَّات البريطانيَّة، وتدرَّبوا أفضل تدريب في مُعسكراتها - دور كبير في هزيمة العَرَب عام 1948.

وأودُّ فيما يلي ـ وقبل التَّحدُّث عن سُقُوط فلسطين ـ أنْ أذكر بعض الْملاحَظَات عن الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين وتطوُّرها من 1914 ـ 1940 :

تطوُّر الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين بين 1914 ـ 1940:

بلغ عدد اليهُود في فلسطين عند قيام الحرب العالميَّة الأُولى 1914 ، حوالي 85 ألفاً ، ثُمَّ انخفض هذا العدد إلى 55 ألفاً عند نهاية الحرب بسبب ظُرُوف الحرب في فلسطين .

وفيما يلي جدول يُبيِّن تزايد أعداد اليهُود في فلسطين حتَّى عام 1940 :

الْملاحَظَات	العدد بالآلاف	السنّة
هاجروا إلى فلسطين إبَّان الحُكْم العُثمانيّ	85	1914
تناقص عدد اليهُود بسبب ظُرُوف الحرب في فلسطين	55	1918
التّزايد بسبب فَتْح الإنكليز أبواب الهجرة إلى فلسطين	95	1924
مُعظمهم من يهُود بُولُونيا ورُوسيا	152	1929
الزّيادة الكبيرة نتيجة وُصُول هتْلَر إلى الحُكْم في ألمانيا ، وهجرة اليهُود الألمان إلى فلسطين	384	1936
من ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى للسّبب السّابق[1]	464	1940

نُلاحظ من الجدول السّابق ما يلي :

1 : ضعف الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين بشكل عامٍّ ، رغم الجُهُود والْمغريات التي قامت بها الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بسبب كفاح عَرَب فلسطين ، والثّورات الْمتلاحقة التي قاموا بها .

2 : تدفُّق اليهُود من ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى بعد وُصُول الحزب النّازي إلى الحُكْم في ألمانيا برئاسة هتْلَر ، الذي يتَّهم اليهُود بأنَّهم كانوا وراء خسارة ألمانيا في الحرب العالميَّة الأُولى ، وقيامه باضطهاد اليهُود في ألمانيا وكُلِّ الأقطار الأُورُوبيَّة التي احتلَّتْهَا ألمانيا . وقد

(1) مصدر الجدول السّابق من كتاب "السّلام الْمراوغ" ، جُون ديفز ، ص 34 .

استمرَّ تدفُّق اليهُود من ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى حتَّى قيام الحرب العالميَّة الثّانية 1939 ، وخلال الحرب العالميَّة الثّانية ؛ استمرَّ تدفُّق اليهُود إلى فلسطين ، ولكنْ ؛ بشكل أبطأ ، بسبب ظُرُوف الحرب ، وتحديد الهجرة إلى فلسطين بعد صُدُور الكتاب الأبيض الثّالث .

وقد مرَّ معنا أنَّ تدفُّق اليهُود الألمان إلى فلسطين مُنذُ عام 1933 ، كان السّبب الرّئيسي لثورة عَرَب فلسطين الكُبرى عام 1936 ، لإدراكهم مدى الخطر المُحدق بهم .

الحقيقة أنَّ الحَرَكَة النّازيَّة في ألمانيا بزعامة أدولف هتْلَر ووُصُوله إلى الحُكْم عام 1933 ، قد أنقذ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة من الفشل الذّريع . فقد كانت الهجرة اليهُوديَّة إلى فلسطين ضعيفة جداً ، رغم الدّعاية والمُغريات الصّهيُونيَّة والتّسهيلات المُمتازة التي قدَّمتها بريطانيا لتشجيع هذه الهجرة ، فلم يُهاجر إلى فلسطين سوى مئة ألف يهُوديّ بين 1920 ـ 1930 ، أمَّا بين عامَيْ 1930 ـ 1940 ، فقد تدفَّقت الهجرة إلى فلسطين حتَّى وَصَلَتْ إلى أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، غالبيَّتهم من ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى . وبذلك أصبح عدد اليهُود في فلسطين حوالي نصف مليون .

الفصل الخامس:

سُقُوط فلسطين

لقد عالج العديد من مُفكِّري العَرَب معنى سُقُوط فلسطين، وهزيمة العَرَب فيها، واستخلصوا من ذلك العبَر والدُّرُوس، وخير مَنْ كَتَبَ حول مأساة فلسطين الأُستاذ وليد الخالدي؛ وهُو من أشهر الباحثين في القضيَّة الفلسطينيَّة، وله نشرة حول سُقُوط فلسطين، ومأساتها، والظُّرُوف التي أدَّت إليها، أصدرها مكتب مُنظَّمة التّحرير في دمشق بعُنوان "سُقُوط فلسطين"، وهي من أفضل ما كُتب حول هذا الموضوع، وتتحدَّث عن الفترة الزّمنيَّة التي سبقت 15 أيَّار 1948، وعلى الفترة التي تَلَتْهَا مُباشرة، وهي الفترة التي تهمُّنا في هذا المجال، نقتطف منها ما يلي[1]؛ يقول الأُستاذ الخالدي: يُمكننا تقسيم سُقُوط فلسطين إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأُولى: وتبدأ عقب الحرب العالميَّة الثّانية **1945**، وتنتهي بقرار التّقسيم في **29** تشرين الثّاني **1947**، **(انظر المُصوَّر رَقْم 16 ص 609، فيه تقسيم 1947).**

المرحلة الثّانية: وتبدأ بقرار التّقسيم، وتنتهي بإعلان الدّولة اليهُوديَّة في **15** أيَّار **1948**.

المرحلة الثّالثة: وتبدأ بـ **15** أيَّار، وتنتهي باتِّفاقيَّات الهُدنة في أوائل عام **1949**.

المرحلة الأُولى:

وهي التي ابتدأت عقب الحرب العالميَّة الثّانية، وانتهت بقرار التّقسيم:

---

(1) سيكون مصدرنا الأوّل في الحديث عن سُقُوط فلسطين هُو ما كَتَبَهُ الأُستاذ وليد الخالدي، مع مصادر أُخرى تحدَّثت عن تاريخ العَرَب المُعاصر (سنذكرها في حينها)، ثُمَّ مُشاهداتي ومُلاحَظَاتي الشّخصيَّة عن سَيْر أحداث مأساة فلسطين.

قرَّر الصّهيُونيُّون عند انتهاء الحرب العالميَّة الثّانية حَسْمَ مُستقبل فلسطين بأسرع وقت مُمكن، وكان هذا القرار هُو المُسيِّر الحقيقي لمجرى الأحداث خلال هذه المرحلة.

دَخَلَ العَرَب هذه المعركة في الوقت الذي اختاره العدوُّ. والعدوُّ لم يختر هذا الوقت بالذّات إلاَّ لملاءمته لأغراضه، فلقد كانت الأوضاع جميعها: الدّوليَّة والإقليميَّة والمحلّيَّة في مصلحته.

أمَّا دوليّاً؛ فالأوضاع المُلائمة هي:

1: انتقال مركز الثّقل العالمي بعد الحرب العالميَّة الثّانية إلى أمريكا؛ حيثُ يُوجد - أيضاً - مركز الثّقل الصّهيُونيّ (حيثُ يعيش فيها حوالي نصف يهُود العالم).

2: العطف العالمي على اليهُود نتيجة الفظائع النّازيَّة ضدَّ اليهُود (والتي ضَخَّمَتْها الصّهيُونيَّة كثيراً؛ لاستدرار عطف العالم).

3: ابتعاد الحرب الباردة عن الشّرق العَرَبيّ، وعدم تخويف أمريكا من هذه النّاحية.

4: قلَّة نسبة الآسيويِّيْن والأفريقيِّيْن في هيئة الأُمم المُتَّحدة.

5: توتُّر العلاقات بين رُوسيا (الاتّحاد السُّوفياتي) وبين الدُّول العَرَبيَّة، وبين الدُّول العَرَبيَّة وفرنسا[1].

6: لم يكن للعَرَب وزن دولي يُحسَب حسابه، فمُعظم أقطارهم لا تزال خاضعة للاستعمار والنُّفُوذ الأجنبي؛ وهي تُناضل للحُرِّيَّة والاستقلال التَّامّ.

أمَّا إقليميّاً؛

1: الجامعة العَرَبيَّة حديثة العهد، وهيئاتها التّنفيذيَّة قليلة الخبرة.

2: الجُيُوش العَرَبيَّة - وخُصُوصاً جيشا مصر والعراق - قليلة العدد والعُدَّة؛ بسبب خلاف مصر والعراق مع بريطانيا، التي كانت تقف ضدَّ تقوية جيشَيْهما عدداً وعُدَّة.

---

(1) توتُّر العلاقات مع رُوسيا بسبب انحياز العَرَب للغرب، وخوفهم من الشُّيُوعيَّة، وتوتُّر العلاقات مع فرنسا بسبب موقفها من الحَرَكَات الاستقلاليَّة في البلاد العَرَبيَّة الخاضعة لها (سُوريَّة ولُبنان والمغرب العَرَبي).

3: الوَضْع الدّاخلي في كُلٍّ من مصر والعراق مُضطرب قلق، كما أنَّ العلاقات بين هاتَيْن الدّولتَيْن وبريطانيا على أشدّ ما يكون من التَّوتُّر.

4: كان الخلاف بين شرق الأُردُن وكُلٍّ من سُوريَّة والسُّعُوديَّة على أشدِّه حول مشروع سُوريَّة الكُبرى، الذي نادى به الملك عبد الله ملك شرق الأُردُن، وكذلك الخلاف بين العراق وكُلٍّ من سُوريَّة والسُّعُوديَّة كان على أشدّه حول مشروع الهلال الخصيب، الذي نادت به العراق (وكلا المشروعَيْن كانت تدعمهما بريطانيا؛ لوَضْع سُوريَّة تحت نُفُوذها) بعد خُرُوج فرنسا منها.

أمّا محليّاً؛

كانت الأوضاع في فلسطين مُلائمة للأسباب التّالية:

1: ضعف حُكُومة العُمَّال البريطانيَّة تجاه الإرهاب اليهُودي.

2: وُجُود تشكيلات عسكريَّة يهُوديَّة ضخمة تدرَّب أكثرها على أيدي البريطانيِّيْن أثناء الحرب العالميَّة (أشرنا إليها سابقاً).

3: ارتفاع الرُّوح المعنويَّة اليهُوديَّة نتيجة نجاح أعمالهم الإرهابيَّة ضدّ البريطانيِّيْن في فلسطين، وكَسْب أمريكا إلى صفِّهم.

4: فُقدان التّنظيم السِّياسي والعسكري عند عَرَب فلسطين نتيجة سياسة القمع التي استمرَّت بريطانيا في اتِّباعها مُنذُ انتهاء الثّورة العَرَبيَّة الفلسطينيَّة الكُبرى سنة 1939.

كُلُّ هذه الأوضاع الدّوليَّة والإقليميَّة والمحلِّيَّة كانت تُشجِّع اليهُود على السّعي حثيثاً لحَسْم مُستقبل البلاد لمصلحتهم، مُستغلِّين سلاحَيْن أساسيَّيْن هُما:

أ: الضّغط المُباشر على بريطانيا والعَرَب بواسطة الإرهاب.

ب: الضّغط غير المُباشر على أمريكا بواسطة قُوَّتهم الانتخابيَّة والدّعائيَّة فيها.

الموقف العَرَبيُّ العامُّ:

والآن؛ بماذا قابل العَرَبُ كُلَّ هذا؟

اجتمع العَرَب في بلودان (في سُوريَّة) في حُزيران **1946**، (وكانت الجامعة العَرَبيَّة قد أُنشئت عام **1945**)، وقرَّروا مُفاوضة بريطانيا حول مُستقبل فلسطين، واتَّخذوا قرارات سرِّيَّة، هدَّدوا بتطبيقها في حال عدم إنصاف العَرَب، وأهمُّ هذه القرارات:

أ: عدم إعطاء بريطانيا وأمريكا امتيازات اقتصاديَّة جديدة (وخاصَّة في مجال استثمار البترول).

ب: إلغاء الامتيازات الممنوحة لهما سابقاً (خاصَّة امتيازات التّنقيب عن البترول واستثماره).

أمَّا القرارات العَلَنيَّة؛ فكان أهمّها:

أ: رَفْضُ تقسيم فلسطين.

ب: إنشاءُ مكاتب مُقاطعة (إسرائيل).

ج: طَلَبُ المُفاوضة مع إنكلترا لحَلِّ قضيَّة فلسطين.

تفاوض العَرَب مع بريطانيا، واستمرَّت المُفاوضات حتَّى غاية كانون الثّاني **1947**، عندما انقطعت انقطاعاً تامّاً، وقد رَفَضَ العَرَب - في أثناء هذه المُفاوضات - ما يُعرَف بمشروع "مُوريسون"[1]، وكانوا على حقٍّ في ذلك؛ لنزعته التّقسيميَّة.

---

(1) مشروع مُوريسون نائب رئيس وزارة العمل البريطانيَّة يقضي بتقسيم فلسطين إلى أربع مناطق هي:

1: المنطقة اليهُوديَّة، وتشمل الأراضي التي حلَّ بها اليهُود حتَّى تاريخ انعقاد المُؤتمر.

2: القُدس وبيت لحم والأراضي القريبة منها.

3: النَّقَب.

4: المنطقة العَرَبيَّة، وتشمل ما تبقَّى من فلسطين.

تتمتَّع المنطقة اليهُوديَّة والمنطقة العَرَبيَّة باستقلال ذاتي، أمَّا النَّقَب؛ فتُديره حكُومة مركزيَّة تخضع لحكُومة الانتداب، وكذلك تُشرف حكُومة الانتداب على الأماكن المُقَدَّسة في القُدس وبيت لحم. وتُؤلِّف المناطقُ الأربعُ دولةً واحدةً.

كان على العَرَب (حسب رأيي الخاصّ) القبول بهذا المشروع على عيُوبه الكثيرة؛ لضعفهم الشّديد أمام اليهُود، وبذلك يكسبون بريطانية إلى صفِّهم.

وتقدَّم العَرَب بمشروع سُمِّي "المشروع العَرَبي"[1]، ولكنَّ بريطانيا رَفَضَتْهُ (لأنَّ اليهُود لن يقبلوا به، وكذلك أمريكا).

ثُمَّ رَفَضَ العَرَبُ مشروعَ "بيفن" وزير خارجيَّة بريطانيَّة، الذي كان يميل إلى تجميد الوَضْع في فلسطين، وعدم الحسم في مُستقبل البلاد.

ويرى الأُستاذ وليد الخالدي أنَّ هذا التّجميد كان في مصلحة العَرَب، وذلك لأنَّ الميزان دوليّاً وإقليميّاً ومحلّيّاً كان يميل لصالح اليهُود كما أسلفنا، وأيُّ حسم في ذلك الوقت سيكون لمصلحة اليهُود، وليس لمصلحة العَرَب، وأُضيف أنَّ التّجميد سيُعطي العَرَبَ فُرصةً لالتقاط الأنفاس، والاستعداد لمُواجهة العدوِّ الصّهيُوني.

وقد نَتَجَ عن رَفْض العَرَب لمشروع بيفن أنْ أحالت بريطانيا القضيَّة إلى هيئة الأُمم المُتَّحدة، وابتدأت الأحداث تسير بسُرعة نحو قرار التّقسيم، والحَسْم لمصلحة اليهُود، الذين كانوا يرغبون في أنْ يتمَّ التّقسيم.

أرسلت هيئةُ الأُمم لجنةَ تحقيق، كان من الواضح أنَّ أكثريَّتها تميل بإيحاء من أمريكا نحو التّقسيم[2]، كان هذا هُو الظّرف السّانح بالذّات لتطبيق قرارات بلودان، أو على الأقلّ التّهديد بها، ولكنَّ العَرَبَ - مع الأسف الشّديد - امتنعوا عن هذا وذاك.

---

(1) ينصُّ المشروع العَرَبيّ على:

1: تقوم في فلسطين دولة مُستقلَّة واحدة.

2: تأليف حكُومة برئاسة المندوب السّامي البريطانيّ، تتكوَّن من سبعة من العَرَب، وثلاثة من اليهُود.

3: عقد مُعاهدات بين حكُومة فلسطين وبريطانيا.

4: إيقاف الهجرة فوراً، وأنْ يُعاد النَّظر بشأنها من قبَل الحُكُومة المُستقلَّة.

5: ضمان الحُكُومة احترام الأماكن المُقدَّسة وحُرِّيَّة زيارتها.

مُلاحَظَة على المشروع العَرَبي: المشروع العَرَبي كان - كما هُو واضح - يُبقي الانتداب أو الإشراف البريطاني على فلسطين، وذلك ليُرضي بريطانية لدَعْم المشروع العَرَبي، ولكنَّ بريطانية رَفَضَتْ المشروعَ العَرَبيَّ لأنَّ العَرَب رَفَضُوا مشروع «مُوريسون» أو المشروع البريطاني؛ ولأنَّ بريطانيا لا تُريد الوُقُوف في وجه أمريكا واليهُود في ذلك الوقت.

(2) كانت لجنة التّحقيق مُؤلَّفة من أحد عشر عُضواً من الدُّول التّالية: السُّويد، بيرو، أُورغواي، غواتيمالا، هُولندا، أُستراليا، كَنَدَا، تشيكوسلُوفاكيا، يُوغسلافيا، الهند، إيران.

أوصت اللّجنـة بتقسيم فلسطين، وكـان قـرار لجنة التّحقيـق أعنـف صدمة مُنيت بـها القضيَّة الفلسطينيَّة، ولم يكن خافياً على أحد أنَّ أمريكا هـي المُسيِّرة الحقيقيَّـة للَّجنـة. (انظر مُصوَّر التّقسيم رَقْم 16 ص 609).

بقي أنْ يُحال تقرير اللّجنة إلى هيئة الأُمم المُتَّحدة لاتِّخـاذ قـرار عـامٍّ. ومـع ذلـك؛ فقـد كانت لم تزل أمام العَرَب فُرصة لتطبيق قرارات بلودان السِّرِّيَّة، ولجَعْـل أمريكـا تـتردَّد ـ علـى الأقلِّ ـ في تأييد التّقسيم تأييداً كُلِّيّاً في هيئة الأُمم المُتَّحدة. ولكنَّ العَرَبَ أحجموا عـن اتِّخـاذ أيَّة خُطوة لتنفيذ قرارات بلودان السِّرِّيَّة ضدَّ المصالح البريطانيَّة والأمريكيَّة.

والحقيقة أنَّ أمريكا كانت تعرف أنَّ العَرَبَ لن يتَّخذوا أيَّ قـرار ضـدَّ المصـالح الأمريكيَّـة أو البريطانيَّة في بلادهم. وكانت إهانة كُبرى للعَرَب عندما أعلنت أمريكا ـ رسمياً ـ مُوافقتـها علـى التّقسيم، وتبعتـها رُوسيا فـي تـأييد التّقسـيم[1]؛ (بسـبب مُناهضـة العَـرَب للشُّـيُوعيَّة الدّوليَّة). وهكذا أمَّن اليهُود تأييد أكبر دولتَيْن في العالم، وأصبح لهم كُـلّ الأمـل بـالحُصُول على الأكثريَّة المطلوبة في هيئة الأُمم المُتَّحدة، والحُصُول على التّأييد الدّولي.

وهكذا دَخَلْنَا المعركة مـع اليـهُود في الوقـت الـذي اختـاروه هُـم، وخُضناهـا بـدُون أنْ نسـتعمل السّـلاح الوحيـد الـذي كـان بأيدينـا، وهُـو تـهديد المصـالح الأمريكيَّـة والبريطانيَّـة، وَدَخَلْنَاهَا عُزَّلاً من السّلاح. فكيـف لا نفشـل؟! وفعـلاً؛ فشـلنا، ونـال اليـهُود ـ بضغـط مـن أمريكا ـ 33 صوتاً مُقابل 14 صوتاً نالها العَرَبُ.

المرحلة الثّانية:

ابتدأت بقرار التّقسيم، وكانت المعركة معركة تنفيذ قرار التّقسيم بالنّسبة لليـهُود، ومنـع هذا التّقسيم بالنّسبة للعَرَب.

كـان قـرار التّقسـيم نصـراً عظيمـاً أحرزتْـهُ الصّهيُونيَّـة يُمـاثل النّصـر الدِّبلُوماسـي الـذي أحرزتْهُ عندما دَمَجَتْ وعد بلفور بصكِّ الانتداب. وكـان هـذا القـرار فَشَـلاً ذريعـاً لنـا؛ أدبيّـاً وعمليّاً؛ من حيثُ أنَّه جعَلَنا عُرضة للعقُوبات الدّوليَّة في حالة مُقاومتنا له.

---

(1) وافقت الجمعيَّةُ العُمُوميَّة للأُمم المُتَّحدة على مشروع التّقسيم بأكثريَّة 33 دولة ضدَّ 14 دولة، وامتناع عشر دُول عن التّصويت، وغياب دولة واحدة، وَوَقَفَتْ بريطانيا على الحياد، وأعلنت أنَّها ستسحب قُوَّاتها من فلسطين في 14/ 5/ 1948.

ولكنْ؛ بالرّغم من أهميَّة هذا النّصر للصّهيُونيَّة لم يزل عليها تنفيذ الفكْرة وتطبيقها. أعلنت بريطانيا أنَّها لن تتخلَّى عن الانتداب قبل 15 أيَّار 1948، كما أعلنت أنَّها لن تُساعد على تطبيق التّقسيم. صَدَقَتْ بريطانيا في وعدها الأوَّل، ولكنَّها أخلفت في إعلانها الثّاني، وهُو قولها إنَّها لن تُطبِّق التّقسيم، فقد عملت ـ بكُلِّ قواها ـ لتطبيق التّقسيم.

على كُلِّ حال؛ لم يكن باستطاعة الصّهيُونيَّة من ناحية ما يُسمُّونه بالقانون الدّولي أنْ تُعلن دولتها إلاَّ في 15 أيَّار 1948، أو بعده. وهكذا كان هُناك فترة خمسة أشهر ونصف بين إعلان التّقسيم وإمكانيَّة قيام دولة يهُوديَّة، فماذا فَعَلَ العَرَبُ خلال هذه الفترة؟

كان السّلاح الاقتصادي الذي أُقرَّ في مُؤتمر بلودان أقلّ أثراً في هذه المرحلة من المرحلة الأُولى السّابقة؛ حيثُ تطوَّرت الأُمُور في فلسطين نحو حرب أهليَّة؛ حيثُ القول الفصل فيها للسّيف.

ولكنْ؛ مع هذا؛ كانت هذه الفترة بمثابة فُرصة ثانية أُعطيت للعَرَب لتنفيذ مُقرَّرات بلودان، والتي أكّدوا أنَّها مازالت نافذة المفعول مُنذُ برهة وجيزة في مُؤتمرات لاحقة[1].

امتنعت سُوريَّة عن تصديق اتِّفاقيَّة المُرُور (مُرُور أنابيب التّابلاين في أراضيها) في مجلس النُّوَّاب، وكذلك فَعَلَ لُبنان، كما قَطَعَ العراقُ البترولَ عن حَيْفَا، هذه كُلُّها خُطوات إيجابيَّة، وحبَّذا لو أنَّها وَقَعَتْ قبل قرار التّقسيم، ولكنْ؛ لم تكن كافية، فالعراق مازال يُصدِّر البترول من البصرة، والسُّعُوديَّة امتنعت عن القيام بأيِّ عمل بترولي، وَرَفَضَتْ تطبيق قرارات مُؤتمر بلودان.[2]

(1) أكَّد العَرَب في اجتماع صُوفر (في لُبنان) في 16 أيلول 1947؛ أيْ بعد مُؤتمر بلودان بأكثر من شهرَيْن (مُؤتمر بلودان في 8 حُزيران 1947) على تنفيذ مُقرَّرات مُؤتمر بلودان السِّرِّيَّة ضدَّ أمريكا وبريطانيا عند تطبيق التّقسيم.

(2) من المعروف أنَّ الأُستاذ عبد الرّحمن عزَّام أمين الجامعة العَرَبيَّة ـ آنذاك ـ طَلَبَ من الملك عبد العزيز آل سُعُود ملك المملكة العَرَبيَّة السُّعُوديَّة آنذاك (1947) تنفيذ قرارات مُؤتمر بلودان، وإلغاء الامتيازات البتروليَّة الممنوحة للشّركات الأمريكيَّة في السُّعُوديَّة، فأجابه: «إنَّنا ـ نحنُ في السُّعُوديَّة ـ لا نعرف أنَّ تحت أراضينا تمتدُّ حُقُول بترول غنيَّة، فجاءت الشّركات الأمريكيَّة، وكَشَفَتْ عن هذا البترول، ولا نعرف أنْ نستخرجه، فاستخرجتْهُ لنا، ولا نعرف كيف نُصدِّره، ونُكرِّره، فَصَدَّروه، وكَرَّروه لنا، فكيف نُلغي امتيازات هذه الشّركات؟! إنَّ هذا عمل لا يقبل به عاقل!».

يُفترض - إذاً - أنَّ العَرَبَ اعتمدوا - في مَنْع تنفيذ التّقسيم - على التّدابير العسكريَّة، فماذا كانت هذه التّدابير؟؟

نُسلِّم بأنَّ الجُيُوش العَرَبيَّة النّظاميَّة لم يكن بإمكانها دُخُول فلسطين قبل 15 أيَّار بشكل سافر؛ لأنَّ هـذا كـان معناه الاصطدام بالقُوَّات البريطانيَّة، ولكنَّ الجُيُوش العَرَبيَّة بالغت بتخوفُّها من الدُّخُول (باستثناء إرسال الوحدات غير النّظاميَّة)، في الوقت الذي حنثت فيه بريطانيا بتعهُّدها بعدم تطبيق التّقسيم عندما سَلَّمَتْ حَيْفَا وطبريَّا لليهُود، وَسَكَتَتْ، وَغَضَّتْ الطّرف عن احتلال اليهُود لصَفَد ويَافَا وعكَّا.

أمَّا وقد قرَّر العَرَبُ عدم دُخُول جُيُوشهم النّظاميَّة فلسطين قبل 15 أيَّار؛ فماذا فعلوا ليمنعوا اليهُود من تنفيذ التّقسيم، ولا سيَّما وأنَّ بريطانيا كانت تُساعد اليهُود على ذلك؟

كان الوَضْعُ العامُّ في فلسطين قبل قرار التّقسيم كما يلي: كان اليهُود - وقت التّقسيم - يحتلُّون 7٪ من رُقعة فلسطين، فأعطاهم قرار التّقسيم 55٪ منها (راجع مُصوَّر التّقسيم رَقْم 16 ص 609، تقسيم 1947،)، وكان تنفيذ التّقسيم يعني - عمليَّاً - أنْ يحتلَّ اليهُود الـ 48٪ من الأراضي الفلسطينيَّة، وكانت كُلُّها بيد العَرَب[1].

بينما كان مَنْعُ التّنفيذ يعني - عمليّاً - مُحافظة العَرَب على ما في أيديهم، أو على أكثر ما في أيديهم كخطوة أُولى على الأقلّ.

وهكذا كانت مصلحة العَرَب - إذاً - تقتضي بالدّرجة الأُولى الدّفاع، الدّفاع إلى أنْ تأتي نجدة الجُيُوش العَرَبيَّة النّظاميَّة، عن كُلِّ شبر في أيديهم، دفاع المَدَنِيِّين عن بُيُوتهم وشوارعهم بيتاً بيتاً، وشارعاً شارعاً، ودفاع القرويِّين عن قُراهم ومزارعهم قرية قرية، ومزرعة مزرعة، والدّفاع من هذا النّوع يقتضي:

أوَّلاً: الاعتماد على عَرَب فلسطين، ودَعْمهم إلى أبعد الحُدُود.

ثانياً: تسليح عَرَب فلسطين بأسْرهم على نطاق شعبي شامل.

---

(1) أيْ أنَّ قرار التّقسيم أعطى لليهُود ستَّة أضعاف ما استطاعوا امتلاكه من أرض فلسطين بمُختلف الوسائل حتَّى عام 1947، وفي هذا ردٌّ على الذين يتَّهمون عَرَب فلسطين بأنَّهم باعوا أرضهم لليهُود، وخرجوا منها.

اختلفت مواقف الدُّول العَرَبيَّة من هذَيْن المبدءين، فبعض الدُّول العَرَبيَّة رأت ضرورة الاعتماد على عَرَب فلسطين، فهُم أصحاب البلاد، والأقدر على الدِّفاع عن أرضهم، وربُّ البيت أدرى بما فيه، وأهل مكَّة أدرى بشعابها (كما يقول المثل)، ولا يكون الاعتماد عليهم إلاَّ بتسليحهم ودَعْمهم إلى أبعد الحُدُود، وأمَّا البعض الآخر؛ فقد رَفَضَ تسليح عَرَب فلسطين تحت قيادة الهيئة العَرَبيَّة العُليا، والتي كان يرأسها الحاجُّ أمين الحُسَيْني (مُفتي فلسطين السَّابق، ورئيس المجلس الإسلاميّ الأعلى)، وكان هذا الفريق يشمل الأُردُن والعراق (نظراً للخلافات بين الحاجِّ أمين الحُسَيْني والملك عبد الله ملك شرق الأُردُن آنذاك)[1].

والحقيقة كان عَرَب فلسطين بحاجة ماسَّة إلى المعونة الخارجيَّة، وخاصَّة إلى السِّلاح والذَّخيرة والتَّدريب والخُبراء، أمَّا المُتطوِّعون؛ فكان عَرَب فلسطين آخرَ ما يحتاجُون إليه.

وأخيراً؛ اتَّفق العَرَبُ على حلٍّ وسط، وهُو تأليف جيش الإنقاذ من المُتطوِّعين العَرَب، بدل تسليح عَرَب فلسطين، ولكنْ؛ ليس في قاموس الحرب ما يُسمَّى بالحلِّ الوسط (وهكذا خسر عَرَبُ فلسطين المعونةَ العَرَبيَّة بالتَّسليح والذَّخيرة).

أدَّى تأليف جيش الإنقاذ إلى استنزاف مُستودعات اللَّجنة العسكريَّة في دمشق من السِّلاح، وبذلك تعذَّر تسليح عَرَب فلسطين، وكان في ذلك ضربة قاتلة لصُمُود عَرَب فلسطين.

كان جيش الإنقاذ قُوَّة ضاربة، وتَبَنَّى نظريَّة الهُجُوم، وليس الدِّفاع، وكان المطلوب هُو الدِّفاع عن الأرض العَرَبيَّة حتَّى دُخُول الجُيُوش العَرَبيَّة في 15 أيَّار **1948**.

والأهمُّ من كُلِّ ذلك أنَّ أهمَّ وحدات جيش الإنقاذ تمركزت في المناطق العَرَبيَّة في التَّقسيم، وكان من الضَّروري أنْ تتمركز في المناطق العَرَبيَّة الدَّاخلة ضمن المنطقة اليهُوديَّة في التَّقسيم، للحيلولة دُون التَّقسيم، والمُحافظة على الوُجُود العَرَبيِّ في تلك المنطقة.

---

(1) كان الملك عبد الله يطمع في ضمِّ القسم العَرَبيّ من فلسطين في التَّقسيم، يُؤيِّده في ذلك العراق، وكانت بريطانيا تُحبِّذ ذلك. لذلك كان الملك عبد الله يُؤيِّد مشروع التَّقسيم في الخفاء، أمَّا الحاجُّ أمين الحُسَيْني زعيم فلسطين؛ فكان ضدَّ التَّقسيم، وضدَّ ضمِّ أيِّ جُزء من فلسطين للأُردُن، يُؤيِّده في ذلك بقيَّة الدُّول العَرَبيَّة. وأخيراً؛ تحقَّق للملك عبد الله ما يصبو إليه، وضمَّ بقايا فلسطين في الضِّفَّة الغربيَّة للمملكة الأُردُنيَّة. وقد اغتاله الفلسطينيُّون نتيجة سياسته هذه.

كان عَرَبُ فلسطين ـ قبل دُخُول قُوَّات الإنقاذ ـ قد شكلوا قُـوَّات الجـهاد المُقَـدَّس ، تحت قيادة الهيئة العَرَبيَّة العُليا الفلسطينيَّة . واستطاعوا ـ بمُختلف الوسائل ـ أنَّ يُسلِّحوا هذه القُوَّات تسليحاً خفيفاً (وخاصَّة من مُخلَّفات الجُيُوش المُتحاربة في ليبيا أثناء الحرب العالميَّة الثّانية) .

وكان عَرَب فلسطين يدفعون ـ بشجاعة ـ ثمن هذه الأسلحة ، وكان أشدّ ما ينقصهم هُـو الذّخيرة . وكانت هذه القُوَّات بقيادة الشّهيد عبد القادر الحُسَيْني في منطقة القُدس ، والشّـهيد حسن سلامة في المنطقة الوُسْطَى (منطقة اللّـدّ والرّملـة ويَافَا) ، وأبـو إبراهيـم الصّغير ، وأبـو محمود الغزّ في الجليل (شمال فلسطين) ، وكانت هذه القُوَّات تحت قيادة الهيئة العَرَبيَّة العُليـا ـ كما قُلنا ـ التي كانت تجد صُعُوبة بالغة في توفير السّلاح والذّخيرة لهذه القُوَّات .

كان من المفروض والمنطقي أنْ تُوضع قُوَّات جيش الإنقـاذ تحت القيادة الفلسـطينيَّة ، أو أنْ تُوضع هي والقيادة الفلسطينيَّة تحت قيادة واحدة عُليا ، أو على الأقلّ ؛ تأليف لجنة ارتبـاط تُيسِّر سُبُلَ التّعاون والتّنسيق بين قُوَّات الإنقاذ وقُـوَّات الجـهاد المُقَـدَّس ، ولكـنْ ؛ مـع الأسـف الشّديد لم يحدث شيء من هذا .

بينما وَضَعَ اليهُود تنظيماتـهم العسـكريَّة والشّبه عسـكريَّة تحـت قيـادة واحـدة ، وهكـذا أصبحت قُوَّات مُنظَّمة "الهاغاناه" ومُنظَّمـة "الأرغـون" ومُنظَّمـة "شـتيرن" تحـت قيـادة عسـكريَّة صارمة واحدة ، ثُمَّ قامت هذه القيادة العسكريَّة بتعبئة عامَّة لجميع القوى البشريَّة اليهُوديَّة في فلسطين من سنِّ الثّامنة عشر إلى سنِّ السّتِّين .

هذا ؛ وكان السّلاح مُتوفِّراً لدى اليهُود ، ولم يُعانوا أزمـة فـي نَقْص السّـلاح والذّخـيرة ـ كالفلسـطينيِّين والعَـرَب عامَّـة ـ وكـانت مصـادره مُتنوِّعـة : مـن بريطانيــا ومُعسـكراتها فــي فلسطين ، بالإضافة إلى أنَّ أسواق السّلاح في أُورُوبا كانت مفتوحة لهم .

تألَّف جيش الإنقاذ من مُتطوِّعين من الأقطار العَرَبيَّة ، وعند إنشائه تقدَّم الكثير مـن شـباب فلسطين ليتطوَّعوا فيـه ، ويُقـاتلوا تحت لوائه ، ولكـنَّ الإنكليز تدخَّلـوا ، ومنعـوا تطـوُّع شـباب فلسـطين فـي جيـش الإنقـاذ ، بحُجَّـة أنَّـهم رعايـا بريطـانيِّين ، ولا يزالـون كذلـك حتَّـى 15 أيَّـار 1948 ، موعد انتهاء الانتداب البريطانيّ على فلسطين ، ولا يجوز تسليحهم . إنَّه منطق أعـوج ،

ولكنْ؛ مع الأسف الشّديد، مرَّة أُخرى، استجاب العَرَب وقيادة جيش الإنقاذ، وَمَنَعَتْ تطوُّع الفلسطينيِّين في جيش الإنقاذ، حتَّى إنَّها سرَّحتْ مَنْ كان قد تطوَّع في هذا الجيش منهم.

وهكذا حُرِم عَرَب فلسطين من السّلاح، وحُرِموا من التَّطوُّع في جيش الإنقاذ، حتَّى وحُرِموا من التَّدرُّب، أو تزويدهم بالمُدرِّبين والخُبراء، والأهمُّ من كُلِّ ذلك؛ حُرِموا من قيادة واحدة تضمُّ جميع القوى المُقاتلة في فلسطين. ومع كُلِّ هذا؛ صَمَدَ عَرَبُ فلسطين - كما سنرى بعد قليل - بإمكاناتهم الخاصَّة، ودفاعهم المُستميت.

وعلى كُلِّ حال؛ لا أُريد - هُنا - أنَّ يُساء فَهْمي، فإنَّني أنحني احتراماً لشُهداء جيش الإنقاذ، وللبسالة التي أظهرها أفراده؛ خُصُوصاً في معارك الجليل (شمال فلسطين)[1]، ومن قبل في معارك مشمار هاعميك[2] وزرعين ونورس[3] (في شرق مرج ابن عامر وجنوبه). ولكنَّني أنتقد هُنا فكْرة إنشاء جيش الإنقاذ وأنتقد بعض تصرفات قيادته العُليا.

---

(1) كان القائد العامُّ لقُوَّات الإنقاذ فوزي القاوقجي، وقد تمركزت مُعظم قُوَّات الإنقاذ في أواسط فلسطين، وخاصَّة على الأطراف الجنوبيَّة لمرج ابن عامر من الكرمل غرباً وحتَّى نهر الأُردُن شرقاً. حاولت هذه القُوَّات احتلال مُستعمرة مشمار هاعميك (حارسة المرج، وتقع على مدخل مرج ابن عامر الغربي)، لكنَّها فشلت، وتكبَّدت خسائر فادحة بالرِّجال والعتاد، وكان عليها أنْ تتَّخذ موقفاً دفاعياً لعدم تمكين اليهُود من تطبيق التّقسيم، واحتلال الأراضي العَرَبيَّة الدّاخليَّة ضمن القسم اليهُوديّ في التّقسيم، ولكنْ؛ كان الخطأ الأكبر هُو انسحاب قُوَّات الإنقاذ من أواسط فلسطين، والانتقال إلى منطقة الجليل شمال فلسطين، دُون أنْ تتأمَّن الحماية للقُرى العَرَبيَّة، التي كانت تتمركز فيها هذه القُوَّات، ممَّا أدَّى إلى مُسارعة اليهُود لاحتلال جميع القُرى العَرَبيَّة جنوب مرج ابن عامر، وفي السّهل السّاحلي والقُرى المُحاذية لهذا السّهل من الشّرق، وطَرْد سُكَّانها العَرَب منها.

(2) لقد عرفتُ في أوائل شهر نيسان عام 1948، وأنا في فلسطين، وقريباً من معركة مشمار هاعميك، أنَّ الملك عبد الله قد أنقذ فوزي القاوقجي وجيش الإنقاذ بعد حصار اليهُود له في معركة مشمار هاعميك، بواسطة بعض قُوَّات الجيش الأُردُني المُتمركزة في ميناء حَيْفَا آنذاك لحمايته، وانسحبت قُوَّات الإنقاذ من مشمار هاعميك، بعد أنْ خسرت الكثير من الرِّجال، وأفضل العتاد. قابلَ فوزي القاوقجي الملكَ عبد الله؛ ليشكره على مُساعدته وإنقاذه، وعندما مَنَحَهُ الملكُ عبد الله لقب باشا، وأصبح اسمه فوزي باشا القاوقجي، طَلَبَ منه الانسحابَ من أواسط فلسطين، فانسحب إلى شمال فلسطين (لواء الجليل) دُون أنْ يُؤمِّن الحماية للقُرى والمناطق التي كان جيش الإنقاذ مُتمركزاً فيها؛ ممَّا سهَّل على القُوَّات اليهُوديَّة الاستيلاء عليها بسُهُولة (كما أسلفنا في الحاشية السّابقة).

(3) شاهدتُ معركة زرعين ونورس بنفسي في 6 شُباط 1948، وكُنتُ مُعلِّماً في قرية قومية المُجاورة لهما، وقد حاول اليهُود احتلال القريتَيْن، وكانت فيهما قُوَّات جيش الإنقاذ بقيادة العقيد مُحَمَّد صفا (من سُوريَّة) التي استبسلت مع سُكَّان القريتَيْن بالدّفاع عنهما، وفشل اليهُود باحتلالهما، وتكبَّدوا خسائر كبيرة، وبذلك تتأكَّد فكْرة الدّفاع عن القُرى العَرَبيَّة؛ لأنَّ إمكانيَّات الهُجُوم ضعيفة.

وبالرّغم من كُلّ هذا صمد عَرَب فلسطين، صمدوا طوال أربعة أشهر أمام هجمات عنيفة من اليهُود خلال كانون الأوَّل من سنة 1947 وكانون الثّاني وشباط وآذار من سنة 1948، صمدوا بالرّغم من تحيّز بريطانيا لليهُود وبالرّغم من ضآلة المُساعدة من الدُّول العَرَبيَّة وضعف تسليحهم، وكان لصمود عَرَب فلسطين الأثر الأكبر على موقف أمريكا، بل كان صمودهم أوَّل تطوُّر إيجابي لمصلحة العَرَب مُنذُ سنة 1946 وكان يُبشّر بتغيير سير الحوادث ودفعها نحو شاطئ الخلاص.

لقد بنت أمريكا تأييدها للتّقسيم كما يقول "كرميت روزفلت" على افتراضين: إنَّه لن يكون هُناك مُقاومة عَرَبيَّة وسيُنفِّذ اليهُود قرار التّقسيم بسُهُولة، ولكنْ؛ ها قد مرّ على التّقسيم حوالي أربعة أشهر، والعَرَب مازالوا صامدين ومُتمسّكين بما في أيديهم، يُدافعون عنه بكُلِّ ما أُوتُوا من قُوَّة.

ابتدأ تراجع أمريكا في الثّاني من آذار، عندما أعلنت أنَّها لا تميل إلى تطبيق التّقسيم بالقُوَّة والعُنف. وفي الثّامن من آذار؛ أعلنت أنَّ الأقسام غير العمليَّة من مشروع التّقسيم يُمكن حَذْفها. وفي التّاسع عشر من آذار؛ أعلنت عن تخلِّيها عن التّقسيم، وفي 25 آذار؛ أعلن ترُومان رئيس أمريكا نفسه تأييده للوصاية الدّوليَّة على فلسطين كحَلٍّ مُؤقَّت.. وإنِّي أقول لإخواني العَرَب: عندما تذكرون انهيار عَرَب فلسطين اذكروا لهم صُمُودهم وبُطُولاتهم الخارقة إنصافاً لمُجاهديهم ولشُهدائهم، ولا تتَّهموهم بالتّقاعس عن الدّفاع عن بلادهم؛ لأنَّكم ـ بذلك ـ تظلمونهم، وتُؤذوا شُهداءهم الأبرار.

ولكنْ؛ لكُلِّ طاقة بشريَّة حدٌّ، فلم يأت آخر آذار إلاَّ وقد وَصَلَ عَرَبُ فلسطين إلى آخر رمق من المُقاومة[1].

---

(1) وممّا زاد الأمر سُوءاً انسحاب جيش الإنقاذ المُفاجئ من مراكزه في أواسط فلسطين إلى الجليل في شمال فلسطين، ممّا أدّى إلى انهيار المُقاومة في عشرات القُرى العَرَبيَّة، التي كان لوُجُود جيش الإنقاذ دور هامٌّ في صُمُودها. مع أنَّ منطقة الجليل لم تكن في حاجة ماسَّة لقُوَّات الإنقاذ، ولا أدري لماذا كان هذا الانسحاب، ويُقال إنَّ الملك عبد الله هُو الذي طَلَبَ سَحْبَ قُوَّات الإنقاذ من وسط فلسطين إلى شمالها.

كان عَرَبُ فلسطين بحاجة ماسَّة للذّخيرة والسّلاح، وكان على العَرَب أنْ يُقدِّموا كُلَّ ما يستطيعون من عون، وخاصَّة من السّلاح والذّخيرة؛ ليتمكَّن عَرَبُ فلسطين من الصُّمُود أمام التَّيَّار الجارف من القوى اليهُوديَّة، ويُحافظوا على مراكزهم.

ولكنْ؛ هل كان الزُّعماء العَرَب يُدركون خُطُورة الموقف؟ هل كانوا يُدركون أنَّ الذي في الميزان في تلك الأيَّام بالذّات هُو سُقُوط فلسطين، أو بقائها؟

الحقيقة أنَّ العَرَب لم يكونوا يُدركون خُطُورة الموقف، ولم يكونوا يُقدِّرون أهمِّيَّة تلك الأيَّام الحاسمة في بقاء فلسطين أو ذهابها، أو أنَّ بعضهم كان يُدرك، ولكنَّه لا يقدر على المُساعدة.

في ذلك الوقت العصيب، والعَرَب في تخبُّطهم، وتشتُّت مواقفهم، وتضارب آرائهم، واختلاف أهدافهم، كان وايزمن يسعى لمُقابلة ترُومان (رئيس أمريكا)، وكان ترُومان يتمنَّع عن مُقابلة وايزمن؛ لشُعُوره بأنَّ الصّهيُونيِّيْن قد خدعوه؛ عندما أكَّدوا له سُهُولة تنفيذ التّقسيم. وأخيراً؛ تمكَّن وايزمن من مُقابلة ترُومان. لا نعرف ماذا جرى في هذه المُقابلة، ولكنَّ المُعتقد أنَّ وايزمن تعهَّد لترُومان بعمل شيء ما، وأنَّ ترُومان تعهَّد لوايزمن بعمل شيء ما مُقابل ذلك.

وفي ظنِّي؛ وحسب مُجريات الأحداث فيما بعد، أنَّ وايزمن تعهَّد لترُومان بحَسْم الموقف لصالح اليهُود، وبسُرعة، وأنَّ ترُومان تعهَّد باستمرار تأييده للتّقسيم. ومُذكّرات وايزمن تُؤيِّد ذلك، فهُو يقول في مُذكّراته على إثر مُقابلته لترُومان: «كان أملنا الوحيد أنْ نخلق الحقائق، وأنْ نُواجه العالم بهذه الحقائق، ثُمَّ نبني على أساسها»، ويقول في موضع آخر: «إنَّ غايتنا ـ الآن ـ هي تبديد هذه الأُسطُورة عن القُوَّة العَرَبيَّة».

الأيَّام الحاسمة:

ننتقل ـ الآن ـ إلى أرض فلسطين: إنَّ مُؤرِّخ المُستقبل سيُشير بإصبعه إلى الأيَّام القليلة القادمة من شهر نيسان 1948، ويقول: إنَّ فلسطين سَقَطَتْ ـ عمليّاً ـ بين 6 ـ 11 نيسان.

كانت أعظم ورقة رابحة بيد العَرَب في ذلك الوقت هي حصار يهُود القُدس ؛ حيثُ كانت أحياء القُدس اليهُوديَّة تضمُّ حوالي مائة ألف يهُوديّ (100 ألف) . استطاع عبد القادر الحُسَيْني[1] قائد قُوَّات الجهاد المُقَدَّس أنْ يُضيِّق الحصار عليها ، وأصبح مصير مائة ألف يهُوديّ بيده . وكان عبد القادر الحُسَيْني يُقدِّر الموقف العسكري حقَّ قدره ، ويعرف حاجته الماسَّة للمُساعدة السّريعة للسّلاح والذّخيرة ، وانهالت برقيَّاته وَطَلَبَاته على اللّجنة العسكريَّة بدمشق للإسراع في إرسال السّلاح والذّخيرة له ، ولكنَّ مخازن السّلاح والذّخيرة في دمشق قد استنزفتْهَا قُوَّات الإنقاذ ، وأصبح من الصّعب تأمين طَلَبَات الحُسَيْني .

في هذه الظُّرُوف ؛ دارت معركة القُدس ، معركة المائة ألف يهُوديّ على تلال قرية القسطل المُشرفة على الطّريق التي تصل تلّ أبيب بالقُدس .

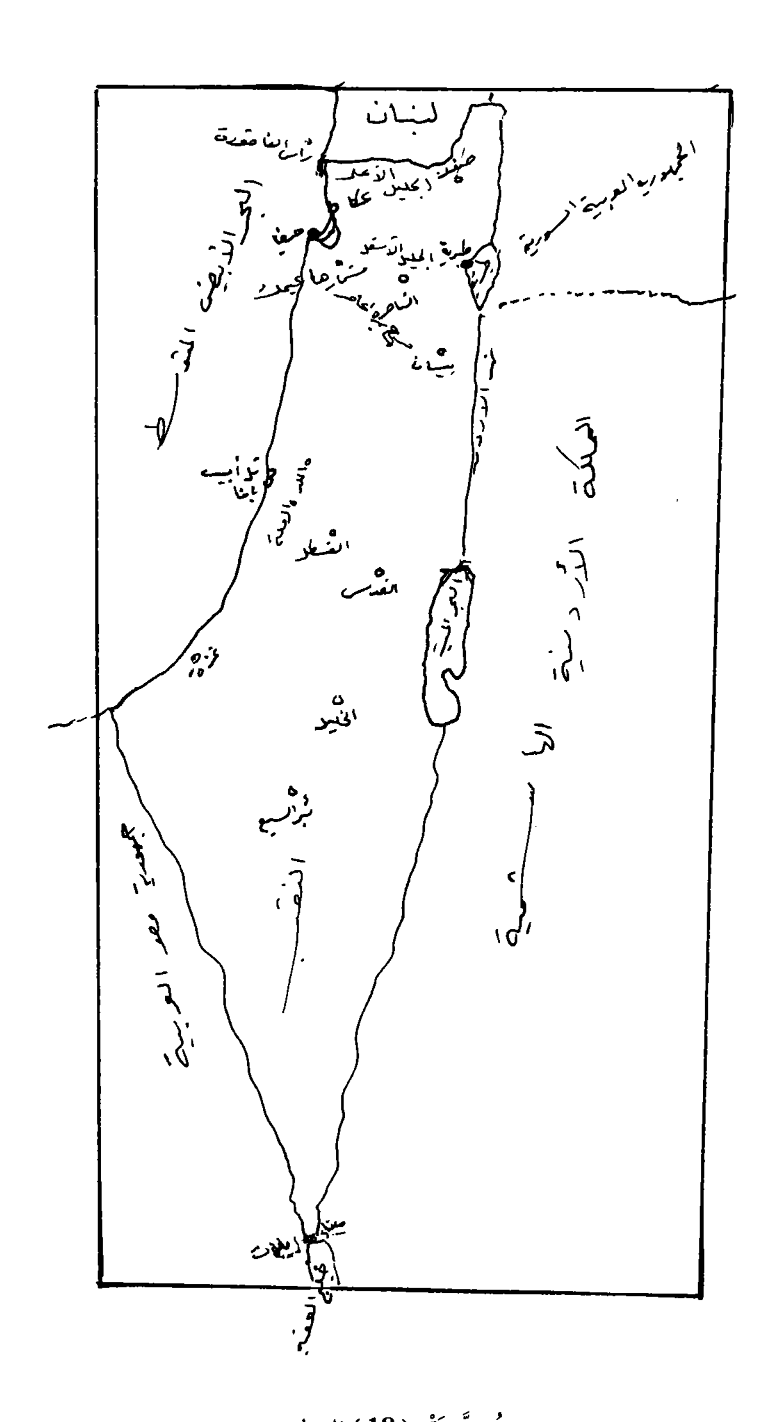
قَذَفَتْ الهاجاناه بقُوَّات هائلة ضدَّ عبد القادر الحُسَيْني في 7 نيسان ، وفي الوقت نفسه ؛ كانت قُوَّات الأرغون تتَّجه إلى دير ياسين (القرية العَرَبيَّة قرب القُدس) ، لتقوم بمذبحتها الشّهيرة ضدَّ سكَّان دير ياسين .

في هذه الأيَّام الحرجة والظُّرُوف الصّعبة ؛ أين كانت قُوَّات جيش الإنقاذ؟ وماذا كانت تفعل؟

في نفس الوقت الذي كانت معركة القسطل (المُصوَّر المُرفق رَقْم 18) على أشدّها كانت قُوَّات الإنقاذ تُهاجم وتُحاصر مُستعمرة مشمار هاعيمك (حارسة المرج) ، وتقع على مدخل مرج ابن عامر الغربيّ على الطّريق العامِّ بين حَيْفَا والمرج . وكانت قيادة جيش الإنقاذ تُلقي في هذا الحصار بخيرة قُوَّاتها البالغة حوالي ستَّة آلاف مُتطوِّع ، وتستخدم أفضل أسلحتها .

---

(1) عبد القادر الحُسَيْني "أبو مُوسى" هُو ابن مُوسى كاظم باشا الحُسَيْني زعيم القُدس ، وقد ترأس أوّل اجتماع عام 1920 ، ضدَّ وعد بلفور والانتداب البريطاني . وعبد القادر الحُسَيْني من خرِّيجي جامعة القاهرة ، اشترك في ثورة 1936 ، وَحَكَمَتْ عليه بريطانيا بالإعدام ، وبقي خارج فلسطين حتَّى بعد الحرب العالميَّة الثّانية ؛ حيثُ عاد ليقود قُوَّات الجهاد المُقَدَّس ، وهُو قريب الحاجّ أمين الحُسَيْني رئيس الهيئة العَرَبيَّة العُليا في فلسطين .



مُصورَّ رَقْم (18) فلسطين

بيان معركة القسطل ومعركة مشمارها عميك

كان المفروض أنْ تقوم قيادة جيش الإنقاذ بنجدة عبد القادر الحُسَيْني عند القسطل ليبقى الحصار مفروضاً على المائة ألف يهُودي في القُدس، وتتمكَّن قُوَّات الجهاد المُقَدَّس بقيادة الحُسَيْني من الصُّمُود أمام قُوَّات الهاجاناه الهائلة، التي قَذَفَتْ بها القيادة اليهُوديَّة، ولكنْ؛ مع الأسف الشّديد؛ لم يحدث شيء من هذا.

والآن؛ ماذا حَدَث بين 6 ـ 11 نيسان 1948؟

كانت قيادة جيش الإنقاذ تُحاصر مشمار هاعيمك بـرُوح أيُّوبيَّة (نسبة إلى صلاح الدِّين الأيُّوبي)، سمحة كأسمح ما تكون عليه الفرُوسيَّة العَرَبيَّة الأصيلة!؛ إذْ إنَّه ـ بعد القصف الأوَّل للمُستعمرة ـ ارتفعت راية بيضاء فوق المُستعمرة، وطلب المُختار فترة 24 ساعة لإرسال رسول الاستسلام، فأُعطي الـ 24 ساعة، ثُمَّ طلب المُختار 24 ساعة أُخرى، فأُعطيها، وفي هذه الـ 24 ساعة بالذّات، وبينما سَكَتَتْ مدافع الإنقاذ عن قصف مشمار هاعيمك، كان النّجدات اليهُوديَّة تُحيط بجيش الإنقاذ، وتُحاصره. وفي صبيحة 11 نيسان؛ استطاعت النّجدات اليهُوديَّة من حَيْفَا ومرج ابن عامر أنْ تُبدِّد شمل قُوَّات الإنقاذ، وتُرغمها على الانسحاب، تاركةً مئات الشُّهداء، ومُخلِّفة أسلحتها الثّقيلة.

وفي نفس الوقت؛ كانت دماء عبد القادر الحُسَيْني تسيل على صُخُور القسطل، وتسقط قرية القسطل بيد اليهُود، وتُفتح طريق القُدس في 8 نيسان، ويُفكُّ الحصار عن المائة ألف يهُودي. وفي نفس الوقت أيضاً؛ كانت قُوَّات عصابة الأرغون بقيادة مناحم بيغن (رئيس وُزراء (إسرائيل) فيما بعد) تقوم بأبشع مذبحة في التّاريخ في قرية دير ياسين (قرب القُدس)، وتُلقي بجُثث النّساء والأطفال والشُّيُوخ في آبار القرية.

لقد ذَهَبَتْ دير ياسين ضحيَّة العُدوان الغادر، وكانت مُقاومتها أُسطُورة من أساطير البُطُولة. لقد اعترف بيغن نفسه في مُذكّراته أنَّ قُوَّات الأرغون المُهاجمة تكبَّدت خسائر بلغت 40٪ من رجاله، واضطرت الأرغون أنْ تطلب المعونة والنّجدة من الهاجاناه؛ للإجهاز على حُماة دير ياسين الأبطال.

لقد كانت دير ياسين مثلاً من أمثلة الحرب النَّفْسيَّة التي شنَّها اليهُود ضدَّ العَرَب في فلسطين، لقد كانت الوحشيَّة والقسوة التي قام بها اليهُود في دير ياسين وما ارتكبوه فيها من

فظائع وفي غيرها من القرى العَرَبيَّة أمثال: ناصر الدِّين وحواسة وبلد الشّيخ، كان مُخطَّطاً لها، ومقصودة لنَشْر الرُّعب والذُّعر، وبثِّ الخوف بين العَرَب؛ ليفرُّوا من قُراهم؛ خوفاً من بطش اليهُود ووحشيَّتهم.

ثُمَّ قام الإعلام العَرَبيّ في ذلك الوقت بتضخيم وحشيَّة اليهُود في دير ياسين وغيرها من المُدُن، ممَّا زاد عَرَب فلسطين ذُعراً وخوفاً. وكان الإعلام العَرَبيّ يقصد من وراء ذلك إظهار اليهُود بمظهر الهمجيَّة والوحشيَّة أمام الرّأي العامِّ الغربي، ولكنَّ هذا لم يُجْد شيئاً عند الغرب المُتواطئ - أصلاً - مع اليهُود، بل كان له ردُّ فعل مُعاكس عند العَرَب، وهذا عين ما أراده اليهُود بالذّات.

والآن؛ هل كانت هذه الحقائق التي وَعَدَ بها وايزمنُ ترُومانَ؟ قد يكون ذلك، أو لا يكون، وإنَّما كانت هذه الحقائق بمثابة الضّربة القاصمة على أرض فلسطين؛ سواء كانت لقُوَّات الإنقاذ، أو لقُوَّات الجهاد المُقَدَّس. فَسَقَطَتْ طبريَّة في 19 نيسان، وحَيْفَا في 21 نيسان، ويَافَا بين 25 - 28 نيسان[1]، والقُدس الجديدة (العَرَبيَّة) في 30 نيسان، وعكَّا في 14 أيَّار، وكانت من قبل - وفي 10 آذار - قد سَقَطَتْ مدينة صَفَد.

أمَّا بالنّسبة لجيش الإنقاذ؛ فبعد فشله في حصار مشمار هاعيمك واحتلالها؛ استدعى الملكُ عبد الله فوزيَ القاوقجي قائد قُوَّات الإنقاذ الميداني (وكان يقود القُوَّات التي حاصرت مشمار هاعيمك بنفسه) وأنعم عليه بلقب باشا. وتمَّ الاتِّفاق على انسحاب جيش الإنقاذ من المنطقة التي يتمركز فيها، والمُمتدَّة من جَبَل الكرمل حتَّى الغور شرقاً، والمُشرفة على أطراف مرج ابن عامر الجنوبيَّة، والانتقال إلى منطقة الجليل في شمال فلسطين، والتّمركز فيها للدّفاع عنها.

ولا أدري ما الهدف من وراء ذلك، ومَنْ كان وراء هذا الانسحاب؟ ولكنَّ الذي أعرفه أنَّ هذا الانسحاب كان كارثة مُروِّعة للمنطقة، فقد صَمَدَتْ القُرى العَرَبيَّة في هذه المنطقة بفضل وُجُود قُوَّات الإنقاذ فيها، وتعاونها مع سُكَّان تلك القُرى تعاوناً وثيقاً، ولكنْ؛ عندما انسحبت قُوَّات الإنقاذ انهار هذا الصُّمُود؛ لعدم قُدرة مُسلَّحي تلك القُرى على الصُّمُود بأسلحتهم البسيطة وذخيرتهم المحدودة أمام القُوَّات اليهُوديَّة الجيِّدة التّسليح والتّدريب

(1) استشهد هُناك قائد قُوَّات الجهاد المُقَدَّس حسن سلامة، وهُو أيضاً من قادة ثورة 1936.

والتّنظيم، والتي انتهزت هذا الفراغ العسكري الذي حَصَلَ بعـد انسحاب قُوَّات الإنقـاذ مـن المنطقة، وسارعت إلى احتلال تلك القُرى، وطَرْد سُكَّانها منها.

إنَّني أتساءل والألم يحزُّ في نفسي: لماذا تنسحب قُوَّات الإنقاذ مـن تلـك المنطقـة الهامَّـة دُون توفُّر البديل؟! ومَنْ كان وراء هذا الانسحاب؟! ولمصلحة مَنْ؟!! مع العلم أنَّه لـم تكـن هُناك ضرورة ماسَّة لقُوَّات الإنقاذ في منطقة الجليل(1).

لقد اضطُرَّ سُكَّان عشرات القُرى التي كـانت قُوَّات الإنقـاذ تتمركـز فيـها إلـى إخلائـها والالتجاء إلى المناطق الجَبَليَّة في جنين ونابلس، وإنِّي أذكر مـن تلـك القُـرى زرعـين ونـورس والمزار التي صَمَدَتْ في وجه هجمات اليهُود المُتكـرِّرة بفعـل البسـالة والشّجاعة الرّائعـة التـي أبداهـا سُكَّان تلـك القُرى وإخوانـهم فـي قُـوَّات الإنقــاذ، وكذلــك قُـرى اليمــون وزبوبـة واللّجُون. . إلخ. وتلا ذلك انهيار المُقاومة في قُرى سُفُوح الكرمـل الجنوبيَّـة وقُـرى السّـاحل من الطِّيرة إلى الطّنطورة.

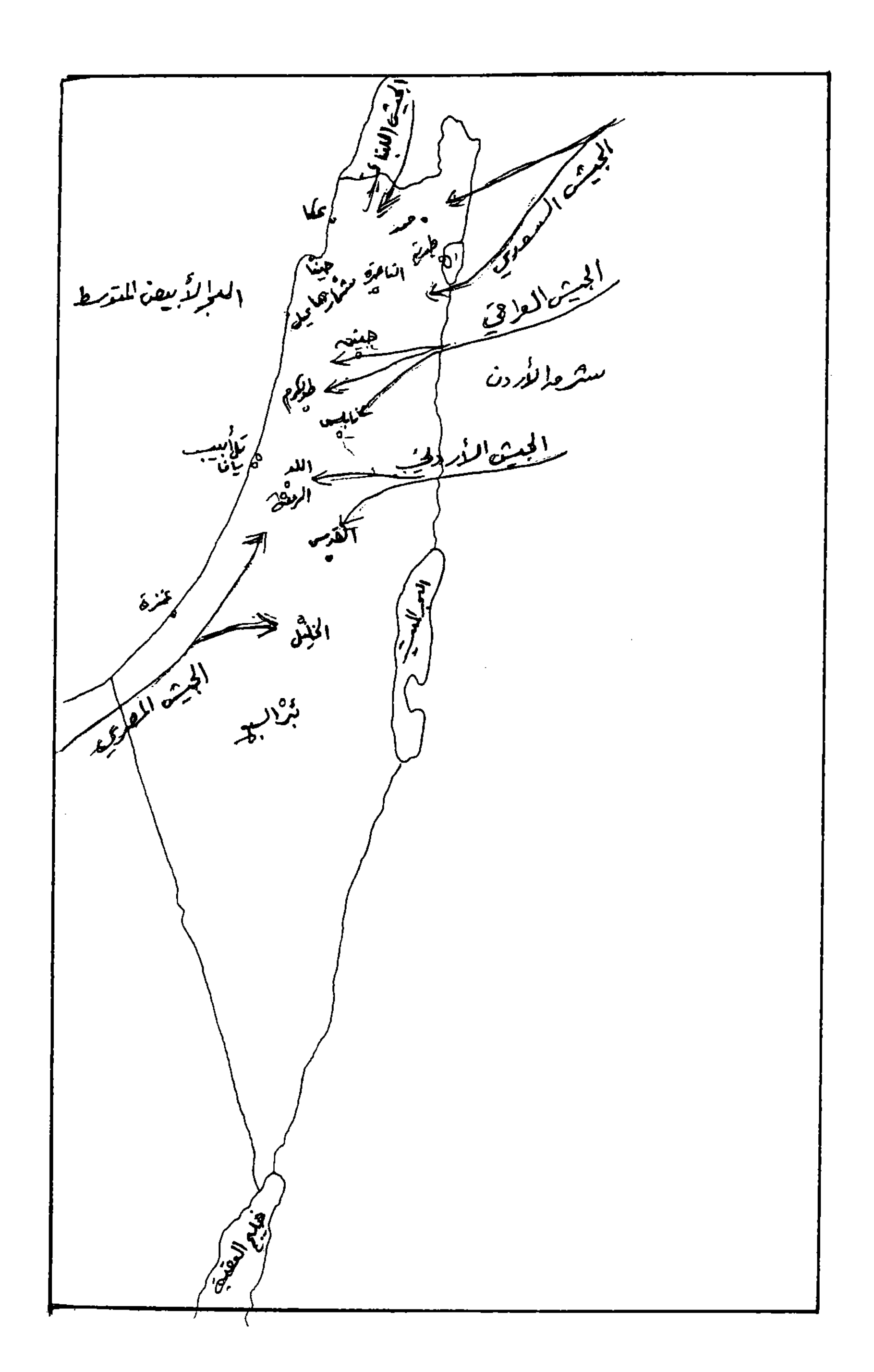
وهكذا؛ عندما جاء 15 أيَّار؛ كان اليهُود قد تمكَّنوا من تنفيـذ التّقسيم فـي أكـثر المنـاطق المُعطاة لهم، وأجلوا سُكَّانَها العَرَبَ عنها؛ باستثناء النَّقَب، هذه الحقائق التي تمكَّن اليهُود من خَلْقها خلال شهر نيسان جَعَلَت ترُومان لا يتردَّد بـالاعتراف (بإسـرائيل)، وبعـد سـبعة عشـر دقيقة من إعلانها في تلِّ أبيب.

المرحلة الثّالثة: (انظر المُصوَّر المُرفق رَقْم 19 دُخُول الجُيُوش العَرَبيَّة إلى فلسطين):

ابتدأت من **15** أيَّار **1948**، وانتهت باتِّفاقيَـات الهُدنـة أوائـل عـام **1949**. وتنقسـم هـذه المرحلة إلى فترتَيْن:

---

(1) كان الجليل في التّقسيم عَرَبي، ما عدا الأطراف الشّرقيَّة منـه مـن الحولـة شـمالاً إلـى سـمخ جنوبـاً، وقـد سـيطر اليهُود على حصَّتهم فيه، واحتلّوا مدينة صَفَد وطبريَّة مُنذُ شهر آذار، ثُمَّ مُعظم قرى الحولـة، وأجلـوا عنـها سُكَّانها العَرَب، وقد قُلنا سابقاً إنَّ على قُـوَّات الإنقـاذ أنْ تُحـافظ علـى المنـاطق العَرَبيَّـة الدّاخلـة فـي التّقسـيم ضمـن المنطقـة اليهُوديَّة، وتحميها من احتلال اليهُود لها، حتَّى لا يتمّ تنفيذ مشروع التّقسيم، وإنَّ خطأ قُـوَّات الإنقـاذ أنَّـها مارسـت عملها كقُوَّة هُجُوميَّة، وليست قُوَّة دفاعيَّة، وأنَّها لم تُنسِّق وتتعاون مـع قُـوَّات الجـهاد المُقَدَّس، وكـانت النّتيجـة أنْ فشلت قُوَّات الإنقاذ في مهمَّتها.



مُصوَّر رَقم (19)

يُبين دُخُول الجُيُوش العَرَبيَّة إلى فلسطين في 15 أيَّار 1948

الأُولى: من 15 أيّار إلى 11 حُزيران، وهُو اليوم الذي بدأت فيه الهُدنة الأُولـى، وكـان العَرَب فيها - إجمالاً - في حالة هُجُوم، واليهُود - إجمالاً - في حالة دفاع.

الثّانية: وتبدأ بانتهاء الهُدنة الأُولى في 8 تمُّوز، وتسـتمرُّ لغايـة اتِّفاقيّـات الهُدنـة، وكـان العَرَب فيها في حالة دفاع، واليهُود في حالة هُجُوم مُستمرٍّ.

يقول الأُستاذ وليد الخالدي حول هذه المرحلة (أيْ الثّالثة) ما يلـي: «هُنـاك اعتقـاد بـأنَّ الجُيُوش العَرَبيَّة كانت في الفترة الأُولـى علـى وشـك أنْ تُطبـق علـى تـلّ أبيـب، لـولا تدخُّـل مجلس الأمن في تلك اللّحظة بالذّات، ويفرض الهُدنـة علـى العَـرَب. هـذه أُسطُورة يجـبُ للأسف أنْ تُبدَّد». ويُعلِّل ذلك بقوله: «أخبرني كُلٌّ مـن الجنرال صفـوت والجنرال صـالح صائب، وقد زُرتُهُمَا في العراق؛ للاستفسار عن حقـائق الحـرب الفلسـطينيَّة، وقـد أخـبراني - كُلٌّ على حدَة - أنَّ رُؤساء أركان الجُيُوش العَرَبيَّة قرَّروا في اجتماع لهم قبل 15 أيّار أنَّ فرض حَلٍّ عسكري على (إسرائيل) بقُوَّة السّلاح كان يتطلَّب وُجُـود قُـوَّة عَرَبيَّـة تتـألَّف مـن خمـس إلى ستٍّ فرق عسكريَّة؛ أيْ حوالي خمسون ألف جُندي».

ويُتابع قوله: «ولقد تواترت لديَّ الأدلَّة على أنَّ عدد الجُيُوش العَرَبيَّة التـي دَخَلَـتْ - أو حاولت الدُّخُول إلى فلسطين فعلاً في الأسابيع الأُولى بعد 15 أيّار - كانت كما يلي:

3000 جُندي من الجيش العَرَبيّ الأُردُني.

800 جُندي سُوري.

2000 جُندي مصري.

2000 جُندي عراقي.

7800 المجموع

أيْ ما ينقص عن عشرة آلاف جُندي؛ أيْ أقلّ من خُمـس القُـوَّة التـي اشـترطها رُؤسـاء الأركان العَرَب.

(بينما كانت القُوَّات اليهُوديَّة تُقدَّر ـ بعد إعلان التّعبئة العامَّة بين اليهُود ـ بـ 80 ألـف مـن الهاغاناه، و20 ألف من مُنظَّمة الأرغون، وألفَيْن من عصابة شتيرن، والمجموع أكثر مـن مائـة ألف، وهي جيِّدة التّدريب والتّجهيز. والأهمُّ من كُلِّ ذلك؛ أنَّـها تحت قيادة واحـدة، وفـي تقدير آخر منسوب إلى الجنرال غلوب قائد الجيش الأُردُني بحوالي 65 ألف جُندي. وحسب هذا التّقدير الأخير؛ كانت القُوَّات اليهُوديَّة تبلغ عشرة أضعاف الجُيُوش العَرَبيَّـة التي دَخَلَـتْ فلسطين لتحريرها).

وحتَّى هذه الجُيُوش العَرَبيَّة الضّئيلة التـي دَخَلَـتْ إلـى فلسـطين لـم تدخـل علـى أسـاس خُطَّة مُشتركة، وأنا لا أشير ـ هُنا ـ إلى فُقدان القيادة المُوحَّدة، فهذا أمر معلـوم لـدى الجميـع، وبسيط نسبياً مع فداحته، بل أقول إنَّه لم يكن هُناك أيُّ تعاون، ولـم يكن هُنـاك أيُّ علـم، أو خبر بـين الجُيُـوش العَرَبيَّـة، حتَّـى دُخُـول الجُيُـوش العَرَبيَّـة إلـى فلسـطين بُنـي علـى اعتبـارات سياسيَّة، ولم يُبْنَ على اجتهاد، أو دراسة عسكريَّة.

والحقيقة المُـرَّة أنَّ الجُيُـوش العَرَبيَّـة التـي دَخَلَـتْ فلسـطين لـم يكـن بينـها أيُّ تنسيق، أو ارتباط، حتَّى ولا علم؛ لا من قريب، ولا من بعيد، وكأنَّها جُيُوش غريبة عـن بعضـها، ولا هَدَف مُشترك لها، دَخَلَتْ فلسطين لتحقيقه.

وكان لشرق الأُردُن ـ في ذلك الوقت ـ مركز خاصٌّ، فجيشها يقوده ضابط بريطاني هُـو جُون كلوب، ونفقاته تدفعها الحُكُومة البريطانيَّة.

وإذا ذَكَرْنَا الجيشَ السُّوريَّ الـذي قـدَّم البُطُـولات الكثيرة، كـان قليـل العـدد، محـدود الإمكانيَّات، واضطُرَّ إلـى التّوقُّـف؛ بعـد تقدُّمـه السّريع فـي بعـض المواقـع، وبعـد مُحاولتـه المُستميتة لعُبُور نهر الأُردُن؛ جنوب بُحيرة طبريَّة (عند قرية سمخ).

وإذا ذَكَرْنَا أنَّ الجيشَ المصريَّ وَصَلَ إلـى أقصـى مـا يُمكـن أنْ يصـل بإمكانيَّاتـه المحـدودة وأسلحته الفاسدة.

وإذا ذَكَرْنَا أنَّ الجيشَ العراقيَّ تمركز في نابلس وجنين وطُولكرم، ولـم تكـن لديـه أوامـر بالقتال (ماكو أوامر)؛ إلاَّ في حالة الدِّفاع عن النَّفْس.

إذا ذَكَرْنَا كُلَّ هذا ، علمنا أنَّ فَرْضَ الهُدنة من قبَل مجلس الأمن تحت طائلة العُقُوبات لم يكن ضربة قاضية على آمال حُكَّام العَرَب آنذاك ، بل نَفَساً رحمانيّاً ؛ أنقذ سُمعتهم ، ولو إلى حين ، تجاه شعُوبهم ، وتجاه العالم .

ومع كُلِّ ذلك ؛ حَصَلَ العَرَبُ على ورقتَيْن هامَّتَيْن للمُفاوضة قبل فَرْض الهُدنة الأُولى :

الأُولى:

استطاعت القُوَّاتُ الأُردُنيَّةُ السّيطرةَ - مرَّة ثانية - على طريق القُدس تلِّ أبيب باحتلال قرية القسطل ، وعاد حصار القُدس مرَّة ثانية ، ذلك الحصار الذي استشهد عبد القادر الحُسَيْني في سبيل المُحافظة عليه . وكانت هذه أهمّ ورقة للمُساومة بيد العَرَب .

الثّانية:

استطاع الجيشُ المصريُّ عَزْلَ النَّقَب بتقدُّمه في الأراضي العَرَبيَّة على السّاحل الفلسطيني ، وأصبح النَّقَب ورقة هامَّة بيد العَرَب ، فهُو - في التّقسيم - ضمن حصَّة اليهُود[1] ، (انظر المُصوَّر رَقْم 18 ص 686 لمعرفة مكان النَّقَب) .

وعند فَرْض الهُدنة الأُولى عيَّنت هيئة الأُمم المُتَّحدة الكُونت برنادوت وسيطاً دوليّاً بين العَرَب واليهُود .

أصرَّ برنادوت على تموين القُدس اليهُوديَّة ، وبذلك أضعف هذه الورقة الهامَّة ، بل نَزَعَهَا من يد العَرَب ؛ بحُجَّة العمل الإنساني . وفيما يلي نذكر المُحاورة بين الملك عبد الله وبرنادوت :

---

(1) كانت المُساومة المُمكنة - آنذاك - بفضل هاتَيْن الورقتَيْن الهامَّتَيْن هي إعادة الفلسطينين الذين طُردوا من ديارهم وأراضيهم ، والتّعويض عليهم ، والانسحاب من الأراضي المُخصَّصة للعَرَب في التّقسيم ، والتي استولى عليها اليهُود ، فالتّقسيم أصبح أمراً واقعاً ، وقد أدَّى استمرار رَفْضه مع ضعف العَرَب واختلاف أهدافهم إلى ضياع أكثر من 80٪ من فلسطين بدل 55٪ حصَّة اليهُود في التّقسيم ؛ أيْ بزيادة 25٪ من أرض فلسطين ؛ أيْ رُبع مساحة فلسطين استولى عليها اليهُود فوق حصَّتهم في التّقسيم .

الملك عبد الله: سأدعوكَ أخي، وأرجو أنْ تضعَ فيَّ الثّقة نفسها التي تضعها في أخيكَ، وأنا أعتبر آراءكَ عادلة ومُصيبة. أمَّا فيما يتعلَّق بالقُدس؛ فإنَّني لن أسمح بنُقطة ماء واحدةُ أو برطل من المُؤن من أنْ تدخل القُدس اليهُوديَّة إبَّان الهُدنة.

برنادوت: إنَّني - بكُلِّ تواضع - أشكر جلالتكَ على هذه الكلمة اللّطيفة التي وجَّهتَهَا لي شخصيّاً، ولكنِّي أرجو من جلالتكَ أنْ تفهم أنَّني - بصفتي رئيس الصّليب الأحمر الدّولي، وهي مُؤسَّسة إنسانيَّة - لا يُمكنني أنْ أتفهَّم وُجهة النَّظَر بأنَّ اليهُود الذين يموتون جُوعاً في القُدس لا يُمكن إسداء أيَّة معونة لهم. إنَّه لا يُمكنني أنْ أتقبَّل وُجهة نَظَر تختلف وما يُمليه عليّ ضميري، وأنا مُتأكِّد من أنَّ جلالتك، وأنت ملك عظيم الشّأن، لا يُمكن أنْ تنصحني بعمل شيء يتطلَّب منِّي تنفيذه أنْ أُناقض وحيَ ضميري[1].

يقول برنادوت: كان لهذه الكلمات وَقْعٌ محسوس عند الملك، فأجاب بأنَّه يقبل أنْ تصل المعونات إلى القُدس. كان هذا في الوقت الذي كان فيه عَرَب فلسطين الذين شُرِّدوا من قُراهم ومُدُنهم في أسوأ حال من الفقر والجُوع والمرض. أما كان باستطاعة الملك عبد الله أنْ يشترط عودة هؤلاء إلى قُراهم ومُدُنهم مُقابل السّماح بتموين يهُود القُدس؟؟!

وهكذا أضاع الملكُ عبد الله الورقةَ الأُولى باسم الإنسانيَّة والضّمير، كما أضاع - من قبلُ - فوزي القاوقجي قائد قُوَّات الإنقاذ فُرصته الذّهبيَّة بالاستيلاء على مُستعمرة مشمار هاعميك بإعطاء مُختارها هُدنة الـ 24 ساعة مرَّتَيْن، والتي كادت تقضي على جيش الإنقاذ.

وقبل أنْ نتقل للحديث عن الورقة الثّانية التي كانت بيد العَرَب، وبالتّحديد؛ بيد الجيش المصري، الذي استطاع - كما قُلنا - عَزْلَ النَّقَب والسّيطرة عليه، لابُدَّ من الحديث عمَّا حَدَثَ أثناء الهُدنة الأُولى، وهي هُدنة الأربعة أسابيع، والتي تبدأ من 11 حُزيران، وتنتهي في 8 تمُّوز.

الأحداث أثناء الهُدنة الأُولى:

حَدَثَ أثناء الهُدنة الأُولى أمران في غاية الأهمِّيَّة:

---

(1) ولكنْ؛ أين كان ضمير برنادوت وضمير العالم الغربيّ عندما كان اليهُود يذبحون السُّكَّان العَرَب، ويُشرِّدونهم من ديارهم، ويُلقون بهم في مهاوي البُؤس والفقر والمرض والحرمان والتّشرُّد؟

أولاً: عَقَدَتْ (إسرائيل) صفقةَ أسلحة مع تشيكُوسلُوفاكيا، موَّلها يهُود الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، إضافة إلى الأسلحة التي حصلوا عليها من الجيش البريطانيّ، الذي كان - في تلك الفترة - ينسحب من فلسطين، ويُحاول التَّخلُّص من قسم من أسلحته؛ وخاصَّة الذّخائر.

هذا؛ بالإضافة إلى شراء صفقة من الطّائرات الحربيَّة البريطانيَّة الجاثمة في المطارات العسكريَّة في فلسطين[1].

وهكذا؛ بعد انتهاء هُدنة الأربعة أسابيع؛ أصبحت (إسرائيل) مُدجَّجةً بالسّلاح، ولديها سلاح جوِّيٌّ استأجرت له طيَّارين من الطَّيَّارين الأُورُوبيِّيْن المُسرَّحين بعد الحرب العالميَّة الثّانية.

ثانياً: تقدَّم الكُونت برنادوت بمُسودة مشروع جديد لتقسيم فلسطين (يُشبه مشروع تقسيم 1937، الذي اقترحتْهُ لجنة بيل)، وهُو يُعطي (إسرائيل) شمال فلسطين، والسُّهُول السّاحليَّة، ويُعطي العَرَبَ القسمَ الدّاخليَّ مع النَّقَب، ويقترح ضمَّ القسم العَرَبيّ إلى مملكة شرق الأُردُن.

أغضبتْ اقتراحاتُ برنادوت اليهُودَ، وأدَّت إلى انقسام في الرّأي في الجامعة العَرَبيَّة حول مُؤيِّد ومُعارض[2]. أمَّا المُعارضة اليهُوديَّة؛ فكانت شديدة جداً، كلَّفت - في النّهاية - برنادوت حياتَهُ؛ حيثُ اغتالتْهُ في القُدس مُنظَّمة شتيرن الإرهابيَّة (ولم يُحرِّك الغرب ساكناً، وتصورَّ لو أنَّ الذين اغتالوه هُم العَرَب لقامت الدُّنيا، ولم تقعد، حتَّى يُؤدَّبَ العَرَبُ، وينالوا القصاص اللاَّزم).

وكان اليهُودُ مُصمِّمين على الحُصُول على النَّقَب؛ للوُصُول إلى البحر الميِّت، واستثمار البُوتاس فيه، وكذلك الوُصُول إلى خليج العقبة؛ مفتاح التّجارة مع أفريقيا وآسيا، وفي النَّقَب المجال الحيوي لاستيعاب الفائض من المُهاجرين، علماً بأنَّه يُشَكِّل حوالي نصف

(1) علمتُ وقتها أنَّها كانت 23 طائرة حربيَّة من سلاح الجوِّ البريطانيّ في فلسطين، ويدَّعي البريطانيُّون أنَّهم باعوها لليهُود بمزاد عَلَني.

(2) أيَّدتْهُ الأُردُن والعراق، وعارضتْهُ بقيَّة دُول الجامعة العَرَبيَّة؛ لأنَّه يضمُّ القسمَ العَرَبيَّ إلى مملكة شرق الأُردُن، وهذا ما كان يصبو إليه الملك عبد الله ملك الأُردُن، وأظنُّ أنَّ الكُونت برنادوت اقترح ضمَّ القسم الغربي في مشروعه للأُردُن، وبالمُقابل؛ رَفَعَ الملكُ عبدُ الله الحصارَ عن القُدس اليهُوديَّة.

مساحة فلسطين. وأهمُّ من كُلِّ ذلك؛ إنَّه الجسر البريُّ الذي يربط مشرق العَرَب بمغربهم، وفي وُقُوعه بيد اليهُود ينقطع أيُّ اتِّصال بريٍّ بين جناحَيْ الوطن العَرَبيِّ في آسيا وأفريقيا.

وهكذا أخذ اليهُود يحشدون قواهم على الخُطُوط المصريَّة استعداداً لخرق الجبهة الجنوبيَّة، واحتلال النَّقَب، وَضَرْب القُوَّات المصريَّة ضربة قاسية، تُضطرُّها إلى قبول الهُدنة، ثُمَّ لفَرْض الهُدنة على باقي الدُّول العَرَبيَّة. وَضَرَبَ اليهُود ضَرْبَتَهُم، وابتدؤوا هُجُومهم على الجبهة المصريَّة في 15 تشرين أوَّل 1948، واستمرَّ الهُجُوم لغاية 22 تشرين أوَّل؛ حيثُ تمكَّنوا من خَرْق الجبهة المصريَّة، وتطويق مُعظم الجيش المصري في الفالوجة، وهكذا أصبح قبول الهُدنة - بالنِّسبة لمصر - أمراً لا مفرَّ منه، وتمَّ وَضْع النَّقَب تحت سيطرة اليهُود حتَّى إيلات.

وكان اليهُود - بعد انتهاء الهُدنة الأُولى في 9 تمُّوز - قد قاموا باحتلال الجليل الأسفل، (انظر المُصوَّر رَقْم 18 ص 686)، في 15 تمُّوز (ويتألَّف من النَّاصرة والقُرى الواقعة شمالها وغربها وشرقها)، وانسحب جيش الإنقاذ من الجليل الأسفل إلى خُطُوط دفاع جديدة في وسط الجليل حتَّى الحُدُود اللُّبنانيَّة[1].

وفي الوقت نفسه؛ وَقَعَتْ كارثة اللّدّ والرّملة، فقد أمر الجنرالُ كلوب قائدُ الجيش الأُردُني قُوَّاته بالانسحاب من اللّدّ والرّملة فجأة، بعد أنْ جرَّد قُوَّات الجهاد المُقَدَّس المُرابطة في مطار اللّدّ ومحطَّة السّكك الحديديَّة وغيرها من المواقع الحسَّاسة في المدينتَيْن، من سلاحها بحُجَّة الهُدنة، مع الوعد بإرجاعها بمُجرَّد انتهاء الهُدنة، ولكنَّ الجنرال غلوب أخلف وعده. وبعد انتهاء الهُدنة الأُولى؛ أمر قُوَّاته بالانسحاب المُفاجئ من اللّدّ والرّملة، ونَتَجَ عن سُقُوط المدينتَيْن سُقُوط عشرات القُرى المُحيطة بهما بأيدي اليهُود، واضطُرَّ نحو رُبع مليون فلسطيني إلى النُّزُوح من سُكَّان المدينتَيْن والقُرى المُجاورة لهما، ومَنْ لجأ إليهما من أهل مدينة يَافَا وقُراها.

---

(1) تبع هذا الاحتلال طَرْد سُكَّان قُرى الجليل الأسفل، ونُزُوح حوالي 30 ألف من سُكَّان الجليل الأسفل، (ومنهم سُكَّان قريتَيْ صفُّوريَّة)، مع أنَّ الجليل الغربي هُو ضمن حصَّة العَرَب في تقسيم 1947.
أمَّا جيش الإنقاذ؛ فلم يُبدي مُقاومة فعَّالة، وانسحب إلى أواسط الجليل وشماله.

الحقيقة كان سُقُوط اللّدّ والرّملة (والأصحُّ تسليمهما لليهُود) وقُراهمـا ومَنْ لجأ إليـهما من يَافَا ومنطقتها كارثة مُرَوِّعة ؛ حيثُ قام اليهُود بطَرْد السُّكَّان من المدينتَيْن وقُراهما بـالقُوَّة، وتحت تهديد السّلاح ، ولم يُمكِّنوهم ـ في أكثر الأحيان ـ من أَخْذ بعض متاعهم .

وكانت هذه الكارثة أكبر نُزُوح جماعي حَـدَثَ لعَـرَب فلسطين بالقَسْر والقُـوَّة ؛ حيـثُ طال حوالي رُبع مليون فلسطيني (في تقرير آخر حوالي 150 ألف) .

ولم يكن انسحاب الجيش الأُردُني المُفاجئ من اللّدّ والرّملة ، وسقُوطهما ـ مـع ريفـهما ـ بيد اليهُود كارثة مُرَوِّعة لسُكَّان المدينتَيْن وريفـهما فحسـب ، بـل إنَّ هـذا الانسحاب المُفـاجئ كَشَفَ جناح الجيش المصري الأيمن ، ومكَّن اليهُود من القيام بحَرَكَة التفاف حوله ، وتطويقه ، (انظر المُصوَّر رَقْم 19 ص 690) .

وبعد الفراغ من الجبهة المصريَّة ؛ قام اليهُود باحتلال الجليـل الأعلى ، وأخرجـوا جيش الإنقاذ ـ نهائيّاً ـ من فلسطين ، وتبع ذلك نُزُوح عشرات الأُلُوف من اللاَّجئين الفلسطينيِّين مـن الجليل الأوسط والأعلى .

ولنذكـر أنْ الـهُجُوم اليـهُوديّ الـذي أدَّى إلـى تصفيـة الجيـش المصـري واحتـلال النَّقـب واحتلال اللّدّ والرّملة والجليل الأسفل ، ثُمَّ الجليل الأعلى ، كُـلُّ ذلـك جرى فـي فتـرة هُدنـة رسميَّة ، فكان نَقْضاً فاضحاً لمُقرَّرات مجلس الأمن ، ولكنَّ (إسـرائيل) تعـرف كيـف « تخلـق الحقائق ، وكيف تبني على أُسُس هذه الحقائق »[1] .

هل تسألون ـ بعد هذا ـ عن أسباب سُقُوط فلسطين؟ !

وهل تسألون ـ بعد هذا ـ عن أسباب مأساة اللاَّجئين؟ !

وأخيراً ؛ تمَّ توقيع اتِّفاقيَّات الهُدنة مع اليهُود حسب التّواريخ التّالية :

الهُدنة المصريَّة والإسرائيليَّة في 24/ 2 / 1949 .

الهُدنة اللُّبنانيَّة الإسرائيليَّة في 22/ 3 / 1949 .

الهُدنة الأُردُنيَّة الإسرائيليَّة في 3/ 4 / 1949 (تنطبق على العراق أيضاً) .

---

(1) كان المصدر الأساسي لما سَبَقَ (في سُقُوط فلسطين) الأُستاذ وليد الخالدي ، ومُشاهداتي الشّخصيَّة .

الهُدنة السُّوريَّة الإسرائيليَّة في 20/ 7/ 1949 [1].

ولكنْ؛ قد يقول قائل إنَّ هذا التّفسير لسقُوط فلسطين ومأساة اللاَّجئين هُو من وُجهة نَظَر بحَّاثة عَرَب فلسطينيِّين، لذلك؛ فإنِّي - فيما يلي - سأنقل - للقارئ الكريم - وُجهة نَظَر غير فلسطينيَّة، وغير عَرَبيَّة، وهي من إنسان كان على صلة وثيقة بالشّرق الأوسط بصُورة عامَّة، والقضيَّة الفلسطينيَّة بصُورة خاصَّة، وهُو الدُّكتُور جُون ديفز Davis John، وهُو أمريكي وُلد في ولاية مسيوري 1904، وهُو يحمل شهادتَيْ الماجستير والدُّكتُوراه من جامعة مينيسوتا، وقد كرَّس جُهُوده - كُلِّيّاً - للشّرق الأوسط، فعمل خمس سنوات في بيروت مُفوَّضاً عامَّاً لوكالة الأُمم المُتَّحدة لإغاثة وتشغيل اللاَّجئين الفلسطينيِّين، ثُمَّ عمل مع الجامعة الأمريكيَّة في بيروت، وفي سنة 1966، انتُخب نائباً تنفيذيّاً لرئيس مجلس أُمناء الجامعة الأمريكيَّة.

لقد أصدر الدُّكتُور جُون ديفز كتاباً حول النّزاع العَرَبيّ الإسرائيليّ هُو "السّلام المُراوغ"، (ترجمه إلى العَرَبيَّة الأُستاذ محمود فلاَّحة، نَشْر وتوزيع مكتبة أطلس).

وفي الفصل الرّابع من كتابه هذا، وتحت عُنوان "نزاع بلا نهاية"، يكتب عن النّزاع العَرَبيّ الإسرائيليّ من صُدُور قرار التّقسيم عام 1947 إلى 1949، حينما تمَّ إبرام عقُود الهُدنة بين الدُّول العَرَبيَّة و(إسرائيل)، (ننقله للقارئ الكريم حَرْفيّاً).

نزاع بلا نهاية:

يقول ديفز: « ما كادت أنباء قرار التّقسيم الذي اتَّخذتْهُ الجمعيَّة العامَّة للأُمم المُتَّحدة تصل إلى الشّرق الأوسط، حتَّى انفجر النّزاع المُسلَّح في فلسطين، ومن سُوريَّة ولُبنان والعراق، وحتَّى الجزيرة العَرَبيَّة، عمَّت أنباء الاضطرابات، وفي القاهرة؛ أعلن عُلماءُ الأزهر الجهادَ، ومن دمشق أصدرت الهيئة العَرَبيَّة العُليا لفلسطين أمراً بالإضراب ثلاثة أيَّام، وتحوَّلت القلاقل والاضطرابات سريعاً نحو حرب أهليَّة شاملة ضارية، وفي غُضُون ذلك؛ طلبت سُلطات الانتداب وأجهزتها؛ حيثُ هي، وهي تتلقَّى اتِّهامات الطَّرَفَيْن اللاَّذعة

(1) المصدر "السّلام المُراوغ"، جُون ديفز، ص 58.

بالتَّحيُّز. وفي وسط هذا الغليان؛ قرَّرت سُلطات الانتداب تحقيق انسحاب تدريجي للرِّجال والعتاد بأقلّ تغيير في المواعيد، أو تعرُّض للخطر.

وفي الأيَّام الأُولى من السّنة الجديدة (1948)؛ دَخَلَتْ طلائع القُوَّات غير النّظاميَّة إلى فلسطين، (ويقصد بها قُوَّات الإنقاذ)، وقد قُدِّرَ عددها في مطلع آذار 1948، بنحو خمسة آلاف مُتطوِّع من مُختلف البُلدان العَرَبيَّة.

إنَّ دُخُول هذه القوَّات (مع قُوَّات الجهاد المُقَدَّس الفلسطينيَّة) جَعَلَ العَرَب في أوائل نيسان يُسيطرون على الموقف، ولكنَّ هذه كانت فُرصة قصيرة العُمر، فالقُوَّات العَرَبيَّة في فلسطين لم تكن لديها فكْرة واضحة عن الحرب الشّاملة، وعملت على تكرار الأساليب المُتَّبعة في ثورات سابقة، فكانت كُلُّ وحدة تعمل مُستقلَّة عن الوحدات الأُخرى. وفي غُضُون ذلك؛ أخذت الأسلحة (التي دفع أثمانها الصّهيُونيُّون في أمريكا) تصل إلى اليهُود في فلسطين من تشيكُوسلُوفاكيا، على الرّغم من الحَظْر البريطاني. وفي مطلع نيسان؛ توحَّدت القُوَّات المُسلَّحة الصّهيُونيَّة بانضواء مُنظَّمة الأرغون (أرغون زفاي لئومي) الإرهابيَّة تحت جناح الهاغاناه، وعملت تحت قيادتها وقيادة الوكالة اليهُوديَّة لفلسطين، (وكذلك مُنظَّمة شتيرن الإرهابيَّة).

وفي الأسابيع التي تلت (من شهر نيسان)؛ اندفعت القُوَّات اليهُوديَّة لتهزم القُوَّات العَرَبيَّة غير النّظاميَّة في معركتَيْن حاسمتَيْن، ممَّا قَصَمَ ظَهْرَ المُقاومة العَرَبيَّة في فلسطين (يقصد بالمعركتَيْن معركة القسطل ومعركة مشمار هاعيميك اللَّتَيْن تحدَّثنا عنهما سابقاً)، ثُمَّ احتلَّت القُوَّاتُ اليهُوديَّة على التّوالي: طبريَّة وحَيْفَا وحي القطمون العَرَبيّ في القُدس وصَفَد وبيسان. ولجأ الزُّعماء الصّهاينة - في الوقت نفسه - إلى إجراءات إرهابيَّة وحشيَّة لترويع السُّكَّان العَرَب، ودَفْعهم إلى تَرْك بيُوتهم (يقصد بذلك مجزرة دير ياسين الوحشيَّة).

ثُمَّ ينقل ديفز عن مُوسى العلي مُلخِّصاً الهزيمة العَرَبيَّة: «استغلَّ اليهُود الفوضى والتَّفكُّك في نظامنا الحربي إلى أقصى حدٍّ، فلمَّا حانت السّاعة الحاسمة جَعَلوا يجمعون جُمُوعهم كُلَّها، ويُوجِّهونها إلى جهة واحدة يختارونها، فيضربونها ضربة شديدة مُركَّزة،

وتتلقَّى الفريسةُ الضّربةُ وحيدةً، وتحمل وحدها الثّقلَ كُلَّه، دُون نجدة، أو معونة، أو مُحاولة لتخفيف الضّغط، حتَّى تنوء تحت وطأة الضّربة، وتسقط. وتنظر المراكز الأُخرى إلى ما يجري في جوارها، وتنتظر دورها، ولا تستطيع عمل شيء؛ لانشغالها بنفسها، وفُقدان العامل المُشترك؛ أيْ القيادة الواحدة.

وهكذا؛ تهاوت البلاد بلداً بلداً، وقرية تلو قرية، ومركزاً إثر مركز. وهذه نتيجة التّجزئة وعدم الوحدة.

في الثّالث عشر من أيَّار؛ وقَّعت مدينةُ يَافَا الميناءُ العَرَبيّ على البحر المُتوسِّط شُرُوطَ استسلامها، وفي اليوم التّالي؛ أُعلن قيام (إسرائيل)، وَدَخَلَتْ جُيُوشُ مصر والأُرْدُن والعراق وسُوريَّة ولُبنان وفلسطين. إنَّ المرحلة الثّانية للحرب الفلسطينيَّة قد بدأت.

كان اليهُود يستعدُّون - مُنذُ وقت طويل - لهذا اليوم عسكرياً وسياسياً. ففي أشهر الفوضى التي سبقت انتهاء الانتداب؛ أصبحت الوكالة اليهُوديَّة هي "الأداة" المُؤقّتة التي يُسيِّر من خلالها الجهاز الحُكُومي اليهُوديّ الذي أُقيم فوراً، وتحوَّلت الوحدات المُقاتلة اليهُوديَّة التي تُسيطر عليها الهاغاناه إلى جيش (إسرائيل). إنَّ إدراك النّاس في الدّولة الجديدة أنَّ عليهم أنْ يُقاتلوا - الآن - بكُلِّ قُوَّتهم من أجل بقائهم، أمدَّهم بحافز، دفعهم إلى وحدة الصَّفِّ والهَدَف والتّضحية والمُثابرة والجُرأة، من ذلك النّمط الذي يصحب الأزمات الكُبرى.

أمَّا الوَضْعُ العَرَبيّ؛ فكان مُختلفاً تمام الاختلاف. فالاقتراع على قرار التّقسيم أصاب العالم العَرَبيّ بصدمة عنيفة.. ولكنَّها لم تخلق جوَّ أزمة مثل شُعثور الطّوارئ القائم في (إسرائيل)، فدُول عَرَبيَّة عديدة كانت تُعاني من تطوير حُكُوماتها، بعد أنْ نالت ستقلالها التَّامَّ، وكان بعضها يغلي لوُجُود قُوَّات أجنبيَّة فوق أراضيها، وكانت اثنتان منها وهُما سُوريَّة ولُبنان قد نالتا استقلالهما قبل عامَيْن - فقط - من النّكبة.

وزاد الأمرُ سُوءاً الحُدُود السِّياسيَّة الجائرة التي أقامها الانتداب الفرنسي والإنكليزيّ في بلاد الشّام، والتي عَزَلَتْ الشّعبَ العَرَبيَّ بعضه عن بعض، وأوجدت مصالح إقليميَّة ثابتة، وذات طوابع مُتباينة.

كانت قُوَّات شرق الأُردُن والمعروفة باسم الجيش العَرَبي ّ تحت قيادة ضابط إنكليزيّ شهير هُو الجنرال جُون باجوت غلوب. وقد عيَّنه في هذا المنصب الملك عبد الله نفسه، وكان هذا الجيش يعتمد إدارياً على الجيش البريطانيّ اعتماداً كُلِّيّاً، ولم تكن له قُوَّة جويَّة خاصَّة، بل يعتمد - كُلِّيّاً - على بريطانيا من أجل الدَّعْم الجوِّيّ.

قبل اندلاع الحرب؛ لم يكن لدى الجُيُوش العَرَبيَّة هيئة أركان مُوحَّدة، أو قيادة مُوحَّدة. وكان الضّعف العَرَبيّ الأساسي في سنة 1948، عدم وُجُود قُوَّة عَرَبيَّة مُوحَّدة فعَّالة مُناسبة حجماً، ومُدرَّبة ومُجهَّزة بالعتاد المُناسب، سريعة الحَركَة تقودها قيادة عُليا واحدة. وهذا يعكس - بمعيار كبير - حقيقة أنَّ الحُكُومات العَرَبيَّة كانت جديدة، وفي أيدي سَاسَة لم يسبق لهم أنْ جرَّبوا الحربَ، أو خبروها، لذلك كانوا غير خبيرين بفُنُون تعبئة الرِّجال والسِّلاح والموارد من أجل ضرورات القتال (بالإضافة إلى تضارب الأهواء والأهداف عند سَاسَة العَرَب).

قدَّر الجنرال غلوب عدد القُوَّات العسكريَّة الجاهزة للقتال عند كُلٍّ العَرَب واليهُود يوم الخامس عشر من أيَّار 1948، كما يلي:

القُوَّات العَرَبيَّة:

الجيش المصري 10000.

الجيش العراقي 3000.

الجيش الأُردُني 4500.

الجيش السُّوري 3000.

الجيش اللُّبناني 1000.

المجموع 21000، هذا هُو المجموع العامُّ لكُلٍّ القُوَّات العَرَبيَّة، والتي دَخَلَتْ فلسطين منها أقلّ بكثير).

القُوَّات اليهُوديَّة:

كانت 65000 ؛ أيْ أكثر بثلاثة أضعاف القُوَّات العَرَبيَّة[1] .

في الحادي عشر من حُزيران 1948 ، أفلح مجلس الأمن في فَرْض هُدنة الأربعة أسابيع ، تبعتها فترة وجيزة من القتال الواسع ، ثُمَّ هُدنة أُخرى إلى أجل غير مُسمَّى ، فُرضت تحت التّهديد بالعُقُوبات الاقتصاديَّة ، وقد وَصَفَهَا الوسيط الدّولي (الكُونت برنادوت) أنَّها عُرضة للخَرْق الكبير أو الصّغير بين حين وآخر . ومن النّوع الأوَّل ؛ الهُجُوم الكبير الذي شنَّتْهُ القُوَّات اليهُوديَّة في جنوب فلسطين في تشرين الأوَّل ، وأدَّى إلى طَرْد المصريِّيْن من معاقلهم الرّئيسيَّة ، وقد دامت هذه الهُدنة المُؤقَّتة إلى حين عقد اتِّفاقيَّات الهُدنة الدّائمة عام 1949 ، فأتاحت هذه الاتِّفاقيَّات (لإسرائيل) الاحتفاظ بالأراضي التي احتلَّتْهَا ، وبذلك أُعطيت مساحة تزيد بمقدار الثُّلث تقريباً عن المساحة التي مَنَحَهَا إيَّاها التّقسيم » .

كان من نتائج اتِّفاقيَّات الهُدنة أنْ حصل اليهُود على 21 ألف كم مُربَّع من أصل 27 ألف كم مُربَّع (وهي مساحة فلسطين) ؛ أيْ 5 ، 77٪ من مساحة فلسطين ، وبقي بيد العَرَب 5 ، 22٪ من هذه المساحة ؛ وهي مساحة الضّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة .

---

(1) وعلينا أنْ نذكر أنَّ القُوَّات العَرَبيَّة الجاهزة للقتال ، والبالغة 21 ألف جُندي ، لم تدخل كُلُّها فلسطين والذي دَخَلَ منها حوالي النّصف فقط ! (أو أقلّ) .

وأُضيف أنَّ القُوَّات اليهُوديَّة كانت تتمتَّع بمُميِّزات هامَّة على القُوَّات العَرَبيَّة ، بالإضافة إلى أنَّها تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف ، وهي :

1 : بُعْد القُوَّات العَرَبيَّة التي دَخَلَتْ فلسطين - وخاصَّة العراقيَّة والمصريَّة - عن مراكز تموينها .

أمَّا القُوَّات اليهُوديَّة ؛ فكانت تتحرَّك في مساحة ضيِّقة تخترقها شبكة من الطُّرُقات المُعبَّدة الجيِّدة ، ممَّا أوجد أوضاعاً مثاليَّة لنَقْل القُوَّات اليهُوديَّة سريعاً من جبهة إلى أُخرى ؛ لتوجيه ضربات سريعة للقُوَّات العَرَبيَّة ، كُلّ على حدة .

2 : كانت القُوَّات اليهُوديَّة أفضل تدريباً وتسليحاً وأكثر عدداً من القُوَّات العَرَبيَّة ، وخاصَّة الفَيْلَق اليهُوديّ الذي اشترك في الحرب العالميَّة الثّانية مع القُوَّات البريطانيَّة .

3 : كانت القُوَّات اليهُوديَّة تخضع لقيادة واحدة ، بعكس العَرَب الذين كانوا مُشتَّتين ، لا يُوجد لهمْ قيادة واحدة تربطهم وتُنسِّق بين قُوَّاتهم .

4 : كان الحماسُ العَرَبيّ شديداً جدّاً ، ولكنَّهم لم يشعروا بأنَّهم في أزمة ، وأنَّ هذه الأزمة ستُؤدِّي إلى سُقُوط فلسطين وضياعها . أمَّا اليهُود ؛ فكانوا يشعرون أنَّهم في أزمة بقاء ، أو عدمه ، أزمة حياة ، أو موت ، وبالتّالي ؛ قاتلوا قتال المُستميت .

وهكذا كان اليهُود يملكون 7٪ من مساحة فلسطين قبل التّقسيم، ثُمَّ أعطاهم التّقسيم 55٪ من هذه المساحة، ثُمَّ أعطتْهُم اتِّفاقيَّات الهُدنة 5، 22٪ من مساحة فلسطين فوق حصَّتهم في التّقسيم، وهكذا أصبح اليهُود يملكون 5، 77٪ من مساحة فلسطين في 1949؛ أيْ أنَّ اليهُود امتلكوا 70٪ من أراضي فلسطين خلال سنتَيْن من 1948 - 1949، وطُرد سُكَّانها العَرَب منها بقُوَّة السّلاح والإرهاب. وصارت مطالب العَرَب تنحصر بتطبيق قرار التّقسيم، وإعادة اللاّجئين الفلسطينيِّيْن العَرَب إلى ديارهم، والتّعويض عليهم، بدل رَفْض التّقسيم، والمُحافظة على عُرُوبة فلسطين عام 1948 (انتهى حديث جُون ديفز).

وفيما يلي سنتكلَّم عن مأساة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن، وكيف تمَّ طَرْدهم من أراضيهم وبيُوتهم ومُمتلكاتهم.

مأساة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن:

بلغ عدد سُكَّان فلسطين العَرَب عام 1948، حوالي مليون وربُع المليون نسمة. وبدأت موجة الهجرة العَرَبيَّة من فلسطين قبل موعد انتهاء الانتداب البريطانيّ على فلسطين (15 أيَّار 1948)، بسبب الأخطار العظيمة التي أحدقت بالعَرَب، والذُّعر الذي حلَّ بهم بعد مجزرة دير ياسين، وتعدُّد الاعتداءات اليهُوديَّة الوحشيَّة والغادرة، ثُمَّ أخذت الأُمُور تتطوَّر من سيِّيء إلى أسوأ، قبل دُخُول الجُيُوش العَرَبيَّة، وبعد دُخُولها، وَسَقَطَتْ المُدُن العَرَبيَّة الواحدة تلو الأُخرى.

في هذه الظُّرُوف القاسية؛ أخذ السُّكَّان ينزحون إلى أماكن آمنة داخل فلسطين وخارجها، وخاصَّة إلى الأُردُن وسُوريَّة ولُبنان ومصر. وعندما جاء شهر تشرين أوَّل 1948، كان هُناك نحو مليون فلسطيني مُشرَّدين، بعد أنْ طُردوا من ديارهم، ودُمِّرَتْ مساكنهم، وضاعت أموالهم، وجُرِّدوا من كُلِّ ما يملكون، وَفَقَدُوا كُلَّ موارد الرِّزق وأسباب العيش (وخاصَّة الفلاَّحين منهم). ومُنذُ ذلك الحين؛ أصبحت قضيَّة اللاَّجئين قضيَّة صعبة ومُؤلمة، فقد كانوا في حاجة ماسَّة للمأوى والمأكل والملبس والعلاج والتّعليم.

ولم تتوانَ الدُّول العَرَبيَّة المُضيفـة عـن إيـواء مَـنْ لجؤوا إليـها ، واتِّخاذ التّدابير الواجبة للإسعاف العاجل .

ثُمَّ أخذ الصّليب الأحمر الدّولي بالإشراف على اللاَّجئين وإغاثتهم عام 1949 .

ومُنذُ عـام 1950 ، تـألَّفت وكالـة غـوث اللاَّجئين الفلسـطينيِّيْن التّابعـة للأُمـم المُتَّحـدة بالإشراف على اللاَّجئين وإغاثتهم وتشغيلهم . ولا تزال هذه الوكالة تعمل ، ولكنَّـها قلَّصت أعمالها في مجال الإغاثة ، وبقيت تُقدِّم الخدمات في مجال التّعليم والصّحَّة .

وفي عام 1950 ، اتَّخذت الجمعيَّة العُمُوميَّة لهيئة الأُمـم المُتَّحدة قـراراً بوُجُوب إعـادة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن إلى ديارهم ، ودَفْـع التّعويـض لكُـلِّ مَـنْ لا يرغـب فـي العـودة منهـم ، ولكنَّ هذا القرار لم يُنفَّذ حتَّى اليوم ، رغم التّأكيد عليـه عـدَّة مرَّات مـن هيئـة الأُمـم المُتَّحدة نتيجـة إصـرار (إسـرائيل) علـى إبعـاد الفلسـطينيِّيْن العَـرَب عــن وطنـهم ، وحرمانـهم مـن التّعويضات التي يستحقُّونها عمَّا سَلَبَتْهُ (إسرائيل) مـن أموالـهم وأملاكـهم . ولقـد قُـدِّر عـدد اللاَّجئين بما يزيد عن مليون نسمة (كما قُلنا سابقاً) . وكانت أحوالهم سيِّئة جداً ، وخاصَّة في السّنوات الأُولـى للـهجرة واللُّجُـوء . فقـد كـانوا يُقيمـون فـي العـراء تحـت الأشـجار ، أو فـي أكواخ ، أو في ثكنات عسكريَّة مهجورة ، ومساجد ، وأديرة ، ثُمَّ قـدَّم لـهم الصّليـبُ الأحمـر الدّولي الخيامَ ، وكذلك وكالة الغوث . وكـانت الحيـاة فـي هـذه الأمكنـة صعبـة جداً وقاسـية ومُؤلمـة ؛ وباختصـار ؛ فـي غايـة السُّـوء ، ممَّـا أدَّى إلـى انحـدار المُسـتوى الصّحِّـي ، وانتشـار الأمراض ، على الرّغم ممَّا تُقدِّمه وكالة الغوث من إشراف صحِّيٍّ وعلاج طبِّيٍّ .

تلك كانت حال اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن الذين طُردوا من ديـارهم ظُلمـاً وعُدوانـاً ، وهـي حـال تتفطَّـر لـها القُلُـوب . وتقـارير وكالـة الغـوث تعـترف بمـا وَصَـلَ إليـه حـال اللاَّجئـين الفلسطينيِّيْن من بُؤس وسُوء الحال .

وهكذا كان مـن النّتـائج الفاجعـة لقيـام (إسـرائيل) ظُهُور مُشكلة اللاَّجئين ومأسـاتهم الكُبرى . وفي كـانون الأوَّل 1949 ، وَضَعَـتْ بعثـةُ المسـح الاقتصـادي التّابعـة للأُمـم المُتَّحـدة تقريراً جاء فيه : « أنَّ 726 ألف فلسـطيني يعيشـون فـي فاقـة وحاجـة ماسَّـة للغـوث والرّعاية

العاجلة. بالإضافة إلى 200 ألف فلسطيني في غاية العوز والفاقة، ولكنّهم استُثنوا من كونهم لاجئين، وبالتّالي؛ حُجبت عنهم مُساعدة وكالة الغوث الدّوليَّة. ويتألّف هؤلاء من سُكّان قُرى الحُدُود في الضّفّة الغربيَّة، الذين فَقَدُوا أراضيهم عند تخطيط الحُدُود بين الضّفّة الغربيَّة و(إسرائيل)، بينما بقيت قُراهم ضمن الضّفّة، ولم يغادروا بُيُوتهم، ولكنّهم فَقَدُوا موارد رزقهم من أراضيهم، والتي أصبحت ضمن (إسرائيل). وكذلك الحال في قُرى الحُدُود في قطاع غزَّة، بالإضافة إلى القبائل البدويَّة من النَّقَب، والتي فَقَدَتْ مراعيها، واضطُرَّت إلى بَيْع مواشيها، بعد أنْ مات مُعظمها، بعد أنْ طُردت من مراعيها. وكان الوَضْعُ الاقتصادي لهؤلاء النّاس حَرِجاً مأساويّاً كَوَضْع اللاَّجئين الذين ترعاهم وكالة هيئة الأُمم المُتَّحدة، بينما هؤلاء استُثنوا من رعاية الوكالة.

وهُناك فئات من عَرَب فلسطين عانت من البُؤس والفقر الشّديد من سُكّان الضّفّة والقطاع (وخاصَّة من سُكّان المُدُن)، فهُم لم يخرجوا من بُيُوتهم، ولكنْ؛ كانت أعمالهم ومصالحهم مُرتبطة بالمناطق والمُدُن العَرَبيَّة التي استولى عليها اليهُود، وبالتّالي؛ فَقَدُوا أعمالهم، وموارد رزقهم، ولكنّهم استُثنوا - أيضاً - من رعاية الوكالة.

ويقول الدُّكتُور جُون ديفز: «كانت فلسطين عام 1948، من أكثر المناطق تقدُّماً في العالم العَرَبي، لا سيَّما في مناحي النُّمُوِّ الاقتصادي والتّعليم وظُهُور الطّبقة الوُسْطَى. وقدَّر دُون بيرتز Peretz Don أنَّ 350 - 400 مُستوطنة يهُوديَّة أُقيمت بعد سنة 1948، على أملاك اللاَّجئين، وأنَّ ثُلثَيْ الأراضي المزروعة حاليّاً في (إسرائيل) هي أراضي هؤلاء اللاَّجئين.

ويُضيف جُون ديفز قوله: «ومع أنَّ الأُمم المُتَّحدة - بإجماع الدُّول الأعضاء فيها - تُؤكّد - سنة بعد أُخرى - وُجُوب عودة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن إلى ديارهم، أو تعويضهم.. إلاَّ أنَّ أيّاً من الأمرَيْن، الإعادة أو التّعويض، لم يتمّ. وكانت النّتيجة تزايد عدد اللاَّجئين عن طريق التّكاثر الطّبيعي عاماً بعد عام».

لقد نُوقشت طويلاً مسألة خُرُوج العَرَب من فلسطين، وكثرت التّفاسير لهذا الخُرُوج الجماعي والسّريع، فقد هاجر حوالي مليون عَرَبي فلسطيني من بلادهم خلال سنة من الزّمن.

اليهُود يقولون إنَّ عَرَب فلسطين خرجوا من بلادهم بإرادتهم، ومحض اختيارهم، دُون إكراه؛ لأنَّهم لا يُريدون العيش تحت ظلِّ حكُومة يهُوديَّة، ولكنْ؛ هذا غير صحيح، وهل يُعقل أنْ يترك إنسان مسكنه وأرضه وكُلَّ ما يملك هكذا وحده، ودُون إكراه؟!

إنَّ الحقائق الثّابتة تُشير إلى أنَّ سُكَّان صَفَد وطبريَّا وحَيْفَا وبيسان . . إلخ، قد طُردوا طَرْداً، وبالقُوَّة، والتّهديد بالقَتْل، من بيُوتهم وأملاكهم قبل دُخُول الجيُوش العَرَبيَّة في 15 أيَّار 1948، وكذلك سُكَّان اللّدّ والرّملة والنَّقَب وسُكَّان الجليل الأسفل والأعلى بعد دُخُول الجيُوش العَرَبيَّة، والجميع طُردوا من ديارهم قَسْراً مع التّهديد بالقَتْل لمَنْ يتقاعس عن الرّحيل.

إنَّ اليهُود ينشرون هذه الدّعاية ـ وخاصَّة في الأوساط العَرَبيَّة ـ ليجدوا مُبرِّراً لهم في عدم تنفيذ قرارات الأُمم المُتَّحدة بعودة الفلسطينيِّيْن، أو التّعويض عليهم[1].

أمَّا القول بأنَّ عَرَب فلسطين خرجوا من ديارهم لأنَّهم تقاعسوا عن الدّفاع عنها، وهذا القول بعيد كُلَّ البُعْد عن الحقيقة؛ فقد استمات عَرَب فلسطين في الدّفاع عن بلادهم، وبذلوا الغالي والرّخيص في سبيل ذلك، وقدَّموا آلاف الشُّهداء في سبيل الدّفاع عن بلادهم وحُقُوقهم، وخاصَّة في ثورة 1936، والتي استمرَّت ثلاث سنوات، ووُقُوفهم ضدَّ التّقسيم عام 1947، وتأليفهم قُوَّات الجهاد المُقَدَّس، والتي أبلت بلاءً عظيماً للذّود عن حياض الوطن، رغم ضعف الإمكانيَّات والظُّرُوف الصّعبة (وذلك قبل دُخُول الجيُوش العَرَبيَّة في 15 أيَّار 1948).

والحقيقة أنَّ سبب هذا النُّزُوح الجماعي هُو خُطَّة يهُوديَّة وُضعَتْ ونُفِّذَتْ بدقَّة لإخلاء فلسطين من سُكَّانها العَرَب. فاليهُود يُريدون أرضاً بلا سُكَّان، يُريدون أرضاً خالية لإقامة الاستيطان اليهُوديّ عليها. فلا يُمكن أنْ يكون اللاَّجئون قد غادروا بيُوتهم وأملاكهم بمحض إرادتهم واختيارهم.

---

(1) هذا؛ بالإضافة إلى ما أشاعه اليهُود، وصدَّقَهُ الكثيرُ من العَرَب، بأنَّ عَرَب فلسطين باعوا أراضيهم وأملاكهم لليهُود قبل رحيلهم، وقبضوا ثمن كُلِّ ذلك (وقد تحدَّثنا فيما سَبَقَ عن هذه الفريَّة الغريبة).

ويقول الجنرال غلوب (قائد الجيش الأُردُني في ذلك الوقت): «إنَّ المُغادرة لم تكن بمحض الاختيار والإرادة، فالمُغادرون غادروا بلادهم بالملابس التي يرتدونها فقط، وبسُرعة وفوضى يملؤها الرُّعب، حتَّى إنَّ الأزواج أضاعوا زوجاتهم، والآباء أبناءهم»[1].

إنَّ الهَلَعَ والارتباك قد لعبا دوراً حاسماً في عملية الفرار، وقد دَفَعَ اليهُودُ العَرَبَ للفرار ومُغادرة ديارهم بخُطَّة وحشيَّة مُدبَّرة ومدرُوسة.

والدُّكتُور جُون ديفز يُعلِّل السّبب في ذلك بقوله: «إنَّ قرار التّقسيم سنة 1947، يُبقي 495 ألف (حوالي نصف مليون) عَرَبي ضمن الدّولة اليهُوديَّة، مُقابل 498 ألف يهُوديّ ضمنها (حوالي نصف مليون أيضاً)؛ أيْ أنَّ عدد العَرَب واليهُود في الدّولة اليهُوديَّة سيكون مُتساوياً عند التّقسيم، ولو بقي العَرَب في ديارهم لفاقوا اليهُود عدداً، رغم الهجرة اليهُوديَّة (نتيجة التّزايد الطّبيعي).

وإذا عرفنا أنَّ اليهُود لم يقتصروا على حصَّتهم في التّقسيم (انظر المُصوَّر رَقْم 17 ص 614 لمعرفة الضّفَّة العَرَبيَّة وقطاع غزَّة)، بل استولوا على ثلاثة أرباع فلسطين (21 ألف كم مُربّع من أصل 27 ألف كم مُربّع مساحة فلسطين) بالغزو العسكري المُسلَّح، ونتيجة لاتِّفاقيَّات الهُدنة، والعَرَب في هذه المناطق التي دَخَلَتْ في حوزة اليهُود هُم 892 ألف نسمة، مُقابل 655 ألف نسمة من اليهُود، وهكذا لو بقي السُّكَّان العَرَب بعد توقُّف القتال باتِّفاقيَّات الهُدنة في ديارهم، لأصبحوا أكثر من السُّكَّان اليهُود، وفي خلال عدَّة عقُود، سيُصبح العَرَب أضعاف اليهُود بالتّزايد الطّبيعي، ورغم الهجرة اليهُوديَّة[2].

---

(1) لقد شاهدتُ هذه المأساة بنفسي عند سُقُوط قريتي صفُّورية ليلة 16 تمُّوز 1948، بعد أنْ انهارت المُقاومة فيها أمام زحف القُوَّات اليهُوديَّة المُزوَّدة بالمُصفَّحات والرَّشَّاشات الثّقيلة وراجمات الألغام (ذات المدى القصير، ولكنَّها رهيبة التّدمير) وبعد القيام بغارَتَيْن جويَّتَيْن على القرية. لقد خرج النّاس من بُيُوتهم بحالة سيِّئة من الخوف والهَلَع بملابسهم فقط، وخارج القرية كُنتُ أشاهد وأسمع مَنْ يسأل عن زوجته وأبنائه، أو زوجة تسأل عن زوجها، والجميع يُريدون الخُرُوج من القرية، وبسُرعة، خوفاً من راجمات الألغام، وما سمعوه من فظائع اليهُود الرّهيبة.

(2) بقي في فلسطين (إسرائيل) بعد اتِّفاقيَّات الهُدنة مع الدُّول العَرَبيَّة عام 1949، حوالي رُبع مليون عَرَبي (250 ألف)، مُعظمهم في منطقة الجليل، والمُثلَّث العَرَبيّ الواقع بين نابلس وطُولكرم وجنين، والذي سلَّمَهُ الملكُ عبد اللّه باتِّفاقيَّات الهُدنة، واشترط عليهم عدم طَرْد سكَّانه العَرَب منه. هذا الرُّبع مليون أصبح ـ الآن، وبعد حوالي نصف قرن ـ يُقارب المليون نسمة ـ ويُشكِّل رُبع سكَّان (إسرائيل)، فكيف لو بقي العَرَب في (إسرائيل)، ولم يُطردوا، لَوَصَلَ تعدادهم ـ الآن ـ أكثر من خمسة ملايين؛ أيْ أكثر من اليهُود في (إسرائيل) رغم الهجرة اليهُوديَّة المُكثَّفة.

ولكنَّ المفهوم الصّهيُونيّ للدّولة اليهُوديَّة مَبنيٌّ مُنذُ أيّام هرتزل على أساس دولة يهُوديَّة في فلسطين، فكيف يُمكن (لإسرائيل) أنْ تكون دولة يهُوديَّة ما لم يُشكِّل اليهُود الغالبيَّة العُظمى بين السُّكّان؟!

لذلك كان لدى اليهُود في فلسطين الرّغبة الشّديدة في التَّخلُّص من العَرَب في المناطق الخاضعة لهم.

والحقيقة أنَّ طَرْد العَرَب من المناطق التي خُصِّصت لليهُود بالتّقسيم، ومن المناطق التي استحوذوا عليها بالقُوَّة العسكريَّة، لم يجر مُصادفة، بل كان نتيجة خُطَّة صهيُونيَّة شاملة مُعدَّة سَلَفاً، وهي الخُطَّة "دالت" "Plan Dalat"؛ وهي مأخوذة من مصادر يهُوديَّة.

ويُحَدِّثنا الأُستاذ وليد الخالدي عن الخُطَّة "دالت"، أو "د" اختصاراً، فيقول: «هي الخُطَّة العامَّة للقيادة العُليا الصّهيُونيَّة الموضوعة للعمليَّات العسكريَّة في نيسان وأوائل أيّار **1948**، (واستمرَّت حتَّى توقيع اتِّفاقيَّات الهُدنة)، وتُؤدِّي هذه الخُطَّة إلى تدمير المُجتمع العَربيّ في فلسطين، وطَرْد الغالبيَّة العُظمى من العَرَب الذين يعيشون في المناطق التي ستُشَكِّل (إسرائيل)، وكان هَدَفها النّهائي احتلال الصّهاينة لكامل فلسطين، وطَرْد سُكّانها العَرَب منها.

وكان من صُلب تنفيذ الخُطَّة "دالت" هُو قيام اليهُود بأعمال إجراميَّة غاية في البشاعة والوحشيَّة (كَقَتْل الأطفال والشُّيُوخ والنّساء، وبَقْر بُطُون الحوامل، بالإضافة إلى الشّباب، والتّمثيل بالقَتْلى)، كما حَدَثَ في دير ياسين وناصر الدِّين وحواسه وبلد الشّيخ وأحياء القطمون في القُدس والحليصا في حَيْفَا.. إلخ. كُلُّ ذلك لبَثِّ الرُّعب والهَلَع بين سُكّان المُدُن والقُرى، ليفرَّ سُكّانها منها، وبذلك يتمُّ إخلاؤها، ومع ذلك؛ فقد احتلَّ اليهُود كثيراً من المُدُن العَرَبيَّة، وسُكّانها فيها، ولم يُغادروها إلاَّ بعد طَرْد اليهُود لهم، والتّهديد بقَتْل كُلِّ مَنْ يبقى من العَرَب. وهكذا بعد احتلال حَيْفَا، طُرد قاطنوها من العَرَب، وبعد الاستيلاء على مدينة يَافَا العَرَبيَّة، طُرد سُكّانها منها، وتخلَّص اليهُود من السُّكّان العَرَب في الجليل الشّرقي، ودُمِّرتْ قُراهم هُناك. وعند احتلال مدينة بيسان، طُرد سُكّانها، وسُكّان قُراها والعشائر البدويَّة في المناطق المُجاورة لها، وهذا ما حصل لسُكّان الأحياء العَرَبيَّة في القُدس الجديدة، وكُلُّ ذلك قبل **15** أيّار **1948**.

وبعد الخامس عشر من أيَّار (دُخُول القُوَّات العَرَبيَّة لفلسطين) سَقَطَ النَّقَب وجنوب غرب فلسطين، وطُرد السُّكَّانُ العَرَبُ من ديارهم، ولم يبقَ إلاَّ قطاع غزَّة. وطُرد سُكَّان اللّدّ والرّملة وقُراهما بعد انسحاب الجيش الأُردُني منهما، وتلا ذلك سُقُوط الجليل الأدنى، ثُمَّ الأوسط، ثُمَّ الأعلى، وطُرد سُكَّانه منه.

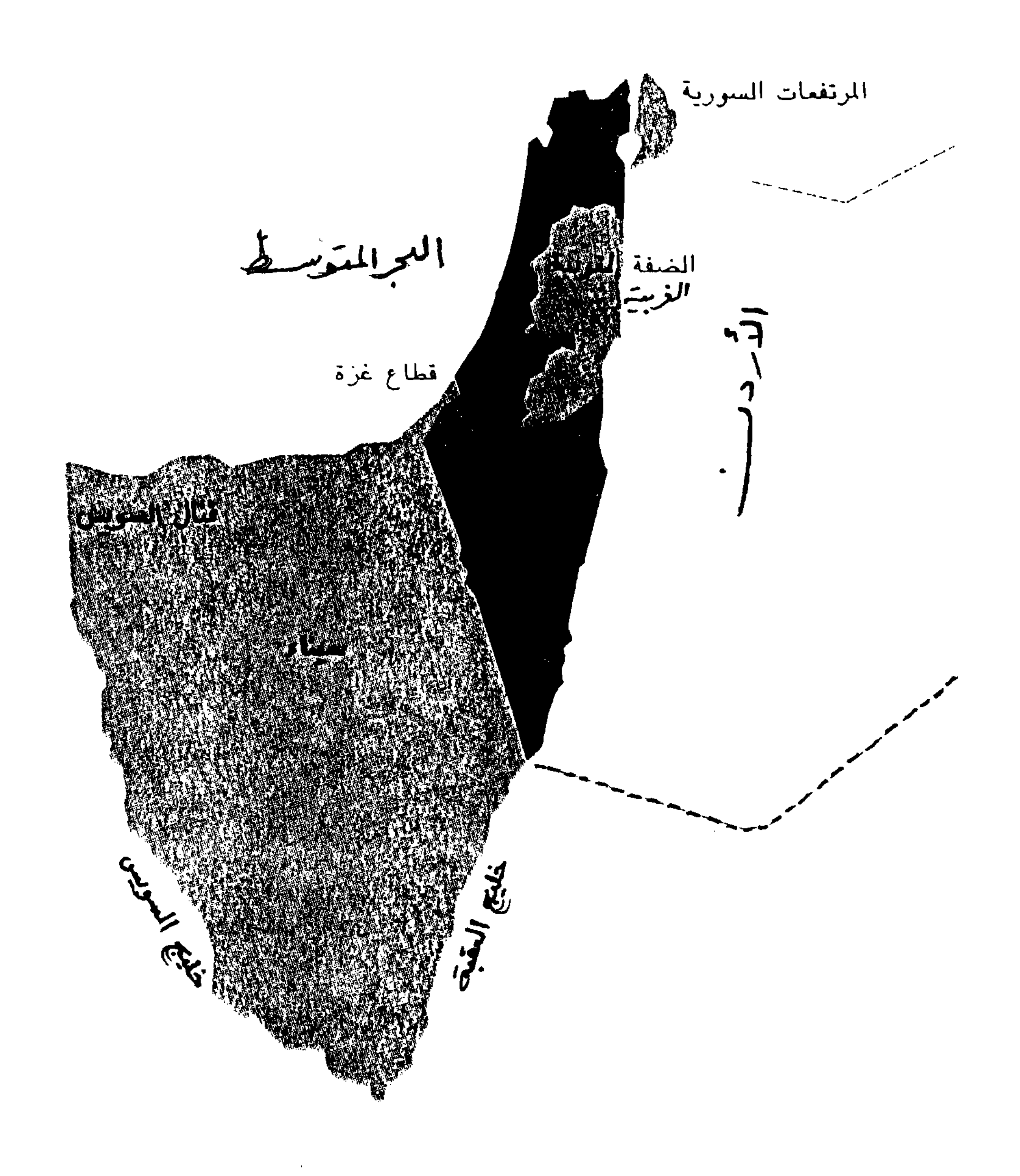
وهكذا كانت نتيجة تطبيق الخُطَّة "د" أو "دالت" والقيام بعمليَّات الطَّرْد الواسعة، والتي تمَّت بمُنتهى البشاعة والوحشيَّة المُريعة، فمئات الأُلُوف من العَرَب فَقَدُوا مساكنهم وأملاكهم ووسائل عيشهم، وبدأت مأساة اللاَّجئين الفلسطينيِّين العَرَب.

وفي نكسة 5 حُزيران عام 1967، احتلَّ اليهُودُ البقيَّةَ الباقية من فلسطين، وهي قطاع غزَّة والضّفَّة الغربيَّة (حوالي نصف سُكَّانهما من اللاَّجئين)، وبذلك استولى اليهُود على كامل فلسطين.

واحتلَّ اليهُود - أيضاً - منطقة سيناء من مصر (استعادتْهَا مصر باتِّفاقيَّة كامب ديفيد)، والجولان من سُورية، وطُرد مُعظم سُكَّانه منه (وهُم النّازحون)، ولا يزال الجولان بيد اليهُود. (المُصوَّر المُرفق رَقْم 20).

وفي السّادس عشر من أيلول 1948، صرَّح الكُونت برنادوت (وقبل مصرعه بيوم واحد): «إنَّ حقَّ الشّعب البريء الذي أُبعد عن دياره بسبب الرُّعب والدّمار يجبُ الاعتراف به، وَوَضْعه موضع التّنفيذ».

وعلى أساس مُبادرة برنادوت؛ اتَّخذت الجمعيَّة العامَّة للأُمم المُتَّحدة في 11 كانون الأوَّل 1948، القرار رَقْم 194، الذي دعا إلى العمل لمُساعدة اللاَّجئين الفلسطينيِّين عن طريق برامج عديدة تُؤدِّي إلى إعادتهم إلى وطنهم، والتّعويض عليهم، وتوطينهم من جديد، وفيما يلي الفقرة 11، الوثيقة الصّلة بموضوع اللاَّجئين من القرار المذكور، ونصُّها ما يلي:



مُصوَّر رَقْم (20)

عُدوان حُزيران 1976

الفقرة 11 : تُقرِّر أنَّ اللاَّجئين الرَّاغبين في العودة إلى بُيُوتهم والعيش في سلام مع جيرانهم يجبُ السَّماح لهم بذلك في أقرب وقت مُمكن، وأنْ يُدفع التَّعويض عن مُمتلكات هؤلاء الذين لا يختارون العودة، وعن الخسارة والضَّرر الذي يلحق بالمُمتلكات، والذين تقتضي مبادئ القانون الدَّولي أو العدالة قيام الحُكُومات أو السُّلطات المسؤولة بتعويضها(1).

ويجبُ تسهيل إعادة اللاَّجئين إلى وطنهم، وإسكَانهم من جديد، وتسهيل نُهُوضهم الاقتصادي والاجتماعي.

وحتَّى الآن لم يجر أيُّ تقدُّم ملحوظ لتنفيذ هذا القرار.

كان عدد اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن عام 1948، حوالي 900 ألف نسمة، وكانت وكالة الغوث تُشرف على إغاثة 763 ألف منهم؛ وهُم مُوزَّعون كما يلي عام 1950:

160000 في لُبنان.
90000 في سُوريَّة.
50000 في مصر.

300000 المجموع

والباقي وهُو 463 ألف في المملكة الأُردُنيَّة وقطاع غزَّة والضَّفَّة الغربيَّة.

وهُناك حوالي 15 ألف لجؤوا إلى العراق، ولم تكن تُشرف عليهم وكالة الغوث.

هذا؛ بالإضافة إلى حوالي 200 ألف فلسطيني كانوا شديدي العَوَز والفاقة، ولكنَّهم لم يُعتبروا من اللاَّجئين، ويتألَّف هؤلاء من سُكَّان قُرى الحُدُود في الضَّفَّة الغربيَّة الذين فَقَدُوا أراضيهم عند تخطيط الحُدُود بين الضَّفَّة الغربيَّة و(إسرائيل)، بينما بقيت قُراهم ضمن الضَّفَّة الغربيَّة، ولم يُغادروا بُيُوتهم، ولكنَّهم فَقَدُوا موارد رزقهم من أراضيهم، والتي أصبحت ضمن (إسرائيل)، وكذلك الحال في قُرى الحُدُود في قطاع غزَّة. هذا؛ بالإضافة إلى القبائل اليهُوديَّة في بوادي النَّقَب، التي طُردوا منها، ومن مراعيها.

(1) المصدر لمأساة فلسطين "السَّلام المُراوغ"، جُون ديفز، مع مُشاهداتي الخاصَّة.

وفي عام ، 1995 بلغ عدد اللاَّجئين المُقيَّدين في القُيُود الرّسميَّة لوكالة الغوث ثلاثة ملايين و185 ألفاً ؛ منهم 000 ، 200 ، 1 في الضّفَّة والقطاع ، و000 ، 983 ، 1 في الأُردُن ولُبنان وسُوريَّة ، مُوزَّعين كما يلي :

المملكة الأُردُنيَّة 000 ، 300 ، 1 ، ويُشَكِّلون 8 ، 40٪ من السُّكَّان .

قطاع غزَّة 000 ، 684 ، ويُشَكِّلون 77٪ من سُكَّان القطاع ، مُوزَّعين في 8 مُخيَّمات .

الضّفَّة الغربيَّة 000 ، 518 ، ويُشكِّلون 37٪ من سُكَّان الضّفَّة الغربيَّة في 19 مُخيَّماً قُرب المُدُن .

الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة 000 ، 337 ، ويُشكِّلون 5 ، 3٪ من سُكَّان سُوريَّة .

الجُمهُوريَّة اللُّبنانيَّة 000 ، 346 ، ويُشكِّلون 10٪ من سُكَّان لُبنان .

المجموع 000 ، 185 ، 3 (1)

ولكنَّ تعداد اللاَّجئين الفلسطينيِّين أكبر من ذلك ، هؤلاء هُم الذين تُشرف عليهم وكالة الغوث . وقد هاجرت أعداد كبيرة من الفلسطينيِّين إلى أُورُوبا الغربيَّة ، وأمريكا ، وكَنَدَا ، وأُستراليا ، وخاصَّة من لاجئي لُبنان والضّفَّة الغربيَّة والقطاع والأُردُن . وكان اليهُود ـ ومُنذُ عام 1948 ـ يُسهِّلون ويُشجِّعون ويُذلِّلون الصّعاب في بلاد المهجر ، وخاصَّة في كَنَدَا ، وأُستراليا ؛ ليُبعدوا الفلسطينيِّين عن بلادهم ، ويُقيموا في بلاد بعيدة ، ويأخذوا جنسيَّتها .

أمَّا تعداد الفلسطينيِّين المُهاجرين ؛ فهُو كما يلي عام 1981 ، حسب البلاد التي هاجروا إليها ، والمكان الذي استقرّوا فيه :

النّسبة المئويَّة للسُّكَّان	عدد السُّكَّان	المكان
18 . 24٪	833000	الضّفَّة الغربيَّة
9 . 87٪	451600	قطاع غزَّة
12 . 06٪	550800	المناطق الأُخرى في فلسطين المُحتلَّة

---

(1) المرجع "اللاَّجئون والنّازحون" ، رمزي رباح ، عُضو المكتب السِّياسي للجبهة الدِّيمُقراطيَّة لتحرير فلسطين ، دمشق ، صفحات 30 ، 33 ، 39 ، إلى 44 .

المكان	عدد السُّكَّان	النّسبة المئويّة للسُّكَّان
المملكة الأُرْدُنيَّة	1.148.180	٪25.15
سُوريَّة	222.525	٪4.85
لُبنان	492.240	٪10.68
الكُويت	294.908	٪6.46
العراق	20.604	٪0.45
ليبيا	23.759	٪0.52
مصر	34.309	٪0.75
السُّعُوديَّة	139.000	٪3
قَطَر	24.233	٪0.52
الإمارات العَرَبيَّة المُتَّحدة	37.000	٪0.81
باقي الدُّول العَرَبيَّة	51.000	٪1.112
الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة	105.000	٪2.3
باقي دُول العالم	140.000	٪3.07
المجموع	4.568.158	

أيْ حوالي أربعة ملايين ونصف مليون، ولا شَكَّ أنّهم - الآن - يبلغون حوالي ستَّة ملايين بسبب الزّيادة الطّبيعيَّة.[1]

وأخيراً؛ لابُدَّ من ذكْر أهمِّ قرار صَدَرَ عن هيئة الأُمم المُتَّحدة؛ وهُو القرار رَقْم 194، في 11 كانون الأوَّل/ ديسمبر 1948، ومنه الفقرة 11، التي تُقرِّر حقَّ اللاَّجئين في العودة إلى ديارهم، والتّعويض على كُلِّ مَنْ لا يُريد العودة.

وفيما يلي نذكر نصَّ الفقرة 11 من القرار رَقْم 194 في 11 كانون الأوَّل 1948:

(1) المرجع "حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل"، فوزي حميد، ص 121.

إنَّ الجمعيَّة العامَّة تُقرِّر ما يلي:

11: وُجُوب السّماح بالعودة في أقرب وقت مُمكن للاَّجئين الرّاغبين في العودة إلى ديارهم، والعيش بسلام مع جيرانهم، ووُجُوب دَفْع تعويضات عن مُمتلكات الذين يُقرِّرون عدم العودة إلى ديارهم، وعن كُلٍّ مفقود، أو مُصاب بضَرَر، عندما يكون من الواجب وُفقاً لمبادئ القانون الدّولي والإنصاف أنْ يُعوَّض عن ذلك الفُقدان أو الضَّرَر من قبَل الحُكُومات أو السُّلطات المسؤولة.

وتُصدر تعليماتها إلى لجنة التّوفيق بتسهيل إعادة اللاَّجئين وتوطينهم من جديد، وإعادة تأهيلهم الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك دَفْع التّعويضات، وبالمُحافظة على الاتِّصال الوثيق بمُدير إغاثة الأُمم المُتَّحدة للاَّجئين الفلسطينيِّيْن، ومن خلاله بالهيئات والوكالات المُتخصِّصة المُناسبة في مُنظَّمة الأُمم المُتَّحدة[1].

إنَّ هذا القرار لم يُنفَّذ حتَّى الآن، رغم مُرُور 55 عاماً على صُدُوره، ولن يُنفَّذ طالما الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة تحمي وتحرس وتضمن بقاء (إسرائيل).[2]

هذه هي مأساة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن، هؤلاء هُم الذين يُتَّهمون بأنَّهم باعوا أراضيهم، وَصَرَفُوها على المُتَع والتَّرَف والمُجُون. فهل من مُنصف لهم؟![3]

وأخيراً؛ وقد أنهيتُ الحديث عن القضيَّة الفلسطينيَّة، وأرجو أنْ أكون قد وُفِّقتُ في إعطاء صُورة واضحة للقارئ الكريم عن مأساة فلسطين، لابُدَّ لي من تخصيص فصل حول العلاقات الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، فقد رأينا ـ فيما سَبَقَ ـ دور أمريكا في احتضان الصّهيُونيَّة، وإقامة (إسرائيل)، والمُحافظة عليها، ورعايتها، وإغداق المُساعدات السّخيَّة عليها، وتوفير الأمن والحماية لها، وتقديم كُلِّ ما تحتاجه؛ لتُصبح أقوى دولة في الشّرق الأوسط، بل أقوى

---

(1) المرجع "اللاَّجئون والنّازحون"، رمزي رباح، عُضو المكتب السِّياسي للجبهة الدِّيمُقراطيَّة لتحرير فلسطين، ص 59.

(2) استُخدم 35 مرَّة حقّ الفيتو ضدّ القرارات التي تدين (إسرائيل) في مجلس الأمن الدّولي من أصل 75 مرَّة استخدمت فيها أمريكا حقّ الفيتو.

(3) المصدر لمأساة فلسطين «السّلام المُراوغ»، د. جُون ديفنز، مع مُشاهداي الخاصَّة كفرد من اللاَّجئين، وممَّنْ عاصروا مأساة اللاَّجئين، وعانوا من ويلاتها.

من كُلِّ دُول الشّرق الأوسط مُجتمعة، وخرق قرارات الأُمم المُتَّحدة التي تدين (إسرائيل)، وعدم إجبار (إسرائيل) على تطبيقها، واستخدام حقّ الفيتو في مجلس الأمن الدّولي ضدَّ أيِّ قرار يدين (إسرائيل). وباختصار؛ الكيل بصاعَيْن في كُلِّ ما يتعلَّق (بإسرائيل).

فما هي هذه العلاقة بين (إسرائيل) وأمريكا؟ وما مدى الدّعم الأمريكي (لإسرائيل)؟ وما هي أسباب هذه العلاقة الوطيدة وقُوَّة التّأثير اليهُوديّ الصّهيُونيّ على السِّياسة الأمريكيَّة؟؟

هذا ما سنجيب عنه في الفصل القادم إنْ شاء الله.

الفصل السّادس:

العلاقة بين (إسرائيل) والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة

الحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ للصّهيُونيَّة العالميَّة قُوَّة ونُفُوذاً ضخماً في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة. فَصَوْتُهُا مسموع، ونُفُوذها موجود في أروقة الكُونغرس الأمريكي، والبيت الأبيض، وفي دهاليز مكاتب الحزبَيْن الدِّيمُقراطي والجُمهُوري الحاكمَيْن في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

وقد أعطى للصّهيُونيَّة واليهُود هذا النُّفُوذ الضّخم في أمريكا عوامل كثيرة هامَّة نُجملها فيما يلي:

1: وُجُود أكثر من ستَّة ملايين يهُوديّ في أمريكا، يتمركزون في الولايات الهامَّة الغنيَّة والمُدُن الضّخمة؛ مثل نيُو يُورك (فيها أكبر جالية يهُوديَّة في العالم).

2: ترابط اليهُود ضمن جمعيَّات وهيئات ومُؤسَّسات تجعل منهم كُتلة مُتراصَّة مُتعاونة إلى أقصى درجات التّرابط والتّعاون، وبالتّالي؛ ذات تأثير هامٍّ في المُجتمع الأمريكي والسِّياسة الأمريكيَّة الدّاخليَّة والخارجيَّة، رغم أنَّهم لا يُشَكِّلون أكثر من 3٪ من سُكَّان الولايات المُتَّحدة[1].

3: المُجتمع الأمريكي الذي يتألَّف من أُمم شتَّى وشُعُوب وقوميَّات مُختلفة تتمتَّع كُلُّها بالحُرِّيَّة والمُساواة ضمن هذا المُجتمع؛ حيثُ لا يشعر المرء بالغُربة، فالكُلُّ غُرباء جاؤوا من مُختلف بقاع الأرض؛ ليبنوا لأنفسهم مُستقبلاً زاهراً، ويتمتعوا بحُرِّيَّاتهم الكاملة.

---

(1) وقد تحدَّثنا في الفصل الرّابع من القسم الثّاني من هذا الكتاب عن اليهُوديّ العالمي وكهيلا نيُو يُورك، واللّجنة اليهُوديَّة الأمريكيَّة، وقصَّة برنارد باروخ، وقصَّة جيمس غُوردن بنيت، وقصَّة هنري فُورد مع اليهُود، ومُنظَّمة البَنّاي بريت أو "جماعة العهد"، وكُلُّها تُظهر مدى التّرابط اليهُوديّ الصّهيُونيّ، والنُّفُوذ الهائل للصّهيُونيَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

هذا النّظام الأمريكي يسمح لكُلِّ القوميَّات والطّوائف والأديان بأنْ تُشَكِّل لها مُنظَّمات وهيئات تخدم ترابطها القوميّ، ومُعتقداتها الدِّينيَّة بشكل لا يتعارض مع توجُّهات السِّياسة الأمريكيَّة العامَّة، ولا يعتدي على حُرِّيَّات الآخرين، أو مُعتقداتهم.

4: سيطرة اليهُود على أسواق المال والبُورصات وعَالَم البُنُوك في أمريكا.

5: سيطرة الأنكلُوسكسُون على المُجتمع والاقتصاد والسِّياسة الأمريكيَّة. وهؤلاء الأنكلوسكسون هُم - في الأصل - من "البيُوريتان"، الذين هاجروا من بريطانيا وهُولندا، وكذلك من البروتستانت، وهاتان الفئتان تتعاطفان مع اليهُود والدّيانة اليهُوديَّة (كما رأينا سابقاً في الحديث عن الصّهيُونيَّة المسيحيَّة).

6: إنَّ نظام الانتخابات في أمريكا - والذي يجعل مُدَّة الرّئاسة أربع سنوات فقط، وكذلك حُكَّام الولايات في الولايات الأمريكيَّة، وأعضاء مجلس الشُّيُوخ، ومجلس النُّوَّاب - يجعل الطّبقة الحاكمة - والتي بيدها الحلُّ والرّبط في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة - بحاجة دائمة إلى أصوات النّاخبين اليهُود. فاليهُود أكثر فئة مُنظَّمة ومُتكتِّلة في أمريكا، ويتمركز نُفُوذهم وتواجدهم في الولايات الهامَّة والغنيَّة والمُدُن الكبيرة، ممَّا جَعَلَ الطّبقة الحاكمة تتسابق على إرضائهم، وتلبية طلباتهم، وتنفيذ رغباتهم، طَمَعَاً بأصواتهم.

7: وأخيراً؛ سيطرة اليهُود في أمريكا على الرّأي العامّ الأمريكي وذلك بسبب سيطرتهم على وكالات الأنباء، والصّحافة، والمطبوعات، والسّينما، وهذا أدَّى إلى فَهْم المُجتمع الأمريكي للقضيَّة الفلسطينيَّة من وُجهة نَظَر الصّهيُونيَّة فقط، نَظَراً لغياب وُجهة النَّظَر العَرَبيَّة غياباً شبه كامل.

هذه عوامل هامَّة أدَّت إلى سيطرة النُّفُوذ الصّهيُونيّ في الولايات المُتَّحدة، وظُهُورهم على السّاحة السِّياسيَّة في أمريكا ظُهُوراً أكبر من حجمهم. والآن؛ كيف تمَّت هجرة هذه الملايين من اليهُود إلى أمريكا، ومتى؟ ومن أين جاؤوا؟ وما هي أهمُّ توجُّهاتهم؟

الهجرة اليهُوديَّة إلى الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة: (1)

يُعتبر يهُود أمريكا البالغ عددهم أكثر من ستَّة ملايين نسمة، ويُشَكِّلون حوالي 3٪ من مجموع سُكَّان الولايات المُتَّحدة، أكبرَ وأقوى تجمُّع يهُوديّ في العالم (فهُم يبلغون حوالي ضعف عدد اليهُود في (إسرائيل) نفسها) قبل هجرة اليهُود السُّوفيات إلى (إسرائيل).

وَصَلَ اليهُود إلى الولايات المُتَّحدة بحوالي أربع هجرات، أو موجات؛ هي:

أ: الموجة الأُولى: حوالي 1654م:

قَدمَ مُعظم يهُود هذه الهجرة المُبكِّرة من إسبانيا والبُرتُغال، فراراً من الإرهاب الذي فَرَضَتْهُ عليهم الكَنيسة الكاثوليكيَّة ومحاكم التَّفتيش التَّابعة لها (وذلك بعد خُرُوج العَرَب المُسلمين من آخر معاقلهم في الأندلس؛ وهي غرناطة).

تمركز مُعظم يهُود هذه الهجرة في نيُو يُورك، وكانت خاضعة للـهُولنديِّين (كان اسمها نيو أمستردام)، وقد وَجَدُوا - أوَّل الأمر - صُعُوبات كبيرة في بناء حياتهم الجديدة، ولكنَّهم - بفضل تعاونهم - استطاعوا التَّغلُّب على هذه الصُّعُوبات، حتَّى استطاعت كثير من العائلات اليهُوديَّة في نيُو يُورك أنْ تأخذ مكانها في المُجتمع الأرستقراطي؛ مثل عائلات: باروخ، لازارُوس، ناتان، كُوردُوزا، وهذه العائلات الغنيَّة هي التي استطاعت تأسيس المصارف التِّجاريَّة وبُورصة نيُو يُورك، وسيطرت على تجارة التّبغ والسُّكَّر وأحواض بناء السُّفُن.

ب: الموجة الثّانية بين 1820 - 1870م:

جاءت هذه الموجة من ألمانيا، وَرَكَّز يهُودُ هذه الموجة الثّانية نشاطَهُم على حُقُول القُطن، ومناجم الذّهب والفضَّة، وبناء السّكك الحديديَّة، وتجارة الأراضي، وأخيراً؛ على البُورصات في شارع وُول ستريت في نيُّو يُورك.

بَرَزَ من يهُود هذه الموجة "جُوزيف سيلغمان"، والذي دُعي - فيما بعد - "رُوتشيلد" (وهُو مُؤسِّس عائلة رُوتشيلد الهائلة الثّراء)، وقد بدأ بائعاً مُتجوِّلاً.

---

(1) مصدر الحديث عن الهجرات اليهُوديَّة إلى الولايات المُتَّحدة هُو "دراسات في آفاق الصّراع العَرَبيّ الصّهيُوني"، (إصدار اتِّحاد الشّبيبة السُّوري)، من ص 202 - 208، باختصار.

وقد ركَّزَ اليهُود نشاطهم في مدينة نيُويُورك مع بعض الاستثناءات مثل عائلة "غوغنهايم" التي استقرَّت في فيلادلفيا، وعائلة "رُوزوالد" في شيكاغو؛ حيثُ أسَّست هُناك شركة "رُوبُوك وشُركاه"، وتُعدُّ اليوم من أضخم المُؤسَّسات التّجاريَّة في العالم.

ومن الذين بَرَزُوا "ياكوب شيف" الذي هاجر عام 1867، ولم يكن يملك سوى مبلغ "500" دُولار، والذي استطاع - فيما بعد - تأسيس بنك "كُون لُوب وشُركاه".

واستطاعت عائلة "غُوغنهايم" السّالفة الذِّكْر من بدايات بسيطة أنْ تُسيطر في فترة وجيزة على مناجم الذّهب والفضَّة والنُّحاس والقصدير، وحتَّى مناجم الألماس، وكادت تصل في قُوَّتها الماليَّة إلى مصاف "جُون رُوكفلر".

وعلى كُلِّ حال؛ فإنَّ الثّروات التي كان يُديرها رجال المال اليهُود في ذلك الوقت كانت أقلّ من ثروات رجال المال من غير اليهُود أمثال: كانجي، وغني، ومُورغان، وغيرهم. وكانت نوادي رجال المال - حيثُ تُعقد أضخم الصّفقات - مُغلقة في وُجُوه اليهُود.

وهذا يُوضح لماذا لم يستول يهُود أمريكا - حتَّى اليوم - على مراكز اقتصاديَّة قويَّة كالتي بيد الطّبقة الأرستقراطيَّة من الأنكلُوسكسُون المسيحيِّين البروتستانت مثل: "بنك أوف أميركا"، و"بنك تشاز مانهاتن"، وكذلك عدم استطاعة اليهُود الدُّخُول في مجال صناعة الحديد والصّلب، أو صناعة السَّيَّارات، أو شركات النّفط العملاقة، أو الصّناعات الكيماويَّة الضّخمة، باستثناء اليهُوديّ "أرفينغ شابيرو" الذي استطاع أنْ يتسلَّم إدارة مُؤسَّسة "دُوبُونت" إحدى أضخم المُؤسَّسات الاحتكاريَّة للصّناعات الكيمياويَّة.

ولكنَّ قُوَّة رجال المال اليهُود تتجلَّى في بُنُوك الاستثمار مثل: بنك "غُولدمان"، و"شاكس وشُركاه"، و"لُوب"، و"رُودس وشُركاه"، بالإضافة إلى السّيطرة على البُورصات الأمريكيَّة، ممَّا يجعل من الصّعب أنْ تجد شركة احتكاريَّة لا يملك اليهُود ولو جُزءاً من رأسمالها.

ج: الموجة الثّالثة: (موجة هجرة يهُود أُورُوبا الشّرقيَّة من 1880 - 1924):

بدأت هجرة يهُود رُوسيا وأُورُوبا الشّرقيَّة على أثر موجة الإرهاب التي شنَّتْهَا حكُومة رُوسيا القَيْصَريَّة ضدَّ اليهُود، وامتدَّت من 1880 - 1924، عندما حدَّدتْ الحكُومةُ الأمريكيَّةُ هجرةَ اليهُود.

وقد عمد أثرياء اليهُود في أمريكا لتقديم المُساعدات الماليَّة إلى القادمين الجُدُد من أجل توطينهم في العالم الجديد؛ حيثُ كان مُعظمهم من الفُقراء.

لقد جلبت موجة الهجرة الثّالثة ما يُقارب 8، 2 مليون مُهاجر يهُوديّ إلى أمريكا؛ بحيثُ بلغ عدد اليهُود فيها عام 1924، أكثر من ثلاثة ملايين.

وقد شعر زُعماء أمريكا (بعد فوات الأوان) بخَطَر هذه الهجرة؛ خاصَّة وأنَّ هُناك خُطَّة يُموِّلها أثرياء يهُود في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة بتجميع أكبر عدد من اليهُود في العالم الجديد. وقد كان هنري فُورد من أبرز المُناهضين لهذه الهجرة، ممَّا دفع اليهُود عام 1927، إلى مُقاطعة سيَّارات فُورد، ومُقاضاته أمام المحاكم بتُهمة إهانة الشّعب اليهُودي[1].

امتاز اليهُود القادمون من أُورُوبا الشّرقيَّة بالتَّعصُّب الدِّينيّ والقوميّ، والوُقُوف ضدّ إذابة اليهُود داخل المُجتمع الأمريكي.

وقُلنا إنَّ مُعظم هؤلاء المُهاجرين كانوا فُقراء، وعملوا في مُختلف المهن اليدويَّة كَحلاَّقين، وخبَّازين، وسائقي تاكسي، وأصحاب مطاعم مُتواضعة. ولكنْ؛ مع مُرُور الزّمن استطاعوا السّيطرة على صناعة الملابس، وأكثر من نصف صناعة المشروبات الرُّوحيَّة، وشركات أسواق البيع؛ مثل شركة "دافيد ماي كُومباني" التي تملك أكثر من 70 مخزناً ضخماً، وشركة "فيدريتد ديان تمنت ستورز". أمَّا عائلات: لاسكي، وزينغلد، وشوبرت، وبلاسكو، فقد انصرفوا إلى المسرح والفُنُون الاستعراضيَّة، فيما انتقل "غولدواين" و"ماير" من نيُو يُورك إلى هُوليُود؛ ليُؤسِّسوا ـ هُناك ـ عاصمة السّينما العالميَّة. ويُعتبر اليهُود ـ اليوم ـ عماد الإنتاج السّينمائي والتّلفزيوني والاستعراضي في الولايات المُتَّحدة، فهُم المُخرجُون والمُمثِّلون والمُغنُّون والمُهرِّجُون.

ويُسيطر اليهُود على أكثر الصُّحُف انتشاراً في الولايات المُتَّحدة؛ مثل: صحيفة "وورلد" (العالم) التي تصدر في نيُو يُورك، وقد أسَّسها اليهُوديّ "بوليتزر"، وكذلك صحيفة "نيُو يُورك تايمز" التي أسَّسها اليهُوديّ النّمساوي "أدولف أوكس).

---

(1) تحدَّثنا في القسم الثّاني من الكتاب، عن الفصل الرّابع من كتاب "اليهُوديّ العالمي"، واصطدام اليهُود بهنري فُورد، ومُحاولتهم السّيطرة على مُؤسَّسته لصناعة السَّيَّارات المشهورة.

وإذا كان بعض اليهُود الشّرقيِّين لم يستطيعوا تحقيق نجاح اقتصادي باهر، فإنَّ أبناءهم استطاعوا تحقيق ذلك؛ حيثُ أصبحت نسبة عاليَّة من الأطبَّاء والصّيادلة والمُهندسين وأخصائيِّي الإلكترون والكيمياء والحُقُوقيِّين (المُحامين) منهم. والذين لم يستطيعوا تبوأ مراكز اجتماعيَّة، فقد لجؤوا إلى مهنة التّدريس، حتَّى إنَّنا نستطيع القول إنَّ المُستوى الثّقافي لليهُود في أمريكا يفوق المُعدَّلَ الثّقافيَّ العامَّ في الشّعب الأمريكي بدرجة كبيرة.

د: الموجة الرّابعة: بدأت من 1930 - 1940:

بدأت هذه الموجة مع بداية الأزمة الاقتصاديَّة في أُورُوبا عام 1930، وبلغت أوجها على إثر تسلُّم النّازيِّين بزعامة هتْلَر الحُكْم في ألمانيا عام 1933، واستمرَّت حتَّى بداية الحرب العالميَّة الثّانية، وكان مُعظمها من يهُود ألمانيا وأُورُوبا الوُسْطَى (قدم في هذه الهجرة هنري كيسنجر وزير خارجيَّة أمريكا الأسبق، وكان صبيّاً يافعاً).

كان مُعظم هؤلاء المُهاجرين من الذين يتمتَّعون بثقافة عالية. فقد كان بينهم العُلماء والأطبَّاء والمُحامون والمُخرجُون السّينمائيُّون والصُّحُفيون، وكان بعضهم من الأثرياء. لذلك فقد تمكَّن هؤلاء المُهاجرون الجُدُد من تبُّوؤ مراكز مرموقة بسُرعة تلفت النَّظَر بسبب الدَّعْم الذي قدَّمتْهُ لهم المُنظَّمات الصّهيُونيَّة؛ حيثُ وَضَعَتْهُم في المراكز التي تخدم مصالحها، وبسبب ثقافاتهم، وخبراتهم العالية، لذلك؛ فلا عَجَبَ إذا رأينا أنَّ قسماً كبيراً من أساتذة الجامعات هُم من بين اليهُود الذين قدموا إلى أمريكا مع موجة اليهُود الرّابعة، ومُعظمهم يتمركز في أشهر الجامعات الأمريكيَّة، مثل جامعة هارفارد، وبرينستون، وكُولُومبيا.

وهكذا أصبح اليهُود يلعبون في أمريكا دوراً هامَّاً في الحياة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والثّقافيَّة، وهذا الدّور يفوق بكثير الدّور الذي تلعبه الأقلِّيَّات الأُخرى في المُجتمع الأمريكي. إنَّه دور هامٌّ ومُؤثِّر في مُختلف نواحي الحياة في الولايات المُتَّحدة، ويفوق بكثير ما يُخوِّله لهم له عددهم الذي لا يتجاوز 3٪ من سكَّان أمريكا.

هـ: الموجة الخامسة:

وعلينا أنْ نذكر أنَّ هُناك موجة خامسة للهجرة اليهُوديَّة إلى أمريكا من الاتِّحاد السُّوفياتي ودُول الكُتلة الاشتراكيَّة (سابقاً)، وكانت ضعيفة أوَّلاً بسبب مُعارضة الاتِّحاد السُّوفياتي لهذه الهجرة، وكان يتَّجه قسم منها إلى (إسرائيل). ولكنْ؛ بعد انهيار الاتِّحاد السُّوفياتي عام 1990، والسّماح لليهُود الرُّوس بالهجرة إلى خارج رُوسيا، تدفَّقت أعداد هائلة من يهُود رُوسيا تجاوزت المليون نسمة، ومع أنَّ الصّهيُونيَّة العالميَّة تبذل جُهُوداً كبيرة بتوجيه هذه الهجرة إلى (إسرائيل)، إلاَّ أنَّ الكثيرين من اليهُود الرُّوس تمكَّنوا من الهجرة إلى أمريكا؛ بسبب الظُّرُوف الصّعبة في (إسرائيل).

هذا؛ وبلغ عدد اليهُود الرُّوس الذين تدفَّقوا إلى (إسرائيل) في الخمس سنوات الأخيرة، ومُنذُ عام 1990، حوالي 750 ألف نسمة، وفي انتخابات الكنيست الأخيرة (1996)، أصبح لهم سبع نُوَّاب يُمثِّلونهم في الكنيست.

ولابُدَّ ـ الآن ـ من الحديث عن مدى النُّفُوذ والسّيطرة الصّهيُونيَّة في أقوى دولة في العالم، ألا وهي الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

لقد جاءت السِّياسة الأمريكيَّة مُنذُ قيام (إسرائيل) (وقبل ذلك بعدَّة سنوات) مُعبِّرة عن آمال وأحلام الصّهيُونيَّة، دُون أيِّ اعتبار لوُجهات النَّظَر العَرَبيَّة حول قضيَّة فلسطين بشكل خاصٍّ، وحول آمال الأُمَّة العَرَبيَّة في التَّحرُّر الوطني والوحدة بشكل عامٍّ.

والآن؛ ما هي أسباب هذا التَّبنِّي شبه الكامل لأهداف وآمال الحَرَكَة الصّهيُونيَّة؟

وكيف استطاع التَّجمُّع اليهُوديّ الأمريكي فَرْضَ نفسه كقُوَّة ضاغطة ومُؤثِّرة في السِّياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة بشكل عامٍّ، وسياستها في الشّرق الأوسط بشكل خاصٍّ؟

وكثيراً ما نسمع وما يُقال إنَّ أمريكا ليست لها سياسة واضحة ومُحدَّدة في المشرق العَرَبيّ، وإنَّما سياستها في المنطقة تبنِّي أهداف الحَرَكَة الصّهيُونيَّة، وما تُريده (إسرائيل).

وعلى كُلِّ حال؛ للإجابة عن السُّؤالَيْن السّابقَيْن، لابُدَّ لنا من إلقاء نظرة خاطفة على مَنْ يحكم الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

مَنْ يحكم الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة[1]؟

علينا أوَّلاً أنْ نُلقي نظرة سريعة على الجَغرافية السُّكَّانيَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وعلى البيئة السِّياسيَّة والثَّقافيَّة فيها[2].

تتميَّز الولايات المُتَّحدة من غيرها من الأُمم من حيثُ كونها ليست بالأُمَّة ـ الدَّولة، ذلك أنَّها تجمع خليطاً مُتعدِّداً من الشُّعُوب المُختلفة، والقوميَّات المُتعدِّدة، إنَّها مُجتمع تعدُّدي.

وقد سَمَحَ النِّظامُ السِّياسي القائم في أمريكا لهذه القوميَّات والعُرُوق بحُرِّيَّة تنظيم هيئات تخدم مصالحها الخاصَّة القوميَّة والدِّينيَّة في إطار لا يتعارض مع المصلحة العامَّة، أو ما يُسمَّى بالأمن القوميّ، وقد استفاد اليهُود من هذه النَّاحية في إنشاء مُؤسَّساتهم وجمعيَّاتهم ونواديهم الخاصَّة بهم.

وقد وَجَدَتْ الحَركَة الصّهيُونيَّة في البيئة الأمريكيَّة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة خيرَ بيئة يُمكن التَّأثير فيها على النِّظام القائم لصالح قضيَّتها، فاستفادت من وَضْعها السُّكَّاني، واستغلَّتْهُ أفضل استغلال في التَّأثير على الانتخابات في أمريكا. فعلى الرَّغم من أنَّ نسبة اليهُود هي حوالي 3٪ من مجموع سُكَّان الولايات المُتَّحدة إلاَّ إنَّهم يقطنون في اثنتَيْ عشرة ولاية ذات أهمِّيَّة استراتيجيَّة بالنِّسبة للعمليَّة الانتخابيَّة، وهذه الولايات هي: نيُو يُورك، نيُوجرسي، ماساشُوستس، بنسلفانيا، ألينوي، كاليفُورنيا، ماري لاند، فلُوريدا، كانيكتكت، ميتشيجان، تكساس، أوهايُو.

وقد جاء نظام الانتخابات ليخدم الصّهيُونيَّة خدمة هامَّة؛ بسبب تجمُّع اليهُود في هذه الولايات ذات التَّأثير الحاسم في نتائج الانتخابات؛ إذْ يقضي قانون انتخابات الرِّئاسة بأنَّه إذا

---

(1) استعنَّا في هذا الموضوع بمقال للأُستاذ إبراهيم إبراهيم جاء في مجلَّة العَرَبيّ، العدد 298، أيلول 1983، ص 17.

(2) للاطِّلاع ـ بشكل كامل ـ على تاريخ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وكيف تمَّت إبادة الهُنُود الحُمر، وعلى الحرب الأهليَّة، وعلى الثَّورة الأمريكيَّة، وعلى تحرير العبيد، وعلى التَّعدُّديَّة السُّكَّانيَّة فيها، وعلى الولايات والمُدُن الأمريكيَّة، والثَّروات، والمساحة، والرُّؤساء، والدُّستُور، والجيش، والاستخبارات، والكُونغرس، والأديان، والعلاقة بين (إسرائيل) وأمريكا، وغيرها، يُراجَع الكتابُ المُهمُّ (الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة من الخيمة إلى الإمبراطُوريَّة)، مُرفق مع الكتاب خريطة شاملة للولايات المُتَّحدة، إعداد ديب علي حسن، مُراجعة وتدقيق إسماعيل الكُردي، ط1، 2002، ط2، 2004.

فاز أحد المُرشَّحين بنسبة 51٪ من مجموع الأصوات الشّعبيَّة في ولاية مُعيَّنة، فإنَّه يضمن - بصُورة تلقائيَّة - كَسْبَ جميع أصوات الهيئة الانتخابيَّة في تلك الولاية.

وحيثُ أنَّ التَّجمُّع اليهُوديّ موجود في تلك الولايات التي تملك أكثر أصوات الهيئة الانتخابيَّة؛ لذا وجب على كُلّ مُرشَّحي الرّئاسة التّنافس فيما بينهم في الإعلان عن ولائهم للصّهيُونيَّة و(إسرائيل).

ومُنذُ انتقلت المُنظَّمة الصّهيُونيَّة العالميَّة خلال الحرب العالميَّة الثّانية من أُورُوبا (من بريطانيا بالذّات) إلى الولايات المُتَّحدة؛ عملت جاهدة على إقامة مُؤسَّسات يهُوديَّة مُحكمة في تنظيمها غاية الإحكام، مُخلصة في ولائها كُلَّ الإخلاص، نشيطة في عملها كُلَّ النّشاط، لا هَمَّ لها، ولا شاغل، إلاَّ كَسْب الرّأي العامّ الأمريكي لقضيَّتها، والتّأثير من خلال ذلك "الرّأي العامّ" على الإدارة الأمريكيَّة، ومُمثِّلي الشّعب "الكُونغرس". وعدد هذه الهيئات اليهُوديَّة كبير ومُتخصِّص. ومن أهمِّ هذه الهيئات الفاعلة والمُؤثِّرة في الحياة السِّياسيَّة الأمريكيَّة وذات الأثر الفعَّال في العلاقات العَرَبيَّة الأمريكيَّة مثل:

1: الفرع الأمريكي للوكالة اليهُوديَّة المُرتبطة بالحُكُومة الإسرائيليَّة.

2: مجلس الكَنيس اليهُوديّ الأمريكي.

3: المُؤتمر اليهُوديّ العالمي (وهُو المُنظَّمة الرّئيسيَّة لجَمْع الأموال (لإسرائيل)).

4: مُؤتمر رُؤساء المُؤسَّسات اليهُوديَّة الكُبرى، الذي يضمُّ 34 مُؤسَّسة يهُوديَّة.

5: مُؤسَّسة "بْنَاي بْريت" (جمعيَّة العهد، وقد تحدَّثنا عنها بالتّفصيل في القسم الثّاني من هذا الكتاب).

6: هيئة العلاقات العامَّة الإسرائيليَّة التي اتَّخذت من واشنطن العاصمة مقراًّ لها. وهذه الهيئة هي الأداة الفعَّالة وذات النُّفُوذ الكبير لدى الكُونغرس الأمريكي والبيت الأبيض.

وكُلُّ هذه المُؤسَّسات والهيئات تعمل على جباية المال لعون (إسرائيل) ومُساعدتها، إلاَّ أنَّ هذه التّبرُّعات (وهي مُعفاة من الضّرائب) تُستعمل - أيضاً - وبشكل مُكثَّف للتّدخُّل في الانتخابات المحلِّيَّة والبلديَّة وانتخابات الكُونغرس وحُكَّام الولايات، وأهمُّ من ذلك انتخابات

الرّئاسة الأمريكيَّة ؛ أيْ السُّلطة التّنفيذيَّة ذات الهيبة والقُوَّة التي لا مثيل لها في أيَّة حكُومة برلمانيَّة في أيَّة دولة غربيَّة أُخرى.

إنَّ جماعات الضّغط والقوى الضّاغطة (اللُّوبي الصّهيُوني) في الحياة السِّياسيَّة الأمريكيَّة من حيثُ تنظيمها وأهدافها وتشعُّب اهتماماتها ونشاطاتها أشبه بحكُومة داخل حكُومة : تعمل ليل نهار وعلى مدار السّنة في جميع مجالات الحياة السِّياسيَّة الأمريكيَّة.

إنَّها جماعات مُتراصَّة ذات صلة عُضويَّة (بإسرائيل)، واهتماماتها شاملة وعامَّة لما يجري داخل الولايات المُتَّحدة وخارجها من مشاكل عالميَّة مُعقَّدة لا يُمكن لجماعات الضّغط في أيِّ دولة الإلمام، أو الإحاطة بها.

النُّخبة اليهُوديَّة عقل أمريكا:

لا شَكَّ في أنَّ تواجد اليهُود في الولايات الرّئيسيَّة الصّناعيَّة وفي المُدُن الكُبرى وانخراطهم في الحياة الاجتماعيَّة والثّقافيَّة قد ساعد على تقوية نُفُوذهم كقُوَّة ضاغطة في واشنطن العاصمة.

وممَّا زاد في نُفُوذ اليهُود وقُوَّتهم الضّاغطة هجرة جماعات يهُوديَّة إلى الولايات المُتَّحدة في فترة ما بين الحربَيْن العالميَّتَيْن، وما بعدهما، تضمُّ نُخبة من كبار المُفكِّرين والأُدباء والعُلماء اليهُود الأُورُوبيِّين، كان العالم الجديد في أشدِّ الحاجة إليهم، فاستقبلت جامعات الشّاطئ الشّرقي المشهورة مثل: جامعة هارفارد، وبرنستون، وييل، وكُولُومبيا، وكُورنيل، هؤلاء القادمين بشوق وترحاب. وغنيٌّ عن القول إنَّ هذه الجامعات المشهورة هي التي تصنع عقل أمريكا ورُوحها، وتصوغ فلسفتها السِّياسيَّة، وتعمل على تطبيقها.

هذا؛ بالإضافة إلى اتِّجاه اليهُود بكُلِّ ما لديهم من قُوَّة نحو التّعليم. ففي مُنتصف السِّتِّينات تخرج 80٪ من الطَّلَبَة اليهُود في الجامعات مُقابل 40٪ من طَلَبة مُجمل الشّعب الأمريكي. وكذلك الحال مع أساتذة الجامعات، فإنَّ عدد الأساتذة اليهُود 10٪ من مجموع الأساتذة الآخرين، علماً بأنَّ نسبتهم تقلُّ عن 3٪ من مجموع السُّكَّان. هذا؛ وفي الجامعات المشهورة مثل هارفارد، فإنَّهم يُؤلِّفون حوالي 33٪ من هيئة التّدريس فيها.

وأُضيف أنَّ النّسبة الأمريكيَّة البروتستانتيَّة رحَّبتْ بالنُّخبة اليهُوديَّة المُهاجرة لشُعُورها بالقُربى الرُّوحيَّة مع اليهُود. والحقيقة أنَّ التّحالف البروتستانتيّ الصّهيُونيّ نابع - في الأساس - من عداء الطَّرَفَيْن التّاريخي والتّقليدي للإسلام، ولكُلِّ مَنْ اعتنق هذا الدِّين الحنيف، ودافع عنه، والعَرَب - كما هُو معروف - مادَّة الإسلام، وعموده المتين، هذا؛ بالإضافة إلى أنَّ الأُصُوليَّة البروتستانتيَّة - بتقديسها التّوراة - جَعَلَت من البروتستانت أكبر قُوَّة مُؤيِّدة لعودة اليهُود إلى أرض المعاد؛ تحقيقاً لنُبُوءة التّوراة. وعندما قامت (إسرائيل)؛ قدَّم البروتستانت لها صُورة زاهية وقريبة من قلب الإنسان وعقله في مدارسهم وصحافتهم وكنائسهم بكُلِّ فُرُوعها ومذاهبها، وهي كثيرة ومُتنوِّعة.

وبالعكس؛ تعرَّضتْ صُورة الإنسان العَرَبيّ مُمثِّلاً للأُمَّة العَرَبيَّة على يد النُّخبة البروتستانتيَّة تُؤازرها وتُؤيِّدها في ذلك الصّهيُونيَّة، إلى السُّخرية والازدراء، وصوَّرت العَرَبيّ بالبدوي المُتخلِّف عدوّ الحضارة والتَّقدُّم.

لقد وَعَتْ الحَرَكَة الصّهيُونيَّة - مُنذُ ولادتها - أنَّها في حاجة دائمة ومُستمرَّة إلى حماية قُوَّة عُظمى تربط نفسها بها وبمصالحها.

في البدء؛ كانت بريطانيا العُظمى، ويوم شعرت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة - خلال الحرب العالميَّة الثّانية - بقُرب أُفُول نجم الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة انتقلت - بكُلِّ ثقلها - إلى الولايات المُتَّحدة، وقدَّمتْ نفسها كحليف أمين للدّولة العُظمى الجديدة ذات المصالح المُتنامية في منطقة الشّرق الأوسط.

لقد استفادت الحَرَكَة الصّهيُونيَّة بشكل عامٍّ إفادة هائلة من الجرائم النّازيَّة في أُورُوبا، وضخَّمتْ مأساة اليهُود في ألمانيا الهتْلَريَّة، إلى حَدٍّ كبير، وساعدها في ذلك تغلغلها في وسائل الإعلام والجامعات في أمريكا؛ بحيثُ أصبحت أبواب المُؤسَّسات الأمريكيَّة اللِّيبراليَّة مفتوحة لليهُود دُون طَرْق الأبواب.

وقد استطاعت الصّهيُونيَّة - من خلال ذلك - تحقيق ما يلي:

1: خَلْق "عصبيَّة" يهُوديَّة بين يهُود أمريكا، وتحويل المُنظَّمة الصّهيُونيَّة إلى مُنظَّمة تنطق باسم اليهُود كَكُلٍّ.

2: التّشديد على التّطابق الكُلّي بين الصّهيُونيَّة كحَرَكَة سياسيَّة واليهُوديَّة كَدين، حتَّى أصبح أيُّ رَفْض للصّهيُونيَّة في أمريكا هُو عداء للسّاميَّة (أيْ لليهُود).

3: تكريس وتضخيم دور الصّهيُونيَّة كمُمثِّلة لليهُوديَّة العالميَّة، وخاصَّة يهُود الاتِّحاد السُّوفياتي سابقاً، وكان في ذلك إحراج للاتِّحاد السُّوفياتي بقدر ما هُو خدمة عظيمة للولايات المُتَّحدة.

4: استطاعت الصّهيُونيَّة إيهام المسيحيِّيْن الأُصُوليِّيْن (أمثال البروتستانت والبيورتيان) بأنَّ (إسرائيل) المُعاصرة ما هي إلاَّ تحقيق لنُبُوءة الكتاب المُقَدَّس.

5: سعت الصّهيُونيَّة إلى كَسْب عطب الشّعب الأمريكي من خلال زَعْمها بأنَّ (إسرائيل) دولة صغيرة ضعيفة تُمثِّل الدِّيمُقراطيَّة والحُرِّيَّة والحضارة في مُحيط من ملايين العَرَب الأعداء المُتخلِّفين.

موقف الولايات المُتَّحدة من القضيَّة العَرَبيَّة:

لقد أهملتْ الولاياتُ المُتَّحدة العاملَ العَرَبيّ في الشّرق الأوسط، فأعطتْ (إسرائيل) حجماً وثقلاً لا يتَّفقان - بأيِّ حال من الأحوال - مع حجمها الطّبيعي، من حيثُ المساحة والكثافة السُّكَّانيَّة، ممَّا جَعَلَ السّاحة السِّياسيَّة الأمريكيَّة مُقتصرة على اليهُود، واحتلَّتْ (إسرائيل) مركز الصّدارة لدى رجال الحُكْم في أمريكا من أعضاء الكُونغرس إلى رجال الحُكُومة المركزيَّة، بحيثُ أصبحت (إسرائيل) مع تدرُّج الأيَّام امتداداً للولايات المُتَّحدة في الشّرق الأوسط، بل ولاية جديدة أُضيفت إلى الاتِّحاد الأمريكي (ولكنَّها ولاية تستأثر برعاية وعناية لا تتمتَّع بها الولايات الأمريكيَّة الأُخرى).

والحقيقة أنَّ غياب العالم العَرَبيّ واحتلال (إسرائيل) مركز الصّدارة لم يكن مُجرَّد صُدفة، أو نتيجة جَهْل أمريكي، ونَقْص في المعلومات، وإنَّما هُو نابع من السِّياسة العامَّة للولايات المُتَّحدة، ومن نَظْرتها إلى دُول العالم الثّالث بما فيها الدُّول العَرَبيَّة، على أنَّها مُستعمرات تحرَّرتْ من الاستعمار الأُورُوبيّ؛ لتحلَّ محلَّه الإمبرياليَّة الأمريكيَّة، وعلى هذه الدُّول أنْ تنضوي تحت النُّفُوذ الأمريكي، وتبقى في إطار نظام أمن الدُّول الغربيَّة. وهكذا لم

تكن الولايات المُتَّحدة مُهيَّأة يوم ظهرت كقُوَّة عالميَّة فـي أعقـاب الحـرب العالميَّـة الثَّانيـة لتفـهم المسألة القوميَّة العَرَبيَّة وقضيَّة الاستقلال الوطني.

ومـع تطـوُّر الحـرب البـاردة بعـد الحـرب العالميَّـة الثَّانيـة بـين العملاقَيْـن الولايـات المُتَّحـدة والاتِّحاد السُّوفياتي، أصبح هاجس "الخَطَر الشُّيُوعي" بمثابة حجر الزّاوية في السِّياسة الأمريكيَّة تجاه منطقة الشّرق الأوسـط. فالشّـرق الأوسـط - كمـا تـراه واشـنطن - إنَّمـا هُـو مُجـرَّد منطقـة جَغرافيَّة تقع بين الاتِّحاد السُّوفياتي والغـرب، وهُـو العُمـق الاسـتراتيجي لحلـف الأطلسـي. وهكذا؛ فإنَّ القضيَّة الفلسطينيَّة ومُشـكلة الصّـراع العَرَبـيّ الإسـرائيليّ وقضيَّـة الأمـن العَرَبـيّ وتطلُّعات العَرَب نحو التَّحرُّر والاستغلال والوحدة، إنَّما هـي قضايـا ثانويَّـة بالنِّسـبة للقضيَّـة الأساسيَّة، ألا وهي أمـن الولايـات المُتَّحـدة وأمـن أُورُوبـا الغربيَّـة، حتَّـى إنَّ أمريكـا تجـد فـي التَّحرُّر العَرَبيّ والوحدة العَرَبيَّة أكبر خطر على نُفُوذها وأمنها ومصالحها في الشّرق الأوسط. ولذلك نرى أنَّ كُـلَّ البـرامج الأمريكيَّـة التـي عُرضـت علـى الأقطـار العَرَبيَّـة ابتـداءً مـن مبـدأ ترُومان ومبدأ أيزنهاور إلى مبدأ كارتر وريغان، كُلُّها تدور حول احتواء الأقطار العَرَبيَّـة تحـت جناح أمريكا دُون النَّظَر إلى مشاكلها وأمانيها القوميَّة وحُقُوق الفلسطينيِّيْن الضّائعة وإنصـاف العَرَب من غطرسة (إسرائيل) النّاتجة عن الرّعاية والحماية التي تُحيطها بها أمريكا نفسها.

إنَّ الموقعَ الاستراتيجيَّ الهامَّ للبلاد العَرَبيَّة في وسط العـالم القديـم، ووُجُـود أكـثر مـن ثُلثَيْ الاحتياطي النّفطي العالمي في الأقطار العَرَبيَّة، وخاصَّة تلك المنطقـة المُطلَّـة علـى الخليـج العَرَبي، والنّفط - كما هُو معروف - عصب الحياة في الحضارة المُعاصرة، ودمها الحارّ الـذي لا تقوى علـى العيـش بدُونـه، وعـدم الاسـتقرار الـذي يتَّصـف بـه هـذا الجُـزء الـهامُّ مـن العـالم (وإسرائيل) هي السّبب الرّئيسي لعدم الاستقرار هذا، كُلُّ هذا جَعَلَ الولايات المُتَّحدة بحاجة ماسَّة إلى شرطي يحفظ مصالحـها ومصـالح الغـرب عامَّـة فيـه. هُنـا؛ قدَّمـت الصّهيُونيَّـة فـي أمريكا (إسرائيل) على أنَّها الشّرطي المطلوب لهذه المهمَّة، وأنَّها هي - وحدهـا - القـادرة علـى ذلـك، ممَّـا جَعَـلَ أمريكـا - خاصَّـة، والغـرب عامَّـة - يُغـدق المُسـاعدات والدَّعْـم غـير المحـدود (لإسرائيل)، ويُيسِّر لها كُلَّ سُبُل القُوَّة والمَنَعَة للقيام بهذا الدّور على أحسن وأكمل وجه.

قيمة (إسرائيل):

وقد جاء في دراسة عُنوانها "قيمة (إسرائيل) الاستراتيجيَّة"، والتي نَشَرَتْهَا ووزَّعَتْهَا هيئة العلاقات العامَّة الإسرائيليَّة ـ الأمريكيَّة في واشنطن في أعقاب الحرب اللُّبنانيَّة مُباشرة عام 1982، ما يلي:

تتمتَّع (إسرائيل) بمُميِّزات فريدة بالنِّسبة للاستراتيجيَّة الأمريكيَّة لعدَّة أسباب أهمّها:

1: موقع (إسرائيل) الجيُو ـ ستراتيجي بين أُورُوبا الغربيَّة والخليج العَرَبيّ، الأمر الذي يُؤهِّلها للقيام بدور رئيسي لخدمة التّخطيط الحربي الأمريكي في منطقة الخليج، وفي البحر المُتوسِّط، بل وفي أُورُوبا الغربيَّة.

2: الاستقرار السِّياسي: فبينما تُعاني مُعظم الدُّول العَرَبيَّة الصّديقة للولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة من عدم الاستقرار، فإنَّ (إسرائيل) هي الدّولة الوحيدة القائمة على مُؤسَّسات ديمُقراطيَّة أصيلة.

3: تتميز حُكُومة (إسرائيل) عن مُعظم الحُكُومات العَرَبيَّة المُتعاونة مع أمريكا بوُجُود قاعدة شعبيَّة عريضة لها، وعليه؛ فالاعتماد على (إسرائيل) لا يعني الاعتماد على حُكُومة (إسرائيل) فقط، بل الاعتماد على الشّعب الإسرائيليّ أيضاً.

4: بالإضافة إلى أنَّ (إسرائيل) تعيش في قلب الأُمَّة العَرَبيَّة التي تكنُّ لها العداء؛ لأنَّها قامت على الاغتصاب، وتشريد الشّعب العَرَبيّ الفلسطينيّ من دياره، فهي في حاجة ماسَّة لحماية الغرب لها، كما أنَّ الغرب بحاجة لها لحماية مصالحه في المنطقة، وهكذا؛ فالمصالح والخدمات مُتبادلة بين (إسرائيل) والغرب.

لقد لقيت هذه الدّراسة المذكورة التي وُزِّعتْ على رجال الكُونغرس والبيت الأبيض آذاناً صاغية، فلُغتها ليست غريبة عن لُغة الصّفوة الأمريكيَّة الحاكمة، بل هُناك تطابق كامل بين ما جاء فيها وبين التّخطيط الاستراتيجي الأمريكي حول "قُوَّات الرَّدْع السّريعة". (فإسرائيل) ـ كما صوَّرتْهَا هذه الدّراسة ـ لا تزيد عن كونها إحدى حاملات الطّائرات

الأمريكيَّة في شرق البحر الأبيض المُتوسِّط ، لا أكثر ، ولا أقلّ ، وهذا عين ما ترغب أنْ تراه القيادة السِّياسيَّة والعسكريَّة في واشنطن .

والمطلوب ـ اليوم ـ ظُهُور الأُمَّة العَرَبيَّة على السّاحة ، فلا يصحُّ ولا يجوز أنْ يستمرَّ الغياب العَرَبيّ عن عقل رجال الاستراتيجيَّة في البينتاغون والبيت الأبيض ، بينما تستمرُّ (إسرائيل) وجماعات الضّغط الصّهيُونيَّة تحتلُّ مركز الصّدارة هُناك ، وقد أصبح من باب البديهيَّات القول إنَّ قُوَّة (إسرائيل) وجماعات الضّغط الصّهيُونيَّة نابعة من حالة التّشرذم في صُفُوف القيادات العَرَبيَّة ، كما أنَّ إهمال السِّياسة الأمريكيَّة للمصلحة العَرَبيَّة عائد ـ في الأساس ـ إلى انقسام العالم العَرَبيّ على نفس ، وحالة الضّعف النّاتجة عن ذلك .

إنَّ حالة التّشرذم في صُفُوف العَرَب ـ مهما كانت أسبابها ـ يجبُ وَضْع حَدٍّ لها ، فالخطر الصّهيُونيّ الإسرائيليّ هُو خطر على الأُمَّة العَرَبيَّة جمعاء ، دانيها وقاصيها ، لا يسلم منه أحد ، والأمن الإسرائيليّ الذي يُنادي به سَاسَة (إسرائيل) لا يقف عند حَدٍّ ، ولا يسلم منه أحد ، إنَّ التّشرذم العَرَبيّ هُو من صُنْع الأجنبي المُستعمر هُو الذي أوجده ، وهُو الذي يُغذِّيه[1] . إنَّ الصّراع بيننا وبين اليهُود هُو صراع البقاء أو عدمه ، ففي صراعات الأُمم لا يُوجد حلٌّ وسط : إمَّا غالب أو مغلوب .

إنَّ تحوُّل العلاقات بين الدُّول لا يتمُّ عن طريق القوى الضّاغطة في هذه الدّولة أو تلك ، وإنَّما يتمُّ من خلال تغيُّر في المصالح . وقد صَدَقَ مايكل هدرسُون من كبار أساتذة العلاقات الدّوليَّة حين قال : « إنَّ العوامل الحاسمة في تقرير السِّياسة الأمريكيَّة تجاه الشّرق الأوسط إنَّما هي الأحداث التي تقع في منطقة الشّرق الأوسط ، لا الأحداث التي تقع في واشنطن » .

ونحنُ العَرَب بيدنا الكثير من وسائل الضّغط على أمريكا ، والتي لا تحتاج منَّا إلاَّ لبعض التّضامن والتّنسيق في استخدامها .

---

(1) إنَّ حالة التّشرذم في صُفُوف الأُمَّة العَرَبيَّة هي من صُنع الاستعمار الغربي ، فالحقيقة أنَّ الغرب ـ وعلى رأسه بريطانيا ، ثُمَّ الولايات المُتَّحدة و(إسرائيل) ـ هُو الذي يُغذِّي الانقسامات والخلافات العَرَبيَّة ، وهُو الذي يقف في وجه أيِّ تقارب عَرَبي ، ولو بين قُطرَيْن ـ فقط ـ من الأقطار العَرَبيَّة . إنَّ أيَّ وحدة عَرَبيَّة أو تقارب عَرَبي يعتبره الغرب ـ وخاصَّة أمريكا و(إسرائيل) ـ هُو خطر شديد على مصالح الغرب وأمريكا و(إسرائيل) .

وفي التّاريخ المُعاصر شواهد كثيرة على صحَّة هذا القول؛ إذْ لم يكن هُناك وُجُود لقوى ضاغطة فيتناميَّة لها نُفُوذ في واشنطن، وإنَّما تمَّ الضّغط على أمريكا على أرض فيتنام نفسها، وكذلك لم نسمع عن وُجُود قوى ضاغطة جزائريَّة في باريس أثناء حرب التّحرير الجزائريَّة، إنَّما تمَّ الضّغط على فرنسا على أرض الوطن الجزائري، وأجبر فرنسا على الخُضُوع للمطالب الجزائريَّة والاستقلال.

سُوريَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة:

وأخيراً؛ لابُدَّ لي في نهاية الحديث عن الحَركَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة من التّحدُّث عن مواقف القُطر العَرَبيّ السُّوري المُشرِّفة من القضيَّة الفلسطينيَّة مُنذُ بدايتها، وحتَّى يومنا هذا، وذلك عرفاناً بالجميل، وبالمواقف النّبيلة للشّعب العَرَبيّ السُّوري؛ حيثُ إنَّ سُوريَّة لم تدَّخر جهداً في سبيل نصرة عَرَب فلسطين، والوُقُوف بجانبهم، والدّفاع عن عُرُوبة فلسطين، واعتبار القضيَّة الفلسطينيَّة قضيَّتها الأُولى.

لقد كانت مواقف الشُّعُوب والحُكُومات العَرَبيَّة في مُختلف الأقطار العَرَبيَّة - بشكل عامٍّ - مواقف مُشرِّفة من القضيَّة الفلسطينيَّة، فالجميع وقفوا بجانب عَرَب فلسطين، والقضيَّة الفلسطينيَّة، ولكنْ؛ يبقى للقُطر العَرَبيّ السُّوري مواقفه المُتميِّزة مع عَرَب فلسطين، والقضيَّة الفلسطينيَّة؛ حيثُ كانت سُوريَّة - ولا تزال دائماً - في الطّليعة في الوُقُوف بجانب عَرَب فلسطين، وتبنِّي قضاياهم، وكأنَّها قضايا سُوريَّة.

الحقيقة أنَّ سُوريَّة - وبلاد الشّام عامَّة - هي حاملة لواء العُرُوبة في التّاريخ العَرَبيّ المُعاصر، فيها نَبَتَتْ القوميَّةُ العَرَبيَّةُ، ومنها خَرَجَتْ الدّعوة إلى الوحدة العَرَبيَّة، وإعادة أمجاد العَرَب.

وبعد أنْ جزَّأ الاستعمارُ بلادَ الشّام، وَسَلَخَ من سُوريَّة فلسطين ولُبنان والأُردُن، بقيت سُوريَّة قلب العُرُوبة النّابض، ومحطّ آمال العَرَب، وقلعتهم الصّامدة التي لا تلين.

وإذا نحنُ تتبَّعنا تاريخ سُوريَّة المُعاصر تبدو لنا - بجلاء تامٍّ - مواقف سُوريَّة المُشرِّفة الرّائعة في مُقارعة الاستعمار، والنُّفُوذ الأجنبي، والعمل على تحرُّر العَرَب ووحدتهم.

ففي أواخر الحُكْم العُثمانيّ، وعندما أخذت تُركيا تتبنَّى سياسة التّريك، وقفت سُوريَّة وأحرارها ضدَّ هذه السِّياسة الغاشـمة، وشـكَّل شـعبُهَا العَربـيّ الأحـزابَ والجمعيَّات السِّرِّيَّة والعَلَنيَّة التي تُنادي برَفْض سياسـة التّـتريك، وتُنـادي بإعطـاء العَـرَب الاسـتقلال الذّاتـي فـي إدارة شؤُونهم. وأخيراً؛ قام أحرار سُوريَّة بالدّعوة إلى مُؤتمر بـاريس المشـهور 1913؛ حيثُ حضر المُؤتمر مندوبون عن مُختلف الأقطار العَرَبيَّة (وخاصَّـة بـلاد الشّـام والعـراق)، وترأسـه الشّيخ عبد الحميد الزّهراوي (من حمـص)، وانتـهى المُؤتمـر بمُطالبـة الدّولـة العُثمانيَّـة بـالحُكْم الذّاتي للولايـات العَرَبيّـة. رَضَخَـتْ تُركيـا للمطـالب العَرَبيَّـة علـى مَضَـض، وكـانت تتحيَّـن الفُرص المُناسبة للتّراجع عن مُوافقتها علـى المطـالب العَرَبيَّـة، وجـاءت هـذه الفُرصـة المُناسـبة للتّراجع عن مُوافقتها على المطالب العَرَبيَّة في الحرب العالميَّة الأُولى، عندما قـام جمـال باشـا السَّفّاح حاكم بلاد الشّام العُثمانيّ خلال الحرب العالميَّـة الأُولـى بالانتقـام والتّنكيـل بـالأحرار العَرَب بالإعدام والسّجن والتّعذيب والتّشريد كما هُو معروف[1].

وعندمـا قـامت الحُكُومـة العَرَبيَّـة فـي دمشـق برئاسـة فيصـل بـن الحُسـين 1918 - 1920، رَفَضَتْ وعدَ بلفور، والانتدابَ البريطانيّ على فلسطين.

وبعد أنْ انتهى الحُكْم العَرَبيّ في سُوريَّة، وَخَضَعَتْ سُوريَّة للانتداب الفرنسـي، كـانت سُوريَّة ملاذاً لثُوَّار فلسطين في جميع ثوراتهم، وخاصَّة ثورة 1936، الكُـبرى، واشـترك فـي هذه الثّورة وغيرها الكثيرُ من رجال سُـوريَّة، واستشـهد بعضـهم علـى تُـراب فلسـطين (مثـل سعيد العاص)، وكان حي الميدان في دمشق قاعدة للثُّوَّار والثّورة الفلسـطينيَّة الكُبرى، ولـم يقتصر الأمر علـى اشـتراك رجـال سُـوريَّة بـالثّورة الفلسـطينيَّة، بـل كـان السُّـوريُّون يتـبرَّعون - بسخاء - لهذه الثّورة.

ولابُدَّ من القول إنَّ الذي دعا إلى الثّورة الفلسطينيَّة الكُبرى عام 1936، هُـو الشّـيخ عـزّ الدِّين القسَّام، وهُو سُوري من مدينة جَبلة على السّاحل السُّوري؛ حيثُ طَرَدَهُ الفرنسيُّون من

(1) شكَّلَ جمال باشا السَّفّاح محاكمَ عسكريَّة حَكَمَتْ بالإعدام على العشرات من أحرار العَـرَب، وكـان مُعظمـهم ممَّنْ اشتركوا في مُؤتمر باريس عام 1913، وعلى رأسهم رئيس المُؤتمر الشّيخ عبد الحميد الزّهراوي، وقـد نُفِّـذ حُكْـم الإعدام في 1916، بسبعة من هؤلاء الأحرار في دمشق، و14 في بيروت.

سُوريَّة، والتجأ إلى مدينة حَيْفَا في فلسطين، وأصبح فيها خطيباً لجامع الاستقلال، ومن هُناك؛ أخذ بالدّعوة للثّورة الفلسطينيَّة، وقام بإعداد الرّجال وتنظيمهم، ثُمَّ أعلن الثّورة عام 1936، وقادها بنفسه؛ حيثُ استُشهد في أيّامها الأُولى، واستمرّت الثّورة من بعده مُستوحية توجيهاته وأفكاره، ثُمَّ قادها فوزي القاوقجي، الذي قدم من سُوريَّة على رأس بضع مئات من المُتطوِّعين السُّوريِّين للاشتراك في الثّورة الفلسطينيَّة، والمُساهمة مع إخوانهم عَرَب فلسطين في مُقاومة الاستعمار البريطانيّ، وإقامة وطن قوميّ لليهُود في فلسطين.

وعندما قامت الجامعة العَرَبيَّة عام 1945، واجتمعت وُفُود الدُّول العَرَبيَّة في الإسكندريَّة، كان الوفد السُّوري هُو الوفد الوحيد الذي طالب بقيام وحدة عَرَبيَّة، وليس جامعة دُول عَرَبيَّة، ولكنَّ السِّياسة البريطانيَّة المُسيطرة وصاحبة النُّفُوذ القوي في المنطقة العَرَبيَّة حالت دُون قيام وحدة عَرَبيَّة، واكتفى العَرَب بقيام الجامعة العَرَبيَّة بشكلها المعروف حاليّاً.

وعندما تبنَّت الجامعةُ العَرَبيَّة القضيَّةَ الفلسطينيَّة، واعتبارها قضيَّة جميع العَرَب، كانت سُوريَّة أكثر الأقطار العَرَبيَّة إخلاصاً لهذا التَّبنِّي، واندفاعاً للوُقُوف بجانب عَرَب فلسطين، والدّفاع عن عُرُوبة فلسطين.

وفي هيئة الأُمم المُتَّحدة؛ عندما عُرِضت قضيَّة فلسطين عليها عام 1946 ـ 1947، كان مندوب سُوريَّة ـ وهُو الأُستاذ فارس الخُوري ـ أكثر المندوبين العَرَب دفاعاً عن عُرُوبة فلسطين، والوُقُوف ضدَّ تقسيم فلسطين، وكانت مواقفه مثاراً للإعجاب والتّقدير منّا نحنُ عَرَب فلسطين (قبل الخُرُوج من فلسطين).

وسُوريَّة هي الدّولة العَرَبيَّة الوحيدة التي نفَّذت مُقرَّرات مُؤتمر بلودان السِّرِّيَّة، وذلك برَفْضها السّماح لشركة التّابلاين الأمريكيَّة بمَدِّ خطِّ التّابلاين عبر أراضيها لنَقْل النّفط السُّعُودي من رأس تنُّورة على الخليج العَرَبيّ إلى مدينة الزّهراني جنوب صيدا على السّاحل اللُّبناني.

وكانت سُوريَّة أكثر الأقطار العَرَبيَّة اندفاعاً لتقديم المال والسّلاح لعَرَب فلسطين أمام مُعارضة بعض الدُّول العَرَبيَّة. وعندما تمَّ الاتّفاق على تشكيل جيش الإنقاذ؛ كان المُتطوِّعون السُّوريُّون هُم الأكثريَّة في هذا الجيش. ولم يقتصر الأمر على المُتطوِّعين، بل استقال الكثير

من ضُبَّاط وجُنُود الجيش العَرَبيّ السُّوري، لينضمّوا إلى جيش الإنقاذ. هذا؛ بالإضافة إلى المُتطوِّعين من الأطبَّاء وغيرهم من الفنيِّين.

وعندما دَخَلَتْ الجُيُوش العَرَبيَّة إلى فلسطين في 15 أيَّار 1948، قاتل الجيشُ السُّوري بكُلِّ شجاعة وتفانٍ وإخلاص رغم قلَّة عدده وعُدَّته، وقد تمكَّن من احتلال بعض المُستعمرات اليهُوديَّة في منطقة الحولة؛ مثل مُستعمرة: نجمة الصّبح، ومشمار هاعيميك، واستُشهد الكثير من رجال سُوريَّة الأبطال ضُبَّاطاً وجُنُوداً؛ سواء كانوا مُتطوِّعين مع قُوَّات الإنقاذ، أو في جيش سُوريَّة النّظامي.

وعندما قامت المُنظَّمات الفدائيَّة الفلسطينيَّة بالعمل ضدَّ اليهُود، وخاصَّة بعد 5 حُزيران 1967، فَتَحَتْ سُوريَّةُ أبوابَهَا لهذه المُنظَّمات، وأصبحت سُوريَّةُ الملاذَ الآمنَ لهذه المُنظَّمات على اختلاف مشاربها.

وبعد أنْ استلم حزب البعث العَرَبيّ الاشتراكي الحُكْم في سُوريَّة في 8 آذار 1963، زاد اندفاع سُوريَّة في نصرة القضيَّة الفلسطينيَّة، فهُو حزب قوميّ هَدَفُهُ إحياء أمجاد الأُمَّة العَرَبيَّة، والعمل على تحرُّرها ووحدتها ونصرة قضاياها.

وبعد الحَرَكَة التّصحيحيَّة عام 1970، والتي قام بها الرّئيس الرَّاحل حافظ الأسد، زادت مواقف سُوريَّة المُشرِّفة بالنّسبة للقضيَّة الفلسطينيَّة صلابة، وأصبحت سُوريَّة قلعة الصُّمُود والتَّصدِّي (لإسرائيل)، ومُؤامرات الاستعمار.

وفي حرب تشرين التّحريريَّة كانت سُوريَّة المُخطِّط والمُنفِّذ مع مصر لهذه الحرب بقيادة رئيسها حافظ الأسد، وذلك لاسترداد حُقُوق العَرَب التي خسروها في عُدوان 1967.

وعندما قام الرّئيس أنور السّادات رئيس جُمهُوريَّة مصر العَرَبيَّة بالصُّلح المُنفرد مع (إسرائيل) باتِّفاقيَّة "كمب ديفيد عام 1979"، كانت سُوريَّةُ أشدَّ الدُّول العَرَبيَّة رَفْضاً لهذا الاتِّفاق، وانتقاداً له، ولكنْ؛ بعد حرب الخليج وما جرَّتْهُ من انقسامات في الصُّفُوف العَرَبيَّة، وتهافت بعض الدُّول العَرَبيَّة على الصُّلح مع (إسرائيل)، وهَرْوَلَة مُعظم الدُّول

العَرَبيَّة لتطبيع العلاقات مع (إسرائيل)، وإنهاء المُقاطعة العَرَبيَّة معها، هُنا اضطُرَّت سُوريَّة للدُّخُول في مُفاوضات مع (إسرائيل) لتطبيق قرارات الأُمم المُتَّحدة، واستعادة جميع الحُقُوق العَرَبيَّة المُغتَصَبَة، وليس الجولان فقط. ولا تزال سُوريَّة صامدة في وجه المناورات الإسرائيليَّة والضُّغُوط الغربيَّة، وخاصَّة من أمريكا، وترفض أيَّ تطبيع مع (إسرائيل) إلاَّ باسترداد الجولان ومنطقة شبعا في جنوب لُبنان، وحُقُوق الشَّعب العَرَبي الفلسطيني بالعودة إلى بلاده وأرضه ووطنه، وتطبيق قرارات الأُمم المُتَّحدة ومجلس الأمن المُتعلِّقة بالحُقُوق العَرَبيَّة في فلسطين.

هذا؛ ولم تكن مواقف سُوريَّة المُشرِّفة مُقتصرة على القضيَّة الفلسطينيَّة فقط، بل إنَّ مواقف سُوريَّة القوميَّة النّبيلة كانت - ولا تزال - على أروع ما يكون من جميع قضايا الأُمَّة العَرَبيَّة.

فسُوريَّة لم تدَّخر جهداً في سبيل نصرة الثّورة الجزائريَّة، وقدَّمت لها كُلَّ ما تحتاجه من مُساعدة في جميع المجالات، حتَّى تمَّ لهذه الثّورة المجيدة النّصر الرّائع، ثُمَّ استمرَّت سُوريَّة بتقديم المُساعدات للجزائر بعد النّصر، وخاصَّة في نواحي تعريب التّعليم فيها.

وسُوريَّة هي التي أقامت أوَّل وحدة عَرَبيَّة في التّاريخ العَرَبيّ المُعاصر، وذلك بوحدتها مع مصر، ووافقت على كُلِّ ما طَلَبَهُ الرّئيس الرّاحل جمال عبد النّاصر - رحمه الله - في سبيل إتمام هذه الوحدة الرّائعة.

ولكنْ؛ تبقى أعظم الأعمال التي قامت بها سُوريَّة في السّنوات الأخيرة، وهُو إنهاء الحرب الأهليَّة في لُبنان، والتي دامت حوالي 15 سنة، أحرقت الأخضر واليابس، وأدَّت إلى موت وتشريد عشرات الآلاف من سُكَّان لُبنان، بالإضافة إلى المذابح التي تقشعرُّ لها الأبدان، وأخيراً؛ تمكَّنت سُوريَّة بقيادة رئيسها الرّاحل حافظ الأسد وحكمته من إطفاء هذا الحريق البشع في لُبنان، والوُصُول بهذا القُطر العَرَبيّ إلى برِّ الأمان والسّلام، وإعادة الوئام بين جميع أطراف النّزاع فيه.

وآخر مآثر سُوريَّة بقيادة الرّئيس الرَّاحل حافظ الأسد هُو نَزْع فتيل الخلاف بين السُّعُوديَّة واليمن، والذي كاد يجرُّ إلى حرب بين الدّولتَيْن ستكون عواقبها وخيمة على شعبَيْهما، وعلى سائر الأُمَّة العَرَبيَّة.

هذا غيض من فيض من مواقف سُوريَّة المُشرّفة من قضيَّة فلسطين وشعب فلسطين وسائر القضايا العَرَبيَّة.

مُـــلحَــق

هذا المُلحق يُفسِّر ويتحدَّث عن الأحداث من 1990 ـ 2003، وعلاقتها بالصّهيُونيَّة واليهُود.

لقد انتهيتُ من إعداد كتابي هذا (سفْر التَّاريخ اليهُودي اليهُود تاريخهم ـ عقائدهم ـ فرَقهم ـ نشاطاتهم ـ سُلُوكيَّاتهم ـ الحَركَة الصّهيُونيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة دراسة نَقْديَّة موضُوعيَّة) في أواخر عام 1989، ولكنْ؛ مُنذُ ذلك التّاريخ وحتَّى الآن؛ حَدَثَتْ في العالم أحداث هائلة هزَّت أركانه، وكان كُلُّ حَدَث كزلزال مُدمِّر هزَّ العالم، وأدَّى إلى تبدُّلات وتغيُّرات في المفاهيم الدّوليَّة والرُّؤى المُستقبليَّة.

كان لهذه الهزَّات والزّلازل أثر بالغ على الأُمَّة العَرَبيَّة، والقضايا العَرَبيَّة، وخاصَّة قضيَّة فلسطين. وكان للأصابع الصّهيُونيَّة واليهُوديَّة دور هامٌّ في خَلْقها، والتّمهيد لها، والاستفادة منها أقصى فائدة، لتحقيق (إسرائيل) الكُبرى، والسّيطرة على مُقدّرات العالم العَرَبيّ خاصَّة، والعالم عامَّة.

وهذه الأحداث هي حسب تسلسلها الزّمني:

1990: غزو العراق لدولة الكُويت واحتلالها، وبدء التّمهيد لحرب الخليج الثّانية. وفي هذه السّنة؛ بدأت بوادر انفراط الاتّحاد السُّوفياتي تظهر، وبدأ ظُهُور الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة القُطب الأوحد في العالم.

1991: أقامت الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة حلفاً دولياً لطَرْد العراق من الكُويت؛ تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدّولي رَقْم 678. وقد تدفَّقت قُوَّات أمريكا وبريطانيا وفرنسا البرِّيَّة والجوِّيَّة والقُوَّات المُتحالفة معها عَرَبيَّة وغير عَرَبيَّة على السُّعُوديَّة مركز الحشد لهذه القُوَّات؛ للانطلاق منها (بعاصفة الصّحراء) لتحرير الكُويت، وطَرْد العراق منه، وهُو ما يُسمَّى بحرب الخليج الثّانية.

وفي هذه السّنة؛ انفرط عقد الاتّحاد السُّوفياتي، وانقسم ـ كما هُو معروف ـ إلى ستَّة عشر جُمهُوريَّة، ممَّا سهَّل على الولايات المُتَّحدة استصدار القرارات المُتوالية من مجلس الأمن دُون مُعارضة الاتِّحاد السُّوفياتي (فقد كان الاتّحاد السُّوفياتي الحليفَ الأوَّل للعراق، وكان العراق يُعوِّل عليه للوُقُوف معه في المحافل الدّوليَّة، ومَنْع إصدار القرارات ضدَّه).

وهكذا؛ فقد صَدَرَتْ القرارات المُتوالية من مجلس الأمن بسُهُولة ضدَّ العراق؛ لإخراجه من الكُويت، وفَرْض الحصار عليه، وتجريده من أسلحته الهامَّة.

1991: بدأ الحصار الاقتصادي الخانق على العراق، ومَنْعه من بَيْع بتروله، وإيقاف التّعامل مع العراق استيراداً وتصديراً، وبدأ الحصار على المُواصلات البرِّيَّة والجوِّيَّة والبَحْرِيَّة. وأُرسل المُفتِّشون الدّوليُّون برئاسة "أكيوس"، ثُمَّ "بتلر"، للتّفتيش عن أسلحة العراق المُتطوِّرة، وذات الدّمار الشّامل، والتي نَجَتْ من القصف الأمريكي، وحُلفاء أمريكا، والذي دمَّر كُلَّ شيء تقريباً، وتدميرها، والقضاء على برامج العراق الذّرِّيَّة، وتدمير كُلِّ ما يتعلَّق بذلك.

وكانت فرَق التّفتيش هذه تقوم بالتَّجسُّس على العراق، ولمصلحة أمريكا و(إسرائيل) (باعتراف بعض أعضائها).

وعندما شَعَرَ العراق أنَّ فرَق التّفتيش هذه تجاوزت أهدافها، وأنَّه لم يعد في العراق ما يُدمَّر، أو يُفتَّش عليه، فقد كان العراق مُتعاوناً مع هذه الفرَق لأبعد حُدُود التّعاون، طَمَعاً برَفْع الحصار عنه بعد انتهاء فرَق التّفتيش من مهمَّتها، وعندما لم يتمّ رَفْع الحصار؛ أَمَرَ العراق بطَرْد المُفتِّشين عام **1998**.

الحقيقة أنَّ أمريكا ومعها بريطانيا و(إسرائيل) كانت قد حَزَمَتْ أمرها لإبقاء العراق تحت الحصار؛ بحُجَّة حيازته على الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وأنَّه عاد إلى تنفيذ برنامجه النّووي، وذلك لَمْنع العراق من أيِّ عمل قوميّ عَرَبي يضرُّ بمصالح (إسرائيل) ومُخطَّطاتها، أو يُهدِّد أمنها.

1995 : أخذ الشّعب العراقي يُعاني من وطأة الحصار الاقتصادي وآثاره المُؤلمة، فتحرّك الضّمير العالمي من هَوْل وبشاعة الحصار الاقتصادي على الشّعب العراقي، الذي أخذ يُعاني من ندرة الغذاء والدّواء[1]، واضطُرّت أمريكا أنْ تُوافق على السّماح للعراق ببَيْع بتروله؛ ليُنفق قسماً من ريعه على برنامج الغذاء والدّواء، تحت إشراف هيئة الأُمم المُتّحدة. وقام العراق بتنظيم برنامج دقيق ورائع يُثير الإعجاب لتوزيع الغذاء والدّواء على شعبه، ممّا رَفَعَ بعض المُعاناة والمرض عن الشّعب العراقي، ولكنْ؛ بقيت البطالة وندرة العمل مُتفشّية.

2000 : بدأت الانتفاضة الثّانية في فلسطين، أو انتفاضة الأقصى لتحرير القُدس، وإكمال ما اتُّفق عليه في اتّفاقيّة أُوسلُو من إعادة القُدس الشّرقيّة، وإعادة اللاّجئين إلى بلادهم، أو التّعويض عليهم.

وخلال هذه الانتفاضة؛ سَقَطَ باراك زعيم حزب العمل، واستلم الحُكْم في (إسرائيل) شارون بزعامة حزب اللّيكود المُتطرّف.

قام شارون بإلغاء اتّفاقيّة أُوسلُو، وحاصر حُكُومة فلسطين برئاسة ياسر عرفات، وأعاد احتلال الضّفّة الغربيّة بأكملها، ونشّط الاستيطان، وعمل على القضاء وتدمير البنية التّحتيّة التي أقامها الفلسطينيُّون. وأخذ الجيش الإسرائيليّ على عاتقه مُلاحقة قادة الانتفاضة من حماس والجهاد وكتائب الأقصى وكتائب (أبو مُصطفى) .. إلخ، واغتيالهم. واستُخدمت ضدّ الفلسطينيِّيْن مُختلف أنواع القَهْر من هَدْم البُيُوت، وقَلْع الأشجار، والقَتْل، والتّشريد، والاعتقال. ومع كُلِّ هذا استمرّت المُقاومة حتّى الآن.

2001 : حَدَثَ الزّلزال الأكبر في 11 أيلول 2001، الذي ضُرب فيه مركز التّجارة العالميّة في نيُو يُورك عاصمة المال والأعمال للولايات المُتّحدة الأمريكيّة، وضُرب البنتاغون (وزارة الدّفاع) مركز كبرياء وعظمة أمريكا، ومُحاولة ضَرْب البيت الأبيض مقرّ رئاسة أمريكا.

وفي سنة 2001؛ وَصَلَ إلى سدّة الحُكم في الولايات المُتّحدة جُورج بُوش الابن، وَجَمَعَ حوله أشدّ رجال اليمين تطرُّفاً؛ وهُم من المسيحيِّيْن الصّهاينة أمثال ديك تشيني نائب

---

(1) أدّى هذا الحصار إلى وفاة مئات الأُلُوف من الأطفال (وَصَلَ الرّقم إلى نصف مليون طفل) بسبب ندرة الغذاء (الحليب) والدّواء لهؤلاء الأطفال.

الرّئيس، ودُونالد رامسفيلد وزير الدّفاع، وكُوندُوليزا رايز رئيسة الأمن القوميّ، ومعهم بُول وولفويتز نائب وزير الدّفاع، وأمير الظّلام ريتشارد بيرل رئيس مجلس إدارة السِّياسة العسكريَّة الأمريكيَّة في البنتاغون (ومُدير جريدة جيرازاليم بُوست الإسرائيليَّة [1])، وأشدّ أعوان (إسرائيل) في الإدارة الأمريكيَّة، وإليوت أبرامز مُستشار البيت الأبيض للشّرق الأوسط، ويد (إسرائيل) القويَّة في البيت الأبيض.

هذه المجموعة من الرّجال المُمسكين بدقَّة الحُكْم والتّوجيه في حُكُومة واشنطن هُم - في الحقيقة - رجال (إسرائيل) المُخلصين والمُتعصِّبين لها، والمُتحمِّسين لتحقيق أهدافها، ممَّا جَعَلَ شارون نفسه هُو الذي يُحدِّد أهداف الحرب المُقبلة على العراق، ويُحدِّد - أيضاً - المطلوب بعد هذه الحرب[2] (حيثُ أنَّ خُطَّة غزو العراق واحتلاله كانت موضوعة قبل 11 أيلول).

بعد 11 أيلول/ سبتمبر أعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب في العالم أجمع، دُون أنْ تُعرِّف ما هُو الإرهاب، ومَنْ هُو الإرهابي، ودُون أنْ تبحث عن أسباب زلزال 11 أيلول/ سبتمبر؛ لأنَّ ذلك سيقود إلى معرفة مخازي أمريكا، وانحيازها إلى باطل اليهُود، وحماية (إسرائيل)، وضمان أمنها، والكيل بمكيالَيْن بكُلِّ ما يتعلَّق (بإسرائيل)، ممَّا أغضب العالم العَرَبيَّ والعالمَ الإسلامي.

2002: قامت أمريكا بإعلان الحرب على أفغانستان، وجرَّت العالم معها، وكُلّ مَنْ لا يقف بجانبها يُصبح إرهابيّاً، أو نصيراً للإرهاب، واتَّهمت القاعدة ورئيسها أسامة بن لادن بالتّخطيط والتّنفيذ لعمليَّة 11 أيلول، وأنَّ حُكُومة الطّالبان في أفغانستان هي التي تُؤوي وتحمي أسامة بن لادن ورجال القاعدة، بالإضافة إلى أنَّ حُكُومة الطّالبان هي حُكُومة إسلاميَّة أُصُوليَّة مُتعصِّبة يجبُ القضاء عليها.

استطاعت أمريكا الانتصار على حُكُومة الطّالبان، وعلى تنظيم القاعدة بسُهُولة، وأتت برجلها حامد قرداي ليحكم أفغانستان، ولكنَّها - حتَّى الآن - لم تُسيطر على أفغانستان سيطرة تامَّة، ولم تستطع القضاء على أسامة بن لادن، ولا على الملاَّ عُمر زعيم الطّالبان.

---

(1) استقال من رئاسة مجلس إدارة السِّياسة الأمريكيَّة العسكريَّة، ولكنَّه بقي عُضواً فيها إلى الآن.

(2) جريدة المُحرِّر، العدد 387، 14 - 20، آذار، 2003، ص 6.

2002 : في أواخر عام **2002**، عادت لجان التّفتيش إلى العراق بقرار جديد من مجلس الأمن؛ وهُو القرار **1441**، للتّفتيش عن أسلحة الدّمار الشّامل، وتدميرها، وإيقاف كُلّ نشاط نووي عاد العراق للقيام به. وكان العراق يصيح ويقول دائماً في كُلّ مُؤتمر وكُلّ اجتماع إنّه ليس لديه أيّ أسلحة ذات دمار شامل، وليس له برنامج نووي جديد، وإنّه - بالكاد - يُطعم شعبه، ومن أين يأتي بالأموال لاستئناف نشاطه النّووي، أو صُنْع أسلحة ذات دمار شامل؟!

وقد وافق العراق على تنفيذ القرار الجديد (قرار **1441**) بضغط من أصدقائه والمُشفقين عليه من العَرَب - وغير العَرَب - حتَّى لا يترك لأمريكا وبريطانيا ذريعة لمُهاجمته.

عادت لجان التّفتيش برئاسة د. جُون بليك للتّفتيش عن الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وبرئاسة د. مُحَمَّد البرادعي للتّفتيش عن النّشاط النّووي العراقي. تعاون العراق مع لجان التّفتيش الجديدة، وَسَمَحَ لها بالتّفتيش في أيّ مكان تُريده، وَصَبَرَ على مُضايقات لجان التّفتيش. ولم تستطع لجان التّفتيش اكتشاف أيّ شيء محذور على العراق، صَنَعَهُ، أو امتلكه، ولم تعثر على أيّ نوع من الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، ولا أيّ نشاط نووي.

ولكنّ أمريكا وبريطانيا - مدفوعتان من الصّهيُونيَّة العالميَّة - كانتا قد قرَّرتا احتلال العراق، ونَهْب ثرواته، مهما كان الثّمن، وكَالَتَا التُّهم الكثيرة للعراق، وحاولتا أنْ تُثبتا أنَّ العراق يمتلك الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وأنَّه يقوم بنشاط نووي، ولكنَّ العالم أجمع لم يُصدِّق ادّعاءات أمريكا وبريطانيا؛ حتَّى إنَّ بريطانيا - وبدَعْم من أمريكا - ادَّعت أنَّ العراق له اتِّصالات مع زعيم القاعدة أسامة بن لادن، وأنَّ هُناك تعاوناً بينهما. وكُلُّ ذلك لم يُصدِّقه أحد.

2003 : في صبيحة **21** نيسان؛ قامت الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة مع بريطانيا بمُهاجمة العراق، واحتلاله، والقضاء على حُكْم صدَّام حُسَيْن، وتمَّ ذلك خلال أقلّ من ثلاثة أسابيع، رغم المُعارضة الدّوليَّة وفُقدان الشّرعيَّة الدّوليَّة في هذا الهُجُوم، وذلك بالإصرار على اتِّهام العراق أنَّه خطر على أمريكا والعالم، وأنَّه يحوز على الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وأنَّ له صلات بتنظيم القاعدة الإسلاميّ (مع أنَّه حُكْم علماني)، وأنَّه يُشكِّل خَطَراً على جيرانه، وعلى (إسرائيل)، (وهذا هُو الأهمُّ).

الحقيقة أنَّ إصرار حُكَّام أمريكا على الهُجُوم على العراق كان غريباً جداً، وغير مُـبَرَّر، ولم تقم أمريكا في الماضي بأيِّ حرب خارج نطـاق الشّرعيَّة الدّوليَّـة، إلاَّ فـي هـذه الحـرب، والسَّبب الحقيقي هُو إرادة (إسرائيل) لهذه الحـرب، وتدمير العـراق، والقضـاء علـى مواقفـه القوميَّة، ليخلو لها الجوُّ في المنطقة العَرَبيَّة. لقد دَفَعَـتْ (إسـرائيل) بكُـلِّ قواهـا، وبرجالـها، والمُتعاطفين معها المُتواجدين في مراكز القرار في أمريكا إلـى اتِّخـاذ قـرار الحـرب. الحقيقـة أنَّ المُستفيد الأوَّل والوحيد ـ تقريباً ـ من هذه الحرب وتدمير العـراق هُـو (إسـرائيل)، وأنَّ أمريكـا اكتسبت استنكار العالم واشمئزازه مـن استخدامها قُوَّتـها الجبَّـارة ضدَّ دولـة صغيـرة ضعيفـة أنهكها الحصار بدُون أسباب وجيهة مقبولة.

والآن؛ وقـد احتُـلَّ العـراق، ودُمِّـر، ولـم يجـد فيـه الأمريكـان الأسلحة ذات الدّمـار الشّامل، ولا أيَّ برنامج نووي، كمـا ادَّعـى الأمريكـان مـن قبـلُ لضـرب العـراق، ولا حتَّـى وُجُـود أثـر للأسـرى الكُويتيِّيْـن، علمـاً أنَّ العـراق كـان يُنكـر امتلاكـه للأسـلحة ذات الدّمـار الشّامل، وقيامه بأيِّ نشاط نووي.

هذه هي الأحداث التي حَدَثَتْ في العالم مُنذُ 1990، إلى اليوم، ولا شَـكَّ أنَّ الأصـابع الصّهيُونيَّة اليهُوديَّة هي المُحرِّك الخفي لكُلِّ هذه الأحداث، وهي المُستفيد منها، وقد كان لهذه الأحداث آثار سلبيَّة شديدة السُّوء على القضيَّة الفلسطينيَّة، والأُمَّة العَرَبيَّة جمعاء.

ورُبَّ قائل يقول كيف تكون الأصـابع الصّهيُونيَّـة الخفيَّـة وراء حـدث 11 أيلـول 2001، رغم أنَّ هـذا الحَـدَثَ هُـو إهانـة وإذلال لأمريكـا حليفـة الصّهيُونيَّـة الأُولـى وسـندها القـوي؟ الحقيقة أنَّ اليهُود قد لا يكونون وراء هذا الحَدَث الهائل، ولكنَّـهم كـانوا يعلمـون بـه، وحتَّـى بساعة تنفيذه، وأخفوا كُلَّ ذلك عن حليفتهم أمريكا (وهذا يُؤيِّد قولنا إنَّ اليهُود بطبيعتـهم لا يُخلصون لأحد، ولا يثقون بأحد مهما خَدَمَهُم، ووَقَفَ معهم).

والدّليل على ذلك أنَّ صُحُفيَّاً فرنسيَّاً دَرَسَ الحَدَثَ، وَخَرَجَ بنتيجة أنَّ اليهُود كانوا على علم بالحادث، وحتَّى بتاريخه، وَنَشَرَ دراسته في فرنسا، وقال إنَّ لليهُود أكثر من ثلاثة آلاف مُوظَّف في مركز التّجارة العالمي، لم يحضر منهم أحد إلى مركز التّجارة العـالمي يـوم الحَـدَث

في 11 أيلول. وكذلك قال إنَّ صُور الحادث - بشكل واضح تامّ الوُضُوح - كانت عند صُحُفِيِّين يهُود، نصبوا كاميرات تصويرهم حول المركز قبل حُدُوث الحَدَث بدقَّة مُتناهية، ليبيعوا هذه الصُّور لوكالات الأنباء بأسعار باهظة، وهذا ليس ببعيد على اليهُود واستخباراتهم. ولم يكترث الأمريكان بهذا التّحقيق الصُّحُفي، ولم يجرؤ أحد في أمريكا أنْ ينشر ذلك، أو يقوم بأيٍّ تحليل، أو تحقيق حوله.

أمَّا فائدة اليهُود من هذا الحَدَث، والتَّستُّر عليه حتَّى يقع، فهُو أنَّ أمريكا - بعد الحادث - أعلنت الحرب على الإرهاب في كُلِّ أنحاء العالم، وعلى جميع دُول العالم أنْ تُساعد أمريكا، وتقف معها في مُحاربة الإرهاب، والدّولة التي لا تقف معها تُصبح راعية للإرهاب ومُحرِّضة عليه.

وقد استغلَّت (إسرائيل) قيام الولايات المُتَّحدة بما يُسمَّى حربها على الإرهاب؛ فقامت بالتّنكيل بالمُقاومين الفلسطينيِّين، وأصبحت أعمال اليهُود - الآن - في فلسطين من اغتيالات، وقَتْل، وتشريد، وهَدْم البُيُوت، بل أحياء بكاملها، واقتلاع الأشجار، واعتقال الآلاف في ظُرُوف سيِّئة جداً؛ عملاً مشروعاً من قِبَل أمريكا، وهُو عمل ضدَّ الإرهاب، ودفاع عن النّفس. وهكذا أصبحت كُلُّ المُنظَّمات التي تُقاتل اليهُود هي مُنظَّمات إرهابيَّة، يجبُ القضاء عليها؛ مثل حماس، والجهاد، وحزب الله، وكتائب الأقصى، وكتائب (أبو علي مُصطفى)، وجميع المُنظَّمات التي تقف ضدَّ اليهُود في فلسطين، وخارج فلسطين.

وكذلك أصبح المُناضلون والمُقاومون في سبيل الحُرِّيَّة وتحرير بلادهم واستقلالهم إرهابيُّون؛ وكُلُّ دولة تُؤوي المُناضلين، وتقف معهم في سبيل تحرير بلادهم هي دولة إرهابيَّة، وترعى الإرهاب، يجبُ أنْ تُقاطَع، ويُضيَّق عليها اقتصادياً.

لذلك؛ فأمريكا - حتَّى الآن - لا تقبل تعريف الإرهاب، حتَّى تبقى هي التي تُسمِّي مَنْ تشاء إرهابياً، ومَنْ تشاء مُناضلاً، حتَّى إنَّ أمريكا (كما سمعت) طالبت السُّعُوديَّة بتغيير مناهج الدّراسة والتّعليم فيها؛ لأنَّ هذه المناهج تُخرِّج إرهابيِّين؛ لأنَّها مناهج إسلاميَّة؛ أيْ أنَّ أمريكا تعمل على إبطال فريضة الجهاد في الإسلام، كما كانت تفعل ذلك بريطانيا أيَّام

كانت أكبر دولة استعماريَّة في العالم، فكان أكثر ما يقلقها في مُستعمراتها المُسلمة هُو الجهاد، مُعظم الثّورات ضدَّ الاستعمار البريطانيّ كان يقوم بها ويقودها إسلاميُّون تحقيقاً وامتثالاً لفريضة الجهاد.

وإنَّ ما تقوم به (إسرائيل) كُلَّ يوم في فلسطين (الضّفّة الغربيَّة وقطاع غزَّة) من قَتْل، واغتيال، وهَدْم للبُيُوت، بل نسف أحياء بكاملها، وقَلْع الأشجار، ونَشْر الرُّعب، والحصار، والتّجويع؛ إنْ هذا إلاَّ هُو أشدّ أنواع الإرهاب، وأقساه، ولكنَّه مُبرَّر عند أمريكا؛ بحُجَّة مُقاومة الإرهاب، وهذا ما تُريده (إسرائيل)، وما كَسبتْهُ من زلزال 11 أيلول.

ومُنذُ زلزال 11 أيلول/ سبتمبر 2003، أصبحت أمريكا دولة بُوليسيَّة؛ حيثُ زادت صلاحيَّات قوى الأمن، بالإضافة إلى أنَّ وزارة الدّفاع أصبحت المُهيمن على سياسة الدّولة الخارجيَّة والدّاخليَّة والدّفاعيَّة، وأصبح وزير الدّفاع دُونالد رامسفيلد هُو المُهيمن والمُسيِّر للسِّياسة الخارجيَّة والدّفاعيَّة في الولايات المُتَّحدة، وأصبحت وزارة الدّفاع أقوى وزارات الدّولة.

والخلاف بين وزارة الخارجيَّة ووزارة الدّفاع مشهور ومعروف في كواليس السِّياسة الأمريكيَّة. والذي حَمَلَ لواء الحرب ضدَّ العراق واحتلاله هُو وزير الدّفاع رامسفيلد، ولم يكن كُولن باول وزير الخارجيَّة راضياً عن ذلك، ولا مُؤيِّداً له، ولكنَّه اضطُرَّ للسّير مع التَّيَّار؛ لأنَّ الرّئيس جُورج بُوش أيَّد وزير الدّفاع في الدّعوة لاحتلال العراق.

وقد عاد الخلاف بين وزير الدّفاع ووزير الخارجيَّة على مَنْ يتولَّى إدارة العراق بعد احتلاله: وزارة الدّفاع أم وزارة الخارجيَّة، فقد عيَّن وزيرُ الدّفاع لإدارة العراق الجنرالَ المُتقاعد جي غارنر، ولكنِّي - اليوم الجُمعة (2/ 5/ 2003) - سمعتُ في الأخبار أنَّ وزير الخارجيَّة انتصر، وعُيِّن بُول بريمر السّفير والمُشرف على مُكافحة الإرهاب لإدارة شُؤُون العراق، ويُصبح الجنرال المُتقاعد الذي عيَّنه وزير الدّفاع (جي غارنر) تحت إمرة الذي عيَّنتْهُ وزارة الخارجيَّة (وقد عُزل - الآن - من منصبه). وبُول بريمر عُيِّن للإشراف على الإعمار، وتشكيل حُكُومة عراقيَّة مُؤقَّتة؛ وهُو مَدَني، ولكنَّه ينتمي لجناح الصُّقُور في الإدارة الأمريكيَّة، وتشرف عليه وزارة الدّفاع الأمريكيَّة.

وإنِّي لابُدَّ أنْ أُنوِّه ـ الآن ـ أنَّ الأصابع الصّهيُونيَّة التي كانت تعمل في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة وتسيِّر سياستها في الخفاء، أصبحت مُنذُ 11 أيلول/ سبتمبر تعمل بالعَلَن، وأصبح التّعاون وثيقاً جداً بين الإدارة الأمريكيَّة والإدارة الإسرائيليَّة، وأصبح الدّور اليهُوديّ الصّهيُونيّ هُو المُسيِّر الحقيقي للسِّياسة الخارجيَّة والدّفاعيَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة.

وباعتبار أنَّ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة هي القُطب الأوحد في العالم، وهي أقوى دولة سياسيّاً وعسكريّاً واقتصاديّاً، والمُهيمن الأوَّل على شُؤُون العالم، والصّهيُونيَّة هي المُهيمنة والمُسيطرة على الولايات المُتَّحدة، فهذا يعني أنَّ اليهُود قد وصلوا إلى تحقيق هيمنتهم على العالم؛ كما جاء في برُوتُوكُولاتهم من السّعي والتّخطيط للسّيطرة على العالم.

إنَّ الأيَّام المُقبلة حُبلى بالأحداث الجسام، التي لم يكن أحد يتوقَّعها. وإنِّي أتوقَّع (وأرجو أنْ أكون مُخطئاً في توقُّعاتي) أنْ يُهرول العديد من العَرَب للاعتراف والتّعاون مع (إسرائيل) بعد احتلال العراق، والقضاء على دوره القوميّ، بعد اعتراف الحُكُومة المُقبلة للعراق (بإسرائيل)، (وهذا في مُقدِّمة المطلوبات من الحُكُومة العراقيَّة المُقبلة)، كما هرول الكثير من العَرَب للاعتراف والتّعاون وإقامة العلاقات الدِّبلُوماسيَّة والتّجاريَّة والاقتصاديَّة مع (إسرائيل) عقب صُلح كمب ديفيد بين (إسرائيل) وأكبر دولة عَرَبيَّة؛ وهي جُمهُوريَّة مصر العَرَبيَّة.

وليس من الضّروري أنْ تحتلَّ (إسرائيل) مزيداً من الأراضي العَرَبيَّة، بل يكفي التّعاون الثّقافي والفكْري والاقتصادي والتّجاري مع (إسرائيل)، وهُو الأهمُّ والأنفع لها، ومن أُولى أبواب هذا التّعاون أنْ يعود أُنبُوب النّفط بين العراق وحَيْفَا للعمل، ويُصبح ميناء حَيْفَا لتصدير البترول العراقي عن طريق (إسرائيل)، بعد أنْ تأخذ (إسرائيل) حاجتها من هذا البترول لمصفاة البترول الهامَّة في حَيْفَا (توقَّف هذا الأُنبُوب عن العمل مُنذُ حرب عام 1948، مع اليهُود)، (أرجو أنْ لا يتحقَّق ذلك).

قال شارون رئيس وُزراء (إسرائيل) في إحدى تصريحاته: "إنَّ الحلَّ لمشاكل (إسرائيل) مع العَرَب هُو في بغداد، وليس في القُدس".

وأكثر ما أخافه في المُستقبل (وأرجو ألاَّ يتحقَّق) أنْ تُحلَّ مُشكلة اللاَّجئين الفلسطينيِّيْن عن طريق العراق؛ حيثُ يُوَطَّن لاجئو لُبنان والضَّفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة في العراق. وبذلك تُحَلُّ أعقدُ العقد في المشاكل بين (إسرائيل) والعَرَب لصالح (إسرائيل).

حُرُوب الخليج الثّلاث:

إنَّ الحديث - بالتّفصيل - عن الأحداث السّابقة يحتاج إلى كُتُب، ولكنِّي - فيما يلي - سأتحدَّث - باختصار - عن حُرُوب الخليج الثّلاث: الأُولى والثّانية والثّالثة، التي انتهت مُنذُ مُدَّة؛ لأنَّ هذه الحُرُوب أدَّت - في النّهاية - إلى احتلال قُطر عَرَبي؛ وهُو العراق، وإخراجه من دوره القوميّ، وأدَّت إلى التّواجد العسكري الأمريكي الكثيف في دُول الخليج العَرَبيّ، وفي الخليج العَرَبيّ نفسه.

الحقيقة أنَّ هذه الحُرُوب - وخاصَّة الأخيرة منها - أثَّرتْ تأثيراً سيِّئاً جداً على القضيَّة الفلسطينيَّة، وكانت الأصابع الصّهيُونيَّة الخفيَّة هي المُوجِّه الأساسي لها، وخاصَّة حرب الخليج الثّالثة، التي كانت لمصلحة الصّهيُونيَّة واليهُود مئة في المئة تقريباً، وهُم المُستفيدون الوحيدون منها.[1]

المعروف أنَّ العراق هُو أغنى الأقطار العَرَبيَّة بثرواته وسُكَّانه، وهُو القُطر العَرَبيّ الغني بثرواته المائيَّة (الدّجلة والفُرات)؛ لذلك سُمِّي ببلاد الرّافدين دَجلة والفُرات، والغني جداً بثروة البترول فيه (وغنيّ عن الشّرْح أهمِّيَّة البترول). وقد كَشَفَتْ الدّراسات أنّه يحوي في باطنه ثاني مخزون بترولي في العالم، (وقد يكون الأوّل)، وأنَّ آخر بترول ينضب في العالم هُو بترول العراق، وبعد أكثر من قرن.

هذا البلد العَرَبيّ العريق بتاريخه الطّويل وحضارته العظيمة، مُنذُ السُّومريّيْن، مُرُوراً بالإمبراطُوريَّة الآشوريَّة، ثُمَّ البابليَّة، ثُمَّ الخلافة العبَّاسيَّة التي كانت بغداد حاضرتها

(1) قرأتُ أنَّ (إسرائيل) ساهمت مع أمريكا في احتلال العراق؛ حيث اشترك الطّيران والطّيَّارون اليهُود في حرب العراق، ودَخَلَتْ العراق وحدات من الجيش الإسرائيلي مع الجيش الأمريكي (للاستفادة منها في حرب المُدُن)، والآن؛ تعمل أمريكا و(إسرائيل) على الاستفادة من اليهُود العراقيِّين الذين هاجروا إلى (إسرائيل) في إدارة العراق واستغلال ثرواته.

العظيمة، هذا البلد كان محطّ آمال العَرَب بقُوَّته، وإمكانيّاته العظيمة، وبعُرُوبته الأصيلة، وخاصَّة عَرَب فلسطين.

قامت في العراق ثورة 14 تمُّوز 1958، وبعد نجاحها؛ حَكَمَ العراقَ عبدُ الكريم قاسم حُكْماً فرديّاً. وفي شُباط عام 1963، أطاحت ثورة بقيادة عبد السّلام عارف بحُكْم عبد الكريم قاسم، وانفرد عبد السّلام عارف بحُكْم العراق، إلى أنْ تُوفِّي بحادث طائرة مروحيَّة في 13 نيسان 1966. تولّى حُكْم العراق بعده أخوه عبد الرّحمن عارف. وفي 17 تمُّوز 1968، قام حزب البعث العَرَبيّ الاشتراكي بثورة في العراق، تولّى الحُكْم بعدها أحمد حَسَن البَكْر. وفي عام 1979، خَلَفَهُ نائبه صدَّام حُسَيْن. هذا موجز بسيط لتطوُّر الحُكْم في العراق من ثورة 14 تمُّوز 1958، حتَّى استلام صدَّام حُسَيْن رئاسة الجُمهُوريَّة في العراق.

حَكَمَ صدَّامُ حُسَيْن العراق حُكْماً فرديّاً دكتاتُوريّاً مُفرطاً بأسلُوبه القَمْعي. وزجَّ العراقَ بحُرُوب خليجيَّة ثلاث، أدَّت - في النّهاية - إلى احتلال العراق من قِبَل أمريكا، وانتهى العراق كبلد عَرَبي قوميّ، ولا أدري متى سيعود العراق بلداً عَرَبيّاً حُرّاً مُستقلاً!

الحقيقة أنّه لا يكفي أنْ يكون البلد غنيّاً بثرواته، غنيّاً بسُكّانه؛ ليكون قويّاً مُهَاباً، بل لابُدَّ له من قيادة حكيمة، بعيدة النَّظَر، قادرة على قيادته بحنكة ودراية، تعتمد على قواعد ديمُقراطيَّة حُرَّة، تُجنّبه الكوارث، والوُقُوع في مهاوي المهالك.

الحقيقة أنَّ صدَّام حُسَيْن حَكَمَ العراق حُكْماً فرديّاً دكتاتُوريّاً قَمْعيّاً. وهُو لم يكن سياسيّاً حكيماً، ولا عسكريّاً مُحنَّكاً؛ ممَّا جَلَبَ عليه وعلى حُكْمه عداوة الدّاخل والخارج؛ حيثُ اكتسب عداوة مُعظم الدُّول المُجاورة للعراق.

الحرب الخليجيَّة الأُولى 1980:

في عام 1979، نَجَحَتْ الثّورة الإسلاميَّة الإيرانيَّة في طَرْد الشّاه مُحَمَّد رضا بهلوي من إيران، رغم جبروته، وطُغيانه، وتأييد دُول الغرب له، وخاصَّة أمريكا، و(إسرائيل)، ولكنَّ إرادة الشّعب الإيرانيّ انتصرت، وطُرد الشّاه، وقامت الجُمهُوريَّة الإيرانيَّة الإسلاميَّة، وكان من أعظم نتائج هذه الثّورة المُباركة طَرْد النُّفُوذ الأمريكي والإسرائيليّ من إيران،

وإغلاق جميع القواعد العسكريَّة الأمريكيَّة، وإغلاق السِّفارة الإسرائيليَّة، وتسليم مقرِّها لُمنظَّمة التّحرير الفلسطينيَّة لتكون مقراً لها في إيران.

والأهمُّ من كُلِّ ذلك أنَّ الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة ـ مُنذُ قيامها ـ أعلنت نفسها طرَفاً في النِّزاع العَرَبيّ الإسرائيلي، وأعلن المرحوم سماحة الإمام آيةُ الله الخُميني ـ مُرشد الثّورة الإيرانيَّة ـ أنَّ أمريكا هي الشّيطان الأكبر، وأنَّ (إسرائيل) هي العدوُّ الأكبر للإسلام والمُسلمين. وقام طُلاَّب جامعة طهران بحصار السِّفارة الأمريكيَّة، واعتبروا رجال السِّفارة الأمريكيَّة رهائن لدى الشّعب الإيرانيّ (لأنَّ مُعظم رجال السِّفارة الأمريكيَّة كانوا من رجال المُخابرات الأمريكيَّة والإسرائيليَّة).

لم تسكت أمريكا والصّهيُونيَّة على هذه النّكسة المُهينة، فأخذت تكيد لهذه الثّورة النّاشئة؛ لتُحطِّمها قبل تمكُّنها واستكمال قُوَّتها.

قامت أمريكا بإشعال خوف دُول الخليج من إيران، وصوَّرت إيران الجديدة خطَراً ماحقاً على الدُّول المُجاورة، وخاصَّة دُول الخليج الضّعيفة، وذلك بسعي إيران لتصدير ثورتها الإسلاميَّة إلى الدُّول المُجاورة.

وَجَدَتْ أمريكا أنَّ أفضل مَنْ يستطيع أنْ يُقاتل إيران، ويقضي على الثّورة الإسلاميَّة الإيرانيَّة في مهدها هُو صدَّام حُسَيْن في العراق. وأخيراً؛ نجحت أمريكا ـ حامية (إسرائيل) ـ بقيام صدَّام حُسَيْن بالهُجُوم على إيران عام **1980**. وقد صوَّر له عقله، وصوَّرت له أمريكا أنَّ إيران ـ الآن ـ ضعيفة، ولم تستكمل بعد تنظيم نفسها وآلامها الدّاخليَّة، وأنَّ تصفية تركة الشّاه أضعفت الجيش الإيرانيّ، وأنَّ الفُرصة سانحة جداً، ويجبُ استغلالها لقيام العراق بضرب إيران الثّورة، وتحرير منطقة عَرَبستان (خُوزستان) في الجنوب الغربيّ من إيران على الشّاطئ الشّرقي لشطِّ العَرَب، وهي منطقة عَرَبيَّة استولت عليها إيران بعد الحرب العالميَّة الأُولى، وتبلغ مساحتها **180** ألف كم مُربَّع، وعاصمتها الأهواز، وهي كثيرة المياه والخيرات، وفيها **90**٪ من بترول إيران (يبلغ إنتاج إيران حوالي ستَّة ملايين برميل يومياً).

وإذا استطاع صدَّام حُسَيْن احتلال عَرَبستان فإنَّه يظهر بمظهر المُحرِّر لمنطقة عَرَبيَّة، ويكسب بترولها، وموانئها البَحْريَّة، وأهمِّيَّة موقعها للعراق، ويكسب ـ أيضاً ـ الرّأي العامَّ العَرَبي.

وكان صدَّام حُسَيْن - آنذاك - على علاقات طيِّبة مع أمريكا، التي أيَّدتْهُ بإزاحة أحمد حسن البكر (بحُجَّة كبر سنِّه)، وكان نائبه، واستلم الحُكْم محلَّه خوفاً من التّقارب بين العراق برئاسة أحمد حسن البكر وبين سُوريَّة برئاسة حافظ الأسد بعد عام 1970.

وقصَّة ذلك كما وَرَدَتْ في جريدة المُحرِّر اللُّبنانيَّة العدد 394، تاريخ 2-8 أيّار، صفحة 22، «كان في مرحلة من المراحل المُشرِّفة في تاريخ الأُمَّة العَرَبيَّة أنْ حَصَلَ التّقارب العراقي السُّوري على عهد الرّئيس العراقي أحمد حسن البكر والرّئيس السُّوري حافظ الأسد. وما إنْ أحسَّت الصّهيُونيَّة العالميَّة وعُملاؤها أنَّ ذلك التّقارب العراقي السُّوري قد يُؤدِّي إلى وحدة سُوريَّة عراقيَّة قد تشمل - فيما بعد - الأُردُن ولُبنان، حتَّى أوعزت - بواسطة الدّولة الأمريكيَّة - إلى نائب الرّئيس العراقي صدَّام حُسَيْن إلى تنفيذ انقلاب على الرّئيس أحمد حسن البكر، واستلام مقاليد الحُكْم في العراق؛ مَنْعاً لتنفيذ أيِّ تقارب أو وحدة بين القُطرَيْن العَرَبيَّيْن.

وهكذا فَوَّتَ صدَّام حُسَيْن على الأُمَّة العَرَبيَّة وحدة عَرَبيَّة رائعة، قد تكون نُواة لوحدة أشمل فيها الخير العظيم للقُطرَيْن العَرَبيَّيْن لما تُحقِّقه من وزن سياسي عالمي وقُوَّة عسكريَّة واقتصاديَّة عظيمة، ومَنَعَة وحُصن للأُمَّة العَرَبيَّة؛ وخاصَّة لفلسطين.

لذلك كانت لأمريكا دالَّة على صدَّام حُسَيْن بتأييدها له باستلام الحُكْم في العراق.

زيَّنتْ أمريكا لصدَّام حُسَيْن الهُجُومَ على إيران، فنفَّذ ذلك كما قُلنا عام 1980، وذلك لقصر نَظَره، وعدم إدراكه العواقب الوخيمة التي ستجرُّها هذه الحرب عليه، وعلى العراق، لا سيَّما وأنَّ إيران الثّورة هي غير إيران الشّاه، وأنَّ مواقفها من قضايا العَرَب - وخاصَّة قضيَّة فلسطين - قد تغيَّرت تغيُّراً جَذْريّاً.

نسي صدَّام حُسَيْن أنَّه سيُحارب في إيران ثورة شعبيَّة، شكَّلت تلاحماً رائعاً بين الشّعب الإيرانيّ وحكُومته. صحيح أنَّ إيران كانت ضعيفة - آنذاك - ولكنَّها كانت قويَّة جداً بتلاحم شعبها مع حكُومته، وأنَّ الشّعب الإيرانيّ على استعداد للتّضحية بكُلِّ شيء للحفاظ على انتصاره على الشّاه ونجاح ثورته، وأنَّ الدّفاع عن ثورته الإسلاميَّة هُو أعظم جهاد وخُلُود في الجنَّة.

وسُرعان ما وَجَدَ صدَّام حُسَيْن نفسه في مأزق فعلاً، فقد تورَّط في حرب لا قبَل له بها، وأنَّه يُحارب الشّعب الإيرانيّ بكامله، برجاله ونسائه وشيبه وشبابه، حتَّى وأولاده، الكُلُّ كان مُستعدّاً للتّضحية والجهاد والفوز بالشّهادة.

وبعد أنْ استطاع الجيش العراقي احتلال الأهواز عاصمة (عَرَبستان)، وفَرَضَ الحصارَ على مدينة عبادان على شطِّ العَرَب، اضطرَّ صدام مُرغماً أنْ يأمر جيشه بالانسحاب؛ ليقف على حُدُود العراق، مُدافعاً عنها أمام الإيرانيِّيـن، ولكنَّ الجيش العراقي خسر خيرة قُوَّاته المُسلَّحة وأفضل أسلحته أثناء الانسحاب؛ حيثُ وَقَعَ في الأسر حوالي 30 ألف جُندي عراقي، ثُمَّ استمرَّت الحرب سجالاً بين الفريقَيْن حوالي 8 سنوات، كانت إيران ترفض فيها الصُّلح، رغم الوساطات الكثيرة، وذلك لينال المُعتدي جزاءه (كما كان يقول مُرشد الثّورة الإمام الخُميني).

كانت الكُويت والسُّعُوديَّة ـ خلال هذه الحرب ـ تُقدِّمان للعراق مليارات الدُّولارات، وكانت أمريكا تغضُّ الطَّرْفَ عن تسليح العراق، بل وتقوم ـ هي ـ بتذليل العقبات أمام تسليحه بأفضل الأسلحة؛ ليصمد أمام إيران. وهُنا لابُدَّ من ذكْر أنَّ وزير الدّفاع الأمريكي الحالي رامسفيلد كان يُشرف على تسليح العراق، وخاصَّة بالأسلحة الفتَّاكة والغازات السَّامَّة، وساعد العراق على امتلاك وصُنع الصّواريخ البعيدة المدى؛ ليضرب المُدُن الإيرانيَّة، ويجبُر إيران على قبول الصُّلح، وإنهاء القتال، بعد أنْ شعرت أمريكا أنَّ قُدرة العراق على احتمال المزيد من القتال أصبحت صعبة جداً.

وقد زار رامسفيلدُ العراقَ أثناء رئاسة رُونالد ريغان، وزمن جيمي كارتر، ورامسفيلد هُو الذي سعى ـ بكُلِّ قوته ونُفُوذه ـ لاحتلال العراق في حرب الخليج الثّالثة؛ وهُو المُخطِّط والمُنفِّذ لها في نيسان 2003، (بعد أنْ أصبح وزيراً للدّفاع في حُكُومة بُوش الابن).

في هذه الظُّرُوف؛ كانت (إسرائيل) تُزوِّد إيران بقطع الغيار لطائراتها ودبَّاباتها الأمريكيَّة الصُّنع، وفي بعض الأحيان؛ تُزوِّدها بالذّخائر اللاَّزمة، وكانت أمريكا تعلم بذلك!!![1]

---

(1) حتَّى إنَّ أمريكا كانت تُزوِّد إيران بالأسلحة سرّاً، كان هدف أمريكا و(إسرائيل) إطالة زمن الحرب، واستنزاف قوى العراق وإيران، العدوَّتَيْن اللّدودتَيْن (لإسرائيل).

كان هوى العَرَب شُعُوباً وحُكُومات خلال حرب الخليج الأُولى مع العراق؛ خوفاً عليه، وفي الوقت نفسه؛ كانوا يلومون إيران على تمسُّكها باستمرار الحرب. وكانت السُّعُوديَّة والكُويت تُساعدان العراق بالأموال عَلَناً كما أسلفنا، وقدَّمت مصرُ المُساعدات الهائلة من الذّخائر (وكانت أمريكا - في بعض الأحيان - تُزوِّد العراقَ بالسّلاح عن طريق مصر).

والدّولة العَرَبيَّة الوحيدة التي وَقَفَتْ ضدَّ العراق في حربه مع إيران هي الحُكُومة العَرَبيَّة السُّوريَّة، وعلى رأسها الرّئيس الرّاحل حافظ الأسد، الذي رأى بثاقب بصره وبُعْد نَظَره أنَّ الثّورة الإسلاميَّة الإيرانيَّة هي سَنَدُ العَرَب العظيم في نضالهم ضدَّ الصّهيُونيَّة و(إسرائيل) والأمريكان. لذلك شَجَبَ الرّئيس حافظ الأسد الحرب العراقيَّة الإيرانيَّة مُنذُ بدايتها، وَرَفَضَ تأييد العراق، وَوَقَفَ ضدَّه مع إيران في هذه الحرب التي لا معنى لها إلاَّ إضعاف العَرَب، وخاصَّة العراق، ومُحاربة ثورة، أعلنت - مُنذُ بدايتها - أنَّها مع العَرَب، وضدَّ (إسرائيل) والشّيطان الأكبر أمريكا، وقد أثبتت الأيَّام بُعْد نَظَر الرّئيس الأسد، وسداد رأيه.

استمرَّت الحرب ثماني سنوات، كما أسلفنا، وخلال هذه الحرب الضّرُوس كانت المُساعدات بمليارات الدُّولارات تنهال على العراق من الكُويت والسُّعُوديَّة ودُول الخليج ليصمد.

وكان العراق - قبل حرب الخليج الأُولى - يملك فائضاً يُقدَّر بـ (52 مليار دُولار)، ولكنَّ كُلَّ ما سَبَقَ صُرِفَ خلال الحرب، وَخَرَجَ العراق من الحرب، وعليه أكثر من **100** مليار دُولار من الدّيُون.

ولكنَّ العراق خَرَجَ من الحرب مع إيران وهُو أقوى دولة في الشّرق الأوسط، بل - كما قيل - رابع دولة في العالم من حيثُ القُوَّة العسكريَّة.

ولكنَّ (إسرائيل) وأمريكا لا يُمكن أنْ تدعا العراق يملك هذه القُوَّة العسكريَّة الجبَّارة، لذلك يجبُ أنْ تجدا طريقاً لتجريد العراق من هذه القُوَّة العسكريَّة الرّهيبة، وخاصَّة عندما صرَّح صدَّام حُسَيْن في إحدى خُطبه العَنْتَريَّة أنَّه يستطيع أنْ يحرق نصف (إسرائيل) بساعات.

هُنا؛ انبرت الصّهيُونيَّة تدفع بأمريكا بكُلِّ الوسائل المُتاحة للقضاء على العراق، ودوره القوميّ، وآلته العسكريَّة الجبَّارة.

رأت أمريكا في الخلاف الذي أخذ يدبُّ بين الكُويت والعراق الفُرصة الذّهبيَّة لتدمير العراق ؛ بحُجَّة اعتدائه على الكُويت . والحقيقة أنَّ أمريكا كانت وراء هذا الخلاف ، تُغذِّيه وتزيده اشتعالاً ، حتَّى وَقَعَ المحظور ، وهاجم العراقُ الكُويتَ ، واحتلَّها سنة 1990 ، وهكذا بدأت حرب الخليج الثّانية 1991 .

ولسنا ـ هُنا ـ بصدد شرح الأسباب التي أدَّت لاحتلال العراق للكُويت ؛ لأنَّ شرح ذلك يطُول ، والأقوال فيه كثيرة ، والكُتَّاب قتلوا هذه الأسباب بحثاً وتمحيصاً ، ولكنْ ؛ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العراق كان يجب عليه ، ومهما كانت الأسباب التي كان يدَّعيها ، وسواء أ كانت الأسباب حقيقيَّة أم مُختَلَقَة ، فإنَّه كان يجب عليه ألاَّ يُفكِّر ـ ولو مُجرَّد التّفكير ـ في غزو الكُويت ، ذلك البلد العَرَبي الشّقيق المُسلم .

كما كان على العراق وديكتاتوره صدَّام حُسين أنْ يتنبَّه إلى القوى التي تتربَّص به ، والتي تترقَّب فُرصة ؛ لتنقضَّ على العراق ، وتشنَّ حربها عليه ، وكان لابُدَّ لصدَّام من أنْ يُراجع نفسه ، ويحميها من السُّقُوط المُريع في هذا الفخِّ الذي نَصَبَتْهُ له ، وأنْ يقمع ـ وهُو المشهور بالقمع ـ غُرُوره وتطلُّعاته وأطماعه باحتلال الكُويت ، البلد ذي السّيادة الكاملة ، والعُضو في الهيئات الدّوليَّة والعالميَّة والعَرَبيَّة والإسلاميَّة .

وهكذا اشتدَّ الخلاف والجدال بين العراق والكُويت ، وكانت أمريكا تُوحي للعراق بأنَّ خلافه مع الكُويت هُو خلاف محلِّي لا علاقة لأمريكا به ، وأنَّها حياديَّة في هذا النّزاع .

وأخيراً ؛ وَقَعَ العراقُ في الفخِّ الذي نصبتْهُ له أمريكا و(إسرائيل) ، كان على العراق أنْ ينتبه لهذا الفخِّ ، ويُدرك أنَّ الكُويت دولة ذات سيادة مُعترف بها دوليَّاً ، وأنَّ احتلالها هُو عمل مُخالف للقوانين والمواثيق الدّوليَّة ، ويُدرك أنَّه مُستهدَف من قبَل (إسرائيل) والصّهيُونيَّة ، وأنَّ أيَّ مُخالفة قانونيَّة يرتكبها ستُستَغَلُّ لتدميره ، وخاصَّة بعد أنْ هدَّد (إسرائيل) بحَرْقها .

رأت أمريكا في الخلاف الذي أخذ يدبُّ بين الكُويت والعراق الفُرصة الذّهبيَّة لتدمير العراق؛ بحُجَّة اعتدائه على الكُويت. والحقيقة أنَّ أمريكا كانت وراء هذا الخلاف، تُغذِّيه وتزيده اشتعالاً، حتَّى وَقَعَ المحظور، وهاجم العراقُ الكُويتَ، واحتلَّها سنة 1990، وهكذا بدأت حرب الخليج الثّانية 1991.

ولسنا - هُنا - بصدد شرح الأسباب التي أدَّت لاحتلال العراق للكُويت؛ لأنَّ شرح ذلك يطُول، والأقوال فيه كثيرة، والكُتَّاب قتلوا هذه الأسباب بحثاً وتمحيصاً، ولكنْ؛ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العراق كان يجب عليه، ومهما كانت الأسباب التي كان يدَّعيها، وسواء أ كانت الأسباب حقيقيَّة أم مُختَلَقَة، فإنَّه كان يجب عليه ألاَّ يُفكِّر - ولو مُجرَّد التّفكير - في غزو الكُويت، ذلك البلد العَرَبي الشّقيق المُسلم.

كما كان على العراق وديكتاتوره صدَّام حُسين أنْ يتنبَّه إلى القوى التي تتربَّص به، والتي تترقَّب فُرصة؛ لتنقضَّ على العراق، وتشنَّ حربها عليه، وكان لابُدَّ لصدَّام من أنْ يُراجع نفسه، ويحميها من السُّقُوط المُريع في هذا الفخِّ الذي نَصَبَتْهُ له، وأنْ يقمع - وهُو المشهور بالقمع - غُرُوره وتطلُّعاته وأطماعه باحتلال الكُويت، البلد ذي السّيادة الكاملة، والعُضو في الهيئات الدّوليَّة والعالميَّة والعَرَبيَّة والإسلاميَّة.

وهكذا اشتدَّ الخلاف والجدال بين العراق والكُويت، وكانت أمريكا تُوحي للعراق بأنَّ خلافه مع الكُويت هُو خلاف محلِّي لا علاقة لأمريكا به، وأنَّها حياديَّة في هذا النّزاع.

وأخيراً؛ وَقَعَ العراقُ في الفخِّ الذي نصبتْهُ له أمريكا و(إسرائيل)، كان على العراق أنْ ينتبه لهذا الفخِّ، ويُدرك أنَّ الكُويت دولة ذات سيادة مُعترف بها دوليَّاً، وأنَّ احتلالها هُو عمل مُخالف للقوانين والمواثيق الدّوليَّة، ويُدرك أنَّه مُستهدَف من قِبَل (إسرائيل) والصّهيُونيَّة، وأنَّ أيَّ مُخالفة قانونيَّة يرتكبها ستُستَغَلُّ لتدميره، وخاصَّة بعد أنْ هدَّد (إسرائيل) بحَرْقها.

ومع كُلِّ ذلك؛ ركب العراق رأسَهُ، وأخطأ للمرَّة الثّالثة بالبقاء في الكُويت، رغم المُناشدات العَرَبيَّة والأجنبيَّة والنّصائح المُخلصة التي كانت تنهال عليه.

كان على ديكتاتور العراق أنْ يفهم ويعي ما يدور حوله، ويُجنِّب العراقَ، وشعب العراق، الكوارثَ المُقبلة عليه، ويحتفظ بجيشه، وقواه العسكريَّة؛ لاستخدامها في نصرة قضايا العَرَب، وخاصَّة قضيَّة فلسطين، ويبقى مرهوب الجانب، يُحسَب له ولقُوَّته ألف حساب، ولكنَّ جُنُون العَظَمَة أعمى صدَّام حُسَيْن عن الحقيقة، وهذه هي أخطاء الدِّيكتاتُوريَّة، التي لا تقبل النّقاش والنُّصح والاستماع لآراء الآخرين.

وفي عام 1991، بدأت حرب الخليج الثّانية لإخراج العراق من الكُويت (وسُمِّيت بعاصفة الصّحراء)، ومهَّدت أمريكا وحُلفاؤها لهذه الحرب بقصف جوِّي من البرِّ والبحر والجوِّ أكثر من 37 يوماً، وكان القصف مُتواصلاً ليلاً ونهاراً، دُمِّرت فيه جميع مرافق العراق، وبنيته التّحتيَّة، ودُمِّرَت قُوَّات العراق المُسلَّحة، وآليَّاتها، ودُمِّر طيران العراق الحربي، والباقي منه هرب إلى إيران، وكذلك طائرات الرُّكَّاب المَدَنيَّة، وقيل إنَّ ما أُطلق على العراق من صواريخ وقنابل تُساوي قُوَّتها التّدميريَّة سبع قنابل ذرِّيَّة من النّوع الذي أُلقي على هيروشيما وناغازاكي في اليابان.

ولكنَّ الأهمَّ من كُلِّ ذلك استعمال القنابل المصنوعة من الأُورانيوم المُنضَّد المُشعِّ، والذي سيبقى إشعاعه يضرُّ بالعراقيِّين، ويُؤدِّي إلى ولادة أطفال مُشوَّهين إلى الأبد.

وهكذا حُطِّم جيش العراق، ودُمِّرَت أسلحته وطيرانه (الحربي والمَدَني)، وحُطِّمَت دبَّاباته، وَخَرَجَ العراق من الحرب مُدَمَّراً مَدَنيّاً وعسكريّاً، ولكنَّ صدَّام حُسَيْن أعلن أنَّه انتصر على أمريكا في حرب (أُمِّ المعارك) كما سمَّاها هُو، وجَعَلَ الانكسار والدّمار انتصاراً.

ولم يقف الحال عند هذا، بل فُرض الحصار على العراق برّاً وبحراً وجوّاً، ومُنع من بَيْع بتروله. وزاد الأمر سُوءاً قيام الأكراد في الشّمال والشّيعة في الجنوب بالثّورة على حُكُومة بغداد، التي قامت بالقضاء على الثّورتَيْن بقسوة وشدَّة، ممَّا أدَّى إلى فرض أمريكا وبريطانيا

الحظر الجوِّي على شمال العراق وجنوبه؛ لحماية الأكراد في الشّمال، والشّيعة في الجنوب، كما ادَّعت أمريكا وبريطانيا دُون قرار من مجلس الأمن.

ولم يقف الحدُّ عند هذا، بل أُرسلت لجان التّفتيش عن أسلحة العراق ذات الدّمار الشّامل بقرار من مجلس الأمن. وهكذا قامت لجان التّفتيش بتدمير البقيَّة الباقية من أسلحة العراق ذات الأهمِّيَّة. وكانت هذه اللّجان تقوم بالتَّجسُّس على العراق لصالح أمريكا و(إسرائيل).

وهكذا تمَّ القضاء على العراق عسكريّاً واقتصاديّاً، وحُوصر شعبه الذي جاع، ولم يعد يجد قُوت يومه، ولا الدّواء لأمراضه. وتفاقمت الأزمة الغذائيَّة والدّوائيَّة، ممَّا أدَّى إلى تداعي الدُّول لتخفيف الأزمة والسّماح للعراق ببَيْع جُزء من بتروله من أجل الغذاء والدّواء، وما تحتاجه زراعته وصناعته من موادّ، وبضائع ضروريَّة، ولكنَّ الذي خُصِّص للغذاء والدّواء ثُلث العائدات، والباقي خُصِّص للأُمم المُتَّحدة، وَدَفْع التّعويضات الحربيَّة المفروضة على العراق.

ولم تسلم دُول الخليج من آثار حرب الخليج الثّانية، فقد دَفَعَتْ السُّعُوديَّة والكُويت مُعظم تكاليف الحرب ضدَّ العراق، وخرجتا من الحرب وهُما مُثقلتان بالدُّيُون الهائلة؛ ممَّا أدَّى إلى بُطء تطوُّرهما وازدهارهما.

كان على صدَّام حُسَيْن أنْ يستقيل بعد حرب الخليج الثّانية، فقد خسر حرب الخليج الأُولى والثّانية، وفشل عسكريّاً وسياسيّاً، ودمَّر العراق، وشعب العراق، وذلك ليُنقذ العراق، وليفسح المجال لغيره لإعادة إعماره، ولكنَّه لم يفعل، واستمرَّ مُتمسِّكاً في حُكْم العراق حتَّى حرب الخليج الثّالثة، التي قضت عليه، وعلى حُكْمه، وأكملت تدمير العراق تدميراً يصعب إصلاحه في القريب العاجل (كما سنرى).

وعلى كُلِّ حال؛ استمرَّ حصار العراق، واستمرَّت فرَق التّفتيش تجوب أراضيه، وتدخل في كُلِّ مكان تُريده، والعراق صابر على مُضايقات لجان التّفتيش، آملاً ـ من وراء ذلك ـ رَفْع الحصار عنه، ولكنَّ فرَق التّفتيش برئاسة أكيوس، ثُمَّ بتلر، كانت تسعى لإطالة مُدَّة الحصار، وإذلال العراق، والتَّجسُّس عليه. وأخيراً؛ عيْلَ صبر العراق، وأمر بطَرْد فرَق التّفتيش من أراضيه عام 1998.

اشتدَّت اتِّهامات أمريكا وبريطانيا ـ بتحريض من (إسرائيل) وأعوانها للعراق ـ بأنَّه يملك الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وأنَّه عاد لنشاطه النّووي. وحاولت أمريكا وبريطانيا استدراج مجلس الأمن لإصدر قرار بغزو العراق وتجريده ممَّا يملكه من الأسلحة ذات الدّمار الشّامل ومن نشاطه النّووي. وأخيراً؛ انتهى مجلس الأمن إلى القرار **1441**، الذي يُوصي بإعادة لجان التّفتيش إلى العراق، وضُغط على العراق عَرَبيّاً ودوليّاً للمُوافقة على عودة لجان التّفتيش. عادت هذه اللّجان في أواخر عام **2002**، برئاسة هانس بليك للتّفتيش عن الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، ومُحَمَّد البرادعي للتّفتيش على النّشاط النّووي العراقي.

ولكنَّ أمريكا ـ مدفوعة من اللُّوبيَّات الصّهيُونيَّة، ومعها بريطانيا ـ كانت قد قرَّرت سرّاً احتلال العراق، والخلاص من حُكْمه، والاستيلاء على ثرواته الهائلة من البترول. وكان قد حَدَثَ زلزال **11** أيلول عام **2001**، الذي استغلَّتْهُ الصّهيُونيَّة لدَفْع أمريكا لمُحاربة الإرهاب في كُلِّ مكان. واعتبرت أمريكا أنَّ كُلَّ عداء لها و(لإسرائيل) هُو من قبيل الإرهاب، وكان قد وَصَلَ إلى حُكْم الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة جُورج بُوش الابن، وَجَمَعَ حوله اليمين الأمريكي المُتطرِّف، ومُعظمهم من المسيحيِّيْن الصّهاينة، والمُؤيِّدين تأييداً مُطلقاً (لإسرائيل)، وجَعَلوا شعارهم أنَّ كُلَّ مَنْ ليس مع أمريكا فهُو عدوٌّ أمريكا، وهُو إرهابي يجبُ القضاء عليه. وفي العُرف الدّولي؛ كُلُّ إنسان بريء حتَّى تثبت إدانته، ولكنَّ شعار أمريكا أصبح: كُلُّ إنسان مُتَّهم حتَّى تثبت براءته.

ورغم تقارير المُفتِّشين بخُلُوِّ العراق من الأسلحة ذات الدّمار الشّامل، وأنَّه لا أثر لأيِّ نشاط نووي لديه. وهذا ـ بحدِّ ذاته ـ بديهي؛ لأنَّ العراق الذي يخضع لحصار اقتصادي شديد ليس لديه الأموال للصَّرْف على شراء وصُنْع أسلحة ذات دمار شامل، ولا الصَّرْف على برامج نوويَّة.

ورغم عدم قناعة دُول العالم ومجلس الأمن وهيئة الأُمم المُتَّحدة بامتلاك العراق للأسلحة ذات الدّمار الشّامل والنّشاط النّووي، ولكنَّ أمريكا وبريطانيا أصرَّتا على حيازة العراق لمثل هذه الأسلحة، وكما يقول المَثَلُ العَرَبي "عنزة ولو طارت"، (وهُو مَثَلٌ يُطلَق على مَنْ يُصرُّ على رأيه رغم أنَّ جميع الأدلَّة ضدَّه).

وأخيراً؛ أطلقت بريطانيا تُهمة جديدة للعراق بأنَّ صدَّام حُسَيْن يتعاون مع بْنْ لادن زعيم القاعدة، وأنَّه زار العراق، ونسَّق جُهُوده مع العراق وصدَّام حُسَيْن.

كانت أمريكا - ومُنذُ بداية عمل لجان التّفتيش الجديدة حسب قرار مجلس الأمن 1441 وقبل ذلك - قد أخذت - مع بريطانيا - بحشد قُوّاتها البرِّيَّة والبَحْرِيَّة والجوِّيَّة في منطقة الخليج العَرَبيّ، وأصبحت الكُويت مركز الحشد للقُوّات البرِّيَّة.

وأخيراً؛ ورغم المُعارضة الدّوليَّة ومُعارضة مجلس الأمن، وعدم ثبوت امتلاك العراق للأسلحة غير التّقليديَّة، وبدُون شرعيَّة دوليَّة، هاجمت أمريكا وحليفتها بريطانيا العراقَ. وهكذا بدأت حرب الخليج الثّالثة صباح 21 نيسان 2003، وأفلحت (إسرائيل) واللُّوبي الصّهيُوني بزجِّ أمريكا وقواها الجبَّارة للقضاء على العراق، واحتلاله، ثُمَّ نَهْب ثرواته.

الحرب الخليجيَّة الثّالثة:

لا أُريد أنْ أخوض في تفاصيل حرب الخليج الثّالثة واحتلال أمريكا وحليفتها بريطانيا للعراق؛ لأنَّنا سنخرج عن مقصدنا من هذا الكتاب، ولكنِّي سأتعرَّض لمكاسب أمريكا و(إسرائيل) وخسائر العراق والعَرَب من هذا الاحتلال.

وقبل ذلك؛ لابُدَّ أنْ أُنوِّه إلى أنَّ احتلال العراق لم يكشف عن أيِّ وُجُود للأسلحة ذات الدّمار الشّامل، ولا لأيِّ نشاط نووي. وهذا يُثبت صدْقَ العراق، وصدْقَ لجان التّفتيش، ويدين أمريكا وبريطانيا على افتراءاتهما العديدة.

وكذلك لم يكشف الاحتلال - حتّى الآن - عن وُجُود أيِّ أسرى للكُويت في العراق.

والآن؛ ما هي مكاسب أمريكا من هذا الاحتلال؟!

1: أصبح العراق مُحتلاً من أمريكا وبريطانيا، وأُخرج من أيِّ دور عَرَبي أو قوميّ يقوم به، لا، بل إنَّ الحُكُومة التي ستُقيمها أمريكا في العراق سيكون لها دور تخريبي لقضايا العَرَب، وانتقامي منهم، بحُجَّة تعاطفهم مع صدَّام حُسَيْن، والحقيقة أنَّ تعاطف العَرَب كان مع العراق وشعب العراق فقط، وليس مع صدَّام حُسَيْن.

2 : السّيطرة على ثروات العراق الهائلة من النّفط ، وعلى احتياطيه الضّخم من هذه الثّروة الثّمينة .

3 : تمركز أمريكا باحتلالها العراق في وسط الشّرق الأوسط ، أو في وسط أكبر منطقة مُنتجة للبترول في العالم ، فمن الشّمال بترول بحر قزوين ، ومن الشّرق بترول إيران ، ومن الجنوب بترول الخليج العَرَبي . وبذلك تستطيع التَّحكُّم والسّيطرة على بترول هذه المناطق ، وإنتاجه ، ونَقْله ، وتسويقه .

4 : أصبح هُناك دولة عَرَبيَّة تحتلُّها القُوّات الأمريكيَّة ، وهي العراق ، بالإضافة إلى وُجُود قواعد عسكريَّة أمريكة في كُلِّ دُول الخليج ، أهمّها قاعدة "العديد" في قطر ، والقاعدة البَحْريَّة الضّخمة لأمريكا في البحرَيْن .

وهذا يقودنا إلى استنتاجَيْن وهُما : أنَّ البترول العَرَبيّ أصبح بيد أمريكا (عدا بترول مصر والجزائر وليبيا) ، وهي تستطيع أنْ تتحكَّم بإنتاجه ونَقْله وتسويقه .

والاستنتاج الثّاني أنَّ الخليج العَرَبيّ لم يعد خليجاً عَرَبيّاً ، بل أصبح خليجاً أمريكيّاً . فالقواعد البَحْريَّة والجوِّيَّة والبرِّيَّة الأمريكيَّة أصبحت تتمركز على سواحله العَرَبيَّة ، بالإضافة إلى أنَّ الأسطُول - أو الأساطيل - الأمريكيَّة تجوب مياهه طُولاً وعرضاً ، دُون أيِّ حَرَج ، أو مانع يمنعها .

5 : جميع تكاليف حرب الخليج الثّالثة ستُدفع من عائدات البترول العراقي ، والتي ستُصبح بكاملها بيد أمريكا ، وكذلك إعمار العراق ستقوم به شركات أمريكيَّة تُدفع تكاليفه من عائدات البترول أيضاً ؛ أيْ أنَّ البترول العراقي سيُصبح المُتحكِّم به وبإنتاجه هُو أمريكا .

6 : أصبح العراق - الآن ، كما قال أحد المُحلِّلين السِّياسيِّيْن في ندوة عَقَدَتْهَا محطَّة التّلفزيون "الأُوربت" برئاسة عماد الدِّين أديب في 7/ 5/ 2003 - الولاية الواحدة والخمسين من الولايات المُتَّحدة الأمركيَّة ، فالحُكَّام هُم أمريكان ، والعلم الذي يُرفرف - الآن - هُو العلم الأمريكي ، وقال - أيضاً - مُتهكِّماً ، أو مازحاً : إنَّ على العَرَب أنْ يُعطوا مقعداً لأمريكا في

الجامعة العَرَبيَّة. أُمُور مضحكة حقّاً، ولكنَّها حقيقيَّة جداً، وكما يقول المَثَلُ العَرَبيّ "شرُّ المصائب ما يُضحك". [1]

7: أمريكا ـ الآن ـ أصبح بيدها مُعظم الإنتاج العالمي للنّفط، وهي تستطيع السّيطرة على إنتاجه، والتَّحكُّم بأسعاره، وبالتّالي؛ تُصبح المُهيمن والمُسيطر على الاقتصاد العالمي.

وإنِّي أرى أنَّ مُنظَّمة الأُويك التي تُسيطر على أسواق النّفط العالميَّة، وتسعيره، وهي تُزعج أمريكا في بعض الأحيان، رغم مُبادرة بعض دُول الأُويك المُنتجة الكبيرة للنّفط لاسترضاء أمريكا، أصبحت ـ الآن ـ مُهدَّدة بالانحلال، وستُصبح أمريكا وحدها هي المُهيمن والمُسيطر على إنتاج البترول، وتسويقه، وتسعيره. وستجعل أسعاره في هُبُوط دائم لإنعاش الاقتصاد الأمريكي، وإكمال السّيطرة على الاقتصاد العالمي. [2]

أمَّا (إسرائيل)؛ فهي الرّابح الأوَّل من هذه الحرب، ومن احتلال العراق للأسباب التّالية:

1: أتوقَّع أنَّ الحُكُومة العراقيَّة المُقبلة ـ وهي صنيعة أمريكا ـ ستعترف (بإسرائيل)، شأنها شأن مَنْ اعترف (بإسرائيل) قبلها من العَرَب، وسيتلو ذلك هرولة البقيَّة الباقية من العَرَب للاعتراف (بإسرائيل)، وإقامة العلاقات التّجاريَّة معها، وهي الأهمّ.

2: يُمكن أنْ يعود أُنبُوب البترول العراقي الذي ينتهي بميناء حَيْفَا في (إسرائيل) للعمل، وقد أوقف مُنذُ 1948، وبذلك يُصدَّر البترول العراقي عن طريق

---

(1) إنَّ احتلال العراق قد أضعف الجامعة العَرَبيَّة، والتي أصبحت مشلولة العمل مُنذُ غزو العراق للكُويت، وهكذا قُضي على أيِّ تضامن عَرَبي، أو أيِّ عمل عَرَبي مُشترك، أو أيِّ تطوُّر للجامعة العَرَبيَّة؛ لتُصبح مُنظَّمة إقليميَّة تسهر على مصالح العَرَب، وخدمة قضاياهم؛ وخاصَّة قضيَّة فلسطين.

(2) ولكنَّ الأُمُور جاءت في العراق على عكس ما توقَّعتْهُ أمريكا، فتكاليف الاحتلال والاستمرار بهذا الاحتلال وإعادة إعمار العراق، كُلُّ ذلك يُكلِّف مئات المليارات من الدُّولارات، وبترول العراق لا يفي بهذه المطالب الآن، ويحتاج إلى أكثر من عشر سنوات؛ ليستطيع أنْ يسدَّ بعض التّكاليف السّابقة، ولاسيما أنَّ أمريكا لم تلقَ التّرحاب من الشّعب العراقي (كما صُوِّر لها ذلك)، وبالعكس؛ إنَّ الشّعب العراقي يقوم ـ الآن ـ بمُقاومة شرسة لهذا الاحتلال؛ سواء أكانت مُقاومة عسكريَّة أم سياسيَّة، وأمريكا ـ الآن ـ لا تعرف كيف تخرج من هذا المأزق باحتلالها للعراق، وهي تتخبَّط في سياستها لإيجاد الحُلُول المُناسبة للخُرُوج من هذا المأزق.

(إسرائيل)، وتأخذ منه (إسرائيل) حاجتها لمصفاتها الضّخمة في حَيْفَا، ولا أحد يستطيع الاعتراض، فمصر تبيع قسماً من بترولها (لإسرائيل).

3: يخرج العراق من بين الدُّول العَرَبيَّة المُعادية (لإسرائيل)، كما خرجت مصر من قبلُ، وتلاها الكثير من الدُّول العَرَبيَّة. وعلى كُلِّ حال؛ لن يكون للعراق جيش قوي في المُستقبل المنظور.

4: قد تُحَلُّ مُشكلة اللاَّجئين الفلسطينيِّين بتوطينهم في العراق (وأرجو أنْ لا يتمَّ ذلك).

5: كانت كثير من المُساعدات الماليَّة تذهب لمُساعدة عَرَب فلسطين، وستتوقَّف - الآن - هذه المُساعدات.

6: تُحقِّق (إسرائيل) أهدافها: "من النّيل إلى الفُرات، أرضك يا إسرائيل"، وسيكون ذلك ليس احتلالاً، ولكنْ؛ سيطرة سياسيَّة واقتصاديَّة وعسكريَّة (وهذا يكفي في المرحلة الرّاهنة)، وستُصبح الأقطار العَرَبيَّة سُوقاً للمُنتجات الإسرائيليَّة.

أمَّا العراق؛ فهُو الخاسر الأكبر:

1: فَقَدَ العراقُ حُرِّيَّته واستقلاله، وأظنُّ أنَّه لن يستعيدها في المدى القريب.

2: فَقَدَ العراقُ السّيطرةُ على ثروته النّفطيَّة، وهي عُنوان قُوَّته، ولن يستعيدها في القريب العاجل.

3: الخراب والدّمار الذي أحدثه القصف المُتواصل من الجوِّ والبرِّ والبحر لمُدُنه وبنيته التَّحتيَّة.

4: أمَّا الخسائر الكُبرى التي حَدَثَتْ في العراق؛ فهي حوادث السَّلْب، والنَّهْب، والتّدمير، وحَرْق الوزارات، وسرقتها، ونَهْب وتدمير المتاحف وكُنُوزها التي لا تُقدَّر بثمن؛ (فهي تاريخ العراق)، وتدمير الجامعات، وحَرْقها، وإتلاف سجلاَّتها، ونَهْب البُنُوك حتَّى البنك المركزي.

الحقيقة أنَّه لم يسلم شيء في العراق؛ حتَّى المُستشفيات العامَّة، ومُستشفيات الأطفال والمجانين، ودُور الأيتام والعَجَزَة لم تسلم من النَّهْب والسَّلْب؛ إنَّها فوضى عارمة، وفُقدان للأمن والنّظام.

إنَّ كُلَّ ذلك حَدَثَ تحت بَصَر وسَمْع ومُساعدة قوى الاحتلال. إنَّها عمليَّة مُنظَّمة ومُخطَّط لها كما قال د. مُحَمَّد الدُّوري مندوب العراق السّابق في مُنظَّمة الأُمم المُتَّحدة. و قال - أيضاً - : إنَّ الذين قاموا بالنَّهْب والسَّلْب والسَّطْو والتّدمير والحَرْق أتوا مع قُوَّات الاحتلال من دولة عَرَبيَّة مُجاورة (لم يذكر اسمها). إنَّها - في الحقيقة - عمليَّات تخريب مقصودة، حتَّى لا تقوم للعراق قائمة.

لقد قرأتُ التّاريخَ، ودرستُ التّاريخَ، ولكنْ؛ لم يمرّ عليَّ شيء مثل الذي حَدَثَ في العراق. إنَّ مسؤوليَّة النّظام والأمن تقع على عاتق المُحتلّ، ولكنَّ قوى الاحتلال كانت في العراق تُساعد على التّخريب والنَّهْب، وتُشارك - في بعض الأحيان - بالاستيلاء على ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه من المنهوبات.

5: وحتَّى الآن، لم تقم قُوَّات الاحتلال بشكل جدِّي وسريع في إصلاح شبكات مياه الشُّرب، ولا شبكات الكهرباء، ولا الهاتف، ولا الصَّرْف الصّحِّي، حتَّى القمامة تملأ الشّوارع، وروائحها تُزكم الأُنُوف، ولا أحد يجمعها، أو يزيلها.

ولكنَّ قوى الاحتلال أسرعت باحتلال وحفْظ ما يهمُّها من العراق وهُو نفطه، لذلك أسرعت بالسّيطرة على آبار النّفط، ووزارة النّفط، ومصافي النّفط وأنابيبه، وتركت الفوضى تعمُّ البلاد.

6: إنَّ الخوف الأكبر على العراق هُو من تمزُّقه إلى دُويلات، وقوى الاحتلال تسعى جاهدة إلى تقسيم العراق، واتِّباع سياسة فرِّقْ تَسُدْ فيه، فالعراق كثير الأعراق، ففيه العَرَب والأكراد والأتراك والآشوريُّون والكلدان والسّريان والتُركمان. وهُو كثير الطّوائف، ففيه المُسلمون والمسيحيُّون، والمُسلمون ينقسمون إلى شيعة وسُنَّة ويزيديِّين، حتَّى الشّيعة مُنقسمون على أنفسهم.

الحقيقة أنَّ العراق لن يعود إلى وحدته السّابقة، ونرجو أنْ يُطبَّق فيه الحُكْم الذّاتي، ففيه تلبية لمطالب كثير من القوميَّات، أمَّا تطبيق الكُونفيدراليَّة؛ فهي تمهيد للتّجزئة في المُستقبل. حمى الله العراقَ، وأبقاه مُوحَّداً.

وعلى كُلِّ حال؛ إنَّ الوطن العَرَبيّ مُقبل على أحداث خطيرة. كُلُّ ذلك بسبب تحالف الصّهيُونيَّة وأمريكا، وجرّ أمريكا إلى تحقيق أهداف الصّهيُونيَّة في المنطقة العَرَبيَّة.

والخُلاصة أنَّ أمريكا و(إسرائيل) وجهان لعُملة واحدة، وأنَّ المُهيمن الحقيقي على سياسة أمريكا الخارجيَّة هي الصّهيُونيَّة و(إسرائيل). ويُخطئ مَنْ يعتقد من السَّاسَة العَرَب أنَّ أمريكا يُمكن أنْ تُنصف العَرَب.

المصادر والمراجع

- القُرآن الكريم.

- تفسير القُرآن العظيم، إسماعيل بن كثير.

- تفسير الجلالَيْن، جلال الدِّين حمدي أحمد المُحلَّي وجلال الدِّين عبد الرّحمن السّيوطي.

- تفسير الظّلال، الأُستاذ سيِّد قُطب.

- الكتاب المُقَدَّس "التّوراة والإنجيل"، دار الكتاب المُقَدَّس في الشّرق الأوسط، 1991.

- قَصَص الأنبياء، إسماعيل بن كثير، طبعة أُولى، دار نهر النّيل، مصر.

- قَصَص الأنبياء، أحمد بن مُحَمَّد الثّعلبي، النّاشر مكتبة الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة، مصر.

- قَصَص الأنبياء، عبد الوهاب النَّجَّار، ط ثالثة.

- العَرَب واليهُود في التّاريخ، د. أحمد سُوسة، دار العَرَبي للنّشر والتّوزيع، 1990.

- مُوجز تاريخ فلسطين، المصدر إعداد: إسماعيل الشَّمُّوط.

- العَرَب والسّاميُّون والعبرانيُّون وبنو (إسرائيل) واليهُود، د. أحمد داود، دار المُستقبل، دمشق، 1991.

- تاريخ يهُود الخَزَر، د. م دنلوب، ترجمة د. سُهيل زكّار، دار حسَّان للطّباعة والنّشر، دمشق، 1990.

- الظُّرُوف التّاريخيَّة للهجرات اليهُوديَّة من خزاريا إلى أُورُوبا وأمريكا.. هشام الدُّجاني ونصر شمالي، دار المُستقبل، دمشق، 1990.

- معالم تاريخ الشّرق القديم، د. مُحَمَّد أبو المحاسن عُصفُور، دار النّهضة العَرَبيَّة، بيروت، 1981.

- تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، دار النَّقَّاش، ط ثانية، بيروت، 1979.

- تاريخ العَرَب والإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، أربع أجزاء، دار إحياء التُّراث العَرَبي، ط 7، 1965.

- المُفسدون في الأرض، سُلَيْمَان ناجي، ط 2، دار العَرَبي للنّشر والإعلان، دمشق، 1973.

- معالم تاريخ أُورُوبا في العصر الحديث، د. ليلى الصَّبَّاغ، المطبعة الجديدة، دمشق، 1982.

- التّاريخ الحديث، أنور الرّفاعي، أنور مُصطفى، فيصل شيخ الأرض، كتاب مدرسي.

- العالم الإسلاميّ الحديث والمُعاصر، د. جمال يحيى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريَّة، 1982.

- مأساة العالم العَرَبيّ، العميد مُحَمَّد فائز القصيري، (جزران)، المطبعة التّعاونيَّة، دمشق، 1959.

- حرب فلسطين، العميد، مُحَمَّد فائز القصيري، المطبعة العَرَبيَّة بدمشق، عام 1962، الطّبعة الأُولى.

- تاريخ الأديان، د. مُحَمَّد الزّحيلي، د. يُوسُف العشّ، الطّبعة الخامسة، منشورات جامعة دمشق، 1993.

- العُدوان الإسرائيليّ القديم، ج1، مُحَمَّد عزَّة دروزة، دار الكلمة للنّشر، بيروت، 1979.

- العُدوان الإسرائيليّ الحديث، ج2، مُحَمَّد عزَّة دروزة، دار الكلمة للنّشر، بيروت، 1975.

- أُسطُورة النّظريَّة السَّاميَّة، د. توفيق سُلَيْمَان، ط1، دمشق، 1982.

- وثيقة الصّهيُونيَّة في العهد القديم، د. جُورجي كنعان، دار النّماء للنّشر، ط3، 1985.

- حقائق إسلاميَّة، نذير مرادني، ط1، دمشق، 1990.

- خفايا التّوراة، كمال صليبي، دار السّاقي، ط2، 1991.

- حقائق عن اليهُوديَّة، الأرقم الزّعبي، الدّار المُتَّحدة للطّباعة والنّشر، دمشق، 1990.

- اليهُوديّ العالمي (المُشكلة الأُولى التي تُواجه العالم)، إعداد هنري فُورد، ترجمة خيري حمَّاد، دار طلاس، دمشق، 1991.

- حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل، فوزي مُحَمَّد حميد، دار الصَّفَدي، ط1، 1994.

- اليهُود حسب التّلمود، د. أوغست روهيلم، ترجمة يُوسُف حنَّا نصر الله.

- فلسطين والخطر الصّهيُونيّ، هنري أبو ضاهر.

- حقائق عن القضيَّة الفلسطينيَّة، أحاديث الحاجّ مُحَمَّد أمين الحُسَيْني.

- دراسات في آفاق الصّراع العَرَبيّ الإسرائيليّ، إصدار قيادة الشّبيبة في سُوريَّة، منشورات مكتبة الثّقافة، سلسلة 5.

- برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، (مُجلَّد 1 ـ 2)، عجاج نُويهض، دار طلاس، ط7، دمشق.

- برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون، شوقي عبد النّاصر، دار الكتاب الحديث، بيروت، 1988.

- الإدارات الأمريكيَّة و(إسرائيل)، د. هشام الدُّجاني.

- المُجتمع العَرَبيّ والقضيَّة الفلسطينيَّة (القسم الخاصّ بالقضيَّة الفلسطينيَّة)، د. مُحَمَّد طه بدوي، دار النّهضة العَرَبيَّة، بيروت، 1973.

- استراتيجيَّة الصّهيُونيَّة و(إسرائيل) تجاه المنطقة العَرَبيَّة، إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة، دراسة بإشراف حبيب قهوجي، دمشق، 1982.

- استراتيجيَّة الاستيطان الصّهيُونيّ في فلسطين المُحتلَّة، إصدار مُؤسَّسة الأرض للدّراسات الفلسطينيَّة، دراسة بإشراف حبيب قهوجي، دمشق، 1978.

- الصّهيُونيَّة بداية ونهاية، دراسة أعدّها أبو مازن (محمود عبَّاس رئيس وُزراء فلسطين الحالي).

- اليهُود (أقوال عنهم)، جَمَعَهَا زُهدي الفاتح.

- اليهُود، حسن حدَّة.

- الجُذُور القديمة لأحداث بني إسرائيل وسُلُوكهم وأخلاقهم، مُحَمَّد عزَّة دروزة، مكتبة أطلس، دمشق، 1968.

- الصّهيُونيَّة العالميَّة وخطرها الكبير على البشريَّة، سُلَيْمَان حاتم.

- مسائل الصّراع العَرَبيّ الصّهيُونيّ، إبراهيم مُصطفى محمود، مُؤسَّسة الكرمل للدّراسات.

- حرب الخليج، مُحَمَّد حسنين هيكل، مُؤسَّسة الأهرام، القاهرة، ط1، 1992.

- السّلام المُراوغ، د. جُون ديفز، ترجمة محمود فلاَّحة، مكتبة أطلس، دمشق.

- سُقُوط فلسطين، وليد الخالدي، مُحاضرة ألقاها.

- (إسرائيل) جناية وخيانة، د. سعدي بسيسو.

- المهدي وأشراط السّاعة، الشّيخ مُحَمَّد علي الصّابوني، مكتبة الغزالي ومُؤسَّسة مناهل العرفان، دمشق، 1981.

- أضواء على الصّلات بين العُرُوبة والإسلام، رجا عُرابي، دار الخير، 1994.

- الكون والأرض والإنسان في القُرآن العظيم، رجا عُرابي، دار الخير، 1994.

- الجَغرافية الطّبيعيَّة عُمر الحكيم، (الجامعة السُّوريَّة)، دار الخير، ط1، 1994.

- علم السُّكَّان، د. عبد الكريم اليافي، (الجامعة السُّوريَّة)، دار الخير، ط1، 1994.

- اللاَّجئون والنّازحون ومُفاوضات الوَضْع الدّائم، رمزي رباح، إصدار نشرة دار التَّقدُّم العَرَبي، سنة 1996.

من سلسلة عالم المعرفة الكُويتيَّة:

- ارتقاء الإنسان، مُوفَّق شخاشيرو، عدد 39، 1981.

- الأيديُولُوجيَّة الصّهيُونيَّة، ج1، د. عبد الوهاب المسيري، عدد 60، 1982.

- الأيديُولُوجيَّة الصّهيُونيَّة، ج2، د. عبد الوهاب المسيري، عدد 61، 1983.

- مشاريع الاستيطان اليهُوديّ، أمين عبد الله محمود، عدد 74، 1984.

- القوى الدِّينيَّة في (إسرائيل) (بين تكفير الدّولة ولُعبة السِّياسة)، د. عبد الله الشّامي، عدد 186، 1994.

- اليهُود في البُلدان الإسلاميَّة، صموئيل اتنجر، ترجمة جمال أحمد الرّفاعي، 197، 1995.

من مجلَّة العَرَبيّ الكُويتيَّة:

- العدد 107، تشرين الأوّل، 1967، تعليق الدُّكتُور محمود سمرة على كتاب اليهُوديّ العالمي.

ـ العدد 111، شُباط، 1968، مقال عن برُوتُوكُولات حُكَمَاء صهيُون.

ـ العدد 143، تشرين أوَّل، 1970، (إسرائيل) ويهُود العالم.

ـ العدد 147، شُباط، 198، اليهُود في البلاد العَرَبيَّة.

ـ العدد 194، كانون ثاني، 1975، مقالان: إخراج اليهُود من إنكلترا / المُستوطنات اليهُوديَّة في الأراضي المُحتلَّة.

ـ العدد 197، نيسان، 1975، القضيَّة الفلسطينيَّة والخطر الصّهيُوني.

ـ العدد 202، تشرين الثَّاني، 1979، الازدهار اليهُوديّ في ظلِّ الإمبراطُوريَّة الإسلاميَّة.

ـ العدد 298، أيلول، 1983، مَنْ يحكم الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة؟.

ـ العدد 300، تشرين الثَّاني، 1983، مقال افتتاحي، د. مُحَمَّد الرُّميحي.

ـ العدد 326، كانون الثَّاني، 1986، مقال "المسيحيُّون الصّهاينة"، ص18.

ـ العدد 331، حُزيران، 1986، أُسطُورة النُّفُوذ الصّهيُونيّ في أمريكا.

ـ العدد 432، تشرين الثَّاني، 1994، الشّرق الأوسط الجديد كما يراه شمعون بيريز.

ـ العُصُور القديمة، جيمس برستد.

ـ الاتِّصالات السِّرِّيَّة بين العَرَب و(إسرائيل) مُحَمَّد حسنين هيكل، (نُشر في جريدة تشرين مُسلسلاً).

ـ فلسطين أرض الرّسالات السّماويَّة، رُوجيه غارودي، تر، قُصي أتاسي، ميشيل واكيم، دار طلاس، دمشق، 1991.

ـ عبد الله بن سبأ، مُرتضى العسكري.